

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجيلالي ليابس - سيدي بلعباس
- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية -
قسم العلوم الإنسانية



نزول قوات الحلفاء و أثره على منطقة شمال إفريقيا

رسالة لنيل شهادة الدكتوراه
في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف
الأستاذ الدكتور محمد مجاود

إعداد
عزالدين زايدي

السنة الجامعية
2015 - 2014

الإهداء

❖ إلى روح والدي الطاهرة رحمه الله..

❖ إلى والدتي أطل الله في عمرها..

❖ إلى زوجتي التي حملت معي أعباء كل هذا العمل..

❖ إلى ابني و ابنتي اللذين سمرا الليالي لترتيب هذا العمل..

❖ إلى إخوتي و أخواتي و كل عائلتي بسيدي بلعباس..

❖ إلى "الحاج" غرابلي و "الحاجة" أطل الله في عمرهما..

❖ إلى كل أفراد العائلة في تلمسان..

❖ إلى الأخ و الصديق الحميم "كريم"..

إليكم جميعا أهدي هذا العمل المتواضع راجيا من الله عز و جل أن

أكون

قد وفقت فيه.

شكر و امتنان

بسم الله و الصلاة و السلام على رسول الله سيدنا محمد النبي الأمين و
على أهله الطاهرين و جميع من والاه..
أما بعد،

إنني لا أجد من الكلمات التي تعبر عن شكري و امتناني للأخ الأستاذ
الدكتور المشرف "مجاود محمد"، لما منحني إياه من ثقة و وقت و بما أفاض
عليّ من تشجيع لإتمام هذا العمل الشاق و الذي وجدت فيه حلاوة الجهد المبذول
رغم كل الصعاب. كما أشكره على تفضله بقراءة أصول هذا البحث و إبدائه
العديد من الملاحظات و الاستدراكات التي جبرت كثيرا مما كان بالعمل من
نقص، مما جعلني أتدارك ما شابه من قصور.

فرغم ارتباطاته الكثيرة إلا أنه وجد الوقت الكافي لمدي بالإرشادات و
التوجيهات القيمة كلما دعت الضرورة إلى ذلك. لذا أقول له: شكرا على كل شيء
و بارك الله لك في كل شيء.. و زادك الله من فضله..

و لا يفوتني في الأخير، أن أقدم شكري الجزيل لكل من ساهم من قريب أو
بعيد في إنجاز هذا البحث، و أخص بالذكر هنا كل عمال مصلحة الأرشفة لما
وراء البحار الذين قدموا لنا كل المساعدة و وفروا لنا جو العمل داخل مركز
الأرشفة.
للجميع أقول.. بارك الله فيكم.

دليل المختصرات المستعملة باللغة الفرنسية

Annuaire Statistique de L'Algérie
 Archives de la Wilaya d'Oran
 Archives de la Wilaya d'Alger
 Centre d'information et d'étude
 Gouvernement général d'Algérie
 Journal officiel de la république Française
 Office des publications universitaires
 Presses universitaires de France
 Revue Algérienne des Sciences juridiques, économiques, pol...,Alger
 Revue de l'Afrique Française
 Revue d'histoire et de civilisation du maghreb
 Revue questions nord-africaine
 Revue d'histoire de la 2ème guerre mondiale
 Société nationale d'édition et de diffusion Alger
 Société Indigènes de Prévoyance
 Amis du manifeste et de la liberté
 Comité Français de libération nationale
 Comité d'action révolutionnaire Nord Africaine
 Parti du peuple Algérien
 Contemporaine
 Police Spéciale
 Préfecture Oran
 Préfecture Alger
 Résidence générale du Maroc
 Résidence générale de la Tunisie
 Archives Nationale de Tunisie
 Tunisie-Algérie-Maroc
 Archives Nationale d'Outre-mer
 Centre de Documentation Historique sur l'Algérie
 Service Historique de la Défense
 Secrétariat général du conseil supérieur de la défense nationale
 Conseil supérieur de la guerre
 Archives du Ministère des Affaires Etrangères
 Théâtre des Opérations de l'Afrique du Nord
 L'Afrique Française du Nord

A.S.A
 A.W.O
 A.W.A
 C.I.E
 G.G.A
 J.O.R.F
 O.P.U
 P.U.F
 R.A.S.J.E.P
 R.A.F
 R.H.C.M
 Q.N.A
 R.H.G.M
 S.N.E.D
 S.I.P
 A.M.L
 C.F.L.N
 C.A.R.N.A
 P.P.A
 Contemp...
 P.S
 P.O
 P.A
 R.G.M
 R.G.T
 A.N.T
 T.A.M
 A.N.O.M
 C.D.H.A
 S.H.D
 C.S.D.N
 C.S.G
 M.A.E
 T.O.A.F.N
 L'.A.F.N

مقدمة

إن الحديث عن الحرب العالمية الثانية يجرنا حتما إلى التمعن في مخلفات الحرب العالمية الأولى، التي لم تمس أساسا سوى الدول الأوروبية و مستعمراتها، بالرغم من الدور الحاسم الذي كان للولايات المتحدة الأمريكية في كسب القوى الأوروبية التقليدية الحرب. إلى جانب الأسباب الحقيقية لهذه الحرب، التي تحولت إلى مواجهات دامية بين الدول و الشعوب بسبب الأطماع التي أبانت عنها كل من اليابان في قارة آسيا و ألمانيا في قارة أوروبا، و أخيرا في المجال الحيوي الذي تنافست عليه كل الدول الكبرى، حيث اشتدت فيه العمليات العسكرية لدرجة أنه لم تعد هناك بقعة على وجه الأرض لم تتأثر بهذه الحرب.

كما لم يحدث أن شهد العالم مثل هذا التجنيد الهائل لشعوب البلدان المعنية بهذه الحرب، سواء تعلق الأمر بالمحاربين، أو اليد العاملة المسخرة لخدمة مختلف الصناعات الحربية، أي المجهود الحربي، أو حتى المدنيين الذين تحملوا عبء الحرب و القصف و لم يسلموا من القمع و الاضطهاد، ولا من ويلات الغزو، ولا من تعسف الإدارة الاستعمارية الفرنسية، خاصة بالنسبة لشعوب المستعمرات في شمال إفريقيا. كل هذه التوابل جعلت فعلا كلمة "الحرب الشاملة" تنطلي على هذه الحقبة المريعة من تاريخ البشرية.

لقد حاولت المواثيق الدولية التي امتدت من 1919 إلى غاية 1939 إيجاد الحلول المناسبة لمعظم القضايا التي طرحت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، غير أن ذلك لم يكن بالأمر الهين. فالاتفاقيات عادة ما كانت تتم وفق مصالح الدول الكبرى و تتجاهل الاحتياجات العميقة للشعوب المستعمرة. فظهرت هشاشة النتائج السياسية لهذه المواثيق إلى العيان بدليل أنها لم تتمكن من إيقاف الخطر الألماني في أولى الصعوبات الحقيقية التي واجهت الدول الاستعمارية مع مطلع سنة 1939.

من بين القوى الاستعمارية التقليدية التي لعبت دورا كبيرا في تسيير و توجيه أشغال مؤتمر فرساي من خلال الملف الشائك و المعقد لما عرف بـ "اتفاقية الصلح" لـ 28 جوان 1919 نجد فرنسا، التي حاولت قصارى جهدها تحطيم الألمان و إذلالهم و بالتالي الانتقام منهم. فكان لذلك الآثار الإيجابية على السياسة الاستعمارية الفرنسية في مختلف مستعمراتها و بخاصة، في منطقة شمال إفريقيا التي عرفت طائلا من القوانين تركت أثارا بالغة في المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية.

هذه التحولات التي عرفتھا المنطقة امتدت من الحرب العالمية الأولى إلى غاية تحقيقها للاستقلال التام مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، و قد برزت بشكل ملفت للانتباه مع اندلاع الصراع العالمي من جديد في النصف الأول من القرن العشرين، حيث أصبحت القواعد الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية متفاعلة مع كل ما كان يجري من أحداث عبر العالم نظرا لكونها طرفا هاما فيها، الأمر الذي جعل النصوص و الكتابات التاريخية لهذه الحقبة تصب كلها في خانة إبراز الكفاح السياسي المناهض للاستعمار، و الذي نجده

عند الجزائريين قد امتد من 1919 إلى غاية 1962، و عند المغاربة من 1919 إلى غاية الاستقلال سنة 1957، أما عند التونسيين فقد امتد من 1919 إلى تاريخ الاستقلال سنة 1956، حيث تجسدت حتمية الصراع المسلح لانتزاع الاستقلال أمام التعنت الفرنسي المستمر، و نلاحظ ذلك جليا عند الجزائريين من خلال ثورتهم المسلحة التي اندلعت في الفاتح من نوفمبر 1954.

إن المعنى العميق لهذه الكتابات و النصوص راجع بالدرجة الأولى إلى دور المؤرخين و المفكرين في تثبيت "الفكرة الوطنية" التي ارتبطت بتاريخ الحركات الوطنية في الأقطار المغاربية الثلاثة، و مشاريع الإصلاحات "المزعومة" التي بنت عليها الإدارة الاستعمارية كل إستراتيجيتها خلال هذه الفترة.

كما أصبحت المؤامرة التي حيكت ضد الشعوب المغاربية في شمال القارة الإفريقية، من قبل الإمبريالية الغربية مع مطلع القرن التاسع عشر و طيلة الأحقاب الأولى للقرن العشرين، تعكس بصدق الصورة الحية للديمقراطيات الغربية المزيفة التي حاولت استغلال القارة أبشع استغلال حتى تصل إلى تأمين الموارد الطبيعية و البشرية لفائدة مصالحها الآنية ثم بعد ذلك توسيع الاستفادة إلى كل القارة الأوروبية. بعد ذلك جاء المشروع النازي و الفاشستي الذي حمل بذور "أورو-إفريقيا" Eurafrique ليضع اللمسات "العذبة" لعملية سطو قامت بها القوى الاستعمارية، دون سابق إنذار، لتمهد الطريق لعملية قرصنة طالت ممتلكات شعوب القارة الإفريقية.

عاشت هذه الشعوب مدة من الزمن مبتورة من جذورها و جاهلة لهويتها الوطنية بفعل الأقلام الاستعمارية التي وظفت لهذه المهمة، ما جعل تاريخها يخضع لعملية تحريف و تزيف لإرغامها على تقبل فكرة "عدم القدرة الجينية أو الوراثية على تحقيق الاستقلال" و كانت تنتظر مراحل سير الحرب و النتائج التي سوف تؤول إليها حتى تحدد موقفها. إما تنتظر من دخول الولايات المتحدة الأمريكية مسرح الحرب العالمية الثانية، الموقف، حتى لا نقول السند، لوضع حد للحركة الاستعمارية التي طالت القارة. أو مجارات الأحداث في حال تفوق دول المحور و ما يمكن أن تكون عليه العلاقات بينهما حينها. و بين ذلك و ذاك، يبقى الأهم هو كيف سيكون موقف الفريقين تجاه ما يجري في شمال إفريقيا؟

من هنا جاءت فكرة اختيارنا للموضوع الذي أردناه متوصلا مع أجزاء هامة من مذكرتنا في شهادة الماجستير، ليسلط الضوء على جوانب هامة من عملية الإنزال التي تمت على أراضي شمال إفريقيا و كيف تعامل الحلفاء مع أوضاع شعوب المستعمرات الفرنسية خلال فترة وجودهم على أراضيها، فجاء معنونا كالتالي: **نزول قوات الحلفاء و أثره على منطقة شمال إفريقيا**.

فما هي الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع؟ قد تجتمع الأسباب الذاتية و الموضوعية معا في عملية اختيار أي موضوع للدراسة. و تكون دائما مرتبطة بالفضول أو الشغف الذي يجعل الباحث يتطلع إلى ما هو أفضل من الناحية العلمية الأكاديمية. إضافة إلى اعتبار أن النصف الأول من القرن العشرين

يمثل أبرز حقبة في التاريخ المعاصر كونه شاهد على حريين كونيتين غيرت الكثير من الأوضاع في الخريطة جيو-سياسية للعالم، ما دام أن أثارهما لا زالت واضحة إلى يومنا هذا. أما الوجه الآخر، فينطلق من فكرة فهم أحداث تلك الفترة و تحليلها بنظرة و قراءة جديدة قد تجعلنا نتوصل إلى معرفة الحبايا الحقيقية للمأساة التي تعرض لها السكان المسلمين في شمال إفريقيا، حتى نتمكن من تقدير التأثيرات التي تركتها الحرب العالمية الثانية على منطقة شمال إفريقيا من جميع الجوانب، السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية. كما نعتقد أن الفترة الخاضعة للدراسة لم تحظ باهتمامات الباحثين و المؤرخين بالقسط الكافي.

و نختص منهم الباحثين من بلاد المغرب العربي على وجه التحديد، و ما كتبه الأعلام المنحازة راجع لأسباب مختلفة: فهناك من كتب لإبراز قوة الولايات المتحدة الأمريكية و مواقفها العادلة لنصرة المستضعفين ؟ و منهم من كتب دفاعا عن مواقف بلاده، إذن من منطلق نزوات ذاتية، وأخيرا هناك من حاول ربط أسطورة الأمريكي القوي بمصالح القوى الاستعمارية.

غير أن لا أحد حاول إبراز الدور الحقيقي و الفعلي الذي كان للمستعمرات و الجنود المسلمين الذين جيء بهم من مستعمرات شمال إفريقيا ليدعموا فرنسا أولا، ثم صفوف القوات المتحالفة ثانيا، في معركتهم ضد الأنظمة النازية و الفاشية. لذلك كان لزاما علينا أن ننصف هؤلاء السكان و الجنود لما قدموه للإنسانية، أولا، ثم لفرنسا، ثانيا، من أجل التخلص من شبح الخطر النازي و الفاشي.

كما كانت تحذونا رغبة كبيرة في المساهمة، و لو بقسط متواضع، في تسليط الضوء على فصول هامة من تاريخ الحركة الوطنية في بلاد شمال إفريقيا و الكشف عن الأحداث التونسية و المغربية و الجزائرية التي ترأست أحداث الساعة، من تعاليق و حرب كلامية متعلقة بهذه الفترة، إضافة إلى قناعتنا بأن الجزء الهام من عملية الإنزال و ما رافقها من تداعيات على الشعوب العربية في شمال إفريقيا قد أهمل عمدا و خوفا من أن يسبب ذلك اضطرابات و ينشر الفوضى داخل المستعمرات. فتجنبنا لنشر المشكلات تم غض الطرف عن مستقبل الملايين من البشر ذنبهم الوحيد أنهم وجدوا داخل المستعمرات الفرنسية بشمال إفريقيا في أوقات غير مناسبة.

إن المناخ الدولي لفترة الحرب و ما بعدها قد أثر بشكل عميق في الوجود الاستعماري على أراضي شمال إفريقيا بحيث تراجعت مكانة فرنسا كإمبراطورية عظمى لا تقهر، إلى دولة تبحث عن ذاتها و عن وحدتها السياسية في ظل المشاكل التي تعرضت لها و المتمثلة في الأزمات الفرنسية الداخلية، ثم صراعها مع الحركات الوطنية في بلاد شمال إفريقيا، التي بدأت تستعيد حقها في مواصلة النضال و استعادة مشروعيتها حقها في الاستقلال. بالإضافة إلى أن الموضوع يشهد على أبرز فترة من التاريخ المعاصر التي شهدت حريين عالميتين لا زالت أثارهما واضحة في أنحاء شتى من العالم.

كما حاولنا، قدر المستطاع، تسليط الضوء عن محاور هامة من الموضوع، منها الأوضاع العامة في شمال إفريقيا عشية الحرب، ثم عمليات الإنزال التي تمت على سواحل شمال إفريقيا و ما رافقها من مواقف

متباينة في كل من الجزائر وهران و المغرب ، ثم عكفت على إبراز التطور المتنامي للقوة السياسية و الاقتصادية و العسكرية الأمريكية و موقفها من مسألة التحرر في البلاد المغاربية من جهة، و تحديد دورها من العلاقات الفرنسية -الفرنسية، أولاً، و العلاقات الفرنسية مع الحركات التحررية في شمال إفريقيا، ثانياً. ثم بعد ذلك من الأوضاع الحساسة الأخرى، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. إلى جانب الضعف الذي طال فرنسا الاستعمارية في مرحلة حساسة كادت تعصف بإمبراطوريتها الاستعمارية. و سأحاول قدر الإمكان أن أتحدى بالموضوعية و الروح العلمية النزينة في تناول الموضوع.

أما عن الإشكالية التي ظلت ترافقنا طوال أطوار هذا البحث فتمحورت حول:

- كيف تعاملت الحركة الوطنية في بلدان شمال إفريقيا مع المواقف المتباينة للحلفاء في ظل الأزمة الداخلية التي عايشتها فرنسا الاستعمارية في هذه المرحلة ؟
و انطلاقاً من هنا حاولنا بناء الفرضيات التالية المرافقة للإشكالية:

1- كيف و لماذا تحولت جبهة البحر المتوسط إلى جبهة إستراتيجية شذت إليها كل هذا الاهتمام من مختلف القوى المتنافسة ؟

2-تطبيق فرنسا "الفيشيستي" Vichyste لسياسة التهيب و الترغيب من خلال تطبيق عمل الوطنيين و فرض عليهم "الإقامة الجبرية" كحل استثنائي، طيلة أطوار الحرب، مما جعل الحركة الوطنية تتعطل في بلدان شمال إفريقيا بفعل هذا السلوك و تلجأ إلى حلول مختلفة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. من جانب آخر حاولت فرنسا تجريب عدة "صيغ إصلاحات" في محاولة للتخفيف من وطأة جرائمها ضد شعوب المنطقة.

3-ما هي أهم المراحل التحضيرية التي مرت بها عملية الإنزال على سواحل شمال إفريقيا ؟

4-ما هي حقيقة الاتصالات التي دارت بين زعماء الحركة الوطنية في البلاد المغربية و بين الأمريكيين، و في أي خانة يمكن تصنيفها ؟ و كيف يمكننا تقييم السياسة الأمريكية تجاه الفرنسيين، أولاً، ثم السكان المسلمين و حركتهم الوطنية في شمال إفريقيا ؟ و لماذا توقفت المبادئ الأمريكية عند عتبة الشمال الإفريقي ؟ علماً أن تحالف و.م.أ مع الدول الاستعمارية كان على حساب مبادئها أولاً، ثم على حساب شعوب شمال إفريقيا ثانياً.

كما يجب تسليط الضوء على الصراع الفرنسي الداخلي و انعكاساته على الحركة الوطنية في بلاد المغرب العربي من جهة، و تماطل الإدارة الفرنسية في تحديد موقف صريح من مسألة شعوب شمال إفريقيا، من جهة أخرى. و في الأخير موقف الجزائريين و المغاربة و التونسيين و ردود أفعالهم تجاه كل ما كان يجري في بلادهم. و هل استفادت الحركة الوطنية في بلاد شمال إفريقيا من وجود الحلفاء ؟ و كيف؟

يمثل المنهج التاريخي و الوصفي لأحداث الحرب و التحليلي لنتائجها، الذي اعتمدناه في دراستنا، طريقة موضوعية تتناسب مع طبيعة الموضوع محل الدراسة. و الذي يعتمد أساساً على عرض و فهم مختلف الأحداث التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا أثناء الحرب، قصد تحليل التطورات الحاصلة في هذه المرحلة و

مقارنة المصادر الأرشيفية المتنوعة مع بعضها البعض و في مرحلة لاحقة مقارنتها مع وقائع و قرائن أخرى كالمصادر التي عايشت هذه الفترة و المراجع التي تناولت الأحداث بعد فترة، لكي يتسنى لنا القيام بعملية نقد موضوعية لمختلف الوثائق و الكتابات التاريخية التي تناولت الموضوع. لأن تسليط النقد الشامل على الوثيقة هو أصل البحث التاريخي لتتعرف على أي جزء من هذه الوثيقة يمكننا الاعتماد عليه.

ثم بعد ذلك المرور إلى مرحلة تركيب الموضوع في قالبه المعرفي لتربط بين كل الحقائق التاريخية المتوفرة لدينا لإنجاز هذا العمل الذي نأمل أن يتصف بالموضوعية اللازمة لمثل هذه البحوث التاريخية التي كثيرا ما تثير التناقضات و تسيل الكثير من الخبر.

أما فيما يتعلق بتحديد الحقل الزمني للموضوع فأظن أن ذلك يتضح تلقائيا من خلال الموضوع نفسه الذي يتضمن فترة هامة و حساسة من تاريخ الحركة الوطنية في كل من الجزائر و المغرب و تونس، إلى غاية اندلاع الثورة المسلحة في الجزائر و تحقيق كل من تونس و المغرب استقلالهما، مع التركيز على موقف الولايات المتحدة الأمريكية في شمال إفريقيا و فرصة فرنسا في العودة إلى الواجهة كدولة استعمارية فقدت مستعمراتها إلى حين.

تجدر الإشارة إلى أن الإطار الزمني للموضوع هام جدا، كونه سيفرز على تغيرات استراتيجية عالمية، منها تغير موازين القوى دوليا و انتقال الزعامة الدولية من القارة الأوروبية إلى قوى جديدة و هي الإتحاد السوفيتي و الولايات المتحدة الأمريكية، و اشتداد الصراع الأيديولوجي بينهما، و ظهور البوادر الأولى للحركات التحررية في بلدان سوف تعرف ببلدان العالم الثالث. هذه كلها عوامل ألقت بظلالها على الأوضاع العامة في شمال إفريقيا، حيث تأثرت الحالة السياسية و البنية الاقتصادية و الاجتماعية لبلدان المنطقة بهذه التحولات التي مستها داخليا و خارجيا.

بالنسبة لخطة البحث، فتبدو منسجمة بحيث أنها احتوت على مقدمة و فصل تمهيدي ثم فصولها الأربعة المختارة و خاتمتها و ملاحقها و ببليوغرافيتها. كما رأيناها مناسبة و مطابقة للمواصفات العلمية المألوفة التي مكنتنا من الإحاطة و الإلمام بالموضوع من زوايا مختلفة، الأمر الذي ساعدنا بالخروج باستنتاجات هامة تعكس بصورة عملية الهدف المسطر من وراء انجازنا لهذه الرسالة. و سنسعى لدمج في كل فصل فرضية من الفرضيات التي بنيناها حول إشكالية الموضوع.

وضعنا فصلا تمهيديا نظرا لأهمية الموضوع حتى يمكننا من التعرف على أوضاع المغرب و تونس منذ بداية فرض الحماية عليهما و ما صاحب العملية من مخططات استعمارية هامة ساهمت في وضع أسس هذه الحماية التي تبقى وجه آخر لعملية الاستعمار، ثم مواقف المسلمين في البلدين و الدور الذي لعبه الوطنيون هناك في محاولة لحماية شعوبهما. أما عن أوضاع الجزائر، فقد عرجنا مباشرة على نهاية الحرب العالمية الأولى التي شهدت بداية ظهور النشاط الوطني فيها و انتقال الشعب الجزائري إلى أسلوب جديد من المقاومة.

هذا الفصل التمهيدي، المعنون بـ "الوطنيون المغاربة في مواجهة المشروع الاستعماري الفرنسي" فتح لنا الطريق للولوج في حقيقة الأوضاع التي كانت تمر بها منطقة شمال إفريقيا عقب نهاية الحرب الكبرى و الأسباب التي ساهمت بقسط كبير في إشعال فتيل الحرب العالمية الثانية مبرزاً المواقف المختلفة و المحطات الهامة التي جعلت منطقة البحر الأبيض المتوسط تحتل كل هذه المكانة في سير أحداث الحرب العالمية الثانية.

بخصوص الفصل الأول الذي جاء معنونا بـ: "إستراتيجية الحلفاء من وراء فتح جبهة البحر

المتوسط"، حاولنا من خلاله إبراز المكانة الإستراتيجية التي كانت تتمتع بها المنطقة منذ زمن بعيد عندما كانت تحاول كل دولة أوروبية بسط نفوذها و سيطرتها على هذا الجزء من العالم، ثم عودة الأهمية التي حظيت بها جبهة البحر الأبيض المتوسط، ضمناً، خلال مرحلة حساسة من الصراع العالمي و التي انصهرت داخل المخطط الحربي للحلفاء ضد القوات الألمانية بالدرجة الأولى ما دام أن هذه القوات هي التي كانت تشكل الجزء الأكبر و الهام من التعداد ضمن دول المحور.

إلى جانب ذلك، حاولنا إبراز التحولات الإستراتيجية التي جعلت من جبهة البحر المتوسط جبهة هامة في معادلة الحرب. لقد عكفنا أيضاً، على توضيح أهم الأسباب التي دفعت بفرنسا إلى إعلان الحرب على ألمانيا ثم الهزيمة و ما انجر عنها من انعكاسات سلبية في المتروبول و على منطقة شمال إفريقيا بالإضافة إلى السياسة القمعية التي انتهجتها حكومة "فيشي" ضد المسلمين في شمال إفريقيا بالدرجة الأولى.

في ذات السياق، مثلت الدعاية جانباً هاماً من الفصل باعتبار أن التأثيرات الأولى لهذه الحرب الدعائية داخل منطقة شمال إفريقيا ظهرت مباشرة حينما اشتد الصراع بين فرنسا و ألمانيا، و تمحور حول كيفية إقناع سكان المنطقة و جلبهم إلى أحد المعسكرين. ثم عملية التجنيد التي مست كل شرائح المجتمع المغربي، بما في ذلك مؤهلاته المادية. فكان سقوط فرنسا جزءاً من العملية إلى جانب وضعية تونس التي أفلقت كثيراً القوات المتحالفة التي كانت تدرس إمكانية فتح جبهة جديدة في البحر المتوسط.

أما الفصل الثاني فقدادنا مباشرة إلى حيثيات التحضير لعمليات الإنزال التي تمت على سواحل شمال إفريقيا و القوة العسكرية التي جهزت لمثل هذه العمليات و مواقف العسكريين و السكان المسلمين و الأوروبيين منها، و مختلف الأصداء التي رافقت هذه العملية و ما ترتب عنها من تحولات داخل بلدان شمال إفريقيا و الأساليب الدعائية التي استعملت من طرف كل الأطراف المتنازعة، حيث جاء بعنوان: "تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في شمال إفريقيا".

مع نزول قوات الحلفاء أراضي شمال إفريقيا في الثامن من نوفمبر 1942، دخلت المنطقة مرحلة جديدة تميزت بالحذر و الحيلة تجاه الحلفاء، و القلق من الغزو الجديد الذي تعرضت له فرنسا في مستعمراتها بالمنطقة. مما دفع "بقوات فرنسا الحرة" إلى استغلال الموقف في محاولة لتجنيد طاقات و موارد شمال إفريقيا من جديد و ذلك خدمة للمجهود الحربي و تدعيماً لجيوش الجنرال "ديغول".

للأمانة العلمية، لقد استعملت جزءا من رسالتي في الماجستير، خاصة الجزء المتعلق بعملية الإنزال على السواحل الغربية للجزائر، و ذلك لما وجدت فيها من تطابق و كم هائل للمصادر الأرشيفية التي لم أجد بدا من العودة إليها. فاختصرت الطريق تفاديا لعملية تكرار قد أقع فيها و أكون بذلك ملزما على الرد على أسئلة السادة الأساتذة المناقشين.

كما رجعنا في هذا الفصل إلى مصدر هام عثرنا عليه في "معهد البحوث و الدراسات المتوسطة و الإسلامية" IREMAM بمدينة "أكس أون بروفانس" الفرنسية، و المتمثل في تقرير أنجزه الوزير الفرنسي "شارل ريبيل" Charles Reibell حول الجذور الحقيقية لعملية الإنزال، La vérité sur les origine du débarquement allié en Afrique du Nord ما دام أنه كان طرفا فعلا فيها، و شاهد عيان من الدرجة الأولى، حسب ما جاء في تقريره. نشير هنا إلى أننا اعتمدنا بدرجة كبيرة على مذكرات "تشرشل" التي تعتبر المصدر الرئيسي للحدث كون ما كتبت من هذه المذكرات جاء بعد نهاية الحرب بفترة وجيزة سنوات 1949 - 1950 و قد اعتمدها غالبية الباحثين الذين كتبوا عن هذه المرحلة فيما بعد.

بداية من الفصل الثالث، حاولنا عرض النتائج الأولية لعمليات الإنزال التي تمت في ظروف صعبة للغاية و تلتها التحضيرات الشاقة لمعركة الحسم التي شهدت في مرحلتها الأولى التوجه نحو الأراضي التونسية فيما اصطلح عليه "بالحملة على تونس". حيث تواصلت عملية تجنيد و حشد الجنود من مسلمي شمال إفريقيا في الجزء المتعلق بالتجنيد العسكري، من جهة، و الرغبة الملحة للحلفاء و فرنسا معا، في استقطاب الدعم السياسي للحركة الوطنية في شمال إفريقيا، إيمانا منها بأنه السبيل الوحيد الذي سوف يمكن الحلفاء من حسم الحرب لصالحهم. مع ما رافق ذلك من وعود قدمت لزعماء الحركة الوطنية للنظر في مطالبهم الاستقلالية بشكل عام.

و يعتبر هذا الفصل من أكثر الفصول أهمية بالنسبة للحركة الوطنية في شمال إفريقيا، لما احتوى عليه من نقاط حساسة جمعت بين السياسة الأمريكية و موقفها من الصراع الفرنسي الداخلي ، و تحديد موقفها من الحركة المطلوبة للمسلمين في شمال إفريقيا، و وضع معالم واضحة لسياسة أمريكية طويلة المدى في المنطقة. كما أن أحداث هذا الفصل هي التي ستحدد المسار العام للحركة الوطنية في بلدان شمال إفريقيا و ستشهد بلورة الأفكار الوطنية التحررية الداعية إلى التخلص من الاستعمار و القضاء على حقبة سوداء من تاريخ شعوب المنطقة.

تجدر الإشارة هنا إلى أننا قدمنا عمل في هذا الفصل، نظن بكل تواضع أننا السباقون إليه من خلال ملف من الوثائق الأرشيفية عثرنا عليه في "الأرشيف الوطني لما وراء البحار" و الذي أطلعنا على نشاط الحركة الصهيونية العالمية في الجزائر و عن المساعي الإنجليزية، خاصة، و الأمريكية في دعم مشروع يهودي في الجزائر من خلال النشاط المكثف لكل فروع المخابرات الإنجليزية في الجزائر إلى غاية فترة متقدمة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

كما ميز هذا الفصل، الانفتاح الكبير للحركة الوطنية في بلدان شمال إفريقيا، نحو الحلفاء الأمر الذي ساعد الزعماء الوطنيين في لإصدار عدة مطالب جسدتها "فكرة البيان" عند الجزائريين و المغاربة، و التي اعتبرت من المبادرات الكبيرة في طريق تحقيق الاستقلال. غير أنها اصطدمت بالمواقف السلبية للسلطات الاستعمارية الرافضة لأي مبادرة أو تغيير خارج نطاق الإمبراطورية الفرنسية. فكانت بداية القطيعة المرتقبة في المشهد الفرنسي مع الحركة الوطنية في البلدان المغاربية.

لقد حاولنا من خلال الفصل الرابع و الأخير من موضوع دراستنا، أن نواصل في إفرازات عملية الإنزال على الصعيدين الاقتصادي، بالدرجة الأولى، و الاجتماعي حتى نتمكن من رصد الصورة المكتملة لهذه المرحلة الحساسة من التاريخ العالمي و تاريخ الحركة الوطنية في بلدان شمال إفريقيا، و الأوضاع العامة التي كان عليها السكان المسلمين من جراء هذه الحرب، و التي مست البنية الاقتصادية و الاجتماعية لبلدانهم باعتبار أنها كانت المصدر الأساسي الذي غذى الاقتصاد الفرنسي طيلة هذه الفترة.

لقد حاولنا إبراز المشاريع الفاشلة التي حاولت فرنسا التصديق بها على سكان المنطقة، و بأن الظروف الاقتصادية الصعبة جزء من التداعيات السلبية لهذه الحرب. لأنها ساهمت في تدهور معيشة المسلمين بفعل سياسات الاغتصاب المتواصلة على الأرض و الممتلكات. أما عن التحولات الاجتماعية، فكانت واضحة في الريف و المدينة و مست الجوانب الديمغرافية و التعليمية و الصحية للسكان.

فيما يتعلق بمصادر و مراجع هذه الدراسة، فقد اعتمدنا في مرحلة أولية على ما توفر لدينا من أرشيف في الجزائر، فكانت البداية من مركز الأرشيف الوطني Archives Nationales، بالجزائر العاصمة، الذي لم يوفر لنا عماله و لا إدارته الوسائل الكفيلة التي تسمح لنا بالعمل كباحثين، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي نتمكن من خلالها الحصول على إذن الإطلاع على الأرشيف المطلوب، و كأننا نضطلع على وثائق سرية للغاية. الأمر نفسه ينطلي على أرشيف ولاية الجزائر، الذي أصبحت إدارته توجه الباحثين إلى إدارة الأرشيف الوطني مما يجعلهم عرضة لنفس الإجراءات المعمول بها بداخله.

هذا الواقع المؤسف، جعلنا نخرج على أرشيف ولاية وهران A.W.O، الذي منحنا عماله كل التسهيلات مكنتنا من الإطلاع على السلسلتين التالية: Séries I- Affaires Musulmanes 1837-1961 التي تضمنت على مجموعة هامة من العلب احتوت على قيمة أرشيفية هامة، من تقارير شهرية و نصف شهرية كانت تصدر عن مركز الاستعلامات و الدراسات CIE، و التي تحولت مع بداية سنة 1947 إلى مصلحة العلاقات لشمال إفريقيا SLNA.

و تكمن أهمية هذه التقارير في كونها تناولت مختلف النشاطات السياسية لأحزاب الحركة الوطنية حيث تخصصت في مراقبة و متابعة النشاط من الزعماء الوطنيين في حياتهم اليومية. كما جمعنا كما هائلا من التقارير اليومية و الشهرية الصادرة عن مختلف مصالح الإدارة الاستعمارية، من تقارير شرطة، و إدارة شؤون المسلمين، و لكن العديد منها لم يستعمل في بحثنا هذا.

إلى جانب تقارير للشرطة و علب أخرى، تحدثت عن السياسة الأهلية التي انتهجتها فرنسا ضد السكان المسلمين و عن الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية و عن الحركة الشبابية و النقابية التي ميزت النشاط الوطني في كل من تونس و الجزائر، و بدرجة أقل في المغرب. أما السلسلة: Sous Série 1 F: Sûreté Générale 1832-1957 فقد استفدنا من علبتين هامتين أطلعتنا على واقع التحولات الاجتماعية للسكان المسلمين.

حتى و لو في الأخير لم يسمح لنا بتصوير وثائق أرشيفية مر عليها حين من الدهر، و لم تعد بالسرية التي تجعل مسؤولي الأرشيف يمنعون على الباحثين الجزائريين من تصوير و لو الوثائق الهامة التي تدخل ضمن اهتمامات ملاحق موضوع الدراسة، فإنهم مشكورون على المساعدة المقدمة لنا.

أما المرحلة الثانية فقد اعتمدنا فيها على الوثائق الأرشيفية التي اطلعنا عليها خارج الجزائر في الأرشيف الوطني لما وراء البحار A.N.O.M بمدينة أكس أون بروفونس، Aix-en-Provence و المتعلقة بتاريخ الجزائر و فيها بحثنا في مجموعة من المحتويات Fonds خاصة منها محتويات الحكومة العامة و محتويات وهران و الجزائر و قسنطينة و المحتويات الوزارية و انتقينا من كل واحدة مجموعة من العلب التي أرشدتنا بدورها إلى مجموعة سلاسل Série جمعنا منها كما هائلا من الأرشيف شكل المادة الخام التي اعتمدنا عليها في دراستنا و التي تم توزيع جزء كبير منها في جميع فصول بحثنا.

إلى جانب ذلك، هناك المصالح التاريخية لوزارة الدفاع الفرنسي، SHD، التي كانت تعرف سابقا بالمصالح التاريخية للجيش البري SHAT الكائنة بقصر فانسان Vincennes بباريس و التي قمنا فيها بانتقاء بعض الأرشيف القيم المتعلق بالجزائر، على وجه التحديد، خاصة السلسلة 1H. المتعلقة بالجزائر. و هنا نفتح قوس لنشير إلى أننا عثرنا على أطروحات جامعية هامة، كلها لها علاقة بالموضوع، غير أننا قمنا بانتقاء المصادر الأرشيفية منها، بغرض وضعها في الببليوغرافيا لغرض جمع أكبر كم من الأرشيف لتوظيفها في مشاريع بحث مستقبلية. و حتى و إن لم أنسبها لصاحبها أو أصحابها في بعض الحالات في الهوامش، فذلك إلا سهوا مني. و قد تظهر بوضوح ما دام أنني حددت مسبقا دور الأرشيف و المراكز التي قمت بزيارتها خلال الست سنوات من البحث.

ثم قمنا بزيارة مركز التوثيق لتاريخ الجزائر C.D.H.A، و هو مؤسسة تابعة للأقدام السود و الموجود هو الآخر بمدينة أكس، و التي كشفت لنا عن معلومات تاريخية هامة، منها على وجه الخصوص التقارير التي تتضمنها "خزانة شون" Fonds Schön إلى جانب تقارير أخرى متوفرة في المركز و هي صادرة عن الحكومة العامة و غطت العملات الثلاث خلال فترة الحرب العالمية الثانية.

و الحقيقة تقال هنا، و موجهة للباحثين الجزائريين الشباب الذين هم مقبلون على إنجاز مذكرات ماستر أو ماجستير أو دكتوراه نظام قديم أو دكتوراه نظام ل.م.د، أن يتوجهوا إلى أرشيف ما وراء البحار، لأن ما يمكن إنجازه في "تربص قصير المدى" لا تعوضه خمس سنوات من البحث في الجزائر.

كما قمنا بزيارة إلى تونس، التي وجدنا فيها كل التسهيلات المتاحة للباحث و البحث، أين زرنا كل من مراكز البحث التالية: المعهد العالي للحركة الوطنية لمنوبة، أين اطلعنا على وثائق أرشيفية مصورة على شكل "ميكروفيلم" Microfilm و هي تابعة للمصالح التاريخية للجيش البري الفرنسي SHAT و التي أفادتنا بعض الشيء في عملنا. ثم الأرشيف الوطني التونسي الذي مكنتنا من الإطلاع على كم معتبر من الوثائق الأرشيفية و كذا مجموعة من الجرائد المرتبطة بالموضوع. أما في كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بمنوبة، فقد قمنا بالإطلاع على بعض المذكرات و الرسائل و الأطروحات، سوف نتطرق إليها لاحقا.

أما المرحلة الثالثة، فكانت مخصصة للإطلاع على مجموعة هامة من الرسائل الجامعية و المتمثلة في مذكرات الدراسات المعمقة و رسائل و مذكرات الماجستير و أطروحات و رسائل للدكتوراه المتوفرة في كل من فرنسا و تونس، و أخرى في الجزائر، و كلها تناولت الموضوع بإسهاب حيث ساعدتنا في الولوج إلى بيبليوغرافية غزيرة ساهمت بقسط كبير في إنجاز هذه الدراسة.

هذه الرسائل و الأطروحات ساعدتنا في ترسيم خطة البيبليوغرافيا، خاصة في الرسائل التي استخدمناها كثيرا، و التي إن لم نطلع عليها كلها إلا أننا ارتأينا من الواجب أن نشير إليها في الهوامش و نضعها في قائمة البيبليوغرافية مع ذكر صاحبها لأنها تمثل ثمار جهده. و الفضل يعود له لأنه ساعدنا كثيرا على ترجمة البعض منها و استغلاله في مذكرتنا. و الحقيقة أن استعمالنا لهذا الأرشيف و ذكره في الهوامش بغرض تسهيل البحث. و الهدف منه فتح آفاق أمام الباحثين حتى يتعرفوا على وجود كم هائل من الأرشيف و في مختلف المؤسسات الأجنبية، سواء كانت فرنسية أم دولية، لياشروا أبحاثهم المستقبلية.

أما الرسائل الوطنية، فحتى و إن لم نأخذ الشيء الكثير منها، فقد اكتفينا بالإطلاع على بيبليوغرافيتها التي ساعدتنا كثيرا في بحثنا. و نرى هنا أنه من الواجب العلمي أن نذكر على وجه التحديد الأعمال التالية:

في الجزائر:

- الجزائريون و الإدارة المحلية الاستعمارية.. أطروحة دكتوراه، للأستاذ الدكتور: ولد النبيه كريم.
- الحياة السياسية بمنطقة سيدي بلعباس.. رسالة دكتوراه، للدكتور: ابن حويدقة علي.
- الحركة الديغولية في الجزائر 1940-1945.. رسالة دكتوراه، للدكتور: لزهر بديدة.

في تونس:

- المجندون المغاربة أثناء الحرب العالمية الأولى، رسالة ماجستير تونس، للأستاذ: الأجنف مانع.
- محتشدا قفصة و القطار 1943-1946، ماجستير، تونس للأستاذ: الرحوي محمد الطاهر.
- سياسة الحلفاء و المحور الدعائية تجاه البلاد التونسية..، جامعة منوبة، الأسعد الغرياني.
- Le mouvement patriotique de libération en Tunisie et le panislamisme 1906-1920, thèse de doctorat, Tunis., Abdel moula. M

في فرنسا:

- L'Afrique du Nord secours ou recours, thèse d'état en histoire..., **Levisse Touzé Christine**.
- Evolution de l'économie marocaine pendant la seconde guerre, thèse de doctorat nouveau régime..
par **Echaoui Mohamed**.

كما أفادتنا كثيرا مذكرات الجنرال "ديغول في أجزاءها الثلاثة، الصادرة سنة 1954 و مذكرات "ونستن تشرشل" حول الحرب العالمية الثانية، و التي تبدوا لنا كأهم مصدر باعتبار أنها صدرت مباشرة بعد نهاية الحرب و قد اعتمدها عدد كبير من الباحثين و العسكريين و السياسيين في أعمالهم و حتى الباحثين في التاريخ على غرار "فيس توزي كريستين" في أطروحتها للدكتوراه. و قد استعملنا الجزء الثاني، الصادر سنة 1949 و الذي اطلعنا عليه في الأرشيف الوطني التونسي بالإضافة إلى المجلدات العشرة لمذكراته الموجودة في مركز الدراسات الاقتصادية و الاجتماعي بوهرا. CDES، كما شكلت مذكرات "علال الفاسي" في شكل مصدره: "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، إلى جانب مذكرات "حسين أيت أحمد": "مسيرة مكافح"، و التي تعتبر من المصادر القيمة التي اعتمدنا عليها في عملنا هذا، من الدراسات الحية التي كان أصحابها أطرافا فعالة فيها.

فيما يتعلق بالصحف و المجلات و الجرائد، فقد تنوعت مصادرها بالقدر الذي مكنا من التعرف على يوميات المسلمين في شمال إفريقيا، إلى جانب التطورات الحاصلة في الحركة الوطنية جراء المستجدات التي طرأت على الأوضاع فيها بسبب الحرب العالمية الثانية. نذكر منها: مجلة "العالمين" و مجلة "مسائل شمال إفريقيا" و المجلات التاريخية المتخصصة في فترة الحربين العالميتين خاصة منها مجلات : تاريخ الحرب العالمية الثانية بمختلف عناوينها. إلى جانب جرائد "صدى وهران" و "صدى الجزائر" و "وهران الجمهوري" و "برقية قسنطينة"، بالإضافة إلى مجموعة من الصحف التونسية.

أما المؤلفات و المصادر الأولية من الكتب و المراجع التي تطرقت للموضوع و التي تعود في معظمها إلى نهاية الأربعينيات و بداية الخمسينات من القرن العشرين، فقد شكلت مرجعية هامة للشروع في بلورت خطة البحث لوضع الأسس القاعدية لهذا العمل. و قد اعتمدنا على نوعين من المراجع- مصادر، نذكر منها التي كتبت في سياق سنوات الحرب و التي لم تتعدى مطلع الستينات من القرن العشرين و نخص منها: كتب "روبير أرون" و المعنونة بـ: "بتاريخ فيشي 1940-1944"، و "جذور الثورة الجزائرية"، إلى جانب كتاب "بول إميل سارا سان" "الأزمة الجزائرية"، و كتاب "جان جاك راجي: "المسلمون الجزائريون في فرنسا و البلدان الإسلامية"، و كتاب "جان كلود فاتان" "الجزائر الفرنسية 1830-1962"، و كتاب "جون بونسي": "الاستعمار و الزراعة الأوروبية في تونس منذ 1881"، و كتب فرحات عباس، منها: "ليل الاستعمار" و "الشباب الجزائري" متبوع بالتقرير الموجه إلى المارشال "بيتان"، ثم كتاب "بيان الشعب الجزائري و أحباب البيان و الحرية" لصاحبه يوسف بغول، ثم كتاب "روحي لي تورنو" بعنوان: التطور السياسي لإفريقيا الشمالية المسلمة من 1920 إلى 1962، و كتاب "بيار فونتان" بعنوان: ملفات سرية لإفريقيا الشمالية...

بالنسبة للدراسات الجديدة، فقد اعتمدنا على مجموعة من المؤلفات، منها كتاب: "جاك فاليت" بعنوان: فرنسا و إفريقيا 1914-1962 وكذا مؤلف: "العلاقات الدولية" في جزأين، للباحث السياسي "جون باتيست دوروسال" و كتاب "شمال إفريقيا في الحرب 1939-1945" للمؤرخة "لفيس توزي كريستين، و الذي يعتبر تكملة لأطروحتها في الدكتوراه التي توقف حقلها الزمني عند سنة 1943، فأرادت استكمال ما تبقى إلى غاية نهاية الحرب حتى يكون عملها مكتملا.

كما اعتمدنا على مراجع أخرى ذات أهمية بالنسبة لموضوع الدراسة، منها كتاب: "تاريخ فرنسا الاستعمارية"، لمجموعة من المؤرخين الفرنسيين و من بينهم: "أجرون" و "ميني"، و كتاب: "شارل ديغول" في جزأين لصاحبه "بول ماري دي لاكورس"، إلى جانب كتاب المؤرخة الفرنسية "أني قولديغر" "جذور الثورة الجزائرية من المرسى الكبير إلى مذبح الشمال القسنطيني..". إلى جانب مؤلف جديد صدر في الآونة الأخيرة عن المؤرخ الفرنسي "ماكس قالو" و الذي يتطرق لأحداث الحرب العالمية الثانية في خمسة (5) أجزاء. إلى جانب كتاب جديد لصاحبه: "سالياناس ألفريد" و معنون بـ "الأمريكيون في الجزائر 1942-1945"، و هو كتاب قيم جدا نظرا للأرشيف المتنوع الذي احتواه الكتاب.

كما حاولنا إنصاف أطراف أخرى همشت أو غيبت من ساحة إنجازات الحرب العالمية الثانية، و منها الإتحاد السوفييتي (سابقا)، حيث عثرنا على مرجعين هامين يسردان أفكار المعسكر الشرقي لهذه الحرب. و نذكر هنا كتاب: "ج. دبورين" بعنوان: الحرب العالمية الثانية "صادر عن دور النشر للغة الأجنبية بموسكو. إلى جانب مرجع آخر لا يقل أهمية و هو لصاحبه "ليون تروتسكي" بعنوان: "حول الحرب العالمية الثانية".

لقد اعتمدنا على كتب باللغة الإنكليزية تم ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، منها كتاب الحرب العالمية الثانية لصاحبه "جون كمبل"، و كتاب: "فيشي الفرنسية 1940-1944" لصاحبه "روبير باكستون". و هناك كتب باللغة الإنكليزية خاصة تلك المتعلقة بتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، أين قمنا بترجمة بعض نصوصها نذكر على وجه الخصوص كتاب: **Pocket History of United States, Ninth revised édition** لأصحابه: ألان نيفينس و هنري ستيل كوجر و جيفري موريس، الصادر سنة 1992 و كتاب: الإمبراطورية الأمريكية لصاحبه: كلود جوليان، الصادر سنة 1968 و هي الكتب التي رصدنا إلى الإطلاع على بعض الحقائق عن قوة الولايات المتحدة الأمريكية المتنامية.

أما عن كيفية نقد هذه المصادر و المراجع، فقد وجدنا في بعض المصادر الأرشيفية تناقضات كبيرة متعلقة خاصة بالأرقام التي كانت تتضمنها النشريات اليومية لمصالح الجيش الفرنسي مع ما تضمنته الكتابات العديدة التي صدرت في أعقاب نهاية الحرب. إلى جانب الذاتية التي طغت على العديد من الكتابات، حيث انطلق أصحابها من أفكار و قناعات جعلتهم يبتعدون نوعا ما على العمل الموضوعي. ما دفعنا إلى الفحص و التمحيص بأكثر دقة فيها قبل الاعتماد عليها.

بالرغم من كل هذه الملاحظات المسجلة على المصادر و المراجع، إلا أن الحقيقة تدفعنا إلى القول بأنها كانت جد مفيدة لنا في بحثنا و أن قيمتها العلمية لم تتراجع إطلاقا. و قد عدنا إليها في الكثير من فقرات عملنا حتى نتمكن من إثراء الموضوع.

هناك نقطة أخرى متعلقة بقائمة فهارس الأعلام و الأماكن و التي أخذت منا وقتا طويلا ولم نكن ندرك حجمه إلا بعدما وقفنا على حقيقة هذا العمل. لذا كان علينا الفصل في قضيتها و خلصنا إلى موقف حذف النسبة الكبيرة من الأعلام و الأمان التي تتكرر في كل صفحة تقريبا، و الاعتماد أو الرجوع إليها في صفحات متفرقة من بحثنا هذا، حتى لا تكون القائمة عبارة حشو للكلمات.

لا يمكننا حصر الصعوبات التي واجهتنا خلال إنجازنا لهذا العمل في اتجاه واحد، لأن ذلك شيء مألوف عند عامة الباحثين، و لكن الإشكالية وجدت في طبيعة الوثائق الأرشيفية و محتواها "اللغوي" الذي غالبا ما كان يقزم الجزائريين، خاصة، و سكان شمال إفريقيا، عامة، إلى فئة متخلفة. و حتى كلمة "الأهالي"، التي هي من المصطلحات الاستعمارية قد لا تليق بنا كثيرا باعتبارها دخيلة على مجتمعنا و تمس كرامتنا.

إلا أن الصعوبة الأساسية كانت تكمن في انعدام شبه كلي لأي مصادر أو مراجع باللغة العربية، عدا تلك التي أشرنا إليها و اعتمدناها في عملنا، مما حتم علينا بذل مجهود إضافي في عملية ترجمة هذا الكم الهائل من الوثائق و الكتب إلى اللغة العربية.

غير أن هناك مصدر متمثل في كتاب علال الفاسي و المعنون بـ "الحركة الاستقلالية في المغرب العربي" الذي وجدت فيه من المعلومات ما أنقص عليا جزءا من المتاعب. إلى جانب المرجع الآخر: "المغرب العربي في التاريخ الحديث و المعاصر الجزائر-تونس و المغرب الأقصى" لصاحبه صلاح العقاد الذي هو الآخر ساعدني في عملي خاصة فيما تعلق بكل من المغرب الأقصى و تونس. كما استفدت من الدراسة التي قدمها رياض الصمد في شكل مؤلفه: العلاقات الدولية في القرن العشرين، باعتبار أنها غطت الفترة محل الدراسة، خاصة أنه بذل هو الآخر جهدا كبيرا في عملية ترجمة المصادر و المراجع التي تحصل عليها خاصة المكتوبة باللغة الإنجليزية.

لا بد من الاعتراف هنا بأن فترات هامة من موضوع الدراسة تتطلب الرجوع إلى الأرشيف الأمريكي، و الألماني و البريطاني و حتى الروسي، الذي لم يكن بمقدورنا الإطلاع عليه، لأنه هام جدا في عملية النقد و التحليل، خاصة بمقارنته مع ما جاء في الأرشيف الفرنسي على وجه التحديد. الأمر الذي يبقى الموضوع مفتوحا أمام الباحثين و الدارسين لتقصي حقائق جديدة و طرح نظرة مغايرة لتلك التي رصدتها لنا الأعلام الفرنسية.

لقد حاولنا قدر الاستطاعة التحلي بالموضوعية في عملنا هذا و الانحياز وراء الأحداث التاريخية التي كانت منطقة شمال إفريقيا مسرحا لها، و ربطها بأهم المحطات العالمية التي كانت شاهدة على تغيير موازين

القوى العالمية و بأن هذه المنطقة عانت كثيرا من ويلات الاستعمار و ظروف الحرب. كما أن سكان المنطقة ساهموا بشكل فعال في كل مراحل هذه الحرب التي لم تعينهم يوما في شيء إلا الخروج من دوامة القهر و الاضطهاد الذي وضعها فيه الاستعمار الفرنسي.

طموحنا تجلى في رغبة تحقيق ما لم يحققه الآخرون، من خلال إبرازنا للدور الذي كان للحرب العالمية الثانية في التأثير على حياة المسلمين في شمال إفريقيا في المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية. و لم نقصد سوى إضافة لبنة إلى الصرح الكبير المتمثل في تاريخ منطقة بأكملها جز بها في أحوال الصراعات الأوروبية لكونها جزء من إمبراطورية استعمارية لم تحسن يوما التصرف معها.

و عليه، لا نعتبر هذا العمل كاملا و شاملا، لأن الطريق نحو تحقيق جزء من المعرفة في ميدان البحث العلمي التاريخي الأكاديمي يتطلب منا دوما بذل المزيد من الجهود لتحقيق الغاية العلمية، لأن الكمال لله وحده، و غايتنا كبيرة في التوفيق في هذا العمل.

و مهما يكن من أمر، فإننا نعتقد بأن الجهود المبذولة من أجل إنجاز هذا العمل قد تعتبر لبنة تضاف إلى الصرح الكبير للدراسات التاريخية الخاصة بمنطقة شمال إفريقيا، بالرغم من أننا ندرك جيدا أن العمل لا زال غير كاف و لم يستوفي كل الشروط. و هو بحاجة للإثراء و المراجعة كلما ظهرت هناك معطيات جديدة أو فتحت أرشيف جديدة للإطلاع، الأمر الذي سيكون دافعا و محفزا لمواصلة الباحثين التنقيب على الجديد في تاريخ الحركة الوطنية لبلاد شمال إفريقيا خلال الفترة العvisية للحرب العالمية الثانية. ذلك من شأنه أن يساهم في التأسيس لمدرسة وطنية عبر كل أقطار بلاد شمال إفريقيا.

التضامن العربي المغاربي

أما عن دور مكتب المغرب العربي الذي أنشأ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد كانت للحركة الوطنية المغاربية القدرة الفاعلة للتوفيق بين النضال الداخلي و الخارجي و التصدي لسياسة المماطلة التي كانت تبناها الإدارة الاستعمارية، مما جعلها تكتشف بأن فرنسا لن تلي لها أي مطلب مشروع. فسارعت إلى التكثيف من نشاطها السياسي بغية فضح فرنسا أمام الرأي العام الخارجي و الداخلي في محاولة لاسترجاع حقوق شعوبها المهضومة. فبدأ العمل الوجدوي المغاربي يأخذ منحى تضامني داخل الأقطار المغاربية و خارجها، خاصة في باريس و جنيف و في الأستانة و القاهرة.¹

تميزت سنة 1945 بمحطات هامة في تاريخ الشعوب المغاربية. فبقدر أهميتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، كانت كذلك بالنسبة للمسار العام للحركة الوجدوية المغاربية من القاهرة. حيث وصلها "الحبيب بورقيبة" من تونس و "الشاذلي المكي" من الجزائر، ثم لحق بهم مع مطلع سنة 1946 مجموعة من الشباب التونسي و وفد من شمال المغرب. فالتحم الشمل و بدأ التفكير في مشاريع تقرب الرؤى بين الزعماء الوطنيين في كل من تونس و الجزائر و المغرب من أجل توحيد المكاتب في الخارج و إظهار التضامن المغربي بالمظهر اللائق به خدمة للقضية التحررية. فكان ذلك بادرة لعقد مؤتمر المغرب العربي.²

و يعتبر البعض من المؤرخين أن ظروف تكوين هذا المكتب بالقاهرة جاء كامتداد تاريخي و سياسي للمكتب الذي تأسس من قبل في برلين الألمانية و الذي كان له فرعا في باريس. و الفضل الأول يعود إلى المناضلين الوطنيين التونسيين منذ سنة 1942 بحكم تواجدهم في أوروبا. و نذكر هنا كل من: "يوسف الرويسي" و "الحبيب ثامر" و "الرشيد إدريس" و "حسين التركي" الذين تم دعمهم من طرف "الحاج أمين الحسيني" مفتي فلسطين الذي خصص للوطنيين المغاربة منذ البداية مقرا بالمعهد الإسلامي الذي كان يديره بمدينة برلين.³

حدد زعماء الحركة الوطنية المغاربية أهداف مكتب المغرب العربي منذ البداية في سياق فكرة "الاستقلال و الوحدة داخل الإطار العام للأمة العربية"، و عملوا على إصدار جريدة تكون لسان حال الشعوب المغاربية من القاهرة، و فكروا في إنشاء "محطة إذاعية" مغاربية موحدة و مستقلة تساهم في توعية

¹ - المتزكي (نوال)، الأحزاب الوطنية المغاربية و مكتب المغرب بالقاهرة، جيش التحرير المغاربي، فعاليات ملتقى مؤسسة أحمد بوضياف، 11 و 12 ماي 2001، الجزائر، ص 147.

² - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 375.

³ - بلقاسمي (بوعلام)، مكتب المغرب العربي خلال الحرب العالمية الثانية من برلين إلى القاهرة 1942-1947، مجلة عصور، العدد الثاني، مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، 1423 هـ 2002، ص 34.

الشعوب، فتحقق لهم ذلك بداية من شهر أوت 1943 عندما بدأت أولى البرامج "لمحطة إفريقيا" تبث نحو شمال إفريقيا انطلاقاً من الأراضي الإيطالية.⁴

انعقدت أشغال المؤتمر المغاربي ما بين 15 إلى 22 فبراير 1947 حيث تطرق خلالها المؤتمرون لمختلف المسائل التي تهم الشعوب المغاربية و اتخذوا في شأنها قرارات هامة.

و يرى علال الفاسي، أنه لإعطاء المؤتمر صبغته الشرعية، كان على المؤتمرين أن يكونوا ممثلين لحركة سياسية قائمة في شمال إفريقيا حتى يحقق المؤتمر صبغته الإجماعية وتضفي على قراراته الشرعية المرجوة التي تحضها بتأييد كل التيارات و الأحزاب القائمة. فكانت تونس ممثلة بمكتب "حزب الدستور" الموجودة في القاهرة، أما المغرب فقد مثلها مكتب "رابطة الدفاع عن مراكش" إلى جانب "الوفد المراكشي" المتواجد لدى مكتب الجامعة، و مثل الجزائر أعضاء عن حزب الشعب الجزائري الذي كان يحضها بدعم قوي من الأشقاء في المغرب و تونس.⁵

تمحورت قرارات المؤتمر حول نقاط هامة من بينها تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة، كخطوة أولى، ثم الكفاح من أجل استقلال تونس و الجزائر و المغرب، و ذلك بواسطة عملية توحيد الحركات الوطنية المغاربية في جبهة واحدة مراعاة لمصالحها المشتركة. و في الأخير المطالبة بجلاء الجيوش الفرنسية و الإسبانية من أراضيها. و كللت هذه الأشغال باتفاق ممثلي أحزاب الاستقلال و الشعب و الدستور بفتح دار لتوحيد مكاتبهم في القاهرة طبقاً لتوصيات المؤتمر و أطلقوا عليها اسم "مكتب المغرب العربي".⁶

تواصل العمل المشترك المغاربي بظهور "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية" التي تشير الكتابات التاريخية على أنها تأسست على يد الشيخ "محمد لخضر حسين"، شيخ الأزهر، رفقة مجموعة من الجزائريين خلال الحرب العالمية الثانية. أما الشيخ "فضيل الورثاني"،⁷ الذي كان أمينها العام، فيحدد تأسيسها بأكثر دقة و يشير إلى تاريخ 18 فبراير 1944 و يضيف الأمير "مختار الجزائري"⁸ إلى مؤسسها "محمد لخضر حسين".⁹

لم تخرج أهداف هذه الجبهة عن أهداف التنظيمات التي سبقتها، حيث ركزت هي الأخرى على تحقيق الحرية و الاستقلال لشعوب شمال إفريقيا و ربطها بمصير الأمة العربية، مستعملة في ذلك الوسائل السلمية كإصدار البيانات و إلقاء المحاضرات و الندوات في مقرات الجمعيات المصرية، و تحرير المقالات

⁴- Ageron (Charles Robert), « Contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la 2^{ème} guerre mondiale », in R.H.M, n° 7-8 du mois de janvier 1977, pp 28-29.

⁵- الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية، مصدر سابق، ص 375.

⁶- المصدر نفسه، ص 379.

⁷- هو الفضيل حسنين بن محمد السعيد بن فضيل، المعروف "الورثاني"، نسبة إلى منطقة "بني ورثان" الواقعة بأعالي جبال "البيان". ولد بقرية أنو يوم 6 جانفي 1900. و يمتد نسبه إلى العلامة الرحالة الكبير "الحسين الورثاني" صاحب: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار". توفي سنة..

⁸- هو ابن الأمير عبد العزيز بن الأمير حسن الجزائري، شقيق الأمير عبد القادر الجزائري.

⁹- الورثاني (فضيل)، الجزائر النائرة، بيروت، 1963، ص 286.

الصحفية التي كانت تنشر في معظمها في الجرائد المصرية، "كجريد الإخوان" و مجلة النذير و دعوة الحق و الهداية الإسلامية و مصر الفتاة.¹⁰

كما تحولت هذه الجبهة إلى قلعة ثورية يحمي فيها مناضلو المغرب العربي القادمين إليها من بلدانهم هربوا من الممارسات التعسفية الممارسة ضدهم من طرف الإدارة الاستعمارية. فاستقطبت كل من؛ الأمير عبد الكريم الخطابي و التونسيون؛ الحبيب بورقيبة و محي الدين القليبي ، ثم جماعة المكتب المتواجدين في أوروبا و منهم؛ الحبيب ثامر و الطيب سليم و الرشيد إدريس و حسين تركي، و من بلاد الشام شخصية يوسف الرويسي.¹¹

1- نوفمبر 1954 أو حتمية المواجهة المسلحة لإنهاء 125 سنة من الاضطهاد

- المغرب في طريقه نحو الاستقلال مارس 1956

أصبح من المستحيل على الوطنيين المراكشيين مواصلة نشاطهم داخل البلاد. و لذلك قرر "علال الفاسي" الفرار من طنجة إلى القاهرة، حيث قام بدور كبير في لجنة تحرير المغرب. و تصادف أن لحق به بعد وصوله بقليل، الأمير "عبد الكريم الخطابي" ليتولى رئاسة هذه اللجنة. و قيل بهذه المناسبة: أن فرنسا أطلقت أمير الريف على أمل أن تضعه تحت الإقامة الجبرية في فرنسا، و تتخذ منه أداة لتهديد السلطان الذي انضم لصفوف الوطنيين. و لكنه فوت عليهم هذا الغرض حين قرر اللجوء إلى مصر.

لم تمنع سياسة العنف الجنرال "جوان" من أن يقدم بدوره مشروع إصلاح للإدارة المراكشية، لأن التقاليد تقضي بأن يكون لكل مقيم عام جديد مشروعه الخاص. و كان مشروع جوان يهدف في الظاهر إلى زيادة عدد الوزراء المراكشيين. و كانت الوزارات التابعة للمخزن لا تتجاوز ثلاثاً: و تختص بشؤون القصر و الأوقاف علاوة على الصدر الأعظم. فأراد جوان أن يؤسس خمس وزارات وطنية تتولى المالية و الصحة و الأشغال العامة و القضاء. و لكن على أساس وجود وزارات أخرى يتولاها فرنسيون. و النتيجة الحتمية للتشكيل الجديد، هي خروج المخزن عن تبعية السلطان و وضعه تحت إشراف الإقامة العامة.

كان المشروع الثاني يتعلق بتأسيس المجالس البلدية و القروية، على أساس مناصفة المقاعد بين المستوطنين و الوطنيين. و كذلك إعادة تشكيا مجلس الشورى الحكومي و كان يتألف من ثلاثة أقسام: قسمين فرنسيين يمثل أحدهما الهيئات الزراعية و الصناعية، و يمثل الآخر عامة المستوطنين. و قسم ثالث مراكشي بالتعيين. و حسب تعديل جوان يتألف مجلس الشورى من قسمين: فرنسي منتخب بالاقتراع العام، و مراكشي منتخب على درجتين.

¹⁰ - الورتلاني (فضيل)، المصدر نفسه...، ص ص 380-395.

¹¹ - بلقاسمي (بوعلام)...، مرجع سابق...، ص 38.

أما الإصلاح الثالث فيتعلق باللامركزية الإدارية. و هو يهدف في الحقيقة إلى تحطيم ما بقي للسلطان من نفوذ على الباشاوات و القواد. و اعتبره الوطنيون محاولة لتفكيك وحدة البلاد. و كان المقيم العام مستعدا فوق هذا، للنظر في تغيير معاهدة الحماية. و لكن بشرط أن تقبل مراكش مقدما انضمامها إلى الاتحاد الفرنسي.

كانت إصلاحات جوان ترمي إلى مبدأ السيادة المزدوجة، و هو المبدأ الذي لم يسبق و أن صرح به الفرنسيون بالنسبة لمراكش، بعكس ما فعلوا في تونس. و لم يخف جوان حقيقة هذه الفكرة في خطاب ألقاه في أكاديمية العلوم في نوفمبر 1949. و كرد فعل لهذه السياسة ظهرت في مشروعات السلطان التي قدمت فيما بعد للحكومة الفرنسية فكرة التمسك بالسيادة الشريفة الكاملة. (ص 374)

أظهر محمد الخامس تأييده للحركة الوطنية منذ تأسيس "حزب الاستقلال" سنة 1944. و لكن هذا التأييد لم يصل إلى حد الاصطدام مع الإقامة العامة. و كانت خطة حزب الاستقلال هي عدم توريث الملك في المصادمات، و ترك الباب مفتوحا للتفاهم بينه و بين فرنسا، إذا أرادت أن تغير يوما ما من سياستها.¹² و يعتبر خطاب "طنجة" في أبريل 1947، أول موقف إيجابي يتخذه السلطان من الحركة الوطنية. و هو لذلك يعد بداية الصراع الذي استمر بين الإقامة العامة و القصر و انتهى بعزل السلطان سنة 1953. و قد دفعت السياسة الفرنسية السلطان دفعا إلى اتخاذ هذا الموقف. فمنذ سنة 1946 و هو يسعى لزيارة طنجة. و عارضت فرنسا في بداية الأمر، و لكنها عادت فقبلت. و من وراء هذا القبول فكرة إغاطة إسبانيا. و الظاهر أن القبول كان موضع خلاف، فظلت دوائر الإقامة معارضة له. و من ثم يعزى إليها تدبير مذبة "الدار البيضاء"، التي كانت الحلقة الأولى في سلسلة المذابح التي شهدتها المدينة العمالية. و سواء أكان الحادث مدبرا أم تصادف وقوعه ليلو سفر السلطان في 8 أبريل، كما يدعي الفرنسيون، فإنه لم يشن السلطان عن إنفاذ رحلته.

و كان محمد الخامس قد اتفق مقدما على برنامج الرحلة مع المقيم العام. غير أن الحوادث التي حدثت، جعلته يقوم بالرحلة في حالة نفسية مختلفة. فبدل أن يشيد بدور فرنسا في نشر الحضارة بمراكش، ضمن خطابه الفقرة التالية: " لا شك أن مراكش و هي بلد يربطه بالبلاد العربية الأخرى في الشرق الأوسط أوثق الوشائج، ترغب رغبة أكيدة في تعزيز هذه الروابط، و خاصة بعد أن أصبحت الجامعة العربية عاملا هاما في الشؤون العالمية.."¹³

و تأكيد صفة مراكش العربية ليس بظاهرة جديدة في تفكير السلطان، الذي اتفق في هذا الأمر مع حزب الاستقلال. إنما مغزى هذه الإشارة هو معارضة فكرة الفرنسيين من أنهم "ناشرو الحضارة" في مراكش، بإظهار حضارة وطنية عريقة متمثلة في التراث العربي. و الدليل على ذلك هو أن "جوان" الذي أرسل إلى

¹² - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 390.

¹³ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 390.

مراكش كرد فعل على هذا الخطاب، اهتم بمناقشة وجهة مراكش الحضارية، فادعى أنها بحكم موقعها الجغرافي ألصق بغرب أوروبا منها بالشرق العربي. و حرص على قطع جميع العلاقات بينها و بين بقية العالم العربي، و من شأن سياسة جوان عموما أن تزيد من سوء التفاهم بين القصر و الإقامة على نحو ما رأينا.

و عندما عاد السلطان من رحلته في باريس سنة 1950، و عرف المقيم العام أنه قدم مذكرة تتضمن خطة تغيير الحماية، حاك جوان المؤامرة الأولى التي أوشكت على خلع السلطان سنة 1951. و اعتمد - كما سيفعل بعد عامين- على "تهامي الجلاوي" صاحب النفوذ في الجنوب. و كان الجلاوي قد صحب السلطان في رحلته إلى باريس ثم تخلف في العاصمة الفرنسية، و لا شك أنه دبر هناك خطة المؤامرة. فبمجرد عودته قابل السلطان و عنفه على تأييده للحركة الوطنية قائلا: "أنت لست سلطان مراكش إنما أنت سلطان حزب الاستقلال..¹⁴"

عاد الجلاوي إلى مقره في الجنوب و أخذ يجمع القبائل الموالية له، و بدأ في الزحف نحو الرباط. فلا بد إذن من أن تؤدي الحماية واجبها بالدفاع عن القصر !! فتسرع القوات الفرنسية في الإحاطة به. إلا أنه كان مفهوما أن الهدف من هذا الحصار ليس هو في الحقيقة حماية القصر من ثورة داخلية، بل إجبار السلطان على الخضوع لأوامر المقيم العام. و يروي أحد الكتاب الأمريكيين المتصلين بالملك "محمد الخامس" الحوار الذي دار بين السلطان و جوان على النحو الآتي:¹⁵

بدأ جوان بطلب إصدار بيان يستنكر فيه السلطان أعمال حزب الاستقلال و يصف رجاله بمخالفة الدين. فأجاب السلطان: بأنه لا يمكن أن يعلن استنكاره لأي حزب، لأنه بصفته ملكا فهو فوق جميع الأحزاب. و أضاف: "إذا كان حزب الاستقلال قد ارتكب جرما فالحكمة تحاسبه على ما اقترف..¹⁶" و لكن الجنرال "جوان" ألقى ذلك الاقتراح جانبا و وجه للسلطان هذا الإنذار: "أن رد عظمتكم غير مقبول، و أمامكم إما أن تدينوا حزب الاستقلال، أو تتنازلوا على العرش، و إلا فسأعزلكم بنفسي، سأغادر البلاد الآن إلى واشنطن، و لديكم الوقت الكافي للتفكير مليا فيما طلبت إليكم تنفيذه و سنرى عند عودتي ما يجب عمله..¹⁷"

و عندما عاد جوان من واشنطن، كان الجلاوي قد أعد الأمور لتنفيذ خطة خلع السلطان، الذي رضح في النهاية بعد أن يئس من جميع المحاولات للتخلص من الموقف. و منها استنجاهه برئيس الجمهورية الفرنسية الذي لم يشأ أن يتدخل في الأمر بحجة حياد رئيس الدولة. و هكذا اضطر السلطان أخيرا إلى توقيع الاستنكار المطلوب في 25 فبراير 1951، بعد أن حصل على ترضية بسيطة، و هي ألا يذكر صراحة اسم حزب الاستقلال في تصريحه، بل يترك ذلك لتصريح الوزير الأعظم.

¹⁴ - Bennouna (Ali), Our morocco..., p 29

¹⁵ - Landau..., p 275.

كان لحوادث سنة 1951 صدى بعيد في العالم العربي أدى إلى رفع مسألة مراكش إلى هيئة الأمم المتحدة. و هي أول مرة تثار فيها مسألة خاصة بالمحميات الفرنسية في المغرب أمام هذه المنظمة الدولية. أما في داخل البلاد فقد استغلت الإقامة العامة تصريح السلطان لكي تلقي القبض على المئات من الوطنيين، كما أجبرت الملك على إبعاد جميع المشتبه في ميلهم إلى حزب الاستقلال عن البلاد. و مع ذلك فإن فرنسا بدأت تدرك فشل سياسة العنف، لأن البربر سرعان ما شعروا بأن فرنسا استغلتهم لحسابها. و بعث بعض قواد الجنوب باحتجاج على الضغط الذي تعرضوا له من قبل " الجلاوي" و من المراقبين المدنيين الفرنسيين بالأقاليم كي يجمعوا الفرسان للمسير إلى الرباط. كما أن بقاء جوان أصبح مستحيلا بعد فشل خطة الخلع. و في 28 أغسطس سنة 1952 تقرر تعيين مقيم جديد اختير أيضا من العسكريين و هو الجنرال "قيوم".

لم تختلف سياسة قيوم عن سلفه سواء في مشروعات الإصلاح التي وضعها، أم في استخدام وسائل القمع ضد الوطنيين: و لعله قد ظن أنه نجح في سياسته، بعد أن خذلت الأمم المتحدة المشروع العربي الآسيوي، بخصوص تدخل المنظمة في المسألة المراكشية.

تجمدت العلاقات بين فرنسا و السلطان، إلى أن بعثت حوادث الدار البيضاء سنة 1952، المشكلة المراكشية من جديد على الصعيد الدولي. و قد وقعت هذه الحوادث الدموية، بمناسبة المظاهرات التي قام بها العمال احتجاجا على اغتيال الزعيم النقابي التونسي "فرحات حشاد" في 7 ديسمبر 1952. و كما هو مألوف في هذه الأحوال تصرف البوليس الفرنسي تصرفا وحشيا. و لكن كثيرا من الصحف الفرنسية في هذه المرة أخذت تعبر عن سخطها على السياسة الدموية التي تتبعها سلطات الحماية في مراكش.

و لوحظ أن طبقة جديدة من الرأي العام في فرنسا راحت تهتم بموضوع مراكش من الناحية الإنسانية، فتكونت جماعة فرنسا و المغرب و هي تتألف من بعض المفكرين الذين ينتمون إلى الرابطة الكاثوليكية. و يشتهر من بينهم الكاتب "فرانسوا مورياك" و المستشرق "لوي ماسينون، و لكن نشاطها كان محصورا في دوائر المثقفين. و يمكن تتبع آراء هذه الجماعة من خلال الجريدة المسيحية و هي "Témoignages Chrétien". و هدف هذه الجماعة هو تحويل الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا عن صورته السياسية و الاقتصادية البحتة، إلى صورة جديدة، فلكي تكسب فرنسا ثقة شعوب شمال إفريقيا، و تضمن ولاءهم لها، لا بد أن تتخلى عن سياسة العنف، أو تظهر لهذه الشعوب قيمة المثل العليا التي تميز فرنسا المسيحية. على أن جماعة فرنسا و المغرب ليست أقل خصومة لكفاح الوطنيين المسلح لأنه هو أيضا في رأيها نوع من العنف غير المشروع.

إلا أن الحكومة التي تشكلت في فرنسا منذ ماي 1953 كانت بعيدة عن مثل هذه السياسة، فهي حكومة "جوزيف لانييل" Joseph Laniel، اليمينية. و كان "جورج بومبيدو" Georges Pompidou، وزير الخارجية، يرى أن الصراع القائم في مراكش، على حد تعبيره، صورة جديدة للنزاع بين الصليب و الهلال.¹⁶ و بذلك اقتربت

¹⁶ - Barrât., op.cit., p 281.

الوزارة الفرنسية من وجهة نظر نواب مستوطني شمال إفريقيا، الذين يكونون كتلة متميزة في برلمان باريس، تلعب دورا في سياسة التجمعات الحزبية. و من البديهي أن تدعو هذه الكتلة إلى استخدام القوة باعتبارها الوسيلة الوحيدة الرادعة لأية معارضة في شمال إفريقيا، و يجب ألا تقف أمام هيئة أية شخصية مهما علا شأنها. تجددت إذن فكرة خلع السلطان، عندما أصبح "بيدو" وزيرا للخارجية الفرنسية و هي الوزارة التي تتبعها المحميات. و كما حدث منذ عامين، اعتمدت خطة الخلع على معاونة "الجلالوي" و كبار القواد المواليين له في الجنوب. و لذا يجدر بنا أن نتساءل عن البواعث التي دفعت بباشا مراکش إلى اتخاذ هذا الموقف؟.

يمكن القول بأن حركة الجلالوي ضد القصر، ليست إلا استمرارا للنزعة الانفصالية التي تميز بها حكام الأقاليم، باعتبار أن هؤلاء الحكام يستمتعون بسلطات واسعة، و يشبهون إلى حد ما أمراء الإقطاع في أوروبا خلال العصور الوسطى، فقد كانت بعض قبائل البربر في جنوب مراکش تدين بالولاء للجلالوي. و لكن نفوذه لم يتسع إلا بفضل تعاونه مع الحماية، و قد حصل في ظلها على ثروة ضخمة فكان يحتكر تجارة الزيتون و النعناع و بالإضافة إلى ذلك كانت لديه مصادر أخرى للثروة أشد خروجاً على المألوف من الاحتكار.

فكتب "بارات"، عضو الجمعية الوطنية الفرنسية و صاحب كتاب: "العدل لمراكش"¹⁷ يقول: "كان الجلالوي من أكبر من وضعوا بيوت الدعارة في مراکش تحت حمايتهم و كان كل عام يطالب القبائل التي تحت سلطته بعدد كبير من الفتيات، ليزود بيوته ببضاعة جديدة من الرقيق الأبيض. و قد قدر عدد الساقطات المقيمات في بيوته بأربعة آلاف، و كان يحصل يوميا على مائة فرنك عن الرأس الواحدة..".

أدرك الجلالوي أن الفرصة قد سنحت من جديد لتنفيذ الخطة، فقام بجولة في الجنوب و راح يجمع العرائض للمطالبة بعزل السلطان. و استطاع فيما بعد أن يبرز أكثر من 250 عريضة وقعها قواد النواحي و اثنان من البشوات، الذين يحكمون بعض الأقاليم الصغيرة. و عاونه في هذه الحملة "عبد الحفي الكتاني"، رئيس الطريقة الكتانية، الذي عقد مؤتمرا للطرق الصوفية، لإعلان سخطهم على سياسة السلطان. و كان الكتاني قد عزل بفضل الحركة السلفية، من جامعة القرويين في العشرينات. و لذا رأى في حزب الاستقلال خصما طبيعيا له، و إن كان نفوذ الطرق قد هبط كثيرا بعد الأربعينات.

و في يونيو 1953 حمل الجلالوي هذه العرائض إلى باريس، و ظهرت عدة شواهد تدل على ميل الحكومة الفرنسية إليه، فاستقبله الرجال الرسميون. و قد لا يكون من قبيل الصدفة أن يختار الجنرال "جوان"، و هو زعيم مستوطني شمال إفريقيا، في هذا الوقت بالذات ليكون عضوا بالأكاديمية، أكبر الهيئات العلمية بفرنسا، و يمنح رتبة المارشالية.

و تردد رجال الحكومة في بداية الأمر في تلبية طلب الجلالوي. و لم يشأ رئيس الوزراء أو وزير الخارجية أن يتحمل وحده مسؤولية النتائج التي قد تترتب على خلع السلطان، خاصة و أنهم يدركون جيدا مدى تزييف العرائض التي حملها الجلالوي، لأن كثيرا من القياد احتجوا على انتزاع توقيعهم بالإكراه. كما أن حكام الأقاليم

¹⁷ - Barrât..., Justice pour le Maroc..., p..

الكبيرة و هم بشوات، الرباط و الدار البيضاء و سفروا، و فاس، استنكروا خرجة الجلاوي. فلما ضاق الجلاوي ذرعا بهذا التردد أرسل إنذارا أخيرا في 18 أغسطس إلى الحكومة الفرنسية، قال فيه: "ليس هناك من يعترف بشرعية السلطان الحالي الذي يعتبر قصره مقرا لحزب الاستقلال.." و حمل الحكومة الفرنسية مسؤولية الحوادث التي ستقع إذا بقي السلطان في البلاد، و هدد بأن الدماء ستسيل، و ذكر بأنه صديق لفرنسا منذ أربعين سنة، فإذا تخلت عن أصدقائها فقد يضطرون إلى التحول عنها.(380)

في الوقت الذي تلقت فيه حكومة باريس مذكرة الجلاوي، كانت فرنسا تعاني من أخطر إضراب شهدته منذ الحرب الأخيرة، شل جميع طرق المواصلات و البريد، و لذلك كان اهتمام الرأي العام منصرف إلى هذه المشكلة الداخلية، فانتهاز "جورج بيدو" هذه الفرصة كي يحقق هدف الأحزاب اليمينية بخلع "محمد بن يوسف"، ما دام هذا السلطان يرفض توقيع المراسيم التي تقدمها إليه الإقامة العامة في سبيل (الإصلاحات الداخلية). و في 20 أغسطس تلقى المقيم العام "جيوم" أمرا بأن يتوجه إلى القصر و يطلب من محمد الخامس تنازله عن العرش، فإذا ما رفض هذا التنازل فعليه أن يعلن خلعه طبقا لمطالب زعماء مراكش و أهل الطرق. و قد رفض السلطان توقيع التنازل، فأعلن المقيم خلعه، و في نفس اليوم حملته طائرة إلى كورسيكا قبل أن ينقل إلى منفاه في جزيرة مدغشقر.¹⁸

و لم تكن مشكلة ملء العرش المراكشي عويصة بالنسبة لمن دبروا خلع السلطان فإن محمد بن عرفة كان معدا لهذا الغرض منذ أزمة سنة 1951، و كان ابن عرفة في العقد السابع من عمره و هو عم السلطان المخلوع. و قد نصح الجلاوي و الرجعيون باختياره لأنهم رأوا فيه الرجل الذي يستطيع المحافظة على تقاليد مراكش، فهو أُمي لا يقرأ و لا يكتب، و هو لا يقلد الغربيين في حياتهم الاجتماعية مثل ابن يوسف الذي سمح لبناته بالسفور و تلقي العلم في المدارس الأجنبية.

بدأ ابن عرفة حكمه باتخاذ عدة إجراءات تنم عن روح ديمقراطية. ففي 4 سبتمبر تنازل عن سلطته التنفيذية لمجلس وزراء محدود العدد يرأسه الوزير الأعظم. و في 10 سبتمبر تخلى عن سلطته التشريعية لمجلس معين يتألف من 16 فرنسيا، هم رؤساء المصالح الفنية، و 14 مراكشيا يعينون جميعا بمعرفة الإقامة العامة. و لا أدل على هذه الروح الديمقراطية في رأي الفرنسيين، من أن السلطان قد تنازل عن حق الاعتراض على ما تصدره الجمعية التشريعية من قوانين. و أخيرا وقع السلطان الجديد في 19 سبتمبر، الظهير الخاص بإنشاء المجالس البلدية المشتركة.

و من الواضح أن هذه الإجراءات من شأنها أن تؤدي إلى تطبيق مبدأ السيادة المزدوجة. ذلك المبدأ الذي يدعو إليه المستوطنون في تونس و مراكش، لأنه يخلق لهم حقا ثابتا في البلاد.(ص 381)

¹⁸ - أنظر تفاصيل هذه الأزمة في Barrât.

مضت بضعة أشهر بعد خلع السلطان دون أن يظهر رد فعل ملحوظ بين الأهالي. و ظن أنصار المؤامرة أن الاستعمار قد انتصر، و أخذوا يسخرون من الفرنسيين الذين حذروا من خلع السلطان خشية اندلاع الثورة، و لكن الأيام أظهرت خطأ نظرهم

أوجد خلع السلطان للحركة الوطنية شهيدا من طراز عال، و ساعد ذلك على بعث نشاط الحركة الوطنية. و لكن في هذه المرة على صورة الكفاح المسلح بالرغم من أن معظم زعماء حزب الاستقلال كانوا إما في الاعتقال أو في خارج البلاد. ففي أوائل سنة 1954، و بعد أن أحكم الوطنيون تدابيرهم، أخذت حوادث الاغتيال الفردي تتكرر، و انصبت الاغتيالات على المراكشيين الذين يتعاونون مع الفرنسيين سياسيا أو اقتصاديا.

و بهذه الطريقة أمكن تنفيذ خطة مقاطعة البضائع الفرنسية بصورة أثرت تأثيرا كبيرا في مصالح الفرنسيين. فيلاحظ مثلا أن استهلاك الدخان و هو تجارة تحتكرها شركات فرنسية، هبط بنسبة 78%، لأن الوطنيين أندروا التجار الذين يشترون بالقتل. أما بالنسبة للمستوطنين، فقد اتجه رجال المقاومة المراكشية إلى إحراق المزارع التي يملكونها، و أصبح من العسير على الملاك الأوروبيين المبيت في مزارعهم. و لوحظ أن حركة العودة إلى فرنسا أخذت تظهر بين البيئات الأوروبية.

لم تحاول حكومة "منداس فرانس" تطبيق السياسة التي اتبعتها في تونس على مراكش و ذلك لسببين: أولا: أنها خشيت أن تعطي فرصة لليمينيين كي يشبوا للرأي العام صحة اتهاماتهم بأن "منداس فرانس" يتبع (سياسة التخلي ؟ التولي ؟) نحو المستعمرات.

ثانيا: وجود ابن عرفة و الجلاوي و أتباعهم من الخونة المراكشيين، فلم يكن من المعقول إغضابهم بقبول التفاوض مع الوطنيين، مما يؤدي إلى فقدان فرنسا لجميع أصدقائها في مراكش. (ص 381)

و هكذا اعترف رئيس الحكومة بأن ليس لديه حل سياسي لمشكلة مراكش في الوقت الحاضر. و الواقع أن خلع السلطان جعل من المستحيل الأخذ بكل وسط على نمط الحل الذي اتبع في اتفاقية يونيو سنة 1955 مع تونس، لأن زعماء المقاومة في مراكش، و أكثرهم من أنصار حزب الاستقلال أصروا على عودة ابن يوسف و إلغاء جميع المراسيم التي صدرت في عهد ابن عرفة كشرط مقدم لأي اتفاق، بينما اعتبرت فرنسا التراجع في هذا الأمر إضاعة لهيبته في شمال إفريقيا عموما. و لذلك كان النزاع أكثر من مجرد خلاف على مشكلة العرش. و لعل "إدغار فور" كان مستعدا لاتخاذ سياسة إيجابية لحل الأزمة حين أرسل مقيما عاما من نوع جديد و هو "جرانفال" الذي لم ير في نفسه مجرد راع لمصالح المستوطنين، فقبض على الأوروبيين المسؤولين عن الاشتراك في أعمال (الإرهاب المضاد) و من بينهم عدد من رجال الشرطة و أبعدهم إلى فرنسا. و لذلك تربص به أصحاب النفوذ في الإقامة العامة.

ففي احتفالات 14 يوليو 1955 أقيمت قنبلة على حشد من الأوروبيين في الدار البيضاء و قتلت عددا كبيرا منهم، فانتهز رجال الشرطة هذه الفرصة و قادوا بأنفسهم الأعمال الانتقامية التي قام بها الأوروبيون في اليوم

التالي، فنهبوا المحال المراكشية و فتكوا بعدد من السكان المدنيين الذين افتقدوا جميع وسائل الدفاع عن النفس. فكان "جرانفال" قد فقد السيطرة على الأوروبيين دون أن يكسب ثقة الوطنيين لأنه لم يكن في استطاعته تنفيذ السياسة التي دعا إليها.¹⁹ كان رأي "جرانفال" أن الحل الوحيد لمشكلة مراكش هو عودة ابن يوسف إلى فرنسا على الأقل، خلع محمد بن عرفة. و لم يكن "فور" يختلف عنه في الرأي، إلا أن الوزراء اليمينيين في حكومته هددوا بالاستقالة إذا ما نفذ هذه السياسة.

كان على الوطنيين إذن أن يتولوا بأنفسهم إقناع الساسة الفرنسيين بضرورة تغيير مبادئهم، ذلك بتوسيع نطاق الكفاح المسلح. و حتى صيف سنة 1955 لم تكن عناصر المقاومة قد كونت جيشا منظما، مثل الجيش الذي رأيناه في تونس سنة 1954. و لكن جدت ظاهرة هامة في مراكش، و هي تحول قبائل البربر عن الجلاوي و التفافها حول الحركة.

و لما كانت القبائل البربرية تحتفظ باستقلال محلي، فإن تحولها إلى الحركة الوطنية كان له نتائج بعيدة الأثر. فاعتمادا على هذه القبائل أ'د زعماء المقاومة يوم 20 أغسطس 1955، و هو الذكرى الثانية لخلع ابن يوسف، ليكون يوما مشهودا في تاريخ الكفاح المغربي، فقرروا الزحف الشعبي إلى المدن الصغيرة الواقعة داخل الأطلس الوسيط، مثل: خنيفرة، و في شرق مراكش مثل وجدة. و عجزت القوات الفرنسية عن حماية هذه المدن تماما. و كانت الجاليات الأوروبية في هذه المدن هي الهدف الرئيسي لهجوم القبائل، فوقع خسائر فادحة في الأرواح بين المستوطنين، و لوحظ أن النساء اشتركن للمرة الأولى في الثورة المراكشية مما ساعد على إلهاب حماس الجماهير؟؟؟(كيف ذلك)للتحليل.

و يبدو أن القادة المراكشيين نسقوا خططهم مع الثوار الجزائريين، لأن الجزائر شهدت في نفس هذا اليوم هجمات واسعة النطاق على الجاليات الأوروبية. و كان لهذا التنسيق وقع شديد على الرأي العام الفرنسي.²⁰ تغلب "فور" بعد هذه الحوادث على معارضة اليمينيين، و استطاع أن يدعو زعماء حزب الاستقلال إلى مقره الصيفي في "أيكس ليبان" Aix-Les Bains، للتفاوض معهم. و مع ذلك رأى رئيس الحكومة أن يضحى بالمقيم العام "جرانفال" حتى لا يغضب اليمينيين. و هو لم يعزله من منصبه إلا ليتمكن من تنفيذ نفس السياسة التي دعا إليها هذا المقيم. و في المفاوضات التي جرت مع الزعماء المراكشيين اتفق على حل وسطي و هو إبعاد ابن عرفة عن العرش و تأليف مجلس وصاية، يمثل جميع الميول في مراكش و يوافق عليه محمد الخامس. و لعل تغاضي المراكشيين عن التمسك بعودة ابن يوسف مباشرة إلى العرش، يرجع إلى تيقنهم بأن هذا الحل الوسط لا يمكن أن يكون إلا مؤقتا. و أن عودة ابن يوسف إلى العرش ستصبح مسألة زمن. و مما يسترعي الانتباه، أن تصلب بعض الفرنسيين، و مؤامرات النواب اليمينيين ضد المبادئ التي اتفق عليها "إدغار فور"، خدمت في النهاية القضية المراكشية و سهلت على البلاد قطع المراحل بسرعة.

¹⁹ - Voir Le Monde..., du 16 juillet 1955..., p..

²⁰ - Voir Le Monde..., du 11 septembre 1955..., p

و شعر رئيس الحكومة أن بعض النواب قد تجاوز سلطته، حين ذهب إلى ابن عرفة ليقنعه بضرورة التمسك بعرشه، و رأى أن يقطع على اليمينيين مؤامراتهم، فقرر نقل ابن عرفة إلى طنجة في أول أكتوبر. و في 15 منه كون مجلس الوصاية، و لكنه لم يراع في تكوينه الاتفاق الذي تم مع الزعماء المراكشيين،²¹ فهو يتألف من أربعة أعضاء لا يمثل الوطنيين من بينهم سوى عضو واحد هو "مبارك البكاي"، و هو علاوة على ذلك ينتمي إلى الفريق المتساهل منهم. أما الثلاثة الآخرون فهم: المقرري الوزير الأعظم و هو رجل مسن استسلم للإقامة العامة منذ توليه هذا المنصب سنة 1918. و أخيرا العضوان الآخران من بين الشخصيات المغمورة.

و لم يكن هذا هو المجلس الذي يرضى عنه محمد الخامس. و إذن فإن رئيس الحكومة الفرنسية إذا كان قد بدأ فعلا باتخاذ بعض الإجراءات العملية التي اتفق بشأنها مع الوطنيين، إلا أنه لم ينفذها بأمانة تامة. و من ثم لم يكن هناك ما يلزم الوطنيين بإيقاف عمليات جيش التحرير كما أصبح يسمى، و كما كان يقضي اتفاقهم مع فرنسا في حالة تنفيذ مطالبهم. و على العكس اتسعت أُمال جيش التحرير في الأشهر الأخيرة من عام 1955. و كان الفرنسيون يرسلون الإمدادات المتلاحقة منذ حوادث 20 أغسطس. حتى اضطروا إلى إطالة مدة الخدمة العسكرية العادية. و تحويل العائدين من الهند الصينية دون سابق إنذار إلى شمال إفريقيا، و ذلك حتى يتجنبوا إعلان التعبئة العامة.²²

و أدى ذلك إلى وصول عدد القوات الفرنسية في مراكش إلى 200000 جندي و هو رقم لم تصل إليه أثناء عمليات الإخضاع. و قد أغضبت هذه الإجراءات كثيرا من العائلات الفرنسية، و اشتدت حركة المعارضة للقتال في شمال إفريقيا. و حتى بعض الاستعماريين رأى أنه من الأفضل إنهاء أزمة مراكش كي تتفرغ فرنسا للقضاء على ثورة الجزائر، فكأن ثورة الجزائر أصبحت عاملا مهما، ساعد جارتها تونس و مراكش مساعدة كبرى على نيل الاستقلال.²³

إزاء هذه التطورات شعر الجلاوي أيضا أنه يدافع عن قضية خاسرة، و رأى أن يسبق ساداته الفرنسيين إلى التسليم بالأمر الواقع قبل الأوان. و في 26 أكتوبر فاجأ الجميع بتصريح علي قال فيه: " إنه يشارك الأمة المراكشية في المطالبة بعودة سلطانها إلى العرش.. " و مهما كان الباعث على هذا التصريح، فإنه قد محا آخر حجة تدرع بها بعض الساسة الفرنسيين لمعارضة عودة ابن يوسف. و حتى هذا الوقت لم يجرؤ "فور" على التصريح بأنه سيسمح لابن يوسف بالعودة إلى العرش، بل قال إنه سيتترك منفاه ليقيم بنيس في جنوب فرنسا. و لكن الحوادث جرفت الحكومة الفرنسية فلم تزد إقامة محمد الخامس في نيس على يوم واحد، فإن جموع الشعب المراكشي توافدت إلى فرنسا لاستقباله و أصبحت الحكومة الفرنسية أمام أمر واقع فاستقبلته هي الأخرى استقبال رئيس دولة و طلبت حضوره إلى العاصمة. و خف ابن يوسف إلى باريس، لا ليستأذن الحكومة الفرنسية في ارتقاء عرشه، فهذا أمر قرره الشعب المراكشي بكفاحه. بل ليفاوضها في تغيير العلاقات

21

22

23

القائمة بين البلدين. لم تطل مفاوضات الملك في باريس لأنه ساير الحكومة الفرنسية إدراكا منه بأن معظم الشروط التي عرضتها لا تعدو أن تكون حفظا لماء الوجه. و على الأساس صدر تصريح مشترك يعرف بتصريح "لاسل سان كلو" في 6 نوفمبر 1955، وفيه يعلن السلطان قبوله لقرارات مجلس الوزراء الفرنسي الصادرة في يوم 5 نوفمبر، و هي تشمل المبادئ الآتية:²⁴

- 1- منح مجلس الوصاية السلطة الكاملة لإدارة شؤون الإمبراطورية الشريفة.
- 2- تأليف مجلس وزراء يمثل جميع الاتجاهات السياسية و الاجتماعية في مراكش، و كان مقصود فرنسا بهذه العبارة هو إشراك الإقطاعيين و القواد الذين يسببون في ركابها في مجلس الوزراء.
- 3- استئناف المفاوضات مع فرنسا لتحديد وضع مراكش كدولة مستقلة مرتبطة بفرنسا برابط دائم من التعاون المتبادل L'indépendance dans l'interdépendance، و ذلك دون تدخل من طرف ثالث.
- 4- النص على إقامة ملكية دستورية، طبقا لرغبة الملك.

عاد محمد الخامس إذن إلى مراكش في ظروف أفضل بكثير من تلك التي تركها فيها. و شرع في تغيير أنظمة البلاد الداخلية، على نحو ما سنرى. غير أن تصريح "لاسل سان كلو"، الذي ربما كان يعتبر ثورة في الأربعينات، رفضه الوطنيون في نشوة انتصارهم و لم يرضوا عن إسقاط الحماية بديلا. و على ذلك لم يتوقف جيش التحرير عن أعماله بعودة السلطان كما توقع الفرنسيون.

و هنا يجدر التساؤل: هل كان الملك بعد عودته إلى العرش يساير جيش التحرير في أهدافه ؟ أم أنه كان يكتفي باتفاقية لاسل سان كلو كمرحلة انتقالية على الأقل ؟ و سواء أصبح هذا الاحتمال أم ذاك، فإن جيش التحرير أعلن عن استمراره في النضال مع الولاء للملك. و يذكرنا هذا بخطة حزب الاستقلال منذ سنة 1944 التي اجتذبت القصر دائما من جانبها إلى الحركة الوطنية و مبادئها.

و لهذه الخطة فضل إظهار البلاد صفا واحدا أمام المستعمرين. و ظهرت نتيجة ذلك سريعة و حاسمة. ففي 2 مارس 1956، أعلنت الحكومة الفرنسية أن نظام الحماية في مراكش أصبح غير متناسب مع الظروف الجديدة. و هكذا قطعت مراكش المراحل بسرعة نحو الاستقلال السياسي على الأقل. (ص 385)

تسبقت رؤوس الأموال الأجنبية على المغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. و على عكس تونس و الجزائر لم يكن الرأسمال الفرنسي هو الوحيد الذي يستثمر في البلاد، بل وفدت أموال كثيرة من الولايات المتحدة و بريطانيا مستندة إلى مبدأ المساواة في الفرص الذي أقره مؤتمر الجزيرة سنة 1906 و استمر العمل به طوال عهد الحماية. على أنه منذ أن بدأت الحركة الوطنية تتخذ أسلوب الكفاح المسلح شرعت رؤوس الأموال تنسحب من البلاد. (ص 522)

إنه يسير على النظام الاقتصادي المتخلف، أي يكتفي بتصدير تلك المواد الخام دون الاستفادة بتحويلها محليا، ثم أن 80% من السكان يعيشون على الزراعة أو هامش القطاع الزراعي. كما أن

²⁴ - Landau..., appendix..., p 396.

الاستثمارات التجتهد في عهد الحماية إلى مشروعات غير صناعية و لو أنها أفادت المغرب من حيث تجهيزه بأحدث وسائل العمران.(ص 522)

ظهر محمد الخامس في بداية عهد الاستقلال بمظهر الزعيم الوطني الذي شارك في الكفاح ضد الاستعمار. و في أثناء المعركة الوطنية ضد فرنسا كثيرا ما دارت المطالب الوطنية حول إعطاء السلطان حقوقه التقليدية في ممارسة السلطة و عدم تعدي الحماية عليها. و لذلك اعتبرت هذه الممارسة بعد الاستقلال مظهرا من مظاهر السيادة الوطنية. و هذا ما يفسر لنا استئثار الملك بمختلف السلطات رغم ازدهار الحياة الحزبية. و قد كان من المفروض أن يسود نظام الملكية الدستورية طبقا لمطالب الوطنيين و تصريحات الملك نفسه أثناء المعركة ضد الاستعمار. غير أن محمد الخامس اكتفى بإقامة جمعية استشارية واعداد الشعب بإنشاء نظام نيابي حينما تنهيا الظروف. و الحجة التي استند إليها هي أن الدول النامية تحتاج أولا إلى تطوير أجهزتها الإدارية قبل أن تفكر في التطور السياسي. و المغرب بالذات كان يحتاج إلى سلطة فعالة لما تعرض له الوطن من تمزق سياسي فضلا عن اختلاف التركيب الاجتماعي.

كذلك افتقد المغرب الخبرات اللازمة لتسيير الشؤون العامة. و يرجع ذلك إلى ثقل التركة التي خلفها الاستعمار الفرنسي. ففي آخر عهد الحماية كان هناك نحو 80 ألف موظف أكثر من نصفهم فرنسيون. و اتضحت مشكلة نقص الكفاءات في عدة مجالات.²⁵ ففي القضاء مثلا انسحب قضاة الصلح الفرنسيون الذين كانوا ينتشرون خاصة في المناطق الناطقة بالبربرية فاضطر المغرب إلى استبقاء عدد منهم. و من أسباب نقص القضاة المدربين هو ما درج عليه المغرب منذ زمن طويل من عدم الفصل بين السلطات القضائية و الإدارية. و كان انتزاع الاختصاصات القضائية من رجال الإدارة هو من أهم مطالب الحركة الوطنية. فسارعت الحكومة المستقلة إلى إجراء هذا الإصلاح و إلغاء آثار القضاء الخاص بالبربر. و لكنها اضطرت إلى تنفيذ ذلك بالتدريج.(ص 521)

و في عهد الحماية كان استئناف القضايا الهامة يتم في فرنسا. فتأسست بعد الاستقلال محكمة عليا في الرباط تنظر في القضايا المستأنفة، و عين أحد المغاربة رئيسا لها. كما عين أحد المغاربة ممثلا للنيابة فيها، إلا أنه تعذر الاستغناء عن مستشارين فرنسيين يساعدون القضاة المغاربة. و قد قبل المغرب في السنوات الأولى من الاستقلال عقد اتفاق قضائي مع فرنسا يبيح للمستوطنين تطبيق قانونهم المدني في حالة الخصومات التي تقع بينهم.

كذلك استبقى المغرب نحو 1500 من ضباط الصف الفرنسيين، و لو أنه بالنسبة للقوات المسلحة كان المغرب أفضل منه في قطاعات أخرى. و يرجع هذا النقص في الكفاءات إلى إهمال التعليم العصري في عهد الحماية. فلم تكن الميزانية المخصصة لتعليم الوطنيين تكفي لأكثر من 50% من الأطفال في سن التعليم.

²⁵ - Zartman (William), Morocco, problems of new power, in..., pp...

و على ذلك كان على المغرب أن يجابه مشكلتين في أن واحد: مكافحة الأمية²⁶ و تعريب التعليم. و رغم أن حزب الاستقلال المتحمس للتعريب كان مشاركا في الحكم فإنه لم يستطع أن يدفع حركة التعريب بالسرعة التي كانت منتظرة منه.

و بسبب ندرة الخبرات أيضا لم يتمكن المغرب من استغلال موارده الطبيعية استغلالا مفيدا. فالمغرب هو ثاني أقطار العالم من حيث إنتاج الفوسفات و الثالث في إنتاج الكوبالت. و تشمل ثروته المعدنية الضخمة كذلك مناجم للحديد و المنغنيز. كما توجد إمكانيات عظيمة لتوليد الطاقة الكهربائية. فكيف نفسر بعد ذلك انخفاض مستوى المعيشة بحيث لم يختلف المغرب عن بقية الدول الأفريقية؟ (ص 522)

حرص القصر منذ البداية على كسب ولاء الجيش و تقويته، فعين الحسن قائدا عاما للجيش حتى من قبل أن تسند إليه ولاية العهد. و أثر الحسن استخدام الضباط و الجنود المسرحين من جيش الاحتلال سواء أكان فرنسيا أم إسبانيا، و قدر عدد هؤلاء بـ 24 ألفا. و حاول في نفس الوقت أن يمتص جزء من جيش التحرير الوطني الذي عمل مستقلا عن القصر، و لم يخضع لأي حزب من الأحزاب التقليدية.

و قد قوبلت هذه المحاولة برد عنيف في بعض المناطق. ففي "تافياللت" بالجوب الشرقي كان "أوبهي" قد عين حاكما للواحة مكافأة له على نضاله في المعركة ضد الاستعمار. و لم يلبث أن أعلن بعد الاستقلال أن المجاهدين لم يلقوا الجزاء المناسب. ثم تحول إلى تحد صريح للسلطة و نسب إليه أنه اتصل بجهات أجنبية كما فسرت حركته بأنها تعبر عن سخط البربر الذين استاءوا من سيطرة حزب الاستقلال على الوزارة ذلك الحزب الذي يمثل عرب المدن؟؟؟(للشرح) و شاهد ذلك أن العصيان لم يعلن بصراحة إلا بعد استبعاد "الحسن اليوسي" البربري الأصل من وزارة الداخلية و تعيين "إدريس محمدي" مكانه. (ص 523)

و الواقع أنه لم تظهر حركة معارضة عامة باسم البربر، فهؤلاء أنفسهم لا تجمعهم لغة واحدة، بل تنتشر بينهم ثلاث لغات و يتعذر التفاهم فيما بينهم. و الأقرب إلى الصواب هو أن الخلاف اجتماعي أكثر منه لغوي، يتضح ذلك من حركة المعارضة التي نشأت بمنطقة الريف في الشمال. فقد تزعمها الدكتور "عبد الكريم الخطيب" القائد السابق لجيش التحرير، يساعده "محجوب أحرادان"، أحد الزعماء المحليين. و استندت المعارضة إلى عدة حجج، منها تمييز سكان المدن على أهل الأقاليم الزراعية في المناصب الهامة، و منها إهمال الشمال الذي يعاني من فقر شديد حيث كانت الإدارة الأسبانية تهمله إهمالا تاما. فلم ينشأ من بين أهله عدد كاف يصلح لتولي المناصب الإدارية. ثم ندد "الخطيب" بإبعاد جيش التحرير و ضباطه عن المناصب العليا في الجيش، مع أن أبناءه هم المضحون الحقيقيون في المعركة الوطنية. و مع ذلك فقد وصفت الحركة في البداية بأنها بربرية عنصرية ثم خفف القصر من معاداته لها سنة 1957 و اعترف بها كحزب سياسي يعرف باسم "الحركة الشعبية". أما عصيان "تافياللت" فتم القضاء عليه قبل ذلك عسكريا.

²⁶- Lacouture (Yves), Le Maroc à l'épreuve..., éditions..., PP..

تلقي الخدمة العسكرية تقديرا كبيرا في المغرب الأقصى. و هذا ما يفسر لنا انخراط عدد كبير من المغاربة في الجيش الفرنسي و الأسباني. فلما حلت الحكومة الوطنية محل الحماية اهتمت بتدعيم الجيش، كما ولت الضباط مناصب إدارية، و هي تختلف بذلك اختلافا تاما عن تونس. أما الجزائر فقد اتخذت نفس أسلوب المغرب في نطاق أضيق و في خلال ست سنوات. خرجت الإدارة العسكرية المغربية 1200 ضابط سواء من مدرسة عسكرية محلية أو من المدارس العسكرية الفرنسية. و نشير بهذه المناسبة إلى أن المغرب ألغى النظام الأسباني تماما، و اعتبر النظام الفرنسي عاملا موحدًا للجيش. (ص 524)

- تونس و الرغبة نحو الانفراج ماي 1956

إذا كان الحبيب بورقيبة قد أظهر بعض الميول نحو الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية على أساس المثل الديمقراطية و الأهداف التحريرية التي أدعوها، فإن سلوك السلطات الفرنسية منذ نهاية الحرب قد دفع برئيس الحزب الدستوري الجديد إلى تجربة سياسة جديدة.

و قد سبق و أن اشرنا إلى الصدى البعيد الذي أحدثه تأسيس الجامعة العربية في شمال إفريقيا. و لم يستثن بورقيبة من هذا التأثير رغم مواقفه من الجامعة العربية. و قام بمغامرة للفرار من تونس لينفذ عمليا السياسة التي عقد عليها الآمال، و هي الاستعانة بالدول العربية المستقلة في المشرق لتحرير تونس. و يروي أنصاره بكثير من التفصيل، المخاطر التي تعرض لها فوق القارب الصغير الذي حمله بمحاذاة الشواطئ التونسية إلى أن وصل طرابلس و كيف أنه أكمل رحلته على ظهور الجمال حتى الحدود المصرية.

و يعتبر انتقال الزعيم التونسي إلى القاهرة و انضمامه إلى لجنة المغرب العربي تحولا هاما في اتجاه الحزب الدستوري الجديد. فمن المعروف أن هذه اللجنة كان يرأسها الأمير "الخطابي"، أشد الزعماء المغاربة خصومة للفرنسيين، و يسيطر عليها حزب الاستقلال المغربي الذي يؤمن بأن وجهة المغرب القومية وجهة عربية إسلامية وإذا تتبعنا رسائل؟؟ الحبيب بورقيبة في خلال هذه الفترة، نلاحظ فعلا ميله إلى فكرة التضامن العربي.²⁷

و في تونس حيث تولى "صالح بن يوسف" قيادة الحزب نيابة عن بورقيبة أثناء غيابه، تمكن الحزب الدستوري الجديد من عقد مؤتمر وطني كبير في 23 أغسطس 1946، اشترك فيه ممثلون عن اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري القديم و اتحاد نقابات العمال التونسية، كما أرسل أبناء الزيتونة و اتحاد الموظفين مندوبين عنهم في المؤتمر. و في هذا على ما يدل على نفوذ الحزب الدستوري الجديد، و خاصة في المرحلة التي اتفق فيها تماما مع اللجنة التنفيذية للحزب القديم سواء في السياسة العربية أم في نبذ فكرة العمل ضمن إطار الحماية، و المطالبة بالاستقلال التام.

²⁷- Bourguiba (Habib), La Tunisie et la France..., op.cit., p 180. S.d

و نظرا لاتخاذ جميع هذه العناصر صدرت قرارات المؤتمر على هيئة ميثاق وطني. أعلن هذا الميثاق سقوط نظام الحماية بعد أن بينوا الحثيات القانونية و السياسية التي تجعله نظاما باليا. و أهمية هذا القرار هو أنه أول مطلب من نوعه في تاريخ الحركة الوطنية ينبذ مبدأ الحماية كلية. كما أكد الميثاق صفة تونس العربية، و ضرورة انضمامها إلى الجامعة العربية بعد حصولها على الاستقلال.²⁸

و يبدو أن الظروف السيئة التي أحاطت بالجامعة العربية حينئذ لم تعمل على تثبيت الاتجاه الجديد في نفس الزعيم التونسي. و هذا ما قد يفسر لنا عدم تنفيذه للمبادئ التي دعا إليها سنة 1946، بعد أن ألت إليه السلطة الفعلية في تونس في عهد استقلالها.

ففي الفترة التي قضاها الحبيب بورقيبة في القاهرة لم تكن مشاكل شمال إفريقيا تشغل المشرق العربي بنفس الأهمية التي حظيت بها قضية فلسطين. فلم تول المسألة التونسية الاهتمام الذي أمله منها بورقيبة، بل أنها تركته يعيش في ظروف مادية سيئة، و أصبح يحس بهوانه على الرأي العام العالمي. فهو حين يسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدعوة لقضية تونس، لا يستطيع مقابلة وزير الخارجية الأمريكي إلا بتوسط السفير السعودي. (هامش للتحليل: لماذا أصبح بورقيبة رأسماليا بعد الاستقلال و قريبا جدا من فرنسا؟؟؟)

فكل هذه العوامل جعلته يفكر في محاولة الاتصال بفرنسا مرة أخرى، فيجري محادثات غير رسمية مع الملحق العسكري بالسفارة الفرنسية بالقاهرة، و يظهر استعدادده لعقد معاهدة مع فرنسا تضمن لها امتيازات استراتيجية و اقتصادية واسعة. و لكن عقلية الساسة الفرنسيين لم يطرأ عليها أي تطور. كما يتضح ذلك من مشروعات الإصلاح التي قبلوا إدخالها في تونس في السنوات التي تلت الحرب.

ففي سنة 1945 تقرر رفع عدد الأعضاء التونسيين في المجلس الاستشاري بحيث أصبحوا متساوين مع عدد الفرنسيين (53 عضوا عن كل فريق) و تشكيل لجنة عليا من سبعة أعضاء عن كل قسم لوضع الميزانية. كما تقرر زيادة عدد الوزراء التونسيين في مجلس الوزراء. و من الواضح أن هذه الإصلاحات ليست لها أية علاقة بمشكلة تونس السياسية، و هي احترام السيادة التونسية، بل على العكس تؤكد مبدأ السيادة المزدوجة، لأنها أبحاث للفرنسيين الاشتراك في المجالس المحلية. و علاوة على هذا كان تمثيل هذه الجالية الأجنبية بصورة أقوى، لأنه يقوم على أساس الاقتراع العام أما انتخاب الأعضاء التونسيين فيتم على درجتين.

و بالإضافة إلى هذه النقائص، ثبت أن هذه المجالس الاستشارية ليس لها أثر يذكر على إدارة البلاد، فلم يكن للمجلس حق مناقشة ميزانية الاستعمار الأوروبي، و حين رفض القسم التونسي مناقشة الميزانية 1947 احتجاجا على محاباة المستوطنين، لم تعبأ الإقامة العامة به و استصدرت مرسوما يبيح لمجلس الوزراء إقرار الميزانية في حالة امتناع المجلس الاستشاري عن مناقشتها. و يظهر مدى اعتداء الدولة صاحبة الحماية على سيادة تونس، من تخصيص بعض المقاعد في مجلس الشيوخ الفرنسي للمستوطنين الفرنسيين في الدولة المحمية.

²⁸ - الحبيب ثامر، مرجع سابق...، ص ص 119 - 121.

تولى صالح بن يوسف رئاسة الحزب الدستوري أثناء غياب بورقيبة في مصر و لكن السلطات الفرنسية لم تكف عن عرقلة نشاطه، و خاصة بعد انعقاد المؤتمر الوطني العام في صيف سنة 1947 الذي اشترك فيه الوطنيون التونسيون على اختلاف نزعاتهم. فقد هاجم البوليس المؤتمر أثناء الانعقاد و قبض على زعمائه و نكل بممثلي النقابات العمالية، لأن العمال يجمعون إلى أهدافهم السياسية، مطالب اجتماعية هي أشد إضرارا بمصالح المستوطنين.

و ليس من قبيل المصادفة أن تظهر قبيل انعقاد الاجتماع اضطرابات بين عمال الشحن في ميناء "صفاقص"، مما أتاح لقوات الأمن تدخل و الإيقاع بالعمال، و ما يعقب ذلك من إزهاق الأرواح. و الهدف المقصود هو إقناع سلطات الحماية بالتشدد إزاء العناصر الوطنية. و فعلا ظل نشاطها مكبوتا سنوات بعد انتهاء المؤتمر.

و في سنة 1949 أدرك بورقيبة اليأس من تجربة الاعتماد على الجامعة العربية. فقرر العودة إلى تونس مقتنعا بأن النضال الحقيقي يجب أن يكون على أرض الوطن. و عاود الكرة لتحقيق أمنيته القديمة، و هي التفاهم مع الفرنسيين مباشرة. و في أبريل 1950 ذهب إلى باريس لهذا الغرض. و لكن الصعوبة التي كان يصطدم بها دائما هي استمرار السياسة الفرنسية على عدم الاعتراف بشرعية الحزب الدستوري الجديد منذ أن حل سنة 1938. و اعتقادهم أن من المخاطرة التفاهم مع ممثلي الشعب. و لذلك تمسكوا بالفكرة القائلة: بأن الحكومة الفرنسية لا تعرف مفاوضا شرعيا سوى الباي الذي عقدت معه معاهدة الحماية، بل أن بعض هؤلاء الساسة راح يشيع التهم الباطلة حول الدستوريين فاتهموهم بالانتماء إلى الشيوعية الدولية.

و حتى يبطل الوطنيون التونسيون هذه التهمة، جعلوا الاتحاد العام للعمال التونسيين ينضم إلى الاتحاد الدولي للعمال الأحرار، و هو الاتحاد الذي تشترك فيه النقابات الأمريكية و يعتبر معاديا للنقابات الشيوعية. و قد أشرنا من قبل إلى الصلة الوثيقة التي كانت تربط هذه النقابة، التونسية القومية التي أنشأها "فرحات حشاد"، و بين الحزب الدستوري الجديد. بل أن إنشاء هذه النقابة كان موجها بصفة خاصة ضد النقابة الشيوعية الفرنسية.

رأى "روبير شومان" Robert Schuman، وزير خارجية فرنسا، أن تبادر حكومته برسم سياسة إصلاحية في تونس متجاهلة الزعماء الوطنيين حتى تحتفظ بهيبتها و تخرج من المأزق في نفس الوقت. و في 10 يونيو 1950 أصدر تصريحاً مؤداه: "أن الاستقلال الداخلي هو الغاية السياسية التي تسعى فرنسا لتحقيقها بالنسبة لجميع الدول التي تؤلف الاتحاد الفرنسي و من بينها تونس.."

ذلك أن المشرعين الفرنسيين حين وسعوا أسس هذا الاتحاد، أدخلوا فيه جميع البلاد الخاضعة للسيطرة الفرنسية بصرف النظر عن مركزها الدولي. و هذا يعني بالنسبة للمحميات خطوة إلى الوراء، لأن الروابط التي تجمع بيم أعضاء الاتحاد، حسب دستور سنة 1946، تعتبر أشد تقييدا من معاهدة الحماية و أدعى منها

البقاء، فالإتحاد الفرنسي ليس مثل الكومنولث البريطاني، فهو يتضمن وجود تفوق لدولة الأصل، و يشترط الدخول في هيئة دفاعية مشتركة بين أعضائه.²⁹

و رغم هذه القيود التي ستلحق بتونس إذا ما قدر لها الانضمام إلى الإتحاد الفرنسي، أسرع بورقيبة إلى إعلان اغتباطه بهذا التصريح، و كذلك حاول روبير شومان إثبات صدقه في تنفيذ السياسة الجديدة بتعيين مقيم عام جديد من غير الرجال العسكريين، و تألفت وزارة تونسية اشترك فيها بعض الدستوريين من أجل المفاوضة. إلا أن المستوطنين الذين لا يمكن لأي حكومة فرنسية إغضابهم، ثاروا على سياسة روبير شومان، و استطاع "كولونا" Colonna، ممثلهم في مجلس الشيوخ، التأثير على زملائه من أحزاب اليمين و الوسط. و قد ظهر من خلال الأزمة، التضامن الوثيق بين نواب شمال إفريقيا، فصرح الجنرال "جوان"، و هو المقيم العام في مراكش حينئذ، بأن سياسة تهاون في أي مستعمرة تنتقل عدواها إلى البلاد المجاورة.

و قدم مستوطنو تونس مطالبهم، و هي تأكيد السيادة الفرنسية على تونس، و إنذار الباي بضرورة احترام المعاهدات، و إقالة الموظفين الذين ينتمون إلى الحزب الدستوري من وظائفهم. و هي مطالب لا تقارن في شدتها مع اعتدال النقاط السبع التي قدمها الحبيب بورقيبة عند سفره إلى باريس و اعتبرها أساسا للمفاوضات مع فرنسا. فهي تعد تراجعاً عن الموقف الذي اتخذته الحزب سنة 1946. فإن برنامج الزعيم التونسي لم يمس مبدأ الحماية نفسه، و إنما طالب بإلغاء جميع مظاهر الإدارة المباشرة، مثل موافقة سكرتير الإقامة العامة على المراسيم و إلغاء وظائف المراقبين المدنيين الذين يشرفون على الأمن في الأقاليم التونسية، و تحوي الإشراف على الأمن إلى سلطات محلية.³⁰

و يلاحظ أن النقاط السبع لم تذكر عبارة الاستقلال، بل دار محورها حول فكرة السيادة التونسية و ضرورة احترامها. و تتمثل هذه السيادة في تقوية السلطة التنفيذية التي تتألف من وزراء تونسيين فقط، غير أنها لا تمنع من اشتراك الفرنسيين في المجالس البلدية. و أخيراً طالب بورقيبة بانتخاب مجلس نواب بالاقتراع العام لوضع دستور لتونس و تحديد العلاقات المستقبلية مع فرنسا على أساس احترام المصالح الفرنسية.

كان طبيعياً أن تتغلب رغبات المستوطنين في النهاية، فقد صور زعمائهم حالتهم بشكل يستدر عطف الرأي العام، فهم ليسوا كبار ملاك زراعيين مثل المستوطنين القدامى، و إنما يوجد من بينهم عدد كبير من صغار الموظفين و العمال. و في 17 أكتوبر أُلن المقيم العام أن المشكلة السياسية ليست ملحة في تونس، و أن الحكومة الفرنسية توجه اهتمامها من الآن إلى المشاكل الاجتماعية و الاقتصادية. و ذلك هو الأسلوب المتعارف عليه لدى ساسة الاستعمار في فرنسا، حين يريدون قطع وسائل التفاهم مع الوطنيين بطريقة مؤدبة.

و مرة أخرى تتحمل الطبقات العاملة مهمة الرد على تعسف السياسة الفرنسية، و يقوم العمال الزراعيون بمظاهرات في "إنفيدايل"، مركز من مراكز الاستيطان الأوروبي، و يقدمون عدداً آخر من الضحايا.

²⁹ - Cullman (Henri), L'Union Française, Paris, 1950..p...

³⁰ - Bourguiba (Habib), La Tunisie et..., op.cit., pp 220-230.

تجد الإدارة الفرنسية الفرصة سانحة لإعلان الأحكام العرفية و القبض على بعض الزعماء الوطنيين، ثم تحاول التخفيف من وطأة العنف، فتصدر عدة مراسيم بإصلاحات جديدة في فبراير سنة 1951، إلا أن هذه الإصلاحات تقوم على نفس المنهج و المبدأ. فللمستوطنين الفرنسيين حق مشروع في إدارة البلاد مثل التونسيين تماما، و على ذلك يبقى تمثيلهم في المجالس التشريعية و البلدية. و لكن - و هذا هو موضوع الإصلاح- لا يرأس المقيم العام المجلس الاستشاري الكبير.

و كذلك يحتفظ سكرتير الإقامة العامة بالإشراف على جميع المصالح. و لكن لا تشترط موافقته على قرارات مجلس الوزراء. أما الوظائف العامة فيمكن توزيعها بطريقة أعدل!! فالوظائف تقسم مناصفة بين التونسيين و الفرنسيين، و الوظائف المتوسطة يترك ثلثها للتونسيين، و كذلك ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة. و رغم كل هذا فقد أعلن بورقيبة موافقته على هذه المراسيم جريا على مبدأه القائل: "خذ كل ما تستطيع لتستعين به على تنفيذ المرحلة التالية."³¹ و هاهم الفرنسيون أنفسهم يصرحون بأن هذه المراسيم ليست إلا دفعة أولى من الإصلاحات، فعلى التونسيين الآن أن يسرعوا باستصدار المراسيم التالية. و لكن تمضي شهور و تتعثر المفاوضات أمام تقرب الحكومة الفرنسية.

و أخيرا يقدم "محمد شنيق" رئيس الوزراء مذكرة في 3 نوفمبر يضمنها الحد الأدنى للمطالب التونسية، و ترد عليها الحكومة الفرنسية بالجواب الحاسم في 15 ديسمبر الذي اعتبر رفضا باتا لهذه المذكرة. فهو يبدأ بتحميد عمل فرنسا الحضاري في تونس و يؤكد الصلات الأبدية التي لا بد و أن تربط مصير تونس بفرنسا، و أن أي إصلاح تقبله الحكومة الفرنسية لا بد و أن يكون مبنيا على ضرورة اشتراك المستوطنين في أي نظام سياسي يتقرر إقامته في تونس.

كانت مذكرة 15 ديسمبر 1951 حدا فاصلا، أثبت لأنصار التفاهم مع فرنسا ألا جدوى من إتباع الطرق الدبلوماسية. إلا أنه قبل أن ينفذ هؤلاء إجراء ما استعدت الحكومة الفرنسية لمواجهة الثورة المحتملة، فعينت مقيما عاما جديدا من بين العسكريين هو الجنرال "دي هوت كلوك" في يناير 1952، ليفهم التونسيين أنه عازم على استخدام القوة. و بدأ أعماله في تونس بأن طلب من الباي إقالة وزارة محمد شنيق.

و قابل الدستوريون هذا التشدد بتشدد مثله، فعقدوا مؤتمرا في الخفاء في 17 يناير أعلنوا فيه سقوط نظام الحماية. و صرحوا للمرة الأولى عن رأيهم في مستقبل المستوطنين. فبعد أن كانوا يظهرون دائما الاستعداد للتسليم بامتيازاتهم، قالوا بأنهم سيصبحون جالية أجنبية في ظل الدولة التونسية المستقلة، لهم حقوق الأجانب العادية. و في اليوم التالي قبض على جميع الزعماء الدستوريين. و أبعد الحبيب بورقيبة إلى "طبرقة" ثم إلى جزيرة صغيرة قرب ساحل تونس خالية من السكان و بيئة المناخ، تعرضت فيها صحته للتدهور. و لم يطلق سراحه إلا بعد سنتين و نصف حين بدأ "منديس فرانس" Mendès France يتبع سياسة جديدة نحو فرنسا.

³¹ - Bourguiba..., Ibid., p 250.

ركز دي هوت كلوك أعمال القمع في المناطق التي اشتهرت بتمرداتها على السلطات الإدارية، و كانت دائما مركزا لنشاط الوطنيين الخفي، و أعني بها الساحل الجنوبي الشرقي حول "رأس بونا". فأطلق ذئاب الفرقة الأجنبية للتنكيل بقرى الصيادين التي تنتشر في المنطقة. و في مدى أربعة أيام (من 28 إلى 31 يناير) ارتكب جنود هذه الفرقة من الفظائع ما سجل صفحة سوداء في تاريخ الاستعمار الفرنسي بتونس. و نرى من المناسب أن نسجل هنا بعض الوقائع التي وردت في تقرير لجنة التحقيق التونسية مكتفين بذكر ما اعترفت به لجنة التحقيق الفرنسية نفسها، و ما شاهده "دافدسون" مراسل "أسوشيتيد ريس" 1؟؟؟

- في قرية بني خبار، دمرت 10 منازل و سلبت 10 أخرى.
- في قرية معمورة، دمرت 6 منازل و كتاب، و قتل ثلاثة من بينهم امرأة حامل.
- في ترزقه، دمر 15 منزلا و سجلت حوادث انتهاك عرض، قتل أثناءها غلامان و أربعة من الأطفال الرضع لأن أمهاتهم حاولن الاحتماء بهم.

- في قرية "كليبية" Klibia، قتل خمسة أفراد و دمرت عدة منازل، و غرم الأهالي بـ 280 ألف فرنك.³²
و إزاء هذا الإسراف في سياسة العنف تحول الباي نفسه إلى معارضة المقيم العام فرفض إقالة وزارة محمد شنيق، و بعث برسالة استنكار إلى رئيس الجمهورية الفرنسية و لكن الرئيس الفرنسي اتخذ موقفا سلبيا مما أياس الباي و جعله يخضع أخيرا لتهديد المقيم العام و يقيل الوزارة، بعد أن كان دي هوت كلوك قد اعتقل معظم أعضائها لأنها جرؤت على رفع شكوى ضد فرنسا إلى مجلس الأمن. و اختار دي هوت كلوك لرئاسة الوزارة التونسية "صلاح الدين بن باكوش"، أحد الإقطاعيين الذي ألف وزارة كل أعضائها من طبقة الملاك الزراعيين. ذلك أن جميع المثقفين، حتى المعتدلين منهم، أنفوا من التعاون معه. و شعر دي هوت كلوك عمل شيء يقوي به مركز ابن باكوش، فوضع بدوره مشروع إصلاح جديد، و الفكرة الجديدة التي أدخلها في مشروعه، هي إحلال مبدأ سيادة الباي محل مبدأ السيادة التونسية الذي يتمسك به الوطنيون غير أن مشروعه لا يختلف في لبه عما رأيناه في المشروعات الفرنسية السابقة.

عادت الحالة في تونس سنة 1952 إلى نفس الوضع الذي كانت عليه أيام "بيروتون" سنة 1934. و يبدو أن الظروف الخارجية ساعدت دي هوت كلوك على المضي في سياسة العنف، فقد قبل مجلس الأمن وجهة النظر الفرنسية بعدم اختصاصه و رفض المجلس في أبريل إدراج المسألة التونسية في جدول أعماله. و في فرنسا تعاقبت حكومات يمينية، من "أنطوان بينيه" سنة 1952، إلى "جوزيف لانيل" سنة 1953-1954، و يشتد المستوطنون في مطالبهم معترضين على تحويل بعض الوظائف إلى التونسيين. و يؤيدهم دي هوت كلوك

³² - نشر تقرير لجنة التحقيق التونسية في 8 مارس سنة 1952 و نقله قاراس في كتابه. أنظر:

- Garas Félix, Bourguiba et la naissance d'une nation..., op.cit., p.

مستندرا عطف الرأي العام عليهم حين يصرح بأن عائلات المستوطنين كثيرة العدد، و أن عدد الوظائف المحدود في تونس لا يحل مشكلة الشباب التونسي المتعطل.³³ و في هذه الأثناء تقوم ثورة 23 يوليو في مصر.

و يشعر الباي أن العروش لا تستقر تحت أصحابها إذا لم يسايروا رغبات الشعوب و يحاول أن يححو الذكرى اللاصقة به، منذ قبل ارتقاء العرش على أكتاف الفرنسيين. و في غداة الرد على مشروع دي هوت كلوك يجمع "سيدي محمد الأمين باي" مجلسا يضم أربعين من أعيان تونس، و يبرق إلى رئيس الجمهورية الفرنسية بما اتخذته المجلس من قرارات: و هي ضرورة احترام سيادة الحاكم الشرعي لتونس طبقا لمعاهدة الحماية، و رغبة الباي في إشراك شعبه معه في الحكم. و لا شك أن دي هوت كلوك قد استشاط غضبا لهذا التصرف و فكر في خلع الباي. لولا أن الحكومة الفرنسية كانت تعلم أنها هي التي اختارته بنفسها. و لذلك اكتفت بالرد على الباي قائلة: "بأن مجلس الأعيان لا يمثل أحدا في تونس..".

كان متوقعا أن تكون حكومة "جوزيف لانيل" أكمل تأييدا للمقيم دي هوت كلوك. فإن "جورج بيدو" المعروف بعداؤه للحركات الاستقلالية في شمال إفريقيا كان وزير الخارجية في هذه الحكومة. و لكن الوزير الفرنسي كان قد بيت النية على أن يضرب ضربته القاصمة في مراكش، بخلع السلطان "محمد بن يوسف". فلم يشأ أن يوسع دائرة المشاكل الاستعمارية بالإضافة إلى اشتداد القتال في الهند الصينية في ذلك الوقت.

و رأى الوزير الفرنسي أن خير وسيلة لتهدئة الأحوال في تونس هي إبعاد المقيم العام الذي أثار سخط الوطنيين دون أن يرضي المستوطنين، و اختار أحد المدنيين و هو "فوازار" خلفا لدي هوت كلوك، و كان المفروض أن مغزى هذا التبديل في الإقامة العامة، هو إدخال إصلاحات جدية في هذه المرة لحل الأزمة التونسية. و في 4 مارس 1954 صدرت مراسيم الإصلاحات، و لكنها فاجأت التونسيين بخيبة الأمل. فنظام مناصفة المقاعد في المجالس التشريعية بين المستوطنين و التونسيين ظل قائما، بل أن هذه الإصلاحات، كما علق عليها الحبيب بورقيبة: "قد اختصت المستوطنين بتمثيل أقوى في هذه المجالس، لأن انتخابهم يتم بطريقة مباشرة، أما التونسيون فينتخبون على درجتين.³⁴ و من الإصلاحات الأخرى التي تضمنها مشروع فوازار:

- زيادة عدد الوزراء التونسيين في مجلس الوزراء.

- تطبيق مبدأ الانتخاب بالنسبة للقواد بواسطة المجالس المحلية.

و لم تمض بضعة أيام على صدور هذه الإصلاحات حتى لوحظ أن حركة المقاومة المسلحة، أو "الفلاقة"، كما يسميها الفرنسيون، قد بدأت تتخذ شكلا منظما واسع النطاق. و لسنا نعتقد كما يذكر بعض الكتاب، أنها كانت رد فعل لخيبة الأمل التي أحدثتها إصلاحات 4 مارس، و إنما كانت هي التطور

³³ - Julien (Charles André), L'Afrique du Nord en..., op.cit., p 217.

³⁴ - حتى ذلك الوقت كان الحبيب بورقيبة يقر مبدأ اشتراك المستوطنين مع التونسيين في المجالس النيابية و البلدية. و لكن ليس على أساس انتخابي أو منحهم نصف المقاعد، و إنما على أساس أن تختار الحكومة التونسية بعض أصحاب المصالح من الفرنسيين و تعيينهم في هذه المجالس.

الطبيعي لحركة النضال التي بدأت سنة 1952، و التي اتخذت في مرحلتها الأولى شكل اغتيالات فردية. و من العوامل الهامة التي جمعت الشعب التونسي حول حركة المقاومة، هو تنظيم المستوطنين لفرق انتقامية من بينهم باسم "الإرهاب المضاد" Contre-terrorisme، لاغتيال المعروفين بوطنيتهم. و قد زاد من هذه التنظيمات خطورة و تهديدا لأمن التونسيين، أن البوليس الفرنسي كان يتستر عليها. و لا أدل على هذا من حادث اغتيال الزعيم النقابي الكبير "فرحات حشاد" على أيدي هذه العصابات في ديسمبر سنة 1952. فقد ارتكبت الحادثة في إحدى ضواحي تونس في وضع النهار و قيدت ضد مجهول.

و يمكن ذكر عاملين آخرين ساعدا على نمو حركة المقاومة المسلحة سنة 1954، و هي:

أولا: إيجاد صلة وثيقة منظمة بين فرق التحرير التونسية و بين أكبر منظمة سياسية في تونس، ألا و هي حزب الدستور الجديد. و كان بعض الفرنسيين يحاول إنكار هذه الصلة كي يثبت أن حركة "الفلاحة" ليست إلا تجمعا لبعض المجرمين العاديين.

ثانيا: تولي بعض المجاهدين التونسيين، الذين تدربوا في حرب فلسطين، قيادة فرق جيش التحرير التونسي.

المقاومة التونسية المسلحة (عنوان شخصي).

بدأت هذه المقاومة المنظمة في الجنوب حول مدينة "سوسة"، و منها انتشرت إلى الغرب حتى حدود الجزائر. و لكن لم يقدر لجيش التحرير التونسي أن يبلغ نفس النضج و اتساع النفوذ الذي بلغه جيش التحرير الجزائري فيما بعد. و ذلك لقصر المدة التي استغرقها الكفاح التونسي المسلح، من مارس إلى ديسمبر 1954. فعندما سلم المقاتلون التونسيون السلاح في 9 ديسمبر لم يكن عددهم قد تجاوز 2514 رجلا و إن كان يجب إضافة عدد مماثل تقريبا كان يشتغل لتموين جيش التحرير. كما أن خمسة عشر ألف تونسي كانوا قد سجلوا أسماءهم في فرق المقاومة دون أن ينخرطوا فيها نظرا لنقص السلاح.³⁵

و تزايد ضغط الوطنيين في المدن، و شملت اغتيالاتهم الخونة من التونسيين فضلا عن المستوطنين. و شعر هؤلاء بأن حياتهم في تونس أصبحت غير محتملة، و لذلك اقترح بعض التقدميين من المستوطنين في مايو سنة 1954 بأن تقبل الحكومة الفرنسية أي حل من شأنه إنهاء الأزمة التونسية.

و لإذن، فحركة المقاومة قد بدأت تؤتي ثمارها منذ صيف سنة 1954. و من شواهد ذلك نقل الحبيب بورقيبة من معتقله المنعزل إلى الأراضي الفرنسية. فلما تقدم "منداس فرانس" إلى الجمعية الوطنية يطلب الثقة بوزارته، كان مما أشتتل عليه خطابه، الوعد بحل الأزمة التونسية على أساس ديمقراطي. و بدأ المستوطنون يحسون بأن الحكومة الفرنسية الجديدة لا تنوي الخضوع لهم مثل سابقتها، لأن منداس فرانس كان من بين الساسة الفرنسيين القلائل الذين يدركون تغيرات العصر؟؟ (تعليق) فأخذ المستوطنون يضعون العراقيل في وجهه و قاموا بمظاهرات لإقالة "فوازار" المقيم العام.

³⁵ - Garas (Félix), Bourguiba et la naissance d'une nation, 1956, p 229. Sq.

و شعر منداس فرانس بضرورة اتخاذ قرار سريع يقطع على المستوطنين خط الرجعة. فما كاد ينهي مشكلة الهند الصينية بتوقيع اتفاقية "جنيف" في 20 يوليو 1954، حتى قام برحلة خاطفة إلى تونس في 31 من نفس الشهر. و هناك أعلن قبول حكومته لمبدأ الحكم الذاتي لتونس، على أن يتم تحديد العلاقات بينها و بين فرنسا بواسطة المفاوضات بين الطرفين.

رحب بورقية من مكان إقامته الجبرية بهذه الخطوة، و لكن هذا لم يمه حاله اعتقاله، فبقيت مشكلة اختيار المفاوضات التونسي. و كان من العيب أن يبعد الحزب الدستوري، و هو أكبر منظمة سياسية في البلاد، عن هذه المفاوضات. فاتفقت فرنسا وديا مع الدستوريين على تأليف وزارة جديدة برئاسة أحد المستقلين. و اختير لهذا المنصب "طاهر بن عمار"، و هو من كبار الملاك الزراعيين. على أن يشترك معه ثلاثة من الدستوريين ليتولوا مهمة المفاوضات. و وقع الاختيار على "المنجي سليم" و "محمد المصمودي" و "جلولي"، ليكونوا وزراء دولة في حكومة ابن عمار. و اشترطت فرنسا أن تكون بقية الوزارة من المحايدين في هذه المرحلة. كان منداس يأمل من وراء هذه الإجراءات إنهاء حركة المقاومة المسلحة، و فعلا وجه المقيم العام الجديد الجنرال "بويه دي لا تور" Boyer De La Tour، نداء إلى جميع المقاتلين بتسليم أسلحتهم إلى السلطات الفرنسية، واعداء إياهم بعدم تعرضهم لأية مؤاخذة إلا في حالة ثبوت مخالفة للقانون العام. و لم يكن جيش التحرير التونسي غرا بحيث يطمئن إلى هذا الوعد، بل لوحظ أن القتال عاد فاشتد في شهر سبتمبر، و أراد المستوطنون أن يتخذوا من ذلك حجة كي تراجع حكومتهم عن سياستها إزاء تونس.

و ربما كانت الحكومة الفرنسية مستعدة للتراجع لولا أن ثورة الجزائر هبت في هذه الأثناء و أصبح إنهاء القتال في تونس أمرا ضروريا. و لذلك اضطرت الإقامة العامة إلى وضع شروط جديدة لإنهاء القتال في تونس، و أصدرت بذلك بلاغا مشتركا مع الحكومة التونسية في 6 نوفمبر 1954 و بمقتضى هذه الشروط لم تصبح سلامة المقاتلين التونسيين رهنا بوعدهم فرنسي فقط، بل بناء على اتفاق بين الحكومة التونسية و الإقامة العامة.

ينص هذا الاتفاق على أن تسلم السلطات التونسية تعهدا فرديا لكل مقاتل عند تسليمه لسلحته، و للمجاهد الحرية في أن يسلم السلاح للسلطات الفرنسية أو التونسية و حدد آخر موعد لقبول التسليم في 9 ديسمبر. و أعلن الحبيب بورقية و الزعماء الدستوريون، الذين تبعوه، موافقتهم على هذه الشروط. أبرز موقف الحبيب بورقية من مسألة المقاتلين التونسيين، الخلاف الذي كان قائما بصورة خفية بينه و بين سكرتير عام الحزب، "صالح بن يوسف" الذي اعترض على مبدأ تسليم قبل الاتفاق على مسألة الاستقلال.

كادت الحوادث تؤيد وجهة نظره، خاصة عندما أسقطت الجمعية الوطنية حكومة منداس فرانس في 5 فبراير 1955، بسبب سياستها في شمال إفريقيا. و أعاد المستوطنون المحاولة كي تقلب الحكومة الجديدة سياسة سابقتها مستغلين الظروف الجديدة التي ترتبط على تسليم جيش التحرير، لولا أن خليفة منداس فرانس و هو "إدغار فور" Edgar Faure، كان يعتبر نفسه زعيما لتجمع من الأحزاب عرف نفسه بأنه "التجمع اليساري

الجمهوري " Le Rassemblement Républicain de Gauche. فالتخذ خطوة حاسمة كي يقطع بها خط الرجعة على المستوطنين. فدعا إليه الحبيب بورقيبة و أصدر معه تصريحاً مشتركاً يقيد كلا الطرفين بحل وسط، و هو تأكيد تصريح 31 يوليو بخصوص الحكم الذاتي. مع النص على احتفاظ فرنسا بشؤون الخارجية و الدفاع.

و لا شك أن هذا التصريح ساعد على الإسراع بوضع التفصيلات التي اشتملت عليها اتفاقيات 3 يونيو 1955 بخصوص وضع تونس في ظل الاستقلال الذاتي.

و كما سنرى بعد قليل؟؟؟ (تغيير العبارة) كانت هذه الاتفاقيات نجاحاً لفرنسا أكثر منها لتونس. و لا أدل على ذلك من أن بورقيبة نفسه، رأى فيها مجرد مرحلة نحو الاستقلال. و لو استمر العمل بهذه الاتفاقيات بأكملها لتأيدت وجهة نظر صالح بن يوسف مرة أخرى في معارضته لبورقيبة، الذي وافق على هذه الاتفاقيات، لولا أن عدة ظروف طرأت فساعدت الزعيم التونسي على التخلص من قيود تلك الاتفاقية في وقت أقصر بكثير مما كان يتوقعه. و ذلك حين أعلن في 20 مارس 1956، أن تونس دولة مستقلة ذات سيادة تتولى شؤونها الخارجية و شؤون دفاعها بنفسها، مع الاحتفاظ ببعض الامتيازات لفرنسا. و يمكن رد هذه الظروف إلى عاملين أساسيين هما:

أولاً: اشتداد الخصومة بين بورقيبة و صالح بن يوسف و انقسام الحزب الدستوري الجديد على نفسه. ثانياً: تطور الثورة الجزائرية و ازدياد وطأتها على الجيش الفرنسي.

و تفسير ذلك أن بورقيبة دعا زميله القديم، صالح بن يوسف، و حاول استرضاءه بجميع الوسائل حتى لا يضعف مركز الحزب في هذه المرحلة الخطيرة التي تمر بها البلاد. و لكن صالحاً أصر على موقفه و رفض حضور المؤتمر العام الذي دعا إليه رئيس الحزب في أكتوبر 1955. و مع أن المؤتمر أعلن موافقته على سياسة بورقيبة إلا أن هذا لم يمنع التفاف عدد كبير من التونسيين حول صالح بن يوسف. و كان معنى هذا أنه سيتزعم حركة سياسية جديدة قبيل إجراء الانتخابات التي كان لا بد منها لاختيار جمعية تأسيسية تضع دستوراً للبلاد في ظل النظام الجديد.

و كان من الممكن أن يسوء مركز بورقيبة في هذه الانتخابات لو بقيت الاتفاقيات مع فرنسا على حالها. و معنى انتصار صالح بن يوسف، هو زوال ما بقي من نفوذ فرنسا في تونس. و بهذا المنطق استطاع بورقيبة أن يقنع الحكومة الفرنسية بضرورة التخلص من الشروط القاسية في الاتفاقية حتى لا يترك المجال لأنصار بن يوسف، و هكذا ظفر بورقيبة بإعلان 20 مارس 1956.

سادساً: تناقضات السياسة الاستعمارية تؤدي إلى القطيعة المحتومة



الوطنيون المغاربة في مواجهة المشروع الاستعماري الفرنسي

تمهيد

تسارعت الأحداث بشكل ملفت للانتباه في بلدان شمال إفريقيا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى الأمر الذي ساهم في وجود حركية سياسية جادة كللت بظهور أحزاب مختلفة الاتجاهات داخل المشهد السياسي الشمال إفريقي. فبرز الوعي السياسي لدى طبقات مختلفة من المجتمع، ساهمت في وجوده ظروف الحرب العالمية الأولى التي اشترك فيها مسلمي شمال إفريقيا، سواء كمحاربين في جبهات القتال أو كعمال في المصانع أو فلاحين في "المتروبول". و قد خضعت كل بلدان شمال إفريقيا إلى الاستغلال الاستعماري الفرنسي المكثف خدمة للمشاريع "الكولونيالية" المتنوعة التي وفرت لها فرنسا إمكانيات ضخمة.

هذا الطرح وجدناه حتى قبل نهاية الحرب، أي خلال سنة 1915، عندما بدأ الأوروبيون يتخوفون من عودة الجزائريين و المغاربة و التونسيين إلى التمرد على سلطة الإدارة الاستعمارية، خاصة بعد ما تأكد الجميع من هروب عدد كبير من المسلمين، تنصلا من عملية التجنيد الإجباري التي كانت متواصلة، و من صفوف الجيش، و الذين بدأوا في الاختفاء داخل قرى و مدن المتروبول هروبا من القتال ، و هناك منهم من فضل السجون الألمانية و المحتشدات على أن يبقى يدافع على قضية ليست بقضيته.¹

ظهرت الأحزاب السياسية و الجمعيات الدينية للدفاع عن مصالح شعوب شمال إفريقيا، فتبلورت الأفكار في قضايا جديدة نتيجة التحولات التي أفرزتها نهاية الحرب الكبرى، امتدت قرابة عقدين كاملين قبل اندلاع الصراع العالمي الثاني في سبتمبر من سنة 1939. و مع بداية هذا الصراع، ازدادت الهوة اتساعا بين فرنسا و شعوب شمال إفريقيا إلى درجة أن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا في جوان 1940 و استسلامهم لشروط، غير من معطيات كثيرة في الصراع القائم بين الاستعمار و الوطنيين في أقطار شمال إفريقيا الثلاثة، إذ أنه باختلاف الظروف الدولية و المحلية، تحولت مطالب الوطنيين، من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال.²

إن العمل السياسي الذي باشرته الحركة الوطنية في أقطار شمال إفريقيا، يكاد يكون متشابه بالرغم من ظروف المستعمر المختلفة من بلد لآخر. فالوضع في الجزائر، مثلا، يختلف عن الوضع في المغرب و تونس، لأن الجزائر بالنسبة للفرنسيين لم تشكل يوما سوى مقاطعة فرنسية.³ عكس المغرب الذي جمعته مع فرنسا اتفاقية

¹ - A.W.O, dossier presse, L'Echo d'Oran, du 03 janvier 1940.

² - سمير (أمين)، المغرب العربي الحديث، ترجمة: كميل ق. داغر، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع، ش.م.م، بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، بيروت، ط2، 1981، ص ص 73-141.

³ - مرت فرنسا بمراحل عصيبة عشية غزوها للجزائر بدأ بمحاولة الانقلاب التي قضت على "شارل العاشر" فاسحة المجال للنظام العسكري، الذي سوف يدوم إلى غاية 1845. جاء قرار 22 جويلية 1834 ليقتن تنظيم الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا. فتم تعيين "حاكم عام" يكون تابعا لوزارة الحرية، يساعده في مهامه محاسب مدني، وكيل للجمهورية و مدير للمالية. كما أن الجزائر بقيت تسير بنظام "القرارات الملكية" و ليس بقوانين المتروبول. معنى ذلك، نظام تشريعي خاص سوف يدوم إلى غاية سنة 1947. لأكثر شروحات ينظر:

- Collot (Claude), Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale 1830-1962, CNRS Paris, OPU Alger, 1987, p 7.

الوصاية في 30 مارس من سنة 1912،¹ و تونس التي أبرمت معها فرنسا معاهدة الحماية المعروفة بمعاهدة "باردو" في 12 ماي 1881.²

كما اختلفت الحركات الوطنية من حيث نشأتها و اتجاهاتها، في كل من الجزائر و تونس و المغرب، بحسب الظروف التي أحاطت باحتلال كل منها و الطرق التي اتبعت في استعمارها و إدارتها. فمثلا كان لتأخر احتلال تونس نحو نصف قرن عن الجزائر أسبابه، حيث أتيحت لتونس الفرصة لتجربة سياسة التجديد و الإصلاح، بل حتى النظام الدستوري المحدود في عهد ما قبل الحماية.³

إلا أن العديد من الباحثين يعتبرون أن الربع الأول من القرن العشرين هو بمثابة العهد الجديد الذي شهد ميلاد أشكال جديدة من المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي أبرزها، الإضرابات و العرائض و المفوضين، إلى جانب توفير وسائلها، خاصة منها: الصحافة و المقالات المنتقدة للسياسة الفرنسية، و الجمعيات و النقابات العمالية و الأحزاب. غير أن بدايتها كانت في اتجاه المطالبة بالإصلاحات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية لإصلاح أحوال المسلمين في شمال إفريقيا.⁴

إن الصعوبات الاقتصادية و الظروف الاجتماعية المتدهورة، هي الأخرى حطت بكل ثقلها في ظهور الوطنية في البلدان العربية بشمال إفريقيا، حيث توفرت كل الشروط لتنظيم احتجاجات للمطالبة بتحسين الظروف الاجتماعية للمسلمين ضد البؤس و الحرمان الذي طال السكان في الأرياف و حتى في المدن. و أكدت كل مطالب الوطنيين في هذه المرحلة على الأوضاع المعيشية لسكان شمال إفريقيا و ضرورة إقدام السلطات الاستعمارية على إيجاد الحلول المناسبة لها.⁵

¹- أبرمت اتفاقية الوصاية بين الحكومة الفرنسية و حكومة الملك "مولاي الحفيظ" بغرض تثبيت نظام عادي في المغرب، قائم على النظام الداخلي و الأمن العام، مما سيسمح بالقيام بإصلاحات ستساهم في التطور الاقتصادي للبلاد. و قد اشتملت على تسعة (9) بنود، و تم التوقيع عليها من الطرفين في مدينة فاس في 30 مارس 1912 الموافق لـ 11 ربيع الأول من سنة 1330 هجرية.

²- عززت معاهدة "باردو" موقع فرنسا في استغلالها الاستعماري لمناطق شمال إفريقيا، إذ أقدمت السلطة المركزية في باريس على إحداث إدارة فرنسية جديدة يرأسها "مقيم عام" Résident général، إلى جانب الإدارة التقليدية التونسية التي أصبحت مسخرة لخدمة الإدارة الاستعمارية. و أبرمت هذه المعاهدة في 12 ماي من سنة 1881.

³- من الذين كتبوا بإسهاب كبير عن الحركات التحررية و القومية في شمال إفريقيا ينظر كل من:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، طبعة 5، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993.

- Le Tourneau Roger, Evolution politique de l'Afrique du nord musulmane 1920-1961, Armand Colin, Paris, 1962.

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche : nationalisme musulmans et souveraineté française, 3^e éditions, Julliard éditions, Paris, 1972.

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine 1871-1954, t2, PUF, Paris, 1979.

- Ageron Charles Robert, politiques coloniales au Maghreb, collection Hier, PUF, Paris 1972.

⁴- Djeghloul (Abdelkader), Eléments d'histoire culturelle Algérienne, collection patrimoine, ENAL, Alger, 1984, p 200.

⁵- Valette (Jacques), La France et L'Afrique, L'Afrique française du Nord 1914-1962, Sedes éditions, Paris, 1993, pp 14-15.

لعل خطاب الرئيس الأمريكي "ولسن" هو الذي ألهم مشاعر مجموعة من المهاجرين التونسيين و الجزائريين لتأسيس "مجلة المغرب" ¹ Revue du Maghreb سنة 1916 تحت مسؤولية التونسي "محمد باش حانية" ² Bach-Hamba والتي باشرت كتاباتها بنضال سياسي و أيديولوجي مكثف أين نددت في العديد من المرات بالسلطة الاستعمارية في تونس و الجزائر.

إن الكتابات المتعلقة بتاريخ الحركة الوطنية في بلدان شمال إفريقيا غير كافية، و بقيت كذلك إلى ما بعد مرحلة تحرير بلدان المغرب من الاحتلال الفرنسي فيما بين 1952 و 1962. ³ و كان علينا انتظار هبوب ريح التجديد التي مست الدراسات المتعلقة بالحركات الوطنية حتى نشهد بروز كتابات أخرى حاولت إعادة قراءة المسار العام لهذه الحركات من خلال الكشف عن حقائق تاريخية جديدة. ⁴

كما أن خارطة عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى جسدتها هيمنة الدول صانعة الانتصار من خلال ما ألت إليه كل نتائج مؤتمر الصلح التي لم ترضي آمال كل الشعوب و القوميات، بما في ذلك تلك التي كانت تعيش تحت وطأة الاحتلال الأوروبي. حيث اكتفت المستعمرات بلعب دور "الضمان اللوجستي" للقوى الاستعمارية الكبرى، خاصة في الجانب الاقتصادي، و ذلك لتوفيرها للموارد و الأسواق، مدعمة باليد العاملة التي كانت توفرها هذه المستعمرات.

لم يكن للاستعمار الفرنسي حدود في بلاد المغرب، بدليل انتصار إيديولوجية " المهمة الحضارية" التي جاءت بها فرنسا الاستعمارية وفرضتها على ضحاياها العاجزين على توحيد مقاومة حقيقية مما جعلهم يستسلمون في النهاية للقدر المحتوم، فلم يبق في بلاد المغرب دولة مستقلة.

¹ - أنشأت "مجلة المغرب" في سويسرا سنة 1916 من طرف "محمد باش-حانية"، و هو من أصول تركية و يحمل الجنسية التونسية. و بداية من

1918 بدأت تطالب باستقلال كل من تونس و الجزائر. و في سنة 1919 تمكنت مجموعة مشكلة من 4 تونسيين و 3 جزائريين من إرسال مذكرة إلى الزعماء المجتمعين في قصر فرساي تحتوي على مجموعة من المطالب التي تخص تحسين ظروف المسلمين الأهالي في القطر... ينظر كل من:

- Tlili Béchir, Crises et mutations dans le monde islamo-méditerranéen contemporain 1907-1918, publications de l'Université de Tunis, 1978.

- Benhabiles Chérif, L'Algérie Française vue par un indigène, imprimerie orientale Fontana Frères, Alger, 1914, p 129.

ملاحظة: لا تتوفر أي مكتبة جزائرية على أعداد لهذه المجلة و هي موجودة في تونس و في المكتبة الفرنسية بباريس.

² - ولد محمد باش حانية سنة 1881 و هو الأخ الأصغر لعللي باش حانية. اشتهر بكتاباتة الوطنية في الجرائد و هو رئيس تحرير المجلة التي أسسها في سويسرا سنة 1916 "مجلة المغرب". و كانت هذه المجلة الشهرية تنتقد بشدة الواقع الاستعماري الذي فرضته فرنسا على الشعبين الجزائري و التونسي. و كانت تطالب بإصلاحات عميقة للشعبين. غير أن سلطات الإدارة الاستعمارية قامت بمصادرة كل الأعداد التي كانت ترسل إلى تونس و الجزائر. ألفت مذكرة بعنوان: الشعب الجزائري-التونسي و فرنسا" أين ندد فيه بسياسة المشاركة مع فرنسا. توفي في 27 ديسمبر من سنة 1920 في

ألمانيا. أنظر: <http://www.citoyens.des.deux.rives.eu/index.php>

³ - يمكننا الإشارة هنا إلى مؤلفات عديدة تناولها مؤرخون فرنسيون بالدرجة الأولى، و التي تناولت الموضوع و نذكر منها على وجه التحديد:

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit.

- Le Tourneau Roger, Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane..., op.cit.

- Nouschi André, La naissance du nationalisme Algérien 1914-1954, éditions Minuit, Paris 1962.

⁴ - Sur ce sujet voir la thèse de Kaddache :

- Kaddache Mahfoud, La vie politique à Alger de 1919 à 1939, SNED, Alger, 1970.

و بالعودة إلى منطقة شمال إفريقيا، نجد تحتل مكانة إستراتيجية في الخريطة الطبيعية و الجيو-استراتيجية للقارة السمراء، و تعتبر بذلك البوابة الرئيسية لها. فهي تمتد على مسافة أكثر من 4000 كلم من الغرب إلى الشرق، أي ما يعادل امتداد القارة الأوروبية من الأطلسي غربا إلى جبال "أورال"¹ Oural شرقا، و تحتل مساحة 6 ملايين كلم²، أي ما يساوي 60% من مساحة القارة الأوروبية.² كما أطلق على منطقة المغرب كلمة "الغرب" استنادا إلى امتداد المنطقة من المغرب الأقصى غربا إلى ضفاف نهر النيل شرقا، و من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى صحاري منطقة الساحل جنوبا. و تجمع بين دول ليبيا و تونس و الجزائر و المغرب الأقصى و موريتانيا. غير أن موضوع دراستنا يدفعنا إلى تقليص الموضوع إلى الدول التي كانت خاضعة للاحتلال الفرنسي في الشمال و هي: الجزائر و تونس و المغرب الأقصى.³

تفرق الجغرافيا الدول الثلاثة إلى مجموعتين متباينتين بخصائصهما الطبيعية، حيث نجد في الشمال المغرب المنتمي للجهة المتوسطية بمناخ شبه استوائي، و في الجنوب الصحراء المغربية و التي يفصل بينهما الخط الشمالي لآخر الواحات التي تتجه نحو المنحدرات الجنوبية للأطلس الأعلى الشرقي في المغرب، و الأطلس الصحراوي في الجزائر نحو السلاسل الجبلية في قفصة التونسية. و بذلك يحتل الجزء المتوسطي من بلاد المغرب 765000 كلم² و الجزء الصحراوي منه حوالي 2052000 كلم².⁴

إن التسمية التي أطلقت على هذا الجزء من شمال إفريقيا من طرف العرب القدامى على أنها "جزيرة المغرب" L'Ile du couchant تجسدها العزلة التي يوجد عليها المغرب المتوسطي عن باقي بقاع البلاد العربية شرقا و الصحراء الإفريقية جنوبا على مسافات آلاف الكيلومترات، مما يجعل هذه العزلة أكثر شدة و وضوحا. هذه المناطق التي تتشكل من الأجزاء الشمالية من تونس و الجزائر و المغرب الأقصى، هي التي أطلق عليها المستعمر الفرنسي اسم "إفريقيا الشمالية الفرنسية" مع مطلع القرن العشرين، و ذلك حتى يتم تمييزها عن المنطقة الصحراوية.⁵

كما تمتد بلاد المغرب من الجهة الشمالية على مسافة 2400 كلم من الغرب إلى الشرق و بين دوائر العرض 29° و 37° شمالا. و بهذه البنية الجغرافية و المناخ السائد فهي تذكرنا بالجزء الغربي من منطقة "الهلال الخصيب" الذي يجمع بلاد الشام كاملة و الأردن و فلسطين.⁶

¹ - سلسلة جبال سوفيتية (سابقا) روسيا حاليا، تمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة 2500 كلم، و تعتبر الحد التقليدي الفاصل بين القارة الأوروبية و القارة الآسيوية على ارتفاع 1894م. كما يزخر باطن أراضيها و محيط جبالها بموارد طبيعية هامة مثل الفحم و الحديد و النفط. الأمر الذي جعل المنطقة أحد أكبر المناطق الصناعية في روسيا، حيث انتشرت صناعات هامة منها الحديد و الصلب و الصناعة الكيماوية حول مدن كبيرة مثل: سفيدلوسك و تشيليابينسك و مانيتوغورسك و أوبا... Sverdlovsk, Tcheliabinsk, Magnitogorsk, Oufa... أنظر:

- Dictionnaire encyclopédique Petit Larousse illustre 1984, librairie Larousse, Paris, 1980, pp 1575-1576.

² - Lacoste (Yves et Camille), L'Etat du Maghreb, éditions la découverte, Paris, 1991, p 19.

³ - Amin (Samir), Le Maghreb moderne, éditions de minuit, Paris, 1970, p 9.

⁴ - Ibid., p 10.

⁵ - Lacoste (Yves et Camille), L'Etat du Maghreb..., op.cit., p 20.

⁶ - Amin (Samir)..., op.cit., p 10.

لقد أطلق الإغريق تسمية "بلاد الأطلس" على بلاد سوريا باعتبارها بلاد جبلية، الأمر نفسه ينطبق على المغرب الأقصى و الجزائر التي توجد نصف بلادها على علو يفوق 1000م. و تتعدى أوجه التشابه مع بلاد سوريا لتشمل أيضا نسبة التساقط التي تعتبر غير كافية و غير منتظمة و موزعة توزيعا متذبذبا، بحيث أن ثلث البلاد يستقبل أكثر من 400 ملم من الأمطار، و هو الحد الأدنى لتنظيم زراعة الحبوب و الزراعات المتوسطة.¹

كما تمكن التضاريس و المناخ و الغطاء النباتي من التمييز بين المنطقة المتوسطية و منطقة السهوب في كلا من البلدان الثلاثة من بلاد المغرب. ففي المغرب الأقصى توجد سلسلة الأطلس الأعلى التي تحتوي على أعلى قمة جبلية في شمال إفريقيا على ارتفاع 4165م. أما مناطق السهوب فهي تغطي مناطق المغرب الأطلسي كما تغطي مجموع المغرب الشرقي الذي يعتبر امتدادا للمنطقة الغربية من الجزائر.

أما في الجزائر، فيمتد الجزء الشمالي منها على سلسلة ساحلية هامة. حيث نجد الأطلس التلي الذي يمتد على مسافة عرضية تتراوح ما بين 70 إلى 150 كلم، يجمع بين مجموعة سهول ساحلية، منها سهول وهران و سهول منطقة الشلف و المتيجة في وسط البلاد و سهول عنابة. أما باتجاه غرب الجزائر، فتوجد سلسلة جبلية موحدة بين مرتفعات الدهرة و الونشريس و تسالة، و هي أقل ارتفاعا عن المناطق الشرقية التي تتشكل من مرتفعات جرجرة و البيان و البابور التي يصل ارتفاعها إلى 2308م. أم باتجاه الجنوب فتوجد الهضبة الصحراوية القديمة التي تشمل مجموعة سلاسل جبلية المشكلة للأطلس الصحراوي ممتدة من الغرب إلى الشرق تحتوي على مرتفعات القصور، أعلى قمة بها تصل إلى 2236م، منها جبال عمور و مرتفعات أولاد نايل و مرتفعات الحضنة و الأوراس التي توجد بها أعلى قمة في الجزائر مثلة في جبال الشيلية على ارتفاع 2329م.²

بخصوص تونس، فإن معدل الارتفاع لا يتعدى 300م، مقابل 900م بالنسبة للجزائر و 800م بالنسبة للمغرب الأقصى. و الميزة التي تشتهر بها تونس تكمن في اشتراك الأطلس التلي مع الأطلس الصحراوي مما يعطي خط القمة التونسي الذي يوجد على ارتفاع 1544م باتجاه الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي ممتد نحو "كاب بون" Cap bon. أين توجد أعلى مرتفعات بجبال "الشعني" على ارتفاع 1590م فقط.³ و بالتالي، فإن هذه القمة تفصل بين منطقة تونسية متوسطة في الشمال، و منطقة تونسية في الجنوب مشكلة من منطقة سهبية و أخرى صحراوية.

يمتاز شمال خط القمة بتساقط أمطار تتعدى 400ملم و في بعض الأحيان يصل إلى أكثر من متر في قمة "كروميري" بمنطقة "عين الدراهم". أما جنوب خط القمة، و إلى غاية الخط قفصة-قابس فهو مجال المناطق

¹ - Amin (Samir), Amin (Samir), Le Maghreb moderne, op.cit., p 10.

² - Ibid., pp 11-12.

³ - Julien (Charles André), Histoire de l'Afrique du Nord des origines à 1830, éditions Payot et Rivages, Paris, 2ème éditions, 1951-1969-1994, p13.(Cet ouvrage avait fait l'objet d'une première éditions, en 1931. En 1951, Charles André Julien décidait de le remanier et de l'actualiser avec l'aide de Christian Courtois et de Roger Le Tourneau. C'est cette dernière version, inchangée, que nous reprenons ici.)

السهبية التي يتراوح فيها معدل التساقط ما بين 200 إلى 400 ملم و تمتاز بمناخ يجمع بين المتوسطي و القاري و الذي يعرف بصيف حار و شتاء بارد خاصة على امتداد المناطق الحدودية بين الجزائر و تونس.¹

كما تشكل شمال إفريقيا كتلة من الأراضي العالية على شكل رباعي الأضلاع محصورة بين مياه الأطلسي غربا و المتوسط شمالا و رمال الصحراء الشاسعة جنوبا. و الملاحظ على الأطراف الأربعة لرباعي الأضلاع أنها غير متساوية. و يمتاز الجزء الغربي من المغرب و الشرقي من تونس بقلّة الأراضي المنخفضة حيث يغلب عليه السهول المرتفعة و الهضاب المحاطة بمجموعات جبلية تندمج في المشهد الطبيعي للأطلس.²

فيما يخص الثروة المائية، توجد هناك أنهار و أودية هامة في كل من المغرب و الجزائر و تونس تمتاز بجريانها طول السنة غير أنها ليست صالحة للملاحة البحرية. ففي المغرب توجد مجموعة أودية تنطلق من سلاسل الأطلس نحو المحيط الأطلسي و هي؛ وادي سبيو و وادي بورقرق و وادي أم الربيع و وادي سوس. كما توجد أودية أخرى تنطلق من مرتفعات الريف نحو البحر الأبيض المتوسط و هما وادي ملوية.³

بينما في الجزائر نجد أن كل مجاري المياه الهامة تجري من الجنوب نحو الشمال أين يوجد البحر الأبيض المتوسط الذي يعتبر الواجهة البحرية الوحيدة للجزائر. و من أهم الأودية و الأنهار نذكر وادي التافنة و وادي سيق و وادي الشلف و وادي الصومام و وادي سيوس. بينما تمتاز تونس بجريان أهم أوديتها و هو وادي مجردة نحو البحر.⁴

أولا: الجزائريون و النهضة الجديدة 1919-1939

حرصت فرنسا منذ غزوها للجزائر بأن تكون البلاد ملكا لها. فانتهجت سياسة واضحة المعالم تمكنت من خلالها تطبيق مشروعها الرامي إلى طمس الخصائص القومية للمجتمع الجزائري حتى تهيئه إلى المرحلة الحاسمة المتمثلة في دمجها نهائيا داخل أوصار فرنسا المسيحية. فالإدماج كان يمثل المرحلة النهائية للأسطورة الاستعمارية التي كانت تتغنى بالحضارة و الرقي و السلم و السلام. غير أن الأمر في النهاية لم يغدو أن يكون سوى جعل من الجزائر امتدادا لفرنسا فيما اصطلح عليه بإقليم ما وراء البحار. Province d'Outre-mer. أو الذي أطلق عليه الفرنسيون ببساطة: "جزائر الفرنسيين" بفعل السياسة الاستعمارية المنتهجة.⁵

¹ - Julien (Charles André), Histoire de l'Afrique du Nord des origines à 1830., op.cit., p 13.

² - Ibid., pp 12-13

³ - Benachenhou (Abdellatif), Connaissance du Maghreb, notions d'ethnographie d'histoire et de sociologie, éditions populaire de l'armée, Alger, 1971, p 12.

⁴ - Ibid., pp 12-13.

⁵ - يمثل الفعل الاستعماري مهمة "الدولة" و التي تتجسد بحجرة استيطانية على أراضي الشعب المقهور. و عملية الاستعمار تتطلب قبل كل شيء، وضع مجموعة ميكانيزمات تسمح بتحقيق السيطرة السياسية و الأرباح الاقتصادية. أي تحديد نظام يتماشى مع طبيعة البلد المراد استعمار. ينظر في هذا الباب إلى كل من:

- Luchaire François, Manuel de droit d'outre-mer, librairie du recueil Sirey, Paris, 1949, p 17.

- Vatin Jean Claude, L'Algérie politique Histoire et Société, éditions El Maarifa, Alger, 2010, pp 111-112.

اعتمد المخطط الفرنسي منذ البداية على تدمير أسس البنية التحتية و القيم الروحية للمجتمع الجزائري المسلم، و التي عرف بها قبل 1830 عندما كانت البلاد من المراكز الحضارية و الثقافية المزدهرة في حوض البحر المتوسط إلى جانب حواضر المغرب الأقصى و المغرب الأدنى.

واجه الجزائريون هذا الهدم المبرمج بكل وسائل المقاومة المتاحة لهم إلى أن اهتمدوا إلى السبل و الطرق السلمية الجديدة في الحصول على حقوقهم المهضومة. فاستخدموا الأسلوب السياسي و اعتمدوه كخيار و علقوا عليه الآمال الكبرى ظنا منهم بأن الاستعمار قد تجاوز مرحلة الاستبداد بمجرد انتهاء الحرب العالمية الأولى. و أنه تعدى ذلك إلى مرحلة الانفتاح السياسي التي ستسمح له بمراجعة أمور كثيرة متعلقة بوضعية الجزائريين. إلا أن الذي حدث كان مغايرا لكل هذه التوقعات، بدليل أن فرنسا راحت تتمادى في مناوراتها المعهودة كلما حلت بها أزمة تهددها في كيانها. فتلجأ إلى الأساليب الدنيئة للتحايل على الشعب الجزائري و على الطبقة السياسية حيث كانت تعتبرها أداة في خدمة أطماعها و مصالح الكولون في الجزائر لا غير.

الواقع، أن هذه الآمال تبددت مع نهاية الحرب العالمية الأولى عندما رفضت فرنسا مطالب مجموعة من زعماء النخبة الوطنية، فاسحة المجال أمامهم لاقتحام المعتزك السياسي فيما عرف بميلاد الوطنية الجزائرية. كما حملت نهاية الحرب معها تحولات كبيرة شملت الميادين الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية باعتبار أن الجزائر هي التي غذت آلة الحرب الفرنسية ما دام أن المشاركة الجزائرية تعدت ميادين القتال نحو المصانع و المزارع.

1- الشروع في العمل السياسي بعد نهاية الحرب الكبرى

من خلال عملية تشريح موجزة للتطور التدريجي الذي صاحب مراحل احتلال الجزائر و سعي فرنسا إلى فرض منطق الاستيطان و الإدماج، وجدنا بأن فرنسا حاولت توطين الأوروبيين في الجزائر من أجل خلق واقع جديد يفرض نفسه بالقوة من أجل القضاء على العنصر المحلي الذي بقي أسيرا للقوانين و المراسيم الاستعمارية طوال عقود من الزمن، رغم التفوق العددي للجزائريين.¹

بقدر ما كانت دوافع فرنسا قائمة على تطبيق تجاربها المكثفة على أرض الجزائر، بقدر ما كانت ردود أفعال هذا الشعب قوية في رفضه لكل أشكال الهيمنة و الاضطهاد. غير أن فرنسا، التي اعتبرت أرض الجزائر ملكا لها منذ البداية و مخبرا ملائما لتجارها، راحت تطبق فيها و على شعبها سياساتها القمعية و التوسعية، من أجل

¹ - هناك كتابات عديدة في هذا الباب أشارت إلى مختلف السياسات و الطرق التي اتبعها الاستعمار من أجل امتلاك الأرض و البشر في الجزائر. و كلا من الاستيطان و الإدماج شكلا تهديدا خطيرا على الشعب الجزائري. فكانت مصادرة الأراضي أولى الخطوات التي قامت بها الإدارة الاستعمارية من أجل تفكيك البنية التحتية للمجتمع الجزائري، ثم تلتها المشاريع الكبرى في طريق الإدماج من خلال ما عرف بـ"ملكة العرب" لنابليون الثالث. لأكثر شروحات ينظر كل من:

- Prenant André, « La propriété foncière des citoyens dans les régions de Tlemcen et Sidi Bel Abbes » in revue Annales Algériennes de géographie, N° 03, 2ème année, 1967, pp 11-13.
- Rey Goldzeiguer Annie, Le royaume arabe, la politique Algérienne de Napoléon III, 1861-1870, SNED, Alger, 1971, p 647 .

تحقيق حلم الإمبراطورية الفرنسية العظمى.¹ كما حاول البعض تبرير هذا الطرح حينما اعتبروا الاحتلال الفرنسي للجزائر مرحلة انتقالية ضرورية كان لا بد منها لإخضاع كل مناطق البلاد.²

فالجزائر لم تكن "مستعمرة فرنسية" بالمفهوم التقليدي للكلمة، خاضعة لوزارة البحرية. وإنما كانت "أرض فرنسية" تابعة لوزارة الحربية، كما تبينه دساتير سنوات 1848 و 1852 التي كانت تفرق بين المستعمرات الفرنسية و الجزائر في الشق المتعلق بتطبيق القوانين و التعليمات و المراسيم. و حتى عندما أنشأ نابليون الثالث ما عرف "بوزارة الجزائر و المستعمرات" بقيت الجزائر في وضع خاص يميزها عن باقي المستعمرات الفرنسية لما وراء البحار. هذه الخصوصية ستعيشها الجزائر خلال كل فترات الحقبة الاستعمارية كون عملية استعمار الجزائر اعتبرت مشروع لا مثيل له و دون مقارنة في التاريخ المعاصر. ربما ذلك راجع لطبيعة العلاقات الجزائرية- الفرنسية التي كان يعتبرها الكثيرون علاقات مميزة منذ عهد بعيد.

لقد عاشت الجزائر مع مطلع القرن العشرين تحولات نوعية تأسست على إثرها الحركة السياسية الوطنية التي كان المبدأ منها مطالبة السلطات الاستعمارية، و بشكل مغاير عما كان معمول به سابقا، بالحقوق السياسية التي لا طالما حرمتهم منها فرنسا طيلة العقود السابقة. فكانت حركة "الشبان الجزائريين" أول حركة سياسية اعتمدت الأقلام العصرية تحت هذه التسمية.³ كما أن هذه الجماعة نعتت أيضا بكلمة "المتطورين".⁴

قد تعود البداية الفعلية للنشاط السياسي إلى مرحلة متقدمة من القرن العشرين،⁵ و ذلك راجع للاهتمام المتأخر للمؤرخين لما كان يجري في الجزائر من حركية سياسية تفاعلت مع الحركات الوطنية المتجددة التي ظهرت في بقاع متعددة من العالم و التي حملت في طياتها المفاهيم السياسية و الإيديولوجية على حد سواء، على غرار

¹ - راود القادة العسكريين و الحكام السياسيين الفرنسيين حلم بناء إمبراطورية عظمى على الطريقة البريطانية، لدرجة أنه تحول إلى أسطورة في مخيلة الضباط "سان سيمونيين". ينظر :

- Collinet (Michel), « Le Saint Simonisme et l'armée », in *revue Française de sociologie*, N° 01, 2ème année, Janv.-Mars 1961, pp 50-66. In Iremam bibliothèque, Aix en Provence.

² - Aron (Robert) et les autres, *Les origines de la guerre d'Algérie Textes et documents contemporains*, librairie Fayard, Paris, 1962, p 7.

³ - Aron (Robert) et les autres...Ibid.. p 107.

⁴ - من خلال الأدبيات السياسية، سجلنا ظهور كلمة "المتحضرين" Les évolués، التي ألصقت بجماعة من المثقفين الجزائريين الذين تمكنوا من شق طريقهم نحو العلم و المعرفة بعدما تيقنوا من ضرورة التعلم بلغة المستعمر. لأن طريق آخر لم يكن ليتمكنهم من الوصول إلى ما وصلوا إليه. غير أن حركة هؤلاء الشبان لم تكن لها صفة المعارضة السياسية الحقيقية، على الأقل في بداية مشوارها، لأن كلمة الشبان الجزائريين بقيت لمدة و هي تتداول في الأوساط الجزائرية إلى غاية انعقاد المؤتمر الإسلامي سنة 1936، و قد اعتمدتها حتى الصحافة الجزائرية. أنظر:

- Archives de la wilaya d'Oran, Dossier presse, *La défense*, « Les leaders du mouvement jeunes Algériens », N°06, Septembre 1935.

⁵ - تمثل هذه المرحلة من تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية صراع جوهري بين دعاة المساواة في الحقوق السياسية و الاجتماعية بين الجزائريين و الفرنسيين، و لكن دون التخلي عن أحوالهم الشخصية كمسلمين، و بين دعاة الإدماج الحاملين لفكرة التجنيس و الانصهار داخل المجتمع الفرنسي. حيث يرى هؤلاء أن ذلك من حتميات الأمور التي تفرضها السياسة المنتهجة من طرف فرنسا في الجزائر، و يعتبرونه الوضع الأنسب و الأمثل للجزائريين. و قد تجلّى هذا النخبة المتفرنسة وراء هذا المطلب، بينما انتهجت جماعة الأمير خالد و الحاج موسى الطريق المعاكس بمطالبتها بحقوق الشعب الجزائري.. و قد تجلّى هذا الصراع بين الفريقين في الانتخابات البلدية التي نظمت في مدينة الجزائر في سنة 1919 و التي أسفرت على معركة انتخابية شديدة التنافس.

الحركات التي ظهرت داخل أوروبا مثل: ألمانيا الفتاة و أيرلندا الفتاة و إيطاليا الفتاة، و ما كان يجري داخل البلاد العربية الإسلامية، كما هو الشأن بالنسبة لتركيا الفتاة و مصر الفتاة.¹

إن ظهور جماعة "الشبان الجزائريين" يعود إلى ما قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، حيث قامت بعمل كبير في سبيل دفع السلطات الاستعمارية إلى اعتماد ما عرف "بالإصلاحات" التي تأخر ظهورها إلى غاية سنوات 1918-1919. مع العلم أن هذه الحركة كانت تحمل في طياتها توجهات متشعبة جعلت منها النخبة الجديدة التي تفتقر إلى العدد و المنقسمة على نفسها في محاولة لإيجاد مشروع مجتمع جديد يخدم مصالح الجزائريين. فتضاربت مشاريعها بين القبول بالمقترحات الفرنسية نحو التجنيس، كما اقترح ذلك كل من ابن تهامي و صوالح، أم التفكير بجدية في مشروع الاستقلال، كما بدر من مجموعة المغتربين من سويسرا، أم الدفاع عن المبادئ التقليدية مع الانفتاح على العصرنة الأوروبية في حال احترامها لتعاليم الدين الإسلامي و لعادات و تقاليد الشعب الجزائري. فكانت هذه هي النقاط الجوهرية التي اصطدم بها الشباب الجزائري في مهمتهم السياسية الأولى.²

نشطت النخبة في تقديم المذكرات لدى السلطات الفرنسية، و سارت على نفس نهج و أسلوب القدامى أمثال "حمدان خوجة"³ الذي بدأ بالمذكرات الاحتجاجية مع بداية الاحتلال، خاصة بالمذكرة التي تقدم بها إلى البرلمان. ثم تواصلت العملية في عهد نابليون الثالث حيث قدمت له عرائض تنتقد الحكم المدني و نظام التجنيس. و لما طرح موضوع تجنيد الجزائريين للمرة الأولى أمام البرلمان الفرنسي سنة 1887، بدأت الأقلام من جديد تتحرك للمطالبة بالمساواة و حقوق الشعب الجزائري.⁴

أما مسألة التجنيد فقد طرحت بشدة مع نهاية القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين، حيث فكرت الإدارة الاستعمارية بإنشاء جيش كبير في إفريقيا تقوم من خلاله بتجنيد دائم للمسلمين ليصل العدد إلى قرابة 300000 جندي. إلا أن ذلك لم يتحقق بسبب عدم قدرة الإدارة الاستعمارية على تمويل هكذا مشروع ماليا، إلى

¹ - Ageron (Charles Robert), *Genèse de l'Algérie algérienne*, EDIF 2000, Alger, 2010, p 107.

² - Djeghloul (Abdelkader)..., op.cit., p 209.

³ - ولد حمدان بن عثمان خوجة في مدينة الجزائر سنة 1773. ينحدر من عائلة ذوي الأصول التركية استقرت في أيلة الجزائر منذ مدة. و هي من الكراغلة. و يعتبر من أعيان مدينة الجزائر حيث راسل الملك الفرنسي "لويس فيليب" في بداية الغزو الفرنسي ليطلعه على الجرائم المرتكبة من طرف الجيوش الفرنسية ضد المواطنين العزل في الجزائر. كتب في البداية كتابه الشهير "Le Miroir" المرأة.

شارك في المجلس البلدي للجزائر و في اللجنة الفرنسية لتعويض الأشخاص الذين فقدوا أملاكهم جراء التهلم التي لأقمت عليه السلطات الاستعمارية في الجزائر بسبب "منفعة عامة". ثم اعتبر وسيطا في المفاوضات التي جمعت الفرنسيين بباي قسنطينة "أحمد باي". في سنة 1933 قدم مذكرة أمام اللجنة الإفريقية التي بعثت بها السلطات الفرنسية للجزائر، ندد فيها بكل الخروقات التي أقدم عليها الجيش الفرنسي. و بعد فشله في إقناع السلطان العثماني بالتدخل في مسألة الجزائر، غادر بالريس سنة 1836 ليستقر في "اسطنبول" أين توفي سنة 1842. أنظر:

⁴ - <http://fr.wikipedia.org>

تبنى هذه المبادرة مجموعة من المثقفين الجزائريين الذين درسوا في المدارس الفرنسية و تخرجوا من جامعاتها على غرار الأستاذ "أحمد أبو ضرية" الذي يعتبر أول محامي جزائري تخرج من كلية الحقوق بباريس، و الصحافي "صادق دندان" و المفوض المالي "الحاج عمار"، الذين طالبوا بإصلاحات على أساس قانون 1865. ينظر في الموضوع إلى:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص ص 10-11.

جانب تخوف الكولون و الإدارة من منح حق المواطنة للمسلمين.¹ ثم جاء "مشروع-قانون" Projet de loi "قولي" و "ميشلان" سنة 1889، مجهضا منذ البداية، باعتبار أنه اقترح إدماج المسلمين و منحهم الحقوق السياسية كشرط مسبق لإلزامهم بالخدمة العسكرية، غير أنه رفض من طرف المستعمرين لأنه يشكل خطرا على مستقبل الجزائر الفرنسية.²

أما مشروع "كاميل شوطان"³ Chautemps Camille الذي تقدم به سنة 1900، فقد اهتم بإنشاء وحدات عسكرية جزائرية تمثل القوة الاحتياطية للجيش الفرنسي في الجزائر مشكلة من جميع من له القدرة على حمل السلاح. و هذا المشروع لم يرى النور أيضا، بسبب تعنت الكولون.⁴

اتفق المحافظون و النخبة على معارضة فكرة تجنيد الجزائريين لأسباب مختلفة. فالحافظون قالوا أنها تتعارض مع المشاعر الدينية و مع تعهد فرنسا سنة 1830 باحترام الإسلام. أما النخبة فرأت أن التجنيد يقتضي مبدأ المساواة في الحقوق طالما أن الجزائريين سيؤدون مثل المواطنين الآخرين نفس الواجبات.

فيما يخص الفرنسيين، فقد قيل الكثير عن البدايات الأولى لعمليات التجنيد التي سبقت سنة 1912.⁵ فالفكرة تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، عندما راودت الإدارة الفرنسية فكرة استغلال الجزائريين لتجنيدهم في صفوف الجيش الفرنسي بعدما تم إنشاء "فيلق القناصة" سنة 1841. إلا أن كل المشاريع التي عرضت على وزارة الحرية رفضت لأن فرنسا كانت تخشى أن ذلك التجنيد سوف يفتح للمسلمين الحصول على حقوق سياسية قد تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه.⁶

مع تسارع وتيرة الأحداث العالمية و تدهور العلاقات بين القوى الأوروبية مع مطلع القرن العشرين، و جد العسكريون و السياسيين الفرنسيين أنفسهم أمام حتمية التفكير الجدي في مسألة تجنيد الجزائريين إجباريا لتقوية

¹ - Ageron (Charles Robert), Les Algériens musulmans et la France 1871-1919, T2, PUF, Paris, 1968, p 1058.

² - Meynier (Gilbert), L'Algérie révélée la guerre de 1914-1918, éditions Droz Genève, 1981, p 88.

³ - ولد في باريس سنة 1885، و قد تقلد عدة مناصب سياسية بحكم عضويته في البرلمان تحت جناح الحزب الراديكالي الاشتراكي. عين مرات عديدة في منصب رئيس المجلس الفرنسي سنوات 1930 و 1933-1934 و 1937-1938. و قد انسحب من الساحة السياسية بعد اعتلاء "دلاديه" الحكومة الفرنسية قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. و توفي "شوطان" سنة 1963 عن عمر يناهز 78 سنة. أنظر:

- Petit Larousse illustré 1984..., op.cit., p 1230.

⁴ - Meynier (Gilbert), L'Algérie révélée..., op.cit., p 89.

⁵ - في حقيقة الأمر، لقد أدهش مرسوم التجنيد العسكري الإجباري الذي أصدرته الإدارة الاستعمارية في 3 فبراير 1912 كل الجزائريين، خاصة في ظل استمرار فرنسا الإبقاء على سيطرتها في الجزائر. هذا ما دفع مجموعة من الأعيان بالتوجه إلى فرنسا و التقدم أمام حكومة المتروبول بعريضة شملت مجموعة إجراءات لفائدة الجزائريين مقابل تجنيدهم العسكري. و كانت هذه المطالب في الأصل، ما احتوت عليه مجموعة عرائض عبر عنها الجزائريون في المحافظات الثلاث. لمزيد من المعلومات ينظر إلى:

- Benhabilès Chérif, L'Algérie française vue par un indigène..., op.cit., pp 117-118.

⁶ - صدر في أبريل من سنة 1903 مرسوم يسمح للجزائريين الانخراط في صفوف مختلف وحدات الجيش الفرنسي، و لم يعد الأمر يقتصر على فيالق القناصة فقط. كما تم تقليص مدة الخدمة من 16 إلى 12 سنة بمقتضى المرسوم الصادر في جويلية 1903 و الذي عرف "بقانون ماسيمي" Loi Messimy نسبة لصاحبها مقرر الميزانية الحربية آنذاك. ينظر كل من:

- Ageron Charles Robert, Les Algériens musulmans et la France..., op.cit., pp 1060-1061. Voir aussi : Meynier Gilbert, L'Algérie révélée..., Op.cit., pp 88-89.

صفوف الجيش الفرنسي. فاحتلت القضية حيزا كبيرا في مختلف نقاشات الطبقة السياسية الفرنسية. و لما فشلت جميع الجهود لمنع صدور قانون تجنيد الجزائريين سنة 1912، لجأ بعض أهالي مدينة تلمسان إلى الهجرة الجماعية اتجاه الولايات العثمانية في الشام.¹

كما طالب آخرون على الأقل بتخفيض مدة الخدمة و رفع سن التجنيد. و قد وعد "ريموند بوانكريه"² Poincaré Raymond بالنظر في هذه المطالب و وعد بإعفاء المجندين من الخضوع لقانون الأهالي و المحاكم الردعية و إعطائهم ميزات سياسية بعد تسريحهم.

غير أن ظروف الحرب أجلت النظر في هذه الوعود، و كان لا بد من انتظار سنة 1919 لتطبيق أول حلقة في الإصلاحات، من خلال قانون 4 فبراير الشهير.³

لم تشكل هذه الثورات خطرا محسوسا، و تركزت في شمال الأوراس سنة 1916، و مع ذلك فإن المصادر الفرنسية تقلل من شأنها و تتحدث على العكس ذلك، عن ولاء الجزائريين و التحاقهم بالجيش و تبرع أغنيائهم بالأموال لفائدة فرنسا. كما أن هناك عوامل أخرى دفعت الجزائريين إلى قبول الخدمة العسكرية منها: انخفاض مستوى المعيشة و انخراط الكثيرين في صفوف الجيش خاصة ضمن فرق القناصة الجزائريين التي اشتهرت بجريتها في إفريقيا. يضاف إلى ذلك تشجيع بعض رجال النخبة على ذلك مقابل بعض الامتيازات.⁴

¹ - استمرت روح المقاومة عند الجزائريين بالرغم من نقص فكرة الوحدة الوطنية في بعض الأحيان عند غالبيتهم. لكن فكرة التخلص من الاستعمار بقيت تراودهم أمام كل أشكال القوة الفرنسية. و لعل نوع جديد من هذه الروح المقاومة للاستعمار تجلت في طريقة مواجهة قانون التجنيد الإجباري لسنة 1912، حين أقدم عدد من العائلات الجزائرية من مدينة تلمسان إلى الهجرة نحو بلاد الشام و نحو تركيا و الحجاز، في موقف رافض لتجنيد الجزائريين في هذه الحرب. أنظر:

- Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1er novembre 1954, 3^{ème} édition, éditions Houma, Alger, 2009, p 31.

² - ريموند بوانكريه محامي و رجل دولة فرنسي، ولد ب بار لو دوق سنة 1860. انتخب كيرلاني لمقاطعة "الموز" منذ 1887، تقلد عدة مناصب وزارية من 1893 إلى 1906. وجد نفسه على رأس ديوان "الوحدة الوطنية" 1912-1913 و اهتم بالشؤون الخارجية. موقفه شجع الرأي العام الفرنسي أمام الخطر الألماني. شغل منصب رئيس الجمهورية الفرنسية من 1913 إلى غاية 1920، ثم رئيس المجلس و وزير الخارجية من 1922 إلى 1924. و خلال هذه الفترة أمر باحتلال حوض "الروهر" غير أنه انسحب أمام مشروع "داوس". عين من جديد على رأس السلطة من 1926 إلى 1929 بعد الفشل المالي الذي أصاب "كارتل" اليسار، الأمر الذي دفعه إلى تخفيض قيمة الفرنك في 24 جوان 1928، و توفي بعدها سنة 1934. ينظر:

- Petit Larousse illustré 1984., op.cit., p 1609.

³ - صدر هذا القانون عقب نهاية الحرب العالمية الأولى ليحمل فرنسا على رد جميل المسلمين الجزائريين من خلال مشاركتهم لنصرة فرنسا. و قد حاولت الإدارة الاستعمارية التخفيف من بشاعة سياستها المنتهجة في الجزائر حتى تظهر بمقام تلك الدولة المتحضرة التي تتعامل برفق و لطف مع مختلف رعاياها في مستعمراتها من وراء البحار. غير أن الحقيقة المرة لهذا القانون جعلت الجزائريين لا يثقون في هذه الإدارة. ينظر إلى:

- Collot Claude, Les institutions de l'Algérie., op.cit., p 19.

⁴ - Benhabiles (Chérif), L'Algérie française vue par. ..., op.cit., p 118.

غير أن الحرب العالمية الأولى¹ فتحت مرحلة جديدة أمام الجزائريين قابلتها فرنسا بسياستها المعروفة "بقوانين الإصلاحات" التي لم تكن سوى ظرفية و اقتصرت على أوضاع و حالات لا يمكنها أن تغير شيئا من الواقع المعاش من طرف الجزائريين². إن هذه الإصلاحات التي تقدمت بها فرنسا للجزائريين لم تكن سوى مناورة منها للتخفيف عن ذنوبها تجاههم، الأمر الذي دفع بجماعة من الجزائريين اقتحام المعتزك السياسي لما عرف عند بعض الكتاب بميلاد الوطنية الجزائرية³.

غير أن ذلك لم يحد من اهتمامات الجزائريين المسلمين التي كانت مصوبة تجاه الصعوبات الاقتصادية التي أصبحت واقعهم المر و الأكثر تأثيرا على حياتهم اليومية⁴. هل يمكننا تسمية الفترة التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى بعهد النهضة الفكرية و السياسية في الجزائر ؟ لأنه في هذه الحالة سوف تتحقق الأطروحة التي اعتبرت ظهور الحياة السياسية في الجزائر، بمفهومها الحديث و العصري، مرتبطة بمرحلة ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، و بالتحديد منذ بداية عقد العشرينات، كما اعتبرها "سعد الله" حركة جامعة بين مختلف الاتجاهات: المحافظة و المعتدلة و الليبرالية و الثورية الإسلامية و الاشتراكية الشيوعية⁵. و هكذا تمكن الجزائريون، من وراء هذه الحرب، الدخول في عهد جديد سمح بظهور الأحزاب السياسية الجزائرية.

¹ - لما اندلعت الحرب العالمية الأولى كانت الجزائر في وضعية متدهورة، حيث تحول الجزائريون إلى دروع بشرية تقي فرنسا شر نيران الألمان، خصوصا و أنها كانت تعاني مشكل ديمغرافي عويص مع مطلع القرن العشرين، الأمر الذي جعلها تقدم على تجنيد أكثر من 400000 جزائري و إرسالهم إلى جبهات القتال للدفاع عن الدولة "السيدة". و قد شملت المناجم الفرنسية و مزارعها و مصانعها اليد العاملة الجزائرية في هذه الحنة.

² - لقد علق المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبي" Arnold Toynbee على هذه الإصلاحات على أنها جاءت من مبادرة فرنسية فقط. و لم تكن هناك أية ضغوطات من أي حركة سياسية من جانب "الأهالي"، و أن فرنسا قررت تلك الإصلاحات حتى تظهر اعترافها بالجميل للجزائريين في مقابل ما قدموه من تضحيات في الحرب. أنظر:

- سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ط3، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983، ص 271.

³ - هناك عدة دراسات تقدم بمآكل من سعد الله و قداش و الأشرف، حول الموضوع تبرز لنا اختلاف الرؤية في تشخيص العمل السياسي الوطني من خلال ما عرف بميلاد الحركة الوطنية الجزائرية، التي ظلت لعقود، حبسية رؤى لا تخدم مصلحة تاريخ الأمة كونها تؤدي إلى فرض نوع من الصراع الأيديولوجي على الطرح المقدم من طرف هؤلاء. فالمسألة تحدد من وجهات النظر المختلفة، فهي بذلك نسبية. غير أن "سعد الله" يصحح البعض من هذه المفاهيم في دراساته الحديثة من خلال مجلداته الخمسة: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، المجلد 1، ص ص 68-69.

⁴ - Yacono (Xavier), Histoire de l'Algérie de la fin de la régence turque à l'insurrection de 1954, éditions de l'atlanthrope, Paris, 1993, p 286.

⁵ - سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930،...، مرجع سابق، ص 305.

يتضح مما سبق أن الحرب أفادت حركة الوطنيين الجزائريين كثيرا، حيث ساعدتهم على الخروج من العزلة متأثرين من ذلك بصدى الثورة البلشفية لسنة 1917 و بمبادئ الرئيس الأمريكي "ولسن توماس ودروف"¹ Wilson .Thomas Wodroof

حيث أتيح لمئات الآلاف من الجنود و العمال أن يحتكوا بمجتمع جديد و يعيشون حياة جديدة، و أن يشهدوا مظاهر الحرية في فرنسا. فأصبح في وسعهم مطالبة السلطات الفرنسية بأن تفي بوعودها مقابل التضحيات الكبيرة المقدمة في سبيل نصره فرنسا.²

سمحت هذه الحركة الوطنية ب بروز جيل جديد من الجزائريين. فأخذت مطالبه و طموحاته تكبر يوما بعد يوم، لأنه فهم اللعبة التي دارت في كواليس مؤتمر الصلح و التي كرست الفكرة الرئيسية التي كانت تدور من أجلها الحرب.³ و عليه، تبدوا لنا أحداث نشأة الأحزاب السياسية، و الاحتفالات الاستعمارية بمرور قرن على الاحتلال، و انعقاد المؤتمر الإسلامي، هي من جملة الأحداث التي كان لها تأثيرا بالغيا على الحياة السياسية للجزائريين في مرحلة ما بين الحربين.

¹ - ولسن توماس ودروف، رجل دولة أمريكي، ولد في سطوطون بمحافظة فرجينيا سنة 1856، ثم أصبح أستاذ في العلوم السياسية بجامعة بريستاون، ثم زعيم الحزب الديمقراطي الذي أوصله إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1912. فاعتمد تطبيق برنامج إصلاحي و مناهض لنظام "التراس" الاقتصادي. أعيد انتخابه لعهدته ثانية سنة 1916، فأشرك بلده في الحرب العالمية الأولى سنة 1917 إلى جانب الحلفاء. و بعد نهاية الحرب حاول تطبيق نظام أمني موحد على القارة الأوروبية. و يعتبر مؤسس عصبة الأمم بالرغم من معارضة الأمريكيين لسياسته الانفتاحية. تحصل على جائزة "نوبل" للسلام سنة 1919. توفي في سنة 1924. ينظر: Petit Larousse illustré.. Op.cit., p 1778.

² - قدر الأمير "خالد" التضحيات المقدمة من طرف الجزائريين بـ 80000 قتيل و 150000 معطوب. أما السيد "مورينود" أحد ممثلي البرلمان، فقد أعطى الأعداد التالية: المجندين الفرنسيين الذين غادروا إلى مختلف جبهات القتال: 115220، و قدر عدد المجندين المسلمين الذين غادروا الجزائر نحو مختلف جبهات الحرب بـ 155222. أما عدد القتلى الفرنسيين فقد بلغ 18350، و من المسلمين 19074. أما عدد المعطوبين فقد قدره بـ 7787 فرنسي، و 8779 من المسلمين، أما الجرحى فقد كان عددهم عند الفرنسيين 54070، و عند المسلمين 72035. غير أن محفوظ قداش يرى بأن هذا التساوي في عدد القتلى و الجرحى و المعطوبين غير منطقي نظرا لأن عدد الجزائريين كان يفوق عدد الفرنسيين بعشر مرات. أنظر كل من:

- L'Echo d'Alger, du 4 aout 1920. In Archives de la wilaya d'Alger.

- Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1er novembre 1954., op.cit..pp 31-32.

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme algérien question nationale et politique Algérienne 1919-1951, 2ème édition, tome 1, S.N.E.D, Alger, 1981, p 48.

³ - يعترف بذلك أحد الكتاب الفرنسيين و هو الأستاذ "ديارمي" Deparmets، و قد ذكره أبو القاسم سعد الله، في كتابه: ح.و.ج، ج2، ص 300.

لقد تعرض "الأمير خالد"¹ إلى مسألة حقوق الجزائريين مما جعل مواقفه تتطور بوضوح في المرحلة الأخيرة من نضاله فتجاوزت حلقة المساواة المبدئية و تعدتها إلى وقوفه ضد القمع الاستعماري، ليكتسي بذلك نضاله مغزى وطنيا حقيقيا تجلّى ذلك في المحاضرة التي ألقاها في باريس.²

من جهة أخرى يعتبره البعض من المؤرخين الفرنسيين بأنه "مخترع الوطنية باعتبار أنه ناضل من أجل استقلال الجزائر منذ البداية".³ في المقابل يرى البعض بأنه من دعاة سياسة الإدماج.⁴ وكان فضل الأمير خالد كبيرا في ظهور النجم، لا سيما من خلال احتكاك مجموعة من مناضلي و مؤسسي النجم به، خاصة في الفترة التي كان موجود فيها بفرنسا. و لعل ما يدعم هذا الطرح هو احتفاظ النجم بوسيلة الدعاية التي استعملها الأمير خالد و هي صحيفة "الإقدام". و يرى البعض بأن الأمير خالد قد درب الجزائريون، لأول مرة، على مفاهيم مثل الحملة الانتخابية و الجريدة و التجمعات و على سلاح الاستقالة من المجالس المنتخبة. بعبارة، لقد استبق كل أشكال النضال السياسي و وضعها في السكة الصحيحة.⁵

بالرغم من أن زعماء النجم قد أضافوا إليها كلمة "الباريسي" لتصبح الإقدام الباريسي،⁶ إلا أنها كانت في سياق ما قدمه الأمير خالد، حيث كانت تصدر في الجزائر و منعت بأمر من الإدارة الاستعمارية، ثم ها هي تصدر في باريس بواسطة العمال الجزائريين المهاجرين. و هذا لوحده يعد تحد و تواصل و ارتباط وثيق بين الجزائر الوطن و فرنسا المهجر، ساهمت فيه بقسط كبير جريدة "الإقدام".

¹ - هو خالد ابن الهاشمي ابن الحاج عبد القادر، المعروف بحفيد الأمير عبد القادر الجزائري. ولد في 20 فبراير 1875 بدمشق أين قضى بها معظم طفولته. و في سنة 1892 التحق مع والده بالجزائر ثم منها إلى فرنسا ليواصل دراسته الثانوية في باريس بثانوية "لويس الكبير" Louis Le Grand. بعدها التحق بالمدرسة الحربية الفرنسية الشهيرة "سان سير" Saint Cyr في 7 نوفمبر 1893. ثم غادرها مضطرا بسبب مرض والده ليعود إليها مرة ثانية في 15 ماي 1896 ليتم تدريبه العسكري و يتخرج بعدها برتبة "ضابط أهلي" بعدما رفض كل الطلبات الفرنسية من أجل التجنيس. ثم غادر الجيش بصفة نهائية في 15 جوان 1913 ليتفرغ للنشاط السياسي بمشاركة أولية في انتخابات المجالس المالية التي جرت في نفس السنة. و يعتبر من الذين شاركوا في تهيئة حركة "الشباب الجزائري" و خاض بعدها نضالا طويلا من أجل حقوق الجزائريين انتهت بنفيه من طرف السلطات الفرنسية بأمر من الرئيس "بوانكاري" نحو مصر. حاول العودة إلى النشاط السياسي بعد نجاح "كارل اليسار" في انتخابات ماي 1924 و اعتلاء الرئيس "هيريو" الرئاسة. و عاد الأمير خالد إلى فرنسا في محاولة لإنعاش أماله السياسية غير أنه اصطدم بمبادئ و سياسات الشيوعيين و اليسار الفرنسي مما دفعه إلى الاحتماء في "الإسكندرية" بعدما رفضت السلطات الفرنسية طلبه بالتوجه إلى دمشق. و في جانفي 1936 كتبت الصحافة الإسلامية عن وفاة الأمير خالد بإعلانها: الجزائر في حداد. لمزيد من التفاصيل ينظر إلى:

- Ageron (Charles Robert), Politiques coloniales., op.cit., pp 249-288.

² - Ageron (Charles Robert), Politiques coloniales., Ibid., pp 280-284.

³ - يقول عنه "أجرون" بأنه الشخصية الغامضة بالنسبة للعديد من الفرنسيين و حتى في فرنسا. غير أن صورته لا زالت حية في ذاكرة الجزائريين. و ما كتب عنه قليل مقارنة بالدور الذي لعبه في الحياة السياسية الجزائرية. أنظر كل من:

- Esquer Gabriel, Histoire de l'Algérie, PUF, Paris, 1950, pp 64-66.

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche., op.cit., pp 110-112.

⁴ - Lacouture (Jean), Cinq hommes et la France, éditions du Seuil, Paris, 1961, p 275. Et Voir aussi : Favrod Charles Henry, La révolution algérienne, Plon éditions, Paris, 1959, p 89.

- نذكر هنا أن هذه المصادر قد تطرق إليها "أجرون" في كتابه "السياسات الاستعمارية بالمغرب" (باللغة الفرنسية ص 249).

⁵ - Meynier (Gilbert), Histoire intérieure du FLN 1954-1962, casbah éditions, Alger, 2003, p 51.

⁶ - يعتبر الإقدام الباريسي أول جريدة أصدرها النجم سنة 1926. و قد منعت عن الصدور في الفاتح من فبراير سنة 1927. و استبدلت فيما بعد "بالإقدام الشمال الإفريقي" الذي صدرت منه بعض الأرقام فقط و منع هو الآخر في فبراير 1928. لمزيد من المعلومات راجع:

- قناش محمد و قداش محفوظ، نجم الشمال الإفريقي 1926-1937، وثائق و شهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984. الجزء العربي، ص ص 43-45، و الجزء الفرنسي ص 40.

كما يعتبر البعض، بأن النجم هو أول حركة سياسية تظهر إلى العلن و مطالبة بالاستقلال، خلافا لما حدث في تونس أو المغرب، أين ظهرت بهما الحركة الوطنية داخل بلادهما.

كما أن النجم لم يحمل في طياته عناصر تقليدية و نخبوية ميسورة الحال، و إنما ظهر في المهجر في ظروف شهدت هجرات جماعية للطبقة الجزائرية المحرومة و التي عانت البؤس و الفقر و الحرمان في بلادها. و لم يظهر النجم على أرض الوطن إلا بعد مرور عشرية على وجوده.¹

لم يكن قرار حل النجم ليمنع الوطنيون من مواصلة نشاطاتهم المختلفة، فالتفوا حول "أصدقاء الأمة" و عملوا على تحقيق مطالبهم وفق إستراتيجية واضحة تمثلت في مشاركتهم في جل التظاهرات مهما كان نوعها: حفلات، تجمعات ومناسبات، للتعبير عن رفضهم القاطع إسكات صوت الأحرار و الوطنيون.² الأمر الذي دفع بالحاكم العام إلى إصدار تعليمة إلى حكام المقاطعات الثلاثة، يطلعهم فيها على ذلك التغيير و يوضح فيها أن النجم قد تحول إلى جمعية تحمل اسم "أحباب الأمة".³ و طالب من كل المسؤولين الإداريين المتواجدين عبر مختلف مدن و قرى الجزائر، إبلاغه بأي تحركات يقوم بها أعضاء هذه الحركة المنحلة.⁴

غير أن مهمة "أحباب الأمة"، لم تكن سهلة مما استدعى ضرورة إنشاء تنظيم جديد و رسمي تكون له نفس الديناميكية التي يتمتع بها حزب سياسي. و على هذا الأساس أودع كل من: مصالي الحاج و عبد الله الفيلاي، الوثائق الرسمية لإنشاء حزب، لدى مصالح الشرطة في باريس يوم 11 مارس 1937.⁵

¹ - شكل ميلاد النجم أحد الأحداث الكبرى في التاريخ السياسي للجزائر و في تاريخ الحركة الوطنية. لذلك كتب له أن يتبلور في قالب الاتجاه الثوري الذي كان بمثابة الحل الجذري للأزمة الجزائرية. فحاول أن يدخل عناصر جديدة في السياسة الجزائرية، لأنه ولد في المهجر، و أسمع صيت الجزائر من المهجر، و نشط داخل المهجر، و جعل القضية الجزائرية معروفة عالميا من المهجر. و لم يتسرب إلى الجزائر إلا في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين. ينظر في ذلك إلى كل من:

- A.W.O, B 2260, Note sur l'étoile nord africaine, datée de l'année 1936
- Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1er novembre 1954..., op.cit..p 35.

² - Kaddache (Mahfoud) , Histoire du nationalisme Algérien, t1...,op.cit..., pp 487-488.

³ - A.W.O, Boite 2260, lettre du gouverneur général d'Algérie au Préfet d'Oran en date du 22 Avril 1937, sous le N° 898, dossier P.P.A.

⁴ - A.W.O, B 2260, Bulletin de renseignement sur l'activité des anciens éléments de L'ENA, en date du 30 Avril 1937, portant transcriptions suivantes : N° 3094, 2ème S.C.R, dossier P.P.A.

⁵ - عن قضية تأسيس الحزب الجديد، تذكر المصادر الفرنسية، بالدرجة الأولى، أنه تم عقد اجتماع بمدينة نانتر Nanterre أين تم الإعلان عن ميلاد حزب الشعب الجزائري. حيث تمكن مصالي الحاج من ربط الصلة مع فرق النجم المختلفة التي كانت تنشط عشية حله من طرف السلطات الاستعمارية. كما ربط الاتصال بلجان أحباب الأمة. و من مجموع الثمانين فرقة التي كانت موجودة، تم إحصاء 14 في العاصمة و 6 في تلمسان و 4 في قسنطينة، هذا ما دفع إلى التكثيف من زيارته عبر مختلف مناطق الوطن، فانتقل إلى وهران في 31 جويلية سنة 1937، أين استقبل أعضاء فرق: تلمسان، سيدي بلعباس و عين تموشنت و أيضا أعضاء نوادي مستغانم و غليزان، كما كان ينوي تأسيس فرق لحزب الشعب عبر منطقة الغرب الجزائري و خاصة في مدينة وهران. كما اهتم حزب الشعب الجزائري منذ البداية بمسألة تجنيد الجزائريين و مسلمي شمال إفريقيا، خاصة العمال الجزائريين الذين أصبحوا فيما بعد يشكلون غالبية الأعضاء المنخرطين. و لعل ضعف المستوى التعليمي عند غالبية المنخرطين قد عوض بالإيمان و إرادة العمل على تحقيق الدفع الثوري للشباب الجزائري. خاصة لما ندرك بأن المثقفين الجزائريين هم الذين رفضوا أن يكونوا في مقدمة ركب الثوريين. هذا ما كتبه أحد العمال المسؤولين في حزب الشعب عندما خاطب المثقفون بكلمات معبرة: " أيتها النساء احملن السلاح، لأن الرجال رفضوا فعل ذلك. هذه وضعية حالتنا هنا. لقد انتظرنا كثيرا للخروج إلى المعركة و الدفاع تحت إمرتكم. و بما أنكم مهتمين فقط بأنانية ملذاتكم، ارتأينا بأن نحمل على عاتقنا هذا

أصبح نفوذ الحزب في تزايد مستمر داخل الأوساط الشعبية و السياسية معا، الأمر الذي دفعه إلى التفكير في إنشاء "جبهة إسلامية جزائرية" بإشراك شبيبة المؤتمر الإسلامي الجزائري في المشروع.¹ و استغل الحزب بداية عملية التجنيد و التوتر الذي ساد العلاقات الدولية في تلك الفترة من أجل الاتصال بدول المحور عن طريق الجناح المناهض لفرنسا و الذي أطلق على نفسه اسم: "لجنة العمل الثوري للشمال الإفريقي".²

كان من الواضح أن حزب الشعب لن يدعم فرنسا في حربها هذه. بل بالعكس من ذلك، فقد أبان عن عدا كبر من الوجود الاستعماري، لذلك عملت الإدارة الاستعمارية على حله في 26 سبتمبر 1939، عندما أدركت أنه غير قابل للمساومة. فقامت بتعطيل جرائده "الأمة" و "البرلمان الجزائري"، و قامت بمحاكمة 41 من مناضليه بتهمة إعادة تشكيل جمعية منحلة و التظاهر ضد السيادة الفرنسية في الجزائر و المساس بأمن البلاد و وحدة ترابها الوطني. فجاءت العقوبات قاسية جدا لخصها أحد المؤرخين بقوله "يمكن تلخيص العقوبات التي سلطت على أعضاء حزب الشعب على أنها تساوي؛ 123 سنة أعمال شاقة، و 114 سنة سجن، و 560 سنة ممنوع الإقامة في البلاد، و 161000 فرنك غرامة مالية..³

أما عن العلماء، فإذا كان أغلب الباحثين يرجعون تاريخ التأسيس الفعلي للجمعية في حدود الخامس من ماي 1931، فإن ذلك لا ينفي أن الفكرة قد راودت مثقفي الحركة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. و هي عبارة انبثقت على شكل إرهابيات عبر مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي للجزائر.

لقد ساهم رواد الحركة النهضة في البلاد في تنوير حياة و فكر الجزائريين خلال السنوات العvisية المتمثلة في العقد الأول من القرن العشرين. و ذلك بمساهماتهم في إحياء التراث الوطني و الديني من خلال معالجة الأوضاع الوطنية بشكل عام و شرحها للجزائريين، مستعملين في ذلك شتى المنابر و متخذين مختلف السبل و الطرائق لشرح ذلك. و كانت قضية التجنيد الإجباري هي الأولى التي عارضها رواد النهضة بشدة لما كان لها من انعكاسات سلبية على حياة الجزائريين.⁴

العبء الثقيل، أملين في ذلك أن نوقظ فيكم الشعور الوطني الذي سوف يدفعكم إلى الالتحاق بنا، خدمة للوطن و للشعب الذي يئن تحت وطأة أكثر من قرن من الاستعمار.." لأكثر توضيح في الموضوع في الوثائق الأرشيفية التالية:

- A.W.O, B 2260, Services des affaires indigènes nord-africaines, deux lettres datées du 13 et 16 mars 1937.

- A.W.O, B 2260, CIE, Oran, 1937, dossier P.P.A

- Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme Algérien..., t1, op.cit, p 488.

- Appel d'un militant du PPA, « Ouvrier émigré, aux intellectuels », in journal El Ouma, mars 1939.

¹ - A.W.O, Dossier presse, journal La Défense du 4 janvier 1939.

² - حاولت الجماعة التي أنشأت هذا التنظيم، استغلال ظروف الحرب العالمية الثانية لفائدة القضية الوطنية. فاجتهدت و اتصلت بدول المحور للتفاوض حول ما يمكن أن تقدمه هذه الدول للقضية الجزائرية. في الموضوع ينظر إلى:

- Ageron Charles Robert, Genèse de l'Algérie Algérienne..., op.cit., p 409.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme Algérien, T2, op.cit., p 611.

⁴ - سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، 1930-1900، مرجع سابق، ص 142.

خاصة بعد القضاء على حركة الأمير خالد. فالفضل كله يعود لشخصية "عبد الحميد بن باديس"¹ التي تمحورت حولها كل الأنظار، ليس لأنه يعتبر المؤسس الحقيقي لها فقط، وإنما كونه هو صاحب الفكرة و مجسد المشروع، وهو الذي وحد كلمة المؤسسين و جمع شملهم. و قد توفرت فيه شروط جعلته يحض بثقة الجميع.² ظاهريا، كانت تهدف الجمعية إلى غاية غير سياسية. أما في الواقع فإن مبادئها القائمة على تطهير العقيدة الإسلامية من كل الشوائب،³ جعلها تضرب في صميم العمل السياسي حيث أن دخولها في منازعات قوية و مشادات مع الإدارة الاستعمارية هو في حد ذاته تعبيراً صادقا عن رفض الفكرة الاستعمارية من أساسها.⁴ و قد استغلت الجمعية كل منبرها في إظهار توجهها السياسي من خلال التركيز على صحافتها، خاصة منها "المنتقد" و "البصائر" و "الشهاب".

كما اجتهدت الجمعية في تنويع طرق التحايل على السلطات الاستعمارية، هذا ما شذ إليها انتباه الجميع لما كان لها من أثر في إبعاد شكوك الإدارة الاستعمارية عن المولود الجديد على الساحة السياسية الوطنية. كما أن وحدة الصف هي التي دفعت بالسلطات الاستعمارية إلى الاعتراف بها بعد مرور خمسة عشر يوما

¹ - ولد الشيخ عبد الحميد ابن باديس في قسنطينة سنة 1889 من عائلة عريقة ترجع شهرتها إلى القرن الثاني عشر للميلاد. تتلمذ على يد الشيخ "حمدان الونيسي" الذي يعتبر مع الشيخ "عبد القادر الجاوي" من أشد المدافعين عن التقاليد القومية الجزائرية مع أواخر القرن التاسع عشر. انتقل إلى تونس بجامع الزيتونة لمواصلة دراسته و بعدما انتهى من الدراسة إشتغل بالتدريس في الجامع الأخضر بقسنطينة فيما بين 1911 إلى 1914. ثم بعدها رحل إلى بلاد المشرق و عند عودته استقر بتونس من سنة 1914 إلى 1918. أسس مجموعة من الجرائد كان أولها جريدة "المنتقد" سنة 1925 للترويج لفكرة الوطن بين الجزائريين. ثم قام بإصدار جريدة "الشهاب" فيما بين 1925 إلى 1939. و قد وافته المنية مع بداية الحرب العالمية الثانية في سنة 1940. راجع في الموضوع:

- حربي محمد، الثورة الجزائرية سنوات المخاض، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2006، ص ص 180-181.

² - عبرت الجمعية عن مواقفها من خلال الخطابات العديدة التي كان يلقيها الشيخ عبد الحميد بن باديس، و الذي أكد في مناسبات عديدة عن فكرة الاستقلال التي اعتبرها حق طبيعي لكل شعوب الأرض. فارتبطت بذلك أهدافها بفكرة الوطنية التي انتشرت في الأوساط الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى. و لعل عدم فهم الآخرين لنوايا الجمعية الحقيقية جعلهم يختلفون معهم في نظرة المستقبل. فكانت تساؤلاتهم حول الغاية من وراء إنشاء هذه الجمعية. لأن البعض اختصرها في التعليم العربي و محاربة الخرافات و البدع. و البعض الآخر ربطها بالنشاط السياسي و فكرة تأسيس الدولة الجزائرية. أما آخرون فاعتبروا أعضاء الجمعية أنصاف مثقفين يستمدون تعليماتهم من الخارج، و كان يقصد بها بلاد المشرق التي كانت تعيش على وطأة نضجة عربية إسلامية أدت إلى ظهور الفكر الإصلاحي جسده شخصيات بارزة مثل: محمد عبده و رشيد رضا و جمال الدين الأفغاني. أما أنصار الجمعية فلخصوا أهدافهم فيما يلي: إحياء الإسلام بإحياء القرآن و السنة. و دعمهم في الطرح "ديارمي"، الذي كتب سنة 1932 يقول أن أهداف الجمعية تتمثل في فهم لغة القرآن و العودة إلى الثقافة الإسلامية القديمة و تبسيط و تنقية الدين من الشوائب. ينظر في الموضوع إلى كل من :

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية... ج2... مرجع سابق...، ص ص 104-111.

- Merad Ali, Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 Essai d'histoire religieuse et sociale, les éditions El Hikma, Alger, 1999, pp 73-78.

- Abbas Ferhat, La nuit coloniale, éditions Anep, Alger, 2005, pp 97-105.

³ - لقد ذكر "فرحات عباس" أن أهداف الجمعية تمحورت حول أهداف و مبادئ محددة منها: تجديد الإسلام و محاربة "المرابطين" و معاداة الاستعمار و تكوين إطارات الثقافة العربية. و نفس الفكرة ظهرت عند "أجرون" في تفصيله للحركة الإصلاحية في الجزائر. ينظر إلى:

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit., p 323.

⁴ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص ص 16-17.

فقط من تاريخ تأسيسها.¹ أما في حقل المنافسة، فقد تعرضت الجمعية إلى مضايقات الإدارة الاستعمارية، و إلى حملة الطرقيين لها و المرابطين و بعض رجالات النخبة. كما كان من خصومهم رجال الكنيسة الذين بدأوا يشعرون بالخوف من العلماء، لأنهم شرعوا في تنوير العقول النائمة و في إيقاظها و في مهاجمة حتى حملات التنصير التي قامت بها الكنيسة خلال مجاعات سنوات 1864 و 1869 عن طريق "الكاردينال لافيحري" و رجاله (الآباء البيض). كما لم ينسى العلماء دور المستشرقين الفرنسيين في الجزائر الذين كانوا يمثلون في الحقيقة، آلات للسياسة الاستعمارية و روادها الفاعلين في تمرير الفكر الاستعماري. و ما زاد في يقظة العلماء من هؤلاء المستشرقين هو إقدامهم على عقد "المؤتمر الأفخارستي" في الجزائر سنة 1939.²

و لوحظ عليهم، عندئذ، الخلط بين السياسة و الدين، بل أكثر من ذلك، فقد تغلب الدين على السياسة عندهم. من الأزمات التي تعرضت لها الجمعية أيضا، و التي أثرت فيها كثيرا، التهمة التي حاولت الإدارة الاستعمارية إلصاقها بالشيخ "العقي" في قضية اغتيال المفتي "بن كحول محمود"، حيث كان الهدف من وراء ذلك هو ضرب استقرار الجمعية و زعزعة سمعتها التي يعتبر "العقي" أحد الرجال النافذين فيها. أما الأزمة الثانية، فكانت داخلية أكثر، عندما نشب خلاف على مستوى المجلس الإداري سنة 1938 حول الموقف من فرنسا و هي مقبلة على الحرب.³

فيما يخص نشاط العلماء خارج الوطن، فقد تزامن مع زيارة "بن باديس" لباريس ضمن الوفد الجزائري للمؤتمر الإسلامي، حيث بدأ الاتصال بين العلماء و قادة العمال هناك بواسطة العلماء الذين أرسلتهم الجمعية

¹ - يعتبر البعض من المؤرخين أن تاريخ ميلاد الجمعية فيه ما يقال، باعتبار أن هناك منشور لجمعية العلماء المسلمين نشر في جريدة "البصائر"، يتحدث عن ميلاد الجمعية قبل تاريخ الخامس من ماي من سنة 1931. ينظر إلى كل من:

- جريدة البصائر، عدد 160، صادرة بتاريخ 7 أبريل 1939.

- عمارة تركي رابح، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية 1931-1956، دار النشر، الجزائر، 2005، ص 33.

² - انعقد هذا المؤتمر في الفترة الممتدة من 3 إلى 7 ماي 1939 و حضرته أوجه بارزة و وفود رسمية من أسلاك الإدارة و الجيش و أكثر من 50 قس جاءوا للتشهير بمسيحية منطقة شمال إفريقيا. و كان ذلك بداية القطيعة المعنوية بين العلماء و الكاثوليكين، لأنه أعاد إلى الأذهان الاحتفالات الصاخبة لمؤوية الاحتلال، و أكثر من ذلك أن تاريخ انعقاد هذا المؤتمر تزامن مع احتفالات المولد النبوي الشريف. كما أنه أعاد إحياء الحروب الصليبية و قرون الجهل و الظلام التي عاشتها أوروبا خلال القرون الوسطى على أنها رمز لظهور قوة أوروبا من جديد. بعبارة بسيطة شبهتها إحدى الجرائد الوطنية الصادرة في تلك الفترة على أنها: "تظاهرة إمبريالية في جو مشحون بالحق من الكراهية". ينظر في هذا الموضوع إلى:

- جريدة البصائر، 19 ماي 1939.

- جريدة الأمة، أبريل 1939.

- جريدة البرلمان الجزائري، 18 ماي 1939. (ذكرهم: محفوظ قداش، الحياة السياسية في الجزائر 1919-1939، ص 359). (مرجع فرنسي)

³ - تعرضت عدة جرائد وطنية لقضية اغتيال مفتي الجزائر، و إلى اتهام الشيخ العقي بهذا الفعل، الأمر الذي ربما، دفعه إلى تقديم استقالته من مجلس إدارة الجمعية، ربما كان ذلك تحت تأثير مجريات المحاكمة و الاتهام الذي كان الشيخ عرضة له من قبل الإدارة الاستعمارية التي حاولت تلميح سمعته و سمعة الجمعية ككل. أنظر:

- Kaddache Mahfoud, La vie politique à Alger de 1919 à 1939, ENAG éditions, Alger, 2009, p 358.

هناك على غرار "الفضيل الورثاني" و "السعيد صالح" و "حمزة بوكوشة" و غيرهم.¹ و قد تجاوز ذلك ليشمل الطلبة أيضا، الذين تجاوزوا مع العلماء. و كان هؤلاء الطلبة ضمن "الحركة الطلابية الشمال إفريقية" التي كانت نقطة الالتقاء بين العلماء والطلبة في المبادئ و الأهداف التي كان ينادي بها كلاهما و المتمثلة في الدفاع عن القضايا الوطنية.²

كما كانت لتونس مكانة خاصة عند العلماء الجزائريين، حيث أنهم اعتبروها بلدهم الثاني بفعل الاحتكاك المستمر مع الزيتونيين و الدستوريين. و حتى المغرب الأقصى أخذ حصته عند العلماء خاصة التعليم الملحق من كبار الشيوخ أمثال "أبو شعيب الدكالي" أحد أقطاب الإصلاح الديني في شمال إفريقيا و المغرب.³ لقد تأسست في باريس "جمعية طلبة شمال أفريقية المسلمين" و كان ذلك في ديسمبر 1927، و كان من بين أعضائها عدد من زعماء المغرب العربي الذين سوف يكون لهم شأن كبير في المستقبل. و ساهمت هذه الجمعية بفعالية في الحياة السياسية و الثقافية لبلداتها. و قد اتخذت عدة مواقف من التجنس و اللغة و التعليم و المرأة و غيرها من القضايا الأخرى ذات الصلة بالأوضاع الداخلية لبلدان المغرب العربي.

و عقدت عدة مؤتمرات لهذه الجمعية تناولت فيها عدة نقاط نذكر منها، حالة التعليم العربي و اللغة العربية و وضعية المرأة و مستقبل بلاد شمال أفريقية و تأسيس المدارس القرآنية و المدارس الحرة و توحيد الأقطار الثلاثة فيما بينها و بين العالم العربي و الإسلامي. كما طالبت الحكومة الفرنسية من التوقف عن عرقلة نشاط "العلماء" في الجزائر.

أما داخل البلاد العربية، فقد تأسست في تونس "جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين" سنة 1933، و ظهرت نتيجة ارتفاع عدد الطلبة الجزائريين في جامع الزيتونة حيث أصبح عددهم في سنة 1936 حوالي مائتي طالب. لكن سرعان ما بدأت تظهر بوادر الأزمة الأوروبية في الأفق. هذا ما دفع بزعماء الجمعية توخي الحذر بفعل دخول بعض المراسيم الفرنسية حيز التنفيذ على التراب الجزائري. الأمر الذي ربما شفع لهم حين أقدمت الإدارة الاستعمارية على حل الأحزاب السياسية و تعطيل نشاطها مع بداية الحرب العالمية الثانية.⁴

¹ - مازن صلاح (حامد مطبقاتي)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939، دار عالم الأفكار، الجزائر، 2011، ص 110.

² - Merad Ali, Le réformisme musulman en Algérie..., op.cit., p 368.

³ - كانت لعبد الحميد بن باديس علاقات وطيدة مع الأوساط الزيتونية و الدستورية، حيث كان يقوم بزيارة تونس كلما سمحت له الفرصة بذلك. و قد شهدت سنة 1937 لوحدها زيارتين لعبد الحميد بن باديس لتونس، الأولى في شهر ماي، لحضور مراسيم احتفال الخلدونية بمرور عشرين سنة على وفاة شيخها القدير "البشير سفر"، و المرة الثانية في جويلية بمناسبة عودة صديقه "عبد الرحمان الثعالبي" من المنفى. أنظر:

- Merad Ali, Le réformisme musulman en Algérie..., op.cit., p 372.

⁴ - جاء مرسوم 27 أوت 1939، ليغرم على الجزائر مرسوم القانون الصادر في 24 أوت 1939، و الذي يسمح للسلطات الاستعمارية الفرنسية بحجز و توقيف كل المنشورات التي من شأنها المساس بالأمن الداخلي. من هنا بدأ نشاط الإصلاحيين يشهد انخفاض في الوتيرة حتى لا تتعرض الجمعية إلى المقصلة التي طالت كل الأحزاب الأخرى. في الموضوع ينظر كل من:

- Journal officiel de la république Française, n° du 27 aout 1939, pp 1075-1077.

- Hérelle Sophie, « L'Afrique du nord et la guerre », In revue Afrique Française, oct.-nov., 1939, p 248.

- Merad Ali, Le réformisme musulman en Algérie..., op.cit., p 369.

بخصوص النواب و المنتخبين فقد أسسوا فيدرالية نواب مسلمي الجزائر في 18 جوان 1927 برئاسة الدكتور "ابن تهمي" و جماعة من النواب منهم: بن جلول و بلحاج و زياتي و غيرهم، غير أن عملهم لم يكن سوى إدخال تعديلات طفيفة على الممارسات السياسية التي كانت دوما مرتبطة بفكرة الإدماج، التي لا طالما شكلت أسس المطالب النخبوية.¹ كما صادق المؤتمر التأسيسي،² الذي انعقد بنادي الترقى بالجزائر ، على برنامج معدل من ثمان نقاط في شكله التقليدي المعتاد.³

بالرجوع إلى نشاط النواب يمكن القول أنه لم يكن أمامهم خيارا آخر سوى الانقياد وراء السلطة الاستعمارية، مبررين ذلك بالظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد. و حتى تنافسهم في الحملات الانتخابية لم يكن نابعا إلا من قناعة واحدة و هي الحصول على المزيد من الامتيازات فقط. لأن النفوذ و السلطة كان في يد المستعمر و إدارته. فهم في الأخير لم يقدموا لفرنسا سوى طلبات للتودد و وعود بالإخلاص و الوفاء.⁴

أما الشيوعيين فكانوا منذ البداية قد اصطدموا بمعارضة شديدة من طرف الشعب الجزائري، و ذلك بسبب معارضتهم العلنية للزعماء الجزائريين الوطنيين و زعماء الإصلاح، و كذا النهج السياسي المتبع و الذي أبان عن طرح لم يأخذ بعين الاعتبار حقيقة المجتمع الجزائري مما صعب عليهم الوصول إليه.⁵ كما لم يكن بمقدورهم تحديد سياسة واضحة المعالم تجاه المسألة الجزائرية، ما دام أنهم أنفسهم لم يتمكنوا من التحرر من وصاية الأممية الشيوعية و منها من الحزب الشيوعي الفرنسي.⁶

كما أن الشيوعيين تنكروا في العديد من المواقف للفكرة الوطنية و تحالفوا مع مجموعة من المنتخبين و الأعيان و تمكنوا من استمالتهم إلى أفكارهم، و أثروا بطريقتهم على مجريات المؤتمر الإسلامي عندما استدرجوا عناصر مؤثرة من جمعية العلماء المسلمين ليعطوا صبغة الشرعية الجماهيرية للعمل الذي هم مقبلون عليه لخوض

¹ - قيل عن برنامج النواب المعدل أنه جاء في شكل رغبات و تمنيات، و هو في الحقيقة لم يكن سوى بلورة للخطوط العريضة التي تضمنها برنامج الأمير خالد. بل أكثر من ذلك، فإننا نجد في بعض بنوده تراجع في المواقف.

² - انعقد المؤتمر التأسيسي لفيدرالية النواب في 11 سبتمبر 1927 بالجزائر حيث تضمن البرنامج المقدم للمصادقة على الخطوط العريضة التي قادت مسيرة الشباب الجزائريين في المطالبة بتحسين الظروف الاجتماعية و ظروف العمل و مسألة المساواة في الخدمة العسكرية و مسألة التعليم بالنسبة للجزائريين. ينظر لمزيد من المعلومات إلى:

- Vatin Jean Claude, L'Algérie Politique Histoire et Société..., op.cit., p 176.

³ - حضر المؤتمر التأسيسي الأول حوالي 150 مندوبا، منهم 21 يمثلون القطاع الوهراني. و قد ورد نص البرنامج في جريدة "الوحدة" بتاريخ 01-10-1927. كما نجد الموضوع مذكور عند كل من:

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930...، مرجع سابق.. ص 391.

- الخطيب أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 43.

⁴ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., op.cit., p 74.

⁵ - La Lutte sociale, du mois de mars 1931.

⁶ - يعتبر "قداش" أن الحزب الشيوعي الجزائري لم يكن سوى عبارة عن "عرية خلفية" يجرها الحزب الشيوعي الفرنسي، مما جعله يتخلى عن أطروحة الاستقلال الوطني. ينظر في الموضوع إلى:

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme algérien...T1, op.cit., p 397.

صراع سياسي مع الإدارة الاستعمارية من أجل تثبيت فكرة "الإتحاد الفرنسي" لمناهضة الفاشية العالمية، خاصة بعد بروز تياراتها في كل من إيطاليا و إسبانيا.¹

2 – التهليل الفرنسي بالمؤوية الاحتفالية للجزائر

لقد حضى الاحتفال بمرور مائة سنة عن احتلال فرنسا للجزائر، ببذخ كبير تخليدا لانجازات فرنسا. فأعطته من الميزانية و أحاطته من العناية ما لم يعطى للجزائريين طيلة قرن من الاحتلال. و كان الاحتفال بمثابة استعراض لقوة و عظمة فرنسا و غطستها اتجاه الشعب الجزائري الأعزل، و ربما هذا الذي دفع ببعض المؤرخين الفرنسيين أن يدرجوها ضمن الاحتفالات الرسمية فقط، لأنها كانت من أجل الترويج للفكرة الحضارية التي لازمت الإمبراطورية الفرنسية لفترة طويلة.²

في السياق ذاته، كانت سنة 1930 بمثابة وصول الاستعمار الفرنسي إلى قمته في الجزائر. و هي نفس السنة التي شهدت انعقاد المؤتمر "الأفخارستي" في قرطاج بتونس في شهر ماي،³ و الذي اعتبر تحد صارح للفكر الإسلامي في بلاد المغرب. أما في المغرب الأقصى، فكان الدور على السلطات الاستعمارية هناك للإعلان عن صدور "الظهير البربري" الذي حاولت من وراءه السلطات الاستعمارية التفريق بين السكان المسلمين في المغرب⁴ و قد أريد للمأوية أن تكون في حجم و مستوى الانجازات التي حققتها فرنسا الاستعمارية في الجزائر،⁵ فانطلقت حملة كبيرة من المتروبول لجلب اهتمام الفرنسيين بمستعمرات بلادهم.

¹ - Alexandre (François), « Le PCA de 1919 à 1939, données en vue d'éclaircir son action et son rôle », In R.A.S.J.E.P., n° 04, Alger, 1974, pp 201-203.

² - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit., p 403.

³ - واجهت فرنسا شعوب البلاد العربية في شمال إفريقيا بنفس الأسلوب و الطريقة التي ستجعلها تنقصر شكلا جديدا، هو أخطر، من أجل المساس بالشخصية الإسلامية و عقيدة شعوبها. لأنه السلاح الوحيد الذي بقي في يد المسلمين في شمال إفريقيا. و هكذا قررت فرنسا عقد المؤتمر الأفخارستي في تونس بمناسبة مرور 50 سنة على احتلالها، و هو نفس الوقت الذي قررت فيه تطبيق سياستها البربرية في المغرب و الاحتفال بمرور قرن من الزمن على احتلالها للجزائر. ولم تكن هذه الظاهرة ظرفية، و إنما سياسة جديدة قررت الحكومة الاستعمارية العمل بها لمواجهة الشعوب العربية. كما خصصت له الحكومة الفرنسية ميزانية خاصة دعمت بها الجمعيات التبشيرية للقيام بعملها على أكمل وجه. و قد كانت هناك انعكاسات لهذا المؤتمر تجلت في تشدد موقف الجناح الراديكالي داخل الحزب الدستوري الذي راح يصدر اللوائح و يشن الحملات عبر الجرائد منددا بتلك الأعمال الشنيعة. ينظر في الموضوع لكل من:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص 71.

- الشاطر خليفة.. و جماعة من الأساتذة، تونس عبر التاريخ، الحركة الوطنية و دولة الاستقلال، ج3، مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية و الاجتماعية، تونس، 2007، ص 97.

⁴ - اعتمدت هذه السياسة الاستعمارية على مبدأ: "فرق تسد". لأنها كانت السياسة الأمثل بالنسبة لفرنسا من أجل إثارة العناصر العربية ضد العناصر البربرية في بلاد شمال إفريقيا. و لجأت إلى تجنيدهم في صفوف جيوشها و استعمارهم عند الحاجة. و هكذا أصبح الجزائري يواجه المغربي و السنغالي و السوري و حتى التركي. أنظر:

- Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1er novembre 1954..., op.cit., p 39.

⁵ - Ageron (Charles Robert), « Les colonies françaises devant l'opinion public 1919-1939 », In Cahiers de l'Institut d'Histoire de la presse et de l'opinion, n°1, année 1972-1973, pp.

لقد عبر "جول كامبون" Jules Cambon عن هذه الاحتفالية المؤوية لاحتلال الجزائر في مجلة الأهالي بمقال حمل عنوان: "دروس من غزو الجزائر 1830-1930" جاء فيه: "لقد مثلت حملة 1830 تنويجا للسياسة المتواصلة التي انتهجتها فرنسا منذ قرون في حوض البحر الأبيض المتوسط من أجل الحفاظ على أمن التجارة و السير الجيد للملاحة فيه، و ذلك حتى تتبوأ بلادنا مكانتها الحقيقية، بفعل موقعها الجغرافي، في البلدان البربرية بشمال إفريقيا.."¹

فنظمت "الأسابيع الاستعمارية" من طرف "الرابطة البحرية و الاستعمارية" و التي اشتملت على محاضرات و أشرطة وثائقية و سينمائية مدعمة بحوالي 29 لجنة للدعاية أنشأت لهذا الغرض، جسدها مشروع فيلم "البلاد" Le Bled، بمشاركة للممثل الفرنسي الكبير "جون رونوار"² Jean Renoir الذي يشيد بتمجيد الاستعمار الفرنسي في الجزائر.³

فجاء تصريح الرئيس الفرنسي "قاسطون دومرغ"⁴ Doumergue Gaston، من مدينة قسنطينة، ليدعم الطرح الذي يمجّد كل الأساليب و الطرائق التي اتبعتها فرنسا في حملتها على الجزائر عندما صرح قائلاً: "لقد أظهرت الاحتفالات المؤوية، بشكل قاطع، الطابع الإنساني و السلمي العادل و النافع للأساليب الاستعمارية الفرنسية و للأعمال الحضارية التي تم إنجازها.."⁵ و هناك من الشخصيات الوطنية التي عارضت الفكرة بشدة، و كان لها رأي رأي آخر، نذكر منها "توفيق المدني" الذي عبر عن ذلك بقوله: "إن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد أعطى دعماً للقضية الجزائرية ساهم بتقدمها بعشرين سنة على الأقل.."⁶ و من المفارقات الكبرى، أن تلك العبارات التي أطلقها "توفيق المدني" وجدت صدى واسعاً في الأوساط الجزائرية المناضلة، التي تيقنت أنه بالرغم من كل الفرحة العارمة التي عمت الكولون و الإدارة الاستعمارية، إلا أن

¹ - Revue Indigène, 25eme année, N-258-259, juillet-aout 1930, 'Les leçons de la conquête d'Alger 1830-1930', pp 126-127.

² - ولد في باريس سنة 1894، ينحدر من عائلة فنانين حيث كان أبوه "أوغست رونوار" من أشهر الرسامين الذين اشتهروا بفن "الانطباعية" Impressionnisme. اشتهر في ميدان السينما بتقلده لمسؤولية مخرج سينمائي، توفي سنة 1979. و خلال حياته المهنية أنجز عدة أفلام منها: - La Chienne (1931) – Une partie de champagne (1936).. Voir : Petit Larousse..Op.cit., p 1639.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme Algérien ..,T1, pp 223-226.

⁴ - ولد "قاسطون دومرغ" في قرية "إيغ فيف" في منطقة "القارد" Aigues-vives (Gard) سنة 1863، و يعتبر أحد رجالات السياسة الفرنسية، حيث تقلد عدة مناصب كبرلاني ثم ممثل الجناح الراديكالي الاشتراكي. تقلد عدة حقائب وزارية قبل أن يعين رئيساً للمجلس ما بين 1913-1914، ثم رئيساً لمجلس الشيوخ سنة 1923. و في السنة الموالية اعتلى منصب رئاسة الجمهورية ليبقى فيه من سنة 1924 إلى غاية 1931. ثم استدعي مرة أخرى في 6 فبراير 1934 ليشكل حكومة "وحدة وطنية" و التي قدمت استقالتها في الثامن من نوفمبر. توفي سنة 1937 عن عمر يناهز 74 سنة. أنظر:

- Petit Larousse illustré.. Op.cit., p 1284.

⁵ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemporaine... T2..., op.cit., p 405.

⁶ - المدني (أحمد توفيق)، مذكرات كفاح، ج2، في الجزائر 1925-1954، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1977.

- عمارة تركي رابع، التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية..، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975، ص 64.

ذلك رسم بداية النهاية للوجود الاستعماري الفرنسي في شمال إفريقيا.¹ حيث اعتبرها أحد المؤرخين الفرنسيين على أنه بالرغم من طابعها الاحتفالي إلا أنها لم تنقد شيئا بالنسبة لفرنسا.²

أثناء الاحتفالات الصاخبة التي صاحبت المؤوية لاحتلال الجزائر، و بينما كان الرئيس الفرنسي "قاسطون دومرغ" يشيد بالإنجازات الحضارية الفرنسية في الجزائر، و يتذكر أنه في شبابه كان "قاضي صلح" Juge de Paix في "عين الأربعاء" بضواحي عين تموشنت بالقطاع الوهراني، ظهرت بعض المناشير تتنبأ بقرب طرد الكولون من البلاد. و ظن حينها أنها من صنع الحزب الشيوعي الجزائري. غير أن بعض المهتمين بمسائل "الأهالي"، كالأستاذ "ديبارمي" Deparmets مثلا، كان يرى عكس ذلك و كانت مخاوفه في محلها.³

لم تكن لفرنسا أن تحتفل كل هذا الاحتفال لولا أن وجدت من "الأهالي" من شجعها في ذلك. و قد أوردت "مجلة الأهالي" La revue des Indigenes في عدد خاص صدر في 1930 بخصوص مرور مائة عام على احتلال الجزائر بعض التصريحات لشخصيات جزائرية محسوبة على التيار الاندماجي من أمثال "حاج حمو"، متحدثا باسم هيئة التدريس للمساجد حين قال: "يا إلهي لقد خطونا خطوة عملاقة بفضل اليد الحنونة التي غالبا ما كانت غير مرئية. إنها يدك يا فرنسا الكريمة.. لنصرخ بصوت عال و دون ملل: "المجد لفرنسا اللاتيكية، بلد المثل الإنسانية، و المجد للإسلام السمح..⁴

أدرك الجزائريون حجم الإهانة التي لحقت بهم قياسا بالواقع المر الذي كان عليه غالبية الشعب، فاعتبروا هذه الاحتفالات بمثابة دعاية للحرب.⁵ خاصة عندما اطلعوا على محتوى "الكتاب الذهبي لمرور قرن على الجزائر الفرنسية"، و الذي حمل معه إهانات كبيرة للإسلام و المسلمين، و اعتبر أن الفرنسيين هم الذين صنعوا الجزائر!! و حتى الحاكم العام للجزائر قد شبه الأمر بعملية زرع، و لم يبق سوى جني الثمار.⁶

3- مصير الحركة الوطنية من المؤتمر الإسلامي إلى اندلاع الحرب

إن الحدث الذي ألهم حماس الجزائريين و حرك الحياة السياسية بشكل واضح في هذه المرحلة، فكان بدون شك انعقاد المؤتمر الإسلامي و تداعياته على المسار العام للحركة الوطنية فيما بعد. لأن من الغموض الذي أحاط

¹ - Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1er novembre 1954..., op.cit., p 39.

² - يعتبر صاحب الفكرة أن سنوات 1934-1935 هي التي شكلت المنعطف الحاسم للاختيار الفرنسي الذي لم يفهمه الكثير من الفرنسيين. لمزيد من التوضيحات ينظر إلى:

- Berque Jacques, Le Maghreb entre deux guerres, 3e éd., éditions du Seuil, Paris, 1979, p 254.

³ - Martin (Claude), Histoire de l'Algérie française 1830-1962, éditions des 4 fils Aymon, Paris, 1963, p 269.

⁴ - إلى جانب تصريحات "حاج حمو"، هناك تصريحات أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها أدلى بها كل من السيد: "بلحاج" ممثل عن المثقفين المسلمين، و "البشاغا أورايج" باسم العائلات الكبرى و المنتخبين العرب و البربر، و السيد "علي أمبارك بن علال" مفوض مالي باسم عائلات الزوايا. لأكثر معلومات أنظر:

- Revue Indigène, 'Les indigènes et le centenaire'..., op.cit., pp 154-158.

⁵ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T1..., op.cit., p 237.

⁶ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemporaine..., T2..., op.cit., pp 404-405.

بظروف انعقاده، نتجت أسباب فشله.¹ فالحديث في البداية كان يدور حول فكرة إنشاء حزب جزائري إسلامي على طريقة الأحزاب الفرنسية الكبرى، مهمته أن يحرك في الجزائريين حسهم و رغبتهم تجاه الواجبات السياسية.² لقد شجع انتصار حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا الوطنيون الجزائريين على عقد مؤتمر كبير في الجزائر خلال صائفة سنة 1936، عرف "بالمؤتمر الإسلامي". اتحدت حوله معظم أطراف الحركة الوطنية باستثناء حزب الشعب الجزائري الذي كان يفتقد لزعمائه بسبب وجود غالبيتهم في السجن.³ لقد خيب المؤتمر الإسلامي و معه مشروع بلوم-فيوليت آمال الجزائريين و طموحات الطبقة السياسية⁴ الجزائرية التي وضعت فيه كل أمانيتها باستثناء حزب الشعب، الذي حارب المشروعين من زاويتين مختلفتين لعدم تطابقهما مع نظرة الحزب للمسألة الوطنية، الأمر الذي عرضه للحل من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية. في الظاهر اتخذ هذا الإجراء كذريعة قانونية للحد من نشاط التيار الاستقلالي و من ثم تسهيل عملية اعتقال أو نفي زعماءه و مناضليه.⁵

تمكن النجم من التأثير على مجرى أحداث المؤتمر حين قام "مصالي الحاج" بإلقاء كلمته الشهيرة في الملعب البلدي بالجزائر في 2 أوت 1936 بمناسبة تنظيم التجمع الشهير لإطلاع الجزائريين على نتائج الزيارة التي قام بها وفد المؤتمر إلى باريس، فكان جواب النجم أنه إذا كان يدعم المطالب المتواضعة المرفوعة لسلطات حكومة الجبهة

¹ - ذكر كلا من : أجرون و قداش، أن أول من جاء بفكرة إنشاء حزب إسلامي هو الأمير خالد. ثم وردت نفس الفكرة بعد ذلك عند فرحات عباس في حدود سنة 1935. كما أن فكرة عقد المؤتمر قد جاء بها الدكتور بن جلول الذي يكون قد اقترحها على الشيخ ابن باديس. و كانت في البداية عبارة عن دعوة إلى عقد مؤتمر ضيق النطاق (خاص بمنطقة قسنطينة)، غير أن الشيخ ابن باديس أشار عليه بتوسيع الفكرة إلى مؤتمر وطني يشمل كل مناطق البلاد. أما سعد الله، فيعتبر أن المؤتمر جاء في سياق المؤتمرات الإسلامية التي انعقدت في نهاية العشرينيات و بداية الثلاثينات. أنظر:

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme..., T1, op.cit., p.
- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit., p.

² - أورد هذه الفكرة "الأمين لعمودي"، في مقال نشر في جريدة "الدفاع" La défense، بتاريخ 19 أبريل 1935. و قد ذكر الفكرة نفسها كل من : أجرون و قداش. ينظر:

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme..., T1, op.cit., p.417.
- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit., p.435.

³ - انعقد المؤتمر الإسلامي في 7 جوان 1936 بقاعة السينما "ماجستيك"، اليوم قاعة "الأطلس"، في حي باب الواد بالجزائر. و اعتمد المؤتمر أرضية مطالب عرفت بـ "ميثاق مطالب الشعب الجزائري المسلم" و هي عبارة عن مجموعة من المظالم رفعت للحكومة الاشتراكية الجديدة، و خصت الميادين السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية. و رفع هذه المطالب وفد شكل من مجموعة من العناصر المشاركة في المؤتمر و الذي سافر إلى باريس و استقبل من طرف رئيس الحكومة "بلوم" في 23 جويلية 1936 و عديد من الوزراء الذين سجلوا حضورهم في الجزائر في مرحلة ما، و نخص بالذكر النائب "موريس فيوليت"، الحاكم العام الأسبق للجزائر و صاحب المشروع الإدماجي المشترك مع "بلوم" و الذي عرف بمشروع "بلوم-فيوليت". غير أن هذه اللوائح وجدت اعتراضات كبيرة بخصوص الشق السياسي الذي كان يطالب بوضوح دمج الجزائر في الحياة الفرنسية. الأمر الذي أثار حفيظة الوطنيون المنخرطين في حزب نجم شمال إفريقيا الذين اعتبروه انتصارا لأنصار فكرة الإدماج. أنظر:

- Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1er novembre 1954..., op.cit., pp 48-49.

⁴ - A.W.O, Revue Afrique Française, Mai 1938, pp 387-388.

⁵ - محساس (أحمد)، الحركة الثورية في الجزائر من الحرب .ع. 1 إلى الثورة المسلحة، ترجمة: الحاج مسعود مسعود و محمد عباس، دار القصبة، الجزائر، 2003، ص 183.

الشعبية، فإنه في المقابل يرفض رفضا قاطعا فكرة إدماج الجزائر في الحياة الفرنسية ضد إرادة الشعب الجزائري المسلم. لأننا لا نريد أن نرهن مستقبل أولادنا و لا الآمال الوطنية في تحقيق الحرية للشعب الجزائري.¹

فبات واضحا أن الحركة الوطنية قد وجدت نفسها ضعيفة و مقسمة، ما دام أن "فكرة الاستقلال" باتت على لسان الآلاف من الشباب الذين تغيرت نظرتهم "للفكرة الوطنية" و تأثروا بالخطاب السياسي الجديد للنجم، فكان ذلك سببا كافيا لدفعهم إلى صفوف النجم الذي وجد نفسه أكثر قوة و انسجام في مواجهة أنصار المؤتمر الإسلامي فكان ذلك سببا في اتساع الهوة. و مع اندلاع الحرب العالمية الثانية لم يعد للمؤتمر الإسلامي وجود، ففيدرالية المنتخبين ذابت لوحدها، و لم يكن للأحزاب التي أنشأها كل من فرحات عباس و بن جلول سوى صدى ضعيف لدى الجزائريين نظرا لتعدادها القليل و لنشاطها شبه المنعدم.

و أكثر من ذلك أن هذه الأحزاب لم تقف موقفا مدافعا عن زعماء حزب الشعب و لا جمعية العلماء التي واجهت جملة من الإجراءات التعسفية.² كما يعود فشل المؤتمر الإسلامي إلى جملة من الأسباب الداخلية و الخارجية،³ كان للإدارة الاستعمارية ضلع فيها، خاصة قضية اغتيال مفتي الجزائر "كحول"، ما تسبب في إقالة بن جلول أو استقالته؟؟ من رئاسة المؤتمر و استبداله بالدكتور "البشير" من البليدة.⁴

¹ - Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1er novembre 1954..., op.cit., pp 50-51.

² - Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine... T2 , op.cit, p 547.

³ - لكن يمكننا القول أن المؤتمر الإسلامي ولد ميتا أو توفي حتى قبل أن يولد، وفق النظرة التي تغطي الزاوية. لأن تغييب التيار الوطني الاستقلالي، عمدا، لم يكن بالنظرة الإستراتيجية و لا الاستشراعية التي تمكن الجزائريين من تحقيق مطالبهم، ما دام هناك نية مبيتة لعدم التشجيع على حضور المصاليين لهذا المؤتمر. و الفكرة الجامعة التي نادى من أجلها المسؤولون على هذا المؤتمر كانت تفتقد للجوهر، و هو "تحقيق الوحدة بين كل التيارات الوطنية". أكثر من ذلك، يمكننا التساؤل حول جدوى مناقشة هؤلاء المؤتمرين للمسائل السياسية الهامة و حقوق المسلمين الجزائريين و التفكير في إنشاء "حزب إسلامي كبير"؟؟ بدون مشاركة مناضلي التيار الاستقلالي؟؟ و الواقع أن كل من شارك في المؤتمر الإسلامي كان متخوفا من منافس كبير يستطيع تجنيد الجماهير كما لا يمكن أن يفعله أي حزب آخر. و الفكرة التي راجت أن عدم حضور المصاليين للمؤتمر لم يكن له تأثير باعتبار أنه لم يكن لهم حزب في داخل الجزائر، و أن حزبه تأسس سنة 1938؟؟ هي فكرة خاطئة من الأساس ما دام أن ما ألت إليه أمور المؤتمر بعد ذلك قد أثبتت الوجود العميق للمصاليين داخل مختلف شرائح الشعب الجزائري، و أن شخصية "مصالي الحاج" شخصية "كاريزمية" قادرة على التأثير بأسلوبها الخاص المتمرن في العمل السياسي و النقابي الذي امتلكته منذ احتكاكها بعالم الشغل الفرنسي الذي جسده التوجه الشيوعي الاشتراكي للطبقة الشغيلة الفرنسية التي حاولت احتواء كل التيارات و الحركات الناشطة في المستعمرات الفرنسية لما وراء البحار.

أما على الصعيد الخارجي فيمكننا القول أن سفيرة اللجنة التي شكلها المؤتمر للتوجه بمطالبها إلى سلطات الحكومة الشعبية في فرنسا، فكانت من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها هؤلاء، كونهم قبلوا بتبني مبادئ حكومة الجبهة الشعبية التي كانت تتمحور حول: الحزب و السلم و الحرية.. مقابل ماذا ؟ لا شيء. إلا الوعود الكاذبة. ينظر في الموضوع لكل من:

- Ferhat Abbas , La nuit coloniale..., op.cit., p 152 ??

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص ص 28-30..

⁴ - أوردت مصادر هامة بأن بن جلول استقال من المؤتمر بعد فشل الإصلاحات التي وعدت بها فرنسا، بالإضافة إلى مسائل أخرى. و هناك من يرى بأن بن جلول أقبل من عضوية و رئاسة المؤتمر الإسلامي الثاني لسنة 1937 لأسباب غير معلنة. و فيما يتعلق بتعيين الدكتور البشير رئيسا جديدا للمؤتمر الإسلامي فقد كان أمرا حتميا نظرا للظروف المحيطة بالمؤتمر. لمزيد من التوضيحات ينظر كل من:

- A.W.O, B 2260, Dossier presse, La lutte sociale du 7-10-1936. Et aussi : La Justice du 7-11-1936.

- A.W.O, B 2260, SEA, n° 332/K, du 9-02-1937.

- Aron Robert et les autres., Les origines de la guerre d'Algérie..., op.cit., p 31.

كما أن بواردر الفشل اتضح منذ البداية عندما طرحت جريدة "الدفاع" La defense إشكالية الوحدة التي كان يحلم بها المسلمون الجزائريون في سؤال: ماذا نختار؟ جبهة شعبية أم جبهة وطنية؟ أم نؤسس حزب إسلامي؟ و كأن ظروف البلاد و الجزائريين تتطلب مثل هذا الاختيار. و ما دام أن الإدارة الاستعمارية كانت تستغل سوء التفاهم الحاصل بين مختلف التوجهات السياسية الجزائرية، طلب "العمودي" من المنتخبين المسلمين الالتفاف حول مشروع محدد و أن لا يبقوا متفرقين.¹

ثانيا – الحماية و مخططات فرنسا الاستعمارية في المغرب

تعود فكرة إدخال المغرب ضمن المخطط الاستعماري الفرنسي إلى أواخر القرن التاسع عشر و بالتحديد مع مطلع سنة 1898، حيث ظهرت الإرادة الفرنسية داخل أعلى هيئاتها المسيرة في البلاد. فظهرت جليا من خلال تجاذب أطراف الحديث أثناء ما كان يعرف "بالفطور المغربي" Les déjeuners marocains، حيث يلتقي زعماء "الحزب الاستعماري"، الذين ينتمون إلى جماعة "ليون قمبيتا"،² Gambetta Léon من أمثال؛ أوجان إيثيان و قابريال هانوتو و ثيوفيل دلكاسي،³ Eugene Etienne, Gabriel Hanotaux et Theophile Delcasse و بعض رجال الفنون و الأساتذة من الذين استهوتهم الفكرة الاستعمارية أمثال؛ "بول بورد" و "أغستين برنارد" هذا الجمع من الجمهوريين المعتدلين أسس سنة 1903 ما عرف "بلجنة المغرب" التي ظلت تعمل في ظل "لجنة إفريقيا الفرنسية" المهتمة بشؤون بلاد شمال إفريقيا.⁴

¹ - La défense, N- du 10 septembre 1934.

² - ولد "قمبيتا" في "كاهور" سنة 1838. و هو محامي لبرالي و رجل سياسي فرنسي. و يعتبر أحد الخطباء الأقوياء المعارضين للإمبراطورية. أصبح نائبا برلمانيا للتيار الجمهوري ممثلا لبلدة "بالفيل" سنة 1869، و بعدها أعلن قيام الجمهورية في 4 سبتمبر 1870، حيث كان ضمن طاقم الحكومة المؤقتة. و بعدها نزح إلى مدينة "تور" أين نظم الدفاع الوطني رفضا منه الاعتراف بالهزيمة أمام بروسيا. واصل تمثيله في البرلمان لبلدة "بالفيل" ما بين 1871 إلى 1875 أين كان في صفوف اليسار المتطرف على رأس "الإتحاد الجمهوري". يلقبه البعض "بالوكيل المتحول" للجمهورية ضد "النظام الأدبي". فتكللت مجهوداته بالنجاح في الانتخابات التشريعية لسنوات 1876 و 1877. و بعدها أصبح رئيسا للغرفة البرلمانية بعد استقالة "ماك ماهون" سنة 1879. فكان عليه مواجهة تشدد "جول كريفى" و الراديكاليين. ما جعل "الوزارة الكبيرة" التي ترأسها لا تدوم سوى بضع أسابيع، أي من نوفمبر 1881 إلى جانفي 1882. و هي السنة التي توفي فيها "قمبيتا". ينظر: Petit Larousse illustré, op.cit., p 1343.

³ - ثيوفيل دلكاسي، رجل سياسي فرنسي ولد في منطقة "بامي" Pamiers سنة 1852. و طد التحالف الفرنسية الروسية عندما شغل منصب وزير للخارجية فيما بين سنوات 1898 و 1905 و كان وراء العلاقات الطيبة التي ربطت فرنسا ببريطانيا سنة 1904. إلى جانب دوره في حدوث التقارب مع الإيطاليين. توفي سنة 1923. أما قابريال هانوتو فهو رجل سياسي و مؤرخ في نفس الوقت، ولد في منطقة "بوروفوار" Baurevoir dans l Aisne. كما شغل منصب وزير للخارجية من ماي 1894 إلى جوان 1898. و عمل مع "الأكاديمية الفرنسية" على إنجاز عمل تاريخي بعنوان "تاريخ الأمة الفرنسية" فيما بين 1920 إلى 1929. توفي سنة 1944 عن عمر يناهز 91 سنة. أنظر إلى:

- Petit Larousse illustré, op.cit., pp 1272- 1384.

⁴ - يضع "أجرون" في كتابه: فرنسا الاستعمارية أم الحزب الاستعماري؟ توضيحات هامة لهذه الفكرة المرتبطة بالمغرب. أنظر:

- Ageron Charles Robert, France coloniale ou parti coloniale ?, PUF éditions, Paris, 1978, pp 96-102.

كما أقلقّت وضعية مراكش و الحوادث التي دارت فيها خلال عامي 1911 و 1912 كثيرا الطرف الإسباني الذي أعلن عن عدم اعترافه بالاتفاقية الألمانية الفرنسية، حيث اعترض على وضع الحماية من جانب فرنسا وحدها فقط، لأن ذلك يعطيها حقوقا ليست بالشكلية في المنطقة الشمالية باعتبارها ممثلة للسلطان المغربي. لذلك كان رأي إسبانيا أن يتم فصل المنطقة الشمالية عن بقية البلاد من الناحيتين القانونية و الفعلية. و لكن فرنسا استندت إلى ميثاق الجزيرة الذي ينص على وحدة أراضي مراكش.¹ أما إسبانيا فكانت تستند إلى اتفاقية سنة 1904 و هي التي كان يجهلها أعضاء مؤتمر الجزيرة.² بعد توقيعها لاتفاق 4 نوفمبر مع ألمانيا،³ شرعت فرنسا تطالب السلطان المغربي بممارسة سلطات الدولة الحماية. غير أن السلطان "عبد الحفيظ" حاول أن يقي لنفسه ما تبقى من سلطات وهمية، فطالب بالإشراف على شؤون الأوقاف و حق تعيين الوزراء و حرية اختيار وريث العرش. فاحتاجت فرنسا إلى إرسال بعثة خاصة بقيادة "ريغنو" إلى فاس في 23 مارس 1912، للنظر في المسألة مستخدمة أساليبها المعروفة في الضغط على السلطان و إقناعه بتوقيع معاهدة الحماية التي تمت فعلا في 30 مارس 1912.⁴ لقد صيغت بعض نصوص المعاهدة في عبارات غامضة حتى يمكن لفرنسا استعمالها متى سمحت لها الظروف بذلك. حيث اتفق الطرفان المغربي و الفرنسي على كتمان أمر المعاهدة عن الشعب حتى لا تتعرض البلاد للاضطرابات، و كان على الملك عبد الحفيظ أن يستقر بالرباط بعد توقيع الحماية. و فعلا، فقد انتقل إليها في يونيو 1912 و لكنه ما لبث أن اصطدم "بليوي" عندما أخبره بالقيود الفعلية التي أحيطت بها المعاهدة. و لعله كان يائسا من سخط الناس عليه، لذلك قال للبليوي: "بأن الحماية كانت غلطة، و أن الإنجليز يستمتعون في مصر بجميع مزاياها دون اسمها..". فكانه يعترض على الشكل الخارجي للحماية الذي يثير سخط السكان. و على كل فإن فكرة التنازل عن العرش كانت تراود عبد الحفيظ حتى قبل إرسال "رينيو" إلى فاس ثم ازداد اقتناعا عندما أخذت فرنسا تلح عليه في انتزاع سلطاته الرئيسية.

¹ - انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء في الفترة ما بين 15 يناير إلى 16 يونيو من سنة 1906 بحضور ممثلي خمس عشرة دولة. و سمح هذا المؤتمر بإلغاء الامتيازات التي تحصلت عليها فرنسا بعد مؤتمر مدريد، كما ألغى كل المعاهدات السرية التي أبرمتها فرنسا مع الدول، كما اعترف المؤتمر بحرية المغرب و استقلاله. و كلفت فرنسا بمهمة دولية و هي بالإشراف على بعض الإصلاحات في المغرب، و هي مسؤولة أمام المجتمع الدولي. و بذلك أصبحت وضعية المغرب وضعية دولية لا تخص فقط فرنسا التي كانت تطمح في وضع آخر لها بالمغرب. لمزيد من الشروحات ينظر:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص 107.

² - أبرمت فرنسا اتفاقية بينها و بين بريطانيا في أول الأمر، تتنازل بموجبها عن منافستها لها في مصر على أن تعترف بريطانيا لفرنسا بحقوقها في المغرب. ثم أكملت فرنسا الاتفاقيات مع إسبانيا حيث قسمت البلاد بينهما حيث تحتفظ إسبانيا بالجزء الشمالي للمغرب لحماية سواحلها. ينظر:

- الفاسي علال، مصدر سابق...، ص 105.

³ - أرضت هذه الاتفاقية كل الأطراف المتنازعة على المغرب، و نخص بالذكر: فرنسا و ألمانيا و إسبانيا. أما ألمانيا فكان رد فعلها مباشرا بداية من الفاتح جويلية 1911، عندما بعثت بسفيتها الحربية "الفهد" Panther إلى ميناء "أغادير" لحماية مصالحها الاقتصادية في منطقة "السوس". هذه كانت الأسباب الرسمية. غير أن ما في الأمر هو أن الألمان أرادوا بهذا العمل أن يظهروا لفرنسا بأنها ليست وحدها من يهتم بالمغرب. ينظر:

- Lugan (Bernard), Histoire du Maroc des origines à nos jours..., pp 229- 230.

⁴ - Lugan (Bernard), Histoire du Maroc des origines à nos jours, Critérion Histoire, Paris, 1992, p 230.

كما طالب فرنسا فقط بأن تضمن له حرية مكان إقامته و الاحتفاظ بأمواله في مراكش. حيث استطاع في الأخير أن يتحصل على تعويضات مالية هامة قدرت بـ 375000 فرنك كراتب سنوي و صك بقيمة 40000 جنيه إسترليني، و في المقابل ينسحب "لأسباب صحية".¹

هذا الموقف الضعيف الذي أبان عنه الملك عبد الحفيظ في هذا الظرف العصيب، و هو الذي اختير من قبل الشعب لتولي الجهاد ضد العدو، قد دفعه إلى طلب التنازل عن العرش الأمر الذي وضع فرنسا في ورطة داخلية و خارجية حقيقية.² و لكن سرعان ما ظنت أنها قد وجدت في شخص أخيه "مولاي يوسف" الرجل المناسب الذي سوف يقود المخطط الاستعماري الفرنسي في المغرب إلى بر الأمان.

غير أن ذلك لم يمر على أهل فاس الذين اعتبروها بمثابة التنازل عن دار من دور الإسلام للكفار و المسيحيين، الأمر الذي دفعهم إلى حمل السلاح في معركة باسلة ناذرا ما عاشها المغرب.³ و بذلك أصبحت الحماية الفرنسية مقيدة بامتيازات إسبانيا و بوضع طنجة الدولي، و في داخل منطقة نفوذ ذاتها بقيت بعض الامتيازات الدولية التي لم يمكن تجاهلها بالرغم من أن سياسة فرنسا التقليدية هي عزل المحمية اقتصاديا و سياسيا عن العالم الخارجي.

لقد تزامن توقيت فرض الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى بالتحضيرات الكثيفة للحرب العالمية الكبرى التي كانت على أبواب أوروبا بسبب الصراعات و التنافس الشديدين بين القوى الأوروبية العظمى في بحثها على مناطق النفوذ. و كانت فرنسا الأكثر تحمسا لضم المغرب لأسباب جغرافية إقليمية و إستراتيجية ستمهد لها الطريق لفرض هيمنتها على أجزاء هامة من البحر الأبيض المتوسط. فكانت عملية التجنيد الإجباري على الأبواب

¹ - لم يكن الملك "عبد الحفيظ" قادرا على مسايرة قوة فرنسا العسكرية و كراهية شعبه له، لدى لم يبقى أمامه سوى حل التنازل و الهروب. ينظر في هذا الباب كل من:

- العقاد (صلاح)، المغرب العربي في التاريخ الحديث و المعاصر، الجزائر، تونس و المغرب الأقصى، ط6، القاهرة، 1993، ص 271.

- Lugan Bernard, Histoire du Maroc..., op.cit., p 232.

² - في الواقع عندما اختير ليكون سلطان الجهاد، أصبح وجوده على رأس العرش غير ذي أهمية بعد إعلان الحماية، ثم بعد ثورة فاس. إلا أن سياسة فرنسا كانت تهدف إلى الانتفاع بمعية السلطان؟؟؟ أولا: لتسهيل السيطرة على مراكش. ثانيا: لمواجهة الحكومات الأوروبية الأخرى، إذ أن مشاكل مراكش الدولية لم تنته تماما بتوقيع المعاهدة الفرنسية الألمانية، و لما لاحظ "ليوني" تصلب عبد الحفيظ في إمضاء المراسيم، نصح حكومته بقبول تنازله عن العرش. و في 12 أغسطس 1912 أعلن عن هذا التنازل (لأسباب صحية) و كان الاتفاق قد تم بين الإقامة و المخزن على اختيار "مولاي يوسف بن الحسن" للاعتلاء العرش. و قد سبق لمولاي يوسف أن تعاون مع كل من أخويه "عبد العزيز" ثم "عبد الحفيظ"، و كان حاكم فاس في عهد السلطان الأخير. و وجدت فرنسا في السلطان الجديد أداة طيعة للتعاون معها. و هكذا تغلبت على أزمة العرش. و هي أول مشكلة واجهت الحماية. و لكن بقيت أمامها مشاكل أخرى أشد تعقيدا، و هي التوفيق بين مركزها و بين مصالح الدول الأخرى التي اكتسبت في مراكش عن طريق المعاهدات الدولية. ينظر:

- العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث و المعاصر...، مرجع سابق...، ص 272.

³ - عندما أشيع خبر إعلان الحماية في مدينة فاس، توجه "الحجامي" على رأس 20000 مغربي لمحاصرة المدينة و وقعت معارك لا تزال تعرف "بالأيام الدامية". ينظر في هذا الباب إلى كل من:

- الفاسي (علل)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص 119.

- Lugan Bernard, Histoire du Maroc..., op.cit., p 230.

في الجزائر و تونس، و لم يبقى سوى تهيئة الظروف لجر سكان المغرب الأقصى للانضمام إلى صفوف الجيوش الفرنسية. هذه الأحداث ميزتها مرحلة الحرب العالمية الأولى التي أخرجت نوعا ما عمليات "التهدة" أو إعادة السلام للمغرب، كما يحلوا للفرنسيين تسمية ذلك.¹

1- "ليوتي" المارشال الذي صنع الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1925

أصبح اسم "لويس يوبر ليوتي"² Lyautey Louis Hubert يسطع في سماء المغرب منذ سنة 1920، مقرونا بأسطورة "ليوتي الإفريقي" في صورة إمبراطورية قديمة و غنية التي أراد تشييدها على شاكلة جمهورية لدرجة أن عمله هذا شبه بالحملة التي قادها "نابليون بونابرت" على مصر.³

فبقيت الأسطورة قائمة لسنين عديدة تجمع المغرب و ليوتي معا.⁴ أي منذ دخوله المغرب في منتصف ماي 1912 عندما وصل إلى الدار البيضاء، حين وجد نفسه في مواجهة انتفاضة مغربية لم يحسب لها حساب من طرف فرنسا. فكانت مهمته الأساسية هي منع "جزارة" المغرب، كما كان يتمناه الكولون و يخشاه المغاربة.⁵

عين المارشال "ليوتي" في منصب المقيم العام بجانب القيادة العسكرية منذ فرض نظام الحماية على المغرب سنة 1912 حتى سنة 1925. و لم يشتهر "ليوتي" فقط بنجاحه في التغلب على مقاومة المغاربة العنيدة، بل إنه وضع أسس و مبادئ الإدارة الفرنسية التي أصبحت مقرونة باسمه. و قد كتب "ليوتي" عن رأيه في الحماية⁶ حيث قال: " تتضمن فكرة الحماية أن الدولة المحمية تحتفظ بأنظمتها و حكومتها الخاصة. و أن تحكم نفسها بنفسها عن طريق هيئاتها المنظمة... و مراكز دولة مستقلة تعهدت فرنسا بحمايتها على أن تظل تحت سيادة السلطان مع الاحتفاظ بنظام الحكم الذي اتخذته. و من الواجبات التي نيظت بها ضمان وحدة هذه الحكومة و المحافظة على نظام الحكم القائم بها..."⁷

¹ - في الواقع ما يسميه الفرنسيين "بالتهدة" و إعادة السلام، ما هو إلا أسلوب مغالطة لإظهار المغاربة في ثوب الوحوش التي ترفض التحضر و التمدن. لأن الأصل في المسألة هو عملية مقاومة لوجود أجنبي على أرض الإسلام.

² - مارشال فرنسي، ولد بمدينة "نانسي" باللوين سنة 1854، تقلد منصب مساعد للمارشال "لقلياني" في "طونكين" و "مدغشقر" ما بين 1894 إلى 1897. صاحب مشروع الحماية الفرنسية في المغرب من سنة 1912 إلى 1925، حيث تقلد خلالها عدة مناصب منها: وزير الحرب بين 1916 و 1917. و بعد انسحابه من المغرب سنة 1925، نظم المعرض الاستعماري الفرنسي في باريس ما بين 1927 إلى 1931 تحت إشراف الأكاديمية الفرنسية. توفي "ليوتي" سنة 1934 عن عمر يناهز الثمانين سنة.

³ - L'épithète d' « Africain » est accolée à Lyautey à l'occasion de son accession au maréchalat début 1921. Voir : cf, le journal du 20/02/1921.

⁴ - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey à Mohammed V, le double visage..., éditions Denoël, Paris, 1999, p 19.

⁵ - Ibid., p 20.

⁶ - نشرت أقوال "ليوتي" و خطاباتاته في مجموعات مختلفة من المصادر أنظر منها:

- Lyautey, Paroles d'action 1900-1926, éditions Armand Colin, Paris, 1927.

- Dix ans du protectorat 1912-1922.

- الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، 1993 ص 47.

⁷ - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 279.

كانت الخطوات الأولى للمارشال الفرنسي "ليوتي" صعبة في بدايتها، لدرجة أنه وصف الوضع في رسالة إلى السلطات الفرنسية في باريس على هذا النحو: "إننا أمام شعب يتكون من 10 ملايين من البشر يعيشون بشغف، كسينوفوبيا الإسلام، كما لم نجد في أي مكان آخر. و نخشى أننا لن نستطيع الوقوف أمام هذه الموجة كثيرا. إننا نعيش على الحظ، و الأمور تسير جيدا إلى حين ينكسر كل شيء...¹

تمكن "ليوتي" من بسط قبضته على مراكش في 1912 ثم على مدينة "تازة" في سنة 1914، إل حين ينتهي من العمليات العسكرية. فقد وصفه البعض أنه يجيد الحرب لكنه يفضل السلام، لذلك وجد نفسه مضطرا لنقل العاصمة إلى مدينة "الرباط" لأسباب إدارية و أيضا لأن المدينة كانت لها نوافذ على البحر، الأمر الذي يجعلها ذو فائدة من جميع النواحي.²

يرجع بعض الكتاب الفرنسيين سياسة "ليوتي" إلى ميولاته الشخصية المرتبطة بانتمائه البورجوازي للملكية الفرنسية في الأصل، حيث وجد في مراكش فرصة ليكون صانع الملك فيطبق آرائه في مراكش متسترا وراء السلطان "مولاي الحفيظ" الذي أطلع ليوتي بأن الاتفاقية الفرنسية الألمانية ل9 نوفمبر 1911 قد منحت فرنسا كل المزايا المرتبطة بالحماية و لم تلزمها بأي سلبات عكس ما كان يروج له من طرف الكولون.³

هكذا قادت سياسة "ليوتي" عمليا إلى سحب أهم اختصاصات الإدارة من حكومة المخزن أو الإدارة الشريفة، مما أدى إلى الاستغناء عن كثير من الوزراء المغاربة. حيث سير هذا النظام الإداري بطريقة غير مباشرة، إذ أن الإقامة العامة كانت تدير بعض الشؤون الأخرى إدارة مباشرة، منها؛ إدارة الفلاحة و التجارة و الغابات و إدارة المالية و إدارة الأشغال العمومية و إدارة الإنتاج الصناعي و المعادن و إدارة البريد و التلفون و الإذاعة.

كان "ليوتي" ينوي تطبيق مبدأ الإدارة غير المباشرة في بداية الأمر حتى يرى نتائج تطبيق سياسته في المغرب، فأبقى على الباشاوات و قياد الأقاليم من سلطات قضائية و مالية، بالرغم من علمه بالمظالم التي تقع على أيدي هؤلاء القياد و التي كان يرفعها السكان المراكشيين إلى الإدارة الفرنسية التي كان باستطاعتها أن تساعد على التخلص من هذا النظام العتيق الذي لا يميز بين السلطة القضائية و الإدارية. و لكن الإقامة العامة الفرنسية لم تهتم لذلك إلا فيما كان يخدم مصالحها، خاصة في المسائل المتعلقة بشؤون الأمن العام. لهذا الغرض عينت مراقبين فرنسيين لمساعدة القياد في شؤون الأمن.⁴

¹ - رسالة بعث بها "ليوتي" إلى "ماكس لوكلار". ينظر:

- Lettre de Lyautey à Max Leclerc, rédigée à Fès le 18 juin 1912, F. Lyautey, VI. (Cité par Rivet..., p 31).

² - Lugan (Bernard), Histoire du Maroc..., op.cit., p 231.

³ - كانت ترمي الاتفاقية إلى تصفية أزمة أغادير بشروط ترضي فرنسا كثيرا. من أجل معلومات أكثر ينظر:

- Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey à..., op.cit., p 33.

⁴ - العقاد (صلاح) مرجع سابق...، ص 279.

أما القياد الذين أظهروا ولاءهم للإدارة الفرنسية، فقد مكنتهم الإقامة العامة من إظهار نزعتهم الاستقلالية بالنسبة للسلطة المركزية، و هو الأمر الذي لا يتماشى مع روح الحماية. و يمكن القول إذن بأن "ليوتي" قد غرس النظام الإقطاعي في مراكش بمعناه الحقيقي¹.

فيما يخص السياسة الفرنسيين، فلم تعجبهم تصرفات "ليوتي" الذي وصفوه "بداعية الحماية". لأنه مجد "الحماية" كتجربة فريدة من نوعها في المغرب دون سواها من البلدان الأخرى. حيث كان يرى بأن هذه التجربة لا يمكن نقلها و لا تقليدها..² و يعتبر "ليوتي" رجل متنوع لدرجة كبيرة جعلته من الذين يحسنون تركيب طرح للنقائص، التي تتطلب قدرات رجل كيميائي قادر على التحكم في مصير إمبراطورية متعددة العناصر. و منه المحافظة على المغرب القديم على طريقة علماء الآثار.³

بدأ "ليوتي" يرتاح لفكرة الحماية، لأنه يعتبرها النموذج الأمثل الذي سوف يقف أمام الأطماع التوسعية للوسط الاستعماري المتشدد، الذي أصبح متهورا لدرجة كبيرة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى و الهدنة التي تلت هذه الحرب. و يرى أن الحماية سوف تعطي للمغاربة الضمانات الكافية بأن شخص الملك و المؤسسات المتعلقة بالمسلمين سوف يتم المحافظة عليها مما حصل. و اعتمد "ليوتي" هذه الذريعة سنة 1916 عندما قدم مشروع لمناقشة إمكانية منح الجنسية الفرنسية لبعض الجنود من المسلمين الذين منحوا الأوسمة عرفانا على دفاعهم على فرنسا في ميادين القتال.⁴

واصل في نفس النسق الذي أملته روح الحماية عندما واجه غضب الأوروبيين في الدار البيضاء سنة 1919، و الذين طالبوا بتغييره من منصبه كمقيم عام و بتفكيك كل المؤسسات التي وضعها في المغرب، و ذلك بسبب تدني العملة المحلية (الحساني)⁵ و موقف القضاة المحليين الذين هيجوا الرأي العام الأوروبي ضده.⁶ و تواصل تواصل الأمر سنة 1923، عندما انتفض نواب و إشهاربي القلعة الاستعمارية الجزائرية ضد نظام الحماية الذي، حسبهم، لا يخدم فرنسا بقدر ما هلوس المغاربة. و مرة أخرى يتدخل "ليوتي" بعصا "التمجيد للحماية" و يعتبر أن الأمر لا يغدو أن يكون صيغة شراكة بين شعبين، أحدهما قاصر ينتظر أن يجود عليه الثاني بمحاسن حضارته، و كلاهما يجني الفائدة.⁷

¹ - ظهرت كتابات حديثة تتحدث عن الدور الذي لعبه المارشال "ليوتي" في صنع مدينة مراكش بصيغتها الحالية، مدينة متحررة و مفتوحة على نزوات الأجانب الذين وجدوا فيها كل الملذات. و حتى صفة "الشنوذ" التي عرف بها "ليوتي" هي من بين النقاط التي ساهمت في ذلك.

² - Hardy (Georges), Portrait de Lyautey, éditions Bloud et Gay, Paris, 1949, p 172 et sq. (cité par Rivet Daniel., Le Maroc de Lyautey..., op.cit., p 34).

³ - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey à., op.cit., p 20.

⁴ - Lyautey l'Africain, tome 3, lettre adressée à Delcassé en date du 15 juin 1915. C'est le texte le plus étincelant d'intelligence écrit par Lyautey sur la spécificité du Maroc et l'ardente obligation de faire du protectorat. (Cité par Rivet p 34)

⁵ - و هي عملة محلية مغربية كانت منتشرة قبل فرض الحماية الفرنسية على المغرب.....

⁶ - Rivet (Daniel), Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc 1912-1925, tome 3, éditions l'Harmattan, Paris, 1988, pp 118-119. (cité dans Le Maroc de Lyautey..., pp 34-35).

⁷ - Lyautey, Paroles d'action 1900-1926..., op.cit., p 19.

لم يشجع "ليوتي" الهجرة الأوروبية، و لاسيما الاستيطان الزراعي، لأنه، في الواقع، كان يخشى مواجهة جماعات ذات نفوذ و تقاليد سياسية واسعة تعرقل سلطته المطلقة. و مع ذلك فقد كان تيار السياسة الاستعمارية أقوى من أن يقاومه "ليوتي" فدخل مراكز في عهده نحو ألف مستوطن زراعي¹. علاوة على عدد أكبر من أصحاب الحرف و رجال الأعمال و التجارة في المدن. و قدر "ليوتي" بنفسه مساحة الأراضي التي امتلكوها في عهده بـ 400000 هكتار.²

كان الرأسماليون الفرنسيون يأملون في أن يراعي رجال الأعمال الأمريكيون تفوق فرنسا السياسي، فلا يفتحون باب المنافسة الاقتصادية على مصراعيه. و حين حاولت الإقامة الفرنسية إرضاء مواطنيها بسن بعض التشريعات المقيدة لنشاط الأجانب الاقتصادي، رفع نحو 37 رجلا من رجال الأعمال الأمريكيين شكوى ضد الحكومة الفرنسية لدى محكمة العدل الدولية التي أصدرت حكمها لصالحهم سنة 1952.³ و في نفس الوقت أيد الحكم وجهة النظر الفرنسية بتقييد حرية القضاء القنصلي الذي تمسكت به الولايات المتحدة طوال عهد الحماية. عندما اقترب موعد رحيله عن المغرب، عقد "ليوتي" آخر مجلس لسياسة الأهالي في 14 من أبريل سنة 1925، أين ذكر في كلمته المختصرة الوضعية النفسية التي وجد فيها نفسه في مدينة فاس مع أواخر شهر ماي 1912، و التي لخصها في كلمتي: "الفراغ الكلي". و ذكر أيضا بالخطوات الأولى لسياسته اتجاه المغاربة أين حاول أن يطبق سياسة "الإغراء السياسي" فاصطدم بجدار مبهم. فتوجه للمغاربة بهذه الكلمات: "إننا نحترم إيمانكم و تقاليدكم و مؤسساتكم و حتى مناصبكم الاجتماعية و الإدارية احتراماً تاماً".⁴ فكان جواب المغاربة أنهم لا يثقون كثيراً في الفرنسيين لأنهم يعلمون ما فعلوا بالجزائر، و ربما أنه الفرنسي الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة.

لقد لخص المارشال "ليوتي" معضلة "المسألة المغربية"، غداة نهاية الحرب الكبرى، بتعليمة مؤرخة في 18 نوفمبر 1920، و مرسلة إلى المجتمع الأوروبي في المغرب و إلى سلطات الرباط و باريس معاً، جاء فيها: "باتصالنا بالأوروبيين و الجزائريين، لمسنا حقيقة ثابتة تشير إلى تكوين شبيبة طموحة تعتبر نفسها مهمشة، و سوف تتعلم بنفسها اللغة الفرنسية، و عندما تحس بقيمتها و تعتبر نفسها جاهزة، سوف تطرح على نفسها لماذا هي مهمشة و بعيدة عن تسيير الشؤون العامة..⁵

وحسب المحافظ "المقيم العام" Résident général للجمهورية الفرنسية لدى المغرب، فإن إبعاد الشباب المغربي عن إدارة شؤون بلادهم يعتبر خطأ فادحاً سوف تكون له عواقب وخيمة على النظام، باعتبار أن "ليوتي" كانت له نظرة شخصية حول "المحمية" الجديدة، حيث كان يفضل صيغة الوصاية على الإلحاق. ما دام أن ذلك

¹ - خير فارس (محمد)، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939، رسالة دكتوراه...

² - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 281.

³ - Résidence générale, Les problèmes du protectorat..., p 278. (Cite par Akkad Salah..., op.cit., p 282.).

⁴ - Lyautey, Paroles d'action 1900-1926...op.cit., p 20.

⁵ - Lyautey (Pierre), Textes et lettres du Maréchal Lyautey l'Africain 1919-1925, adressées au président du conseil en date du 24 octobre 1920, T4, éditions Plon, Paris, 1957, p20.(381P)

يحافظ على السيادة و الأسس الداخلية و الشخصية الدولية للمغرب و يسمح لفرنسا فقط، بلعب دور الحامي و المراقب لهذه الوضعية.

في سنة 1925، عشية اندلاع انتفاضة أهل الريف بقيادة "عبد الكريم الخطابي"،¹ تذكر "ليوتي" بإحساس شديد، خطواته الأولى في مدينة فاس سنة 1912 حيث قال: "إنني أتذكر تلك السنة التي وجدت فيها نفسي في مدينة فاس و الفراغ قد غمرني، فالجميع كان يلتفت مني، و بدأت الأبواب تصد في وجهي و الناس يصقون عند مروري أمامهم.. أنا الذي كنت قادما من منطقة الغرب الجزائري، وأين كان لي أصدقاء كثر، فقد كان الانطباع شديد القسوة.." ²

لعل "ليوتي" فهم وقتها أن الحماية مهما طال وجودها فهي في طريق الزوال حيث قال: "علينا أن نترقب أجلا أم عاجلا، تحرر شمال إفريقيا عن المتروبول. هذه حقيقة تاريخية. حينها ستكون شعوبها متطورة و متحضرة، و على فرنسا أن تعمل على أن يكون الانفصال دون عذاب و لا ألام. لأن ذلك سوف ييتي على أنظار المسلمين دائما مشدودة تجاه فرنسا بالعطف و الحنان.." ³

لم تمر فترة طويلة على رحيله عن المغرب حتى كتب عنه منظر الوطنية العربية المتصاعدة "شكيب أرسلان" يقول: "كنا نعتبر المارشال "ليوتي" عدونا لكنه لم يرتكب أبدا أعمال شنيعة.. و من منظور المسلم الأهلي، فهو أخطر فرنسي عرفته شمال إفريقيا لأنه ببساطة رجل حكيم. كان يعرف بحكمته كيف يهدئ من روع العرب، كان يحاول جلبهم نحو فرنسا بكل الطرق، كان يحافظ على كرامتهم.. لقد قتل "ليوتي" استقلال المغرب و لكن دون أن يحط من قيمته.." ⁴

2- مخطط "التفرقة الاستعماري" انطلاقا من السياسة البربرية

¹ - هو محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولد حوالي 1882 بقرية "أجدير" بالمغرب. زعيم المقاومة الريفية في المغرب، أصبح قائدا لحركة المقاومة في المغرب ضد الوجود الإسباني ثم الفرنسي، حيث أصبح رمزا للحركات الاستقلالية المناهضة للاستعمار. درس القرآن في الزوايا ثم تعلم في المدارس الإسبانية ثم انتقل إلى جامعة القرويين في فاس. بعدها التحق بجامعة "سalamanque" في إسبانيا أين درس الحقوق. و في عام 1915 عين في منصب قاضي رئيسي في منطقة "مليية". غادر هذا المنصب بعد نهاية ح.ع. 1، أين التحق بمسقط رأسه و شرع في توحيد قبائل الريف بمعية أخيه في ما عرف "بجمهورية الريف المستقلة" للوقوف ضد القوات الإسبانية التي كبدها شر الهزائم أبرزها في معركة "أنوال" التي راح ضحيتها أكثر من 16000 جندي لإسباني. بعدها، تحالفت ضده لإسبانيا و فرنسا ما جعله يتراجع إلى أن تم نفيه إلى مصر التي توفي بها في 6 فبراير من سنة 1963. أنظر.

<http://emirabdelkrim.unblog.fr/biographie/>

² - Archives Nationales, Fonds Lyautey, déclaration faite par Kahn Otto et adressée à la presse française en date du 21/03/1925. (Cite par Levisse Touze Christine, in L'Afrique du Nord dans..)

³ - Spillmann (Georges), Du protectorat à l'indépendance du Maroc 1912-1955, Plon éditions, Paris, 1967, p 26.

⁴ - صدر هذا المقال "لشكيب أرسلان" بعد ست سنوات من رحيل "ليوتي" عن المغرب في جريدة الأمة العربية الصادر في ماي-جوان من سنة 1931. ينظر إلى:

- Lugan Bernard, Histoire du Maroc des origines à nos jours..., op.cit..., p 236.

يقصد بهذه العبارة السياسة التي اتبعتها فرنسا في عهد الحماية لعزل البربر عن المجتمع المراكشي. و قد بنت الحماية سياستها هذه على أساس فكرة خاطئة مفادها أن البربر لم يعتنقوا الإسلام إلا ظاهريا، و بالتالي فمن الأنسب لهم الاعتراف بعرفهم الخاص كقانون مدني و تطبيقه رسميا بواسطة محاكم خاصة. و فعلا استصدرت الإقامة العامة ظهير Dahir في سبتمبر 1930 يخرج البربر من دائرة القضاء الشرعي في الأمور المدنية و يجعل مجلس الجماعة أو القبيلة مختصا في النظر إلى تلك الشؤون.

لم يثير هذا الظهير في حينه ردة فعل تذكر، إما لأن مغزاه كان محدودا أو لانعدام الوعي السياسي في تلك المرحلة. و لكن ما هو أكيد، أن السياسة البربرية غدت فيما بعد منهجا بعيد الأهداف خصوصا في مرحلة الأزمة الاقتصادية العالمية، حين كان المقيم العام "لوسيان سان" محاطا بجماعة من المستشارين عرفت بالكتلة البربرية، أي التي تدعو إلى فصل البربر عن حكومة المخزن بحجة أن الأخيرة تمثل العرب، و ترى هذا الفصل مقدمة لإدماج البربر في البيئة الفرنسية. و قد تضمنت هذه الخطة فكرة إحياء اللغة البربرية عن طريق كتاباتها بحروف لاتينية، حيث وضع المستشرق "جود فروي دي مونين" مستشار التعليم في مراكش، مشروعا مفصلا لهذا الغرض. و في نفس الوقت ركز المبشرون نشاطهم في بلاد البربر حتى صار لهم نحو 137 مركزا في سنة 1932.¹

تلك هي الظروف التي أحاطت بالظهير البربري الشهير عند صدوره في 16 ماي سنة 1930 في بداية عهد السلطان "محمد بن يوسف"، فكان له صدى كبير في العالم الإسلامي، إذ فهم العرب من هذا المرسوم على أنه يهدف إلى تنصير جماعة من المسلمين بقوة القانون. و يعتبر هذا الابتكار آخر ما وصل إليه الفكر الفرنسي للقضاء على مقومات شعوب المغرب العربي و إدماجها في المجتمع الفرنسي.²

أما الظهير نفسه فيشمل تعديلين بخصوص مسألة القضاء عند البربر. حيث بمقتضى التعديل الأول: يعطى لمجلس الجماعة الصفة الرسمية، فيتحول إلى محكمة مدنية و يسجل عرف البربر ليصبح قانونا معترفا به لدى تلك المحاكم.³ فيما يخص التعديل الثاني: فينزع بمقتضاه اختصاص النظر في الجنايات من قضاء القواد و الباشاوات الذين يمثلون السلطان. و تنشأ محاكم جديدة في بلاد البربر من قضاة فرنسيين لتطبيق القانون الجنائي الفرنسي فيها.⁴

لقد لوحظ أن بعض المبشرين عينوا قضاة في تلك المحاكم، فصار ذلك حجة لدى خصوم الظهير من البربر و العالم الخارجي التي كانت تعتبر بأن الهدف منه هو تنصير البربر. و من ثم اصطدم الظهير بمعارضة شديدة

¹ - أنظر غلال الفاسي، السياسة البربرية، القاهرة سنة 1951.

² - يرى البعض من الوطنيين المغاربة الذين عايشوا مراحل هذه الأحداث و السياسات، بأن الفرنسيين منذ احتلالهم للجزائر و هم يبحثون عن الوسيلة التي تمكنهم من احتلال كل الشمال الإفريقي و تعميره بسكان أوروبيين من المسيحيين و غير المسيحيين. أي في النهاية الوصول إلى تطبيق مشروع الاستيطان على شمال إفريقيا. للتوسع أكثر ينظر:

- الفاسي (غلال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 161.

³ - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 283.

⁴ - العقاد (صلاح)، المرجع السابق...، ص 284.

من قبائل البربر ذاتها فضلا عن رد الفعل العنيف الذي ظهر في العالم الإسلامي مباشرة بعد صدور هذا الظهير. وإذا كان البربر متمسكين بالعرف أصلا، فهناك ما يتعارض أحيانا في عرفهم و الشريعة الإسلامية، مثل عدم توريث المرأة، إلا أنهم كانوا يفعلون ذلك بدون شعور بالفوارق في العملية، بل لتلبية روح المحافظة القوية على التقاليد. و لو وجد البربر بأن في تصرفاتهم خروجا على الإسلام لاحتجوا أشد الاحتجاج.

كان من المفروض أن يطبق الظهير على نحو مليون ونصف من أهل مراكش. و لكن عددا من القبائل مثل: آيت يوسي و زمور ، أرسلت مندوبيها إلى فاس لتعلن أمام علماء القرويين أنها ترغب في البقاء تابعة للقضاء الشرعي. و بالرغم من أن الإقامة العامة أعلنت، عند إصدار الظهير، أنها تترك للقبائل حرية العمل به أو رفضه، فقد قبض على هؤلاء المندوبين مما زاد البربر أنفسهم سخطا على الظهير.¹

ثم جاءت الحملة القوية من العالم الإسلامي لتضيف عاملا جديدا يوقف تيار السياسة البربرية. و مع ذلك لم تكف فرنسا طوال عهد الحماية عن استغلال كل مناسبة لبعث السياسة البربرية كما حدث مثلا عند أزمة العرش الأولى سنة 1951.²

إذن، فالسياسة البربرية، التي حاولت فرنسا اعتمادها في المغرب ما هي في النهاية سوى خطوات سياسة استعمارية في طريق تحقيق مبدأ "فرق تسد" على مراحل كانت بدايتها بفكرة تغليب العنصر الأوروبي عن طريق الهجرة الجماعية بفضل الامتيازات التي منحت آنذاك للأوروبيين..و الوصول إلى تحقيق الأغلبية الأوروبية عن طريق سياسة التجنيس..و الوصول إلى الفرنسية عن طريق التمسح، مما يعني القضاء على مقومات الرجل المغربي بما في ذلك تنصله من دينه الإسلامي..و في النهاية الاعتماد على العنصر البربري، الذي كان يمثل الأغلبية في مراكش، لتحقيق هذه الغاية في تنصير البربر و إعادتهم إلى الروحانية القديمة التي جاءتهم بها روما من قبل. و بذلك يتم تخليصهم من سيطرة العرب الروحية و الزمنية.³

3- المغاربة من ثورة الريف إلى الحرب العالمية الثانية 1924-1939

¹ - الفاسي (علال) ، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 162.

² - المصدر نفسه...، ص، 163.

³ - علال (الفاسي)، مصدر سابق...، ص 161-162. (غير أن علال الفاسي يدرج حتى الجزائريين في قضية التجنيس عندما وضعهم في نفس الخانة مع اليهود و المالطيين و الإيطاليين. و هذا يتناف مع أصول الروابط الأخوية و الدينية للأمة الواحدة. لأن في الأصل أن يأخذ الجزائري الجنسية المغربية لا يؤثر في شيء عن كون الجزائري و المغربي من طينة واحدة. و العكس صحيح.).

لقد اعتبرت حرب الريف على أنها أكبر حرب للمقاومة المغربية التي أقلقت الاحتلال الفرنسي، كون أنها كانت من صنع أكبر قبيلة في الريف الأوسط،¹ بقيادة "عبد الكريم الخطابي" و من بعده ابنه "محمد بن عبد الكريم". و لكن قبل ذلك شهد المغرب مقاومات متتابعة أظهرت قوة المحارب المغربي سواء كان ينحدر من المناطق الجبلية أم من السهول لأنه ببساطة يدافع عن بلاده و حياته.²

استيقظت منطقة الريف المغربية على وقع أحداث خطيرة أدت إلى نشوب الثورة في الجزء الشمالي للمغرب، عندما قرر الأسبان و الفرنسيين احتلال البلاد، بعدما تم تقسيمها بينهما إلى مناطق نفوذ. حيث أصبحت المنطقة الشمالية التي تحتوي على الريف المغربي تحت سيطرة الأسبان، و ما تبقى من أراضي المغرب خاضعا للاحتلال الفرنسي.

إلا أنهما واجها مقاومة شرسة من أهالي الريف المغربي بقيادة "عبد الكريم الخطابي"، الذي ألحق بالأسبان شر الهزائم مع بداية الاحتلال خاصة معركة "أنوال" سنة 1921 عندما أرغم الجيوش الفرنسية بقيادة "ليوثي" إلى التراجع إلى غاية أبواب "تازة" و "فاس".³

كانت المعارك الأولى للحرب الريفية ضد الوجود الأسباني، حيث عرف "عبد الكريم الخطابي" كيف ينظم منهاجها و ينسق بين مختلف أساليبها ليغرس الروح القتالية في نفوس المغاربة المحاربين. و كان والده هو من استأنف المقاومة ضد الوجود الإسباني بعد أن فشلت كل المحاولات التي طالبت به بالخضوع لحكم الأسبان. و لم يحول بينه و بين الاستمرار في المقاومة سوى المرض الذي أجبره على تمرير مشعل المقاومة لأبنائه طالبا منهم الدفاع عن منطقة الريف و تخليص بلاد المغرب كلها من الوجود الأجنبي مهما بلغت درجة قوته.⁴

اكتسبت المقاومة الريفية المغربية أمام الوجود الإسباني، قوة و تجربة في الميدان العسكري الأمر الذي جعلها تنهياً لما هو أكبر عندما ستقدم فرنسا على محاولتها لضم كل أراضي المغرب لسلطتها. و قد أفادت الغنائم التي

¹ - ينحدر "عبد الكريم الخطابي" من قبيلة "بني وريال" حيث كان يشغل منصب قاضي. و قد بقيت هذه العائلة ودية للسلطة الملكية و أكثر من ذلك أنها ساندت السلطان في مواقف عديدة خاصة في ظروف تمرد القبائل المغربية المعروفة: كالرقي الريسوني و قبائل "بوحمارة". كما أنها كانت من القبائل السباقة لمقاومة الاستعمار الفرنسي. ينظر في هذا الموضوع:

- Lugan (Bernard), Histoire du Maroc des origines à nos jours., op.cit., p 249.

² - يصف الجنرال "فيوم الثاني"، Guillaume المغربي على أنه: "سريع التضحية بأملأكه و عائلته و أكثر من ذلك بحياته. لا توجد قبيلة واحدة جاءتنا بمحض إرادتها، و لا واحدة خضعت دون مقاومة و البعض منها قاوم إلى آخر رفق..". أنظر:

- Général Guillaume II, Les berbères marocains et la pacification de l'Atlas central 1912-1933, Julliard éditions, Paris, 1946, pp 80-82. (Cité par : Lugan Bernard., op.cit., p 245) .

³ - تعتبر موقعة "أنوال" من أكبر المعارك التي دارت بين الجيوش الأسبانية بقيادة الجنرال "سيلفستر" و جيوش الريف المغربي بقيادة "عبد الكريم الخطابي". و قد استمرت المعارك لمدة ستة أيام تكبد خلالها الجيش الإسباني أشنع الهزائم ، حيث سقط عدد معتبر من القتلى و أسر حوالي 700 جندي إسمباني إلى جانب 200 مدفع و 20000 بندقية. و يعتبر هذا الانتصار لجيش عبد الكريم، نقطة تحول في المسار العام للمقاومة المغربية و الوسيلة التي مكنته من تنظيم الجيش و اكتساب عتاد لم يكن ليحققه دون هذه الغنائم الحربية. لمزيد من المعلومات ينظر كل من:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص ص 125-131.

Benkhedda (Benyoucef), Les origines du premier novembre..., op.cit., pp 33-34.

⁴ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية...، مصدر سابق...، ص 125.

تحصل عليها عبد الكريم الخطابي،¹ كثيرا في استمرا المقاومة للمطالبة باستقلال المغرب الشمالي عن أسبانيا، و لو حين اندلاع الحرب العالمية الثانية.

أمام الهزائم المتكررة لجيوشها، حاولت الحكومة الإسبانية الدخول في مفاوضات مع عبد الكريم الخطابي، فاستدعت قائدها العام في منطقة الريف الجنرال "برانجي" و المقيم العام بالمنطقة الإسبانية لإبلاغهم بقرار الحكومة بوقف الزحف و البحث عن اتفاق مع الطرف المغربي. فطالبت بعقد هدنة تعتبر مقدمة لإبرام صلح تاريخي مع عبد الكريم، غير أن هذا الصلح لم يتم أبدا.²

اصطدمت المقاومة الريفية مرة أخرى بواقع مر و المتمثل في التدخل الفرنسي في المعادلة الحربية القائمة بين الأسبان و المغاربة، طالما أن المغاربة كانوا يعملون على أن تبقى فرنسا بعيدة عن المسألة و لو لفترة. لأنهم كانوا يدركون جيدا أن أي تحالف فرنسي-إسباني في تلك الظروف من شأنه أن يقضي على المقاومة الريفية خاصة إذا علمنا بالقوة الحربية الموجودة عند الدولتين الغازيتين.³

¹ - كانت أول معركة يخوضها "عبد الكريم" ضد الأسبان هي استرجاع مركز "دار أبارا" بتعداد 300 مقاتل، و كبد فيها العدو خسائر قدرت بـ 400 قتيل و 6 من الضباط. و تمكن من أن يغنم كثيرا من البنادق و المدافع و الذخيرة.. ثم تواصلت المعارك خلال سنوات 1922-1923 عندما ألحقوا بقوات الجنرال "برانجي" هزيمة نكراء تمكنوا من خلالها سلب كل العتاد و الذخيرة التي كانت بحوزة الأسبان. أنظر:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية..، مصدر سابق..، ص ص 126-127.

² - لقد جرت عدة لقاءات بين الطرفين لعقد الصلح لم تفضي إلى نتائج حقيقية، حيث كان الريفيون يطالبون باستقلال المغرب الشمالي عن إسبانيا، بينما الأسبان لم يقدموا وعود بأكثر من قبول استقلال ذاتي للمنطقة الريفية. ينظر في الموضوع إلى:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب..، مصدر سابق..، ص ص 128-129.

³ - لم تتدخل فرنسا في البداية في المشكلة القائمة بين الطرفين أملا منها في أن ينهي الأسبان مقاومة الأمير عبد الكريم. و قد حاول المارشال "ليوتي" أن يربط اتصالات مع الزعيم المغربي و في نفس الوقت كان يرفع تقارير سوداء عن هذه المقاومة كون أن قيام دولة مغربية حرة في الجزء الشمالي من المغرب المجاور للوجود الفرنسي قد يشكل خطرا عليها في المستقبل. غير أن المبادرة الفرنسية للزحف على مناطق قبائل "ورغة"، التي كانت تعتبر حصونا متقدمة للمناطق الريفية، قد ضرب عرض الحائط كل التخمينات الفرنسية تجاه قضية الريف المغربي. و قدمت في ذلك السلطات الفرنسية تبريرا يقضي بدفاعها و حمايتها للقبائل المغربية الخاضعة لنفوذها. و قد نلخص المسألة التي أدت إلى هزم الأمير "عبد الكريم" من الكلام الذي جاء في مذكراته و الذي كان يحمل معاني كثيرة و دلالات دفعته للعمل على تحرير سائر مناطق المغرب الأقصى. أنظر في ذلك:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي..، مصدر سابق..، ص ص 133-134.

ثالثا- تونس ضمن المشروع التوسعي الاستعماري الفرنسي

تندرج الحملة العسكرية الفرنسية التي أطلقت على تونس ضمن مخطط التوسع الاستعماري الأوروبي الذي طال قارتي إفريقيا و آسيا مع مطلع القرن التاسع عشر، و الذي شهد بروز قوى أوروبية بفضل تطورها العلمي و الصناعي مما مهد لتنافس شرس بينها من أجل بسط سيطرتها و الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من مناطق نفوذ داخل بلدان القارتين. و لم تخرج فرنسا عن أهداف منظومتها الاستعمارية بفعل مواصلة السياسة الاستيطانية التي كانت تراها دائما بأنها الحل الأمثل لتطبيق سياستها التوسعية.¹

كما تعتبر العوامل الاقتصادية مؤثرة في حركة التوسع الاستعماري الفرنسي في شمال القارة الإفريقية تبعا لوجوده المسبق على أرض الجزائر التي احتلتها مع مطلع القرن التاسع عشر، و تأسيسا لفكر "التوسع الاستعماري الأوروبي" الذي قام بعدما نضجت الثورة الصناعية داخل أطر الرأسمالية المتطورة التي كانت الغاية منها تحقيق الربح المالي و استقطاب رؤوس الأموال للاستثمار في البلدان التي تتوفر على الموارد الأولية التي سوف تحول لاحقا إلى الأسواق التي سوف تفتح في نفس تلك البلدان التي تتوفر على المواد الأولية.²

ثم وقع الاحتلال الفرنسي للأراضي التونسية مع مطلع شهر ماي من سنة 1881 حيث عقدت اتفاقية الحماية في 12 ماي من نفس السنة في قصر السعيد، و حملت اسم "معاهدة باردو"، انتهت بعقد معاهدة "المرسى" في 8 جوان 1883. و استكملت فرنسا بذلك سيطرتها على جزء هام من منطقة شمال إفريقيا.

و كانت تونس ضمن مخططاتها الاستعمارية منذ احتلالها للجزائر سنة 1830، غير أن هزيمة 1870 عطلت المشروع إلى جانب الموقف الإيطالي حيال المسألة، الأمر الذي جعلها تنتظر الفرصة لتباشر عملية التوسع الاستيطاني في منطقة شمال إفريقيا.³ لقد شهدت المدن و الأرياف التونسية غداة فرض الحماية الفرنسية على البلاد حركة مقاومة عبرت على رفضها لهذا الوضع الجديد الذي أصبحت تعيشه البلاد. و قد امتدت المواقف

¹ - من المعلوم أن الاستعمار الأوروبي كان دائما يجري وراء البحث عن التوسع الحيوي الذي كان يراه منحصرا في احتلال الأرض و توطين الكولون بغرض السيطرة الاقتصادية التي تعود فائدتها على الكولون و الإدارة الاستعمارية معا. فالأول يوفر الأطر القانونية لهذا الاستغلال. و الثاني يساهم في إنجاح هذه السياسة بفعل تحكمه في دواليب الاقتصاد و تسييره لجميع الموارد المتاحة أمامه للرفع من الإنتاج الذي سوف يتم تسويقه في النهاية في أسواق مناطق النفوذ المسيطر عليها. و كل ذلك حدث في الفترة التي تم فيها اقتسام العالم بين القوى الأوروبية الكبرى في مؤتمرات مطلع القرن التاسع عشر.

² - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص ص 7-8.

³ - شهدت المرحلة التي سبقت فرض الحماية الفرنسية على تونس، تنافسا دبلوماسيا بين الدولتين؛ الإيطالية الممثلة من طرف القنصل "ماشيو.ل" Maccio.L، و الفرنسية الممثلة من طرف القنصل "روستان.ت" Roustan، و انحصرت الفترة من 1874 إلى 1882. و قد مرت تونس في هذه الفترة بأزمة كبيرة مهدت الطريق لاحتلالها. حيث أمام المد الأوروبي اختلت التوازنات الاقتصادية و المالية لتونس و انعكس ذلك سلبا على خزينة الدولة حيث انخفضت نسب مواردها الخارجية في حين ارتفعت مصاريفها. و انحزت حكومة البيليك إلى التكثيف من الضخ الجبايي الداخلي و اضطرت إلى اللجوء إلى الاستدانة على نطاق ربوي واسع. من أجل تفاصيل أخرى ينظر إلى:

- الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص ص 8-13.

المعادية للوجود الفرنسي في تونس إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الأولى، أين أثبتت هذه المقاومة محدودية فاعليتها بفعل مختلف السياسات الفرنسية المتبعة في تونس.¹

غير أن طرق المقاومة اشتدت بفعل السياسات الفرنسية المنتهجة في تونس على حساب المسلمين، خاصة السياسة العنصرية و إقصاء مسلمي تونس من المشاركة في تسيير حياتهم اليومية، و استحواذ الإدارة الاستعمارية على أجود الأراضي الفلاحية و توزيعها على الكولون و استغلال ثروات تونس. فتطورت هذه المقاومة مع مطلع القرن العشرين من حركة نخوية ممثلة في حركة الشباب التونسي إلى تنظيم سياسي مهيكّل يحمل كل مواصفات الأحزاب السياسية العصرية مع ظهور الأحزاب الدستورية التونسية بداية من سنة مطلع 1920.²

كما تعد تونس أكثر بلدان شمال إفريقيا تأثراً بالتيارات الفكرية التي انتشرت في المشرق العربي، و على وجه الخصوص حركتا جمال الدين الأفغاني و الإمام الشيخ محمد عبده اللتان كان لهما صدى كبير في أوساط الإصلاحيين التونسيين. حيث قام العديد من رواد الحركة الإصلاحية في تونس بالاتصال بالإمام محمد عبده و طلبوا منه زيارة بلدهم، فتم لهم ذلك عندما زار الإمام تونس وحث أهل الفكر فيها على تأسيس "مدرسة الخلدونية"، على نمط المدارس الوطنية في مصر و كانت متبوعة بمجموعة من المدارس و المنتديات على غرار جمعية قدماء تلاميذ المعهد الصادقي و المنتدى التونسي Le Cercle Tunisien الذين عكفوا على التركيز على التعليم باعتباره المحرك الرئيسي في تنوير العقول و استمالتها إلى الوعي السياسي و القومي.³

1- من حركة الشباب التونسي إلى الدستوريين

تعود أصول الحركة الوطنية التونسية في الغالب إلى معالم دينية إسلامية بحثه. منها ما كان يجري في المشرق من حركة تحديث قائم على تطهير العقيدة من كل الشوائب و عملية تحديد للنظم السياسية، و منها ما كان محلي تبنته المراكز الإسلامية العريقة الموجودة في تونس وفي مقدمتها "جامع الزيتونة" الذي تخرج منه الزعماء الأوائل للحركة الإصلاحية الذين ناهضوا الفكر الاستعماري الفرنسي في بلادهم و منهم، "محمد السنوسي" الذي قدم عريضة موقعة من طرف أعيان البلاد طالب فيها فرنسا بإلغاء الحكم المباشر و إحياء الدستور.⁴

لقد ساهم جامع الزيتونة في وجود شخصيات وطنية من طينة الزعماء الكبار من بينها "المكي بن عزوز" الذي يعتبر من أبرز شيوخ الإصلاح حيث اهتم بإحياء مبادئ الإسلام من ثرات الشيخ "خير الدين" و سياسته

¹ - الشاطر (خليفة)، مرجع سابق...، ص 63.

² - مرجع نفسه...، ص 63.

³ - تأسست جمعية الخلدونية سنة 1896 و أتبعها جمعية قدماء تلامذة المعهد الصادقي و المنتدى التونسي Le Cercle Tunisien، سنة 1905. لمزيد

من الشروحات ينظر:

- الشاطر خليفة...، مرجع سابق...، ص 63-64.

⁴ - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 321.

الإصلاحية، إلى جانب شخصية الشيخ "عبد الرحمان الثعالبي".¹ فأصبح النشاط السياسي في تونس بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أكثر تماسكا وحنكة عما كان عليه من قبل. ولعل ما يوضح ذلك هو العمل الكبير الذي قامت به حركة تونس الفتاة منذ نشأتها سنة 1906² وبعدها الحزب الدستوري الحر منذ تأسيسه سنة 1920.³ سبق التأسيس الرسمي للحركة بروز النشاط الثقافي والعمل التوعوي الذي أكدت عليه جريدة "الحاضرة" الصادرة منذ سنة 1888، حيث تعتبر أولى خطوات هذا النشاط وإحدى ركائزه ولسان حال الشباب التونسي. والتف حول الجريد عدد من المثقفين التونسيين المتخرجين من المعهد الصادقي أين تلقوا ثقافة عصرية واستناروا بأفكار المصلحين التونسيين وفي مقدمتهم مؤسس المعهد نفسه، "الوزير خير الدين". فبدأت الجريدة تدافع عن مصالح التونسيين وتندد بأوضاع الشعب المزرية وتطالب بتحسينها.⁴ تأسس حزب تونس الفتاة في 24 مارس من سنة 1906، عندما تقدم "البشير صفر" بمشروع إصلاحات أمام المقيم العام الفرنسي "ستيفان بيشون" Pichon Stéphane وهو كما يبدو من تاريخ تأسيسه ومن الاسم الذي اختاره لنفسه، متأثرا بحركة "تركيا الفتاة" التي ألهمت كثيرا العناصر الوطنية في كل البلاد العربية. ومن هنا يمكن تشبيه تونس الفتاة بالحزب الوطني المصري من حيث الأهداف والمثل ومسايرة حركة الجامعة الإسلامية تحت لواء الدولة العثمانية طوال فترة الحرب العالمية الأولى. وقد اتصل زعماء الحزب في اسطنبول و برلين وغيرهما من مدن معسكر دول الوسط بإخوانهم المصريين والمغاربة ولا سيما "عبد العزيز جاويز" عضو الحزب الوطني المصري والذي ينحدر من أصل تونسي.⁶ إن المناسبة التي أدت إلى تأسيس تونس الفتاة ترجع إلى سياسة الحماية نفسها. وذلك حين قررت السلطات الفرنسية تجنيس اليهود في تونس كما فعل "كريميو أدولف" Cremieux Adolphe في الجزائر من قبل. و

¹ - ولد الثعالبي من أب جزائري وأم تونسية سنة 1879، ودرس في جامع الزيتونة ثم في الخلدونية و أتم دراسته العليا في المشرق العربي، ثم عاد إلى تونس سنة 1904 ليعمل في الصحافة الوطنية. وكان يصدر مجلة "سبيل الرشاد". ومع تأسيس "حزب تونس الفتاة" دخل الثعالبي في طور جديد من أطوار الحركة الوطنية التونسية. توفي سنة عن عمر يناهز.

² - Ageron (Charles Robert), *Genèse de l'Algérie...*, op.cit., p 107.

³ - الشاطر (خليفة)، مرجع سابق...، ص ص 87_90.

⁴ - مرجع نفسه...، ص 65.

⁵ - اعتبرت هذه المبادرة الأولى من نوعها يقوم بها الوطنيون التونسيون تجاه الإدارة الاستعمارية مطالبين بإصلاحات تحفظ بعض الحقوق للتونسيين. غير أن هذه المبادرة الاحتجاجية لم تجد أذانا صاغية، بل بالعكس أثرت حفيظة الكولون الذين راحوا يعبرون عن سخطهم تجاه التونسيين في صفحات جرائدهم المتعطشة لمثل هذه الردود الأفعال. فهاجمت جرائد: "المعمر الفرنسي" Le colon français و "تونس الفرنسية" La Tunisie française بشكل عنيف الموقف التونسي واعتبرته تعد صريح على السلطة الفرنسية. ينظر في الموضوع إلى:

- Julien Charles André, *L'Afrique du nord en marche...*, op.cit., pp 88-90.

⁶ - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 322.

⁷ - محامي و رجل سياسي فرنسي ولد في مدينة "نيم" سنة 1796. كان عضوا في حكومة الدفاع الوطني و قد اشتهر في الجزائر بمراسيمه المعروفة و الصادرة في 24 أكتوبر 1870 و التي منح من خلالها الجنسية الفرنسية و حق الانتخاب لليهود الجزائريين. توفي سنة 1880. أنظر:

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 1259.

نشط الزعماء التونسيون في شن حملة على مبدأ تجنيس اليهود و دعوا إلى مقاطعة المتاجر اليهودية. فساعد ذلك على رواج التجارة الوطنية، و أهم من ذلك تكون حزب سياسي باسم "حزب التقدم"، يدعو إلى مشاركة الوطنيين مشاركة فعالة في حكم البلاد مع بقاء نظام الحماية. و هذا الحزب هو الذي تطور إلى حزب تونس الفتاة سنة 1907 بقيادة "علي باشا حمبة" المحامي.¹

تنوعت ثقافات علي باشا حمبة، فبدأ في الزيتونة ثم بالمدارس الفرنسية في تونس. و أتم دراسته العليا في باريس حيث حصل على إجازة الحقوق. و اشتغل بالمحاماة زمنا. و عمل مع جماعة الحاضرة و مع حزب التقدم. و لكنه كان أشد تمسكا بالفكرة الاستقلالية فأسس لهذا الغرض حزب تونس الفتاة. و صرح الزعيم التونسي منذ ذلك الوقت بالدعوة لربط تونس بدولة الخلافة. و كان يصدر "جريدة التونسي" بالفرنسية، ثم أخذ ينشر منها طبعة عربية يدير تحريرها الشيخ الثعالبي.²

أعلنت إيطاليا نيتها في ضم طرابلس الغرب في أواخر سبتمبر من سنة 1911، حيث تجسد ذلك بقرار ملكي صادر في 5 نوفمبر 1911 يقر بضم هذه الولاية العثمانية إلى مستعمرات إيطاليا، فبدأت الأمور تأخذ منحى جديدا حيث أحدث ذلك ضجة كبرى في العالم الإسلامي. و لعب "باشا حمبة علي" دورا فعالا في المغرب، فكان هو و أنصاره همزة الوصل بين السفارة العثمانية في باريس و القيادة العثمانية في طرابلس. و بذلك صارت تونس بفضلهم ممرا سريا للضباط و المتطوعين العثمانيين القادمين من أوروبا إلى طرابلس.³

ليس من الصدف أن يقع أول صدام بين التونسيين و السلطات الفرنسية عقب العدوان الإيطالي على طرابلس، و الذي جسده أحداث "الزلاجة" الشهيرة في تاريخ تونس.⁴ التي تبقى أثارها بعيدة المدى إذ تعتبر بداية بداية الصراع بين الشعب التونسي و المستوطنين الأوروبيين، خاصة منهم الإيطاليين الذين كانوا ينافسون سكان البلاد في الأعمال البسيطة. كما أنه لم تمض بضعة أشهر حتى ثار العمال التونسيين احتجاجا على الأجور المرتفعة التي كان يتمتع بها الإيطاليين، فدعا "باشا علي حمبة" عمال "الترامواي التونسيين" إلى الإضراب و إلى مقاطعة المؤسسات التجارية الأوروبية. و حين رفض باشا حمبة إنذار الإقامة العامة بضرورة إنهاء الإضراب، قررت

¹ - العقاد (صلاح)...، مرجع سابق...، ص 323.

² - المرجع نفسه...، ص 323.

³ - نفسه...، ص 323.

⁴ - و سبب هذا الحادث بسيط في حد ذاته، "فالزلاجة" مقبرة تقع في إحدى ضواحي مدينة تونس، إذ في الفاتح من نوفمبر 1911، قرر مجلس بلدية المدينة مسح المقبرة لمعرفة حدودها كي يتمكن من بيع الأراضي المحيطة بها للوافدين الجدد من الكولون الأوروبيين، حيث شعر التونسيون بأن هذه العملية تنطوي على تدنيس مقابر المسلمين و اجتياح حرمة موتاهم. فقرروا الاجتماع في مظاهرة كبيرة على أرض المقبرة في اليوم الذي تقرر فيه مسحها. و لما حاولوا التدخل لمنع الموظفين من أداء هذه العملية، أطلق رجال الشرطة عليهم النار و قتل منهم العشرات: و كان هذا الحادث فرصة كي تعلن السلطات الفرنسية الأحكام العرفية التي استمرت مدة عشر سنوات. ينظر في الموضوع إلى: - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 76-77.

طرده من البلاد هو و الثعالي و طائفة من زعماء تونس الفتاة، فاختاروا الإقامة بالأستانة حيث استطاعوا أن يستمروا في مكافحة الحكم الفرنسي في شمال إفريقيا بمعونة الحكومة العثمانية.¹

و في اسطنبول اتصل "باش حمبة" بعدد معتبر من قادة العالم العربي و الإسلامي اللاجئين إليها، أمثال؛ شكيب أرسلان و محمد فريد و عبد العزيز جاويش، و الباروني و أحمد أغايف من مسلمي روسيا. و كان هذا الوسط يمثل نزعة خاصة في طريق إحياء أمجاد الحضارة الإسلامية عن طريق نهضة فكرية و ثقافية بعيدة الأهداف. و قد لقي تأييدا من حزب الاتحاد و الترقى على سبيل فكرة التضامن الإسلامي أحيانا، و لكن غالبا ما كانت الفكرة على أساس السياسة الانتهازية لمعاكسة خصوم الدولة العثمانية. كل ذلك يدل على ذلك التشجيع الكبير الذي لقيه الزعماء المغاربة أثناء الحرب العالمية الأولى حينما كانت الدولة العثمانية في معسكر دول الوسط ضد فرنسا و حلفائها.²

لقد استقر الحال ببعض الوطنيين التونسيين باسطنبول، أين وجدوا دعما من قبل ألمانيا و تركيا، حيث استقر "علي حبة باشا" بها و بادر بتكوين "لجنة لتحرير شمال إفريقيا" في حين عكف أخيه "محمد باش حبة" إلى إصدار مجلة ناطقة باللغة الفرنسية من "جنيف" بسويسرا أسماها "مجلة المغرب". و قد استطاعت هذه الهيئة أن تقوم بدور فعال في طرابلس بصفة خاصة حيث لقيت من السنوسية عوناً كبيراً، حتى اضطرت فرنسا إلى فتح جبهة على حدود الجزائر و تونس الجنوبية و كان "الباروني"³ مبعوث الدولة العثمانية في طرابلس يبعث برسائله لنشر الدعوة في الجزائر و تونس.

فيما بين سنوات 1917-1918 تشكلت في اسطنبول هيئة كانت تعمل لتجميع و إحصاء الأسرى المغاربة في ألمانيا و تركيا، و تنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزود بالسلاح و الذخيرة، و إرسالها عن طريق الغواصات إلى طرابلس. و كان مقرراً أن يرأسها "علي باش حمبة" بنفسه، ليكون مندوباً على الخليفة العثماني لتحرير مسلمي شمال إفريقيا من الاستعمار المسيحي.⁴ إلا أنه لم يكن لهذه التحركات أثر كبير على مجريات الحرب، و لم يلبث "علي باش حمبة" أن قضى نحبه قبيل توقيع هدنة "مدروس". و كانت كل هذه المؤشرات تدل على أهمية الإسلام في حياة الوطنيين التونسيين بهذه المرحلة.

كانت مسيرة "علي حبة باشا"⁵ التعليمية متنوعة الثقافات، فبدأ في الزيتونة ثم بالمدارس الفرنسية في تونس، و أتم دراسته العليا في باريس حيث تحصل على شهادة ليسانس في الحقوق ثم اشتغل بالمحاماة فترة من

¹ - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 324.

² - مرجع نفسه...، ص ص 324-325.

³ - كتب عنه العلامة الجزائري الشيخ "إبراهيم أبي القظان" مؤلفاً من جزأين بعنوان: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته.

⁴ - الفاسي (علال)،...، مصدر سابق...، ص 54.

⁵ - ولد علي باش حانة في تونس سنة 1876. واصل دراسته الثانوية ثانوية "الصادقي" بتونس. و بعدما تحصل على شهادة ليسانس التحق بفرنسا و تحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة "أيكس أون بروفانس" Aix-en-Provence و بها امتحن مهنة المحاماة. و في 1906 شكل مع "البشير صفر" جمعية الطلبة القدماء لثانوية الصادقي، التي أصبحت الفضاء الجديد للتونسيين للتحدث عن الأوضاع السياسية و الاجتماعية للبلاد. يعتبر رجل

الزمن و انتهى به المطاف في صفوف جماعة "الحاضرة" ثم واصل وجوده مع حزب التقدم. غير أنه كان من أشد المتمسكين بالفكرة الاستقلالية فأسس لهذا الغرض حزب تونس الفتاة. و صرح الزعيم التونسي منذ ذلك الوقت بالدعوة لربط تونس بدولة الخلافة. و كان يصدر "جريدة التونسي" بالفرنسية، ثم أخذ ينشر منها طبعة عربية يدير تحريرها الشيخ الثعالبي.

انتعشت الروح الوطنية في تونس في أعقاب الحرب العالمية الأولى، عندما ساهمت جملة من الأحداث في إرساء دعائم للحركة الوطنية التونسية نخص منها؛ "المبادئ الولسونية 14" حين اعترف الرئيس الأمريكي "ولسن" في جانفي 1918 بحق الشعوب الخاضعة للاستعمار في حق تقرير مصيرها. ثم نتاج الثورة البلشفية في أكتوبر- نوفمبر 1917

2- تجدد الخطاب السياسي مع مطلع الثلاثينات

مثلت مرحلة الثلاثينات نقطة تحول هامة في مسار الحركة الوطنية التونسية باعتبار أنها مست مجالات الحياة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية بعودة جيل الطلبة المتفرنسين ، أي الذين تلقوا تعليمهم العلمي بفرنسا و باللغة الفرنسية، من أمثال؛ الحبيب بورقيبة و البحري قيق و محمود الماطري، ممن مارسوا النضال السياسي، حيث عاد نشاطهم من بوابة الحزب الحر الدستوري الجديد مع بداية سنة 1932

إلى ذلك، يرجع العديد من المؤرخين إلى أن منعطف الثلاثينات تسببت فيه أحداث هامة كانت تونس مسرحا لها بداية بانعقاد المؤتمر "الأفخارستي" في شهر ماي من سنة 1930.¹ و الاحتفالات الفرنسية بمرور خمسين

سياسي كونه شارك في تأسيس تنظيم "الشباب التونسي" سنة 1907 رفقة "البشير صفر" و أخيه "محمد باش حانية". غير أن نضاله أخذ أبعاده الحقيقية من خلال تجربته الطويلة في الميدان الصحفي عندما أسس جريدة "التونسي" الصادرة باللغة الفرنسية. Le Tunisien في 7 فبراير 1907 و التي احتوت على برنامج "الشباب التونسي". ثم أصبحت الجريدة أكثر جرأة في تناول مواضيع ساخنة منها مطالب الشعب التونسي بخصوص الإصلاحات. و كان لقضية "الجلال" و قضية "ترامواي تونس" الآثار الكبيرة في مسيرة "علي باش حانية" و جريدته، إذ اتهمته الأطراف الكولونيالية بأنه هو و جماعته وراء هذه الفوضى المنتشرة في البلاد، الأمر الذي دفع بالإدارة الاستعمارية إلى غلق جريدة "التونسي" و نفيه خارج تونس أين استقر به المطاف في سويسرا أين التحق بأخيه "محمد" و شارك معه في تأسيس "مجلة المغرب". التحق بإسطنبول سنة 1913 أين مكث بها إلى غاية وفاته سنة 1918. أنظر: <http://fr.wikipedia.org>

¹ تطورت السياسة الاستعمارية الفرنسية في بلاد شمال إفريقيا إلى ما هو أخطر على شعوبها، و ذلك بفعل إقدامها على توجيه حملتها على العقيدة الإسلامية التي ظلت الغذاء الروحي للنفوس في ظروف شددت فرنسا قبضتها على حياة المسلمين من جميع الجوانب. فتقرر انعقاد المؤتمر الأفخارستي في تونس في ماي 1930 بمناسبة مرور خمسين سنة على فرضها الحماية عليها، و تزامنا مع مباشرتها لسياستها البربرية في المغرب و احتفالها بمرور مائة سنة على احتلال الجزائر. و قد عرضت الإقامة العامة في تونس على مجلسها الجديد 2 مليون من الفرنكات لتنظيم المؤتمر الأفخارستي. فجاء تصريح الأسقف على أن هذا المؤتمر بمثابة الحملة الصليبية على تونس و إن كانت مبنية على المحبة و السلام. و كان من عواقب ذلك أن قرر الجناح الراديكالي داخل

سنة عن فرض الحماية على تونس، ماي 1931، و أحداث مدينة بنزرت في 31 ديسمبر 1932 التي وقعت بسبب رفض المسلمين التونسيين دفن المتجنسين بالجنسية الفرنسية في المقابر الخاصة بالمسلمين، إلى جانب الظروف المعيشية الصعبة التي أفرزتها تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية.

انتهت هذه الخلافات بين فريقَي الحزب الدستوري الجديد و القديم إلى قطيعة تامة سنة 1934. عندما دعت هيئة تحرير جريدة العمل إلى اجتماع عام في بلدة "قصر هلال" بجنوب تونس في مارس 1934. و رفض المحافظون القدامى حضور هذا الاجتماع، فكان أن قرر الشبان فصلهم من الحزب، و انتخاب الدكتور "الماطري" رئيساً لهم، و "الحبيب بورقيبة" أميناً عاماً للحزب. و الذي أصبح يعرف باسم الحزب الدستوري الجديد. و سميت لجنته التنفيذية بالديوان السياسي، تمييزاً له عن الدستوريين القدامى، الذين ظلوا يرون في الثعالي الزعيم الحقيقي لهم.

في الواقع، أصبح الحزب الدستوري الجديد هو الذي يلعب الدور الأكبر في الحركة الوطنية منذ أنه منذ مؤتمر قصر هلال. ولذلك يعتبر أنصار "بورقيبة" هذا المؤتمر بداية مرحلة جديدة في تاريخ الكفاح التونسي. فإنه رغم الاعتدال النسبي الذي أبداه بورقيبة و صحبه، فإن السياسة الرجعية التي اتبعتها فرنسا من سنة 1934 إلى غاية حصول تونس على استقلالها، جعلت هذا الحزب لا يستمتع بالصفة الشرعية إلا لمدة قصيرة جداً. كما قضى زعماءه معظم الفترة التي تمتد إلى عشرين عاماً في السجن أو المنفى. و لكي نفهم الأسباب التي مكنت لبورقيبة و صحبه تولي الزعامة محل الدستوريين القدامى يجب أن نتوقف قليلاً لدراسة تنظيم الحزب الدستوري الجديد و أهدافه.

اقتزنت فكرة التحرير السياسي عند الحزب الدستوري الجديد بفكرة التقدم الاجتماعي، إلى حد أن بورقيبة كان مستعداً لإدماج الفرنسيين و التونسيين في بيئة ديمقراطية واحدة... و كان أهم ما انتقده مؤتمر "قصر أم هلال" على الحزب الدستوري القديم، قلة الاهتمام بالدعاية بين الجماهير، و قصر الحركة على الطبقات البرجوازية و المثقفة. لذلك ستضمن وسائل العمل الشعبية للحزب الجديد تفوقه المطرد.

كما شهد شهر أبريل من سنة 1938 عدة أحداث بسبب عدم تقبل فرنسا فكرة النشاط الدعائي الذي قام به أعضاء الحزب الدستوري الجديد، فقامت باعتقال عدد هام من زعماء الحزب مما أجبر الديوان السياسي للحزب بتنظيم مظاهرة احتجاجية يوم 7 أبريل أمام قصر الباي بمدينة "حمام الأنف"، حيث تمكن "المنجي سليم" من مقابلة الباي و التماسه التدخل لإطلاق سراح المعتقلين، غير أن فرنسا أقدمت، كخطوة ردعية، من تعطيل جريدة "العمل" و اعتقلت 10 مناضلين من الحزب الدستوري الجديد.¹

حزب الدستور من تكتيف الاجتماعات و إصدار اللوائح و شن الحملات الصحفية على أوسع نطاق. فارتفع عدد المنخرطين في صفوف الحزب خاصة من الطلبة الذين جددوا إضرابهم في مناسبات عديدة، مما عرض البعض منهم إلى حملة من الاعتقالات. ينظر في الموضوع إلى كل من:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 71-73.

- الشاطر خليفة، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 97.

¹ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 32.

فجاء رد فعل التونسيين بتنظيم إضراب عام يوم الثامن أبريل 1938، و انطلقت مظاهرة في نفس اليوم من العاصمة بقيادة المنجي سليم و علي البلهواني، تهتف بحياة الحزب و زعماءه رافعة شعار : "برلمان تونسي" و "حكومة وطنية" متجهة نحو مقر "الإقامة العامة" حيث طالبوا بحكومة وطنية و بسقوط الامتيازات. و ألقى البلهواني خطابا حماسيا جاء فيه: "... جئنا في هذا اليوم لإظهار قوتنا، قوة الشباب الجبارة التي ستهدم هياكل الاستعمار.. إن البرلمان التونسي لن يقوم إلا على جماجم العباد و لا يبني إلا بسواعد الشباب."¹ هذا الخطاب كلف البلهواني غاليا، حيث استدعي للمثول أمام قاضي التحقيق يوم 9 أبريل، فكان ذلك يوم حدوث اشتباكات دامية أسفرت عن استشهاد 22 تونسي و حوالي 150 جريح، كان أغلبهم من سكان الأحياء القصديرية التي تحيط بالعاصمة تونس.²

أدت أحداث التاسع أبريل 1938، إلى إصدار السلطات الفرنسية قرار حل الحزب الدستوري الجديد و اعتقال الحبيب بورقيبة و أصدقاءه و عطلت صحفه و أغلقت النوادي التي كان ينشط من خلالها عناصر الحزب و حجزت كل الوثائق الرسمية و في الأخير أعلنت حالة الطوارئ في كل من: تونس، سوسة و رأس الطاية. و على إثر هذه الإجراءات التعسفية انتقلت الحركة الوطنية التونسية إلى مرحلة جديدة من النضال متمثلة في انتهاج أسلوب العمل السري الذي سيتزامن و اندلاع الحرب العالمية الثانية، التي ستفتح أفقا جديدة أمام الوطنيين لمواصلة مقاومتهم للاحتلال الفرنسي.³

3- مكانة الحركة العمالية في الحقل السياسي التونسي 1924-1939

تبوأَت الحركة العمالية التونسية مكانة مميزة في المربع المتناسق للحركة النضالية المعاصرة بداية من سنة 1924 عندما أوجدت لنفسها مجالات هامة للمساهمة فيها. فبدأت تهتم بال مجال الاجتماعي ثم انتقلت إلى المجال الاقتصادي و أخيرا وطدت وجودها في الحقل السياسي التونسي خدمة لمصالح العمال التونسيين مما جعلها الأداة و الوسيلة التي ارتكزت عليها الحركة السياسية التونسية التجديدية بشكل كبير في إثراء الحركة السياسية التونسية.⁴

¹ - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص ص 111-112.

² - . مرجع نفسه...، ص 113.

³ - نفسه...، ص 113. و ينظر أيضا في هذا الباب:

- Levisse-Touzé Christine , L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 32.

⁴ - بدأت العلاقة بين التنظيم النقابي التونسي بالحزب الحر الدستوري على طريقة علاقة التكامل، حيث أن الحزب ساعد النقابة في مرحلة التأسيس. غير أن الأمور بدأت تسوء عندما رفضت النقابة المشاركة في الإضراب الذي دعا إليه الحزب يوم 20 نوفمبر 1937 احتجاجا على القمع المسلط على

كما تعتبر هذه الحركة النقابية العمالية التجربة الأولى على صعيد المستعمرات في شمال إفريقيا، إذ نجحت في إيجاد تنظيم عمالي مستقل عن التنظيمات النقابية الأجنبية و خاصة منها الفرنسية. فذلك في حد ذاته يعتبر حدثاً مبكراً في تاريخ العمل النقابي الحر. و تجسدت الفكرة بإنشاء أول تنظيم عمالي حمل اسم "جامعة عموم العملة التونسية الأولى" سنة 1924، جاء في أصعب الظروف الاقتصادية و الاجتماعية التي مرت بها تونس غداة الحرب العالمية الأولى، عندما تعطل الإنتاج الزراعي و تدهورت مستويات محاصيله إلى أسوأ درجة لم تعرفها تونس منذ أكثر من خمسين سنة.¹

أمام هذه الأوضاع ارتفعت الأسعار بشكل مذهل الأمر الذي أدى إلى اندلاع اضطرابات وصلت إلى حد شل الحركة الاقتصادية و التجارية في البلاد. فانتشرت إضرابات، معظمها تلقائي، جمعت العديد من العمال التونسيين لم تكن لهم أي صلة بالنقابات الفرنسية الرسمية. فتجمع عمال الرصيف بموانئ تونس في 13 أوت من سنة 1924 ليحولوا اللجنة التي أشرفت و أطرت الإضراب إلى نقابة مستقلة عن التنظيم النقابي الفرنسي، و حدث ذلك في 17 من نفس الشهر.²

غير أن هذا التنظيم لم يعمر طويلاً، حيث بين تاريخ التصريح بتأسيسه في 31 أكتوبر 1924 مروراً بتشكيل لجنته التنفيذية المؤقتة في 3 ديسمبر 1924 إلى إلقاء القبض على أبرز قاداته، و منهم "الحامي محمد علي" في 5 فبراير 1925، لم تمر سوى بضعة أشهر، إلا أن ذلك اعتبر اللبنة الأولى و منطلق العمل النقابي التونسي المنظم الذي سوف يخلد "الحامي محمد علي" في الذاكرة الشعبية.³ حيث اعتبر التونسيون ذلك بمثابة دعوة إلى تجسيد النضال الاجتماعي في الكفاح الوطني التونسي.

الشعبين الجزائري و المغربي. و هكذا فشل التنظيم النقابي من المحافظة على وجوده في هذه المرحلة التي عرفت تعليق كل النشاطات الحزبية و النقابية بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية. لمزيد من المعلومات ينظر إلى كل من:

- الشاطر خليفة، مرجع سابق...، ص 131.

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit.

¹- Benhamida (Abdesselem), Capitalisme et syndicalisme en Tunisie de 1924 à 1956, faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 2003.

²- يحمل هذا التنظيم حسب اللفظ التونسي اسم: جامعة عموم العملة التونسية الأولى". و قد مكن هذا التحرك العمالي من جعل عملية الإضراب مناسبة سنوية صيفية، إذ كلما اقترب شهر الصيف و ازداد نشاط الموانئ لجأ عمال الرصيف إلى هذه الوسيلة للمطالبة بتحسين أوضاعهم و رفع من الأجور. و كانوا مدعمين في حركاتهم الاحتجاجية من شلة من المثقفين التونسيين. أنظر كل من:

- Kraiem Mohamed, Nationalisme et syndicalisme en Tunisie 1918-1929, imprimerie de l'UGTT, Tunis, 1976.

- Liauzu Jean Claude, Salariat et mouvement ouvrier en Tunisie crises et mutations 1931-1939, éditions CNRS, Paris, 1978.

³- لقد خلد أحد رفقاء "الحامي محمد علي" و هو "الحداد الطاهر" هذه التجربة من خلال كتابه الشهير الذي أصدره سنة 1927 تحت عنوان: "العمال التونسيون و ظهور الحركة النقابية". حيث كان تأثيره عميقاً على نفسية مؤسس الإتحاد العام التونسي للشغل السيد "فرحات حشاد" الذي عبر عن مفهوم العمل النقابي من وجهة نظر "الحامي محمد علي" من خلال مقال نشره باللغة الفرنسية في فرنسا سنة 1949 جاء فيه: "تكاد رؤية "الحامي" للعمل النقابي تتطابق تماماً مع طبيعة بلادنا و أنشطتها و مواردها: بلد فلاح و حربي أكثر منه صناعي. فالحركة النقابية التي كان يحلم بها محمد علي تعتمد أساساً على النظام التعاضدي في الإنتاج و الاستهلاك...". أنظر في ذلك كل من:

لم يتوقف النضال العمالي بالرغم من السياسة القمعية التي انتهجتها السلطات الاستعمارية تجاه الطبقة الشغيلة في تونس، حيث تحدثت الصحف التونسية عن تحركات عمالية أفضت إلى إضرابات شهر جويلية من سنة 1925 شارك فيها العديد من العمال التونسيين منهم "الكرارطية" و عمال الرصيف. كما تطرقت نفس الصحف إلى الإضراب الكبير و الطويل الذي دام 26 يوم، و الذي نادى إليه جامعة عموم العمال التونسية في كل موانئ البلاد خاصة منها موانئ تونس و سوسة و صفاقص و بنزرت. و قد شاركت "الكونفدرالية العامة للشغل" في دعم هذا الحركة الاحتجاجية طيلة فترة الثلاثينات.¹

حاولت بعض النقابات التونسية أن تنشط و تتحد مع بعضها بمجرد صدور مرسوم الباي المؤرخ في 16 نوفمبر 1932 و القاضي بمنح التونسيين حق ممارسة النشاط النقابي. غير أن ذلك لم يتحقق بسبب الركود و الجمود الذي طال التونسيين في الفترة الممتدة ما بين 1934 إلى غاية 1936، و هي الفترة التي شهدت إتباع المقيم العام "بيروتون" سياسة قمعية واسعة ضد الحركة العمالية و الأحزاب السياسية.²

رابعا: محطات بارزة لتحقيق التقارب الشمال الإفريقي

ظهرت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، البوادر الأولى للوعي السياسي العربي المغاربي جسدهته الأحزاب الحاملة للفكرة الوطنية في أقطار شمال إفريقيا و التي أعلنت نضالها السياسي ضد الاستعمار. فتجلت ملامح العمل الوحدوي لتقريب الرؤى في مسألة مواجهة الاستعمار بالرغم من التباين الملاحظ في الأفكار السياسية و النهج المستعمل في عملية التصدي لهذا الاستعمار. فظهر نجم شمال إفريقيا ليناضل من أجل حقوق العمال المغاربة في المهجر و جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين و لاحقا مكتب المغرب العربي الذي تأسس بالقاهرة.

إن الظروف الملائمة و المناخ السياسي السائد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى هما اللذان ساهما في بلورة فكرة الوحدة المغاربية لدى العديد من رجالات النخب الوطنية في بلدان شمال إفريقيا التي كانت جاهزة لتحمل كل المسؤوليات السياسية لتجسيد مشروع العمل الجماعي و الوحدوي الذي نادى إليه.³

– الحداد الطاهر، العمال التونسيون و ظهور الحركة النقابية، مطبعة العرب، تونس، 1927. (192 ص) أعيد نشره من طرف الدار التونسية للنشر سنة 1979.

- Kraiem Mohamed, Nationalisme et syndicalisme en Tunisie..op.cit., pp 52-55.

¹ – الشاطر (خليفة)...، مرجع سابق...، ص 129.

² - Liauzu (Jean Claude), Salariat et mouvement ouvrier en Tunisie ..., op.cit., pp 23-25.

³ – كان للحرب العالمية الأولى الأثر البالغ في التشهير على الصعيد الدولي بالاستعمار الفرنسي في بلاد المغرب العربي. و قد تزامن ذلك مع وقوع أحداث أخرى في العالم العربي و الإسلامي انجر عنها ظهور حركة الجامعة الإسلامية ممثلة في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد "بالأستانة" سنة 1915، حيث شارك في أشغاله وفد يمثل شمال إفريقيا ضم مجموعة من رجالات النخبة المغاربية، منهم: علي باش حامية من تونس و الشيخ العنابي من المغرب الأقصى و شكيب أرسلان، الذي سبىز دوره الريادي في العالم الإسلامي كزعيم حاول توحيد البلاد العربية و تحريرها من الوجود الاستعماري الأوروبي. كما سيكون له دور كبير في بلاد المغرب العربي و إحداث التقارب مع الألمان في مرحلة لاحقة. كما حاول أيضا، التونسي "باش حانية" أن ينظم مؤتمر مسلمي تونس و الجزائر. و بقيت الفكرة إلى ما بعد الحرب لكنها تجسدت في مذكرة طويلة أرسلت من طرف "محمد باش حانية" و هو أخ علي، إلى مؤتمر الصلح بفرساي في جانفي 1919 و إلى الرئيس الأمريكي "ولسن" و التي تضمنت شرح مفصل لتاريخ البلدين و الشعبين التونسي و

أما بلورة الفكرة و تجسيدها فشكّلت اهتماما بالغاً عند عدد من القادة و الإطارات، كل من منظور مختلف، و لكنه هادف لتحقيق المصلحة العليا لشعبها. فتضمنت الكتابات الأولى للنجم الأهداف و الطرق التي سوف ينتهجها هؤلاء من أجل تحقيق المطالب، فجاء في الخطاب: " إذا كان التنظيم الجديد الممثل في نجم شمال إفريقيا، قد بدأ جزائرياً، فإنه بحكم التوافد الكبير للمناضلين قد تحول مغارياً. لأن مطالبه و مطامحه و أهدافه، هي التي مثلت محور نشاطه حول كل ما له صلة و علاقة بمقومات الهوية المغاربية، التي هي في الأصل نموذجاً متقدماً للعمل المشترك بين الحركات الوطنية المنتشرة في بلدان شمال إفريقيا..."¹

الهدف هنا ليس إظهار أولوية مجال على آخر، و إنما إبراز المعالم الكبرى و المحطات الهامة التي أحاطت بالعمل المشترك المغاربي و اهتمامات زعماءه في ربط علاقات متينة من شأنها أن تعجل باستقلال أوطانه. و كان لثورة "عبد الكريم الخطابي" في الريف المغربي، صدى لدى مسلمي شمال إفريقيا بأكملها، لأنها ثورة زعزعت أركان الاستعمار الفرنسي و الإسباني معا في هذا الجزء من البلاد العربية. حيث دعا الجزائريين، في خطابه الذي ألقاه في 15 أوت 1925، إلى التمرد و الثورة و حمل السلاح ضد المعتدين لتحرير الوطن..."²

كان للحجم الكبير للهجرة الجزائرية و السرعة التي انتشرت بها، خلال الحرب، ردود أفعال عديدة في كافة الأقطار المغاربية و حتى في فرنسا. إذ أن الحكومة الفرنسية، بفعل ضغوطات شتى، وجدت نفسها مجبرة على تغيير قوانين الهجرة ثمان مرات و ذلك منذ أول قانون إلى غاية 1950.³ و كان للاعتراضات التي قدمها الكولون، الذين تحدثوا عن أزمات حادة لليد العاملة في مواسم الحرث و الحصاد و الجني، أثار في دفع السلطات الاستعمارية إلى تسليط مراقبة على المهاجرين انطلاقاً من الجزائر و إنشاء ديوان مكلف بالتنقل و التنظيم و ضبط و حماية المهاجرين. و لكن المخاوف المتنامية للكولون هي التي كانت وراء تقنين الهجرة في أكتوبر 1924.⁴

الجزائري و أحما يشكّلان شعباً واحداً تجمع بينه وحدة العرق و اللغة و الدين... و قد أمضى على هذه المذكرة مجموعة من رجالات الإصلاح و الأساتذة هم : الشيخ صلاح الشريف التونسي (أستاذ بجامعة الزيتونة بتونس) - الشيخ محمد الخضير بن الحسين (أستاذ بجامعة الزيتونة) - الشيخ محمد مزبان التلمساني (أستاذ بمدينة تلمسان) - محمد الشابي التونسي - محمد بيراز الجزائري - حمدان بن علي الجزائري - و محمد باش حابنة (رجل قضاء سابق بتونس). ينظر أكثر في الموضوع إلى:

- Collot Claude et Henry Jean Robert, Le mouvement national algérien textes 1912-1954, 2^e éditions, OPU, Alger, pp 25-30.

¹ - مالكي (محمد)، الحركات الوطنية و الاستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 1994، ص 272.

² - Nouschi (André), La Naissance du nationalisme Algérien op.cit..., p 59.

³ - فرضت أول رخصة سفر على الأهالي في 16 ماي 1874 و لكنها ألغيت بمقتضى قرار 18 جوان 1913 من طرف الحاكم العام للجزائر. و قد مكن قانون 15 جويلية 1914، الذي اعتمد على نفس الإجراءات المتضمنة في القرار المذكور، من فتح المؤسسات الفرنسية أمام المهاجرين الجزائريين. ينظر في هذا الباب:

- Collot Claude, Les institutions coloniales..., op.cit..

⁴ - أخذ قرار وزير الداخلية الفرنسي، الصادر بتاريخ 24 مارس 1924، انشغالات الكولون بعين الاعتبار، حيث أنشأت في هذا الصدد لجنة وزارية ضمت ممثلين عن الوزارات المعنية و شخصيات سياسية و ممثلين عن الكولون. و في ختام الاجتماعين المنعقدتين بتاريخ 10 أفريل و 10 جوان 1924، أعلنت اللجنة عن ضرورة اتخاذ مجموعة من التدابير تضمنتها البرقية الوزارية للثامن أوت، و تعليمة الحاكم العام بتاريخ الفاتح من سبتمبر، و التي شرع في تطبيقها بداية من التاسع عشر أكتوبر 1924. و قد بينت هذه التعليمات الأطر التنظيمية للحد من هذا النزوح. و كان على أي مترشح

1- ظاهرة الهجرة و تأثيرها في ربط العلاقات المغربية

تعتبر هجرة المغاربة نحو فرنسا مع مطلع القرن العشرين، من الظواهر التاريخية التي حددت كأول حركة سكانية دفعت بهؤلاء المسلمين إلى الاستقرار بفرنسا على شاكله جماعات و بطريقة سلمية لمدة طويلة جعلتهم لأول مرة في حياتهم يسكنون بلاد من غير بلاد الإسلام.¹ فأصبحت الهجرات التي شهدتها القرن التاسع عشر مغايرة تماما لما عاشه المغاربة المسلمين في فرنسا. حيث توجهوا نحو بلاد المشرق و نحو ديار الإسلام، في عهد الدولة العثمانية، هروبا من تعسف الاستعمار الفرنسي و إدارته. و قد وصفه أحد الباحثين الفرنسيين بأنه "العامل النفسي الأساسي" الذي تحكم في هذه الهجرة في بداية الأمر، دون الإشارة إلى العامل "الاقتصادي".²

كما تطرقت أقلام عديدة متخصصة، لما عرف بميلاد و تطور ظاهرة الهجرة المغربية بداية من القرن العشرين، حيث أصبح الحديث عن هجرة عفوية أو حتى وجود حركة من هذا النوع، قبل هذا التاريخ، أمر مستبعد. لأن هناك من يرى بأن الفقر المتزايد في الأوساط الشعبية هو الذي كان وراء الهجرة العفوية.³ و قد شكل المهجر الفضاء الأول الذي برز فيه دور "النجم"، في البداية، من خلال توحيد العمل و المطالب لمحاربة الاستعمار. فظهرت مجموعة من الوطنيين الجزائريين و التونسيين في مقدمة مؤسسي النجم سنة 1926 لتوحيد صفوف الطبقة العاملة و حملها على تقديم مطالبها بكل جرأة و شجاعة لتحسين ظروفها. فكان ذلك ثمرة لكل اللقاءات السابقة.⁴

في نفس السياق، عكف مؤسسو "النجم" على أن يجعلوا منه فضاء يجمع كل المغاربة الراغبين في العمل الوجدوي المشترك بين أقطاره سواء كانوا من تونس أو الجزائر أو المغرب.⁵ و بالتالي القضاء على فكرة الجهوية و

للحجرة أن يقدم الوثائق التالية: * شهادة تعهد موقعة من طرف وزارة العمل (الديوان المتخصص في توفير مكان العمل) يشهد بتوفير منصب عمل للمهاجر فور وصوله إلى فرنسا. * شهادة طبية موقعة من طرف أحد الأطباء المعينين لهذا الغرض من طرف الإدارة، يشهد بأن الجزائري جاهر بدنيا للعمل في فرنسا و هو ليس مريضا. * بطاقة تعريف عليها صورة شمسية للمعني و تحمل اسمه و لقبه و سنه و مهنته، يوقعها رئيس البلدية أو أحد أعوانه. ينظر في الموضوع:

- Bouguessa Kamel, Aux sources du nationalisme Algérien, les pionniers du populisme révolutionnaire en marche, casbah éditions, Alger, 2000, pp 35-52.

¹- Rager (Jean Jacques), Les Musulmans Algériens en France et dans les Pays Islamiques, société d'éditions 'les belles lettres', Paris, 1950, p 7.

²- Rager (Jean Jacques)..., op.cit., p 7.

³- في الواقع كانت الهجرة موجودة و منتشرة في كل مناطق الوطن، و حتى من المناطق الغربية التي عرفت هي الأخرى أنواع و أشكال متعددة من الهجرات اختلفت باختلاف الأسباب الدافعة إليها، ربما ذلك راجع للهجرات الكبرى التي شهدتها القطاع قبل الحرب العالمية الأولى، و بالتحديد هجرة 1911 من تلمسان، و التي أذهلت الإدارة الاستعمارية بأكملها. ينظر في هذا الباب:

- Benamrane Djillali, L'Emigration Algérienne en France ; passé, présent, devenir, SNED, Alger, 1983, p 19.

⁴- Messali (Hadj), Les mémoires de Messali Hadj 1898-1938, Anep éditions, Alger, 2005, p 151.

⁵- هذا التبنى لقضايا المغرب العربي الذي طرحه النجم جسده التعاون الكبير الذي أظهره إزاء "الحزب الدستوري الجديد" الذي تأسس سنة 1934، حيث ظهرت فكرة التأييد المتبادل بين الأشقاء ما دفع بالنجم إلى تنظيم تجمع كبير في شهر سبتمبر من نفس السنة احتجاج فيه على إبعاد السلطات الفرنسية لكل من "بورقية" و "الماطري"، و طالب بإطلاق سراح كل المعتقلين السياسيين التونسيين. كما أقدم النجم على تقديم دعم مالي للحزب الدستوري حتى يقوم بإعادة جريدة "العمل" إلى الواجهة من جديد. ينظر كل من:

- مالكي محمد...، مرجع سابق...، ص 287.

الانتماء للقطر لبند الخلافات التي قد تعيق تحقيق هذا التقارب. فجاءت كلمة "مصالي الحاج" لتعرف بالنجم و التركيز على إطاره المغربي، عندما أشاد كثيرا بانتفاضة الأمير "عبد الكريم الخطابي" واصفا إياه بالشجاع و المتسم بروح التضحية في سبيل نصرته دينه و قضيته.¹

كما ظهرت فكرة العمل الوحدوي من خلال مؤتمر "بروكسل" الذي انعقد من الفترة الممتدة من 10 إلى 15 فبراير 1927،² عندما برزت فكرة الاستقلال السياسي لتحقيق وحدة بلدان شمال إفريقيا.³

كان لتأسيس نجم شمال إفريقيا سنة 1926 أثارا كبيرة في دعم نشاط الطلبة التونسيين بفرنسا، و حتى لما تقلد التونسي "خير الدين الشاذلي" رئاسة النجم (هامش ؟؟؟) سنة 1927 زاد انخراط التونسيين داخل النجم. خاصة أن النجم كان من مبادئه الأساسية الدفاع عن المصالح المادية و المعنوية لمسلمي شمال إفريقيا. و التحق المناضل التونسي "سليمان بن سليمان" منذ سنة 1928 بالنجم لقناعته بضرورة توحيد العمل بين العمال و الطلبة من أجل تحرير بلدان شمال إفريقيا.⁴ كما تأكد الترابط بين العناصر الوطنية لبلدان شمال إفريقيا، من خلال البرقية المساندة التي أرسلت إلى "عبد الكريم الخطابي" و التي حملت التهاني لكافة سكان المغرب الأقصى بانتصارهم على الأسبان كما حملت أيضا شعارات تضامنية و أخرى سياسية تطالب باستقلال الشعوب المقهورة و التي سلبت منها حريتها.

تمحورت نشاطات النجم حول إصدار العرائض و عقد الاجتماعات و القيام بالاحتجاجات ضد السياسية الاستعمارية، و الكشف عن الخطط الجهنمية و عيوب الاستعمار حتى يتم الكشف عن حقيقته. فكانت البداية بعودة "مصالي الحاج" إلى فرنسا، بعد انتصار حكومة الجبهة الاشتراكية في انتخابات سنة 1936 بقيادة "ليون بلوم"⁵ Léon Blum، حيث انعقد اجتماع ضخم في باريس سنة 1936 دعا إليه النجم ضم أكثر من 40000 من العمال المهاجرين المغاربة حملوا شعارات "تحرر الوطن العربي". فكان ذلك بمثابة الدليل الذي سوف ينيير الطريق لتحقيق وحدة بلدان شمال إفريقيا.⁶

- زوزو عبد الحميد، الهجرة و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 150.

¹ - Messali (Hadj), Les mémoires de Messali Hadj 1898-1938., op.cit., p 153.

² - في هذا المؤتمر أقدم ممثلو نجم شمال إفريقيا الجزائري "مصالي الحاج" و التونسي "شاذلي خير الله" بمطالبة السلطات الاستعمارية بتحرير شمال إفريقيا من السيطرة الاستعمارية الفرنسية، مما أوضحه بشكل كبير الخطاب الذي ألقاه مصالي الحاج في هذا المؤتمر. أنظر في الموضوع:

- Kaddache Mahfoud et Guenaneche Mohamed, L'Etoile nord africaine 1926-1937, documents et témoignages pour servir à l'étude du nationalisme algérien, OPU, Alger, 1984, pp 40-43.

³ - Messali (Hadj), Les mémoires de Messali Hadj 1898-1938., op.cit., p 155.

⁴ - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 99.

⁵ - رجل سياسي و كاتب فرنسي، ولد في باريس سنة 1872. من زعماء الأقلية الذين عارضوا في سنة 1920، خلال أشغال مؤتمر مدينة "نور"، الانضمام إلى الأممية الشيوعية الثالثة. رئيس الحزب الاشتراكي S.F.I.O فاز بانتخابات سنة 1936 و شكل بها الحكومة الاشتراكية الفرنسية التي قادت البلاد من 1936 إلى 1938. و في سنة 1943 تم نفيه إلى ألمانيا التي بقي فيها إلى غاية نهاية الحرب. و بعد انتهاء الحرب عاد إلى الشؤون السياسية و شغل منصب رئيس الحكومة من ديسمبر 1946 إلى جانفي 1947. توفي سنة 1950. أنظر:

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 1172.

⁶ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme Algérien 1919-1951, T1, SNED, Alger, 1979, p 197.

بقي النجم وفيما لمبادئه و مواصلا في مطالبه على ضرورة العمل على تحقيق هذه الوحدة و إلى آخر أيامه السياسية سنة 1937، حيث شدد "مصالي" على ذلك بأقواله و مواقفه المختلفة و التي نجد من بينها: "نحن نعرف بأن مهمة حكومة الجبهة الشعبية لن تكون سهلة، سواء في الداخل أو الخارج، لأن الأوضاع الموروثة كارثية. و عليها أن تعمل على تحسين كل الظروف للجزائريين و الفرنسيين معا. و نحن من هذا المنبر ندعوها إلى اتخاذ القرارات المناسبة لكسب ثقة 18 مليون من سكان شمال إفريقيا حتى يتمكنوا من العيش في حرية و سلام..¹" هذه التجربة التي خاضها النجم من سنة 1926 إلى سنة 1937 مثلت بحق الأرضية الصلبة للعمل المشترك بين مختلف الحركات الوطنية في الأفطار المغاربية و اعتبرت نقلة نوعية في المسار العام الذي سوف تشهده هذه الحركات و تجاوبها مع قضايا المغرب العربي المختلفة.

و سوف تشهد لأول مرة بلدان منطقة شمال إفريقيا، صيغة تنظيمية ينتقل بها من دائرة الإحساس بالتآزر، بفعل القواسم المشتركة الكثيرة، إلى مستوى الوعي السياسي الذي يسمح له بالتعبير عن إرادة في التنسيق الجماعي الموحد.²

هذا الطرح المبكر لفكرة الاستقلال و التحرر الذي جاء به النجم، نابع من قناعته في الدفاع عن هويته الوطنية التي ستمثل الأرضية المثالية لبروز جمعية أخرى، لا تقل أهمية عن النجم، كنموذج آخر للعمل المشترك بين أقطار شمال إفريقيا في المطالبة بمبدأ التحرر الكلي من الوجود الاستعماري و حق شعوب المغرب العربي في الحرية و الاستقلال.³

أما الطلبة فتمكنوا من إنشاء فضاء خاص بهم في ظروف كانت كلها توحى بانتقال الصراع إلى حلبة العمل السياسي و الحزبي المنظم. فبدأت البعثات الطلابية تتلاحق تباعا على الأراضي الفرنسية و نحو بلاد المشرق، حيث وجدت المناخ الملائم و المشجع على بناء صرح الوحدة الطلابية المغاربية من وراء إنشاء جمعية

¹ - مالكي (محمد)،... مرجع سابق...، ص 293.

² - يؤكد هذا الموقف على أن النجم يمثل فعلا نقلة نوعية في مسار الأحزاب الوطنية المغاربية من أجل نشر الوعي السياسي بين أفرادها و عيا منه بأهمية إحياء "فكرة المغرب العربي" و العمل على توظيفها في سياق مناهضة الفكرة الاستعمارية الرامية إلى التوسع على حساب شعوبه و مقاومته لهذا الوجود بكل الأساليب المتاحة. و الحقيقة أن الاتصالات و التنسيق بين قيادات حزب الشعب و زعماء الحركة الوطنية في كل من تونس و المغرب لم تكن لتخفى عن أحد. حيث يذكر "علال الفاسي" في هذا الصدد أن روابط متينة جمعت كل من حزب الشعب و جمعية العلماء الجزائريين مع الحزب الدستوري و كتلة العمل المغاربية من أجل مقاومة الاستعمار. ينظر إلى كل من:

- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية...، مصدر سابق...، ص 242.

- مالكي (أحمد)،... مرجع سابق...، ص ص 273-274.

³ - راشد (أحمد إسماعيل)، تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث و المعاصر - ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب-موريتانيا، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1428 هـ/ 2004 م، ص 156.

الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا. و تهدف من وراء ذلك إلى التوفيق بين العمل الثقافي و السياسي. و هذا ما ظهر من خلال أول مؤتمر لها انعقد بتونس في أوت 1931.¹

ظهرت أهداف جمعية الطلبة من خلال الخطاب الذي ألقاه رئيسها "الحبيب ثامر" في المؤتمر الخامس الذي انعقد بمدينة تلمسان الجزائرية في سبتمبر 1935 حين أكد فيه على ضرورة تنسيق الجهود و العمل على الدفاع عن مقومات الشخصية الوطنية المغاربية و توحيد الصف بهدف تنظيم المقاومة و تحقيق النصر. فجاءت الكلمات معبرة عن آمال و تطلعات الشعوب المغاربية تحمل في طياتها: "إن فكرة التأسيس لمؤتمر سنوي لطلبة شمال إفريقيا، جديدة العهد. حيث أفاق طلبتنا من سباتهم العميق و شاهدوا ما يهدد أوطانهم.. لقد وجدوا جهلا مظلما قد تفش سمه القاتل في جميع طبقات المجتمع.. وجدوا فقرا منتشرا في كافة البلاد.. و أخلاقا إسلامية تضمحل شيئا فشيئا.. و دينا تحتك حرمة و لغة الآباء² و الأجداد قد اكتنفها النسيان.. فبادر الطلبة بجمع القوى و توحيد الكلمة و الجهود و تنظيم الصفوف و التوجه نحو المقاومة لتحقيق النصر عاجلا أم آجلا..".

بذلت جمعية الطلبة جهودا في تنسيق العمل حيث ترعرعت النخب المغاربية بداخلها و صاغت أفكارها و سياساتها المشتركة و ارتبطت بضرورة العمل في نطاق الشمال إفريقي، حيث تطرق "محمد فاضل بن عاشور" في التقرير الذي قدمه خلال المؤتمر الأول المنعقد بتونس سنة 1931، إلى ضرورة حل المشكلات العديدة التي تطرح علينا في كل يوم حول وحدة الشمال الإفريقي و إلى الطرق التي يجب أن نسلکها من أجل الحفاظ على ذاتيته و إبقائه وطنا موحدا بلا حدود..³

دعم "علال الفاسي" هذا الطرح بتأكيد على إحدى الروابط المتينة و المتمثلة في توحيد الثقافة القومية من أجل المحافظة على كيان المجتمعات.. و يعتبر أن اللغة هي أوثق رابطة يمكنها أن تحافظ على هوية الشعوب. و تعتبر من الركائز و الدعائم التي يقوم عليها الوطن و تجعل المصير مشتركا بين أفرادها.⁴

وجدت الجمعية في مشروع توحيد التعليم في الأقطار الثلاثة منطلقا لتوحيد و تنسيق العمل المشترك، إلى جانب تعبئة الرأي في أوروبا و إطلاعه بعدالة القضية المغاربية. و ما يؤكد الطابع الوحدوي لجمعية طلبة شمال

¹ - تؤكد مصادر الجمعية من خلال النشرة السنوية الأولى التي صدرت خلال 1928-1929، أن الجمعية أسست في شهر ديسمبر 1927 لغرض سد الفراغ الذي أحس به طلبة شمال إفريقيا المسلمون و التقريب فيما بينهم و العمل على إنشاء جمعيات يلتفون حولها و يدافعون من خلالها على مطالبهم المشروعة. و قد بادر القادة الوطنيون بتكوين لجنة تمثل جمعية "طلبة شمال إفريقيا المسلمين" في تونس بتاريخ 27 أبريل 1930 لإقامة نشاطات متنوعة لجمع المال لفائدة الطلبة المغاربة بفرنسا. و قد انزعجت السلطات الاستعمارية من هذه المبادرة حيث قام مدير الأمن العمومي باستدعاء الشاب "الماطري محمود" و حذره من تنظيم مثل هذه التظاهرات بالقرب من الأماكن العمومية. إلا أن ذلك لم يثن من عزيمة الجمعية التي واصلت في عملها الداعم للطلبة المسلمين في الأقطار الثلاثة. ينظر في هذا الباب كل من:

- الشاطر خليفة، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص ص 99-100.

- مالكي (محمد)...، مرجع سابق...، ص ص 299-300.

² - مالكي (محمد)...، المرجع السابق...، ص 300.

³ - مرجع نفسه...، ص 310.

⁴ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية...، مصدر سابق..

إفريقيا هو النشيد الذي انتشرت كلماته عبر ربوع العالم بعد المؤتمر السادس الذي انعقد سنة 1936، حيث جاءت كلماته معبرة حاملة لشعار الوحدة و التضامن:

" حيوا إفريقيا حيوا إفريقيا
حيوا إفريقيا يا عباد
شمالها يبغى الاتحاد
شبابها يأبى الاضطهاد
أشبالها تأبى الاستعباد
أين روما و قواها
و استعمارها الشديد
أين أسبانيا و دهاها
و صليبها الحقود
قد حطمنا أغلالها
و استقلت منها البلاد.¹

2- تثبيت التضامن و التواصل المغربي

شكلت عمليات الاتصال بين سكان المناطق الحدودية إحدى الوسائل التضامنية الهامة لكسر الحصار الذي كان مفروضا على سكان و مسلمي بلدان شمال إفريقيا. و قد أفادت بعض المصادر الأرشيفية أن عملية تهريب الأسلحة على الحدود الجزائرية المغربية قد شهدت نجاحا كبيرا بفضل حنكة بعض التجار حيث أفادت المعلومات بأن السيد "بن قلفاط" بائع النحاس في تلمسان، و "برسول" تاجر في وجدة، و المدعو "جلول" وسيط عبور Transitaire، يقومون بعمليات تهريب السلع المصنعة و الأسلحة بين الجزائر و المغرب بواسطة حافلات نقل عادية و حيوانات قادرة على تحمل الحمولة. يتم هذا العمل غير القانوني (غير مشروع) و المنظم بطريقة جيدة كل خمسة عشر يوما.²

حيث ذكرت بعض المصادر أنه في الخامس عشر من سبتمبر 1937، وصلت شاحنة "بن قلفاط" يقودها شخصين، بحمولة مشتبته فيها إلى مزرعة "فورو" Fouroux الواقعة في الجزائر على الضفة اليمنى من وادي كيس في اتجاه زاوية الشيخ "الهبري". هذه المزرعة يسيورها السيد "فونجيرا" Fongera. حيث توجد علاقة بين "بن قلفاط" و السيد "قارسيا" Garcia، الذي يملك مطعما في مغنية و يملك أيضا مزرعة في المغرب تبعد 5 كيلومترات من "السعيدية" على الطريق رقم 18. كما أن السيد "بودستا" Podesta، القاطن بـ "بورسعيد" Port-Say يتوجه مرة كل خمسة عشر يوما إلى تلمسان محملا بالخضر، و أثناء عودته ينقل البضائع و معها السلاح الموجه إلى المغرب.³

غير أن الإدارة الاستعمارية حاولت التقليل من شأن هذه الإشاعات و راسل والي وهران الحاكم العام في الجزائر يعلمه أن: " هذه المعلومات محل شكوك كبيرة مثلها مثل تلك التي وصلتكم من قبل. حيث أنه في آخر

¹ - مالكي (محمد)، مرجع سابق...، ص 319.

² - ANOM, Aix-en-Provence, T.O.M, Gendarmerie nationale, légion du Maroc, compagnie de Fes, section d'Oujda, N° 217/4, Rapport du lieutenant Allais Commandant la section de gendarmerie D'Oujda le 11/10/1937.

³ - Ibid. Rapport sur la contrebande et l'action nationaliste au Maroc français et sur les événements de la zone espagnole. Note 294/4 du 16 juin 1936.

ندوة جزائرية - مغربية التي نظمت بوجدة، بدا النقيب "دي لاتور" De Latour، متيقنا بأن كل الإشاعات التي تقول بأن المغاربة يتسلحون بعد أحداث "مكناس" مبالغ فيها و لا أساس لها من الصحة".¹

اتخذ التضامن المغاربي أشكالا متعددة منها الدعم اللامشروط للزعماء الوطنيين، حيث أوردت بعض التقارير صادرة عن مصالح الاستعلامات العامة الفرنسية بتونس بتاريخ 27 فبراير 1937، أن عناصر من حزب الشعب الجزائري قد اجتمعت مع شخصيات قيادية من الحزب الدستوري الجديد التونسي، لتقديم الدعم الكامل للزعيم التونسي "الحبيب بورقيبة" بعد تصريحاته حول التضامن الحاصل بين الوطنيين التونسيين و الجزائريين.² استمر هذا التقارب و التواصل بالزيارة التي قام بها الشيخ "عبد الحميد بن باديس" إلى تونس و التي دامت ثمان أيام، حيث اعتبرت السلطات الاستعمارية في تونس، أنه مبعوث خاص لنجم شمال إفريقيا إلى التونسيين من أجل إيجاد سبل إحداث التقارب بين الحزبين الدستوريين في تونس. و دعا "ابن باديس" الجزائريين المقيمين في تونس إلى تأسيس جمعية تحمل اسم "الصدقة" تعمل على تقريب وجهات نظر زعماء الحزبين لتشكيل تنظيم سياسي موحد يكون أكثر قوة و فاعلية.³

كما ذكرت نفس المصادر أن حزب الشعب الجزائري قد بعث إلى بعض الوطنيين في الحزب الدستوري بمجموعة "خناجر" منقوش عليها باللغة العربية شعار: "حزب الشعب الجزائري"، و كان أحد هذه الخناجر موجه إلى الزعيم "الحبيب بورقيبة" مكتوب عليه عبارات: "من حزب الشعب الجزائري إلى الأستاذ المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة". كما تعدى ذلك التضامن ليشمل الجانب المادي أيضا.⁴

¹ - Id. En réponse au rapport suscité, le Préfet d'Oran a envoyé une réponse rassurant le gouverneur général d'Alger. Voir : ANOM, Préfecture d'Oran, CIE N° 269, Oran le 14/10/1937, copie conforme adressée au CIE d'Alger.

² - ذكرت هذه المصادر شخصيات بارزة في الحركة الوطنية التونسية كان لها دور فعال في حصول هذا التقارب المغاربي، و هي: فيقة الباهي، الرويسي يوسف، سليم المنجي، بلحسن خميس، لعويطي علالة و غيرهم... أنظر:

- Archives Nationales de Tunisie, Série SG2, boîte OO94, dossier n° 2, rapports et notes politique concernant l'activité politique des Algériens et Tunisiens, Folio n° 28.

³ - التقى الشيخ "عبد الحميد ابن باديس" بممثلي الأحزاب الدستورية في تونس في أول مرة بمكتب "الحبيب بورقيبة" بحضور "الطاهر صفر" و "ابن يوسف". ثم كان له لقاء آخر في مكتب "حاسين الجازيري" و الذي حضره أيضا كل من: "محي الدين القليبي" و "منصف المستيري" و "سليمان دجادوي". و اختتمت اللقاءات هذه بمأدبة عشاء في "كرام" أقامها "الشاذلي خزندار" و حضرها كل من: محي الدين و منصف و صالح فرحات. و دار اللقاء حول كيفية التوصل إلى لم شمل "الإخوة الفرقاء" في تنظيم دستوري موحد. غير أن أعضاء الحزب الدستوري الجديد لم يغفروا "لمنصف المستيري" رسالته التي بعث بها إلى السلطات الاستعمارية. إلا أن ذلك لم يثني من عزيمة الدستوريين التونسيين في إبداء تضامنهم مع كل القضايا و المسائل التي تخص مسلمي شمال إفريقيا، خاصة موقفهم من الأحداث الأخيرة التي دارت في المغرب. ينظر:

- Archives Nationales de Tunisie, Série SG2, boîte OO94, dossier n° 2, commissariat de sureté, n° 171 D/2, rapport au sujet du voyage du cheikh Benbadis Abdelhamid en Tunisie, Tunis le 30 décembre 1936.

⁴ - أفاد تقرير عسكري سري صادر بتاريخ 29 أبريل سنة 1938، أن حزب الشعب الجزائري قدم مساعدة مالية للحزب الدستوري التونسي قدرت بحوالي 2000 فرنك فرنسي، و قد استلم هذا المبلغ الفرع الباريسي للحزب الدستوري. أنظر:

- Archives Nationales de Tunisie, Série SG2, boîte OO94, dossier n° 2, rapports et notes politique concernant l'activité politique des Algériens et Tunisiens, A/S de l'aide apportée au Néo-Destour par le Parti du Peuple Algérien..

كما اشترك الأمير خالد في أول مؤتمر مغربي من نوعه انعقد في باريس للنظر في أحوال المغرب السياسية والاقتصادية والنقابية. وكان من بين أعماله إرسال برقية تأييد إلى الأمير الخطابي و مناضلي الريف المراكشي. وعندما عاد إلى مقره بالإسكندرية اتهمته السلطات الفرنسية بالتعاون مع الخطابي و طالبت بتسليمه. و تدخل الإنجليز حتى سلمته الحكومة المصرية إلى قنصلية فرنسا، و انتهى به الأمر إلى الاعتقال في سوريا إلى أن توفي بها سنة 1936.

تواصل هذا التضامن مع قضية إلقاء القبض على "علال الفاسي" و "عمر اليازدي" و "عمر بن عبد الجليل" و "أحمد مكوار" من طرف السلطات الاستعمارية في أكتوبر من سنة 1937. حيث أعرب حزب الشعب الجزائري عن تضامنه مع الشعب المغربي و قادته الوطنيين، و دعا إلى إضراب عام في 20 من شهر نوفمبر من سنة 1937 تضامنا بين الأقطار الثلاثة للاحتجاج على اعتقال أعضاء الحزب الدستوري التونسي و إخوانهم النقبائين، و على محاكمة قادة حزب الشعب الجزائري و على نفي قادة حركة العمل المغربية.¹

¹ - I Archives Nationales de Tunisie, Série SG2, boîte OO94, dossier n° 2, rapports et notes politique concernant l'activité politique des Algériens et Tunisiens, A/S de l'aide apportée au Néo-Destour par le Parti du Peuple Algérien.

الفصل الأول

الرهانات الكبرى في الصراع

على جبهة البحر الأبيض المتوسط

تمهيد:

أمام الحالة المكهربة التي كانت تعيشها أوروبا و المتمثلة في الأزمة الإسبانية و التهديدات المتواصلة للألمان و رغبة إيطاليا المتجددة في بسط نفوذها على حوض البحر المتوسط، لم يكن أمام القادة الفرنسيين سوى وضع خيارات إستراتيجية لتفادي كارثة قادمة.¹

فأصبحت بذلك شمال إفريقيا من بين الخيارات البديلة التي طرحت نفسها لما لها من إمكانيات بشرية و مادية قد تغطي العجز الملاحظ على المتروبول. بيد أن الدور الملقى على عاتق شمال إفريقيا، لا يمكنه أن يتجسد إلا إذا سيطرت البحرية الفرنسية على طرق المواصلات في الجزء الغربي من المتوسط و في المحيط الأطلسي. و كان من الضروري التحالف مع بريطانيا في وجه الخطر الإيطالي و الإسباني.

بما أن الأولويات تحددها الإستراتيجية التي وضعتها الحكومة الفرنسية، فقد أصبح الدفاع عن الحدود الفرنسية من الأولويات و تدعيمه بفرق عسكرية من شمال إفريقيا أصبح أمرا ضروريا. لأن موقع شمال إفريقيا في حوض البحر الأبيض المتوسط جعل منها منطقة تقاطع الطرق البحرية شمال-جنوب و شرق-غرب، بالقرب من طريق المواصلات النشط و الحيوي: جبل طارق-قناة السويس. و من الجهة الغربية للمغرب التي تملك واجهة واسعة على المحيط الأطلسي. غير أن قرب إيطاليا و ليبيا و إسبانيا و الجزء المحتل في المغرب الأقصى، يطرح مشكل الدفاع نظرا لتعدد الجبهات.

إذن، هل يمكن أن نتحدث عن إستراتيجية للحلفاء في الشمال الإفريقي ؟ ما هي معالمها البارزة ؟ و كيف تحددت جبهة البحر المتوسط ؟ هل للحد من نفوذ دول المحور فيه؟ أم من أجل الحفاظ على مصالحها و مستعمراتها فيه؟ إنها الأسئلة التي تبدوا لنا ضرورية و منطقية لمعرفة حقيقة ما كان يدور بين الحلفاء في المؤتمرات السرية و العلنية، حول هذه المنطقة و الخريطة الجيو-سياسية التي ستنبثق مستقبلا عن تلك اللقاءات.

هنا لا بد أن نشدد على مسألة هامة في الموضوع و المتعلقة بالآراء المختلفة التي تناولت الموضوع من جانبه الاستراتيجي و التي كانت متباينة من مؤرخ لآخر و من شخصية عسكرية و سياسية إلى أخرى. و هذا من شأنه تقييد أحداث الموضوع في خانات متضاربة حول أهمية جبهة المتوسط و إستراتيجية عملية الإنزال على شمال إفريقيا.

إذا كان الصراع العالمي قد وصل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط مع منتصف سنة 1940، فهذا بسبب دخول إيطاليا الحرب، أولا، بحيث بينت الأحداث اللاحقة أن شمال إفريقيا هي الميدان التي نمت فيه القوة المتصاعدة و الآمال الكبيرة لفرنسا، باعتبار أنها استعادت حرياتها من شمال إفريقيا..

¹ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 36.

و تشكل برلمانها و مقر حكومتها الحربية فيها. هنا تجمعت عناصر جيوش الغد...و من هنا عبر السكان عن ولائهم لفرنسا..¹

أولاً: البحر المتوسط رهان إستراتيجي جديد في الحرب

معروف عن الجزء الشمالي من القارة الإفريقية أنه كان دوما عرضة للأطماع الخارجية و مسرحا لتهديدات الجوار، و التي تواصلت عندما أصبحت فرنسا هي الدولة المهيمنة فيه ، فتعرضت بدورها إلى نفس الأطماع في هذا الجزء من إمبراطوريتها، الأمر الذي دفعها إلى تحديد هوية خصومها و من ثم وضع إستراتيجية مناسبة من أجل تنظيم الدولة الفرنسية انطلاقا من شمال إفريقيا. إن التجربة السابقة خلال الحرب الكبرى قد أظهرت ضرورة إنشاء صناعة حربية حتى لا تصبح فرنسا خاضعة لتبعية صناعية في هذا المجال.

هنا يأتي دور المسؤولين السياسيين الفرنسيين في عملية تفعيل هذا المشروع.² أما عسكريا، فقد طرح مشكل الإمكانات في جوان 1940 بشكل كبير. خاصة عند الفرنسيين الذين لم يفهم موقفهم من خلال تصرفات الجنرال "نوقس" المتددة. هل أراد الجنرال "نوقس" فعلا مواصلة المقاومة في شمال إفريقيا ؟ هل كانت هناك رغبة عند حكومة "بورديو" لمواصلة المعارك في شمال إفريقيا؟ هذه الحالة أثبتت فعلا الارتباك، إن لم نقل الخوف، الذي أصبح السمة البارزة في الحياة اليومية للساسة الفرنسيين.

يبدوا أن نظرة هتلر و قيادته العسكرية كانت مركزة على الحرب البرية بالدرجة الأولى. مما جعلهم لا يجهزون مخطط للجهة الشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط، بل أقدموا على دعم حلفائهم برا و جوا في ليبيا و صقلية مع احتلال "جزيرة كريت" و تحضير ثورة مناهضة للوجود البريطاني في العراق و لكن دون إدراج هذه العمليات في مخطط استراتيجي شامل.³

كما أن دول المحور لم تستفد كثيرا من تفوقها العددي عند غزو "صقلية" خلال صائفة 1942 باعتبار أن الإيطاليين لم يغامروا في جبهات القتال و اكتفوا بالتموقع في وضعيات دفاعية فقط، و ذلك بالرغم من العدد الهائل للجنود الإيطاليين المرابط في ليبيا و المقدّر بـ 250000 جندي. هذا ما جعل "موسوليني" يحلم بإعادة أبحاد

¹ - Discours prononcé par le général Charles De Gaulle à Constantine le 12 décembre 1943 devant un parterre de colons et quelques algériens. Voir les deux sources :

- ANOM, GGA, Aix-en-Provence.

- De Gaulle Charles, Mémoires de guerre, t2, L'unité, éditions Plon, Paris, 1956, pp 256-257.

² - من بين الأهداف التي سطرها الحكومة الفرنسية على المدى القريب وضع أسس لصناعة حربية كفيلة بتجنيب فرنسا متاعب الاستعانة بالدول

الأوروبية الأخرى و كذا جعل فرنسا من الدول المصنعة في المجال العسكري. لمزيد من المعلومات ينظر:

- Levisse-Touzé Christine, L'AFN et la défense nationale française 1919-1939, Thèse de 3^e cycle, université Le Mans, 1980.

- Levisse-Touzé Christine, L'AFN recours ou secours septembre 1939-février 1943, thèse d'état, Panthéon-Sorbonne, Paris 1, janvier 1991. (In IREMAM, Aix-en-Provence, cote MT 24956).

³ - Dahms (Hellmuth Günter), La deuxième guerre mondiale, traduit de l'allemand par René Jouan, éditions Payot, Paris, 1961, pp 119-120.

الإمبراطورية الرومانية و تحقيق الانتصارات التي كان يحققها "هتلر"،¹ إلا أنه لا شيء من ذلك تحقق باعتبار أن إيطاليا أصلا لم تكن جاهزة لخوض مثل هذه الحرب. و ذلك بالرغم من أن القوات الإيطالية كانت تفوق القوات البريطانية عددا مع بداية الحرب العالمية الثانية.²

لا يمكن أن نفهم أهمية البحر المتوسط في إستراتيجية الحلفاء مع بداية صائفة سنة 1942 إلا إذا فهمنا الرهانات التي كانت مطروحة قبل هذه الفترة، خاصة خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. إذ تظهر كل المعطيات التاريخية أن الصراع الأوروبي كان محركة الصراع على مناطق النفوذ لتأمين مصالح كل دولة حتى تنفرد بالسيطرة و الهيمنة لتشكيل بذلك قوة لا يمكن تجاهلها في المعادلة القائمة.

1- الأهمية المتنامية للبحر المتوسط

لم تكن منطقة شمال إفريقيا في ميزان المعادلة الحربية قبل سنة 1939، باعتبار أن القوى الاستعمارية لم تولي أهمية للخطر النازي و الإيطالي ما دام أنها كانت تظن بأن الأمور العسكرية سوف يحددها ميدان القتال الذي كانت تراه لا يتعدى النطاق الجغرافي للقارة الأوروبية. غير أن توتر العلاقات الدولية أظهرت هشاشة المواصلات البحرية بين شمال إفريقيا و المتروبول، لأن هناك بؤر توتر قائمة في "الحبشة" و "إسبانيا" تبين بوضوح بأن منطقة

¹ - "أدولف هتلر" Adolf Hitler، ولد في "برونو" في أقصى النمسا (Braunau en (Haute Autriche)، و ينحدر من عائلة تنتمي إلى البورجوازية النمساوية الصغيرة. انضم إلى صفوف الجيش "البافاري" كمحارب خلال الحرب العالمية الأولى. و بعد نهاية الحرب انخرط في صفوف الحزب العمالي الألماني سنة 1919، و أصبح مناهضا للرأسمالية و معارضا للسامية. و عندما أصبح زعيما لهذا الحزب غير تسميته إلى "الحزب الوطني الاشتراكي" -نازي- (Parti National-socialiste (nazi) معتمدا على عقيدة وطنية متطرفة. فبدأت إمبراطوريته تنمو بتأسيس فروع المهجوم (Section d'Assaut) بداية من سنة 1921. ثم حاول في سنة 1923 القيام بانقلاب على السلطة في ميونيخ لكنه فشل مما عرضه للاعتقال و السجن، أين كتب كتابه الشهير "Mein Kampf"، أين عرض فيه الخطوط العريضة للعقيدة الوطنية المتطرفة و عنصرية النازية. و عند خروجه من السجن شرع في تقوية حزبه و أنشأ سنة 1925 فرقه السرية المعروفة بـ Services Secrets.

و تمكن، في ظل انهيار ألمانيا الكلي، من تطوير عصابات منظمة و نشر دعاية ديمagogية فتاكة مكنته من اعتلاء السلطة في 1933 كمستشار لألمانيا ثم جمع بين كل السلطات عند وفاة الرئيس "هايدنبورغ" سنة 1934 مما جعله ينفرد بالسلطة بمساعدة بوليس الدولة الذي أنشأه لهذا الغرض، فأصبحت هذه الشرطة تتمتع بنفوذ غير محدود. Gestapo. فبدأت أطماعه التوسعية تظهر إلى الوجود، فكانت "رينانيا" سنة 1936، ثم "النمسا" و "تشيكوسلوفاكيا" سنة 1938 و أخيرا "بولونيا" سنة 1939، مما أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939. و انتحر هتلر في 30 أبريل 1945 في برلين بعد هزيمة الجيوش الألمانية.

- Petit dictionnaire Larousse, dictionnaire encyclopédique..., op.cit., p 1396.

² - إن التفوق العددي للقوات الإيطالية كان واضحا مع نهاية ديسمبر من سنة 1940 على القوات البريطانية في شمال إفريقيا، غير أن التنظيم المحكم و التقنية المتطورة للبريطانيين حققت الفارق، حيث أن غالبية دبابتها-و كان عددها 320 دبابة- كانت متمركزة في الفرقة المدرعة السابعة المتمرنة جيدا، أما الدبابات الإيطالية فكانت متفرقة على وحدات المشاة. أنظر:

- Campbell (John), La seconde guerre mondiale, l'embrasement du monde, sélection du Reader's Digest, Paris, 1990, p 64.

البحر المتوسط قادرة على أن تكون منطقة حساسة لصراع مستقبلي قد يغير الكثير من المعطيات. فبدا للسلطات الفرنسية أن الحفاظ على وحدة شمال إفريقيا أمر ضروري.¹

فحقيقة حوض البحر المتوسط بالنسبة للحلفاء أنه مثل ممرا حاسما نحو عملية إنهاء الحرب و بالتالي القضاء على دول المحور التي طالما جعلت منه حصنا منيعا و موقعا نافذا لخدمة حربها ضد القوات المتحالفة و ذلك مباشرة بعد إعلان إيطاليا الحرب ضد الحلفاء في 10 جوان 1940.²

مع مطلع سنة 1936، بدأت قيادة أركان الجيش الفرنسي تدرك بأن مصير شمال إفريقيا سوف يلعب في ميادين المعارك بأوروبا. لأن تزايد التوتر الدولي فرض على فرنسا بأن تعترف بهشاشة المواصلات البحرية بين المتروبول و شمال إفريقيا. كما أظهرت الحروب التي كانت تدور في الحبشة و في إسبانيا أن حوض البحر المتوسط قد يتحول إلى منطقة حساسة للصراع المستقبلي قد تؤدي إلى تطور المفاهيم. و بالتالي فقد أصبح من الضروري الحفاظ على وحدة شمال إفريقيا.³

لقد أوضح الأميرال "راؤول كاستكس" ⁴ Castex Raoul، قائد القوات البحرية في الشمال، أهمية المحور الأورو إفريقي و الدفاع عن شمال إفريقيا التي يجب أن يبقى مصيرها مرتبط مع المتروبول، حيث قال : " لم تعد فرنسا هي المتروبول فقط، و لكن هي تلك الأراضي الواسعة المنتشرة من "دنكرق" Dunkerque إلى "الكونغو" Congo... علينا الدفاع على "الدار البيضاء" و "قابس" كما لو أننا ندافع على "مرسيليا" أو "الجزائر" أو "باريس"، إذا أردنا أن نبقي أمة عظيمة أو حتى أمة و فقط...⁵ غير أن هذا الطرح كان بعيدا عن ذلك الذي كان يدور في أعلى هرم السلطة الفرنسية.

¹ - Service Historique de la Défense, (sera cité en abrégé SHD). Secrétariat général du Conseil Supérieur de la Défense Nationale, (sera cite en abrégé CSDN), série 2N 66, lettre du 18 décembre 1936. Et voir aussi :

- Conseil supérieur de la guerre, (sera cite en abrégé CSG), série 1N 37, état-major du général Georges, daté du 1^{er} novembre 1938. (Cite par : Levisse Touze Christine..., in L'Afrique du Nord dans..., op.cit.)

² - Campbell (John)..., op.cit..., p 64.

³ - SHD, CSDN, série 2N66...op.cit.

⁴ - ولد الأميرال "راؤول كاستكس" في مدينة "سان هومير" Saint-Omer سنة 1878 و يعتبر من المنظرين العسكريين الفرنسيين حيث يعتبر صاحب عدة كتابات تاريخية و استراتيجية في المجال البحري العسكري. تقلد منصب قائد القوات البحرية في الشمال و قد توفي سنة 1968 عن عمر يناهز 90 عاما. ينظر إلى:

- Petit dictionnaire Larousse, dictionnaire encyclopédique..., op.cit..., p 1213.

⁵ - Castex (Raoul) Amiral, « L'Afrique du Nord et la stratégie française », in revue de défense nationale, Paris, mai 1952, pp 533-534. Et voir aussi :

- Coutau-Bégarie (Hervé), Castex le stratège inconnu, éditions economica, Paris, 1985.

حيث أثمر ضغط "فرانسوا دارلان"¹ Francois Darlan حين أمر "إدوار دلادييه"² Édouard Daladier الذي كان يشغل آنذاك منصب وزير للدفاع، بالشروع في برنامج التصنيع البحري لتصل قوة استيعاب الأسطول الفرنسي إلى 760000 طن لمواجهة التطور الذي كانت تشهده الأساطيل الألمانية و الإيطالية التي وصلت قدرة استيعابها إلى 330000 طن و 600000 طن.³ حيث خشيت فرنسا من حدوث تذبذب في الاتصالات بين أرجاء الإمبراطورية، الأمر الذي سيعرضها لخسارة فيالق عسكرية في شمال إفريقيا و أفواج في إفريقيا السوداء. لأن انعدام التوازن الديمغرافي يفسر الأهمية المتزايدة التي أولتها الحكومات المتعاقبة للمستعمرات: "في نطاق مفهوم "جيش الكتلة" (أو الجماعة) الذي هو مفهوم القيادة العليا الفرنسية، أين يصبح عدد الفيالق هو الذي يصنع الفارق، هنا يصبح المورد الديمغرافي مسألة حيوية..⁴

أصبحت حرية المواصلات و الدفاع عن شمال إفريقيا في قلب الأهداف الإستراتيجية لقيادة الأركان الفرنسية. و شيئاً فشيئاً انتقل المحور الإستراتيجي نحو مسرح البحر المتوسط "أين يمكن لكل من ألمانيا و إيطاليا أن تحققا نتائج حاسمة..". هذا ما توصل إليه "دلادييه" في خريف 1937.⁵ أما "دارلان" فضرب في صميم المشكلة حين صرح: "علينا أن نكون أسياد البحر الأبيض المتوسط.. لأن الواجهة الأطلسية أصبحت لا تكفي.." ثم أضاف قائلاً: "يمثل مسرح البحر المتوسط امتداداً للمسارح الأساسية المرتبطة مع بعضها البعض في الشمال الشرقي و الجنوب الشرقي. حيث لم تعد شمال إفريقيا مسرحاً ثانوياً فقط، بل هي مرتبطة مع كافة المسارح المتروبولية..⁶

فالمنطق يفرض نفسه، لأنه لا يمكن عزل قيادة شمال إفريقيا عن باقي القيادات الأخرى، بل يجب أن يكون مباشرة تحت أوامر القائد الأعلى للقوات البرية. و هكذا عين الجنرال "نوقس" قائد للقوات العسكرية في

¹ - ولد الأميرال "فرانسوا دارلان" في قرية "نيراك" Nérac سنة 1881. تقلد عدة مناصب عليا في الجيش الفرنسي. عين قائدا للقوات الفرنسية من سنة 1936 إلى 1940. شارك إلى جانب المارشال "بيتان" في كل العمليات التي دارت في شمال إفريقيا من سنة 1940 إلى 1942 حتى أصبح خليفته المحتمل. و بعد نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا أصبح السلطة المطلقة في شمال إفريقيا حين اغتياله في ديسمبر من نفس السنة. أنظر :

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 1269.

² - إدوار دلادييه، رجل سياسي فرنسي ولد في "كاربونتراس" Carpentras سنة 1884. أصبح برلماني منذ 1919 و رئيسا للحزب الراديكالي-الاشتراكي سنة 1927. تقلد عدة حقائب وزارية منذ سنة 1924. ثم عين رئيسا للوزراء سنوات 1933 و 1934. استقال بعد يوم 6 فبراير. ثم عين وزير للدفاع في الحكومة الاشتراكية من 1936 إلى 1937. عاد مرة أخرى لرئاسة الحكومة سنة 1938 و هو الذي أُلن الحرب على ألمانيا بالرغم من أنه كان صاحب الإمضاء على اتفاقية ميونيخ سنة 1938. غير أنه استقال من منصبه في مارس 1940. شارك في حكومة "بول رينود"، ثم بعدها تم نفيه فيما بين 1943 و 1945. و بعد نهاية الحرب عاد للشؤون السياسية و أصبح رئيسا للحزب الراديكالي الفرنسي من 1957 إلى 1958. توفي سنة 1970 عن عمر يناهز 86 سنة. أنظر :

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 1266.

³ - SHD, Conseil Permanent de la Défense Nationale, (sera cite en abrégé CPDN), serie 2N 22, séance du 15 avril 1937. (Cite par Levisse-Touzé (Christine), L' Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., pp 30-36.)

⁴ - Delmas (Jean) Général, « La perception de la puissance militaire française », In actes du colloque international de Sèvres, du 14 au 18 avril 1982, publiés en 1984, aux publications de la Sorbonne, pp 129-131.

« La puissance en Europe 1938-1940, sous la direction de René Giraud et Robert Frank.

⁵ - Levisse-Touzé (Christine), L' Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 38.

⁶ - SHD, CPDN, série 2N 22., séance du 8 décembre 1937.

مسرح العمليات بشمال إفريقيا بمرسوم 26 فبراير 1938 و خاضع مباشرة للقائد العام لقوات الجيش الفرنسي المجندة.¹

1- الأطماع الاستعمارية الإيطالية لاستعادة الأمجاد الضائعة

حاولت إيطاليا جاهدة في التفرغ للفكرة الاستعمارية من خلال وضعها رهان "المجد الضائع"، و نعني بذلك مجد الإمبراطورية الرومانية على محك الصراع الاستعماري القائم بينها و بين فرنسا، خاصة، و باقي الدول الأوروبية الأخرى عامة. فتنامت لديها غريزة التسلط و التوسع من منطلق "الحق المشروع" أو المقدس الذي منح لها في الماضي لتكون قاطرة الأمم و الشعوب الأوروبية في طريقها لتثبيت الفكرة الحضارية الإنسانية.

تعارضت المصالح الاستعمارية الإيطالية و الفرنسية في حوض المتوسط منذ الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830 و ما تلاها من تطبيق لنظام الحماية على تونس و المغرب. حيث قدرت الجالية الإيطالية الموجودة بشمال إفريقيا ب 140000 مواطن، منها 100000 مواطن كان يعيش في تونس،² متفوقا عددا على الجالية الفرنسية المقيمة فيها. و تمكنت إيطاليا من بسط نفوذها على ليبيا، بعد الحرب العالمية الأولى دون أن تحمل الأجزاء الأخرى من شمال إفريقيا، خاصة المغرب، حيث نجدها حاضرة في الندوة الدولية لمديرد سنة 1880، و التي سوت مستقبل المملكة المغربية.

كما نجدها حاضرة في مؤتمر "الجزيرة" سنة 1906 الذي حدد الطابع القانوني و الدولي للمملكة. و أخيرا كانت إيطاليا من ضمن الدول التي أمضت على اتفاقية 1923 التي عجلت بتسوية مسألة "طنجة".³ ثم كانت من الدول "المطلقة" التي وضعت تحت مسؤولية الرجل القوي للحزب الفاشي "موسوليني" الذي سيرها على شاكلة "الحزب الواحد" و بانضباط عسكري منذ أن سار على روما سنة 1921.⁴

¹ - SHD, cabinet du ministre de la défense nationale, (sera cite en abrégé CMDN), série 5N 583, dossier 1.

² - Levisse -Touze (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 16.

³ - لقد تم تسير شؤون طنجة إلى غاية سنة 1923، و هو التاريخ الذي تم فيه تسوية وضعيتها عن طريق الإمضاء عن ميثاق تضمن النقاط التالية:

- تبقى منطقة طنجة خاضعة لسلطة السلطان و تتمتع باستقلالية في مجال التشريع و التنظيم.
- يتمتع مندوب السلطان بالسلطة التشريعية و له صلاحيات أوسع من تلك التي كان يتمتع بها "الباشا".
- أسندت السلطة التشريعية و التنظيمية لجمعية دولية ممثلة للجاليات الأجنبية المعينة من طرف قضلياتها، و من الأعضاء المغاربة المعينين من طرف مندوب السلطان، الذي كان يرأس هذه الجمعية.. إلى جانب ثلاثة نقاط أخرى أساسية.

و قد تم ضبط هذا التسيير الإداري لمنطقة طنجة مدة 17 سنة كاملة، أين شهدت المنطقة رواج كبير. ينظر في الموضوع إلى:

- Benachenhou (Abdellatif), Connaissances du Maghreb, notions..., op.cit..., pp 206-207.

- Julien Charles André, Le Maroc face aux impérialismes 1415-1956, éditions J.A, Paris, 1978, pp 200-201.

⁴ - Dahms (Hellmuth Günter), La deuxième guerre mondiale..., op.cit..., pp 17-18.

لقد حاولت إيطاليا تحصيل مصالحها في تونس، حيث تحصلت بموجب اتفاقية 1896 على حق رعاياها في الحفاظ على الجنسية الإيطالية، كما نصت اتفاقية 7 جانفي 1935 المبرمة مع "بيار لافال"، رئيس الحكومة الفرنسية، على منح الجنسية الفرنسية للرعايا الإيطاليين و لكن بشروط. و قد أدت هذه الاتفاقية عند المصادقة عليها إلى توتر العلاقات الفرنسية الإيطالية، حيث اتهمت الصحافة الفاشية "لافال" بوجود التزامات سرية خاصة منها التنازلات السياسية الفرنسية في الحبشة لفائدة إيطاليا.¹ هذا ما ساعد "بنيتو موسوليني" Benito Mussolini² على اعتماد سياسة عدوانية نجمت عنها أزمة الحبشة سنة 1936، ثم تابع ذلك بدعمه العسكري للجنرال "فرانكو" خلال الحرب الأهلية الإسبانية في نفس السنة، مفسحا بذلك عن أطماعه الحقيقية في البحر المتوسط الأمر الذي جعل النظام الفاشستي في إيطاليا يصل أوجه.

عندها، فسحت إيطاليا عن أطماعها في المتوسط خلال الجلسة المخصصة للسياسة الخارجية الإيطالية التي عقدها النواب في 30 نوفمبر 1938، والتي تم المطالبة على إثرها بمناطق: كورسيكا و صافو و تونس. غير أن الحاجز الوحيد الذي وقف عائقا أمام بسط إيطاليا لنفوذها في حوض المتوسط هو نظام الحماية المفروض من طرف فرنسا. فجاء لقاء الثالث من ديسمبر بين سفير فرنسا في إيطاليا "فرانسوا بونسي" مع وزير الخارجية الإيطالي و صهر "الدوشي"، "الكونت شيانو"، ليرز عمق الخلاف مع الحكومة الإيطالية التي نددت باتفاقيات 1935.³ انتقد الطلبة الجزائريون هذا الموقف من خلال تجمعهم أمام القنصلية الإيطالية بتونس في التاسع من ديسمبر،⁴ للتنديد بهذا التصرف الإيطالي. بعدها قامت الحكومة الفرنسية بتذكير الإيطاليين بضرورة الالتزام

¹ - صاحب التوقيع على هذه الاتفاقية جو مكهرب بين الفرنسيين و الإيطاليين في تونس، ملؤه الشكوك و الشبهات و جنون الاضطهاد و الخوف من التدمير و رفع التظلمات و لوائح مطالب...لمزيد من التوضيحات ينظر إلى:

- Monchicourt Charles, Le statut des Italiens de Tunisie II, in Questions-Nord-Africaines, N-4, du 25/11/1935, pp 03-13.

² - "بنيتو موسوليني" Mussolini Benito، رجل دولة إيطالي، لقب "بالدوتش" أي الدوق. ولد سنة 1883 بـ "دوفيا دي بريدابيو" Dovia di Predappio بدني مقاطعة "رومان" Romagna. و قد بدأ مشواره بالنضال في الحزب الاشتراكي الإيطالي، حيث اعتمد منذ سنة 1914 على تبني سياسة وطنية و عسكرية. و بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أسس أول نواة للحزب الفاشستي الإيطالي سنة 1919 أطلق عليها اسم: الأريطة الإيطالية للمعارك و هو شعار فاشستي. و بعد المسيرة على روما، أقنع الملك بأن يكلفه بقيادة الحكومة سنة 1922. و بداية من 1925 تحصل على كافة السلطات تحول بموجبها إلى دكتاتور يتمتع بسلطة مطلقة.

بعدها تمكن من كسب اعتراف الكاثوليكين بعد ما حقق اتفاقيات "لاتران" Latran سنة 1929. قطع العلاقات مع الديمقراطيات الغربية بعد غزوه للحبشة خلال حملة 1935-1936 و تمكن من تشكيل محور روما-برلين مع هتلر سنة 1936 دعمه باتفاقية الفولاذ سنة 1939. و بداية من 1940 أعلن الحرب على فرنسا و بريطانيا و انضم إلى ألمانيا النازية. انتقدت سياسته من طرف غالبية الزعماء الفاشستيين مما دفع بالملك إلى توقيفه سنة 1943. بعدها تم تخليصه من طرف الألمان، فاستغل ذلك للهروب إلى الشمال أين تمكن من تأسيس "الجمهورية الاجتماعية الإيطالية" التي لم تدم طويلا و انحارت مع هزيمة ألمانيا. و تم إعدامه في 28 أبريل 1945 من طرف المقاومة الإيطالية.

- Petit dictionnaire Larousse, dictionnaire encyclopédique, Librairie Larousse, Paris, 1984, p 1542.

³ - نصت هذه الاتفاقيات على حصول الرعايا الإيطاليين المولودين في تونس قبل مارس 1934 على الجنسية الفرنسية، أما الذين ولدوا بعد ذلك فبإمكانهم اختيار الجنسية الفرنسية عند بلوغ سن السادسة عشر 16.

⁴ - Planché (Jean Louis), Antifascisme et anticolonialisme à Alger à l'époque du Front populaire et du congrès musulman 1934-1939, Unité d'enseignement et de recherche commune du tiers monde, directeur de recherche Gallissot René, Alger, juin 1980.

باتفاقيات سنة 1935 لأنه السبيل الوحيد نحو حل نهائي للخلاف الفرنسي الإيطالي.¹ و من عملية صبر الأراء تبين أن 89% من الفرنسيين يعتبرون أن إيطاليا ليس لها أي حق على تونس، و أن 40% منهم جاهزون للحرب و لن يتنازلوا عن شبر من الإمبراطورية الاستعمارية.² فتوجه "إدوارد دلاديه"، رئيس المجلس الفرنسي، رفقة الأميرال "دارلان"، قائد البحرية، و الجنرال "جورج"، عضو المجلس الأعلى للحرب، إلى زيارة تونس في 4 جانفي 1939، ليشدد على سيادة فرنسا في شمال إفريقيا و يطمئن السكان هناك.

صاحب الأطماع الاستعمارية لموسولوني تطور هائل في الإمكانيات العسكرية المسخرة لهذا الغرض، مما جعل عدد القوات الإيطالية المربطة في ليبيا يتعزز تدريجيا خلال سنتين من 1938 إلى 1939 حيث ارتفع من 28000 جندي ليصل إلى 130000 مع شهر أكتوبر لسنة 1939، كما تم استدعاء القوات الاحتياطية من الأهالي الليبيين، و هي عملية تجنيد إجباري لم ترد الدولة الإيطالية من وراءها التعرض إلى رفض السكان و الشباب الليبي لهذه العملية علما أن نفس الوضع تعيشه البلدان المجاورة في شمال إفريقيا.³ و مع بداية الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939 أصبحت إيطاليا تمثل خطرا حقيقيا الأمر الذي جعل فرنسا تتمنى عدول إيطاليا عن دول المحور و التحاقها بمعسكر الحلفاء كما حدث سنة 1915 خلال الحرب الكبرى.⁴

إن المحاولات القليلة التي باشرها الجيش الإيطالي للتوغل داخل الأراضي المصرية مع بداية سبتمبر 1940 باءت بالفشل بسبب التعب و الإرهاق الذي نال من الجنود الإيطاليين بعد قطعهم لمسافة 80 كلم بالقرب من "سيدي البراني". و الملاحظ هنا أن قوام الجيش البريطاني بقيادة اللواء "أرشيبالد فافل"، لم يضم في صفوفه سوى 36000 جندي.⁵

لم تعلن إيطاليا الحرب منذ البداية، لأن "موسوليني" كان مترددا، ليس لدخول الحرب، و إنما في اختيار التوقيت المناسب لذلك. حيث كان ينتظر تطورات الحرب و المسار الذي سوف تأخذه ليقرر بعدها و يتخذ موقفا صريحا منها.⁶ لذلك كان على بريطانيا أن تكون حذرة و توجه سفنها عبر الطريق البحري المتجه نحو "الرأس".

3- الصراع الألماني المتجدد على مناطق النفوذ

¹ - Gamelin (Maurice) Général, Servir, T2, éditions Plon, Paris, 1947, p 283.

² - Ageron (Charles Robert), « L'Opinion publique française pendant les crises internationales de septembre 1938 à juillet 1939 », in cahiers de l'institut d'histoire de la presse et de l'opinion, Paris, N°3, pp 212-213

³ - Levisse-Touzé (Christine), Thèse de 3^e cycle..., op.cit., p 283. Voir aussi : SHD, CPDN- 2N25 séance du 24 février 1939. Les évaluations sont données à l'état-major par le consul de France à Tripoli.

⁴ - Duroselle (Jean-Baptiste), L'Abime 1939-1945, imprimerie nationale, collection. « Politique étrangère de la France », Paris, 1982, p 35.

⁵ - Campbell (John), La seconde guerre..., op.cit., p 64.

⁶ - Churchill (Winston Spencer Leonard), La deuxième guerre mondiale, L'orage approche, T1, Vol.2 : La drôle de guerre 3 septembre 1939- 10 mai 1940, éditions Plon, Paris, 1948, p 12.

أظهرت الأزمتهن التي مر بهما المغرب في سنوات 1905 و 1911، الطموحات الألمانية على الصعيدين الاقتصادي و السياسي.¹ غير أن اتفاقية فرساي منعت على الألمان بعض الامتيازات هناك. غير أن ذلك لم يمنهم من مواصلة المثابة و الصمود بفضل توجيهات "غيوم الثاني" التي كانت تعطى لهتلر. و بالرغم من أن حضورها في التبادلات التجارية مع المغرب كان ضعيفا: 1,43% من الواردات مقابل 1,16% من الصادرات، إلا أن مطالبها بقيت ثابتة فيما يخص تساوي حقوق رعاياها و حق فتح قنصلية في المغرب. غير أن الجنرال "نوقس" اعترض في البداية، فكانت المحاولة الألمانية الأولى و لم تكن الأخيرة.

اتضح أن الأطماع الألمانية بشكل أكثر وضوح بتدخلها إلى جانب الجنرال "فرانكو" منذ سنة 1937 عندما وصلت قوات ألمانية إلى مناطق "سبته" و "مليلية" و "لراش" من أجل تموين الوطنيين. الأمر الذي سوف يمكن للألمان من تبوء مكانة إستراتيجية في المغرب الأسباني و استعادة نشاطهم التجاري و نفوذهم السياسي هناك.² خاصة إذا علمنا أن الألمان كانوا بعيدين كل البعد عن هذه الصراعات و الأطماع بفعل فقدانهم لكل الحقوق منذ اتفاقية "فرساي". إلا أن ذلك لم يمنع الألمان من الاهتمام بالموضوع ما دام أن ذلك كان يدخل ضمن توجهات السياسة الخارجية التي عرف بها "قيوم الثاني".

إن التقارب الألماني الإيطالي و توقيع اتفاق 24 أكتوبر 1936 الذي وضع أسس محور روما-برلين، طرح مسألة الإمكانيات التي يجب توفيرها لمواجهة هذا الخطر. و قدم "دارلان"، قائد القوات البحرية الفرنسية في 27 جويلية 1937، تحليلا يظهر فيه العواقب التي سوف تنجر عن مثل هذا الاتفاق الذي سيقود إلى هيمنة إيطالية على حوض البحر المتوسط من شأنها أن تقطع على فرنسا موارد مستعمراتها، مثل التموين بالبترول. و يستحضر إمكانية هجوم مباشر على شمال إفريقيا.³

خلق التدخل الألماني في شمال إفريقيا قلقا كبيرا في الأوساط الأوروبية التي كانت تخشى أن يكون ذلك غطاءا لتمويل الوطنيين في المغرب. حيث اعتبر البعض ذلك خطوة هامة من أجل حصول الألمان على مكانة خاصة في المغرب الإسباني تمهيدا لإعادة بسط نفوذهم التجاري و السياسي في المملكة الشريفة المغربية.⁴

¹ - على الصعيد الاقتصادي يمتلك مجمع "منسمان" Mannesmann للصناعة الحديدية مصالح كبرى هناك. أما على الصعيد السياسي فكانت إرادة "غيوم الثاني" Guillaume II كبيرا ليتقمص دور الحاكم الدولي في حل النزاعات. خاصة إذا علمنا أن المغرب غني بالموارد الأولية منها: الفوسفات و الكوبالت و المولبدن، و عليه، سوف يكون محل أطماع و صراع كبير بين القوى الأوروبية: البريطانية و الفرنسية و الإسبانية و حتى الإيطالية لاحقا. لأنه يقدم امتيازات اقتصادية و إستراتيجية هامة. ينظر:

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord..., op.cit., p 29.

² - Levisse Touze (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 29.

³ - Ibid., p 38.

⁴ - Hoisington (A. William), The Casablanca Connection French colonial policy 1936-1943, University of north Carolina Press, 1984, p 140. Dans le texte original on trouve la signification suivante: "From the start of the military insurrection in Spain, the Germans where credited with seeking a privileged position in the Spanish

و كان تحذير الجنرال "موريس غاملين" من الأطماع الألمانية، في محله غداة الانتهاء من أشغال مؤتمر "ميونيخ" لسنة 1938، حيث أصبحت "الطوغو" و "الكامرون" من المناطق التي كانت تريد استرجاعها ألمانيا، و التي أخذت منها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في مؤتمر "فرساي". و قال "غاملين" بشأن ذلك: "أي تنازل في هذا الصدد سوف تكون له عواقب وخيمة في المجال السياسي، في حال نشوب الحرب، و حتى في الإستراتيجيات البرية و البحرية و الجوية... إن عودة المستعمرات القديمة بيد ألمانيا سوف يكون له الأثار المعنوية على الإمبراطورية، و سيشكل تهديدات حقيقية في المستقبل أمام الهيمنة الفرنسية."¹

4- إسبانيا طرف جديد في معادلة الحرب

ازدادت أهمية البحر الأبيض المتوسط في غضون الأحداث التي شهدتها القارة الأوروبية بعد اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية و التهديدات التي كان يشكلها إعادة احتلال "رينانيا" من طرف الألمان في مارس 1936، بالإضافة إلى رغبة الإيطاليين في الهيمنة على البحر المتوسط. الأمر الذي دفع بفرنسا إلى وضع خطة لاختياراتها الإستراتيجية المتعلقة بمنطقة شمال إفريقيا، ما دام أنها كانت تمثل خزاناً لليد النشيطة الضرورية لتخطي الأزمة المرتقبة التي تحدق بفرنسا.²

بحكم ماضيها التاريخي في حوض البحر الأبيض المتوسط و وجودها الفعلي في جزءه الشمالي الغربي، و بالتحديد على الأراضي المغربية، حيث تحتل إسبانيا أجزاء هامة من منطقة الريف و أجزاء من الجنوب في مناطق "افني" و "طرفاية"، و بعد توقف حربها الداخلية بعد صراع دام ثلاثة سنوات،³ حاولت إسبانيا دخول معترك الصراع الأوروبي للحصول على حصتها من الغنيمة.

zone, that would permit them to reestablish their commercial and even political influence in the sharifian Empire." Ce paragraphe a été traduit à l'Arabe comme suit :

- "مع بداية الانتفاضة العسكرية في إسبانيا، سعى الألمان إلى الحصول على مكانة متميزة داخل المنطقة الإسبانية بالمغرب. الأمر الذي سيسمح لهم باستعادة نفوذهم التجاري و حتى السياسي داخل المملكة الشريفة.."

¹ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 29.

² - جاءت هذه الاختيارات الإستراتيجية بسبب النقص الفادح الذي كانت تعانيه فرنسا في الجانب البشري في "المتروبول" و كانت تدرك عدم قدرته على التصدي لجيوش المحور في حال نشوب الحرب. و السبيل الوحيد الذي يسمح لفرنسا بمواجهة الخطر الداهم هو سيطرت بحريتها على طرق المواصلات في الجهة الشرقية من المتوسط، كما هو الشأن في واجهة الأطلسي، و ضرورة التحالف مع بريطانيا لمجابهة الخطر الإيطالي و الإسباني. أنظر: - Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 36.

³ - هذا المزج في العلاقة الموجودة بين حدثين و وضعيتين متباينتين نوعاً ما، قد طرحه "مشال كتالا" في أطروحة دكتوراه نوقشت في جامعة "نانت" الفرنسية و تحصل بها المترشح على تقدير "مشرف جداً". و حاول من خلال هذا العمل المقدم إبراز السياسات الفرنسية تجاه إسبانيا في محاولة للتقرب من الأسبان، لكن في نفس الوقت يعتبر ذلك مستحيلاً نظراً لعدة أسباب. لمزيد من المعلومات ينظر:

- Catala Michel, Les politiques françaises vis-à-vis de l'Espagne, rapprochement nécessaire, réconciliation impossible, janvier 1939- août 1944, in thèse de doctorat en histoire en Trois tomes, nouveau régime, soutenue le 7 décembre 1995 à Nantes, sous la direction du professeur : Nouailhat Yves-Henri de l'université de Nantes.
- Hoisington William, the Casablanca Connection French..., op.cit..., p 37.

إذن، مع دخول فرنسا الحرب و خروج إسبانيا من أزمته الداخلية لم تمضي سوى ثلاث سنوات. الأمر الذي جعل المسؤولين الفرنسيين يتسألون عن النوايا الحقيقية لإسبانيا التي باتت وضعيتها غير واضحة خاصة لما بدأت تبعت بإمدادات عسكرية إلى الجزء المحتل في المغرب.

أصبح "المغرب الإسباني" يشكل وسيلة ضغط حقيقية و سلاح في يد الضباط الأسبان المتمردين ضد سلطة حكومة الجبهة الشعبية في مدريد. و في نفس الوقت أصبح يقلق السلطات الفرنسية بفعل الدعم الذي تقدمه كل من ألمانيا و إيطاليا إلى الوطنيين هناك. فإيطاليا، مثلاً، كانت تنتظر في تعويضات هامة في "جزر البليار" لإقامة فيها قواعد بحرية و جوية إلى جانب أطماعها في "طنجة". كما أن فتح جبهة ثالثة فرنسية في هذا الجزء من الإمبراطورية قد تكون له عواقب كبيرة على قدرات الجيش الفرنسي في تحمل أعباء كل الجبهات المفتوحة. و هذا احتمال سوف يعجب الألمان حتماً، ما دام أن ذلك يصب في مصلحتهم العسكرية.¹

قدر عدد القوات العسكرية الألمانية الإيطالية، المرابطة في إسبانيا، خلال ربيع 1939 بـ 7000 ألماني و بـ 20000 إيطالي. من هنا يتجلى بوضوح التوغل الاقتصادي و العسكري الألماني داخل "المغرب الإسباني" الذي بدأت بواره الأولى تظهر منذ سنة 1937. كما أن القوات الإسبانية نفسها شهدت ارتفاعاً في صفوفها من 38000 جندي سنة 1936 إلى 45000 جندي سنة 1939. من هنا تحول المغرب بكامله إلى رهان ضمن صراعات النفوذ الأوروبية. حيث بدأت السلطات الفرنسية تشعر بالخطر المحدق على طرق المواصلات البحرية التي تربط موانئ المحيط الأطلسي بالجزائر و تونس، و بضرورة الحفاظ بقواتها الموجودة في المغرب في حال نشوب حرب، لأنه في الحالة المعاكسة لا يمكن للمغرب أن يشكل خزاناً عسكرياً لفائدة شمال إفريقيا و لا حتى للمتروبول.

اعترافاً منها بهذا الخطر، سارعت الحكومة الفرنسية إلى اتخاذ عدة تدابير إجرائية أولها، تغيير المقيم العام المدني في المغرب، "بيروتون"، بالجنرال "شارل نوقس" ² Noguès Charles الذي قضى جزء كبير من حياته العسكرية في المغرب. حيث حارب إلى جانب الأسبان خلال حرب الريف المشهورة، و يتمتع بكل المواصفات للحفاظ على الهدوء و السكينة داخل المحمية في هذه المرحلة المليئة بالتوترات.

¹ - Archives du Ministère des Affaires Etrangères, (MAE), Guerre 1939-1945, Vichy-Maroc, vol.28, rapports franco-espagnols, note établie probablement par monsieur Rochât, directeur adjoint des affaires politiques. (Cité par Levisse-Touré Christine, in L'Afrique du Nord en guerre..., op.cit., p22).

² - "شارل نوقس" جنرال فرنسي من مواليد 1876 بمنطقة "موليون مانيواك" Mauléon-Magnoac يعتبر من أتباع المارشال "ليوتي"، تقلد منصب الإقامة العامة في المغرب منذ 16 سبتمبر من سنة 1936، خلفاً للمقيم العام المدني "بيروتون". و تعتبر المغرب المحطة الأكثر أهمية في مسيرة "نوقس" حيث اشترك في حرب الريف ضد عبد الكريم الخطابي إلى جانب الأسبان. و كان من بين المعارضين لعملية إنزال الحلفاء على السواحل المغربية في نوفمبر 1942. غير أنه خضع لأوامر الجنرال "دارلان" قبل قتل هذا الأخير. ثم انضم إلى الجنرال "جيرو" الذي كان في صراع مستمر مع الجنرال ديغول. انسحب من الشؤون العسكرية و السياسية مع سنة 1943. و توفي "نوقس" سنة 1971. ينظر كل من:

- Petit Larousse Illustré, dictionnaire encyclopédique..., op.cit., p 1556.

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 37.

مع مطلع سنة 1940 أصبحت الوضعية الاقتصادية صعبة في المغرب الإسباني مما ساعد على ظهور نشاط دعائي داخل المنطقة الفرنسية جسدهته الصحيفة الإسبانية ذات التوجه الوطني "أربا إسبانيا" Arriba España التي كانت قاسية في محتوياتها على فرنسا. و بعد الانتهاء من أشغال مؤتمر "ميونخ"¹ بدأت الوضعية الإسبانية تلفت الأنظار، فسارع الجنرال الفرنسي "غاملين موريس" Maurice Gamelin² إلى تحديد خطوط السياسة المتوسطية التي عليها أن تجد حلا لمسألة إسبانيا التي أصبحت طرفا فعالا في الجزء الغربي من المتوسط، وهذا الجزء يهمنا كثيرا في سياستنا الحالية.³

أصبح الحياد الإسباني ينعت "بالحياد الغريب" نظرا لعدم قدرة إسبانيا اتخاذ القرار المناسب بشأن ما يحدث في أوروبا. حيث أقدمت على استبدال "جردانا" بالعقيد "بيغبدر" Beigbeder، الذي كان يشغل منصب محافظ سام في المغرب الإسباني. و بالرغم من هذا الانحناء نحو ألمانيا، إلا أن مجلس الوزراء الإسباني أعلن في اجتماعه المنعقد في 25 أوت باعتماد سياسة الحياد بالأغلبية الساحقة. و يبدو أن السياسة الداخلية الهشة و الوضعية الاقتصادية المزرية قد ميلت الكفة في اتجاه سياسة الحياد.

أظهر كل من "بيتان" و "نوقس" تخوفهما من هذه الأوضاع. فأصبح "نوقس" الملاحظ الأول لعملية التحضيرات العسكرية في المغرب، حيث وصل عدد الفرق إلى خمسة تضم حوالي 80000 جندي. و من جهة أخرى كان متتبعا للنهضة السياسية للوطنيين المغاربة.

مع نهاية سنة 1939، انتشرت مقالات صحفية و منشور مناهضة لفرنسا داخل المحمية، و قد اتهم بعض الوطنيين المغاربة من مدينة "تطوان" بإدخالها و توزيعها. و في المغرب الإسباني تأثرت الشبيبة المغربية بما كان يحدث في الشرق و المشرق العربي من نهضة و تجديد. فاجتمع عدد كبير من الطلبة في مدينة "نابلس" الفلسطينية، و في

¹ - أثار الخطاب الذي ألقاه "هتلر" في مدينة "نورمبرغ" الألمانية في 12 سبتمبر 1938 مخاوف الدول الأوروبية، حيث تحدث بلهجة عنيفة عن أوضاع "ألمان السوديت" و أنهم يتعرضون للتعذيب بمشاركة الحكومة التشيكوسلوفاكية، و أن ألمانيا سوف تقوم بحمايتهم... من هنا كانت بداية أزمة سبتمبر 1938 التي سوف تقود إلى انعقاد مؤتمر ميونخ بتدخل بريطاني الذي اقترح عقد قمة تضم رؤساء الحكومات الفرنسي و البريطاني و الإيطالي و الألماني و التشيكوسلوفاكي إذا أمكن ذلك. فبدأت أشغال المؤتمر في يوم 29 سبتمبر 1938 بحضور كل من: موسوليني و هتلر و دلاديه و شميرلان و غاب الممثل التشيكوسلوفاكي بسبب رفض هتلر لذلك. وفي يوم 30 سبتمبر 1938 على الواحدة صباحا تم الإمضاء على اتفاقية ميونخ التي سوف تكون لها عواقب وخيمة على دولة تشيكوسلوفاكية مستقبلا. لمزيد من المعلومات ينظر:

- Duroselle Jean Baptiste, Histoire des relations internationales de 1919 à 1945, T1, Armand Colin éditions, Paris, 2001, pp 219-225.

² - "غاملان موريس"، جنرال فرنسي ولد في باريس سنة 1872، و قد شغل منصب مساعد للمارشال "جوزيف جوفر" Joseph Joffre من 1913 إلى 1915، و قد عين قائدا للقوات الفرنسية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية من سبتمبر 1939 إلى 19 ماي 1940. و قد توفي سنة 1958 بباريس. ينظر:

- Petit Larousse Illustré, dictionnaire encyclopédique..., op.cit., p 1343.

³ - Documents diplomatiques français, 2XI, N° 389, note du 12 octobre 1938, Lasmartres 27 septembre 1938. (Cité par Levisse-Touzé Christine, In L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p23.)

"دار المغرب" بالقاهرة للمطالبة بحقوق واسعة النطاق. و اغتتم الإيطاليون و الألمان هذه المواقف المناهضة لفرنسا للترويج لسياستهم الدعائية لدى الشباب المغربي.¹

من جهته طالب الحزب الإصلاحي الوطني بقيادة "عبد الخالق طوريس" باستقلال المغرب، لكنه منقسم إلى منطقتين: منطقة يسودها حكم الخلافة و الأخرى خاضعة لحكم ملكي. و من أجل الترويج إلى هذه الفكرة اعتمد على "إذاعة تطوان" و "إذاعة أشبيلية". كما اعتمدت جريدته "الحرية"، منذ بداية النزاع الأوروبي، موقفا معاديا تجاه فرنسا. أما "مكي الناصري"، المدعم من طرف السلطات الإسبانية، و المنحدر من المنطقة الفرنسية، و زعيم حزب "الوحدة المغربية" فيرى بأن المغرب عليه أن يبقى موحدا و حرا. و روج لذلك في جريدته "الوحدة المغربية" حيث هاجم بدوره نظام الحماية الفرنسي المفروض على بلاده.²

قام بعض الجواسيس (كانوا يتحلون صفة مبعوثين أو رسل) بعملية تجنيد واسعة النطاق لدى بعض القبائل الحدودية و ذلك من أجل تدعيم جيوش الجنرال "بهاموند فرانكو"³ Franco Bahamonde الذي وعدهم بحرب تحريرية توحد المغرب من جديد و تمنح له الاستقلال. هذه الوعود سهلت توغل بعض الجواسيس الأسبان داخل المنطقة الفرنسية المتواجدة في الجنوب عبر أراضي "افني" و "ريو دي أورو".

كما أن الجالية الإسبانية الموجودة في المغرب، حوالي 20000، و المتواجدة في الجزائر، حوالي 92800 تشكل هي الأخرى مصدر قلق بالنسبة للسلطات الفرنسية.⁴ خاصة الجالية المنتشرة في القطاع الوهراني من الجزائر التي يعتبر معظمها من "الفلانجيين" Phalangistes، حيث يستفيد هؤلاء، في مدينة وهران، من الدعم الكبير للقنصل الإسباني "برنابي توكا" أما اللاجئين الأسبان من الجمهوريين فقد تم تجميعهم، بأمر من "نوقس"، في محتشدات بمدينة "غليزان" أين يشتغلون في تشييد الطرقات البرية و طرق السكة الحديدية، خاصة الطريق الذي يربط مدينة "بوعرفة" بمدينة "القنادسة".⁵

¹ - SHD, Theatre d'opérations d'Afrique du Nord, (sera cite en abrégé TOAFN), série 27N 224, note 17 755 /3 du 19 décembre 1939, du général Noguès au général Gamelin. Et voir aussi : serie 27N 222, renseignement bureau politique, « Notice sur les mouvements politiques indigènes », classé « Secret ».

² - Archives Nationales de France, série F60/819, secrétariat général de la présidence du conseil, questions communes à l'ensemble de l'AFN, questions politiques, bulletin d'information N°3, situation du 1^{er} au 8 septembre 1939. Et voir aussi : Julien Charles André., L'Afrique du nord en marche., op.cit., pp 188-189.

³ - هو الجنرال "فرانسيسكو بهاموند فرانكو" Francisco Bahamonde Franco، رجل دولة إسباني، ولد في منطقة "الفيرول" El Ferrol سنة 1892. قضى فترة طويلة في المغرب من سنة 1921 إلى 1927. تزعم الحركة الوطنية في إسبانيا بداية من 1936 و التي تمكنت من بسط نفوذها على البلاد بعد حرب أهلية دامية دامت ثلاثة سنوات انتهت سنة 1939 بانتصار جيوش الجنرال "فرانكو" الذي أقام في إسبانيا حكومة مطلقة و أصبح بذلك القائد الأعلى لإسبانيا التي عرف فيها باسم "كوديليو" Caudillo. عرفت فترة حكمه بالديكتاتورية المطلقة في إسبانيا. و في سنة 1969 عين "خوان كارلوس دي بوربون" ليخلفه في الحكم بصفة ملك. توفي سنة 1975 بعد مرض طويل. أنظر:

- Petit Larousse Illustré, dictionnaire., op.cit., p 1343.

⁴ - ANOM, série, 1H38, propagande Allemande et Espagnole 1938-1944, extrait d'une feuille d'information quotidienne, N° 254 du 14 mai 1940, émanant du service général de l'information en Algérie donne 45000 sympathisants concentrés à Oran.

⁵ - SHD, TOAFN, série 27N218, dossier N°1, bulletin d'information du 2ème bureau, B.R N° 39 du 14 février 1940, émanant du service général de l'information en Algérie.

- Et série 27N194, dossier N°2, note du général Noguès N°18, cabinet au président du conseil, Ministre des affaires étrangères, note faisant suite à une communication du maréchal Pétain du 28 février 1940. Voir aussi :

تسارعت الأحداث من الجانب الإسباني بداية من شهر أبريل 1940، عندما شهدت منطقة المغرب الإسباني إمدادات عسكرية واسعة النطاق شملت ما بين 13000 إلى 15000 جندي، و عتاد حربي متطور يتشكل من 15 وحدة للمدفعية المضادة للطيران و عتاد مضاد للدبابات و سلاح متطور لوحدة المشاة. كما وصل عدد قوات الاحتلال الإسبانية في هذا الجزء من القارة الإفريقية إلى 100000 جندي إسباني متمركزين على طول الشريط الحدودي و السواحل الممتدة ما بين مدن تطوان، سبتة و طنجة.

طلب المارشال "بيتان"، الذي كان يشغل منصب سفير فرنسي لدى إسبانيا، من الجنرال "نوقس" توخي الحذر و التحلي باليقظة في نفس الوقت، لأنه لا توجد هناك معلومات دقيقة حول هذه التحركات. غير أن الموقف الإسباني ما زال غامضاً، خصوصاً إذا علمنا أن "فرانكو" كان دائماً عي علاقات طيبة مع إيطاليا.¹

في هذه الظروف المتوترة عين المارشال "بيتان" من طرف "بول رينود" في 18 ماي 1940 ليشتغل منصب نائب رئيس المجلس و خلفه في مدريد على رأس السفارة الفرنسية "روبير رونوم دي لا بوم" Robert Renom De La Baume. في 12 جوان 1940، وبعد إعلان إيطاليا دخولها الحرب ضد فرنسا، بعث الملحق العسكري بالسفارة الفرنسية في مدريد إلى وزارة الدفاع في بلاده البيان الإسباني التالي: "بسبب توسع الحرب إلى حوض البحر المتوسط، فإن الحكومة الإسبانية قد قررت التزام الحياد تجاه الطرفين المتنازعين."²

- ANOM, GGA, 8cab/106, correspondance du General Nogues au G.G d'Algerie., 1940.

¹ - يبدو أن التقارب الإسباني الإيطالي طغت عليه العلاقات الوطيدة التي كانت تجمع "فرانكو" و "موسوليني" لدرجة جعلت الفرنسيين يخشون أن تقدم إسبانيا تنازلات إقليمية لفائدة إيطاليا. لمزيد من المعلومات ينظر:

- SHD, Fonds attaché militaire - Espagne-(sera cite en abrégé FAM), série 7N 2756, lettre du 23 avril 1940 du MAE signée par le sous-directeur de la section Europe, Hoppenot au général Noguès se fondant sur la lettre du 19 avril de Pétain.(Cite par Levisse-Touzé Christine, In L'Afrique du Nord dans la guerre., op.cit., pp 23-24)

² - في حقيقة الأمر هذا الإعلان لم يكن بمثابة اتخاذ "الحياد" بمفهومه الذي كانت تريده فرنسا، لأن الأسباب أمام فرصة تاريخية للحصول على تنازلات فرنسية هامة في كل أراضي المغرب، و عليه لا بد من الضغط على الطرف الفرنسي و تخويله من إمكانية الالتحاق بدول المحور في حال تأزمت الأوضاع. كما صرح "بيغبيدر" بأنه موافق على عدم دخول بلاده هذا النزاع و لكن مقابل بعض التنازلات. إلا أن تطور السياسة الإسبانية كان واضحاً نحو التكتيف من الصناعة الحربية و عودة المطالب الإقليمية إلى الواجهة من جديد. بالإضافة إلى أن العملية التي تم بها نشر البرقية الإسبانية توحي بأن هناك خلل كبير داخل أجهزة الدولة الفرنسية التي ماطلت في إعلان الخبر. لمزيد من المعلومات ينظر:

- SHD, FAM- Espagne-, série 7N 2756, télégramme chiffré N° 102, envoyé de Madrid par l'attaché militaire au ministère de la guerre, le 15 juin à 13 h 14, reçu le 18 juin à 2 h 15, diffusé le 18 à 7 h.

تسارعت الأحداث بين القوى المتصارعة. ففي ليلة السابع عشر إلى الثامن عشر جوان احتلت القوات الإسبانية مواقعها على الحدود مع فرنسا، و في اليوم الموالي أطلع "هتلر" بالنوايا و الأطماع الحقيقية للجنرال فرانكو على منطقة الغرب الجزائري و على المغرب الفرنسي، و على استعداداته لدخول الحرب إلى جانب دول المحور. كما أن مطالب إسبانيا التوسعية جاءت بواسطة سفيرها "ليكيريكا" Lequerica، الذي بعث إلى الحكومة الفرنسية يطالبها بالتنازل عن مناطق قبائل "بني زروال" الواقعة في شمال مدينة "فاس"، و أراضي "بني سناسن" الواقعة شرق مدينة "وجدة". غير أن الرد الفرنسي جاء عنيفا عن طريق الجنرال "نوقس" الذي صرح: "أنه أي تنازل عن الأراضي لفائدة إسبانيا، و بدون خوض المعارك، يعتبر مهينا لفرنسا. و سيسبب ذلك، بعد احتلال مدينة طنجة، جرح عميق للسلطان و الشعب المغربي. و ستنتقل البنادق من جديد و حينها.. ملزمون بنصرة كل القبائل المنتشرة في التراب المغربي خوفا من أن ينقلب علينا كل سكان المغرب..¹"

اعتمدت إسبانيا على دعاية نشطة داخل القبائل الحدودية، لتقدم مطالبها، حيث وصلت رسالة لشيخ "تازوقارت" في 18 جوان تطلعه بدخول وشيك للقوات الإسبانية في المنطقة الفرنسية، و تطلب منه التوجه إلى مناطق مجاورة تفاديا لمصادرة أملاكه.² نفس الوضعية عاشها شريف زاوية "بوبريب" الذي نزل عند طلب شيخ زاوية "بني أحمد" و انتقل إلى المنطقة الإسبانية في المغرب خوفا من مصادرة أملاكه هو الآخر. غير أن رد فعل فرنسا جاء عنيفا فأقدمت على تحطيم و تخريب كل ممتلكات شيخ زاوية "بوبريب".

أصبح السلوك الإسباني يطرح العديد من التساؤلات من خلال موقفه الغامض: هل فرانكو كان يفكر مليا في استعطاف هتلر ليمنحه جزء من طموحاته الاستعمارية ؟ لأنه كان جاهزا لمهاجمة جبل طارق بمساعدة عسكرية ألمانية. غير أن هتلر تغاضى عن ذلك و لم يعقب. أم أنه وضع السقف عاليا حتى يكون متأكد من رفض هتلر، و بالتالي تسهل عليه مهمة التزام الحياء ؟ و في هذه الحالة حتى يتفادى غضب هتلر إذا ما كان القرار من عنده. أم أن المشاكل الاقتصادية هي التي فرضت في النهاية منطق عدم التدخل في الأزمة و بالتالي تكسب إسبانيا على جبهتين: جبهة داخلية تلملم الجراح و تحاول إعادة بناء ما خربته الحرب الأهلية. و جبهة خارجية تساعد على بسط نفوذها أمام الضعف الكبير الذي أبدته فرنسا منذ البداية في تعاملها مع هذه الأزمة. الأمر الذي جعل العقيد "بيغيدر" يصبر لدى "دي لا بوم روبير" من أجل حصول إسبانيا على تنازلات إقليمية في شمال إفريقيا، مضيفا: "الأفضل لكم أن تمنح هذه الأراضي لإسبانيا و ليس لألمانيا..³"

- SHD, TOAFN, serie 27N 194, journal de marche du général Noguès, septembre 1939-juin 1940, p 218.

- Hoisington A. William, The Casablanca Connection French..., op.cit., p 151..

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p26.

¹-SHD, TOAFN,serie 27N 194, télégramme officiel N° 59, du général Noguès du 24 juin à diplomatie.

²- SHD, Maroc, Cabinet militaire de la résidence générale, série 3H Maroc, 3H159, bulletin de renseignements politiques et économiques du 23 au 29 juin 1940. Le Caïd Messaoud Ould El Hadj Ali des béni Khaled, tribu voisine en zone Espagnole, avait envoyé cette lettre.

³- Roux (François Charles), Cinq mois tragiques aux affaires étrangères 21 mai- 1^{er} novembre 1940, éditions Plon, Paris, 1949, pp 195-225.

5 - قضية احتلال طنجة و الأزمة الأوروبية الجديدة جوان 1940

تجددت الأطماع على منطقة طنجة مع مطلع شهر أوت من سنة 1940 بعد الهزيمة الفرنسية أمام الجيوش الألمانية. الوضع الذي استغله الجنرال "فرانكو" للاستيلاء عليها محاولا السيطرة على نقطة حساسة على سواحل المتوسط ليكون بذلك قد وضع يده على نقطة إستراتيجية في المنطقة.¹

احتلت مسألة "طنجة" الأولوية في اهتمامات القيادة العليا الفرنسية و الحكومة البريطانية، خصوصا بعد دخول إيطاليا الحرب. و حذر الجنرال "نوقس" حكومة مدريد من خطر احتلال مدينة طنجة دون مشاركة فرنسية أو دون استشارة فرنسية. "لأن ذلك سوف يكون بمثابة فقدان فرنسا لهيبتها الكبيرة أمام السلطان المغربي و السكان الأهالي.."

حاولت إسبانيا استغلال كل الظروف القاسية التي كانت تمر بها فرنسا جراء هزيمتها أمام الألمان، لتعود إلى الواجهة كدولة استعمارية تحاول استرجاع ما ضاع منها. غير أن الطابع "الدولي" الذي كانت عليه طنجة هو الذي جعل مشروع "فرانكو" يتوقف بالرغم من المظاهرات التي قام بها أنصار الحزب الفاشي في إسبانيا مطالبين بحكومتهم بضم المناطق التي كانت خاضعة للحكومة الفرنسية ما دام أنها قد انضمت و هي غير قادرة على حماية مستعمراتها.²

كما أن وضعية مدينة طنجة بقيت على حالها منذ فترة ما بين الحربين.³ أما الحكومة البريطانية فكانت ضد فكرة التدخل و شن هجوم عبر جبل طارق و اقترحت على فرنسا أن تهاجم المغرب الإسباني و تبعث هي بقوة إلى طنجة مع إشراك إسبانيا في العملية.⁴

دخلت القوات الإسبانية مدينة طنجة يوم 14 جوان 1940، و قام الجنرال الإسباني "أسونسيون"، الذي كان يشغل منصب محافظ مقيم في المغرب الإسباني، بإبلاغ القنصل الفرنسي في مدينة تطوان، و مسؤول الإدارة

¹ - لقد بقيت منطقة وحدة طيلة فترة الحرب العالمية الثانية تحت الأطماع الإسبانية و تحت رحمة شهوات الجنرال "فرانكو"، الذي لم يرجعها للإدارة الدولية إلا بعد الإمضاء على هدنة سنة 1945. لمزيد من الشروحات ينظر إلى:

- Benachenhou Abdellatif, Connaissances du Maghreb..., op.cit., p 207.

² - يرى "علال الفاسي" أن "فرانكو" قد وقع تحت تأثير أنصاره حيث سمح للألمان بالتدرب في المنطقة الخليفية و احتلال بعض الموانئ المغربية. أنظر: - الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص 268.

³ - أبرمت في هذا الصدد اتفاقية سنة 1923 بين فرنسا و بريطانيا و إسبانيا، أعطت للطرف الفرنسي صلاحيات واسعة في عملية الحماية على هذه المدينة، كما وضع مندوب السلطان المغربي و الإدارة الأوروبية التي عينت لمدة ست سنوات، تحت تصرف الإدارة الفرنسية. و غيبت إيطاليا من هذه الاتفاقية. و انتظرت إلى غاية سنة 1928 لتشارك في فريق شرطة المنطقة. و لما تم تجديد الاتفاقية سنة 1935، أسند منصب إدارة المدينة إلى إسبانيا، غير أن ظروف الأزمة الداخلية الإسبانية حالت دون تنفيذ هذه القرارات. و عادت المسألة من جديد لتطرح نفسها بشدة مع حلول سنة 1939 عندما تم الاعتراف بحكومة الوطنيين بقيادة الجنرال "فرانكو" الذي كانت أطماعه واضحة على كل الجزء الغربي من شمال إفريقيا. غير أن دخول إيطاليا الحرب ألغى الاتفاق الرباعي المبرم سنة 1928، مما دفع بالجنرال "نوقس" أن يقترح العودة إلى الأوضاع التي أقرها مؤتمر "الجزيرة" و ذلك بوجود قوة فرنسية و أخرى إسبانية متساوية تقريبا... لمزيد من المعلومات ينظر:

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., pp 26-27.

⁴ - SHD, Maroc, série 3H159, bulletin de renseignements politiques et économiques du 9 au 15 juin 1940.

الفرنسية في طنجة، بتدابير الاتفاق الذي حصل بين الحكومة الفرنسية و الإسبانية بشأن هذه الوضعية، و أنها ظرفية لمساعدة القوات الدولية فقط. و ذلك حتى يرفع كل التباس حول النوايا الحقيقية للحكومة الإسبانية.¹ أفلقت هذه الوضعية الجديد الحكومات البريطانية و خاصة الفرنسية التي كانت تمر بفترة عصيبة جدا بفعل احتلال القوات الألمانية لعاصمتهم باريس في نفس اليوم، الأمر الذي جعل مسألة طنجة تمر إلى المرتبة الثانية في اهتمامات فرنسا. و من أجل حفظ ماء الوجه قررت السلطات الفرنسية تسوية الحالة الجديدة دبلوماسيا و قبلت بمبدأ هذا الاحتلال الظرفي الذي سماه الأسبان كذلك.

أما السفارة البريطانية في مدريد فكان رد فعلها عنيف. و في نفس الوقت تظاهر عدد كبير من الوطنيين المغاربة أمام القنصلية العامة الفرنسية في مدينة تطوان. و يبدو أن "فرانكو" لم يخلق هذه العملية، بل بالعكس من ذلك فقد دبرت العملية منذ أبريل 1940 عندما بدأت إسبانيا توسع من قدراتها العسكرية في المغرب الإسباني،² لذلك بدأ الجنرال "نوقس" يخشى هجوم إسباني اسع النطاق داخل المناطق الفرنسية.

في سياق الوضع المتوتر الذي بات ينبئ بحرب جديدة بين القوى الأوروبية، سارعت قيادة أركان الجيش الإيطالي إلى تدعيم قواتها المربطة في ليبيا بأربعة فرق مشاة و اثنان من الفيالق مدعمة بحوالي 420 طائرة متركزة في عين المكان مع إمكانية إرسال قوات دعم جوية بسرعة كبيرة من "سردينيا" و "صقلية" و من جنوب الجزيرة. و في المقابل جهزت القوات الفرنسية في الجنوب التونسي ستة فرق، كحد أدنى، استعدادا لهجوم مضاد في طرابلس الغرب.³

مع مطلع شهر ماي من سنة 1940 زادت حدة التوتر بين الدول الأوروبية، فحاول المقيم العام الفرنسي بتونس، الجنرال "نوقس"، إطلاع حكومته بالتحركات الإيطالية المتمثلة في مغادرة أعضاء بارزين في الحزب الفاشي و كذا موظفين في القنصليات لشمال إفريقيا حاملين معهم كل الأرصدة الإيطالية بعدما قاموا بإتلاف الأرشيف الدبلوماسي الذي كان بحوزتهم.⁴

¹ - SHD, TOAFN, série 27N194, télégrammes N° 47-48 du général Noguès du 14 juin 1940 destiné au MAE.

² - SHD, Maroc, série 3H159, bulletin de renseignements..., op.cit. Et voir aussi :

- Catala Michel, Les politiques françaises vis-à-vis..., op.cit., pp 337-342

³ - حسب الجنرال "نوقس"، هذه القوات غير كافية مقارنة مع القوات الإيطالية التي وصلت في ربيع 1940 إلى 13 فرقة مشاة تضم 280000 جندي. كما أفادت مصادر المكتب الثاني بأن الإيطاليين كانوا على استعداد للحرب في ليبيا و تونس منذ شهر مارس 1940. حيث قاموا بتجنيد الإيطاليين القادرين على حمل السلاح و كذا عدد المدارس التي يمكن تحويلها إلى مستشفيات في حالة الضرورة. كما أن القيادة العليا الفرنسية اعتبرت هجوم إيطالي مشترك على كل من مصر و تونس وارد، خاصة على المنطقة المؤمنة "ماريت" مشتركة مع محاولة إنزال في "بنزرت". لمزيد من المعلومات ينظر:

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p19.

- SHD, TOAFN, serie 23N 226, note N° 31 134 du général Noguès, datée du 23 avril 1940.

- SHD, Etat-major, section d'Afrique, série 7N3434. Note d'ensemble du 31 mars 1939 de l'Etat Major d'Afrique sur la situation internationale, le problème stratégique et la conduite à observer en temps de guerre.

⁴ - SHD, TOAFN, 27N 226, note du 19 mai 1940 du général Noguès au général commandant en chef les forces terrestres.

أوضح الملحق العسكري بالسفارة الفرنسية بإيطاليا الجنرال "باريزو" Parisot، أن موسوليني لم يعد يخفي للشخصيات التي كان يستقبلها قراره بدخول هذه الحرب، خاصة إذا سلمنا بأن هناك اتفاق قد وقع بين الألمان و الإيطاليين بشأن شمال إفريقيا التي سوف تعود للإيطاليين. هذا ما يفسر لنا ارتفاع حدة التوتر بين فرنسا و إيطاليا منذ شهر ماي 1940. فحذر "باريزو" قيادته العليا من الإيطاليين المتمركزين في تونس و المستقرين على السواحل لأنها تمثل أماكن ممتازة لعمليات إنزال على التراب التونسي.

كثفت إيطاليا من برامجها الدعائية عن طريق "إذاعة باري" Radio-Bari، التي كانت تلتقط برامجها بسهولة في شمال إفريقيا، و وجهت حملتها هذه نحو فرنسا. و لم يبقى أمام موسوليني إلا أيام ليستكمل عملية التسليح و التجهيز التي خص بها ليبيا، ليعلن بعدها دخول إيطاليا الحرب رسميا في 10 جوان 1940. هذا الإعلان دفع بالجنرال "نوقس" إلى إصدار بيان موجه للسكان الإيطاليين في تونس جاء فيه ما يلي: "تعتزم فرنسا القضاء على العمود الخامس. و على الإيطاليين المخلصين أن يعرفوا بأنه من التزم بالطاعة لأوامر السلطة القائمة لا يخشى شيئا. أما الذين يحاولون المساس بالأمن العام و بالقوات الفرنسية فأولئك سوف يلقون عقابا دون رحمة و لا شفقة..."¹ في 15 جوان 1940، تم تجميع 15960 إيطالي في معتقلات تونس، و 466 في الجزائر و 2333 في المغرب.² وهكذا احتلت تونس مكانة متنامية في الانشغالات الإيطالية. و هنا يمكن القول أنه منذ ظهور الفاشية إلى إعلان الحرب في جوان 1940 لم تتمكن الحكومة الفرنسية من إقناع الإيطاليين بعدم خوض غمار الحرب.

6- التحالف الفرنسي- البريطاني لمواجهة التحديات الجديدة

شهدت سنة 1938 نهاية الاتفاقيات الفرنسية الإيطالية، حيث تيقنت الحكومة الفرنسية من ضعف إمكانياتها للدفاع عن شمال إفريقيا، فكانت بحاجة ماسة إلى التحالف مع بريطانيا. و استغل "دلاديه" زيارته إلى "لندن" في أبريل 1938 ليطلب من الجنرال "كولسون" Colson، دراسة أهمية المنطقة: إسبانيا-المغرب و إسبانيا-جزر البليار في حالة عمليات محتملة في البحر المتوسط. و كان يريد من الحكومة البريطانية التزام صريح و دعم بحري في المتوسط. غير أن الموضوع كان في غاية الصعوبة و الحساسية ما دام أن البريطانيين كانوا قد وقعوا على اتفاقية بحرية مع إيطاليا في 16 أبريل 1938، و المعروفة عند المؤرخين "باتفاقية القيامة" أو (عيد الفصح) Les Accords de Pâques. و هم ليسوا على استعداد لإجراء أي تغيير في البحر المتوسط. و من جهتها سوف تواجه شمال إفريقيا، بإمكانيات محدودة، حرب طويلة المدى.³

¹ - ANOM, Presse nord-africaine, La dépêche algérienne, du 11 juin 1940... (Petite coupure de journal faisant état de l'appel de Noguès).

² - SHD, TOAFN, série 27N 200 et série 27N 222, du 16 juin 1940, note pour le secrétariat de la défense nationale en Tunisie.

³ - SHD, état-major de l'Afrique du Nord, carton N° 7, note sur l'importance de l'ensemble : Espagne, Maroc espagnol.

غداة مؤتمر "ميونخ" قررت الحكومة الفرنسية دعم تواجدها في منطقة البحر المتوسط، رغم توجه السياسة الألمانية نحو نفس الهدف، و بدعم من بريطانيا. و عليها أن ترفع من قواتها الجوية، و مواصلة برنامجها للتسليح و الصناعة البحرية و توجيه جهودها نحو الموانئ. كما ألح الجنرال "بوهمر" Buhrer، قائد أركان جيوش المستعمرات، على ضرورة إنشاء صناعات حربية في كل أرجاء الإمبراطورية.

إن المطالب الاستعمارية التي أعلن عنها البرلمانون الإيطاليون في 30 نوفمبر 1938، لم تترك أدنى شكوك حول النوايا الحقيقية لإيطاليا، الأمر الذي جعل الحكومة الفرنسية تدرك ضرورة تدعيم إمكانياتها العسكرية في شمال إفريقيا فورا. لأن الأطماع الإيطالية في تونس، و تدعيمها لقدراتها العسكرية في ليبيا، أثارا حفيظة الحكومة الفرنسية فجاء رد فعلها سريعا متمثلا في الزيارة التفقدية التي قام بها "دلاديه" رفقة كل من "دارلان" و الجنرال "جورج" إلى "كورسيكا" و تونس، و التي كان لها قيمة رمزية مفادها أن فرنسا لن تقبل بأي هجوم، مهما كان، على سيادتها في شمال إفريقيا. و بعد توقف في جزيرة كورسيكا صرح: "إن جزيرتكم هي الرابط الطبيعي بين المتروبول و شمال إفريقيا.."

خلال زيارته لتونس في 3 جانفي 1939، توجه للباي التونسي في قصر "باردو" بهذه الكلمات المعبرة: "إن العلاقات الوطيدة بين فرنسا و تونس... و وحدة شمال إفريقيا الشمالية، و وحدة فرنسا و وحدة إمبراطوريتها و أنها سوف تدافع عليها ضد أي عدوان خارجي.."¹ كما حضيت زيارة "دلاديه" إلى تونس و الجزائر باهتمام كبير من طرف الصحافة في شمال إفريقيا و في الخارج خاصة في إسبانيا.²

وجهت تعليمة إلى الجنرال "نوقس" مباشرة بعد نهاية الاجتماع،³ الذي جمع قادة قيادة الأركان في 17 فبراير 1939، و التي تؤكد الخطر الإيطالي المحدق على شمال إفريقيا. لأن إيطاليا أقدمت على تحضيرات عسكرية مكثفة مما أقلق الحكومة الفرنسية التي كانت تخشى هجوم إيطالي كبير على كل شمال إفريقيا. فحملت البرقية الموجهة إلى "نوقس" تحذيرا ضد أي هجوم إيطالي محتمل يكون مدعم بالطيران. كما عادت قضية المدد العسكري الإيطالي في ليبيا مرة أخرى في جدول أعمال اللجنة الدائمة للدفاع الوطني المنعقدة في 24 فبراير برئاسة "دلاديه".

مع ظهور معطيات إستراتيجية جديدة في البحر المتوسط، اتضح للمسؤولين الفرنسيين أنه لا بد من تحويل التفاهم مع بريطانيا إلى تحالف حقيقي. لأن فرنسا بإمكانياتها المحدودة لن تقوى على السيطرة على البحر المتوسط دون مساعدة بريطانية التي ستكون دعما إضافيا لقواتها المتواجدة في شمال إفريقيا. فجاء هذا التحالف مع بداية الحرب و الهزيمة الفرنسية أمام الجيوش الألمانية، عندما صرح "بول رينود" بأنه لا فائدة من مواصلة المعركة

¹ - Bessis (Juliette), La Méditerranée fasciste – l'Italie mussolinienne et la Tunisie, Karthala éditions, Paris, 1981.

² - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane..., op.cit., p 90.

³ - وجهت هذه الرسالة في اليوم الموالي لانعقاد الاجتماع المذكور، أي في 18 فبراير 1939. ينظر:

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 41.

داخل المتروبول، و لكنه كان يتمنى أن تنقل المعركة إلى إفريقيا و داخل أرجاء الإمبراطورية و باستغلال قوة الأسطول.¹

و عليه جاء بيان الاتحاد الفرنكو- البريطاني معبرا عن رغبة شديدة في القضاء على الخطر النازي، حيث تضمن العبارات التالية: "في هذه الأوقات العصيبة من تاريخ العالم الحديث، تعلن حكومة المملكة البريطانية و حكومة الجمهورية الفرنسية عن اتحادهما الدائم و عزمهما الثابت للدفاع معا عن العدالة و الحرية ضد الخضوع لنظام ينقص من قيمة البشرية و يحطها إلى مستوى الرجال الآليين و العبيد...".²

كان الطريق المؤدي إلى هذا التحالف صعب و عسير كون بريطانيا مرتبطة مع إيطاليا باتفاق بحري الأمر الذي سهل لها إرسال عدد من سفنها نحو بحر الصين. كما يمكننا القول بأن الأهداف البريطانية و الفرنسية، في هذه المرحلة بالذات، كانت متباينة.³

مع بداية شهر فبراير 1939 استأنفت المحادثات الفرنسية البريطانية، و شملت هذه المرة إدراج كل مناطق العمليات، خاصة منها مناطق البحر المتوسط و الشرق الأوسط، لتفضي إلى وضع مخططات مشتركة في حال دخول الحرب ضد ألمانيا و إيطاليا. و كانت الأزمة "التشيكوسلوفاكية" في مارس 1939، هي التي أنعشت التعاون بينهما و ساهمت في إذابة كل الخلافات السابقة.

استقبل الأميرال "دارلان" بارتياح كبير هذا الموقف، باعتبار أنه كان مخول بالتعامل مباشرة مع البحرية البريطانية فيما يخص العمليات البحرية، غير أنه كان متأكدا بأن المسألة البحرية بين البلدين لن تحل بهذه السهولة حيث صرح: "لا تعتمدوا كثيرا على الأسطول البحري البريطاني لحماية طرق مواصلاتكم. لأن أزمة سبتمبر

¹ - Churchill (Winston), Mémoires, La deuxième guerre mondiale, TII, VI, L'heure tragique : La chute de la France, Plon éditions, Paris, 1949, pp 237-239.

² - Ibid., pp 237-239.

³ - شهدت المدة القصيرة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية نوع من الفتور في العلاقات البريطانية الفرنسية بسبب الموقف الغامض لبريطانيا تجاه الأزمة الفرنسية الإيطالية بسبب ما ذكرته المصادر بـ "اتفاق الصفح" و الذي سبقه نوع من إذابة الجليد بين إيطاليا و بريطانيا بعدما رفعت عصبة الأمم العقوبات على إيطاليا سنة 1936.. أما بريطانيا فكانت مستعدة إلى تغيير نشاطها البحري في المحيط الهندي و الشرق الأقصى نحو منطقة الرأس في حال دخولها في حرب مع إيطاليا. هدفها هو التكتيف من قواتها البحرية في الأطلسي و في بحر الشمال من أجل حماية مصالحها الحيوية. أما بخصوص فرنسا، فهي تسعى دائما إلى حماية مركزها و مصالحها السياسية و الاقتصادية في الجزء الغربي من المتوسط. و استراتيجية القيادة العليا الفرنسية واضحة في هذا الشأن و هي مبنية على تحطيم إيطاليا و الحفاظ على طرق المواصلات عبر البحر المتوسط لنقل العشرات من فيالقها القادرة على تغطيه كل الحدود المتروبولية. و هنا نتساءل: لماذا لم تقدم بريطانيا منذ الوهلة الأولى إلى دعم الموقف الفرنسي ما دام أنها كانت تدرك بأن علاقاتها مع إيطاليا لن تدوم بالرغم من وجود الاتفاق المذكور ؟ لأننا نلاحظ من مواقف الدولتين أن كلاهما كان متخوف من إيطاليا لدرجة جعلت هذا الخوف ينعكس سلبا على العلاقات الفرنسية البريطانية قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. لمزيد من المعلومات ينظر كل من:

- Duroselle Jean-Baptiste, Histoire des relations internationales..., op.cit..., pp 204-205.

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 43.

1938، واضحة بما فيه الكفاية، فقد أظهرت أن بريطانيا زيادة على طلبها مساعدة كبيرة من الأسطول الفرنسي في الأطلسي، فهي تطلب من الأسطول الفرنسي الحفاظ على المتوسط...¹

استأنفت المحادثات في اجتماع لندن في 27 أبريل 1939، الذي ضم قيادات أركان البلدين، و أصبحت المحادثات أكثر جدية بين الطرفين حيث وضعت في الحسبان الإجراءات التقنية للتعاون المشترك مثل: تبادل الرموز وتحديد مناطق نفوذ كل دولة. ففرنسا أخذت على عاتقها الجزء الغربي من المتوسط بما فيه "قناة صقلية"، أما البحرية البريطانية فقد أسندت إليها الجهة الشرقية من البحر المتوسط. أما حماية أمن مضيق جبل طارق فكانت تحت قيادة القوات البريطانية التي وجدت صعوبة في حماية كل الممر، و مع ربيع 1939، تراجع القوات البريطانية و لم تكن قادرة إلا على حماية مدخل المضيق فقط في الخط الممتد غربا ما بين: ترافالقار-رأس سبا رتل Trafalgar-Cap Spartel في المغرب، و شرقا جبل طارق Gibraltar.

أما فرنسا فكان عليها الحفاظ على وحدة من أسطولها في المحيط الأطلسي من أجل توفير الحماية لقواتها من مستعمراتها في إفريقيا الغربية، و لجنودها من المغرب و الجزائر في حال ما إذا تعذر إيصالها عن طريق طرقها في البحر المتوسط. و أصبحت البحرية الفرنسية المسؤولة المباشرة على نقل القوات إلى شرق الخط الرابط بين "سان فانسان"- "الدار البيضاء" Saint-Vincent-Casablanca، بالاشتراك مع قيادة القوات البحرية لشمال الأطلسي، و مع البحر المتوسط من جهة "الإسكندرية" و "مالطا" Alexandria-Malte.²

أصبحت مناطق نفوذ كلا الدولتين في البحر المتوسط واضحة المعالم بعد قمة مالطا في 27 و 28 جويلية 1939، حيث حددت من الجانبين على طول الخط الممتد من "أجر جنت" Agrigente في "صقلية" إلى "مسرطة" Misurata الليبية. و في اللقاء الذي جمعهما في مدينة "بورثسموث" Portsmouth الإنجليزية في 8 أوت 1939، وافق كلا من الأميرالين: "ديديلي بوند"³ Dudley Pound و "دارلان" على الخطة المرسومة آنفا، و التي لا تتوقع هجمات بدقة متزامنة، و لكنها "موحدة وفق مدة قصيرة".

كما أن جزيرة "مالطا" بقيت الحارسة البريطانية الوفية، منذ عهد "نلسن" Nelson، للممر الضيق و الهام للجزء الأوسط من بحر المتوسط. و قد زادت أهمية هذه الجزيرة مع بداية الحرب العالمية الثانية، حيث كانت احتياجات الجيوش البريطانية كبيرة و كان عليهم تأمين حركة مرور فيه و منع إمدادات العدو من أن تصل إلى طرابلس.⁴

¹ - Coutau-Bégarie (Hervé) et Huan (Claude), Darlan, Fayard éditions, Paris, 1989, p 146.

² - Levisse-Touzé (Christine), L'AFN et la défense nationale..., thèse de 3eme cycle.. Op.cit., pp 218-223.

³ - ولد "السير" ألفريد دودلي في 29 أكتوبر من سنة 1877، شارك في الحرب العالمية الأولى كضابط في البحرية الملكية و قائد للسفن الحربية. حيث خاض معركة "جوتلان" Jutland بنجاح كبير مساهما في إغراق الطاردة الألمانية "ويسبادن" Wiesbaden. شارك خلال السنين الأربعة الأولى للحرب العالمية الثانية "كلورد أول للبحر" Premier Lord de la mer على رأس البحرية الملكية. و تمثلت أكبر إنجازاته في الحملة التي انتصر فيها على السفينة الألمانية U-boat في معركة الأطلسي. و نظرا لظروفه الصحية اضطر إلى الاستقالة في نهاية سنة 1943. أنظر:

-<http://www.historyofwar.org/articles/people-pound-dudley.html>

⁴ - Churchill (Winston), Mémoires, La deuxième guerre mondiale, TIII, V1, La Grande alliance : La Russie envahie , 1^{er} janv.-22 juin 1941, éditions Plon, Paris, 1950, p 56.

أيضا، لا يمكن للغواصات البريطانية مراقبة القواعد الإيطالية نظرا لنقصها العددي. و نقص الطائرات العصرية لا يسمح للإنجليز من ضمان ودعم الغارات التي سوف تقوم بها البحرية الحربية. الأمر الذي جعل "دارلان" يجزم في النهاية بقوله: "لا توجد قوات كافية في البحر المتوسط... لقد ركز الإنجليز القسط الكبير منها في منطقة "المانش" La Manche و في "بحر الشمال" La Mer du Nord، ما قد يصعب من مهمة القضاء على القوات الإيطالية...".¹

إلا أن الإنجليز كانوا عازمين على فرض سيطرة على البحر المتوسط في حال ما إذا دخلت إيطاليا الحرب ضدهم. و اعتبروا أن ذلك سيجعل منها عدوا، و سوف توجه كل قواتهم نحو البحر الأبيض المتوسط. و كان "تشرشل" من الرافضين لفكرة التخلي عن البحر المتوسط منذ البداية، لأنه كان يظن بإمكانه التحكم و السيطرة على طرق البحر الأبيض المتوسط حتى بدون مساعدة البحرية الفرنسية.²

بالموازاة مع هذه التطورات، حظيت مسألة التعاون في مجال الدفاع البري بين الإمبراطوريتين باهتمام كبير في مؤتمر "الرباط" الذي انعقد في المغرب من 4 إلى 5 ماي 1939، حيث جرت لقاءات بين قيادات الأركان المشتركة للنظر في كيفية تسيير العمليات العسكرية من المستعمرات. غير أن الجنرال "أيرونسايد" Ironside، حاكم جبل طارق، و الجنرالين "نوقس" و "تيتي" Têtu، اعترفوا بنقص إمكانياتهم على أرض الواقع.³

أصبحت المسؤولية ملقاة على عاتق القوات الفرنسية في شمال إفريقيا، بينما كانت القوات البريطانية مسموح لها بالتمركز بجوار قناة السويس بعدد لا يتجاوز 10000 جندي، لأن مصر حينها كانت دولة مستقلة بموجب اتفاقية 26 أوت 1936. غير أنه كان بإمكان بريطانيا رفع عدد قواتها في مصر و السودان بداية من شهر أوت 1939 تفاديا لدعم عسكري بري غير مؤكد.

فيما يخص القوات الجوية، فقد حدد اجتماع القاهرة المنعقد في 15 أكتوبر 1939 تعاون القوات الجوية المتحالفة. بقي فقط على قيادات أركان الحلفاء ضبط توحيد العمليات انطلاقا من مصر و تونس. و بمجرد بداية الحرب، الشروع في ضرب القوات الجوية الإيطالية المربطة في الشمال الشرقي من ليبيا بالقرب من مدينة "بنغازي". أما وحدات القصف الجوي فكانت غالبيتها منتشرة في الجزء الغربي من مصر الذي كان يعتبر منطقة أساسية في الشرق الأوسط. بقيت مسألة مالطا التي أقلقت كثيرا فرنسا باعتبار أنها كانت هدف سهل بالنسبة

¹ - Masson (Jean. Philippe), « La Marine Française et la stratégie alliée 1938-1939 », communication présenté au colloque franco-allemand tenu à Bonn en Allemagne, en septembre 1978, pp 14-15. (In IREMAM).

² - Churchill (Winston), Mémoires, La deuxième guerre mondiale..., La drôle de guerre..., op.cit., p 13.

³ - في الواقع القضية ليست مشكلة إمكانيات بقدر ما هي مسألة توزيع المهام و الصلاحيات و مسألة ثقة بين الدولتين في مناطق حساسة و إستراتيجية، أين توجد لهما مصالح كبيرة. فنلاحظ أنه منذ الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية، و يمكن تحديدها بداية من 1929 و ظهور الأزمة الاقتصادية مرورا بمشروع "بريان" Briand القاضي إلى إنشاء اتحاد أوروبي ثم محاولة "الأنشلوس" Anschluss الاقتصادية و قضية "منشوريا" في الشرق الأقصى، وصولا إلى نهاية عهد التعويضات الناجمة عن العقوبات التي فرضت على الدول المنهزمة في الحرب العالمية الأولى، و الدولتين تعيشان على نقيض مواقف سياستهما تجاه الخطر الإيطالي الذي كان أكثر حضورا في مناطق نفوذهما، ما جعل العلاقة بينهما لا تعرف نوع من الوضوح إلا عندما اتضح الخطر المشترك ألا و هو النازية و الفاشية. لمزيد من المعلومات ينظر:

- Duroselle Jean-Baptiste, Histoire des relations internationales., T1., op.cit., pp 135-143.

للقوات الألمانية و الإيطالية معا، الأمر الذي جعل القيادة العسكرية الفرنسية لا تنتظر الكثير من هذا الجانب و تجهز مطارات تونس لأي طارئ. غير أنها ربطت بين مالطا و تونس بخطوط جوية و اتصالات هاتفية منتظمة.¹ إن سير العمليات مبني أساسا على القوات الفرنسية المتمركزة في الجنوب التونسي لفك العزلة على الجيش البريطاني المرابط في مصر. و كان أمل قيادات الأركان المشتركة قائما على الحفاظ على حياد إسبانيا، على الأقل عند بداية المعارك، من أجل السماح للقوات الفرنسية بشن هجوم واسع على طرابلس الغرب. أما مسألة "طنجة" و "جبل طارق" فبقيت معلقة إلى حين، نظرا لنقص الإمكانيات العسكرية.²

بدخولهما الحرب في 3 سبتمبر 1939 جنبا إلى جنب، اتضح جليا أن فرنسا و بريطانيا قد وضعتا خلافهما جانبا، للتصدي للتحديات الجديدة التي فرضتها ألمانيا النازية على القارة الأوروبية. و أنهما لم يعبرا اهتماما للمبادرة التي أطلقها "موسوليني" في 31 أوت حين حاول إقناع فرنسا و بريطانيا بضرورة حضور مؤتمر السلام الذي كان مقررا في 5 سبتمبر. غير أن الموقف البريطاني كان أكثر تصلبا حيث رفضت المقترح الإيطالي بحجة أن الجيوش الألمانية لم تغادر التراب "البولوني"، و كان ذلك الشرط الأساسي لأي تفاوض.³

7- بريطانيا تمارس سياسة الانتظار و الترقب Wait and See

في اللقاء الذي جمع الحلفاء في 22 ماي 1940، اعترفت بريطانيا بمحدودية دورها في البحر المتوسط بسبب نقص إمكانياتها الحربية. و عليه، يظهر جليا بأن الأهداف الفرنسية و البريطانية كانت متباينة تماما في حوض البحر المتوسط. و السبب أن فرنسا كانت أكثر حرصا على حماية حرية مواصلاتها مع شمال إفريقيا لأنه أمر حيوي بالنسبة إليها ما دام أن المنطقة تمثل أكثر من نصف مواردها البشرية و المادية و هي من أراضيها فيما وراء البحار. أما بريطانيا فموقفها يختلف باختلاف مصالحها و أهدافها في المنطقة. حيث أوكلت إلى فرنسا ضمان أمن الطريق البحري بين: السويس-مالطا-جبل طارق. لأن مصالحها الحيوية التي عليها حمايتها موجودة في واجهة: "المانش" و "بحر الشمال" و في "بحار الصين".

هذا لم يمنع الإنجليز من توجيه تقدير خاص للأسطول البحري الفرنسي، الذي كانوا ينتظرون منه الكثير. لحد أن "تشرشل" نفسه اعتبر أن الأميرال "دارلان" من بين الكفاءات التي تمكنت من إيصال الأسطول إلى المستوى الذي هو عليه من حيث الفعالية و القوة. و هذا أمر لم يحدث منذ عهد النظام الملكي.⁴

¹ - SHD, TOAFN, série 5N579, dossier 2, cabinet du ministre coopération militaire franco-britannique.

² - SHD, Service Historique de l'Armée de l'Air, série 2B100, dossier collaboration franco-britannique outre mer.

³ - إذا كانت الحرب بالنسبة للإنجليز قد اتضحت منذ مدة، و بحكم قوتها البحرية كانت تنتظر فقط الفرصة للسيطرة على البحر و احتجاز أكبر عدد ممكن من السفن التجارية التي يمتلكها الألمان، فإن الحكومة الفرنسية كانت أكثر تباطؤا حيث حاول "بوني" Bonnet قدر الإمكان ربح الوقت. في حين أن "دلاديه" اتبع رأي الجنرال "غاملين" الذي حاول تأخير نداء الإعلان عن الحرب حفاظا على نجاح بداية عملية التجنيد. ينظر إلى:

- Duroselle Jean Baptiste, Histoire des relations internationales..., op.cit., pp 256-257.

⁴ - Churchill (Winston), Mémoires sur la 2^{ème} guerre..., La drôle de guerre..., op.cit., p 13.

أعرب الإنجليز، خلال الجلسات الأخيرة للمجلس الأعلى للحلفاء، عن رغبتهم في مواصلة المعارك على لسان "ونستون تشرشل" ¹ Winston Churchill، الذي صرح في 11 جوان في قصر "موقى" Muguet أنه: "إذا أجبرت الجيوش الفرنسية على وضع حد للحرب، فإن إنجلترا سوف تواصلها. لأنها تتحكم في البحار، و أن إمبراطوريتها و الإمبراطورية الفرنسية لا زالتا قائمتان." ² و واصل خطابه في 13 جوان في مدينة "تور" Tours، عندما صرح: "إننا نطلب منكم مواصلة المعارك أطول مدة ممكنة، و إذا لم يتسن لكم ذلك في باريس، على الأقل أن يتم داخل الإقليم أو في أرجاء الإمبراطورية." ³

إلا أن فشل مشروع الوحدة الفرنسي البريطاني، و استقالة "بول رينود" إضافة إلى تشكيل حكومة "بيتان" جعل الإنجليز يدركون صعوبة مواصلة مشروع الكفاح المشترك مع الفرنسيين الأمر الذي جعل الهوة تتسع بين الدولتين.

في 28 مارس من سنة 1940، اتفقت الحكومتان على عدم إبرام أي ميثاق للسلم مع الألمان إلا بتشاور الطرفين. فسعى "تشرشل"، بعد 17 جوان، إلى الحصول على إبقاء الإمبراطورية و الأسطول في الحرب ضد دول المحور، أو على الأقل، ضمان عدم سقوط الأسطول في يد الألمان. و لم تكن ثقة تشرشل في الحكومة الفرنسية الجديدة كبيرة بدليل أنه كان متيقنا من أن بيتان لن يبعث بالأسطول إلى بريطانيا. لذلك سمح للجنرال "ديغول" من إلقاء كلمته الشهيرة الموجهة للشعب الفرنسي و المستعمرات في 18 جوان، أين طلب من الفرنسيين بمواصلة المعركة، و وضع تشرشل تحت تصرف ديغول محطة ألب. ب. س. BBC، الشهيرة.

في 20 من نفس الشهر، طلب من ممثليه في فرنسا و في باقي أجزاء الإمبراطورية بدعم السلطات الفرنسية لانتهاك أوامر المارشال "فيليب بيتان" ⁴ Philippe Petain و تشكيل حكومة مقاومة في المنفى. ⁵

¹ - Churchill (Winston), Mémoires sur la 2^{ème} guerre mondiale..., La chute de la France..., op.cit..., pp 32-33.

² - Churchill (Winston), Mémoires sur la 2^{ème} guerre..., T2..., Ibid..., p 34. (In ANT, Tunis)

³ - Reynaud (Paul), Les mémoires, Au cœur de la mêlée 1930-1945, éditions Flammarion, Paris, 1951, p 744. . Voir également: Le Fonds prive de Paul Reynaud, aux archives nationales de France, in serie 74 AP 22. (Cité par Levisse-Touze Christine, dans : L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p..)

⁴ - هو "بيتان فيليب"، مارشال فرنسا ولد في "كوشي ألتور" Cauchy a la tour (Pas-de Calais) سنة 1856. شارك في الحرب العالمية الأولى و حقق انتصارا في موقعة "فردان" Verdun سنة 1916. ثم عين قائد عام للقوات الفرنسية بعد هزيمة "طريق السيدات" Le chemin des dames سنة 1917. غير أنه تمكن من الرفع من معنويات الجند و قادهم إلى النصر سنة 1918. عين وزير للحربية سنة 1934 ثم سفيرا في مدريد سنة 1939. و لما أصبح رئيس للحكومة الفرنسية في 1940 وقع على الهدنة مع ألمانيا و إيطاليا. بعدها منحت له كل السلطات من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية في 10 جويلية 1940، و بذلك أصبح رئيس دولة فرنسا الجديدة تحت عهدة "فيشي" و عمره 84 سنة. و بعد نهاية الحرب حكم عليه بالإعدام سنة 1945، غير أنه أعيد النظر في الحكم الأول و خفضت عقوبته إلى المؤبد، أين قضى مدة في جزيرة "يو" DYeu. توفي سنة 1951. أنظر:

- Petit Larousse illustre..., op.cit..., pp 1597-1598.

⁵ - Mickelson (Martin L.), Operation Susan, The origins of the free French Movement, Military Affairs, published for the American Military Institute by the department of History, Kansas State University, USA, volume 52, N°4, October 1988, p 192. (In B.N.F)

كما قام الجنرال "ليدل" Liddell، حاكم جبل طارق، بدوره بتشجيع "نوقس" على مواصلة المعركة متمنيا أن تقوم دول مثل هولندا و بلجيكا بدورها في تقديم الدعم المالي و الاقتصادي لفرنسا في انتظار الدعم الحقيقي للولايات المتحدة الأمريكية. غير أن "نوقس" أكد أن البريطانيين قلقين جدا من الظروف التي يتم فيها التنازل عن العتاد الفرنسي و المراكز العسكرية للعدو، خاصة منها موانئ "دكار" و "الدار البيضاء" التي تمثل أهمية بالغة في الحرب و المواصلات البحرية.¹

كانت الآمال معلقة على البرلمانين الذين كانوا على متن الباخرة "ماسيليا" من أجل إقامة حكومة مقاومة في شمال إفريقيا و بالتحديد في الجزائر لمواصلة الحرب. غير أن إمضاء معاهدة الاستسلام جعل البريطانيين يضعون كل ثقتهم في "نوقس" و "ديغول" و يشجعون هذا الأخير على الإعلان عن تأسيس "اللجنة الوطنية الفرنسية الحرة" Comité National Français Libre، في لندن يوم 23 جوان. و بذلك أفصحت بريطانيا عن نواياها في دعم حكومة متمردة فرنسية في شمال إفريقيا.²

في 28 جوان 1940، أوقفت الحكومة البريطانية كل اتصالاتها مع حكومة "بورديو"³ الفرنسية و تهيأت لإرسال قوات عسكرية إلى المغرب قوامها 25000 رجل مدعمين بالفرنسيين الأحرار و المتطوعين من شمال إفريقيا:

¹ - كان لهذا الموقف الفرنسي الآثار البالغة في إقدام القوات البريطانية إلى قصف هذه الموانئ، خاصة منها ميناء "دكار" في السنغال. و قد وقع اتفاق مبدئي بين "ديغول" و "تشرشل" على العملية العسكرية المهدف منه جلب إفريقيا الغربية الفرنسية إلى جناح "ديغول"، الذي كان يعاني في تلك الفترة نوع من التراجع في شمال إفريقيا بفعل ما كان يتلقاه من أنباء غير سارة حول الحالة النفسية للسكان في شمال إفريقيا الذين باتوا على قناعة بشخص "بيتان" و أنه الرجل الذي يناسب المستعمرات في الوقت الراهن. ينظر إلى كل من:

- Churchill Winston L.S, Mémoires sur la 2^{ème} guerre mondiale, T2., op.cit.
- De Gaulle Charles, Mémoires de guerre, L'Appel 1940-1942, Plon éditions, Paris, 1954.
- Levisse-Touzé Christine, L'AFN et la défense nationale française., op.cit., pp 128-129.

² - قامت الحكومة البريطانية بتكليف كل من: ألفريد دوف كوبر، وزير الإعلام، و الجنرال جون قورت، قائد الجيوش البريطانية في فرنسا، بمهمة ملاقة البرلمانين الذين كانوا على متن الباخرة "ماسيليا" و الجنرال نوقس، لمناقشة إمكانية تشكيل حكومة مقاومة فرنسية في شمال إفريقيا و في سوريا و تخصيص مكتب لها في لندن. غير أن نوقس، الذي كان لا يزال يتلقى أوامر حكومته، رفض الفكرة و عمل على تعطيل المهمة البريطانية. فاضطر "كوبر"، في 25 جوان، إلى إرسال برقية إلى حكومته يطلعها فيها على فشل مهمته و أنه لا توجد هناك إمكانية مقاومة في شمال إفريقيا. و عند عودته إلى لندن في 28 جوان قدم تقريرا مفصلا عن مهمته، و لكن هنا ترك المجال مفتوحا، لأن حسبه هناك أمل موضوع على عاتق الضباط الفرنسيين الشباب و المدنيين المغاربة في أن تميل الكفة إلى الجهة المستعدة لمواصلة المعركة. فطالب تشرشل من قيادة الأركان البريطانية دراسة هذا المقترح، و كلف "كوبر" بتجنيد فرنسيين لهذا الغرض، بما فيهم الفرنسيين الأحرار المقيمين في لندن. لمزيد من الشروحات ينظر كل من:

- Duff Cooper Alfred, Au-delà de l'oubli, éditions Gallimard, Paris, 1960, pp 325-330.
- Hoisington William..., op.cit., p 177.
- Levisse-Touzé Christine, L'AFN en guerre., op.cit., p 69.

³ - Churchill (Winston), Mémoires sur la 2^{ème} guerre mondiale, T2., op.cit., p 36.

إنه "مشروع سوزان" ¹ Le Plan Susan. و بناءا على المشروع، ستمنح للجنرال "ديغول" إمكانية الاستيلاء على الإدارة الفرنسية و الأسطول معا، و سيجمع حوله كافة القوات الفرنسية المدنية و العسكرية. غير أن تشرشل غير من خطته، و في 30 جوان قرر تنفيذ عملية "كاتابولت" Catapult حتى يضمن التحاق الأسطول الفرنسي بالبحر. و في حالة رفض السلطات الفرنسية ذلك، فإنه سيكون مضطرا للهجوم على السفن الحربية الفرنسية المربطة في ميناء "مرسى الكبير" بوهران. لأن تشرشل يعتبر أن شروط الاتفاق الألماني الفرنسي غير مطمئنة. و لأنه ببساطة لا يثق في هتلر، خاصة بعد ما بدر منه بعد مؤتمر ميونيخ لسنة 1938. فساد التوتر في العلاقات الفرنسية البريطانية، خاصة و أن "نوقس" غير متحمس للغدر بحكومته، رغم الاتصالات التي كانت له مع الجنرال ديغول من لندن، الأمر الذي أدى إلى حدوث مأساة مرسى الكبير. ²

ثانيا: التجنيد البشري و المادي لمنطقة شمال إفريقيا

أصبحت الأوضاع في شمال إفريقيا مزوجة بالهدوء و القلق الذي انتاب السلطات الفرنسية جراء الأحداث المتسارعة التي كانت تنذر بحرب وشيكة تدق على أبواب القارة الأوروبية. و لم تكن المستعمرات لتستثنى من هذه الحرب، لذلك أولت لها القوى الاستعمارية أهمية بالغة و أدرجتها ضمن أولوياتها في المعادلة القائمة. فتسارعت الأحداث الدولية، التي تشبه إلى حد بعيد "المسلسل" الذي يتكون من مجموعة حلقات متصلة مع بعضها البعض.

فالحادث العالمي ما إن ينتهي حتى يبدأ الآخر، و بالتالي فهو يتأثر بما سبقه من حدث. و إذا طبقنا ذلك على موضوع دراستنا، لوجدنا التأثير الواضح لهذه الحرب بأحداث سبقتها بفترة زمنية معتبرة قد تصل إلى عشرون عاما. ³ هذه الأحداث بدورها تجتمع كعوامل لتشكيل الأسباب البعيدة، أو الغير مباشرة للحرب. أما الأسباب القريبة، أو المباشرة، فهي بالنسبة للحدث الدولي أقرب إليه.

فتحت الإدارة الاستعمارية، عبر مناطق عديدة في شمال إفريقيا "مراكز إقامة مراقبة" Centres de Séjour surveillé، على النمط التي كانت موجودة عليه في فرنسا. ففي الجزائر، و خاصة في المناطق الجنوبية، وجدت مراكز؛ جنين بورزق، و كولومب بشار و في الغرب وجد معتقل بوسوي Bossuet (الضاية حاليا) الموجود في ضواحي سيدي بلعباس بالإضافة إلى معتقل لطفة. أما في المغرب فكان هناك مركز بودنيب، و بشأن تونس وجدت مراكز كل من الكاف و سبيطلة، و قد أقيمت هذه المراكز من أجل استقبال المساجين الجمهوريين

¹ - Mickelson (Martin L), Operation Susan, The origins of the free French..., op.cit..., p 194.

² - ينظر إلى الحادثة في العنصر الأخير من الفصل الأول.

³ - الصمد (رياض)، العلاقات الدولية في القرن العشرين، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، بدون تاريخ... ص 380..

الأسبان و المتشردين من العصابات الدولية في أول الأمر، ثم وسعت لتشمل المساجين من الشيوعيين و الوطنيين في مرحلة ثانية.¹

كما ينبغي الإشارة إلى الاحتياطات التي حاولت الإدارة الاستعمارية اتخاذها بشأن الحرب. فانتقلت من سياسة الإقناع نحو سياسة استعمال القوة. و في مجال عسكري بحث و إلى غاية سنة 1912، كان تجنيد الجزائريين يتم بطريقة واحدة: "التطوع الفردي و العفوي". غير أن الاحتياجات المتزايدة لفرنسا و مخاوف قيام الحرب ستعجل بتطبيق قوانين و مراسيم سنة 1912. منها مرسوم 31 جانفي 1912 الذي أعاد التجنيد عن طريق الانخراط. و كان الهدف منه هو دفع الشباب إلى الانخراط في صفوف الجيش الفرنسي لمدة ثلاث سنوات. و المرسوم الثاني في 3 فبراير 1912، و كان أكثر إلحاحا حيث أكد لأول مرة إجبارية الخدمة العسكرية. و هنا تبقى وضعية المجند تحت تصرف وزارة الدفاع كاحتياطي.

1- فرنسا تجند مسلمي شمال إفريقيا في محنتها الثانية

بقيت فكرة المستعمرات دائما حاضرة في ذهنية الحكومة الفرنسية و إدارتها في المستعمرات على أنها تمثل "خلاص فرنسا" نحو المحافظة على إمبراطوريتها. و كانت الفكرة قائمة على المقولة الشهيرة: "مهما حصل فإن المستعمرات ستحافظ على مصير الإمبراطورية..". و قد ظهر ذلك جليا عند الهزيمة الفرنسية مع بداية الحرب، عندما أقدم رئيس الحكومة "بول رينود" على إرسال برقية إلى الرئيس الأمريكي "روزفلت" يطلعه فيها على رغبة الحكومة الفرنسية في مواصلة الكفاح في شمال إفريقيا، و حتى في مستعمراتها في القارة الأمريكية، إن اقتضى الأمر ذلك.²

جرت عملية تجنيد مسلمي شمال إفريقيا بطرق متفاوتة بين الجزائر و تونس و المغرب، غير أن عبارات التردد كانت حاضرة في كل هذه البلدان، حيث بقي السكان يماطلون في موافقهم و اعتبروا أن هذه الحرب لا تعنيهم في شيء. و لعل العبارات التي أطلقها أحد زعماء الحزب الدستوري التونسي، و هو "صلاح بن يوسف" لأحد العملاء الإيطاليين تحمل أكثر من دلالة: "لم يخفي أحد من التونسيين و لا العرب و لا المسلمين تعاطفه مع دول المحور، و كلهم يدعون لانتصار القضية التي يدافعون عنها.."³

في المقابل، وجدت فرنسا من يدافع عنها و عن عملية التجنيد التي أطلقتها عندما ارتفعت أبواق الموالين لها من خدامها في شمال إفريقيا على لسان جمعية قادة الزوايا لإفريقيا الشمالية التي أبرزت إخلاصها لفرنسا عن طريق مظاهر الولاء العديدة التي عبر عنها "العاليش العيد بن محارك" رئيس إحدى الجماعات Djemaa، الذي

¹ - ANOM, GGA, Série H, 9H32, rapport hebdomadaire du 7 octobre 1939, faisant état de l'arrestation par le Préfet d'Oran de 16 réfugiés espagnols pour propagande révolutionnaire.

² - Thobie, Meynier, Ageron et al, Histoire de la France coloniale 1914-1990, éditions Armand Colin, Paris, 1990, p 314.

³ - Ibid., p 313.

طالب من الحاكم العام للجزائر جورج لوبو¹ Georges Le Beau، في برقية جاء فيها: "نطالبكم بتجنيد الاحتياطيين الأهالي كما جندتم إخوانهم الفرنسيين..²"

أ- تناقضات في عملية تجنيد الجزائريين

تأثرت السياسة الفرنسية قبيل الحرب العالمية الثانية بفشل مشاريع الجبهة الشعبية، الأمر الذي جعلها عرضة لمشاكل اقتصادية و اجتماعية شتى. فتوترت علاقاتها مع الأنظمة الدكتاتورية، في أوروبا، و تعقدت أمورها في مستعمرة الجزائر، التي بقيت إلى آخر لحظة تأمل في التفاتة من حكومة "دلاديه" التي لم تتحمل ما أسمته "المساومة مقابل التجنيد".³ فانهت بها المطاف إلى الاستنجد، مرة أخرى، بالجزائريين لمواجهة شبح الحرب المخيم على أراضي إمبراطوريتها. الأمر الذي فتح المجال لكل التناقضات في هذه العملية التي اعتبرت بحق "ملحمة الجزائريين" بكل المقاييس.⁴

شرعت الإدارة الاستعمارية في تجنيد الجزائريين منذ 30 أوت بالموازاة مع عمليات المصادرة و التسخير المستمرة ضد المسلمين. مستغلة في ذلك الجانب الديني للترويج لدعاية مفادها أن الألمان هم العدو فاحذروهم. و قد تم توزيع "كتيب" مكتوب باللغة العربية في هذا الصدد بطريقة سرية، يحمل توقيع صاحبه: "حامد المليجي" و هو شخصية معروفة في بلاد المشرق و يشغل منصب محرر بجريدة "البلاغ" بالقاهرة. و أرسلت تعليمات في 6 سبتمبر 1939 لمختلف الهيئات الإدارية تشرح لهم كيفية توزيع هذا الكتيب على أوسع نطاق.

¹ - من مواليد سنة 1879، شغل منصب حاكم عمالة "السين السفلى" La Seine Inferieure في فرنسا قبل أن يعين حاكما عاما في الجزائر من 21 سبتمبر 1935 إلى 20 جويلية 1940. و هو صاحب النداء الشهير الذي وجهه للشعب الجزائري مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. توفي سنة 1962. و هو أحد السياسيين الفرنسيين القلائل الذين لم نعتز لهم على بيوغرافية قيمة، و اكتفينا فقط بذكر تاريخ الميلاد و الوفاة و المهمة التي أسندت إليه في الجزائر. أنظر: [fr.wikipedia.org/wiki/liste des gouverneurs d'Algérie](http://fr.wikipedia.org/wiki/liste_des_gouverneurs_d'Algérie)

² - SHD, TOAFN, série 27N 218., op.cit., 1939.

³ - Stora (Benjamin), Algérie histoire contemporaine 1830-1988, casbah éditions, Alger, 2004, p 96.

⁴ - لقد جرت هذه الحرب و ما صاحبها من عملية تجنيد واسعة النطاق في الجزائر، إلى بروز وجهات نظر متناقضة بشأنها. فإذا كانت الإدارة الاستعمارية الممثلة في صورة وزرائها و حكامها العامون و حكام العمال و الموالين لها من الجزائريين، بمختلف أطرافهم، يعتبرون العملية ناجحة بنسبة كبيرة، ففي المقابل هناك من الوطنيين الجزائريين و المغاربة من يعتبر ذلك إجحافا في حق الشعب الجزائري الذي كانت غالبية تجهل حتى محتوى الاستدعاء الذي كان يصل أبناءها و حملات التفتيش و المداخلة التي كانت تقوم بها قوات الأمن الفرنسية بحثا عن المارين من عملية التجنيد. و الأمثلة كثيرة عن أعداد كبيرة من الجزائريين هجروا بلدانهم هروبا من التجنيد. ينظر في الموضوع بإسهاب إلى كل من:

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، 1930-1945، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص ص 87-90.

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp., op.cit., pp 547-558.

- Recham Belkacem, Les musulmans Algériens dans l'armée française 1919-1945, l'Harmattan, Paris, 1996.

في الحقيقة، تمت عملية التجنيد في الجزائر حتى قبل أن تندلع الحرب العالمية الثانية، و ذلك بموجب صدور قانون 11 جويلية 1938، و مرسوم 28 نوفمبر 1938، و مرسوم 24 أوت 1939.¹ و قد استعملها حاكم القطاع الوهراني في مواقف عديدة ضد الجزائريين الرافضين مساندة فرنسا في محنتها.²

كما شرعت السلطات الاستعمارية في تجنيد الجزائريين منذ 30 أوت 1939 مستعملة في ذلك كل الأساليب و الوسائل المتاحة إليها، من بيانات عسكرية³ و نداءات دينية⁴ لاستمالة الجزائريين إلى هذه الحرب التي لم تكن في الحقيقة تعني لهم الشيء الكثير، لا من قريب و لا من بعيد، ما دام أنهم كانوا خاضعين لترسانة من القوانين الردعية التي كانت تعاقبهم على عدم تلبية نداء الوطن،⁵ إلا أن ذلك لم يمنع أن تكون هناك حالة من الاستياء من عملية التجنيد هذه.⁶ و الغريب في الأمر، أن الإدارة الاستعمارية نصبت لجنا مهمتها مصادرة حتى الحيوانات و السيارات التي تحتاجها في مهامها. ولم تكتفي بذلك بل نصبت لجنا أخرى لمراقبة الإنتاج الزراعي في كل المقاطعات و العمالات دون استثناء.⁷

بشهادة العديد من المؤرخين فقد تمت عملية التعبئة و التجنيد في ظروف انضباطية و لكن دون أدنى حماسة.⁸ و كان إعلان فرنسا التعبئة العامة في الفاتح من سبتمبر تزامنا مع دخول الجيوش الألمانية الأراضي

¹ - Voir le Bulletin officiel du Ministère de l'intérieur du mois d'août 1939.

² - أصدر حاكم عمالة وهران "ليونار بوجار" قرارا في 20 أوت من سنة 1939 تضمن مما جاء فيه أن مختلف الاجتماعات و التظاهرات العامة ممنوعة فوق كافة تراب العمالة إلى غاية نهاية الصراع القائم. و قد واصل في هذا السياق بإرساله لتعليمية داخلية إلى كافة رؤساء الدوائر و البلديات و الحكام الإداريين يحثهم فيها على توظيف القانون المتعلق بالتسخير خدمة للمصلحة العامة و جاءت عبارات التعليمية معبرة عن نفسها حيث قال: "إن قانون جويلية 1938 و مرسوم 28 نوفمبر 1938 يخولان للحاكم العام حق التسخير المؤقت أو الدائم للأشخاص و الممتلكات... و لن أتردد في استعمالهما و استخدامهما خدمة للمصالح الفرنسية." ينظر في الموضوع إلى :

- A.W.O, Boite 1439, circulaire du 9 septembre 1939.

³ - دعت قيادة أركان الجيش الفرنسي على التركيز على ضرورة استغلال كل الطاقات البشرية و المادية لشمال إفريقيا من أجل الحفاظ على سلامة فرنسا. أنظر :

- Recham Belkacem, Les musulmans Algériens dans..., op.cit., p 144.

⁴ - ركزت الدعاية الاستعمارية الفرنسية على إظهار ألمانيا الشبح الذي يهدد العالم الإسلامي، مشددة على الطابع العنصري للألمان الذين صنفوا العرب وفق نظرية الجنس الآري. أنظر كل من :

- A.W.O, Boite 4480, état d'esprit des populations musulmanes (divers), 1937-1944, ordre général.

- L'Echo d'Oran du 25 septembre 1939.

⁵ - A.W.O, Boite 2261, coupure du journal L'Echo d'Oran du 3 janvier 1940.

⁶ - Kaddache (Mahfoud), histoire du nationalisme..., T2., op.cit, pp 604-605.

⁷ - A.W.O, Boite 1439, registre des arrêtés N° 6437 du 19 septembre 1939.

⁸ - في الحقيقة لا نجد وصفا دقيقا لعملية التجنيد التي وصفها الفرنسيون بالانضباطية، سوى صورة العجز التام و الضعف الذي نخر جسد فرنسا، كما وصفها "سعد الله". و بطبيعة الحال فإن هذا الانضباط جاءها من المتطوعين من خدامها المعتادين الذين يحكم وظائفهم أيديها و تطوعوا في صفوف الجيش الفرنسي لمحاربة النازية. للمزيد من المعلومات أنظر :

- Aron Robert, et al..., Les origines de la guerre d'Algérie..., op.cit, p 78.

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp... op.cit, p 547.

- Reinhard Marcel, Histoire de France de 1715 à 1946, ouvrage collectif, Larousse éditions, Paris, 1954, p 473.

البولونية. كما أقر مجلس الوزراء الفرنسي، بحضور الرئيس "ألبرت لوبران"¹ Albert Lebrun مرسوم التعبئة العامة و التجنيد الشامل للقوات الفرنسية المتواجدة في التراب الفرنسي و في المستعمرات، و بطبيعة الحال كانت الجزائر ممن تضمنها هذا المرسوم.²

و بذلك أعلنت حالة الطوارئ في فرنسا و الأقاليم الثلاثة للجزائر. و في اليوم الموالي وافق البرلمان الفرنسي على الاعتمادات العسكرية التي طلبتها الحكومة الفرنسية. و تسارعت الأحداث بداية من 13 سبتمبر بتقلد "دلاديه"، الذي كان وزيرا للدفاع، مفاتيح وزارة الخارجية خلفا "لبوني"، فتم حل كل المنظمات الشيوعية في 26 سبتمبر. كما صوت كل من، البرلمان في 30 نوفمبر و مجلس الشيوخ في 2 ديسمبر، على مشروع قانون يمنح كل الصلاحيات للحكومة طول المدة التي ستدوم فيها الحرب.³

هكذا كانت حالة فرنسا كلما واجهتها أزمة حادة، في الاستنجاد بمستعمراتها و استغلالها لكل إمكانياتها المادية و البشرية. فسخرت إمكانيات الجزائر، لمجهودها الحربي خدمة لأغراضها الآنية المتمثلة في التخلص من شبح ألمانيا حتى تدوم لها ثروات مستعمراتها. من هنا يظهر لنا ضعف فرنسا في بلادها و في الجزائر. فلا حكومة قوية و لا جيش على أتم الاستعداد و لا تحالفها مع بريطانيا مكنها من تفادي الحرب.⁴

أما الأوضاع داخل الجزائر فكانت تسير من سوء إلى أسوأ، نظرا لتزدي الأوضاع الاقتصادية و إهمال المطالب الجزائرية و فشل المشاريع الإصلاحية.⁵ غير أن الدعاية الرسمية الفرنسية قد أشادت بإخلاص المسلمين الجزائريين في تلبية نداء الوطن مستشهدة بما كان يصلها من برقيات دعم و تأييد من كل الجهات.⁶

كان الحاكم العام للجزائر "لوبيو" قد توجه في الرابع من سبتمبر 1939 بكلمة شكر للمواطنين الأوروبيين و المسلمين الذين لبوا نداء الوطن الأم في انضباط و نظام عجيبين و بحماسة و وقار.⁷ و قد تناقلت الصحف الصادرة في الجزائر بشكل عام، الأخبار بشأن أصداء الحرب و تطور الأحداث في أوروبا و ما كان يمس فرنسا بالدرجة الأولى. و من هذه الصحف نذكر كل من: "وهران الجمهوري"⁸ Oran Républicain و "صدى وهران"

¹ - "ألبرت لوبران" رجل دولة فرنسي، ولد سنة 1871 في (Meurthe-et-Moselle) Mercy-le Haut، و قد تقلد عدة حقائب وزارية فيما بين 1911 إلى 1920، ثم أصبح رئيسا للغرفة العليا سنة 1931، و بعدها تقلد منصب رئيس الجمهورية من سنة 1932 إلى سنة 1940. ثم انصرف عن الشؤون السياسية إلى غاية وفاته سنة 1950. ينظر إلى:

- Petit Larousse illustré., op.cit., p 1460.

² - A.W.O, Boite 2261, dossier de presse, Oran Républicain du 2/9/1939.

³ - Duroselle (Jean Baptiste), L'abime.. op.cit, p 262.

⁴ - سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ط3، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 169.

⁵ - المرجع نفسه...، ص 169.

⁶ - "يرى" "قداش"، و بكل تحفظ، أن الدعاية الرسمية الفرنسية هي التي روجت لهذه الفكرة. و يستعرض النقاط الرئيسية التي جعلت الجزائريين يلبون نداء فرنسا، و يصنفهم على أساس الموالين لها. كما أشادت الصحافة الاستعمارية، بدورها، إلى هذا الموضوع. للمزيد من المعلومات أنظر:

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme algérien..., T2, op.cit, p 602.

- A.W.O, L'Echo d'Oran du 2 septembre 1939.

⁷ - A.W.O, B 2261, dossier presse, L'Echo d'Oran du 5 sept.. 1939. Et voir aussi : Ageron, Histoire de l'Algérie contemp... T2, op.cit, p 548.

⁸ - A.W.O, B 2261, dossier de presse, Oran Républicain du 19 septembre 1939 : Vers le soleil couchant. Aggression Soviétique contre la Pologne.

L'Echo d'Oran و "صدى الجزائر" L'Echo d'Alger "الكفاح الاجتماعي" La lutte sociale. و كان باديا من محتوياتها أنها كانت جد قلقة من وقوع حرب جديدة بين فرنسا و ألمانيا.

و أعقبه الوزير "سارو" Sarraut بكلمة موجهة إلى المسلمين الجزائريين في 2 ديسمبر 1939 يطمئنهم فيها بأن فرنسا، الوطن الأم، لن تنسى أبدا كل ما تدينه لأبنائها في شمال إفريقيا يوم النصر.¹ و لعل قيام الإدارة الاستعمارية باستغلال الاحتياطيين في المصانع و المزارع لدعم مجهودها الحربي للدليل قاطع على استمرار فرنسا في وعودها الكاذبة.

لقد أشاد عدد من الباحثين بالدور الذي لعبه الجزائريون خلال مرحلة التجنيد بالرغم من أنهم كانوا مقصيين و مهمشين من قبل السلطات الاستعمارية، الأمر الذي لم يمنع هذه الإدارة الاستعمارية من الاستنجاد بهم للدفاع عن ترابها.² فكانت وتيرة التجنيد سريعة تبعا لظروف الحرب التي كانت تتطلب ذلك، نظرا لأن الجيوش الألمانية كانت تفوق الجيوش الفرنسية عددا.³ و قد بلغ عدد المجندين من شمال إفريقيا مع نهاية شهر مارس 1940 حوالي 340000 مجندا.⁴

كما ينبغي الإشارة إلى أن فرنسا استدعت عددا كبيرا من الجنود الاحتياطيين من غالبية دوائر و بلديات الجزائر، و نذكر منها بلدية "عمي موسى" من دائرة مستغانم التي استدعي منها حوالي 1200 من الجزائريين. و لم تستثني السلطات الاستعمارية من التجنيد حتى المتزوجين من المسلمين.⁵ و إذا أشرنا إلى هذه البلدية كعينة، فذلك يرسم لنا فكرة عن الأعداد الكبيرة من الجزائريين التي تم تجنيدها.

هذا المثال على بلدية صغيرة يطلعنا على حجم عملية التجنيد و التعبئة و عن الأعداد الهائلة من الجزائريين الذين تم حجزهم و تسخيرهم في حرب لن يجنوا منها الكثير. و مع اشتداد وطأة الحرب تم استدعاء الذين تم تسريحهم من قبل.⁶ و قد أشارت بعض المصادر إلى أن العمال الذين أمضوا على عقد تجنيد في بلدية "الرمشي" بدائرة تلمسان، طالبوا السلطات الإدارية بأن لا تؤخذ رسائلهم بجدية خوفا من إرسالهم إلى فرنسا.⁷ أما في بلدية "تلاغ" في دائرة سيدي بلعباس، فقد أعلن الجنود الاحتياطيين بأنهم إذا خيروا بين الالتحاق بصفوف الجيش أو البقاء في بيوتهم فإنهم يفضلون الحل الثاني حتى و لو كان ذلك مقابل 10 فرنكات في اليوم.⁸

¹ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit., p 549.

² - في هذا الباب يعكس كل من "حرشي" و "رشام" حقيقة التجنيد الجزائري في الجيوش الفرنسية. للمزيد من المعلومات أنظر كل من:

- Recham Belkacem..., op.cit., p 180.

- Kharchi Djamel, Colonisation et politique d'assimilation en Algérie 1830-1962, casbah éditions, Alger, 2004, p 327.

³ - لأن عملية التجنيد و التعبئة التي طبقتها ألمانيا شملت كل شاب يقدر على حمل السلاح. و أكثر من ذلك فهناك مصادر قدرت عدد سكان ألمانيا بضعفي عدد سكان فرنسا. أنظر:

⁴ - Recham (Belkacem)...., op.cit, p 218.

⁵ - A.W.O, Boîte 2261, dossier presse, L'Echo d'Oran du 26 septembre 1939.

⁶ - A.W.O, Boîte 1439, , correspondance N° 532, du 2 Février 1940, émanant du général Thomas, commandant de la division territoriale d'Oran et adressée à monsieur le préfet d'Oran. (Rappel des réservistes indigènes).

⁷ - Kaddache (Mahfoud) Histoire du nationalisme..., T2, op.cit ..., p 605.

⁸ - ibid., p 605.

و لاحظنا أكبر مثال على رفض فكرة التجنيد في المناطق الجنوبية و بالتحديد عند سكان "مسعد" في الجلفة، عندما هاجروا بيوهم خوفا من تجنيدهم بالقوة من طرف الإدارة الاستعمارية. و لم يرجعوا إليها إلا بعدما حصلوا على ضمانات من حاكم البلدية.¹ و انتشرت نفس الشائعات في مدينة الجزائر حيث رفض جنود من عمالة قسنطينة التوجه إلى فرنسا و الالتحاق بالمتروبول ليوجهوا إلى جبهات القتال في أوروبا.²

هذه المواقف الواضحة للجزائريين ترشدنا إلى نوع من الوعي الذي كان منتشرا في أوساط الشعب الرفض لفكرة التجنيد و بالتالي عدم تلبية نداء فرنسا من أجل الخدمة العسكرية مستعملا كل الوسائل و الطرق من أجل ذلك.³

غير أن هذا الموقف أتاح لفرنسا فرصة مواجهة الجزائريين الراضين للتجنيد بطرق غير لائقة مرتبطة بالجانب المادي للجزائريين من خلال ما صرح به الحاكم العام "ماكسيم ويغان"⁴ Weygand Maxime في 3 نوفمبر

¹ - Bulletin d'information du gouvernement général du 12 septembre 1939.

² - Bulletin d'information du gouvernement général du 14 et 26 septembre 1939. Voir aussi :

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme..., t2..., op.cit., p 566.

³ - هناك من الجزائريين من كان يدعي مرض "التبول" من أجل الحصول على الإعفاء من الخدمة العسكرية. و هناك من كانت تصله رسائل و استدعاءات التجنيد و يرفض الاستجابة لها. و هذه المواقف ترشدنا إلى أن الإدارة الاستعمارية لم تجد بدا إلا من التأكيد على ولاء الجزائريين لها عبر التصريحات الرسمية لإدارتها. أنظر:

- A.W.O, Boite 4480, C.I.E, Oran N° 224 du 27 mars 1940.

- A.W.O, Boite 4480, C.I.E, Oran N° 245, du 22 avril 1940.

⁴ - ولد "ماكسيم ويغان" في بروكسل ببلجيكا في 21 جانفي 1867. تبقى أصوله غامضة نوعا ما، إذ يذهب البعض إلى أنه يمكن أن يكون الابن الطبيعي للملك البلجيكيين "ليوبولد الثاني" أو للأميرة "شارلوت" أرملة "ماكسيمليان" إمبراطور المكسيك. قضى صغره بين مرسيليا و باريس، و التحق بثانوية "لويس الكبير" و "هنري الرابع" قبل أن يلتحق بالمدرسة الحربية "سان سير" Saint Cyr. التي تخرج منها في الحيلة سنة 1887.

أعطي له الاسم العائلي "ويغان" من طرف أحد الفرنسيين الأمر الذي جعله ينعم بالجنسية الفرنسية. نجح في مهنته العسكرية باعتبار أنه عين قائد للأركان في 1914 من طرف المارشال "فوش" Foch و إلى غاية انتهاء الحرب. و في سنة 1923 أسندت له مهمة قيادة جيوش الشرق من طرف الرئيس "بوانكاري". بعدها أصبح "محافظ سامي" للجمهورية الفرنسية في سوريا و في لبنان. ثم عاد بعدها إلى فرنسا ليشرف على مركز الدراسات العسكرية العليا. ثم انتخبه على رأس "الأكاديمية الفرنسية" في 11 جوان 1931 بالأغلبية (34 صوت). بعدها استنجد به "دلاديه" بعدما أحيل على التقاعد، أثناء الحرب العالمية الثانية ليقود الجيوش الفرنسية المربطة في الشرق.

و في أعز الأزمات العسكرية الفرنسية لشهر ماي 1940، عينه "بول رينود". قائد أركان عام و قائد الجيوش المتحالفة. كان من الذين رفضوا فكرة الاستسلام و الهدنة مع ألمانيا، غير أنه خضع للأمر الواقع و أصبح وزير الدفاع في حكومة "بيتان" ثم ممثل عام للحكومة الفرنسية في شمال إفريقيا. دخل في اتصالات مع الأمريكيين مما عرضه للسجن و النفي نحو ألمانيا إلى غاية ماي 1945.

بعدما أطلق سراحه من طرف القوات الأمريكية في نهاية الحرب، ألقى عليه القبض من جديد ليحاكم على موقفه من أزمة سنة 1940. غير أنه استفاد من عفو سنة 1948، و يعتبر من الوزراء القلائل في حكومة "بيتان" الذي لم يحاكم بسبب المروق من الوطنية. يعتبر من الوجوه البارزة في التاريخ العسكري الفرنسي للقرن العشرين إلى جانب المارشال "فوش". توفي في 28 جانفي 1965، تاركا عدة مؤلفات نذكر منها:

-Le Marechal Foch- Histoire illustrée de l'armée française- Histoire militaire de Mohamed Ali et de ses fils. Ainsi que ses mémoires. Voir: <http://www.academie-francaise.fr-lesimmortels>

1941. غير أن ذلك لقي استياء كبيرا من الطبقة المثقفة في عمالة وهران التي اعتبرت أن كلام الحاكم العام بعيد عن الواقع، و بالتالي فهو لا يعرف الحقيقة التي يعيشها الشعب الجزائري.¹

دعم بيان فيدرالية المنتخبين المسلمين، في 29 أوت 1939، موقف الولاء عند طبقة سياسية معروفة بنهجها السياسي منذ زمن بعيد، ليبرهن لفرنسا استعدادهم للقتال من خلال العبارات التالية: "إننا نصرح لكم رسميا، بأن المسلمين الجزائريين على استعداد لتأدية واجبهم، مثلهم مثل أصدقائهم الفرنسيين، من أجل الدفاع على الأرض المقدسة و الوطن الأم و بالتالي إنقاذ الديمقراطية".²

يعتبر العديد من المؤرخين الفرنسيين بأن عملية التجنيد سارت بطريقة نظامية لا مثيل لها، و حتى الأهالي الذين كانوا في أماكن العمل، خاصة في الحقول بمناسبة مواسم الجني و الحصاد، قد التحقوا بمحض إرادتهم إلى مكاتب التجنيد. كما توافد عدد كبير من المتطوعين ليقدموا خدماتهم للسلطات الفرنسية، و يستشهدوا بالدكتور "محمد بن جلول"³ و "فرحات عباس"⁴ الذي قام بإلصاق بيان تأييد لفرنسا باللغة الفرنسية و العربية في مختلف

¹ - A.W.O, Boite 4476, dossier police générale, rapport du 4 novembre 1941.

² - SHD, TOAFN, serie 27N 218, bulletin d'information du CQG, septembre-décembre 1939.

³ - ولد "محمد بن جلول" سنة 1896 بمدينة قسنطينة و أكمل تعليمه فيها. ينتمي إلى طبقة الأعيان و البرجوازية الجزائرية و كانت ثقافته ثقافة غربية فرنسية بدليل أنه كان من أشد دعاة الإدماج. عين مستشارا عاما سنة 1931 و أصبح رئيس فيدرالية المنتخبين الجزائريين سنة 1933. شارك في كل الحركات المطالبة إلى غاية سنة 1936 عندما انعقد المؤتمر الإسلامي تراجع نجمه و لم يبق له الوزن المعهود. بعد الحرب العالمية الثانية شارك في البرلمان كعضو "معين". و حاول العودة إلى أمور السياسة أثناء الثورة عندما اعترف بأن زمن الإدماج قد ولى. لكن قد كان فات الأوان. فاحتفى عن الساحة السياسية من جديد و استقر في فرنسا ليقضي بها باقي حياته إلى غاية وفاته سنة... أنظر كل من:

- حري محمد، الثورة الجزائرية سنوات المحاض ترجمة؛ نجيب عياد و صالح المثلوثي، موفم للنشر، الجزائر، 2006، ص 183.

⁴ - ولد سنة 1899 "بطاهير" في جيجل (حاليا)، و في منطقة عرفت بنضال سكانها. و كان والده من فئة "القياد" التي سخرتها فرنسا لإدارة شؤون المسلمين. كان مولعا بالسياسة منذ الصغر حيث نشر أول كتاباته و هو لم ينهي دراسته في كلية الطب في تخصص الصيدلة. شارك في الحياة السياسية منذ العشرينات كعضو فعال و نشط في فيدرالية المنتخبين إلى جانب الدكتور "بن جلول". غير أن لم يقوى على مواصلة المشوار داخل هذا تنظيم، فانفصل عن بن جلول سنة 1937، ليؤسس "الإتحاد الشعبي الجزائري" الذي لم يعمر طويلا بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية. اشتهر في مرحلة الحرب بنشاطه الكبير داخل الحركة الوطنية و تزعمها في فترات عديدة لدرجة نسجه "البيان" الشهير في فبراير 1943 و مواجهته قمع الإدارة الاستعمارية و حكامها الذين رأوا فيه الخطر المحقق لمصالحهم، فزجوا به في السجن. غير أن ذلك لم يدم طويلا، فسرعان ما أطلق سراحه في 1944 ليعود من جديد ليشكل "أحباب البيان و الحرية" الذي لم يكتب له النجاح هو الآخر.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية أسس التنظيم السياسي الشهير "الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" لكن عمله النخبوي أثر عليه و لم يسمح له باستقطاب الأعداد الهائلة من الوطنيين الجزائريين، خاصة في ظل وجود مصالي الحاج و "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" التي عندما تحولت إلى "جبهة التحرير الوطني" لم تترك أي مجال للمشككين في قدرتها على قيادة الثورة إلى بر الأمان. الأمر الذي دفعه إلى الانضمام إلى الثورة في 1955 و أصبح أحد أعضائها البارزين في المجلس الوطني للثورة، ثم في لجنة التنسيق و التنفيذ. أول رئيس للحكومة المؤقتة الأولى في 19 سبتمبر 1958. و بعد الاستقلال شغل منصب أول رئيس للجمعية الوطنية سنة 1962. غير أنه استقال سنة 1963 لعدم تطابق أفكاره مع أفكار الجيل الحاكم لما بعد الاستقلال، و لأنه كان يرى في قضية دستور الجزائر قضية مصيرية لا يمكن التهاون بها.

أحيل مرتين على الإقامة الجبرية سنة 1963 في عهد الرئيس بن بله، ثم في 1976 في عهد الرئيس هواري بومدين. توفي سنة 1974 تاركا وراءه إرثا كبيرا للأجيال المستقبلية الرجوع إليه لمعرفة بعض الحقائق التاريخية التي بقيت طي الأدراج لمدة طويلة. و نذكر من بعض مؤلفاته التي تركت أثرا في تاريخ الحركة الوطنية و الثورة الجزائرية:

- De la colonie vers la province, Le Jeune Algérien..1930

- Rapport au Marechal Pétain...1941

مراكز مقاطعته جاء فيه: "نؤكد لكم في هذه اللحظة، بأعمالنا و إيماننا في النصر الفرنسي، و انتصار الحرية هنا و في جميع أرجاء العالم.. مكاني اليوم توجد تحت العلم و في تجنيد بجانب أصدقائي في الجيش..تحتيا الجزائر، تحيا فرنسا.."¹ ثم أضاف قائلا: "إخواني المسلمين، إن الاعتداء السافر الذي أقدم عليه الغول الهتلري ضد الدولة البولونية الشجاعة، قد أثار سخط كل القلوب المتشعبة بالعدالة و بمبادئ الإنسانية النبيلة..و عليه، إنني أضع نفسي في خدمة فرنسا و سأقبل على تنظيم "قوم" Goum، يشارك فيه أعضاء من عائلتي و من الأعيان المواليين لي الذين سينظمون إلى الجيش الفرنسي ليعبروا عن وفائهم و إخلاصهم.."²

سارت زاوية "الهامل" على نفس النهج الذي سارت عليه فدرالية المنتخبين و جمعية الزوايا و الأعيان، مما كان يعطي فكرة عن حالة المسلمين الفكرية في الجزائر، الذين كانوا يأملون في أن دخول فرنسا في الحرب سيجعلها أكثر سخاء تجاه رعاياها المسلمين لتجعل منهم مواطنين حقيقيين. لأن عملية التجنيد قد عبرت عن ولائهم للمتروبول.³

أما الحزب الشيوعي الجزائري فقد أصبح جزائريا بعد عقد مؤتمره التأسيسي في الجزائر ما بين 17 و 18 أكتوبر 1936، حيث كان حينها مؤيدا لنجاح الجبهة الشعبية. غير أنه بدأ يعيش أزمة داخلية أدت بزعميه، "بوخورت بن علي"، إلى استقالته من منصبه مع نهاية سنة 1939. و كان الخطاب الذي ألقاه "موريس طوريس"⁴ Maurice Thorez في العاصمة يوم 11 فبراير 1939 قد استهلك القطيعة المذهبية بين الحزب الشيوعي الجزائري و الحزب الوطني الاستقلالي،⁵ الذي كان معظم زعماءه في السجون.

وضعت السلطات الاستعمارية منذ سنة 1938 تشريعا حول مسألة الاعتقال (الحجز) قائما على مبدأ قانون المشتبهين (أو المشتبه فيهم). فجاءت المراسيم الأولى خاصة بالأجانب فقط. فرخص مرسوم 12 نوفمبر 1938 اعتقال "الأجانب غير المرغوب فيهم". أما مرسوم 18 نوفمبر 1939، الذي صدر بعد التوقيع على الحلف السوفيياتي

- La nuit coloniale...1962
- Autopsie d une guerre...,1980.
- L'indépendance confisquée...,1984
- Et aussi : Demain se lèvera le jour..2010.

- أنظر في الموضوع إلى كل من:

- حربي محمد، الثورة الجزائرية سنوات المخاض، مرجع سابق.....ص ص 183-184.

- Ferhat Abbas, De la colonie vers la province le Jeune Algérien, Alger-Livres éditions, Alger, 2011.

¹ - ANOM, GGA, série H, 11H51, affaires indigènes et musulmanes, bulletin d'information quotidien N° 17, du 29 septembre 1939 établi par les services du Gouvernement général.

² - SHD, TOAFN, série 27N 218..., op.cit., 1939.

³ - ANOM, GGA, série H, 9H32, Rapports hebdomadaire de la direction de la sureté générale, septembre 1939. Et voir aussi : ANOM, 1H38, voir les sources du 2° bureau qui attestent du loyalisme de la population indigène.

⁴ - "موريس طوريس"، رجل سياسي فرنسي من مواليد سنة 1900 ب"نويال قودو" Noyelles-Godault، تقلد منصب الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي بداية من سنة 1930. ثم أصبح نائبا في البرلمان و بعدها عين في منصب وزير دولة من 1945 إلى 1946، ثم نائب رئيس المجلس من 1946 إلى 1947. و قبل وفاته أصبح رئيسا للحزب الشيوعي. توفي سنة 1964. أنظر:

- Petit Larousse illustré.. op.cit., p 1729.

⁵ - Kaddache (Mahfoud), « La question nationale algérienne et le parti communiste entre 1919-1939 », In R.H.C.M., N° 02, Janvier 1967, pp 95-105.

الجرماني في 23 أوت 1939، و إعلان الحرب في 3 سبتمبر 1939، فإنه شمل كل المشتبه فيهم سواء كانوا فرنسيين أو شيوعيين أم أجنب. و عليه أصبح الحزب الشيوعي الجزائري و كل الجمعيات المنخرطة في الأمية الشيوعية الثالثة قيد المنع من النشاط بداية من 26 سبتمبر 1939.¹

أصبح تأثير الحلف السوفيياتي الجرمني واضحا على الحزب الشيوعي و مناضليه، حيث أثار توقيع ستالين لهذا الحلف حفيفة نقابة عمال السكك الحديدية حول الموقف المتخذ تجاه الإتحاد السوفيياتي. و قامت مصالح الأمن الفرنسية بحجز عدد هام من المجلات قادمة من "لينينغراد" Leningrad إلى بعض المتعاطفين في الجزائر و حسين داي. غير أن الحزب الشيوعي بقي نشطا بواسطة جريدته "النضال الاجتماعي" La Lutte sociale التي أصبحت عباراتها مخالفة تماما للعقيدة العامة لسكان شمال إفريقيا: "تسقط الحرب الإمبريالية و تحيا الثورة".²

في 4 نوفمبر تم تجميد نشاط "الجمعية الجمهورية للمحاربين القدامى" L'ARAC، التي أنشأها و سيرها الحزب الشيوعي، بقرار من الإدارة الاستعمارية، و أصبح مناضلوها يتوخون الحذر الشديد من الخوض في المسائل الشائكة و حتى في الظهور علنا في الاجتماعات الرسمية. و هكذا أقدم المستشارين في بلدية "بيريجو" Perrégaux على إبلاغ رئيس البلدية عن عدم حضورهم لجلسات المجلس البلدي تفاديا لأي حادث. أما في الجزائر و قسنطينة، فقد أقدم ممثلي نقابات العمال "للكونفدرالية العامة للعمال" CGT، من إقصاء الأعضاء الذين لم يدينوا الحلف السوفيياتي الجرمني، و هكذا شرعت غالبية النقابات العمالية في التنصل من قبضة الشيوعيين.

ب - سير عملية التجنيد في المغرب

أظهر السكان المسلمون في المغرب نفس الحماس للالتحاق بصفوف الجيش الفرنسي بإيعاز من السلطات العليا في البلاد، حيث بعث السلطان المغربي "بن يوسف سيدي محمد"³ في الخامس من سبتمبر 1939 بريقة إلى شعبه قرأت عليه في جميع مساجد المملكة أين يبين فيه دور الحماية على رعاياه، و دخول فرنسا الحرب

¹ - Peschansky (Denis), « Les camps français d'internement », in revue L'Histoire, N° 129, janvier 1990, pp 104-109.

² - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 35.

³ - سيدي محمد بن يوسف و الملقب بمحمد الخامس، ولد في مدينة فاس في 10 أوت 1909. فرضته فرنسا كسلطان للمغرب سنة 1927 و هو لم يتعدى الثانية و العشرين من عمره. تعاون مع فرنسا في البداية لكن سرعان ما رفض تطبيق التشريعات و المراسيم التي أصدرتها الإدارة الفرنسية في حق اليهود خلال فترة الحرب العالمية الثانية. و بعد نهاية الحرب، تقرب أكثر فأكثر من زعماء الحركة الوطنية خاصة في حزب "الاستقلال" بقيادة "علال الفاسي" الذين ساندوه إلى غاية نهاية الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1956. أمام موقفه الجريفة، اضطرت السلطات الاستعمارية إلى نفيه على مراحل إلى كل من: جزيرة كورسيكا ثم جزيرة مدغشقر سنة 1953. لتعوضه بالسلطان "محمد بن عرفة" الذي لم يلقى ترحيبا من السكان المغاربة، الأمر الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى إعادة السلطان بن يوسف إلى المغرب، ليستعيد عرشه سنة 1955 بعد الأحداث الدامية التي عرفها المغرب خلال هذه المرحلة. و بقي سلطانا للمغرب إلى غاية وفاته سنة 1961.

³ - يرى البعض من الوطنيين المغاربة الذين عاشوا مراحل هذه الأحداث و السياسات، بأن الفرنسيين منذ احتلالهم للجزائر و هم يبحثون عن الوسيلة التي تمكنهم من احتلال كل الشمال الإفريقي و تعميره بسكان أوروبيين من المسيحيين و غير المسيحيين. أي في النهاية الوصول إلى تطبيق مشروع الاستيطان على شمال إفريقيا. للتوسع أكثر ينظر:

- الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 161.

و واجب الاعتراف بالفضل، حيث صرح: "اليوم دخلت فرنسا الحرب للدفاع عن أرضها و شرفها و كرامتها و مستقبلها و معه الدفاع عنا. و نحن دائما أوفياء لمبادئ شرف جنسنا و تاريخنا و ديننا. و من واجبنا المطلق أن نبدي للحكومة الفرنسية اعترافنا لكل ما قدمته لنا و أن نعترف بفضلها علينا. و عليه، كل من يخون واجب هذا الاعتراف، لن يكون أهل لتاريخنا و يعتبر مخالف للأوامر الإلهية التي فرضت علينا واجب الاعتراف بالفضل. و بداية من هذا اليوم، و إلى غاية أن يرفع علم فرنسا و حلفائها و يكلل بالنصر، علينا أن نقدم لها مساعدتنا المطلقة و نضع أمامها كل مواردنا من أجل نصرتها.."¹

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية في الثالث سبتمبر 1939، استجاب الشعب المغربي لنداء ملكه و زعماءه الوطنيين. فبعد قرار التجنيد العام، بدأت قوائم المتطوعين تتضاعف في كل أرجاء المملكة. و تعهد الآلاف من المغاربة بالدفاع عن الحرية و الديمقراطية. فالبعض منهم قاموا بذلك عن قناعة، و البعض الآخر استجابة لنداء الملك، و أخيرا هناك من رضخ للضغوطات. و التزم القياد و الشيوخ بتقديم يد المساعدة للعائلات التي ستسمح بتجنيد أبنائها و تتعهد بحل مشاكلها العالقة.²

لقد أعرب "نوقس" عن امتنانه لموقف سكان المغرب في الحرب حيث صرح: "لقد تأثرت كثيرا باندفاع المغاربة لنصرة بلادنا عندما أعطى جلالة الملك الأمر لذلك. فليتقبل منا كل الشكر و فائق الاحترام".³

حدد السلطان المغربي تأييده لممثل الإدارة الفرنسية الجنرال "نوقس" خلال الاحتفالات بعيد "مولاي إدريس" في 23 سبتمبر 1939، عندما صرح له: "لقد أصبحت مصالحنا مشتركة كما هي قلوبنا إلى الأبد. إننا لا نشك في أن النصر في النهاية لن يكون إلا للحق و للحضارة الحقيقية. إنها حرب توحد المسلمين و المسيحيين.."⁴ و هكذا تمت عملية التجنيد بانتظام و ولاء لدرجة أن طلبات التجنيد في صفوف المتطوعين قد فاقت كل التوقعات و خلقت ازدحاما كبيرا في مكاتب التجنيد.

ج - عملية التجنيد في تونس

¹ - اتخذ السلطان المغربي موقفا صريحا إلى جانب فرنسا منذ البداية باعتبار أنه وضع كل موارده البشرية و الفلاحية و المنجمية و منشأته العسكرية تحت تصرف فرنسا لاستغلالها لأقصى درجة. ينظر إلى كل من:

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre., op.cit., p 33.

- Le Tourneau Roger, Evolution politique de l'Afrique du Nord., op.cit., p204.

- غير أنه في نفس سياق هذه الرسالة، يذكر "برنار لوقان" أن الرسالة قرأت يوم الجمعة 3 سبتمبر في المساجد المغربية و جاء فيها: "إن الذاكرة الشعبية لا زالت تحتفظ بذكرات الحرب العالمية الأولى المؤلمة، التي حملت في طياتها نصيبا من معاناة الشعب و من عائلات منهكة و أراضي خصبة محروقة و مدن محطمة و أملاك مهجرة.. ينظر إلى:

- Lugan Bernard, Histoire du Maroc..., op.cit., pp 261-262.

² - Hadj-Saddok (Mohamed), « La guerre de 1939-1940 selon un soldat poète algérien », in R.O.M.M., N°15/16, pp 21-34, in Annexe n°1.

³ - Discours du résident général Noguès devant les sections marocaine et française du conseil du Gouvernement le 27 décembre 1939, in Bulletin de l'Afrique Française., N° 1420 du 12 janvier 1940, p 94.

⁴ - ANOM, GGA, Sous-série, 32H6, Situation politique et économique du Maroc, septembre 1939.

جاء الموقف التونسي من عملية التجنيد العسكري على لسان الباي "المنصف أحمد باشا" في العاشر من سبتمبر 1939 في شكل نداء وزع على أفراد الشعب التونسي، يعتبر فيه أن ما حل بالعالم اليوم هو من الكوارث التي كان يخشاها البشر، وأن القوة المغتصبة قد حلت مكان الحق والحرية. واعتبر الباي أن فرنسا قد حاولت بكل قوة تفادي الحرب و قد سعت بكل الطرق إلى المصالحة. ويرى أن تلبية النداء من طرف أبناء الشعب التونسي يزيد فخره واعتزازه في مثل هذه الظروف. لأنه يدافع عن حرياته و تطوره و ممتلكاته و إرثه المادي و المعنوي ضد الغطرسة و الظلم.¹

أصبح المخذون في تونس يثيرون مخاوف الإدارة الفرنسية بسبب استعدادهم لخوض الحرب ضد إيطاليا، الأمر الذي لم تتقبله كل الأحزاب السياسية التي بقيت مترددة بسبب ذلك. غير أن الأوضاع الداخلية بقيت متوترة بفعل القيود التي فرضت على السكان. و في 29 سبتمبر 1939، أقبل مائة جندي احتياطي ينتمون إلى الفيلق الرابع للرملة، و المتمركزين في مدينة القيروان، إلى الإفراج عن كل المساجين الموحدين في سجون المدينة. و قد أرجع هذا الفعل إلى الصعوبات المادية و الحملة الدعائية التي كان يقوم بها الحزب الدستوري الجديد على مجندي الاحتياط.² كما طالت عملية التجنيد خصيصا سكان البادية الذين كانت ظروفهم قاسية جدا، بالإضافة إلى الظروف المادية لجنود الاحتياط التي كانت بدورها غير ملائمة بسبب نقص المخزون من الألبسة إلى جانب ضعف التأطير. و أثرت الدعاية الانهزامية على الوضع في تونس حيث قام المقيم العام "إيريك لابون"³ Eirik Labonne، بتطبيق المرسوم الفرنسي للفتاح من سبتمبر و الذي يعاقب الدعاية المرتبطة بالمعلومات التي من شأنها التأثير على عقلية أفراد الجيش و السكان.⁴ لقد كان الجنرال "نوقس" يخشى العواقب التي سوف تخلفها حرب طويلة المدى على السكان الذين أبدوا ولائهم لفرنسا مع بداية الحرب، فعمل على إنشاء مصلحة الشؤون العسكرية الإسلامية لإطلاع القيادة العسكرية على الحالة النفسية للجنود الأهالي و مساعدتهم إن تطلب الأمر ذلك.

في الواقع وجدنا نفس الأفكار و الرؤى حول سير عملية التجنيد عند الجزائريين و المغاربة منتشرة في الأوساط التونسية. ففي حين نجد الرسميين الفرنسيين و من أذناهم ممن يؤمنون بالفكرة الاستعمارية يشيدون بتجاوب المسلمين في شمال إفريقيا مع نداء فرنسا للتجنيد، نلاحظ العكس عند المتشددین من الوطنيين الذين يقولون بأن نداءاتهم كانت تصب كلها في اتجاه الرفض و عدم تلبية نداء الالتحاق بصفوف الجيش الفرنسي.⁵

¹ - A.N.T, Tunis, le 10/09/1939 : Voir la proclamation du Bey Ahmed Pacha, in annexe n° 2.

² - SHD, TOAFN, serie 27N 224, journal de marche du général Noguès déclarant qu'il y a eu 2 morts et 9 blessés à la date du 26 septembre 1939.

³ - "إيريك لابون" دبلوماسي فرنسي، و لد بباريس في 3 نوفمبر 1888، تقلد مناصب هامة أولا الأمانة العامة للمحمية المغربية من 1928 إلى 1932، ثم عين مقيم عام في تونس من نوفمبر 1938 إلى غاية جوان 1940. و عندما انتهت الحرب العالمية الثانية عين مقيما عاما في المغرب من 02 مارس 1946 إلى غاية 14 ماي 1947. توفي في باريس في 12 نوفمبر 1971 عن عمر يناهز 83 سنة. أنظر:

- WWW monde diplomatique.fr/mab/86..

⁴ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 34.

⁵ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 85.

لم يلتحق بصفوف الجيش الفرنسي إلا من تم تجنيده بالقوة أو عن طريق الضرورة القصوى في حالة ما إذا احتاجت إليه الإدارة الاستعمارية. وكم كانت حاجتها في هذه الظروف الحالكة لمسلمي شمال إفريقيا؟؟ فتوالت أعمال التخريب تنديدا بعملية التجنيد و اشتدت معها تهديدات القائد العام للجيش في تونس الجنرال "بلان"، الذي كان حديث العهد فيها حيث كان يشغل نفس المنصب في المغرب. و شرع في تحميل المسلمين في تونس مسؤولية حراسة الأسلاك التلفونية التي طالتها عمليات التخريب بشكل ملحوظ.¹

2- استغلال الموارد المادية لبلدان شمال إفريقيا

تزخر أراضي شمال إفريقيا بثروات، منها من كان معروفا و منها من لم يكن قد اكتشف بعد، لكن عمليات التنقيب كانت كلها تدل على أن هناك كنز مدفون في الصحراء. و بالعودة إلى ما كان موجود من ثروات احتل "الفوسفات" صدارة الإنتاج العالمي بالإضافة إلى معادن أخرى لا تقل أهمية مثل الحديد و الكوبالت Cobalt. كما كانت هناك كميات هامة من معادن نادرة مثل المنغنيز و الموليبدان Molybdène و الكيسلغوهير Kieselguhr،² غير أن نقص التجهيزات الصناعية و اليد العاملة المؤهلة لم يسمحا بتطوير أي مشاريع تجهيزية للمعادن. و الجدول التالي يبين لنا إنتاج دول شمال إفريقيا من بعض المعادن الهامة خلال سنة 1936:

¹ - لقد أرغم السكان بحراسة الأسلاك التلفونية بنظام المناوبة، و منع الجنود التونسيون من السلاح حتى في ثكناتهم. و ذلك من شدة خوف الإقامة العامة من تمردهم. هذا السلوك زاد من حدة عمليات التخريب حيث ظهرت بوادر العصيان الشعبي عند التونسيين المجندين، ما استدعى استعمال المكر و الخديعة لدفعهم التوجه نحو مدينة "بنزرت" أين تم اقتيادهم إلى جبهات القتال في بلجيكا و إيطاليا. لمزيد من الشروح أنظر: - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية...، مصدر سابق...، ص 85.

² - بخصائصه الكيميائية يستعمل " الكيسلغوهير"، و هي تسمية ألمانية، في مكونات المتفجرات كما يمكن استعماله في صناعة معادن خاصة، و تستخرج منه مواد تفيد في تشييف المشروبات، و خاصة "الجنة" منها كما يستعمل في إنتاج مواد البناء. ينظر إلى : - Petit Larousse illustré...، op.cit...، p 559.

المعادن بالطن سنة 1936	الجزائر	تونس	المغرب	المجموع	Minerais en tonnes 1936
الفوسفات	527000	1785000	1608800	3920800	Phosphate
الحديد	2940000	946000	259167	4145167	Fer
كبريتور الحديد	48000	48000	Pyrite de fer
الفحم الحجري	19000	..	141050	160050	Houille
الزنك	9600	2280	5532	17412	Zinc
الرصاص	6000	20950	25964	52914	Plomb
البترو	258	258	Pétrole
الكيسلغور	13900	13900	Kieselguhr
الأنثيموان	1800	..	262	2062	Antimoine
الموليدان	205	205	Molybdène
الكوبالت	6541	6541	Cobalt
المنغنيز	52000	52000	Manganèse
القصدير	47	47	Etain

لقد بينت دراسة أجريت سنة 1937 حول إمكانية تمويل جيوش شمال إفريقيا بالأسلحة، في حال انقطعت المواصلات مع المتروبول : "أنه مهما كان باطن أرضها غنيا بالمواد الأولية الضرورية لصناعة الأسلحة، فإن شمال إفريقيا لن تقدر على تطويرها و الشروع في عملية صنع الأسلحة. لذا يجب استيراد و تخزين المواد الأولية الجاهزة و خاصة الفحم..."¹

بقيت المسألة التي كانت تشغل بال المسؤولين الفرنسيين و المتمثلة في كيفية مشاركة شمال إفريقيا في الجهود الحربية للمتروبول ؟ و في هذا الصدد أجريت عدة دراسات من أجل تطوير الإنتاج المعدني و الزراعي و ضمان تموين المتروبول. و أنجز عمل سنة 1938 حمل عنوان: "الدور الاقتصادي لما وراء البحار في الدفاع الوطني"، و الذي اعتبر أن المستعمرات الفرنسية هي وحدها القادرة على تموين المتروبول بالمواد الغذائية أثناء الأزمات الحربية. و ذكر بحقيقة الحرب الكبرى أين استطاعت الجيوش و السكان في فرنسا من تجنب هاجس المجاعة بفضل الدعم الذي قدمته شمال إفريقيا.²

هذا الموقف يبين لنا بأن المسؤولين في فرنسا لم يغيروا من تصورهم للأحداث القادمة، بل بالعكس بقيت أفكارهم معلقة في ذاكرة الماضي، أي في 1914-1918، حيث اعتبروا أن المستعمرات تبقى دائما مصدر تموين و خزان مادي و بشري. و التفكير في عزلة إستراتيجية لشمال إفريقيا عن مجريات الحرب، في الوقت الراهن، لا يدخل ضمن اهتماماتهم الحالية.

¹ - SHD, série 2N65, CSDN, section K, note du 23 janvier 1937, possibilités de ravitaillement en armements des troupes opérant en Afrique du Nord.

² - SHD, 7N4196, d3, et 2N65, secrétariat général de la défense..., op.cit.

كما أن نقص الموارد المادية الجاهزة و البشرية المؤهلة، لم يكن لوحده العائق الذي وقف في وجه تصنيع شمال إفريقيا، بل هناك الصناعيين الفرنسيين و المستوردين من شمال إفريقيا، الذين وجدوا في جنوب البحر المتوسط سوقا مزدهرة مكتنتهم من الحفاظ على مصالحهم، و منعهم من تشجيع الصناعات التحويلية. و كانت الإرادة السياسية الوحيدة هي الحفاظ على المستعمرات في تبعيتها الدائمة، كما أوضحه "ماريوس موتي" Marius Moutet، وزير المستعمرات عندما قال: "إنه من الخطأ الكبير أن نجز بمستعمراتنا نحو عملية تصنيع بدون تفكير و لا رؤية. لا يجب أن نفتح الباب أمام بروليتاريا مستغل و غاضب، لأن ذلك من شأنه أن يعرض السيادة الفرنسية للخطر..¹" إذن تبقى شمال إفريقيا منطقة خالية من صناعات تحويلية و بالتالي عليها أن تستورد أكثر من 54% من المنتجات المصنعة.

من هنا يتجلى بوضوح أن شمال إفريقيا تعتمد كلياً على المتروبول و البلدان الأجنبية فيما يخص المواد الجاهزة، في المقابل فهي مكتفية تماماً من الجانب الغذائي و الزراعي، لأن إمكانياتها تسمح لها بضمان العيش للسكان المدنيين و العسكريين دون اللجوء إلى الاستيراد. غير أن هناك مواد أساسية مثل: السكر و القهوة و الشاي و القماش لا بد من استيرادها لأنها غير موجودة على أراضي شمال إفريقيا.²

إن الشغل الشاغل الذي أخذ كل تفكير المسؤولين الفرنسيين هو توفير احتياجات المتروبول خلال كل المدة التي ستدوم فيها الحرب. فوضعت أسس مشتركة بين كل دول شمال إفريقيا من أجل التحضير لعملية تجنيد اقتصادي و صناعي و تكوين مخازن أمن تحسباً لأي طارئ. و منذ سنة 1937، طلبت قيادة أركان الجيش الفرنسي بأن تباشر دراسة لوضع تنظيم اقتصادي و تجهيز صناعي يمكن شمال إفريقيا من مواجهة مخلفات حرب طويلة المدى على أراضيها.³ كما أوكلت مهمة تجنيد اقتصادي مستقلة للأمانة العامة للمجلس الأعلى للدفاع الوطني، من أجل تكوين المخزون و الإسراع في تهيئة ميناء "مرسى الكبير" و عصرنة موانئ كل من "الدار البيضاء" و "أغادير".⁴

ظهر هذا النوع من التجنيد بسبب مخلفات ما بعد الحرب العالمية الأولى، حيث أوجده تعليمه 9 أكتوبر 1926 التي منحت المسؤولية التامة في التصرف للحكام و المقيمين العامين. ثم أتبعته تعليمات أخرى صدرت في 7 جانفي 1937 و 6 سبتمبر 1938، كلفت بمسؤوليتها وزارة الداخلية، بالنسبة للجزائر، و وزارة الخارجية بالنسبة

¹ - Marseille (Jacques), Empire colonial et capitalisme français : histoire d'un divorce, éditions Albin Michel, Paris, 1984, pp 336-340.

² - SHD, série 1P33, ministère de la défense nationale, (General Weygand puis amiral Darlan), secrétariat de coordination ; rapport adressé au Conseil supérieur de la France d'outre-mer le 9 février 1939. (Cité par : Levisse- Touze..L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit, pp 51-55)

³ - SHD, TOAFN, série 27N217, lettre du ministère des affaires étrangères au général Jamet, secrétaire général du CSDN.

⁴ - SHD, série 2N24, séance du CPDN, du mois de décembre 1937.

لكل من المغرب و تونس. أما الأمانة الدائمة للدفاع الوطني و المكلفة بالتنسيق فقد أسندت المهمة للإدارة الثانية عشر في المتروبول و المشكلة من لجنة تضم ممثلين للمصالح الإستراتيجية و الاقتصادية للمقاطعات الثلاث.¹

جاء قانون 11 جويلية 1938، نوعا ما متأخرا لينظم الأمة في وقت الحرب، غير أنه أصبح ساري المفعول بالنسبة للجزائر في 24 سبتمبر 1938. و يسمح هذا القانون للحاكم العام في الجزائر بمصادرة كل أنواع الصناعات، مهما كانت قلتها، يساعده في ذلك لجنة جهوية مشكلة من ممثلين عن كل وزارة و مهمتها التنسيق من أجل رصد كل المشاكل التي تعترض تطبيق قانون المصادرة.²

أما في الحميتين الفرنسيتين المتبقيتين، تونس و المغرب، فإن هذا القانون كان خاضعا لتأشيرة السلطان و الباي. فصدر "ظهير" 13 سبتمبر 1938 في المغرب يحدد التنظيم العام للبلاد في وقت الحرب. أما المرسوم "البيليكي" الذي صدر في 23 سبتمبر 1938 في تونس فهو يضع البلاد تحت قانون 11 جويلية. و لا توجد هيئات دائمة للتنسيق بين الأمانات الدائمة الثلاث: الدفاع الوطني لإفريقيا الشمالية، اللقاءات الشمال إفريقية، و اللجنة العليا المتوسطة، تؤدي هذا الدور التنسيقي. تبقى فقط هناك لقاءات ظرفية تمكن من تبادل وجهات النظر بين كل الأطراف المعنية بالمسألة.³

بدأت حركة التجنيد الاقتصادي تعرف نشاطا متزايدا في المتروبول بعد القرارات التي اتخذها رئيس المجلس الفرنسي "دلاديه" بداية من شهر أبريل سنة 1938 حين أمر "وزارة الجوية" بالشروع في عملية تنقيب واسعة للكشف عن الموارد الصناعية، غير أنه في الأخير توصل خبراء الجوية إلى استحالة صنع محركات طائرات في غياب المنشآت. و عليه، الاستعانة بالمحركات الأمريكية و تركيبها في حظيرة الدار البيضاء و صيانتها هناك، هو السبيل الوحيد الممكن، في انتظار إنشاء ورشة جهوية لتصليح عتاد الجيش الجوي في "الدار البيضاء" بالقرب من الجزائر.⁴ و التي لا تعدوا أن تكون ورشة لتصليح كهربائي لبعض الطائرات.⁵

مع مطلع سنة 1939، ركز "دلاديه" اهتمامه على الإمكانيات الصناعية التي تتوفر عليها الإمبراطورية و ساءل الأمانة العامة للدفاع الفرنسي حول الإجراءات المتخذة من أجل تجهيز المستعمرات بصناعات حربية و التنقيب على المعادن و المحروقات حتى تتمكن الإمبراطورية من مواجهة مشكلة قطع المواصلات. غير أن الجواب الذي بعثت به الأمانة العامة، لم يكن يبشر بالخير، فصدر في 1 مارس 1939: "أن أراضي ما وراء البحار لا تتمتع في الوقت الراهن، و بكميات كافية، على العناصر اللازمة لإقامة أي نوع من الصناعة الحربية بسبب نقص المواد

¹ - SHD, série 2N67, section K du CSDN, la 12^e direction est chargée de la fabrication des armements. Voir aussi : SHD, Etat-major section d'Afrique, série 7N4133.

² - SHD, CSDN, série 2N210, 3^e section, article 8. Et voir aussi : SHD, CMDN, article 29 de la Loi du 11 juillet 1938.

³ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord en guerre..., op.cit., p 52.

⁴ - توجد هذه الورشة اليوم في الدائرة الإدارية "الحراش" في العاصمة، و هي منشأة بقيت تحت تصرف الجيش الوطني الشعبي الذي أقام بها مدرسة عليا للصيانة العسكرية.

⁵ - SHD, série 2N57, CSDN, instruction du 9 octobre 1936 qui prévoit la possibilité de recourir aux usines situées dans les territoires d'outre-mer.

الأولية و موارد الطاقة و اليد العاملة المؤهلة.¹ "إنها نفس الإجابة التي صدرت في 1937 تعود لتجد نفس الإجابة ألا وهي ليس بعد !!!

تمحورت عملية التجنيد الصناعي و الاقتصادي أساسا على تجهيز مخازن للمحروقات التي كانت تنقص في شمال إفريقيا.² حيث حددت احتياجاتها على النحو التالي: 768000 طن للمغرب، و 310388 طن للجزائر، و أخيرا 197500 طن لتونس. حيث كشفت عملية التنقيب على البترول التي باشرتها السلطات الاستعمارية في المغرب سنة 1938 على استغلال حقول بترول "تسلفات" Taselfat و "بودراع" Bou Draa. غير أن الكميات كانت قليلة و وصلت إلى حوالي 4150 طن.

تمكنّت الإدارة الاستعمارية و وزارة الدفاع الفرنسية من تجهيز مخازن لمواجهة الحرب تقدر بـ شهرين استهلاك سنوي للمغرب، و أربعة للجزائر و ثلاثة لتونس. أضف إلى ذلك أن ثلث 3/1 المخازن كانت مخبأة على الساحل مما يجعلها هدف سهل لهجوم جوي و بحري مشترك. و إلى غاية عشية الحرب، لم يتمكن "الديوان الفرنسي للوقود السائل" من إيجاد حلول مناسبة لبناء مخازن حقيقية و تغطية العجز الملاحظ على شاحنات سواحل.³

ثالثا: الأساليب الدعائية الأجنبية و تأثيراتها في المنطقة

أصبحت الدعاية المغرضة إحدى الدعائم الأساسية للحرب الجديدة، و ذلك لما لها من تأثير على نفسية الأفراد و سلوكياتهم، سواء كانوا داخل جبهات القتال أو في المناطق المحصنة ينتظرون المستجدات التي سوف تطرأ على ساحات المعارك و تحول نتائجها من انتصار إلى انكسار.

لقد اشتد الصراع الفرنسي الألماني منذ البداية، حيث ظهرت التأثيرات الأولى لهذه الحرب الدعائية على سكان بلاد شمال إفريقيا، ثم ظهرت قوى أخرى استعملت تكنولوجيا حديثة في مجال الدعاية الإعلامية بغرض كسب تأييد السكان المسلمين لهم. من هنا ظهرت أهمية الوسائل الدعائية في رسم دهنيات جديدة تخدم مصالح الدول المتحالفة بالدرجة الأولى. غير أن دول المحور هي الأخرى لم تبق مكتوفة الأيدي و راحت تبحث عن سبل و طرق دعائية تخدم مصالحها، ما دام أن الحرب لا تعني الشعوب المستعمرة في أي شيء،⁴ و هذا ما عبر عنه الوطنيون الجزائريون و التونسيون و المغاربة عندما تيقنوا من أنها حرب لا تعنيهم و لكن في المقابل قد تفيدهم كثيرا و يجنون منها ثمارا غالية.

1- التقارب الألماني-الشمال إفريقي قبل 1939

¹ - SHD, TOAFN, série 27N217.

² - SHD, TOAFN, série 27N197, dossier 1.

³ - SHD, TOAFN, série 27N 197, Le déficit est de 692 wagons-citernes.

⁴ - هذا الموقف عبرت عنه كل الشخصيات الوطنية، من حزب الشعب إلى جمعية العلماء. و قد أشرنا إلى ذلك مطولا. أنظر ص: 13-18.

إن المطلب الاستعماري المباشر المعتمد مع مطلع السنوات التي سبقت 1939، لم يكن سوى مسرحية من اللعبة الدبلوماسية التي حيكت من طرف القوى الاستعمارية، الغرض منها إعطاء البديل لفرنسا و إنجلترا. لأن الحقيقة كانت في النقاش الذي كان يدور بين أعضاء الحزب الوطني الاشتراكي من 1928 إلى 1936، في كيفية استئناف التوسع الاستعماري من خلال مشاريع استعمارية ضخمة تم ضبطها بطريقة منهجية كبيرة، لم يكن لدى أي زعيم عربي أو إفريقي فكرة عنها.

اعتبر هتلر، في البداية، أن المجال الحقيقي و الضروري للحركة الاستعمارية الألمانية موجود في أوروبا الشرقية حين صرح: "إن مستقبلنا في أوروبا و ليس في البحار.." و قد أراد بهذا أن يتعد عن السياسة البحرية الاستعمارية التي اعتمدها كل من "بسمارك" و "فيلهلمين". فالمستقبل كما كان يراه سوف يكون للأجيال المقبلة التي سوف يكون على عاتقها تحقيق استعمار القارة الإفريقية بعد قرن من الزمن، و ذلك بعدما يتم تعبيد الطريق أمامها بإقامة الإمبراطورية الجرمانية الجديدة لشرق أوروبا. هذا ما كتبه سنة 1928 في كتابه "زويت بوش" Zweites Buch، الذي بقي حبيس الأدراج (غير مطبوع) في حياته.

بالرغم من المشاعر الحقة التي كان يكنها "هتلر" للشعوب العربية، إلا أن حكومته تدبرت أمرها فيما بين 1933 إلى 1939 و عرفت، بطريقتها الدبلوماسية التقليدية، كيف تجامل و تطري العالم العربي الإسلامي بأسمى عبارات الود و التقدير.¹ حيث ظهرت ألمانيا النازية كقوة مناهضة للاستعمار، حتى و إن كان عليها أحيانا أن تطالب، باسم "المساواة في الحقوق" أن تعاد إليها "مستعمراتها المسروقة".

استعادة ألمانيا بريقتها في الأوساط العربية عندما بدأت قوتها تنمو من جديد، فلو حظ ذلك في البلدان المغاربية و بخاصة في المغرب.² فتجند الوطنيون العرب ضد الخطوات الصهيونية على أرض فلسطين، الأمر الذي جعلهم أكثر تعاطف مع الدعاية الألمانية المناهضة لليهود.³ فبدأ هلال ألمانيا يكبر في العالم العربي بعد سنة 1934 لأن كل الوطنيين العرب كانوا يأملون في الحصول على الدعم الألماني لحركاتهم التحررية.⁴

كما أبدت ألمانيا، من جهة أخرى، اهتماما كبيرا بمنطقة شمال إفريقيا الخاضعة للسيطرة الفرنسية التي كانت تعتبرها خزاناً كبيراً للقنصة. و زاد هذا الاهتمام مباشرة بعد الأحداث التي شهدتها مدينة قسنطينة سنة

¹ - لقد تم تطهير مختلف الترجمات التي قدمها "ماين كامف" Mein Kampf باللغة العربية من بعض العبارات المهينة التي يكون قد تلفظ بها هتلر تجاه العرب. أنظر:

- Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon III., op.cit., p 168.

² - Ibid., p 169.

³ - Dès le 15 juillet 1937 le grand mufti de Palestine faisait savoir au consul général d'Allemagne à Jérusalem, qu'il espérait une déclaration de personnalités responsables contre la création d'un état juif, et le premier ministre de l'Iraq avouait compter sur l'appui des Allemands. (Ageron. Id., p 169).

⁴ - اطلع الحاكم العام في الجزائر على "الرغبة الملحة لعدد كبير من الطلبة الجزائريين الذين كانوا يرغبون في تعلم اللغة الألمانية". و نذكر هنا شغف طلبة "مدرسة الجزائر" بأعمال الفيلسوف الألماني "نيتشه". فيما يلي النص الأصلي:

- Même en Algérie, le gouverneur général fut averti du « désir symptomatique formulé par de nombreux élèves et étudiants algériens d'apprendre l'allemand ». Les élèves de la medersa d'Alger se passionnaient notamment pour l'œuvre de Nietzsche. Voir :

- Ageron Charles Robert, L'Algérie algérienne de Napoléon..., op.cit., p 169.

1934، حيث كانت شمال إفريقيا دائما تقدم على أنها نقطة ضعف فرنسا. من هنا بدأت الحكومة النازية تراقب الأوضاع في البلدان المغاربية خاصة في سنوات 1936-1937، منها على وجه الخصوص تطور المد الشيوعي في بلدانها ثم رد الفعل المناهض للشيوعية، و كذلك تطور مطالب الوطنيين المسلمين التي كان يرى فيها امتدادا للوطنية العربية.¹

اعتمدت ألمانيا في البداية على أسلوب دعاية بسيط تجاه الوطنيين العرب يعتمد على تطوير سبل الصداقة الألمانية مع الشعوب و البلدان التي كانت ضحية للاستبداد الإمبريالي الناتج عن مختلف مقررات مؤتمر الصلح بفرساي. الأمر الذي دفع بأحد المسؤولين الألمان بأن يحي استيقاظ الشعور القومي لدى العرب.² كما أقدم الدكتور "قروبا"، Dr Grobba أحد أكبر منفذي "السياسة العربية" الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، على التعهد لمساعدة البلدان العربية في عملية تحريرها و تطورها. هذا ما جعل "بالدور فون شيراخ" Baldur Von Schirach يتصل بالوطنيين السوريين الأكثر تطرفا لمناقشة معهم الأوضاع الراهنة في البلاد و كيفية التخلص من الوجود الفرنسي.

بدورها استغلت الصحافة الألمانية أحداث مكناس و الخميسات و فاس بالمغرب، التي دارت خلال سنة 1937 و التي عبرت عن القوة المتنامية للوطنية المغربية، لتعبر عن مساندتها للحركة القومية العربية. و بدأت تندد بالتسلط الاستعماري الفرنسي و أساليبه القمعية المستعملة لإخضاع شعوب المنطقة. و قد جاء رد الفعل الفرنسي على هذه التصريحات في 28 أكتوبر 1937، على لسان السفير "أ.فرانسوا بونسي" A. François Poncet، الذي اعتبر أن ألمانيا تحاول من وراء كل ذلك أن تسترد مستعمراتها القديمة التي سلبت منها بعد الحرب الكبرى، لذلك فهي تلعب على أوتار القوميات العربية.³

لقد أفادت مصالح الاستعلامات الفرنسية أن الألمان كانوا يشجعون الحركات الوطنية في بلاد المغرب بطريقة سرية مع دعمهم للدعاية المناهضة للسامية في الأوساط المسلمة و الأوروبية معا. و قد ركز الألمان في الجزائر على الأعمال المناهضة لليهود و على عمليات تنصل المسلمين من صفوف جيش الليفي الأجنبي مدعمين ذلك بالأموال التي كانت تأتي من مدينة "هامبورغ" الألمانية و من بعض الجمعيات النشطة المتواجدة في الجزائر و وهران و مدينة تطوان المغربية.

2- الدعاية الألمانية في شمال إفريقيا

¹ - Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon..., op.cit., p 169.

² - بتاريخ 26 ماي 1937 تقدم أحد الناطقين الرسميين الألمان، و هو الدكتور "بيوركمان" Bjorkmann، أمام وفد عربي مشرقي بكلمة يحي فيها الشعور الوطني و الوعي السياسي الذي بدأ ينتشر في الأوساط العربية و ذلك، كما قال، بالرغم من اختلاف وسائلهم عن وسائلنا. ينظر:

- Ageron Charles Robert, « L'Algérie algérienne » de Napoléon..., op.cit., p 169.

³ - Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon III à..., op.cit., p 170.

مع الهزيمة الفرنسية في جوان 1940، أصبح الألمان أسياد شمال إفريقيا بطريقة غير مباشرة، حيث أصبح اهتمامهم على جبهات عدة. ففي المغرب، منحت أولوية الألمان للأهالي، ثم على صعيد آخر للنشاط الدبلوماسي. كما ركزوا جهدهم على الجزائر بكل خصوصياتها و أخيرا كان لهم عمل دعوي في أوساط السجناء من ذوي الأصول العربية خاصة من المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا.

تزامنت الدعاية الألمانية تجاه سكان شمال إفريقيا بالموازاة مع تحالفها مع الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما أدركت كل القوى المتناحرة الأهمية البالغة لتمرير أفكارها إلى المستعمرات، في مرحلة أولى ثم في صفوف المجندين من سكان شمال إفريقيا لاحقا. فكانت الخطوة الأولى متمثلة في المجهودات التي بذلتها الدولة الألمانية من أجل التقرب من السلطان العثماني و توطيد علاقتها مع الدولة العثمانية.¹

تعزيزت هذه الدعاية الألمانية لدى سكان شمال إفريقيا عندما دخل الألمان الحرب الكبرى إلى جانب الدولة العثمانية حيث كانوا يقومون بحملة دعائية على أوسع نطاق خاصة في وسط الفرق العسكرية المغاربية التي كانت آنذاك مشكلة أساسا من الجزائريين المجندين في المغرب. حيث كان الألمان في ساحات المعارك يرفعون الأعلام الخضراء الموشاة بالهلال و يبعثون بندايات للجزائريين يدعوهم للفرار من صفوف الجيش الفرنسي.²

كما استغلت ألمانيا سجلها النقي تجاه المسلمين و الإسلام، باعتبارها أنها لم تقم باستعمار أي دور من ديار الإسلام، لتقوم بربط علاقات صداقة مع المسلمين في مختلف المناطق، مستغلة عداوتها القديم مع فرنسا لتحاول ضربها في مجالها الحيوي المتمثل في مستعمراتها. فقامت بتأليب سكان منطقة شمال إفريقيا على الوجود الفرنسي داعية إياهم إلى الانتفاضة لاسترجاع حقوقهم المسلوبة.³

استمرت الدعاية الألمانية نشطة و حاضرة في صفوف الحركات الوطنية العربية حتى بعد تجريدتها من ممتلكاتها بعد مؤتمر فرساي سنة 1920، فظهرت ألمانيا كقوة مناهضة للقوى الاستعمارية التقليدية و بدأت توظف نشاطها معتمدة على الجامعة الإسلامية و على مناهضة السامية.

كما أن عدد كبير من الطلبة العرب درسوا في ألمانيا مما أتاح لهم الفرصة لربط علاقات وطيدة مع بعض القادة الوطنيين أمثال: إبراهيم الوزاني، مسؤول لجنة العمل المغربية، و عبد الوهاب، قائد الجالية المسلمة في برلين، و هو من أصل مغربي، و الأمير "شكيب أرسلان"⁴ Chekib Arslan مسؤول اللجنة السورية الفلسطينية في جنيف.

¹ - الأجنف (مانع)، المجندون المغاربة أثناء الحرب العالمية الأولى، رسالة ماجستير في الحديث و المعاصر، كلية الآداب و الفنون و الإنسانيات، قسم التاريخ، جامعة منوبة، تونس، 2006-2007، ص 91.

² - Meynier (Gilbert)، « Les Algériens en France 1914-1918 », in *Revue d'Histoire Maghrébine*, n° 5, janvier 1976, Tunis, p 52.

³ - الأجنف (مانع)، المرجع السابق...، ص 91.

⁴ - من مواليد سنة 1869، و هو أمير لبناني من أصول درزية. لقب بأمير البلاغة لفصاحة لغته العربية. و جمع بين المؤرخ و السياسي و الشاعر و الكاتب. من أشهر دعاة الوطنية الإسلامية و صاحب جريدة "الأمة العربية" التي كان لها تأثيرها الخاص على الزعماء الوطنيين العرب و خاصة منهم زعماء الحركة الوطنية في بلاد المغرب. كما يعتبر خريج مدرسة "جمال الدين الأفغاني" و "محمد عبده" و من أشد أنصار الدولة العثمانية و الجامعة الإسلامية. و غادر لبنان بعد الغزو الفرنسي و استقر في سويسرا أين بدأ منها مختلف اتصالاته مع الزعماء الوطنيين. كتب العديد من المقالات في عدد

كان مستقرا في برلين، الأمر الذي دفع البعض أن يصنفوه في خانة "عميل مصالح الدعاية الألمانية".¹ غير أن السؤال الذي ظل يشغل بال العديد من السياسيين و العسكريين مع نهاية شهر جوان 1940، هو موقف و قرار هتلر بخصوص شمال إفريقيا. هل كانت ضمن مخططاته الإستراتيجية كما حدث مع بولونيا ؟ أم أن هناك أطماع أكبر من شمال إفريقيا ؟ في واقع الأمر، الهزيمة الفرنسية المؤكدة جعلت هتلر يفكر في غزو بريطانيا. لأن أطماعه الحالية لم تكن موجهة إلى شمال إفريقيا ما دام أنه يسيطر عليها بطريقة خاصة.² كما يعترف "أجرون"³ بأن الدعاية التي استعملها "الرايخ الثالث" النازي خلال الحرب العالمية الثانية تجاه المغاربة لم تنل نصيبها من الدراسة. و حتى المؤرخين الألمان الذين تخصصوا في السياسة العربية للرايخ الثالث أهملوا هذا الجانب من الدراسة، خصوصا المصادر الشمال إفريقية و المصادر الفرنسية.

أ - أشكال الدعاية الألمانية في الجزائر

حاولت ألمانيا النازية منذ سنة 1933 التقرب و التودد للعالم العربي الإسلامي بالرغم من مشاعر الاحتقار التي كان يكنها هتلر للعرب و التي أعرب عنها في عدة مناسبات.⁴ و حاولت الدبلوماسية الألمانية إظهار دعمها

من الجرائد خاصة في فترة ما بين الحربين، ثم عين رئيسا للأكاديمية العربية في دمشق. و كان الممثل شبه الرسمي لفلسطين و سوريا في عصبة الأمم، حيث كان على رأس البعثة الدائمة السورية-الفلسطينية في جنيف و التي تأسست في القاهرة سنة 1921. و كان من المقربين للشيخ "محمد رضا" أحد أقطاب الجامعة الإسلامية.

دخل في اتصالات كثيفة مع الوطنيين في بلاد المغرب، منهم الشيخ التونسي "صلاح شريف" و أحد الأعيان المغاربة "الحاج عبد السلام بنونة" و أخذ معه في "جمعية شعوب الشرق" التونسي محمد باش حانية. و طد علاقاته في تونس مع "الحبيب بورقيبة" و ساعد كعبد الحفيظ حداد" و أصدقائه على المكوث في أوروبا. أما من الجزائريين فكانت له علاقة وطيدة مع "مصالي الحاج" في مدينة "جنيف" الذي كان يزوره بانتظام لدرجة أنه كان من الذين أثروا فيه للابتعاد عن الحزب الشيوعي الفرنسي و رفض مشروع "بلوم-فيوليت". كما قام بتقريب الرؤى بين العلماء و حزب الشعب الجزائري. توفي سنة 1946. أنظر : <http://www.les clés du moyen orient.com/Chekib-Arslan.html>

¹ - شكيب أرسلان وجه من الوجوه العربية المناضلة في سبيل قضية الوطن العربي و تحرره من قيود الاستعمار. إلا أن ذلك لم يعجب بعض الأطراف التي حاولت تلطيخ سمعته و نعتة بالعميل الجاسوس لفائدة ألمانيا و أنه أحد عناصر دعايتها الأساسية. ينظر كل من :

- Ageron Charles Robert, L'Algérie algérienne de Napoléon ..., op.cit., p 171. Et voir aussi : Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p 30.

² - لم تكن منطقة شمال إفريقيا تمثل أولوية في المشروع التوسعي لألمانيا. بحيث أن الأحداث المتلاحقة بينت سياسة هتلر في شمال إفريقيا التي كان يريدتها موحدة. و الدليل على ذلك السياسة المنتهجة مع كل من إسبانيا و إيطاليا، التي كان يريد هتلر إبقائهما بعيدا عن الأطماع المعلنة في المنطقة. فكان هدفه هو عزل المنطقة، هذا ما جعله يقترح على فرنسا شروط الاستسلام مع ضمانه لها لوحدة الإمبراطورية. من جهة أخرى لم تكن للجيش الألمانية القوة الكافية لخوض حرب جديدة طويلة المدى في شمال إفريقيا بعد كل الجهود التي بذلوها في غزو بولونيا. و ذلك بالرغم من توفرها على سلاح جوي قادر على ضرب مواقع العدو انطلاقا من القواعد الإيطالية المتواجدة في المتوسط. للمزيد ينظر :

- Kehrig Manfred, « Le point de vue allemand sur les armées françaises pendant la seconde guerre mondiale 1939-1945 », in colloque international tenu à l'école supérieure des techniques avancées, du 7 au 10 mai 1985, actes publiés en 1986, p 111. Et voir aussi :

- Masson Philippe, la marine française..., op.cit., p 404.

³ - Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon III..., op.cit., p 165.

⁴ - Ageron (Charles Robert), « Les populations du Maghreb face à la propagande allemande » in revue d'histoire de la deuxième guerre mondiale, N° 13 du mois d'Avril 1979, pp 01-13.

للسعوب المستعمرة و في نفس الوقت الظهور كقوة مناهضة للهيمنة الفرنسية البريطانية على المستعمرات، مما جعلها تحض بإعجاب الشعوب المغاربية، التي ربما كان يعجبها في هتلر موقفه المعادي للسامية و سياسته المناهضة لليهود.¹ و قد حاولت الصحافة النازية أن ترجع إعجاب المسلمين بهتلر إلى كون العملية عملية عاطفية تلقائية و لا علاقة لها بالدعاية، المهم أن ذلك كان يزعم الفرنسيين.²

في الحقيقة إن الألمان على لسان "هتلر" اعترفوا بأن المجال الحيوي لديهم ضيق إذا ما لم يتمكنوا من توسيعه بإحداث حركة استعمارية تضمن للشعب الألماني استقرار من حيث التزود بالمواد الأولية الضرورية لمثل هذه الحالات. خاصة إذا علمنا أن عدد السكان قدر بـ 78.7 مليون نسمة داخل مساحة ناهزت الـ 583.000 كلم².³ مع الإشارة إلى أن الدعاية الألمانية قد بدأت في فرنسا نفسها بما سمي بالدعاية النشطة.⁴

لقد أظهرت العديد من المصادر الأرشيفية أن الدعاية الألمانية اعتمدت على أساليب و وسائل متعددة، منها الحصص الإذاعية التي كانت تبثها "إذاعة برلين" باللغة العربية و الموجهة خصيصا لقضايا شمال إفريقيا و الدعاية تجاه المسلمين.⁵ و "إذاعة باريس مونديال" التي شنت حملة ضد التجنيد العسكري في المغرب العربي و شمال إفريقيا.⁶

كما تجسدت الدعاية الألمانية ميدانيا في معظم المدن الجزائرية لدرجة بات من المؤكد وقوف الجزائريين إلى جانب الألمان في حربهم ضد الفرنسيين. هذا التفاعل الذي أقدم عليه الجزائريون ترجمه موقف عدد كبير من زعماء الحركة الوطنية و خاصة منهم عناصر حزب الشعب الجزائري، الذين رأوا فيه فرصة للتخلص من الاستعمار الفرنسي و فتح عهد جديد مع الألمان الذين في الواقع لم تكن نواياهم أفضل من نوايا الفرنسيين.⁷

¹ - Recham (Belkacem)... op.cit., p 140.

² - Bulletin du comité de l'Afrique Française-, année 1937, p 324.

³ - Bulletin du comité de l'Afrique Française, N° 2, février 1939, pp 42-45.

⁴ - هذه الدعاية حملت معها كل مواصفات الدعاية المنظمة و التي كانت تهدف إلى تحقيق ثلاثة أهداف. للمزيد من المعلومات طالع:

- Lévy (Claude), « L'organisation de la propagande Allemande en France » Revue d'histoire de la 2ème guerre mondiale, N° 64, octobre, 1966, pp 07-28.

⁵ - A.W.O, B, 2261, dossier presse, Oran républicain du 07/07/1939 : En écoutant Radio Berlin.

⁶ - Recham (Belkacem)...op.cit., p 147.

⁷ - ظهرت جماعة في أوساط حزب الشعب الجزائري محاولة استغلال ظروف الهزيمة الفرنسية للتقرب من الألمان. و كانت تريد من وراء ذلك تحقيق أهداف وطنية لبلوغ الاستقلال. فبادرت بتشكيل تنظيم أطلقت عليه اسم "لجنة النشاط الثوري لشمال إفريقيا" CARNA، خلال اجتماع عقد في باريس خلال شهر فبراير من سنة 1939. و حسب شهادة المدعو : "حمزة عمر" فقد ضمت هذه اللجنة عناصر من حزب الشعب الجزائري نذكر على وجه الخصوص كل من: فليته أحمد، مسعودي عمار، الزاوي علي، مقيدش لخضر و حسين مقري و عناصر أخرى. فتوجهت عناصر من هذه اللجنة نحو ألمانيا في ربيع 1939 و حاولت ربط الاتصال بالألمان و دول المحور الأخرى للحصول على مساعدات و التدريب العسكري على حرب العصابات و الشوارع و صنع المتفجرات و القنابل.. غير أن الألمان لم يكونوا عند وعدهم و لم يحضروا إلى اللقاء الذي كان مرتقبا في الجزائر. غير أن مصالي الحاج رفض من سجن الحراش تركية هذا العمل المنفرد الذي اعتبره مغامرة لا يمكن التنبؤ بنتيجتها. و أكثر من ذلك أنه لم يثق يوما في مساعدة هتلر أو موسوليني.. لمزيد من المعلومات ينظر إلى:

- Mesbah Chafik, Idéologie politique et mouvement national en Algérie, du projet partisan au projet de renaissance nationale, thèse de Doctorat en Sciences Politiques, Université d'Alger, 1981, p 135.

- Kaddache Mahfoud et Sari Djilali, L'Algérie dans l'histoire-5-, ENAL-OPU, Alger, 1989, p 79.

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme..., T2, op.cit., p 622.

- Stora Benjamin, Ils venaient d'Algérie, Fayard éditions, Paris, 1992, p 85.

لقد تعددت طرق و أساليب الدعاية الألمانية إلى درجة أنه كان يصعب على الإدارة الاستعمارية الوصول إلى المنبع. و لعل أكبر دليل على ذلك التقرير الذي بعثت به مصالح الأمن للحاكم العام للجزائر حول الدعاية التي كان يقوم بها المدعو: "رجاف بلقاسم" من بلدة "الأربعاء ناث إيراثن" ببلاد القبائل، و الذي لم يكن معروفا لدى مصالح الأمن.¹ و كانت المناشير توزع سرىا في الأسواق و بعض المحلات التجارية التي كانت تحض بالثقة الكاملة في كل من مدن الجزائر و وهران و تلمسان.² و كذا الأمر بالنسبة لبعض العناصر من بلدية "عمي موسى" الذين اتهمتهم مصالح الأمن الاستعمارية بالتجسس لفائدة الألمان.³

لكن في غالب الأحيان كانت تتم الدعاية شفهيًا بالطريقة التقليدية التي يفهمها عامة الشعب، مركزة على رفضها للصهيونية العالمية، و قبولها للمبادئ الوطنية. و كانت قد أشارت إحدى المراسلات الأمنية من بلدية "نمور" إلى وجود آثار لهذه الدعاية و لكنها اقتصرت على الحد الأدنى من الوثائق.⁴ و بشأن الخبراء المتعاونين، فأقل ما يمكن القول عنهم أنهم كانوا بمثابة "دعاة للألمان"، خاصة أولئك الذين كانت تصلهم الجرائد، كالسيد: "قباطي أحمد ولد محمد"، من بلدية ندرومة.⁵ كما اهتمت فئة أخرى من الجزائريين بالسفر إلى باريس للعب دور الوسيط، مثل: سي أحمد المنصالي، من "لورمال" (العامة حاليا).⁶ أما المدعو: بوخلوة عبد الله، فيكون من المساجين الفارين من ألمانيا و استعمل كجاسوس لتقصي المعلومات و القيام بدعاية مؤثرة.⁷

اعتبر العديد من الجزائريين أن هذه الدعاية موجهة ضد فرنسا الاستعمارية، لأنها ولدت لديهم شعورا بالانتقام من الاستعمار بطرق علنية دون الاهتمام بالعواقب مادام أن إيمانهم بانتصار الألمان كان الأقوى. فهناك، زيان عبد القادر ولد أحمد من بلدية "إنكرمان" و الذي تلفظ بكلمة: "تحيا هتلر..."⁸ و بن زيان سي أحمد ولد بالخير من عين تموشنت، الذي صرح: "لماذا التأسف؟ سيحضر الألمان... لأنهم ضد اليهود..."⁹ أما بوكرت بن علي، فبحكم نشاطه الحزبي و ثقافته قام بنشاط كبير نظرا لتقلاته العديدة.¹⁰ و سار على نهجه السيد: بن صاري حاج العربي من تلمسان.¹¹

و قد لمسنا جليا تأثير الدعاية الألمانية على الجزائريين و سلوكاتهم، من خلال المناسبات التي كانت تقام خلال الحفلات العائلية، مثل الأعراس، حيث لم يتوان "البراح" من وصف هتلر "بالحاج الزعيم" عندما يجمع الأموال المهداة من قبل الحاضرين إلى أهل العريس.¹² كما تفنن شيوخ الحلقات الأسبوعية التي كانت تقام في

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp., T2., op.cit., pp 584-585.

¹- A.W.O, B, 4476, GGA, dir.sec.gén. N° 1/349/pol/7, Alger le 28/07/1941.

²- A.W.O, Pref.Oran, CIE, N° 645., décembre 1941.

³- A.W.O, B 4476, GGA, Dir.de la sécu..Gle., N° 5224-J, Alger le 08/03/1941.

⁴- A.W.O, B 4476, Arron..Tlem..., Commi..Pol..Nemours, N° 231/S, du 09/08/1941.

⁵- A.W.O, B, 4480, état d'esprit des populations musulmanes, S/P de Tlemcen, 25/03/1939.

⁶- A.W.O, B, 4476, GGA, Alger, dossier propagande Allemande, 1940.

⁷- A.W.O, B, 4476, GGA, Alger, 15/05/1941.

⁸- A.W.O, B, 4480, rapport du procureur général, Alger, le 15/05/1941.

⁹- A.W.O, B, 4480, GGA, Alger, le 10/07/1940.

¹⁰- A.W.O, B, 4480, depart. Oran, S/Pref. de mostaganem, N° 239 du 26/12/1940.

¹¹- A.W.O,B , 4480, Préf d'Oran, CIE N° 558 du 21/07/1940.

¹²- A.W.O, B, 4476, Police spéciale, Oran, N° 2601 du 20/07/1943.

الأسواق الشعبية بمدح خصال هتلر عبر ترديدهم لقصائد الشعر الملحون و كانت أمالهم فيه كبيرة لتخليصهم من الاستعمار.¹

الواقع أن هذا التجاوب لم يقتصر فقط على القطاع الوهراني بل كان ملموسا في كل مناطق البلاد حيث قام مخبري الإدارة الاستعمارية بالتشديد على آثار الدعاية الألمانية في الأوساط الجزائرية منذ سنة 1941.² و على خطورة المناشير التي كانت تلقيها الطائرات الألمانية على جبهات القتال و في بلاد المغرب، و التي كانت تظهر في شكل صور، معاناة الجزائريين سواء المجندين أو المدنيين، و حتى النساء لم يسلمن من إشراكهن في الدعاية الألمانية.³ و كانت مناطق أخرى تتربق زوال الإدارة الاستعمارية الفرنسية من الجزائر على يد الألمان. أما الأسباب، فقد نسب لهم مشروع تنظيم استفتاء شعبي من أجل ضم القطاع الوهراني إلى إسبانيا. و هذا ما يكون قد صرح به "القنصل" الإسباني في الخامس أكتوبر 1941.⁴ و كأننا عدنا إلى القرنين السابع عشر و الثامن عشر.

بالرغم من تنوع مصادر دعايتها و تعدد مواقفها المسلمة، فإن ألمانيا كانت تثير دائما مخاوف الحلفاء، و حتى أصدقائها داخل المحور.⁵ أما بالنسبة لموقفها من فرنسا فنكتفي بهذه الجملة التي جاءت ضمن شروط الهدنة و القاضية "بحق الدولة الألمانية فسخ شروط الهدنة في أي لحظة". بالإضافة إلى تنصيب لجان الهدنة - الألمانية الإيطالية - التي أوكلت لها مهمة الإشراف على تنفيذ اتفاقية الهدنة.⁶ من هنا يبدو واضحا أن المخطط كان جاهزا جاهزا للتنفيذ، و لن يكون بمقدور حكومة "فيشي" أن تمنع ذلك.

إلى جانب نشاطهم الدعائي في المغرب، فقد ركز الألمان اهتمامهم في الجزائر على مناجم الحديد في "الونزة" من أجل تغطية احتياجات صناعتهم الحربية في هذا الطرف بالذات.⁷ و قد لقيت الدعاية الألمانية في الجزائر أصداء ايجابية عند بعض الأوساط الوطنية، خاصة تلك التي كانت تنشط داخل حزب الشعب الجزائري. أو في أوساط السجناء العائدين من السجون و المعتقلات الألمانية.

ذكرت بعض المصادر، أن الألمان أسسوا في سنة 1934 بالجزائر، "منظمة نازية" تدعى "جمعية جبهة العمل الألمانية" L'Association du front du travail Allemand مدعمة من طرف القنصل الألماني. و مع مطلع سنة 1939، زاد اهتمام الألمان بالوضعية الاقتصادية و السياسية للجزائر و شرعوا في إحصاء رعاياهم الموجودين بداخلها. و

¹ - A.W.O, Préf. D'Oran, CIE, N° 225..., Septembre 1942.

² - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp... t2, op.cit, p 555.

³ - Recham (Belkacem),..., op.cit, p 146.

⁴ - A.W.O, Préf.Oran, CIE N° 533, octobre 1941. Et CIE N° 645, décembre 1941. Voir aussi Ageron, c.h..., op.cit..., p 555.

⁵ - عندما تمت الهدنة بين فرنسا و ألمانيا، أقلق ذلك الزعيم الفاشي "موسوليني" الذي رأى في التقارب الفرنسي الألماني الجديد خطرا على مصالح بلاده في حوض البحر الأبيض المتوسط. أنظر:

- Reinhard Marcel..., op.cit, p 480.

⁶ - Duroselle (Jean Baptiste) Histoire des relations internationales..., op.cit..., p 281.

⁷ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord en..., op.cit..., p 106.

بخصوص بعض الفرنسيين أعضاء في الحزب الشعبي الفرنسي، فكانوا مدعمين لفكرة التعاون مع ألمانيا و تبنا الأفكار الجديدة التي طرحتها الثورة الوطنية لحكومة فيشي.¹

كما ينبغي الإشارة إلى الدور الفعال الذي لعبته مختلف قنوات الدعاية الألمانية، من "راديو برلين" Radio Berlin إلى محطة "باريس العالمي" Paris Mondial التي أصبحت تحت الرقابة الألمانية، حيث كان من ضمن طاقمها الجزائريان: "راجف بلقاسم" و "ايخربوشن"، كمنشطين باللغة الأمازيغية في هذه المحطة.² و قد قام التونسي "يونس البحري"، و أحد المنشطين في المحطة نفسها، بعمل دعائي جبار لصالح الجزائريين عندما كان يخاطبهم و يقول لهم أن خلاصكم على الأبواب، و أن هتلر قد أعطى كلمته و وعد "شكيب أرسلان"..."³ فهل هذا كله كان كافيا لتخليص الجزائريين من معاناتهم؟

ب- الدعاية الألمانية في المغرب

من بين الزعماء المغاربة الذين تقربوا من ألمانيا نجد "بالفرج" الذي تأثر بخطاب "ريبنتروب" Ribbentrop، في 21 جوان 1939، و الذي تأسف من خلاله على وضعية العرب عبر أرجاء العالم. كما أطلقت إذاعة برلين Radio-Berlin (Zeesen)، حصصا باللغة العربية تجاه سكان شمال إفريقيا أظهرت من خلالها موقفها المناهض لفرنسا. و جاء في إحدى الحصص التي أذيعت في 5 ماي 1939، و التي التقطتها المصالح العامة للإعلام في الجزائر، مايلي: " ليس لألمانيا ما تطلب السماح عليه، عكس الفرنسيين و البريطانيين. لقد أرادت أن تبين للمسلمين المشاعر التي تكنها لهم. لأن عطف ألمانيا للإسلام دائم الوجود، عكس فرنسا و بريطانيا اللذين فتحا في مستعمراتها طريق السلب و العبودية."⁴

و في اليوم الثاني عشر من شهر ماي سنة 1939، خصصت إذاعة برلين حصة خاصة بمناسبة ذكرى "الظهير البربري" للسادس عشر ماي 1930.⁵

¹ - ANOM, série K, 1K76, note du préfet du 14 janvier 1939 au GGA. DAF----Orts groupe Alger, patronné par le consul général

² - Ageron (Charles Robert), « Contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la deuxième guerre mondiale », in revue d'histoire maghrébine, N° 7 et 8 du mois de janvier 1977, Tunis, p23.

³ - Ibid., p 24.

⁴ - ANOM, série H, 1H38, affaires indigènes et musulmanes, sous-dossier propagande Allemande 1938-1944/ Et voir aussi :

- A.W.A, Préfecture d'Alger, CIE N° 765, Alger, du 25 mai 1939.

⁵ - مثل هذا المرسوم خطوة خطيرة تجاه إخراج القبائل البربرية من نطاق الشرع الإسلامي. مما أثار حفيظة الشبيبة الوطنية المغربية التي رأت فيه مرحلة جديدة من السياسة الاندماجية التفرقية التي تنتهجها الإدارة الاستعمارية في بلاد شمال إفريقيا. و استغل هذا المرسوم في البلدان العربية للتنديد بالسياسة الفرنسية المنتهجة في شمال إفريقيا. و قد فتحت هذه الإذاعة مكتب عربي تحت قيادة "يونس البحري" صحفي عراقي و الذي مكث في المغرب خلال الثلاثينات. و قد وزعت أيضا منشائر، مما جعل هذا النوع من الدعاية يؤثر حتما على تطور الفكر السياسي لدى مسلمي شمال إفريقيا. و على خلاف السياسة القبائلية المطبقة في الجزائر، فإن السياسة البربرية في المغرب كانت إحدى الجوانب المعلن عنها للمهمة الفرنسية في بلاد المغرب العربي. لدرجة وصفها عند البعض "بمفتاح سيطرتنا في المغرب". لمزيد من المعلومات ينظر:

كما أن الدعاية التي طورها "الرايخ الثالث" أثناء الحرب العالمية الثانية اتجاه المغاربة لا تزال قيد الدراسة. لأن البعض من المؤرخين الألمان الذين اهتموا بدراسة السياسة العربية التي انتهجها الرايخ الثالث قد أهملوها بطريقة غريبة. بحيث أن أعمالهم المخصصة للعلاقات التي كانت تربط حكومة الرايخ الثالث بالوطنية العربية في المشرق العربي لم تعتمد المصادر الحقيقية، سواء كانت فرنسية أم شمال إفريقية، الوحيدة الكفيلة بإعطاء معلومات واقعية قد تساعد على تقدير الانعكاسات التي خلفتها الدعاية النازية في الأوساط المغاربة.¹

غير أن الدعاية الألمانية في البلاد المغاربية عموماً و بلاد المغرب على وجه الخصوص، قد خضعت لمعطيات عديدة منها ما ارتبط بإيطاليا، إذ اتضح من لقاء هتلر مع الكونت "شيانو" في 24 أكتوبر من سنة 1936، بأن ألمانيا سوف لن يكون لها أي أطماع في حوض البحر المتوسط، و أنها سوف تترك أمور المنطقة لحلفائها و بالتحديد إيطاليا، و قد أعادت وزارة الخارجية الألمانية نفس الموقف في 20 أوت 1940.²

ج - الدعاية الألمانية في تونس

بطريقة آلية تغيرت وضعية تونس مع بداية الحرب العالمية الثانية حيث بدأت الأحداث المجاورة تستقر بها شيئاً فشيئاً إلى أن واصلت حركة المد الداخلي تقدمها. و لعل الأحداث المناهضة لليهود التي حدثت في منطقة "الكاف" في أوت 1940 و في "قابس" في ماي 1941، هي البداية للحملة الدعائية الألمانية في تونس.³

أخذت الدعاية الألمانية طريقها إلى بعض العناصر الدستورية من الحركة الوطنية بسبب إقدام السلطات الاستعمارية على توقيف و نفي الزعماء الكبار من أمثال "بورقيبة" و "المنجي سليم" و آخرون نحو السجون العسكرية بعد أحداث التاسع من أفريل 1938. فدخلت المقاومة التونسية في العمل السري محاولة استغلال الظرف الجديد الذي فرضته الهزيمة الفرنسية أمام الجيوش الألمانية. فتشكل ما يعرف "بالديوان السياسي الخامس" الذي كان هدفه تنشيط الدعاية الوطنية.⁴

- ANOM, série H, S.serie 11H51, affair..indig..et musulm..., bulletin d'information N°7 du 18 septembre 1939. Et voir aussi : Sous-série, 32H6 rapports politiques et périodiques de presse, situation politique et économique du Maroc. Et GGA, série, 9H32, rapport hebdomadaire du 23 septembre 1939 de la direction de la S/G du GGA.

- Ageron Charles Robert, Politiques coloniales au Maghreb..., op.cit..., p109.

¹ - Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon III à de Gaulle..., op.cit, p

² - جاءت كلمات هتلر واضحة و معبرة في هذا اللقاء حيث قال: "يعتبر البحر المتوسط بحر إيطالي، و أي تغيير مستقبلي في موازين القوى في المتوسط لن يتم إلا لفائدة إيطاليا. و إذا كان لألمانيا حرية التصرف نحو الشرق و نحو مناطق البلطيق، فلن يحدث أي صدام بين المصالح الألمانية و الإيطالية..". أما في تصريح 20 أوت 1940 فقد جاء فيه: "علينا أن نترك لإيطاليا الحرية المطلقة في إعادة بناء و توجيه المنطقة العربية..". أنظر:

- Ageron Charles Robert, L'Algérie algérienne de Napoléon III..., op.cit..., p173.

³ - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de..., op.cit..., p 95.

⁴ - في الواقع ظهرت عدة دواوين من هذه النوع في أعقاب توقيف زعماء الحركة الوطنية بعد أحداث 9 أفريل 1938. فجددت العناصر الدستورية التي لم تشملها بعد موجة الاعتقال، من أمثال: الأدغم باهي و خفشة الهادي و السعيد الهادي، كل طاقاتها و حاولت توظيفها منذ أواخر سنة 1939 في إصدار المنشائر السرية تحت فيها الشعب التونسي على القيام بأعمال تخريبية و الضغط على السلطات الاستعمارية حتى تفرج عن المعتقلين السياسيين. للمزيد من التوضيحات ينظر إلى كل من:

- المولهي (محمد الحبيب)، الوطن و الصمود، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991. (512 ص)

سخرت ألمانيا وسائلها الدعائية لفائدة الوطنيين التونسيين من ذلك أنها سمحت للجنة المقاومة التي شكلها أعضاء الديوان السياسي الخامس من استعمال أمواج إذاعة "هنا برلين" الألمانية لإرسال عدة بلاغات و نداءات للشعب التونسي و المغاربي لكسر الحصار الذي فرضته السلطات الاستعمارية على التونسيين.¹

إن الإحساس العام الذي انتشر في بلاد المغرب في المراحل الأولى من الحرب، كان منتشياً بانتصار دول المحور و ألمانيا على فرنسا، الأمر ذاته وجد في تونس الذي رأى بأن الأوضاع لا تختلف كثير بحلول الألمان عما كانت عليه من قبل. لذلك حذر أصدقائه ضد الدعاية الألمانية و كتب في هذا الشأن رسالة إلى صديقه "الحبيب ثامر" جاء فيها: "منذ الهزيمة الفرنسية و توقيع الهدنة مع الألمان، و أنا أستقبل العديد من أبناء بلدي من كل الأوساط و المستويات. منهم الطلبة و التجار و المحامين.. و من خلال الحديث معهم تيقنت بأن غالبيتهم يؤمنون بانتصار دول المحور.. إن الاعتقاد السائد هو أن هزيمة فرنسا عقوبة إلهية و أن سيطرتها في البلاد قد انتهت و أن خلاص الأمة العربية لن يأتي إلا من الألمان.."²

أظهرت غالبية الفئات الشعبية التونسية مشاعر مساندة للألمان منذ النصف الثاني من سنة 1942، في قمة الاحتلال الألماني-الإيطالي للبلاد، و كل الشهادات التي تحصلت عليها السلطة الاستعمارية الفرنسية كانت تشير إلى ذلك.. بحيث أصبح التوجه في الأوساط الشعبية مساند للألمان.³

كما أن الألمان من باب لإظهار حسن نواياهم تجاه التونسيين، سمحوا لأعضاء الدستور الجديد من إعادة تنظيم حزبهم و تولي بعض الشؤون التونسية على مستوى الإدارات البلدية. و على مستوى عال أقدم الوزير الألماني "راهن" Rahn، على مستوى دار الحسين، من تنصيب لجان تمثل مختلف شرائح المجتمع التونسي تكون مهمتها المراقبة و التوجيه. كما سمح بظهور الجرائد الدستورية مثل: "إفريقيا الفتاة" و "الشعب" و كلف بعض المناضلين ذوي التوجه الألماني من تسيير محطة "إذاعة الوطن" Radio-Patrie التي بدأت تبث برامجها من تونس بداية من 5 جانفي 1943.⁴

مع نهاية سنة 1941، بدأت القوات الألمانية تتراجع عن الأراضي الليبية بفعل تقدم القوات الإنجليزية، غير أن الجنرال "رينتروب" واصل في التذكير بأن الألمان هم أصدقاء العرب و طالب بدعم الدعاية الألمانية في

- Benslimane M, Souvenirs politiques, productions Cérès, Tunis, 1989.

- Driss Rachid, Reflet d'un combat, institut supérieur d'histoire du mouvement national, Tunis, 1996.

¹- Driss (Rachid), Reflet d'un combat..., op.cit.(323p).

²- Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon..., op.cit..., p197.

³- حتى شريحة من الطبقة البورجوازية التونسية قد أظهرت نفس المشاعر بحسب ما نقله المؤرخ التونسي "مصطفى كرايم" في إحدى المحلات التونسية عندما كتب محاولاً مقارنة موقف "بورقيبة" المضاد للألمان مع غالبية السكان التونسيين المدعّم من بعض العناصر الدستورية التي أظهرت ميولاً تجاه الألمان. متيقنة في أن الألمان هم أصدقاء العرب و أنهم سوف يمنحونهم الحرية بعد انتصارهم على الحلفاء.. أنظر كل من:

- Kraiem Mustapha, In revue tunisienne des sciences sociales, Tunis, avril 1975, p 286.

- Ageron Charles Robert, L'Algérie algérienne de Napoléon..., op.cit..., p198.

⁴- Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon..., op.cit..., p198.

الأوساط التونسية و ذلك بتقديم وعود صريحة بمنحهم الاستقلال عند نهاية الحرب. لأن ذلك سيضع التونسيين في وضعية نفسية جيدة ستجعل منهم محاربين و عمال لتغذية الآلة الحربية الألمانية.¹

د- الدعاية الإيطالية في المغرب و تونس

أدت الجالية الإيطالية المقيمة في المغرب² دورا بارزا في تفعيل العملية الدعاية التي دعت إليها دولتهم بواسطة جريدة أسبوعية، تدعى "إيطاليا الجديدة" L'Italie Nouvelle، كانوا قد أنشئوها لهذا الغرض. و كانت تعرض باللغتين الفرنسية و الإيطالية حتى تستقطب أكبر عدد ممكن من السكان المغاربة، حيث بدأت تنتقد بشدة السياسة الفرنسية في البلاد.

كما طبعت المنشير التي كانت تنشرها في "الدار الإيطالية" بالدار البيضاء، و التي كانت تحمل عنوان: "الإتحاد من أجل الدفاع عن الإمبراطورية"، لتمجيد الحضارة اللاتينية على حساب الحضارة الجرمانية. و قد وجدت بعض المنشير المكتوبة في مدينة "طنجة" موزعة في كل أرجاء شمال إفريقيا. هذا الوضع أدى بالمصالح الفرنسية المضادة للجوسسة بوضع حد لنشاط جماعة مغربية متكونة من سبعة أفراد تم تقديمهم أمام المحكمة العسكرية بالدار البيضاء في جويلية 1941.³

غير أن الدعاية الإيطالية بدأت تتلاشى في المغرب بعد دخول البعثة الألمانية مما أدى إلى تصادم في المصالح و الأهداف بين الدولتين. فعادت إيطاليا إلى مربعها المتمثل في تونس، أين حاولت بسط نفوذها فيه مستغلة العدد الكبير لمواطنيها الذين كانوا يعيشون في تونس حتى تتمكن من كسب تعاطف سكان شمال إفريقيا. فقامت "إذاعة باري" Radio Bari، بمحاولة تحسين صورة إيطاليا لدى التونسيين متهمه في نفس الوقت فرنسا بمحاولتها تجويع التونسيين و تخطيط البلاد خدمة لمصالحها.⁴ أما عن الجالية الأوروبية التي كانت موجودة في تونس، فالأمور اختلفت بفعل وجودها تحت ضغط متنامي بسبب ما اصطلح عليه "بالمطالب الفاشية" و التي زادت انتشارا القصف الجوي الإيطالي على تونس في جوان 1940 الذي خلف عدد من الضحايا، ما أدى إلى تعفن الأجواء بين الفرنسيين و الإيطاليين خاصة.⁵

جندت الدعاية الفاشية الإيطالية كل طاقاتها البشرية و المادية في تونس. و بدأت منذ سنة 1942 تعقد بانتظام لقاءات دورية بين مواطنيها و تحثهم على التظاهر أمام القنصلية الإيطالية في تونس. فبدأت تصرفاتهم

¹ - Ibid., p 198.

² - لقد قدر قوام هذه الجالية بـ 16760 مواطن إيطالي منتشرين في المغرب و متمركزين في مدن: الدار البيضاء و الرباط و فاس و مكناس، و كان غالبيتها منتمون إلى الحرب الفاشي الإيطالي، 92%. ينظر في هذا الباب إلى :

- ANOM, GGA, série, 9H43, La politique italienne en zone française du Maroc en 1938. Et voir aussi :

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p 110.

³ - Archives du MAE, 2^e guerre mondiale 1939-1945, Vichy-Maroc., volume 35 ? Sur la propagande étrangère au Maroc, 9 juillet 1941. (Cite par Levisse-Touze..., dans : L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p 110.

⁴ - Archives du MAE, 2^e guerre mondiale 1939-1945, Vichy-Tunisie., volume 26, rapports franco-italien de l'Amiral Esteva du 7 décembre 1940. (Ibid.)

⁵ - Rey-Goldzeiguer (Annie), L'occupation Germano-italienne de la Tunisie, un tournant dans la vie politique tunisienne, in les chemins de la décolonisation de l'empire français 1936-1956, IHTP, octobre 1984, pp 325-340.

ترداد تطاولا على السلطات الإدارية الفرنسية الأمر الذي أثار مخاوف التونسيين الذين لم يكونوا على استعداد بقبول بفكرة "الإيطالي.. المستعمر الجديد".¹

كانت اللجنة الإيطالية تقوم بدفع الأموال لبعض المخبرين حتى يجمعوا لها المعلومات الضرورية عن الحالة العامة للتونسيين. و ركزت في ذلك كل جهودها على الحزب التونسي الجديد، إلا أن نتائج ذلك كانت غير مرضية بالنسبة للإيطاليين، خاصة و أن تصرفاتهم في ليبيا هي التي زادت في احتقار التونسيين لهم.

أصبحت صورة إيطاليا، الدولة الاستعمارية الكبرى في ليبيا، على لسان كل تونسي خاصة بفضل اللاجئين النازحين من طرابلس الغرب الذين كانوا بمثابة القناة الواصلة بين ما كان يجري في ليبيا و العالم العربي عبر بوابة تونس، من جرائم بشعة ضد السكان العزل و ما اقترفه الإيطاليون من نهب ممتلكات السكان.² و بذلك أصبحت الدعاية الإيطالية في شمال إفريقيا دون تأثير.

لعل أكبر مشكل واجه الأطماع الإيطالية في تونس هو ذلك الموقف الألماني الذي أوضحه "هتلر" تجاه أطماع "موسوليني" الذي كان يعني النفس بأن تدعم ألمانيا مطلبه من حكومة "فيشي" حتى تتنازل له عن كل القواعد الموجودة على التراب التونسي. الأمر الذي رفضه "هتلر" الذي كان يعتبر بأن العملية مستحيلة، على الأقل في الوقت الراهن، و ربما أن ألمانيا كذلك، كانت تطمح هي الأخرى في أن تعود لها هذه القواعد عند نهاية الحرب و انتصارها على الحلفاء.³

3- سياسة الحلفاء الإغرائية لكسر الدعاية الألمانية

عندما سقطت فرنسا أمام ألمانيا في جوان 1940، و أمضت على الهدنة "المخزية"، لم يكن ذلك بمحض إرادتها، و إنما اختيار لنظام الجمهورية الثالثة بأكمله و لأسطورة فرنسا التي لا تقهر.⁴ فرهن بذلك النظام الاستعماري مستقبل كل الإمبراطورية الفرنسية. فلا حكومة فيشي و لا حكومة المنفى و لا حتى الحلفاء فيما بعد اختلفوا في طريقة التعامل مع الأوضاع الراهنة ما دام أن الأهداف كانت واحدة أمام عدو مشترك.

ركز نظام "فيشي" على ضرورة الحفاظ على وحدة الصف للدفاع عن الإمبراطورية على كافة تراب الشمال الإفريقي و ركز بخاصة كل جهوده تجاه الجزائريين مستعملا شتى الوسائل، من محطات إذاعية مختلفة، خاصة منها إذاعة الجزائر، و صدق من قال أنه: "بداية من 1940 ستصبح الجزائر عاصمة فرنسا الحرة و لكل

¹ - Rey-Goldzeiguer (Annie), L'occupation Germano-italienne de la Tunisie..., op.cit..., p 326.

² - Archives du MAE, 2^e guerre mondiale..., rapport de l'Amiral Esteva, n° T810, daté du 17 novembre 1940.(op.cit.)

³ - Ageron (Charles Robert), L'Algérie algérienne de Napoléon..., op.cit..., pp 181-182.

⁴ - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre d'Algérie 1940-1945, de Mers el Kébir aux massacres du nord Constantinois, casbah éditions, Alger, 2002, p 23.

الإمبراطورية الفرنسية.¹ كما قامت أجهزة المخابرات بمراقبة النشاط السياسي للوطنيين و غيرهم من الموالين لسياسة "فيشي".² و قامت بدورها على أكمل وجه.

أ- الجزائر محور الحملة الدعائية للحلفاء

بدأت الإدارة الاستعمارية في إصدار نشرة إعلامية يومية كانت توزع على كل المناطق، هدفها إطلاع السكان المسلمين على كل الأحداث اليومية، و حملت عنوان "الدليل".³ أما الفرنسيين، فكانوا ينتظرون شروط الهدنة على أحر من الجمر، فتنفسوا الصعداء عندما علموا بسلامة الأراضي الاستعمارية للإمبراطورية، فانضموا في معظمهم إلى نظام المارشال "بيتان".⁴ فكانت دعاية الكولون لنظام "فيشي" بأن ضمن لهم استمرارية مصالحهم و أمنهم.⁵

لقد استمرت دعاية الحكومة الفرنسية حتى مع بداية عهد "فيشي"، حيث شملت ميدان "الإصلاحات الوهمية" و طالبت من خلال مراسلة موجهة إلى ولاية العمالات الثلاث، بتكثيف الدعاية و إعطاء الإشهار اللازم للإجراءات الهامة التي اتخذتها الحكومة لفائدة السكان الجزائريين؟ من أجل إظهار النوايا الحسنة لفرنسا، من جهة، و وضع حد للدعاية الكاذبة التي تحاول أن تقلل من شأن فرنسا في الجزائر.⁶

في نفس السجل، يلاحظ أن دعاية حكومة المنفى، سارت بقيادة الجنرال "ديغول" و بدأت تبث من إذاعة "لندن"، حتى قبل أن توقع حكومة "بيتان" على الهدنة، و استمرت بنداءاتها نحو شعوب المستعمرات الفرنسية و خاصة منها الجزائر. و قد جاء في خطاب "شارل ديغول"⁷ Charles de Gaulle يوم 18 جوان 1940 عبر

¹ - Kharchi..., op.cit, p 327.

² - A.W.O, 201 (BP), Bulletin N° 127 du mois d'Avril 1941.

³ - A.W.O, Boite, 4473, Affaires musulmanes, N° 14339/2s, Alger le 03/12/1940.

⁴ - Stora (Benjamin), Ils venaient d'Algérie..., op.cit, p 91.

⁵ - A.W.O, Boite, 4476, commune mixte de Telagh, N° 582/C, du 01/09/1942

⁶ - A.W.O, Boite, 4476, GGA, direction des affaires musulmanes, CIE N° 551, Alger le 12/04/1941.

⁷ - جنرال و رجل دولة فرنسي، ولد في مدينة "ليل" في 2 نوفمبر سنة 1890. من عائلة بورجوازية محافظة. بدأ مسيرته العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى عندما تخرج برتبة ملازم أول في الجيش سنة 1912 إلى أن أصبح جنرالاً سنة 1940. له عدة كتابات حول الفكر و السياسة و الإستراتيجية العسكرية. (1) قائد لواء خلال معركة فرنسا في ماي 1940 و مساعد أمين دولة في حكومة "رينود" في جوان من نفس السنة. من الذين رفضوا الاستسلام، فتوجه نحو "لندن" و منها أعلن مواصلة المقاومة السياسية و العسكرية عبر أمواج إذاعة ب.ب.س في 18 جوان 1940. واصل مقاومته بالرغم من كل العراقيل التي كان يواجهها إلى أن أصبح القائد الحقيقي لفرنسا الحرة. و مع مطلع جوان 1943 توجه إلى الجزائر و شكل "اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني" CFLN التي سوف تبنثق عنها الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية التي استقرت بباريس سنة 1944. و في جانفي 1946 قدم استقالته ليؤسس "تجمع الشعب الفرنسي" من 1947 إلى 1953. بعدها انسحب من الحياة السياسية ليتفرغ لكتابة "مذكرات الحرب" الشهيرة من 1954 إلى 1959. ليستدعى مرة أخرى في أعز الأزمات الحربية و السياسية مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية في ماي 1958. تمكن من إقرار دستور جديد قائم على النظام الرئاسي و الذي أسس لقيام الجمهورية الخامسة. و بذلك يصبح رئيساً للجمهورية في 1959. ثم تفرغ لقضية الثورة الجزائرية التي شهدت نهايتها في عهده 1959-1962. بعد ذلك قام بتدعيم السلطة الرئاسية عن طريق الانتخاب العام، قابل للتجديد. و بداية من سنة 1965 بدأ في تطبيق سياسة خارجية قائمة على الهيبة و النفوذ و الاستقلال الوطني. انسحب نهائياً من الحياة السياسية الفرنسية في 28 أبريل 1969 بعد فشله في الاقتراع حول النظام الجهوي و إصلاح مجلس الشيوخ. توفي في 9 نوفمبر 1970.

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 1347.

أمواج إذاعة "لندن" جاء فيه: "ضعوا ثقتكم بي، إنني أتحدث إليكم من باب معرفة الوقائع.. أقول لكم أن الأمل لا زال قائما بالنسبة لفرنسا.. و من نفس الإمكانيات التي هزمتنا، يمكن أن يأتي النصر.. و لم نخسر شيئا ما دام أن هذه الحرب عالمية.. و في هذا العالم الحر، هناك قوى عظمى لم تدخل المعركة بعد.. و في يوم ما ستتمكن هذه القوى من تحطيم العدو، يومها على فرنسا أن تكون حاضرة للنصر.. عندها، يمكنها استعادة حريتها و عظمتها.. هذا هو هدي الوحيد..."¹ و قد أوردت جريدة "صدى وهران" مقالا مطولا لنداء الجنرال "ديغول" في أحد أعدادها.²

هذا الموقف هو الذي دفع بريطانيا إلى الاعتراف بالجنرال ديغول كزعيم لحكومة المقاومة الفرنسية في المنفى.³ و قد اهتم "تشرشل" بنفسه لهذا الأمر، لأنه كان يمثل إحدى الخطوات الرئيسية لوقف التقدم الألماني نحو بلاده.

حاولت حكومة "فيشي" منذ البداية التقليل من شأن الدعاية الألمانية في الجزائر و خاصة المنطقة الغربية للبلاد، من خلال عملية تحليل لهذه الدعاية عبر كل بلديات الغرب الجزائري. و اشتد نشاط مصالح الأمن الاستعمارية في صائفة 1941،⁴ عندما كثفت من نشراتها و مراسلاتها مع السلطات المركزية من أجل تفادي أي مشاكل في القطاع الوهراني. و بخاصة عندما كان يصل إلى مدن غرب البلاد الجزائريون العائدين من فرنسا أو من ألمانيا.⁵

كما نشطت الدعاية الديغولية في القطاع الوهراني خلال صائفة 1942،⁶ فحدث ذلك تخوفا من أن تفتح جبهة قتال جديدة في إفريقيا الشمالية.⁷ و قد دعا الأميرال "دارلان" الجزائريين في ديسمبر 1942 إلى نصره جيوش الحلفاء و حكومة فرنسا الحرة، وكما قال: "إن فرنسا لن تتخلى عن واجباتها تجاه المسلمين..."¹

(1) من أهم ما ألف "شارل ديغول" نذكر:

- Le fil de l'épée 1931- Vers l'armée de métier 1934- La France et son armée 1938- Mémoires de guerre en 4 tomes 1954-1956.

¹- Reinhard..., op.cit, p 478.

²- A.W.O, dossier presse, L'Echo d'Oran, du 18/06/1940.

³- New-York Times, « British government recognizes General. Charles de Gaulle as leader of group to maintain French resistance », June 28, 1940, p 01. Cité par: Chronology Of International Events, March 1938 To December 1941, Issued by the Department of State, December 18, 1941. (Department of State, bulletin, December 27, 1941, p 590.)

⁴- في هذا الباب أنظر: أرشيف مصلحة ولاية وهران، علبة 4476، مجموعة كبيرة من نماذج لهذه المراسلات التي كانت تصل مقر الحاكم العام للعمالة من كل بلديات المنطقة الغربية.

⁵- A.W.O, voir la boîte 4476, et spécialement :

- Arrondissement de Mascara, C.M, N° 4821, du 05/08/1941.

- C.M, de Zemmora, N° j1 342, du 31/07/1941.

- S/P de S.B.A, N° 2206 C, du 04/08/1941.

- Oran Pol état..., N° 315/S, du 31/07/1941.

- Arrondis..Most, C.M Renault, N° 5727 du 11/08/1941.

- Dép..Oran, C.M, Frenda, N° 2728 du 06/08/1941.

- Arrondis.. Tlemcen, C.M de Montagnac, N° 4896, du 25/08/1943.

- Commune de Most., N° 5141, du 05/08/1943.

⁶- A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 470., Août 1942.

⁷- A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 582., novembre 1942.

بقيت الأوضاع هكذا، حتى بعد انتصار القوات المتحالفة في شمال إفريقيا، حيث تواصلت الدعاية الفرنسية الديغولية مركزة على ضرورة تجنيد الجزائريين في مقابل تقديم الوعود بإجراء الإصلاحات الضرورية التي ينتظرها الجزائريين. و في هذا الإطار بعث الجنرال "ديغول" تعليمة إلى رؤساء العمالات الثلاث، في جوان 1943، يحثهم فيها على التركيز و العمل على تغيير عقلية الجزائريين تجاه حكومة فرنسا الحرة، كما جرهم إلى محاربة دول المحور عكس ما كانت عليه الأمور في عهد حكومة "فيشي".²

و تماشيا مع الأوضاع، انجذبت دعاية الدول المتحالفة هي الأخرى نحو استعمال وسائل متنوعة لجلب الجزائريين نحوها نذكر منها؛ الاهتمام بالمجندين الجزائريين القدامى و الجدد، و التوزيع المجاني للمواد الغذائية، و زيارة دار العسكري بوهرا و تلمسان، و الاتصال بعدة شخصيات جزائرية مسلمة بمنطقة الغرب الجزائري نذكر منهم: "ابن حليمة محمد" نائب مالي سابق، و "ابن ديدونة محمد" من سيق، و "لالوت" أخ المستشار العام بسيدي بلعباس، و أخيرا، "ابن خدة بالعربي" مستشار عام.³

اغتنم الحلفاء وتيرة الانتصارات للتقرب أكثر فأكثر من شخصيات جزائرية أخرى، حتى و لو كان ذلك بطرق غير مباشرة، منهم "باشتارزي بن عودة" مستشار عام، و "التازي إدريس"، حيث كان بعض اليهود يقومون بدور الوساطة بين الأمريكيين و الجزائريين المسلمين. و تشير إحدى تقارير الشرطة إلى أن أحد الجنود الأمريكيين، و هو من أصل عربي، يكون قد صرح للجزائريين في ضواحي عين تموشنت: "إن الأمريكيين يهتمون بالعرب مثلما يهتم الإنجليز بالإسرائيليين...".

واصل الحلفاء دعايتهم بفتح مراكز وثائقية عبر مدن عديدة، و قاموا بعرض الصور و توزيع المنشائر و الدوريات باللغة العربية و الفرنسية تتعلق بمجهودهم الحربي في سبيل القضاء على النازية. و بيعت مجلات بأثمان رمزية، منها مجلة "المستمع العربي"، إلى جانب المجلة الأمريكية "النصر"، التي أصبحت تباع في مدينة وهران منذ نوفمبر 1943. كما كانت تصل جرائد من المغرب أهمها جريدة "أخبار الأسبوع" برعاية القنصل العام الإنجليزي في مدينة "طنجة". و كلها عمدت إلى نشر مقتطفات من "وثيقة الأطلسي"، التي أذيع محتواها عبر إذاعة لندن، و إذاعة موسكو، و إذاعة واشنطن الأمر الذي لم تتجاهله الأوساط الجزائرية الكيسة.

هكذا نرى بأن الدعاية الاستعمارية اختلقت أهدافها من معسكر لآخر، فحكومة "فيشي" حاولت حفظ ماء الوجه لكبرياء فرنسا المكسور بعد الهزيمة و التوقيع على الهدنة المذلة، بإتباعها سياسة دعائية مدعمة بالوسائل القمعية، أما "ديغول" فحاول إنقاذ شرف فرنسا المفقود بتشكيله "اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني" و اعتماده على حليف فرنسا التقليدي، و هو بريطانيا. ثم بعدها الولايات المتحدة الأمريكية، التي تمكنت بفضل إمكانياتها العسكرية كسب تعاطف الجزائريين الذين كانوا يأملون في أن تتحسن ظروفهم عما كانت عليه من قبل،

¹ - Nouschi(André), La naissance du nationalisme..., op.cit, p 132.

² - A.W.O, Boite, 4480, rapport du commissariat à la coordination des aff.musul, N° 2, Alger le 21 juin 1943.

³ - A.W.O, Boite, 4477, rapport du CIE Oran, N° 280 du 20 mars 1943.

و خاصة الطبقة السياسية و المثقفة، التي رأت في ذلك فرصة لاستئناف نشاطها السياسي و مطالبة القوات المتحالفة بحقوق الشعب الجزائري.

ب- أساليب الدعاية الأمريكية و الإنجليزية في المغرب و تونس

نشطت الدعاية الإنجليزية في شمال إفريقيا مع دخول التمثيل الدبلوماسي الأمريكي في المنطقة. خاصة بعد فتح عدد من القنصليات الأمريكية في مدن شمال إفريقيا. و نشطت في تونس، خاصة، بوضعها شبكات استعلامية استطلاعية تقوم برصد تحركات كل السفن العابرة للبحر الأبيض المتوسط، و تقوم بإرسالها إلى جزيرة مالطة، أين يوجد المركز الاستعلامي الإنجليزي العام. كما أن عناصر "فرنسا الحرة" لم تكن قادرة على إيجاد مكان لها في شمال إفريقيا، لذا لجأت إلى بعض المحاولات الفاشلة في الجنوب الجزائري لم تكن كافية لتمكنهم من التوغل في الأوساط السكانية.¹

من الواضح أن شمال إفريقيا في هذه المرحلة كانت تحت تأثير التيار الفيشيستي المناهض للتيار الديغولي، بحيث لم نلاحظ أي نشاط لأنصار فرنسا الحرة باستثناء جريدة "الكفاح" Combat، و هي فرع لحركة "هنري فريناي"، التابعة لـ "روني كاييتان"، و التي حافظت على تعداد جد محدود.² و عليه، لم يتمكن أنصار ديغول من التأصل في شمال إفريقيا في المرحلة الممتدة من 1940 إلى غاية 1942، تاريخ نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا. بالرغم من هذا الحصار المفروض على أنصار "ديغول" إلا أنه لوحظت محاولات تمرد، هنا و هناك، للالتحاق بعناصر ديغول، حيث تذكر بعض المصادر،³ أن الجنرال "أوديك" Odic قد تحصل على تأشيرة خروج من المغرب الإسباني في محاولة له اللحاق بكندا عبر الأراضي الأرجنتينية. كما لوحظت محاولات جماعية قام بها بعض الطيارين الذين غادروا مدينة وهران متجهين إلى منطقة جبل طارق في أكتوبر 1941.

واصل الجنرال ديغول جهوده في إقناع الجنرال ويقان الالتحاق به و مواصلة الكفاح، فبعث له برسالة في 24 فبراير 1941 يطلب منه رسميا أن يكون إلى جانبه و يدعم قوات الحلفاء التي تعتزم تحضير عملية كبيرة في شمال إفريقيا. إلا أن ويقان لم يجب على الرسالة بسبب ما تضمنته من كلمات جارحة.

أما الصحافة المحلية فهي تنتهج نهجا معاديا للديغوليين، بحيث لم تشر إلى أدنى حركة التحاق بصنف أنصار ديغول. و بالعكس من ذلك فقد أسهبت في الإشهار إلى الهجوم الإنجليزي على دكار و إلى معركة سوريا،

¹ - حاولت بعض العناصر الموالية للتيار الديغولي التوغل في الجنوب الجزائري، بداية من شهر مارس 1941 و إيجاد منفذ لها هناك يمكنها من فتح جبهة جديدة تمكنها من بعثرة أوراق حكومة فيشي و دول المحور. ينظر في الموضوع إلى:

- SHD, MDN, 1P33,, note d'information n° 106, du secrétariat d'Etat aux colonies, datée du 24 mars 1941.

² - Danan (Yves Maxime), La vie politique a Alger de 1940 a 1944, LGDJ, Paris, 1963, p 27.

³ - Archives des MAE, guerre 1939-1945, Vichy-Tunisie..., vol. 42, note de Bergeret à l'amiral Darlan datée du 28 novembre 1941, indiquant que le général Odic, ancien commandant en chef des forces de l'air en AFN, atteint par la limite d'âge en août 1940, a demandé un visa de sortie pour se rendre en Argentine ou son beau-frère était vice-consul. Darlan exige des sanctions contre le responsable de la délivrance du visa. (Cité par Levisse -Touze., in L'Afrique du Nord en guerre..).

مما غذى بشدة الدعاية المناهضة للحلفاء. وأدت حركة "كاييتان" دورا بارزا في المسألة بفضل جريدة "الكفاح" التي كان لها تأثيرا واضحا على أهالي شمال إفريقيا.

رابعا: فرنسا من الهزيمة إلى الانتظار

إن التسويات التي تمت بعد الحرب العالمية الأولى لم تأتي بالحلول الأنسب للمشاكل الدولية باعتبار أن النهاية شهدت تطبيق إرادة الغالب و شروطه على ضعف المغلوب و قهره. من هنا تحققت أطماع فريق على حساب الآخر و كان ذلك تعبيرا عن ميزان القوى الجديد الذي ظهر في أوروبا، على وجه الخصوص، و الذي أفرز النفوذ الكبير الذي تمتعت به كلا من الإمبراطوريتين البريطانية و الفرنسية. أما الألمان، فكانت بالنسبة لهم هذه المقررات بمثابة المساس بكرامتهم و إذلالهم و تركت لديهم شعورا بالإهانة و النقمة. فأبرموا معاهدة فرساي العقابية التي جردتهم من أراض و سكان و فرضت عليهم عقوبات مالية- كتعويضات حرب تدفع لفرنسا و بريطانيا- و عسكرية، و منعتهم حتى من الدفاع عن حقوقهم. فتنام فيهم شعور الانتقام حين تتوفر الظروف.¹

كما تأثرت السياسة الفرنسية قبيل الحرب العالمية الثانية بفشل مشاريع الجبهة الشعبية، الأمر الذي جعلها عرضة لمشاكل اقتصادية و اجتماعية شتى. فتوترت علاقاتها مع الأنظمة الدكتاتورية، في أوروبا، و تعقدت أمورها في مستعمرة الجزائر، التي بقيت إلى آخر لحظة تأمل في التفاتة من حكومة "دلاديه" التي لم تتحمل ما أسمته "بالمساومة مقابل التجنيد".²

تسارعت الأحداث الدولية في ظرف زمني قصير جدا لتتبلور في شاكلة مجموعة حلقات متصلة مع بعضها البعض. فالحدث العالمي ما إن ينتهي حتى يبدأ الآخر، و بالتالي فهو يتأثر بما سبقه من أحداث. و إذا طبقنا ذلك على موضوع دراستنا، لوجدنا التأثير الواضح لهذه الحرب بأحداث سبقتها بفترة زمنية معتبرة قد تصل إلى عشرون عاما.³ هذه الأحداث بدورها تجتمع كعوامل لتشكيل الأسباب البعيدة، أو الغير مباشرة للحرب. أما الأسباب القريبة، أو المباشرة، فهي بالنسبة للحدث الدولي أقرب من النقطة التي أفاضت الكأس.

الواقع أن هناك أسباب أخرى لا تقل أهمية، جعلت الأحداث تسير بخطى ثابتة نحو تأزم الأوضاع الدولية، منها التناقض في المسائل الأوروبية الذي ظهر جليا بين فرنسا و بريطانيا⁴ بالإضافة إلى قضايا التعويضات و نزاع السلاح التي أدت إلى تعزيز مواقف الدول المطالبة بإعادة النظر في مضمون اتفاقيات الصلح. كما أن الخطر

¹ - لقد تمحورت مقررات مؤتمر الصلح على القوة المركزية، أي ألمانيا، التي حظيت بحصة الأسد. و بث في مصرها يوم 28 جوان 1919 بموجب اتفاقية "فرساي". و في هذه الوثيقة المكثفة و المعقدة نلاحظ؛ مسائل الحدود، و مشكلة الضمانات المختلفة التي انتزعت من الألمان. و من أجل تمديد أشغالهم و تطبيق بنود الاتفاقية الحلفاء ما يلي:

- لقاءات دورية للمجلس الأعلى للحلفاء، و مؤتمر السفراء برئاسة الفرنسي: "جول كامبون" Jules Cambon و ضمت كل من البلدان: فرنسا-بريطانيا-إيطاليا-اليابان و بلجيكا. كما نصبت عدة لجان للمراقبة (مراقبة نزاع التسلح و الملاحة) و لجان التعويضات. للمزيد من التوضيحات أنظر:

- Duroselle Jean Baptiste, Histoire des relations internationales..., op.cit., pp 3- 16.

² - Stora (Benjamin), Algérie histoire contemporaine..., op.cit, p 96.

³ - الصمد (رياض) العلاقات الدولية في القرن العشرين، مرجع سابق، ص 380..

⁴ - المرجع نفسه ...، ص 383.

الشيوعي الذي داهم دول أوروبا الغربية هو أيضا من الأسباب البعيدة للحرب باعتبار أن الديمقراطيات الغربية وجدت فيه سببا لجعل الدول الفاشية تهتم بالخطر الذي كانت تمثله على أنظمتها.¹

يضاف إلى كل هذه الأسباب ضعف "عصبة الأمم" و عدم قدرتها على حماية الأمن و السلام العالميين اللذين نتجا عن الأوضاع الهشة لفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، فهكذا اتضحت أكثر أسباب تدهور الأوضاع الدولية و انزلاق العالم السريع إلى أتون الحرب. و بفشل العصبة فشلت "سياسة الأمن الجماعي" التي لم تخدم في النهاية سوى واضعيها ما دام أن المبادئ التي قامت عليها و الكامنة في إيجاد الحلول للقضايا الدولية لم تنجح.² أما بخصوص قضية ضم النمسا إلى ألمانيا، فقد وجد هتلر أنها تستحق الأولوية على قضية "السوديت" Sudètes³ بالرغم من أن كليهما حيوي في إستراتيجية "الرايخ الثالث".

غير أن مسألة "الأنشلوس" Anschluss⁴ كانت لها الأولوية. و تدخل قضية النمسا ضمن المساعي التوسعية لألمانيا من وراء تحريكها القوميات الألمانية التي سلبت منها بعد التسويات التي تمت في مؤتمر الصلح. فكان هتلر يحرك القوميات الألمانية داخل الدول التي كان يريد احتلالها ثم يتدخل عسكريا ليفرض حمايته على هذه الأقليات رافعا شعار التوسع في أوروبا ضمان للمجال الحيوي الألماني...

1- الهزيمة العسكرية و موقف المستعمرات منها في شمال إفريقيا

اختلفت ظروف الحرب العالمية الثانية عن الحرب العالمية الأولى في عدة نقاط أهمها وجود مستعمرات شمال إفريقيا معنية بها إلى درجة كبيرة. و إذا لم تكن هناك تهديدات صريحة على إفريقيا الشمالية خلال الحرب الكبرى، باعتبار أنها دارت بعيدا عن القارة، فإن الحرب الثانية كانت أكثر حضورا بسبب الخطر الذي كان يمثلته التحالف الألماني-الإيطالي على المنطقة. ، و احتمال فتحه لجبهة حربية على الحدود التونسية- الليبية. الأمر الذي تطلب من فرنسا الاحتفاظ بجيش قوي فوق الأراضي التونسية إلى جانب وحدات قتالية بالقرب من المغرب الإسباني.⁵ من الأخطاء الحربية التي ارتكبتها فرنسا مع بداية الحرب العالمية الثانية أنها بنت كل إستراتيجيتها على جبهة دفاعية ثابتة من وراء اعتمادها الكلي على "خط ماجينو" للدفاع عن نفسها. الأمر الذي جعل قيادة أركان

¹ - نفسه...، ص 383.

² - كانت "عصبة الأمم" إحدى النتائج الإيجابية للحرب العالمية الأولى، حيث أرادها مؤسسوها أن تكون جهاز إنقاذ للعالم من ويلات الحروب و بالتالي تكون وسيلة تحول دون قيام أي حروب إقليمية كانت أم دولية. و يتم من خلال العصبة صيانة السلام العالمي. و قد أرادها الرئيس الأمريكي "ولسن" أن تكون حريا على الحروب انطلاقا من المبدأ القائل بأن السلام وحدة لا تتجزأ. لكن العصبة بقيت جهاز أوروبي تسيطر عليه القوى التقليدية مثل: بريطانيا و فرنسا. فعجزت عن حماية استقلال و سيادة بعض أعضائها من البعض الآخر.

³ - السودان إقليم كان خاضع للسيادة النمساوية إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى. غير أن قرارات مؤتمر الصلح لسنة 1919 منحت لدولة تشيكوسلوفاكيا الجديدة، و كان يضم أكثرية ألمانية كونه يقع على الحدود المتاخمة لألمانيا. لذلك اهتم هتلر بهذا الجزء من تشيكوسلوفاكيا كخطوة أولى للتمثل الألمان عبر كافة أنحاء أوروبا. و كانت هذه المسألة من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى عقد مؤتمر ميونيخ في 29 سبتمبر 1938 بحضور كل من "موسوليني" و "دلاديه" و "شيرلان" و "هتلر". ورفضت ألمانيا حضور "بينس" رئيس دولة تشيكوسلوفاكيا.

⁴ - أما مسألة "الأنشلوس" فكانت تعني ضم النمسا إلى "الرايخ الثالث" منذ أن قرر هتلر، خلال اجتماعه السري مع مستشاريه و البعض من ضباطه الكبار في 5 نوفمبر 1937، الإفصاح عن مخططاته السرية لضم كل الألمان الموجودين داخل "تشيكوسلوفاكيا" و "النمسا". للمزيد من الشروحات أنظر:

- Duroselle Jean Baptiste, Histoire des relations internationales..., op.cit, pp 202- 224.

⁵ - Martin (Claude), Histoire de l'Algérie française 1830-1962, éditions Aymon Fils, Paris, 1963...p 289.

جيشها لا تستخلص الدروس من الهزيمة البولونية، و لا تكثرت لتحذيرات "العقيد ديغول" و "الجنرال بيوت" Billotte.¹ كما أن استدعاء ثلاثة فرق Divisions من شمال إفريقيا لتدعيم الخطوط الحربية للمتروبول في ربيع من سنة 1940، جعل الشكوك تحوم حول قدرة فرنسا العسكرية للتصدي للزحف الألماني. و ما زاد في هذه الشكوك "التراجع الكبير" للقوات الفرنسية أثناء معركة "الفلاندر" La bataille des Flandre. حينها طالب القادة العسكريين من حكومتهم الإسراع في إبرام هدنة مع الألمان، قبل أن تتحول الأمور إلى استسلام مخز و مهين لفرنسا. لأن جيوشها تسير نحو الهاوية، و قد تتكبد أكبر الهزائم العسكرية في تاريخها.²

أ- الهزيمة العسكرية

أطلق "هتلر" هجومه الكبير في الغرب على كل من؛ هولندا و بلجيكا و فرنسا؛ في العاشر ماي 1940 و أنهاه في العاشر من شهر جوان باحتلاله الأجزاء الكبرى من فرنسا. و قد خططت قيادة الأركان الألمانية لهذا الهجوم منذ شهر أوت من سنة 1938. و قد أطلقت عليه اسم "المخطط الأصفر"³ Le Plan jaune. مرت هذه الحملة بمراحل متميزة جعلت الهزيمة الفرنسية مؤكدة.⁴

- المرحلة الأولى

امتدت من 10 إلى 19 ماي، يمكن أن يطلق عليها مرحلة "غاملين". و فيها تمكن الألمان من تحقيق انتصارات حاسمين: الأول على "الهولنديين" الذين استسلموا في 15 ماي، و الثاني في 16 ماي عندما تمكنت المدرعات الألمانية من حرق الجبهة الفرنسية في منطقة "الأردنين" Ardennes بعدما ظن الحلفاء أن الدبابات الألمانية غير قادرة على اختراق منطقة "الأردنين" بسبب تضاريس المنطقة الوعرة. هذا الانتصار دفع بالجنرال الفرنسي "غاملين" إلى حرق جزء كبير من الأرشيف الموجود في مقر وزارة الخارجية Le Quai d'Orsay، ظنا منه أن القوات الألمانية ستسير باتجاه باريس في نفس اليوم. غير أن الألمان غيروا من خططهم و اتجهوا غربا نحو مدينة "أبفيل"، Abbeville التي وصلوها في 19 من شهر ماي 1940.⁵

و هنا ينبغي الإشارة إلى أن السرعة الخاطفة التي تم بها هذا الهجوم الألماني تعود أساسا إلى المذهب الإستراتيجي الألماني القائل⁶ : باستعمال مكثف و مستقل للدبابات مع دعم جوي متواصل. لأن في النهاية، الطيران الألماني هو الذي قضى على معظم "الفرق البحرية" الفرنسية عندما حاولت القيام بعمليات الإنزال. فاعتنم "بول رينود" هذه الأزمات و معارضته الشديدة للجنرال "غاملين"، للقيام بتعديلات وزارية داخل

¹ - Reinhard (Marcel)..., op.cit, p 474.

² - Martin (Claude), Histoire de l'Algérie française..., op.cit..., pp 289-290.

³ - Deborine (G), La deuxième guerre mondiale, étude politique et militaire, éditions en langues étrangères, Moscou, s.d vers (1960 à 1963), p 74.

⁴ - Duroselle (Jean Baptiste)..., Histoire des relations..., op.cit, p 267.

⁵ - Ibid..., p 267.

⁶ - Id..., p 267.

حكومته. فعين "ويقان" كقائد عام للجيش الفرنسية، و نقل "دلاديه" من الدفاع الوطني إلى الشؤون الخارجية، أما المارشال "بيتان" فقد عين كوزير دولة و استفاد من منصب نائب رئيس المجلس.¹

من بين الاستراتيجيات التي أقدم عليها "بول رينود" داخل حكومته الجديدة، هي تعيينه للجنرال "ديغول" في منصب مساعد أمين عام لوزارة الدفاع الفرنسية. و حسب "ديغول" نفسه،² فإن ذلك انطلق من قناعة "رينود" بوزن الرجل و احتمال استعماله في المفاوضات المقبلة مع "تشرشل" و الحكومة البريطانية إذا اضطرت فرنسا إلى عقد هدنة مع الألمان.

- المرحلة الثانية

دامت هذه المرحلة من 19 ماي إلى غاية بداية شهر جوان، فقد حاول من خلالها "ويقان" إعادة ربط الاتصال بين جيوش الشمال و جيوش الوسط. غير أن العملية فشلت بسبب الموقف المتردد للإنجليز للعملية المرتقبة، من جهة، و الحادثة التي راح ضحيتها الجنرال "بيوت"، من جهة ثانية، و استسلام الجيوش البلجيكية دون شروط في 28 ماي، من جهة ثالثة. الأمر الذي دفع الفرنسيين إلى إجلاء القوات المربطة في الشمال عبر منطقة "دنكرك" Dunkerque بعدما تخلت جيوشها عن كل عتادها الحربي. و انتهت العملية في 3 جوان من سنة 1940.³

- المرحلة الثالثة

ميزتها المحاولة اليائسة التي قام بها القائد العام للقوات المسلحة "ويقان" عندما حاول تنظيم خط دفاعي فرنسي جديد في الحدود الشمالية مع بلجيكا و اللكسمبورغ، محاذيا لمنطقتي "السوم" Somme و "الإيسن" L'Aisne بوضعه لخمسين فرقة Divisions. إلا أن هذه الفرق كانت تعاني نقصا فادحا في الأسلحة و العدد، بحيث كان عليها التصدي لحوالي مائة و خمسون فرقة ألمانية. و الظاهر أن الأمل الفرنسي الوحيد كان يكمن في توقف الهجوم الألماني، و لو لفترة. غير أن المعركة لم تتوقف، فافتحم الألمان جبهة "السوم" في 6 جوان، و "الإيسن" في 7 جوان، و لم يبق للحكومة الفرنسية إلا مغادرة العاصمة باريس في العاشر من شهر جوان 1940 بعدما أعلنت "إيطاليا" دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا و تدعيمها للمحور. فاعتبر الفرنسيون ذلك "طعنة الخنجر في الظهر".⁴

¹ - Id... , p 268.

² - حصل هذا التغيير الحكومي في الأيام الأولى من شهر جوان 1940، أي ما بين الخامس و السادس منه. و كل تعيين خضع لمعطيات خاصة تخدم المصلحة العليا لفرنسا في ذلك الوقت. و قد اندهش "ديغول"، عندما استقبل من طرف "رينود" بوجود "بيتان" كعنصر فعال في هذه الحكومة. غير أن تبريرات "رينود" اعتبرت ذلك في صالح فرنسا. حيث قال: "الأفضل لنا أن يكون في الداخل و ليس في الخارج..". و كان يرمي إلى أنه يستحسن الحفاظ على "بيتان" داخل الحكومة على أن يكون خارجها، و قد يشكل خطرا عليها. للمزيد من التوضيحات ينظر إلى:

- De Gaulle Charles (General), Mémoires de guerre, L'appel 1940-1942..., op.cit..., p 57.

³ - Duroselle Jean Baptiste., Histoire des relations..., op.cit..., p 268.

⁴ - بالرغم من كل المؤشرات التي كانت توحى بدخول إيطاليا الحرب، إلا أن وزير خارجيتها الكونت "شيانو" كان قد صرح لنائب الوزير الأمريكي للخارجية السيد "سومر ويلز" Summer Welles أن إيطاليا لن تدخل الحرب ما دام هو على رأس الوزارة الخارجية. إلا أن هذه المقولة قالها "فرانسوا بونسي" Poncet François للكونت "شيانو" نفسه. طالع كل من:

و بالموازاة مع التطورات العسكرية على أرض الميدان، عكف الدبلوماسيون على المناورة على جبهتين: دعم التعداد و الطيران الإنجليزي، و محاولة التأثير على إيطاليا لإجبارها على العدول عن موقفها العدائي ضد فرنسا و دخولها الحرب.¹

فالوضعية الأولى، أفرزت رغبة بريطانية في مساعدة فرنسا عندما وعد "ونستون تشرشل" Churchill بإرسال إمدادات إضافية قوامها عشرة "سرية" Escadrilles. لكنه تراجع عن الفكرة عندما علم من الجنرال الفرنسي "غاملين" نفسه، أن فرنسا لا تملك أي احتياط مهما كان نوعه.² و قد تجلت عزيمة بريطانيا في مواصلة الحرب بأي ثمن في 4 جوان عندما صرح "تشرشل" أمام البرلمان في خطابه الشهير المقولة التي بقيت عالقة في الأذهان:³ "لن نستسلم أبدا". من هنا لم يتمكن الإنجليز من تلبية الرغبات الفرنسية في الدعم المطلوب لأن أمن بريطانيا كان يتطلب بقاء كل قواتها جاهزة على أراضيها.

للإشارة فقط، نذكر بالتعديل الحكومي الفرنسي الذي تم في 5 جوان 1940، و الذي شهد مغادرة "دلاديه" للحكومة، و عادت الشؤون الخارجية "لرينود" نفسه بمساعدة "بول بودوين" Paul Baudouin، أما اللواء العميد "شارل ديغول" فأصبح نائب أمين الدولة للدفاع الوطني، و كلف بالاتصال مع الحكومة البريطانية.⁴ فيما يخص الوضعية الثانية، فأقل ما يمكن القول عنها أنها كانت منتظرة بالنظر لكل المعطيات و المؤشرات التي كانت متوفرة منذ 8 مارس 1940.⁵ و قد ذكر "الكونت شيانو" Comte Ciano في دفتره اليومي بتاريخ 13 ماي أن "موسوليني" قد صارحه أنه سيعلن الحرب قبل نهاية الشهر.

و أضاف "شيانو" قائلا: "اليوم و لأول مرة لم أجيب، و عليه لا يمكنني إقناع "الدوشي". لقد قرر التصرف و سوف يتصرف، إنه يؤمن بانتصار الألمان و بالسرعة التي حققوا بها ذلك. و وحده، تطور الأحداث العسكرية، بإمكانه أن يجبره على التراجع عن قراره. غير أنه، و بالنظر للوضع الحرج للحلفاء، فلا يوجد أي أمل..."⁶ و حتى اقتراحها عليه تونس مقابل الحياد لم يكن ليغير من قرار "موسوليني".⁷ و لم يبق أمام فرنسا و بريطانيا سوى التفكير في طريقة للتوصل إلى إبرام هدنة "مشرفة" مع ألمانيا.

ب- الاستسلام و توقيع الهدنة

- Duroselle Jean Baptiste., Histoire des relations..., op.cit., pp 269-271.

- Reinhardt Marcel., op.cit., p 476.

¹ - Duroselle Jean Baptiste., Histoire des relations..., op.cit, p 268.

² Churchill (Winston), Mémoires de guerre..., La drôle de guerre..., op.cit., pp 67-70.

³ - Duroselle Jean Baptiste ..., Histoire des relations..., op.cit., , p 269.

⁴ - Ibid., p 269.

⁵ - Id., p 269.

⁶ - Id., p 269.

⁷ - Ferhat (Abbas), Guerre et révolution d'Algérie, la nuit coloniale, T1, éditions Julliard, Paris, 1962, p 138.

غادرت الحكومة الفرنسية العاصمة باريس في العاشر من جوان سنة 1940، باتجاه مدينة "تور" Tours التي لم تمكث بها طويلا أمام التهديدات الألمانية التي رمت بها¹ باتجاه مدينة "بورديو" Bordeaux. هذا التراجع جرف معه سيول من المدنيين الذين تدفقوا في الطرقات هروبا من الحرب، أخذين معهم عائلات بأكملها، حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة. إنه النزوح بكل مأساته.² فسقطت باريس في 14 جوان و دخلتها الجيوش الألمانية بعد الاستسلام المخزي لجيشها و الذي تفاوض بشأنه الجنرال الألماني "دنتز" Dentz³ فتأكدت حتمية الهزيمة الفرنسية الفرنسية و من هنا كيف سيكون رد الفعل الفرنسي؟ و ما هي الطريقة الأقل ضررا المتاحة أمام الحكومة الفرنسية للتقليل من صدمة الهزيمة الوشيكة و الاستسلام؟

تعاقت الاجتماعات المحلية،⁴ و المداولات المشتركة مع الحكومة البريطانية، ونداءات الإغاثة تجاه الحكومة الأمريكية،⁵ للنظر في المسألة إلى غاية 16 جوان، و لكن دون جدوى. فلم تجد الحكومة الفرنسية أمامها من خيارات، سوى مواصلة الكفاح أو الاستسلام. إنه الغموض داخل الحكومة الفرنسية التي اشتد فيها الصراع بين من يريدون مواصلة الكفاح في شمال إفريقيا و بين من يريدون البقاء في المتروبول.⁶

أمام الاجتياح الألماني للأراضي الفرنسية، لم تجد السلطات حلا آخر سوى الإفصاح عن نيتها في الاستسلام. و حدث ذلك يوم 25 ماي 1940 عندما أعلن الجنرال الفرنسي "بلانشار" عن الكلمة السحرية بقوله: أظن أنه يتوجب علينا الاستعداد من الآن إلى فكرة الاستسلام..⁷ هذه الجملة جسدت حجم الكارثة التي أصابت فرنسا. و قد تدعمت بفكرة أخرى أطلقها كل من الجنرال "ويقان" و رئيس الحكومة "رينود" عندما صرحا أمام أعضاء اللجنة الحربية الفرنسية بأنه ليس من المؤكد أن تمنحنا ألمانيا "الهدنة" حاليا. إنها كلمة أكثر دلالة من الأولى و التي أظهرت الحالة التي كان عليها عدد كبير من رجال الحكومة الفرنسية.⁸

¹ - اعتبر "ديغول" أنه لم يكن أمام الحكومة الفرنسية أي حل غير "الاستسلام" La capitulation، و شبه اليوم العاشر من جوان "بיום الاحتضار". لأن إيطاليا هي الأخرى قد أعلنت الحرب على فرنسا و بريطانيا و الجبهة الحربية قد انحازت تماما. و بدا للجميع أن الانحياز التام هو الواقع الجديد المفروض على فرنسا. لمزيد من الشروحات ينظر إلى:

- De Gaulle Charles (General), Mémoires de guerre, L'appel 1940-1942..., op.cit..., p 65.

² - Reinhardt (Marcel)..., op.cit., p 476.

³ - Ibid., p 476.

⁴ - منذ مغادرتها باريس و الحكومة الفرنسية في حيرة من أمرها. لأنها لم تقرر بعد الحل الذي ستختاره في النهاية. و قد توالى الاجتماعات في كل من: بريار، تور و كانج، Briare, Tours et Cange و كانت مشددة بين أنصار الاستسلام و أنصار مواصلة الكفاح. و كان يحضر هذه الاجتماعات في بعض الأحيان "تشرشل". و تكمن أهميتها في أنها كانت متعلقة بمصير الأسطول البحري الفرنسي الذي كان مرابطا في البحر الأبيض المتوسط.

⁵ - لقد حاول "رينود" الاتصال بالرئيس الأمريكي "روزفلت" ليطلب منه التدخل. غير أن "روزفلت" ضمن للفرنسيين وصول العتاد و المؤن، و لكن فيما يتعلق بالجانب العسكري فالأمر يعود، كما قال، إلى "الكونغرس الأمريكي" الوحيد المؤهل لاتخاذ القرارات في هذا الشأن. فيما يتعلق بالنقاط الثلاثة الأخيرة أنظر:

- Duroselle..., Histoire des relations ..., op.cit, pp 268-276. Et aussi. : Reinhardt Marcel..., op.cit, pp 476-477.

⁶ - Reinhardt (Marcel)..., op.cit, p 477.

⁷ - Gallo (Max), Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1940, de l'Abime a l'espérance, XO éditions, Paris, 2010, p 134.

⁸ - Ibid., p 134.

كان يوم 16 جوان حاسما بالنسبة للفرنسيين الذين فقدوا الأمل في مساعدة بريطانية-أمريكية، مما أجبر "بول رينود" إلى تقديم استقالته، ففتح ذلك المجال أمام المارشال "بيتان" لتشكيل حكومته بقائمة من المواليين لسياسة الهدنة في نفس اليوم و على العاشرة ليلا.¹ و بقي مترددا في قضية منح وزارة الخارجية بين "بيار لافال" Pierre Laval و "بودوين". فاختار الثاني بعد استشارة كل من "ويقان" و "شارل رو" Roux Charles. و كان "بودوين" من أنصار الإبقاء على التحالف البريطاني الفرنسي، و على الصداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية. فاستدعى بودوين، في الساعة الأولى من اليوم الموالي، السفير الإسباني "دي لوكيريك" و طلب منه نقل برقية للحكومة الألمانية، الأمر الذي تم على الساعة الثالثة صباحا.³

و في صبيحة نفس اليوم توجه المارشال "بيتان" بخطاب، عبر الإذاعة، إلى الفرنسيين جاء فيه: "...إنني أهب نفسي لفرنسا للتخفيف من ألامها...⁴ لقد توجهت هذه الليلة إلى الخصم حتى أطلب منه البحث معا عن سبل للسلام... و عن وسائل كفيلة بوضع حد لهذه الحرب...⁵ و في 21 من شهر جوان 1940 في "رتوند" Rethondes و في نفس العربة التي وقعت فيها ألمانيا على هدنة 11 نوفمبر 1918،⁶ تم السماع لشروط الهدنة الألمانية الألمانية التي حملت مسؤولية الحرب لفرنسا، و جاء فيها:

- تسريح الجنود و إلغاء التعبئة.
- تسليم كل السلاح الموجود في الأراضي المحتلة.
- وضع مراكز الأسلحة تحت السلطة الألمانية و الإيطالية معا.
- تسليم التحصينات و كسح الألغام.
- تعهد فرنسا بعدم المحاولة لاستئناف الحرب.
- إيجاد ظروف جديدة لسلام عالمي من خلال الاعتراف بالظلم الذي تعرضت له ألمانيا.⁷
- عدم السماح للبواخر بمغادرة الموانئ، و للطائرات بالإقلاع إلا بإذن، و لا بالاتصالات السلكية و اللاسلكية.
- أن يحدد تعداد الجيش الفرنسي بـ 100000 جندي.⁸

¹ - Duroselle (Jean Baptiste), Histoire des relations..., op.cit, p 276.

² - "بيار لافال" رجل دولة فرنسي، من مواليد سنة 1883 في "شاتلدون" Chateldon، تقلد منصب رئاسة الحكومة في مناسبتين: الأولى من سنة 1931 إلى 1932 و الثانية من 1935 إلى 1936. حاول إبرام اتفاقيات حسن الجوار مع إيطاليا، و طبق سياسة نقدية مبنية على امتصاص التضخم. أصبح وزير دولة و نائب رئيس الحكومة في أول حكومة "لفيشي" التي قامت في جويلية 1940. ثم أصبح وزير أول للمارشال بيتان سنة 1942. و يعتبر من الذين قدوا سياسة تعاونية مع الألمان لذلك تم إعدامه سنة 1945. أنظر:

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 1458.

³ - Duroselle (Jean Baptiste), Histoire des relations..., op.cit.. p 277.

⁴ - Reinhardt (Marcel)..., op.cit, p 477.

⁵ - L'Echo d'Oran du 18 juin 1940.

⁶ - L'Echo d'Oran du 23 juin 1940. Et voir aussi : Reinhard Marcel..., op.cit, p 477.

⁷ - L'Echo d'Oran du 23 juin 1940.

⁸ - Reinhard (Marcel)..., op.cit, p 477.

كما تضمنت هذه الشروط بنود متعلقة بالجانب السياسي و بالأسطول البحري.¹ و تواصلت محادثات الهدنة في اليوم الموالي انتهت بالتوقيع على الاتفاقية الشهيرة في 22 جوان 1940 بين الجنرال "هنتزيرغر" من الجانب الفرنسي، و الجنرال "كليثال" من الجانب الألماني.² و لم تتضمن الاتفاقية أية شروط تتضمن تقليص النفوذ الفرنسي على أراضيه فيما وراء البحار.

غير أن "هتلر" اشترط على فرنسا أن تبرم معاهدة مع إيطاليا حتى تكون الاتفاقية مكتملة. فتم له ذلك بعدما وقع الطرفان على اتفاقية الهدنة في 24 جوان بروما.³ و في اليوم الموالي دخلت اتفاقية الهدنة حيز التطبيق على الساعة منتصف الليل و خمس و ثلاثون دقيقة.⁴

بفضل إبرامها للهدنة مع ألمانيا، بقيت مناطق الإمبراطورية في أمان، خاصة منها مناطق شمال إفريقيا. غير أن الألمان في كل ذلك، اشترطوا تحديد جيوش إفريقيا بـ 30000 جندي فقط بإمكانهم الدفاع عن هذا الجزء من الإمبراطورية من أي خطر خارجي. و في النهاية تمكن الجنرال "هنتزيرغر"، رئيس البعثة الفرنسية في "فيسبادن"، من انتزاع عدد 115000 جندي من السلطات الألمانية، مع الحق في استعمال جزء من الأسلحة التي منعها الألمان في فرنسا.

بعد توقيع الهدنة، تحولت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية إلى ميدان صراع بين قوات "فيشي" و "ديغول"، حيث اعتبر هذا الأخير أن الإمبراطورية التي كانت رمزا لعظمة المتروبول لا بد أن تعود هي السبيل لاسترجاع هذه العظمة. و كما قال: "على الإمبراطورية أن تنقذ فرنسا أو تهوي معها، لأنها هي الأخرى محل أطماع الألمان."⁵ و في 15 جويلية 1940 قدم "هتلر" لائحة من الشروط الألمانية إلى اللجنة الفرنسية المكلفة بالهدنة بالهدنة جاء فيها على وجه الخصوص:

- وضع تحت تصرف القوات الجوية الألمانية 8 مطارات في المغرب.
 - حق مراقبة الدخول إلى الموانئ.
 - حق استعمال خط السكة الحديدية تونس-الجزائر-الدار البيضاء.
- سوف تقدم حكومة "فيشي" على قبول هذه المطالب بتوقيعها لاتفاقيات "باريس"، أو ما عرف "بروتوكولات 28 جويلية 1941". و زيادة على ذلك، تحصل الألمان على حرية استعمال القاعدة البحرية في "بنزرت" بالإضافة إلى استغلال خط السكة الحديدية "بنزرت- قابس" إلى جانب تسهيلات أخرى.⁶

¹ - Duroselle (Jean Baptiste)..., op.cit, p 280.

² - L'Echo d'Oran du 8 juillet 1940.

³ - Reinhard (Marcel)..., op.cit, p 477.

⁴ - Ibid..., p 477.

⁵ - Hadhri (Mohamed), L'URSS et le Maghreb de la révolution d'Octobre à l'indépendance de l'Algérie. 1917-1962 édition l'Harmattan, Paris, 1985, p 76.

⁶ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie marocaine pendant la seconde guerre mondiale 1939-1945, Thèse de doctorat nouveau régime, Nice, octobre 1994, sous la direction d'André Nouschi, p 44.

لم يعد هناك مجال للشك بأن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا قد قضت على أسطورة القوة الفرنسية التي لا تقهر، و في نفس الوقت أوجدت عند المسلمين في شمال إفريقيا مواقف وطنية، و لكنها لم تكن عدائية حتى لا تחדش مشاعر الأوروبيين جراء هذه الوضعية المأسوية. و الحقيقة أن الأوروبيين قد وجدوا أنفسهم في وضعية غريبة نوعا ما باعتبار أنهم لم يعرفوا معنى احتلال دولة من طرف قوة عظمى، و خضوع شعب لشعب آخر..

و يرجع المؤرخون أسباب هذا السقوط السريع للقوات الفرنسية لعدة عوامل منها: قوة ألمانيا العسكرية، و استعمال الدبابات و الطائرات إلى جانب التركيبة الشابة المتنامية للجيش الألماني بحيث أن أكثر من 25% تقل أعمارهم عن سن الخامسة و العشرون، و المعنويات العالية للجند الألمان، بالإضافة إلى تأخر المساعدات البريطانية-الأمريكية و صعوبة الاتصالات السلكية من الجانب الفرنسي.¹

أصبحت هزيمة جوان 1940 في حينها ضربة موجعة للعالم الاستعماري في الجزائر. فانهارت أسطورة القوة الفرنسية أمام الضربات المتتالية للجيش الألماني و انهار معها نظام الجمهورية الثالثة. فلم يتبقى سوى قوافل اللاجئين الفارين من صوت القنابل و انتاب المتروبول الهلع الأكبر. فأصبح المنتصر في 1918 مهزوما مقهورا و في وضع لا يحسد عليه.²

ج- مواقف متباينة في الجزائر

حملت الحرب العالمية الثانية في طياتها حصصها المتضاربة حول المواقف التي يجب تبنيها في مثل هذه الظروف المعقدة سواء تعلق الأمر بالأحزاب السياسية أو الشخصيات الرسمية أو السكان المسلمين في كل منطقة شمال إفريقيا. و إذا كان سكان المدن على اطلاع بالأحداث التي كانت تدور في أوروبا، ما دام أنهم كانوا في احتكاك مستمر بالأوروبيين، فالأمر كان يختلف بالنسبة لسكان الريف الذين ما لبثوا أن مستهم حمى الحرب بمجرد بداية عملية التحنيد، فكانوا يجهلون الكثير عن ما كان يدور حولهم من أحداث.

إذا كانت الدعاية الفرنسية الرسمية قد أشادت باستجابة الجزائريين لنداء الوطن لمحاربة الخطر النازي، فإن ذلك يبقى تقديرا نسبيا ما دام أن ذلك لم يتم وفق إرادة عفوية أو عن الشعور بخطر أكبر من الخطر الذي كان يعاني منه الجزائريين و هم تحت رصاصة القوانين الاستعمارية التعسفية. و قد ذكر المؤرخ "سعد الله"³ أن التأييد الجزائري جاء من أكبر الأسر و رجال الدين الرسميين و القياد، من الباشاوات و شيوخ العرب و أصحاب الأوسمة و الشهادات و قدماء المحاربين الخ.. غير أن ذلك لم يكن من أسرار الدولة، و بإمكان المرء أن يؤلف كتب في هذا الموضوع.⁴

¹ - Martin (Claude), L'Algérie française..., op.cit., p 290.

² - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre d'Algérie..., op.cit., p23.

³ - في هذا المجال لعبت الصحافة الاستعمارية دورا بارزا في الدعاية لعملية التحنيد، خاصة شيوخ الزوايا و المرابطين. أنظر:

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية... ج2، مرجع سابق، ص 169.

- L'Echo d'Oran du 2 septembre 1939..., op.cit., In musée Zabana, Oran.

⁴ - أنظر تصريح جمعية شيوخ الزوايا في مجلة: إفريقيا الفرنسية، سنة 1939، ص ص 214-215.

و لكن الأمر الذي كان معبرا فعلا، هو السرعة و الخفة التي انخرط بها النواب أمثال الدكتور بن جلول و فرحات عباس،¹ الذين انضمت إليهم النخبة المثقفة و الطبقات المتوسطة فيما بعد.² فالأول طلب أن يجند كمحارب و ليس كطبيب، الأمر الذي يطرح عدة تساؤلات حول الهدف من وراء هذه المبادرة الغريبة. و قدم تهانيه الشخصية للجزائريين الذين لبوا النداء لنصرة فرنسا.³ و على إخلاصهم و ولائهم و تطوعهم نزلا عند الوعود التي قطعها النواب المنتخبين للإدارة الفرنسية.⁴

أما فرحات عباس، الذي جند "كصيدلي مساعد"⁵ فقد أظهر استعداداته التام للانخراط في الجيش طول مدة الحرب. و قد أوقف كل النشاط السياسي للتفرغ لانتقاد الأمة التي يتعلق بها مصيرنا. و صرح قائلاً: "لو تنهار فرنسا الديمقراطية، فستضيع معها آمالنا في الحرية".⁶ غير أن الرتبة التي حاز عليها في الجيش لم تناسب الوظيفة التي أسندت له إذ لم تكن تعبر عن امتنان فرنسا و لا جيشها لمساندة النواب المسلمين الجزائريين لها.⁷

و هناك من النواب الذين أرسلوا برقيات تأييد للإدارة الاستعمارية من أمثال: "عدة شنتوف" من دائرة معسكر⁸ و "الوت" من دائرة سيدي بلعباس.⁹ و قد بعث نواب مدينة تلمسان بعريضة مساندة إلى الحاكم العام العام يعربون فيها عن استعدادهم للحرب.¹⁰ لقد اهتمت الصحافة مع بداية الحرب، بالحركة المؤيدة لفرنسا، عندما راحت تنشر برقيات النواب عبر أعمدة جرائدها و خاصة منها جرائد "صدى وهران"¹¹ L'Echo d'Oran. و "صدى الجزائر" L'écho d'Alger و "برقية قسنطينة" La dépêche de Constantine.

كما جاءت تصريحات شيوخ الزوايا و المرابطين مؤيدة هي الأخرى لفرنسا من خلال موقف جمعيتهم حيث وجهوا عددا معتبرا من برقيات المساندة و التأييد إلى الإدارة الفرنسية و أيدوها طوال فترة الحرب.¹² و كان يهدف موقفهم هذا إلى توحيد صفوفهم في محاولة لوضع حد للخلافات التي كانت قد نشبت منذ ماي 1937،¹³ و ظهرت للعيان مع النصف الثاني من سنة 1938.¹⁴ و من بين التصريحات التي جلبت إليها الأنظار نجد التصريح التالي لقادة الزوايا: "إلى أبنائنا؛ أدوا واجبكم تجاه فرنسا بكل صفاء و تفان، كما أدى أجدادكم واجبهم في

¹ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, p 603.

² - A.W.O, Boite, 2261, dossier presse, L'Entente du mois de janvier 1940.

³ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., T2, op.cit, p 548.

⁴ - Bulletin d'information du gouvernement général, du 14 septembre 1939.

⁵ - لقد فسر "فرحات عباس" موقفه هذا بانتماءه لفرنسا و للحرية.. للمزيد من الشروح أنظر:

- Martin Claude, Histoire de l'Algérie française..., op.cit...,p 291.

⁶ - A.W.O, Boite, 2261, dossier presse, L'Entente du 4 septembre 1939.

⁷ - كان فرحات عباس يعمل في المستشفى العسكري قسنطينة كصيدلي مساعد منذ 18 أكتوبر 1939. أنظر:

-A.W.O, Boite, 2261, C.I.E Oran N° 519 des mois d'octobre et novembre 1939.

⁸ - A.W.O, L'Echo d'Oran du 6 septembre 1939.

⁹ - A.W.O, Boite, 2261, C.I.E Oran, N° 01 de décembre 1939.

¹⁰ - A.W.O, Boite, 2261, dossier presse, La voix de l'indigène, N° 497 du 8 février 1940.

¹¹ - لم تخلو صفحات هذه الجريدة من المقالات الداعمة لفرنسا و لمحربها ضد النازية حتى قبل اندلاع الصراع العالمي الجديد. طالع الجرائد التي صدرت منذ 30 أوت 1939 إلى غاية 2 جانفي 1940.

¹² - A.W.O, L'Echo d'Oran, du 2 septembre 1939.

¹³ - A.W.O, Boite, 2260, Sûreté dép..Alger, N° 3591, du 20/05/1937.

¹⁴ - A.W.O, Boite, 2260, CGG, CIE Alger, du 09/09/1938.

1870، و أبائكم و إخوانكم في 1914... و هكذا ستساهمون في ضمان مستقبل أفضل لكم و لأولادكم، و حماية شرف و سمعة فرنسا، وبذلك يكون لكم شرف المساهمة في انتصار السلم و الحرية و الديمقراطية في العالم...¹

كما كانت مواقف مشابحة لعدد من قادة الزوايا نذكر منهم : الشيخ ابن الأحول من الزاوية القادرية. و سي بوعزيز بن قانة، شيخ العرب.² و طلب الأئمة في المساجد من المسلمين أن يصلوا و يدعوا لإخوانهم و لفرنسا بالنصر.³

و قد بدأ شيوخ الطرق الدينية و الزوايا نشاطهم بشكل ملفت للانتباه، بعدما نصبوا فرعا للجمعية الوطنية للزوايا بغرب البلاد أسندوا رئاسته للمدعو: بلمكي،⁴ حيث جاء في رسالة وجهوها إلى رئيس دائرة مستغانم ماييلي: " يشرفنا أن نطلعكم بالسير الحسن للأوضاع على مستوانا، و إننا نصلي كل يوم من أجل النصر."⁵ من هنا تبرز الأسباب التي جعلت هذه الفئة تعبر عن ولائها التام لفرنسا، فهي تكسب مصالح و بالتالي بالتالي عليها أن تدافع عليها بشتى الطرق، حتى و لو تطلب منها ذلك التضحية بشباب الأمة في سبيل التجنيد لفرنسا.

أما الشخصية الأكثر تناقضا في عملية التأييد هذه، فهو الشيخ "الطيب العقبي" الذي انفصل عن العلماء و استقال من مجلس الإدارة للجمعية بعد دورتها في 23-25 سبتمبر 1938 بسبب ما عرف بخلافاته حول عملية تأييد فرنسا، فواصل نشاطه في نادي الترقى و اهتم بالجمعية الخيرية و بمدرسة "الشبيبة"⁶ و أعاد بعث جريدته "الإصلاح"⁷ من جديد. و الحقيقة أن العقبي، كباقي النواب، كان ينتظر التفاته من السلطات الفرنسية مقابل ما قدمه الجزائريون في بداية الحرب.⁸ كما كان يطمح في أن تسمح دولة المارشال "بيتان" بحرية التعليم

¹ - Zenati (Rabah)...In Revue de l'Afrique Française, 1939, pp 214-215.

² - Revue de l'Afrique Française, 1939, p 83.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme Algérien..., T2, op.cit, p 603.

⁴ - A.W.O, Boite, 2260, CGG, Note du CIE, Alger le 16/02/1940.

⁵ - A.W.O, Boite, C.I.E Oran, N° 478 du mois de mai 1940.

⁶ - لا زال غموض كبير يكتنف الموقف الغريب للشيخ "العقبي" في هذه المرحلة بالذات. و ما لجوءه إلى العمل الخيري إلا دليل آخر على هذا الغموض. و ما صرحت به جريدة "الوفاق" من أن مدرسة "الشبيبة" قد استفادت من 50000 فرنك، و أن الجمعية الخيرية التي يشرف عليها "العقبي" قد استفادت من 12000 فرنك و فرن كهربائي، من شأنه أن يزيد في الملابس. أنظر:

- A.W.O, Boite, 2261, dossier presse, El Ouifak, N° 27 du 31/12/1939.

⁷ - الإصلاح: جريدة إصلاحية أنشأها الشيخ الطيب العقبي بمدينة بسكرة، و كانت تصدر بصفة غير منتظمة بحيث صدر العدد الأول منها في 8 سبتمبر من سنة 1927. و تلاه العدد الثاني سنتين بعد ذلك. و في 25 سبتمبر من سنة 1930 توقفت عن الصدور بعدما صدر منها 14 عددا. و مع بداية الحرب العالمية الثانية عادت إلى الظهور بداية من 28 ديسمبر من سنة 1939، محتفظة بنفس العنوان الأصلي. و قد كتبت أسفل الجريدة العبارات التالية: "جريدة إسلامية حرة في مباحثها و هي دينية قبل كل شيء..." و قد تغير مقر صدورها من بسكرة إلى الجزائر العاصمة، و استمرت في الصدور مرتين في الشهر، ثم توقفت في 22 فبراير 1942. و بعثت من جديد في 10 ماي 1947 في شكل جريدة أسبوعية إلى غاية توقفها بصفة نهائية في 3 مارس 1948. و تذكر المصادر أن الجريدة أصدرت حوالي 73 عددا. طالع:

- ناصر محمد، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص ص 190-198.

⁸ - A.W.O, Boite, 4473, C.I.E Oran , N°84, du 12/2/1940.Et journal El Islah, N° 16, du 11/01/1940.

الإسلامي كما فعلت مع التعليم المسيحي.¹ و قد نشر مقالا في جريدته الجديدة يطالب فرنسا بأن تمنح نفس الحقوق للجميع سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود.²

إذا كانت الحرب لا تعني الجزائريين في شيء فمعنى ذلك أن فكرة الرفض تأتي تلقائيا دون البحث لها عن أسباب أو مبررات. و هروب أعداد كبيرة من الجزائريين من عملية التجنيد هو في حد ذاته تعبير عن هذا الرفض و دليل واضح عن الحالة النفسية التي كان عليها الجزائريون قبل و أثناء الحرب.

فالمواقف الوطنية التي تزعمها مصالي الحاج و من ورائه حزب الشعب الجزائري، فقد أوضحت معارضة شديدة لدخول الجزائريين هذه الحرب إدراكا لأبعادها. لأنها في الأصل اعتبرت حرب بين قوى استعمارية تقليدية و أخرى تحاول أن تصبح كذلك. فهو تنافس من أجل الهيمنة و الاستغلال لا غير. و من هنا انتهج المبدأ القائل: " لا تفضيل لنا لإمبريالية عن أخرى."³

عند خروجه من السجن عشية اندلاع الحرب، أعرب مصالي الحاج عن موقف متشدد و معاد تجاه فرنسا الاستعمارية حين صرح: "لا يربط شمال إفريقيا بفرنسا أي شعور، اللهم إلا الكراهية التي أوجدتها في قلوبنا مائة عام من الاستعمار.. و إذا كان العيش كرجال أحرار معناه أن نكون مناهضين لفرنسا فإننا كذلك و سنظل إلى الأبد..."⁴

كان موقف الحزب واضحا حتى قبل اندلاع الحرب عندما أوضحت صحافته "أن المسلمون في شمال إفريقيا لا يرغبون في أن يكونوا مرتزقة حرب، و إنما للدفاع عن الحرية."⁵ و كتبت أيضا: "لا يمكن لفرنسا أن تطمع في مساعدة الشعوب الإسلامية في بلاد المغرب ما لم تحقق لهم طموحاتهم الديمقراطية."⁶ و ظل الموقف متصلب لدرجة أن المناضلين فكروا جيدا في حمل السلاح ضد فرنسا لتحقيق الاستقلال.⁷ إلا أن هذا لم يمنع حزب الشعب من استعمال خطاب سياسي مرن تجاه الإدارة الاستعمارية عندما صرح "مصالي الحاج"⁸ خلال محاكمته الشهيرة في مارس 1941 قائلا: "لم أفكر يوما في المساس بالسيادة الفرنسية..

¹ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., T2, op.cit, p 549.

² - A.W.O, B 2261, analyse de la presse indigène, El Islah, N° 21 du 5 avril 1940.

³ - Harbi (Mohamed), FLN ; Mirage et réalité, E.N.A.L- NAQD, Alger, 1993, p 23.

⁴ - ورد هذا المقال في جريدة "الأمة"، لسان حال حزب الشعب الجزائري. الأمر الذي عرض مصالي الحاج و زعماء الحزب ، مرة أخرى، لعملية اعتقال غيبتهم عن الساحة السياسية لمدة معتبرة. أنظر:

- Bénézet Henry, L'Afrique française en danger, pp 36-42. (Cité par Martin Claude, Histoire de l'Algérie..., op.cit., p 291.)

⁵ - A.W.O, Dossier presse, El Ouma du 25 octobre 1938.

⁶ - A.W.O, Dossier presse, Le parlement Algérien, du 18 mai 1939.

⁷ - Recham (Belkacem)...., op.cit, p 121.

⁸ - ولد مصالي الحاج في 1898 بمدينة تلمسان من عائلة فلاحية فقيرة. هاجر إلى فرنسا سنة 1923 حيث مارس بها عدة حرف. و كان من بين مؤسسي نجم شمال إفريقيا في فرنسا سنة 1926. و التحم اسمه مع نشاط الحزب الشيوعي الفرنسي منذ مؤتمر "بروكسل" المناهض للاستعمار سنة 1928. غير أنه و لأسباب جوهرية غادر الحزب الشيوعي الفرنسي منذ سنة 1933 و اتجه نحو بلورة أفكاره حول الوطنية الجزائرية منذ المؤتمر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة 1936. و منذ 1929 عاش القمع و الاضطهاد بسبب مواقفه الداعية إلى استقلال الجزائر. و قد عاش قرابة 16 سنة من حياته بين السجن و المنفى. مما جعله أبرز شخصية وطنية للحركة السياسية في الجزائر. و رغم كل هذه المتاعب و الصعاب إلا أنه بقي وفيا لمبادئه من

إن حلم حزب الشعب أن تضع فرنسا حدا لقانون الأهالي و تسمح للشعب بتسيير شؤونه بنفسه، و يتعاون معها على أساس المساواة لا غير. كما كان على فرنسا أن تحترم عادات و تقاليد هذا الشعب و لغته و دينه طبقا لما ورد في اتفاقية جويلية 1830، و إن حلمنا أن نتحرر على طريقة المستعمرات البريطانية..و إذا تحقق لنا ذلك فسنقدم مساندتنا المطلقة لفرنسا في حربها ضد القوى النازية ..¹ و من هنا أصبح التوجه الثوري لحزب الشعب واضحا.²

إلى جانب حزب الشعب، هناك التيار الإصلاحية الذي رفض تأييد فرنسا في حربها ضد ألمانيا معربا عن استياءه من خضوع البلاد للأحكام العرفية و حرمان الجزائريين من أي نشاط.³ و لأن الجمعية كانت في حالة حرب ضد فرنسا منذ مارس 1938،⁴ فإنها اعتبرت هذه الحرب أوروبية و لا تعني الجمعية في أي شيء.⁵ لذلك فقد تمسكت بموقفها الذي اعتبره الكثيرون موقفا حياديا.

في ظل هذا الجو المكهرب، أعرب الشيخ "الإبراهيمي" عن موقفه الراض لتأييد فرنسا في هذه الحرب خلال اجتماع انعقد في تلمسان "بنادي السعادة" في سبتمبر 1938. و بقيت الحركة الإصلاحية على موقفها هذا حتى بعد اندلاع الحرب. مما عرض "الإبراهيمي" لضغوطات من قبل الإدارة الاستعمارية التي بعثت إليه بالقاضي "ابن هورة" إلى تلمسان في أواخر 1939 و بداية 1940 تطلب منه أن يحدد موقفه من الصراع العالمي عبر "إذاعة الجزائر" غير أنه بقي على موقفه مما عرض مدرسة "دار الحديث" بتلمسان إلى قرار الغلق و التوقف عن النشاط.⁶ و طرد الطلبة المقيمين بها.⁷ و تم اعتقال عدد من إدارات الجمعية و زج بهم أيضا في معتقل "جنين بورزق".⁸ هذه الوضعية زادت من مخاوف الإدارة الاستعمارية حيال عملية التجنيد التي كانت تنتظر منها الإدارة الاستعمارية في الجزائر الكثير. أما صورة فرنسا في المتروبول فقد شبّهت بالفريسة بلا روح! و هي صورة العجز التام و الضعف الذي انتاب فرنسا أمام المواقف المتصلبة للأنظمة النازية و الفاشية في أوروبا. الأمر الذي جعلها تنهار تماما مع بداية الحرب و تستسلم للقوات الألمانية في منتصف 1940.

خلال بعض المواقف و العبارات التي كان لها وزنها آنذاك مثل: "سند على القوة بالقوة.." و "نحن هنا في بلدنا..و نحارب من أجل حرية الجزائر..و حتى و إن تم شنقنا فسنعيش أحرار كما عاش أجدادنا أحرارا.." ينظر في الموضوع إلى كل من:

- حربي محمد، الثورة الجزائرية سنوات المخاض...، مرجع سابق...، ص 181.

- بلوفة الجليلي عبد القادر، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في عمالة وهران 1939-1954، الألمعية للنشر، قسنطينة، 2011، ص 25.

- ANOM, , GGA, fonds Oran, série 81F-782.

¹ - A.W.O, C.I.E Oran, N° 127 du mois d'avril 1941.

² - Julien (Charles André), L'Afrique du nord en marche..., op.cit., p 132.

³ - عمارة (تركي رابح) ، التعليم القومي...، مرجع سابق، ص 212.

⁴ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., T2, op.cit, p 579.

⁵ - هذا الموقف مسجل في مركز أرشيف ما وراء البحار في مدينة "أكس". و قد أورده أيضا المؤرخ "أجرون". أنظر :

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit, p 579.

⁶ - Ibrahim (Ahmed Taleb), Mémoires d'un Algérien, Rêves et épreuves 1932-1965, T1, casbah éditions, Alger 2006, p 30.

⁷ - A.W.O, B 2261, CIE N° 259 du mois de mars 1940.

⁸ - A.W.O, B 2262, carnet B.

لم تجد فرنسا في هذه الظروف الحالية سوى المتطوعين من خدامها المعتادين الذين، بحكم وظائفهم، أيدوها و تطوعوا في صفوف الجيش الفرنسي لمحاربة النازية.¹ وهذه كانت صورة طبق الأصل لما كان يحدث من قبل، كلما واجهت فرنسا أزمة أو حرباً أوروبية أو عالمية. غير أن استسلامها للنازية قد كشف عن الكثير من الحقائق و زال ذلك الشبح المخيف الذي كان يوهم الجزائريين بأسطورة "فرنسا التي لا تقهر". و الجزائريون يدركون جيداً معنى الحرب لأنهم ذاقوا مرارتها و مدى قسوتها و نتائجها غير المؤمنة. فهم في كل مرة يدفعون الثمن و لا يستفيدون من شيء. لأن التاريخ علمهم بأن الشعوب الضعيفة هي التي تدفع الثمن في النهاية.²

أمام كل هذا لم يحصل الجزائريون على ما طمحوا إليه بكل قواهم: إصلاحات تغير من أوضاعهم السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية. لأن الكولون قرروا ذلك. فكان لهم ما أرادوا من خلال قيامهم بحملات شرسة، و تهديدات جماعية لمنتخبهم. تهديداتهم وصلت باريس نفسها لشل كل الحركة في الجزائر.

كل هذا جعل رجال القانون الخاضعين للكولون يتحججون لوضع حد لأية محاولة حكومية اتجاه فكرة الإصلاحات في الجزائر. و منه اعتبار أن مسألة الحقوق السياسية لمسلمي الجزائر قد وضع لها حداً نهائياً.³

هذا الموقف الاستعماري لم يثني من عزيمة الوطنيين الجزائريين الذين سلكوا طريق السرية من أجل الحفاظ على حركتهم. و أبدت كل التيارات السياسية، بمختلف توجهاتها، تدميرها من القمع الاستعماري المتواصل مما جعلها تؤمن بضرورة توحيد الجهود لمواجهة القوى الاستعمارية.⁴ و مثلت سنة 1939 في تاريخ الحياة السياسية الجزائرية نهاية حقبة حساسة، جابها أمل رؤية فرنسا تستجيب لمطالب الجزائريين و تمنحهم حرية التصرف كمسلمين، و لو داخل الإطار الفرنسي.

هذا الواقع جسده مقال صدر في جريدة "الأمة" جاء فيه : " إن الحدث البارز في الحياة السياسية الجزائرية هو الفشل الذريع للحركة الإصلاحية. لأن الإصلاح لم يكن عقيدة و إنما وسيلة و حيلة... و من العار على هؤلاء القادة أن يتشبثوا بالسراب.. لقد فشلت سياستهم، إنهم أخطئوا التقدير، لقد حانت ساعة تحديد مسؤوليات هذا الفشل، عليهم أن يختاروا إما الخضوع و إما الاستقالة..."⁵

اهتم الجزائريون، بما كان يحدث لفرنسا من إهانة و انكسار و أثار ذلك في نفسياتهم نوع من القلق إزاء الأوضاع الراهنة. فاختار فرنسا السريع أمام الجيوش الألمانية أدهش غالبية الجزائريين، و يكون ذلك قد أقلقهم أكثر

¹ - كعادتها وجدت فرنسا العناصر التي تعتمد عليها في دعايتها لعملية التحنيد حتى توهم الجزائريين أنها تسعى لإنقاذهم من الخطر النازي. أنظر كل من:

- Aron Robert et..., Les origines de la guerre d'Algérie ..., op.cit, p 78.

- Yacono Xavier, Histoire de l'Algérie de la fin de la régence ..., op.cit, p 334.

- Ageron Charles- Robert, Histoire de l'Algérie contemp. ..., T2, op.cit, p 547.

² - ANOM, Série H, 1H32, affaire..indig..et musulm..., rapport sur la situation des indigènes en 1939.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, p 572. Et voir également :

- A.W.O, B 4473, dossier presse, Oran Matin du 9/2/1938 : Les maires d'Algérie réunis à Alger se prononcent à l'unanimité contre le projet Blum Violette.

⁴ - Kharchi (Djamel), Colonisation et politique d'assimilation..., op.cit., p 349.

⁵ - ورد هذا المقال في جريدة "الأمة" لسان حال حزب الشعب الجزائري، لشهري جويلية و أوت من سنة 1939. أنظر:

- Kaddache Mahfoud, T2, op.cit, p 599.

مما أفرحهم.¹ و الواقع أنه كان مفاجأة كبرى بالنسبة للجزائريين، لأن ذلك لم يكن يتناسب مع العظمة و الجبروت اللذين أظهرتهما فرنسا مع الجزائريين طيلة المدة التي قضتها في الجزائر.

فأصبح الغير متوقع يشكل الحدث! و المستحيل أصبح حقيقة، ولم يبق أمام الاستعمار الفرنسي إلا الانحناء!² لكن ذلك لم يفصح عن مظاهر فرح أو حزن لدى الجزائريين، حتى و إن كان الموقف مدهش. لأن جزائري الأرض العميقة كانت له اهتمامات أخرى مثل التفكير في صحة حيواناته، من غنم و إبل، أو كيف سيكون محصوله الزراعي لهذه السنة،³ ليؤثر ذلك فيه أو يجره إلى التفكير، و لو للحظة، بأن فرنسا انهزمت فعلا و سيصبح حرا كما كان من قبل. لأنه ببساطة كان ينتظر عواقب هذه الهزيمة. هل سيحل مستعمر جديد على أرضه؟ أم على العكس من ذلك، ستمكن فرنسا مرة أخرى من تجاوز ضعفها و انكسارها و مواصلة احتلالها للجزائر؟

بخصوص هذا التخوف فإنه مرتبط أساسا بعودة الآلاف من الجزائريين من فرنسا بعد تسريحهم من الجيش أو من المصانع. فأما الجنود المسرحين فكانوا يمثلون المصدر الحي الذي نقل أخبار هزيمة فرنسا بالتفصيل، باعتبارهم شهود عيان.⁴ فيما يخص العمال، فمثلوا القوة العاملة الجزائرية التي نقلت إلى فرنسا بعد حملات التعبئة و التجنيد، فبحكم احتكاكهم المباشر مع الألمان، وقفوا على واقع فرنسا و هي خاضعة للاحتلال الألماني. و في المقابل ترجح المصادر أن يكون الألمان قد تعاملوا مع الجزائريين معاملة حسنة حتى يكونوا لهم أحسن وسيلة للقيام بالدعاية في الجزائر و كافة الشمال الإفريقي.⁵

تھياً الجزائريون لاستقبال الجيوش الألمانية، التي تسربت بشأها أخبار مفادها أنها ستدخل الأراضي الجزائرية و ستقوم بتحرير سكانها من الاستعمار الفرنسي، و ستعيد الأراضي إلى أصحابها الشرعيين.⁶ هذه الحالة دفعت بالسلطات الاستعمارية إلى إرسال تعليمات للحكام الإداريين تحثهم فيها على توخي الحذر من الحالة النفسية الجديدة التي أصبح عليها الجزائريون، الذين بدأوا في إظهار إعجابهم العلني بقوة و عظمة ألمانيا، و احتقارهم للكلولون و لفرنسا، وبلغ الحد إلى تمرد البعض منهم على سلطة الإدارة الاستعمارية.

من الأمثلة الحية لهذه الحالة، فقد أوردت التقارير الأمنية عبر مختلف دوائر عمالة وهران، أسماء لأشخاص و حتى عائلات بأكملها كانت تقوم بتصرفات معادية لفرنسا لأنها لم تعد تلك الدولة المخيفة. و في هذا الصدد

¹ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp., T2, op.cit, p 549.

² - Yousfi (M'Hamed), L'Algérie en marche, T1, Almarifa éditions, Paris, 1983, p 17.

³ - Paillât (Claude), L'échiquier d'Alger, T1 : Avantage à vichy, juin 1940-novembre 1942, éditions Robert Laffont, Paris, 1966, p 107. Et voir aussi :

- Rey - Goldzeiguer Annie, Aux origines de la..., Op.cit., p 53.

⁴ - A.W.O, CIE, N° 596 du mois de juin 1940.

⁵ - كان الألمان يتتبعون التطورات التي كانت تحدث داخل الحركات الوطنية في المشرق و في شمال إفريقيا باهتمام بالغ تحسبا للحرب التي كانت على الأبواب. أنظر كل من:

- Aron Robert et..., op.cit, pp 154-155.

- A.W.O, CIE, N° 688 du mois de juillet 1940.

- A.W.O, BP 201, CIE, N° 379 de juillet 1941. Et N° 42 de janvier 1942. Et N° 112 de février 1942.

⁶ - A.W.O, BP 201, CIE, N° 688 du mois de juillet 1940.

نذكر ما حدث في بلدية عين تموشنت بتاريخ 25 جويلية 1940،¹ وكذا الأمر ببلدية فرندة، في ضواحي دائرة تيارت بتاريخ 13 سبتمبر 1940² و ببلدية السوقر، في نواحي دائرة تيارت دائما بتاريخ 1 أوت 1940.³ و حتى النساء الجزائريات كان لهن نصيبهن في احتقار فرنسا، و هذا ما أشار إليه تقرير أمني مرسل إلى الحاكم العام من طرف مصالح الشرطة في دائرة معسكر يشير إلى أن امرأة قد شتمت و سبت الفرنسيين علنا.⁴ و من هنا، بات من الواضح أن هيبة فرنسا قد تلاشت و أن الجزائريين بدأوا يتخلصون من عقدة الخوف، و راحوا يواجهون الكولون و الإدارة دون أي مركب نقص، و أصبح الرأي العام الجزائري مشدود إلى الوقائع الحية التي كانت تمجد عظمة و قوة ألمانيا في مقابل الإشادة بضعف فرنسا و تراجع هيبتها و فقدانها لمكانتها العالمية. و في هذه الظروف الحالية توجه الحاكم العام "لوبو" بخطاب إلى الجزائريين في 20 جوان 1940، يحثهم فيه على وضع الثقة الكاملة في شخص المارشال "بيتان"، و علينا جميعا أن نواصل الجهود في الدفاع عن الوطن.⁵ قد تمكن النظام الاستعماري من تحقيق تواصل فعلي لجميع أجهزته الاستخباراتية و الإدارية التي انضمت بدون عناء للنظام الجديد. و حتى الحزب الشعبي الفرنسي P.P.F تمكن من تجنيد الأهالي الذين لعبوا دورا لا يستهان به في الدعاية لفائدة النازية.⁶

أما الصحافة الاستعمارية فقد نوهت بالدور الذي قام به المسلمون في مختلف مدن عمالة وهران، كتلمسان و معسكر و وهران و مازونة... أين صلوا و دعوا بالنصر لفرنسا.⁷ كما ذكرت تقارير الإدارة الاستعمارية أن الجزائريين قد شاركوا في "يوم الحداد الوطني" الذي نظمته الفرنسيون في 25 جوان 1940، أي اليوم الذي دخلت فيه اتفاقية الهدنة مع ألمانيا، المنتصرة، حيز التطبيق.⁸ و أضافت نفس المصادر أن الإدارة الاستعمارية الاستعمارية كانت متخوفة من ميول الأهالي الجزائريين إلى الأفكار الهدامة...⁹

د- موقف المغاربة من موقف السلطان

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية في الثالث سبتمبر 1939، استجاب الشعب المغربي لنداء ملكه و زعماءه الوطنيين. فبعد قرار التجنيد العام، بدأت قوائم المتطوعين تتضاعف في كل أرجاء المملكة. و تعهد الآلاف من المغاربة بالدفاع عن الحرية و الديمقراطية. فالبعض منهم قاموا بذلك عن قناعة، و البعض الآخر استجابة لنداء

¹ - A.W.O, B 4480, rapport de police N° 3726 du 28 juillet 1940.

² - A.W.O, B 4480, rapport du procureur général d'Alger à Mr le préfet d'Oran, N° 17026, du 25/09/1940.

³ - A.W.O, B 4480, rapport du procureur général d'Alger à Mr le préfet d'Oran, N° 18666, du 19/10/1940.

⁴ - A.W.O, B 4480, rapport du procureur général d'Alger à Mr le préfet d'Oran, en date du 02/11/1940.

⁵ - L'Echo d'Oran du 20 juin 1940.

⁶ - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre d'Algérie..., op.cit., p 54.

⁷ - L'Echo d'Oran, des 8, 24 et 29 juin 1940.

⁸ - A.W.O, CIE, N° 596 du mois de juin 1940.

⁹ - A.W.O, B 1439, voir circulaire N° 460.

الملك، و أخيرا هناك من رضخ للضغوطات. و التزم القياد و الشيوخ بتقديم يد المساعدة للعائلات التي ستسمح بتجنيد أبنائها وتتعهد بحل مشاكلها العالقة.¹

استسلم الرأي العام في المغرب، كما كان الشأن بالنسبة للجزائر، إلى أمر الواقع بسبب الهدوء الذي عرفته الأوضاع السياسية عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية و ذلك بعدما تم توقيف و نفي الزعماء الوطنيين خلال سنوات 1937-1938، و تضيق الخناق على الصحافة المغربية بشكل عام و الوطنية بشكل خاص.

لقد قام بقية العناصر في الحركة الوطنية المغربية، الذين كانوا لا يزالون طلقاء، بالتعبير عن ولائهم و دعمهم المادي و المعنوي لفرنسا، متغاضين بذلك عن مطالبهم. غير أنه مع حتمية اندلاع الحرب، اضطر الوطنيون² إلى توجيه رسالة إلى المقيم العام باسم الحركة الوطنية و الشعب المغربي، حيث كتبوا: "يشرفنا أن نخبركم بأن الوطنيين في المغرب يتابعون بكل اهتمام تطور الظروف الدولية الحالية و التغيرات التي يمكن أن تحدث (سترنا الله جميعا من ذلك). إن المصلحة العليا تفرض على المغرب و فرنسا الاتحاد من أجل المحافظة على هذا البلد المهدد جراء هذه الأحداث... من أجل ذلك، ارتأينا، في ساعات العسر هذه، إلى التصريح برغبتنا الخاصة في التعاون... في جو من الثقة المتبادلة مع ممثل فرنسا في المغرب من أجل تدعيم الجبهة الفرانكو- مغربية و تقديم شروحا إلى مختلف طبقات المجتمع حول الأخطار الناجمة عن هذه الوضعية، و ضرورة التوحد في أوقات الشدة و الأخطار، حتى يتسنى لنا الوقوف أمام كل الاحتمالات التي من شأنها أن تهدد وجود المغرب و مصالح فرنسا".³

ليس الغرض هنا أن ندقق في الأحداث العسكرية التي دارت في أوروبا و في أماكن أخرى، و لكن لنستعرض الظروف التي جعلت المغرب و بقية أجزاء الإمبراطورية تربط مصيرها مع مصير فرنسا. لقد فعل ذلك بمحض إرادته، و حتى الوطنيون قد أبدوا رأيهم في القضية. أما البلاط الملكي فقد فهم الخطر الناجم عن هذه الوضعية، فالتزم شخصيا بمساعدة فرنسا حين طلب من الشعب المغربي تقديم المساعدة الإنسانية و المادية الممكنة. و في هذا الشأن بعث برسالة قرأت في كافة مساجد المملكة جاء فيها: "كنا مع فرنسا في وقت الرخاء و الهدوء... علينا أن نقف معها في هذه المحنة. و نحن واثقون من أنها ستخرج منها منتصرة، ممجدة و عظيمة".⁴

أما بالنسبة للفلاح في البادية، و العامل في المدينة، و الوطني الذي أصبح ينشط في السرية، فإن فرنسا لا زالت حاضرة من خلال ضابط شؤون الأهالي، و المراقب المدني أو الشرطي، بل أكثر من ذلك، فإن الهزيمة دفعته إلى توخي الحذر من جانب الأهالي و إحكام قبضتها على كافة البلاد. كما حملت هذه الأوضاع معها سلوكيات جديدة أظهرها سكان المغرب تجاه فرنسا. و قد أدلى بعض الأوربيين بشهادات مفادها أن المغاربة أصبحوا يتصرفون

¹ - Voir également : Hadj-Saddok M, « La guerre de 1939-1940 selon un soldat poète algérien », in *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, N° 15/16, pp 21-34. (Déjà cité).

² - تقدم وفد بقيادة كل من: محمد غازي و أحمد الشراوي و أبوبكر قادري بهذه الرسالة. أنظر:

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie marocaine..., op.cit., p

³ - Texte présenté au résident général le 28 aout 1939, In B.A.F, aout 1939, Rezette, op.cit, p 383.

⁴ - Echaoui(Mohamed), Evolution de ..., op.cit, p 39.

بكبرياء(عجرفة و غطرسة)و احتقار. " لقد أصبحوا وقحين خاصة في الطواير التي يقيمونها في السوق، حيث لم تعد لديهم تلك الرغبة لإعطاء(لمنح) أماكنهم للفرنسيين.¹

فيما يخص الصناعيين و التجار، فقد انساقوا وراء التوجه الجديد للحكومة للحفاظ على مصالحهم، ما دام أشركوا في تسيير اقتصاد الحرب منذ البداية. كما كانت فرحتهم كبيرة عندما بدأت الحكومة تتراجع عن التنازلات التي قدمت من قبل خاصة في مجالات: الحماية الاجتماعية، و التشريع المهني، لا سيما ما تحصل عليه العمال في سنوات 1936-1937. مرة أخرى، لم يجد العمال من طريق للحفاظ على تنظيماتهم النقابية، سوى الرضوخ للشروط المفروضة عليهم، "لأنهم كانوا في وضع حرج أمام انتصار الأفكار التي حاربوها من قبل..²

كما اتبع المغاربة التوصيات الصادرة من السلطان و بعض الوطنيين، و التي تحثهم على مساندة فرنسا و حلفائها، غير أن الهزيمة أمام الألمان في جوان 1940 غيرت الكثير من المعطيات، لأن لا أحد من السكان المسلمين كان ينتظر الهزيمة و الاستسلام بهذه السهولة. كما أن هذه الهزيمة لم تغير شيئا في الأوضاع الداخلية للمغرب.

حملت هذه الأوضاع معها سلوكيات جديدة أظهرها سكان المغرب تجاه فرنسا. و قد أدلى بعض الأوربيين بشهادات مفادها أن المغاربة أصبحوا يتصرفون بكبرياء(عجرفة و غطرسة)و احتقار. " لقد أصبحوا وقحين خاصة في الطواير التي يقيمونها في السوق، حيث لم تعد لديهم تلك الرغبة لإعطاء(لمنح) أماكنهم للفرنسيين.³ فلم يعد هناك مجال للشك بأن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا قد قضت على أسطورة القوة الفرنسية التي لا تقهر، و في نفس الوقت أوجدت عند المغاربة مواقف وطنية، و لكنها لم تكن عدائية حتى لا تخدش مشاعر الأوروبيين جراء هذه الوضعية المأسوية. و الحقيقة أن الأوروبيين قد وجدوا أنفسهم في وضعية غريبة نوعا ما باعتبار أنهم لم يعرفوا معنى احتلال دولة من طرف قوة عظمى، و خضوع شعب لشعب آخر..

ظهرت للعيان العنصرية و معاداة السامية التي كانت مخفية عند أوروبيي المغرب، و هنا لعب الخوف دور المحرك. فالبعض من الأوروبيين اعتبروا ذلك إهانة، و صدموا بتصرفات المغاربة، و راح البعض الآخر يردد: "إن تركناهم على هذه الحالة فسوف يتغلبون علينا.. و لن نقدر على طلب أي شيء منهم..⁴

بقيت الجالية الأوروبية ودية للإقامة و حكومة فيشي، و وضعة كل ثقفتها في التوجهات الجديدة للحكومة الفرنسية التي وعدت بنظام سياسي و عسكري قوي. أما الكولون فقد ارتاحوا لعودة الأمور إلى مجاريها و إلى الإشادة بالقيم الأخلاقية الجديدة و العودة إلى الأرض، و هنا نقصد بها العودة إلى العمل و الأسرة و الوطن.

مع مراسيم وضع الحجر الأساس لمكتبة "القرويين"، في أبريل 1940، و بينما كان رفقة الجنرال "نوقس"، تقدم ملك المغرب بهذه الكلمة إلى ممثل المتروبول: "ليكن في علمكم سيدي المقيم العام، أنه عندما اندلعت هذه

¹ - Knibiehler (Y) et Al, Des Français au Maroc, la présence et la mémoire 1912-1956, Denoël collection, Paris, 1992, p 55. (412 P)

² - Gallissot (René), Le patronat européen au Maroc 1931-1942, Editions techniques nord africaine, Rabat, 1964, pp 211-215. (283 P)

³ - Knibiehler (Y) et Al, Des Français au Maroc..., op.cit., p 55.

⁴ - Ades (Lucien), L'Aventure algérienne, témoignages rapportés 1940-1944, éditions Belfond, Paris, 1979, p 209. (252 P)

الاضطرابات، وضع المغرب كل إمكاناته و موارده و رجالاته و منتجاته السطحية و الباطنية، في خدمة فرنسا و حلفائها... لن يترك شيئا حتى يتحقق النصر للحلفاء. و سيأتي يوم تكلل فيه كل مجهوداتنا بالنصر. و تكون بذلك الصداقة الفرنسية المغربية مرتبطة للأبد فوق قداسة التضحية المشتركة، حيث تكون مصالحنا موحدة... سوف نشيد بناء على أسس ماضينا و العمل الجاد، مستقبل الحضارات الإنسانية".¹

اعتمدت قيادة أركان الجيش الفرنسي على وحدات عسكرية قدرت بـ 400000 مجند جاءوا من كل أرجاء الإمبراطورية، يضاف إليهم ما بين 200 إلى 300000 عامل لخلافة الفرنسيين المجندين. و في أبريل 1940، قدر عدد جنود الجيش في فرنسا و المغرب بـ 110000 إفريقي و 340000 شمال إفريقي.² و من أجل تنسيق كل هذه الجهود، عين الجنرال "نوقس" قائدا عاما للقوات الفرنسية في إفريقيا الشمالية. و قد أعرب "نوقس" عن امتنانه لموقف سكان المغرب في الحرب حيث صرح: "لقد تأثرت كثيرا بان دفاع المغاربة لنصرة بلادنا عندما أعطى جلالة الملك الأمر لذلك. فليتقبل منا كل الشكر و فائق الاحترام".³

استمر أمل سكان المغرب في انتصار فرنسا إلى غاية ماي 1940، غير أن رائحة الهزيمة بدأت تلوح في الأفق مخلفة دهشة كبيرة في أوساط السكان. فجاءت استقالة حكومة "بول رينود" لتفتح المجال للمارشال "بيتان" و حكومته الجديدة كي تواصل الكفاح ضد القوات الألمانية. هذا الوضع الجديد أنعش آمال السكان في المغرب، غير أنه لم يدم طويلا حيث اضطرت حكومة "بيتان" إلى توقيع اتفاقية الاستسلام في 22 جوان من سنة 1940.⁴ احتدم الصراع بين مؤيدي و معارضي الفكرة، حيث رفض الجنرال "ديغول" أن يعترف بهزيمة بلاده و وجه نداء في 18 جوان يحث فيه الجنود و القادة العسكريين و السياسيين إلى عدم تقبل الهزيمة. فكانت عباراته الشهيرة: "فرنسا خسرت معركة و لكنها لم تخسر الحرب". فحاول إقناع من الجنرالات من يمكنه لعب دور هام في استعادة زمام الأمور.

فوقع اختيار الجنرال "ديغول" على الجنرال "نوقس"، المقيم العام في الرباط و قائد مسرح العمليات العسكرية في شمال إفريقيا، الذي كان له تأثير كبير على مختلف المسؤولين الرئيسيين في الإمبراطورية، فوصل به الأمر إلى درجة أنه عرض عليه أن يكون تحت إمرته في حال ما قبل بمواصلة الحرب.⁵

ضغط سكان المغرب على الجنرال "نوقس" من أجل مواصلة الحرب في شمال إفريقيا، غير أنه اختار في النهاية أن يتبع المارشال "بيتان". فصدر في 21 جوان 1940 بيانا في الجرائد المغربية، توجه به للأوروبيين حيث قال: "وحدوا صفوفكم... و ابقوا وراء قادتكم الذين تبقى رغبتهم كبيرة في الدفاع عن مستقبل و شرف فرنسا و

¹ - Discours du Sultan Sidi Mohamed en avril 1940, cité par Delanoë : Lyautey, juin, Mohamed V ; Fin d'un protectorat, tome 1, éditions l'Harmattan, Paris, 1988, p 156. (223 p)

² - De La Gorce (Paul. Marie), L'Empire écartelé 1936-1946, l'aventure coloniale de la France, Denoël collection Paris, 1988, p 46 et +. (511 P)

³ - Discours du résident général Noguès devant les sections marocaine et française du conseil du Gouvernement le 27 décembre 1939, in B.A.F, N° 1420 du 12 janvier 1940, p 94.

⁴ - AWO, dossier presse, L'Echo d'Oran, du 08 juillet 1940.

⁵ - Echaoui (Mohamed), Evolution de ..., op.cit, p 43.

إمبراطوريتها. فقال "سوستيل" عن ذلك، أن "نوقس" قد انخرط عن الوطنية لفائدة الاستسلام مستعملا فكرة الوحدة لتحقيق ذلك.¹

هـ - موقف التونسيين من الهزيمة الفرنسية

تزامنت الهزيمة الفرنسية في جوان 1940 مع فراغ شبه كلي للحركة السياسية داخل تونس جراء إقدام السلطات الاستعمارية على سجن غالبية أفراد الحزب الدستوري الجديد و نقلهم من سجن تونس إلى سجن "تبر سوق" Teboursouk مع نهاية شهر نوفمبر 1939. و بعدها حولوا إلى المقاطعة العسكرية لمدينة "مرسيليا" للنظر في محاكمتهم غير أن تلك المحاكمات لم تتم أبدا.²

و بالرجوع قليلا إلى الوراء، نجد أن "بورقية" قد التزم بموقفه المعتدل طيلة المدة التي كان يمضيها فيها على أن حكومة "بلوم" سوف تنتهج سياسة الإصلاحات التي وعدت بها التونسيين. و قد مد يده للجميع بما فيهم اليهود من أجل بناء شراكة حقيقية تخدم مصالح الجميع و بدرجة أكثر المصالح التونسية.³

أصبح موقف المناضلين الدستوريين محل مخاوف الإدارة الفرنسية التي كانت ترى بأن أمن البلاد مهدد بالرغم من أنهم لم يظهروا أي حماسة تجاه الهزيمة الفرنسية. و لعل خوفهم من استبدال الاستعمار الفرنسي بالاستعمار الإيطالي بقي قائما.⁴ خاصة إذا رجعنا إلى ظروف الحرب العالمية الأولى و الموقف الإيطالي المتذبذب، لكن هذه المرة الأمر يختلف تماما باعتبار أن إيطاليا قد كشفت عن نواياها الحقيقية حتى قبل اندلاع الحرب. و عليه، فإن التونسيين يعلمون جيدا بأن طموحات "موسوليني" تتجاوز بلادهم و قد تهدد مستقبل الحركة الوطنية برمتها. لكن هذا لم يمنع بعض سكان جزيرة "جره" من التظاهر و تقديم الدعم للجيش الألماني و قيامهم ببعض الأعمال التخريبية. أضف إلى ذلك بعض المشادات في مدينة "القيروان" و التي قام بها بعض جنود الاحتياط و لكن دون أي أضرار تذكر.⁵

إلا أن المصادر الفرنسية قد أجمعت على أن الأمور بقيت هادئة في تونس غداة الهزيمة أمام الألمان، على الأقل في البداية. إلا أن الأمور أخذت تتأزم بفعل ظروف الحرب المتزايدة و التي نتجت عن عملية التقنين التي طالت المواد الغذائية و ارتفاع الأسعار إلى جانب الدعاية النشطة التي كانت تقوم بها ألمانيا و إيطاليا.⁶

دفعت هذه الهزيمة ببعض العناصر الوطنية من الدستور الجديد إلى الانحياز لألمانيا، رغم أن "الحبيب بورقية" كان قد حذر من ذلك. و اتهمت مجلة "العالم العربي" في عددها الصادر في شهر أكتوبر اليهود

¹ - Soustelle (Jacques), *Envers et contre tous, de Londres à Alger 1940-1942*, T1, éditions Berger-Levrault, Paris, 1950, p 57.

² - Le Tourneau (Roger), *Evolution politique de l'Afrique...*, op.cit., p 89.

³ - Garas (Félix), *Bourguiba et la naissance d'une nation*, éditions, Paris, 1956, p 115. Et voir aussi : Valette Jacques, *La France et l'Afrique...*, op.cit., p 93.

⁴ - Valette (Jacques), *La France et l'Afrique...*, op.cit., p 99.(501 p)

⁵ - Le Tourneau (Roger), *Evolution politique de l'Afrique...*, op.cit., p 93.(503 p)

⁶ - Levisse Touze (Christine), *L'Afrique du Nord dans la guerre...*, op.cit., p145.

باحثكارهم المواد الغذائية، مما أدى إلى حدوث عدة اضطرابات و حوادث جمعت التونسيين و اليهود بداية من شهر أوت 1940. و استمرت هذه الحوادث طيلة شهر أوت، خاصة بعدما تم تسريح المجندين العائدين من الجزائر. و كانت مدن؛ الكاف و القصور و سليانة مسرحا لهذه الحوادث.¹

بقية الأوضاع مرتبكة داخل الدستور الجديد و الغموض يكتنف الزعماء الذين كانوا طلقاء و منهم الدكتور "الحبيب ثامر" الذي حاول منذ 12 جويلية 1940 التقرب من الباي "منصف أحمد" ليتوسط لهم لدى الإدارة الاستعمارية حتى تطلق سراح الزعماء المعتقلين في السجون الفرنسية. و واصل "ثامر" دعايته الحزبية محاولا توزيع بعض المناشير تصب كلها في خانة إطلاق سراح المساجين السياسيين التونسيين.²

2- أصداء الهزيمة الفرنسية في شمال إفريقيا

هكذا انتهت الحرب بهزيمة تامة لفرنسا. و الهدنة التي استقبلها أغلبية الفرنسيين بارتياح كبير، بدت للبعض الآخر كأمر خطأ فادح إن لم نقل ذنب ارتكب في حق فرنسا.³ و بموجب شروط الهدنة احتلت ألمانيا ثلثي الشمال من الأراضي الفرنسية و شريطا على طول المحيط الأطلسي غربي فرنسا، و ظل جنوب فرنسا تحت الإدارة الفرنسية. و أصبحت "فيشي" عاصمة الأراضي الفرنسية الغير المحتلة. و ترأس المارشال "هنري بيتان"، و هو أحد أبطال فرنسا خلال الحرب الكبرى، الدولة الفرنسية الجديدة التي تعاونت إلى حد كبير مع الألمان.⁴ و كان على حكومته أن تصارع على عدة جبهات، داخل فرنسا، في المستعمرات، و تحدد موقفها من علاقاتها القديمة مع كل من بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية لأن ذلك كان يزعج الألمان الذين لم يضعوا الثقة الكاملة في حكومة "فيشي"، و هذا ما ستظهره تصرفاتهم فيما بعد.

أحدث الاحتلال الألماني للأراضي الفرنسية انشقاقات داخل الأحزاب السياسية، و في الأوساط الاجتماعية و النقابية، و داخل فرنسا نفسها التي كانت مختزقة بما عرف بـ "الخط الفاصل أو الحدودي".⁵ الذي قال عنه الجنرال الألماني "فون ستولبناغل" Von Stulpnagel "أنه كماشة (أو لجام) في فم الحصان. إذا ثارت فرنسا فسندد على القلادة. و سنخفف من شدتها كلما كانت فرنسا طائعة".⁶

إن هذا الكلام وحده كاف لإعطائنا صورة واضحة عن الأوضاع الحقيقية التي كانت تعيشها فرنسا في المتروبول، و التي كانت بعيدة كل البعد عن الصورة الافتراضية التي حاولت الحكومة المهزومة أن ترسمها لنفسها و لمواطنيها. لأن فرنسا أصبحت مقسمة بين منطقة محتلة كليا و منطقة تتمتع بنوع من الحرية في التصرف في الشؤون اليومية لسكانها، غير أنها تحت الوجود المكثف للقوات الألمانية و علمها المشهور "بصليبه المعقوف" Croix

¹ - Levisse-Touze (Christine), L Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p145.

² - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de l'Afrique..., op.cit., p 95.

³ - Reinhardt (Marcel)..., op.cit, p 477.

⁴ - الموسوعة العربية العالمية، مراقب سياسي 4، موقع على شبكة الإنترنت. أنظر:

- [http:// www.mawsoah.net/gae/theme_4/rights-logo.gif](http://www.mawsoah.net/gae/theme_4/rights-logo.gif)

⁵ - Reinhardt (Marcel)..., op.cit., p 478.

⁶ - Reinhardt (Marcel), Ibid, p 479.

Gammée و بقيت الإدارة الفرنسية حذرة في تصرفاتها مما أدى إلى تراجع نفوذ حكومة "فيشي" و شعبية الرئيس "بيتان". و لم يبقى من الصحافة الفرنسية إلا صحيفة "ديات" Déat و "دوريو" Doriot، بحيث أصبحت مختلف الحركات أقرب إلى النزعة الاشتراكية بحكم أنها كانت تعتبر "فيشي" حكومة رجعية.¹

أما عن الصراع القائم بين حكومة "فيشي" الموالية للألمان، و الجنرال "شارل ديغول"، حول مصير الإمبراطورية فقد تواصل طيلة فترة الحرب. فمن جهة، بقيت مناطق هامة من الإمبراطورية موالية لحكومة فيشي، نذكر على وجه الخصوص مناطق شمال إفريقيا و إفريقيا الغربية الفرنسية، و هذا بالرغم من المحاولات المتكررة لديغول و الإنجليز، الذين قاموا بقصف مدينة "مرسى الكبير" و ميناءها في 03 جويلية 1940، و محاولتهم احتلال "دكار" في 20 سبتمبر 1940.² بينما البعض الآخر من المستعمرات بقي وفيًا لحكومة فرنسا الحرة التي أقامها ديغول في المنفى بلندن مباشرة بعد استيلاء الألمان على باريس.

فيما يخص موقف التونسيين فقد تركنا الموضوع للعنصر الموالي حتى نخوض فيه بإسهاب ما دام أن وضعية تونس بأكملها كانت تهم كل الأطراف المتنازعة في منطقة شمال إفريقيا و في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

خامسا: وضعية تونس تقلق الحلفاء

في نوفمبر من سنة 1941، تقدمت القوات المتحالفة، المشكلة في معظمها من الإنجليز، باتجاه القارة الإفريقية لفرض حصارها عبر منطقة "طبرق"، إلا أن ذلك لم يدم طويلا مما دفع بالحلفاء إلى اللجوء إلى مصر لإيقاف زحف القوات الألمانية و مراقبة قناة السويس عند النقطة التي كانت تعرف بـ "خط الدفاع بالعلمين" على بعد حوالي مائة كيلومتر من الإسكندرية. هذه الظروف جعلت الأوضاع تستقر مؤقتا في شمال إفريقيا.³ غير أن ما كان يحوم حول تونس من أطماع، حتى قبل بداية الحرب، هو الذي جعلها تمر بمرحلة فتور مخادع، منذ الأحداث القمعية التي شهدتها البلاد سنة 1938. لم تتمكن أي قوة مناهضة للألمان و حكومة "فيشي" من تبوء مكانة قوية في تونس مع الهزيمة التي لحقت بفرنسا مع مطلع شهر جوان 1940. حيث بقي غالبية الفرنسيين على ولائهم لحكومة المارشال بيتان" حتى بعد نزول قوات الحلفاء في نوفمبر 1942.⁴

¹ - Reinhardt (Marcel)..., op.cit., p 478.

² - بعد الهزيمة و الاستسلام قامت حكومة فيشي بخلق فضاء كبير للشباب الفرنسي حتى يتعرف على إمبراطوريته. فقامت بتأليف الكتب و إنجاز الأفلام و وضع اللافتات الإشهارية، حتى تبرز الحياة في مناطق ما وراء البحار. الأمر الذي من شأنه دفع الشباب الفرنسي التطلع إلى هذه الأجزاء من الإمبراطورية. كما نظمت تظاهرات رسمية من أجل الدعاية. من أجل التوسع أكثر أنظر:

- Colloque international sur l'Empire Français, organisé à Paris entre le 20 et 22 janvier 1993. Voir notamment : Le chapitre réservé à « L'enjeu impérial » 1940-1944, pp 185-218.

³ - رجيتيفسكي (أوليف)، دروس الحرب العالمية الثانية، دار نشر وكالة نوفوستي، موسكو، 1979، ص 39-40.

⁴ - Seghaier (Amira Aleya), La droite française en Tunisie entre 1934 et 1946, publication d'ISHMN, Tunis, 2004, p 188.

غير أن هناك من المستوطنين الفرنسيين الذين كانوا على استعداد للالتحاق بالمقاومة غداة سقوط فرنسا في يد الألمان، إلا أن عزيمتهم تراجعت مع مرور الوقت إذ لم يبق يؤمن بفكرة المقاومة إلا العدد القليل.¹ بدأت السلطات الفرنسية بقيادة الجنرال "نوقس" تشدد المراقبة على الجالية الإيطالية الموجودة في تونس منذ نهاية سنة 1938 باعتبار أن عددها كان يفوق عدد الجالية الفرنسية هناك.² و بات واضحاً أن هذه الجالية أصبحت تمثل خطراً حقيقياً على أمن و مصالح فرنسا في تونس.

كما راجت بعض الأخبار في المحيط الفرنسي بتونس تشير إلى تحركات كثيفة لبعض العناصر الإيطالية، التي تبين فيما بعد أنها عناصر من ضباط الاحتياط الإيطاليين، الذين تلقوا تعليمات من حكومتهم للاستحواذ على أهم المواقع الإستراتيجية و تخطيط المنشآت الهامة من أجل إعاقه أي عملية تجنيد تقدم عليها السلطات الفرنسية و هذا في حالة نشوب الحرب مع الفرنسيين. لذلك شددت السلطات الفرنسية المراقبة في المدن التي توجد بها جالية إيطالية هامة على غرار مدن: تونس و بنزرت و الكاف.³

غير أنه بالرغم من رفع هذه الإجراءات في 5 من سبتمبر 1939، بعد اللقاء الذي جمع الكونت "شيانو" مع "فرانسوا بونسي" إلا أن الجنرال "نوقس" لم يكن مطمئناً للجانب الإيطالي، لذلك شرع في التحضير لحملة عسكرية كبيرة تجاه التراب الليبي.⁴ أصبحت تونس محل كل النقاشات و الحوارات داخل الحكومة الفرنسية و خارجها. حيث سعت فرنسا لفعل المستحيل حتى تمنع إيطاليا من دخول الحرب إلى جانب دول المحور. و من أجل ذلك كانت مستعدة للتنازل عن تونس و أجزاء هامة من الشمال القسنطيني لإتمام مشروع التنازلات لفائدة "موسوليني".⁵

¹ - Seghaier (Amira Aleya), La droite française en Tunisie entre 1934 et 1946., op.cit., p 171.

² - ذكرت المصادر الأرشيفية أن عدد الجالية الإيطالية في شمال إفريقيا كان على النحو التالي: قرابة 100000 في تونس و 21630 في الجزائر و 16760 في المغرب. ينظر إلى كل من:

- ANOM, série IH38, SGI- Algérie, extrait de la feuille d informations quotidiennes n 252 Alger, datée du 14 mai 1940.

- ANOM, GGA, 9H43, DSP, la politique italienne en zone française du Maroc, octobre 1938.

³ - Levisse -Touzé (Christine), L Afrique du Nord et la défense nationale française., op.cit., pp 265-266.

⁴ - هذا الموقف الفرنسي فرضته ظروف التحالفات التي عقدت في فترة حساسة أعقبت مباشرة انعقاد مؤتمر "ميونخ" سنة 1938. و حتى تخفيف

الجانب الإيطالي من الإجراءات في ليبيا، في أكتوبر 1939، لم يكن كافياً. ينظر إلى :

- ANOM, Sous-série 29H34, rapports franco-italiens en Afrique du nord 1935-1945, note N- 939 du 18 septembre 1939, établie par la direction de la sureté générale du GGA sur activité italienne.

- Galeazzo Ciano -Comte-, Journal politique 1939-1943, T1, éditions de la baconnière, Neuchâtel, Suisse, 1949, p 147.

⁵ - و لم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه ليشمل الجانب الاقتصادي أيضاً، حيث اتفق كل من "فرانسوا بونسي"، عن الجانب الفرنسي، و "جيانيني" عن الجانب الإيطالي، و الذي كان يشغل منصب مدير الشؤون التجارية في وزارة الخارجية الإيطالية، على بيع إيطاليا حوالي 500 طائرة للطرف الفرنسي. و تم الإمضاء على هذه الاتفاقية في 6 مارس 1940. و فعلاً تم الشروع في تنفيذ بنود الاتفاق إلى أن أمر "موسوليني" بتوقيفها في 24 ماي. و ذلك بسبب التقدم الألماني داخل الأراضي الفرنسية في ماي 1940. و لعل "موسوليني" لم يرد إغضاب "هتلر" ما دام أنه كان يطمع في التحالف معه للحصول على "حصّة الأسد" من أي غنيمة قد تستولي عليها ألمانيا في أوروبا و خارجها. كما أنه كان ينتظر الوقت المناسب لإعلان الحرب على فرنسا. و ما عدا ذلك، فكل شيء كان مبني على مناورات لتضليل الطرف الفرنسي فقط. لأنه في الأخير، كان يريد الحرب مهما وصل مستوى التنازلات الفرنسية. لشروحات أكثر ينظر إلى كل من:

حاولت فرنسا بقيادة رئيس حكومتها "بول رينود" من الضغط على بريطانيا حتى توافق على فكرة التنازلات لصالح إيطاليا تفاديا لدخولها الحرب إلى جانب الألمان، و ذلك خلال السفيرة التي قادته إلى "لندن" في 26 ماي أين التقى بالوزير الأول البريطاني "ونستن تشرشل"، حيث حاول إقناعه بأهمية المبادرة، غير أن الموقف البريطاني بقي متشددا.¹

لم تتمكن المبادرة الفرنسية من تحقيق الإجماع في الأوساط السياسية الفرنسية، خاصة عند بعض البرلمانيين الذين اعتبروا أن التنازل عن تونس يعد خطأ كبيرا لأن ذلك سوف يضر بالأهمية الإستراتيجية للإمبراطورية. و ذهب أحد برلمانيي اليمين، و هو "إيبارنوقراي"، Ybarnegaray إلى حد القول: "إذا كنت أعلم أن التنازل عن تونس كاف لوحده من منع إيطاليا دخول الحرب لبكيت..و لكن لسلمت بالأمر..²

توالت المحاولات لمنع إيطاليا من دخول الحرب، حيث قام الرئيس الأمريكي "روزفلت" بالتوسط لدى "موسوليني" و أخبره بأن الولايات المتحدة ستقدم دعمها الكامل لحلفائها بريطانيا و فرنسا. و جاء الرد الإيطالي عن طريق الكونت "شيانو" الذي أبلغ "روزفلت" بالرفض الإيطالي للمقترحات الأمريكية و الفرنسية معا.³ و أكثر من ذلك، فإن "موسوليني" كان قد اتخذ قراره لدخول الحرب إلى جانب ألمانيا في 8 ماي 1940، و ذلك حتى و إن تنازلت فرنسا عن كل شمال إفريقيا لفائدة إيطاليا.⁴

من هنا بدأت وزارتي الخارجية و إفريقيا الإيطالية، في إطار لجان خاصة، التحضير لسن قانون مستقبلي لتونس الإيطالية موسعة لتشمل مقاطعة القسنطيني الجزائرية. و بات التعديل الوزاري الذي أقدمت عليه حكومة "رينود" يرمز للضعف و الهزيمة السياسية التي لحقت بفرنسا.

إن التحركات العسكرية الإيطالية قد زادت من حدة التوتر في المنطقة بشكل عام، و في تونس بشكل خاص، إذ كثفت من وجودها فوق الأراضي الليبية بشكل ملحوظ. و حسب مصادر "المكتب الثاني الفرنسي" فقد تهيأ الإيطاليون للحرب منذ شهر مارس 1940، حين شرعت الحكومة الإيطالية في عملية إحصاء، في كل من

- Fondation Nationale des Sciences politique, papiers Daladier 3DA, dossier 3, la question de l'entrée en guerre de l'Italie, in rapport sur la nuit du 27 au 28 mai 1940. Cite par :
- Levisse-Touzé Christine, L Afrique du Nord dans..., op.cit., p 18.
- Galeazzo Ciano , Journal politique 1939-1943..., op.cit., p 150.

¹ - حاولت بريطانيا منع أي تقارب فرنسي إيطالي قد يهدد مصالحها في إفريقيا. خاصة إذا علمنا أن بريطانيا مهتمة مباشرة لشؤون المستعمرات التي كانت تحت وصايتها و نعي بها : مصر و السودان. الأمر الذي يجعلها حتما حريصة على تأمين طرق مواصلات إمبراطوريتها في البحر الأبيض المتوسط. و المقصود هنا السودان البريطاني المصري المجاور لها. أنظر:

- Levisse –Touzé Christine, L Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 19.

² - Du Réaux (Elisabeth), Edouard Daladier et le problème de la sécurité de la France de 1933 a 1940, thèse de doctorat d Etat, Université de Paris 1, 1987, p 4.

³ - Duroselle (Jean Baptiste), L Abime 1939-1945..., op.cit., p 152.

⁴ - Bessis (Juliette), La méditerranée fasciste, L'Italie mussolinienne..., op.cit., pp 266-269.

ليبيا و تونس، للأفراد القادرين على حمل السلاح و كذا عدد المدارس التي يمكن تحويلها إلى مستشفيات في حالة الضرورة.¹

شكلت الحرب العالمية الثانية منعطفا حاسما في دعم الحركة الوطنية التونسية باعتبارها اقترنت بالهزيمة العسكرية الفرنسية أمام الجيوش الألمانية في جوان 1940. الأمر الذي ساعد على توفر المناخ السياسي و العسكري لدفع حركية تصفية الوجود الاستعماري من منطقة شمال إفريقيا. كما ساهم في هذا التحول الذي طرأ على مسار الحركة الوطنية التونسية، الارتباك الكبير الذي أحاط بالسلطة الاستعمارية في البلاد بعد هزيمة جوان 1940، حيث تشجع الوطنيون التونسيون و انقسموا إلى مؤيد للتعاون مع دول المحور عن طريق دعمه للمارشال "بيتان" و حكومة "فيشي"، و بين أنصار فكرة المقاومة التي نادى بها الجنرال "ديغول". كل ذلك وسط الضعف الذي أصاب هيبة فرنسا الاستعمارية.²

كما ساهمت حرب "محطات الإرسال الإذاعية" بين الأطراف المتنازعة *Guerre des Ondes* في تحفيز الوطنيون التونسيين ضد الوجود الاستعماري الفرنسي.

سادسا: تطور العمليات العسكرية إلى الحرب الشاملة

أصبحت الحرب العالمية الثانية في بدايتها، حرب الجماهير، باعتبار أنها جندت الرجال و الإمكانيات المادية، لدرجة أن أعداد الجيوش المتناحرة فاقت الملايين من الرجال، كما يوضحه الجدول التالي:³

البلدان	1940	1941	1942	1943	1944	1945
ألمانيا	5600000	7200000	8600000	9500000	9100000	-
اليابان	1723000	2411400	2829400	3808200	5365000	7193200
بريطانيا	2212000	3278000	3784000	4300000	4500000	4653000
و.م.أ	458000	1795000	3844000	8918000	11240000	11858000
إتحاد.س	2500000	4027000	9000000	10000000	12400000	10800000
فرنسا	5000000	-	-	-	-	-

¹ - عندما أقدمت الحكومة الإيطالية على تجنيد الميليشيات الفاشية في الفترة الممتدة من 15 إلى 30 ماي، أحسست القيادة العسكرية العليا في فرنسا بخطر ما. و اعتبرت هجوما إيطاليا مزدوجا على مصر و تونس وارد جدا من المنطقة المحصنة "خط ماري" و مدعم بعملية إنزال على الجهة الغربية في مدينة بنزرت. أنظر إلى:

- SHD, EMA, série 7N3434, note sur la situation internationale, le problème stratégique et la conduite de la guerre.(Cite par Levisse Touze Christine, In, L Afrique du Nord., op.cit., p19).

² - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 114.

³ - Masson (Jean Philippe), Une guerre totale 1939-1945, Tallandier éditions, Paris, 1993, p 426.

إلى جانب هذا الكم الهائل من الرجال، تحولت الحرب أيضا، إلى ما سمي "بحرب المحركات". التي بفضلها اكتسب الرجال القوة و السرعة التي مكنتهم من تعزيز قدراتهم القتالية من حيث الحمولة و المدى. فكانت الحاجة كبيرة لهذه القوة الجديدة التي مكنت من ابتكار والسائل البرية و الجوية الفتاكة.¹

1- استعمال الأساطيل البحرية

كان للأساطيل البحرية دورا فعالا في نشر و توسيع العمليات العسكرية على طول سواحل الشمال الإفريقي بما أنها كانت الرابط الاستراتيجي بين الأطلسي و البحر المتوسط و كذا المنفذ الهام نحو يابسة القارة الإفريقية بأكملها، كما شكلت الطرق البحرية الهامة إحدى الأهداف الرئيسية للحرب. و عندما أبرمت الهدنة كان الأسطول الفرنسي مشتمل بين موانئ "طولون" و "بريطانيا" و في "دكار" و "الإسكندرية". أما في مرسى الكبير، بوهرا، فقد كانت مرابطة قوة الغارات الأولى و الثانية و المتكونة في مجملها من 15 وحدة قتالية بما فيها 4 غواصات.²

في الجهة المقابلة، أقدمت بريطانيا على نفس العمل ضد الأسطول الفرنسي المرابط في موانئ الغرب الجزائري في ضواحي "مرسى الكبير" في يوم 3 جويلية 1940³ و الذي كان يأوي جزء هام من أسطول الأطلسي الذي انتقل إلى واجهة البحر المتوسط منذ نهاية شهر أبريل 1940.⁴ بعد ملاحظتها للموقف المتذبذب للسلطات الفرنسية التي أقدمت على إبرام اتفاقية الهدنة مع القيادة النازية الأمر الذي جعل كل القوات الفرنسية تحت تصرف القيادة الألمانية، مما أوحى كثيرا بريطانيا من ردة فعل ألمانية قد تشكل الضربة القاضية لها.

في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تتأهب للهجوم على الأسطول الفرنسي، كانت جل سفنه مرابطة في شمال إفريقيا استعدادا لتعطيلها عملا باتفاقية الهدنة التي أبرمت مع الأطراف الألمانية و الإيطالية. كما أن القيادة البحرية الألمانية كانت قد طلبت على لسان الجنرال "فون شتوبنباقل" Von Stulpnagen من السلطات الفرنسية باستعادة كل السفن الحربية الموجودة في بريطانيا و إدخالها إلى مختلف الموانئ الفرنسية الأمر الذي لم تستجب له السلطات البريطانية التي كانت قد استولت على هذه السفن و ضمتها إلى أسطولها.⁵

¹ - Durand (Yves), Histoire de la deuxième guerre mondiale, complexe éditions, Paris, 1997, p 195.

² - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord en., op.cit., p 127.

³ - تطرقت الصحافة الجزائرية بإسهاب إلى هذا العدوان الإنجليزي لدرجة أنها نادت بقطع العلاقات بين البلدين. و بقيت السلطات الفرنسية تنتشل الجثث من مياه البحر أيام بعد العدوان. كما تطرقت جرائد صدى وهران و صدى الجزائر و البرقية الجزائرية، من الجزائر، و "فبجي المغربية" إلى العدوان بالصور و حتى بتقديم أسماء الضحايا. طالع في الموضوع كل من:

- صدى وهران، جويلية 1940.

- صدى الجزائر 4-5-6 جويلية 1940

- Vigie Marocaine

- Maroc Matin

⁴ - Varillon (Pierre), Mers-El-Kébir II, in *Revue des deux mondes*, numéro du 15 Mai 1949, p 270.

⁵ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord en., op.cit., p 127.

لقد بادر الإنجليز العملية تحت اسم "كاتابولت" Catapult، التي كانت تهدف إلى السيطرة على الأسطول الفرنسي بأكمله أو تعطيله نهائيا أو تدمير كل السفن الفرنسية المكونة للأسطول.¹ و بعد عدة إعدارات وجهت للطرف الفرنسي، الممثل من طرف الجنرال "قنصول" Gensoul، للامثال لطلبات الإنجليز، أمر الأميرال "سومرفيل" Somerville بالمحجم على ميناء مرسى الكبير على الساعة 17س54 من يوم 3 جويلية مخلفا خسائر جسيمة.²

كما أن المحجم البريطاني ركز على السفن التي كانت راسية في الميناء ملحقا أضرارا كبيرة ببعض السفن الحربية. فكانت الحصيلة الأولية لهذا المحجم 1000 قتيل و 150 معطوب. فكانت ردة فعل السلطات الفرنسية أن أمرت طائراتها الحربية بالاستعداد لشن هجوم على القوات البريطانية الأمر الذي لم يعجب الألمان الذين كانوا يراهنون على جهود القوات العسكرية الفرنسية. هذه المعركة الجوية شنت بداية من 5 جويلية ضد الطائرات المائية البريطانية للكتيبة رقم 228.³ إلا أن القوات البريطانية شنت هجوما آخر بداية من 6 جويلية على ثلاثة مراحل متتالية استطاعت من خلالها إلحاق أضرارا بالغة للسفن الحربية الفرنسية مخلفة 1297 قتيل و 351 جريح.⁴

أما في إفريقيا الشمالية فانتشر الذعر و الخوف و نغم أهلها على البريطانيين فعلتهم، و صرح "نوقس" قائلا: "لا أحدثكم هنا عن الإنجليز، إنني مشمئز منهم، لأنني ساندتهم في حربهم إلى أقصى حد.. الألمان أنفسهم لم يكونوا يقدموا على هذا النوع من الخيانة.."⁵ انتشرت في وهران مشاعر الكراهية و الحقد لكل ما هو بريطاني، في أوساط البحارين و العساكر و المدنيين، من جراء الضحايا الذي خلفهم القصف على المدينة. و حتى الأعراض سوف تكون عميقة في مختلف مناطق شمال إفريقيا. حيث سيطر كل عمال القنصليات البريطانية من المغرب بداية من 8 جويلية 1940 و التحاقهم بمدينة طنجة. إلا أن القنصل البريطاني السابق في مراكش السيد "بار" Parr صرح: "لقد أحدثت العملية البحرية على مرسى الكبير مشاعر حزينة لدى السكان. إلا أن هذه المشاعر بقيت مكبوتة و وقورة.. وبالرغم من أن العملية لن تنس بسهولة، إلا أن القلق سيتناقص كلما أدرك الفرنسيون أن عزمنا لن تتراجع حتى القضاء على العدو.."⁶

لم تؤثر هذه العملية على العلاقات الفرنسية البريطانية فقط، و إنما أثرت كذلك على الجو العام داخل السلطة الفرنسية، حيث فقد الجنرال "ديغول" نسبة كبيرة من المساندين على مختلف المستويات و لم يتمكن من جمع إلا حوالي 2000 من الأتباع سنة 1940. و حتى من الرجال السياسيين الذين كانوا ضد سياسة "بيتان" في

¹ - Churchill (Winston), La deuxième guerre mondiale, La chute de la France..., op.cit...,p 247.

² - Churchill (Winston), La chute de la France..., op.cit...,p 250.

³ - D'Abzac (Claude), L'armée de l'air de Vichy 1940-1944, thèse nouveau régime, Paris Panthéon Sorbonne, 1996 pp 110-112.(Cite par Levisse Touze Christine dans, L'Afrique du Nord dans..., op.cit..., p 128).

⁴ - Dahms (Hellmuth Günter), La deuxième guerre mondiale..., op.cit..., p 94. Et voir aussi :

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord en..., op.cit..., p 128.

⁵ - Archives des affaires étrangères, Vichy-Maroc, vol.28-30, lettre manuscrite du général Noguès adressée au ministre des affaires étrangères en date du 6 juillet 1940.(Cite par Levisse Touze Christine dans, L'Afrique du Nord dans..., op.cit..., p 129).

⁶ - Archives de Paris, Papiers Noguès, in, traduction d'une lettre adressée par Parr, ancien consul général britannique à Marrakech, à Lord Halifax.(cite par Levisse Touze, L'Afrique du Nord dans..., op.cit..., : p 128)

البداية أصبحوا بعيدين عن حركته. و بقي مع المارشال "بيتان" كل الإطارات السامية في الدولة الفرنسية و في مستعمراتها، باستثناء حاكم مستعمرة "التشاد". (و هو أسود البشرة).¹

أما ديغول، فقد أعرب عن حزنه الشديد لعدد الضحايا جراء القصف، و من جهة أخرى برر ذلك بأنه عمل استراتيجي لا بد منه لاستعادة الإمبراطورية. و أمام الأخبار المقلقة من شمال إفريقيا، اضطر إلى إرسال بعثتين، الأولى إلى المغرب و الثانية إلى الجزائر للإطلاع على الحالة النفسية التي كان عليها السكان، الذين أبدوا كرههم العلني حتى للدغوليين. غير أنه تم القبض على الرسولين بمجرد وصولهما إلى شمال إفريقيا.²

2- السلاح الجوي مصدر تخويف و تدمير

تستهلك الحرب الجوية أعداد كبيرة من الطائرات و تؤدي بحياة العديد من الأطقم مما يجعل هذا السلاح ذو أهمية بالغة في عملية تقوية القدرة الحربية للدول التي تمتلكه. حيث يتبين من تطويره المكثف قوة المتنافسين على استغلاله في البر و البحر و استعمال "طائرات انتحارية" حتى ترفع من حجم خسائر العدو المرتبطة بأي عملية جوية. في المقابل، تحتاج كل الدول المتنازعة لمجهود حربي في هذه الصناعة من أجل ضمان التوسع و تسهيل أي عملية تساعد على تغيير الأسطول الجوي في أي لحظة كانت. بالإضافة إلى أطقم كفئة و مدربة تدريباً كافياً لتحقيق النصر و إلحاق الأضرار اللازمة للعدو. هذا ما تحقق للحلفاء و لم يكن بمقدور دول المحور المواصلة فيه، حيث تم القضاء على قوتهم الجوية في ميادين المعارك.. في السماء.

تميز تدخل السلاح الجوي في الحرب، بميزتين خاصيتين: أولهما العمليات الجوية التي كانت موزعة باختيار توقيت مناسب من بداية الحرب إلى نهايتها مع ضربات جوية على أراضي و مدن العدو و اتسمت بالضربات الإستراتيجية. أما الثانية، فهي نقيض للأولى حيث تندرج ضمن المعارك البرية بعد ما يتم تطهير المحيط بالضربات الجوية المحددة زمنياً و حسب المكان. و تمثل معركة "إنجلترا" نموذجاً لذلك.³

كما يشكل السلاح الجوي إحدى الآليات الحربية القوية التي ساعدت بشكل كبير في ميل كفة الانتصار إلى معسكر الحلفاء. فبعد أن دخل الألمان هذه الحرب بقوة و أصبحوا جاهزين لاكتساح الأراضي البريطانية، انقلبت موازين القوى لصالح الحلفاء بفعل الهجوم الياباني على قاعدة "بيرل هاربر" الأمريكية في جزر "هاواي" مما أجبر الولايات المتحدة الأمريكية إلى كسر حيادها و دخول الحرب بكل ترسانتها إلى جانب الحلفاء.⁴

يندرج العنف الاستعماري في أول وهلة ضمن الترسانة الحربية المستخرجة لخدمة الحروب. و على هذا الأساس تمت تجربة السلاح الجوي الفرنسي، لأول مرة، خلال حرب الريف، شأنه في ذلك استعمال الدبابات التي جربت هي الأخرى في نفس الفترة الزمنية. و كل هذا ضمن مخطط تجريب العتاد الحربي.⁵ و أكثر من ذلك، فقد

¹ - Dahms (Hellmut Günter), La deuxième guerre mondiale..., op.cit., pp 94-95.

² - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord en..., op.cit., p 128.

³ - Durand (Yves), Histoire de la deuxième guerre mondiale..., op.cit., p 184.

⁴ - Campbell (John), La seconde guerre..., op.cit., p 94.

⁵ - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey..., op.cit., p 72.

اعتبر القادة العسكريين الفرنسيين بأن السلاح الجوي يمثل "نظام تغطية و سيطرة أكبر من وحدة مقاتلة في الأرض"، و قد أصبح السلاح الطائر للجيش يستعمل في كل ظروف الحرب.¹ و الدليل قدمه المارشال "ليوطي" الذي اعترف بنفسه بأن السلاح الجوي الفرنسي هو الذي أنقذ مدينة "فاس" في جوان 1925.² كما أن المارشال "بيتان" بدوره وافق على ضرب الأسواق و التي راح ضحيتها مئات المسلمين الأبرياء في دقائق معدودة.³

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، بدأ السلاح الجوي الفرنسي يأخذ طابعا تنظيميا بتأسيس الفيلق 37 للطيران مشكل من عشر وحدات تحتوي كل واحدة على ثمان طائرات جندت لها فرنسا أكثر من 1580 شخص في الجو و الأرض.⁴ و بعد قيامه بجولة تفقدية في شمال إفريقيا، أدرك المارشال "فايول" Fayolle⁵ أن المغرب يمثل أحسن مدرسة للطيران في الوقت الحالي، و علينا أن نوجه إليها أكبر عدد ممكن من ضباطنا الشباب المتخرجين من المدارس الحربية أو حتى الضباط القدامى الذين تخلوا عن الروح التي يجب أن يتحلى بها كل طيار.⁶ أما فترة الحرب العالمية الثانية فقد عرفت هي الأخرى تطورا هاما في السلاح الجوي، حيث مكنت في مرحلة بدايتها بتفوق دول المحور التي كانت قاب قوسين من بسط سيطرتها المطلقة على كافة القارة الأوروبية لولا تراجع الألمان عن مواصلة الهجوم على الجيوش البريطانية داخل التراب البريطاني.⁷

كما أن الطيران الإيطالي قام فيما بين 12 إلى 22 جوان بقصف مركز على السفن الحربية المتواجدة في سواحل مدينة "بنزرت" خلفا 15 قتيل و 15 جريح. و لم تقتصر أحداث شهر جوان على عملية القصف فقط، بل امتدت طيلة الأسبوع و شملت مجموعة من الأعمال دون الفصل في قوة و تفوق إيطاليا العسكري. و خلاصة القول، أن إيطاليا أصبحت تشكل منافسا قويا في عملية الحرب و حليف بإمكانه دعم التدخل الألماني في أي وقت و في أي مكان، الأمر الذي جعل هذه الفرضية ذات "بعد إستراتيجي" في مواصلة المعركة في شمال إفريقيا.⁸

و في سياق ذلك، تعرضت أفلام المؤرخين الرسميين إلى هذه العملية بإسهاب كبير في فترتها، غير أن المؤلف الأخير الذي صدر عن "كوتو بقاري" و "كلود هوان" أوضح جوانب عديدة من المسألة التي بقيت طي الأدراج حيث ساهمت في حدوث القطيعة بين الإنجليز و الفرنسيين مع بداية الحرب.⁹ و في الخامس من نفس

¹ - Les opérations de l'aviation au cours de la campagne 1925-1926 au Maroc, rapport du colonel Armengaud, MDN E 29, p 39. (Cité par Rivet Daniel, in Le Maroc de Lyautey..., op.cit..., p73).

² - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey..., op.cit..., p 72.

³ - Les opérations de l'aviation au cours de la campagne 1925-1926 au Maroc..., op.cit..., pp 71-72.

⁴ - Ibid..., pp 72.73.

⁵ - هو "إميل فايول" Emile Fayolle، مارشال فرنسي ولد في منطقة "بي" Puy سنة 1852. اشتهر خلال الحرب العالمية الأولى بمولفقه البطولية في منطقة "السوم" La Somme و في إيطاليا خلال سنوات 1916 و 1917. و تقلد قيادة مجموعة جيوش أثناء المعركة الفاصلة سنة 1918. توفي سنة 1928. أنظر:

- Petit Larousse illustre..., op.cit..., p 1318.

⁶ - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey..., op.cit..., pp 72-73.

⁷ - Reibell (Charles), La vérité sur les origines du débarquement allié en A.F.N, 22 pages, Paris, 1946, p 6.

⁸ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p22.

⁹ - Bégarie-Coutau (Hervé) et Huan (Claude), Darlan..., Op.cit..., p. Et voir aussi des mêmes auteurs : Mers el Kébir 1940, la rupture franco-britannique, Economica, Paris, 1995.

- Azéma Jean Pierre, De Munich à la libération, éditions Le Seuil, Paris, 1979, p 141.

الشهر أقدمت الطائرات الفرنسية على إلقاء قنابل على جبل طارق كرد فعل على الهجوم السابق. الأمر الذي أخاف بريطانيا نوعا ما، خاصة من تقارب ألماني فرنسي محتمل قد يهدد بريطانيا و الحلفاء معا.¹ كما منحت إيطاليا قاعدة جوية في الجزائر للتعاون مع القوات الفرنسية ضد السفن الحربية البريطانية.²

أما في إفريقيا الشمالية فانتشر الذعر و الخوف و نغم أهلها على البريطانيين فعلتهم، و صرح "نوقس" قائلا: " لا أحدثكم هنا عن الإنجليز، إنني مشمئز منهم، لأنني ساندتهم في حربهم إلى أقصى حد.. الألمان أنفسهم لم يكونوا ليقدموا على هذا النوع من الخيانة.."³

انتشرت في وهران مشاعر الكراهية و الحقد لكل ما هو بريطاني، في أوساط البحارين و العساكر و المدنيين، من جراء الضحايا الذي خلفهم القصف على المدينة. و حتى الأعراض سوف تكون عميقة في مختلف مناطق شمال إفريقيا. حيث سيطر كل عمال القنصليات البريطانية من المغرب بداية من 8 جويلية 1940 و التحاقهم بمدينة طنجة. إلا أن القنصل البريطاني السابق في مراكش السيد "بار" Parr صرح: " لقد أحدثت العملية البحرية على مرسى الكبير مشاعر حزينة لدى السكان. إلا أن هذه المشاعر بقيت مكبوتة و وقورة.. و بالرغم من أن العملية لن تنس بسهولة، إلا أن القلق سيتناقص كلما أدرك الفرنسيون أن عزيمتنا لن تتراجع حتى القضاء على العدو.."⁴

3- استعمال "الرادار" تكنولوجيا جديدة في الحرب

في سجل الأسلحة الجديدة التي اشتهرت بها الحرب العالمية الثانية، هناك "الرادار" و "السونار" و "النابالم" (مادة كيميائية سريعة الاشتعال) و الطائرة النفاثة و الصواريخ V1 et V2 و أخيرا القنبلة الذرية. غير أن جل هذه الأسلحة ظهر قبل بداية الحرب، و إنما شرع في تجربتها في حقول الصراع العالمي الثاني.⁵

مثل الرادار أبرز تطور تكنولوجي للحرب العالمية الثانية. و مثل قيمة حقيقية مساعدة لكل الدول المشاركة في الحرب العالمية الثانية، و على وجه الخصوص بريطانيا، بحيث أدى دورا دفاعيا، أولا، ثم هجوميا في مرحلة لاحقة، في الحرب الجوية و البحرية. و يعتبر إحدى الآليات الرئيسية التي أدت إلى انتصار الحلفاء. بحيث أنه رفع من فاعلية استغلال الطائرات المطاردة Avions Chasseurs ليلا، و سمح في نفس الوقت للطائرات القاذفة للقتال Avions Bombardiers ذات الحقل الواسع بتحديد أهدافها و توجيه ضرباتها بكل دقة. دون أن ننسى الدور الفعال الذي كان يؤديه في البحار من أجل الكشف عن الغواصات و ملاحقتها.

¹- Dahms (Hellmuth Günter), La deuxième guerre mondiale..., op.cit., p 95.

²- Levisse-Touze (Christine), L'Afrique du Nord en..., op.cit., p 128.

³- Archives des MAE, guerre 1939-1945, Vichy-Maroc, vol.28-30, lettre manuscrite du général Noguès adressée au ministre des affaires étrangères en date du 6 juillet 1940 (Voir Levisse Touze..., p 126.)

⁴- Papiers Noguès, in Archives de Paris, traduction d'une lettre adressée par Parr, ancien consul général britannique à Marrakech, à Lord Halifax. (Cite par : Levisse Touze, l'Afrique du Nord dans la..., op.cit., : p 128)

⁵- Durand (Yves), Histoire de la deuxième guerre mondiale..., op.cit., p 212.

بدأت بعض الدول كألمانيا و بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية أبحاثها في هذا المجال حتى قبل اندلاع الحرب. و ركزت على الذبذبات و الأمواج الإذاعية لخلق حقل كهرومغناطيسي متصل بهوائي، ما يجعل الموجات تنعكس بفعل الأجسام الصلبة التي تعود كالصدى Echo إلى المنبع.¹ و تسميته عند البريطانيين تعطينا فكرة عن هذا التعريف بحيث يكون Radar Air Detection And Ranging أي جهاز كشف.²

بداية من سنة 1939 أصبحت بريطانيا و ألمانيا من الدول المتقدمة في هذا المجال. فالألمان طوروا نظام "الفريا" Le Freya الذي يسمح باكتشاف الأهداف على الأرض. و واصلوا اكتشافاتهم مع جهاز "وورسبورغ" Wurzburg الذي استعمل سنة 1940، و هو جهاز قادر على ترصد طائرات على بعد مسافة 32 كلم.

أما بالنسبة للرادار البريطاني، فقد تم تطويره منذ سنة 1935 من طرف "روبير واتسن وات" Robert Watson-Watt، و مع منتصف سنة 1938 تم تجهيز السواحل البريطانية بمحطات رادار على الأرض معروفة تحت اسم Station Chain Home لحماية حدودها البحرية. تمكنت بريطانيا في نفس السنة من وضع جهاز جوي من أجل الكشف عن السفن على السطح. و في 1939 وضع نظام صد الطائرات (اعتراض) عرف باسم "أي" AI.

ساهمت المحطات من نوع CH و AI بشكل كبير في حسم المعركة الجوية لصالح القوات الجوية الملكية RAF على حساب القوات الألمانية "لوفواف" Luftwaffe خلال معركة "انجلترا". فأصبحت هذه المحطات أكثر فاعلية بظهور تجهيزات جديدة مثل IFF "الكشف عن الأصدقاء و الأعداء". Identification des Amis ou des ennemis. بحيث أصبح هذا النظام قادر على التعرف على أي طائرة أو سفينة تابعة للحلفاء عبر جهاز رادار الفرق المستعملة.⁴ كما أدى الرادار دوره كما ينبغي في "معركة الأطلسي" خلال سنوات 1939-1945 و ساعد بريطانيا على الصمود أمام الطلعات المتكررة للقوات الألمانية مع بداية الحرب.

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، فكانت متأخرة في مجال تكنولوجيا الرادار عن كل من بريطانيا و ألمانيا مع مطلع سنة 1939. غير أنه بفضل الإمكانيات المادية التي سخرتها و بفعل المساعدة التقنية البريطانية، تمكنت منذ سنة 1940 من التقدم في هذا المجال. أما الرادار الياباني، الذي كان عموما من صنع ألماني، فكان أقل جودة من كل ما كان موجود آنذاك.⁵

¹ - Campbell (John), La seconde guerre mondiale..., op.cit., p120.

² - Durand (Yves), Histoire de la deuxième guerre mondiale..., op.cit., p 212.

³ - هو "السير روبرت ألكسندر واتسن وات" Sir Robert Alexander Watson-Watt، عالم فيزيائي من أصول اسكتلندية. ولد سنة 1892 ببلدة بريشين في مقاطعة "أوغيس" Brechin (Angus). يعتبر مكتشف و مصمم نظام الكشف و القياس لمسافة الحاجز بواسطة الموجات "الهرتزية" Ondes Hertzienne أو الرادار. توفي سنة 1973.

⁴ - Campbell (John), La seconde guerre mondiale..., op.cit., p120.

⁵ - Ibid., p120.

الفصل الثاني

تدخل الولايات المتحدة الأمريكية
في شمال إفريقيا

تمهيد

تعتبر عملية الإنزال التي تمت في شمال إفريقيا من العمليات الجريئة التي أقدمت عليها القوات المتحالفة مع نهاية سنة 1942. و قد حملت اسم "عملية تورش" أي الشعلة، و هي تعني نزول القوات المتحالفة البريطانية الأمريكية على السواحل المغربية و الجزائرية في الثامن من نوفمبر سنة 1942. و قد تم التحضير لهذه العملية منذ بدايتها تحت الاسم السري: "Gymnast"¹ إلى أن تحولت بعدها إلى التسمية المعروفة بها و التي أطلق عليها في النهاية اسم عملية "تورش". و يمثل هذا الإنزال منعرجا حاسما في الحرب العالمية الثانية، خاصة في جبهته الغربية، بالموازاة مع الانتصارات البريطانية في معركة "العلمين" بقيادة الجنرال "مونقومري"، مما اضطر الجيوش الألمانية بقيادة الجنرال "رومل" إلى الانسحاب و التراجع نحو الأراضي الليبية. أما الجبهة الشرقية فعرفت وقوف القوات السوفيتية في وجه الجيوش الألمانية في معركة "ستالينغراد" حيث طلب "ستالين" من بريطانيا و أمريكا أن تفتح جبهة جديدة للتخفيف من الضغط المفروض على بلاده.²

كما يعتبر انضمام الولايات المتحدة الأمريكية إلى الصراع الدولي، بعد الهجوم الياباني على قاعدة "بيرل هاربر"، من الأسباب التي أثرت في اتساع رقعة الحرب التي شملت المحيطين الهادئ و الأطلسي، و بذلك تحولت إلى حرب بحرية مكنت الحلفاء من إظهار مزايا تنظيمية كثيرة و قوة بحرية بفضل الولايات المتحدة الأمريكية التي وضعت قوتها الصناعية في خدمة الحرب. و قد ظهرت نوايا الحلفاء في التخطيط لعملية إنزال كبيرة في حوض المتوسط الغربي، لكن ذلك لم يتم دون خلق صعوبات مادية و بشرية.³

لم يكن من السهل على الحلفاء تنظيم إنزال بحري بهذا الحجم دون أن يلقوا معارضة عسكرية بحرية شديدة من السفن الألمانية، خاصة تلك التي كانت لها قوة نارية و قدرة على إلحاق أضرار كبيرة بالسفن الحربية للحلفاء. و لعل ما تضمنه كتاب "دافيد وودوار" حول السفن الألمانية التسعة (9) التي قامت لوحدها، فيما بين سنوات 1940 إلى 1943، بإغراق 130 باخرة تجارية للقوات المتحالفة أو دول محايدة، بحمولة تعدت 850000 طن. و المطالع للكتاب يتمعن بشوق كبير في إحدى الحلقات الهامة من الحرب العالمية الثانية فيما يخص حرب البحار.⁴

لقد اهتم الجزائريون و المغاربة، بدرجة أكبر، و التونسيون، بهذه التطورات التي كانت تخصهم من قريب حيث كانوا يتابعون الأخبار عن كثب، ما دام أنه سيكون لبلادهم دورا سياسيا و استراتيجيا كبيرا في إعادة بعث فرنسا من جديد، و ذلك بتحريرها من الاحتلال الألماني، و إعادة الهيبة للدولة الفرنسية في

¹ - أمضى "تشرشل" قرابة خمسة أسابيع في "واشنطن" يدرس مع "روزفلت" الأوضاع التي ألت إليها القارة الأوروبية جراء الزحف الألماني. و اتخذت عدة قرارات هامة فيما عرف بمؤتمر "آركاديا" Arcadia. و من القرارات الأخرى، و التي لا تقل أهمية، هي اعتبار القارة الأوروبية جزء من مسرح المعارك و ليس كل المسرح. لأن ما جاء من أجله "تشرشل" إلى الولايات المتحدة الأمريكية، هو إعلام "روزفلت" بأن ألمانيا تشكل أكبر و أخطر تهديد، ليس في أوروبا فقط، و إنما في العالم أجمع. لأنها تتمتع بقوة إنتاجية و قدرات علمية و يد عاملة مؤهلة. و إذا تركناها على هذه الحالة فسوف تصبح قوة حارقة. لمزيد من المعلومات ينظر إلى:

- Dahms Hellmut Gunther, La deuxième guerre mondiale..., op.cit., p 198.

² - Durand (Yves), La vie quotidienne des prisonniers de guerre. dans les Stalags, les Oflags et les Kommandos 1939-1945, hachette éditions, Paris, 1966, p 121.

³ - Miquel (Pierre), La seconde guerre mondiale 1939-1945, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1986, pp 483-485.

⁴ - Woodward (David), Les embusques du large, Flammarion Editeur, Paris, 1957, pp 9-21.

الظروف الصعبة التي كانت تمر بها. و قبل الشروع في تفاصيل عملية الإنزال، لا بد من معرفة الحالة العامة التي كانت عليها حكومة فيشي و الكولون، من جهة، و الألمان، من جهة أخرى، و الوطنيين، من جهة ثالثة، من جراء الأعمال الدعائية التي استمرت من بداية الحرب إلى غاية مرحلة متقدمة من الحرب، و أخيرا الظروف التي تم فيها التحضير لعمليات الإنزال على السواحل الجزائرية المغربية.

إلا أنه إذا أردنا فهم و تمحيص كل جوانب عمليات الإنزال التي تمت على سواحل شمال إفريقيا فلا بد لنا من الرجوع قليلا إلى الأوضاع التي سادت بلدانها و في المتروبول، بعد الهزيمة الفرنسية في جوان 1940، و إلى السياسة التي فرضتها ألمانيا المنتصرة على الحكومة الفرنسية المنهزمة و التي مثلتها جماعة "فيشي". لأنه من الضروري التعرف على مختلف السياسات القمعية التي مارستها الحكومة الجديدة في شمال إفريقيا و أوجه الصراع الفرنسي الداخلي و الخارجي، و موقف مختلف التيارات السياسية الوطنية في شمال إفريقيا مما كان يجري من حولها من تغيرات و تناقضات أدت بها في النهاية إلى مواكبة الصراع الأوروبي و خاصة منه الصراع الألماني الفرنسي الذي كانت انعكاساته واضحة على شعوب المنطقة.

أولا: شمال إفريقيا تحت الحكم المزدوج الفيشيستي-الألماني 1940-1942

إن سقوط فرنسا السريع أمام القوات الألمانية، عوض أن يساهم في تغيير معالم السياسة الفرنسية في مستعمراتها بشمال إفريقيا، زادها تعنتا في استغلال شعوب هذه المستعمرات و توظيف سكانها لخدمة حربها ضد دول المحور و استعمال شتى الوسائل كالتعبئة العامة و التجنيد، و إعلان الحالات الاستثنائية و إخضاع السكان المسلمين للمحاكمات الجماعية. فأقدمت على حل الأحزاب الوطنية و تعطيل صحافتها، و حاولت جر الشخصيات الوطنية إلى الاعتراف بضرورة مساندة فرنسا في نكستها، و في بعض الأحيان لجأت إلى الكذب و تزوير المواقف الحقيقية لهذه الشخصيات.¹

فتميزت الوضعية الناتجة عن الحرب في البداية بأزمة سلطة داخل الحكومة الفرنسية ثم انتقلت إلى ضياع الهبة بسبب الخسارة أمام الألمان. فاتضح الخلافات بين السياسيين، زادها تعفنا عدم الاستقرار السياسي، الذي جعل فرنسا تصغر في أعين مسلمي شمال إفريقيا.² فاستهلكت الجزائر في خلال خمس سنوات؛ أربعة أنظمة سياسية مختلفة و ستة حكومات متتالية.³

بعد الهزيمة و مجيء "بيتان" إلى الحكم لم يبق أمام فرنسا سوى تخفيف الأضرار في محاولة منها للحفاظ على إمبراطوريتها، فلجأت إلى سياسة "تعاونية" Collaborationniste مع الألمان و التي جاءت بطلب

¹ - أول اتصال قامت به فرنسا كان مع "مصالي الحاج" بسجن الخراش في 21 جوان 1940، عندما كلف الضابط "شون" Shoen بمساومة حزب الشعب الجزائري، الذي تحجج بضرورة أحد فرنسا بعين الاعتبار لمطالب الجزائريين. و تكرر الاتصال ثانية في ديسمبر 1940 بواسطة محامي زعماء حزب الشعب السيد "بومنجل" و لكن دون جدوى. أما الشخصية الوطنية الثانية التي ساومتها السلطات الاستعمارية فكان الشيخ "الإبراهيمي" الذي يكون قد صرح: "إن جمعية العلماء مع فرنسا التي تدافع على الحرية و القانون". غير أننا نتساءل هنا عن من هي فرنسا "هذه" التي تدافع على الحرية و القانون و هي خاضعة كلياً للنفوذ الألماني؟؟؟

² - Aron (Robert), et..., Les origines de la guerre d'Algérie..., op.cit, p 152.

³ - Ibid., p 152.

من الفرنسيين أنفسهم، لأن الألمان لم يظهروا أية نية في التعاون. و حتى هتلر رفض في البداية المطلب الفرنسي ما دام كان يريد دولة فرنسية مطيعة و توفر له قاعدة صلبة يعتمد عليها لشن حربه ضد إنجلترا إلى جانب الموارد الغنية التي توجد بأوروبا الغربية المحتلة.¹

أقدم نظام المارشال "بيتان" على محاولات عديدة نحو الانفتاح تجاه الألمان من أجل عمل مشترك. غير أنه اصطدم بهتلر لم يكن مهتم بالقدر الكافي بالمطلب الفرنسي. و كان تعامله مع الفرنسيين من منطلق أنه يحتاج لدعمهم في الظروف الراهنة ليسيطروا نفوذهم في البحر المتوسط، لذلك رفض اليد الفرنسية الممدودة.² كما أن "الهدنة" المبرمة مع الألمان قد وضعت الإمبراطورية و معها شمال إفريقيا في مأمن من الأطماع الإيطالية و الإسبانية. لأن ألمانيا بالرغم من أنها أكدت على تجريد الجيش الفرنسي و تحديد عدد جنوده بـ 30000 جندي فقط، إلا أنها في المقابل لم ترتاح للأطماع التي كان يديها الطرفان الإيطالي و الإسباني على الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا. فكان على حكومة "فيشي" أن تعمل على استعادة الأبحاث الضائعة، لأنه السبيل الوحيد الذي بقي أمامها لنصرة فرنسا أو الزوال معه أمام القوة الألمانية المتنامية.³

إن قضية الهجوم البريطاني على ميناء "مرسى الكبير" في جويلية 1940، هي التي دفعت بالجنرال "هنتزجر" Huntziger إلى اقتراح توسيع الهدنة المبرمة بين فرنسا و ألمانيا إلى أبعد الحدود، لأنها في الوقت الراهن توجد في الرواق الذي يفصل بين الحرب و السلم، لذلك فهي إجراء عادي غير كاف في الظروف الحالية. و لا بد من تدعيمها باتصالات معمقة بين شخصيات كبيرة من البلدين و لكن لا تنتمي إلى لجان الهدنة.⁴ غير أن الطرف الألماني لم يستغل الوضعية الجديدة التي فرضتها أحداث "مرسى الكبير" ليتقرب من فرنسا و بالتالي يضمها إلى معسكره و يستغلها كحليف إستراتيجي جديد، الذي بالرغم من هزيمته، إلا أنه يبقى "قوم مشاركة" لا يستهان بها. فعوض ذلك، طالب "هتلر" بقواعد عسكرية جديدة في شمال إفريقيا. غير أن الرد الفرنسي جاء رافضا للفكرة، باعتبار أن المارشال "بيتان" قد اندهش لهذا المطلب الألماني. وقد اعتبره العديد من المؤرخين بمثابة "أول" مقاومة لحكومة "فيشي" للوضع المنبثق عن توقيع الهدنة.⁵ و راسل هتلر على أساس إعادة المفاوضات حول أمور عديدة تتعلق بمصير العلاقات بين الدولتين.⁶

بالعودة قليلا إلى الوراء، نجد أن الأسطول البحري للبحرية الحربية الفرنسية كان يتوفر على 633888 طن قوة حولة، مقابل 538572 طن للأسطول الإيطالي و 331504 طن للأسطول الألماني. و بعد المساءلات التي خضع لها وزير البحرية "قاسني ديبارك" من طرف نواب البرلمان الفرنسي حول الدفاع الوطني، تقرر برنامج

¹ - Paxton (O.Robert), La France de Vichy 1940-1944, traduit de l'anglais par Bertrand Claude, éditions du Seuil, Paris, 1997, p 95.

² - Ibid., p 96.

³ - Hadhri (Mohamed), L'URSS et le Maghreb, op.cit, p 61.

⁴ - Paxton (O.Robert)..., op.cit., p 106.

⁵ - Paxton (O.Robert)..., op.cit., p 106.

⁶ - SHD, DFCAA.V, pp 463-469. La réponse-lettre du Marechal Pétain a été citée aussi dans l'ouvrage de : - Bouthillier Yves, Le drame de Vichy, T1, Face à l'ennemi face à l'allié, Plon éditions, Paris, 1950, p 291.

إضافي على مدى ثلاثة سنوات لرفع حمولة الأسطول إلى 740000 طن مع حلول سنة 1943.¹ غير أن وزير المالية رفض فكرة المشروع لنقص السيولة المالية، إلا أنه تراجع في الأخير و قبل بالمشروع شريطة أن يتم على مراحل تخصص لها نفقات سنوية وفق الإمكانيات المالية المتوفرة.

إلا أن مشكل فرنسا كان يكمن في السير البطيء الذي شهدته الصناعة البحرية بسبب الصعوبات المالية، عكس ما كان يجري في البلدان الفاشية، التي كانت وتيرة التصنيع فيها تفوق بمرتين تلك التي كانت تعرفها فرنسا. حيث منذ توليه قيادة الأركان العامة للبحرية الفرنسية في الفاتح جانفي 1937، لم يتوقف الجنرال "دارلان" من تحذير سلطات بلاده عن وشاكة اندلاع الحرب و عن التباين الكبير في القدرات من جميع النواحي.²

اعتبر "دارلان" من أشد المناصرين لهجوم خاطف و فوري على إيطاليا في طرابلس الغرب. لأن هزيمة إيطالية ستقود حتما إلى فقدانهم كل مستعمراتهم في إفريقيا، مما سيفتح المجال أمام فرنسا و بريطانيا لاستعمال الطرق البحرية المتوسطية. غير أنه يشترط التعاون البريطاني كأساس لضمان المواصلات عبر البحر المتوسط، و بالنسبة إليه، لا بد من هزم إيطاليا و القضاء عليها.. و يعتبر أي عمل عسكري قبل الاستحواذ على المتوسط محاولة فاشلة..³ لأنه يستوجب على البحرية الفرنسية الحفاظ على سلامة 30000 كلم من سواحل الإمبراطورية، و ضمان نقل الجنود، و حماية الشواطئ و ضمان تغطية جيدة للملاحة التجارية. و ما دام الأوضاع مستقرة مع الجانب الإيطالي، فإن نقل الجنود سوف يتم عن طريق البحر المتوسط.

عاد "دارلان" لي طرح المسألة من جديد في سنة 1938، في الوقت الذي أعلنت فيه إيطاليا عن صنعها لقطعيتين بحريتين تصل حمولتها إلى 35000 طن. فرخصت الحكومة الفرنسية عن طريق مرسوم قانون 2 ماي 1938، بالشروع في إنجاز مشاريع صناعية كانت قد رفضت من قبل، و بمعدل 100000 طن على مدى خمس سنوات. و في 1939 أصبحت 12140 طن جاهزة للاستعمال في مصانع السفن.⁴ و بالإضافة للمسألة المالية، فإن البرنامج البحري الفرنسي اعترضه مشكل التأقلم مع نوع و خصوصيات الصناعة البحرية.

من الوجهة العملية تبدوا القوات الفرنسية في تونس غير كافية مقارنة مع القوات الإيطالية المربطة في طرابلس الغرب و نفس الملاحظة تنطبق على القوات الجوية. هذه الوضعية لم تخفى على رئيس مجلس الوزراء الفرنسي لا من حيث العدد و لا من حيث قوة الطائرات. لأن إيطاليا قادرة أن تقود هجمات على السواحل التونسية من "صقلية" La Sicile و من "سردينيا" La Sardaigne. غير أن الجنرال "غاملين" كان أكثر تفاؤلا

¹ - Levisse Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 42.

² - بعد الاتفاقية التي أبرمت بين إيطاليا و ألمانيا في 24 أكتوبر 1936 و التي فتحت الباب أمام محور روما-برلين، طرحت مسألة الإمكانيات الحربية بشدة عند الفرنسيين. حيث توصل "دارلان" في تحليله للوضعية إلى إمكانية بسط إيطاليا نفوذها على كل منطقة البحر المتوسط دون عناء، مما سيمنع على فرنسا العديد من الموارد و خاصة تموينها بالبترول. أنظر إلى:

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 38.

³ - Levisse -Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., pp 41-42.

⁴ - Coutau-Bégarie (Hervé) et Huan (Claude), Darlan..., op.cit., pp 135-137.

عندما صرح: "إن الأعداد التي يمكن للإيطاليين أن يجلبوها في ليبيا لن يتعدى 150000 جندي. إلا أنه لا يمكننا تحديد إمكانياتنا في إفريقيا. حالياً، نستطيع أن نجند 441000 جندي في شمال إفريقيا و هذا العدد قابل للارتفاع (الزيادة)..¹"

حاول الجنرال "نوقس" أن يكسب ود الشعب المغربي، الذي حسبه كان يريد مواصلة الحرب في شمال إفريقيا ، و استماله إلى صف حكومة "فيشي". و بصفته قائد العمليات في شمال إفريقيا، بدأت تصله من الجزائر تقارير و رسائل و نشرات إخبارية عن مختلف الهيئات الرسمية في الجزائر حول بعض الأحداث التي كانت تحدث في البلاد، منها ما هو متعلق باليهود و ما هو متعلق بتجنيد الفرنسيين الشباب و بالحالة النفسية التي كان عليها الشباب المسلم في "أورليونفيل" (الأصنام سابقاً).²

غير أنه نشر يوم 21 جوان 1940 بيانا في الجرائد المغربية يطلب من الأوروبيين أن يبقوا متحدين وراء قادتهم الذين يبقى همهم الوحيد هم الحفاظ على فرنسا. و قد عبر "جاك سوستيل" عن ذلك بأن "نوقس" لم يكن يبحث سوى عن مصلحته باعتبار أنه حول النبرة الوطنية التي اتسم بها سكان المغرب إلى الاتجاه الاستسلامي..³

نهاية الجمهورية الثالثة في جويلية 1940

في يوم الأربعاء 12 جوان من سنة 1940، تقدم الجنرال "ويقان" إلى قصر "كانجي" Cagé لإبلاغ الرئيس الفرنسي "الوبران" و حكومة "بول رينود"⁴ Paul Reynaud ، التي كانت تتشكل من 23 وزير، بأن فرنسا تواجه وضعية عسكرية ميئوس منها أمام زحف الجيوش الألمانية. لذلك، لا مفر من عقد الهدنة. إنها القطيعة

¹ - SHD, CPDN, 2N25, voir le procès-verbal de la séance de travail du 24 février 1939.

² ANOM, GGA, 1K 250. Voir annexe N°3.

³ - Soustelle (Jacques), Envers et contre tout ..., op.cit., p 57.

⁴ - "بول رينود" رجل سياسي فرنسي من مواليد سنة 1878 بقرية "برسلونات" Barcelonnette، تقلد عدة مناصب وزارية في عهد الجمهورية الثالثة. في مارس 1940 خلف "دلاديه" على رأس الحكومة الفرنسية. و عندما لم يستطع تجنب الهزيمة أمام الألمان، قدم استقالته في 16 جوان . و في جويلية أُلقي عليه القبض و نقل إلى ألمانيا أين مكث فيها من سنة 1942 إلى 1945. توفي سنة 1966. أنظر:

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 1641.

بين كل خطوطنا الدفاعية بسبب قوة المدرعات الألمانية و اختراقها عمق قواتنا. و مع دخولها الحرب أجبرتنا إيطاليا على الإبقاء أمامها ما تبقى لنا من فيالق. لقد خسرتنا معركة فرنسا. و لأول مرة لم يكتف "ويقان" بسرد الوضعية الحالية، و إنما طلب من الحكومة بأن تستخلص العواقب لما أسماه بأكبر نكبة تصيب جيوش بلادنا. إذ أنه منذ العاشر من ماي خسرت ما يقارب 100000 جندي، ماتت بطريقة بطولية من أجل إنقاذ شرف فرنسا. أما الآن، فإن الهدنة لا مفر منها.¹

إذا كان مجلس وزراء الثاني عشر جوان قد شكل بالنسبة للغالبية دهشة كبيرة، فإن مجلس الثالث عشر من جوان قد سجل بداية الأزمة الوزارية و التصدعات التي طالت الوحدة المشبوهة التي سادت في الوزارة. حيث انطلقت أشغال المجلس الثاني متأخرة بساعة كاملة بسبب المحادثات التي جمعت رئيس الحكومة مع "ونستن تشرشل". و دارت حول الموقف الإنجليزي من استسلام محتمل لفرنسا. فاتفق الوزيران على الاستنجد بالرئيس الأمريكي "روزفلت".²

إلا أن جواب "تشرشل" للطرف الفرنسي، ممثلا في شخص "بول رينود"، كان واضحا بحيث أنه لم يترك مجالا للصدفة عندما قال: "في كل الأحوال لن تتراجع إنجلترا حتى تقضي على "هتلر". و لن نحمل فرنسا أي مسؤولية في حال ساءت الأوضاع.. لأن قضية فرنسا تهمها بالدرجة الأولى و لن نتوان في إعادة أيجاد فرنسا من جديد..". إنها كلمات معبرة فعلا غير أنها لم تحمل معها الجواب الذي كان ينتظره الحكومة الفرنسية و وزراءها فيما يخص مسألة الهدنة. مما أعطى الانطباع، مرة أخرى، بأن الهدنة لا مفر منها.³

كان يظن "رينود" بأن أربعة عشر من الوزراء سوف يقفون ضد الهدنة، غير أنه استصغر قدرات المارشال "بيتان" و الجنرال "ويقان" و خضوع الرئيس "لوبران" للأمر الواقع، و لم يكن يتوقع هذه السرعة في التآمر على مستقبل فرنسا. حيث تسارعت الأحداث في البيت الفرنسي و قدم له "بيتان" قائمة بأسماء أعضاء الحكومة الجدد التي ينوي العمل معهم. فاشتملت على "شوطان" نائب رئيس، و "ويقان" على رأس وزارة الدفاع، و الأميرال "دارلان" قائدا للبحرية. و أضاف لطاغم حكومته عنصرين من الحكومة الشعبية، بعدما تمت استشارة "ليون بلوم".⁴

¹- Aron (Robert), Histoire de Vichy 1940-1944, librairie Arthème Fayard, Paris, 1954, pp 11-12.

²- Ibid., p 19.

³- خلال هذا الاجتماع، تم مناقشة قضية الهدنة من طرف العديد من الوزراء الذين كانوا تخوفين من سرعة تقدم الجيوش الألمانية، لذلك كانت الملامح كلها توحى بقرب الهزيمة العسكرية. فتدخل المارشال "بيتان" هو الآخر و أعرب عن أسفه للأوضاع التي آلت إليها فرنسا حيث اعتبر أن أي مقاومة في الظروف الحالية لن تتم إلا بتدخل الجيوش الإنجليزية.. و الحكومة الحالية لا يمكنها المقاومة إلا إذا هاجرت و تخلت عن التراب الفرنسي. غير أن واجب الحكومة هو البقاء في البلاد مهما حدث. و إذا حاولنا أن نبتر فرنسا من مدافعيها، في مرحلة حرجة كالتى تمر بها اليوم، فإننا نسلمها للعدو. إننا نقتل بذلك روح فرنسا و نمنع بذلك أي محاولة لهضة مستقبلية.. ثم ختم كلمته بالقول إنه فيما يخصني، أصرح بأنني لن أعادر المتروبول و سأبقى مع الشعب لأشاطر أحزانه و ألامه.. في رأيي إن الهدنة هي الشرط الضروري للحفاظ على مستقبل فرنسا..". لمزيد من المعلومات ينظر:

- Aron Robert, Histoire de Vichy 1940-1944.., op.cit., pp 20-21.

⁴- Gallo (Max), Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1940, De l'abime a., op.cit., p 196.

كلف وزير الخارجية "بودوين" بالاتصال بالسفير الإسباني "لوكيريك" و البابا، كي يتوسطا لدى الألمان و الإيطاليين و يطلعاها على نية فرنسا التعرف على شروط الهدنة التي كان هتلر قد أمر، مسبقا، من جنرالاته بتحضيرها علما منه بأن فرنسا لن تستطيع الصمود طويلا في وجه القوة الألمانية. و هنا اختلطت الأمور على الجنرال "ديغول" الذي عبر عن سخطه من هذه الخطوة التي أقدم عليها "بيتان" و اعتبرها غدر في حق فرنسا و الفرنسيين.

و عرف حينها أن بقاءه في فرنسا خطر على حياته و باقي أصدقاءه الذين قرروا الاستمرار معه، فتوجه إلى "لندن" في 17 جوان، صحبة الجنرال "سبيرس" Spears و الملازم الأول "كورسال" Courcel لتبدأ معركة فرنسية جديدة لمقاومة الاحتلال الألماني.¹

في مقابل ذلك، بدأت الحكومة الجديدة تفكر في إدخال بعض الإصلاحات في إطار ما عرف "بالثورة الوطنية" الأمر الذي دفع بالجزائريين إلى التعلق، مرة أخرى، بهذه الوعود. فحسب الصحافة الجزائرية التي لم تمنعها السلطات الاستعمارية من الصدور² كان ذلك بمثابة الفرصة التي ستسمح بتغيير أوضاع الجزائريين. و كانت جريدة "صوت الأهالي" La voix indigène أكثر ثقة و ميولا إلى هذه الوعود التي حسبها سوف تقضي على النظام القديم.³

و قد كتب صاحب الجريدة "ربيع زناتي": "إن هيبة فرنسا على حالها..."⁴ و أضاف أيضا: "على فرنسا أن تعامل الجزائريين الذين منحوها كل شيء في الأوقات الصعبة كباقى الفرنسيين..."⁵

ثم أضاف قائلا: "كيف سيكون مستقبل الإمبراطورية؟ إن الإمبراطورية بحاجة إلى دم جديد، و رجال جدد، و مبادئ جديدة..."⁶ فبدأت الطبقة السياسية تتحرك من جديد من أجل بعث نشاطها تحت شعار

¹ - De Gaulle (Charles), Mémoires de guerre..., op.cit., t1..., p 86. Et voir aussi :

- Gallo Max, Une histoire de la 2eme guerre..., 1940, De l'abime à ..., op.cit., p 196.

² - من الصحف الجزائرية التي بقيت تصدر خلال الحرب نذكر: صوت الأهالي، La voix de l'indigène، و لانتانت، L'entente، إلى جانب صحافة الأوساط الدينية التقليدية مثل: الوفاق، El Ouifak، الرشاد، Er Rachad، البلاغ الجزائري، El Balagh Djazairi، و كذا جريدة تصدر كل ثلاثة أسابيع بعنوان النجاح، En-Nadjah. أنظر :

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp..., T2, op.cit, p 548.

³ - عندما تم الإعلان عن "الثورة الشعبية" من طرف حكومة "بيتان"، وجد ذلك صدى لدى الصحافة الجزائرية التي كانت موالية لفرنسا. و كتب "ربيع زناتي" في صحيفته "صدى الأهالي" بأن الجزائريين في غالبيتهم مع حكومة "بيتان". أنظر:

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp... T2, op.cit, p 549.

⁴ - لقد كانت "ربيع زناتي" ثقة كبيرة في شخص المارشال "بيتان" بدليل أنه كان يطمح في أن يسارع بيتان إلى الإعلان عن المساواة في الجزائر، خاصة عندما علم أن حرية التعليم الكاثوليكي ستمنح من جديد في فرنسا. أنظر:

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit., p 549.

⁵ - A.W.O, B 2261, La voix indigène du 29/8/1940, analyse de la presse indigène, extrait.

⁶ - A.W.O, BP 197, La voix indigène du 9/8/1940, analyse de la presse indigène, extrait.

هذا التجديد الذي كانت تنتظر منه الكثير، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار مسألة الحقوق السياسية للمسلمين الجزائريين التي أهملت إلى غاية مطلع سنة 1939.¹

في أعقاب الهدنة المبرمة، بدا لكثير من الفرنسيين الذين لم يتقبلوا الهزيمة أمام الألمان، بأن شمال إفريقيا هي الملجأ المتبقي لحفظ ماء الوجه و ستمثل القاعدة الإستراتيجية التي ستنطلق منها المقاومة. و بقيت جيوش إفريقيا وفيه للمارشال "بيتان" سواء في عهد "ويقان" أو الجنرال "جوان".

إلا أن النقطة التي لقيت إجماعا عند غالبية القيادة الفرنسية هي عدم التسرع في اتخاذ أي قرارات من شأنها أن تضر بمصلحة فرنسا، و العمل على إعادة بناء الجيش الذي ضعف بعد هزيمة جوان 1940 ثم القيام بمحاولة تسليح سرية لما تبقى من قوات تركتها لنا اتفاقية الهدنة و تحضيرهم ليوم المعركة عندما يكون الحلفاء جاهزين لتدعيمنا. وكانت عبارات "ويقان" معبرة في هذا المجال عندما صرح قائلا: "إذا جاء الأمريكيان بفيلق واحد فسوف أرمي بهم في البحر، و إذا جاءوا بعشرين فيلقا فسوف أكون أول من يسلم عليهم".²

لم يلقى هذا الموقف الرسمي إجماعا عند البعض الذين رأوا فيه نوع من الغموض في موقف المارشال "بيتان" الذي بعدما كان من أشد المتشددين للهدنة، التي تخدم حسب مصالح فرنسا، أصبح اليوم يعمل على تجهيز جيش الانتقام. فظهرت البوادر الأولى للانشقاق و شرع بعض رجالات فرنسا في التحضير للانقلاب. لأن الانتصار الألماني على الجمهورية الثالثة الفرنسية كان له أثارا عالمية بحكم أن غالبية الدول قد أعادت النظر في تقييم الوضعية بشكل مختلف عن بعضها البعض.³

بينما سارعت كل من حكومات الإتحاد السوفيتي و إيطاليا و البرتغال و البرازيل من تقديم تهاניהا لهتلر، ظهر نقاش حاد في الأوساط الأمريكية، غلب عليه طابع الصراع الفكري و السياسي، أدى إلى انقسام الرأي العام الأمريكي إلى معارض و مؤيد و محايد لفكرة دخول هذه الحرب. أما "المحايدون" فقد طالبوا بانتهاج سياسة حيادية تامة و أسسوا "اللجنة الأمريكية الأولى" America First Committee. بينما سارع بعض السياسيين إلى إنشاء منظمة للدعاية شعارها الأول "أوقفوا هتلر الآن" Stop Hitler Now و كان هدفهم التأثير على الرأي العام في أمريكا من أجل تدعيم مساعي الرئيس "روزفلت" في مساعدة بريطانيا.⁴

كانت رغبة "روزفلت" كبيرة في مد بريطانيا المساعدة الكافية للصمود أمام الغزو الألماني في القارة الأوروبية. و رغبته تعدت لتشمل حتى الصين. لأنه كان يدرك بأن انتصار هتلر العسكري سوف يشجع اليابانيون على بسط نفوذهم على كل منطقة الشرق الأقصى.⁵

2- اصطدام نشاط الوطنيين في شمال إفريقيا بحكومة "فيشي"

¹ - Viard (Paul Emile), « Deux retouches au statut de l'indigène algérien », In Questions Nord-africaines, N° 13, Jan.. 1939, pp 3-10. Et voir aussi : N° 15.. Juin., 1939, pp 127-156.

² - Aron (Robert), Histoire de Vichy 1940-1944..., op.cit..., p 539

³ - Dahms (Hellmuth Günter), La deuxième guerre mondiale..., op.cit...,p 10.

⁴ - Dahms (Hellmuth Günter), La deuxième guerre mondiale..., p 90.

⁵ - Ibid..., p 90.

إن الحديث عن نشاط وطني حقيقي في شمال إفريقيا، في ظل وجود نظام "فيشي" ليس بالأمر الهين، حتى وإن كان يشمل كل الطبقة السياسية المغاربية بمختلف توجهاتها، لأن الواقع الذي كانت تعيشه الحركة الوطنية في هذه المرحلة بالذات، كان عبارة عن حالة استثنائية، جمعت بين المنع و المراقبة لأي نشاط من شأنه المساس بوحدة التراب الفرنسي و بعظمة الإمبراطورية. فكان مفهوم الوحدة هو السمة الغالبة في معظم الخطابات الرسمية للإدارة الاستعمارية، مع التركيز أكثر على شخص المارشال "بيتان" الذي يعتبر الرجل الرمز الذي حاول الدفاع عن وحدة فرنسا. من هنا نتساءل عن المواقف التي أبانت عليها مختلف التيارات السياسية تجاه هذا التغيير ؟ و كيف تمكنت التيارات الوطنية من فك قيود المنع و المراقبة في ظل الظروف الجديدة التي فرضتها الهزيمة الفرنسية ؟

في الظروف العسيرة التي سبقت الحرب، تساءلت فرنسا عن صلابتها وحدتها في شمال إفريقيا. و بدت قلقة من تنامي نشاط الحركات الوطنية بداية من الثلاثينات، خاصة مع تعايش جنسيات مختلفة فوق أراضي مستعمراتها، لذلك بدأت تولي أهمية بالغة لعمل الاستعلامات من أجل معرفة حجم هذا النشاط. إذا كانت الحرب لا تعني المسلمين في شمال إفريقيا في شيء، فمعنى ذلك أن فكرة الرفض تأتي تلقائيا دون البحث لها عن أسباب أو مبررات. و هروب أعداد كبيرة من الجزائريين و المغاربة و التونسيين من عملية التجنيد هو في حد ذاته تعبير عن هذا الرفض و دليل واضح عن الحالة النفسية التي كان عليها المسلمون قبل و أثناء الحرب.

أ- الوطنيون الجزائريون في مواجهة سياسة "فيشي"

لما لاحت بوارد الحرب في الأفق، وجدت فرنسا الفرصة سانحة للقضاء على نشاط الوطنيين الجزائريين من وراء تعطيل كل أعمالهم تحت ستار المصلحة العليا للبلاد. و بذلك قيدت النشاط السياسي للأحزاب.¹ و عموما كانت الأجواء السياسية ثقيلة عشية اندلاع الحرب. كما انتابت الأحزاب السياسية المعتدلة مظاهر الملل و الفشل.² و كانت فرنسا الاستعمارية كعادتها تستغل كل الهفوات التي توقع الأحزاب الجزائرية في فخ "الخارجين عن القانون" للزج بمسؤوليها في السجون أو توقيف جرائدها عن الصدور و حتى مصادرة أملاك هذه الأحزاب.

عند اندلاع الحرب العالمية الثانية، أقدمت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بفتح مركز العمالة للإعلام CDI،³ الهدف منه هو التأثير على الرأي العام الجزائري في العمالات الجزائرية الثلاث و جمع المعلومات اللازمة و المتعلقة بالسكان المسلمين تطبيقا لأوامر السلطة المركزية. خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار النشاطات

¹ - سعد الله (أبو القاسم)... الحركة الوطنية...، ج2، مرجع سابق...، ص 175.

² - Kaddache (Mahfoud)..., Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, p 599.

³ - A.W.O, Boite 4473- dossier 15, Affaires musulmanes, politique indigène, note du CDIE-Oran du 6 septembre 1939.

المكتثفة هنا و هناك عبر البلاد و رد الفعل الجزائري ضد عملية التجنيد، خاصة تجنيد اليهود، كما حدث في بلدية "مغنية"، و المنح العائلية المتفاوتة ما بين البلديات المختلطة و البلديات كاملة الصلاحيات، و العناصر المؤثرة في المواطنين خاصة في بسكرة و مركز أولاد جلال بتقرت.¹

كما تعرض تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر، منذ الاستقلال، إلى عدة كتابات نظرية على شاكلة الأطروحات الكبيرة المقدمة من طرف مجموعة كبيرة من المؤرخين الفرنسيين البارزين في التاريخ الاستعماري الجزائري.² و قد بدا توجه هذه الأطروحات نحو "تخليص التاريخ" من الاستعمار الفرنسي في الجزائر و إعادة توجيهه نحو مفهوم جديد هو "تطور السكان الجزائريين المسلمين". و قد بقي هذا الطرح مدرج في التاريخ الرسمي الاستعماري لمدة طويلة. هذا التوجه نجده بشكل ملحوظ في الحركات المناهضة للاستعمار و الحركة الوطنية، و هناك عدد من الباحثين خصص عدة دراسات حول الحركة الوطنية الجزائرية و تيارها الراديكالي.³ إن الرغبة في إعادة هذا التوازن قد تؤدي إلى اختلاله مرة أخرى على حساب سياسة فرنسا في الجزائر. و إذا كان المؤرخون الفرنسيون قد أعادوا تقييم مرحلة "الغزو و انتصار الاستعمار الفرنسي" خاصة في سنوات 1830 و 1919 و 1930، فبالمقابل، لم يتمكنوا "منهجيا" و بوضوح من إعادة النظر في تقهقره و سقوطه. و من المفارقات الغريبة، و بتمعن بعض العناوين المعبرة، فإن كتاب و مؤرخين غير فرنسيين، هم الذين اهتموا بسياساتها في الجزائر خلال السنوات العصيبة.⁴

هذه الوضعية يفسرها المؤرخون الفرنسيون بالخوف من العودة إلى التوجه الوسطي للتاريخ الاستعماري الفرنسي، الذي لا زال يسيطر على مرحلة "حرب الجزائر" خاصة. بالإضافة إلى التدقيق المنهجي تجاه التاريخ المعاصر. غير أن هذه الوضعية بدأت تتغير بدليل ما حدث في الملتقى الذي نظمه "معهد التاريخ للوقت الحاضر" في أكتوبر 1984 حول "بدايات تخليص تاريخ الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية"⁵ و قد طرحت

¹ - Voir à ce sujet :

- ANOM, GGA, 1K 250, directions des affaires indigènes et des territ...Du sud, bull.inf. N°38 du 24 oct.1939, concernant les communes de : Marnia, Djidjeli, Akbou, Tebessa.

- Ibid., sous-direction des territoires du sud, annexe de Biskra et le poste d'Ouled Djellal.

- Id., Cabinet du GGA, N° 619 C.S, du 28 octobre 1939. Voir liste in annexe N°4.

² - من هؤلاء الباحثين الفرنسيين في التاريخ نذكر كل من:

- Julien Charles André, Histoire de l'Algérie contemporaine, t1, PUF, Paris, 1964.

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine, t2, PUF, Paris, 1979.

- Ageron Charles Robert, Les Algériens musulmans et la France, 2tome, PUF, Paris, 1968.

- Rey-Goldzeiguer Annie, Le royaume arabe, SNED, Alger, 1977.

- Meynier Gilbert, L'Algérie révélée, Genève Droz, 1981.

³ - ذكرت المصادر الفرنسية نخبة من المؤرخين و الباحثين الجزائريين من الجيل الأول الذي عاصر الثورة و خصصت أولائك الذين كانوا طرفا في أحداث هامة من تاريخ الجزائر من أمثال: أبو القاسم سعد الله، و أحمد محساس، و محفوظ قداش، و محمد حري و مراد علي..

⁴ - نفس المصادر تناولت نخبة من المؤرخين الأمريكيين و الإنجليز و الألمان و غيرهم ممن اهتموا بتاريخ الجزائر، و نذكر منهم:

- William G.Andrew,et S.G.Tucker, et Wolfgang Ohneck, et Hartmut Elsenhans,

⁵ - Voir: les chemins de la décolonisation de l'empire français 1936-1956, éditions du CNRS, Paris, 1986.

السياسة الفرنسية للجزائر في أشغال هذا الملتقى. بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الملتقيات تناولت "تاريخ السياسة الفرنسية".

إننا لا نشك في أن فرنسا لم تستحدث سياسات جديدة بمجرد دخولها الحرب و إنما طورت في أساليب تلك السياسات و أضفت عليها أكثر، الطابع الردعي حتى لا تترك الباب مفتوح أمام الجزائريين و حركتهم السياسية، لأن ذلك يمس بسلامة و استقرار التراب الفرنسي.¹

هذا معناه أن القرارات التي اتخذتها الإدارة الاستعمارية من قبل؛ و نخص بالذكر "منشور ميشال" 1933 Circulaire Michel تصب في مصلحة الكولون بالدرجة الأولى² كما أن "مرسوم ريني" 1935 Décret Régnier³ هو الآخر، قد تقرر تطبيقه في سياق التحولات التي كانت تعرفها الحركة الوطنية قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

أما على الصعيد الداخلي، فقد امتدت السياسة المقاومة للسامية، المنتهجة من طرف حكومة "فيشي"، لتشمل الجزائر بمقتضى قانون 7 أكتوبر 1940، المعروف بقانون "بيروتون"⁴، الذي ألغى قانون "كريميو" الشهير في 24 أكتوبر 1870 الذي منح جميع اليهود المولودين في الجزائر، تلقائيا الجنسية الفرنسية.

و على هذا الأساس قامت الإدارة الاستعمارية باتخاذ عدة إجراءات فيما يخص الجزائر، كون ذلك كان يشكل خطرا على مستقبلها كإمبراطورية عالمية، من جهة، و أن الرأي العام الجزائري كان يتتبع باهتمام بالغ كل الأحداث، خاصة من جانب السياسيين. و حسب رأيهم فإن مست هذه الحرب فرنسا فستطال كل مستعمراتها بما فيها الجزائر. و من ثم سيجد الجزائريون أنفسهم مقحمين في الحرب مما يعني خضوعهم لعملية التعبئة و التجنيد.

¹ - Bulletin officiel du ministère de l'intérieur, Août 1939.

² - Pesle (O), « Pour une politique de contact entre la France et les indigènes.. », in revue Q.N.A, N° 4 du 25 novembre 1935, pp 45-68.

³ - في الرابع من شهر مارس 1935 قام السيد "ريني"، وزير الداخلية الفرنسي بزيارة عمل إلى الجزائر للإطلاع على الأوضاع فيها. وكان برنامجهم يتمحور حول مهمة واحدة و هي جمع المعلومات من خلال الجولات التي قاده إلى كل مناطق الجزائر الشمالية. فاستمع إلى كل من: "شكيكن" مفوض المنتخبين المسلمين، ثم إلى "تامزالي" باسم المندوبين الماليين، و "أوكلي السعدي" مستشار عام، و أخيرا "فرحات عباس" باسم فيدرالية المنتخبين المسلمين. الذين رسموا له لوحة عن الأوضاع العامة في الجزائر و تدني الظروف المعيشية للجزائريين جراء تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية. فكان رد فعله في النهاية أن أصدر مرسوما في 5 أبريل 1935 بمنع موجه أية مظهر ضد السيادة الفرنسية في الجزائر... و الحقيقة أن هذا المرسوم جاء لاضطهاد الوطنيين الجزائريين الذين بدءوا يطالبون بأكثر حرية و استقلالية. لمزيد من المعلومات، أنظر:

- Questions Nord-africaines, 1^{er} année, du 25 juin 1935, pp 95-112.

⁴ - سن هذا القانون باسم "هنري بيروتون" الذي اقترحه على المارشال "بيتان". و كان يشغل حينها منصب أمين دولة في وزارة الداخلية لحكومة فيشي. أنظر:

- Kollewijn R.D, « Le mouvement nationaliste et la situation de L'Algérie de 1940 à aujourd'hui », in Revue Oriente Moderno, numéro du mois de novembre 1954, traduit par : W.Keuchentus et M.J. Heitzler. Voir : GGA/Service d'information et de Documentation/Articles de presse française ou étrangère concernant l'Algérie n°14 du 1^{er} janvier 1955, pp 3-11.

لقد وجدت الحركة المطالبة السياسية الجزائرية نفسها ضعيفة و مقسمة. حيث لم يبق من المؤتمر الإسلامي إلا الاسم، و تبخرت آمال فيدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين. أما الوحدة الشعبية الجزائرية التي أسسها فرحات عباس سنة 1938 فلم تعمر طويلا و اندثرت مع بداية الحرب العالمية الثانية في سبتمبر من سنة 1939. و فيما يخص التجمع الفرنسي الإسلامي الذي أسسه الدكتور بن جلول فكان عدد مناضليه يكاد لا يعد بسبب انعدام النشاط داخل هذا التيار إلى جانب ضعف تعداده البشري. أما الحزب الشيوعي الجزائري فقد عرف هو الآخر إجراءات استثنائية بسبب تداعيات الحلف الجرمانى السوفييتي للثالث و العشرين أوت 1939، حيث أقبل زعيمه بن علي بوخورت إلى تقديم استقالته مع نهاية سنة 1939.¹

فالمواقف الوطنية التي تزعمها حزب الشعب الجزائري أوضحت معارضة شديدة لدخول الجزائريين هذه الحرب إدراكا لأبعادها. لأنها في الأصل اعتبرت حرب بين قوى استعمارية تقليدية و أخرى تحاول أن تصبح كذلك. فهو تنافس من أجل الهيمنة و الاستغلال لا غير. من هنا كان لا بد على الوطنيين انتهاز المبدأ القائل: " لا تفضيل لنا لإمبريالية عن أخرى."²

فكان موقف الحزب واضحا حتى قبل اندلاع الحرب عندما أوضحت صحافته "أن المسلمين في شمال إفريقيا لا يرغبون في أن يكونوا مرتزقة حرب، و إنما للدفاع عن الحرية."³ و كتبت أيضا: "لا يمكن لفرنسا أن تطمع في مساعدة الشعوب الإسلامية في بلاد المغرب ما لم تحقق لهم طموحاتهم الديمقراطية."⁴ و ظل الموقف متصلب لدرجة أن المناضلين فكروا جيدا في حمل السلاح ضد فرنسا لتحقيق الاستقلال.⁵

ظهرت الأوضاع داخل الجزائر غداة توقيع فرنسا على اتفاقية "الاستسلام" المخزية في 17 جوان 1940، و كأنها هادئة بسبب عدم وجود أية معارضة حقيقية ما دام أن الزعماء الوطنيين لحزب الشعب و الحزب الشيوعي قد زجت بهم الإدارة الاستعمارية في السجون و الصحافة الوطنية معطلة بفعل القرارات الرسمية التي منعت ظهورها إضافة إلى مجيء "بيتان" إلى الحكم و الذي كان يرى فيه الكولون الرجل الذي سوف يبقى على المستعمرات الفرنسية بيد فرنسا و الكولون.⁶

إلا أن هذا لم يمنع حزب الشعب من استعمال خطاب سياسي مرن تجاه الإدارة الاستعمارية عندما صرح مصالي الحاج خلال محاكمته الشهيرة في مارس 1941 قائلا: "لم أفكر يوما في المساس بالسيادة الفرنسية.. إن حلم حزب الشعب أن تضع فرنسا حدا لقانون الأهالي و تسمح للشعب بتسيير شؤونه بنفسه، و يتعاون معها على أساس المساواة لا غير. على فرنسا أن تحترم عادات هذا الشعب و لغته و دينه طبقا لما ورد في اتفاقية جويلية 1830، و إن حلمنا أن نتحرر على طريقة المستعمرات البريطانية..و إذا تحقق لنا ذلك

¹- Levisse -Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 31.

² - Harbi (Mohamed), FLN ; Mirage et réalité, des origines a la prise du pouvoir 1945-1962, NAQD-ENAL, Alger, 1993, p 23.

³ - A.W.O, Dossier presse, El Ouma du 25 octobre 1938.

⁴ - A.W.O, Dossier presse, Le parlement Algérien, du 18 mai 1939.

⁵ - Recham (Belkacem), Les musulmans Algériens dans..., op.cit., p 121.

⁶ - Kollwijn (R.D), « Le mouvement nationaliste et la situation de L'Algérie..», op.cit., p 3.

فسنقدم مساندتنا المطلقة لفرنسا في حربها ضد القوى النازية..¹ و من هنا أصبح التوجه الثوري لحزب الشعب واضحا.²

بالنسبة لزعماء حزب الشعب الجزائري، فقد زجت بهم الإدارة الاستعمارية في السجون و عطلت صحفهم بداية من 26 جويلية 1939، و تهيأت الحكومة العامة في الجزائر إلى عملية التعبئة بحذر شديد جراء القرارات الاستثنائية المتخذة ضد الوطنيين الجزائريين.³ هذا ما شجع عدد من زعماء حزب الشعب على العصيان، غير أن "مصالي الحاج" رفض الفكرة من أساسها و دعم جماعة أحمد بودة" و "لمين دباغين"، التي كانت مناهضة لألمانيا. و عند خروجه من السجن أبدى موقفا مناهضا للحرب و لسياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر من خلال المقالات التي كانت تنشرها جريدة "الأمة". هذه المواقف عرضته للاعتقال مرة أخرى في 4 أكتوبر 1939 هو و جماعته الذين حبسوا في معتقلات بالجنوب الجزائري.⁴

لقد تمت المحاكمات السياسية التي مست عددا من الوطنيين و على رأسهم زعيم الحزب الثوري "مصالي الحاج" في مارس 1941، في ظروف تعسفية و استثنائية انجرت عنها أحكام قاسية.⁵ إلا أن حكومة "فيشي" حاولت بكل الطرق أن لا تعطيها طابعا سياسيا قد يؤثر في علاقتها مع الجزائريين. و حاولت جعلها مجرد مناوشات و اضطرابات محلية لا بد من ردعها بالقوة حتى يستتب الأمن و يعود الاستقرار. و قد شبهها البعض بالقوانين ذات الطابع النازي.⁶ و لعل ما صرح به "بودوين" وزير الشؤون الخارجية: بأن عالم ما قبل 1940 قد دفن نهائيا، لأكبر دليل على أن قوة هذه الحكومة تعتمد أساسا على سلطة القوانين الاستثنائية التي سلطت على كل المعارضين.⁷

في الحقيقة، إن نداءات حزب الشعب لم تلقى استجابة من الشباب المجدد و ذلك لعدة اعتبارات منها؛ أن نسبة الأمية كانت مرتفعة عند الجنود المتواجدين في الفيلق الخاضعة لسيطرة الضباط الفرنسيين الكبار مما صعب من مهمة التغلغل و القيام بالدعاية للحزب. و حتى نكون عمليين، فإن ظروف الحزب في هذه المرحلة لم تكن تسمح بالقيام بأي عمل من شأنه المساس باستقرار فرنسا. اللهم إلا إذا استثنينا العمل

¹ - A.W.O, C.I.E Oran, N° 127 du mois d'avril 1941.

² - Julien (Charles André), L'Afrique du nord en marche..., op.cit., p 132.

³ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit., p 548.

⁴ - Stora (Benjamin), Messali Hadj 1898-1974, pionnier du nationalisme algérien, collection Histoire et perspectives méditerranéennes, éditions l'Harmattan, Paris, 1986, pp 184-185.

⁵ - أحم مصالي الحاج في هذه المرحلة بالتأمر على أمن فرنسا في الجزائر، لدى حكم عليه في 17 مارس 1941 بـ 16 سنة سجن بالأشغال الشاقة و 20 سنة ممنوع من الإقامة. أطلق سراحه في 24 أبريل من سنة 1943 بقرار من الجنرال "جيرو"، أين وضع تحت الإقامة الجبرية في بلدية "ربيل" (قصر الشلالة حاليا) التي تقع على بعد 110 كلم من الجنوب الغربي لمدينة "قصر البخاري" أو "بوغار". ثم نقل إلى "برازافيل" في الكونغو في 30 أبريل 1945 بعد الأحداث التي نشبت في قصر الشلالة، و لم يطلق سراحه إلا في أكتوبر من سنة 1946. أنظر:

- Kollewijn R.D, « Le mouvement nationaliste et la situation de L'Algérie.. », op.cit., p 3.

⁶ - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines..., op.cit, p 30.

⁷ - Ibid., p 31.

الذي قامت به لجنة العمل الثوري لشمال إفريقيا التي حاولت استغلال ظروف الحرب و لو بالتعامل مع النازية و المحور.¹

اهتمت المصالح الإدارية و الأمنية الاستعمارية، في هذه الفترة بالذات، بشؤون المسلمين الجزائريين، و بدأت تعد النشرات اليومية و الأسبوعية و الشهرية ترصد من خلالها كل صغيرة و كبيرة. فكان الوضع في عمالة قسنطينة مقلق سياسيا و اقتصاديا بفعل صعوبات التمويل و عدم اهتمام السكان المسلمين بتداعيات الحرب. و لم تؤثر استقالة الحاكم العام "بيروتون" على الشارع القسنطيني و لا الجزائري، و لا حتى تعيين المندوبين المسلمين في المجلس الوطني الفرنسي مرت مر الكرام.²

لقد فجرت الحرب العالمية الثانية التناقضات القديمة و ساهمت في إيقاظ شعوب القارتين الآسيوية و الإفريقية في نفس الوقت الذي قامت فيه بزعة الإمبراطوريات الاستعمارية الكبيرة و معه غيرت من موازين القوى معلنة عن ميلاد نظام عالمي جديد متوازن. فأصبحت كل الشعوب المستعمرة تطالب بحرياتها و تبحث عن طريقة للتحرر من نير الاستعمار.³

أكد نظام "فيشي" على ضرورة الحفاظ على وحدة الصف للدفاع عن الإمبراطورية و وحد جهوده تجاه الجزائريين مستعملا شتى الوسائل، من محطات إذاعية مختلفة، خاصة منها إذاعة الجزائر، و صدق من قال أنه: "بداية من 1940 ستصبح الجزائر عاصمة فرنسا الحرة و منها لكل الإمبراطورية الفرنسية".⁴ كما قامت الأجهزة الاستخباراتية، التي انحصر دورها في مراقبة كل الأنشطة السياسية للوطنيين و غيرهم المواليين لسياسة "فيشي".⁵، بعملها على أكمل وجه.

غير أن حكومة "فيشي" شرعت في وضع القيود على زعماء الحركة الوطنية، فاستبدلت الحاكم العام "لوبو" بالأدميرال "أبريال" و أوقفت جل النشاطات السياسية. كما عطلت المجالس العامة و المفوضيات المالية، و استحدثت مكانها "اللجنة المالية" في 12 ديسمبر 1940، و التي كان "فرحات عباس" أحد أبرز ممثلي الجزائريين فيها.⁶

حاولت حكومة "فيشي" منذ البداية التقليل من شأن الدعاية الألمانية في البلاد، من خلال عملية تحليل لهذه الدعاية عبر كل بلديات القطر الجزائري، و خاصة في المنطقة الغربية منه، أين اشتد نشاط مصالح الأمن الاستعمارية في صائفة 1941.⁷ عندما كثفت من نشراتها و مراسلاتها مع السلطات المركزية من أجل

¹ - Kaddache (Mahfoud). et Sari (Djilali), L'Algérie dans l'histoire..., op.cit, p 79.

² - ANOM, GGA, 5cab/66, CIE N° 220 du 02 avril 1941, activités indigène dans le département de Constantine durant le mois de mars 1941.(rapport de 15p).

³ - Ferhat (Abbas), De la colonie vers la Province, Le Jeune Algérien..., op.cit., p 19.

⁴ - Kharchi (Djamel)...., op.cit, p 327.

⁵ - A.W.O, 201 (BP), Bulletin N° 127 du mois d'Avril 1941.

⁶ - Stora (Benjamin) et Daoud (Zakia), Ferhat Abbas, une autre Algérie..., op.cit., p 107.

⁷ - في هذا الباب أنظر: أرشيف مصلحة ولاية وهران، علة 4476، مجموعة كبيرة من نماذج لهذه المراسلات التي كانت تصل مقر الحاكم العام للعمالة من كل بلديات المنطقة الغربية.

تفادي أي مشاكل في المدن و القرى الجزائرية، و بخاصة في مدن غرب البلاد عندما كان يصل إليها الجزائريين العائدين من فرنسا أو من ألمانيا.¹

أصدرت الإدارة الاستعمارية نشرة إعلامية يومية كانت توزع على كل البلديات المختلطة هدفها إطلاع السكان المسلمين على كل الأحداث اليومية، و حملت عنوان "الدليل" Eddalil.² أما أوروببي الجزائري، فكانوا ينتظرون شروط الهدنة على أحر من الجمر، فتتنفسوا الصعداء عندما علموا بسلامة الأراضي الاستعمارية للإمبراطورية، فانضموا في معظمهم إلى نظام المارشال "بيتان".³ فكانت دعاية الكولون لنظام "فيشي" بأن ضمن لهم استمرارية مصالحهم و أمنهم.⁴

لقد استمرت دعاية حكومة "فيشي" لتشمل حتى ميدان "الإصلاحات الوهمية" و طالبت من خلال مراسلة موجهة إلى ولاية العمالات الثلاث، بتكثيف الدعاية و إعطاء الإشهار اللازم للإجراءات الهامة التي اتخذتها الحكومة لفائدة السكان الجزائريين؟ من أجل إظهار النوايا الحسنة لفرنسا، من جهة، و وضع حد للدعاية الكاذبة التي تحاول أن تقلل من شأن فرنسا في الجزائر من جهة أخرى.⁵

كما وجدت الدعاية الألمانية في موقف حكومة "فيشي" سندا قويا لمواصلة بسط هيمنتها على سكان شمال إفريقيا و التأثير فيهم، خاصة عندما سقطت فرنسا أمام ألمانيا في جوان 1940، و أمضت على الهدنة "المهينة". فلم يكن ذلك من باب الصدف و إنما حتمية لانحياز الأسطورة الفرنسية التي لا تقهر و لنظام الجمهورية الثالثة بأكمله.⁶ فرهن بذلك النظام الاستعماري مستقبل كل الإمبراطورية الفرنسية. فلا حكومة فيشي و لا حكومة المنفى و لا حتى الحلفاء فيما بعد اختلفوا في طريقة التعامل مع الأوضاع الراهنة ما دام أن الأهداف كانت واحدة أمام عدو مشترك.

هنا نتساءل عن الهدف الذي كان يريد تحقيقه "بيتان" في بداية مشواره على رأس الدولة الفرنسية؟ فالإجابة لا تكون إلا بكلمة واحدة: الثبات ! فالأحداث تمر عليه دون أن تؤثر فيه. و قد وصفه الأميرال "ليهى" Leahy ، سفير الولايات المتحدة الأمريكية في فرنسا، بأنه رجل "فاقد للإرادة".⁷ غير أنه كان يمثل

¹ - A.W.O, voir la boîte 4476, et spécialement :

- Arrondissement de Mascara, C.M, N° 4821, du 05/08/1941.

- Commune. Mixte, de Zemmora, N° j1 342, du 31/07/1941.

- Sous-préfecture de S.B.A, N° 2206 C, du 04/08/1941.

- Oran Pol état., N° 315/S, du 31/07/1941.

- Arrondis..Mosta, C.M Renault, N° 5727 du 11/08/1941.

- Dépt..Oran, C.M, Frenda, N° 2728 du 06/08/1941.

- Arrondis.. Tlemcen, C.M de Montagnac, N° 4896, du 25/08/1943.

- Commune de Mosta., N° 5141, du 05/08/1943.

² - A.W.O, B, 4473, Affaires musulmanes, N° 14339/2s, Alger le 03/12/1940.

³ - Stora (Benjamin), Messali Hadj pionnier du..., op.cit, p 91.

⁴ - A.W.O, B, 4476, commune mixte de Telagh, N° 582/C, du 01/09/1942

⁵ - A.W.O, B, 4476, GGA, direction des Affaires musulmanes, CIE N° 551, Alger le 12/04/1941.

⁶ - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de..., op.cit, p 23.

⁷ - يعتبر الأميرال "ليهى" من الضباط الأمريكيين الذين قدموا شهادات حية عن أحداث هامة دارت خلال فترة الحرب العالمية الثانية. لأنه ببساطة كان في قلب الحدث من 1941 إلى غاية 1945. لأكثر توضيح أنظر:

بالنسبة لعدد كبير من الفرنسيين الرجل الوحيد الذي كان بإمكانه إنقاذ فرنسا و إخراجها من المأزق الذي كانت فيه.

ركز بيتان اهتمامه منذ البداية على الجيش و حاول الاستثمار في الجانب الديني، حيث جعل منهما العمودين الرئيسيين لسياسة البناء الجديدة. فالمكافآت التي تحصل عليها جنرالات فرنسا بعد الهزيمة أمام ألمانيا، لم يتحصل عليها حتى جنرالات الدول المنتصرة. و أكثر من ذلك فإن الأميرالات، الذين خرجوا من الحرب بأقل الأضرار، عينوا سفراء، وقادة شرطة، و رؤساء مصالح. و كان الأميرال "دارلان" هو القائد بدون منازع، لهذه الآلة السياسية و العسكرية. فهو شخصية غامضة، و كان يرى نفسه على أبواب تحقيق طموحاته الكبرى. فالنظام "إكليريكي" Clérical¹، حيث تم إلغاء قانون 1904 الذي كان يمنع التعليم على الجمعيات الدينية المسيحية. و هاجم "جاك شوفالي" Chevalier Jacques، وزير التعليم العام، آنذاك، المدرسة اللائكية. و شرع في عملية إحصاء للماسونيين على جميع الأصعدة، بداية من خريف 1940، حيث تم طردهم من الوظيفة العمومي، و طبق نفس الإجراء على اليهود، الذين تم إبعادهم من الوظائف العمومية بإيعاز من الألمان.²

واجه "بيتان" أول أزمة في الجزائر مع مطلع شهر جويلية، فيما عرف بأزمة "المرسى الكبير" عندما تعرض الميناء الجزائري إلى هجوم البحرية البريطانية التي قامت بتدمير الأسطول الحربي الفرنسي الذي كان مرابطا في الجزائر.³ و راح ضحية هذا الهجوم حوالي 1400 بحار.⁴ الأمر الذي أحدث خللا في عملية التجنيد. فترجع الرأي العام الجزائري عن فكرة التجنيد لنصرة فرنسا، و بدأ يطرح على نفسه عدة تساؤلات حول ضرورة القتال لصالح فرنسا أو حلفائها أو باختصار، لفائدة من؟.

و مهما كانت مبررات الطرفين المتنازعين، البريطاني و الفرنسي، فإن ميدان المعركة كانت أرض الجزائر، و المتضرر الأول هم الجزائريون، و لم يكن بمقدور فرنسا أن تقوم بأي عمل من شأنه أن يرهن علاقاتها مع حليفها التقليدي خاصة إذا وضعنا وزن الولايات المتحدة الأمريكية في المعادلة.

سعت الحكومة الجديدة في الجزائر، إلى إنجاح عملية التجنيد. فأظهرت حسن نواياها بتضخيمها الخدمات الاجتماعية للجيش، و بدأت تتكفل بمعطوي الحرب و إعانة عائلات المجندين، و رفع المنح

- Leahy William Daniel (Amiral), J'étais là, traduit par: Jouan René, Plon éditions, Paris, 1951, pp 56-63.

¹ - و هو المصطلح المرتبط بالحياة الدينية القسيسية الكهنوتية.

² - Reinhard(Marcel), Histoire de France., op.cit., p 481.

³ - تطرقنا بإسهاب في الموضوع مع نهاية الفصل الأول.(راجع: السلاح الجوي مصدر تخويف و تدمير...)

⁴ - إن الأرقام المقدمة من طرف عدد من المؤرخين فيما يخص عدد الضحايا لهذا الهجوم كانت متفاوتة بين الأرقام 1200 و 1300 و 1400 و 1297 و حتى 1000 قتيل. أنظر في هذا الباب كل من:

- Duroselle Jean Baptiste..., Histoire des relations internationales..., T1, op.cit, p 286.

-Tiab Mohamed, La chronologie Algérienne 1830-1962, TI, Alger, 1999, p 240.

-Reinhard Marcel, Histoire de France..., op.cit, p 480.

- Dahms Hellmuth Günter, La deuxième guerre..., op.cit., p 94.

- Levisse Touze Christine, L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p 128.

- Delanoe Guy, Lyautey, Juin et Mohamed V fin d'un protectorat, T1, L'Harmattan éditions, Paris, 1988, p 232.

العسكرية للجزائريين المجندين بحوالي 50% في القطاع الوهراني.¹ فارتفعت وتيرة التجنيد بفعل أن عدد لا بأس به من الشباب الجزائري قد لبى دعوة التجنيد في بداية الحرب و ذلك رغم صعوبة النقل و الاتصال.² كما حاولت حكومة "فيشي"، من وراء إلغاءها لمرسوم "كريميو"، من إكساب نظامها شعبية لدى الجزائريين. غير أن جواب "مصالي الحاج"، من سجنه، في هذه القضية كان واضحا لدرجة أنه اعتبر أن الحقوق التي انتزعت من اليهود لم تفد الجزائريين في شيء و لم تعطهم أية حقوق جديدة.³

مع حلول 18 جويلية 1940، تم تعيين الأميرال "أبريال" Abrial، حاكما عاما للجزائر خلفا للحاكم السابق "لوبو"، و ذلك في جو ميزنه الصعوبات التي واجهت الحكومة الفرنسية الجديدة.⁴ فظهرت حقيقة هذا النظام في انتهاجه سياسة قمعية في مراقبة الجزائريين و محاولة القضاء على كل مؤشرات النضال و المقاومة عند الوطنيين، معتمدا على طريقة الاعتقالات و ملء السجون من جهة، و الدعاية الإيجابية من جهة أخرى. فرض الواقع نفسه بحيث أن هذه القضايا تعاضمت في حجمها بسرعة فائقة و انتشرت المحاكمات في كل مناطق البلاد، و خاصة في المنطقة الغربية، حين حكم على الإخوة "بن زرجب" بالسجن بتهمة تهديد الأمن الداخلي.⁵ كما قضت محكمة سيدي بلعباس بالحكم على المدعو "فاري الميلود" من بلدية "مرسي لاكومب" بستة أشهر سجنا بتهمة المساس بشرف فرنسا.⁶ و نفس التهمة و الحكم واجهها المدعو "زوغار غالم" من نفس المحكمة.⁷ و تواصل الخناق المفروض على الوطنيين في أشكال مختلفة.

إن الظروف التي فرضت على الجيش الفرنسي، بعد توقيعه على الهدنة، لم تسمح بتحديد العدد الحقيقي للمساجين، و لو أن العدد قدرته "اللجنة الاستشارية للخسائر و التعويض" في جوان 1940 بـ 1.800.000 منهم حوالي 1.350.000 كانوا لا يزالون في السجون عند نهاية شهر أوت 1942.⁸ و بقي أكثر من 760.000 عامل فرنسي مدني داخل التراب الألماني حتى جويلية 1944.⁹

أما أوضاع المجندين من شمال إفريقيا الذين تم تسريحهم، خاصة في الأسابيع الأولى التي تلت الهدنة، فقد تمت في ظروف الهزيمة الكبرى، عندما تمكن عدد كبير من المجندين الجزائريين الذين لم يسقطوا أسرى في يد الألمان من اللجوء إلى فرنسا أو العودة مباشرة إلى قراهم، و ذلك دون المرور بالقنوات الرسمية للتبليغ عن عودتهم. و قد ذكرت مصادر فرنسية، استنادا إلى شهادات بعض الرسميين، عن الدور الإيجابي و شجاعة

¹ - A.W.O, BP 201, Pref. Oran, Bull...,Nov..., 1941.

² - A.W.O, B 4477, CIE du 28/11/1942.

³ - Stora (Benjamin) et Daoud (Zakia), Ferhat Abbas une autre..., op.cit...,p 106.

⁴ - لم تدم عهدة "أبريال" طويلا، بحيث خلفه الحاكم العام "ويغان" الذي كان يشغل منصب مفوض عام للحكومة الفرنسية في المستعمرات الفرنسية بإفريقيا و قائد جيوش إفريقيا إلى غاية 7 سبتمبر 1940 أين أصبح الحاكم العام الجديد للجزائر. و هذا التغيير السريع دليل على عدم استقرار السلطة الاستعمارية في تلك الفترة و الظروف.

⁵ - A.W.O, B 4480, Etat d'esprit des populations musulmanes, Tlemcen.

⁶ - A.W.O, B 4480, Etat d'esprit des populations musulmanes, Sidi bel Abbés.

⁷ - A.W.O, B 4480, Ibid..

⁸ - Revue d'histoire de la 2ème Guerre mondiale, N° 57, Janv... 1965, numéro spécial, PUF, Paris.

⁹ - Ibid.

الجنود الجزائريين في جبهات القتال.¹ غير أن بعض المصادر قدرت عدد القوات الفرنسية في شمال إفريقيا عند توقيع الهدنة بحوالي 373045، منهم 206000 من صف الضباط و الجنود المسلمين.²

من الملاحظ أن عملية التسريح هذه قد خلقت مشكلا عويصا تمثل في قضية إدماج هؤلاء المسرحين. فالإطارات و الفئاض من المتطوعين كان لهم الاختيار بين مجموعة من الحلول المتاحة إليهم؛ منها مغادرة الجيش، أو الالتحاق ببيئة مدنية، أو التطوع في الحرس الجمهوري المتنقل مع تخفيض الرتبة، و أخيرا الالتحاق بالجيش الذي كان في طور التشكل بداية من نوفمبر 1940 في بلاد الشرق. غير أن قانون 26 أكتوبر 1940 هو الذي أوضح الإجراءات القانونية التي تسمح بالاستفادة من حقوق التقاعد بالنسبة للمجندين من شمال إفريقيا الذين كانوا تحت العقود مع الجيش.³

لقد بدأت عملية تسريح المجندين الجزائريين من جبهات القتال مع الأسابيع الأولى لاندلاع الحرب، أي منذ 25 سبتمبر 1939 لأسباب مختلفة، منها الأمراض المزمنة و الهروب من المعتقلات النازية و السجون. و إذا كانت عودتهم قد بعثت بالارتياح لدى ذويهم و في الأوساط الجزائرية، ما دام أن ذلك فتح مواضيع للمناقشة لتقصي حقيقة ما كان يجري في جبهات القتال، فإنه في المقابل شكل كابوسا بالنسبة للإدارة الاستعمارية ما دام أنها عكفت على فرض مراقبة شديدة على المسرحين العائدين من ميادين المعارك حتى تستطيع أن ترسم لديها فكرة واضحة عن مواقفهم و انتمائهم السياسي.⁴ و لم تستثن من ذلك حتى الشباب الشباب المجند للخدمة العسكرية الذي كان متمركزا في ثكنات عمالة وهران.

أما بخصوص المجندين من المنطقة الغربية فقد ذكرت مصادر فرنسية عديدة عن عودة معتبرة للجنود و المدنيين معا، قدرت بحوالي 613 مرحل،⁵ إما بعد الإفراج عنهم من طرف الألمان أو بعد هروبهم من المعتقلات الألمانية. غير أنهم لم يسلموا من المضايقات المستمرة لمصالح الأمن الفرنسية على مستوى كل بلديات المنطقة الغربية خاصة بعد التعليمات الشديدة اللهجة التي وجهها الحاكم العام للعمالة إلى مختلف المسؤولين.⁶

كما أوضح تقريران صادران عن المراقبين الإداريين لبلديات عين تموشنت⁷ و مستغانم⁸ و مرسلان إلى إلى الحاكم العام بالعمالة، الميول السياسية و الانتماء الحزبي لبعض العناصر المصنفة في خانة "الخطيرة". و لم ينحوا من عملية المراقبة أيضا، المجندون و الجنود، في أوقات قضاء إجازاتهم القانونية و الرسمية بحيث بقيت السلطات الاستعمارية، من وراء تقارير الشرطة، في تتبع اتصالاتهم و تحديد تنقلاتهم و من هم الأشخاص الذين يقومون بالالتقاء بهم و حتى مكان قضاء عطلةهم.⁹

¹ - A.W.O, B 2261, Dossier presse, El Ouifak, N° 33, du 19/04/1940.(Reproduit selon :J.O, du 5/3/1940.)

² - Recham (Belkacem)..., op.cit, p 189.

³ - Ibid., p 190.

⁴ - A.W.O, B 4476, GGA/Sécu..Gle., N° 5005.G3, Alger le 06/03/1941.

⁵ - A.W.O, B 4476, Pol..état..Oran, N° 110/C, Oran le 19/01/1942.

⁶ - A.W.O, B 4476, GGA/Aff..Mus., CIE N° 822, circulaire N° 4215 du 13/04/1942.

⁷ - A.W.O, B 4475, commune d'Ain Temouchent, Rapport CP du 11/09/1939.

⁸ - A.W.O, B 4475, sous-préfecture de Mostaganem, rapport N° 48 du 12/09/1939.

⁹ - A.W.O, B 4480, Etat d'esprit des populations musulmanes, Police spécial, Oran

عقدت في الجزائر ندوة، في الفترة الممتدة من 2 إلى 5 جانفي 1941،¹ حول مساجين الحرب الشمال الشمال إفريقياين و التي نظمتها المحافظة العامة للجزائر، قدم من خلالها "إيف شاتل" Châtel Yves² الحاكم العام للجزائر حصيلة عن عدد المساجين الجزائريين في المعتقلات المنتشرة على كافة المناطق المحتلة من طرف القوات الألمانية و التي أطلق عليها اسم "فرونستالاغ" Front stalags بـ 60000 معتقل جزائري³.

لقد حاولت السلطة الاستعمارية من جهة أخرى، إظهار الوجه الآخر لسياستها عندما أعطت تعليمات لمسؤوليها عبر مختلف مناطق البلاد من أجل محاولة معرفة درجة تأثير الدعاية الألمانية في المسرحين و المساجين العائدين من المعتقلات و حثهم على ملاحظة أي خلل في تصرفاتهم، من جهة، و طابقتهم باستقبالهم مباشرة عند وصولهم و منحهم بعض الامتيازات، منها كيلوغرام من السميد و بضعة أمتار من القماش و منحة مالية.⁴ كما قامت السلطات الاستعمارية برصد قوائم لعدد من المسرحين وضعوا تحت المراقبة المراقبة المستمرة بداعي أنهم كانوا يروجون للدعاية الألمانية منهم:

- الطيبي العسكري، سجين عائد من فرنسا بتاريخ 26 جويلية 1941، و هو من بلدية عمي موسى، بدائرة مستغانم.⁵

- أحمد عباس ولد نحال، الذي هرب من معتقل "أونس لهاري" Onnesse-Laharie بفرنسا، و الذي يفترض أن تلقى فيه دروسا للدعاية الألمانية.

هذا و قد كان لعودة هؤلاء المسرحين إلى ديارهم بعض الآثار السلبية التي اكتسبوها في معازل الأوروبيين، كالتحدث بكلمات فرنسية (لغة المستعمر) أو عدم تقبيل رأس الشيخ المقيم بالزاوية أو كما يدعى "المرباط". فآثار ذلك استغراب الجزائريين و اعتبروه نوعا من اللامبالاة. إلا أن الواقع المر، هو الذي كان قد فرض نفسه عليهم باعتبار أنهم عايشوا بيئة مختلفة عن بيئتهم الأصلية تماما، و في ظروف وصفوها بالقاسية حتى من الألمان أنفسهم. مما يعني أن هذه العينة ترشدنا إلى اعتبار أن الألمان، بالرغم من كل ما حاولوا إظهاره للجزائريين إلا أنهم في النهاية لم يختلفوا عن الاستعمار الفرنسي في شيء. و من هؤلاء المساجين الذين عادوا إلى ديارهم في البلدية المختلطة لمغنية، بدائرة تلمسان، 40 جندي هارب و 39 مدني تم تسريحهم من طرف القوات الألمانية.⁶

¹ - S.H.D, Délégation générale du gouvernement en Afrique française(DGGAF), du (général Weygand) ensuite Commandement des forces armées sous l'autorité du général Juin, Série 1P 133. Voir aussi les deux ouvrages :

- Recham Belkacem..., op.cit..., p 211.

- Levisse -Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans..., op.cit..., p

² - اسمه الكامل "إيف شارل شاتل" Ives Charles Châtel ولد سنة 1865 و توفي سنة 1944 عن عمر يناهز 70 سنة. شغل منصب أمين عام للحكومة العامة في الهند الصينية سنة 1935، ثم عين حاكما عاما في الجزائر من الفترة الممتدة من 20 نوفمبر 1941 إلى 20 جانفي

1943 خلفا للجنرال "ويغان". Weygand

³ - Recham (Belkacem)...., op.cit, p 211.

⁴ - A.W.O, B 4476, Affaires musulmanes, Avril 1942.

⁵ - A.W.O, B 4476, CIE N° 81, de la commune mixte d'Ammi Moussa, du 28/07/1941.

⁶ - A.W.O, B 4476, commune mixte de Maghnia, CIE N° 76 du 07/04/1941.

مع دخول الألمان الأراضي الفرنسية في المتروبول، بدأت اليد العاملة الجزائرية في المغادرة و قد شملت أيضا عمالة قسنطينة، عندما عادت مجموعة من العمال من فرنسا، أين كانوا يعملون لدى الشركة الوطنية للسكك الحديدية في منطقة "فيرزون" Vierzon. و ذكرت المصادر أنهم تركوا عملهم بسبب دخول الجيوش الألمانية الأراضي الفرنسية. و عند عودتهم توقفوا في مدينة "تولوز" لمدة 9 أيام، و عملوا بها لمدة 6 أيام.¹

كما ذكرت مصادر أخرى في مدينة الجزائر أن عدد من العمال المسلمين العائدين من المتروبول قد شوهوا في شوارع مدينة الجزائر يتحدثون عن الألمان و عن قوتهم، و أنهم أصبحوا أسياد فرنسا. و هناك من ذهب إلى حد التصريح بأن وفد من العمال الجزائريين قد استقبل من طرف "هتلر"، و أن هذا الأخير قد وعدهم بتحسين أوضاعهم. و حتى الباخرة الفرنسية "شانزي" Chanzy مراقبة من طرف الألمان.²

من هنا نلاحظ أن الإدارة الاستعمارية لم تستثن أي من العناصر الجزائرية العائدة إلى أرض الوطن من المتابعة و المراقبة و ذلك باستعمالها مختلف أساليب القمع و الاضطهاد منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية، من خلال المحاكمات الفردية و الجماعية و تزوير الوثائق بممارسة دعاية رسمية تظهر ولاء الأوساط الشعبية لها. مما يوحي بأنها كانت فعلا قلقة حيال وجود هذه الشريحة على أرض الوطن. غير أن أحوال العائدين من جبهات القتال لم تزداد إلا سوءا في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية. من هنا نتساءل عن الأساليب التي سيعتمدها الجزائريون لمواجهة هذه الحكومة المتغترسة و سياستها القمعية ؟

الإجابة جاءت من المبادرة التي قام بها "فرحات عباس"، و التي لخصت كل النشاط الوطني الرسمي في هذه المرحلة التي كانت فيها الحركة الوطنية في سبات مفروض، عندما أرسل تقريرا مفصلا إلى المارشال "بيتان"، في 10 أبريل 1941، باسم الشباب الجزائري و الفلاحين و العمال، على شكل نداء،³ ظنا منه بأن الوقت و الظروف مواتية لتغيير النظام "الكولونيالي" على يد المارشال "بيتان"، الرجل الذي ظل بعيدا عن تأثيرات الدوائر السرية التي طالما أعاق كل المبادرات الإصلاحية في اتجاه الجزائريين، و دون أن يلقي أي اعتراض. لكنه أخطأ، كما أورد ذلك سنوات بعد الاستقلال، لأن "بيتان" لم يكن وحده، بل كان مدعما من النازيين و

¹ - ضم الوفد الجزائري من العمال من عمالة قسنطينة 11 عضوا هم على التوالي: ابن العيد محمد الشريف - حفيظ علي بن ناصر - بوليلة محمد - محمد شريف محمود - العلوي أحمد بن الأخضر - ابن دعاس محمد - بوسنة طاهر - شرقي عبد المجيد - العمدي عاشور بن دالي - ابن مرابط محمد طاهر - بوخنوفة عمار. أنظر إلى:

- ANOM, GGA, 3cab/3, retour des travailleurs volontaires de la métropole, juillet 1940.

² - ANOM., 3cab/3, cabinet du G.G, CIE, Alger du 6/7/1940.

³ - قدم "الرجل الحديد" للوطنية الجزائرية من خلال هذه المذكرة الموجهة للمارشال "بيتان" عرضا عن الوضعية المزرية التي كان عليها الشعب الجزائري جراء اندلاع الحرب العالمية الثانية. حيث ذكر له سيطرة فئة من الكولون الإقطاعيين على الأملاك العقارية و ذلك على حساب 6.5 مليون مسلم جزائري و طالب من حكومة "فيشي" الشروع في تطبيق إصلاحات تشمل جميع الميادين في الجزائر. غير أن ما أدهش من خلال هذه المذكرة هو الطابع المعتدل لهذه المطالب التي تضمنت: إلغاء النظام العسكري في مناطق الجنوب، إعادة توزيع الملكيات العقارية و الأراضي الزراعية، المساواة في الخدمة العسكرية بين الجزائريين و الفرنسيين، حيث لم يعد هناك سوى جيش واحد و جندي واحد. أنظر:

- Kollewijn R.D, « Le mouvement nationaliste et la situation de L'Algérie.. », op.cit., p 3.

من قادة الجيش و قادة البحرية و "التروست" Trust الاحتكاري الاستعماري.¹ و في الأخير جاء رده عن طريق أحد الجنرالات الفرنسيين في 4 أوت 1941، بأن شكركي و لكنه اعتبر ذلك المشروع المطلي في غير وقته و سابق لأوانه.²

ب- سياسة "فيشي" في المغرب

بقرار من الجنرال "نوقس"، وضعت السلطات الفرنسية حدا لنشاط الحزب الوطني مع نهاية سنة 1937، بعد الأحداث التي شهدتها البلاد في منطقة "زمور"³ Zemmour و "فاس" Fès و "الخميسات" Khemisset. بسبب إقدام السلطات الفرنسية على تحويل مجرى "وادي بوفكران" الذي كان يغذي بالماء الصالح للشرب كافة أطراف مدينة مكناس.⁴ هذه القضية هي التي عجلت بغلق كل المنافذ أمام الزعماء الوطنيين في المغرب، إذ أقدم الجنرال "نوقس" إلى تضيق الخناق و تشديد الرقابة بعدما ترك نوع من الحرية أمام الحركة الوطنية المغربية لتنتشر أفكارها تجاه الشعب المغربي.⁵

¹ - Ferhat (Abbas), Le jeune Algérien, de la colonie vers la..., op.cit..., p 137.

² - ربما كان شكر المارشال "بيتان" من منطلق أن "فرحات عباس" لم يطلب الكثير من حكومة فيشي. فهو لم يطالب لا بمجلس منتخب و لا بحكومة جزائرية، و إنما اكتفى بالمطالبة بمكتب للشؤون الإسلامية في التنظيم السياسي الجديد للحكومة الفرنسية. و لم يظهر "عباس" من خلال هذه المطالب أي موقف متصلب يبين عن موقف وطني من المسألة. و بقي بفكره الاندماجي و المعتدل إلى غاية فترة متقدمة من نضاله السياسي. أنظر كل من :

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit..., p 280.

- Kollewijn R.D, « Le mouvement nationaliste et la situation de L'Algérie.. », op.cit..., p 3.

³ - و هي منطقة تقع ما بين مدينتي : الرباط و مكناس.

⁴ - وقعت هذه الأحداث في ظروف صعبة كانت تمر بها المغرب، حيث أقدمت السلطات الفرنسية على تحويل مجرى "وادي بوفكران" الذي كان يمد مدينة مكناس بالماء الصالح للشرب، نحو أربع مزارع كلها ملك للكلون. فثارت ثائرة المغاربة الذين اعتبروا ذلك ظلما و إجحافا في حقهم. فنظموا مظاهرات رفعوا فيها شعارات "و لا قطرة ماء للكلون". فاصطدموا، كالعادة، برد فعل عنيف من البوليس الفرنسي الذي أطلق النار على المتظاهرين مما أوقع قتلى و جرحى في صفوف المواطنين المغاربة. فأقدمت الحركة الوطنية المغربية على التنديد بهذا العمل و نشرت صحيفة "العمل الشعبي" Action Populaire نداء تحريضي يدعو إلى الثورة ضد الإدارة الاستعمارية. فحدثت عدة مواجهات في عدد من المدن المغربية، خاصة في مدينة "الخميسات" عندما أقبل عدد من المتظاهرين على المصلحة المدنية في أعقاب مناسبة كانت تقام في كنيسة "القديسة تيريز دافيللا" Sainte-Therese d Avila، مما أدى إلى وقوع عدد من القتلى و الجرحى من الجانبين. في هذه الظروف المشحونة، أقدمت السلطات الاستعمارية على إلقاء القبض على "علال الفاسي" و أحمد مكوار و قاسم بن ؟ عبد الجليل أو (عمر)؟، و زجت بهم في سجن "قصر السوق" أين التقوا بصديقهم محمد اليازدي. لمزيد من المعلومات ينظر إلى :

- Delanoe Guy, Lyautey, Juin, Mohammed V fin d'un protectorat..., op.cit..., pp 40-41.

⁵ - أرسل سكان مدينة "مكناس" القديمة عريضة إلى السلطان المغربي و إلى السلطات الفرنسية لإطلاعهم على قضية تحويل مياه وادي بوفكران التي أثارها الظهير رقم 1268 المؤرخ في 12 أفريل 1937 و الذي صدر على إثر موافقة اللجنة المفوضة من طرف مصالح الأشغال العمومية التي أقدمت على توزيع مياه وادي بوفكران. طالع العريضة الممضية من طرف 2000 ساكن في الملحق رقم 5.

في الليلة ما بين 25 و 26 أكتوبر من سنة 1937، ألقت قوات الأمن الفرنسية القبض على علال الفاسي و عمر عبد الجليل، و في 3 نوفمبر قامت بنفي الزعيم المغربي "علال الفاسي"¹ إلى قرية في "الغابون"، أين مكث تسعة سنوات، حيث لم يطلق سراحه إلا في سنة 1946.² كما فرضت الإقامة الجبرية في سجون الجنوب المغربي، على كل من، حسن الوزاني، مكوار، اليازدي، أما "بالفرج" فقد بقي في منفاه في باريس إلى غاية سنة 1943.³

رغم النشاط الذي بذله الوطنيون في المنطقة الخاضعة لإسبانيا، إلا أن الأوضاع بقيت هادئة خلال سنوات 1938-1939. و قام كل من "عبد الخالق الطوريز" و "الناصري" بالتنديد بالأوضاع القائمة و بالنظام الذي فرضه المقيم العام "نوقس"، وراسلوا في هذا الشأن كل من "فرانكو" و "موسوليني" و عصبة الأمم و اللجنة السورية الفلسطينية و المؤتمر الإسلامي في جنيف. و طالبوا الحكومة الفرنسية بمشروع إصلاحات في المنطقة الفرنسية حتى يتمكنوا من تحقيق وحدة و استقلال المغرب. و كان نشاطهم واضحا داخل قبيلة "بني سنان" الحدودية مع الجزائر.⁴

بقي الأمل قائما عند المسلمين في المغرب في خروج فرنسا منتصرة من هذه الحرب. غير أن الهزائم الأولى استقبلت بدهشة كبيرة. فتسارعت الأحداث باستقالة حكومة "بول رينود" و استبدالها بحكومة "بيتان" التي كانت في معظمها مكونة من ضباط الجيش الفرنسي. هذه المعطيات أوهمت الجميع بأن هذه الحكومة سوف تواصل المعركة ضد الألمان و سوف تنتصر. لكن سرعان ما تبخر الأمل في 17 جوان و وقف الجميع أمام الحقيقة المرة التي قادت حكومة "بيتان" إلى إبداء استعدادها للهدنة.⁵

أخذ الجدل السياسي منحى خطير بين أنصار مواصلة الحرب ضد النازيين و بين أنصار الهدنة. و قد زاد الطين بله، النداء الذي بعثه الجنرال "ديغول" عبر أمواج إذاعة ب.ب.س البريطانية يوم 18 جوان 1940، و الذي حث فيه الجنود و المسؤولين العسكريين و السياسيين إلى رفض الهزيمة و مواصلة الحرب. فحاول إقناع بعض الجنرالات الذين كان يرى فيهم الرجال القادرين على إعادة بعث فرنسا من جديد. و من بين هؤلاء، الجنرال "نوقس"، المقيم العام في المغرب و قائد قطاع العمليات في إفريقيا، الذي كان يحظى باحترام غالبية

¹ - محمد علال الفاسي، ولد في 10 جانفي 1910 بمدينة فاس المغربية. و هو شخصية بارزة في الحياة السياسية المغربية و في تاريخ حركتها الوطنية. اقترن اسمه بالتيار الاستقلالي المغربي و "بجرب الاستقلال" الذي أصبح زعيما له في سنة 1960. و يعتبر من الذين أثروا في الحياة السياسية و الاجتماعية للمغرب طيلة فترة نشاطه السياسي. توفي في "بوخارست" برومانيا في 19 ماي 1974 عندما كان في مهمة رسمية. أنظر:

-www.universalis.fr/encyclopedie/Mohamed-allal-el-fassi:

² - Echaoui (Mohamed), L'Évolution de l'économie marocaine..., op.cit., p 37.

³ - كان "حسن الوزاني" الزعيم الوطني للجنة العمل المغربية. و وجد معظم الوطنيين المغاربة في المناطق الخاضعة لمراقبة الإدارة الاستعمارية، خاصة في سجن قصر السوق، و بودنيب، في منطقة تافيلالت، و في الغير العالي. ينظر إلى:

- Julien Charles André, Le Maroc face aux impérialismes..., op.cit., pp 187-188.

⁴ - Levisse -Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 32.

⁵ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 42.

حكام المستعمرات و كان له تأثير فعلي في الأوساط العسكرية الفرنسية بحكم علاقاته الجيدة مع الجميع، بما فيهم السكان المسلمين في المغرب.¹

طالب السكان في المغرب من الجنرال "نوقس" بمواصلة الحرب في شمال إفريقيا. إلا أنه خضع للأمر الواقع، و بعد تردد طويل قرر الدخول في صف المارشال "بيتان". و نشر في 21 جوان 1940 بيانا في الصحف المغربية توجه من خلاله إلى السكان الأوروبيين بهذه الكلمات: "عليكم بالبقاء متحدين.. وراء قادتكم الذين لم يبق أمامهم سوى الدفاع عن مستقبل و شرف فرنسا و إمبراطوريتها".²

إن الهزيمة الفرنسية لم تغير الكثير في الوضعية الداخلية للمغرب، لأن الفلاح في البادية و العامل في المدينة و الوطني الذي يمارس السياسة، كانوا قد دخلوا في العمل السري. و بالنسبة لهم فرنسا حاضرة في كل مكان. فوجودها يجسده ضابط الشؤون الإسلامية و المراقب المدني أو الشرطي. و قد دفعت الهزيمة بالسلطات الاستعمارية إلى مضاعفة جهود اليقظة و مراقبة البلاد.³

بعد الهزيمة الفرنسية أمام الألمان، حاولت حكومة "فيشي" أن توسع عملية تطبيق القوانين المناهضة لليهود التي تم اعتمادها في فرنسا و الجزائر لتشمل التراب المغربي، غير أن السلطان رفض ذلك بشدة معتبرا بأن يهود المغرب هم جزء لا يتجزأ من سكان المغرب، و بالتالي فهم رعايا مغاربة بالدرجة الأولى. و إذا ما حاولت سلطات "فيشي" تطبيق ذلك، فسيكون بمثابة سابقة خطيرة قد تهدد وحدة المغرب و سيادته.⁴

كما تم التشديد على العناصر اليهودية النشطة التي كانت تعمل لفائدة حكومة المنفى و الجنرال "ديغول"، خاصة بعد القرارات التي أصدرتها حكومة "فيشي" في حقهم. و عاش اليهود في المغرب و باقي أجزاء شمال إفريقيا فترة عصيبة خلال الفترة الممتدة من أكتوبر 1940 إلى ربيع سنة 1943. و ذلك بالرغم من أن حكومة "دلاديه" كانت قد اعتمدت منذ 21 مارس 1939، مرسوم "مارشوندو"، الذي يمنع كل أشكال التمييز العنصري.

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine., p 42.

² - بالنسبة للجنرال "نوقس" الأمور كانت واضحة. لأنه كان يدرك جيدا بأن مواصلة المعركة ضد دول المحور يتطلب "قاعدة لوجستية" غير متوفرة حاليا في شمال إفريقيا، و الإنجليز أنفسهم غير قادرين على توفيرها. ما دفع "تشرشل" إلى إرسال تشجيعاته للجنرال "نوقس" و لكن دون إعطاء أي ضمانات. و قد أوردت مصادر أخرى نص الرسالة التي بعث بها "نوقس" إلى قادته في العبارات التالية: "...بالرغم من كل المساعي الحثيثة التي قمت بها.. إلا أنني لم أتمكن من الحصول حتى على موافقة ضمنية من الجنرال "ويقان". أما الأميرال "دارلان" فكان موقفه واضحا من أجل إبرام الهدنة. و في هذه الظروف التي يستحال فيها مواصلة المعركة بدون دعم البحرية، و أمام الضمانات التي قدمتها الحكومة لمستعمراتها فيما وراء البحار، و حتى لا أتسبب في تقسيم فرنسا إلى قسمين، فإنني مجبر، حزينا و متأسفا، عل وضع حد للمعارك..". لمزيد من التوضيحات أنظر كل من:

- Télégramme envoyé au Général Mittelhauser, commandant supérieur au Moyen-Orient, qui avait décidé de calquer sa position sur celle de Noguès. (Cité dans: Nous étions alors capitaines de l'armée d'Afrique du Général Daillier).

- Pujo Bernard, Juin Marechal de France, éditions Albin Michel, Paris, 1988, p 91.et p 372.

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie Marocaine., op.cit., p 42.

³ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine., op.cit., p 45.

⁴ - Lugan (Bernard), Histoire du Maroc des origines à nos jours., op.cit., p 261.

غير أن معاداة السامية بدأت تجد طريقها في فرنسا و باقي مناطق الإمبراطورية، في الأشهر الأولى التي تلت الاستسلام خصوصا عندما أقدم المارشال "بيتان" بإلغاء هذا المرسوم و معه مرسوم "كريميو". فاعتبر ذلك أول خطوة مناهضة لليهود تتخذ من طرف الحكومة الجديدة. و من هنا بدأت شريحة كبيرة من الجالية الأوروبية في المغرب تتصرف بكرهية كبيرة تجاه اليهود مظهرة بذلك عداها لهم.¹

هذا الاندفاع في المشاعر كان موجود منذ سنة 1934 و الصراع مع رابطات اليمين المتطرف في فرنسا و المغرب. و مع تول حكومة "ليون بلوم" Léon Blum الاشتراكية الحكم في فرنسا سنة 1936، بدأ "كزافيي فالات" Xavier Vallat، يتحسر على وضع فرنسا: " هذا البلد الغالي-الروماني القديم... هذه الأمة الفلاحية القديمة... لم تعد تحت حكم من تنحدر جذورهم من داخل الأرض الفرنسية، و إنما تحت حكم أحد أتباع التلمود..."²

في الثالث أكتوبر من عام 1940، أصدرت حكومة فيشي قانون يحدد وضعية اليهود، و قد احتوى على عشرة مواد.³ و يعتبر هذا القانون هو من ساهم بقسط كبير في وضع معالم السياسة العنصرية تجاه اليهود، حيث منعوا من تقلد مناصب عديدة و هامة في المستعمرات و المتروبول، منها رئاسة الشركات العمومية أو تلك التي كانت تحصل على إعانات الدولة. غير أن من اليهود الذين كان بحوزتهم البطاقات العسكرية، وبطاقة مقاوم في الحرب الكبرى 1914-1918، أو في بداية الحرب العالمية الثانية 1939-1940 أو الوسام العسكري كانوا غير معينين بالإجراءات السابقة.

إلا أنه في 29 مارس 1941 قررت حكومة فيشي بمقتضى القانون رقم 1450 المعدل، تأسيس محافظة عامة للمسائل اليهودية Commissariat Général aux questions Juives، برئاسة كزافيي فالات. فقام بتنصيب فروع في البلدان الثلاثة بشمال إفريقيا و شرع في تطبيق القوانين العنصرية دون أن يأخذ بعين الاعتبار الروابط القانونية و السياسية التي تربط خاصة كل من تونس و المغرب. كما اتسعت رقعة تطبيق هذا القانون إلى

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de ..., op.cit, p 59.

² - Kenbib (Mohamed), Juifs et Musulmans au Maroc 1859-1948, Université Mohamed V, Rabat, 1994, p 175.

³ - المادة الأولى تبين صفة اليهودي على أنه: كل شخص ينحدر من سلالة ثلاثة أجداد أو سلاتين فقط إذا كان زوجه يهودي هو الآخر. أما المادة الثانية فتضع قائمة للمهام و الوظائف التي أصبحت ممنوعة على اليهود و هي على التوالي: أعضاء الحكومة، أعضاء المجلس الوطني، أعضاء اللغيف الأجنبي، أعضاء في مختلف الوزارات، وظائف القضاء، التعليم و الجيش (خاصة منهم الضباط). كما منعوا أيضا من تقلد مناصب "مقيم عام" في المستعمرات، أو حاكم أو مفتش أو أمناء في المستعمرات.

المغرب عندما وقع الجنرال "نوقس" على "ظهير" ¹ Dahir في 31 أكتوبر من نفس السنة حيث تضمن نفس الشروط التي تمنع اليهود من ممارسة المهن المحظورة عليهم. ²

غير أن قانونا جديدا صدر في 02 جوان 1941، حل محل قانون 03 أكتوبر 1940، جاء ليوسع مجال التطبيق العنصري في حق اليهود بإضافته العامل الديني. و شرع في تطبيق قانون 02 جوان 1941 داخل المملكة المغربية و في المناطق الخاضعة للسلطة الفرنسية بمقتضى الظهير الذي صدر في 05 أوت 1941، و الذي بموجبه تم إلغاء قانون 31 أكتوبر من سنة 1940. ³

بدأت مخاوف الإدارة الفرنسية تجاه دول المحور مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث لجأت إلى التقرب من المغاربة، غير أن هزيمتها أمام القوات الألمانية في ماي 1940 و إرضائها على وثيقة "الاستسلام" جعلها تفقد هيبتها في أعين المغاربة الذين رأوا في ذلك ضعف و تحاذل لفرنسا. ⁴

غير أن الذي أنقذ فرنسا مع بداية هذه الحرب هو موقف السلطان نفسه تجاهها إلى جانب تجميد الوطنيين لحركتهم المطالبة. و بقي السلطان وفيا للمارشال "بيتان"، و لم ييدي في أي لحظة ميولا للألمان أو الإيطاليين، بالرغم من وجود قنصليتين في كل من مدن "طنجة" و "سبتة"، تنفيذا لبنود اتفاقية الهدنة المبرمة بين فرنسا و دول المحور، و التي نصت على تنصيب لجان مراقبة مهمتها التأكد من أن فرنسا تحترم بنود الاتفاق. ⁵

في ظروف الحرب و الهزيمة الفرنسية، بعث الزعيم المغربي "علال الفاسي" برسالة من منفاه إلى الزعماء الوطنيين في المغرب جاء فيها: "لقد أصبح من الواضح أن القطيعة قد حدثت بين الشعب المغربي و إدارة نظام الحماية.. لا يمكننا إنكار الآثار التي تركتها بداية الحرب، و لكن لا بد من الاعتراف بأن القوة الحقيقية التي

¹ - هذا الظهير متعلق بتطبيق قانون 03 أكتوبر 1940 و الخاص بقانون اليهود، داخل المملكة المغربية في المناطق الخاضعة للسلطة الفرنسية. أنظر:

- Bulletin Officiel, N°1463, du 08 Novembre 1940, pp 1054-1056.

² - تنص المادة الثامنة من قانون 03 أكتوبر 1940 على وضع الموظفين اليهود المنتدبين من الإدارات الفرنسية، الجزائرية أو التونسية تحت تصرف إداراتهم في غضون الشهرين اللذين يليان دخول هذه الإجراءات حيز التطبيق.

³ - المادة الرابعة من ذات القانون تحدد أن عملية المنع لن تمس سجناء الحرب إلا عند انتهاء مدة حجزهم. و تضيف نقطة مهمة متعلقة بذوي حقوقهم و هم الآباء و الزوج (ة) أو الأبناء، حيث أنهم سيخضعون لنفس الشروط شهرين بعد إطلاق سراحهم..

⁴ - Delanoë (Guy), Lyautey, Juin, Mohammed V fin d'un protectorat..., op.cit., p 41.

⁵ - تم توقيع الهدنة الفرنسية - الألمانية يوم 21 جوان 1940 في "رثوندس" Rethondes و في نفس العربة التي وقعت فيها ألمانيا على هدنة 11 نوفمبر 1918. و لم يتم التوقيع على هذه الاتفاقية إلا في 22 جوان من طرف الجنرال "هنتزجر" Huntziger على الجانب الفرنسي، و الجنرال "كليتل" Klittel على الجانب الألماني. و قد تضمنت عدة نقاط منها وضع لجان مراقبة للتدقيق في تطبيق شروط الهدنة و عدم ترك المجال لفرنسا في إعادة بناء جيشها و تسليحها. كما تضمنت هذه الشروط بنود تتعلق بالشق السياسي و بالأسطول البحري. لأكثر تفاصيل راجع كل من:

- L'Echo d'Oran des 18 et 23 juin 1940. Et du 8 juillet 1940.

- Lugan Bernard, Histoire du Maroc..., op.cit., pp 261-262.

- Reinhard Marcel, Histoire de France..., op.cit., p 477.

- Duroselle Jean Baptiste, Histoire des relations internationales..., op.cit., pp 277-280.

دفعتنا في ذلك الاتجاه هي الواقع المر المعاش و التجارب المتتالية للحركة الوطنية. مع العلم أن هناك سياسة استقلالية واضحة المعالم كانت موجودة منذ البداية.. الاستقلال قبل كل شيء¹.
أراد "علال الفاسي" بهذه الرسالة أن يوضح الطريق الصحيح الذي على رجال الحركة الوطنية المغربية انتهاجه، لأن رغبة الشعب المغربي كانت كبيرة في تحقيق الاستقلال في أقرب فرصة ممكنة. و ذلك بالرغم من السياسة القمعية التي واصلت عليها فرنسا في خطوة للقضاء على أي بصيص من الأمل في نفوس المغاربة². و إلا فكيف نفسر الصمت الذي ألتزمته "لجنة الهدنة" التي زارت المغرب في أعقاب خسارة الجيوش الفرنسية أمام الألمان، و دون أن تولي الحركة المغربية أي اهتمام. بل تطور الأمر إلى استيلاء الأسبان على مدينة طنجة³.
غير أنه في الفترة الممتدة من 1940 إلى 1942 تمكنت فرنسا من تمويه عدة وحدات مغربية في ثوب شرطة مساعدة، و بذلك استطاعت أن تخزن كميات هائلة من الأسلحة و الذخيرة عبر مناطق عديدة من المملكة. كما تمكنت فرنسا بهذا الإجراء من التحضير و الاستفادة من وحدات مغربية من القنصاة و القومية و الصبايحية، سوف يكون لها دور كبير في الحملة على تونس و تكون من الفرق الأولى التي ستخترق الدفاعات الألمانية عبر منطقة "كاسينو" Cassino في إيطاليا.

ج- التناقضات السياسية في تونس

أفرزت الحرب العالمية الثانية، معطيات جديدة في الحياة السياسية التونسية بفعل التغيرات التي طرأت على التركيبة البشرية للحكومة الفرنسية بعد اعتلاء المارشال "بيتان" السلطة و الأساليب التي اتبعها رجال "المارشال" في إدارة شؤون البلاد و تعاملهم مع زعماء الحركة الوطنية التونسية، الذين نشطوا خلال هذه المرحلة لدرجة جعلت هذا النشاط يغير حركتهم كما و كيفا و يزيد من حدة النضال⁴.
ظهرت هذه التناقضات السياسية في تونس حتى قبل اندلاع الحرب، بسبب ما عرف بالأطماع الإيطالية تجاه الأرض التونسية. فكانت مخاوف الفرنسيين متجهة دائما نحو ردة الفعل الإيطالية. فلا اتفاقية "الغال-موسوليني"، التي أبرمت في السابع من جانفي 1935 أرضت المطامح الإيطالية و بالتالي دفعت بهم إلى إلغاءها في 17 ديسمبر من نفس السنة⁵.

¹- Delanoë (Guy), Lyautey, Juin, Mohammed V fin d'un protectorat., op.cit., p 41.

²- يستطرد "علال الفاسي" في الموضوع بكثافة و إسهاب لتوضيح نظرتة و منها نظرة الشعب المغربي و حركته الوطنية في مسألة ردود الأفعال المغربية تجاه السياسة المطبقة من طرف فرنسا. أنظر:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص 267.

³- لقد تعرضنا بإسهاب إلى القضية في العنصر الخامس من الجزء الأول في الفصل الأول.

⁴- Rey -Goldzeiguer (Annie), « L'Occupation Germano-italienne de la Tunisie, un tournant dans la vie politique Tunisienne », in Les chemins de la décolonisation de l'empire français 1936-1956, CNRS, Paris, 1986, p327.

⁵- Julien (Charles André), L'Afrique du Nord en marche., op.cit., p115.

بتغيير "المقيم العام" في تونس سنة 1938، بعد الأحداث الدامية التي شهدتها البلاد، لم يتغير الشيء الكثير. فحاول "إيريك لابون"، الذي خلف "أرمون قيون" أن يحرز تقدما في مجال تطبيق الإصلاحات خاصة فيما يتعلق بمسألة تحسين أوضاع الفلاحين و النهوض بالصناعة التقليدية.¹

في هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الحياة السياسية في تونس، طفت على السطح الظروف الاقتصادية التي أصبحت تحتل الواجهة لما لها من تأثير في الحياة اليومية للتونسيين، خاصة و أن بواذر صراع عالمي جديد كان يغذي النقاشات و يتصدر عناوين بعض الصحف.²

مع اتضاح معالم تونس الجديدة غداة الهزيمة الفرنسية أمام ألمانيا و اعتلاء حكومة المارشال "بيتان" السلطة، بدا واضحا لزعماء الحركة الوطنية و خاصة الدستوريين منهم، بأن الهزيمة العسكرية دليل صارح على عجز فرنسا السيطرة على تونس لمدة طويلة. خاصة في ظل الدعاية الألمانية المتواصلة و التي كانت تصل تونس عبر مختلف القنوات، منها على وجه الخصوص مساعي "شكيب أرسلان" الذي حاول جاهدا تحريك الشعور الديني عند مسلمي تونس و بالتالي كل بلدان شمال إفريقيا و حثهم على التمرد ضد سلطة فرنسا.³

بالحديث عن التناقضات السياسية التي حصلت في تونس مباشرة بعد الهزيمة الفرنسية، فنجدتها تنطلق من الواقع الجديد الذي فرضته الحرب نفسها على مسار الحركة الوطنية التونسية. إذ أن الهزيمة هي التي وفرت أجواء سياسية و عسكرية جديدة تخدم فكرة "حركة تصفية الاستعمار" La décolonisation التي تزامنت مع انعقاد مؤتمر "ميثاق الأطلسي" في 12 أوت 1941. و استغل كل من الحلفاء و دول المحور الجوانب العديدة للدعاية الصوتية عبر محطات الإرسال الإذاعية لترسيخ فكرة الاستقلال لدى الشعوب المستعمرة، زيادة على ما كانت تلقيه أسراب الطائرات من مناشير في هذا الغرض.⁴

أما الجانب الأول من التناقضات يتعلق بالموقف الذي أبدته طبقة من النخبة المنحازة لفرنسا و الجناح التقليدي من الدستوريين عندما أفرحهم سقوط النظام الفرنسي و لكن في نفس الوقت أظهروا إعجابهم

¹ - Julien (Charles André), L'Afrique du Nord en marche, op.cit., p 114.

² - انتهج المقيم العام الذي عين سنة 1936، "أرمون قيون" سياسة انفتاحية مكنته من كسب ثقة التونسيين، خاصة أن ذلك تزامن مع اعتلاء الحكومة الاشتراكية الحكم في فرنسا. الأمر الذي فتح أفقا و آمال الوطنيين التونسيين في مباشرة فرنسا لإصلاحات شاملة. حيث تم العفو عن الطلبة الزيتونيين الذين شاركوا في مظاهرة 23 جويلية 1936، و أطلق سراح قادة الحزب الدستوري و استأنف الحزب الدستوري الجديد نشاطه و كثف من دعايته و وسع قاعدته الاجتماعية حيث بلغ عدد فروع حزبه 400 فرع و عدد المنخرطين ما يزيد عن 100000 منخرط سنة 1937. غير أن الكولون لم يهضموا فكرة هذه السياسة التحررية التي انتهجها "قيون" فضغطوا على إدارتهم لمراجعة هذه التسهيلات التي منحت للتونسيين، فصدر مرسوم الفاتح جويلية 1938 الذي حد من حرية الصحافة و الجمعيات و التنظيمات السياسية و علق المظاهرات و التجمعات الشعبية و الاجتماعات في الأماكن العمومية. بعبارة أخرى، لقد وضع هذا المرسوم حدا "للفتات" الذي تبرعت به السلطات الاستعمارية على التونسيين في بداية سنة 1936. و حتى الزيارة التي قام بها "دلاديه" مع مطلع شهر جانفي سنة 1939 لم تظهر النوايا الحقيقية للإدارة الاستعمارية بالرغم من مظاهر الحماس و الولاء التي فضلت الوجود الفرنسي على الإيطالي. لأكثر توضيح ينظر إلى كل من:

- الشاطر خليفة، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 107.

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit., p115-116.

³ - Ibid..., p 117.

⁴ - De Latour (Pierre Boyer), Vérités sur l'Afrique du Nord, éditions Plon, Paris, 1956.

بشخص المارشال "بيتان" الذي علقت عليه شريحة من التونسيين أمالها. و جاء على لسان "الثعالبي" أنه قال: "الإسلام يجب القوة و العدل، و قد أظهر تفضيله للقادة..¹

فيما يخص الجانب الثاني، فقد شمل الأغلبية من الشعب التي كانت تتربح جديد الحرب و أعضاء الحزب الدستوري الجديد فكانت لهم نظرة أخرى، حيث التفوا حول الباي أحمد، رغم كل المعاناة التي واجهتهم منه، غير أنهم حاولوا تنبيهه إلى ما كان يحاك ضد الشعب التونسي و أن فرنسا لم تعد تلك الدولة العظمى التي لا تقهر. فكانت لهم وقفة جديدة للمطالبة بإطلاق سراح المسجونين. فتظاهروا مرات عديدة طيلة سنة 1941 بكل ما لذلك من أخطار على مستقبل الحزب و الوطنيين، إذ أقدمت السلطات الاستعمارية على إلقاء القبض على الدكتور "الحبيب ثامر" و "الطيب سليم"، و هما يتأهبان لاجتياز الحدود الليبية. فكان لاعتقالهما الوقع الشديد على المجتمع التونسي بأكمله.²

أما الجانب الثالث فجسده سياسة "الباي أحمد" منذ البداية، حيث كان يعيل لممثلي السلطة الفرنسية، بسبب ما تركه الدستوريون من فراغ لما لم يستغلوا وجود حكومة الجبهة الشعبية للمضي قدما في مطالبهم. و لما مرت ساعة هؤلاء، اغتنمها الباي أحمد لكن دون أن يجسد مطامحه باعتبار أن وجوده على رأس السلطة التونسية قد تزامن مع ظروف القاهرة جعلت علاقاته مع فرنسا تمر في المقام الثاني. و كل ما كان مسموح له أن يتعامل مع المقيمين العامين الذين تعينهم السلطة الفرنسية ليمثلوها في تونس. و حتى وفاته في 19 جوان 1942 لم تترك أثارا و لم يكون مأسوف عليها، لأنه شخص لم يعرف كيف يتعامل مع مطالب شعبه و زعماء الحركة الوطنية لبلاده.³

أما النشاط الذي بادر به الوطنيون التونسيون أثناء المرحلة الأولى للحرب العالمية الثانية التي استمرت إلى غاية نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا، فقد انطلق من الاحتفالات بمناسبة التاسع أفريل، أين وضع الحزب الدستوري الجديد خطة جديدة متمثلة في التكتيف من الجمعيات الموازية أو المزيعة التي تقوم بضبط نشاط جميع الشرائح المنتمية لجامع الزيتونة.⁴

و هكذا، تأسست جمعية "الشباب المسلمين" برئاسة "سعيد البسيس" و "رشيد إدريس" في مارس 1941، و تحولت بعد ذلك إلى تنظيم ثوري لمقاومة الاستعمار تحت اسم "اليد السوداء". الذي اعتمد على أسلوب المظاهرات، إذ نظم الحزب مظاهرات في 18 ماي 1941، انطلقت من "حلفاوين" متوجهة نحو مقر

¹ - Julien (Charles André), L'Afrique du Nord en marche..., op.cit., p 117.

² - حاولت بعض الأقلام الفرنسية حصر ردود الأفعال التونسية جراء اعتقال الحبيب ثامر و الطيب سليم في طبقة البورجوازية التي ينتمي إليها الدكتور "ثامر"، غير أن الحقيقة التي أوردتها أقلام تونسية تفيد بأن الشعب التونسي كله بدا متأثرا من عملية اعتقال الزعيمين. أنظر كل من:

- إدريس الرشيد، في طريق الجمهورية: مذكرات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، (556 ص).

- المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح 1925-1954، مذكرات، القسم الثاني في الجزائر، 1925-1954، ش و ن ت، الجزائر، 1977.

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit., p 118.

³ - Ibid., p 118. Et voir aussi :

- Le Tourneau Roger, Evolution politique de l'Afrique..., op.cit., p 91.

⁴ - Rey -Goldzeiguer (Annie), « L'Occupation Germano-italienne de la Tunisie », op.cit., p327.

الإقامة العامة من أجل تقديم بيان تطالب فيه بإطلاق سراح زعماء الحركة الوطنية المنفيين. فانتشرت المناشير، التي تطالب فرنسا بالخروج من البلاد و تركها لأهلها.¹ بالإضافة إلى الكتابات الحائطية. كما انضمت إلى هذه الحركة الاحتجاجية، بعض الجرائد التونسية التي لم يكن لها خط ثوري للسير في نفس الاتجاه.²

أصبح نشاط التونسيين قريب جدا من العمل الثوري، حيث تضاعف عند الشباب وصل إلى حد القيام بإتلاف السكك الحديدية و قطع الأعمدة الكهربائية و إضرام الحرائق و استعمال المتفجرات، الأمر الذي يوحي بأن الشعب على فوهة بركان، خصوصا مع سجن معظم زعماء الحركة الوطنية. فكان تجاوب التونسيين كبيرا من الأرياف مما أضفى عليه طابع الراديكالية في العديد من أساليبه الحربية.³

زاد اهتمام التونسيين بالمسألة الدولية لدرجة أن الانتصارات الألمانية باتت حديث العام و الخاص. و تدعمت بوجود شخصيات عربية إسلامية لها وزنها من أمثال "شكيب أرسلان" و عبد الرحمان ياسين" أحد المناضلين في صفوف الحزب الدستوري القديم، و اللذان حاولا إضعاف فرنسا بعدما أصبح غالبية التونسيين تحت تأثير القوة الألمانية.

غير أن "الحبيب بورقيبة" لم يكن متحمسا لأي عمل ضد فرنسا، و أرسل تحذيرات شديدة لأنصاره و زعماء الحركة الوطنية التونسية يناشدهم فيها بعدم إتباع أصداء الدعاية الألمانية المغرضة.⁴ كما بعث ببرقية إلى "بدرة" يطلب منه نسيان المسائل التي كانت تفرق بينهما دائما و أن يقوم بدوره لأجل الوقوف ضد الدعاية الألمانية في تونس.

كما أعطى الأمر إلى أعضاء خلايا الحزب في باريس لتجنب المدعو "عبد الرحمان ياسين"، و تفادي أي اتصال به. لأن "بورقيبة" لم يقبل بأن يأخذ شخص "سوري"، مهما كانت صفته، الكلمة عبر إذاعة ألمانية و يتحدث باسم التونسيين⁵

أما طبقة البورجوازية التونسية، فتحركت خوفا من ضياع كل شيء. بحيث أنها بدأت تشك في قدرات فرنسا في الحفاظ على تونس. و بالرغم من أنها لم تبدي أي موقف من الهزيمة الفرنسية في جوان 1940، إلا أنها أصبحت تتبع باهتمام تدهور الحياة السياسية للبلاد، و بخاصة من أصحابها و حلفاءها الاشتراكيين و الشيوعيين والراديكاليين و حتى الماسونيين. و كانت هذه "النخبة البورجوازية" على دراية بكل المعطيات

¹-Archives Nationales Tunisienne, archives du Gouvernement Tunisien, archives du Parti Destourien, année 1941. Voir le Tract du 28 mars 1941.

²- Rey- Goldzeiguer (Annie), « L'Occupation Germano-italienne de la Tunisie »..., op.cit., p327.

³- Ibid., p 327.

⁴- Archives Nationales Tunisienne, archives du Gouvernement Tunisien, rapports mensuels de sécurité 1940-1941. Message de Habib Bourguiba, à partir du fort St Nicholas, transmis par Abderrahmane Chadly Dziri, étudiant en pharmacie.

⁵- Archives Nationales Tunisienne, archives du Gouvernement Tunisien, état d'esprit des indigènes, 1940-1945, rapport de police sur les déclarations de Bourguiba concernant les agissements d'un certain Abderrahmane Yassine établi à Berlin. ou il est fait mention de la déclaration suivante : « je ne permettrai pas qu'un Syrien se permette de prendre la parole a la radio allemande au nom des Tunisiens.. » Fait a Tunis le 27/09/1941.

الإستراتيجية التي كانت تحوم على العالم. و كان لها من المصادر الإعلامية ما جعلها تتبع خطوة بخطوة تطور الأحداث بين فرنسا و المحور و تدرك بذلك أن مستقبل فرنسا مرهون، و هي على استعداد لأن تسير وفق ما تشتهي السفن.¹

عانت تونس في هذه الفترة من ظروف الحرب العنيفة و من المشكلة الدولية التي أرهقت كثيرا المتنازعين، و عاشت المشاكل السياسية بكل جوارحها. و في هذه الظروف ظهر "المنصف باي" في 19 جوان 1942، ليعيد بذلك حياة تونس بأكملها و يفتح المجال لعهد سياسي جديد.²

ورث " الباي منصف " وضعية كارثية بحكم من سبقه في الحكم و هو "أحمد باي" الذي فقد بريقه و لم يكن محبوبا من التونسيين، فعمل على استعادة أجماد الأسرة الملكية الحاكمة بارتكازه على إنجازات والده "الناصر باي" العقل المدبر لثورة 1922 و محرر المطالب الثمانية عشر المستمدة من مطالب الدستور، حتى لقب "بباي الدستور".³ فغير كل شيء في القصر الملكي، من تقبيل اليد إلى عصرنه المحمية و ديمقراطية السلطة القديمة و فتح أبواب القصر الملكي أمام عموم الشعب من التونسيين و الأوروبيين و حتى أفراد من الجالية اليهودية الذين طمأنهم على مستقبلهم في تونس، و بدأ يستمتع لانشغالات الجميع مما أكسبه ثقة الشعب في مدة قياسية ، حيث رأى فيه الشعب التونسي صورة والده الذي ترك بصماته خلال فترة حكمه لتونس.⁴

ثانيا: التحضير المكثف لعمليات الإنزال في شمال إفريقيا

مع مطلع سنة 1942 أصبحت الحرب شاملة، حيث اشتعلت الجبهة الشرقية من خلال معركة ستالينغراد الشهيرة، و الجبهة الغربية في الحصار الذي حاولت ألمانيا فرضه على الإنجليز. حينها أدرك جل رؤساء و زعماء الدول المهزومة من طرف ألمانيا النازية بأن السلم لن يتحقق إلا باستسلام ألمانيا التام و اللامشروط. و ظهرت البوادر الأولى مع تراجع الجيوش الألمانية في الشرق بفعل تمكن الجيوش السوفيتية من التصدي له و التقدم نحو الأراضي الألمانية.⁵

تقدم الجنرال "ديغول" عبر أمواج إذاعة "لندن" بنداء حيا فيه الانتصار الروسي على الجيوش الألمانية في الهجوم المضاد الذي شنه الجيش الأحمر في ديسمبر من سنة 1941، معتبرا ذلك إنجازا ضخما بالمقارنة مع الإمكانيات الضخمة التي سخرتها ألمانيا لهذه الجبهة.⁶

أحيطت عملية الإنزال بسرية تامة. و قد بدأت باللقاء الثلاثي الذي تم في "لندن" في 23 جويلية 1942 بين قيادات الحلفاء و حكومة المنفى الفرنسية،⁷ أين تم اختيار اسم "تورش" للعملية المرتقبة في شمال

¹- Rey -Goldzeiguer (Annie), « L'Occupation Germano-italienne de la Tunisie »..., op.cit., pp 327-328.

²- Ibid., p 328.

³- Id., p 329.

⁴- Id., p 329.

⁵- Gallo (Max), Une histoire de la 2ème guerre mondiale, 1942 : le jour se lève, XO éditions, Paris, 2011, pp 22-23.

⁶- Gallo (Max), Une histoire de la 2eme guerre..., le jour se lève..., op.cit., p 24.

⁷- Lacouture (Jean), Charles De Gaulle le rebelle, éditions du seuil, Paris, 1984, p 597.

إفريقيا،¹ و التي جاءت تنفيذا لاتفاقيات سرية تمت في السواحل الجزائرية، بشرشال، في الفترة الممتدة من 20 إلى 24 أكتوبر 1942.² هذا الاجتماع حضره عدد من زعماء الدول المتحالفة.³ هذا التنسيق الكبير بين الحلفاء و فرنسا، اعتبره "ديغول" من الخدمات الكبرى التي قدمت للقوات الأمريكية⁴ و الذي سمح لها بإنجاح الإنزال في الجزائر. الأمر الذي فتح الباب أمام الحلفاء لتحقيق انتصارات أمام تراجع دول المحور.

قام الحلفاء بثلاث عمليات إنزال على سواحل شمال إفريقيا، التي كانت لا تزال تحت المسؤولية الفرنسية، لتطويق الكماشة التي استعملها الحلفاء لهزم دول المحور في البحر الأبيض المتوسط. حيث كان الهدف هو إنزال قوات بالقرب من "الدار البيضاء" ثم الاتجاه شرقا لتطويق قوات المحور في حركة كماشة تقليدية. و رغم معارضة الأمريكيين للفكرة، ما دام أنهم كانوا يلحون على فتح جبهة ثانية في شمال فرنسا، إلا أن "تشرشل" عرف كيف يقنعهم على مشروع شمال إفريقيا. و كانت فكرته أن يضرب "التمساح" في بطنه.

من جهتهم، أبدى الأمريكيون نيتهم في تنظيم إنزال على شواطئ شمال إفريقيا منذ شهر ديسمبر لسنة 1941. و شرع الرئيس "روزفلت" منذ الفاتح من جانفي 1942 من استقبال ممثلين عن خمسة و عشرون دولة انخرطت كلها لمبادئ و أهداف "ميثاق الأطلسي". حيث تعهدت كلها بتسخير كل مواردها العسكرية و الاقتصادية لمحاربة دول المحور. و ذكر روزفلت بأن هذا الميثاق تم إنجازه و المصادقة عليه من طرف الولايات المتحدة الأمريكية و بريطانيا في 14 أوت من سنة 1941.⁵

حيث نظم في 11 جانفي 1942 بالعاصمة "واشنطن" مؤتمر قيادات الأركان، تدخل من خلاله كل من العقيد الأمريكي "سولبارغ"، و هو خبير في الاستعلامات الخاصة بإفريقيا الفرنسية، و عقيد الاحتياط الفرنسي "أميران" اللذان قدما المعلومات الكافية لإنجاح عملية الإنزال.⁶

1- عملية "الشعلة" و تنظيم الإنزال "الأنجلو-أمريكي" على سواحل شمال إفريقيا

¹ - The Times, May 8, 1945, L London, « The long road of victory » A historical narrative and chronological register of the events of the War in Europe and Africa- 1939-1945, with a leading article, pp 4-5.

² - خلال تصفحنا لعدة مراجع، و عدد من المواقع الإلكترونية المتخصصة في الموضوع، صادفنا عدة تواريخ تنحصر كلها في الفترة الممتدة من 20 إلى 24 أكتوبر 1942. و الأرجح أن يكون تاريخ الاجتماع هو 23 أكتوبر، كما أوردته مراجع حديثة كون كان أمامها متسع من الوقت للتقريب عن الأرشيف، و بالتالي إعطاء التاريخ الصحيح للاجتماع.

³ - حضر اللقاء كل من: "روبرت مورفي" Robert Murphy، قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر، و الجنرال "كلارك" عن الجانب الأمريكي، و الجنرال "ماس" Mast عن الجانب الفرنسي. أما بريطانيا فمثلها مجموعة من ضباط الصاعقة. لمزيد من المعلومات أنظر كل من:

- Noushi André, Naissance du nationalisme algérien..., op.cit., p 131.

- Duroselle Jean Baptiste, Histoire des relations..., op.cit, p 384.

⁴ - De Gaulle (Charles), Mémoires de guerre- Le Salut 1944-1946, t3, éditions Plon, Paris, 1959, p 494.

⁵ - تم هذا اللقاء بين روزفلت و تشرشل في أعماق المحيط الأطلسي "بالأرض الجديدة" حيث كان تشرشل على متن البارجة الإنجليزية "برنس أوف والز" Prince of Wales و روزفلت على متن البارجة "أوغيسستا" Augusta. و اتفق الطرفان على احترام مبدأ المساواة بين الشعوب، و إقرار السلم، بعد القضاء على الدكتاتورية النازية، و توفير العيش الكريم لكل سكان العالم. أنظر إلى:

- Gallo Max, Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1942..., op.cit., p 24.

⁶ - Aron (Robert), Histoire de Vichy 1940-1944..., op.cit., p 540.

إن عملية الإنزال التي أطلق عليها اسم "عملية تورش" Opération Torch تعني نزول القوات المتحالفة البريطانية الأمريكية في المغرب و الجزائر في الثامن من نوفمبر سنة 1942.¹ و قد تم دراسة هذه العملية في بدايتها تحت اسم: "Gymnast".² حيث أصر الرئيس الأمريكي الحصول على قرار سريع للبث في قضية "الرايخ الثالث"، فأمر بتدعيم عدد القوات المسلحة المنتشرة في بريطانيا "بوليرو" Bolero بالقيام بإنزال في أوروبا تحت اسم "سليدغيهامر" على السواحل الفرنسية أو "راوند أوب" Roundup أو Sledgehammer، أو عملية في شمال إفريقيا تحت اسم "عملية جيمناست" Operation Gymnast.³

كما تقرر استحداث بعض الهيئات و قيادات أركان في لقاء "أركاديا"، و أقدم روزفلت و تشرشل على إعلان تحالفهما الكبير في الفاتح جانفي من سنة 1942. و لم يكن في الحقيقة سوى تحالف حقير بسبب ضخامة المصالح المتفق عليها، و هي هيئة "الأمم المتحدة".

غير أن المهمة الأولى كانت هي تأسيس "مكتب للتسليح" يديره "هاري.ل. هوبكينس" Harry L.Hopkins من أجل الاستغلال المزدوج للموارد الغذائية و المواد الأولية، و اليد العاملة و إمكانيات الإنتاج و النقل المتاحة للبلدان الأنجلو سكسونية.⁴

إلى جانب التحركات الإنجليزية تجاه الأمريكيين، ظهرت المطالب الروسية بشكل ملح في هذه المرحلة بالذات، كون الهجوم الألماني على الأراضي الروسية وصل ذروته. فطالب "ستالين" من العاصمات الأنجلو-سكسونية بالإسراع إلى فتح "جبهة ثانية" للتخفيف عن الجيش الأحمر الذي بات على وشك الانهيار. فأرسل

¹ - Levisse -Touzé (Christine), L' Afrique du nord dans la guerre..., op.cit..., p

- في الحقيقة لو قمنا بترجمة الكلمة لوجدناها تعني "النور" أو الإضاءة. و نفهم من ذلك أن الحلفاء أرادوا إخراج سكان المنطقة من الظلام إلى النور و الإضاءة و الحياة.

² - Dahms (H.G), La deuxième guerre mondiale..., op.cit..., pp 198-208.

³ - اعتبر "ونستن تشرشل" أن شهر جويلية 1942 هو الشهر الذي تقرر فيه كل شيء بخصوص العمليات العسكرية على دول المحور. لذلك اضطر إلى الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية من أجل ضمان انتصارات للمستقبلين. و كانت أولى أهدافه منع الطرف الأمريكي من التفكير في عبور "نهر المانش" سنة 1942. و بالعكس من ذلك إرغامه على التفكير و التحضير لعملية على شمال إفريقيا. فكانت كل هذه اللقاءات و التشاورات و التي تمخضت عنها مجموعة من القرارات السرية و الإستراتيجية، خاصة في المجال العسكري، منها العمليات التي ذكرت و التي كانت كلها عبارة عن "أسماء رموز" Noms de Code تحمل الدلالات التالية:

- "أكروبات" Acrobat أي عملية التوسع في الأراضي الليبية.
 - "بوليرو" Bolero و هي عملية التحضير للإنزال الكبير على الأراضي الفرنسية. تعرف لاحقا باسم : قاعدة "أوفر لورد" Overlord.
 - "جيمناست" Gymnast عملية الإنزال في الغرب من شمال إفريقيا، و التي أعيد تسميتها "تورش" فيما بعد.
 - "جوبيتر" Jupiter و هي عبارة عن عمليات عسكرية في الأجزاء الشمالية من النرويج.
 - "واوند أوب" Round-Up الهجوم على المناطق الأوروبية الواقعة تحت السيطرة الألمانية. تعرف لاحقا باسم : "أوفر لورد".
 - "سليدغيهامر" Sledgehammer و هي عملية مهاجمة إحدى المدينتين: براست Brest أم "شربور" Cherbourg في 1942. لمزيد من التوضيحات ينظر إلى كل من

- Churchill Winston.S.L, Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T4, Le tournant du destin, L'Afrique sauvée 4 juillet 1942-5 Juin 1943, librairie Plon, Paris, 1951, p 23. Et voir aussi :

- Dahms Hellmut Gunter..., op.cit..., p 198.

⁴ - Dahms (Hellmut Gunter) ..., op.cit..., p 198.

السفراء "ماكسيم.ل"، و "لتفينوف" و "إيفان.م" Maksim L.et Litvinov, et Ivan M.Maisky، الذي لم يلبث أن تبعه "مولوتوف" Molotov.¹

حينها، بدأت الصحافة الغربية تدافع عن روسيا. لأن روزفلت كان يخشى انهيار كلي للإتحاد السوفيتي و معه كل إمكانيات التغلب على الألمان. لذلك أكد "مولوتوف" بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تقدم على عملية كبيرة ضد ألمانيا خلال سنة 1942. و لكن السؤال كان أي عملية ؟ هل هي عملية "الشعلة" ؟ أم عملية "سليديهامر" ؟ فراسل تشرشل على جناح السرعة ليطلع به بتاريخ تنفيذ عملية الإنزال على السواحل الفرنسية و الذي حدده بأقصى حد إلى شهر أوت.

اندعش الطرف البريطاني من القرار الأمريكي، الأمر الذي استدعى تنقل تشرشل و بروك إلى أمريكا للتشاور مع روزفلت حول قضية العملية التي كان روزفلت بصدد تحضيرها. فاقتراحا عليه تأخير "سليديهامر" إلى غاية سنة 1943 و استبدالها بعملية "جيمناست". و افترقا الطرفان دون أن يحدث أي اتفاق رسمي بشأن مسألة الإنزال. إلا أن الاكتساح الواسع للجيش الألمانية نحو "الفولغا" La Volga كان يوشك بحدوث كارثة "توسعية" ألمانية جديدة لبسط سيطرتها المطلقة على أجزاء هامة من القارة الأوروبية. و حتى تشرشل نفسه بدا قلقا من الوضع بسبب الانتصارات الكبيرة للبحرية الألمانية بفضل "غواصاتها" التي قد تفتح "المانش" La Manche على مصرعيها أمام الجيوش الألمانية.²

توجه تشرشل في منتصف شهر أوت 1942 إلى موسكو ليعبر عن تضامنه مع الروس و ليخبر ستالين بأن لا ينتظر فتح الجبهة الثانية في أوروبا لتي طالب بها. غير أن ستالين شدد على هذا المطلب و اعتبره "مسألة حياة أو موت" بالنسبة للروس ولأن روزفلت كان قد وعد بذلك، مما جعل تشرشل يوافق على مطلب ستالين مكان الرئيس روزفلت.³

دخل الطرفان في نقاش حاد و مثير إلى حد الاندفاع بسبب ظروف الحرب التي لم تكن سهلة على الرجلين. و عندما استرسل تشرشل في الحديث عن عملية الإنزال المرتقبة على سواحل شمال إفريقيا، ظهر ستالين مهتما بالمسألة لأنه كان يعلم بأن استيلاء الحلفاء على شمال إفريقيا مع نهاية سنة 1942، سوف يهدد المصالح الألمانية في أوروبا و يساهم في مواصلة الزحف لضرب هتلر في البطن. و دعم تشرشل هذه النظرية

¹ - Ibid., p 199.

² - كان الموقف البريطاني واضح كل الوضوح خلال هذه المرحلة، و أكثر من ذلك، فإنه اعتبر عملية "سليديهامر" انتحارية إلى أبعد حد. و بعث "تشرشل" برفقة إلى الرئيس الأمريكي "روزفلت" يصارحه بأنه لا يوجد أي جنرال و لا أميرال و لا مارشال في الجيش الجوي البريطاني يراهن على العملية المذكورة في 1942. لأن الظروف غير متوفرة لإنجاح العملية.. و تبع ذلك شرح بسبع نقاط. و أرسلت البرقية في 8 جويلية من سنة 1942. طالع بأكثر تفاصيل كل من:

- Churchill Winston., Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T4..., op.cit..., pp 25-26. Et voir aussi :

- Dahms Hellmut Gunter., op.cit...,pp 199-200.

³ - Gallo (Max), Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1942..., op.cit..., p 293-294.

عندما رسم لستالين "تمساح" Crocodile و شرح له الفكرة بأن يضرب الحلفاء في وقت واحد البطن الفارغ و الخرطوم الصلب للجيش الألماني.¹

يمثل هذا الإنزال منعرجا حاسما في الحرب، خاصة في جبهته الغربية، بالموازاة مع الانتصارات البريطانية في معركة "العلمين" El Alamein بقيادة الجنرال "مونقومي" ، مما اضطر الجيوش الألمانية بقيادة الجنرال "إروين رومل" Erwin Rommel² إلى الانسحاب و التراجع نحو الأراضي الليبية. أما الجبهة الشرقية فعرفت تصدي القوات السوفيتية في معركة "ستالينغراد" Stalingrad، بقيادة "جوزيف ستالين" Joseph Staline³، لحرف الجيوش الألمانية. و طالب هذا الأخير من بريطانيا و أمريكا أن تفتح جبهة جديدة للتخفيف عن الضغط المفروض عليه من قبل الجيوش الألمانية.⁴

لقد كان لانضمام الولايات المتحدة الأمريكية إلى الصراع الدولي، بعد الهجوم الياباني على قاعدة "بيرل هاربر" Pearl Harbour، أثاره في اتساع رقعة الحرب التي شملت المحيطين الهادئ و الأطلسي، و بذلك تحولت إلى حرب بحرية مكنت الحلفاء من إظهار مزايا تنظيمية كثيرة و قوة بحرية بفضل الولايات المتحدة الأمريكية التي وضعت قوتها الصناعية في خدمة الحرب. و قد ظهرت نوايا الحلفاء في التخطيط لعملية إنزال كبيرة في حوض المتوسط الغربي، لكن ذلك لن يتم دون خلق صعوبات مادية و بشرية.⁵

كما أنه لم يكن بمقدور الحلفاء أن يقطعوا بحر المانش بالتعداد العسكري الذي كان متوفرا في 1942، لأنه تعداد غير كاف و غير مستعد لمثل حجم هذه العمليات. فاضطروا إلى تغيير خططهم نحو تحضير عملية إنزال جديدة تكون هذه المرة فوق الأراضي الإفريقية. فاختيرت العملية التي كانت تعرف بعملية "جيمناست" و

¹ - هناك العديد من المؤرخين الذين تحدثوا عن الموضوع بنفس الطريقة التي شرحها "تشرشل" في مذكراته. أنظر كل من: Churchill Winston ..., Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T4..., op.cit., pp 74-75.

- Dahms H.G., op.cit., pp 199-200

- Gallo Max, Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1942..., op.cit., p 296-297.

- Levisse -Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit.

² - "إروين رومل" مارشال ألماني، ولد سنة 1891 في قرية "هيدنغيم" Heidenheim بمقاطعة "وورتمبرغ" Württemberg. أصبح قائد للأركان العامة لجيوش هتلر بداية من سنة 1939. اشتهر بانتصاراته على فرنسا سنة 1940 و في ليبيا و مصر. انهزم في معركة "العلمين" سنة 1942 أمام الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال "مونقومي". ثم تراجع مع قواته إلى غاية جبهة "النورمونيدي" سنة 1944. غير أن تعاطفه مع المتأمرين لليلة 20 جويلية أدى إلى توقيفه من طرف البوليس السرية لهتلر Gestapo عجل بوفاته بأمر من هتلر سنة 1944. أنظر:

- Le Petit Larousse Illustre..., op.cit., p 1652.

³ - "إيوسيف جوزيف ستالين..". Joseph Iossif Staline.. رجل دولة سوفيتي ولد في "قوري" بجورجيا Gori en Géorgie سنة 1879. اشتهر بنشاطه السياسي منذ الصغر حيث اشترك في العمل الثوري منذ سنة 1898 حيث تعرض للنفي عدة مرات. شغل منصب رئيس تحرير جريدة "البرافدا" Pravda منذ سنة 1917 و محافظ جنسيات الشعوب. معروف عنه نظراته المركزية في إدارة شؤون البلاد. و علاقاته بجميع الجمهوريات السوفيتية. أصبح أمينا عاما للحزب الشيوعي السوفيتي سنة 1922 و بعد وفاة "لينين" سنة 1924 أصبح الزعيم الأول بلا منازع للشيوعية السوفيتية حيث أقدم على إعدام كل معارضيه البارزين من أمثال: تروتسكي و كمينيف و بوخارين.. و أصبح يحكم الاتحاد السوفيتي بيد من حديد. من صناع الاتفاق السوفيتي-الجرماني مع هتلر، قد المعركة الفاصلة ضد الجيوش الألمانية من 1941 إلى 1945. و كانت وفاته سنة 1953 بمثابة الانفتاح الجزئي للمسيرين السوفيت الجدد على العالم الخارجي. أنظر:

- Le Petit Larousse Illustre..., op.cit., p 1652.

⁴ - Durand (Yves)...., op.cit, p 121.

⁵ - Miquel (Pierre), La seconde guerre mondiale..., op.cit., pp 483-485.

في 24 جويلية 1942¹ تم اعتمادها على أساس "عملية تورش" أو الشعلة، و تقرر تنفيذها مع نهاية شهر أكتوبر 1942، وكانت تتمثل في إنزال قوات أمريكية و بريطانية على السواحل المغربية و الجزائرية التي كان يعتقد أنها غير محروسة بالشكل الكافي. و قبلها، كان لزاما على البريطانيين أن يهاجموا الفرق الألمانية للجنرال "رومل" في "العالمين" حتى يتمكنوا من السيطرة على مواقع في جنوب البحر المتوسط.²

هذه التطورات كانت تحض باهتمام الجزائريين الذين كانوا يتابعون الأخبار عن كثب، ما دام أنه سيكون لبلادهم دورا سياسيا و استراتيجيا كبيرا في إعادة بعث فرنسا من جديد، و ذلك بتحريرها من الاحتلال الألماني، و إعادة الهيبة للدولة الفرنسية في الظروف الصعبة التي كانت تمر بها. و قبل الشروع في تفاصيل عملية الإنزال، لا بد من معرفة الحالة العامة التي كانت عليها حكومة فيشي و الكولون، من جهة، و الألمان، من جهة أخرى، و الوطنيين، من جهة ثالثة، من جراء الأعمال الدعائية التي استمرت من بداية الحرب إلى غاية مرحلة متقدمة منها.

وصل "مورفي" الجزائر في ديسمبر 1940، حيث كان قد شغل منصب موظف سامي سابق في السفارة الأمريكية لدى حكومة "فيشي"، و كان يعيش في فرنسا منذ سنوات 1930. فانحصرت مهمته الأولية في جمع المعلومات السياسية و العسكرية حول الأوضاع في شمال إفريقيا ثم يبعث بها إلى السلطات الأمريكية في "واشنطن". و كان "مورفي" وراء الاتفاق الشهير بينه و بين الجنرال "ويقان" الذي تم في 1941.³ و مع بداية من شهر ديسمبر 1941، اجتمع الرئيس الأمريكي "روزفلت" و الوزير الأول البريطاني "تشرشل" لدراسة الأوضاع المزرية للحرب و قررا الدفع بجيوشهما في المعركة من خلال عملية عسكرية كبيرة تم التحضير لها، و التي أطلق عليها اسم "عملية الشعلة".⁴

¹ - أخطت عملية الإنزال بسرية تامة. و قد بدأت باللقاء الثلاثي الذي انعقد في لندن في 23 جويلية 1942 بين قيادات الحلفاء و الحكومة الفرنسية في المنفى، أين تم اختيار اسم "تورش" للعملية المرتقبة في شمال إفريقيا، و التي جاءت تنفيذا للاتفاق السري الذي تم في مدينة شرشال الساحلية في الفترة الممتدة ما بين 20 و 24 أكتوبر 1942. و كان قد حضر اللقاء كل من "روبير مورفي" القنصل الأمريكي في الجزائر و الجنرال "كلارك" عن الجانب الأمريكي. و الجنرال "ماست" عن الجانب الفرنسي. أما بريطانيا فمثلها مجموعة من ضباط الصاعقة. و قد اعتبر "ديغول" هذا التنسيق الكبير الذي تم بينه و بين الحلفاء من الخدمات الكبيرة التي قدمت للقوات الأمريكية و التي سمحت بإنجاح الإنزال في الجزائر. الأمر الذي فتح الباب أمام الحلفاء لتحقيق انتصارات أخرى في الشمال الإفريقي. لمزيد من المعلومات طالع كل من:

- Lacouture Jean, Charles de Gaulle le rebelle..., op.cit..., p 597.
- Nouschi André, Naissance du nationalisme..., op.cit..., p 131.
- De Gaulle Charles, Mémoires de guerre..T3..., Le Salut 1944-1946, Plon éditions, Paris, 1959, p 494.
- Duroselle Jean Baptiste, Histoire des relations..., op.cit..., p 384.
² - Dahms (Hellmut.Gunter), La deuxième guerre mondiale..., op.cit..., p 200.

³ - كان مورفي من بين الذين دعموا مشروعا اقتصاديا يقضي بتمويل إفريقيا الشمالية بمساعدات أمريكية في فترة كانت قد دخلت فيها أمريكا الحرب. أنظر إلى:

- Rey -Goldzeiguer Annie, Aux origines de la guerre..., op.cit..., p 113.

⁴ - ذكرت بعض المصادر أن هذه العملية قد تم دراستها في البداية تحت اسم "جيمناس" Gymnast. أنظر:

- Dahms Hellmut.Gunter, La deuxième guerre mondiale..., op.cit..., pp 198-208

غير أنهما لم يشركا ديغول¹ و حكومة فرنسا الحرة في التحضيرات التي سبقت العملية، الأمر الذي اعتبره الجنرال "كاترو" Catroux خطأ فادحا من الأمريكيين.²

2- الحلفاء يكثفون من نشاطهم تحسبا للإنزال

كانت الرغبة كبيرة عند الحلفاء لدفع شعوب إفريقيا الشمالية تنتفض ضد دول المحور منذ أن التقى كل من "روزفلت" و "تشرشل" في واشنطن يوم 22 ديسمبر من سنة 1941. خاصة بعدما قام اليابان بإعلان الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية و بريطانيا و رفضه لتسوية "شنغهاي".³ فدار بينهما الحديث حول إمكانية تحقيق عملية إنزال في شمال إفريقيا، بقيادة أمريكية محضة و بالتالي فتح جبهة ثانية في شمال إفريقيا، فتم الإعلان عنها من قبل الرئيس الأمريكي "فراكلين روزفلت" في السابع من نوفمبر من سنة 1942.⁴ و كان عليهما تحديد من هي السلطة الفرنسية الفعلية التي لها القدرة على توحيد القوات الفرنسية لشمال إفريقيا و قيادتهم ضد الألمان.

و بالرجوع إلى إقامة تشرشل في الولايات المتحدة الأمريكية مع نهاية سنة 1941، فإن عودته من واشنطن في 17 جانفي 1942 بعد خمسة أسابيع من الغياب، أسفرت على اتخاذه بمعية الرئيس الأمريكي روزفلت عدة قرارات هامة خلال اللقاء الذي جمع بينهما فيما عرف بلقاء "أركاديا" Arcadia. و كان أهم قرار اتخذ فيه هو اعتبار القارة الأوروبية كمسرح أساسي للعمليات الحربية، بالرغم من تقدم الجيوش اليابانية في الشرق الأقصى. لأن تشرشل و مجموعة من المستشارين قد بنوا هذا الطرح على اعتبارات إستراتيجية، و حاولوا إبلاغ روزفلت بأن ألمانيا بفضل إمكانياتها الإنتاجية و قدراتها العلمية، و لأن لديها يد عاملة مؤهلة، تمثل خصما أخطر من اليابان. و إذا تركت حرية التصرف لهتلر فسوف يستولي على كل موارد القارة و حينها سيصبح قوة لا تقهر.⁵

في نظر الإنجليز لم يكن هناك مجال للشك في أن الضربة التي سوف تقضي على الألمان هي التي ستأتي من الهجوم على شمال إفريقيا. لذلك ركزوا كل جهودهم مع روزفلت لإقناعه بضرورة القيام بالعملية. لأن هذا الأخير كان لا يزال مقتنعا بفحوى القيام بعملية "سليدغهامر"، غير أنه بدأ يلين إلى فكرة تشرشل للضرب في شمال إفريقيا. و كان عليه إقناع جنرالات قيادة أركانه بأن ذلك هو الصواب بعينه. كما أنه كان

¹ - لم يتم الفحص للجنرال "ديغول" عن مخطط الإنزال بسبب ما عرف بمحادثة جزر "سان بيار و مكيلون Saint pierre et Miquelon التي أمر الجنرال باحتلالها بالرغم من أنها بقيت موالية للمارشال "بيتان. الأمر الذي أثار حفيظة الأمريكيين خاصة مستشار الدولة "كوردل هيل" Cordell Hull. أنظر إلى:

- Dahms Hellmut. Gunter, La deuxième guerre mondiale..., op.cit., p 201.

² - Catroux (Georges), Dans la bataille de la Méditerranée, l'Egypte, Levant, Afrique du Nord 1940-1944, éditions Julliard, Paris, 1949, pp 299-301. (446 p).

³ - New-York Times, December 8, 1941, p 8.

- New-York Times, December 9, 1941, p 14 and p 28.

⁴ - Washington, November 7, 1942, White House news release, President Franklin D. Roosevelt announcing the opening of a second front in French North and west Africa, In HTLM Document.

⁵ - Dahms (Hellmut Günter), La seconde guerre mondiale..., op.cit., p 198.

متخوفا، أيضا، من ردة فعل الجيوش الألمانية و حلفاءها، و من موقف القوات الاستعمارية الفرنسية التي أثبتت ولاءها للمارشال بيتان.¹

أصبحت رائحة الموت منتشرة في ربوع القارات. فمن جليد المحيط المتجمد الشمالي إلى حرارة بترول المحيط الهادئ و المحيط الهندي، ظلت الغواصات الألمانية تغرق السفن المحملة بالمواد الغذائية التي كانت تنطلق من موانئ بريطانيا نحو موانئ الإتحاد السوفييتي. في حين أن الجيوش اليابانية كانت تغرق البارجات البريطانية مما سهل على الجيوش البرية دخول المدن الفيليبينية و الإندونيسية و تهديد ما تبقى من مناطق مجاورة التي ظلت تعيش على وقع وفيات الآلاف من المدنيين الذين كان يتم حرقهم في القرى من أجل تخويف البقية.²

لقد كان على الحلفاء تفادي الأخطاء التي ارتكبت في سوريا و مدغشقر و التي راح ضحيتها عدد كبير من المدنيين. لذلك أريد لعملية الشعلة أن لا تتحول إلى عمليات عسكرية دامية. فقرر "روزفلت" إبعاد الجنرال "ديغول" عن العملية بسبب الكراهية التي أبداهها الفرنسيون و الجزائريون للإنجليز بعد الهجوم على قاعدة مرسى الكبير. و كان ينوي حتى أن يلبس الجنود البريطانيون البزة الأمريكية لأنه كان يريد أن يتم تخليص سكان بلاد المغرب من طرف الجنود الأمريكيين.³

فوقع الاختيار في البداية على الجنرال "ويغان" الذي رفض بحكم ولاءه للمارشال "بيتان".⁴ ثم أصبح الجنرال "ديغول" الأقرب إلى الحلفاء، غير أنه بسبب حادثة جزر "سان بيار و ميكلون" Saint-Pierre Et Miquelon لم يتم الفحص له عن مخطط الإنزال الذي تم تحضيره بأمر من "روزفلت" في 2 جويلية 1942 و تمت المصادقة عليه نهائيا في 5 سبتمبر. أما الخيار الثالث فتمتله الجنرال "جيرو" Giraud بإيعاز من الأمريكيين، الذين وجدوا فيه الرجل البطولي بعدما تمكن من الهروب من معتقل "كونيغستين" Koenigstein بألمانيا. غير أن "جيرو" لم يصل إلى الجزائر إلا في اليوم الموالي لعملية الإنزال.⁵

و لم ينته الصراع على السلطة في شمال إفريقيا إلا بعد اغتيال الأميرال "دارلان" في 24 ديسمبر 1942 على يد شاب "ديغولي"، الأمر الذي حصر المنافسة على منصب القيادة بين العسكريين "ديغول" و "جيرو" انتهى بالحلفاء إلى الاجتماع في "الدار البيضاء" بالمغرب، و بعد مناقشات ماراطونية، تعدت تاريخ لقاء "الدار البيضاء"، اتفق الجميع على إنشاء "اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني" C.F.L.N.⁶

3- العمليات العسكرية و نزول قوات الحلفاء

¹- Churchill (Winston), Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T4., op.cit., pp 34-35.

²- Gallo (Max), Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1942., op.cit., p22.

³- Churchill (Winston), Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T4., op.cit., p 201.

⁴- Duroselle (Jean Baptiste), Histoire des relations., op.cit., p 382.

⁵- The New-York Times, November 9, 1942 "General Henri Honoré Giraud Appeal to French forces in North Africa" (Heard over Algiers radio; point of origin unknown). Et voir aussi: Dahms H.G., La seconde guerre mondiale., op.cit., p 201.

⁶- Duroselle (Jean Baptiste), Histoire des relations.. op.cit., p 387.

اعتبر المخطط النهائي لعملية الإنزال بمثابة الهدف الطموح الذي سيمكن من نقل قوات الجنرال "دافيد دوايت إيزنهاور"¹ Dwight.D.Eisenhower و المقدرة بـ 65000 جندي أمريكي، عبر موانئ الولايات المتحدة الأمريكية و موانئ إنجلترا و من ثم مهاجمة الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا في كل من الدار البيضاء و الجزائر و وهران.² حيث تحقق هذا التحرك الهائل للحلفاء في شمال إفريقيا بفعل عوامل عديدة مهدت "لعملية الشعلة"، مستغلين انشغال زعماء المحور بجبهات سياسية و عسكرية، نذكر منها:

- انشغال الألمان بالجبهة الشرقية في حربهم ضد السوفييات و تركيز جل اهتمامهم على معركة "ستالينغراد" بعدما وصلوا إلى منطقة "القوقاز" و "الفولغا".
- اشتداد المعارك في مصر بفعل الهجوم الذي قاده القوات البريطانية بقيادة الجنرال "برنار مونقومري"³ Bernard Montgomery على الجيوش الألمانية بقيادة "رومل". فكانت معركة "العالمين" الشهيرة، بكل مميزاتها، حاملة لانتصار باهر للحلفاء.
- و أخيرا تراجع الجيوش الألمانية نحو ليبيا بعد هزيمتها في مصر.

لم تتمكن المخابرات الألمانية و الإيطالية من تحديد طبيعة التحركات المكثفة، مع مطلع شهر نوفمبر 1942 عبر مضيق "جبل طارق، Gibraltar لبواخر تجارية تابعة للدول المتحالفة. فاعتبر الألمان ذلك مجرد تحرك عادي لقوافل بحرية جديدة للتموين العام من أجل تقديم الدعم لجبهة "مالطا". أما الإيطاليون فلم يكونوا واثقين من أن العملية روتينية ". ولم يتفطن الطرف الألماني على ما يحدث بدليل أن الجنرال "رومل" اطلع على عملية الشعلة و هو في سيارة عسكرية مجهزة بجهاز راديو. و علم بنزول قوات عسكرية أنجلو-أمريكية متعددة المهام على سواحل الجزائر و المغرب.⁴

¹ - هو "دوايت دافيد إيزنهاور" David Dwight Eisenhower ، ولد في "دينسون بولاية الكساس" Denison (Texas) سنة 1890. يعتبر مهندس و قائد عمليات الإنزال الأمريكية على شمال إفريقيا في نوفمبر 1942، و إيطاليا سنة 1943 ثم نورمنديا بفرنسا سنة 1944. و كان قائدا للقوات التي هزمت الجيش الألماني سنة 1945. عين على رأس قوات الحلف الأطلسي في أوروبا سنة 1950. بعدها انتخب رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية عن الحزب الجمهوري سنة 1953 إلى غاية سنة 1960. وضع حدا لحرب كوريا سنة 1953 و استقبل الرئيس السوفياتي الجديد "خروتشيف" الذي بدأ معه في وضع آليات التطبيع. توفي سنة 1969. أنظر:

- Le Petit Larousse Illustre..., op.cit..., p 1298.

² - أنظر خريطة تنقل القوات المتحالفة نحو شواطئ شمال إفريقيا في الملحق رقم 6.

³ - ولد "برنار لاو فيكونت" الملقب بـ "مونقومري العلمي" Montgomery Bernard Law, vicomte في لندن سنة 1887. مارشال بريطاني استطاع أن يهزم "رومل" في معركة العلمين سنة 1942. بعدها أسندت له مهمة قيادة مجموعة جيوش في بلجيكا و شارك في الحملة على "نورمنديا" و منها توجه إلى الأراضي الألمانية فيما تبقى من جيوشها بين 1944 و 1945. شغل منصب مساعد قائد أعلى لقوات الأطلسي في أوروبا بين 1951 إلى 1958، إلى جانب الجنرال "إيزنهاور". توفي سنة 1976. أنظر:

- Le Petit Larousse Illustre..., op.cit..., p 1534.

⁴ - Dahms (Hellmut Günter.), La seconde guerre mondiale..., op.cit..., p 204.

جاء تصريح وزير خارجية إيطاليا "قاليازو شيانو"¹ Galeazzo Ciano، ليعبر عن الدهشة و الحيرة التي انتابت دول المحور جراء هذا التحرك الكثيف، حيث قال: "في حدود الساعة 5 و 30 من صباح الثامن نوفمبر 1942، تلقى وزير الخارجية الألماني "جواكيم ألريش" Ulrich Joachim مكالمة من "فون ريبنتروب" Von Ribbentrop يخبره فيها عن نزول قوات أمريكية في كل من الجزائر و الموانئ المغربية، و كان قلقا جدا إزاء الوضع، فسألني عن ماهية الإجراءات التي سوف تتخذ بهذا الشأن. فأجابه الوزير بأنه غير قادر على إعطائه إجابة مقنعة."

بدأت "عملية الشعلة"² على مستوى غرف العمليات للقوات المتحالفة، بالتركيز على الضباط الفرنسيين المنشقين، الذين أبدوا تأييدا لعملية الإنزال، و كانت آمال الحلفاء معلقة عليهم كي يحكموا قبضتهم على الحكم. غير أن هذه التوقعات لم تكن في محلها.³ لأن الألمان لم يكن لديهم ثقة كبيرة في حكومة فيشي منذ البداية، الأمر الذي دفعهم إلى منعها من تطوير قواتها العسكرية في شمال إفريقيا. فاحتفظت قوات فيشي بعناد حربي قديم لا يصلح لمواجهة القوة العسكرية للحلفاء.

تمت عمليات الإنزال في وقت متقارب على سواحل المغرب و الجزائر. فنزلت ثلاثة فرق أمريكية كاملة على مدينة "الدار البيضاء" بقيادة الجنرال "جورج.س. باتون" Patton و كانت قادمة مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية، بالموازاة مع محاولات نزول قوات الجنرال "لويد.ر. فريدنغال" Fredenhall المتكونة من فرقة و نصف على سواحل "وهران"، بينما حطت قوات إنجليزية-أمريكية، بقيادة الجنرال البريطاني "أندرسن" على سواحل مدينة الجزائر.⁴

عند بداية عمليات الإنزال الأولى، كانت النسبة الكبيرة من القوات المتحالفة متشكلة من الجنود الأمريكيين، و كان الأمل كبير في أن لا تلاقي هذه القوات مقاومة من جيوش فرنسا المربطة في إفريقيا. غير

¹ - "قاليازو شيانو" كونت كورتيلازو "Galeazzo Ciano comte de Cortellazzo"، ولد في مدينة "ليفورن" سنة 1903، تقلد منصب وزير للخارجية الإيطالية سنة 1936 ثم سفيرا لدى "الفاتيكان" سنة 1943. كان من أنصار توقيف الحرب و لم تشفع له علاقة القرابة التي كانت له مع للزعيم "موسوليني" من أن يعدم في مدينة "فيرونا" بأمر من قيادة الحزب الفاشي. و كان ذلك في سنة 1944. أنظر:

- Le Petit Larousse Illustre..., op.cit..., p 1236.

² - انطلقت ثلاثة فرق مباشرة من التراب الأمريكي بقيادة الجنرال "جورج.س. باتون" George.S.Patton و حلت بسواحل الدار البيضاء. و في نفس الوقت حاولت فرقة الجنرال الأمريكي "لويد.ر. فريدنغال" Lloyd.R.Fredenhall الاستيلاء على وهران، بينما حط الجنرال البريطاني "كينيث أندرسن" Kenneth Anderson بالقرب من الجزائر على رأس قوات مختلطة إنجليزية و أمريكية. و كان "إنزهاور" القائد الأعلى لهذه القوات في جبل طارق. أما الأميرال "السير أندرو.ب. كوينغان" Sir Andrew.B, Cunningham فكان يشرف على عملية النقل الحربي حيث قاد قرابة 110 عملية نقل و 200 بارجة حربية. كما وضعت عبر كل نقاط الإنزال قوة بحرية ترافق السير الحسن للعملية. بالإضافة إلى عملية التمويه التي قام بها أسطول الحلفاء المتكون من ناقلات الطائرات و البوارج الحربية نحو منطقة "صقلية" لتحويل الأنظار، ثم عودته نحو السواحل الجزائرية ليؤمن الغطاء لعملية الشعلة. أنظر إلى:

- Dahms Hellmut Gunter..., op.cit..., p 204.

³ - صمدت قوات فيشي العسكرية، مرة أخرى، في وجه القوات المتحالفة كما كان الحال من قبل في دكار سنة 1940، و في سوريا سنة 1941. و في المقابل لم تحرك هذه القوات ساكنا عندما تعلق الأمر بدخول القوات الألمانية باريس في 11 نوفمبر 1942 و تونس في 13 نوفمبر 1942.

⁴ - Dahms (Hellmut Gunter)..., op.cit..., p 204.

أن حقيقة الميدان أثبتت العكس عندما واجهت القوات الأمريكية مقاومة شرسة وفق معطيات مختلفة في كل من سواحل الغرب الجزائري و المغرب الأقصى.¹

كانت المفاجئة كبيرة و شاملة في الثامن من نوفمبر 1942. حيث أصبحت الجزائر في يد الأمريكيين بعد حصول اتفاق على هدنة محدودة في الجزائر. أما وهران و المغرب، فقد تواصلت مقاومة عملية الإنزال فيهما. كما شهدت مدينة الدار البيضاء معارك جوية و بحرية دموية أسفرت عن سقوط عدد معتبر من الضحايا بسبب الانسحاق إلى أوامر حكومة "فيشي". و تدعم هذا الموقف عندما أصبحت الأمور بيد الأميرال "دارلان" بإيعاز من المارشال "بيتان". و لم يتم توقيف المعارك إلا في العاشر من نوفمبر بعد مفاوضات عسيرة بين الأطراف الفرنسية و الأمريكية.²

ثالثا: سير هادئ للإنزال في عمالة الجزائر

مثلت أحداث الجزائر العاصمة للثامن نوفمبر 1942 إحدى المواقف التي تحسب للمقاومة الفرنسية، خاصة مع مراعاة الظروف التي تمت فيها العملية و بنتائجها التي ساهمت في إنجاح عملية "تورش" و الإنزال لقوات الحلفاء. و هنا نتساءل، ماذا لو لم تنجح المقاومة في التغلب على قوات فيشي العسكرية في عمالة الجزائر؟ لأنه من الصعب الإجابة على هذا السؤال لاعتبارات عديدة منها، الزمن، و الحالة النفسية للقوات الفرنسية، و حتى دور اليهود في المعادلة؟ و لكن يفترض أن تكون حظوظ نجاح عملية إنزال الحلفاء في شمال إفريقيا كبيرة، لأن الجيوش الألمانية عوض أن تتدخل في تونس كان بإمكانها التوجه إلى المغرب لمساعدة جيوش حكومة "فيشي" و بالتالي احتلال كل الشمال الإفريقي، غير أنها لم تفعل.

أما بالنسبة لجيش إفريقيا الموالي للجنرال "ديغول"، فكان أمامه متسع من الوقت لينقلب في صفوف دول المحور. و ذلك حسب ما تقتضيه المصلحة الآنية للحرب.

مع مطلع سنة 1941، وصل إلى الجزائر أول فريق سري متكون من نقيب قائد الأركان "بوفر" و الرائد "فاي" و المقدم "جوس" و ربطوا أولى اتصالاتهم مع القنصل الأمريكي "مورفي". و طلبوا منه تأمين المساعدة الأمريكية للشروع في عملية تسليح قد تمكن الفرنسيين من الوقوف ضد أي محاولة من دول المحور قد تؤدي إلى خرق اتفاقية الهدنة. غير أن هذه المهمة الأولى للمنشقين، باءت بالفشل حيث تم توقيف "بوفر" ثم أطلق سراحه بعدما بث "فيروس المتآمر" للمفتش "أشياري" الذي كان مكلفا باستجوابه.³

¹ - حتى و إن كانت جل القوات المتحالفة مشكلة من الأمريكيين إلا أن ذلك لم يمنع من تواجد قوات بريطانية كبيرة كانت ترتدي الزي العسكري الأمريكي حتى لا يظهر بأنها قوات إنجليزية. لأن من شأن ذلك أن يؤجج الحساسيات و يوقظ مشاعر الكراهية عند سكان شمال إفريقيا خاصة بعد القصف البريطاني على سواحل بلاد المغرب مع بداية الحرب سنة 1940. أنظر :

- Dahms Hellmut.Gunter., La seconde guerre..., op.cit., p 201.

² - Pujo (Bernard), Juin maréchal, op.cit..., p 117.

³ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., pp 218-219.

أما المهمة- المؤامرة الثانية فكانت من نوع آخر و أكبر بكثير من المهمة الأولى، حيث سيكون لها تأثير بالغ في تحضير عملية الإنزال التي سوف تقوم بها القوات الأمريكية لاحقا.

1- المقاومة الفرنسية تحضر لعملية الإنزال على الجزائر

قبل الثامن من نوفمبر 1942، كانت الجزائر، عاصمة إفريقيا لحكومة "فيشي". حيث ساد نظام استبدادي، تعسفي و انهزامي كامل أرجاء الإمبراطورية الفرنسية. زيادة على ذلك، قامت حكومة فيشي بتموين القوات الإيطالية- الألمانية المربطة في ليبيا. أما المقاومة الفرنسية فقد اتسمت بطابعها السري و المجهري. و لما بدأت تلوح بوادر العملية البحرية الكبرى لقوات الحلفاء على شمال إفريقيا، ظهرت مجموعة من الفرنسيين ساهمت بطريقتها في إنجاح العملية التي قادت إلى نزول قوات متحالفة على الجزائر.

أ- المتآمرون الخمسة خيار استراتيجي لإنجاح الإنزال

في الانطلاقة كانت المهمة عبارة عن عملية مخاطرة قام بها مجموعة من الفرنسيين لم يكن لهم أي تفويض رسمي من السلطات الفرنسية و لا أي ارتباطات مع "بيتان" أو "ديغول"، بل كان يحذوهم حلم طرد الألمان خارج فرنسا. فقاموا بمفاوضة الحكومة الأمريكية للتحالف معها على أساس المصالح المشتركة.

كان أول المتآمرين رجل الأعمال "لومقر-ديبروي" Lemaigre-Dubreuil ذو النفوذ الكبير و الذي كان دائما يتمتع بالرغبة الكبيرة في تمويل أكبر المشاريع السياسية الخارجة عن النطاق الرسمي و نطاق الأحزاب.¹ أما المتآمر الثاني، فكان "جون ريقولت" Jean Rigault رجل مستقيم و هادئ استطاع أن يؤثر في عمل "لومقر-ديبروي"، و كان يفضل أن يؤدي دور "الموجه الخفي" Eminences Grises أو "رجال الظل" على أن يؤدي الأدوار الأولى حيث كان دائما رافضا لأي مسؤولية رسمية.

في يوم 25 من نوفمبر لسنة 1941، التقى "لومقر-ديبروي" مع المفتش "أشياري" الذي أدخله على أحد الناجين من المؤامرة الأولى، و هو المقدم "جوس" حيث أطلعه هذا الأخير على أنه بالرغم من تدمره و تأسفه على الأوضاع الحالية، إلا أنه مستعد لإعادة بعث مشروع التسليح الذي درسه و قدمه من قبل "بوفر". و عندما التحق "ريقولت" بالجزائر في 20 ديسمبر اعتبر أنه "سيعاد النظر في كل شيء و كل شيء ممكن..". و بعث ببرقية للجنرال الأمريكي "مورفي" واضحة المعالم حيث جاء فيها: "إننا لا نملك شيئا، و لا تمثل أحدا. سوف نعمل على تجميع قواتنا و سوف نعمل جاهدين. إلى حد هنا لن نطلب شيئا، سوى تعهد منكم بأن تساعدوننا عندما يكون كل شيء جاهز.."²

¹ - كان "لومقر-ديبروي" يشغل قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية منصب "منشط لرابطة المساهمين" حيث حاول مساس الفرنسيين في إحدى النقاط الحساسة ألا و هي "الحافطة المالية" غير أنه لم يتمكن من تغيير المؤسسات أو العادات. ينظر إلى:

- Aron Robert, Histoire de Vichy 1940-1944., op.cit., p 539

² - Aron (Robert), Histoire de Vichy 1940-1944., op.cit., p 540.

- فاتضح منذ هذه اللحظة البرنامج الذي سوف يسير عليه الثنائي "لوميقر" و "ريقولت" و هو:
- تحضير إفريقيا للدخول في الحرب بواسطة عملية فرنسية محضة.
 - انتظار مساعدات الحلفاء و إمداداتهم يوم المعركة الكبرى.
 - العمل مع كل من يريد إخراج ألمانيا من الأراضي الفرنسية مهما كانت أفكاره السياسية.
 - عكس الجنرال "ديغول"، لن يتخذ أي إقصاء ضد "فيشي".
 - الموقف الذي سوف يتخذ ضد الحكومة تبينه ردة فعلها ضد اعتداء ألماني محتمل أو نجاح عملية المتآمرين.
 - من جهته أبدى القنصل الأمريكي "مورفي" موافقته على المجهود المبذولة من طرف المتآمرين و لكن دون أن يلتزم لهم بأي شيء. فعكف كل من "لوميقر" و "ريقولت" على العمل لتحسيد المشروع.
 - مع حلول "أعياد الفصح" Pâques سنة 1942، تأسست اللجنة المديرية للمؤامرة، فتشكلت "مجموعة الخمسة"¹. يساعدها في مهامها المستشار العسكري "جوس" Jousse.
 - حتى يتم التحضير الجيد لعملية تحرير البلاد، قرر الأعضاء الخمسة العمل بالتدريج و خططوا لثلاثة مراحل متتالية:
 - الأولى تعتمد على الاستعلامات، حيث تتم خلالها دراسة مفصلة (دقيقة) للهيكل العسكرية و الإدارية.
 - الثانية يتم فيها تجنيد أكبر عدد ممكن من السكان الأفارقة.
 - الثالثة، و هي أكبر و أهم مرحلة على الإطلاق و تتمثل في خوض غمار الحرب عن طريق تنسيق العمليات العسكرية.

تمكن فريق الخمسة، في أقل من عشرة أشهر، من كسب تعاطف شخصيات فعالة استطاعت بفضل مساعدتها أن تعطي وزنا إضافيا للعملية. فالتحق في شهر أبريل كل من الجنرال "بشار"، Bethouard قائد فرقة "الدار البيضاء"، و العقيد "لوربار" Lorber قائد فيلق "بونه". و في شهر أوت التحق بصف المتآمرين الجنرال "ماس" Mast الذي عين بعدها قائدا على فرقة الجزائر. و بذلك يمكنه أن يقدم خدمات كبيرة لإنجاح العملية.

¹ - ضمت مجموعة الخمسة شخصيات مغمورة و لم يكن لها شعبية و لا دراية بأمر السياسة الدولية و لا بأمر الحرب و القضايا العسكرية. و كانت المتكونة من؛ لوميقر و ريقولت و الدبلوماسي "جاك طاربي دي سان هردوين" Jacques Tarbé de Saint-Hardouin، الذي كان يشغل منصب أمين مساعد في الشؤون الخارجية في مفوضية "ويقان" الذي كان يعرف جيدا الطاقم الإداري لشمال إفريقيا، ثم قائد "ورشات الشبيبة الشمال إفريقية" "فان هك" Van Heck، الذي كان يعمل على جمع المعلومات و التجنيد. و أخيرا الشخصية الخامسة التي كانت أكثر الشخصيات مثيرة للإعجاب، و هو "هنري داستي دي لافيغري" Henri d'Astier de la Vigerie، الذي كان مسيحيا كاثوليكيا مطبقا لتعاليم دينه في أوقات الصلاة، و مغامرا، بالمعنى النبيل للكلمة، في أوقات العمل الجاد و المتعلق بالحرب ضد الألمان. و كان يعتبر صاحب المهمات الحاسمة، و قد تمكن من تأسيس سرية من المقاتلين في منطقة وهران، و تمكن بها من الدخول إلى شواطئ جنوب فرنسا سنة 1944. و كانت أول فرقة رسمية من هذا النوع تتأسس في الجزائر. ينظر إلى:

- Aron Robert, Histoire de Vichy 1940-1944..., op.cit., pp 540-541.

فتمكنت بذلك كتيبة الخمسة من بسط شبكة تواطىء هامة على كافة أرجاء شمال إفريقيا و التي سوف تلقى استحسانا من طرف الأمريكيين فيما بعد.

إلا أن الإشكال الكبير الذي بقي مطروحا كان يكمن في اسم الشخصية التي سوف تقود المتآمرين؟ هل هو "ديغول"؟ يستحال ذلك في تلك الظروف لأن الجيش لا زال وفيا للمارشال "بيتان" و لم ينس حرب "سوريا". هل هي شخصية "ويقان"؟ كانت تلقى إجماعا كبيرا في الأوساط العسكرية و كان يمثل الاختيار الأمثل. و حتى الإنجليز كانوا مستعدين للتعامل معه. ألم يشجعه "تشرشل" على رفع لواء التمرد منذ ديسمبر 1940؟ غير أن الجنرال "ويقان" بقي غير مقتنع بالحجج المقدمة من طرف الأمريكيين و المتآمرين.¹

ب- اختيار الجنرال "جيرو" لقيادة المتآمرين

أما الخيار الثالث فوقع على الجنرال "هنري جيرو"² Henri Giraud منذ ماي 1942، و الذي لم يخفي رغبته الكبيرة في طرد الألمان من بلاده. غير أن خطة "الخمس" لم تناسبه ما دام أنها ستجعله يترك المتربول. بالإضافة إلى أنه كان ضد فكرة تدخل الأمريكيين في شمال إفريقيا، ما دام أن الألمان لم يستقروا بها. كما اعتبر أن دور الأمريكيين هو دعم و مساعدة الجيش الفرنسي على إعادة تسليحه. و اعتبر أن خلاص فرنسا لا بد يبدأ من فرنسا (المتربول) و بقواتها الخاصة. أما الدعم الخارجي المنتظر، فكان يمكن أن يقوم به، على أقصى تقدير، فيلق إنزال "أنجلو-أمريكي".³

لقد شجع ظهور "جيرو" على مسرح الأحداث في هذه الفترة الحساسة أنصار "ديغول" بالاتصال به رغبة منهم في إنشاء تعاون بينهما ، كخطوة أولى، ثم ضمه إلى صفوف المقاومة فيما بعد. خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التطورات التي حدثت في الجزائر مع نهاية سنة 1942.⁴

إن التحاق جيرو بالمقاومة و قبوله فكرة قيادة الجيوش الفرنسية الحرة، شجع الأمريكيين على التفاوض مع مجموعة "الخمس" بداية من شهر جوان 1942. فأرسل "روزفلت" مبعوثه الخاص، العقيد "سولبارغ" إلى

¹ - حاول كل من "لومقر-ديبروي" ثم بعده المكلف بالسفارة الأمريكية "ماك آرثر"، الذي سلمه رسالة شخصية من الرئيس الأمريكي "روزفلت"، أن يجلبا "ويقان" إلى التعاون مع الحلفاء من أجل تحرير فرنسا. غير أن "ويقان" رفض بشدة قاطعا في ذلك حيث اعتبر نفسه متقدما في السن و غير مستعد ليصبح متمردا. لمزيد من المعلومات ينظر :

- Aron Robert, Histoire de Vichy 1940-1944..., op.cit..., pp 542.

² - ولد "هنري جيرو" في باريس سنة 1879، و أصبح قائدا للجيش السابع الفرنسي سنة 1940. تمكن من الهروب من السجن بعد ما أسر من طرف الألمان سنة 1942. و بعد نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا، أصبح يتقاسم رئاسة لجنة فرنسا للتحرير الوطني CFLN مع الجنرال "ديغول". غير أنه فسح المجال لهذا الأخير سنة 1943 لينتزل عن الساحة السياسية. توفي سنة 1949.

³ - Aron (Robert), Histoire de Vichy 1940-1944..., op.cit..., pp 542.

⁴ - بديدة (لزهر)، الحركة الديغولية في الجزائر 1940-1945، من الظهور إلى المواجهة مع الحركة الوطنية، رسالة دكتوراه...، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر.. 2010، ص 156.

الجزائر ليؤكد للمتمردين أن الولايات المتحدة الأمريكية على استعداد للتحرك و تعترف بالمجموعة على أنها الوحيدة المخولة للتفاوض معها حول كل المسائل المرتبطة بعملية تدخل أمريكي في شمال إفريقيا.¹

لكن الواقع كان مغايرا تماما حيث أثبتت عدة أحداث أن الأمريكيين، رغم موقفهم المتشدد ضد الألمان و بعض الزعماء الفرنسيين، و رغم ميولهم للجماعة المتمردة، إلا أنهم كانوا متخوفين من تسرب معلومات حساسة لذلك لم يمنحوا كل الثقة لهذه الجماعة و اكتفوا بفترة جس النبض.²

اتفق كل من روزفلت و تشرشل في جويلية من سنة 1942 على القيام بعملية إنزال في شمال إفريقيا تحت تسمية عملية "تورش"، غير أن المعلومة لم تتسرب للطرف الفرنسي إلا بعد مضي ثلاثة أشهر.³ من جهة أخرى، قبل روزفلت بأن تكون العملية مشتركة بين القوات الأمريكية و البريطانية رغم منحه ضمانات للمتمردين الفرنسيين في الجزائر بأن تقتصر على القوات الأمريكية فقط.

قرار آخر لم يعجب الفرنسيين ذلك المتعلق بتعيين الجنرال الأمريكي "إيزنهاور" Eisenhower، قائدا عاما للقوات المقاتلة في شمال إفريقيا، بعدما كان "جيرو" قد طلب بالمنصب و جعله أحد شروطه الأساسية للالتحاق بصنف المتمردين. غير أنه لم يكن يدرك قوة الجيوش الأمريكية و البريطانية المتواجدة حينها، و كان لزاما أن يكون معه لقاء لتوضيح الوضع. فتمكن "إيزنهاور" من إقناعه، و في النهاية أسندت له مهمة قيادة القوات الفرنسية التي وضعت تحت القيادة العامة الأمريكية بقيادة "إيزنهاور".⁴

تواصل الموقف الأمريكي تجاه مجموعة الخمسة إلى غاية شهر سبتمبر مليئا بالتخوف حيث لم يطلع الفرنسيون على عملية "تورش" التي بقيت مجهولة الهوية لديهم. و لم تصل الأسلحة التي وعد بها الأمريكيون إلى المجموعات الحرة التي أسسها "أستي دي لافيغري" Astier de la Vigerie.⁵

في 22 سبتمبر من سنة 1942، اطلع "مورفي" Murphy على التعليمات النهائية و السرية التي يجب عليه انتهاجها مع مجموعة الخمسة، الأمر الذي دفع الفرنسيين إلى توخي الحذر تجاه شريك لا يثق فيهم كثيرا. و أكثر من ذلك فإن تعليمات الرئيس الأمريكي لمورفي كانت واضحة، حيث كان عليه أن يضع جماعة الخمسة أمام أمر الواقع. بحيث يخبرهم بأن العملية مسؤولية أمريكية محضة، و لن تضمن للفرنسيين سوى سيادتهم و إدارتهم المدنية. و سوف يتم القضاء على أي دعم عسكري خارجي. و في المقابل سوف تقبل بكل دعم من المقاومة الفرنسية. و ستقدم الولايات المتحدة الأمريكية الدعم المالي الضروري لإنجاح العملية. كما أكدت

¹ - Aron (Robert), Histoire de Vichy..., op.cit., pp 542.

² - جاء في مذكرات "إيزنهاور" سرد حي للقلق الذي انتاب السلطات الأمريكية ليلة الإنزال و الأيام التي تلت العملية. و أن الضغط كان كبيرا و لكن أهمية العملية بالنسبة لمستقبل العالم الحر جعلت كل شيء ممكنا. لأكثر معلومات أنظر:

- Dahms Hellmut.Gunter..., La seconde guerre mondiale..., op.cit., pp 207-209.

³ - Ibid.. p 543.

⁴ - Churchill (Winston), mémoires sur la deuxième guerre mondiale, le tournant du destin..., op.cit., pp 208-209. Et voir aussi : Aron Robert, Histoire de Vichy..., op.cit., p 543.

⁵ - Aron (Robert), Histoire de Vichy..., op.cit., p 543. Et voir aussi:

- Salinas Alfred, Les Américains en Algérie 1942-1945..., p 13.

التعليمات على أن الحملة ستقودها القوات الأمريكية دون مشاركة لقوات الجنرال "ديغول". و سيتم إبلاغ الفرنسيين بآماكن الإنزال 24 ساعة قبل حدوثها. و تكفل "مورفي" بالمهمة.¹

بعد عودته من "واشنطن" في شهر أكتوبر 1942، أطلع "مورفي" الطرف الفرنسي الممثل في شخص "لومقر-ديبروي" بأن عملية الإنزال قد فصل فيها و هي على الأبواب ، و حتى يؤكد على أهميتها أعطى أرقاما معظمها خاطئة. و لم يشر إلى النقاط الواردة في التعليمات و التي تختلف عن تلك التي قدمها الفرنسيون.²

ج- أبعاد اللقاء الأمريكي - الفرنسي في شرشال

تم التخطيط للقاء سري يجمع الطرف الأمريكي مع "مجموعة الخمسة"، منذ السابع عشر من أكتوبر عندما اتصل "روبير مورفي"، المندوب الشخصي للرئيس الأمريكي "روزفلت" في شمال إفريقيا و قنصلها في الجزائر، بنائب القنصل الأمريكي في وهران "ردواي كنايت" Ridgway Knight، و طلب منه الالتحاق به في الجزائر لترتيب لقاء سري بين الطرف الأمريكي و عناصر المقاومة الفرنسية أو "مجموعة الخمسة" رمز المقاومة الفرنسية في شمال إفريقيا.³

فوق الاتفاق على تاريخ 22 أكتوبر للالتقاء بإحدى السكنات الفخمة على شواطئ مدينة "شرشال" الجزائرية التي وقع الاختيار عليها، بمساعدة أحد المحامين من الجزائر، لأنها كانت بعيدة عن الأنظار و تطل مباشرة على الشاطئ. فكان ذلك المكان المفضل الهادئ.⁴

تم هذا اللقاء بحضور قادة عسكريين أمريكيين وصلوا على متن غواصة بريطانية، و عسكريين فرنسيين كلهم مقتنعين بضرورة العملية. فحضر من الجانب الأمريكي كل من: الجنرال "كلارك وليام مارك" Mark Clark مبعوث الرئيس "إيزنهاور" و رئيس البعثة، و الجنرال "لمنتزر" و العقيد "هولمس" و قائد الغواصة "رايت" و ضابطين من البحرية و السلاح الجوي. و كان معهم مدني هو "مورفي".⁵

أما من الجانب الفرنسي فقد حضر كل من الجنرال "شارل ماست" رئيس الوفد، و العقيد "جوس"، و القائد الطيار "دارتوي"، و نقيب في البحرية الفرنسية "بارجو" و أحد المدنيين "ريقولت". و قد تم اللقاء في ظروف شبه دراماتيكية تخللتها عدة إنذارات بالغارات.⁶

يطرح هذا اللقاء عدة تساؤلات حول الموقف الأمريكي تجاه "جماعة الخمسة". حيث أنه بالرغم من التعاطف الذي أبداه "مورفي" تجاه المجموعة، إلا أن الطرف الأمريكي لم يحترم قواعد اللعبة. و قد تكون هناك عدة مبررات معقولة جعلت الأمريكيين يتصرفون بهذه الطريقة. لأن الحق يقال، لم نطن أبدا أن الولايات

¹ - Aron (Robert), Histoire de Vichy..., op.cit., p 543.

² - Ibid., p 543.

³ - Salinas (Alfred), Les Américains en Algérie 1942-1945, casbah éditions, Alger, 2014, p 13.

⁴ - Salinas (Alfred), Les Américains en Algérie 1942-1945.. , op.cit., p 13.

⁵ - Dahms (Helmuth.Gunter)..., La seconde guerre..., op.cit., p 203.

⁶ - Ibid., p 203.

المتحدة بممثلين رسميين لحكومة قائمة قد تضع ثقة عمياء في مجموعة لا تتمتع بأي صفة رسمية، بل أكثر من ذلك، في فريق متمرد على دولته و حكومته و معرض للخطر في أي وقت من الأوقات.

كما أن الفرنسيين وجدوا أنفسهم مجرورين بالخطأ حول حقيقة القوات التي سوف تدخل بها الولايات المتحدة الأمريكية عملية الإنزال.¹ أما حول تاريخ بداية العملية فلم تتسرب أي معلومات دقيقة، بل اكتفى الأمريكيون بتقديم تواريخ مبهمة مثل 20 أو 25 من شهر نوفمبر. و الحقيقة أنه مباشرة بعد نهاية لقاء شرشال، أي في 24 أكتوبر من سنة 1942، غادرت السفن الحربية الأمريكية أراضيها متجهة إلى سواحل شمال إفريقيا التي سوف تصلها في ليلة الثامن نوفمبر، في أكبر حملة أمريكية خارج أراضيها على الإطلاق.²

اطلعت مجموعة الخمسة على تاريخ الإنزال، المقرر في الليلة من السابع إلى الثامن نوفمبر، عشرة أيام بعد انعقاد لقاء شرشال مما جعلهم يمتعضون من هذا التصرف الأمريكي و من عدم ثقتهم فيهم. و اعتبروا أن الوقت الممنوح لهم لتجهيز عملية إضعاف القوات الفرنسية الرسمية و الإدارة غير كافية.³

واصل "جيرو" سخطه، و هو الذي كان يمني نفسه بقيادة العمليات العسكرية لكل القوات في شمال إفريقيا. بالرغم من كل هذه التحفظات فقد قبل "جيرو" قيادة العملية من الجانب الفرنسي فقط، سواء اقتصر على شمال إفريقيا أم شملت المتروبول، كما كان يتمنى ذلك.

بالرجوع إلى عملية الإنزال، فرغم إلحاح الفرنسيين على إشراك موانئ "بونيه" و "تونس" في العملية، إلا أن الأمريكيين اعتبروا ذلك مغامرة خطيرة ما دام أن الألمان قد جلبوا وحداتهم المدرعة مباشرة بعد عملية الإنزال التي تمت في الثامن من نوفمبر. كما أكدوا على رفضهم منح الجنرال جيرو مسؤولية قيادة القوات الأمريكية و الفرنسية المرابطة في شمال إفريقيا.⁴

إن الإشكال الذي طرحته قضية تولي "جيرو" قيادة القوات المتحالفة في شمال إفريقيا، هو الذي حتم على جميع الأطراف الإسراع إلى إيجاد حلول مناسبة تحدم مصالح الحلفاء المشتركة، فكان لقاء "شرشال" الذي كلف فيه "مورفي" بإرسال ثلاثة رسائل إلى "جيرو" لينظر في القضايا المطروحة و يصادق عليها. و قد خصصت الرسالة الأولى لقضية تسليح القوات الفرنسية، أما الرسالة الثالثة فقد أقصت تلقائيا القوات الحرة الفرنسية من العملية. أما الرسالة الثانية ذات الطابع السياسي، فكانت أكثر أهمية بالنسبة للفرنسيين حيث تضمنت التزام الطرف الأمريكي على لسان سفيره "مورفي" حين قال: "إنني على استعداد بأن أضمن لكم أن

¹ - في الحقيقة لقد وعد الأمريكيون بحلب 500000 جندي. غير أن الحقيقة كانت مغايرة لذلك بحيث أنه في اليوم السابع من عملية الإنزال لم يكون هناك سوى 110000 جندي. ينظر:

- Aron Robert, Histoire de Vichy 1940-1944..., op.cit..., pp 544.

² - Dahms (Hellmut Gunter)..., op.cit..., p 544.

³ - Ibid..., p 543.

⁴ - Dahms (Hellmut Gunter)..., op.cit..., p 544.

الهدف الرئيسي لحرب الحلفاء هو إعادة أيجاد الإمبراطورية الفرنسية كما كانت على سابق عهدها في أوروبا و ما وراء البحار..¹

و بذلك تصيح فرنسا حليفا للولايات المتحدة الأمريكية، و لكن دائما تحت قيادتها ما دام لم يتحقق الأمن الشامل في شمال إفريقيا. فتخصص السيد "لومقر ديبروي" بنقل هذه الرسائل إلى "جيرو" الذي غادر فرنسا في الخامس من نوفمبر ليلتحق بجبل طارق في السابع من نفس الشهر. غير أنه لم يلتحق بالجزائر إلا في التاسع من نوفمبر.

د- المقاومة الفرنسية تنجح في المهمة المسندة

مثلت أحداث الجزائر العاصمة للثامن نوفمبر 1942 إحدى أكبر المواقف للمقاومة الفرنسية، خاصة مع مراعاة الظروف التي تمت فيها العملية و بنتائجها التي ساهمت في إنجاح عملية "تورش" و الإنزال لقوات الحلفاء. و هنا نتساءل، ماذا لو لم تنجح المقاومة في إشغال القوات العسكرية لفيشي في العاصمة؟ إنه من الصعب الإجابة على هذا السؤال لاعتبارات عديدة منها، الزمن، و الحالة النفسية للقوات الفرنسية، و حتى دور اليهود في المعادلة؟؟؟² و لكن يفترض أن تكون حظوظ نجاح عملية إنزال الحلفاء في شمال إفريقيا قليلة. لأن الجيوش الألمانية عوض أن تتدخل في تونس كان بإمكانها التوجه إلى المغرب لمساعدة جيوش حكومة "فيشي" و بالتالي احتلال كل الشمال الإفريقي. أما بخصوص جيش إفريقيا الموالي للجنرال "ديغول"، فكان أمامه متسع من الوقت لينقلب في صفوف دول المحور. و ذلك حسب ما تقتضيه المصلحة الآنية للحرب.

مع الدقائق الأولى من صبيحة يوم الثامن من نوفمبر 1942، و بالتحديد في منتصف الليل و ثلاثين دقيقة 00 سا و 30د، تمكن 400 عضو من هذه المقاومة السرية (المجهرية) بقيادة جماعية متكونة من: الشاب "جوزي أبو الكير" José Aboulker، و العقيد "جوس" Jousse و باستشارة من "هنري داسي دي لافيغري" Henri d'Astier de la Vigerie من السيطرة على معظم النقاط الحساسة في الجزائر. و قد لعب ضباط الاحتياط دورا كبيرا في هذه العملية، حيث قاموا بإلقاء القبض على أكبر الجنرالات الفرنسيين و هما: الجنرال "ألفونس جوان" Alphonse Juin قائد جيوش شمال إفريقيا و الأميرال "دارلان" القائد الأعلى للقوات الفرنسية، و الذي ألقى عليه القبض عن طريق الصدفة.³

¹ - Duroselle (Jean Baptiste), Histoire des relations internationales..., op.cit., p 384.

² - تذكر بعض المراجع أن من بين حوالي 400 مقاوم فرنسي الذين تصدوا لقوات فيشي في الجزائر العاصمة عشية الإنزال، هناك حوالي 2/3 كانوا من اليهود. أنظر:

- Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du nord dans la guerre..., op.cit.

³ - تمكنت مجموعة من طلبة ثانوية "ابن عكنون" بقيادة ضباط احتياط برتبة مرشح، اسمه "بوفيلي" Pauphilet، من اعتقال هذين الضباطين في الجزائر.

تزامنا مع نفس العملية، تمكن العقيد الوطني "باريل" Baril من تعطيل "سرية مدفعية" على سواحل "سيدي فرج". و هكذا، لم تعيش العاصمة الأجواء الصعبة التي عاشتها كل من وهران و الدار البيضاء و فضالة و الصافي و ميناء ليونتي.. مع الساعات الأولى للإنزال.¹

تمت عملية نزول قوات الحلفاء بسلام على سواحل مدينة الجزائر دون أن تلقى أية معارضة، بفضل بعض الواقف الجريئة للمقاومة الفرنسية الموجودة في الجزائر، و التي تمكنت من محاصرة الفيلق XIX لقوات "فيشي" مدة 15 ساعة و تعطيل سرية المدفعية الساحلية "السيدي فرج".²

بعد إطلاق سراح "جوان" و "دارلان"، قام هذا الأخير بالاستنجاد بالطيران الألماني للقضاء على قوات الحلفاء في عرض البحر بالقرب من الجزائر. إلا أن ذلك جاء متأخرا بعدما كان الحلفاء قد وضعوا قدما في الجزائر دون أن يعترضهم أحد. فنشروا طوقا على الجزائر مما دفع بقوات فيشي بالاستسلام للحلفاء في حدود الساعة الخامسة مساء.³

إذا كان الأمر قد تم بسهولة نسبية في الجزائر، فإنه مغاير تماما في كل من وهران و المغرب بسبب رفض كل من "جوان" و "دارلان" إعطاء الأوامر لوقف إطلاق النار هناك. و استمرت المعارك لمدة ثلاثة أيام مخلقة خسائر بشرية و مادية من كلا الجانبين. و لم تتوقف المعارك إلا بعد أن ضغط الجنرال-أميرال "كلارك" Clarke ، مساعد "إيزنهاور" Eisenhower على دارلان، الذي أعطى الأمر لقواته بوقف القتال. هكذا تمكنت المقاومة الفرنسية من لعب دور هام في إنجاح عملية نزول قوات الحلفاء على سواحل الجزائر.⁴

و بينما كانت العملية في طريق التنفيذ مع فجر يوم الثامن من نوفمبر 1942، حاصرت مجموعة من الشباب الفرنسي، المعادية لنظام "فيشي" المنزل الذي كان متواجدا فيه كل من الجنرال "دارلان" و الجنرال "جوان" و القنصل الأمريكي "مورفي" و نائبه "كينيث بندار" Kenneth Pendar، غير أنه تم تفريقها بعدما أرسلت فرقة من البوليس الفرنسي التي قامت هي الأخرى باحتجاز الشخصيات الأربعة، غير أنها طلبت من الجنرال "دارلان" تعليمات حول الوضعية، ما دام أن "دارلان" كان هو القائد الأعلى للقوات الفرنسية في شمال إفريقيا آنذاك.⁵

¹- Les cahiers Français « La part de la résistance française dans les événements d'Afrique du Nord », (Rapports des chefs de groupes volontaires qui se sont emparés d'Alger pendant la nuit du 7 au 8 novembre 1942), Numéro spécial, commissariat à l'information du comité national Français, Londres, aout 1943.

²- Aboulker (Jose) et Levisse-Touzé (Christine), « 8 novembre 1942 : Les armées Américaines et Anglaises prennent Alger en quinze heures », In revue Espoir, n° 113, année 2002, p 26.

³- Danan (Yves Maxime), « La vie politique à Alger de 1940 à 1944 », in L.G.D.J, Paris, 1943, p.

⁴- Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit.

⁵- عندما حوشر المنزل الذي كان يجتمع فيه جوان و مورفي و بندار، سمح الجنرال "دارلان" لنائب القنصل الأمريكي "بندار" بالتوجه إلى مقر القيادة العامة للبحرية في الجزائر ليسلم لقائدها رسالة تطلعه عن قرب وشيك لنزول قوات أمريكية و بريطانية على سواحل مدن الجزائر و وهران. و مع طلوع فجر الثامن من نوفمبر، خرج كل من "دارلان" و "جوان" متجهين نحو مقر قيادة الأركان في الجزائر، تاركين ورائهم القنصل الأمريكي "مورفي" قيد الحبس، و من هناك و على السعة 7 و 40 د أرسل "دارلان" البرقية التالية للمارشال بيتان: "الحالة على الساعة 7 و 30 كالتالي: تمت عمليات إنزال مكثفة لقوات أمريكية و سفن بريطانية على عدة نقاط من سواحل مدينة الجزائر و محيطها. لقد تم التصدي لهذه الهجمات

2- موقف الجزائريين من عملية الإنزال على مدينة الجزائر

كتب أحد المؤرخين الفرنسيين¹ عن الظروف السائدة في الجزائر على أنها مضحكة و لا تعبر إلا عن ما يحدث في الصالونات و في فنادق "جورج الخامس" و "الأليتي"² Saint Georges et Aletti، و أن القصص الحقيقية هي التي تخرج من أعماق الأحياء الشعبية مثل حي باب الوادي أين يعتبر المسلمون بأن الحرب في إفريقيا تشبه إلى حد بعيد مقابلة كرة قدم..

لم تتمكن فرنسا من المحافظة على هيبتها و بالتالي الحفاظ على ثقة المسلمين الجزائريين. فخرجت منهكة من الحرب و فاقدة لهيبتها بمجرد دخول القوات الأمريكية إلى شمال إفريقيا، و برز بالتالي شكل المنهزم الذي أضاع صورته التقليدية عند السكان المسلمين لبلاد المغرب.³

غير أن المسلمين في الجزائر، لم يفرحوا لهزيمة فرنسا بقدر ما كان يتوجب ذلك، لأن مخاوفهم كانت كبيرة تجاه الجيوش المتحالفة، حيث لم يروى سوى عملية استبدال استعمار بأخر. و كان دخول قوات أجنبية، غير فرنسية، لأرض الجزائر بمثابة انهيار الأسطورة من جديد. حيث بقيت وجوه المسلمين متأملة لنزول القوات الأمريكية في مدينة الجزائر، و لم يعبر ذلك سوى على قلقهم من مستقبل غامض ينتظرهم و يهدد مستقبلهم.⁴

إذا حاولنا الحديث عن ردة فعل السكان المسلمين الجزائريين تجاه عملية الإنزال على مدينتهم، فالحق يقال أن الأعمال التي قدموها تكاد تكون منعدمة، باستثناء بعض المواقف التي ساعدوا فيها قوات الحلفاء لما كانت سفنهم تقترب من السواحل الجزائرية. غير أن الموقف الحقيقي جسده العمل السياسي لنخبة من الوطنيين الذين حاولوا استغلال الظرف لمطالبة الحلفاء بالنظر في وضعية الجزائريين و المسألة الجزائرية ككل.⁵

عند نقاط الميناء و البحرية، غير أننا لم نتمكن صدها في نقاط أخرى لأنها تمت بطريقة خاطئة. الوضعية تتأزم و لن نستطيع الصمود طويلا، و التقارير تشير إلى عمليات أخرى مماثلة في المستقبل القريب". أنظر إلى:

- Churchill Winston, Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T4., op.cit., 211.

¹ - Ades (Lucien), L'aventure algérienne 1940-1945., op.cit., pp 78-79.

² - تقع هذه الفنادق في الجزائر العاصمة، الأول في حي "الغولف" (المرادية حاليا) و الثاني في وسط العاصمة، الأول يحمل اليوم اسم: "الجزائر" و الثاني يحمل اسم "السفير".

³ - Berque (Jacques), Mémoires des deux rives, éditions du seuil, Paris, 1989, p 101.

⁴ - Berque (Jacques), Mémoires des deux rives, op.cit, p 102.

⁵ - يقول "بن يوسف بن خدة" أن غالبية الزعماء الوطنيين كانوا مؤيدين للأمريكيين و بالتالي مع فكرة التوجه إليهم. و كان "فرحات عباس" قد فهم ذلك و اعتبر أن الوقت قد حان لنقدم للحلفاء الأهم في مطالبنا. لمزيد من الشروحات أنظر كل من:

- Beghouf Youcef, Le manifeste du peuple algérien, sa contribution au mouvement national, Dahlab éditions, Alger, 2007, p 201.

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme algérien., t2., op.cit., p 589.

صاحب عملية نزول قوات الحلفاء في الجزائر، أيضا، تحول كبير في معطيات المسألة. حيث أن فرنسا لم تعد وحدها في الميدان. و قد اعتبر "فرحات عباس" حينها أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي ستكون سيدة العالم و سوف تقرر بشأنه، و عليه سوف ننظر معها في تحديد مستقبل الجزائر.¹

أحدث الموقف الأمريكي المناهض للاستعمار في البداية عند الجزائريين مرحلة من التفاؤل لما كانت تحمله السياسة الأمريكية تجاه الفكر الاستعماري. و لعل التصريحات التي أدلى بها القادة الأمريكيين هي التي أدت إلى هبوب رياح الأمل في المستعمرات. خصوصا إذا سلمنا بأن الأمريكيين كانوا متيقنين بأن حوض البحر الأبيض المتوسط هو ميدان المعارك القادمة، و عليه لا بد من جلب عطف النخبة المغاربية.²

رابعا: اضطرابات و مواجهات على السواحل الغربية الجزائرية

إذا كان نزول القوات المتحالفة قد تم بسلام في سواحل الجزائر العاصمة دون أن يلقى أية معارضة، بفضل الجرأة التي تحلت بها المقاومة الفرنسية حيث تمكنت من محاصرة الفيلق XIX لقوات فيشي مدة 15 ساعة و تعطيل سرية المدفعية الساحلية لسيدى فرج،³ فإن الأمر اختلف بالنسبة لكل من وهران المغرب، أين استمرت المعارك على أشدها لأزيد من ثلاثة أيام و لم تنتهي إلا في 10 نوفمبر،⁴ بعد صدور أوامر من الأميرال "دارلان" و الجنرال "ألفونس جوان" Juin Alphonse، اللذان وقعا أسيرين لدى المقاومة الفرنسية في العاصمة ليلة عملية الإنزال. و تحت ضغط مارسه عليهما الجنرال "كلارك مارك" Clark Mark نائب الرئيس الأمريكي، أمرا قواتهما في وهران و المغرب بوقف القتال.

نفذ الأمريكيون الهجوم بواسطة "قوة تاسك" Task-Force، التي تم تدريبها و حملها من بريطانيا إلى غاية موانئ وهران أين أنجزت العملية بالقرب من شواطئ أرزيو في الثامن نوفمبر 1942 بداية من الساعة الواحدة صباحا. و قد صاحب هذا الإنزال عمليتين متتاليتين في غرب المدينة. و الحقيقة أن الأمريكيين كانوا يدركون جيدا بأن المعارضة سوف تكون شديدة بالمقارنة مع ما حصل في مدينة الجزائر بسبب السوابق التي شهدتها المنطقة مع مطلع سنة 1940.⁵

كنا قد ذكرنا في الفصل الأول، بأن الدعاية الديغولية قد نشطت في القطاع الوهراني منذ صائفة 1942، مما أدى إلى وجود تيار قابل للتغيير عند الفرنسيين و فئة من الجزائريين. و لكن بحكم النزاعات التي نشبت داخل معسكر الحلفاء بين السياسيين و العسكريين حول مكانة "ديغول" في العملية، لم يتمكن هذا الأخير من تشديد قبضته على هذا الجزء من الجزائر إلا بعد مدة من عملية الإنزال.

¹- Stora (Benjamin) et Daoud (Zakya), Ferhat Abbas, une autre Algérie..., op.cit., p114.

²- Ibid..., p114.

³- Aboulker (Jose) et Levisse Touze (Christine), « 8 novembre 1942... », op.cit., p 26.

⁴- Nouschi (André), Naissance du nationalisme..., op.cit., p 131.

⁵- Churchill (Winston), Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T4..., op.cit., pp 212-213.

و مع نزول الحلفاء أراضي الشمال الإفريقي في الثامن من نوفمبر 1942، دخلت الجزائر مرحلة جديدة ميزها الحذر الشديد نحو ما عرف "بالغزو الجديد" الذي تعرضت له فرنسا من قبل القوات الأنجلو-أمريكية في مستعمراتها بشمال إفريقيا، و توجه النظام الجديد "لقوات فرنسا الحرة" إلى استغلال طاقات و موارد الجزائر من جديد ، خدمة للمجهود الحربي للحلفاء و جيوش الجنرال "ديغول".¹

1- محاولة التصدي لعملية الإنزال على السواحل الغربية الجزائرية

لقد واجهت الحلفاء، في عمالة وهران، مقاومة شديدة تزعمها كل من؛ روجي كركسون، الأب تييري، و العقيد توسطان؛ الذي سقط أسيرا في يد القوات المتحالفة. هذا الحدث سيؤدي إلى صعوبة مهمة الحلفاء في القطاع الوهراني، مما سيَجبرهم إلى الدخول في معارك ضارية مع القوات الفرنسية بقيادة الأميرال "ريولت" Rioult، الذي بالرغم من أنه أخبر بهذا الإنزال إلا أنه رفض الانسياق للأوامر، ما جعل المعارك تمتد على مدى ثلاثة أيام خلفه خسائر مادية و بشرية هامة.²

تمكنت القوات المتحالفة في ليلة السابع إلى الثامن من نوفمبر من تحقيق عملية الإنزال على السواحل الغربية للجزائر بقيادة الجنرال "فرنдал" و بفضل 39000 جندي من المشاة و المدفعية مدعمين بالمضلين من القوات الجوية. و تمت العملية على طول 100 كلم، تقريبا على سواحل القطاع الوهراني، من "أرزيو" شرقا - 40 كلم على وهران- إلى شاطئ "بوزجار" غربا- 50 كلم على وهران-، مرورا بكل من المقطع، و ميناء وهران، و خليج الأندلس، و وصولا إلى ساحل بوزجار. كما تم إنزال قوات برية على "سبخة وهران" قوامها 550 مضلي تم نقلها من القواعد البريطانية، و كان الهدف منها إحكام السيطرة على مطارات "السانية" و "طافراوي" ثم التوجه إلى مدينة وهران.³

سارت عملية الإنزال ببطء كبير نظرا للعتاد الحربي الكبير المستعمل في العملية، حيث كان معدل حمولة كل جندي يعادل 45 كلغ، الشيء الذي أعاق كثيرا تنقل الجنود خاصة في المناطق ذات التضاريس الصعبة. و رغم كل الاحتياطات و التدابير المتخذة من طرف الحلفاء، من أجل تنظيم مقاومة محلية ضد السلطة الفرنسية لحكومة "بيتان" إلا أن الإنزال لقي مقاومة شديدة في عدة نقاط من الشريط الساحلي للعمالمة قامت بها قوات نظام "فيشي" ضد الحلفاء. نذكر منها:⁴

- المنطقة الشرقية: حيث شهدت مناطق؛ سان كلود (قديل حاليا) و أركول (بئر الجير حاليا)؛ مشادات عنيفة أدت إلى عرقلة مسيرة قوات المدرعة الأمريكية التي كان تعدادها حوالي 12500 جندي. أما في

¹ - بلوفة (الجليلي)، رسالة ماجستير...، مرجع سابق، ص 57.

² - Mast (Charles), Histoire d'une rébellion, 8 novembre 1942, le cercle du nouveau livre d'histoire, Paris, 1969.

³ - Mast (Charles) et Liddell (Basil Hart), « Le point de vue français », in Historia magazine, N°4, Paris, septembre 1968, p 1213.

⁴ - Ibid., p 1214.

ضواحي سان لوسيان (زهانة حاليا) فقد تصدت فرقة من المدرعات التابعة للقوات الفرنسية لحكومة "فيشي" جاءت من مدينة سيدي بلعباس، لفيلق من المشاة الأمريكية.و كان ذلك في 9 نوفمبر 1942. و في منطقة المقطع، فشلت فرقة من القناصين، التابعة لقوات "فيشي"، جاءت من مدينة تيارت، من إيقاف زحف قوات الحلفاء. و أرجع ذلك إلى تأخر في وصول الإمدادات.

- المنطقة الغربية: أين قامت فرقة من القوات الأمريكية يطلق عليها اسم "فريق مقاتل 26" Team Combat 26، مدعمة بفرق من المدفعية التي كانت مرابطة بمنطقة "بوسفر" و "مسرعين"، من هزم فرقة للمشاة الأهلية. و في داخل مدينة وهران، استمرت المقاومة بشكل أعنف بفعل عملية التجنيد السريعة المتواصلة. كان موقف الأمريكيين واضحا تجاه رد فعل سكان مدينة وهران على عملية الإنزال، حيث كانوا ينتظرون أن يواجهوا كل تلك الصعوبات. لذلك اتخذوا كل الاحتياطات لتفادي أي طارئ و خاصة الخسائر البشرية، التي قد تؤثر على مجرى العملية برمتها.

بالرغم من المعارضة الشديدة التي واجهت الحلفاء في البداية، إلا أنهم تمكنوا من دخول مدينة وهران في 10 نوفمبر أين تم الإعلان عن وقف القتال في حدود الساعة الواحدة و نصف زوالا. و ككل عملية حربية، فقد أسفرت عملية الإنزال هذه على خسائر مادية كبيرة، نظرا للعتاد الحربي الذي تم استعماله من طائرات و سفن حربية و مدرعات، و الخسائر البشرية التي راح ضحيتها عدد من المدنيين، الأوروبيين و الجزائريين. هكذا وقع سكان القطاع الوهراني في دوامة الحرب العالمية الثانية، و أصبحوا يعيشون حالة من الخوف و الترقب، ينتظرون رد الفعل الألماني على هذا الهجوم الواسع للحلفاء. و بالرغم من كل الضمانات، فقد شد سكان مدينة وهران أمتعتهم و بدءوا يغادرونها باتجاه المدن الداخلية خاصة؛ المحمدية، غليزان، سيدي بلعباس، و عين تموشنت و تلمسان،¹ طيلة شهر نوفمبر، عندما راجت أخبار مفادها أن الطيران الألماني سوف يقوم بقصف المناطق الحساسة في المدينة.² لكنهم عادوا إليها بمجرد ما قامت السلطات الفرنسية الجديدة من تكذيب ذلك.

2- الأصدااء التي خلفتها عملية الإنزال

بينت عملية الإنزال للجزائريين في عمالة وهران، واقع حقيقي متمثل في القوة العسكرية للجيش الأمريكي، قوة و عتادا، و ضعف الجيوش الفرنسية الاستعمارية. و انطلاقا من هذا الواقع الجديد، كيف ستكون معاملتهم للحدث؟ و هل هذه القوى الدخيلة تختلف عن الاستعمار الفرنسي؟ أم إننا سنشهد إلى عملية انتقال حكومة "فيشي" من الوصاية الألمانية إلى الوصاية الأمريكية؟ مع العلم أن ذلك كان من آخر اهتمامات الجزائريين ما دام أنهم كانوا يمرون بظروف مزرية على جميع الأصعدة، خاصة منها الظروف المعيشية.

¹ - A.W.O, B, 4477, rapport du CIE Oran, N° 593 du 16 novembre 1942.

² - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 677 du mois de décembre 1942.

و لكن ذلك لم يمنعهم من التساؤل عن مصير بلادهم في ظل ظهور قوى جديدة على أرضهم. هذا الوجود سيكون له حتما تأثيرات و انعكاسات على الجزائريين.

أ- في أوساط الجزائريين

"مناهضة الاستعمار"، تلكم كانت إحدى الأفكار القوية للسياسة الأمريكية تجاه الاستعمار. هذه التصريحات للزعماء الأمريكيين أحييت بعض الآمال في المستعمرات، و من أهمها تصريحات "روزفلت" التي لقيت ترحابا في شمال إفريقيا. و أما عن التصريحات التي أدلى بها وزير الخارجية "كوردل هيل"¹ Cordell Hull فوجدت فيها الحركة الوطنية فرصة لتجديد نشاطها السياسي و التعريف بالقضية الجزائرية لدى الحلفاء و المطالبة، أكثر من أي وقت مضى، بإصلاحات لفائدة الشعب الجزائري المقهور.

من المنطقي أن عملية الإنزال قد أفرزت مخلفات عديدة تجلت مظاهرها في طبيعة الحياة اليومية للجزائريين، من جهة، و الجراحة التي تحلى بها السياسيون الذين وقفوا على عجز الإدارة الاستعمارية أمام القوات الأنجلو-أمريكية. هذا الواقع الجديد فرضته حقيقة جديدة مفادها أن فرنسا لم تعد تلك الدولة العظمى التي لا تقهر و إنما أصبحت دولة خاضعة لمنطق الأمريكيين.²

من الأخبار السارة التي أفرحت الشعب و انتشرت كالبرق في الأوساط الشعبية، في مدينة تلمسان مثلا، هي تناقل أنباء عن احتمال إطلاق سراح المساجين السياسيين بفضل تدخل الحكومة الأمريكية لدى الحكومة الفرنسية الجديدة.³ كما قام عدد من أنصار حزب الشعب بتقديم عريضة جماعية إلى الحاكم العام بالعمالة الغربية يطلبون فيها الإفراج عن المعتقلين السياسيين و على رأسهم مصالي الحاج.⁴

كما تم تنصيب ما عرف "باللجنة الفرنسية الإسلامية للتعاون مع الحلفاء" في مطلع سنة 1943 بمدينة تلمسان، بمبادرة من شخصيات جزائرية و فرنسية من مختلف الاتجاهات، و كانت أهدافها التنسيق مع الحلفاء لتحقيق نوع من المكاسب المشتركة.⁵ غير أن هذه اللجنة لم تعمر طويلا لأسباب موضوعية، فخضعت لأمر الواقع، و توارت عن الوجود أمام تصاعد النفوذ الأمريكي في الجزائر بفعل توغل جيوشه نحو المدن الداخلية للعمالة. فدخلوا تلمسان مع نهاية ديسمبر 1942، و اتخذوا من مدرسة دار الحديث الإصلاحية مقرا لقيادة أركان جيشهم.⁶

¹ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., t2..., op.cit..., p629.

² - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., t2..., op.cit..., p 558.

³ - A.W.O, boîte 4477, dossier partis politiques, du 7 avril 1943.

⁴ - هناك شخصيات وطنية تقدمت بهذه العريضة مطالبة فيها بالإفراج عن الشخصيات الوطنية من الأوساط التلمسانية و على رأسها كل من: مصالي الحاج و ممشاوي محمد، و معروف بومدين و سيسبان أحمد. أنظر إلى:

- A.W.O, BP 209, Préfecture d'Oran, CIE, n°261 du mois de mars 1943.

⁵ - A.W.O, Boite 4063, GGA, direction de la sécurité générale, n° 186, Alger le 8 mars 1943.

⁶ - A.W.O, BP 209, Préfecture d'Oran, CIE, n°610 du mois de décembre 1942.

من هنا نتساءل عن حقيقة اختيار هذا المكان الطاهر من طرف الأمريكيين، و ما هي غايتهم من وراء ذلك؟ ألم تكن هناك بنايات تروق الذوق المفرط للجنود الأمريكيين حتى يختاروا فقط دار الحديث؟ إنها أسئلة تستوجب الخوض في هذا الباب للدراسة المعمقة بفتح جميع الأرشيف المرتبط بهذه الحقبة الزمنية الحساسة من تاريخ الوجود الأمريكي في الجزائر.

لم يقتصر النفوذ الأمريكي على الجانب العسكري فحسب، و إنما تعدى ذلك إلى استعمال الدعاية الإغرائية كوسيلة، خاصة منها الأفلام و الأشرطة الوثائقية.¹ و المناشير و الرسومات الكاريكاتورية التي تظهر قوة الحلفاء.² بالإضافة إلى الجرائد و المجلات، خاصة المجلة الأسبوعية "النصر" Victory التي بيع عدد منها في بعض مدن العمالة الغريبة.³

لم تثني هذه الأعمال من المواقف الجزائرية حيال الوسائل الدعائية الأمريكية، بحيث أنها كانت غير ثابتة. فهناك من المتحمسين من وجدوا فيها طريقة للتخلص من النازية و الاستعمار معا، ما دام أن الموقف الأمريكي كان يعميل نوعا ما إلى معارضة السياسة المنتهجة من طرف فرنسا تجاه الجزائريين.⁴ و هناك من رأى فيها أسلوبا من أساليب الدعاية المغرضة تجاه الشعوب المستعمرة حتى لا تثور أو تحدث فوضى قد تفسد فرحة الانتصار على النازية. و اعتبروها انتقادات موجهة للسياسة الفرنسية المحلية فقط.

غير أن شهر العسل هذا، عكر صفوه السلوك المتهور للجنود الأمريكيين في مناطق عدة من العمالة، مما أدى إلى حدوث اعتداءات ضد الجزائريين و ممتلكاتهم في كل من مستغانم، أين سجلت عمليات نهب و سرقة تسبب فيها جنود أمريكيين،⁵ كما حدث ببلدية مسرغين في ضواحي وهران، أن تم الاعتداء على مرابط الولي الصالح "سيدي الحسني" و هو شيخ فوق الستين عاما، الأمر الذي أدى إلى استياء كبير من طرف السكان المسلمين.⁶ أما في بلدية "العنصر"، دائما بمدينة وهران، فقد تسبب الجنود الإنجليز في وقوع مشادات مع السكان المسلمين.⁷

لم تكن هذه الأحداث منعزلة و لا غير مقصودة، بل بالعكس من ذلك، فقد شملت عددا كبيرا من المدن و القرى و نجمت في معظمها عن اتهامات وجهها الحلفاء إلى الجزائريين بولائهم لألمانيا. الشيء الذي لم يستند لأي دلائل أو حقائق موثقة.

ب- موقف الكولون من عملية الإنزال

¹- A.W.O, BP 209, Préfecture d'Oran, CIE, n° 610 du mois de décembre 1942.

²- A.W.O, Boite n- 4476, ville de Sidi Bel Abbès, CC N- 72560 daté du 12 juillet 1943.

³- A.W.O, Boite n- 4476, police sécurité, Oran, N° 5594 date du 23 novembre 1943.

⁴- Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., t2..., op.cit., p 629.

⁵- A.W.O, Boite n- 4476, sous-préfecture de Mostaganem, n- 12484/F, daté du 13 octobre 1943.

⁶- A.W.O, Boite n- 4476, CC n- 1684.C, Oran daté du 5 aout 1943.

⁷- A.W.O, Boite n- 4476, GGA, affaires musulmanes, N° 1141, daté du 14 février 1944.

من المعروف أن المعمرين لم يكتثروا كثيرا لما كان يحدث في المتروبول و ذلك منذ أن أحكموا قبضتهم على زمام الأمور في الجزائر التي كانوا يعتبرونها أرضهم الشرعية. هذا الموقف لم يكن ليتغير إلا في المناسبات الرسمية (كالانتخابات الرئاسية مثلا) أو في الأوضاع التي تكون فيها مصالح الكولون مهددة (خاصة من الوطنيين و بعض المسؤولين الفرنسيين). و عليه، فقد حاولوا التمرد ضد الحكومة الجديدة في باريس¹ خوفا على مصالحهم لا غير.

كما زادت تخوفاتهم من وجودهم في المعسكر الخاسر، الأمر الذي دفعهم بالإسراع إلى تغيير سلوكهم و إلى إعلان ولائهم للأمريكيين و للنظام الفرنسي الجديد. هذا التحول الجذري في مواقف الكولون، فرضته الظروف الجديدة للدولة الفرنسية التي تمتع فيها نظام "فيشي" بشعبية دائمة لدى أغلبية كولون الجزائر. وهذا الواقع لخصه الجنرال "كاترو" Catroux عندما صرح قائلا: "لقد جلب لهم المارشال "بيتان" النظام كما يجذبونه، ضروريا. بمعنى خضوع الأهالي إلى سلطة الدولة الفرنسية. من أجل تأمين ممتلكاتهم و الحفاظ على امتيازات الأقلية."² و يبدو أن الكولون شعروا بالخوف أكثر عندما بدأت الدعاية الألمانية تشذ إليها الملايين من الجزائريين، حينها زادت "مارشالية" الكولون.³

بفضل صحافتهم أيضا تمكنوا من التأثير على الرأي العام الداخلي في الجزائر، حيث لعبت صحف من حجم: صدى الجزائر، L'Echo d'Alger، و صدى وهران، L'Echo d'Oran، و البرقية الجزائرية، La Dépêche d'Alger، و برقية قسنطينة، La Dépêche de Constantine، و صوت الكولون، La voix du colon.⁴ دور كبير في الدعاية لمصالحهم الكبرى في الجزائر.

بدا للكولون أن هذه "الثورة الوطنية" منحتهم حق الانتقام من الحكومة الاشتراكية لسنوات 1936-1939.⁵ كما أنهم قاموا بإخفاء رموز الجمهورية الفرنسية و استبدلوها بشعارات الدولة الفرنسية الجديدة، و علقوا صور المارشال "بيتان" في البلديات و الإدارات.⁶ و شهدت مساكنهم و مستثمراتهم الكبرى و مختلف فنادقهم في المدن الكبرى، احتفالات على شرف الألمان و الإيطاليين الذين كانوا يشكلون لجان الهدنة، و عرفت نشاطاتهم نجاحا متواصلا.⁷

عندما قررت حكومة "فيشي" إلغاء قرار "كريميو" Crémieux الشهير، في السابع أكتوبر من سنة 1940، و الذي كان قد منح حق التجنيس ليهود الجزائر، فإن الكولون لم يتمالكوا فرحتهم بهذا الإجراء، لأنهم اعتبروه نصرا على كل السياسات التي طبقتها الحكومات الفرنسية السابقة. و الظاهر أن لهذه الفرحة أبعاد

¹ - لقد جاء في جريدة "صوت الكولون" لشهر جويلية 1940، أن الكولون رفضوا الدفاع عن بلادهم فرنسا، و اعتبروا ذلك شأن لا يعينهم. أنظر:

- Ferhat Abbas, Guerre et révolution d'Algérie la nuit colonial..., op.cit, p 133.

² - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit., p 556.

³ - Ibid., p 557.

⁴ - Nouschi (André)...., Naissance du..., op.cit, p 127.

⁵ - Ageron (Charles Robert), Histoire de..., op.cit, p 556.

⁶ - Nouschi (André), Naissance du..., op.cit, pp 127-128.

⁷ - Ferhat (Abbas), Guerre et révolution d'Algérie..., op.cit, p 133.

اقتصادية محضة، ما دام أن هذا القرار سيقضي على منافسين شرسين في المجالات الحيوية. و من هؤلاء الذين سرتهم العملية، "مورينو" Morinaud نائب شيخ بلدية قسنطينة الذي كان من أشد الكولون المعادين للسامية.¹ عموماً، فإن الهدنة و سياسة حكومة "فيشي" خدمت مصالح الكولون إلى أبعد حد. فهي التي وضعت حدا للحرب، و هي التي انتهجت سياسة موالية لألمانيا، و هي التي تركت الجزائر في قبضة الكولون، و هي التي ستوفر لهم اليد العاملة بعد عودة الجزائريين من ساحات القتال بسبب الهدنة، الأمر الذي سيمنحهم كل التسهيلات لاستغلال الأراضي الجزائرية أبشع استغلال لتلبية حاجيات الفرنسيين في المتروبول، و أخيراً هي التي ستفتح للجزائريين أفاق المستقبل...

3-قصف مكثف و دموي على سواحل وهران لإنهاء المقاومة

لم تكن عملية إنزال الحلفاء بالسواحل الغربية بالعملية السياحية، لأنها واجهت مجموعة من المقاومين الفرنسيين ذوي خبرة و أقدمية لهم دراية بالأمور التقنية للحروب. و كانت هذه المجموعات تحت تصرف "روجي كاركاسون" Roger Carcassonne و "الأب تييري" Le Père Théry و العقيد "توسطان" Toustain. غير أن الأمور أخذت مساراً مغايراً بفعل إلقاء القبض على العقيد توسطان.

كان الأميرال "ريول" L'Amiral Rioult من الذين اعترضوا بشدة على عملية الإنزال هذه، الأمر الذي جعل المعارك دامية تستمر لمدة ثلاث أيام، فوضعت القوات الفرنسية في مواجهة الآلة الحربية الأمريكية مما أدى إلى وقوع خسائر بشرية قدرت بـ 750 بين قتيل و معطوب، بالإضافة إلى إتلاف جزء من دبابات اللواء الميكانيكي و عدد من السفن الحربية.

كما أوردت المصادر الأرشيفية قوائم ضحايا القصف الذي طال سواحل المنطقة الغربية خلال أيام 8 و 9 و 10 و 11 نوفمبر 1942، و قد وصلت تأثيراته إلى غاية مرتفعات جبال "التسالة" بدائرة سيدي بلعباس. و من الضحايا و المعطوبين الجزائريين نذكر كل من:

- بن حلو ميمونة، 25 سنة، من الدوار المغربي بعين الترك. (متوفاة).
- أوكيلي يمينه، 08 سنوات، من نفس الدوار. (متوفاة).
- بنت عبد الله فاطمة، 22 سنة، من نفس الدوار. (متوفاة).
- بن صالح محمد، 25 سنة، دار فساس بعين الترك. (معطوب).
- بن حمو ميمون، 45 سنة، بنفس الحي. (معطوب).

كما شهد القصف أيضاً سقوط عدد من الأوروبيين بين ضحايا و معطوبين، نذكر منهم:

- السيد رويز باسكال، 34 سنة، 28 شارع المسبك وهران. (متوفى).
- السيدة بيريز إنكرناسيون، 41 سنة، 54 شارع جوفر وهران. (متوفاة).

¹ - Nouschi (André), Naissance du..., op.cit, pp 128-129.

- السيد سانشيز إيزودور، 36 سنة، 13 شارع سافرائي وهران. (متوفى).
- الطفل إيمبار ألان، 02 سنة، 19 شارع إيشبيلية وهران. (متوفى).
- البنت أونتون إيزابيل، 12 سنة، 6 شارع زيكوني بيار وهران. (معطوبة).
- السيد هنري لاندري، 55 سنة، 14 النادي العسكري وهران. (معطوب).

خامسا: سواحل المغرب تحت حصار الحلفاء

في ليلة السابع إلى الثامن نوفمبر من سنة 1942، حطت جحافل من الجيوش الأمريكية و البريطانية على سواحل شمال إفريقيا. حيث نزل 90000 جندي أمريكي على السواحل المغربية بعد أسبوعين من الإبحار.¹ أما الإنجليز فقد حطوا الرجال على الشواطئ الجزائرية بتعداد قوامه 210000 جندي. وكانت المحطات الكبرى لنزول قوات الحلفاء على سواحل شمال إفريقيا في كل من حصن ليونتي، الدار البيضاء، فضالة و الصافي، بالنسبة للمغرب، و الجزائر و وهران بالنسبة للجزائر.

لقد تم الإنزال الأمريكي-البريطاني في المغرب عبر ثلاثة نقاط هي، الدار البيضاء و الصافي و القنيطرة.² و كانت الأوامر التي وصلت الجنرال "نوقس" من "بيتان" هي أن يواصل الدفاع عن ممتلكات فرنسا ضد أي غزو. مما جعل المعارك تدوم ثلاثة أيام في الجو و البر و البحر مخلقة خسائر بشرية و مادية كبيرة. هنا استدعي الجنرال "نوقس" إلى القصر الملكي أين استقبله الملك محمد الخامس و خاطبه قائلا: " لقد نذرت دماء فرنسية و مغربية كثيرة، و لم ترحم لا الجنود و لا المدنيين. لقد وصلني أن الرئيس روزفلت و الجنرال إيزنهاور أعلنوا عن نية صادقة تجاه شعوب المنطقة. إنكم تعلمون أحسن مني، أننا لن نتمكن من هزم هذه القوات العظيمة. لذلك علينا توقيف القتال. و واجبي كسلطان لهذه الأمة أن أجنبها معانات أخرى".³

انتهت فترة حكم "فيشي" للمملكة المغربية بمجرد نزول قوات الحلفاء على السواحل المغربية و الجزائرية في الثامن نوفمبر 1942. و قد أظهرت هذه العملية العسكرية الأهمية الإستراتيجية التي كانت تحتلها شمال إفريقيا في مخططات جميع الأطراف المتنازعة. خاصة منها القوات المتحالفة التي كانت تنظر في احتلال الجزائر و المغرب من طرف الألمان، خطر على الأمن في مضيق "جبل طارق" Gibraltar و تهديدا للمصالح الأمريكية و البريطانية، و أكثر من ذلك، فإن هذا الوضع كان من شأنه قطع كل اتصال بين شمال إفريقيا و أوروبا الغربية.

¹ - Hewitt (Amiral), « The landing in Morocco, November 1942 », United States Naval Institute Proceeding, N°11, volume 78, November, 1952, pp 1243-1246. Voir aussi:

- Echaoui Mohamed, L'Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit.

- Robinchon (J), Jour J en Afrique "ce jour là", éditions Laffont, Paris, 1964, p 10. (389P).

² - لم ترد محطة "القنيطرة" إلا عند "لوقان بيرنار". أنظر:

- Lugan Bernard, Histoire du Maroc..., op.cit..., p 263.

³ - Lugan (Bernard), Histoire du Maroc..., op.cit..., p 263. Et voit aussi : Hassan II, Le défi..., Paris..., 1976.(Cite par Lugan..., Histoire du Maroc..., p 263).

إن الظرف الدولي الذي أحاط بعملية الإنزال على سواحل المغرب جعل الأوضاع تفتح أفقا جديدة في التاريخ السياسي للمغرب. هذا ما وقف عليه الوطنيون الذين لم يخطئوا في ذلك، و اعتبروا أن وجود قوات أجنبية، غير الفرنسية، من شأنه أن يمثل مرحلة جديدة في كفاحهم. كما أدى وجود الحلفاء إلى حدث بارز و هو عقد مؤتمر "أنفا" بالدار البيضاء في جانفي 1943، و الذي جمع الرئيس الأمريكي مع رئيس وزراء بريطانيا، كان الهدف منه إعطاء بعد جديد للحرب ضد الألمان و كذلك، تنظيم لقاء بين الجنرالين "ديغول" و "جيرو"، لوضع حد للنزاع القائم بينهما، خاصة و أن "جيرو" كان يحكم قبضته على السلطة العسكرية و السياسية في الجزائر و كان دائما في مواجهة قائد فرنسا الحرة.

كانت العلاقة بين الرجلين متوترة منذ اللقاء الذي جمع بينهما في الجزائر في ماي 1943، عشية الإعلان عن ميلاد "اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني"، عندما صرح "ديغول" أن هذه اللجنة ستشغل وظيفة "حكومة" بآتم معنى الكلمة، و أن السلطة العسكرية ستكون فيها لديغول، و أن يتم منح كل العسكريين و المدنيين من حكومة "فيشي" الذين أمروا بإطلاق النار على قوات الحلفاء في نوفمبر 1942.¹

فكان لقاء الدار البيضاء الذي جرى يوم 22 جانفي، و جمع كل من روزفلت و تشرشل و العاهل المغربي "سيدي محمد" و في غياب المقيم العام في المغرب الجنرال "نوقس"، ليلقي بضالاه على التقلبات التي كانت تمر بها السياسة الفرنسية في تلك الفترة و التي سيطر عليها الصراع حول السلطة بين مختلف الأطراف المتنازعة.²

تعهد الرئيس الأمريكي، خلال هذا الاجتماع، بمساعدة المغرب سياسيا و اقتصاديا، بعد نهاية الحرب حتى يسمح له بتحقيق استقلاله. هذا ما تحدث عنه "أبو بكر القادري"، أحد الوجوه البارزة في الحركة الوطنية المغربية، عندما أشار إلى اجتماع السلطان بالوطنيين المغاربة حول: "الأفكار التي يجب طرحها في هذا المؤتمر و كيفية استغلال هذه الفرصة التاريخية..³ و يقال بعد ذلك، أن السلطان المغربي يكون قد صرح للجنرال

¹ - De la Gorce (Paul-Marie), Charles de Gaulle 1890-1945, T1, éditions nouveau monde, Paris, 2013, p560.

² - اهتز عرش فرنسا منذ بداية الحرب عندما أقدم الألمان على احتلال باريس في جوان من سنة 1940. عندها، هربت حكومة بأكملها إلى بريطانيا لتواصل الكفاح من هناك، بينما استغل الباقية هذه الظروف لإبرام اتفاقية "الاستسلام" التي أدت إلى قيام حكومة فيشي. هذه الحكومة عملت طول فترة حكمها على ولائها للألمان، و محاربتها لكل السياسة الفرنسية السابقة. غير أن الأمور تغيرت بعد نزول قوات الحلفاء على شواطئ شمال إفريقيا، مما فتح الباب على مصراعيه لاحتدام التنافس على السلطة بين مختلف جنرالات فرنسا، و قد تكون حادثة اغتيال الجنرال "دارلان" في الجزائر في ديسمبر 1942، إحدى المخططات الدموية لهذا الصراع. أنظر:

³ - ورد هذا الكلام في جريدة "الرأي" المغربية التابعة لحزب الاستقلال المغربي. أنظر:

- Interview de Kadiri Abou Bekr, In Opinion, quotidien d'information du Parti Istiqlal, du 11 janvier 1991.

"باتون" Patton: "حقيقة، رئيسكم رجل عظيم، و صديق حميم لي و لشعبي، فشخصيته متميزة عن الآخرين..."¹

إن هذا الوضع الجديد، أعطى للسلطان المغربي القوة و القدرة على التحدث مع الدول الأجنبية باسم شعبه، الأمر الذي وضع اتفاقية 1912 على المحك.² لقد كتب الكثير عن هذا اللقاء، و الكل ذهب بتأويلاته و انتقاداته و دعمه للكلام الذي قيل أو الوعود التي أعطيت للمغاربة، غير أن "برنار" يوجز ذلك في الكلمات التالية: "...نستخلص من لقاء "أنفا"، الكلمات التاريخية، حقيقة كانت أم مزيفة، التي ترسم لنا طابع أو تلخص لنا وضعية ما. إن الأمل الذي وضعته البلدان المستعمرة في الولايات المتحدة الأمريكية و رئيسها، بعد نهاية الحرب، يعتبر حدث تاريخي."³

أما بالنسبة للفرنسيين، فإن شعار "الخلاص يأتي من الإمبراطورية" Le salut par l'empire، أصبح حقيقة سياسية و عسكرية و أخلاقية، خاصة بعد الهزيمة المرة في جوان 1940 و توقيع الاستسلام.⁴ و كان نداء "ديغول" واضح في هذا الشأن عندما اعتبر أن المستعمرات و بصفة خاصة مستعمرات شمال إفريقيا وحدها قادرة على تخليص المتروبول من سيطرة الألمان. و في المقابل كانت ترى حكومة "فيشي" أن بقاء الأوضاع على حالها كفيل بأن يعطيها الشرعية لإحكام قبضتها على المستعمرات و التفاوض مع القوى الأجنبية.

* بدورها فقدت الناقلة الحربية "توماس جيفرسون" Thomas Jefferson 16 زورق إنزال من بين 31 زورق الذي كانت تحمله، و 3 في حالة عطب. مع العلم أنها كانت تحمل الدفعة الأولى من الجنود.

* أما الناقلة "كارول" Carroll فقد مرت بتجربة مريرة بحيث فقدت، في الدفعة الأولى، 18 زورق من مجموع 25 زورق، و في الدفعة الثانية، 5 زوارق، و لم يتبقى لها سوى باحرتين من أجل نقل الجنود و العتاد إلى مقدمة الجسر. (جبهة المعارك)

و من حسن حظ القوات الأمريكية، لم تكن هناك مقاومة من القوات الفرنسية إلا بالقرب من "مهدية". كما يذكر ذلك التاريخ الرسمي.

¹ - Patton (Georges Smith), Les Carnets secrets du General Patton 1885-1945, Plon editions, Paris, 1975, p 128.

² - تضمنت اتفاقية الوصاية التي أبرمت في 30 مارس من سنة 1912، بين الفرنسيين و "مولاي حفيظ" العاهل المغربي، على نقطة هامة تجعل من المقيم العام الفرنسي في المغرب، الوسيط الوحيد بين الملك و القوات الأجنبية. أنظر: - الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق.

- Belkhodja Amar, Barbarie coloniale en Afrique, anep éditions, Alger, 2002, p 21.

³ - Bernard (Stéphane), Le conflit Franco-Marocain 1943-1956, étude de cas des conflits internationaux, centre européen de la dotation Carnegie, éditions de l'institut de sociologie de l'Université de Bruxelles, Bruges, 1963, t2, p 48.

⁴ - إن الفرنسيين في جل كتاباتهم يستعملون عبارة "المهدنة" Armistice، على أي كلمة أخرى. لكن الواقع و الحقيقة هي غير ذلك. و من الإنصاف أن يستعملوا كلمة "استسلام" Capitulation، كما كانوا يفعلونه هم مع المستضعفين من الرجال و الزعماء في مستعمراتهم. و نذكر هنا الكتابات الكثيرة التي تحدثت عن "استسلام" الأمير عبد القادر للجنرال "لامورسيار" و التي وضعتها فرنسا في خانة الاستسلام. أي خضوع الضعيف لشروط القوي. هذا بالفعل ما حصل بين الألمان و الفرنسيين في بداية الحرب العالمية الثانية.

1- الإنزال في الدار البيضاء و سواحل سيدي الصافي و حصن ليوثي و فضالة

استقبل الحلفاء على وقع طلقات المدافع من طرف القوات البرية للجنرال "نوقس" عند محاولتهم النزول في الدار البيضاء و سيدي الصافي. و يرجع ذلك إلى أن جيش "إيزنهاور" لم يكن متدربا تدريبيا حريا كاملا، الأمر الذي سهل على محترفي جيش إفريقيا بإلحاق خسائر كبيرة بجيوش الحلفاء طيلة ثلاثة أيام من المعارك، و كل هذا كان لفائدة المصالح الألمانية.

لقد ساعد الجنرال "نوقس" أعضاء من لجان الهدنة مع المحور على الفرار إلى مناطق من المغرب الإسباني، و قام بحملة قمعية ضد الأوساط الديغولية. (المحسوبة على الجنرال ديغول) بينما قدم للمحاكمة العسكرية المتسببين في انقلاب "الرباط" أين حكم على غالبيتهم بالإعدام.

أمام استحالة التفوق البحري في السواحل، اقترح الجنرال "نوقس" على السلطان "محمد الخامس" التوجه معه (التراجع) نحو المناطق الداخلية لتحضير مقاومة على شكل حرب العصابات ضد قوات الحلفاء. و للمرة الأولى رفض السلطان نصائح "نوقس".

دامت المعارك الدامية، مدة ثلاثة أيام كاملة في كل من الدار البيضاء و فضالة و الصافي، مخلفة خسائر كبيرة من الجانبين. و في الأخير، فقد وصل عدد ضحايا المعارك في وهران و المغرب، خلال ثلاثة أيام، إلى 1346 قتيل و 1997 جريح في صفوف الفرنسيين، و إلى 479 قتيل و 720 جريح في صفوف قوات الحلفاء. و قد تمكن الأمريكيون من إنزال قوات على الدار البيضاء قوامها 35000 جندي مدعمة ببارجات حربية و غواصات.¹

اتبع الأمريكيون منذ دخولهم الدار البيضاء خطة واضحة تتمثل في القضاء على القوات الفرنسية و إجهاد أي مقاومة مهما كان نوعها. غير أن الواقع أظهر استمالة كبيرة من الجنرال "نوقس" الذي صرح في عدة مناسبات على أن المغرب سيقف في وجه أية محاولة إنزال على ترابه. فاشتدت المعارك بين جيوش الحلفاء و الجيش الفرنسي لمدة ثلاثة أيام مخلفة خسائر كبرى من الضحايا و العتاد خاصة في الدار البيضاء.²

لم تتوقف المعارك إلا بعد توقيع الأميرال "دارلان" الاتفاق مع الأمريكيين الذي وضع حدا للقتال. و قد طلب السلطان المغربي "سيدي محمد" من المقيم العام الفرنسي الجنرال "نوقس" بوقف إهدار دم الجنود الفرنسيين و المغاربة و المواطنين المدنيين عندما قال: " لقد أكد الرئيس الأمريكي "روزفلت" و الجنرال "إيزنهاور" على أن قوات الحلفاء جاءت كقوات صديقة. و تعلمون أكثر مني أن هذه القوات لا تقهر. و عليه لا بد من وضع حد للقتال. و بصفتي عاهل الأمة المغربية، فواجبي هو حقن الدماء."³

¹ - Dahms (Hellmut Gunter)..., op.cit., p 205.

² - خلفت هذه المعارك خسائر مادية كبيرة للأسطول التجاري المغربي و كذا بعض المباني الهامة. أنظر: أناكس 19 ص 485.

³ - Seimi (Mustapha) et Amrani (Mohamed-Raja), De Gaulle et le Maroc, Ouvrage collectif, éditions Publisud / sochepress, Paris , 1990, p 18.

نفهم من هذا الخطاب ما حدث عشية نزول قوات الحلفاء، عندما بعثت الحكومتان البريطانية و الأمريكية، ببرقية إلى السلطات الفرنسية و السكان الأوروبيين في شمال إفريقيا، تطمئنهم فيها بالنوايا الحسنة لجيوشهما مصرحة: "ستأتي جيوشنا إلى أراضي شمال إفريقيا كصديقة و ستغادرها فور يزول الخطر الإيطالي الألماني. و تبقى سيادة فرنسا على المناطق الفرنسية كاملة."

وجه الرئيس الأمريكي "روزفلت" في 22 نوفمبر 1942 رسالة إلى السلطان المغربي يبين فيها عن ارتياحه للعلاقات الطيبة بين الجنود الأمريكيين و السكان المغاربة حيث أضاف: "إنني مرتاح و مسرور للعلاقات الأخوية بين الولايات المتحدة الأمريكية و المغرب، و التي تعود إلى عهد "جورج واشنطن"... إن انتصارنا على الألمان و الإيطاليين سيشهد انطلاقة جديدة لعهد من السلم و الازدهار للشعب المغربي بأكمله، و لكل الفرنسيين في شمال إفريقيا."¹

مواصلة لعملية الإنزال في المغرب، فقد أدى فشل عملية "بيثارد" إلى تفتن قوات فيشي مما جعلهم ينتظرون القوات المتحالفة بحزم كبير. و لم تشفع البيانات² التي أطلقتها الطائرات المتحالفة على التراب المغربي في منع جيش إفريقيا التابع لحكومة فيشي من الصمود أما القوات المتحالفة طيلة الأيام التي سبقت وقف إطلاق النار. و قد بعث الأميرال "ميشوليه" Michelier بالأسطول البحري إلى مواجهة السفن الحربية للقوات المتحالفة في عرض مياه البحر.³ مستعملا المعلومات الخاطئة التي قدمها له المكتب الثاني للبحرية. فتبسط في إخراج سفنه من الميناء مما جعلها تخرج في تشكيلة مجتمعة كانت لقمة سهلة للأسطول الحلفاء.

و لم يتمكن ضباط البحرية في حكومة فيشي من المحافظة على السفن التي كانت بحوزتهم و هلكوا في هذه المعارك. لم تتمكن القوات الفرنسية، على السواحل المغربية، من وضع خطة محكمة للوقوف أمام مختلف عمليات الإنزال التي قام بها الأمريكيون. غير أن "أمواج الأطلسي" عملت فعلتها و نابت عن القوات الفرنسية و ألحقت خسائر كبرى بالجيوش المتحالفة، خاصة منها الأمريكية. و قد شهدت سواحل "فضالة" خسائر كبيرة في صفوف الأمريكيين، حيث خسرت الناقلة الحربية "ليونارد وود" Leonard Wood 21 سفينة بحرية ارتطمت كلها بالأمواج مما خلف عدد كبير من الضحايا.

¹ - Roosevelt (F.D) et Churchill (Winston), Textes et discours sur la France, 1938-1944, pp 68-74.(95 P)
(Cité par Echaoui (Mohamed), Evolution de l'Economie ..., op.cit., p 71)

² - هذه البيانات قامت برميها الطائرات الأمريكية على كل أراضي شمال إفريقيا التي تقرر فيها الإنزال. و قد كتبت باللغتين العربية و الفرنسية، و مفادها أن جيوش الحلفاء جاءت لتنقذ شعوب شمال إفريقيا من سيطرة الألمان و فيشي. و جاء النداء على شكل بيان وجهه الرئيس "روزفلت" لسكان شمال إفريقيا عشية الهجوم على سواحل الجزائر و وهران و المغرب. أنظر الملحق رقم 7.

³ - يعتبر "في دو بري لي" أن الأميرال "ميشوليه" قد بعث بالأسطول البحري عمدا إلى الهلاك لملاقاة السفن الحربية لقوات الحلفاء و ذلك حتى يجنب الحلفاء خسائر كبيرة قد تؤثر كلية على عملية الإنزال. و ما زاد في هذا الطرح هو أن الأميرال قد بقي في اليابسة و لم يكن مع الأسطول البحري.

2- اشتباكات عنيفة في المغرب لإنهاء التمرد

تلقى الجنرال "نوقس"، في العاشر من نوفمبر من سنة 1942، أوامر بإيقاف القتال، بعد معارك ضارية و اشتباكات عنيفة بين الأطراف المتنازعة. كما عملت عملية الإنزال فعلتها في المغرب و كشفت عن الصورة الحقيقية لفرنسا. هذا ما فهمه الوطنيون المغاربة و شرحه أحد المؤرخين المغاربة حين كتب يقول: "لقد كان لهذه الهزيمة الثانية، بعد تلك التي تكبدتها فرنسا مع بداية الحرب ضد الألمان، وقع كبير على المغاربة الذين رأوا فيها حاميمهم يتعرض هو الآخر لحماية القوى المتحالفة. و رأوا بأن فرنسا لم تعد تلعب سوى دور المنفذ لأوامر الحلفاء. حيث كانوا يتلقون الأوامر من الأمريكيين و ينفذونها تحت رقابتهم.. هذا ما سمح للملك و وزرائه و أعوانه من توسيع دائرة نشاطهم بمساعدة أمريكية على جميع الأصعدة. فكانت أولى اللقاءات بين الطرف الأمريكي و المغربي.."¹

من الواضح أن الأمور اختلطت في المغرب قبل وقف إطلاق النار بين القوات الفرنسية، بقيادة الجنرال "نوقس" من جهة، و قوات الحلفاء من جهة أخرى. بسبب الخلاف الذي جمع الجنرال "بثوار" Bethouard و عقداً الوحدات الموجودين تحت إمرته، و مساعد الأميرال "ميشوليه" Michelier الموالي للجنرال "نوقس". و قد يعود السبب إلى كون الأوامر المنتظرة من الجزائر لم تصل في وقتها، خاصة من القادة الذين كانوا على دراية بعملية الإنزال على سواحل شمال إفريقيا. و نذكر على وجه التحديد الرجل القوي الجديد، الجنرال "جيرو" الذي استولى على السلطة في الليلة نفسها.²

تعتبر هذه الوضعية من الأسباب التي جعلت عملية الإنزال تشهد كل هذه المقاومة من القوات الفرنسية المرابطة في المغرب، و التي اعتبرها الجنرال "نوقس" بمثابة انقلاب على حكومة "فيشي"، مما أدى إلى زهق كل هذه الأرواح البريئة من مدنيين و عسكريين، و لم تتوقف المعارك إلا بعدما تم الاتفاق مع الأميرال "دارلان" في الجزائر. لكن هنا نفتح "قوس" عن التصرف الذي أبداه كل من "نوقس" و "ميشوليه" للتصدي لقوات الحلفاء رغم نداءات الرئيس "روزفلت" و الرسائل التي قدمها القنصل الأمريكي "دوايت" لكل من "نوقس" و السلطان المغربي.³

أصبحت مسألة المعارك في وهران و في المغرب بمثابة أزمة بالنسبة للقوات الأمريكية، التي حاولت التفاوض أيضاً مع "جيرو" معتبرة أنه دين عليها، ما دام أنه كان من الذين قبلوا فكرة الحلفاء حول الإنزال

¹ - في هذا الموضوع أنظر كل من:

- Benmansour Abdelwahab, Hassan II Roi du Maroc, Rabat, 1969. (Cite par Lugan Bernard..., Histoire du Maroc..., op.cit., 264)

² - Levisse Touze (Christine), L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 245.

³ - Ibid., p 247.

حتى قبل بدء العملية بأشهر. و بقيت الأوضاع متأرجحة بين اتخاذ القرار القاضي بوقف العمليات العسكرية و بين التردد خوفا من ردود أفعال الألمان الذين هددوا باحتلال المنطقة الحرة في فرنسا و دخول تونس، إذا خضعت السلطات الفرنسية للحلفاء و أوقفت القتال.

فكانت البرقيات متناقضة ما بين الجنرال "دارلان" و "بيار لافال" و المارشال "بيتان" و "روشا"، مدير الشؤون السياسية الذي كان يعتبر هو أيضا من أنصار مواصلة المعارك. و هذا ما أورده بإسهاب عدد من الباحثين و المشاركين في أطوار القضية.¹

كلفتم عملية الإنزال خسائر كبيرة على الصعيد العسكري. إذ كانت القوات المتحالفة موجودة بكثافة على طول السواحل المغربية في سيدي الصافي وميناء ليوثي، ملحقة أضرار بالقوات البحرية و الجوية الفرنسية. أما الدار البيضاء فتم الهجوم عليها بالدبابات، بينما تم تطويق مدينة وهران في الجزائر و تم قطع خطوط المواصلات و الماء على سكانها إلى حين دخول القوات الأمريكية و الاستيلاء عليها.²

كل هذه الفوضى و التضارب الحاصل بين القيادات المختلفة في حكومة "فيشي" حول موضوع الدعم من عدمه لقوات الحلفاء في المغرب، لم يوقف النزيف الذي تعرض له سكان المغرب إلا في 12 نوفمبر بعد تدخل الجنرال "جوان" و اقتناع الجنرال "نوقس" بعدم جدوى مواصلة المعارك أمام المخاوف المرتقبة من السكان. فاجتمع "نوقس" مع الجنرال "باتون" في "فضالة" و أعلن وقف المعارك في 11 نوفمبر و طلب منه الحضور إلى الجزائر يوم 12 نوفمبر لوضع حد نهائي للعمليات العسكرية باعتباره الممثل الرسمي للدولة الفرنسية في غياب المارشال "بيتان" الذي عينه كممثل شرعي و وحيد في شمال إفريقيا.³

3-ردود الأفعال الفرنسية حول عملية الإنزال

¹ - Voir a se sujet :

- Michel Henry, **Pétain. Laval. Darlan** Trois politiques ?, Éditions Flammarion, Paris, collection questions d'histoire, 1972, pp 63-64 et p 302.

- Mark Clark (General), Les Allies jouent et gagnent, éditions Berger-Levrault, Nancy, 1952, pp 77- 98-100.

- Moreau Jacques, Les derniers jours de Darlan, Pygmalion éditions, Paris, p 171.

- Coutau-Bégarie et Huan Claude, Darlan..., op.cit., pp 603-605

- Bethouard Antoine (General), Cinq années d'Espérance, mémoires de guerre 1939-1945, éditions Plon, Paris, 1968, pp 148-160.

² - Levisse Touze Christine, L'Afrique du Nord..., op.cit., p 251.

³ - رغم أنه عين من طرف "بيتان" ليحل محله، إلا أن الجنرال "نوقس" بقي وفيا للمارشال و لم ينفرد بأي قرار قد تنجم عنه توترات إضافية بين القادة الفرنسيين، خاصة و أن الأخبار كانت تتحدث عن احتلال ألمانيا للمناطق الحرة و لتونس و وقوع "دارلان" أسيرا في يد الحلفاء، بالإضافة إلى أن الجنرال "جيرو" كان يعتبر نفسه منصبا كقائد عام للقوات الفرنسية من طرف الحلفاء، الأمر الذي حد من نفوذ "نوقس".

مع نزول قوات الحلفاء في الثامن من شهر نوفمبر 1942، أصبحت بلاد شمال إفريقيا من النظرة القانونية مستعمرة "حلفائية" أي خاضعة لسيطرة و حكم الحلفاء، ما دام أنهم هم الذين قاموا بتخليص منطقة شمال إفريقيا من شبح النظام المتعاون مع الألمان، و ذلك منذ أن وطأت أقدام الألمان الأراضي الفرنسية في جوان 1940. و قد تم هذا الإنزال بالرغم من كل التنازلات التي قدمتها حكومة "لافال" الفرنسية إلى الألمان. غير أن ذلك لم يمنع "فيشي" من الاستمرار في التمتع بحرية حكومتها ما دام أنها كانت تتوفر على خاصيتين أساسيتين هما، الجيش و أراضي متحررة. إضافة إلى حيازتها على ورقتين رابحتين هامتين، باعتراف كل الأطراف المتنازعة، و هما الإمبراطورية و الأسطول. مما مكنها من ربط علاقات دبلوماسية مع معظم البلدان المحايدة أو المتنازعة، سواء كانت في معسكر الحلفاء أو معادية له. و بداية من 27 نوفمبر من سنة 1942، لم تبقى هناك منطقة حرة، فأصبح الجيش منحل، و الأسطول محطم. فدخلت كل أجزاء الإمبراطورية في وضعية الانفصال. و حدث كل هذا في ظرف ثلاث أسابيع.¹

أما عن رد الفعل الفرنسي تجاه عملية الإنزال، فيمكن القول بأن ذلك كان مفاجئا لهم، و كانت مخاوفهم في فقدان هذا الجزء من الإمبراطورية. و كلا من حكومة "فيشي" و حكومة "ديغول" وضع أمام الأمر الواقع. فالمارشال "بيتان" صادق على الاتفاق المبرم بين "دارلان" و الأمريكيين. أما "ديغول"، زعيم فرنسا الحرة، فبالرغم من عدم إشراكه أصلا في العملية، إلا أنه وجد الفرصة الكبيرة في إشراك شمال إفريقيا في الحرب، مغتنما الأوضاع المزرية من أجل الاستيلاء على السلطة بعدما قضى على السلطات المحلية الموالية لحكومة "فيشي". غير أنه لم يطمئن أبدا للنوايا الحقيقية لكل من "روزفلت" و "تشرشل".

غير أنه لما حان يوم الإنزال، توجه "ديغول" إلى السكان الأوروبيين؟؟؟ في شمال إفريقيا بهذه العبارات: "انضموا أيها القادة الفرنسيين، أيها الجنود، البحارة، الطيارين، الموظفين و المستوطنين الفرنسيين، ساعدوا حلفاءنا انضموا إليهم دون هوادة... لا تهتموا للأسماء و لا للعبارات. أهم شيء هو خلاص الإمبراطورية... لا تسمعوا لأصوات الخونة الذين يريدون إقناعكم بأن الحلفاء سوف يستولون على إمبراطوريتنا."²

لقد أفرزت عملية الإنزال و معها تنصيب الأمريكيان و الإنجليز أنفسهم أسياد شمال إفريقيا، حالة من الغموض عند الفرنسيين. و أصبحت العقد تحل و تربط في أيام و ليالي الجزائر، طيلة الفترة التي امتدت من نوفمبر 1942 إلى جوان 1943. و بقيت خيارات الحلفاء تنتقل من شخصية فرنسية لأخرى، دون إعارة أي

¹ - Aron (Robert), Histoire de Vichy..., op.cit., p 538.

² - إن الوجود الأمريكي و الإنجليزي على أراضي شمال إفريقيا شكل قلقا كبيرا بالنسبة "لشارل ديغول" لدرجة أنه كان يعتبر ذلك مساسا بالسيادة الفرنسية في المنطقة. كما أن عدم إشراكه في تحضير العملية في حد ذاته يعتبر مساسا بهذه السيادة. و قد أشار "كاترو"، أيضا، إلى هذا في كتابه. أنظر كل من :

- De Charbonnières (Girard), Le duel Giraud- De Gaulle, Plon éditions, Paris, 1984, p 29. (251p)
- Catroux, Op.cit, p 301.

اهتمام للجنرال "ديغول" الذي سوف يتحول إلى الممثل الشرعي و الوحيد للمقاومة الفرنسية التي ساهمت بشكل فعال في إنجاح عملية الإنزال. و قد اعتمد "ديغول" على أنصاره الذين وجدوا في الجزائر و أسسوا ما عرف باللجنة الوطنية للمقاومة، التي نصبته على رأس اللجنة الوطنية للتحرير الوطني، المجتمع في الجزائر يوم 3 جوان 1943.¹

سابعا: حملة الحلفاء على تونس لإحكام القبضة على شمال إفريقيا 1942-1943

مع نزول الحلفاء أراضي الشمال الإفريقي في الثامن من نوفمبر 1942، دخلت منطقة شمال إفريقيا مرحلة جديدة ميزها الحذر الشديد تجاه ما عرف "بالغزو الجديد" الذي تعرضت له فرنسا من قبل القوات الأنجلو-أمريكية في مستعمراتها. و توجه النظام الجديد "لقوات فرنسا الحرة" إلى استغلال طاقات و موارد شمال إفريقيا من جديد، كقاعدة خلفية حيوية في خدمة المجهود الحربي للحلفاء و جيوش الجنرال "ديغول".²

تمكنت القوات الأمريكية البريطانية من السيطرة على أهم النقاط و المناطق في المغرب و الجزائر، منها "بوجي" و قسنطينة و "بونة" و "فيليفيل" و تبسة. و تحوفت أمريكا من حدوث تحالف إسباني ألماني لذلك أبقى الجنرال "إيزنهاور" على فيلق بالقرب من حدود المغرب الإسباني. لذلك تعطلت عملية التقدم نحو تونس باعتبار أن الجيش البريطاني الأول، بقيادة الجنرال "أندرسن"، قد أعاقه كثيرا تقلب الطقس حيث أصبحت المناطق المخصصة للطيران عبارة عن أوحال.³

لقد شكلت الحملة على تونس الفرصة الأولى للقوات الفرنسية الحرة و جيش إفريقيا للمحاربة جنبا إلى جنب دون تداخل في المهام. لقد أثبتوا عزيمتهم من خلال قدرة جيش المشاة على تحمل المصاعب و المشقات. و تم تقدير شجاعة و إخلاص الجميع: طابور و صبايحية و قومية و قناصة، من طرف الحلفاء. كما أن عملية تجنيد "الاحتياطيين" لم تكلل دائما بالنتائج المنتظرة ما جعل هناك دائما نوع من القلق السياسي.⁴

بدأت المسألة التونسية في هذه المرحلة بالذات و كأنها غير مضمونة النتيجة بالنسبة للأمريكيين و الحلفاء على وجه العموم. و تحتل تونس مكانة إستراتيجية و مركز حساس نحو الحوض الشرقي للبحر المتوسط. لذلك كان من الضروري التحكم فيها قبل أن تسقط في يد قوات المحور التي سوف تلجأ إلى جميع السبل لإبقاء تونس بعيدة عن أطماع الحلفاء.⁵

¹- Durand (Yves), Histoire de la deuxième guerre mondiale..., op.cit..., p 123.

²- Levisse Touze (Christine), L'AFN recours ou secours?... thèse d'état..., op.cit..., p 938.

³- Dahms (Hellmut Gunter), op.cit..., p 206.

⁴- Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans..., op.cit..., p337.

⁵- Pujol (Bernard), Juin Marechal de France..., op.cit..., p 131.

بالعودة إلى ظروف الهدنة، نجدها قد قيدت كل أشكال الدفاع عن تونس. لأن القوات الفرنسية التي كانت في عين المكان لم تتعدى 13000 جندي غير مجهزين تماما يفتقدون لدعم جوي و بدون دعم من القوات المتحالفة، بمعنى، قوات قد خسرت خطوطها الدفاعية في الجنوب التونسي.¹

1- مواصلة تجنيد مسلمي شمال إفريقيا لخدمة الحرب

ساهم المحاربون من شتى المستعمرات الفرنسية في التخفيف من حدة الحرب على الفرنسيين، كما فعلوا ذلك من قبل خلال الحرب العالمية الأولى. و عموما للضرورة أحكام، فقد لجأت فرنسا من جديد لأهالي مستعمراتها كي يقفوا بجانبها في هذه المحنة العنصرية و شكلوا ما عرف بـ "جيش إفريقيا"، حوالي 20000 جندي من "مدغشقر" و "الهند الصينية" و 68000 جندي من إفريقيا السوداء. غير أن النسبة الكبيرة في هذا الجيش شكلها أهالي المغرب العربي بحوالي 340000 جندي.²

انضم هؤلاء المجندين إلى مختلف الوحدات العسكرية التي كانت موجودة منها؛ فرق الصبايحية³ Spahis و القوم⁴ و الطابور و الزواف⁵ و التيراوير⁶ و صيادي إفريقيا⁷ Tabors- Zouaves et Tirailleurs- Chasseurs d'Afrique-Goums و كانت هذه التجربة فرصة بالنسبة لهم لاكتشاف أشياء جديدة لم يكونوا

¹ - Le général Barre dispose en tout et pour tout de 3 groupes d'artillerie de 75, de 6 batteries de DCA, de 15 automitrailleuses et de 15 chars de type ancien. Voir :

- Pujo Bernard, Juin maréchal de France..., op.cit., p 376.

² - Bournier (Isabelle) et Pottier (Marc), Atlas de la seconde guerre mondiale, éditions Casterman, Paris, 2006.

³ - تأسست أول فرقة الصبايحية بمقاطعة وهران في شهر أوت من سنة 1836، و ذلك بعد ضم كتيبة أتراك مستغانم. و نفس الملاحظة تنطبق على صبايحية مدينة عنابة، أين أسس الجنرال "يوسف" أول فرقة تركية سنة 1833، في سنة 1837 بمدينة قسنطينة. أنظر:

- ولد النبيه كريم، الجزائريون و الإدارة المحلية الاستعمارية في عمالة وهران 1866-1947، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2005-2006، ص 340.

⁴ - فرقة القومية، و هم المتطوعون العرب الذين ينخرطون فرسانا تحت قيادة الأغوات أو القيايد للدفاع عن العلم الفرنسي. و يمكنهم أن يحصلوا على رتب عسكرية و لكنها غير رسمية، بل شرفية فقط. أنظر:

- ANOM, série H, 3H12, voir instruction de l'année 1910.

⁵ - أنشأ الجنرال "كلوزيل" فرقة مشاة متكونة من بعض الجزائريين المرتزقة أطلق عليها اسم "فرقة الزواف" و كان ذلك في الفاتح أكتوبر 1830. و كان يطمح إلى تكوين فرق أخرى، حيث أنشأ فرق محلية عند دخوله مدينة المدية. و في 31 مارس صدر مرسوما ملكيا يأمر بضرورة تكوين فيالق من الزواف في الجزائر تتكون من 900 جندي و 30 ضابط. كما أنشأ الاستعمار الفرنسي مثل هذه الفرق في كل مناطق شمال إفريقيا: في مدينة صفاقس بتونس و مدينة مكناس بالمغرب الأقصى. أنظر إلى:

- ولد النبيه كريم، الجزائريون و الإدارة المحلية الاستعمارية..، مرجع سابق، ص 339.

⁶ - أو كتائب القناصين، و قد أنشأت كتيبة في مدينة تلمسان التي كان بها المقر الرسمي لفرقة قناصة الناحية الغربية، و مدينة باتنة في الشرق، و مدينة المدية في الوسط.

⁷ - في يوم 17 نوفمبر 1831 نشأت كتيبتين من الفرسان تحمل اسم "صيادي إفريقيا"، استقرت في نواحي مدينة الجزائر. ثم أسس الجنرال "بوبر" Boyer، مع ما تبقى من الحامية التركية للباي حسين بضواحي وهران كتيبة ثالثة تحمل اسم "صيادي نويميدا". علما أن الحامية التركية للداي حسين تم تسريحها و حلت بمجرد دخول الفرنسيين مدينة الجزائر.

يحملوا بها حتى. الأمر الذي سيؤدي بهم إلى الخروج من قوقعة المحيط الاجتماعي و المساهمة في تحسين أوضاعهم و أوضاع ذويهم المادية.¹

مع نهاية عملية الإنزال، شرعت فرنسا في حملة تجنيد ثانية بداية من 11 ديسمبر 1942، تأهبا للمعارك المنتظرة. غير أن العملية لم تشهد، كعادتها، إقبال الجزائريين، مما جعل البعض يعترف بأن الموقف هذا يعيده التاريخ فيما يخص عمليات التجنيد التي طالت الجزائريين طوال فترة الوجود الاستعماري، خاصة عملية تجنيد الحرب العالمية الأولى حيث ظهرت أولى ملامح الاستياء لدى الجزائريين منذ سنة 1915 عندما رفض المجندون الالتحاق بصفوف الجيش الفرنسي.²

كما يرى البعض من المؤرخين بأن نهاية سنة 1942 كانت مليئة بالنقاط السلبية، خاصة في البلديات المختلطة المعروفة بذهنية المطيع لفرنسا. فمثلا نجد أن الاستجابة للتجنيد لم تتعد في "الأربعاء ناث إيراثن" Fort-National، 129 مجند من بين 239. أما في "ميشلي" Michelet، فوصلت إلى 150 مجند من أصل 248 مستدعى. و لم يبق أمام السلطات العسكرية الفرنسية إلا تجنيد أرباب الأسر العديدة و السجناء الذين تم إطلاق سراحهم من السجون الفرنسية. أما غير المتزوجين من جنود سلاح المشاة، فمكثوا في بيوتهم. و اعتبر حاكم دائرة "تيزي وزو" أن طريقة الاستدعاء قد أغضبت نوعا ما السكان القبائل الذين اعتادوا على ذهنية المساواة بين السكان. و اعتبروا كذلك أن ظروف تلبية الاستدعاء قصيرة و يمكن فقط أن يكون الفرد غائبا يوم تلقيه الاستدعاء ليهرب من التجنيد.

ازدادت مخاوف السكان من العودة إلى عملية تجنيد جديدة، بمجرد أن وطأت أقدام الحلفاء أراضي شمال إفريقيا. يضاف إلى ذلك الدعاية الألمانية المؤثرة التي مورست على السجناء الذين تم تسريحهم مقابل أن يقوموا بالدعاية للألمان في مدنها و قراهم.³ من جهة أخرى، كان يرى البعض أن هذه المعارضة لعملية التجنيد لم تكن صادرة من توجيهات الحركة الوطنية بقدر ما كانت نابعة من قناعات الجزائريين بأن المساواة أمام ضريبة الدم لا بد أن تكون متبوعة بالمساواة في الحقوق السياسية. و طرح فرحات عباس المسألة على هذا النحو: "يريد المسلمون أن يشركوا في المصير المشترك دون دفع نفس الضرائب..."⁴

¹ - Bournier (Isabelle) et Pottier (Marc), Atlas de la seconde guerre mondiale..., op.cit..., p 32.

² - تميزت عملية التجنيد خلال السنوات التي سبقت الحرب الكبرى و أثناءها، بتمرد كبير عند الجزائريين (الأولياء و المجندين)، لدرجة ظهور اشتباكات و بؤر توتر عبر مدن و قرى و مداشر جزائرية، وصلت إلى حد تراجع السلطات الفرنسية الاستعمارية عن تجنيد حوالي 10000 شاب جزائري. في الموضوع ينظر كل من:

- Ageron Charles Robert..., Histoire contemporaine de L'Algérie..., op.cit..., pp

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme Algérien...

- Levisse-Touzé Christine, l'Afrique du Nord..., op.cit..., p 344.

³ - ANOM, Aix-en-Provence, Série H, 9H43, rapport du sous-préfet de Tizi-Ouzou au Préfet d'Alger daté du 12 décembre 1942.

⁴ - Koerner (Francis), « Le mouvement nationaliste algérien novembre 1942-mai 1945 », in Revue d'Histoire de la Deuxième Guerre Mondiale, n° 93, année 1974, pp 45-64. Et voir aussi : Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit..., p 558.

نفس الصعوبات لوحظت في شهر جويلية 1943 عندما همت السلطات الاستعمارية بإعادة استدعاء دفعات سنوات 1935 و 1936، حيث تم إحصاء في عمالة الجزائر لوحدها حوالي 11129 جندي متمرد عن الخدمة من بين 56545 مسجل. منهم 980 من بين 1518 في مدينة الجزائر، و 581 من بين 674 في دائرة البلدية.¹

كان تأثير حزب الشعب الجزائري واضحا في رفض التجنيد و على التصرفات التي تجرأ الجزائريون على مواجهة السلطات الاستعمارية بها، الأمر الذي جعل السلطات الاستعمارية تقدم على توقيف العشرات من مناضلي الحزب في الجزائر و البلدية بحجة أنهم قاموا بالترويج لفكرة العصيان ضد التجنيد. غير أن ذلك لم يعجب المصاليون الذين هددوا بالضغط على السلطات الاستعمارية لأنهم ببساطة لم يهضموا وجود زعمائهم في السجن بينما كان الشيوعيون يتمتعون بالحرية خارج أسوار السجون.

رغم الاعتقالات التي طالت حزب الشعب، تمكن أعضائه من إعادة تشكيل اللجنة المركزية بقيادة الدكتور "الأمين دباغين" بداية من خريف 1942، حيث وصل عدد المشتركين في الحزب إلى 500 مشترك موزعين عبر مراكز حساسة في كل من: قالمة و موندوفي و بونه و تلمسان و شرشال و خاصة البلدية.

هذا الواقع حرك مشاعر "فرحات عباس" الذي أصبح هو الآخر يشدد على السلطات الفرنسية من خلال خطابه المتتالية: "لن يتم تجنيد الشعب الجزائري إذا لم يعرف لماذا يحارب.. و إذا لم نتوصل إلى اتفاق مع الحكومة فسوف أنزل إلى الشارع..²

هذه المعارضة وجدت جذورها في التوزيع غير العادل للمنح بين الأوروبيين و المسلمين، حيث مقابل 15300 فرنك لعائلة أوروبية متوسطة، تعطى 7920 فرنك لعائلة جزائرية مسلمة. من هنا يبدأ تدمير المسلمين الجزائريين لأنهم لا يفهمون هذا التراجع للسلطات الاستعمارية التي كانت قد وعدتهم بمساواة، كانوا قد استحقوها بعد الانتصارات المحققة في ميادين المعركة خلال الحملة على تونس.³

أما عملية تجنيد المسلمين التونسيين فلم تعطي النتائج المرجوة حيث شهدت المرحلة الأولى من عملية التجنيد انخراط حوالي مائة تونسي تم تجميعهم في كتيبة مختلطة بقيادة النقيب "بليتي" Peltier. غير أن الجنود المسلمين كانت لهم المهام القذرة حيث أجبروا على تأدية أعمال شاقة في جبهات القتال المتقدمة، الأمر الذي جعلهم يفقدون الرغبة في مواصلة المعركة تحت السلطة الفرنسية مما دفعهم باللجوء إلى الجيش الألماني و الانخراط في صفوفه. فتم تجميعهم في " الفيلق الجزائري " بقيادة "ملازم" ألماني.⁴

2- استمرار الدعاية المتضاربة لتصعيد المسألة التونسية

¹ - AN, F60-811, région d'Alger, subdivision de Blida, rapport de l'officier des affaires musulmanes du 12 juin 1943.(Cite par: Levisse Touze., L'Afrique du nord..., op.cit., p.)

² - Levisse-Touze (Christine), L'Afrique du Nord..., op.cit., p 345.

³ - AN, F60-812, bulletins mensuels d'information et de documentation sur la situation politique établis par la sécurité générale du gouvernement général, datés du mois de juillet 1943.(Cite par Levisse Touze., p.)

⁴ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit., p 202.

تواصلت العملية الدعائية بعد نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا في الاتجاهين المتعاكسين، بين الحلفاء و دول المحور، و ذلك لغرض تغطية النقائص التي كان من الممكن أن تؤثر في مجريات العمليات العسكرية خاصة مع نقص الأخبار و تضاربها عبر القنوات المختلفة التي سخرت لهذا الغرض.

من المفارقات العجيبة عند دول المحور، أن الدعاية الألمانية قد ازدادت انتشارا بعد الإنزال الأنجلو-أمريكي، فكثفت الإذاعات الألمانية من نشاطها و هاجمت الخائنين و طالبت من الجنود الفرنسيين و الجزائريين البقاء أوفياء لقائدهم الشرعي و هو المارشال "بيتان" الذي أنكر تصرفات الجنرال "جيرو" و أقدم على إقالة الجنرال "دارلان".

فقاموا بتحريضهم على محاربة "الغزة الأنجلو- ساكسون". و بقيت برامج "إذاعة شتوتغارت" و "إذاعة باري" تستقطب إليها المستمعين المسلمين. كما قامت "إذاعة باريس"، عن طريق المروج لدعايتها "المعادي"، بإطلاق حملة للعصيان و الهروب من الجيش. كما طالبتهم بعدم تسليم أسلحتهم للأمريكيين و الاستعداد للحرب الاستقلالية القادمة.

تطورت هذه الدعاية مع مطلع سنة 1943 عندما تم تأسيس قناتين جديدتين و هما: "الكفاح الاجتماعي" La lutte sociale، و "التحرير" Libération. فأصبحت الإذاعات و المنشائر الصحفية تلعب دورها الدعائي في الترويج إلى أخبار خاطئة. و حاول "يونس البحري" خلق نوع من الفوضى بإعلانه عن قصف جوي ألماني محتمل كل ما دعت الضرورة إلى ذلك. أما المساجين الألمان و الإيطاليين الفارين من المعتقلات فكانوا يجدون المساعدة اللازمة في أوساط السكان الجزائريين في القطاع القسنطيني.¹

أما في منطقة قلمة، فقد أوردت مصالح "المكتب الثاني" أن المسلمين الجزائريين يرغبون في انتصار الألمان لأن ذلك سوف يمكنهم من استعادة أراضيهم من الكولون الفرنسيين.²

لم يبق أمام الإدارة الاستعمارية سوى البحث عن كبش فداء لتغطية ضعفها، فاتهمت أعضاء من حزب الشعب الجزائري بضلوعهم في الدعاية الألمانية و الترويج لها في الأوساط الجزائرية المسلمة. غير أن الواقع كان غير ذلك باعتبار أن "مصالي" من سجنه قد منع على أعضاء الحزب التقرب إلى دول المحور.

نشطت الدعاية من كل جوانبها، مطورة مواضيعها المفضلة كمحاربة السامية و خيانة الجنرالات الفرنسيين. و ما زاد الأمور أكثر حدة، هو انتشار المظليين من المعسكر العدو في الجزائر الأمر الذي اعتبره البعض على أنه انتشار "للطابور الخامس". و أصبحت تطلق إشارات مضیئة تجاه طائرات قوات المحور

¹ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie..., op.cit..., pp 203-204. Et voir aussi : Jauffret Jean Charles..., op.cit..., T1,

² - Archives du SHD, série 1H2811, 2° bureau, état-major de la division de Constantine, bulletin de renseignements n° 48, daté du 15 mars 1943. Cité aussi par : Jauffret Jean Charles..., op.cit..., p 39.

لإعلامها بالأماكن المسكونة من طرف الإيطاليين حتى يتم تخبئهم القصف.¹ و في شهر ماي 1943 بدأ سكان منطقة القبائل يتفألون بنصر ألماني على قوات الحلفاء.²

كما لعبت الصحف و المجلات، و الخبراء المتعاونين، و المساجين الفارين،³ دورا هاما في دعم السياسة الألمانية. أما الصحف فكان معظمها يطبع في برلين. و كان تأثيرها كبيرا في عمالة وهران. و نذكر منها مجلة "الإشارة" **Le Signal** التي لقيت رواجا بين الأوساط المساندة للمحور.⁴ أما عن مجلة "العالم العربي" التي كانت تطبع في العاصمة البرتغالية "لشبونة"، فقد حجزت المصالح الأمنية الفرنسية عددا منها في جويلية 1943 بمدينة وهران.⁵

عمدت ألمانيا إلى توزيع المناشير التي كانت تكتب باللغة العربية و توزع على الجزائريين، كما حدث ذلك في بلدية "سيدي علي" بدائرة مستغانم خلال شهر مارس 1943، حيث عثر على منشور بعنوان: "أيها الجنود" يحث الجزائريين على الالتحاق بقوات المحور. و اعتبر بمثابة "رخصة للمرور" **Laisser passer** لمن يحمله.⁶ أما في دائرة معسكر، فقد عثر على منشور يحمل نفس مواصفات المنشور الأول، و في نفس الفترة الزمنية، يحمل عنوان: "نداء إلى المغاربة"، و الذي حمل انتقادات لاذعة للحلفاء، و حث الجزائريين على الانضمام إلى صفوف المحور.⁷

تجسدت الدعاية الألمانية ميدانيا في معظم مدن الجزائر و من هنا نتساءل: هل تفاعل معها السكان؟ و إلى أي درجة؟ في الواقع، لقد لمسنا جلليا تأثير الدعاية الألمانية على الجزائريين و سلوكياتهم، من خلال المناسبات التي كانت تقام خلال الحفلات العائلية، مثل الأعراس، حيث لم يتوان "البراح" من وصف هتلر "بالحاج الزعيم" عندما يهيم بجمع الأموال المهداة من قبل الحاضرين إلى أهل العريس.⁸ كما تفنن شيوخ الحلقات الأسبوعية التي كانت تقام في الأسواق الشعبية بمدح خصال هتلر عبر ترديدهم لقصائد الشعر الملحون و كانت أمالهم فيه كبيرة لتخليصهم من الاستعمار.⁹

في المقابل، كان الحلفاء يضعون كل أمالهم في موقف مؤيد لسكان شمال إفريقيا في عملية مواصلة المعارك و القضاء على القوة الألمانية، على وجه الخصوص. كما كان للموقف الفرنسي أثاره في تحديد نهج الدعاية الفرنسية الجديد الذي تبنته حكومة المنفى بقيادة الجنرال "ديغول".

¹ - Faligot (Roger) et Kauffer (Rémi), Le croissant et la croix gammée, les secrets de l'alliance entre l'islam et le nazisme, d'Hitler à nos jours, éditions Albin Michel, Paris, 1990, p 118.

² - AN, F60-811, 19^e région subdivision d'Alger, et de Tizi-Ouzou, rapport mensuel du 15 mai au 15 juin.

³ - A.W.O, Pref. Oran, CIE Oran, N° 379, juillet 1941. Et aussi: CIE Oran, N° 127, avril 1941.

⁴ - A.W.O, B, 4477, dossier presse indigène, Pref. Oran, CIE, N° 623, décembre 1942.

⁵ - A.W.O, B, 4476, Police spéciale, Oran, N° 2279 du 14/07/1943.

⁶ - A.W.O, B, 4477, rapport du CIE Oran, N° 280 du 23 mars 1943.

⁷ - A.W.O, B, 4477, rapport du CIE Oran, N° 279 du 23 mars 1943.

⁸ - A.W.O, B, 4476, Police spéciale, Oran, N° 2601 du 20/07/1943.

⁹ - A.W.O, Préf. D'Oran, CIE, N° 225..., Septembre 1942.

سارت دعاية حكومة المنفى بقيادة الجنرال "ديغول" وبدأت تبث من إذاعة "لندن"، حتى قبل أن توقع حكومة "بيتان" على الهدنة، واستمرت بنداؤها نحو شعوب المستعمرات الفرنسية وخاصة منها الجزائر. و قد جاء في خطاب ألقاه "ديغول" يوم 18 جوان 1940 عبر أمواج إذاعة "لندن" جاء فيه:¹ "ضعوا ثقتكم فينا، إنني أتحدث إليكم من باب معرفة الوقائع.. أقول لكم أن الأمل لا زال قائما بالنسبة لفرنسا.. و من نفس الإمكانيات التي هزمتنا، يمكن أن يأتي النصر.. و لم نخسر شيئا ما دام أن هذه الحرب عالمية.. و في هذا العالم الحر، هناك قوى عظمى لم تدخل المعركة بعد.. و في يوم ما ستمكن هذه القوى من تحطيم العدو، يومها على فرنسا أن تكون حاضرة للنصر.. عندها، يمكنها استعادة حريتها و عظمتها.. هذا هو هدي الوحيد..." و قد أوردت جريدة "صدى وهران"² مقالا مطولا لنداء الجنرال "ديغول" في أحد أعدادها. هذا الموقف هو الذي دفع ببريطانيا إلى الاعتراف بالجنرال ديغول كزعيم لحكومة المقاومة الفرنسية في المنفى.³ و كان "تشرشل" نفسه قد اهتم لهذا الأمر، لأنه كان يمثل إحدى الخطوات الرئيسية لوقف التقدم الألماني نحو بلاده.

كما نشطت الدعاية الديغولية في القطاع الوهراني خلال صائفة 1942،⁴ فأحدث ذلك تخوفا من أن تفتح جبهة قتال جديدة في إفريقيا الشمالية.⁵ و قد دعا الأميرال "دارلان" Darlan الجزائريين في ديسمبر 1942 إلى نصرته جيوش الحلفاء و حكومة فرنسا الحرة، وكما قال: "إن فرنسا لن تتخلى عن واجباتها تجاه المسلمين..."⁶ غير أنه لم يعيش طويلا و تم اغتياله في نفس الشهر.

و حتى بعد انتصار القوات المتحالفة في شمال إفريقيا، تواصلت الدعاية الفرنسية الديغولية مركزة على ضرورة تجنيد الجزائريين في مقابل تقديم الوعود بإجراء الإصلاحات الضرورية التي ينتظرها الجزائريين. و في هذا الإطار بعث الجنرال "ديغول" تعليمة إلى رؤساء العمالات الثلاث، في جوان 1943، يحثهم فيها على التركيز و العمل على تغيير عقلية الجزائريين تجاه حكومة فرنسا الحرة، كما جرهم إلى محاربة دول المحور عكس ما كانت عليه الأمور في عهد حكومة "فيشي".⁷

و تماشيا مع الأوضاع، انجذبت دعاية الدول المتحالفة هي الأخرى نحو استعمال وسائل متنوعة لجلب الجزائريين نحوها نذكر منها؛ الاهتمام بالجندين الجزائريين القدامى و الجدد، و التوزيع المجاني للمواد الغذائية، و زيارة دار العسكري بوهران و تلمسان، و الاتصال بعدة شخصيات جزائرية مسلمة بمنطقة الغرب الجزائري

¹ - Reinhardt (Marcel) .., op.cit, p 478.

² - A.W.O, dossier presse, L'Echo d'Oran, du 18/06/1940.

³ - New-York Times, « British government recognizes Gen.Charles de Gaulle as leader of group to maintain French resistance », June 28, 1940, p 01. Cité par: Chronology Of International Events, March 1938 To December 1941, Issued By The Department Of State, December 18, 1941. (Department of State, bulletin, December 27, 1941, p 590.)

⁴ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 470.., Août 1942.

⁵ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 582.., novembre 1942.

⁶ - Nouschi (André) , La naissance du nationalisme, op.cit, p 132.

⁷ - A.W.O, B, 4480, rapport du commissariat à la coordination des aff.musul, N° 2, Alger le 21 juin 1943.

نذكر منهم: "ابن حليلة محمد" نائب مالي سابق، و "ابن ديدونة محمد" من سيق، و "لالوت" أخ المستشار العام بسبيدي بلعباس، و أخيرا، "ابن خدة بلعربي" مستشار عام.¹

اغتنم الحلفاء وتيرة الانتصارات للتقرب أكثر فأكثر من شخصيات جزائرية أخرى، حتى و لو كان ذلك بطرق غير مباشرة، منهم "باشتارزي بن عودة" مستشار عام، و "التازي إدريس"، حيث كان بعض اليهود يقومون بدور الوساطة بين الأمريكيين و الجزائريين المسلمين.² و تشير إحدى تقارير الشرطة إلى أن أحد الجنود الأمريكيين، و هو من أصل عربي، يكون قد صرح للجزائريين في ضواحي عين تموشنت: " إن الأمريكيين يهتمون بالعرب مثلما يهتم الإنجليز بالإسرائيليين..."³

واصل الحلفاء دعايتهم بفتح مراكز وثائقية عبر مدن عديدة من العمالة الغربية، و قاموا بعرض الصور و توزيع المناشير و الدوريات باللغة العربية و الفرنسية تتعلق بمجهودهم الحربي في سبيل القضاء على النازية. و بيعت مجلات بأثمان رمزية، منها مجلة "المستمع العربي" L'Auditeur arabe ، إلى جانب المجلة الأمريكية "النصر" La victoire ، التي أصبحت تباع في مدينة وهران منذ نوفمبر 1943. كما كانت تصل جرائد من المغرب الشقيق أهمها جريدة "أخبار الأسبوع" Nouvelles de la semaine برعاية القنصل العام الإنجليزي في مدينة "طنجة".⁴ و كلها عمدت إلى نشر مقتطفات من "وثيقة الأطلسي" La charte de l'atlantique ، التي أذيعت محتوياتها عبر إذاعة لندن، و إذاعة موسكو، و إذاعة واشنطن.⁵ الأمر الذي لم تتجاهله الأوساط الجزائرية الكيسة.⁶

هكذا نرى بأن الدعاية الاستعمارية اختلفت أهدافها من معسكر لآخر، فحكومة "فيشي" حاولت حفظ ماء الوجه لكبرياء فرنسا المكسور بعد الهزيمة و التوقيع على الهدنة المذلة، بإتباعها سياسة دعائية مدعمة بالوسائل القمعية، و أن "ديغول" حاول إنقاذ شرف فرنسا المفقود بتشكيله "اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني" و اعتماده على حليف فرنسا التقليدي: بريطانيا، ثم بعدها الولايات المتحدة الأمريكية، التي تمكنت بفضل إمكانياتها العسكرية كسب تعاطف الجزائريين الذين كانوا يأملون في أن تتحسن ظروفهم عما كانت عليه من قبل، و خاصة الطبقة السياسية و المثقفة، التي رأت في ذلك فرصة لاستئناف نشاطها السياسي و مطالبة القوات المتحالفة بحقوق الشعب الجزائري.

3- الرهان العسكري الفرنسي في اتحاد جيوش إفريقيا

¹ - A.W.O, B, 4477, rapport du CIE Oran, N° 280 du 20 mars 1943.

² - A.W.O, B, 4477, rapport du CIE Oran, N° 280 du 20 mars 1943.

³ - A.W.O, B, 4477, rapport de police N° 1237, du 22 avril 1943.

⁴ - Voir avec les bulletins CIE Oran, N° : 663, Septembre 1943/ N° 696, Octobre 1943/ N° 729, Novembre 1943/ N° 86, de Février 1944.

⁵ - Mekhaled (Boucif), Chronique d'un massacre, 8 mai 1945 : Sétif, Guelma, Kherrata, édit. Syros, Paris, 1995, p 26.

⁶ - A.W.O, P/O, CIE Oran, N° 107 de janvier 1943.

بإلقائنا نظرة خاطفة على الخريطة العسكرية¹ التي أعدت للحملة على تونس، و في محاولة لربط أحداثها، نتوصل إلى حقيقة مفادها أن هناك ثلاث جيوش تنتمي إلى فرنسا، قد شاركت في هذه الحملة، إلى جانب القوات المتحالفة. و هي؛ القوات الفرنسية الحرة، و جيش إفريقيا المساند للحلفاء و أخيرا الكتائب الإفريقية التي كانت تحارب في صفوف قوات المحور. كما أن البيليوغرافيا المستفيضة حول المعارك التي دارت في تونس لا تتطلب منا دراسة وافية في موضوع دراستنا، ما دام أن المراد هنا هو توضيح العلاقة التي ربطت في مرحلة حساسة بين القطرين الجزائري و التونسي عبر أحداث و مواقف كان لها التأثير البالغ على وجود تواصل حقيقي.

في المقابل، نجد من الضروري توضيح خطوط القوة لهذا الرهان.² هذا الصراع السياسي بين الرجلين قد أهمل الوجود الفعلي و التأثير المباشر لشخصية مثل تلك التي كان يتمتع بها "المقيم العام" في تونس، الجنرال "إيستيفا" Esteva. و مع تطور العمليات العسكرية و اشتداد المعارك، و للتأكيد الفعلي لهذا التهميش، أقبل الجنرال "جيرو" على تعيين الجنرال "جوريون" Jurion، نائب رئيس عام في منطقة "الكاف" Kef التونسية الخاضعة لسيطرة قوات الحلفاء، خلفا للجنرال "إيستيفا" حتى يبين له بأنه أصبح أداة بين أيدي الألمان في تونس، و أنه لم يعد يمثل فرنسا.

- القوات الفرنسية الحرة (Les forces françaises libres)

هذا الفرع من القوات الفرنسية كان مغيبا عن مسرح الأحداث في شمال إفريقيا منذ أن استسلمت فرنسا للجيش الألماني بعد هزيمتها في جوان 1940، و إبرامها للهدنة مع القوات الألمان. و لم ينشط على هذا المحور إلا بعد نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا في الثامن من شهر نوفمبر 1942، و تحديدا عند انطلاق التحضيرات التي سبقت الحملة على تونس مع نهاية سنة 1942 و مطلع سنة 1943.

بدأت القوات الفرنسية الحرة تتوافد على شمال إفريقيا في دفعات متتالية لكل منها تأثيرها الخاص. فمع مطلع شهر جانفي من سنة 1943، أصبحت أربعة فرق من المظليين، المنتمية إلى SAS، تنشط في محور خط السكة الحديدية الرابط بين "سفاقس و قابس". و في شهر فبراير التحقت كل من "كتيبة مشاة البحرية"

¹ - ينظر للخريطة العسكرية في الملحق رقم 8.

² - في هذا الباب هناك العديد من الكتابات التي أبرزت دور مختلف الجيوش الفرنسية في مواجهة جيوش الحلفاء عبر بوابة الحملة العسكرية لقوات الحلفاء التي شنتها على الأراضي التونسية بداية من سنة 1943. هذا الدور قيمته "بيليوغرافيا" غزيرة نوجها في المصادر و المراجع التالية:

- Lesouef Pierre, « La campagne de Tunisie », In Dictionnaire de la seconde guerre mondiale, T2, pp 1821-1827.
- Martel André, « Les forces françaises pendant la campagne de Tunisie novembre 1942-mai 1943, rôle et signification », in actes du colloque international sur ; L'Histoire de la campagne de Tunisie, Paris, 1982, pp 221-237.
- Martel André et autres, Histoire militaire de la France de 1940 à nos jours, T4, Paris, pp 190-194.
- Clayton Anthony, Histoire de l'armée française en Afrique 1830-1962, éditions Albin Michel, Paris, 1995.
- Vincent Jean-Noël, « Les armées françaises pendant la seconde guerre mondiale 1939-1945 », In colloque international de l'Institut des Conflits Contemporains, Paris, du 7 au 10 mai 1985.

المتواجدة في المحيط الهادئ، و "الكولون الميكانيكية الأولى" للفرقة الفرنسية الحرة، بأقصى الجنوب التونسي و منه التحقت "بالقوة ل" Force L، للجنرال "لوكلار" Leclerc في 12 مارس المرابطة بمنطقة "ططوين" Tataouine.

لما أدرك "لوكلار" ضعف قوات المحور، تقدم نحو واحات "فزان" التي كانت تسيطر عليها القوات الإيطالية و سيطر عليها و التقى هناك بالجنرال البريطاني "مونتغمري"، و بعدها التحق بجنود ألمهري الفرنسيين التابعين للجنرال "دولاي"¹ Delay بعدما كان مندمج في صفوف الجيش البريطاني الثامن. بقي الاتصال قائما بين مختلف القوات على أرض المعركة، حيث اشتهرت القوة 'ل' في منطقة "قصر الریحان" و قامت بتغطية الجيش البريطاني الثامن من جهة الغرب إلى غاية شهر ماي. هذا العمل كلل بنجاح باهر في منطقة 'جبل الملعب' باتجاه منطقة 'قابس'.

غادر الجزء الأكبر من قوات 1^{er} DFL، طبرق في 18 أبريل من سنة 1943 متوجها نحو "مدنين" أين تجمع فيها قبل أن يواصل طريقه نحو Enfidaville أين شارك في معارك "تكرونا". و قدم الجنرال "جيرو" امتنانه إلى القوات الفرنسية الحرة بمجرد دخول قوات الجنرال "لوكلار" مدينة طرابلس حيث صرح: "شكرا صديقي العزيز، إن طرابلس تذكركني بمدينة Badhou، تحية خالصة إلى رجالك.إليك امتناني...". ممضاة من طرف "جيرو".² فكان لقاء الرجلين في قابس يوم 2 أبريل، و كانت آمال "لوكلار" كبيرة في إقناع "جيرو" بالالتحاق بصفوف الجنرال "ديغول" لكنه لم يفلح في ذلك بالرغم من صداقة الرجلين القديمة التي تعود إلى أيام كانا في المغرب معا.

هكذا، اجتمعت المقومات الأساسية للقوات الفرنسية الحرة و التي جمعت بين: القوات المرابطة في التشاد، و القوات الآتية من بريطانيا و المحيط الهادئ، و الملتحقون من سوريا، الذين كان يقودهم كل من الجنرال "لوكلار" و "لارمينات" Larminat الذي كان يساعده "كونيغ" Koenig بطل معركة "بئر حكيم". غير أن الاستعراض العسكري الذي نظمه "جيرو" رفقة "ألكسندر" في 20 ماي،³ أظهر جليا الشرخ الكبير الذي لا زال يلازم فرنسا الحرة و الطريق الطويل الذي لا بد من قطعه حتى يتسن إعادة تنظيم الجيش الفرنسي من جديد. و ذلك بالرغم من الأصداء الإيجابية لمعظم صحافة شمال إفريقيا.

أما في تونس، فقد أدى هذا الوضع الجديد، مطالبة عدد كبير من المدنيين و وحدات عسكرية بأكملها، خاصة الفيلق الرابع للصباحية الجزائريين، بالمطالبة بالانضمام إلى قوات فرنسا الحرة.⁴ ما زاد في عمق

¹ - Archives du SHD, 5P2, journal de marche du général Giraud, prise de contact avec la colonne Leclerc le 14 janvier ; le général Delay rencontre le général Leclerc le 2 février. Voir le : Fonds Leclerc.

² - Martel (André) et Autres, Histoire militaire de la France de 1940..., op.cit., p 195. Et voir aussi : - Journal : La Vigie Marocaine..., du mois de Janvier 1943.

³ - في هذا الاستعراض قامت كل قوة من القوات الفرنسية الحرة بالاستعراض لوحدها في محاولة منها إظهار قوتها و تفوقها العسكري. غير أن الشيء الإيجابي هو جلوس كل القادة العسكريين الفرنسيين جنبا إلى جنب في المنصفة الشرفية التي شيدت لهذا الغرض. ينذر إلى كل من:

- A.W.A, Dossier presse, La Dépêche Algérienne, du 20 mai 1943.

⁴ De Gaulle (Charles), Mémoires de guerre..., L'appel..., T1..., op.cit., p 469.

الاختلاف السياسي بين "جيرو" و "ديغول". إلا أن الجنرال "كاترو" عرف كيف يبطئ هذه الحركة التي أحرزت الاتحاد السياسي بين الرجلين.¹

- جيش إفريقيا. (L'Armée d'Afrique)

جندت القوات الفرنسية لجيش إفريقيا تحت قيادة الجنرال "جوان" général Juin قرابة 100000 جندي انضوت تحت لواء الفيلق 19، Le 19ème corps d'armée الذي كان يضم كل من:

- فرقة مشاة مدينة قسنطينة. La division de marche de Constantine

- فرقة مشاة مدينة الجزائر. La division de marche d'Alger

- فرقة مشاة مدينة وهران. La division de marche d'Oran

- اللواء الميكانيكي الخفيف. La brigade légère mécanique

- جمهرة منطقة الأوراس. Le groupement des Aurès

- الفرقة الأولى لمشاة المغرب. La 1^{ère} division de marche du Maroc

يضاف إلى كل هذه الوحدات العسكرية، وحدة جديدة استحدثت في 25 نوفمبر 1942 بطلب من الجنرال "جيرو"، و هي "وحدة المتطوعين لإفريقيا"، التي أوكلت قيادتها للجنرال "مون صابر". Monsabert. وكانت هذه الوحدة عبارة عن خليط من كل الأجناس التي تقطن شمال إفريقيا و ضمت عدد كبير من شباب المقاومة الذي ظهر في 8 نوفمبر، و عدد من الأهالي و اليهود و الأسبان و الجمهوريين و قدماء الألوية العالمية و بعض الأجانب. و وصل عددها إلى 2000 رجل تمركزت إلى الشمال من طبرقة Tobrouk تحت قيادة البريطانيين، ثم تحولت تحت القيادة الأمريكية عندما بدأت المعركة نحو بنزرت.²

انقسمت القيادة العليا للقوات المرابطة في تونس إلى جهرتين ثم إلى خمسة، كلها منبثقة من تونس و قسنطينة جمعت حوالي عشرة آلاف رجل. بعدها، انضمت إلى لواء الفيلق التاسع عشر، ثم أعيد تنظيمها في 18 فبراير من سنة 1943 إلى وحدات مشاة مشكلة من 6 أفواج Bataillons. و بذلك أصبح تحت تصرف الجنرال "جوان" كل من، قوات تونس للجنرال "باري" Barré، و لواء الفيلق التاسع عشر للجنرال "كولتز" Koeltz، و جمهرة لقوات الصحراء للجنرال "دولاي".

كما وجهت ثلاثة تعليمات من الجنرال "جيرو" مؤرخة في 13 و 21 و 30 نوفمبر، تحدد الأهداف المنوطة للجنرال "باري"، و هي: المشاركة في الحملة على تونس و وضع إستراتيجية لتكوين جيش فرنسي عصري قادر على تأدية مهامه في الحرب الدائرة في أوروبا و قادر على أن يقوم بدور حاسم من أجل تحرير

¹ - من حيث العدد، لا يمكن للثلاثة آلاف رجل من قوات 'ل' و العشرة آلاف من قوات د.ف.ل من مضاهاة أعداد جيوش إفريقيا التي يصل عددها إلى ثمانين ألف رجل شاركت في الحملة على تونس، مما يوضح جليا الهوة التي تفصل بين قوات فرنسا الحرة و جيوش إفريقيا و التي توسعت أكثر بفعل هذه الإغراءات المتواصلة بين الطرفين. ينظر في هذا الباب إلى :

- Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p 334.

² - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p 334.

فرنسا. كما أن مهمة القوات الفرنسية في تونس كانت قائمة على تعطيل تقدم القوات الألمانية إلى غاية تمكين القوات الصديقة من إيجاد منفذ لها و المحافظة على بنزرت.¹

وضعت المعالم الكبرى للحرب على دول المحور في تونس على النحو التالي: القوات الفرنسية تهاجم من الجنوب، و القوات المتحالفة من الشمال على طول خط سوق الأربعاء-باجة. أما القوات المرابطة في تونس، بقيادة الجنرال "باري" فقد بدأت معركتها ضد الجيوش الألمانية منذ 19 نوفمبر في مقاطعة "بجاز الباب" Medjez el-Bab من أجل تغطية تقدم القوات البريطانية و الأمريكية و الفرنسية معا.

كان هدف الحلفاء واضحا من وراء هذه المعركة في تونس، ألا وهو طرد قوات المحور من تونس. أما الجنرال "جوان" فكانت مهمته حشد عدد كبير من القوات الفرنسية في المعركة حتى يؤثر على الأمريكيين الذين كانوا قد وعدو بإعادة التوازن للقوات الراغبة في القتال ضد الألمان. و قد وصلت المساهمة الفرنسية في ربيع 1943 إلى حدود 80000 محارب.²

- الكتيبة الإفريقية. (La Phalange africaine)

ظهرت في الجهة المقابلة قوات موازية، في تونس، كانت مهمتها استعادة أجزاء الإمبراطورية و القتال إلى جانب قوات المحور، الأمر الذي أثبت جليا الانقسام الشديد داخل القوات الفرنسية. حيث أبقى الجنرال "إيستيفا" على نظام "فيشي" تحت السلطة الألمانية و أظهر الطاعة الكاملة للمارشال "بيتان". وضعت قوات الجنرال "إيستيفا" تحت مراقبة الوزير المفوض المطلق الصلاحية "راهن" Rahn، مما جعله يتبع طريق التعاون مع قوات المحور. غير أن الحزب الشعبي الفرنسي و مصالح تنظيم جنود الفيلق Service d'ordre légionnaire، قاموا بإنشاء خلايا حقيقية داخل تونس و عزموا على تطبيق سياسة "لافال" Laval بحذافيرها.

غداة عملية "تورش"، قرر "جوزيف دارنان" Joseph Darnan، قائد SOL، إنشاء قوة مشتركة تكون خاضعة في نفس الوقت للألمان و لحكومة "فيشي". في الحقيقة، صاحب الفكرة كان "جاك بونوا مشين" Jacques Benoit-Méchin، الذي اعتبر أن إنشاء "كتيبة إفريقية" بالتشاور مع الألمان، سوف يمكن فرنسا من استعادة إفريقيا.³

¹ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans ..., pp 334-335.

² - Ibid., p 335.

³ - Faligot (Roger) et Kauffer (Rémi), Le croissant et la croix gammée..., op.cit., pp 118-119.

كما قام "جورج قيلبو" Georges Guilbaud، عضو نشط في الحزب الشعبي الفرنسي، بدور المحرك عندما أرسل إلى تونس في شهر ديسمبر و كلف بالمهمة من طرف "بول ماريون" Paul Marion، وزير الاتصال في حكومة "لافال".¹

أما في فرنسا، فقد تم إنشاء "فوج ثلاثي الألوان" Légion Tricolore مع بداية سنة 1942، بعد فشل مهمة LVF، و ذلك من أجل محاربة "البلشفية" Bolchévisme. حيث قام الجنرال "بلاتون" Platon، برفع فيلق إمبراطوري متكون من 3000 متطوع تحت مسؤولية الزعيم التونسي "عبد الرحمان ياسين".² و قد أرسل البعض من هؤلاء إلى الجبهة الروسية لكنهم وجهوا نحو مدن إيطالية و تونس بعد التراجع الألماني في منطقة "القوقاز". و انضم التونسيون إلى "فيلق العرب" المنضوي تحت لواء "الكتيبة الإفريقية".³

لم تكن L'OKW موافقة على مثل هذه المبادرة، إلا أنها وافقت على إرسال لجنة عسكرية متكونة من نقيبين و ملازمين أولين تحت قيادة العقيد "كريستوفيني" Cristofini، الذي سيصبح قائد الكتيبة الإفريقية مستقبلا. و حثت فرنسيي تونس على الانضمام إلى القوات الألمانية و محاربة الحلفاء.

ما يمكن ملاحظته أن هذه الظاهرة لم تنتشر في المغرب، حيث يرى البعض⁴ أن تصرفات المسلمين في شمال إفريقيا لم تكن موحدة و لا متشابهة خلال العمليات العسكرية المختلفة و تبعا للمناطق. فمثلا في الشمال التونسي نلاحظ وجود جيوش منتظمة، بينما الجنوب التونسي كان مسرحا لمعارك الجنود الإضافيين و المشكلين من المهاريين و القومية. Méharistes et Goumistes.

¹ - يعتبر "جورج قيلبو" من المتعودين على مثل هذه المهمات حيث أرسل في سنة 1942 إلى الجزائر، بإيعاز من "بيار لافال"، للقيام بمهمة مراقبة نشاط الحلفاء. و كلف في تونس بمهمة الترويج للدعاية لأنصار "دوريو" عبر قنوات "إذاعة تونس" و "جريدة تونس". ثم قام بإنشاء "لجنة الوحدة للعمل الثوري" (CUAR) Comité d'unité et d'action révolutionnaire، الذي جمع بين أطيافه أنصار "أوروبا الجديدة". و نظرا لقدراته الإعلامية، عين على رأس فرقة أمن خاصة للمراقبة و التي قامت بتفكيك مجموعة كبيرة من الشبكات الموالية للحلفاء مع مطلع سنة 1943 و تسبب في حل قوات بنزرت. كما طلب، و تحصل، من الألمان و الإيطاليين على إرسال سجناء الحرب الفرنسيين إلى المتربول. ينظر في هذا الباب كل من:

- Pellegrin (René), La Phalange LVF en Tunisie 1942-1943, éditions Pellegrin, Paris.

- Levisse-Touze (Christine), L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p335.

² - يعتبر "عبد الرحمان ياسين" من النشطاء التونسيين الذين قاموا بدعاية كبيرة لصالح دول المحور. و هو من الذين رفضوا التحالف الأنجلو سكسوني على بلاد شمال إفريقيا. ينظر في هذا الباب إلى:

- Rouso (Henry), La collaboration, les noms, les thèmes, les lieux, éditions MA, Paris, 1987, p 117 et pp 144-145.

³ - AN, F60-819, note n°89/5 du commissaire à l'information, service de l'action en France, datée du 3 novembre 1943 adressée à monsieur le commissaire à la coordination musulmane.(Cite par : Levisse Touze., L'Afrique du Nord., op.cit., p 335.).

⁴ - Martel (André), Les forces françaises pendant..., op.cit., p 235.

4- الحملة العسكرية لاستعادة تونس

إن الحملة على تونس التي عرفت أيضا باسم "معركة تونس"، هي جزء من سلسلة معارك ميزت الحرب العالمية الثانية و التي وقعت في تونس في الفترة الممتدة من 17 نوفمبر 1942 إلى غاية 13 ماي 1943. و وضعت وجهها لوجه القوات النازية الألمانية و الفاشية الإيطالية مع قوات الحلفاء المشكلة أساسا من القوات الأمريكية و البريطانية و الجيوش الفرنسية من مستعمرات شمال إفريقيا. و قد ذكرت بعض المصادر أن قوام هذه الجيوش كان مكونا على النحو التالي: الجيش الألماني 80000 جندي، و الجيش الإيطالي 110000 جندي، و 130000 جندي بريطاني، و 95000 جندي أمريكي، و حوالي 75000 جندي فرنسي ما بين جيوش إفريقيا و فرنسا الحرة.¹

أ- الوضع العسكري قبل بداية الحملة على تونس

وقعت معظم المعارك التي دارت في شمال إفريقيا في الشرق من القواعد العسكرية و مراكز تخزين الأسلحة التابعة للإيطاليين. لذلك كانت عملية تموين الجيوش المتناحرة بطيئة جدا، ما جعل الأوضاع تبقى على حالها إلى غاية مطلع سنة 1942 أين بدأت الجيوش البريطانية تتحرك بواسطة بحريتها حيث تمكنت من تضيق الخناق على الأسطول الإيطالي في البحر المتوسط، مما سمح للسفن البريطانية العبور بكل حرية.²

لقد شهدت البداية العسكرية تفوقا للألمان الذين تمكنوا من الوصول إلى الأراضي التونسية في صباح يوم 9 نوفمبر، أي مباشرة بعد عملية الإنزال، و قاموا، بواسطة السفير الألماني "رودولف كاهن"، بالضغط على المقيم العام في تونس، الجنرال "إيستيفا"، حتى يخضع لتعليمات المارشال "بيتان" في مقاومة أي غزو خارجي على تونس.³ غير أن التفوق العددي و في العتاد الحربي كان للحلفاء الذين تمكنوا من إحداث الفارق و التفوق على الجيش الألماني حيث أسروا ما يقارب 275000 جندي ألماني معظمهم من جيش "أفريكا كوربس" Afrika-Korps إلى جانب عدد معتبر من الجنود الإيطاليين.

كما أدت السيطرة على جزيرة "مالطا" بالقوات الجوية الملكية البريطانية إلى منع الإيطاليين من التزود بالأسلحة. و مع انهزام الألمان في معركة "العالمين" الثانية بالأراضي المصرية أمام الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال "مونقومي" في نوفمبر من سنة 1942، تراجعت قوات المحور إلى ما وراء خطوط الدفاع الأولى. الأمر الذي سمح للقوات البريطانية إلى التقدم نحو الأراضي الليبية.

ساعدت هذه العملية باستعادة توازن الجيوش البريطانية التي أصبحت تتلقى التموين بشكل منتظم حتى لا تعاني من نقص في الأسلحة. بينما ساهمت عملية "تورش" في وصول إمدادات إضافية للحلفاء في الجزء

¹ - « La campagne de Tunisie 1^{er} décembre 1942-13 mai 1943 », In collection Mémoires et Citoyenneté, N-34, éditions Ministère de la Défense, Paris, s.d.

² - Churchill (Winston), Mémoires sur la deuxième guerre mondiale..., t.4., op.cit., pp 223-224.

³ - Dahms (Hellmut Günter), La seconde guerre mondiale..., op.cit., p 206.

الغربي من شمال إفريقيا تمكنت على إثرها من تطويق قوات المحور التي وجدت نفسها بين نيران القوات المتحالفة فوق الأراضي الليبية.

أما بخصوص قوات المحور، فقد كانت لهم عدة إمكانيات دفاعية في تونس كون غالبية أراضيها توجد ضمن الامتداد الغربي لخليج "سيرت". بينما الحدود الغربية مع الجزائر فهي جزء من سلاسل جبال الأطلس. في حين أن السواحل الشمالية لتونس بقيت مفتوحة و بالتالي مكشوفة أمام أي نشاط بحري. تبقى المنطقة الجنوبية، فتوجد بها سلسلة من التلال موازية للشريط الساحلي تعرف باسم "مرتفعات مطماطة" التي لا يمكن التوغل عبرها إلا عن طريق سهول ساحلية ضيقة تتجه نحو البحر.

هنا تمكن الفرنسيون من بناء مجموعة منشآت عسكرية للدفاع عن تونس، كان أشهرها "خط ماريت"¹ الذي بلغ طوله 30 كلم و عرضه 20 كلم، حيث كانت وظيفته الوقوف أمام أي هجوم إيطالي محتمل يأتي من الأراضي الليبية.

عموما، تتمتع تونس بقاعدة عمليات جيدة نظرا للسهولة التي تمنحها للجيش المدفوعة. فهناك الخطوط الدفاعية في الشمال التي قد تقف أمام زحف الجيش المتحالفة في صورة عملية "تورش"، بينما "خط ماريت" يقوم بتأمين المنطقة الجنوبية. و بين المنطقتين توجد بعض الممرات السهلة عبر جبال الأطلس.

تتوفر تونس، أيضا، على موانئ ذات المياه العميقة، أبرزها ميناء تونس و ميناء بنزرت اللذان يوجدان على بعد 200 كلم من القواعد العسكرية الإيطالية الموجودة في "صقلية"، الأمر الذي سيسهل على الإيطاليين نقل الأسلحة بسرعة كبيرة قد لا تتعدى ليلة واحدة، و ذلك لتجنب دوريات القوات الجوية البريطانية. في حين أن المسافة بين إيطاليا و ليبيا تدوم يوما كاملا الأمر الذي قد يعطل عملية التموين. و حتى "هتلر" يرى بأن تونس قادرة على الصمود لشهور أمام أي محاولات غزو للحلفاء. لذلك تنازلت قوات المحور عن بنغازي و ليبيا و كثفت كل قواتها على تونس التي احتلتها قوات المحور و بقيت فيها إلى غاية المعركة الفاصلة التي جمعت بين المعسكرين مع منتصف سنة 1943.²

ب- دول المحور تؤمن جبهتها و ترد على عملية "تورش"

خططت القوات المتحالفة المعروفة باسم "Eastern Task Force أو Le corps expéditionnaire Oriental لعملية إنزال في تونس بواسطة المضليين و قوات محمولة جوا. غير أن هذه المخططات تعطلت بسبب تماطل سلطات "فيشي" في تونس، في اتخاذ قرار نهائي بشأن موقفهم من الانضمام إلى الحلفاء من عدمه. و بقي التردد يسود الطرف الفرنسي إلى غاية تاريخ 22 نوفمبر الذي حدث فيه الاتفاق بين الفرنسيين و الحلفاء. لأن

¹ - منطقة تونسية أعطي اسمها للحصن الذي شيده الفرنسيون فيما بين 1934 إلى غاية 1939 حيث كان الخط الفصل بين مرتفعات "مطماطة" و البحر. أنظر إلى:

- Petit Larousse Illustré..., op.cit., p 1502.

² - Gallo (Max), Une histoire de la 2eme guerre..., 1942..., op.cit., p 352.

قبلها، بقيت المسألة مفتوحة أمام كل الاحتمالات. و حتى الحلفاء أنفسهم لم يتمكنوا من تحديد تاريخ واضح للهجوم على تونس ما أدى إلى استحالة تحقيق الأهداف.

مع حلول العاشر من نوفمبر 1942، شرع الطيران الإيطالي في التحليق في سماء تونس بأسطول جوي متكون من 28 قاذفة قنابل Bombardiers ساهمت في بناء جسر جوي في ظرف قياسي، ساهمت من خلاله بإنزال أكثر من 15000 جندي و 581 طن من العتاد، بينما قامت السفن بحمل 175 دبابة و 131 قطعة مدفعية و 1152 مركبة و 13000 طن من مختلف العتاد.

ثم عادت هذه السفن مع نهاية شهر نوفمبر، لتنقل ثلاثة فرق عسكرية ألمانية، أهمها الفرقة العاشرة للمشاة "بنزر" Panzer Division، و فرقتين تابعتين للجيش الإيطالي. و في نفس اليوم تم تعيين الجنرال "والتر نهرينغ" Walter Nehring لقيادة الفيلق XC.¹

عان الألمان أنفسهم من بعض المشاكل التنظيمية، خاصة تلك المتعلقة بالجنرال "نهرينغ" الذي أصبحت سمعته متأثرة بالنتائج السلبية و الهزائم التي لحقت بالقوات الألمانية في عهده، و بانتقاداته الصريحة للسياسة التي كان ينتهجها الرايخ الثالث. الأمر الذي دفع بالقيادة الألمانية العليا إلى استبداله بطريقة دبلوماسية، بعدما تم ضم القوات التي كان يترأسها إلى قوات "الفيلق الخامس" 5e Panzer Division.

و بذلك تمكنت دول المحور من تشكيل جيش كبير يضم عدة وحدات مشاة ثقيلة تابعة لفيلق "فون برويش" Von Broich المرابط بمنطقة "بنزرت"، و من الفيلق العاشر 10e Panzer Division لمنطقة الوسط إلى جانب الفيلق الإيطالي "سوبريغا" Superiga و تمكنت في الفترة الممتدة من منتصف شهر نوفمبر 1942 إلى غاية شهر جانفي 1943، من نقل 112000 جندي و 101000 طن من العتاد و التجهيزات إلى تونس مما جعل الحلفاء يستاءون من هذه العملية.²

شعر الألمان بخطورة الوضع، فأقدم الجنرال "رومل" على تحضير مخططات للتراجع نحو خط "ماريث"، الذي سوف يسمح لقوات الحلفاء بالسيطرة على مدخلين طبيعيين و رئيسيين مؤديين إلى تونس من ناحية الشمال و الجنوب. و بين المدخلين مرتفعات جبلية يسهل الدفاع عنها. و في 23 جانفي 1943، و بينما كان "رومل" يتجه بجيشه نحو الغرب، تمكن الجيش الثامن البريطاني من دخول طرابلس.³

ج-الحلفاء و بداية الزحف على تونس

مع اشتداد المحاولات الهادفة إلى بسط السيطرة على مسرح أحداث تونس، طرأ تحول عند السلطات الفرنسية "الفيشي" التي رأت بأنه لا يمكن مواجهة القوة الآتية من الغرب بالإمكانات المتاحة. فانحازت إلى

¹ - Dahms (Hellmut. Günter)..., La seconde guerre..., op.cit., p 207.

² - Churchill (Winston), Mémoires de la..., t4..., op.cit., p 225.

³ - Durand (Yves), Histoire de la deuxième guerre..., op.cit., p 120.

معسكر الحلفاء و شرعت في إرسال الجنود الذين كانوا متواجدين في الثكنات في نفس الوقت شرعت دول المحور في تشكيل فيلق كبير ساهم في تفوق القوات الألمانية على قوات الحلفاء على جميع الأصعدة.¹

التقت جيوش المعسكرين لأول مرة في 17 نوفمبر بالقرب من "الجبل الأبيض" و صادف ذلك وصول الجنرال "نهرينغ" الذي أمر بالتراجع خوفا من تكبد خسائر قد تكون عواقبها وخيمة.

واصلت قوات "Eastern Task Force" البريطانية مسيرتها نحو تونس و وصلت منطقة "سيدي النصير" في 18 نوفمبر، ثم منطقة "مجاز الباب" في ليلة 19 إلى 20 نوفمبر ثم اقتربت من منطقة "العروسة" في 23 نوفمبر. غير أن الهجوم الحقيقي الأول انطلق في 25 من نوفمبر، و كان يهدف مخطط الحلفاء إلى اختراق خطوط المحور ثم الانقسام إلى كتلتين للاستيلاء على تونس و بنزرت.²

بدأت المواجهات العسكرية في 25 نوفمبر حين أمر الجنرال "نهرينغ" بالهجوم على قوات الحلفاء، غير أنه تراجع ليلا إلى غاية "مجاز الباب" Medjez el Bab، و فسخ المجال للطيران الألماني لقصف جيوش الحلفاء البرية المتجهة غربا ملحقا بها أضرارا بليغة. ما دام أنه كان يملك التفوق الجوي.

في نفس الوقت شرع الحلفاء في تهيئة القواعد العسكرية و المطارات لاستقبال الطائرات التي بدأت تخط في الجزائر. و في ظل هذه الظروف الصعبة تمكنت فرقة دبابات صغيرة من نوع M3 Grant من الوصول إلى القاعدة الجوية "بالجديدة" و قامت بإتلاف عدد هام من الطائرات التي كانت موجودة في القاعدة قبل أن تتراجع إلى ما وراء خطوط الحلفاء.³

في هذه الظروف تمكن "إيزنهاور" من نقل الوحدات الأمريكية المتبقية في المغرب و الجزائر نحو التراب التونسي. و أعد الحلفاء مخطط تقسيم جديد للوحدات العسكرية على النحو التالي: في الشمال توجد قوة "Eastern Task Force" بقيادة الجنرال "كينيث أندرسن" و التي تحولت إلى الجيش البريطاني الأول المتشكل من 5 فيالق منها 3 فيالق إضافية التحقت بالفيلق البريطاني السادس للدبابات، و الفيلق 38 للمشاة البريطانيين الذي كان مرابطا في تونس من قبل.⁴

¹- Dahms (Hellmut Günter)..., La seconde guerre..., op.cit..., p 207.

²- Ibid..., p 207.

³- في الحقيقة قد تطول عملية حصر الأعمال العسكرية التي قام بها الطرفان، و التي ليست غرضنا الأول من هذه الدراسة، و لكن لتوضيح الدور الذي لعبه السلاح الجوي في التحضير للحملة على تونس، و الذي مهد الطريق أمام الجيوش البرية المتحالفة للتقدم نحو الداخل. حيث حلت قوات "أيسترن طاسك فورس" محل قوات المحور التي تراجعت إلى غاية منطقة "الجديدة" التي تبعد بثلاثين كلم عن مدينة تونس، أين دشنت خط دفاعي جديد. بعدها، و في 28 نوفمبر 1942، شن الفيلق 78 للجنرال "فيبيان إيفلاك" هجوما على قوات "نهرينغ" غير أنه لم يفلح في ذلك و خسر 28 جندي و 86 أسير. ثم حاول مرة ثانية، و لكنه خسر 5 دبابات لم تتمكن من تفادي قوة القنابل المضادة للدبابات التي نشرتها قوات المحور على حدود المدينة. لمزيد من الشروحات أنظر كل من:

- Churchill Winston, Mémoires de la..., t4..., op.cit..., pp 260-296.

- Dahms Hellmut. Günter..., La seconde guerre..., op.cit..., pp 198-225.

- Charles de Gaulle, Mémoires de guerre..., L'unité..., T2..., op.cit..., (Lire le tome complet).

- Gallo Max, Une histoire de la 2eme guerre mondiale..., T4..., 1943 le souffle de la victoire.

⁴- Dahms (Hellmut Günter)..., La seconde guerre..., op.cit..., p 207.

بينما في الجنوب، نجد الجيش الحربي الذي يضم فيلقين. فيما توجهنا نحو الوسط نجد الجيش الأمريكي الثاني الذي يضم غالبية عناصر الفيالق الست التالية: الفيلق 1 و 3 و 9 و 34 للمشاة و الفيلق 1 و 2 للدبابات.

كما قام الأمريكيون بتجهيز مركب "لوجستي" هام في كل من الجزائر و تونس الهدف منه توفير قاعدة لوجستية هامة و متقدمة إلى غاية مدينة "المكناسي" قرب جبال الأطلس. و هي منطقة إستراتيجية تمكن القوات الأمريكية من وقف زحف قوات الجنرال "رومل" القادمة من الجنوب.

بداية من الفاتح من ديسمبر من سنة 1942، شنت قوات المحور هجوم مضاد على جل مراكز الحلفاء دام أربعة أيام، تمكنوا من خلاله إبعاد قوات الحلفاء إلى غاية نقطة البداية. إلا أن قوات الحلفاء تمكنت من الصمود في الخط الدفاعي شرق منطقة "بجاز الباب" بالرغم من الخسائر التي تكبدتها و التي وصلت إلى 1000 جندي مفقود و 73 دبابة محطمة و 432 مركبة عسكرية متلفة إلى جانب فقدانها لـ 70 قطعة مدفعية.

هذه الخسائر دفعت بالحلفاء إلى التفكير في رد الاعتبار و إنهاء معاناة الشعوب جراء هذه الحرب المدمرة، فشرعوا بحضرون لعملية كبيرة تكون جاهزة مع نهاية شهر ديسمبر 1942 و مطلع سنة 1943. فتواصلت عملية التخطيط و التحضير إلى غاية بلوغ تعداد القوات المتحالفة إلى 20000 جندي بريطاني و 11800 جندي أمريكي و 7000 جندي فرنسي من القوات الفرنسية الحرة. و كانت معلومات قد تسربت مفادها أن قوات المحور تشكل أساسا من الجنود الألمان بلغ قوامها 25000 جندي إلى جانب 10000 مشكلة من جميع الأسلحة الأخرى.¹

في الليلة من 16 إلى 17 من ديسمبر، قامت فرقة تنتمي إلى الفيلق الأول للمشاة الأمريكية بتوغل في مدينة "المكناسي" الواقعة 250 كلم جنوب مدينة تونس، حيث تمكنت من أسر 21 جندي إيطالي. غير أن المعركة الحقيقية انطلقت في يوم 22 ديسمبر في ظروف مناخية صعبة تميزت بسقوط أمطار غزيرة أعاقت سير المركبات العسكرية و انعدام الرؤية مما عطل نوعا ما نشاط الطائرات الحربية.²

هذا لم يمنع الوحدات العسكرية لقوات الحلفاء التابعة للفيلق الأول الأمريكي و فرقة بريطانية خاصة تسمى "Cold stream Guards"، من اختراق الخطوط الأولى لقوات المحور و الوصول إلى أسفل تلال "Longstop Hill" الواقعة بين "بجاز الباب" و "تبورا" و التي تطل على سهول "مجردة"، و منها يكون الطريق مفتوح إلى غاية تونس.³

لكن يومين بعد ذلك، في 26 من ديسمبر، جهز الجيش الألماني حملة مضادة تمكن من خلالها من وقف زحف قوات الحلفاء و أرغمها على التخلي عن المواقع التي كانت قد احتلتها من قبل، متكبدة خسائر

¹ - « Sur le front de Tunisie », In revue les actualités françaises, du 31 décembre 1942. Et voir aussi :

- « Mouvement de guerre en Tunisie », In revue actualités françaises, du 19 mars 1943.

² - « Sur le front de Tunisie »,..., op.cit., du 31 décembre 1942.

³ - « Guerre en Tunisie, La ligne Mareth », In revue Militaria, numéro 28, hors-série, du 5 mars 1998, p 161.

كبيرة في المعركة قدرت بمقتل 534 جندي من قوات الحلفاء. و بذلك توقفت المحاولة الأولى للحلفاء للاستيلاء على تونس.¹

وصلت الأوضاع إلى طريق مسدود بفعل ظهور عدة عوائق كان لها تأثير بالغ في تحديد مجرى الأحداث و المعارك معا. فبينما كانت المعارك تفقد من حرارقتها، ظهر الانشقاق داخل الحكومة الفرنسية من جديد فاتحا المجال أمام أخطر مستقبل واجهته فرنسا الاستعمارية في شمال إفريقيا. حيث تم اغتيال الأميرال "دارلان" في 24 ديسمبر 1942 بسبب سياسة التعاون التي انتهجها مع الألمان، واختير الجنرال "جيرو" من طرف المجلس الملكي لخلافته. و هكذا بدأ عهد جديد من الصراعات بين الفرنسيين من جهة، و بينهم و بين الزعماء الوطنيين في شمال إفريقيا من جهة أخرى، و في الأخير بينهم و بين الحلفاء، أفضى إلى انتصار الجنرال "ديغول" على كل منافسيه في نهاية المطاف.²

د- المرحلة الحاسمة لإنهاء الحملة على تونس

شهدت الحملة على تونس مرحلة جديدة في تطورها مع مطلع سنة 1943، بين مد و جزر، ميزه تارة تقدم الجيوش الألمانية و تارة أخرى توغل بعض الوحدات من الجيوش المتحالفة على الأراضي التونسية. و منها عناصر للقوات الأمريكية التي تمكنت من دخول التراب التونسي من خلال مرتفعات الأطلس الجزائري، مما سمح لها السيطرة على حيز ضيق منحصر بين الجبال. و قد ساعدهم ذلك على تقسيم جيش "أفريكا كوربس" الألماني بقيادة الجنرال "فون أرنييم" Von Arnim إلى قسمين متجهين نحو الشمال.

أسندت مهمة قيادة جيوش جبهات القتال في هذه المرحلة الحساسة للجنرال "ألكسندر جورج"³ Georges Alexander بداية من الأسبوع الأخير من شهر فبراير، كما كان متفقا عليه منذ لقاء الدار البيضاء، أما قيادة القوات الجوية المتحالفة فقد عادت للمارشال "أرثور تيدر"⁴ Tedder Arthur، مع احتفاظ الجنرال "إيزنهاور" بالقيادة العامة. و كانت حينها الحرب قد وصلت ذروتها في تونس. هذا الوضع لم يكن ليسمح للجنرال "إيزنهاور" أن يقود العمليات العسكرية و هو في مقر قيادته العامة بالجزائر، و على بعد 600 كلم من

¹ - « 7 mai 1943 libération de Tunis », In revue actualités françaises, de l'année 1944. Et voir aussi :
- « Défilé de la victoire a Tunis le 20 mai 1943 », Ibid., 1944.

² - سوف نتطرق بإسهاب إلى هذه المسألة في العنصر الثالث من الفصل الثالث.

³ - هو "جورج هارولد ألكسندر" أول كونت ملقب بـ "ألكسندر تونس" Alexander of Tunis، مارشال إنجليزي، ولد في لندن سنة 1891، تقلد مناصب عسكرية عديدة منها، قائد القوات المتحالفة بإيطاليا من 1943 إلى 1944، ثم قائدا في منطقة البحر المتوسط من 1944 إلى 1945، ثم تقلد منصب حاكم "كندا" من 1946 إلى 1952، ثم وزيرا للدفاع من 1952 إلى 1954. توفي سنة 1969. أنظر: Petit dictionnaire Larousse..., op.cit., p 1102.

⁴ - هو "أرثور تيدر" مارشال بريطاني ولد في "كلنقن" Glenguin بمقاطعة "اسكتلندا" Ecosse سنة 1890، عين قائدا للقوات الجوية المتحالفة في الحملة على تونس و على إيطاليا سنة 1943. ثم أصبح مساعدا للجنرال "إيزنهاور" في قيادة القوات المتحالفة التي قضت على الألمان من 1944 إلى 1945. توفي سنة 1967. أنظر: Petit dictionnaire Larousse..., op.cit., p 1723.

ميادين المعارك. هذه العمليات ذات الطابع المعقد و المتشجع كان لا بد لها من قائد موجود في عين المكان له سلطة تقدير الأحداث، و قادر على اتخاذ قرارات قد ترهن مستقبل كل العمليات.¹

أدى تخوف الألمان من أن يفقد الجيش قوته إلى الاستنجاد بالجنرال "رومل" الذي قام بمهاجمة القوات الأمريكية قبل أن تستقر على الأراضي التونسية و تشكل بالتالي تهديدا صارحا للألمان.²

تواصل الهجوم الألماني على المواقع الأمريكية بالرغم من تراجعها نحو السهول الداخلية و استقرارها بمنطقة "سيبلة"، حيث حاولوا الاستيلاء على مدينة "سيبلة" في الأسبوع الأول من شهر فبراير. إلا أن القوات الأمريكية صمدت لمدة يومين ثم انهارت دفاعات المدينة في ليلة السادس عشر من فبراير و تم إخلاء المدينة في صباح يوم السابع عشر من فبراير. مكنت هذه الوضعية الألمان من تسيد كل السهول الداخلية للبلاد التونسية، بينما تراجعت قوات الحلفاء المتبقية إلى غاية مرتفعات "سبية" و "القصرين".³

قرر "رومل" الدفع بقواته نحو الهجوم على منطقة "القصرين" في 19 فبراير 1943 فيما سيعرف بمعركة "القصرين"، حيث تمكن خلال يومين من القضاء على 6000 جندي أمريكي و حطم ثلثي الدبابات الأمريكية. و في ظل هذه الفوضى النارية، قامت جيوش بريطانية في ليلة 21 فبراير من التقدم لمساعدة الأمريكيين على الدفاع عن مواقعهم في انتظار وصول أربعة فرق من المدفعية الأمريكية ساهمت في إعادة توازن الأوضاع.⁴ اصطدم الألمان، في هذه الأثناء، بدفاع الأمريكيين الثابت عن مواقعهم و علموا أن عناصر

¹ - بالرغم من أنه تحصل على كامل الصلاحيات في قيادة القوات المتحالفة في تونس، إلا أن الجنرال "ألكسندر" وجد صعوبات كبيرة في ضبط الخطة العامة للعمل وفق تعليمات القيادة العامة و زعماء القوات المتحالفة. و كان له أن يصارح "تشرشل" فيما يخص الأوضاع الحقيقية التي قال عنها أنها لن تكون سهلة، و أن عليه أن يعيد ترتيب كل شيء بداية من توزيع المهام و الجيوش على القادة العسكريين. فقسمها إلى ثلاث جيوش: البريطانية و الفرنسية تحت قيادة الجنرال "أندرسن"، كل الجيوش الأمريكية بقيادة "فريدنغال" و الجيش الثامن البريطاني بقيادة "مونقومي" ... لمزيد من الشروحات أنظر:

-.Churchill Winston, Mémoires de la..., t4..., op.cit..., pp 365-366..

² - تواصلت المعارك مع نهاية جانفي 1943، لتصل إلى مواجهة القوات الألمانية لبعض العناصر الفرنسية، حين اصطدم الفيلق 21 الألماني Panzer Division بهذه العناصر بالقرب من منطقة "فايد" التي تعتبر الممر الرئيسي بين السفوح الجبلية الشرقية و السهول الساحلية، و قضت عليهم. ثم قامت بعملية تطويق للمنطقة التي كان يوجد بها فرقتين أمريكيتين. فحاولت قوات الفيلق الأول الأمريكي للدبابات و قوات فرنسية من نجدتهما، لكنهما لم يتمكن من ذلك أمام القوة النارية للجيوش الألمانية. و بعد 3 أيام من معارك ضارية، تنازل الأمريكيون عن هذه المواقع و تراجعوا إلى السهول الداخلية أين أقاموا خط دفاعي جديد بالقرب من مدينة "سيبلة" الصغيرة، أنظر كل من:

- « Sur le front de Tunisie », In revue les actualités françaises, du 31 décembre 1942..., op.cit.

- « Mouvement de guerre en Tunisie », In revue actualités françaises, du 19 mars 1943..., op.cit.

- Dahms Hellmut. Günter..., La seconde guerre..., op.cit..., p 207.

-.Churchill Winston, Mémoires de la..., t4..., op.cit..., pp 260-296.

³ - في هذه الظروف، دار الحديث في المعسكر الألماني عن الإجراءات التي يجب اتخاذها ما دام أن تونس بأكملها أصبحت بيد قوات المحور، و لم يبقى الكثير حتى يتم القضاء على الجيش الثامن البريطاني. غير أنه فجأة توقف الهجوم الألماني، في ظروف كانت فيها الجيوش الأمريكية تتسحب في فوضى عارمة. و هنا قرر "رومل" أن الهدف الرئيسي من الهجوم هو الاستيلاء على السلاح الأمريكي الموجود فوق التراب الجزائري مما سيعيق أي عملية عسكرية أمريكية قادمة من الغرب. لمزيد من الشروحات أنظر :

- Pujo Bernard, Juin Marechal de France..., op.cit..., pp 140-144.

⁴ -.Churchill Winston, Mémoires de la..., t4..., op.cit..., pp 260-296. Et voir aussi:

متقدمة من الجيش البريطاني الثامن قد وصلت إلى منطقة "مدنين" الواقعة في الغرب من خط "ماريث" الذي كان لا يزال تحت السيطرة الألمانية. فقرر "رومل" التوقف عن الهجوم و التراجع نحو هذا الخط في ليلة 22 فبراير، مميا النفس بأن يكون الهجوم قد خلف خسائر في صفوف الحلفاء مما سيصعب عليهم القيام بأي عملية عسكرية في المستقبل آتية من الشمال.¹

في خضم هذه العاصفة النارية الهوجاء، تلاشت القوى قليلا و تراجعت حدة المعارك، فاتحة المجال لفترة "راحة المحارب" تميزت بإعداد حصيلة لكل المعارك التي سبقت و بمراجعة الحسابات من كلا الطرفين. و ظن الجنرال "رومل" بأن الخطر سوف يأتي من بريطانيا لذلك لم يعي اهتماما كبيرا للقوات الأمريكية. و هنا كان الخطأ الذي ارتكبه الألمان و انتظره الحلفاء.²

تمكن الجيش الأمريكي الثاني من تجاوز المرتفعات التونسية و حاصر الفيلق العاشر الألماني و دارت بينهما معركة "القطار" ElGuetar في 23 مارس 1943 تكبدت خلالها الجيوش الألمانية خسائر كبيرة. لكن ذلك لم يكن كافيا ليسمح للأمريكيين من بالتقدم نحو مدينة "قابس"، فكان عليهم الانتظار لوقت طويل للقضاء على وحدات المشاة الإيطاليين، و وقت أكثر لوصول دعم الجيش الثاني البريطاني، الذي بفضلته تمكنت قوات الحلفاء من اختراق الخطوط الألمانية، الأمر الذي دفع بجيش "أفريكا كوربس" من مغادرة مدينة "قابس" و التراجع إلى المناطق الشمالية. و على هذا المستوى أصبحت المعركة عبارة عن حرب استنزاف.³

في السابع من ماي 1943، دخلت الجيوش البريطانية تونس، و جيش المشاة الأمريكي بنزرت، و بقيت مناطق "طقرون" و أجزاء من جبال "زغوان" بيد قوات المحور التي حاولت بشتى الطرق الحفاظ

- Dahms Hellmut. Günter., La seconde guerre..., op.cit., p 207.

¹ - وصلت قوات الجنرال "رومل" إلى أقصى الغرب من خط "ماريث" بينما كان البريطانيون متموقعين في أقصى الشرق منه منذ 17 فبراير. حيث شرع في إرسال إمدادات باتجاه الغرب بداية من 26 فبراير. و مع حلول السادس من مارس، جهز الألمان قوات كبيرة متكونة من ثلاثة (3) فيالق للمدركات و فيلقين عاديين من المشاة، يضاف إليهم 3 فيالق مشاة إيطالية، و شرعوا في التحضير لما عرف بـ "عملية كابري" Operation Capri و الزحف نحو الجنوب باتجاه منطقة "مدنين" أين توجد المواقع الإستراتيجية البريطانية. غير أن رد فعل المدفعية البريطانية جاء قويا حيث تمكنت من صد الهجوم الألماني و تخطيط 55 دبابة التي وصل عددها إلى 150 دبابة. للمزيد من الشروحات أنظر:

- Churchill Winston, Mémoires de la..., t4..., op.cit., pp 368-369.

² - في الحقيقة ، لقد قام الأمريكيون بتحليل كل شيء من المعارك السابقة. و خرجوا باستنتاجات هامة جعلتهم يعتمدون أولا، على كل التقارير التي كانت تصدر من القيادة العسكرية. ثم قاموا بحركة تغيير واسعة في صفوف الضباط السامون و أسندت قيادة الجيش الأمريكي الثاني إلى الجنرال "جورج باتون" Georges Patton بمساعدة الجنرال "عمر برادي" Omar Bradley. و من هنا أصبحت الأمور واضحة بالنسبة للأمريكيين فيما يتعلق بتونس. حيث قرروا الإبقاء على أكبر عدد من الوحدات العسكرية في ساحات المعارك عوض تشتيتهم، كما كان الحال في السابق مع الجنرال "فريدندال" Fredendall. هذه الإستراتيجية الحربية سوف تساعد على تصحيح النقائص الحربية بتطوير قوة المدفعية الأمريكية لتغطية ضعف الدعم الجوي. أنظر إلى كل من:

- Churchill Winston, Mémoires de la..., t4..., op.cit., pp 368-369.

- Dahms Hellmut. Günter., La seconde guerre..., op.cit., p 207.

³ - Churchill (Winston), Mémoires de la..., t4..., op.cit., pp 370-371.

عليها. غير أنه مع حلول السادس عشر من ماي، فشلت كل محاولات المحور في وجه القوة المتصاعدة للحلفاء، حيث تمكنت قواتها من أسر أكثر من 168000 جندي، حسب الجنرال "أندرسن"، غالبيتهم من الجنود الجدد على ساحات القتال و الذين جيء بهم من صقلية.¹

أظهر الالتزام التام للقوات الفرنسية في تونس، تجاه الحلفاء، مدى الحزم الذي راود القيادة الفرنسية و جنودها في محاربة الألمان و الإيطاليين. حيث قدم جيش إفريقيا بأكمله دعماً أساسياً في هذه المعركة. هذا الموقف الفرنسي الشجاع، جعل الأمريكيان و البريطانيين يعترفون للفرنسيين بأحقيتهم في تقلد مسؤولية قطاع ما على مستوى "لواء فيلق". و اعتبر الجنرال "باتون" Patton، أن ما قام به "الطابور الرابع المغربي" يستحق الثناء. لذلك طلب من الجنرال "جيرو" بأن يكون ضمن الجيش الذي سوف يقود العمليات على التراب الإيطالي و بالتحديد في "صقلية".²

كما تركت نهاية الحملة على تونس أثاراً بالغة على سلوكيات و تصرفات الجميع، من عسكريين و سياسيين و مغلوبين و منتصرين، لدرجة أن الأمر تحول إلى عملية تطهير و تصفية لوجود الآخر. و كانت البداية بالإدارة التونسية التي شهدت عملية تطهير واسعة النطاق، بتعيين الجنرال "جوان" مقيماً عاماً بالنيابة في انتظار تنحية الباي. و شهدت محاكمة ضباط "كتيبة إفريقيا"، التي انطلقت في مارس 1944، حيث صدرت أحكام قاسية على أفرادها، إذ صدر في حق "كريستوفيني" حكم بالإعدام.³ في سياق محاكمة المارشال "بيتان".⁴ غير أنه من باب التصرف بتعقل، سمح لغير المنتمين للحزب الشعبي الفرنسي و لا لمصالح تنظيم الفيلق، بالانخراط في صفوف القوات الفرنسية الحرة، و ذلك بعد تحرير تونس.⁵

لقد تدخل الجنرال "جوان" لتهدئة الأوضاع و طالب بسحب تعليمة تدين "لارمينات" بالعمل الإرهابي، غير أنه لم يفعل شيئاً بشأن تنحية كل الضباط الذين حكم عليهم في تونس. و كانت قضية الجنرال "باري" هي التي أسالت الكثير من الخبر.

تلقى جيش إفريقيا إشادة كبيرة من الرئيس الأمريكي "روزفلت" حين قال: "أقدم لكم اعتراف شعب أمريكا الذي يحيي المساهمة الكبيرة للقوات الفرنسية، بقيادتكم، و التي توجت أمس بتحرير تونس و بنزرت. إن

¹ - جاء في بريقة بعث بها "تشرشل" إلى "ستالين" في 6 أبريل 1943، بأن المعركة الحاسمة سوف يشرع في تنفيذها بداية من هذا الأسبوع. و ستشارك فيها الفيلق البريطاني الأولى و الثامنة إلى جانب القوات الأمريكية و الفرنسية. و أن العدو بدأ يتراجع إلى خطوطه المتأخرة، حيث شرع في عملية تخطيط للمواقع التي كان يسيطر عليها بالإضافة إلى أنه بدا في نزع بطارياته المضادة للطيران على سواحل مدينة "صفاقص". سوف نخاضه من كل الجهات.. بعدما نتمكن من الاستيلاء على تونس و بنزرت سوف يكون أملنا في فتح البحر المتوسط أمام النقل البحري، مما سيقطع المسافة من أجل الوصول إلى مصر و الخليج الفارسي.. أنظر:

Churchill Winston, Mémoires de la..., t4..., op.cit..., pp 359-360.

² - Le Goyet (Pierre) colonel, La campagne d'Italie 1943-1945, une victoire quasi inutile, N.E.L, Paris, 1985, p 47.

³ - AN, 72 AJ 615, procès de la collaboration. (Cité par : Levisse-Touzé (Christine), L'AFN dans..., p337.

⁴ - Isorni (Jacques), Il y'a dix ans le procès du Maréchal Pétain, In Historia magazine, n° 104, juil.1955, pp 83-91.

⁵ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord dans..., op.cit..., p337.

الجنود الفرنسيين أثبتوا قوتهم في محاربة العدو النازي الجائر. هذه السابفة المتوجة بنصر كبير سوف تدفع بالأمم المتحدة ضد الظلم بأن تعمل جاهدة لإرجاع فرنسا إلى شعبها..¹

كانت الحملة على تونس صعبة و الخسائر جسيمة، و السبب في ذلك يرجع إلى نقص الأسلحة المضادة للدبابات، بحيث أن الفرنسيين لم يواجهوا الدبابات الألمانية الحديثة و القوية إلا بأسلحة قديمة، التي سلمها لهم الحلفاء. فلم تجد الجيوش الفرنسية المراقبة في تونس و التي كان قوامها 13000 جندي، في البداية، سوى أسلحة قليلة و محددة و ذلك للأسباب التي ذكرناها سابقا..²

أما وجهة نظر الحلفاء، فتقول إن الحملة على تونس كانت أفضل مدرسة تمرنت فيها القوات الفرنسية و ذلك بالعودة إلى مدتها، و ميدان معاركها و مخاطرها..³

بالرغم من الوسائل شبه المنعدمة التي كان يتوفر عليها، إلا أن الجيش الفرنسي استعاد احترام و تقدير الحلفاء. فأصبح جيش مشاتها، القوي و المنظم، مفخرة قواتها و مطلوب من قوات الحلفاء. إنها بداية المشاركة في نفس معركة جيش إفريقيا و القوات الفرنسية الحرة، دون صدام و لا حقد. فأصبح تحقيق الوحدة السياسية في نفس مطلب تحقيق وحدة الجيش الفرنسي.

و الأرقام التي سوف نقدمها تظهر جليا فاتورة الدعم الفرنسي المقدم للحلفاء:⁴

¹ - SHAT, 5P1, télégramme du Président Roosevelt au général Giraud.(Cite par Levisse..., L'AFN dans..p338.

² - لم يكن لدى الجنرال "باري" Barre سوى 3 أفواج مدفعية 75 ، و 6 أفواج مضادة للطيران و 15 رشاش محمول و 15 دبابة من الطراز القديم. أنظر:

- Pujo (Bernard),Juin Marechal de France..., op.cit..., p 376.

³ - Churchill (Winston), Mémoires de la..., t4..., op.cit..., pp 202-227

⁴ - وضع هذا الجدول بعد قيامنا بعملية إحصاء لما قدمته "لفيس توزي" من توضيحات في هذا الغرض. غير أن هناك مصادر الأرشيف العسكري الفرنسي قد أحصت خسائر الحلفاء خلال الحملة على تونس على النحو التالي: الأمريكيون: 2175 قتيل و 9000 جريح. البريطانيون: 4439 قتيل و 12500 جريح. الفرنسيون: 2156 قتيل و 10276 جريح. لأكثر تفاصيل أنظر كل من:

- Levisse Touzé Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit..., p 338.

- Pujo Bernard, Juin Marechal de France..., op.cit..., p 377.

الدول	القوات المتطوعة	الوفيات	المعطوبين
و.م.أ	90000	2700	9000
بريطانيا	120000	4439	12500
فرنسا	- - -	- - -	- - -
جيش إفريقيا	80000	2156	10276
القوات الفرنسية الحرة	3500	38	69
المجموع	293500	9333	31845

سابعاً : الأبعاد الحقيقية لعملية الإنزال في شمال إفريقيا

إن من الشهادات التي غيرت من فحوى الكتابات العديدة التي أملت بظروف عملية الإنزال و ما صاحبها من تطورات عسكرية كانت أبرزها الحملة على تونس، هي تلك التي جاءت في التقرير الذي رفعه "شارل ريبيل" وزير الداخلية الفرنسي السابق سنة 1946، بعد المحاكمات، أو تصفية الحسابات، التي طالت العديد من السياسيين و ضباط الجيش الفرنسي الذين اتهموا بالخيانة لقضية كانت في وقتها تعتبر خاسرة. و كما يقول: "مهما قيل عن عملية الإنزال، فهي تعتبر حدثاً هاماً، شكل المنعرج الحاسم للحرب العالمية الثانية و الانطلاقة الحقيقية لعملية تحرير فرنسا.¹

كل شيء في عملية الإنزال دام من 8 إلى 13 نوفمبر 1942. و علينا أن نضع أنفسنا في أجواء الأحداث التي دارت في تلك الفترة. حيث لا يمكننا أن نتوقع ردة فعل السلطات الفرنسية أمام "الغزو" الأمريكي لأراضيهم ما دام أنهم لم يكونوا على دراية بما كان يجري و لا بحجم العملية، لأن الحلفاء لم يطلعوهم على حيثيات العملية إلا و هي في طريق التنفيذ. و يمكن اعتبار ذلك من الأخطاء التي ارتكبها الحلفاء في حق الفرنسيين لما حجبا عنهم عملية "تورش".² و حتى انقطاع الاتصالات بين الحلفاء و الفرنسيين زاد من توتر الأوضاع، الأمر الذي جعل الحلفاء يتوقعون ما حدث لهم.³

كان للصراع الفرنسي الداخلي أثارا بليغة ترتبت عنها نهاية عملية الإنزال، حين دخلت قوات "فيشي" في صراع مع القوات الأمريكية- البريطانية في كل من وهران و المغرب و حتى تونس. مما جعل المعارك تطول و معها يزيد عدد الضحايا من كلا الجانبين. كما أن تردد القادة العسكريين في حكومة فيشي المتمثلة في شخصيات؛ "جيرو" و "دارلان" و "بثوار" في الجزائر و "نوقس" في المغرب، و المقيم العام في تونس "إيستيفا" و

¹ - Reibell (Charles), La vérité sur les origines du débarquement allié en Afrique du Nord, p 5.

² - Pujo (Bernard), Juin Marechal de France..., op.cit., p 117.

³ - Ibid., p 117.

قيادته العسكرية، التي أبقت على ولاءها للمارشال "بيتان"، هو الذي أعطى الحلفاء الفرصة للتقرب من الجنرال "جوان" الذي كان وراء إمضاء الهدنة الفرنسية-الأمريكية، حين اتضح مصير الصراع في شمال إفريقيا.¹ من بين المواقف التي جعلت عملية الإنزال ممكنة، هو ذلك الخطأ الذي ارتكبه الألمان مع بداية سيطرتهم على أوروبا و هزمه لفرنسا. حيث لم يستغلوا كما كان يجب، ذلك التفوق العسكري ليوظفوه سياسيا، خاصة مع الموجه "المناهضة لبريطانيا" التي ظهرت في شمال إفريقيا و المتروبول بفعل انسحاب الفيالق البريطانية من ميادين المعارك و تراجع طيرانها و ختمتها بقضية الهجوم على ميناء المرسى الكبير في الجزائر. إذا كان عليها هنا، أن تسارع إلى إبرام اتفاق إستراتيجي مع فرنسا لتصبح حليفها في إعادة بناء أوروبا على النمط الذي كان يراه "هتلر".²

كانت لعملية الإنزال الأنجلو-أمريكية تأثيرات مباشرة في فرنسا. بحيث أنه منذ جوان 1940، وضع الألمان مخططات للسيطرة على المنطقة التي بقيت في يد الفرنسيين بعد التوقيع على اتفاقية الهدنة. و جهز الألمان عملية عسكرية و لوجستية ضخمة أطلقوا عليها اسم "أطيل" Attila بإيعاز من "هتلر" نفسه، الذي أصدر تعليمه في 10 ديسمبر من نفس السنة، الهدف منها الاستعداد لأي طارئ.³

إن الألمان، بفشلهم الذريع في اجتياز بحر "المانش" Manche نحو الأراضي البريطانية خلال سنوات 1941 و 1942، قد أتاحوا للفرنسيين فرصة مناقشة بنود الهدنة المبرمة من منطلق عجزهم في فرض منطقهم العسكري آنذاك. و إلا فكيف نفسر "بجال المناورة" الذي كان يتمتع به الجنرال "ويقان" دون أن يلقي منذ البداية أي اعتراض حاسم من طرف الألمان، الذين تركوا الحكومة "فيشي" بجال حرية واسع لم تستغله أحسن استغلال قبل عملية الإنزال.

¹ - استدعى هذا الوضع حضور الرئيس الأمريكي "إيزنهاور" شخصيا إلى الجزائر لتثبيت الاتفاق المبرم بين الطرفين الفرنسي و الأمريكي، الأمر الذي جعل الجنرال "جوان" يبدى ارتياحه و يعتبر أنه نجح في المهمة التي كانت ملقاة على عاتقه و المتمثلة في إسكات صوت البنادق ضد الحلفاء. لمزيد من الشروحات أنظر:

- Pujo Bernard, Juin Marechal de France..., op.cit., pp 126-129.

² - يقول "شارل ريبيل" بأنه كان على ألمانيا أن تعيد لفرنسا مناطق "الألزاس و اللورين" كخطوة أولية قد تشجعنا على قبول كل المقترحات الألمانية فيما بعد، غير أن شيء من ذلك لم يحدث. و ربما كان ذلك فال خير على فرنسا و من الأمور الإيجابية التي حدثت ما دام شجعها على تجنب تحالف مع ألمانيا قد يكلفها الكثير في المستقبل...لمزيد من الشروحات أنظر:

- Reibell Charles, La vérité sur les origines du débarquement allie..., op.cit., pp 5-6.

و ربما العكس من وجهة نظر أخرى، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوة العسكرية التي كان يتمتع بها الألمان في فترات حساسة من الحرب. ³ - إن الهدف الأول الذي كان يشغل بال الألمان هو موقف الجنرال "ويقان" الذي لم يقتنع بفكرة الهدنة. و كلما تأثرت العلاقات الفرنسية الألمانية بجزء من الهزات، سارعت ألمانيا إلى تجهيز عملية "أنيل" التي كانت تهدف إلى الاستيلاء على كل الوحدات الرئيسية للأسطول الفرنسي المرباط في ميناء "طولون" الفرنسي. إلا أن "هتلر" حاول الحصول على مشاركة حكومة فيشي لمخططاته، لأنه كان يعلم بأن عملية من حجم احتلال فرنسا بالكامل قد تكلف ألمانيا مجهودات و إمكانيات جبارة لم تتوفر عليها ألمانيا في حينها. دون أن ننسى أن الحلفاء بقيادة "إيزنهاور" كانوا يرغبون هم كذلك للاستيلاء على الأسطول الفرنسي لقطع الطريق على الألمان. لمزيد من الشروحات أنظر كل من:

- Churchill Winston, Mémoires de la..., t4., op.cit., p 226.

- Dahms Hellmut. Günter., La seconde guerre mondiale..., op.cit., p 206.

هذا ما دفع بالإنجليز على لسان "تشرشل" إلى اعتبار أن "هتلر" قد ارتكب خطأ كبيراً بجره فرنسا إلى الهدنة لأنه: "مع نهاية جوان 1940، لم يعد الإنجليز يمتلكون أسلحة بعد معركة الشمال.. و قد أنقذتنا الهدنة. لقد ارتكب "هتلر" خطأ بمنحها لفرنسا، و كان عليه الاستيلاء على شمال إفريقيا أولاً، ثم التوجه نحو مصر. حينها، كانت مهمتنا تكون معقدة..¹

تبقى في النهاية قضية ذات أهمية بالغة و المتمثلة في سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على كافة تفاصيل عملية الإنزال. و كان عليهم تحمل كل النتائج المترتبة عن العملية لسببين: الأول، كون الإنجليز بالرغم من عدم تقبلهم الفكرة من الأساس إلا أنهم وجدوا فيها حيلة تجنبهم مقاومة شرسة من سكان مناطق شمال إفريقيا. و الثاني، عدم إشراك السلطات الفرنسية في تفاصيل العملية، و خاصة الديغوليين منهم، كان سلاح ذو حدين. لأن الفشل في هذه الحالات قد يكلف، ليس الأمريكيين فقط، بل الجميع، انهيار عسكري سوف تكون له عواقب وخيمة على أوروبا و العالم.²

كما عمل عملاء الدعاية الأمريكية، منذ ربيع 1943، إلى الترويج لفكرة، أن أمريكا سوف تنقذ العرب و تعيد لهم حريتهم.. الحقيقة أن ذلك الشعار من صنع العرب أنفسهم. و ما دام أن علاقة هؤلاء العملاء كانت جيدة معهم، فلم يبقى سوى تمرير الفكرة.

كانت للأمريكيين "شبكة قراءة" Grille de lecture مطابقة لثقافتهم السياسية. فعندما دخلوا الجزائر لأول مرة، ظهرت لهم الفوارق الاجتماعية و الإثنية الشاسعة، و صور البؤس و قذارة الطرقات و انتشار الأمراض، إلى جانب خبايا الصراع الفرنسي الداخلي على السلطة. غير أنه في لحظة إجازة الجنود خارج أسوار ثكناتهم، اكتشفوا جزائر مغايرة تماماً عن تلك التي تعرفوا عليها في البداية. فظهرت لهم جزائر جمال الطبيعة و غروب الشمس من أعالي جبال "الشرية" و حلاوة الاستحمام بشواطئ "تبازة" و الجلوس في مقاهي شرفات نزل "الأليتي" بمدينة الجزائر و الأكالات الدافئة في مطعم "الإغريقي" بوهران.³

بوجود القوات المتحالفة على أراضيها، أصبحت الجزائر الفرنسية عرضة للانتقادات الخارجية. لقد فتحت الأبواب على مشاكلها و ضعفها و على العقلية الباهتة و النزعة الطاغية لحكامها و على نظرهم الضيقة للديمقراطية. بعبارة، عن وجود نسبة كبيرة من سكانها في أحوال متدنية.⁴

ساهم المركب الصناعي العسكري الضخم الذي أقامته الولايات المتحدة الأمريكية في ترجيح كفة الحرب لفائدة الحلفاء، حيث لم يبقى أمام الولايات المتحدة الأمريكية سوى السيطرة على البلاد و العباد. و بدت لها شمال إفريقيا و كأنها شكل مربع لبسط هيمنتها الإمبريالية، و كأنها ميدان تجارب للسياسة المهيمنة

¹ - Reibell (Charles), La vérité sur les origines du débarquement allié..., op.cit., p-6. Et voir aussi :

- Procès du Marechal Pétain, In Journal Officiel, p 167.

² - Reibell (Charles), La vérité sur les origines du débarquement allié..., op.cit., p 15.

³ - Salinas (Alfred), Les Américains en Algérie..., op.cit., pp 10-11.

⁴ - Salinas (Alfred), Les Américains en Algérie..., op.cit., p 11.

التي كان يريد تطبيقها "روزفلت". و ظهرت بذلك الرهانات الحقيقية لعملية الإنزال التي مهدت لها الولايات المتحدة الأمريكية و جهزت لها ترسانة عسكرية و حربية و صناعية و اقتصادية فاقت كل التوقعات.¹

بعد تحرير الجزء الأكبر من شمال إفريقيا، و نقصد به الجزائر و المغرب، كان على الحلفاء مواصلة الطريق نحو تونس لإتمام المهمة التي جاءوا من أجلها، أي تحرير الشعوب و الديمقراطية من غطرسة الفاشية.²

غير أن تعاملهم مع بقايا الفيشيسيين المتواطئين مع النازية لم يعد مفهوما. و حتى و إن أعطى الأمريكان و الإنجليز الانطباع بأنهما لن يتدخلوا في الشؤون الفرنسية الداخلية، بين أنصار "بيتان" و أنصار المقاومة، من جهة، و الوطنيين من جهة أخرى، فإنهم في الواقع لا يرغبون في وجود حكومة مناهضة للفاشية، قد تشكل عائقا كبيرا أمام الأطماع المستقبلية للحلفاء.³

¹ - Ibid..., p 10.

² - Alleg (Henri), Mémoire algérienne, Casbah éditions, Alger, 2006, p 82.

³ - Ibid..., p 83.

الفصل الثالث

الوطنيون في مواجهة الواقع الجديد

في شمال إفريقيا

تمهيد

مع نزول قوات الحلفاء في الثامن من شهر نوفمبر 1942، أصبحت بلاد شمال إفريقيا من النظرة القانونية مستعمرة "حلفائية" أي خاضعة للسيطرة الأنجلو أمريكية، ما دام أنهم هم الذين قاموا بتخليص منطقة شمال إفريقيا من شبخ النظام المتعاون مع الألمان، و ذلك منذ أن وطأت أقدام الألمان الأراضي الفرنسية في جوان 1940. و قد تم هذا الإنزال بالرغم من كل التنازلات التي قدمتها حكومة "لافال" الفرنسية إلى الألمان.

غير أن ذلك لم يمنع "فيشي" من الاستمرار في التمتع بحرية حكومتها ما دام أنها كانت تتوفر على خاصيتين أساسيتين هما، الجيش و أراضي متحررة. إضافة إلى حيازتها على ورقتين رابحتين هامتين، باعتراف كل الأطراف المتنازعة، و هما الإمبراطورية و الأسطول. مما مكنها من ربط علاقات دبلوماسية مع معظم البلدان المحايدة أو المتنازعة، سواء كانت في معسكر الحلفاء أو معادية له. و بداية من 27 نوفمبر من سنة 1942، لم تبقى هناك منطقة حرة، فأصبح الجيش منحل، و الأسطول محطم. فدخلت كل أجزاء الإمبراطورية في وضعية الانفصال. و حدث كل هذا في ظرف ثلاث أسابيع.¹

إذن، من هذا المنطلق بقيت منطقة شمال إفريقيا ورقة هامة في يد حكومة فيشي إلى غاية نوفمبر 1942، ما دام أن فرنسا قد حافظت على سيادتها في المنطقة بالرغم من الضغوطات و المساومات الكبيرة التي تعرضت لها من قبل الحكومة الألمانية. من هنا أصبحت المنطقة بمثابة الوسيلة الإستراتيجية و القاعدة التي سوف تعتمد عليها الحكومة الفرنسية لتحرير كل أراضي الإمبراطورية.

لقد أدى نزول قوات الحلفاء في شمال إفريقيا إلى تحقيق نوع من الحرية بالنسبة للحركات الوطنية و ذلك بعدما تم إطلاق سراح المعتقلين السياسيين و عودة نشاطهم تدريجيا إلى الواجهة.² فاستغلت شعوب المغرب العربي هذا الظرف المناسب للمطالبة بحقوقها السياسية ما دام أنها ساهمت بقسط كبير في نصرة الحلفاء الأمر الذي دفع "بفرحات عباس" إلى مطالبة فرنسا بتطبيق وعودها و احترامها لمطالب الشعب الجزائري.

و مع هزيمة المحور و تراجع حكومة "فيشي"، ضعف الطرف الفرنسي من الكولون المتحالفين مع الفكرة الوطنية التي جاءت بها حكومة "بيتان"، فتشجع الجزائريون لإعادة النشاط السياسي لحركتهم،³ في وقت ساهمت فيه إجراءات التهدة و الانفراج، التي انتهجتها حكومة فرنسا الحرة إلى استمالت الجزائريين لصفوفها من خلال مبادرات التعبئة و التجنيد المتواصلة للقضاء على دول المحور.⁴

¹ - Aron (Robert), Histoire de Vichy 1940-1944..., op.cit.. p 538.

² - Abid (Ahmed), Syndicalisme et luttes sociales en Oranie 1942-1951, Thèse de doctorat de 3^{ème} cycle, Université de Paris, 1986, p 31.

³ - صاحب المقال، العنوان، جريدة الجمهورية، عدد 5271، بتاريخ 1 ماي 1982، ص 5.

⁴ - Abid (Ahmed)..., op.cit..., p 32.

أولا - الأمريكيون يوجهون سياسة الحلفاء في شمال إفريقيا

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة، جغرافيا، عن ميادين المعارك، لكنها كانت حاضرة يترقبها للأوضاع ما دام أنها أقيمت على علاقتها الدبلوماسية و الاقتصادية بفرنسا حتى بعد هزيمتها أمام الألمان. هذا لم يمنعها من توجيه اهتمامها صوب منطقة شمال إفريقيا، وبخاصة الجزائر، التي تمكنت من الاستقرار بها بعدما تم تعيين "روبير مورفي"¹ Robert Murphy على رأس قنصليتها. حيث ربط في البداية اتصالات شبه رسمية مع مختلف الأطياف المتواجدة بالجزائر، سواء كانت سلطة فرنسية رسمية أم معارضة للسلطة أو من الجزائريين الذين كانوا في صف فرنسا و حلفاءها.

و بالعودة إلى السياسة الأمريكية في مثل هذه الظروف، فإن موقفها يجزأ دائما إلى المواقف السابقة التي كانت لها مع مختلف الحميات و ذلك منذ عهد الرئيس "ولسن"، الذي عرفت فترة حكمه تدخلات عسكرية في المكسيك، على مرتين، و الثورة التي قادها "روزفلت" على باناما سنة 1914، و التي دفع فيها "ولسن" ما قيمته 25 مليون دولار أمريكي للدولة "كولومبيا" من أجل تخفيف الأضرار التي تسببت فيها الولايات المتحدة الأمريكية. و لم يتم التوقيع على هذا الاتفاق إلا في سنة 1921.²

لقد سبقت أحداث الحرب العالمية الثانية أوضاع شائكة في الولايات المتحدة الأمريكية دامت منذ عهد الديمقراطي "ولسن" مروراً بالجمهوريين "وارن هاردينغ" Warren G. Harding و "كاليفين كوليدج" Calvin Coolidge و "كلارك هربرت هوفر" Herbert Clark Hoover، و ميزها إهمال كبير لعصبة الأمم في الشق المرتبط بالسياسة الخارجية. و أخذ النشاط الإمبريالي ينمو و يتطور في كل الاتجاهات دفاعاً عن المصالح التجارية الأمريكية. و حتى الحلفاء الذين تدينوا من الولايات المتحدة طلب منهم تسديد ديونهم. كما ارتفعت حقوق الواردات في مناسبتين فيما يتعلق بالمواد المصنعة.³

لما أعيد انتخاب "روزفلت" سنة 1936 مرة أخرى على رأس الدولة الأمريكية، تعهد بأن تتخذ الولايات المتحدة مبدأ الحياد بافتخار. فصوت البرلمان و أمضى "روزفلت" على القوانين التي تشدد على مبدأ الحياد. و كان

¹ - روبير مورفي، من مواليد 1897 بالولايات المتحدة الأمريكية، متحصل على شهادة في الحقوق. بدأ حياته الدبلوماسية مبكراً و زار العديد من الدول عبر العالم، خاصة في القارة الأوروبية. عين قنصل لأمريكا لدى نظام "فيشي" في الفترة الممتدة ما بين 1940 إلى 1941. أبرم اتفاقية مع الجنرال "ويقان" الفرنسي. و في نهاية 1941 أصبح الممثل الشخصي للرئيس "روزفلت" في شمال إفريقيا حيث أسندت له مهمة التحضير لعملية نزول قوات الحلفاء على سواحل شمال إفريقيا. غادر الجزائر سنة 1944. و تولى بعد ذلك عدة مهام دبلوماسية إلى أن توفي سنة 1978. أنظر:

- بديده لزهري، الحركة الديغولية في الجزائر... رسالة لنيل شهادة الدكتوراه...، مرجع سابق...، ص 109.

² - بالعودة إلى تاريخ "كولومبيا" فهي لم تحضم الطريقة التي تمكن بها "روزفلت" من تجديدها من "باناما" باستعماله سياسة "العصا الكبير" Big Stick، لذلك عملت جاهدة على الحصول على تعويضات مالية تحصلت عليها من الرئيس الأمريكي "ولسن" عند أعيد فتح "مضيق باناما" أمام الملاحة الدولية مجدداً. غير أن هذه التعويضات المالية لم تتمكن من تضييد الجراح لا في كولومبيا و لا في أي دولة في أمريكا اللاتينية. و عندما تمت المصادقة على الاتفاق، اعترفت كولومبيا باستقلال باناما سنة 1921. لمزيد من الشروحات ينظر:

- Julien Claude, L'Empire Américain, éditions Bernard Grasset, Paris, 1968, p 124 et p 185.

³ - Beard (Charles A.) et (Marie R.), Histoire des Etats-Unis, p 374. (Cité par Julien Claude..., pp 241-242).

شعار الدولة هو "أمريكا أولا". America First و بذلك أصبحت مشاكل العالم في الجهة المقابلة عبارة عن لا حدث. فتشجع الألمان جراء هذا الموقف الأمريكي و جهزوا حملة كبيرة على الدول الأوروبية للإطاحة بالديمقراطيات فيها. و قد كانت لروزفلت هذه العبارة بعد نهاية الحرب: "بفضل فرضنا الحضر على الأسلحة، ساهمنا في تقوية دول المحور..¹

جسدت سنة 1941 السيطرة المطلقة للقوات الألمانية في أوروبا. و في نفس الوقت فتحت بريطانيا جبهة المقاومة و شرعت تنظم صفوفها استعدادا لغزو ألماني محتمل. و بداية من 22 جوان زحفت الجيوش الألمانية على روسيا، و في 7 ديسمبر هاجم الطيران الياباني القاعدة الأمريكية "بيرل هاربر" في جزر "هاواي". كان ذلك سبب كاف لدخول الولايات المتحدة الحرب، و بذلك اشتعل العالم تحت نيران القوات المتصارعة.²

هذا النشاط الأمريكي لم يكن ليمر على الجنرال "ديغول" الذي رأى فيه تطورا جديدا في السياسة الأمريكية الخارجية و مطامعها نحو أراضي شمال إفريقيا و بالخصوص نحو الجزائر و المغرب. كما أحس أن محاولات إبعاده عن الساحة السياسية الفرنسية هو إجراء وقائي للتحكم أكثر في مصير البلاد أمام الضعف المتكرر للسلطات الفرنسية بقيادة المارشال "بيتان".

تبدو الرغبة الأمريكية جامحة في الحصول على مناطق نفوذ هامة لتضعها ضمن إستراتيجيتها الشاملة عقب دخولها الحرب. فكان وضع القدم الأولى في شمال إفريقيا أن فتح لها أبواب العديد من الامتيازات التي تتماشى مع مصالحها مع الإشارة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي اختارت بأن يكون مقر قنصليتها الدبلوماسية في الجزائر.³

1- نشاط الأمريكيين و علاقتهم بالزعماء الوطنيين في الجزائر

كانت الانطلاقة منذ أن تم تعيين القنصل الأمريكي " روبرت مورفي " Robert Murphy في الجزائر مع بداية سنة 1940، إذ حاول ربط علاقات مع مختلف الحساسيات المتواجدة في الجزائر، سواء تلك التي كانت مساندة للسلطة الفرنسية أو المعارضة لهذه السلطة، أو حتى من الجزائريين الذين كان يرى فيهم "مورفي" العناصر القادرة

¹ - Julien (Claude), L'Empire Américain..., op.cit., p 259.

² - Gallo (Max), Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1941, le monde prend feu..2011.

³ - للتوسع أكثر في الموضوع أنظر إلى:

- Dunais Geneviève, (Sous le Pseudonyme de Chamine), La conjuration d'Alger, T1, éditions Albin Michel, Paris, 1946, p11 et p 34.

⁴ - "روبرت مورفي"، من مواليد سنة 1908، حاصل على شهادة في الحقوق. بدأ حياته السياسية مبكرا حيث زار العديد من البلدان في القارتين الأوروبية و الأمريكية. تم تعيينه في الجزائر قنصلا لدى حكومة "فيشي" من 1940 إلى 1941. بعدها أصبح الممثل الشخصي للرئيس الأمريكي "روزفلت" في شمال إفريقيا، حيث كلفه بتحضير عملية إنزال للقوات المتحالفة على سواحل شمال إفريقيا. غادر الجزائر سنة 1944، ثم تولى العديد من المناصب في السلك الدبلوماسي الأمريكي عبر العديد من مناطق العالم. توفي سنة 1978. أنظر إلى:

- Dunais Geneviève, (Sous le Pseudonyme de Chamine), La conjuration..., op.cit., p 88.

على مساعدة الحلفاء في المستقبل.¹ ثم ظهرت الجزائر، في الخريطة الجيو-إستراتيجية الأمريكية، أثناء الحرب العالمية الثانية، و كأنها ذات أهمية بالغة. لأن المصالح الأمريكية تقتضي البحث عن مناطق نفوذ قد تقوي شوكتها و تمكنها من وضع أقدامها فيها بعدما تحدد فيها جملة من الامتيازات و المصالح.²

في ظروف الخلاف الذي تواصل بين مختلف الحساسيات الفرنسية، ظهرت شجاعة مجموعة من الزعماء الوطنيين، على غرار فرحات عباس، رغبة منها في كسر القيود الملحمة، و ربطت أولى اتصالاتها مع الأمريكيين و الإنجليز، ظنا منها أنها قادرة على قول كلمتها في ظل هذه الفوضى السائدة داخل البيت الفرنسي، و كان عليها تحديد موقف صريح من هذا الخصام في ظل هذه الحرب.³

هذه الجرأة الجزائرية تجاه فرنسا الاستعمارية، قد بدأت تظهر منذ فشل مشروع بلوم-فيوليت الشهير و تبعها الانهيار الفرنسي في ماي 1940 أمام القوات الألمانية، مما دفع بالجزائريين إلى طرح عدة تساؤلات حول المصير الذي ينتظرهم و العلاقة المتبقية مع فرنسا. فظهرت شخصية "فرحات عباس" في البداية، عبر صفحات جريدة "لونتونت"⁴ L'Entente، أين حاول تفسير مواقفه المختلفة التي وضعته في قفص الاتهام على أساس أنه حاول التقرب من فرنسا.

عبرت الحرب العالمية الثانية عن الرغبة الكبيرة التي كانت تحدد "فرحات عباس" في الخروج من دائرة هذا الاتهام، فعكف على استعمال كل الطرق للحصول على اعتراف فرنسا بحقوق المسلمين الجزائريين. فكان التقرير الشهير الذي بعث به إلى المارشال "بيتان" في سنة 1941.⁵

¹ - أقامت الولايات المتحدة الأمريكية علاقات دبلوماسية رسمية مع حكومة "فيشي" في خريف 1940، و اختارت أن تكون الجزائر مقرا للبعثة الأمريكية فيها، و هو ما تحقق فعلا مع مطلع سنة 1941 عندما عين "روبير مورني" قنصلا فيها.. لمزيد من الشروحات أنظر كل من:

- Chamine (Pseudonyme)..., op.cit., p 34.

- Rey - Goldzeiguer Annie, Aux origines de la guerre d'Algérie..., op.cit., pp 134-135.

² - في الحقيقة إن "المثالية" الولسونية لم تكن لتحديد موقفا صريحا من مسألة الحياد الأمريكي، على الأقل ليس في القارة الأمريكية، التي أرسلت فيها قوات إلى المكسيك و هايتي و كوبا و بنما و الهوندوراس و قواتمالا.. و لاعتبارات اقتصادية سوف تمر الولايات المتحدة إلى مرحلة جديدة نحو طريق تأسيس الإمبراطورية. مما سيفتح لها أفاق واسعة باتجاه مناطق عديدة في العالم. و لن يبقى من مبدأ العزلة الذي جاء به الرئيس "مونرو" سوى الأحرف. و على حد تعبير "جون أدامس" John Adams، فإن "ميلاد أمريكا من تدبير العناية الإلهية، خلقت من أجل إنارة الطريق لباقي البشرية..." أنظر إلى:

- Julien Claude, L'Empire Américain..., op.cit., p 209. Et voir aussi:

- Chamine (Pseudonyme), La conjuration d'Alger..., op.cit., p 11.

³ - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de L'Afrique du Nord..., op.cit., p 338.

⁴ - كانت هذه الجريدة في الأصل تسمى بـ "لونتونت فرانكو-مسلمان" L'Entente franco- musulmane، و امتد ظهورها من سنة 1935 إلى سنة 1942، ثم أصبح يطلق عليها "لونتونت". و كانت لسان حال فدرالية المنتخبين لعمالة قسنطينة بالدرجة الأولى. و بدأ "فرحات عباس" يكتب فيها بشجاعة كبيرة مدعما من طرف الدكتور "بن جلول"، إلى غاية سنة 1938، التي امتازت بجدئين هامين في المسيرة السياسية للرجل: الأول، هو نهاية الآمال التي كانت معلقة على مشروع "فيوليت". و الثانية محاولته الأولى لإنشاء حزب سياسي أسماه "الإتحاد الشعبي الجزائري" UPA، غير أنها كانت محاولة فاشلة. أنظر :

- Benammar Leila Benmansour, Ferhat Abbas, L'Injustice, Alger-Livres-Editions, Alger, 2010, p 28.

⁵ - ANOM, GGA, 4cab/17, rapport de 42 pages présenté par Ferhat Abbas au Marechal Pétain. « L'Algérie de demain ». Voir quelques pages in annexe N° 9.

كانت اجتماعات "المفوضيات المالية" Delegations Financières، التي أُنشئت من 16 إلى 19 ديسمبر 1942، المكان الخصب الذي نمت فيه الطموحات الوطنية و الفرصة التي سمحت لهم بالتحرك. فأخذ "فرحات عباس" المبادرة في 20 ديسمبر و بعث برسالة من "الممثلين الجزائريين المسلمين" إلى "السلطات المسؤولة". و كان باديا من الرسالة أن الأمور أصبحت جادة من الجانب الجزائري، الذي حاول إعطاء صبغة دولية للمسألة الجزائرية ما دام أن القوات الأمريكية و البريطانية كانت لها صفة "الرسمية و المسؤولة" في الجزائر.¹

غير أن السلطات الفرنسية أبدت امتعاضها من الموضوع و طالبت من الجزائريين بأن يعاد كتابة الرسالة و توجيهها مباشرة إلى السلطات الفرنسية. و فعلا حصل ذلك في 22 ديسمبر عندما بعث فرحات عباس برسالة ثانية، لم يختلف محتواها كثيرا عن الرسالة الأولى إلا في بعض العبارات.²

اعتبر الطرف الفرنسي أن هذه الرسائل لم تأتي في وقتها، بل أكثر من ذلك، فقد اعتبرها نوع من الابتزاز يمارس ضد سلطته في ظروف و أوقات غير ملائمة. إلا أنه من الواضح أن طرح مسألة قانون جديد خاص بالجزائر و الجزائريين بات من الأمور التي لا يمكن أن تتنكر لها فرنسا.

بالإضافة إلى ذلك، فإن "مورفي" القنصل الأمريكي و الممثل الشخصي للرئيس الأمريكي "روزفلت"، كان قد ربط اتصالات عديدة مع "فرحات عباس" و أنصاره، و قد يكون تمخض عن تلك اللقاءات بعض الوعود التي قطعها "مورفي"، باسم الرئيس الأمريكي، لنصرة الجزائريين. هذا ما أوهمهم بمستقبل مملوء بالآمال.³

¹ - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de L'Afrique du Nord., op.cit., p 338.

² - جاء في نص الرسالة الأولى المحتوى التالي: "إن ممثلي المسلمين الجزائريين، و أمام الأحداث الخطيرة التي تمر بها بلادهم منذ الثامن ماي 1942، قد ارتأوا إرسال هذه الرسالة إلى السلطات المسؤولة.

إن الحرب التي أصابت كل القارات و جرحت فرنسا، منارة الحضارة و الثقافة، قد وصلت اليوم إلى الجزائر. و إذا كانت هذه الحرب، كما يقول الرئيس الأمريكي، حرب تحرير الشعوب و الأفراد، دون تمييز بين الأجناس و الديانات، فإننا، نحن المسلمون نكون أول من سيساهم و بكل قوة في تقديم التضحيات في سبيل تحقيق النصر. و هكذا، سوف نضمن تحريرنا السياسي و في نفس الوقت تحرير المتروبول.

غير أنه يجب التذكير هنا، بأن السكان المسلمين محرومين من حقوقهم و حرياتهم الأساسية بالرغم من كل التضحيات الجسام التي قدموها لفرنسا التي قدمت لهم الوعود و لكن دون جدوى. في المقابل، يتمتع السكان الأوروبيون بهذه الحريات و الحقوق.

و عليه، و قبل مشاركة المسلمين في أي مجهود حربي، نطلب استدعاء الهيئات المنتخبة و ممثلي مختلف المنظمات المسلمة في لقاء يجمع كل الأطراف للبحث في الحقوق السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية للمسلمين الجزائريين.

و وحده نظام قائم على العدالة الاجتماعية، كفيل بأن يجعل المسلمين مستعدين لتأدية واجباتهم تجاه بلدهم.

أما الرسالة الثانية الصادرة في 22 ديسمبر، فقد تضمنت بعض التعديلات الطفيفة نذكر منها على وجه الخصوص العبارات:

"و كل هذا في إطار السيادة الفرنسية الداخلية.."

"إن الرأي العام المسلم قلق جراء الأوضاع الراهنة، و هو يطلب إشراكه في المصير الذي ينتظر فرنسا بطريقة غير تلك التي تقوم على التضحيات فقط... و ينبغي من الآن أن نظهر له بالفعل الملموس الإرادة الكبيرة التي تحذو فرنسا في المضي قدما في طريق الإصلاحات... و انتهى النص الثاني بعبارة: نحن الممضون أسفله، نطلب استدعاء هذا اللقاء...". لمزيد من الشروحات طالع كل من:

- La documentation Française, NDE, N- 333, p 5.

- Le Tourneau Roger, Evolution politique de L'Afrique du Nord., op.cit., p 338.

³ - Julien (Charles André), L'Afrique du Nord en marche., op.cit., pp 279-281.

تشجع "فرحات عباس" بهذا الموقف الأمريكي وراح يفكر في طريقة تجعل فرنسا تقبل بسماع مقترحات المسلمين الجزائريين بشأن ظروفهم السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، فكان بيان 10 فبراير الشهير، و الذي أسال الكثير من الحبر، ليضع الجميع أمام مسؤولياتهم التاريخية.¹ أرادت جماعة المنتخبين الجزائريين أن تركب الموجة و تحاول التحسيس بأهمية البيان. فاعتنمت محتوى البرامج التي كانت تبثها إذاعات لندن و واشنطن لتطور من ثقافتها للسياسة العالمية الجديدة التي ترسم معالمها في كل أرجاء العالم مستغلة انتشار مفهوم "حقوق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها". و بدأت تصل أصدااء عن لقاء الأطلسي و الميثاق الذي انبثق عنه، الأمر الذي دفع بالأمم المتحدة التنديد بالنظام الاستعماري.²

فرض الوجود الأمريكي في الجزائر نفسه بالهيبة التي ميزت جنوده و طبيعة ترسانته العسكرية المتكونة من الأسلحة المختلفة، و برودة فعل الجزائريين الذين اعتبروا ذلك انتصارا أمريكيا على الجيوش الفرنسية، رغم أن الجنرال "ويقان" كان قد صرح بأنه دافع بشرف من أجل فرنسا. إلا أن الفرق كان واضحا بين الجيشين مما جعل الجنرال "جوان" يمرر هذه العبارة: "لقد كان الانطباع السائد بعد نزول القوات المتحالفة، أن حلت محل فرنسا قوة أكبر و أقوى منها..³ فظهرت القوة الأمريكية من خلال الدور الذي أدته وحداتها العسكرية فوق ميدان المعارك أولا، ثم مواصلة العمل الدعائي في الأوساط المسلمة في شمال إفريقيا.

2- الدعم الأمريكي للسلطان و الوطنيين في المغرب

أصبحت الأجواء ثقيلة و متغيرة في المغرب مباشرة بعد نزول قوات الحلفاء، خاصة الأمريكية منها. لأنها سمحت لأول مرة للسلطان المغربي بالوقوف في وجه الجنرال "نوقس"، المقيم العام للمحمية، و رفض مرافقته إلى مدينة "مكناس" التي كان ينوي "نوقس" اللجوء إليها في حال دخلت القوات الأمريكية بالقوة إلى الأراضي المغربية، و بقي في قصره بالرباط. و كانت الحادثة الأولى في طريق كسر الهيمنة الفرنسية. لأنه حتى و لو لم تكن الحادثة خطيرة، إلا أن قيمتها كانت تدل على أن السلطان المغربي قد أحس باقترب ساعة الفرج و التطور بدولته بعيدا عن الرعاية الفرنسية التي لم تخدم في الأصل سوى المصالح الفرنسية و الكولون و بعض الأعيان الكبار في المغرب. و قد تدعم هذا الطرح خلال مؤتمر "أنفا"⁴، الذي جمع الرئيس "روزفلت" و الوزير "تشرشل" و الجنرالات،

¹ - للتعق أكثر في الموضوع طالع كل من:

- Benammar Leila Benmansour, Ferhat Abbas, L'Injustice..., op.cit., p 28.

² - Beghou (Yucef), Le manifeste du peuple Algérien, les A.M.L contribution au mouvement national, Dahlab éditions, 2007, Alger, pp 42-43.

³ - انهى السكان المسلمين في الجزائر وهران و عنابة، بالقوة الأمريكية الجديدة التي راحت توزع حصص من المواد الغذائية على السكان المسلمين، حيث استفاد بعض الشباب من الشوكولاتة و الخبز الأبيض و السجائر الحقيقية، لدرجة أن ذلك مثل بالنسبة لهم لحظات من الفرح و سعادة نسوا طعمها. لمزيد من الشروحات طالع كل من:

- Juin Alphonse (Marechal), Le Maghreb en feu, Plon éditions, Paris, 1957, p 45.

- Rey -Goldzeiguer- Annie, Aux origines de la guerre..., op.cit., p163.

⁴ - راجع عنصرنا في الموضوع لاحقا.

"ديغول" و "جيرو"، عندما بدا واضحا الشقاق بين الفرنسيين الذين فقدوا، للحظة، سيطرتهم على ممتلكاتهم في شمال إفريقيا.¹ كما يمثل المغرب حليفا استراتيجيا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية كونه يعتبر بوابة بين الأطلسي و البحر الأبيض المتوسط. هذا الموقف اعتبر مساسا بالسيادة الفرنسية كحامية للمغرب بموجب الاتفاقيات المبرمة بين الطرفين.

كان لقاء روزفلت مع السلطان محمد بن يوسف، في 22 جانفي 1943، بحضور "تشرشل" مثمرا لدرجة أنه تم بدون حضور أي ممثل عن فرنسا. مما ترك الانطباع أن الولايات المتحدة الأمريكية تعترف ضمينا بالمغرب كدولة. والحقيقة أن العلاقات كانت دائما ثابتة و مستمرة بين البلدين. هذا يبين عن رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في تطوير علاقاتها التجارية مع المملكة الشريفة و دعم تطور المغرب. خاصة و أن الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت " قد أظهر موقفا صريحا من مسألة الاستعمار من خلال العديد من تصريحاته.²

دار فحوى اللقاء، حسب "إيليوت"، حول الدعم الاقتصادي الذي يمكن للولايات المتحدة الأمريكية أن تقدمه للمغرب، التي كانت بحاجة ماسة إليه. هذا الوضع الجديد، لم يعجب الطرف الإنجليزي الذي اعتبر أن المناسبة غير مواتية للحدث في مثل هذه المواضيع لأن الأهم هو القضاء على الخطر النازي نهائيا.³

وفق الأحداث التي ميزت حياة المغرب السياسية، بعد نزول قوات الحلفاء، فإن سنة 1943 هي البارومتر الذي حدد بداية انفلات "المحمية" من الفرنسيين، الذين وجدوا أنفسهم قد تجاوزتهم تلك الأحداث في وسطهم السياسي العصري. و قد اعترف الجنرال "جوان" في سنة 1947، أنه لو كان مغربيا لكان وطنيا. و قد اعترف أحد الفرنسيين المثقفين خريج المدارس الوطنية للإدارة، أن حزب الاستقلال المغربي قد انتصر لما فرض علينا خيار الميدان الذي سوف تدور فيه المعركة النهائية و أخطأنا عندما خضعنا لهذه الجدلية.⁴

عندما تسلم "قابريل بويو" Gabriel Puaux شؤون الإقامة العامة في المغرب سنة 1943، خلفا للجنرال "نوقس" الذي قدم استقالته و توجه إلى المملكة الإسبانية، وجد بلدا مغائرا تماما عن كل البلدان التي أقام فيها سواء كانت في الشرق أو في شمال إفريقيا. ثم أنه واجه الفرنسيين من أنصار عملية التطهير في حق المتعاونين مع

¹ - كتب "إيليوت روزفلت" Roosevelt Elliott، و هو جنرال في الفيلق الأول للمشاة و ابن أحد الرؤساء القدامى في الولايات المتحدة الأمريكية، عن اللقاء الذي جمع "فرانكلين روزفلت" مع السلطان المغربي في كتاب ألفه سنة 1947 يبيدي فيه انطباع السلطان المغربي الذي وجد نفسه لأول مرة صحبة شخصية عالمية كبيرة و بدون حضور المقيم العام الفرنسي في المغرب الذي كان دائم الحضور لأي مناسبة تجمع شخصيات أجنبية بالسلطات الشريفة في المغرب. أنظر:

- Roosevelt Elliott, Mon père ma dit..., Paris..., 1947, pp 138-142. Voir :
- Salinas Alfred, Les américains en Algérie..., op.cit..., p 178.
- Le Tourneau Roger, Evolution politique de..., op.cit..., p 206.
- Levisse Touze Christine, L' Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit.

² - بالرغم من تعلقهم بفرنسا، على الأقل خلال فترة الحرب العالمية الثانية، لم يخفي المغاربة امتناعهم للسلطات الأمريكية التي كانت تقدم لهم الدعم الغذائي الضروري لمثل هذه الظروف. أنظر:

- Reibell Charles, La vérité sur les origines du débarquement allié..., op.cit..., p 10.

³ - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de..., op.cit..., p 206.

⁴ - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey a..., op.cit..., pp 357-358.

النازية، و لأن "نوقس" طبق سياسة متناقضة مع حقوقهم، و التي كانوا يرون أنها لفائدة المغاربة أكثر منهم. فوصلوا إلى منع المسلمين المغاربة الذين كانوا مدعويين للاستشارة في مجلس الحكومة عندما عاد إلى نشاطه.¹

لكن الوضع العام كان قد تغير بوجود عدد كبير من الأمريكيين في المغرب مما عرقل التأثير الفرنسي و جعله يتراجع، بفعل أن القوات الأمريكية كانت مناهضة للاستعمار في أيديولوجيتها، لكنها في نفس الوقت جاهلة لتاريخ المغرب. إلا أن ما حز في نفسية الجنود الأمريكيين هو الحالة التي وجدوا عليها السكان المسلمين في المغرب، و التي كانت شبيهة بحالة التخلف العلمي و الاقتصادي. و حتى القنوات شبه الرسمية الأمريكية مارست بعض الضغوطات على الإدارة الفرنسية لحثها على تحسين صورة المغاربة و ظروفهم المعيشية.²

اتضح التأثير الأمريكي في المغرب لما جاء وقت إعادة تنظيم الاقتصاد المغربي في إطار سياسة "إنعاش الاقتصاد الأوروبي و الفرنسي". غير أن الشرط الأمريكي المبرم مع الطرف الفرنسي أشار بوضوح إلى ضرورة احترام فرنسا لحرية التبادل التجاري في المتروبول و بخاصة في مستعمراتها. كما أدت عملية الإنزال إلى دخول الجيوش الأمريكية الأراضي المغربية من أبوابها الواسعة، الأمر الذي جعل السكان المغاربة يقفون على حقيقة قوتها العسكرية و الاقتصادية. فبدأت المنتجات الأمريكية تتدفق على البلاد، مساعدة على ظهور سوق موازية تطورت من خلالها السوق السوداء.

كانت التوجيهات الموجهة للجنود الأمريكيين من طرف حكومتهم واضحة فيما يخص علاقاتهم مع السكان المغاربة. و في هذا الصدد سلم لهم كتيب صغير يشرح لهم كيفية التصرف و التعامل مع الأوضاع الجديدة، أي عدم التقرب من المصابين بأمراض خطيرة كالتيفوس، أو الجذري أو السيفيليس، و عدم استهلاك الأكل الموجود في الأسواق أو دخول الحمامات العمومية أو دخول الأحياء الساخنة. عدم دخول البيوت العربية دون إذن أصحابها، عدم التكلم إلى النساء. كما طلب منهم إخفاء كل مظهر خارجي يبين على أنهم أغنياء، مثل؛ الحلبي و الساعات و حتى النقود.

ملاحظة : في حقيقة الأمر، إن العلاقات الطيبة، بين الجنود الأمريكيين و السكان في المغرب، التي كان يتحدث عنها الرئيس الأمريكي "روزفلت"، لم تكن في الواقع سوى علاقات مشبوهة و مليئة بالحذر الشديد.

بدأ الجنود الأمريكيين يتعاطون إلى التجارة غير المشروعة فيما يتعلق بالسبائك الذهبية، و السجائر و المشروبات الكحولية، الأمر الذي أدى إلى نزوح ريفي كبير نحو المدن الساحلية نظرا للطلب المتزايد لليد العاملة. و ظهر في السوق المحلية مشروب غازي جديد اسمه "كوكا كولا" Coca-Cola، دخل في منافسة المشروبات الغازية المحلية. و لمحاربة رواجها الكبير اهتمت السلطات إلى حيلة مفادها أن هذا المشروب يحتوي على الكحول الأمر الذي جعلها تطلب مساعدة الهيئات الدينية من أجل منعها.

¹ - Le Tourneau (Roger), Histoire du Maroc moderne, publications de l'université de Provence, 1992, p 217.

² - Ibid., p 217.

غير أن هذه المحاولة لم تجدي نفعا، بحيث انتشرت الـ "كوكا كولا" و "البلو جينس" blue-jeans و تدفقتا بشكل سريع في كافة أنحاء المعمورة. و لكن التاريخ سوف يحتفظ بأن الجزائر، ثم المغرب، هما اللتان مكنتا "كوكا كولا" من غزو الأسواق الأوروبية.¹

3-الحلفاء و القضية التونسية بعد نهاية الحملة 1943

لا شيء كان يوحي بأن تتحول تونس إلى ساحة معركة حاسمة للحرب. غير أن تسارع الأحداث بعد عملية نزول الحلفاء في 1942، هو الذي جعل الأمر ممكنا، و سمح لقوات المحور بالدخول إلى الأراضي التونسية عبر المطارات و الموانئ و بذلك فتحت جبهة تونس على مصرعيها. إن دخول القوات الألمانية إلى تونس أرق السلطات الفرنسية لدرجة أنها، منذ البداية، و هي عاجزة على اتخاذ موقف صريح تجاه المسألة. هل كان على فرنسا أن تحترم بنود اتفاقيات الهدنة التي أبرمتها مع ألمانيا و إيطاليا ؟ أم تفعل كما فعل الألمان و تخرق اتفاقيات سنة 1940.²

استغل الأميرال "إيستيف" الوضع و طلب من الجنرال "باري"، قائد الفيلق الفرنسي في تونس، بأن يلتزم الحياد ريثما تتضح الأمور. و كان ملزما أن يدافع على المواقع الفرنسية في نفس الوقت. حيث طلب الجنرال "جوان" من "باري"، بأن يمنع الألمان من السيطرة على طرق المواصلات المؤدية إلى الجزائر. و بذلك تحولت تونس إلى أرض للمعارك الإستراتيجية في جبهة المتوسط بين الحلفاء و القوات الألمانية و الإيطالية طيلة الفترة الممتدة من ديسمبر 1942 إلى غاية ماي 1943.³

كان للنداء الذي أطلقه "إيدن أنطوني" Edden Anthony، تجاه اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، بخصوص فحوى ميثاق الأطلسي الذي يهتم بالشعوب المستعمرة، أن طالب بإشراك الدول العربية ما دام أن ذلك يلقي صدا كبيرا في الأوساط التونسية. إلا أن تعنت كل من الجنرالين "ديغول" و "جيرو"، و صراعهما على السلطة الجديدة، قد جعل الحماية تتواصل و تقصي الملك "المنصف باي"، الذي تمرد على سلطة فرنسا الاستعمارية، لكنه رغب في أن يبقى مع فرنسا و كان دائما يصرح بأنه يحترم معاهدة الحماية و يبدي تعلقه بفرنسا. و لو رجع هؤلاء إلى موقف الجنرال "كاترو" الذي اعتبر أن عهد الهيمنة قد ولى، لكانوا يثقون بأن مصلحة فرنسا في تونس تقضي بمنحه الحرية لاستغلالها لاحقا.⁴

¹ - Ades (Lucien), L'Aventure algérienne..., op.cit., p 72.

² - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine de Ferry a Bourguiba, histoire et perspectives méditerranéennes, éditions L'Harmattan, Paris, 1993, pp 139-140.

³ - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de..., op.cit., p 99.

⁴ - قد تكون من المفارقات الاستعمارية الفرنسية أن تجاهلت فرنسا كل الحركة التحررية الجديدة التي تخيم على العالم و على مناطق ليست ببعيدة عن مستعمراتها. لذلك بدأت تخسر كل شيء.. والكلام عن استغلال تونس لاحقا مفاده الاستثمارات و فرص السوق التونسية التي يمكن لفرنسا أن تستغلها بعد ما تحقق تونس استقلالها.. أنظر إلى:

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit., pp 195-201.

في الثامن ماي 1943، أصبحت تونس حرة من تحركات قوات المحور، لكنها غير مستقرة بفعل إقدام السلطات الفرنسية على عزل الباي "منصف" بداعي توأطه مع دول المحور طيلة الفترة التي كان يحكم فيها البلاد، و بالتالي فإن الدور الأمريكي يكاد يكون منعدم. و لم يتحرك الحلفاء في تونس بفعل المشاركة الفرنسية الفعلية في المعارك، عكس ما حدث خلال عملية الإنزال على السواحل الجزائرية و المغربية.¹

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، تحركت الشخصيات التونسية لتطالب بالاستقلال الكامل للبلاد، غير أن الظرف السياسي لم يكن مواتيا بفعل ميلاد الجمهورية الفرنسية الرابعة و مغادرة الجنرال "ديغول" الحكم في جانفي 1946. ما جعل انشغالات السلطات الفرنسية تتجه نحو قضايا سوريا و لبنان و الفيتنام و تحضير دستور للجزائر. هذا الوضع دفع بالزعيم التونسي "الحبيب بورقيبة" إلى الالتفات نحو منظمة الأمم المتحدة و اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية لكن دون جدوى.²

عندما وضعت الحرب أوزارها تجندت الطاقات التونسية لتأسس المركزية النقابية ذات التوجه الوطني و التي انصهرت فيها، و لأول مرة، كل التنظيمات العمالية التي كانت تنشط في تونس تحت رايات مختلفة. و كان مؤتمر 20 جانفي 1946 هو الذي أعطى النور "للإتحاد العام التونسي للشغل" بقيادة "فرحات حشاد" أحد أبرز الوجوه النقابية و العمالية المناضلة من أجل التضحية في سبيل القضية التي كان يؤمن بها.³

تحولت أنظار "بورقيبة" خارج أصوار تونس للبحث عن الدعم الكاف لتحريك عجلة التقدم نحو الاستقلال، فحاول التقرب من الولايات المتحدة الأمريكية التي أفصحت عن نيتها في دعم الحركة الوطنية

¹ - أثارت قضية عزل الباي منصف باشا ردود أفعال كثيرة، إذ اعتبرها الكثيرون بأنها لم تكن عادلة في حق سلطان عبيه الوحيد أنه دافع على مصلحة بلاده و مواطنيه في مرحلة كانت فيها فرنسا "الاستعمارية الحامية" غير موجودة قانونا بفعل سقوط بلاد تونس تحت السلطة الألمانية. و يرى هؤلاء أن عزل الباي لم يأتي عن طريق الصدفة أو بسبب تعاونه المزعوم مع المحور، و إنما هو موقف فرنسي، اتخذته كل من الجنرالين "جيرو" و "جوان" لإظهار سلطة فرنسا على تونس و "الانتقام" من الباي الذي تنصل من السلطة الفرنسية خلال هذه الفترة التي دام فيها الاحتلال الألماني للبلاد. و حتى المارشال "جوان" يعترف في مذكراته "بأنه أخطأ في حق سلطان لم يقترب أي خطأ جسيم.. بل كان دائما وفي لفرنسا..". و ما عزله إلا لأنه قاوم المقيمون العامون الذين تداولوا على حكم تونس، و لأنه شكل حكومة تونسية بمبادرة فردية و دون استشارة السلطات الفرنسية، و لأنه أراد تغيير العديد من الأعراف السائدة في تونس منذ حوالي ستون سنة من الحماية مضت. و مس هذا الإجراء حوالي 10000 تونسي من المسلمين و منهم عدد كبير من أفراد الأسرة الحسينية الحاكمة. و عينت السلطات الفرنسية مكانه "الباي الأمين" في 15 من شهر ماي من سنة 1943. للتوسع أكثر في الموضوع طالع كل من:

- Juin Alphonse, Le Maghreb en feu., op.cit., pp 44-45.
 - Juin Alphonse (Marechal), Mémoires., t1., op.cit., p 188.
 - Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine., op.cit., pp 150-151.
 - Le Tourneau Roger, Evolution politique de., op.cit., pp 104-105.
² - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de., op.cit., p 111.

³ - طالع في الموضوع كل من:

- الشاطر خليفة، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص ص 134-135.
 - Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine., op.cit., pp 156-157.

التونسية. و قد نقل أحد الصحفيين الأمريكيين في جريدة "نيويورك تايمز"¹ نقلا عن القادة التونسيين الموجودين في المنفى بالقاهرة، بأن تونس تعيش حصارا كبيرا بفعل إقدام السلطات التونسية على توقيف غالبية الزعماء بعد المؤتمر الاستقلالي الذي عقد في 23 أوت في تونس.²

و تحدثت بعض المصادر عن الوضعية المقلقة التي مرت بها تونس في الآونة الأخيرة، بالرغم من تصريحات الجنرال "ماست" Mast الذي أبان عن مشروع إصلاحات هام في تونس، و الذي يتناف مع عمليات التوقيف التي تعرضت لها مجموعة من العناصر الوطنية. لذلك بقيت الحالة الفكرية بدون تغيير و أكثر من ذلك، أصبحت الثقة منعدمة بين الطرفين التونسي و الفرنسي.³

و هكذا عرفت المسألة التونسية تطورات هامة بفعل الحرب لدرجة أن بعض العناصر في الحركة الوطنية، حاولوا استغلال الظرف من أجل دفع عجلة القضية إلى الأمام و بشكل أسرع، بينما حاول البعض الآخر امتصاص هذه العفوية عند الشباب، لأنهم كانوا يدركون جيدا مدى خطورة الفشل في الحصول على "مقابل" نتاج موقفهم إلى جانب فرنسا و الحلفاء. و مع ذلك بقي المجتمع التونسي غير مقتنع بالوعود التي كانت تقطعها على نفسها السلطات الاستعمارية، فكان يرى بأنه حان الوقت لاغتنام فرصة انهيار فرنسا للمطالبة بالاستقلال.⁴

لقد وجد "بورقية" في مصر الفضاء الذي سوف يمكنه من ربط اتصالات مع الحلفاء، لأنه كان يدرك منذ الوهلة الأولى أنه سيجد ذلك الدعم لديهم. خاصة الإنجليز الذين وضع فيهم "بورقية" ثقة كبيرة. و كان إحساسه أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تتخلى عن تونس. و عندما أفرجت عنه السلطات المصرية، توجه إلى "الإسكندرية" أين التقى الشخصية الأمريكية "دوليتل" Doolittle، الذي ضمن له المساعدة الإنجليزية و الأمريكية في القضية التونسية.⁵

كانت السلطات الفرنسية على دراية بالاتصالات التي كانت بين الرجلين، و تحدثت عدة تقارير على لقاءات شبه متواصلة بينهما، غير أنها كانت تأمل في أن تبقى الولايات المتحدة ملتزمة الحياد في القضية. و بالرغم من أن فرنسا حاولت استفسار الحكومة الأمريكية حول الموضوع إلا أن الرد الأمريكي جاء معاكسا لشكوك

¹ - Clifton (Daniel), «Tunisian Nationalists Charge Suppression Of Their Movement by French Military», New York Times, September 3, 1946. Voir l'article en annexe N°10.

² - يبدو واضحا أن المعارضة التونسية المجتمعة في تونس في أوت 1946، كانت تبحث عن أشياء كثيرة من كونها مجتمعة لتأسيس نقابة عمالية. حيث طالب المؤتمر باستقلال بلادهم عن فرنسا، ما اضطر تدخل السلطات الفرنسية التي فرقت الجمع و ألقت القبض على شخصيات و زعماء من الحركة الوطنية التونسية. أنظر إلى:

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine., op.cit., p 156

³ - ANOM, GGA, 8Cab/48, DGSN/ DRG, section AFN, Malaise Tunisien, du 17/10/1946. Sur la politique américaine voir :

- MAE, Direction Afrique-Levant, N° 238, Paris le 22 nov. 1946.

⁴ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine., op.cit., pp 151-152.

⁵ - El Mechat (Samya), Tunisie les chemins vers l'indépendance 1945-1956, Histoire et perspectives méditerranéennes, l'Harmattan éditions, Paris, 1992, p 19.

الفرنسيين حيث اعتبر أن الإدعاءات الفرنسية تجاه "دوليتل" غير مؤسسة و بالتالي لا توجد تصرفات خطيرة في موقف الرجل.¹

إلا أن "بورقية" كان يبحث عن دعم أنجلو-سكسوني يجبر فرنسا على التخلي عن مشاريعها و سياستها في شمال إفريقيا عامة، و تونس على وجه الخصوص. خاصة أنه كان يدرك التخوف الفرنسي الجديد من المد الشيوعي، و الذي لم تعرفه منذ أيام الجبهة الشعبية. فحاول استغلال هذا الظرف العالمي الذي سوف يفتح أمام الوطنيين المغاربة أفقا واسعة من أجل القضاء على الفقر و البؤس و الحرمان و حياة الذل و الانحطاط التي فرضتها فرنسا الاستعمارية على شعوب المنطقة.²

على الصعيد الإستراتيجي، فهم التونسيون قيمة الدعم الخارجي. فتحركوا بدبلوماسية تامة نحو الحلفاء، فكان لهم أن أثروا على شخصية القنصل "دوليتل" الذي بدا متحمسا منذ البداية للمسألة الوطنية التونسية، حيث كان الوساطة التي سلمت الرئيس الأمريكي "إيزنهاور" المعطيات الأساسية التي تضمنها الملف التونسي كي يضغط على الفرنسيين.³

4- الإنجليز يكتفون من نشاطهم في الجزائر

عكس الصخب الذي ميز النشاط الأمريكي في كامل أرجاء شمال إفريقيا، فإن الإنجليز امتازوا كعادتهم بالهدوء و بعمل "الغواصات"، لذلك كان من الصعب تحديد حدود هذا النشاط و الأهداف التي كانت تسعى بريطانيا لتحقيقها في الجزائر. لأن هذا النشاط كان أقل إثارة لأنه لم يعتمد لا على الكتيبات و لا الصور، و لكنه كان أكثر اختراقا من الدعاية المطبقة من طرف الأمريكيين.⁴

تبدو مهمة المصالح الفرنسية، من الوهلة الأولى، صعبة في جمع المعلومات الضرورية التي سوف تساعدنا على تحديد نوعية النشاط الذي يقوم به البريطانيون في الوسط الجزائري المسلم، و ما هي علاقتهم بمسألة القومية العربية. و تظن هذه المصالح الأمنية، أن بريطانيا تتبع سياسة تجاه المسلمين على المدى البعيد، و هي لا تبحث الآن على امتيازات خاصة. غير أن بعض الأحداث تعارض هذه الفرضية و تخفي رغبة بريطانيا في المكوث أطول مدة ممكنة في الجزائر.⁵

كما رصدت المصالح الفرنسية تحركات بعض الضباط الإنجليز من خلال بعض العبارات التي أطلقت في الأوساط المسلمة و التي عبرت عن اهتمام كبير لقضايا المسلمين. و تستشهد بما قام به ضابطان إنجليزين كانا مرابطان مع وحدتهما في مدينة "بونة" Bone، عندما توجهتا إلى مدينة "فيليب فيل" و معهما استمارة أسئلة عن

¹ - Ibid., p 20.

² - Id., p 23.

³ - Rey -Goldzeiguer (Annie), « L'occupation Germano-italienne de la Tunisie :un tournant dans la vie politique Tunisienne »,In les chemins de la décolonisation., op.cit., pp 325-340. Voir p 339.

⁴ - ANOM, GGA, ,Note sur les activités Britannique en Algérie, rapport de Dix (10) pages, p 1.

⁵ - ANOM, 8cab/106., Note sur les activités Britannique en Algérie, rapport de Dix (10) pages, p 2.

الحزب الشيوعي الجزائري من حيث التعداد و المكانة السياسية في الأوساط الجزائرية، و كذا البحث في خصائص أهم حزب المعارضة الموجود في منطقة "فيليب فيل" حاليا و حتى قبل سنة 1939، و أخيرا معرفة الحالة النفسية للمسلمين عامة.¹

استهدف الإنجليز في بعض الأحيان رجال الدين من شيوخ الزوايا أو حتى من جمعية العلماء المسلمين. حيث التقى العقيد الإنجليزي "هاينز" Haynes، في 24 نوفمبر 1944 بأحد أقارب الشيخ "القاسمي مصطفى"، من زاوية "الهامل" ببوسعادة، في نزل "طرانس أطلنطيك" في حدود الساعة العاشرة ليلا، و أجرى معه محادثات دامت قرابة الساعة. و في اليوم الموالي التقى في مدينة بسكرة بالشيخ "عبد العزيز الهاشمي" عالم معروف الذي استقبله في بيته مع مجموعة من المسلمين المثقفين.²

في نفس اليوم التقى بالنقيب "برون" Brun من المخابرات المركزية بالجزائر الذي كان قادما من القاهرة. و يبدو أن هذا الضابط الإنجليزي، الذي ولد في مدينة "مرسيليا" الفرنسية و درس في مدينة "منوبولي" Montpellier، كان ضابطا في الخيالة الإنجليزية و يملك نزلا في "اسكتلندا" Ecosse، و يحمل في بعض الأحيان اسم "دي غيس" De Guise. و قد اتقى هو الآخر بأحد أقارب الشيخ "القاسمي" في بوسعادة، في 26 نوفمبر من نفس السنة، و قال له: "إن القمح الذي يصلكم لا يأتي من فرنسا، إنه قمح الجزائر الذي قمنا بمصادرته أيام الحرب و قمنا بتخزينه في الجزائر لأغراض سياسية..³

واصل هذا الضابط جولته في الجنوب القسنطيني و بالتحديد في مدينة بسكرة أين تواصل مع مجموعة من المسلمين و سألهم عن رأيهم في الأمريكان. و كان قد علم بأن بعض الجنود الإنجليز قد تصرفوا تصرف غير لائق مع الجزائريين. و قد تعهد بأن يعاقب هؤلاء الجنود لأنهم لم يحترموا تعليمات قيادتهم و لا الأفكار الحرة التي تدافع عنها بريطانيا من أجل حرية الشعوب. و قد لمح إلى دولة "مصر" و دول أخرى في المشرق العربي التي تسير نحو الاستقلال بفضل المساعدات البريطانية.⁴

كان على الإنجليز أن لا يقعوا في الأخطاء التي ارتكبتها الأمريكيون تجاه المسلمين الجزائريين بصفة عامة. الذين بسبب تصرفاتهم القاسية مع المسلمين الجزائريين لم يحصلوا على تعاطف السكان. و قد كانت التعليمات التي أعطيت للجنود البريطانيين واضحة في هذا المجال، حيث كان عليهم معاملة المسلمين معاملة لائقة. هذا ما حصل في بعض ورشات الجيش البريطاني، أين كان يعمل عدد من المسلمين، الذين في الأصل عوملوا معاملة سجناء؟؟؟⁵

¹ - ANOM, GGA, Note sur les activités Britannique..., pp 2-3.

² - ANOM, GGA, 8cab/106..., EM, 5^{ème} bureau..., Alger le 18 juin 1945, rapport de 3 pgs, p3.

³ - ANOM, , 8cab/106..., E.M, 5eme bureau..., op.cit..., p3.

⁴ - Ibid..., E.M., 18 juin..., p 3..

⁵ - ذكرت المصادر الفرنسية أن هؤلاء العمال المسلمين وجدوا من الإنجليز معاملة تتشابه مع تلك التي كان يجدها السجناء الإيطاليين، الذين كانت توزع عليهم بعض الألبسة القديمة و بعض المواد الغذائية. فطرح السؤال: أين هي المعاملة اللائقة إذا كانت معاملة العمال الجزائريين تشبه المساجين الإيطاليين؟ و قد اعتبر الفرنسيين هذه المواقف البريطانية نوع من أنواع الدعاية التي تخدم مصلحة المسلمين الجزائريين. أنظر:

كما كان للإنجليز تصرفات شجاعة تجاه الجزائريين، خاصة في اليوم الذي نشبت فيه أحداث في ساحة "بريسون" Place Bresson بمدينة الجزائر بين الجنود الفرنسيين و المسلمين المدنيين، حيث قام بعض الضباط الإنجليز من توزيع بعض النقود على المسلمين من أجل التخفيف من حدة غضبهم.¹ و لعل ذلك أيضا يدخل ضمن المخططات الدعائية للإنجليز. هذا ما لم يشر إليه التقرير.

هذا الوجه الجديد للدعاية البريطانية، اعتبره الفرنسيون سلبيا و لا يخدم مصالحهم في شمال إفريقيا، لأنهم يعلمون أن الاتصالات بين المشرق و المغرب ليست وليدة الحرب العالمية الثانية و إنما الدعم العربي موجود و تسهر عليه دولة مصر العربية، التي قامت بإرسال مناشير إلى الجزائر باسم "نداء من اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر" و التي تطالب باستقلال الجزائر و انحراطها ضمن "فيدرالية الدول العربية الحرة". و هذا المنشور يحمل لإمضاء شخصيتين بارزتين هما "الأمير المختار" و الشيخ "فضيل الورثاني"، الذي طالب بدوره باستقلال الجزائر و تشكيل المعسكر المغاربي و انضمامه إلى الوحدة العربية.²

تسربت أخبار من المصالح الأمنية الفرنسية عن اتصالات المصالح الاستخباراتية الإنجليزية بالشخصيات الوطنية الجزائرية أمثال، مصالي الحاج و فرحات عباس و الشيخ الإبراهيمي، و لكن دون أن تحدد بدقة محتوى هذه الاتصالات التي قد تربط الإنجليز بالوطنيين الجزائريين.³ و لعل ما لفت الانتباه أكثر في الموقف البريطاني، هو إشراكه لعناصر عربية في عملية الترويج لأفكاره، حيث وجدنا ضمن وحداته العسكرية جنود من أصل عربي من العراق و سوريا و حتى لبنان ينشطون و يروجون لفكرة استقلال الجزائر.

بقي الهدف المسطر من طرف الإنجليز في الجزائر يخضع لعناصر البعثة البريطانية التي تأسست في مدن عديدة داخل شمال إفريقيا، بداية من شهر فبراير 1945. و عرضت خدماتها في مجالات التعليم و المساعدة الاجتماعية حتى في بيوت العائلات. و قد أنشأت مراكز نشاط في المغرب الإسباني في مدن "طنجة" و "تطوان"، و في مدن جزائرية. هذا ما يعني أن الحكومة الإنجليزية تكثف من نشاطاتها داخل أراضي شمال إفريقيا و بالأخص في الجزائر، محاولة التأثير على الفكر السياسي للنخب المسلمة.⁴

- ANOM, GGA, Note sur les activités Britanniques.. Op.cit., pp 3-4.

¹- Ibid., p 4.

²- ANOM, GGA, , Note sur les activités Britanniques.. Op.cit., pp 3-4.

³- لقد وجدت المناشير بكثرة في عمالة قسنطينة و بالقرب من مدينة بسكرة. و قد يبرر ذلك بالدور الإنجليز في العملية ما دام أنهم يسيطرون على مطار بسكرة الذي هو بعيد كل البعد عن الاختصاص الفرنسي. و حتى في بعض الأحيان نجد أن الإنجليز يأخذون كل الاحتياطات لمنع الموظفين الفرنسيين من دخول المطار/ مما يعني أن هناك احتمال كبير لوجود عملاء و مخبرين مصريين و جزائريين يستعملون الخطوط الجوية البريطانية. حتى أن هناك شخص "مجهول الهوية" يدعى "زريهن نسيم" Zrehen Nessim، صاحب مكتبة مصرية بمدينة الجزائر قد تحصل من القنصلية البريطانية على وعود بأن يجد كل التسهيلات لدخول الأراضي المصرية للحصول على كتب مدرسية مصرية لفائدة "المدارس الحرة" في الجزائر، بعد حصوله على رخصة من السلطات الاستعمارية الفرنسية. أنظر إلى:

- ANOM., Note sur les activités Britanniques ..., op.cit., pp 4-5.

⁴- ANOM., Note sur les activités Britanniques ..., p 6.

كما ذكرت مصادر فرنسية أخرى، عن حركة غير عادية لشاحنات مغطاة تابعة للقوات البريطانية يقدها شخص واحد في الأمام و الثاني موجود في مؤخرة الشاحنة يراقب كل صغيرة و كبيرة. و هي تجوب طرقات عمالة قسنطينة ليلا و نهارا، حتى و صلت إلى بعض القبائل النائية و إلى الدواوير، خاصة بين مدينتي "برج بوعرييج" و "سطيف"، و ما بين "سطيف" و "قسنطينة". و قامت إحدى السيارات التابعة للمصالح الفرنسية بتتبع إحدى الشاحنات في الطريق الرابط بين سطيف و "شاتودون دي ريمال" Château dun du Rhumel، ثم انخرفت في طريق غير معبد مؤدي إلى مدينة "القصر" El Kseur.¹ مما يدل على أنها كانت متجهة نحو هدف محدد.

و تشير العديد من المصادر إلى أن بريطانيا كانت لها نية كبيرة في البقاء في الجزائر حتى بعد نهاية الحرب، حيث كانت تنوي إقامة قاعدة مدنية تجعل منها محطة بحرية في طريق ممتلكاتها "بالشرق الأقصى" تحت الراية البريطانية. و لهذا طرحت طلبات في سوق العمل لانتقاء فرنسيين يتكلمون اللغة الإنجليزية بطلاقة من أجل العمل في المنظمة الإنجليزية التي سوف تشرف على العملية.²

كما اهتم الإنجليز بمنشأهم العسكرية في الجزائر، خاصة في المطارات التي كانوا يسيطرون عليها، حيث زار ضابط سام في الجيش الإنجليزي الجزائر و تقدم بطلب لحماية هذه المنشآت بعد الأحداث التي عرفت الجزائر بعد الثامن ماي 1945. غير أن الرد الفرنسي جاء مطمئنا من الجانب الفرنسي.³

حاولت السلطات الفرنسية تشديد الرقابة على نشاط الحلفاء في الجزائر باستغلال مختلف القنوات التي كانت متاحة أمامها، منها اليد العاملة الفرنسية التي كانت تعمل في المؤسسات و الهيئات المختلفة لقوات الحلفاء. فتحدثت إحدى هذه المصادر، و هي زوجة ضابط فرنسي مترجم في المقر العام للقوات البريطانية في الجزائر، عن احتمال حدوث "انتفاضة شعبية في الجزائر" بعد الكلام الذي سمعه زوجها من الضابط "س.ش. بيك" Ch.Pike، الذي كان متوجها لإنجلترا لقضاء عطلة، فقال إنه سوف يعود إلى الجزائر مع نهاية شهر رمضان لأنهم يتوقعون حدوث انتفاضة عامة من الأحزاب الوطنية الجزائرية التي تكون قد تسلحت. غير أنه واصل مازحا: "سوف نرفع الرايات البيضاء لأننا طرف حيادي...".⁴

و أضاف نفس المصدر أن هناك "مراسل حرب" War Correspondent، من جريدة "ديلي هارالد" Daily Herald و المدعو السيد "لوكاس" Lucas، قام باستجواب بعض الضباط الإنجليز حول الأحداث التي كانت عمالة قسنطينة مسرحا لها. و يبدو أن الصحافة البريطانية عموما لا تعرف الشيء الكثير عن هذه الأحداث. و إلى غاية العاشر من أوت لم يتوجه السيد "لوكاس" إلى مدينة سطيف ليقوم بتحريراته الخاصة⁵

¹ - ANOM..., 19^{ème} région, bureau de documentation, N°3034/I/B.DOC., du 27 juin 1945.

² - ANOM, GGA, 8cab/106., dép.. Alger, P.M, 1ere brigade, activités Britanniques en A.F.N, du 27 juin 1945.

³ - Ibid., compte rendu signe par le Général Pierre Weiss.

⁴ - ANOM, compte rendu signe par le Général Pierre Weiss. Op.cit., Source Mme X..., Très sure...Du 9 aout 1945.

⁵ - Ibid.

و مهما يكن من أمر، فإن النشاط الذي قام به الحلفاء في شمال إفريقيا و في الجزائر خلال فترات مختلفة قد تجاوزت ظروف الحرب العالمية الثانية، إنما هو دليل على أن اهتمام الحلفاء بالمسلمين و بالمنطقة ككل، أصبح حقيقة، بدليل أن الفرنسيين أنفسهم قد اعترفوا في مناسبات عديدة بالتدخل الأنجلو-أمريكي في الشأن الداخلي لفرنسا.¹ و أرجع ذلك عموما، إلى الضعف الذي كانت عليه المخابرات الفرنسية من حيث العتاد و الأشخاص و الإمكانيات.

ثانيا - أطماع الحلفاء و دعايتهم في شمال إفريقيا

تقدم الوزير الفرنسي، الحاكم العام للجزائر، السيد "شاتينيو"، و بطلب من وزارة الخارجية الفرنسية، بإجراء تحريات حول نشاط مختلف عملاء الحلفاء، و خصوصا منهم الأمريكيين، في كل من الجزائر و المغرب و تونس، تحضيرا للاجتماع الذي سوف تعقده لجنة إفريقيا الشمالية. و باعتراف الحاكم العام تميزت البداية بصعوبة المهمة نظرا لعدم تحديد طابع و حجم هذا النشاط المتواصل للحلفاء في الجزائر حتى بعد مغادرة القسم الكبير لجيوشهم منطقة شمال إفريقيا. غير أن هذا النشاط بقي متسترا لدرجة أن المحققين الفرنسيين وجدوا صعوبة في جمع المعلومات.²

و اعتبر "شاتينيو" أن التقرير المرفوع و المدعم بوثائق ملحقه عن التعداد العسكري و مراكز التوثيق، قد أفضى في نهاية المطاف إلى أن البريطانيين و الأمريكيين ليست لهم أطماع محددة في المناطق التي ينشطون فيها، و أن هدفهم الوحيد هو مواصلة دعاية متنوعة في أشكالها و إمكانياتها و مدعمة بشبكة استعلامات قوية. غير أن الشيء الملفت للانتباه هو النشاط البريطاني الذي قد تكون له انعكاسات عميقة بسبب تمكنه من السيطرة على مطارين أهمهما مطار "بسكرة"، و كذا للتسهيلات التي يتمتع بها الإنجليز في الجزائر لدعم دعاية وطنية قادمة من المشرق.³ فيما اختتم "شاتينيو" تقريره بالحديث عن توغل الحلفاء الاقتصادي في الجزائر، و الذي يعتبره غير مثمر لحد الآن.

كما لم يسلم الجانب الديني أيضا من تحركات الحلفاء إذ لوحظ نشاط للبعثات الدينية الإنجليزية و الأمريكية في الجزائر. أما البعثات الإنجليزية، فقد كانت ممثلة من طرف جمعيات "الكنيسة الإنجليكانية" المسماة "نورث أفريكا ميشن" North Africa Mission و "الشركة التوراتية البريطانية" Societe Biblique Britannique. هذه

¹ - استغل الحلفاء الوضع العام لمسلمي شمال إفريقيا ليقوموا بترويج الأفكار الجديدة المنبثقة عن ميثاق الأطلسي، و التي تحارب الجوع و البؤس و الفقر، و أكثر من ذلك، تفتح لهم أفاق الحرية وفق البند الذي يتحدث عن حق الشعوب في تقرير مضيها. و كانت الآمال كبيرة في تحقيق المسلمين الوحدة مع الشعوب العربية الأخرى في نطاق فدرالي عالمي للشعوب العربية. أنظر إلى:

- ANOM, E.M, 5^{ème} B, Ingerence étrangère dans le sud Constantinois, Alger le 18 juin 1945.

² - ANOM, 8cab/106., Cabinet politique et diplomatique, A/S des activités alliées en Algérie.

³ - ANOM, GGA..Cabinet politique et diplomatique, A/S des activités alliées en Algérie, Rapport de deux (2) pgs., Alger le 9 avril 1945.

الجمعيات لها مقرات في أكبر مدن العمالات الثلاث و كذا مندوبية في المناطق العسكرية بالجنوب. و عادة ما كانت تتشكل البعثات الدينية من القسيس و زوجته، و لم تكن تصرفاتهما تجاه القوانين الفرنسية تثير الشكوك. غير أنه لوحظ تغير في تصرفاتهما عقب استسلام الفرنسيين في ماي 1940 للجيش الألمانية، حيث بدأت بعض عناصر هذه البعثات تزود المخابرات السرية الإنجليزية بالمعلومات المختلفة، خاصة تلك المتعلقة بالحالة النفسية للسكان المسلمين. و يقوم أعضاء البعثات الإنجليزية بزيارات عادية إلى بريطانيا و تربطهم علاقة وطيدة بالمصالح القنصلية في الجزائر. و منذ نوفمبر 1942، أصبحوا يستقبلون الضباط الإنجليز بصفة عادية.¹ هناك مراقبة ذكية فرضت من المصالح الفرنسية على "القسيس آرثور سيدني" Arthur Sydney في مدينة تيزي وزو بسبب علاقته مع الفرع المحلي للكشافة الإسلامية.

بينما في المغرب شهدت العملية الأمريكية تطورا ملحوظا بفعل النشاط الممارس من طرف الجنود الأمريكيين منذ عملية الإنزال في الثمن نوفمبر 1942. و كان من نتائجها المباشرة أن حطت بترسانة قوية الأمر الذي أبحر المغاربة الذين لم يعرفوا قوة عسكرية بهذا الحجم. و لم يتعايشوا من قبل سوى مع الجيش الفرنسي. فالصدمة كانت كبيرة حيث زاد الانطباع لدى المغاربة بأن القوة الأمريكية فوق كل القوى التي شاهدها، عندما كانت مناسبة عيد الأضحى في شهر ديسمبر 1943، حيث قام الجنرال "باتون" باصطحاب الجنرال "نوقس" إلى القصر الملكي لتقديم التهاني للسلطان المغربي و هو مرفقا بجيش من العساكر على طول الطريق المؤدية إلى القصر الملكي و التي كانت تراقب الموكب.²

هذه القوة العسكرية كانت مصحوبة بالقوة الاقتصادية، حيث قامت فيالق الجنرال "باتون" و الجنرال "كلارك" بإنزال كميات كبيرة من المواد الغذائية كان المغاربة قد فقدوا طعمها و ذكرياتها. و في بضعة أيام ازدهرت السوق المغربية بالأواني و علب الكبريت و المواد الصيدلانية و العطور.. و كل ما كان قد اختفى مع بداية الحرب عاد مع نهايتها.³ كما حملت الجيوش الأمريكية معها عدد من الموظفين المدنيين من تقنيين و دعائيين و اقتصاديين، كانت مهمتهم أن تجوب كل التراب المغربي لجمع المعلومات و التخفيف من حدة الاستياء و إنعاش الآمال.

أما الطرف الأمريكي فقد جند بعثاته في الجزائر لخدمة الكنيسة المسيحية ما دام أن الهدف المسطر هو تنصير الشباب الجزائري المسلم. و ما عدا ذلك فسلوك البعثة لم يدعوا إلى القلق. إلى جانب الإنجليز و الأمريكيين، كان هناك نشاط أوروبي محدود من الجانب الإسباني و الإيطالي بواسطة البعثات الدينية كذلك.⁴

1- سلوك الجنود الأمريكيين تجاه الجزائريين

¹ - ANOM, 8cab/106, LB/EN..., rapport de cinq (5) pgs., p 2.

² - ANOM, 8cab/106..., sur les activités américaines au Maroc..., rapport de 8 pgs., p1.

³ - Ibid., p 2.

⁴ - ANOM, GGA..., LB/EN..., op.cit., pp2-3.

لما عاد الفيلق الأول للمشاة الأمريكي إلى قواعده بوهران، بعد انتهاء الحملة على تونس، لم يكن أحدا يدرك أن هذه العودة سوف تتزامن مع الأعمال البشعة و التصرفات القذرة التي صدرت عن هؤلاء الجنود. خاصة لما شرعوا في تقتيل الأبرياء من الجزائريين، على طريقة أفلام "الويسترن" Western، و يصطادونهم كما يصطادون كل شيء إلا البشر. و لكن للأسف أنهم تجاوزوا حدود كل البشر ليتصرفوا مثل اللاشيء.¹

فجاء الخبر الذي نشرته جريدة "صدى وهران" في إحدى صفحاتها مفاده أن القيادة الجهوية الأمريكية قد أصدرت أوامر للنقابة المحلية لبائعي المشروبات بمختلف أنواعها، بعدم بيع المشروبات الكحولية للجنود الأمريكيين قبل الساعة الحادية عشر صباحا. و إذ تقدم القيادة الأمريكية الجهوية على مثل هذا الإجراء فإنها تعلن صراحة عدم قدرتها على التحكم في 15000 جندي من ج.إ.س. GI's لكن ما هو محير في الأمر أن كل التقارير الأمريكية و لا حتى المذكرات التي كتبها أصحابها لم تحتوي و لا مرة، على هذه الأحداث التي اعتبرتها من الحوادث العابرة التي لم تصل إلى حد إعطاءها كل هذا الاهتمام.³

في أجواء ثقيلة، حطت جحافل من القوات المتحالفة رجاها على أراضي شمال إفريقيا، و بالأخص في الجزائر و المغرب، في عملية إنزال تمت بدقة كبيرة و بوقوف الحظ إلى جانب الحلفاء، في انتظار تحقيق الثلاثية مع استعادة تونس إلى عرش فرنسا مع منتصف سنة 1943. غير أن الانطباع العام الذي كان عند السكان هو سهولة انهزام القوات الفرنسية أمام الترسانة الحربية الأمريكية و الإنجليزية، لدرجة أن بعض الوحدات العسكرية من الجيش الأمريكي أفلتت من الرقابة الانضباطية العسكرية و أصبحت تتصرف بحرية مطلقة بعيدا عن الأوامر و التعليمات العسكرية لدرجة أن القيادة العليا الأمريكية قررت إعادة بعض الوحدات إلى أمريكا خوفا من استفحال العدوى قد تؤدي إلى حدوث الكارثة.⁴

اعتبر جنود الفيلق الأول للمشاة أنهم أمينوا بالكلام الذي يقال عنهم هنا و هناك، و أنه لم يعد الاعتماد عنهم بدليل أنهم لن يشاركوا في أية عملية، خاصة و أن الحرب مع النازية لم تنتهي بعد. و ما زاد من حسرة هؤلاء الجنود هو عدم إعطاءهم "البذلة" الرسمية لفصل الربيع، بأمر من الجنرال "باتون" Patton، حتى يتمكنوا من النزول إلى مدينة وهران، بحجة أنهم على أبواب الاستعداد للحملة على "صقلية" Sicile .

¹ - كان جنود هذا الفيلق من بين أحسن ما جلبت الولايات المتحدة الأمريكية معها إلى شمال إفريقيا. حيث ضم الفيلق فرق من النخبة العسكرية الأمريكية، إلا أنهم خدعوا الشرف العسكري. فعوض الدفاع عن المهمة التي جاءوا من أجلها، إلا أنهم تصرفوا تصرفات لا تشرفهم و تركوا وراءهم صور سوداء أينما حلوا. و هم في طريق العودة إلى الجزائر، بدأو ينهبون و يسكرون و يتصرفون بمحبة تجاه السكان المسلمين. و في القطار الذي كان راجعا بهم إلى قواعدهم بمدينة وهران شرعوا في ممارسة هواية الرمي على المواطنين العرب العزل، الذين كان ذنبهم الوحيد أن وجدوا في القطار. و كانت الحصيلة كبيرة.. لأكثر تفاصيل أنظر:

- Atkinson Rick, The day of battle..., p 85. (Cite par Salinas..., Les américains en Algérie..., op.cit..., p 171).

² - Voir L'Echo d'Oran du 14 mai 1943. In muse Zabana. Et voir aussi : Salinas..., op.cit..., p 171.

³ - Salinas (Alfred), Les américains en Algérie..., op.cit..., p 171.

⁴ - Salinas (Alfred), Les américains en Algérie..., op.cit..., pp 171-172.

أمام كل هذه الإجراءات التعسفية، لم يبق على الفيلق الأول للمشاة سوى التفكير في طريقة لرد الاعتبار لكتيباتهم فقرروا التوجه إلى مدينة وهران لتحريرها مرة ثانية. فاصطدموا بالشرطة العسكرية و بوحدات أمريكية أخرى.

مما جعل الأمر وكأنه عملية تصفية حسابات بالنظر للخسائر الكبيرة التي ألحقها جنود الفيلق الأول انتهت بجرمة قتل ارتكبت على شخص عريف في الشرطة العسكرية كان يقوم بمراقبة أفراد من الفيلق الأول.¹ بالرغم من أن التأثير المباشر لنزول الحلفاء في الأرياف كان ضعيفا، إلا أنه ارتبط في المدن بوجهين مختلفين: أولهما أنه سائر عملية توزيع الحلوى و السجائر من طرف الجنود الأمريكيين على السكان الأهالي، مما جلب لهم تعاطف هؤلاء الأهالي ظنا منهم أنهم جاءوا لتخليصهم من الهيمنة الفرنسية. لكن ذلك لم يدم طويلا، إذ سرعان ما انعزلت جيوش الحلفاء داخل معسكراتها محمية بسيج من الأسلاك الشائكة، كاشفة عن بذخ مفرط في طبائعها الغذائية و سلوكياتها أمام أعين جائعة و حائرة.²

أما الوجه الثاني، فكان مغايرا تماما لما كان منتظر من طرف القوات الأمريكية، التي شرع جنودها في ارتكاب تجاوزات خطيرة على حساب السكان الأهالي عبر مناطق مختلفة من البلاد، رصدنا منها هذه العينات التي كانت بدايتها من عمالة وهران أين نشبت حوادث في "حي السود" بين الجنود الأمريكيين السود و الأهالي الجزائريين.³

فكانت البداية من الاعتداء الذي ارتكبه الجنود الأمريكيين على أحد أفراد أسرة "شريف الوزاني" المدعو "سيدي علال" الذي هو في الأصل أحد أحفاد الولي الصالح "سيدي الحسني".⁴ و قد تعرض لها في مدينة "مسرغين" و جاءت متضمنة في الرسالة التي بعث بها السيد "محداد" Mahdad، و هو عضو في المندوبية الخاصة لمدينة وهران، إلى السيد "ليسوني" Lebissonais، الأمين العام لعمالة وهران، في 7 أوت 1943.⁵ أثار هذا العمل غير اللائق حفيظة الجزائريين الذين استنكروا لهذا العمل الديني مما دفع بالسلطات الاستعمارية إلى رفع تقرير داخلي على مستوى عمالة وهران،⁶ و آخر إلى السلطات المركزية بالجزائر العاصمة،⁷ و الذي يصف الأوضاع بمنطقة "مسرغين" خاصة، و عمالة وهران عامة، بالخطيرة.

¹ - كان معروف على الجنود الأمريكيين انجرافهم إلى كل الملذات من خمر و مجون و سهر، لذلك وجدوا في هذه الحملة على شمال إفريقيا فرصة أخرى لإظهار غطرستهم على السكان الأبرياء و حتى على النساء و السلطات الفرنسية. و الأخطر من ذلك أن هذه التصرفات قد أظهرت الصراعات الخفية التي كانت بين الضباط الكبار الأمريكيين على غرار الجنرال "عمر برادي" و الجنرال "تيري ألان" قائد الفيلق الأول..أنظر:

- Salinas Alfred, Les américains en Algérie..., op.cit., pp 172-177.

² - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre..., op.cit., pp 164-165.

³ - A.W.O, B 4476, Police d'état Oran..CC, N° 2769, Oran le 02/12/1942.

⁴ - A.W.O, B 4476, Dépt..Oran, division affaires musulmanes..., Oran.. S.N...S.D.

⁵ - A.W.O, B 4476, Mairie d'Oran, affaires musulmanes, Oran le 7 Août 1943.

⁶ - A.W.O, B 4476, Comm..cent., N° 1684/C, Oran le 05/08/1943.

⁷ - A.W.O, B 4476, Dépt..Oran, N° 7.975, du 20 octobre 1943.

لم تقتصر هذه الاعتداءات على مدينة مسرغين فقط، بل تعدتها إلى مدن أخرى داخل العمالة، منها مدينة مستغانم¹ التي عرفت هي الأخرى تجاوزات عنيفة للعساكر الأمريكيين خلال شهر جوان 1943، عندما وقعت مشادات في حي "تبجديت" Tigditt الشعبي، بسبب الهدام الغير لائق للجنود الأمريكيين في الأحياء العربية المسلمة مما أثر غضب الجزائريين.² كما تواصلت مظاهر الاعتداء على المسلمين الجزائريين طوال فترة شهر سبتمبر على حساب السكان الأهالي نذكر منها؛ الاعتداء و السرقة على حساب السكان الأهالي، حيث قام الجنود الأمريكيين بسرقة ما قيمته 1560 فرنك من أربعة أهالي في طريق "أبوقير" في 17 سبتمبر، ثم سرقة 2000 فرنك و 135 فرنك لكل من "بورحلة الجيلالي ولد الحاج" و "بوسمات بن سالم ولد محمد" من دائرة "مزغران" في 19 سبتمبر، و تواصلت عمليات السطو مجددا، عندما قاموا بالاعتداء على كل من "الشريف محمد ولد الشريف" و قريبه "بلعربي بن علال ولد مخلوف" في طريق "تونين" و سرقوا منهم 5317 فرنك و 3100 فرنك.

تعدت هذه الاعتداءات إلى سرقة حتى ملابس الجزائريين، خاصة "جلابة الوبر" التي كان يرتديها بعض المسلمين، و هذا ما تضمنه التقرير الذي بعث به "فايد دوار بلهاصل" بشأن المدعو: "لنرق محمد ولد سعيد".³ و سعيد.³ و في مدينة غليزان تعرض المدعو: "حمادوش محمد ولد مسعود"، لسرقة مبلغ 6500 فرنك و وثائق مختلفة. كما تعرض "المقهى الكبير" Le Grand Café إلى عملية تخريب من طرف الجنود الأمريكيين.⁴

و شهدت مدينة معسكر⁵ نفس الأعمال التخريبية، استنكر لها السكان الأهالي و الفرنسيين معا. إذ أقدم الجنود الأمريكيين على تكسير الواجهة الأمامية للفندق الكبير "القاري" Le Continental، بوسط المدينة في 18 أكتوبر من سنة 1943. و قاموا بالاعتداء على المدعو: "بوعزة محمد" شيخ مسن في الستين من عمره و سرقوا منه "برنوسا"، بينما قام جنود آخرون باستعمال "الهرأوة" ضد الأهالي الجزائريين في حي "باب علي". كما قاموا بتهديد صاحب مقهى "بوتيني" Bottini في قلب مدينة معسكر.

كما أشارت مصادر أخرى عن تصرفات مشينة للجنود الأمريكيين الذين كانوا يقومون بنزع الألبسة للمسلمين الجزائريين و يتركوهم نصف عراة في الطرقات على حواف البوادي، خاصة عندما كانوا يجردون بحوزتهم ملابس مستعملة و كانوا يظنون أنها مسروقة.⁶ فكان تصرفهم، تصرف لصوص أو قطاع طرق و لكنه أبدا لم يكن تصرف جيوش قطعت الآلاف من الكيلومترات عبر البحار و المحيطات نصرة للديمقراطية، لتصل إلى هذا المستوى.

هذه الأعمال الشنيعة التي قام بها العساكر الأمريكيون، لا تشرفهم و لا يوجد لها أي مبرر قد يخفف من حدة وطأتها على نفسية السكان الجزائريين، و لا على قيادة الأركان الأمريكية و لا حتى على الإدارة الاستعمارية

¹ - A.W.O, B 4476, S/Préf..de Mostaganem, Rapport N° 11334/ AD, du 17 septembre 1943.

² - ANOM, GGA., CIE, N° 492 du 17 juin 1943.

³ - A.W.O, B 4476, S/Préf.... de Mosta..., N° 12484/F, Mostaganem le 13 octobre 1943.

⁴ - A.W.O, B 4476, Ibid.

⁵ - A.W.O, B 4476, PRG de Mascara, N° 106, Mascara le 22/10/1943.

⁶ - ANOM,GGA., 8cab/106.... note sur les activités Britannique., p 4.

التي بقيت مكتوفة الأيدي و لم تقم سوى برفع بعض التقارير الشككية حتى توهم الجزائريين بأنها تتابع الأحداث عن كثب. لدى يمكننا القول أن فرنسا هزمت فعلا خلال هذه المرحلة و لم تعد تلك الدولة الاستعمارية القوية التي كانت تخيف الجزائريين.

2- تصرفات الجنود الإنجليز في الجزائر

أصبح الوجود الإنجليزي يثير مخاوف الفرنسيين الذين شددوا الرقابة على كل تحركاتهم. غير أنهم لم يتمكنوا من تحديد طبيعة هذه التحركات إلا في مناسبات قليلة. وكانت إحدى هذه المناسبات عندما تم العثور على حطام سفينة حربية بريطانية من نوع "فودات" Vedette على السواحل الغربية للجزائر.¹ و حسب عرض الأحداث، فإن القضية تعود إلى الفاتح من أبريل، عندما تم العثور بقايا هذه السفينة في المكان المعروف بـ "كاب بلون" Cap Blanc في بلدية "بوتليليس"، حيث تم إبلاغ مصالح الدرك لبلدية "مسرعين" الذين قاموا بعملية تفتيش انتهت بالعثور على بعض اللوازم التي يمكن أن تهم المصالح الأمنية لمراقبة البلاد.

لقد أفض التحقيق الذي قامت به مصالح الدرك ببلدية "مسرعين" إلى تأكيد الخبر، بعدما تم العثور على معدات داخل المركبة تدل كلها على أن السفينة إنجليزية و أكثر من ذلك أنها كانت في مهمة محددة في عرض مياه البحر الأبيض المتوسط.²

¹ - ANOM., GGA, DST, bordereau d'envoi N°2059/2..du 23 avril 1946.

² - إن ما تبقى من الحطام يدل على أنها سفينة من الحجم الصغير "ذي آر بورن" The Air Borne، "لايف بوث" Life Boat بطول 7 أمتار، مجهزة بمحركين من نوع "British Motor Boat M.G C* Ltd". أما هيكل السفينة فهو باللون الأصفر و الرمادي الأزرق، و يحمل الكتابات التالية: "وان كارتير بول" One Quarter Pull، و قد عثر داخل السفينة على المعدات التالية:

- كتيب صغير بعنوان Air Publication 2761-Air Ministry-Ist edition December 1943.

- جهاز إشارات "سكوت" Scott. + جهاز استقبال + بوصلة + مسدس قذف سهام نارية + 18 علبة من القاذفات + 11 علبة من الماء العذب + 11 علبة من مصنوعات مختلفة + 5 خرائط للبحرية الإنجليزية مختصة في :

- جزيرة "جبل طارق"، خاص للاستعمال للسفن فقط، و لا يستعمل للملاحة العامة. + خليج "بيسكاي" Biscay + خريطة لبحر الشمال - آخر كتاب للإعلام من قسم "الهيدروغرافية". + خريطة لقناة إنجلترا و الفروع الغربية لها مع تحديد آخر مراقبة للبحرية من خريطة تابعة للحكومة الفرنسية تعود إلى سنة 1936. + خريطة لبلاد "الترويج" تحذر من الصيد و المرور في المنطقة لأن ذلك يشكل خطرا كبيرا.

بينما كشفت بيانات استعلاماتية من المصالح الأمنية بقسنطينة عن تصرفات بعض الضباط الإنجليز في مدينة "جيجل"، أيام قبل أحداث الثامن ماي، عندما صرحوا لبعض المسلمين الجزائريين عن قرب استقلال بلادهم. كما تدعم الوجود الإنجليزي في ذات المدينة بأحد التجار، المدعو "موريس" Morris، مختص في بيع لوازم السيارات. و يؤدي هذا التاجر دور عميل القنصلية البريطانية في مدينة "جيجل" و هو الذي قام بتوزيع أعلام الحلفاء على المسلمين المتظاهرين في الثامن ماي 1945. و اعتبر الرجل من المخابرات الخاصة البريطانية.¹

نفس المصادر تحدثت عن تحركات مشبوهة لشاحنة إنجليزية قامت بعدة زيارات إلى قرية "جميلة" بالقرب من مدينة "سطيف"، خلال الست أشهر الماضية، أين قام ركبها بتسليم المدعو "سجال عمار" Sedjal Ammar، أسلحة، هذا الأخير سلمها إلى "حماني علاوة" الذي سلمها بدوره إلى المدعو "كرا لفة عبد الرحمان" من دوار "ماوية" في البلدية المختلطة "تاكيتونت".² Takitount

كانت مدينة "بسكرة" في الجنوب القسنطيني هي القبلية المفضلة للإنجليز، حيث كثف الجيش الإنجليزي من نشاطه هناك، ما دام أنه يسيطر على مطار المدينة الذي قامت القوات الأمريكية بتسخيده لظروف الحرب في الفاتح من ديسمبر 1942 إلى غاية مارس من نفس السنة. و بداية من 2 جوان 1943 استغلته القوات الجوية البريطانية لمدة غير محددة. و يبدو أن إرجاعه للقوات الفرنسية غير وارد في الظروف الحالية، لأن أمر إنهاء التسخير لن تصدره إلا القوات البريطانية.³

من حيث الموقع، فإن المطار يساعد "عملاء الاستخبارات" الإنجليزية من دخول الجزائر بطريقة سرية، محملين بالتعليمات للوحدات المتمركزة في الجزائر، أو لأغراض القيام بتحريرات مختلفة. و تتخذ السلطات العسكرية البريطانية الحذر الشديد عند وصول شخصيات هامة إلى الجزائر. من ذلك، أن نزول الطائرات لن يتم إلا ليلا و يمنع الدخول إلى مراكز المطار في بعض الأحيان، حتى على الجنود الإنجليز أنفسهم، ثم يتم نقل الأشخاص عبر سيارة ميدانية إلى نزل "طرونس أطلنطيك" Transatlantique، أين يتم تسريح كل العمال غير المرغوب فيهم تلك الأيام.⁴

أما عن النشاط في حد ذاته، فهو مبني على دعاية نفوذ قائمة على توزيع الحصص من المواد الغذائية على المسلمين الذين يعملون لفائدة القوات الإنجليزية، و قيام الجنود الإنجليز بتوزيع الحلوى و الشكولاتة و بعض المواد

ملاحظة: قامت المصالح البحرية الفرنسية بإبلاغ القنصل الإنجليزي في وهران، الذي بدوره طلب بإرجاع حطام السفينة و تسليمها إلى الوحدات الإنجليزية المربطة في منطقة "الأندلس" بسواحل وهران. فتقدم النقيب "رالف لسلي" Ralph Lesley إلى درك بلدية "مسرعين" لاستلام كل الأغراض التي عثر عليها داخل السفينة، غير أن طلبه قوبل بالرفض إلى غاية إحضاره لرخصة من المصالح البحرية الفرنسية تسمح له بذلك... و هنا نتساءل عن أسباب وجود هذه السفينة في مياه الجزائر ولماذا لم يعثر بداخلها على خريطة للبحر الأبيض المتوسط.؟

¹ - ANOM..., 8cab/106..., 19eme corps d'Armée..., Constantine N°1064/B.DOC.C du 5 juillet 1945.

² - ANOM..., Constantine, Etat-major du 2eme bureau, N° 555/AN, du 10 juillet 1945.

³ - ANOM..., Alger le 18 juin 1945, Etat-major du 5eme B., p 1.

⁴ - ANOM..., Alger le 18 juin 1945, Etat-major du 5eme Bureau..., p2.

المصيرة مثل، الجبن و السردين على المسلمين في المدينة. و قيام الضباط الإنجليز باستفسار المسلمين عن أحوالهم المادية و المعنوية و عن فرنسا و عن الزعماء الوطنيين. كما قام الإنجليز بتقديم مساعدات إلى "شيخ العرب بن قانة" على شكل شاحنات لينقل بها حبوبه من "وادي العثمانية" في جنوب بسكرة.¹

كما أن الأمر الذي لم يكن مفهوما عند الجزائريين هو أن تلك المنح الأوروبية كانت تعطى حتى لأعضاء الجالية اليهودية مما أثار حفيظة الجزائريين الذين اعتبروا ذلك إجحافا في حقهم. و لم تهدأ الأمور، نسبيا، إلا بعد تنصيب "اللجنة الفرنسية الحرة" التي عكفت على تصحيح الأوضاع برفع منح المسلمين الجزائريين بداية من 3 أوت 1943.

3- الإنجليز و الأمريكان و مشروع إقامة دولة يهودية في الجزائر

كانت البداية من البرقية التي بعثت بها مصالح الأمن لمراقبة البلاد إلى السيد الوزير الحاكم العام للجزائر تطلعه فيها عن تحركات "أنجلو-سكسونية" ذات طابع دعائي في مدينة الجزائر.² بينما شهد الغرب الجزائري نفس الحركة الدعائية التي طالت هي الأخرى بعض الأوساط الجزائرية ضد قسوة و شدة الغرف المدنية. و هكذا تحت هذه الدعاية الأنجلو-سكسونية المواطنين الجزائريين بالتقدم بطلبات للحصول على الجنسية البريطانية، لأن ذلك سوف يمكنهم من تفادي المحاكمات و مصادرة الأملاك. و أضاف المصدر أن هذه الدعاية وجدت في مدينة "سيدي بلعباس" عند شخص تجهل هويته. و نفس الأمر يحدث في مدينة الجزائر. لذا نطلب من مصالحكم مراقبة كل الطلبات المتعلقة بالتجنيس مما قد يمكننا من التعرف على مصدر هذه الدعاية.³

ثم أفادت بعض المصادر من المصالح الخاصة، صادرة في 18 جويلية 1945، عن أخبار مفادها أن البريطانيين يحاولون تحويل الهجرة اليهودية نحو الشمال القسنطيني في الجزائر، و ذلك بسبب رفض عرب المشرق فكرة الوطن اليهودي على أرض فلسطين. و قد كتبت جريدة "الشعبي" Le Populaire في 25 أكتوبر 1945 البيان التالي: "سوف يتحصل حوالي 50000 يهودي على اللجوء في معسكرات "فيليفيل" التي تنوي بريطانيا تحويلها. و سوف تهتم L'U.N.R.A. بمساعدتهم...".⁴

تحولت مخاوف الإسرائيليين بعدما انتشر خبر مفاده أن بريطانيا قد تراجعت عن فكرة تدعيم اليهود في الجزائر، خاصة بعد الأحداث التي شهدتها البلاد في 8 ماي 1945. و مخاوفهم ناتجة من العمل المتواصل للوطنيين الجزائريين الذي سوف يجعلهم يدفعون الثمن غاليا. بينما هناك البعض من اليهود، منهم شخصيات و أعيان من

¹ - يقوم أحد الجنود الإنجليز برتبة "رقيب" Sergeant، و الذي يقطن مدينة "سوق أهراس" بالتنقل عبر كل عمالة قسنطينة، و ينتقل إلى غاية تونس، متنكرا في زي عربي، و يعتبر من عناصر المخابرات الخاصة. أنظر:

- ANOM., Alger le 18 juin 1945, Etat-major du 5eme B., p 2.

² - ANOM., 8cab/106, GGA, DST, N°342., Alger le 21 janv., 1946. Voir annexe N°11.. (Photo 7145)

³ - Ibid., GGA, DST, service de la surv.. du territoire, N°37.A.40, Oran le 11 janv., 1946. Voir annexe N°12.

⁴ - ANOM., Ibid., Cabinet du G.G. d'Algerie, note pour Monsieur ALDUY. Voir annexe N° 13..

مدينة قسنطينة، من يرى بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد تعهدت بإنشاء وطن لليهود على أرض فلسطين وذلك باستقطاب ما بين 100 و 120 ألف مهاجر يهودي من أوروبا الوسطى. في حين أن عرب المشرق يرفضون هذا المشروع و هم على استعداد لحمل السلاح لإبطاله. بينما يسعى البريطانيون، الذين هم وراء العقد المبرم مع العرب في الشرق الأوسط، إلى تهدئة الأوضاع دون اللجوء إلى استعمال القوة. بينما في الشق الآخر، عليهم أن يضعوا في حساباتهم الضغط الأمريكي و حتى في بريطانيا لبعض الدوائر الصهيونية النافذة.¹

و عليه، فقد تم الاتفاق، مرة أخرى، على تحويل الهجرة اليهودية نحو بلاد أخرى، تكون حسب مصادرها، منطقة الشرق الجزائري. خاصة إذا علمنا أنه توجد بمدينة قسنطينة جالية يهودية كبيرة. و نشير في هذا الصدد أن بعض كبار الملاك اليهود لشرق البلاد حاولوا التقرب من "أحباب البيان"، محاولين إقناعهم بفكرة أنهم ينحدرون كذلك من أصل "بربري". و يضيف المصدر أن اليهود قاموا في الآونة الأخيرة بشراء أراضي كثيرة.²

كما ذكرت المصادر أيضا، أن البريطانيين قد عرضوا على الملاك الفرنسيين الصغار في الشمال القسنطيني أراضي في دولة "كندا" Canada مقابل أملاكهم في الجزائر. و بعد تحققنا من الأحداث و مقارنتها نرى أنها جدية بالاهتمام و المتابعة. و حسب بعض المخبرين، فإن انتفاضة ماي 1945، قد تم التحضير لها بشكل تؤدي إلى تدخل القوات الأنجلو-سكسونية تكون في فائدة اليهود.³

و مهما كانت حقيقة هذه الأخبار فإنها بقيت راسخة في الأذهان، و إن تحققت المعلومة، فذلك يشرح العديد من النقاط. خاصة تلك المتعلقة بالشرق القسنطيني الذي سيتحول إلى منطقة صراع بترولي في المستقبل. لذلك تحصل الإنجليز منذ مدة على حق اختيار قطع الأراضي. أما الأمريكيون فوجدا، عن طريق بعثة "روكفيلر-ماديرا" La mission Rockefeller-Madeira، المكان مملوءا، فبحثوا عن بعض الشخصيات السياسية لمساعدتهم في اختيار ما تبقى من الأراضي. و ما وجود بعض أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي في الجزائر إلا دليل على دعم أمريكا للمسألة اليهودية.⁴

¹ - ANOM, GGA, note de renseignement sous le sceaux confidentiel. Un rapport de 2 pgs, courrier N° 5515 date du 20/07/1945, p1.

² - Ibid., note de renseignement ..., p1.

³ - Id., note de renseignement..., p1.

⁴ - بعثت مصالح المكتب الخامس للاستخبارات ببطاقة استعلامات حول الشخصيات الأمريكية التي سوف تقوم بزيارة إلى الجزائر و هي على التوالي:

- السادة "بيرتون. ك. ويكلر" Wheeler K Burton من الحزب الديمقراطي ممثل عن "المونتانا" Montana.

- إرنست ماك سارلاند Ernest W. Mac Sarland، ديمقراطي ممثل عن "الأريزونا" Arizona

- ألبير و. راولس Albert W Rawles من الحزب الجمهوري ممثل عن "النيو جيرسي" New Jersey

- بوكير. و. كوبهارت Poker.E.Copehart من الحزب الجمهوري ممثلا عن "الإنديانا". Indiana. أنظر إلى:

- ANOM, GGA, 8cab/106, 5eme bureau, ingérence étrangère en AFN.

نفس المصادر تحدثت عن اهتمام الروس بالمسألة، خاصة بعد الزيارة الأولى التي قام بها القنصل الروسي "سمير نوف" Smirnov إلى قسنطينة أيام 7 و 8 جويلية بمناسبة مئوية "ديلافرين" de Laveran. و تحدثت نفس الشخصيات اليهودية عن قرب تدخل السوفيت في مسألة الشرق الأوسط.¹

لم يتوقف نشاط الإنجليز عند حدود النشاط العسكري و الاستخباراتي، بل تواصل ليشمل الميدان الاقتصادي أيضا، عندما تم رصد نشاطات بريطانية تحت غطاء شركات فرنسية تنشط في مجال التأمين، منها "الشركة الأطلسية لإعادة التأمينات" S.A.R، و "شركة شمال إفريقيا لإعادة التأمينات" S.N.A.R.

تضمن التقرير الأمني إنشاء "الشركة الأطلسية لإعادة التأمينات" في مدينة "طنجة" بالمغرب، و التي قدر رأس مالها بحوالي 100 مليون فرنك مكتبة في غالبيتها من طرف مساهمين من شمال إفريقيا. و هذه الشركة تعمل بالشراكة مع شركة شمال إفريقيا لإعادة التأمينات، التي يوجد مقرها بالجزائر و التي يعتبر مديرها السيد "كلافري" Claverie. و يعتبر هذا الأخير من المساهمين في تأسيس الشركة الأطلسية بمساعدة المدعو "ميس" Mise، عميل الشركة و ممثلها لدى شركات التأمين الإنجليزية الكبرى في باريس.²

و حسب بعض المعلومات التي تم الحصول عليها من مصادر تشتغل في عالم التأمينات، فإن السيد "ميس" هو أحد العناصر الفعالة في المخابرات البريطانية و المعروفة "بالمخابرات الذكية" Intelligence Service، و قد يكون الموضوع حقيقة ما دام أنه من أصل إنجليزي.³

و نسب للطرف الإنجليزي رغبته في فتح مركز ثاني لليهود في منطقة البحر المتوسط. و أشارت كل المصادر إلى المنطقة القسنطينية من الجزائر. غير أنها نفت، في نفس الوقت، أن تكون تبحث عن حل للمشاكل اليهودي، و لا حتى لمدينة بسكرة و إنما كانت تبحث عن الآبار البترولية، حيث قامت بترتيب أمور شراء بعض الأراضي الهامة في المنطقة.⁴

أما الطرف الأمريكي، فقد شرع منذ التاسع جوان من سنة 1945 في العمل على طرق كيفية تدعيم القضية اليهودية عبر مختلف القنوات و في شتى مناطق البلاد العربية، على وجه الخصوص. فأرسلت قيادة القوات الجوية الأمريكية ببرقية إلى رئيس بلدية مدينة "بسكرة" تطلب فيها إمكانية منحها أراضي للكرء في مدينة بسكرة وفق الخريطة التي أعدتها القيادة الأمريكية. و حسب البرقية، فإن مدة عقد الكراء لا بد أن تكون على المدى الطويل. كما استفسرت القيادة الأمريكية على إمكانية وجود طرق أخرى غير الرسمية للحصول على هذه الأراضي

¹ - لمزيد من الشروحات طالع:

- ANOM, GGA, 8cab/106, 5eme bureau, ingérence étrangère en AFN, p2.

² - ANOM, GGA, 8cab/106, A/S : activité anglaise, Claverie et Mise., EX..7 n°2.

³ - Ibid., Alger le 11 avril 1946.

⁴ - ANOM, cab/106., LB/EN, N°1504/CDP., p 5.

و إبلاغها بذلك. و على رئيس البلدية إخبار الملازم الأول "جامس أ. يونغ" James.A.Young عندما تكون عقود الكراء جاهزة.¹

4-تطور الحركة الصهيونية في الجزائر

إن الأهمية الإستراتيجية للبلاد العربية بشكل عام، جعلت الإنجليز يهتمون بها منذ العهد العثماني الذي يعود إلى القرن التاسع عشر. و لعل العلاقة التي جمعتهم بروسيا و فرنسا كانت أكثر فائدة لهم إذ مكنتهم من توسيع دائرة مطامعهم إلى مناطق كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية منذ قرون. و قد يعود اهتمام الإنجليز بالبحر المتوسط إلى عهد "محمد علي" عندما بدأت سيطرته على السلطان محمود الثاني فيما بين 1830 إلى 1840، فتفطن الإنجليز إلى الخطر الفرنسي في البحر المتوسط و الشرق و تحالفوا مع الدولة العثمانية حتى لا يكون لفرنسا مجال المناورة لوحدها في المنطقة.²

و المقام هنا لا يسع للحديث عن أصول القضية اليهودية و لا نهاية الدولة العثمانية و لا حتى تناقضات القضية الفلسطينية، و إنما لإظهار الدور الإنجليزي-الأمريكي في دعم اليهود على إيجاد أرض لا يعرفون عن موقعها الجغرافي أو عن شكلها المادي إلا الشيء القليل أو لا شيء على الإطلاق.³ فجاءت الفكرة من شمال إفريقيا التي كانت تمر بمرحلة صعبة جراء دخول قوات الحلفاء إليها، فتنامت الأطماع و لو بشكل متباين بين القوى المتحالفة، فكان الدور الإنجليزي أكثر وجودا لخدمة مصالحهم أولا، ثم إرضاء عناصر من ذوي النفوذ، حتى و لو كانوا يمثلون ما عرف "بالحركة الصهيونية العالمية".

راسل المؤتمر اليهودي العالمي من "نيويورك"، أحد أذنايه في الجزائر ممثلا في شخص "أيلي غوزلن" Elie Gozlan، رئيس الكونسيستوار الإسرائيلي،⁴ يستفسرون على مقال نشر في الصحافة الأمريكية يتحدث عن تقديم جمعية العلماء الجزائريين و الدكتور "بن جلول" رسالة إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية يطلبون فيها إلغاء قانون كريميو. و حاول أعضاء المؤتمر اليهودي الاستفسار عن جمعية العلماء و عن شخص الدكتور بن جلول. و حملت الرسالة إلحاح المنظمة اليهودية على تلقي ردا سريعا في القضية.⁵

¹ - Ibid., télégramme American, A AY/RW, by the ARMY AIR FORCE, detachment/82, APO 497 US ARMY, 9 June 1945.note traduite. Voir les deux (2) notes en annexe N°14.

² - عمر (عبد العزيز عمر)، دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر، دار النهضة العربية للنشر و التوزيع، بيروت، 1980، ص ص 547-550.

³ - المرجع نفسه...، ص 573.

⁴ - يقصد بالكونسيستوار الإسرائيلي، ذلك المجمع الديني، أو مجمع الظرفاء، أي العقول النيرة أو المدبرة لقضية ما أو لأمر جاليات معينة. و الكلمة كانت تطلق على اجتماع "الكرادلة" Les Cardinaux برئاسة البابا في الكنيسة المسيحية لدراسة قضايا هامة.. أنظر كل من:

- القاموس الفرنسي العربي، للدكتور: سهيل إدريس، دار الآداب، بيروت، 2005، ص 292.

- Petit Larousse illustre..., op.cit., p 238.

⁵ - ANOM, GGA, 8cab/106,P. Alger, CIE N° 1899,du 16/09/1945.A/S, d'une lettre du congres juif mondial. Extrait en anglais et traduite. Voir en annexe N°15.

كانت البداية من قسنطينة عندما حضر حوالي عشرون 20 يهوديا للاجتماع الذي نظمته "الشبيبة الصهيونية" Les Jeunesses Sioniste، في ديسمبر 1945 برئاسة السيد "فيتوسي أندري" Phitoussi Andre، الذي أوضح منذ البداية أن الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه الصهيونية هو إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين. و من أجل تحقيق ذلك، "علينا أن نعلم اليهود العقلية اليهودية"، عن طريق تعليمهم اللغة العبرية. بالإضافة إلى تقديم المساعدات المادية و المعنوية لليهود المحتاجين. كما عرج على فكرة الهجرة إلى فلسطين و التي قال عنها أن حرية الاختيار فيها يعود لليهود وحدهم.¹

كان من بين الحضور في الاجتماع المدعو "إيشاي موسى" Ichai Moise، عضو في الحركة الصهيونية المراجعة Révisionniste لمدينة "سوسة" التونسية، الذي أخذ الكلمة و قدم عرضا عن تاريخ الحركة الصهيونية. ثم أكد على أن الأموال التي يتم جمعها من طرف "خزينة تل-هاي" Tel-Hai، و هو جهاز الحركة الصهيونية الجديدة للجزائر، إنما هي من أجل تنظيم دفاع اليهود على أنفسهم، La Self defense des Juifs، و تسليح الكتائب اليهودية، و شراء بواخر حربية. ثم صرح بأن المسألة اليهودية سوف تحل قريبا من طرف القوى الثلاثة الكبرى. وانتهى الاجتماع بالاستماع إلى نشيد اليهود "حاتيكفا" La Hatikva.²

تواصلت النشاطات المتعلقة باليهودية، في النطاق الجهوي في الجزائر، عندما اشترك حوالي 50 شخصا في تنظيم اجتماع تحت راية منظمة "ن.و.س.أ" N.O.S.A³ يوم 24 جانفي 1946 بمدينة قسنطينة، أطلق عليه المنظمون عنوان: "المسألة اليهودية بأعين غير يهودية"، تدخل من خلاله المدعو "تويتو" Touitou، ليقول: "إذا كان اليهود المشتتون في الأرض لم يتمكنوا من التعايش مع مختلف الشعوب التي عاشوا بين ظهورها، فلأن معاداة السامية كانت دائما حاضرة.. لأنه لم يغفر لليهود أبدا قتلهم للمسيح.. و إن هذا الوضع هو الذي جعل اندماج اليهود مستحيلا و أدى إلى قناعة أكثر أنه بات ضروريا تأسيس دولة يهودية على أرض فلسطين..⁴

¹ - ANOM, GGA, 8cab/106..op.cit., document date du 6 décembre 1945 de Constantine.

² - Ibid.

³ - و هي "المنظمة الصهيونية الجديدة للجزائر" Nouvelle Organisation Sioniste d'Algerie، تأسست في مدينة قسنطينة و حضر حوالي 100 شخص الاجتماع المنعقد بقصر العدالة القلم و الذي ترأسه "زرديب". و كان من ضمن الحضور الراهب الكبير "رين حليمي" Rabin Halimi و "عطلي جوزيف" Attali Joseph و "العلوم" Laloum، أعضاء الكونسيستوار الإسرائيلي. و قد وجه "زرديب" لومه لليهود بلدية قسنطينة على تقصيرهم في حق الحركة الصهيونية. أما المدعو "شماخ" Shemack، فقد قدم شرحا مفصلا عن التكوين و الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها المنظمة على الصعيدين العام و المحلي، و هي إقامة دولة يهودية على ضفتي نهر الأردن، و مساعدة أفراد الجالية اليهودية ماديا و معنويا. أنظر:

- ANOM, GGA, 8cab/106, Constantine, activité de la NOSA (Nouvelle organisation sioniste d'Algérie).

⁴ - ANOM, GGA, 8cab/106, Activités politiques d'inspiration régionaliste.

أما شخصيات مثل "روني كوهين" Rene Cohen، و "زرديب روبير" Zerdib Robert، فقد اعتبرت أن فكرة معاداة السامية لا تزال موجودة و منتشرة عبر العالم، و ما العبارات المنددة باليهود و الموجودة على جدران مدينة "باريس" إلا دليل على ذلك. و يرى أنه من حق اليهود التواجد في منظمة الأمم المتحدة.

أما فيما يتعلق بموقف اليهود من المسألة العربية، فقد أجاب المتدخل بأن هذا الموضوع سوف يناقش في ملتقى قادم، غير أنه صرح بأن فلسطين سوف تكون مسرحا لصراع يهودي عربي في المستقبل. و قد رصدت أجهزة الاستعلامات الفرنسية تحركات العناصر اليهودية في مختلف مناطق البلاد في شكل لقاءات و اجتماعات منظمة من طرف جمعيات مغمورة لكنها نشطة في موضوع قضية فلسطين، منها جمعية "كيرين كيمث لإسرائيل" Keren Kaymeth Leisrael، التي تعمل على جمع الأموال و شراء الأراضي، و تنظيم الجاليات اليهودية في فلسطين. أما منظمة "كيرين هاغت" Keren Haigod، فهو تنظيم يهتم بتمويل المؤسسات اليهودية في فلسطين.¹

استمرت الاجتماعات و اللقاءات التي نظمتها جمعية "كيرين كيمث لإسرائيل" لتطال مدينة الجزائر، أين تم عقد اجتماع بقاعة السينما "السبلونديد" Le Splendid، يوم 27 جانفي 1946، لمناقشة مسألة "فلسطين و الشرق الأوسط"، و ذلك بحضور شخصيات يهودية كبيرة ممثلة في أشخاص، "دافيد زاغا"، رئيسا، و الأستاذ "بقاش"، و "مورالي" و "يافي" و "كونفينو" مدير التحالف الإسرائيلي، بالإضافة إلى "شورافي" و "بنطولية" أمام حوالي 400 شخص، أغلبهم من اليهود، و عدد من الجالية "البولندية" في الجزائر.²

ترأس الجلسة الأستاذ "بقاش"، الذي قدم السيد "زاغا" على أنه مهندس العمل المقدم لفائدة أبناء إسرائيل. و قدم هذا الأخير، بدوره، لمحة عن بعض المسائل المهمة و التي عمل عليها اليهود منذ القدم ليبرروا كل الأعمال التي سوف تأتي لاحقا. فتطرق إلى المسائل اليهودية الفرنسية و اليهودية العربية و أخيرا المسألة اليهودية الإنجليزية.³

انتقد "زاغا" بشدة فكرة "إدماج الإسرائيليين" عند تحدّثه عن النقطة الأولى، حيث اعتبر أن ذلك يشكل خطرا على الجنس اليهودي، الذي له من الصفات، منها "الذكاء؟؟؟" ما يكفي. لكنه في نفس الوقت، اعتبر أن فرنسا هي أرض اليهود. لأنهم وجدوا فيها الملجأ. و قدم مثالا على ذلك، تلك الأعداد من الأوروبيين التي فرت من اضطهاد النازيين.⁴

بدأت حركة الجمعيات اليهودية في الجزائر تثير انتباه سلطات الإدارة الاستعمارية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. حيث جاء في تقرير رفعه السيد الحاكم العام للجزائر لوزراء الداخلية و الخارجية الفرنسية، أن السيد "بنهور" Benhoura، مدير سابق لجريدة "العدالة" La justice، قد اجتمع مع الشيخ "الطيب العقبي" و السيد "أيلي

¹ - ANOM, GGA, 8cab/106, Réunion de la nouvelle organisation sioniste d'Algerie, sous la présidence de Dokhan Gilbert. (2Pgs).

² - ANOM, GGA, 8cab/106, Conférence organisée par le Karen Kaymeth Leisrael... (3Pgs)

³ - ANOM, 8cab/106, Conférence organisée par le Karen Kaymeth Leisrael... (3Pgs), PRG, district Alger, N° 444.

⁴ - Ibid., PRG, district Alger, N° 444.

غزلان"، إحدى الشخصيات النافذة في الأوساط الإسرائيلية لمدينة الجزائر، ورفع لنا تقريراً مفصلاً حول المسألة اليهودية .

يتعلق هذا التقرير بالنشاط المكثف الذي تقوم به العناصر الصهيونية منذ مدة في الجزائر، و التي تعمل كعادتها على استعمال الدعاية "الكاذبة" لتمرير الدعاية "المغرضة" فيما يتعلق بوعد "بلفور" المشؤوم. و هذه الدعاية قد تولد لدى المسلمين ردة فعل قد تكون عنيفة. و يبدو أن الهدف المسطر من وراء هذه الدعاية هو لفت أنظار السلطات العمومية لضرورة توسيع فكرة "ديار اليهود" في فلسطين. Home Juif و محاولة توقيف تأثيرات الإشهار بتوزيع المناشير و تنظيم الاجتماعات، كلما دعت الضرورة إلى ذلك في محاولة لتشويه صورة المسلمين.¹ و إذا سلمنا أن السيد "غزلان" يعتبر من الإسرائيليين المحافظين الراضين لفكرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فإن السؤال الذي يبقى مطروحا هو هل لهذا الموقف علاقة بما تقوم به بريطانيا اليوم ؟ لأن ذلك لم يشن من عنزة زعماء المنظمة الصهيونية في مدينة الجزائر و التنظيم الملحق بهم و المعروف باسم "الشبيبة الصهيونية" Les jeunesses Sionistes تواصل نشاطها بتوزيع المناشير المكتوبة باللغتين الفرنسية و الإنجليزية و التي تنادي صراحة بإنشاء وطن لليهود على أرض فلسطين.²

أما موقف المسلمين من المسألة التي أثارها هذه المنظمة الصهيونية و الجمعيات النشطة في كنفها، فهي واضحة عند جمعية العلماء المسلمين و التيار الوطني اللذين كانا ضد فكرة الوطن اليهودي في فلسطين من الأصل. في حين الطبقة المثقفة و بعض التجار الكبار فكان لهم موقف حذر من القضية.³

ثم عرج على المسألة اليهودية العربية حيث ذكر بالماضي المشترك بين اليهود و العرب و على أنهم ينحدرون من جنس واحد و أن بينهم علاقات قرابة تقرب بينهم. و يرى "زاغا"، أن الحالية اليهودية قد طورت العرب؟؟؟ و ساهمت في تحسين ظروفهم الاجتماعية.⁴

في حديثه عن المسألة اليهودية الإنجليزية، شرح المتحدث الخطوط العريضة للسياسة الإنجليزية منذ سنة 1914، بداية من إعلان "وعد بلفور" Lord Balfour، التي اعترفت بوجود دولة يهودية. و هي الوثيقة الممضاة من طرف 22 دولة؟؟؟حسبه. ثم "الكتاب الأبيض" البريطاني الذي ألغى وعد بلفور، و أخيرا السياسة الحالية للوزير الأول البريطاني "بيفين" Bevin الذي يريد إدخال فلسطين في نظام "تروست ريشي" Trustreeschi. و يرى

¹ - ANOM, GGA, 8cab/106, Conférence organise par le Karen Kaymeth Leisrael.

² - Ibid.

³ - ANOM, GGA, 8cab/106, Conférence organise par le Karen Kaymeth Leisrael.

⁴ - يبدو أن "زاغا" هذا، ركز كثيرا على مسائل لا علاقة لها بوضع اليهود و لا العرب في معادلة الاستعمار الفرنسي. إذ حتى الفرنسيين انتقدوا بشدة هذه الأفكار و اعتبروها من المؤججات للكراهية و الحركة لكل الصعوبات الموجودة بين الشعبين. غير أن "زاغا" شخص التطور الذي حصل لليهود من باب أنهم تخلوا عن فكرهم المادي لصالح فكر أكثر واقعية مفعم بالأيدولوجية و العظمة. و مع كل شهر يتم تأسيس جاليات يهودية. وهكذا تنحى الفكر المتنوع اليهودي الأوروبي لتحل محله ثقة كبيرة في النفس. أنظر:

- ANOM, GGA, 8cab/106, Conférence organise par le Karen Kaymeth Leisrael sur le sujet « La Palestine et le Proche-Orient », Alger le 27/01/1946.(3Pgs)

اليهودي "زاغا" أن هذا التناقض البريطاني إنما هو ناجم عن مصالح بريطانية تجاه المسلمين، لأنه يعتبر أن الإقطاعيين المسلمين يستغلون اليد العاملة الجاهلة. وكذلك في الحفاظ على المصالح الدولية مثل "التروست" و طريق البترول...¹

و اختتم "زاغا" تدخله بتمجيد العمل الذي قام به اليهود في فلسطين و تمنى أن يلتحق بأرض إسرائيل كل يهود شمال إفريقيا. أما "كونفينو" فقد ذكر أن شركة "التحالف الإسرائيلي" متفقة مع صهاينة مدينة "القدس" على إقامة دولة يهودية. فبدأت بالجانب الاجتماعي، أين أسست في مدينة "حيفا" أول مدرسة فلاحية يخرج منها سنويا حوالي 60 مهندس حيث تتطلب مصاريف تقارب 5 ملايين فرنك سنويا. كما قامت الجمعية بفتح مدارس صناعية و أخرى "للصم و البكم" بأموال المؤسسة الصهيونية، لأن انضمامها للقضية الصهيونية واجب غير مشروط.²

ثالثا - الحلفاء و السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا

بدأت العلاقات الأمريكية مع السلطات الفرنسية في شمال إفريقيا عندما التقى "روبير مورفي" القنصل الأمريكي في الجزائر مع الجنرال "ويقان" يوم 21 ديسمبر 1940 للتباحث حول سبل و طرق تقديم مساعدات غذائية في شمال إفريقيا. و بعد محادثات طويلة و شاقة، توصل الطرفان إلى إبرام اتفاق التزم فيه الطرف الأمريكي بتسهيل عملية تموين شمال إفريقيا التي كانت حينها تواجه حصار إنجليزي شديد.³

لقد أدت الهزيمة الفرنسية أمام الألمان في ماي 1940 إلى تغيير جذري في السياسة الأمريكية في منطقة شمال إفريقيا. و كان الهدف في البداية "إستراتيجي" سرعان ما اتخذ بعدا "جيو-سياسيا"،⁴ و تحول إلى مسائل سياسية بفعل وجود بلاد شمال إفريقيا في معاناة مستمرة مع الاستعمار الفرنسي الذي لقي مقاومة كبيرة من قبل العناصر الوطنية في مختلف الحركات الوطنية التي ظهرت للوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي.

فوجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها محصورة بين مبادئ الحرية التي تقوم عليها الجمهورية الأمريكية و إلزامية "السياسة الحقيقية" *realpolitik* و تحالفها مع فرنسا. و دخلت الأمور في نوع من الدعاية في فائدة الحلفاء الذين أصبحوا أكثر حضورا في الميدان عن طريق عملائهم أو نشطاء، مثل ما قام به ضابط إنجليزي يدعى "ماستر

¹ - ANOM, GGA, 8cab/106, Conférence organisée par le Karen Kaymeth Leisrael...,

² - Ibid.

³ - Bérard (René), Historique des événements de 1940 à 1942, in revue *Algerianiste*, N°60, du mois de décembre 1992, p 7.

⁴ - Bessis (Juliette), « L'Opposition France-Etat-Unis au Maghreb, de la deuxième guerre mondiale jusqu'à l'indépendance des Protectorats 1941-1956 », In *les chemins de la décolonisation*..., op.cit., p 341.

رايت " Master Rait، الذي قام بجولة إلى وهران و التقى مجموعة من المسلمين الجزائريين المثقفين و حاول جس نبضهم من خلال استفسارهم حول إذاعة "ب.ب.س" التي قال عنها أنها إذاعة عربية و تحاول فهم المشاكل التي يوجد عليها المسلمون الجزائريون، لأن الفرنسيين حسبه لا يفهمون الواقع الجزائري و إنما يعتبرون الجزائري رجل من الدرجة الثانية.¹

و أضاف أن أمور كثيرة سوف تتغير بعد نهاية الحرب و اعتبر أن تخلي الحلفاء عن سكان شمال إفريقيا في هذه الظروف سوف يعتبر خيانة كبيرة لقضية الحلفاء. كما سأل هذا الضابط عن موقف المسلمين الجزائريين من مغادرة القوات الأمريكية الإنجليزية لبلادهم و ما هو الانطباع الذي تركه وجودهم في الجزائر.²

كما تواصلت مواقف الحلفاء التي تثير شكوك و مخاوف الفرنسيين في أعز الأزمة التي لحقت بالجزائريين جراء الأحداث التي ميزت الثامن ماي 1945، حيث قام الجنود الإنجليز من مركز التوثيق للحلفاء بالجزائر من توزيع مناشير تدعو المواطنين الجزائريين إلى الحضور لتشجيع جنازة "لعجالي محمد السعيد، الذي اغتالته أيادي المجرمين الفرنسيين في 18 ماي بالجزائر.³

1- الصراع الفرنسي الداخلي نقطة خلاف بين الحلفاء

اشتد الصراع الفرنسي الداخلي على السلطة بشكل واضح مع اقتراب الهزيمة الفرنسية أمام القوات الألمانية، و ترسم مع ظروف الاستسلام، أو كما يسميها الفرنسيون بعقد الهدنة. و لعل ما قاله الوزير الفرنسي "شارل ريبيل" في التقرير الذي رفعه سنة 1946 حول "الحقيقة عن عملية الإنزال"، يلخص لوحده مسألة التناقضات التي طالت فرنسا في لحظة ضعفها.⁴

اعتبرت الهزيمة أمام الألمان من أبشع الهزائم التي لحقت بفرنسا الاستعمارية، و في عقر دارها. و كانت العبارات التي تبادلها "ديغول" مع "بول رينود" رئيس الحكومة الفرنسية عشية سقوط حكومته، أن قال له بشأن

¹ - ANOM, GGA, 8cab/97..., CIE N°231..., A/S propagande anglaise.

² - ANOM, GGA, 8cab/97..., Op. cit.,

³ - ANOM, 8cab/97..., note de renseignement sur les activités étrangères datée du 23 mai 1945.

⁴ - "لما التقيت بالقنصل الأمريكي "مورفي" بالقنصلية العامة في الجزائر يوم 15 ديسمبر، وكان حينها يمثل الرئيس "روزفلت" في الجزائر، أطلعت على مخططي الرامي إلى تحضير عملية إنزال على شمال إفريقيا و المزايا التي يقدمها للحلفاء و لفرنسا، أجابني أن حظوظ نجاحه ضئيلة جدا، إن لم نقل منعدمة. لأن "روزفلت" لم يكن على استعداد ليخرج "بيتان" و عليه لا يفكر بتاتا في عملية إنزال في إفريقيا الفرنسية.. و بعد عدة لقاءات مع "مورفي" و مع نائبه السيد "كول" Cole، جاء جواب الطرف الأمريكي على المقترح الذي قدمته على نحو، أنه لا يمكن التفكير في عملية إنزال على الأراضي الإفريقية إلا في حال انتفاضة الجيوش الفرنسية و طلبها النجدة من قوات الحلفاء. و إذا كان ذلك بداية محتشمة نحو تحقيق المشروع فالسؤال المطروح هو: أين نجد القائد العسكري القادر على توحيد الجيش الفرنسي و قيادة عملية من هذا الحجم؟.. و قمت بزيارة للمغرب للبحث عن الرجل المناسب و لكن لم ألتقي سوى ضباط شرفاء، منهم الجنرال "مارتن" General Martin. و إذا كان الإحساس العام عند غالبية الضباط الفرنسيين هو جهم للوطن و كرههم لكل ما هو ألماني، بقي السؤال نفسه يراوح مكانه: أي قائد لهذه المهمة.. و بقي الاختيار منحصر بين الجنرال "ويقان" و الجنرال "جيرو" و الجنرال "جورج". لكن دون أن يفصل الطرف الأمريكي في الأمر..". أنظر:

- Reibell Charles, La vérité sur les origines du débarquement Allié..., op.cit., pp 9-11.

وجود المارشال "بيتان" في حكومته: "المهم أن يكون في الداخل و ليس في الخارج.." في تلميحته إلى أفضلية وجود المارشال معنا في الحكومة على أن يكون معارضا أو بعيدا سهل المنال. فأجاب "ديغول" ببرودة: "أخشى أن تغير رأيك، خاصة و أن الأحداث ستسير بسرعة البرق و أن الحالة الانهزامية ستجر كل شيء في طريقها.. و ما عدى معجزة حقيقية لن نتصر أبدا في المتروبول و لا حتى المكوث فيها.."¹

فكانت بداية الانشقاقات الفرنسية التي سوف تدفع بالجنرال "ديغول" إلى الصمود أمام كل المضاعف و التوجه إلى لندن أين سيواجه فريق المارشال "بيتان" الذي سيجد أمامه المجال مفتوحا لممارسة سياسة التخاذل و التنازل للمصلحة العليا لفرنسا و الوطن. Patrie. لأن الكلمة سوف تكون لها دلالة خاصة في نظر كل الأقطاب الفرنسية المتنازعة.

في خضم الهزيمة الفرنسية، بقيت الآمال معلقة على الطرف البريطاني ليقدم الدعم الكافي للجيش الفرنسية، ما دام أن "تشرشل" بنفسه هو الذي طلب من الفرنسيين بعدم الاستسلام و مواصلة الكفاح بكل قوة. و لعل الزيارة المخاطفة التي قام بها "ديغول" إلى لندن في 9 جوان 1940، هي التي فصلت في كل الأمور. حيث ذهب لملاقة "تشرشل" و تيقن حينها أن بريطانيا لن تسامح على حريتها مهما كلفها ذلك.²

نجد من جهة الجنرال "ويقان" في ثوب المنهزم و الذي لا ينتظر سوى دق طبول الهدنة إذ كان من أشد القادة للحل الذي كان يتمناه غالبية القادة العسكريين الفرنسيين و هو وضع حد لمعركة فرنسا حتى تحافظ الحكومة الفرنسية على أراضيها سالمة. و لعل قضية هروبه أو اختفائه من الساحة في أشد مراحل الأزمة هو في حد ذاته نقطة استفهام في سلوك الرجل.³ بعد ذلك حاولت فرنسا توجيه المعركة من مستعمراتها من وراء البحار و خاصة من شمال إفريقيا التي كانت تمثل بالنسبة لها أهم ما تملك في الظرف الحالي.⁴

كان الجنرال "ديغول" قد أعد تقريرا مفصلا لرئيس الحكومة "رينود" عن اللقاء الذي جمعه بالجنرال "ويقان"، و أصر على رينود أن يقوم بعزله من القيادة العامة للجيش، لأنه سائر نحو الهزيمة. فلم يكن ذلك ممكنا بسبب تسارع الأحداث و عدم وجود رجل يحل محله. فأشار "ديغول" إلى الجنرال "هنتزيفر" الذي حسبته قادر على تولي المهمة بإتباع إستراتيجية حربية عالمية. غير أن الاقتراح بقي طي النسيان ما دام أن عجلة الهزيمة كانت قد انطلقت، و لم يبق أمام "ديغول" سوى الاستسلام إلى أمر الواقع و الهجرة إلى إنجلترا أين تعهد بإقامة حكومة معارضة للمتخاذلين من السياسيين و العساكر الفرنسيين، و جبهة مقاومة للاحتلال الألماني للأراضي الفرنسية.⁵

كان على "ديغول" انتظار يوم 18 جوان ليعلن عبر أمواج إذاعة "ب.ب.س" BBC عن ميلاد "فرنسا الحرة"، بعد خطاب أحيا ضمائر الفرنسيين و أشعل فتيل المقاومة التي كان عليها الانتظار حتى يحين وقتها. و لم

¹ - De Gaulle (Charles), Mémoires de guerre, L'Appel 1940-1942, Pocket éditions, Paris, 2010, p57.

² - Ibid., L'Appel, pp 60-61.

³ - ANOM, GGA, 5cab/1, dossier relatif au General Weygand.

⁴ - de Gaulle (Charles),..., L'Appel..., op.cit ...,pp 59-60.

⁵ - Ibid., p 60.

يكن عليه انتظار طويلا، حيث بدأ الفرنسيون يصلون إلى إنجلترا و من ضمنهم سياسيين من أمثال، "بيار منداس فرانس" Pierre Mendes France، و الاشتراكي "أندري فيليب" Andre Philip و أستاذ الحقوق "روني كاسن" Rene Cassin، الذين مثل لهم نداء "ديغول" فرصة الالتحاق بالمقاومة التي ينوي ديغول إقامتها في لندن.¹

بنزول قوات الحلفاء أراضي شمال إفريقيا، فتحت جبهات عديدة أمام الحكام الفرنسيين. فكان قرار المارشال "بيتان" أن منح كل الصلاحيات للجنرال "نوقس" ليتحاور مع الحلفاء بشأن وقف المعارك في المغرب و وهران، غير أن الأميرال "دارلان" اعتبر نفسه هو الممثل الشرعي للحكومة الفرنسية للتفاوض مع الحلفاء، بينما رأت المعارضة، بدعم من السلطات الإنجليزية و "نشرشل" نفسه، أن الجنرال "ديغول" هو أحق بالسلطة قياسا بما قدمه من تضحيات لفرنسا. و كان لكل واحد من هؤلاء سبب منطقي يجعله يقف هذا الموقف من قضية كادت أن تتسبب في انهيار فرنسا. فهناك من كان يكره الإنجليز، و منهم من كان يحبهم، و منهم من تحصل على تعاطف الأمريكيين دون عطف حكومتهم.²

أما "جيرو"، الذي لم يخفي صراعه مع "دارلان"،³ فاعتبر نفسه وريث الحكم بسبب ما قام به في فترة نوفمبر 1942، عندما تزعم المعارضة التي شلت تحركات "دارلان" و "جوان" في الجزائر عشية الإنزال. فأصبحت هذه المسرحية المعقدة، تثير اشمئزاز الإنجليز و الأمريكان لدرجة جعلت تصرفاتهم في شمال إفريقيا فردية و غير مبالية بالسلطات الفرنسية التي كانت عاجزة على تسوية أمورها و قد يكون للخلاف أمر في اغتيال دارلان⁴ في ديسمبر من سنة 1942 من طرف الشاب "بونيني دي لاشابال".⁵ Bonnier de la Chapelle

يعتبر لقاء "أنفا"⁶ من بين المؤتمرات التي كان لها التأثير الكبير على مستقبل العلاقات الدولية لما بعد الحرب. حيث طرحت خلال هذا اللقاء مسألة التسليح بالنسبة للقوات الفرنسية. و خصصت جلسات عمل تحت رئاسة مشتركة و موسعة شملت عدد معتبر من الشخصيات العسكرية نذكر منهم الجنرالات؛ مارشال و أرلوند و

¹ - Ripert (Pierre), Charles De Gaulle, Maxi-Livres, Paris, 2004, p 43.

² - Melton (E. Georges), Darlan, amiral et homme d'état français 1881-1942, édit.. Pygmalion, Paris, 2002, p 13.

³ - ANOM..., 6cab/3, voir dossier sur Darlan-Giraud.

⁴ - ANOM..., 6cab/4, voir dossier important sur l'affaire de l'assassinat de l'amiral Darlan.

⁵ - إن الكلام على هذا الخلاف الفرنسي الداخلي و انعكاسه على علاقتهم بالحلفاء قد يجعلنا لا ننتهي منه عبر مؤلفات قد لا تتسع لكل هذه الضوضاء. لذلك كانت العديد من الشخصيات قد تحدثت عنه بإسهاب من خلال مذكراتها الفردية أو من خلال مراسلات رسمية و سرية أو من طرف بعض الذين عايشوا هذه المرحلة العصبية من تاريخ فرنسا. للمزيد من التوضيحات طالع كل من:

- Churchill Winston..., Mémoires de guerre..
- Charles de Gaulle, Mémoires de guerre..
- Alphonse Juin, Le Maghreb en feu..
- Dahms Hellmut. Günter, La deuxième guerre mondiale..
- Max Gallo, Une histoire de la 2eme guerre mondiale..

⁶ - تم اختيار الأراضي المغربية لاحتضان هذا اللقاء الذي جمع بين الحلفاء لدراسة ملفات حاسمة في مرحلة حساسة، شهدت تراجع قوات المحور من مراكز هامة في شمال إفريقيا. و امتد اللقاء من 13 إلى 24 جانفي 1943. و فيه وضعت الأسس الإستراتيجية لإعادة التسليح بالنسبة للقوات الفرنسية، بالدرجة الأولى.

كينغ و ديل و ألان بروك و الأميرال دودلي بوند...¹ و شهد اللقاء محاولات كل من "تشرشل" و "روزفلت" من أجل تقريب وجهات نظر الأطراف الفرنسية المتنازعة خاصة بين "ديغول" و "جيرو"، اللذان لم يقدران تفادي خلافهما أمام الجميع.²

هذا التدخل الأمريكي كشف عن نقاط ضعف عديدة للجانب الفرنسي. لأنه منذ نزول قوات الحلفاء و الأسواق المغربية مفتوحة أمام التجارة الدولية و التي دعمتها سياسة "سلفة الإيجار" Prêts-bails³ بحيث سمحت للأمريكيين من تمويل الجيوش الفرنسية و جيوش شمال إفريقيا بالمواد الغذائية و العتاد العسكري الذي كان يدخل عبر المغرب التي كانت تعتبر منطقة تجارية هامة في شمال إفريقيا. أما القوة الاقتصادية الأمريكية فقد أبحرت المغاربة.⁴

لم يكن مطلب الجنرال "جيرو" مطلباً عادياً، بل بالعكس، حاول تعزيز و تقوية القوات الفرنسية عندما طالب بإنشاء 12 فرقة، منها 3 فرق مدرعات من طراز أمريكي، و 9 فرق متحركة (ممكنة)، و 1000 طائرة منها 250 حربية، و 100 مقبل من الطراز الخفيف و البقية من الطائرات الناقلة الضرورية لتأمين التنقلات الإستراتيجية الطويلة. كما قام الجنرال "بوسكات" Bouscat، قائد الأركان العام و قائد القوات الجوية، بإعادة بناء الجيش الجوي انطلاقاً من الوحدات الموجودة في إفريقيا و كذا القوات العسكرية الفرنسية الحرة.⁵

تحركت الممثلات الأمريكية في شمال إفريقيا بشكل عام وفق المبادئ المتضمنة في ميثاق الأطلسي، حيث سخرت كل طاقاتها لتعبر للعالم عن تمسكها الشديد بهذا المفهوم. و كانت عملية الإنزال على الشمال الإفريقي من بين العمليات الأكثر تأثيراً باعتبار أنها جعلتها تستغل مجال السينما و الإذاعة و النشريات، مثل مجلة "فيكتوري" Victory، و الكتب المصورة لتتبوأ لنفسها مكانة خاصة في الجزائر و معها في كل شمال إفريقيا و تفوق حتى تلك القوة التي تحوز عليها بريطانيا.⁶

من ثم أن القنصل الأمريكي "لوتون" M.Lawton، لم يخفي نيته و نية بلاده في تطوير علاقته مع المسلمين الجزائريين، بمواصلة زيارته الميدانية إلى المناطق الجنوبية من الجزائر. و قد رصدت المصالح الاستخباراتية الفرنسية سلسلة من تحركاته كان قد بدأها بزيارة استجمام إلى منطقة "توقرت" منذ أشهر، ثم الآن، فهو بصدد القيام بجولة طويلة سوف تقوده إلى كل من "بوسعادة" و "بسكرة" مروراً بمدينة "الأغواط" وصولاً إلى مدينة "غرداية"، التي

¹ - Levisse-Touzé Christine, L'Afrique du Nord..., op.cit., p 341.

² - Le Tourneau (Roger), Histoire du Maroc moderne, PUP, 1992, p 216.

³ - وضع الرئيس "هنري ترومان" Harry Truman، مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حدا لنظام "السلفة-الإيجار" و ترك الحرية في التعاملات المالية و الاقتصادية إلى عدد من المؤسسات الأمريكية. أنظر إلى:

- De la Gorce Paul-Marie, Charles de Gaulle, T1, 1890-1945, Nouveau monde éditions, Paris, 2013, p

⁴ - Ibid. Et voir aussi : Echaoui Mohamed, Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., p.

⁵ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord..., op.cit., pp 341-342.

⁶ - ANOM., 8cab/106..., note sur les activités américaines..., p1.

التقى فيها بالسكان و قادة القبائل المحليين، كما كان له لقاء خاص مع "أغا" المدينة. و جاءت هذه الزيارة بطلب من الحكومة الأمريكية لمعرفة كل صغيرة و كبيرة عن مناطق الجنوب الجزائري التي تلقى صدى كبيرا في الأوساط الأمريكية.¹

لقد تزامنت الجولة التي قام بها القنصل الأمريكي إلى مناطق الجنوب مع تلك الزيارة التي قادت الملازم الأول "شميث" Schmitt، إلى مناطق "القولية" و غرداية و الأغواط و منطقة "الوادي" المتاخمة للحدود الجزائرية التونسية و التي تشتهر بتهريب الأسلحة و ممارسة التهريب بشكل عام مع تونس و المشرق. و يبدو أن هذا الضابط عنصر نشط في "وكالة المخابرات الأمريكية في شمال إفريقيا" Intelligence Agency Nord-Africa التي يترأسها العقيد "بيرون سويتزر" Byron R. Switzer.²

إن الفترة التي امتدت فيها الحرب كانت كفيلة بأن تتعب كاهل الكولون الموجودين في الجزائر، على اعتبار أن الجهود الذي طلب منهم للتأقلم مع ظروف الحرب كان كبيرا. فوجدوا أنفسهم أمام حكومة "فيشي" و "ثورتها الوطنية"، ثم عرجوا على دعم الجنرال "ويقان"، ثم لم يترك لهم الخيار بعد نزول قوات الحلفاء، عندما قبلوا بفكرة تولي الجنرال "دارلان" لأمر الدولة. حينها لم يتغير الشيء الكثير باستثناء التحالفات التي حيكت هنا و هناك لأجل ترجيح مصلحة التيار "الديغولي" في شمال إفريقيا و فرضه كخيار أنسب لمواجهة أطماع الحلفاء في المنطقة و تصفية حساباته بعملية تطهير واسعة.³

و انطلاقا من معظم الكتابات التي تناولت موضوع الخلاف المزعوم بين "ديغول" و "روزفلت"، و حتى تلك المتعلقة بذكرات الشخصيات محل الدراسة، فإننا لم نجد سببا وجيها و أساسيا لتلك الخلافات. فالبعض منها يرجعها للعلاقة الجيدة التي كانت للولايات المتحدة مع حكومة "فيشي" حتى بعد الإنزال و البعض الآخر يرجعها لرغبة الأمريكيين في التوسع على حساب ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار، فكان ديغول معارضا على ذلك مما جلب له سخط روزفلت، الذي أسقط من حساباته عناصر "فرنسا الحرة" من عملية الإنزال التي تمت على سواحل بلاد شمال إفريقيا.⁴

بينما هناك من يذهب إلى اعتبار ديغول رجل متغطرس و صاحب سلطة مطلقة لا تتناسب مع الأفكار و المفاهيم العالمية الحديثة. و يمكن القول أن حتى "تشرشل" يكون قد تنفس الصعداء، بعد نهاية عملية الإنزال، بتخلصه من رجل كان محسوبا عليه، حيث بدأت مشاعره تميل إلى كرهه بسبب ما وصف بعدم عقلانية الرجل.⁵ و هذا الكره لم يقتصر على تشرشل وحده، بل غالبية سكان شمال إفريقيا كانوا على ذلك.⁶ و ربما يرجع

¹ - Ibid., p 2.

² - ANOM., 8cab/106...note sur les activités américaines.. , p 3.

³ - Rey -Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre d'Algérie., op.cit., p 162. Et voir aussi:

- الدراسة الهامة التي قدمها "بديدة لهر" في أطروحته للدكتوراه و الموسومة: "الحركة الديغولية في الجزائر.."، مرجع سابق... ص ص 109-120.

⁴ - Duroselle (Jean Baptiste), Histoire diplomatique de 1919 a nos jours, Dalloz éditions, Paris, 1981, p 379. Et cité aussi par : Bessis (Juliette), « L'Opposition France-Etat-Unis au Maghreb.. » op.cit., p 343.

⁵ Salinas (Alfred), Les Américains à Alger., op.cit., p 132.

⁶ - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre., op.cit., p 132.

يرجع ذلك إلى بداية الحرب عندما أغارت بريطانيا على الأسطول الفرنسي المربط في موانئ وهران و الجزائر و لم يبدى حينها دىغول تأسفه و لم يندد بالعملية.¹

2-موقف الحلفاء من الصراع الفرنسي- الشمال إفريقي

في حقيقة الأمر لا يمكننا تحديد بدقة هذا الموقف للحلفاء من الصراع الذي تواصل بين الوطنيين المسلمين في شمال إفريقيا و السلطات الاستعمارية الفرنسية في ظل وجود القوات المتحالفة الأمريكية و الإنجليزية. لأن الأمر ليس متعلقا بمواقف ثابتة لسياسة ثابتة و إنما هو ناتج عن تغير في الرؤى عند الحلفاء مما أتاح لهم فرصة التعرف أكثر على مسلمي شمال إفريقيا و الإطلاع أكثر على السياسة التي تنتهجها فرنسا. خاصة كما ذكرنا من قبل، أن المواقف و السياسة التي أبان عنها و انتهجها الحلفاء، هي في الواقع نتاج للأفكار و القرارات التي خرج بها ميثاق الأطلسي، الذي فتح الأبواب أما حركة تحررية واسعة النطاق بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. و سنحاول رصد هذه المواقف من خلال السياسة التي اتبعها الحلفاء في بلدان شمال إفريقيا باستقراءنا للمصادر الأرشيفية الفرنسية نفسها التي أطلعنا على ذلك.²

البداية كانت من مراكز التوثيق ما بين الحلفاء التي ساهمت الولايات المتحدة في تأسيسها بتوفير العتاد الضروري لتسييرها و كذا الورق و السيارات و المال لترشيد النفقات في إطار القانون الشهير "سلفة-كراء". و عملت هذه المراكز تحت اسم "L.O.W.I"، تحت رئاسة "سدلي بيك" Sedley Peck، صحفي سابق كان يمثل جريدة أمريكية في باريس و طيار سابق أيضا، في سرب "لافيات" La Fayette. و قد انتشرت عشر مراكز في الجزائر وحدها.³

أما في تونس، فتميز موقف الحلفاء بتسهيل المهام على عملائهم في الاستقرار في المحمية تحت غطاء وكلاء مكلفين بمهمة الاستعلامات السياسية و الاقتصادية. مما صعب على المصالح الأمنية الفرنسية مراقبة حركة الدخول و الخروج للأجانب الذين كانوا يصلون تونس على متن الطائرات العسكرية للحلفاء، حتى أنه لم يكن بمقدور المصالح الفرنسية من تحديد نشاط هؤلاء الوكلاء عبر التراب التونسي. الأمر الذي سهل تثبيت هؤلاء الوكلاء في المكاتب العسكرية التي كانت تمثل الحلفاء.⁴

ذكرت المصادر الأرشيفية الفرنسية أن القنصلية الأمريكية في تونس قد اهتمت بشدة بالسياسة الأهلية التي كانت تطبقها فرنسا بداية من جوان 1943 إلى غاية الأسابيع الأخيرة. إلا أن النشاط الأمريكي قد تراجع في

¹ - راجع العنصر الأخير من الفصل الأول عندما تطرقنا إلى العملية.

² - تمثل هذه المصادر في مجموعة مدونات أمريكية و إنجليزية و بعض التقارير التي رفعت إلى المصالح المعنية لتوضيح العمل و النشاط التي يقوم به الحلفاء في شمال إفريقيا.

³ - ANOM., 8cab/106...,note sur les activités américaines..., p2..

⁴ - ANOM., 8cab/106...,Présidente du gouvernement, C.AF.N, A/S activités américaines en Tunisie, rapport de deux (2) pgs.

الآونة الأخيرة بسبب مغادرة القنصل الأمريكي و مساعدته السيد "أوتر" Utter، الذي يوجد حاليا رفقة "مورفي" في باريس. مما يعني أن الطاقم الأمريكي في القنصلية يفتقد للتجربة و غير قادر حاليا على القيام بعمليات مهمة. إلا أنهم لا زالوا يشعرون الأهالي المسلمين على الابتعاد عنا.¹

و أضافت هذه المصادر أن هناك شخصية أمريكية معروفة باسم "بيتمان سبرينغ" Pittman Springs، تشغل منصب "قنصل مساعد"، تمارس نشاط أكثر أهمية. و هي تتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة و ذكية و أكثر حميمية و مرحة، و يبدو أنها شخصية تابعة للمخابرات السياسية و الاقتصادية، باعتبار أنها تربطها بالعديد من الفرنسيين علاقات صداقة. و قد ظهر لنا ذلك من خلال نوعية الأسئلة التي يطرحها عليهم و التي غالبا ما تكون محرجة، لكنها ذات اهتمام بالغ بالنسبة للأمريكيين.²

لقي هذا الضابط المساعدة اللازمة من زوجته، التي كانت في فترة الحرب ضمن المواطنين الإنجليزيات اللواتي تم نفيهن إلى ألمانيا، فهي تساعد في المهام المرتبطة بجمع المعلومات ذات المصلحة العامة في تونس. هذا ما يعني أن هناك عدد من الوكلاء الأمريكيين الذين ينشطون في تونس تحت أغشية متنوعة، إلا أن هذه الأنباء تفتقد للمصداقية و غير مؤسسة باعتبار أن الدستوريين التونسيين هم الذين يروجون لهذه الأفكار حتى يوهما الجماهير بمساعدة أمريكية.³

كان السلوك العام للقنصل البريطاني "برومن" Bruman، في تونس عادي و لم يخرج عن نطاق احترام الأعراف الدبلوماسية. و هو رجل ذكي و ملم بأمور الدين الإسلامي. و كان موقفه حذرا تجاه المسلمين التونسيين منذ البداية، حيث كان يطلع السلطات الفرنسية في تونس على كل محاولة التقرب من السلطات البريطانية التي كانت تقوم بها الحركة الوطنية التونسية في هذه المرحلة الحساسة. و بالتالي فإن الموقف البريطاني لم يقلق في شيء السياسة الفرنسية في المرحلة الأولى من تحرير تونس و ذلك حسب التعليمات التي كان يتلقاها من "فورين أوفيس" Foreign Office.⁴

إلا أن هذا الموقف من القنصل البريطاني لم يمنع في شيء العمل الذي كانت تقوم به المخابرات البريطانية الخاصة Intelligence Service في تونس و التي لم تظهر شيئا منه للسلطات الفرنسية باعتبار أن عملها يفوق تحريات المصالح الأمنية الفرنسية. إلى ذلك، نشط "الديوان الاستعماري" Office Colonial، هو الآخر داخل الأراضي التونسية بالرغم من أن كل أجهزته كانت موجودة في ليبيا.⁵

كثفت الولايات المتحدة من وجودها الفعلي على أرض الميدان في الجزائر بانتهاجها لسياسة دعائية واسعة النطاق. خاصة فيما تعلق بتوزيع مجلة "فيكتوري" التي كان يوزع منها شهريا حوالي 100000 نسخة بضمن 5

¹ - Ibid., 8cab/106.

² - Id., 8cab/106.

³ - ANOM , 8cab/106., A/S activités américaines en Tunisie ..,S.D.

⁴ - ANOM., 8cab/106.,Présidente du gouvernement ..

⁵ - ANOM., 8cab/106., op.cit., A/S activités américaines en Tunisie.

فرنكات، مع العلم أن ثمنها الحقيقي يفوق 4 مرات الثمن المعروض للبيع. كما أقدمت مراكز الاستعلامات للحلفاء ببيع عشرات الآلاف من نشرات مختصرة عما يمكن معرفته عن ميثاق الأطلسي بقيمة 1 فرنك.¹ كما ذكرت المصالح الأمنية الفرنسية، في برقية مستعجلة، أن هناك حضور مرتقب لضباط أمريكيين مسلمين إلى الجزائر للعمل بالتحديد في منطقة القبائل.²

من كل المصادر الفرنسية نشعر بأن فرنسا متخوفة جدا من هذا الوجود المتحالف في شمال إفريقيا، لدرجة أنها لم تتمكن من تحديد الأهداف التي كانت تسعى وراءها الولايات المتحدة. حتى وإن كانت تمنى نفسها بأن يكون الأمر له علاقة بالأوضاع الاقتصادية أو حتى بالجانب السياحي ما دام أن الرسميين الأمريكيين في الجزائر جابو المناطق الصحراوية للجزائر و اعتبروها منطقة عذراء لم تخضع بعد لعملية تنقيب واسعة. أما الطرف الإنجليزي، فكما سبق و أن أشرنا إليه، كان كل اهتمامه منصب على المطارات و القوة الجوية التي تمكنه من الحفاظ على أمن و سلامة طرقه التجارية.

إن ظروف الإنزال في المغرب هي التي ساعدت الأمريكيين على تطوير و تثبيت نفوذهم بالمغرب، بواسطة الإمكانيات الضخمة التي سخرتها و الدقة التي تمت بها العملية، حيث أبانت عن قوة عسكرية خارقة. خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار العمل الذي قام به ضباط "وسترن طاسك فورس" Western Task Force، في التأثير على عقول المغاربة بالدرجة الأولى. و قد تساءلت فرنسا عن النوايا الحقيقية من كل هذا الاستعراض الأمريكي. هل فعلا لم يعتبر الأمريكيون المغرب سوى مرحلة عابرة و غير مهمة في إستراتيجيتهم؟ قد تجيبنا هنا القوة العسكرية و الاقتصادية الأمريكية التي لم تترك شيئا لفرنسا، على الأقل في بداية الوجود الأمريكي مع عملية الإنزال.³ إن من الملاحظات التي تثير الانتباه، تلك المتعلقة بإسناد الوظائف الهامة لفروع المصالح المدنية للجيش، و التي كان يعين على رأسها شخصيات هادئة لا تبين على الصفة "المدنية" للشخص. حيث أن المدعو "فريدريك كولبر" Frederic Culbert، من هذا الصنف المتميز باستقامة عالية إلى غاية رحيله عن تونس في جويلية 1943. و هذه المصالح الفرعية عادة ما تعمل مستقلة عن القنصل و القنصلية، لأنها تعلم جيدا أن الظرف مناسب للاستفادة من كل شيء.⁴

من جانب آخر، بقيت القنصلية الأمريكية القديمة في الدار البيضاء تشتغل على المسائل الإدارية، و اهتمت الحكومة الأمريكية بإنشاء قنصلية جديدة في الرباط لتكون قريبة من القصر و من مركز الإقامة العامة الفرنسية، بحيث أسندت إدارتها إلى شخصية أمريكية، متمثلة في شخص "فليكس كول" Felix Cole، الذي قدم خدمة كبيرة في عملية الإنزال التي تمت على الجزائر.⁵

¹ - Ibid., 8cab/106.

² - ANOM, 8cab/106., renseignement, Alger le 26 juillet 1945.

³ - ANOM., 8cab/106, Afrique-Levant., A/S activités américaines au Maroc, rapport de huit (8) pgs.

⁴ - Ibid., 8cab/106, Afrique -Levant.

⁵ - Id., 8cab/106, Afrique -Levant.

إلا أن النقطة السوداء هنا أيضا، تكمن في الوضع الذي تخلفه عملية من حجم عملية الإنزال، و التي كشفت عن قوة عسكرية بشرية و مادية تحتاج إلى أكثر من وسيلة لتكون في راحة تامة. فكانت عملية مصادرة النزلاء الكبرى و المساكن الفخمة، و لكن ذلك لم يتم دون أن تلحق هذه القوات بهذه المنشآت الأضرار الجسيمة للسكان المدنيين و بالمناطق التي كانت متمركزة فيها هذه القوات، التي راحت تتصرف بكل حرية مفرطة، لأن غالبية الجنود الأمريكيين لم تكن لهم صورة حقيقية عن الدين الإسلامي و المجتمع الموجود فيه. و قد حدثت مناوشات بسبب دخول الجنود الأمريكيين إلى المساجد و الأحياء العربية بطريقة وحشية، فحدثت بعض الأعمال المنافية للأخلاق منها الاغتصاب و القتل الذي تعرض له بعض المواطنين المغاربة.¹

و حتى مع مغادرة جيوش الجنرال "كلارك"، بقي الوضع على حاله، لأن المغرب بقي المنفذ البحري و الجوي للقوات الأمريكية في إفريقيا الفرنسية. و قد تم تحويل مصالح القاعدة البحرية من وهران إلى الدار البيضاء، مما سمح بوجود حركية معتبرة في القواعد الجوية "بالقنيطرة" Port-Lyautey، و "مراكش" و "الدار البيضاء". حتى أن الأشغال التي قام بها الحلفاء في المغرب بعد نجاح عملية الإنزال لم تكن توجي بقرب مغادرتهم البلاد، بل كان الانطباع أن بقاءهم سوف يطول.²

مهما يكن من أمر، فإن المواقف الأمريكية في المغرب، كانت كلها من منطلق التمتع بحرية مطلقة، غير مبالية بالمواقف الفرنسية، إلا في حالات الأعراف الدبلوماسية التي كانت تفرض على القادة الأمريكيين الالتزام بنوع من التحفظ. لأنه كثيرا ما كانت هناك شخصيات أمريكية داخل الجيش الأمريكي لا يعرف لها أية صفة، و كانت حرة في تصرفاتها و تنقلاتها عبر كل مناطق المغرب دون أن تلقى أي اعتراض من الإدارة الفرنسية.³

أما الموقف الإنجليزي في المغرب، فبقي مرتبطا بالتأثير على الأوساط المغربية المثقفة، التي كانت تتابع باهتمام كبير البرامج الإذاعية في "ب.ب.س" BBC، الناطقة باللغة العربية و التي كانت تذيع برامج خاصة و أخبار عن القمة العربية في القاهرة التي سوف تنبثق عنها اتحاد فدرالي عربي. الأمر الذي لفت انتباه المستمعين المغاربة و ولد لديهم شعور جديد و آمال كبرى في التحاق منطقة شمال إفريقيا بهذه الوحدة العربية.⁴

أصبح العمل و الموقف البريطاني من "الجوازات" التي كانت تسمح لمختلف اللجان المنتشرة هنا و هناك، بالتعبير عن آراءها و أفكارها و إبداء مقترحاتها للسلطات الفرنسية، من ذلك "لجنة الدفاع على شمال إفريقيا" التي اجتمعت في باريس يوم 15 فبراير 1945 و بعثت بمقترح للجنرال "ديغول" جاء فيه: أن اللجنة تطالب السلطات الفرنسية بمراجعة سياستها في بلدان شمال إفريقيا الثلاث. و عليها أن تمنح المسلمين نفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون. و أخيرا، أن يكون للمسلمين تمثيل نيابي يعادل التمثيل الفرنسي في المجالس المنتخبة.⁵

¹ - Id., 8cab/106, Afrique-Levant..,

² - ANOM., 8cab/106, Afrique-Levant., A/S activités....op.cit.

³ - Ibid., 8cab/106, Afrique-Levant., Maroc.

⁴ - ANOM, 8cab/106., propagande anglaise..op.cit., p1.

⁵ - Ibid., propagande anglaise., p2.

أما "لجنة الدفاع عن مصالح المغرب"، فقد راسلت المندوبين العرب في القاهرة بهذه الكلمات المعبرة: "لا بد أن يشمل الإتحاد العربي كل العرب، مهما كانت وجهتهم. و لهذه الأسباب نطالب اللجنة التي تعكف على تحضير هذه الندوة إلى إرسال دعوة للسلطان المغربي لحضور الاجتماعات التي سوف تنبثق عنها الوحدة العربية.¹ كيف يمكننا تصنيف موقف الحلفاء تجاه السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا؟ و هل هناك موقف فعلا؟ لأن الأحداث التي سايرت الوجود الأمريكي -الإنجليزي لم تظهر في النهاية سوى اهتمام الحلفاء بمصالحهم و بكيفية تثبيت هذه المصالح في منطقة ظهرت للأمريكيين و كأنها الجوهرة التي تربط عنق الإمبراطورية. أما بالنسبة للإنجليز، فرمما ذكريات الماضي هي التي دفعتهم إلى محاولة تعزيز الأجواء على الفرنسيين الذين حرموهم في وقت سابق من الجزائر و نافسوهم على مصر. لذلك كان موقفهم يميل أكثر إلى الخداع و نصره العدو-الصديق، الذي هو من جلدتهم و من دمهم.

رابعاً: الحركات الوطنية في بلدان شمال إفريقيا من الإصلاحات إلى الاستقلال

بقيت صورة فرنسا في شمال إفريقيا على حالها منذ الهزيمة و الاستسلام أمام القوات الألمانية في جوان 1940 إلى غاية نوفمبر من سنة 1942. خاصة إذا اعتبرنا أن الهزيمة التي ألحقت بها في سنة 1940 لم تؤثر عليها كثيراً قياساً بحجم أثار الهزيمة.²

تواصلت الدعاية الألمانية التي قامت بها لجان الهدنة، خاصة منها "لجنة المراقبة الألمانية في إفريقيا"، التي ألحقت ضرراً بالسيادة الفرنسية في شمال إفريقيا. غير أن الأمور تغيرت مع نزول قوات الحلفاء في الثامن من نوفمبر 1942،³ بفعل أن هذه الوضعية الجديدة خلقتها وجود قوات أجنبية دخلت بأهداف متباينة إلى منطقة شمال إفريقيا. و تواصل وجودها مع حجم المعارك و عجز السلطات الفرنسية على اتخاذ موقف واضح من الحرب و من الحلفاء.⁴ حيث ظهر الأمريكيون على أنهم المنقذون، و بدأ السكان المغاربة و الجزائريين يتعاطفون معهم واضعين

¹ - Id., p2.

² - Berque (Jacques), Mémoires des deux rives, éditions le Seuil, Paris, 1989, p 101.

³ - هذا الواقع فرضته عملية نزول القوات المتحالفة على أراضي شمال إفريقيا فيما اصطلح عليه بعملية "الشعلة" Opération Torch، و التي تمت على السواحل الجزائرية، في كل من العاصمة و وهران، و السواحل المغربية. ينظر في هذا الباب إلى كل من:

- Berque Jacques, Mémoires des deux rives..., op.cit., p 101.

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contempor., op.cit., p 558.

- Mekhaled Boucif, 8 mai 1945..., op.cit., p 37.

⁴ - إن الانقسام الذي حصل داخل القيادات الفرنسية المختلفة بشأن الانضمام إلى الحلفاء أم لا، تعكسه الوضعية الصعبة التي مرت بها القوات الفرنسية في وهران و المغرب، أين شهدت هاتين المنطقتين معارك ضارية بين القوات الموالية "لفيشي" و بالتالي لألمانيا، و القوات المتحالفة، تساعدها بعض العناصر الموالية للجنرال ديغول. و عقب "مصالي الحج" على هذه الوضعية الفرنسية بقوله: "إنها أول و أكبر هزيمة للجيش الاستعماري الفرنسي منذ 1830..". ينظر في هذا الباب كل من :

- Benjamin Stora, Messali Hadj, Pionnier du nationalisme Algérien (1898-1974), L'Harmattan collection, histoire et perspectives méditerranéennes, Paris, 1986, p 187.

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit., p 558.

نصب أعينهم المواقف التي تشجع بها الرئيس الأمريكي "ولسن" في مؤتمر الصلح لسنة 1919 عقب نهاية الحرب العالمية الأولى.

ضرب الإنزال الأنجلو أمريكي للثامن من نوفمبر 1942، فرنسا في صميمها و هز كبرياتها، و جاء ذلك بعد الهزيمة في جوان 1940 و أحداث بلاد سوريا الدامية التي أعقبت هذه الهزيمة. و ما زاد الوضع صعوبة الانقسامات التي كانت داخل هرم الدولة و التي أثرت بشكل كبير على وضع فرنسا في هذه المرحلة. من هنا، يبدأ نشاط الوطنيين في شمال إفريقيا، الذي كان قاسما مشتركا بين الجميع، و لكنه بتعبير مختلف في كل من الجزائر و المغرب و خاصة تونس، التي حولتها ظروف الحرب إلى مسرح الأحداث بعد احتلالها من طرف القوات الألمانية بداية من 9 نوفمبر 1942، لتقطع بذلك الطريق أمام زحف القوات المتحالفة.

1- الاختيارات الجديدة للحركة الوطنية الجزائرية

شهدت الجزائر في هذه المرحلة عودة النشاط السياسي من جديد في الأوساط الوطنية، و عادت مطالب الوطنيين إلى الواجهة، مرتكزة على خطاب الرئيس الأمريكي "روزفلت" المناهض للاستعمار، و الذي كان وقعه كبير على الوطنيين. فبدأت تنعقد الاجتماعات داخل خلايا حزب الشعب الجزائري و دار النقاش السياسي حول السياسة الخارجية المنتهجة من طرف الحلفاء و دول المحور تجاه قضية شعوب شمال إفريقيا. و أصبح محتوى بنود ميثاق الأطلسي هو محور حديث الوطنيين.¹

خلق "ميثاق الأطلسي" أمالا كبيرة عند شعوب شمال إفريقيا لتأكيد على حقوق جميع الشعوب المستعمرة على حقها في التحرر. فأسهبت الجرائد و المجلات في الجزائر على شرحه و إعادة نشره باللغة العربية، خاصة مجلة "المستمع العربي" L'auditeur arabe المنتشرة في شمال إفريقيا، و التي قام البريطانيون بنشر مقال للرئيس الأمريكي "روزفلت" بعنوان "الحريات الأربع"، تضمن رسالته الموجهة في لقاء الأطلسي بتاريخ الفاتح جانفي 1941 و التي أرست القواعد الأساسية للميثاق و هي: حرية التعبير و حرية عبادة الله كما نريد، و التحرر من الحاجة و التحرر من الخوف.²

بلغت درجة استياء الجزائريين و تدمرهم من الممارسات العنصرية للسلطات الاستعمارية ذروتها، و أصبحت مطالب الوطنيين أكثر واقعية و تأثير، مرتكزة على حركة مطلبية قوية، تزعمتها مجموعة من الشخصيات الوطنية و الأحزاب، توجت بإصدار أثنى عشر شخصية جزائرية لما عرف بـ"رسالة الممثلين الجزائريين إلى السلطات

¹ - يمثل "ميثاق الأطلسي"، الذي جمع بين الزعيمين الأمريكي و البريطاني "روزفلت" و "تشرشل" في 14 أوت 1941 على متن سفينة في عرض مياه المحيط الأطلسي، أحد أهم أحداث الحرب العالمية الثانية لما كان له من تأثير مستقبلي على الأحداث. (يراجع الهامش)

² - ANOM, Aix-en-Provence, 29H35, note du directeur des affaires musulmanes et des territoires du sud, adressée au directeur de service de presse et d'information d'Alger le 23 octobre 1943. Et voir aussi : l'interview des notables musulmans de Tlemcen reproduite par le journal « L'Echo d'Oran » des 14 et 18 octobre 1941.

المسؤولة¹ يطالبون فيها بوضع دستور جديد مستوحى من محتوى "ميثاق الأطلسي". و يشترطون مشاركتهم في الجهود الحربية بوضع اتفاق سياسي و اقتصادي جديد قائم على العدالة الاجتماعية و يحقق "التحرر السياسي". تم رفض هذا المطلب في حينه لظروف الحرب كما زعمت السلطات الاستعمارية. غير أن الوطنيين واصلوا مسعاهم و أرسلوا نص ثان معدل للأول و مرسل، هذه المرة، إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية يطالبون فيها بأن يتم هذا "التحرر السياسي" داخل نطاق فرنسي محض. و أضاف "فرحات عباس" في هذا الصدد: "على فرنسا أن تظهر حسن نواياها تجاه السكان المسلمين بإنجازات ملموسة و فورية و تظهر إرادتها الإصلاحية..² قدم الجنرال "دارلان" وعدا للمنتخبين الجزائريين بتنصيب "لجنة مكلفة بتحضير و تقديم مشروع إصلاحات ترفع به المخاوف عن السكان المسلمين.³ إلا أن تعنت السلطات الاستعمارية الفرنسية دفع بفرحات عباس و رفاقه إلى التوجه للسلطات الأمريكية و ذلك بإصدار البيان الجزائري المشهور. أصبح الأمريكيون يمارسون دعاية رزينة و فعالة على السكان من خلال اتصالات متكررة مع المسلمين. الأمر الذي جعل المسلمون يكتشفون عادات و تقاليد مختلفة عن تلك التي كان الاستعمار الفرنسي يلقيها لهم، بالإضافة إلى الثروة الأمريكية التي كانت ظاهرة للعيان بالكم الهائل للمؤن التي كانت بحوزة الجنود الأمريكيين. و حتى من المسلمين الذين كانوا يعملون في المصالح الأمريكية لاحظوا ذلك الاختلاف بواسطة المنح التي كانت تدفع لهم بالدولار. و هنا، ظهرت قوة الولايات المتحدة الأمريكية في تموين شمال إفريقيا بالمواد الغذائية و الملابس أخذة مكان فرنسا التي أصبحت صورتها متدنية في أعين السكان المسلمين الجزائريين.

أ- جراءة الجزائريين من خلال بيان 10 فبراير 1943

أفرزت عملية الإنزال مرحلة سياسية جديدة بالنسبة للجزائريين، تميزت بمحاولة سياسية ملء الفراغ⁴ الذي كانت تعاني منه الساحة الوطنية بفعل وجود أغلب قادة الأحزاب الوطنية في السجن، و انصراف النواب إلى شؤونهم بعدما قدموا استقالاتهم من اللجنة المالية في صيف 1942.⁵ أما الشيوعيين فقد استعادوا الحرية التي حرموا

¹ - في حقيقة الأمر "السلطات المسؤولة" كان يقصد بها تلك التي كانت تحكم الجزائر آنذاك. و هي القوات المتحالفة و على رأسها القوات الأمريكية.

² - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord., op.cit., p 346.

³ - هذا المشروع الذي كان ينوي تفعيله الجنرال "دارلان" كان في الحقيقة مشروعا "نصف رسميا" باعتبار أن دارلان لم تكن له مطلق الصلاحيات للبت في مثل هذه القضايا خاصة في الظرف الذي كانت تمر به فرنسا. إلا أن المشروع في حد ذاته لقي استحسان العديد من المؤرخين الذين اعتبروه ضروري بالنسبة للسكان المسلمين. ينظر في هذا الموضوع إلى كل من:

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine., op.cit., p 558.

- Koerner Francis, « Le mouvement nationaliste., op.cit., p 47.

- Benjamin Stora, Messali Hadj pionnier., op.cit., p 188.

- Coutau-Bégarie Hervé et Huan Claude., op.cit., pp 660-661.

- Jauffret Jean-Charles., op.cit., p 28.

⁴ - سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية...، ج3،...، مرجع سابق، ص 189.

⁵ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp., t2, op.cit, p 552.

منها في بداية عهد "فيشي" و أصبح نشاطهم أكثر كثافة، و لكن دون أن يغيروا شيئا في طرحهم للمسألة الوطنية.

هذا الواقع يجرنا إلى القول بأن الساحة السياسية الوطنية افتقرت إلى قيادة صارمة و موحدة، رغم كل النوايا الحسنة التي أظهرها البعض في إعادة طرح المطالب الجزائرية على الحلفاء و لجنة فرنسا الحرة، من خلال نسج مطالب جماعية و موحدة وجهت إلى السلطة الاستعمارية التي تحرّبت منها كعادتها متحججة بظروف الحرب الغير موثوقة لطرح مثل هذه الانشغالات. و مهما يكن من أمر، فإن نزول الحلفاء و مشاكل فرنسا التي تميزت بالخلافات السياسية داخل هرم السلطة، قد سمح للوطنيين الجزائريين بربط الاتصالات السرية و العلنية فيما بينهم، مدفوعين بآمال كبرى في أن تجسد مصداقية فرنسا الاستعمارية ميدانيا، و في الحلفاء من وراء ما تضمنه ميثاق الأطلسي من مبادئ الحرية و تقرير مصير الشعوب.¹

كما تعتبر هذه المرحلة من أصعب فترات العمل السياسي في تاريخ النضال الجزائري لما احتوت عليه من لقاءات سرية و علنية بين مختلف شرائح المجتمع الفعال، سواء الذي كان مسموح له بالعمل و التحرك أو ذلك الذي لم يزل قيد الحبس و الأغلال. بالإضافة إلى ما تناقلته المصادر الأرشيفية حول اللقاء الذي يكون قد جمع "فرحات عباس" بالرئيس الأمريكي "روزفلت" في الجزائر، بوساطة من القنصل الأمريكي "لوتون"، و الذي تمكن من خلاله "فرحات" من تسليم مذكرة حول السياسة المسلمة المنتهجة من طرف فرنسا و التي ينتظر الجزائريون منها الكثير.²

كما تم استغلال نزول الحلفاء على أرض الجزائر، لمحاولة تمرير المطالب الإصلاحية، التي كانت لا تزال تؤمن بها طبقة النواب. و قبل التطرق إلى محتوى هذه المطالب و المواقف، لا بد أن نتوقف عند نقطة هامة أثارت انتباهي في هذه النقطة من الرسالة و هي قضية "البيان".³

¹ - لقد قيل الكثير عن مبادئ الحرية و الاختيار التي جاء بها ميثاق الأطلسي، و كذلك عن الدور الذي لعبه الطرف الأمريكي في تجسيد هذا البيان، لكن هناك حقيقة مفادها أن الكتابات التي نشرت و نسبت لأشخاص أو لأصحابها لا تعبر سوى عن توافق الرؤى بين مختلف التيارات الوطنية التي كانت تنشط في الساحة وقتها. و كان لا بد من جس نبض الشارع الكولونيالي باعتبار أن الكولون طرف هام في المعادلة، و لو من جانب التأثير على إدارته الاستعمارية. و لا ننسى أن البيان، هو الوثيقة الأولى، التي مكنت الجزائريين من القيام بعمل من هذا الحجم. (إلا إذا استثنينا ما تضمنه مطالب المؤتمر الإسلامي و لكن ليس بهذه القوة في التركيز على المطلب). إذ جاءت مبادرة البيان لتحمل فرنسا مسؤولية تحديد موقفها من الجزائريين حتى يتمكنوا هم كذلك من تحديد أنفسهم قياسا بها. أنظر إلى كل من:

- Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit., pp 244-246.

- Beghou Youcef, Le Manifeste du..., op.cit., p 36.

- Ageron Charles Robert, Genèse de l'Algérie..., op.cit., p 263.

² - ANOM..., 8cab/106..., note sur les activités américaines..., p 3.

³ - بغض النظر عن نتائجه الآتية أو البعيدة، إلا أنه شغل حيزا هاما من الكتابات الجزائرية و الفرنسية و العالمية. و الذي لفت الانتباه، ليس البيان في حد ذاته و إنما الرجل الذي أظهر نضجا كبيرا في التأقلم مع الأوضاع و اختباره التوقيت المناسب لإظهار هذه الجرأة التي سمحت له بالانتقال إلى صف الوطنيين. و ببساطة، فقد تكلم بكلمات مفهومة عندما صرح: "إن الوطن الجزائري الذي لم أجد له أثر في سنة 1936 في الأوساط الجماهيرية الجزائرية، قد اكتشفته اليوم..". غير أن البعض يرى بأن هذا التحول الذي حصل في المسيرة السياسية لفرحات عباس، إنما بدأت بوادره سنة 1940، عندما

لقد ارتفعت وتيرة النشاط السياسي داخل الحركة الوطنية مع مطلع سنة 1943، كونها فتحت أفقا لمرحلة جديدة أكثر فاعلية من المراحل السابقة باعتبارها ساعدت الجزائريين، لأول مرة، على تقديم مطالب جماعية و موحدة إلى السلطات الاستعمارية الفرنسية. و يبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت متحمسة لتنفيذ البرنامج الذي تقدم به فرحات عباس من خلال البيان المشهور.¹

تمكن فرحات عباس، الذي كان من أشد المدافعين عن فكرة الإدماج،² من الانتقال إلى المعسكر الوطني بعدما شهد فكره تطورا كبيرا.³ فكسب ثقة الوطنيين من أنصار حزب الشعب الذي ظل ينشط في الخفاء، و طالب السلطات الاستعمارية الإفراج عن مصالي الحاج الذي كان يقبع في السجن منذ مدة. كما استطاع أن يجلب إليه عدد من أنصار و زعماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نذكر منهم كل من؛ العربي التبسي، و خير الدين، و توفيق المدني، و ذلك تبعا لشهادة عباس نفسه.⁴ أما جماعة النواب المسلمين، فكانت منذ البداية مع طرف عباس الجديد.

هذا التحرك السياسي الجماعي الواسع لعدد من الشخصيات الجزائرية البارزة على الساحة الوطنية، حمل معه بلورة مجموعة من المطالب المشتركة التي وقع عليها إجماع في صفوف مختلف التيارات الجزائرية. و جاء نتيجة التحولات التي كانت تعرفها الساحة الفرنسية و العالمية معا، خاصة منذ نزول قوات الحلفاء بلاد الجزائر. كل هذا العمل أثمر بصياغة البيان الجزائري للعاشر من فبراير 1943. قدمت جماعة من الوطنيين بقيادة فرحات عباس، وثيقة هامة للجنرال 'إيزنهاور'، قائد قوات الحلفاء في شمال إفريقيا، اصطلاح عليها باسم "البيان الجزائري"، و هي عبارة عن برنامج إصلاحات تخص الجزائريين الذين لم يعودوا يثقون في الوعود الكاذبة للسلطات الاستعمارية.

استقبله الحاكم العام "أبريال" و دار بينهما نقاش حاد حول القوانين التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية في حق تعطيل المجالس المنتخبة العامة بعد صدور قانون 12 أكتوبر 1940، ثم ضد قضية تعيين أعضاء اللجان الاقتصادية الجزائرية بمقتضى قانون 12 ديسمبر 1940، لتحل محل المفوضيات المالية المنتخبة. فهو لم يكن ضد القوانين الجائرة، و إنما في طبيعة تطبيق هذه القوانين و الطريقة التي تمت بها عملية اختيار الأشخاص الذين يمثلون الشعب. و كان غالبيتهم من الأميين لعالم السياسة. أنظر كل من :

- Ageron Charles Robert, Genèse de l'Algérie algérienne..., op.cit., pp 259-261.

¹ - هذه الأخبار نقلها أحد ضباط المخابرات الإنجليزية عندما كان عائدا من تونس، حيث التقى أحد المخبرين الفرنسيين في مركز الاستعلامات و الدراسة، و أطلعته على ما يجري في تونس، و عن لقاءه مع القنصل الأمريكي في تونس و أطلعته بنوايا الولايات المتحدة الأمريكية. و يبدو أن الاهتمام بما يجري في الجزائر قد شد إليه انتباه الإنجليز الذين يهتمون بنشاط "أحباب البيان و الحرية" و بالعلاقة الجديدة التي تربط "مصالي الحاج" و "فرحات عباس". أنظر إلى:

- ANOM, GGA, 8cab/106..., Préfecture de Constantine, CIE N° 816, du 16 avril 1945.

² - كتب عنه علال الفاسي هذه العبارات في كتابه: الحركات الاستقلالية.. ما يلي: "و أما عباس فرحات فهو في الحقيقة شخصية ممتازة بثقافتها و ذكائها، و لكنه في الوقت نفسه كان من أنصار الاكتفاء بالمطالبة بالمساواة مع الفرنسيين في الحقوق، و قد سبق لي أن اجتمعت به في باريس سنة 1933 و ناقشته في فكرته، و الذي فهمته من حديثه أن المطالبة بالحقوق الفرنسية ليست إلا مرحلة يجب أن تحتازها الجزائر، و أن استقلال الأمة الجزائرية يجب أن يكون الغاية البعيدة التي نعمل لها.." أنظر:

الفاسي علال، لحركات الاستقلالية..، مصدر سابق..، ص 20.

³ - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines....op.cit, p 188.

⁴ - Ferhat (Abbas), La nuit coloniale..., op.cit, p 140.

غير أن بالنسبة لهؤلاء المسؤولين فإن أوضاع الحرب لا تسمح بمباشرة أية إصلاحات في الوقت الراهن. حيث أوضح كل من " إيف شاتل " Yves Châtel و "مرسال بيروتون" Marcel Peyrouton أنه سوف نتحدث عن السياسة عندما تنتهي الحرب. و طلب "بيروتون"، من المسلمين الجزائريين إلى العودة إلى العمل من أجل استعادة فرنسا لمجدها حتى نعود شعب كبير و قوي. و أن مسألة الإصلاحات المتعلقة بالمسلمين الجزائريين قد أرجعت إلى ما بعد تحقيق النصر. كما صرح بذلك الجنرال "جيرو" عندما شدد على أن: "الظرف للحرب و ليس غير الحرب..". غير أن بيروتون لمح إلى إعادة تفعيل "الوفود المالية" و المجلس الأعلى للجزائر.¹

أما عن قضية صياغة البيان، فقد قام فرحات عباس بتحضير "مسودة البيان" و ذلك بعد استشارته لعدد من الشخصيات الجزائرية من مختلف التيارات الحزبية و الإدارية. حيث اجتمع المنتخبون في الجزائر عند السيد "بومنجل" مستشار بلدي سابق، بحضور ممثلين عن حزب الشعب و هم: الدكتور "لمين دباغين" و "عسلة حسين"، و عن العلماء كل من : "توفيق المدني" و "الشيخ خير الدين" و "الشيخ العربي التبسي"، و "محمد الهادي جمان" رئيس جمعية الطلبة المسلمين، إلى جانب مجموعة من المنتخبين و المستشارين العامين و المفوضين الماليين نذكر منهم : الدكتور بن جلول، الدكتور سعدان و الدكتور تمزالي و غرسي أحمد و قاضي عبد القادر.²

ثم صاغ فرحات عباس البيان الذي أسماه "بيان الشعب الجزائري"، و هو مستوحى من الرسالة التي بعث بها إلى المارشال "بيتان" في العاشر من أفريل 1941 و المعنونة بـ "جزائر الغد". و من بين 43 شخصية وطنية التي صادقت على البيان و قامت بإمضائه نذكر كل من "سايح عبد القادر" و الدكتور "تمزالي"، مستشارين عامين لعمالة الجزائر، الفرع العربي. ثم قدم البيان في العاشر من فبراير 1943، في شكله الأولي، إلى الجنرال "إيزنهاور" و نسخة أخرى إلى الحاكم العام في الجزائر.³

أحدث البيان "زلزالا" صغيرا في الأوساط الفرنسية لدرجة أن الحزب الشيوعي اتهم "أوغسطين برك" و "روبير مورفي" على أنهما كانا وراء صياغة البيان في مكاتب الحاكم العام.⁴ الأمر الذي كذبه دائما فرحات عباس و اعتبر أن الفرنسيين لم يتقبلوا فكرة التوجه مباشرة إلى الأمريكيين.⁵

كتمهيد، ذكر البيان بالأوضاع التي تعيشها الجزائر منذ تاريخ الثامن من نوفمبر 1942، تاريخ نزول قوات الحلفاء على أراضي شمال إفريقيا، و التي جعلتها خاضعة لسيطرة القوات البريطانية الأمريكية موضحا أيضا الصراع السياسي و العسكري الكبير بين مختلف القوى الفرنسية في الجزائر. و يضيف الشرح: "يتقدم اليوم ممثلي هذه

¹ - SHAT, 2P52, Discours de Marcel Peyrouton, prononcé à la radio d'Alger le 22 février 1943.

² - Ferhat (Abbas), Autopsie d'une guerre, éditions Garnier, Paris, 1980.

³ - Jauffret (Jean-Charles), T1..., op.cit., p 29.

⁴ - كانت هذه التهمة موجهة لضرب مطالب الوطنيين و الإبقاء على سلطة الشيوعيين في المسألة الجزائرية. و كان "ميشال روزي" Michel Rouzé رئيس تحرير جريدة "الجزائر الجمهوري" Alger républicain، هو وراء هذه التهمة. ينظر إلى كل من:

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine..., op.cit., p 559.

- Mekhaled Boucif, 8 mai 1945..., op.cit., p 76.

⁵ - Ferhat (Abbes), Autopsie d'une guerre..., op.cit., p 140.

الجزائر، باسم شعبهم، لأداء واجبهم الإجمالي و المتمثل في طرح قضية مستقبلهم أما كل الأمم المتحدة..¹ و الملاحظ على هذه الوثيقة الأولى، أن كلمة "الأمم المتحدة" استعملت خمس مرات مع الإشارة الفعلية و الاسمية للسلطات الفرنسية بطريقة غير مباشرة.

يعتبر البيان بحق وثيقة تاريخية و تعبيراً صادقاً عن طموحات الشعب الجزائري المسلم، و وضع حوصلة صادقة و موضوعية لقرن من الاستعمار، معتبراً أن الصراع العالمي هو صراع من أجل تحرير الشعوب. كما طالب واضعي البيان بأن تدرج حقوق الإنسان في مؤتمرات ما بعد الحرب. كما فضح البيان النظام الاستعماري و طالب بحق الشعب الجزائري إلى الحياة. كما استنكر سياسة الإدماج، التي حولت المجتمع المسلم إلى العبودية المطلقة. و يتهم البيان أيضاً، السلطات الإدارية الاستعمارية بعدم الاهتمام بمصير العنصر العربي رغم أنهم يفوقون العنصر الأوروبي عدداً. كما شخص البيان أهم مراحل الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر مشدداً على الفوارق التي عان منها الشعب الجزائري. و البيان في ختامه تنديد بسياسة إدماج مستحيل تطبيقها في الجزائر، بمعنى أنه دق ناقوس الفشل.²

كما ندد البيان بالتمييز الكبير الملاحظ على المصالح العامة و الجيش و الإدارة و التجارة و الصناعة و البنوك، و الضعف العددي للملاك المسلمين. و ندد أيضاً بضعف التمثيل النيابي للمسلمين في المجالس المنتخبة. محملاً المسؤولية للكونلون الفرنسيين الذين لن يرضون بإصلاحات آتية من باريس و كدليل على ذلك، يشير البيان إلى "مشروع فيوليت" الذي اعتبره "محطة" لم تستغلها فرنسا في وقتها.³

رفض البيان الفكرة المروجة من طرف الكولون و التي مفادها جعل من المسلمين الجزائريين عناصر موالية للألمان. و كانت نقطة تحول البيان من خلال تضمينه للفكرة التالية: "لقد مضى وقت المطالبة بشيء آخر غير أن نكون جزائريين مسلمين. لأنه منذ إلغاء "مرسوم كريميو"، أصبحت الجنسية و المواطنة أكبر الحلول الواضحة و المناسبة لحل مسألة رقيه و تطوره..

حاولت بعض الأطراف أن تنسب البيان إلى شخصيات فرنسية و غير فرنسية معروفة، كان تأثيرها واضح أثناء مرحلة الحرب العالمية الثانية،⁴ لكن ذلك لا يمكنه أن يكون لسببين: أولهما أنه جاء في سياق التقرير الذي بعثه "عباس" في أبريل 1941 إلى المارشال "بيتان" و المتضمن لمشروع "جزائر الغد". و ثانيهما، أن المزاعم التي

¹ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord en..., op.cit., p 349.

² - Beghou (Youcef), Le Manifeste du peuple..., op.cit., p 28.

³ - يعتبر "البيان" من منظور أصحابه، نهاية الأوهام الاندماجية و المطالبة بالحق في العيش. ليس العيش من أجل الأكل.. و لكن العيش من أجل الكرامة و الأمن و الحرية.. و "البيان" تعبير صادق عن وجهات نظر جديدة بأفكار جديدة من شخصيات وطنية تأثرت بالأحداث الداخلية و الخارجية الكبرى و الصغرى. مما دفعها دفعة واحدة إلى التنديد بالاستعمار و اعتباره السبب الأساسي للمسألة الجزائرية.. لأنه يحمل في طياته "الظاهرة الإمبريالية" التي لا يمكنها العيش إلا بالتضحية بالطرف الآخر.. فهي لا تقبل القسمة على مجتمعين. و الكولون في فكره "التسلطي" الذي يتلذذ السيطرة، لا يمكنه أن يعيش بعيداً عن نعمة السيطرة اليومية.. بعبارة أن يصبح هو السيد.. لمزيد من الشروحات طالع:

- Beghou Youcef, Le manifeste du peuple Algérien..., op.cit., pp 27-29.

⁴ - Voir a ce sujet : Julien Charles André, L'Afrique du Nord en marche..., op.cit., p 246.

روجت للفكرة تناست أن عباس من مثقفي الجزائر و أحد أقطاب الحركة المطلوبة و عليه، لم يكن عليه انتظار العون من أطراف هو في مواجهتها يوميا، حتى و إن كان "مورفي" قد التقى به في إطار الجولات التشاورية التي كان يجريها الطرف الأمريكي في إطار شرح محتوى ميثاق الأطلسي.¹

إن نص البيان طويل و قد أحصى مطالب كل التجمعات و التوجهات المسلمة، من: علماء و مرابطين و شيوعيين و رجال حزب الشعب الجزائري.. فأصبحت المطالب موضحة على الشكل التالي²:

أما النسخة الأصلية فلم تتطرق بشكل واضح لقضية تشكيل حكومة جزائرية. كما حاول نص البيان أن يبحث عن توافق بين أنصار "جيرو" و أنصار "ديغول". ثم أرسل البيان في يوم 31 مارس إلى الجنرال "كاترو" مدعما برسالة، طلب منه أن يبعث بها إلى الجنرال "ديغول".

هذه المحاولة من فرحات عباس، كان لها مغزاها تجاه شخص "ديغول"، الذي كان يعتبر من الذين كان لهم نصيب في استقلال بلاد الشام (سوريا و لبنان). أما مصالي الحاج، الذي كان مسجوناً في سجن "لامبيز"، فقد رفض الإضاء على البيان ما دام أنه سجيناً. و لما أطلق سراحه في 26 أبريل 1943، وضع تحت الإقامة الجبرية في مدينة "بوغار" (قصر البخاري حالياً في ولاية المدية). و أثناء عودته من منفاه توقف في مدينة سطيف، و هي الزيارة التي اغتنمها "فرحات عباس" ليقوم بزيارته و يهنئه بمناسبة الإفراج عنه و يقدم له دعمه الكامل على مواقفه

¹ - Beghoul (Youcef), Le manifeste du peuple Algérien..., op.cit., pp 36-37..

² - يعتبر "قداش" أن فرحات عباس استلهم تسمية البيان من الحركة العمالية الشيوعية التي قادها "كارل ماركس" و التي تعتبر أكثر قوة و تأثيراً من كلمة "ميثاق"، بدليل أن بعض الكلمات و العبارات التي تضمنها النص الأول للبيان اعتبرت بعيدة عن الأعراف الدبلوماسية، مما استدعى تغييرها في الملحق الذي عدل بعد ذلك.. ينظر في هذا الباب إلى:

- Kaddache Mahfoud, Histoire du Nationalisme..., T2..., 1939-1951..., pp 598-599.

كما أن النص تضمن نقاط هامة أوردتها "لفيس توزي كريستين" مختصرة في كتابها "شمال إفريقيا في الحرب" تناولت ما يلي:

Les revendications sont exposées en conclusion comme suit :

A- La condamnation et l'abolition de la colonisation, c'est-à-dire de l'annexion et de l'exploitation d'un peuple par un autre peuple.

B- L'application par tous les pays, petits et grands, du droit des peuples à disposer d'eux-mêmes.

C- La dotation de l'Algérie d'une constitution propre garantissant :

- La liberté et l'égalité absolue de tous ses habitants, sans distinction de race ou de religion.

- La suppression de la propriété féodale par une grande réforme agraire et le droit au bien-être de l'immense prolétariat agricole.

- La reconnaissance de la langue arabe comme langue officielle au même titre que la langue française.

- La liberté de la presse et du droit d'association.

- L'instruction gratuite et obligatoire pour les enfants des deux sexes.

- La liberté du culte pour tous les habitants et l'application à toutes les religions du principe de la séparation de l'église et de l'état.

D- La participation immédiate et effective des musulmans algériens au gouvernement de leur pays, ainsi que cela a été faite par le gouvernement de sa majesté britannique et le général Catroux en Syrie et par le gouvernement du maréchal Pétain et les Allemands en Tunisie. Ce gouvernement pourra seul réaliser, dans un climat d'unité morale parfaite, la participation du peuple Algérien à la lutte commune.

E- La libération de tous les condamnés et internés politiques à quelque parti qu'ils appartiennent.

La garantie et la réalisation de ces cinq points assurera l'entière et sincère adhésion de l'Algérie musulmane à la lutte pour le triomphe du droit et de la liberté. Pour plus d'information sur le manifeste qui est reproduit dans son intégralité, Voir :

- Jauffret Jean Charles, op.cit., pp 31-33.

المناهضة للإدماج. في هذه الأثناء ظهر على الساحة الوطنية "بيان مضاد" صدر عن رئيس بلدية جيجل "مورينود" Morinaud، معنون بـ "من أجل الدفاع الفرنسي". و هو نداء صريح للفرنسيين القاطنين في الجزائر لأن يتحدوا من أجل حقهم المشروع في الدفاع عن أنفسهم.¹

في الواقع لم تمر قضية البيان بالسهولة التي يظنها البعض، و ذلك لاعتبارات عديدة مفادها تضارب الآراء حول الشرعية التي اكتسبها فرحات عباس من تحريره للبيان، علما أن هناك أطراف جزائرية نفت أن يكون البيان من صنع "فرحات عباس" و نسبته لشخصية وطنية معروفة على ساحة النضال السياسي داخل الحركة الوطنية و المتمثل في شخص "الأمين دباغين".²

ماذا يمكننا أن نفهم من كل ذلك؟ الحقيقة تبقى نسبية من كل هذا الكلام إلا إذا وجد ما يثبت هذه الأقوال، و هي الوثيقة التاريخية و الأرشيف الذي يبقى السبيل الوحيد لمعرفة جزء من الحقيقة. و إذا قارنا هذا الكلام مع آخر ما قيل من طرف زعماء في الحركة الوطنية و ممن عايشوا الأحداث لوجدنا أنه لا زالت أمور كثيرة

¹ - Stora (Benjamin), op.cit., pp 188-189.

² - هناك مسألة جديدة طفت على السطح مؤخرا مفادها أن صاحب البيان الحقيقي يكون "الأمين دباغين"، استنادا إلى تصريح أحد المجاهدين و هو السيد: "بوسلامة محمد" ضابط سام في جيش التحرير الوطني و صهر المجاهد "الحواس بوقادوم"، الذي جزم بذلك. و أوردت الخبر أسبوعية "المحقق" الجزائرية، حيث صرح قائلا: "كنت أتردد على زيارته في بيته في حي القبة بالجزائر و كانت تربطني صداقة متينة بالدكتور لمين دباغين بحكم علاقته بالمجاهد الكبير الحواس بوقادوم و هو صهري. و ذات يوم، و بالضبط ستة أشهر قبل أن توافيه المنية (رحمه الله) تحدث الدكتور دباغين في جلسة خاصة بعيدا عن الأضواء، و هو أحد أهم أقطاب الحركة الوطنية و العناصر البارزة عن حزب الشعب الجزائري و كيف وجد نفسه دون سابق تحضير المسؤول الأول عن التنظيم بعد سجن الزعيم الحاج مصالي و تكلم عن دوره في تحرير "البيان" فقال: "لما تخرجت من كلية الطب في سنة 1942، سعت للعمل في مستشفى مصطفى باشا، و بينما أنا متوجه إلى مكتب مدير المستشفى التقيت برشيد أوعمار (و ليس الشهيد رشيد عمار) ففاجأني بالحديث عن الحزب بالقول أن حزب الشعب في مأساة حقيقية و أن قاداته و هم مصالي و الحسين لحول و مفدي زكريا و كلهم في سجن الحراش، و أن الحزب في حالة فراغ تام. و قال لي أوعمار أن المناضلين يعتمدون علي من أجل إعادة هيكلة الحزب و مواصلة النضال... هكذا بدأت أفكر في الاتصال من جديد بالمناضلين... فصادفت شابين... و هما من المناضلين الأوفياء في حزب الشعب و يتعلق الأمر بمسعود بوقادوم و موسى بولكرو... و طلبت منهما مساعدتي... و إعادة تنظيم الحزب في غياب مصالي... فاتصلت أيضا بمناضل كنت أعرفه و هو شوقي مصطفى... فأصبحنا أربعة.. وكان الحلفاء قد دخلوا الجزائر... و فكرنا في إطلاعهم بواسطة بيان يعرفهم بالشعب الجزائري و رغباته، و أنه شعب يريد الحرية. و قدرنا أنه للقيام بهذه المهمة لا بد من الاتصال بفرحات عباس. و فعلا اتصلنا به و شرحنا له الموقف و ضرورة إرسال بيان للحلفاء... لقد رفض فرحات طلبنا. كان وقتها حديث التخرج من الكلية العسكرية الفرنسية، و قال إنه "غير مستعد لغير كتف البندقية"... عندها قررنا الاعتماد على أنفسنا... و اتصلنا بالقاعدة و أخبرناهم بالفكرة الجديدة و طلبنا منهم أن يوقع كل فرد من الشعب الجزائري على "البيان"... و عندما علم عباس بنشاطنا... دفعنا له مرة أخرى الفكرة و طلبنا منه المشاركة في تحرير البيان، فوافق و قام بمجهودات جارة معنا. و كان هو من حرر البيان. لكن عندما وصلنا إلى النقطة الحساسة و هي النقاط التي تتعلق بحق تقرير مصير الشعب الجزائري، قمت شخصا بتحريرها و هي أولا استرجاع سيادة الشعب و أن تكون مشاركة الجزائريين إلى جانب الحلفاء للدفاع عن وطنهم و ليس كأجراء حرب و نقاط أخرى..."² أنظر إلى:

- بوسلامة محمد "دباغين هو صاحب فكرة البيان"، مجلة المحقق، السلسلة الثانية، العدد 26، من 10 إلى 16 سبتمبر 2006، ص 24.

لم يكشف عنها النقاب و المتعلقة بهذه الفترة الحساسة من تاريخ الحركة الوطنية و بعض رجالها. و في هذا الصدد نرجع إلى ما تضمنته مذكرات "بن يوسف بن خدة" من خلال كتابة: "جذور أول نوفمبر 1954" حيث أن الفكرة التي تداولها "بن خدة بن يوسف" عندما كتب قائلا: "بأن "دباغين" هو الذي عرض على "عباس" فكرة تدوين وثيقة تحت اسم: "إلى القوة المحتلة مهما كانت..." و يضيف أن "دباغين" قد كتب المسودة متعمدا استعمال الأسلوب العنيف... المتطرف، الذي سلمه فيما بعد إلى "عباس".

و كان يعلم مسبقا أن هذا الأخير سيدخل عليه تعديلات، من أجل التخفيف من حدته، تتماشى مع طبيعة و نظرة عباس للأمر...¹ غير أن "التاريخ" لم يعثر على أي أثر لهذه "الوثيقة".² و لكن ما هو حقيقي أن "فرحات عباس" كان يتهيأ لأمر جديد، و هو الانتقال من معسكر الإدماجين إلى معسكر الوطنيين.. دون التلميح لمصطلح "الاستقلال".³

إن هذه الوثيقة المقترحة من طرف إدارة حزب الشعب الجزائري، و التي أدخل عليها فرحات عباس بعض التعديلات، هي التي ستكون في النهاية نقطة الأساس لبلورة البيان المشهور. و من هنا يقطع دابر من أرادوا إلصاق فكرة البيان "بأوغسطين بريك" أو "روبير مورفي".⁴ و المهم في كل هذا هو أن هناك طبقة مثقفة سخرت كل مجهوداتها للظفر بموقف مبدئي من السلطات الاستعمارية من أجل النظر في ظروف الشعب الجزائري. فاستغل النواب نداء التجنيد الذي نادى به كل من "دارلان" و "جيرو" في 11 ديسمبر 1942، و القاضي بتجنيد عدد كبير من المسلمين في الجزائر قد يصل إلى 300000 جندي، و ذلك دون التعرض لمستقبل المستعمرة.⁵

هذا الوضع دفع بفرحات عباس إلى التصريح بأن: "المعارضة الإسلامية تريد أن تكون شريكة في تحديد مصير بلادها بدون أن تكون ملزمة بتقديم تضحيات إضافية..."⁶ فكان ذلك حافزا من أجل التحرك من جديد و تفعيل الحركة المطالبة على أسس الإصلاحات التي وعدت بها فرنسا و لم تفي بها في حينها. فجاءت المذكرة الأولى لـ 20 ديسمبر 1942 تحمل في "معناها الواسع" Lato Sensus شروط مشاركة الجزائريين فالجهود الحربي المعلن عليه من قبل "دارلان" في 12 ديسمبر 1942.⁷ و رفعت من اثني عشرة شخصية وطنية ممثلة للمسلمين إلى السلطات المسؤولة.

¹ - Benkhedda (Benyoucef), Les origines du 1^{er} Novembre..., op.cit., p 90.

² - Stora (Benjamin) et Daoud (Zakya), Ferhat Abbas une autre Algérie..., op.cit, p 114.

³ - Rey-Goldzeiguer (Annie)...., op.cit, p 188.

⁴ - Ibid., p 189.

⁵ - Stora (Benjamin) et Daoud (Zakya), Ferhat Abbas une autre Algérie..., op.cit, p 113.

⁶ - Ibid..., p 113. Voir aussi :

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit, p 558.

⁷ - A.W.O, B, 4476, Pref.d'Oran, CIE N° 677 du mois de décembre 1942.

و من بين ما تضمنته المذكرة، إنجاز قانون سياسي و اقتصادي و اجتماعي جديد للمسلمين، مبني على العدالة الاجتماعية، و يضمن لهم التحرر السياسي. كما أصر على استدعاء مؤتمرا يجمع كل من النواب و الممثلين الكفاء لكل التنظيمات الإسلامية.¹

لكن السلطات رفضت استقبال المذكرة الجزائرية بحجة أن الجزائريين قد أشركوا فيها أطرافا غير فرنسية(و نخص بهم الإنجليز و الأمريكان)، هاته الدول بدورها رفضتها بحجة أنها قضية داخلية تخص فرنسا لوحدها. غير أن ذلك لم يثني من عزيمة "عباس" و النواب، فواصلوا إصرارهم على توصيل مطالبهم لفرنسا، فقاموا بإرسال مذكرة ثانية في 22 ديسمبر من نفس السنة، بعدما أدخلوا عليها بعض التعديلات.² و أوضحوا أن التحرر السياسي المذكور في المذكرة الأولى لن يكون إلا في الإطار الفرنسي؟! إلا أن ذلك لم يشفع لهم، مرة أخرى، أمام السلطات الفرنسية التي تجاهلت تماما المطالب الجزائرية. فلا الجنرال "جيرو" و لا الحاكم العام "بيروتون" و لا "بيرك" كان يهمهم أمر الجزائريين، لأنهم كانوا منشغلين بالحرب على النازية.³

هذا الموقف المجحف للسلطات الاستعمارية ساهم بقسط كبير في بلورت الأفكار الجديدة التي سيتضمنها "البيان" المشهور،⁴ و الذي تعرض لانتقادات عديدة، خاصة من لدن الشيوعيين الذين نسبوه تارة إلى "بيرك"، مدير الشؤون الأهلية، و تارة أخرى إلى "مورفي" الممثل الأمريكي في الجزائر. غير أن فرحات عباس نفى كل ذلك، و شدد على أنه هو صاحب البيان، الذي أطلق عليه اسم: "الجزائر أمام الصراع العالمي: بيان الشعب الجزائري". و هو الذي ألح على استعمال كلمة "البيان" بدل كلمة "عريضة"، نسبة لبيان "كارل ماركس"، لأنه كما قال مدلول كلمة "البيان" أكثر إثارة من غيرها.⁵

تضمن بيان 10 فبراير 1943 خمسة أقسام، تعرض القسم الأول منه إلى إعطاء صورة إجمالية حول الوضع العام بالجزائر منذ دخول الحلفاء. و تناول القسم الثاني أهمية الحريين العالميتين كظاهرة تاريخية قامت من أجل تحرير الشعوب المضطهدة مع التضحيات التي قدمها الجزائريون مدعمة بالأرقام. و في القسم الثالث تم استعراض أصول العلاقة الفرنسية الجزائرية منذ عهد الاحتلال، و ما صاحبها من استغلال على جميع الأصعدة.

و تعرض القسم الرابع إلى سياسات الإصلاح التي باشرتها مختلف الحكومات الفرنسية و فشلها بسبب تعنت الكولون الذين وقفوا حصنا منيعا ضد أي تغييرات من شأنها المساس بمصالحهم. فكانت رؤيتهم محدودة عند

¹ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit, p 558.. Voir aussi :

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, p 680.

² - Julien (Charles André), L'Afrique du nord en marche..., op.cit, p 245.

³ - Ibid..., p 245.

⁴ - في هذا الصدد يقول "أحمد توفيق المدني": "...في شهر جانفي من سنة 1943، اتفق الإخوان، عباس و بن جلول، على عقد اجتماع سياسي يضم النخبة الوطنية الصالحة من رجال الشعب الجزائري لكي تضع أسس لمطالبه... حتى يقول كلمته صراحة في شأن مستقبله، و كنت مدعوا لحضور ذلك الاجتماع، و قد تم إشعار السيد "مورفي" بذلك الاجتماع اتقاء لشر فرنسا... أنظر:

- المدني أحمد توفيق، مذكرات حياة كفاح...، مصدر سابق، ص 367.

⁵ - Stora (Benjamin) et Daoud (Zakya)..., op.cit, p 118. Voir aussi :

- Kaddache Mahfoud..., Histoire du nationalisme..., op.cit, t2, p 642.

مستوى "السيد و العبد". كما تطرق إلى نزول الحلفاء في الشمال الإفريقي، و الجزائر على وجه الخصوص، و ما صاحب ذلك من آمال. ثم أخيراً، القسم الخامس و الذي احتوى على مطالب الجزائريين الرئيسية.¹ و التي تمحورت حول ضرورة تطبيق حق الشعوب في تقرير مصيرها، و تحقيق المساواة، و حرية المعتقد و العبادة و الصحافة، كما طالبت بحق تأسيس الجمعيات، و الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في البلاد، و مجانية التعليم لكافة الجزائريين دون تمييز، و مشاركة المسلمين الجزائريين في إدارة شؤون بلادهم و إطلاق سراح جميع المساجين و المعتقلين السياسيين باختلاف توجهاتهم الحزبية.

إن الاستجابة لهذه المطالب من طرف السلطات الاستعمارية يعتبر شرطاً أساسياً لضمان مساندة الجزائريين الجديدة في الالتحاق بصفوف الجيوش المتحالفة، التي كانت تنهياً لخوض المعركة الفاصلة ضد جيوش المحور، من أجل الدفاع عن الحرية. لأن الجزائريين سئموا من كل الوعود التي كانت تقدمها فرنسا لهم، و ذلك منذ حرب 1914-1918، و التي راحت ضحيتها شعوباً كثيرة.² و ذكرت بعض المصادر الأمنية أن البيان وضع بعد مشاورات بين مختلف مناضلي العمالات الثلاثة.³

هذا ما جسده مقولة عباس عندما صرح قائلاً: "إن البيان تمت المصادقة عليه بالإجماع في فبراير 1943 من طرف ممثلي حزب الشعب الجزائري الذين كانوا موجودين بالعاصمة. و لما لاحظت بأن ذلك غير كاف، قمت بجولة عبر أرجاء الوطن لعرضه على مسؤولي حزب الشعب من أجل الحصول على موافقتهم عليه."⁴ من هنا نتساءل عن ردود الأفعال في العمالة الغربية. كيف تجاوب المناضلون و عامة الشعب مع هذا البيان؟ و ماذا كان يمثل بالنسبة لهم؟

غير أن الصيغة الأصلية لهذا البيان قد تم تعديلها فيما بعد، في حوالي 18 نقطة كانت بمثابة تهدئة للأوضاع،⁵ خاصة بعد الضغوطات التي مارستها الإدارة الاستعمارية، سلمت للحاكم العام "بيروتون" في 31 مارس 1943 من طرف خمسة نواب، الذين قاموا بتوزيع البيان فيما بعد على ممثلي الحلفاء في الجزائر، و أرسلوا نسخة إلى الجنرال "ديغول" في لندن، و كذلك أطلعوا الدولة المصرية بمحتواه.⁶ و قد تمت الموافقة عليه من طرف أنصار حزب الشعب الجزائري و جمعية العلماء و النواب. غير أن هناك من رفض الإمضاء على البيان و نذكر على وجه الخصوص الباشا أغا "بن شيحة".⁷

¹ - سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية...، ج3،...، مرجع سابق، ص 204-205.

² - Collot (Claude) et Henry (Jean Robert), Le mouvement national Algérien, textes 1912-1954, 2^e édition, OPU, Alger, 1981, pp 155-165. Voir texte intégral du manifeste du peuple Algérien.

³ - A.W.O, (BP), Préf..Oran, 201, CIE N° 305, mars 1943.

⁴ - Ferhat (Abbas), La nuit coloniale..., op.cit, pp 142-143.

⁵ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie .contemp..., op.cit..., p 560.

⁶ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 377..., avril 1943.

⁷ - ينتسب الباشا أغا "بن شيحة" إلى عائلة كبيرة في منطقة عين تموشنت، و هو من أكبر أعيان عمالة وهران، وقد تقلد عدد من أفراد عائلته مناصب القايد في منطقة عين تموشنت. لدى يمكن فهم نردده و عدم إمضاءه لوثيقة كانت ستقضي على امتيازات كثيرة بحوزة هذه العائلة.

عرفت الحركة المطالبة الجزائرية في منتصف سنة 1943، تطورات هامة تجسدت على أرض الواقع بقيام فرحات عباس بزيارات خاطفة و سرية إلى العديد من مناطق و مدن البلاد التي كان يرى فيها الدعم الكامل للبيان، فتوجه إلى مدينة مستغانم أين يكون قد التقى ببعض الشخصيات و الأعيان، منهم الدكتور "بن كريتلي" و الشيخ "عدة بن تونس". كما التقى بالشيخ "سي عبد القادر بن تكوك" من زاوية أولاد شافع و ذلك بحضور السيد "عباسة"، حيث كانت نفس المشاعر التي وجدها في تلمسان أيضا.¹

لم تؤثر الإقامة الجبرية على مصالي الحاج، الذي راسل هو الآخر "اللجنة الفرنسية الحرة" برسالة بعث بها في 11 أكتوبر من سنة 1943، من مقر إقامته في "بوغار" (بولاية المدية حاليا)، يشرح فيها الوضع الذي آل إليه 8 ملايين من الجزائريين الذين رغم صرخاتهم المتكررة لكل الحكومات التي توافدت على الجزائر إلا أن وضعهم بقي على حاله. و ماذا فعلت الحكومات؟ لا شيء.²

و رصد "مصالي" في رسالته رغبة و آمال الشعب الجزائري في أن يعيش في كنف الحرية و الديمقراطية و أن يتمتع كباقي شعوب العالم بحقه المشروع. و ليس بالزج بشباب الوسط الطلابي إلى السجون ستقضي فرنسا على طموحاته. حيث كان على حكومة ديغول الجديدة، غداة تحرير فرنسا من السيطرة الألمانية، بأن تقوم بإظهار حسن النوايا تجاه الجزائريين، لكن عوض ذلك تمادت في سياستها الاستعمارية. و هي اليوم تقوم بسجن حتى ممثلي الشعب المنتخبين على غرار سجنها للإخوة "عباس فرحات" و "سايج عبد القادر"، لأنهم ببساطة عبروا عن أفكارهم بكل حرية و ديمقراطية.³

ب- طموحات أحباب البيان و الحرية في تجسيد المشروع الوطني

لقد كانت خيبة آمال النواب، أنصار فرحات عباس على الأقل، و حزب الشعب الجزائري، الذي ظل يعمل في السرية، و أنصار جمعية العلماء كبيرة، أمام الإصرار الفرنسي على تجاهل واقع الشعب الجزائري و حقه في الحرية، الأمر الذي دفعهم إلى تشكيل جبهة موحدة لمواجهة تداعيات هذا القرار، فأنشئوا حركة "أحباب البيان و الحرية" A.M.L في 14 مارس 1944 مهمتها الفورية هي الدفاع عن البيان.⁴ و رفض الحزب الشيوعي الانضمام إلى هذه الحركة بحجة تشكيله لتنظيم خاص به أطلق عليه اسم "أصدقاء الديمقراطية و الحرية" A.D.L المؤيد

¹ - ANOM, Fonds Oran, CIE N° 492 du 17 juin 1943.

² - SHD, Série 1H Algérie, 1H2811..., du 11/10/1943.

³ - SHD, Série 1H Algérie, 1H2811..., du 11/10/1943, lettre de Messali au Pds et Mbrs du CFLN, in SHD, château de Vincennes. Cite aussi par :

- Simon Jacques, Messali Hadj par les textes, EDIF 2000, Alger, 2010, pp 45-46

⁴ - Ferhat (Abbas), La nuit coloniale..., op.cit, p 150.

- غير أن المصادر الأرشيفية الفرنسية قد حددت تاريخ انعقاد مؤتمر أحباب البيان ما بين 3 و 5 مارس، أين أقر المؤتمر في النهاية على تقديم كل قرارات المؤتمر في شكل مذكرة إلى السلطات الأمريكية. و هذا ما يكون قد تم فعلا. أنظر:

- ANOM..., 8cab/106..., note sur les activités..., p 3.

لسياسة الإدماج.¹ فماذا يمثل هذا التنظيم الجديد في مسار الحركة الوطنية و مطالب الشعب الجزائري؟ وكيف تعاملت معه الإدارة الاستعمارية؟

يمثل ميلاد هذه الحركة موقفا من أهم المواقف المناهضة للسياسة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر. و جاءت هذه المبادرة كرد فعل عميق لما تضمنه قرار السابع مارس 1944 تجاه وضعية المسلمين الجزائريين بعيدا عن آمال و طموحات الشعب الجزائري. و المثير في ذلك أنه لم يأخذ مقترحات أقطاب الحركة الوطنية الجزائرية بعين الاعتبار، و كأنه ضرب المطالب المقدمة في البيان و ملحقه عرض الحائط. لكن أخطر من ذلك، فإنه كان موجهها لطبقة متميزة مرتبطة ارتباطا وثيقا مع الإدارة الاستعمارية، و لم يغير من السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر.²

تميزت نهاية سنة 1943 و مطلع 1944، بمجموعة من الأحداث بينت ضرورة التشاور بين القوى الوطنية للقيام بعمل موحد ضد الموقف الفرنسي السلبي من البيان الجزائري و ملحقه، الأمر الذي دفع فرحات عباس ببعث رسالة شديدة اللهجة إلى الحاكم العام "كاترو" الذي رفض استقباله. و راسل أيضا الجنرال "ديغول" بنسخة من نفس الرسالة مصحوبة برسالة أخرى يطلعه فيها بالتصرفات السلبية للإدارة الاستعمارية في الجزائر.³ و أمام هذه الإجراءات التعسفية، قرر النواب عدم التعاون مع الإدارة الفرنسية. و كانت أول خطوة يتخذونها هي الامتناع عن حضور جلسات "المفوضيات المالية".⁴ هذا الموقف اعتبرته الإدارة الاستعمارية تمردا على سلطتها، فأقدم الحاكم العام "كاترو" بحل فرع الأهالي المسلمين بالمفوضيات المالية في 23 سبتمبر، و قام باعتقال "فرحات عباس" و "السايج عبد القادر" بتهمة التحريض و الإخلال بالنظام العام في ظروف الحرب الاستثنائية.

و إذا كان هذا التصرف السخيف من الإدارة الاستعمارية قد أثار غضب الشعب و استياءه، نظرا لأنه كان يعلق آمالا كبيرة على البيان، فنظم مظاهرات شعبية كبيرة عبر مختلف مدن التراب الوطني و ذلك بتحريض من الوطنيين؛⁵ فإنه في المقابل كشف القناع عن حقيقة بعض النواب الذين تراجعوا عن مواقفهم المبدئية في 15 أكتوبر 1943 و كان عددهم 12 نائبا من بينهم نائبان من عمالة وهران هما: "شتتوف عدة" و "طالب عبد السلام".⁶

¹ - Ibid., p 151.

² - Voir le texte intégral de l'ordonnance du 07 mars 1944, dans : Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme Algérien, T2, Annexe 31., op.cit., pp 953-955.

³ - كتب فرحات عباس الرسالة الموجهة للجنرال "ديغول" في 24 أوت 1943، و عرضها على النواب للمصادقة عليها، و احتوت على تهديدات النواب بعدم التعاون مع الإدارة الفرنسية ما لم تتحقق المطالب المقدمة لها. في هذه النقطة طالع كل من:

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme Algérien..., T2, op.cit, p 649.

- A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE, N° 663., septembre 1943.

كما نشر النص الكامل لهذه الرسالة في المرجع التالي:

- Beghou Youcef, Les amis du manifeste et de la liberté..., op.cit., pp 315-316.

⁴ - لقد أنشأت المفوضيات المالية Délégations financières سنة 1898 و وضع حدا لنشاطها سنة 1947. و كانت إحدى المؤسسات الاستعمارية التي اعتمدت عليها فرنسا في الجزائر. و لعبت دور الجمعية، و كانت مكونة من فروع أهلية، و مهمتها انحصرت في التصويت على ميزانية الجزائر.

⁵ - Beghou (Youcef) ..., op.cit, pp 72-76.

⁶ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 696., octobre 1943.

استقبلت مدن عمالة وهران، خبر اعتقال عباس و السايح، باستنكار شديد، و لم يعجب ذلك لا العلماء و لا مناضلي حزب الشعب الجزائري.¹ و قد أشارت تقارير أمنية إلى أن عملية الاعتقال هذه كانت مفاجئة للأوساط الإسلامية في مدينة وهران، و أن المجتمع الجزائري في عمالة وهران و الزعماء الوطنيين يؤيدون تصرف النواب الذي جاء نتيجة عدم تلبية الإدارة الاستعمارية للمطالب الوطنية التي تضمنها البيان.² و استمر الغضب الشعبي على أشده في مدن عمالة وهران، ففي ليلة 26 إلى 27 سبتمبر 1943، ظهرت عدة كتابات على جدران المدن و المؤسسات العمومية في كل من، تلمسان و مستغانم و سيدي بلعباس و غيرها.. تحمل شعارات حزب الشعب الجزائري، و تطالب كلها بإطلاق سراح "فرحات عباس" و "السايع عبد القادر".³ حاول الوطنيون استغلال كل الفضايات التي كانت متوفرة لديهم للمطالبة بالإفراج عن النواب، عباس و السايح، فاستغل وفد من "جمعية الفلاح" التجمع الذي كان ينظمه الشيوعيين لمطالبتهم بتحديد موقفهم من هذه القضية، غير أن النائب الشيوعي "بور تالي" Pourtalet قد رفض ذلك.⁴ نفس العملية قامت بها جماعة من الوطنيين في مدينة تلمسان عندما أقدمت على مقاطعة التجمع الشيوعي الذي نظم في 26 سبتمبر 1943 بمدينة تلمسان.⁵

كما كثفت أجهزة الأمن الاستعمارية من مراقبتها للوطنيين و للمساجد، بعدما توصلت إلى جمع معلومات تفيد بأن المسلمين الجزائريين يخططون للقيام بمظاهرات صاحبة بعد صلاة يوم العيد، 30 سبتمبر أو 1 أكتوبر 1943، سيطالبون فيها السلطات الفرنسية بإقالة الحاكم العام "كاترو" و إطلاق سراح "عباس" و "السايع".⁶ حيث شهدت مدينة معسكر مظاهرات كبيرة في الفاتح من أكتوبر، شارك فيها الأهالي المسلمين، نددوا فيها بحل المفوضيات المالية و اعتقال فرحات عباس و السايح عبد القادر. و سارت المظاهرة عبر شوارع المدينة إلى غاية نصب التذكاري وسط المدينة.⁷

و قد أشارت التقارير الأمنية إلى أسماء المنظمين لهذه المظاهرات، فذكرت كل من: بلحلفاوي محمد ولد بلقاسم، معلم مدرسة ابتدائية، و إسطنبولي مصطفى ولد بن عمر، طالب و أمين سابق لحزب الشعب الجزائري بمدينة معسكر، و قايد حسين ولد الطاهر، رئيس الجمعية الكشفية بمعسكر.⁸ و كان لهذه التظاهرة صدى كبير في كل أرجاء عمالة وهران. و قد جرت أخبار حول حدوث اضطرابات في مختلف أنحاء البلاد، سارع الحاكم العام إلى تكذيبها عن طريق إصداره لبلاغ نشر في الصحف الصادرة في 8 أكتوبر 1943.⁹

¹- A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE, N° 663..., septembre 1943.

²- A.W.O, B 4477, Rapport N° 4364, du 25 septembre 1943.

³- A.W.O, B 4477, Rapport du S/Préfet de Mosta..., N° 389, du 08/10/1943.

⁴- A.W.O, B 4477, Rapport N° 383/S, du 29 septembre 1943.

⁵- A.W.O, B 4477, Rapport N° 288/S, du 27 septembre 1943.

⁶- A.W.O, B 4477, Rapport de police, N° 4449, du 29 septembre 1943.

⁷- A.W.O, B 4477, Rapport de police N° 7964, du 1^{er} octobre 1943.

⁸- A.W.O, B 4477, Rapport de la gendarmerie, section de Mascara, du 2 octobre 1943.

⁹- A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 696..., octobre 1943.

و أمام الحركات الاحتجاجية ، و المظاهرات الشعبية المتواصلة، و تحرك الوطنيين و ضغطهم على الإدارة الاستعمارية، اضطر "كاترو" إلى الإفراج عن "فرحات عباس" و "السايج عبد القادر". بعدها، تحرك عباس في اتجاه تشكيل حركة سياسية جديدة من مسقط رأسه بمدينة سطيف، مطالباً كل زعماء الحركة الوطنية بمدّه يد العون و المساندة من أجل تجسيد المطالب الشعبية، فاشترطت عليه قيادة حزب الشعب أن يستبدل التسمية من "أحباب البيان الجزائري" إلى "أحباب البيان و الحرية" كشرط للانضمام. و فعلاً انضمت شخصيات وطنية تنتمي إلى مختلف التيارات و التنظيمات السياسية و تشارك فيما بينها في جوانب عديدة لوضع حد للمشكل الاستعماري في الجزائر.¹

و من هذا المنطلق تجمعت الحركة الوطنية داخل هذا الفضاء مشكلة جبهة ضد الاستعمار، هدفها التعريف بالبيان الجزائري و الدفاع عنه أمام الرأي العام الجزائري و الفرنسي، و ذلك عن طريق استعمال حبر القلم و قوة الكلمة و الوقوف ضد كل أشكال الاستعمار الوحشية من أجل بلوغ هذه الأهداف. فوضعت قانونها الأساسي المتكون من ثمان مواد كأرضية لبداية العمل،² الذي انطلق من القاعدة إلى القمة بتشكيل لجان محلية و إقليمية و مركزية. و كان لسان حالها جريدة "المساواة" L'Egalité الصادرة منذ 15 سبتمبر 1944. فكانت حركة أحباب البيان و الحرية بحق تجمع وطني.³

إن تأسيس "أحباب البيان و الحرية" في ظرف قياسي لم يتجاوز بضعة أشهر، كان نتيجة لتضافر جهود ممثلي التيارات الوطنية. و لم يكن من السهل على فرحات عباس الحصول على هذا الدعم إلا بعدما اقتنع هو أيضاً، أنه لا يمكن أن ينتظر الكثير من فرنسا، لأن السياسة الإصلاحية التي تنوي تطبيقها ليست إلا لعبة من ألعابها القديمة من أجل ربح الوقت. و كخطوة أولية نحو هذا المسعى الوطني، قام فرحات عباس بالتخطيط لزيارة ميدانية إلى عمالة وهران، امتدت قرابة الخمسة أيام، من 16 إلى 20 مارس 1944،⁴ جاءت مباشرة بعد الإعلان عن ميلاد حركة أحباب البيان و الحرية، كللت باتصالات مثمرة في العمالة الغربية ساهمت إلى حد بعيد في حصول التقارب الوطني حول المسألة الجزائرية.⁵

مع ظهور البوادر الأولى للانتفاضة الشعبية للثامن ماي 1945، تجند "أحباب البيان و الحرية" مرة أخرى حيث شهدت مدينة "أزفون" Azeffoun، عملية انخراط واسعة النطاق مست 50 شخصاً، بفضل النشاط المكثف الذي قام به "المرباط" صدوق محمد، المعروف بانخراطه في حزب الشعب، رفقة السيد "أرحاب عمار" و بمساعدة المساعد الطبي "ماروش" و المترجم القضائي "كرواني".⁶

¹- A.W.O, dossier presse, L'Egalité, du 24/12/1944.

²- Voir le texte intégral de l'association des A.M.L, in Collot Claude et Henry Jean Robert, op.cit, pp 186-187.

³- Mahsas (Ahmed), Le mouvement révolutionnaire en Algérie, de la 1ere guerre mondiale à 1954, éditions Barkat, Alger, 1990, p 171.

⁴- A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 116., mars 1944.

⁵- A.W.O, B 4477, GGA/PRG, N° 2132, Oran le 20/03/1944.

⁶- ANOM, GGA, 8cab/97, télégramme sur la situation politique

ج- الجزائريون يرفضون إصلاحات "ديغول"

كما سيأتي لاحقا، فإن زعماء الحركة الوطنية قد أصيبوا بانتكاسة كبيرة لما قطعت الحكومة الفرنسية الطريق أمامهم بإصدارها لقرار 7 مارس 1944، الأمر الذي جعل جناح منهم - فرحات عباس - و حزب الشعب الجزائري الذي كان لا يزال ينشط في السرية، و أنصار جمعية العلماء المسلمين يقدمون على إنشاء حركة أحباب البيان و الحرية لمواجهة. و في المقابل، وجدت تيارات أخرى انجذبت وراء الخيارات الديغولية لأنها كانت تخدم مصالحها و تحافظ على بعض الامتيازات التي كانت تتمتع بها. أما الشعب الجزائري فقد بات معلقا بفكرة الاستقلال، و ملتفا حول زعماء الحركة الوطنية، لذلك لم تزده المواقف الاستعمارية إلا عزما و إصرارا على مواصلة نضاله لأنه لم يقبل بفكرة إلحاقه بفرنسا. و قد عارض ما جاء في خطاب "ديغول" لأن ذلك وضع حدا لحلمه في إقامة الدولة الجزائرية، و أخطر من ذلك أنه تمادى في فكرته بإلحاق الجزائر بفرنسا.¹

تمثلت أولى الإجراءات المتخذة ضد هذا القرار في توزيع منشائر عبر مناطق عديدة من الوطن تحمل بصمات كل من "فرحات عباس" و "عبد القادر سائح" تحث على مقاطعة الانتخابات في الدائرة الانتخابية الفرنسية، و عدم التسجيل في القوائم الانتخابية الفرنسية، و إذا تم تسجيلهم تلقائيا أن لا يصوتوا. و في السياق نفسه، قام فرحات عباس بزيارة إلى الغرب الجزائري في الفترة الممتدة من 16 إلى 20 مارس 1944.² زار خلالها كل من مدن؛ غليزان، تلمسان، وهران، عين تموشنت، سيدي بلعباس و مستغانم، و كان برفقة "الشيخ إبراهيمي" في غالب الأحيان، مما أعطى أكثر من دلالة لهذه الجولة.

فالبصمة السياسية واضحة و مستقبل البلاد مرسوم على ضرورة تكثيف الجهود الوطنية لتحقيق التكامل بين جميع القوى الوطنية، لذلك نجد أن الإدارة الاستعمارية قد تفتنت لخطورة الثنائي في محاولة الاتصال "بمصالي الحاج" بإقامته الجبرية "بقصر الشلالة" في دائرة تيارت، الأمر الذي دفعها إلى اتخاذ إجراءات تعسفية ضد "الإبراهيمي" الذي طلبت منه العودة إلى تلمسان بحجة أن الرخصة التي بحوزته لا تسمح له بالتنقل بهذه الحرية.³ و بالإضافة إلى اتصاله بعدد من الشخصيات البارزة في الغرب الجزائري، فإن "عباس" شدد على محدودية الإصلاحات التي تقدم بها "ديغول" للشعب الجزائري و اعتبرها لا تلبي مطالب الشعب و لا الحركة الوطنية. و من ثم كانت مبادرته لإنشاء التنظيم الذي عرف باسم "حركة أحباب البيان و الحرية".⁴

كما قام "عباس" بإنشاء جريدة أطلق عليها اسم "المساواة" L'Egalité صدر أول عدد منها في 13 سبتمبر 1944، كانت تقوم بانتقاد سياسة الإصلاحات الهزيلة التي أقدمت عليها فرنسا الاستعمارية. و كان لهذه الجريدة صدا كبيرا في الأوساط الشعبية، عكسه العدد الهائل للنسخ التي كانت تصدر، إذ قدرها العقيد "شون" Shoen بثلاثين ألف نسخة استنادا إلى مصادر رسمية. أما "بول إميل سارازان" P.E. Sarasin فقد قدرها

¹ - Nouschi (André), L'Algérie amère., op.cit., p 139.

² - A.W.O, CIE Oran, bulletin N° 116 du mois de Mars 1944.

³ - A.W.O, CIE Oran, Ibid.

⁴ - راجع عنصر أحباب البيان و الحرية في الفصل الثاني في العنصر: البيان الجزائري أو خيبة الآمال السياسية، ص.

بـ130000 نسخة دون ذكر مصادره.¹ أما "جوليان" فقد اعتمد على مصادر حركة أحباب البيان ليحدد عدد النسخ بـ500000 نسخة.² أما العلماء، فقد عارضوا هم أيضا، كل ما جاء في خطاب "ديغول" و ما تضمنه قرار السابع من مارس. فاعتبروا كل من يقدم على تسجيل نفسه في القوائم الفرنسية مرتدا عن دينه. و كانوا قبلها قد بعثوا بمذكرة إلى لجنة الإصلاحات السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية، يطالبون فيها بإدراج إصلاحات تتعلق بالقضاء الإسلامي و التعليم العربي و تسيير المساجد من طرف المسلمين و اختيار موظفي الأوقاف. و أكدوا على ضرورة تطبيق إصلاحات سياسية واسعة تضمنها البيان الجزائري.³

أما عن موقف حزب الشعب الجزائري، فإن كان مبدئيا مع حركة أحباب البيان و الحرية، إلا أنه عارض بشدة فكرة الدولة الجزائرية داخل الاتحاد الفيدرالي مع فرنسا لأن ذلك يتنافى مع مبادئ الحزب و برنامجه.⁴ و قادة الحزب، أكثر من غيرهم، كانوا يعلمون بالنوايا الحقيقية للإدارة الاستعمارية، بأنها سترفض كل مطالب الجزائريين لأنها لا تتماشى مع تصورهم لمستقبل الجزائر. و بالرغم من ذلك فقد سعت قيادة حزب الشعب أن لا تكون سببا في عرقلة مسيرة أحباب البيان و الحرية، فضلت أن يكون دورها إيجابيا و فعالا من خلال دورها المميز في تأسيس الخلايا عبر المدن الكبرى للغرب الجزائري، كوهرة و معسكر و تلمسان، كما عرفت القرى هي الأخرى عملية انتشار لهذه الخلايا، فنذكر على سبيل المثال كل من؛ زمورة، رأس الماء، حاسين، السوكر، تيغنيف..⁵

لقد مثلت حركة أحباب البيان و الحرية، وسيلة بالنسبة لحزب الشعب للتوغل و الانتشار، بالتالي التستر وراء غطاء قانوني للوصول إلى مختلف شرائح المجتمع الجزائري، و قد لعب كل من "سعد دحلب" و "سويح الهواري"، و هم على التوالي أمناء الخلايا في قصر الشلالة و وهران، دورا بارزا في تقلد مناصب مسؤولية،⁶ إلى جانب منخرطين آخرين في كل من؛ مدن معسكر و تلمسان، و الذين كانوا يمثلون قرابة 80% من عناصر أحباب البيان و الحرية. و قد وصلت نسبتهم إلى 100% في كل من البيض و المشرية، و عين الصفراء.⁷

و من جهته، أمهل الدكتور "سعدان"، مدة ثمانية أيام، لأكثر من 150 ناخب، حتى يتمكنوا من شطب أسمائهم من القوائم التي تم تسجيلهم فيها بمقتضى القرار. كما انسأقت وراء القرار المجموعة المعروفة بولائها للاستعمار دون خجل و لا حياء، معتبرة ذلك في فائدة الشعب الجزائري، و هي طبقة أصحاب الألقاب و الأوسمة و الجاه و المال، خاصة في المدن الكبرى.⁸ و قد قدر عددهم في عمالة وهران بـ7500 شخص، يتوزعون على البلديات المختلطة-4000- و البلديات كاملة الصلاحيات-3500-⁹ أما عن طبيعة النقاش الذي كان

¹ - Aron (Robert) et al., Les origines de la guerre..., op.cit., p 98.

² - Julien (Charles André), L'Afrique du nord en marche..., op.cit, p 299.

³ - Collot (Claude) et Henry (Jean Robert), op.cit., pp 177-183.

⁴ - Ferhat (Abbas), La nuit coloniale..., op.cit, p 150.

- Voir aussi : A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 31 du mois de janvier 1944.

⁵ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 167 du mois de Mai 1945.

⁶ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, p 677.

⁷ - Aïnad Tabet (Redouane), Le 8 mai 1945..., op.cit, p 23.

⁸ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 187 du mois de Mai 1944.

⁹ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 582 du mois de Novembre 1944.

يدور داخل هذه الأوساط الموالية، فهو لم يخرج عن دائرة كيفية تصنيف و تعيين الفئات المؤهلة للحصول على حق هذه "المواطنة"، و نظام المنح و العلاوات العسكرية.. لدرجة أن ذلك دفع بالجنرال "كاترو" إلى التصريح بأن 95% من سكان العمالة الغربية قد قبلوا بالمشروع الإصلاحي.¹

رفض التيار الشيوعي مجارات الأحداث إلى جانب الوطنيين، و بالتالي الانضمام إلى حركة أحباب البيان و الحرية، لأنه ببساطة اعتبر أن قرار 7 مارس 1944 كان يشكل خطوة كبيرة إلى الأمام.² و عليه كان من الطبيعي الطبيعي أن يواصل الشيوعيون دعائهم لفائدة الإصلاحات الواردة في هذا القرار. إلا أن ذلك لم يجد أي صدى في الأوساط الشعبية الجزائرية التي كانت قد اختارت منذ زمن معسكرها. و هذا الفشل الذريع للشيوعيين عبر عنه "عمار أوزقان" الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري عندما صرح قائلا: "علينا أن نعترف بفشلنا في جلب المسلمين إلى جانبنا، و عدم قدرتنا على إيجاد السبل في تحديد منهج اتجاه حركة أحباب البيان و الحرية..³ و بات من الواضح أن الهوة قد اتسعت بشكل كبير بين الوطنيين و الشعب، من جهة، و الاستعمار و أذنايه، من جهة أخرى، الأمر الذي لم يترك أي فرصة أمام الذين خذلتهم وعود فرنسا الكاذبة.

د- ماي 1945 المنعرج الحاسم في تاريخ الجزائر

هناك من الأحداث ما يمكننا تصنيفه في خانة "التحولات العميقة" و في نفس الوقت ضمن المجازر الكبرى التي لطخت سلسلة الجرائم الجماعية التي ارتكبتها فرنسا في حق شعب ذنبه الوحيد أنه خرج للاحتفال بعيد نصر العالم الحر ضد البربرية النازية، كما سماها الأوروبيون.⁴ و في أعقاب البحث عن حياة الشعوب التي تناضل من أجل حريتها و استقلالها، فإن أحداث الثامن ماي 1945 تصب في هذه الخانة كونها مثلت منعطفًا هامًا في تاريخ الحركة الوطنية التي وجدت فيها ذريعة لتحويل كفاح الشعب الجزائري من مسار المطالب السياسية إلى انتهاج أسلوب جديد و هو المطالبة بالاستقلال الكامل مع فرضية حمل السلاح.

تسارعت الأحداث عقب الفترة التي تلت صدور قرار 7 مارس 1944، بحيث أنها سمحت بتجنيد كل القوى الوطنية ضد هذا المشروع الإدماجي، و في نفس الوقت قرعت نواقيس الخطر من طرف الكولون الذين رأوا فيه تهديدا كبيرا على مصالحهم و مستقبلهم في الجزائر. أما عن السلطات الاستعمارية، فإنها كانت على دراية بتدهور الأوضاع الداخلية، الأمر الذي دفعها إلى التشديد على حالات القمع و حالات الحضر و حتى الطوارئ،

¹ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 582 du mois de novembre 1944.

² - Sivan (Emmanuel), Communisme et nationalisme en Algérie, Presses de la fondation nationale des Sciences Politiques, Paris, 1976, p 131.

³ - Ibid., p 132.

⁴ - سعيدي (نصر الدين)، « أحداث 8 ماي 1945 ذكرى تضحيات جسيمة و عبرة كفاح مرير »، مجلة الذاكرة، العدد الثاني، 1995، منشورات م.و.م، الجزائر، ص 30-9.

لتفادي كل أشكال الإنزلاقات المحتملة. و التقارير العسكرية و الأمنية كشفت فعلا عن وجود حالات إثارة، بين اعتداءات و مشاجرات و مظاهرات، كان المجندين المسلمين طرفا فيها.¹

عندما عين الجنرال "هنري مارتين" **Henry Martin** مع نهاية أفريل من سنة 1945 على رأس القيادة العسكرية الفرنسية المربطة بالجزائر، كان ذلك لغرض واحد، و هو: "وضع خطة لبرنامج عمل قمعي و ردعي في وجه أي حركة انتفاضة أو تمرد في شمال إفريقيا..² و قد تم بالفعل تقديم تقرير مفصل للحكومة الفرنسية يشير إلى المناطق المحتملة كبؤر توتر، و من ضمن هذه الأماكن أشار التقرير إلى مدن وهران و جبال تلمسان في الغرب الجزائري.³

و تنام شعور عند الفرنسيين، حكومة و كولون، عندما بدأت تظهر ملامح "العصيان"⁴ ضد كل ما هو فرنسي، زادها ثقلا مراسلة الحاكم العام "إيف شاتنيو" **Yves Châtaignau** إلى كل حكام العمالات و المقاطعات، يحذر فيها من احتمال وقوع اضطرابات كبيرة و خطيرة بين الجزائريين و الأوروبيين، و ذلك عند التوقيع على الهدنة و نهاية الحرب.⁵ و التخوف كان أشد أمام نقص تعداد القوات الفرنسية المربطة بالجزائر في تلك الفترة مما جعل المخاوف تزداد.⁶

شهدت المنطقة الغربية، مع مطلع سنة 1945، مجموعة من الأحداث أظهرت تدمير و استياء الجزائريين من المواقف الاستعمارية المختلفة. فكان رد فعل الوطنيين قوي و واسع التأثير على الأوساط الشعبية لدرجة رفضه للإصلاحات السطحية المقدمة من طرف الاستعمار. و في هذا الشأن لعبت جريدة "العمل الجزائري" **L'Action Algérienne** دورا بارزا في عدة مدن من العمالة.⁷ و تواصلت عملية توزيع المنشير السرية ذات المطلب الاستقلالي و وزع عدد منها في مدينة تلمسان في غضون شهر فبراير 1945، حاملة إمضاء كل من "مختار الجزائري" و "فضيل الورثاني"، و طالبت بالاستقلال التام للجزائر و إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، و كانت دعوى صريحة لتشديد صرح الوحدة المغاربية.⁸

كما اشتد غضب الجزائريين و تدمرهم من الحكومة الاستعمارية، فترجمته إلى واقع معاش ضمن تنوع المواجهات بين الشباب الجزائري و الأوروبي في أي مناسبة تتيح الفرصة لذلك. و حتى الأحداث الرياضية العادية لم تنجوا من هذا الجو المكهرب. فكثيرا ما كانت مباريات في كرة القدم تنتهي باضطدامات عنيفة بين الجزائريين و

¹ - Recham (Belkacem), Les Algériens musulmans dans..., op.cit..., pp 130-131.

² - Simon (Jacques), Messali Hadj par les textes..., op.cit..., p 118.

³ - Kaddache (Mahfoud)..., T2, op.cit, p 698.

⁴ - Aron (Robert) et al..., op.cit, p 105.

⁵ - Noushi (André), L'Algérie amère..., op.cit, p 173.

⁶ - Paillât (Claude), Vingt ans qui déchirèrent la France, le guêpier, éditions Robert Laffont, Paris, T1, 1969, p 52.

⁷ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 122..., mars 1945.

⁸ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 89..., Février 1945.

الفرنسيين بسبب نتيحتها ، و هنا نذكر منها ما وقع في مدن وهران، في 18 فبراير، و مستغانم، في 4 مارس، عندما عمت الفوضى في المدينة عند نهاية مباراة في كرة القدم.¹

حيث أعرب الكثير من الجزائريين عن نضجهم السياسي عندما استقبلت زيارة الحاكم العام إلى مدن المنطقة الغربية ببرودة تامة، بل بالعكس من ذلك، فقد نظمت مظاهرات معادية للوجود الفرنسي في الجزائر في كل من وهران و تلمسان أيام 6 و 7 مارس من سنة 1945، و امتنعت الشخصيات المعروفة بولائها للاستعمار عن حضور مراسيم الاستقبال و حتى الحفلات التي كانت مبرجة لذلك. و قد ذكرت المصادر الفرنسية حادثة امتناع فرقة العيساوية عن عزف النشيد الفرنسي في مراسيم زيارة الحاكم العام إلى منطقة تلمسان.² واصل "شاتنيو" زيارته عبر مدن المنطقة الغربية، فزار كل من ندرومة و الغزوات و بني صاف في 8 مارس، ثم توجه بعد ذلك إلى مدينة سيدي بلعباس و بلدية رأس الماء في 9 مارس، حيث وقف على حقيقة الإصلاحات الوهمية التي كان قد باشروها. فوجد الجزائريين غير مستعدين لتنازلات جديدة بل أكثر من ذلك جاهزين لمواجهة عسكرية مع الفرنسيين، و منه أخذ البعض في اقتناء الأسلحة.³

تواصلت موجة الغضب الشعبية ضد الاستعمار و سياسته العنصرية، و قد جسدتها المناوشات الجسدية التي كانت تجمع بين الجزائريين و الفرنسيين في الكثير من الأحيان، منها ما حدث في وهران و تلمسان خلال شهر مارس 1945.⁴ فكانت هذه الأحداث تعبيرا واضحا عن مواقف سياسية شجاعة، و برهنت عن حالة الاضطراب و القلق الذي انتاب فرنسا الاستعمارية، من إدارة و كولون، و هي على أبواب الاحتفال بالنصر على النازية و التخلص من الشبح الألماني.

أما أحداث "ريبل" **Reibell**،⁵ قصر الشلالة حاليا، فكانت أكثر تأثيرا على الإدارة الاستعمارية من حيث أنها جعلت فرنسا تفقد هبتها أمام الجماهير الشعبية التي رفضت عملية توقيف زعماء من حزب الشعب الجزائري، فأقدمت على إخلاء سبيلهم أمام عجز الشرطة في منع تلك التجمعات و الاحتجاجات. ذكر البعض من المؤرخين أن هذه القضية افتعلتها السلطات الفرنسية للقضاء على حركة أحباب البيان و الحرية،⁶ أما البعض

¹ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 122..., mars 1945.

² - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 122, mars 1945.

³ - A.W.O, (BP), P/O, 201, CIE N° 42, janvier 1945.

⁴ - لقد ذكر كل من "قداش" و "رشام" هذه الأحداث التي عبرت بصدق عن رفض الجزائريين فكرة الوجود الاستعماري على أرض الجزائر. أنظر:

- Recham Belkacem..., op.cit..., pp 130-131.

- Kaddache Mahfoud..., T2..., op.cit..., p 697.

⁵ - لقد كان لوجود "مصالي الحاج" في هذه البلدة من دائرة تيارت، تأثيرا كبيرا على سكانها، الذين تجمعوا لديهم طاقات هائلة في نصرة القضية الوطنية. أنظر:

- Rey Goldzeiguer Annie..., Aux origines de la guerre op.cit..., pp 244-247.

- Kaddache Mahfoud..., Histoire du nationalisme T2..., op.cit..., p 696.

⁶ - قبل سفره إلى فرنسا تلقى "شاتنيو" طلبا من "جاك بيرك" يقضي بحل حركة أحباب البيان و الحرية. أنظر:

- ANOM, série H, 9H44, Note secrète de Berque jointe à la demande de dissolution des AML, du 26 avril 1945.. (Citée aussi par : Rey Goldzeiguer Annie, Aux origines de la guerre..., op.cit, pp 244-245).

الأخر فوجد فيها حدث سياسي هام¹ دل على النفوذ الواسع الذي بات الوطنيون يتمتعون به في الأوساط الشعبية الجزائرية، و ما قضية "مؤامرة شرشال" إلا دليل على ذلك.

إن الأجواء المتوترة التي صاحبت مطلع شهر ماي 1945 في الجزائر كانت كلها توحى بأن شيئا ما يحضر له في الخفاء و هو على وشك الانفجار. و لم تكن الاحتفالات المنظمة على شرف الحلفاء بمناسبة انتصارهم على النازية سوى حلقة من المخطط الاستعماري للإبقاء على المستعمرات عامة، و الجزائر خاصة، تحت جناحه لمواصلة استغلالها أكثر فأكثر. بالرغم من عدم سماح السلطات الاستعمارية للوطنيين بالمشاركة في هذا الاحتفال الذي كان يفترض أن يكون عيد الانتصار على قوى الظلم و الطغيان، إلا أن حركة أحباب البيان تشجعت بتفجيع من حزب الشعب الجزائري، في تنظيم مظاهرات سلمية كبرى عبر كامل التراب الوطني يوم الثامن من ماي 1945. كما شهدت المنطقة الغربية، كباقي المدن الجزائرية الأخرى، تنظيم مظاهرات تسعى إلى تحقيق نفس الأهداف الوطنية التي جمعتها الحركة الوطنية طوال ربع قرن من الزمن. غير أن السلطات الاستعمارية واجهتها بأبشع و أعنف طرق تشهد عليها المجازر الدامية التي عرفتها المدن الجزائرية.²

كانت المناسبة مواتية للوطنيين من أجل تنظيم مظاهرات للتعبير عن تمسكهم بالمطالب السياسية المتمثلة في رغبتهم في الاستقلال. فكانت احتفالات عيد الشغل منبرا هاما لإيصال هذه المطالب إلى السلطات الفرنسية و الحلفاء معا، و قد تم توزيع منشور إلى الشعب يحمل عنوان "أيها الإخوة الجزائريون" يصف الحالة التي باتت عليها فرنسا الإمبريالية.. التي أصبحت تحفر قبرها بنفسها.. و هي بذلك على وشك الزوال قريبا..³

فخرجت المسيرات السلمية لإحياء الذكرى، خاصة في مدينة وهران أين تم تنظيم تجمعين أحدهما في "ساحة الصحراء" بحج الحمري نشطه "معمر عبد الله" و هو أحد الأعضاء القداماء في صفوف حزب الشعب. أما التجمع الثاني، فكان بمثابة محاضرة نظمت في مقر حركة أحباب البيان و الحرية الكائن بالمدينة الجديدة، أين استمع الحاضرون إلى حوصلة حول تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية من ظهور نجم شمال إفريقيا إلى غاية تأسيس فروع أحباب البيان و الحرية. كلف "حمو بوتليليس" من طرف الوطنيين بالتنظيم و التنسيق بين التجمعين حتى يتسنى

¹ - Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, p 696.

² - كانت المصادر الاستعمارية قد أشارت منذ مدة إلى تحضير الوطنيين الجزائريين لمسيرة كبيرة بمناسبة الإعلان عن نهاية الحرب العالمية الثانية من برلين في يوم الثامن ماي 1945. لذلك اتفق كل من أحباب البيان و العلماء و المصاليون على السير جنبا لجنب في ذات اليوم للمطالبة بحقوق الجزائريين. و كان من بين المنظمين لهذه المسيرة كل من: دردور جمال و بن زكري سعيد و حاج سعيد شريف و أحمد يحيى حسين و درويش عبد الحميد، و كان الاتفاق على أن تكون الانطلاقة من المكان المعروف "بسيدي عبد الرحمان". غير أن "دردور جمال" اتصل باللجنة المركزية بالجزائر التي بدورها أطلعت على قرار توقيف هذه المسيرة، و عليه قبل كل ذلك، أن يقدم طلبا رسميا للمشاركة في هذه الاحتفالات للحاكم العام الفرنسي. و فعلا، قام "دردور" بالاتصال هاتفيا؟؟؟ من منزله بمركز الاستعلامات و الدراسات يوم الثامن ماي ليطلب رخصة للمشاركة مع أحباب البيان و الحرية في هذه المسيرات. غير أن طلبه قوبل بالرفض من طرف حاكم عمالة قسنطينة، الذي حذره من الإقدام على ذلك. و أكثر من ذلك، هدده باستعمال القوة في حال نشوب أية حوادث. أنظر:

- ANOM, GGA, 8cab/97, Projet de manifestation nationaliste à l'occasion de la proclamation de la fin des hostilités, Constantine le 8 mai 1945.

³ - A.W.O, B 1413, Rapport de police N° 192/S du 1^{er} mai 1945.

لجميع حضور التظاهرات. و فعلا عند انتهاء التجمع الأول، توجه الآلاف¹ من الجزائريين إلى المدينة الجديدة حاملين لافتات كتبت عليها شعارات وطنية واضحة تطالب بإطلاق سراح مصالي الحاج و المعتقلين..و أيضا بأن الجزائر حرة..غير أن هذه المسيرات اصطدمت بالحواجز الأمنية التي كانت قد نصبتها الشرطة الاستعمارية لمجابهة أي طارئ، و كانت تعليماتها صارمة في حق الوطنيين من حزب الشعب و أحباب البيان، أن لا يترك لهم مجال للتعبير عن شعارات انفصالية أو المساس بوحدة الإمبراطورية الفرنسية.² فأطلقت الشرطة النار على المتظاهرين مما أدى إلى مقتل شخص و خمسة عشر جرحيا.فانصرف الجمع دون الرد وفقا للتعليمات التي كانت قد أصدرتها قيادة الحزب.³

غير أن تقارير الشرطة الاستعمارية نفت ذلك و أيدت أطروحة مفادها أن المتظاهرين واصلوا تهجمهم على الشرطة منادين بشعارات موالية لألمانيا و هتلر.⁴ محملة بذلك المسؤولية لحركة أحباب البيان و الحرية و إلى زعيمها "فرحات عباس".⁵ كما بقيت مدينة وهران بعيدة عن تظاهرات الثامن ماي خوفا من وقوع اصطدامات كتلك التي عرفتها المدينة في الفاتح من ماي، خاصة و أن المتظاهرين الجزائريين لا زالوا على وقع التحرشات العنصرية للشرطة الاستعمارية.⁶

انطلقت مسيرة حاشدة من الحي العربي Quartier arabe للمدينة تضم قرابة 4000 متظاهر، منهم 600 امرأة، و كانوا في تمام الانضباط و التنظيم، رافعين لافتات كتبت عليها شعارات مثل: "الجزائر حرة" و "أطلقوا سراح مصالي" و "المساواة للجميع في الحقوق".⁷ و انطلقت زغاريد النسوة مدوية سماء المدينة بحماسة قل ما شهد لها نظير. و كان يسمع من حين لآخر لحن لأناشيد وطنية تهتف باستقلال الجزائر.

¹ - اختلفت الأرقام بين المصادر و المراجع حول عدد الجزائريين الذين ساروا من حي الحمري إلى المدينة الجديدة لحضور التجمع الثاني الذي نظمته حزب الشعب الجزائري بمناسبة ذكرى عيد العمال و انتصار الحلفاء فهناك من ذكر عدد 10000 شخص، و هناك من تحدث عن عدد 800 شخص فقط.أنظر كل من:

- A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 190 du mois de mai 1945.
- Ainad Tabet Rédouane, Le 8 mai 1945 en Algérie, op.cit., pp 264-266.
² - Rey Goldzeiguer (Annie), Aux origines., op.cit., p 252.

³ - هذه المعلومات أدلى بها السيد "سويح الهواري" عضو بارز في حزب الشعب، في يوم 23 أكتوبر 1986. (أنظر: بلوفة جيلا لي، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص132).

⁴ - هذا الموقف كان معهودا من مصالح الشرطة الاستعمارية التي كانت تنعت "بالمناوئ للسلطة الفرنسية" كل ما من شأنه يجر إلى مطالب الوطنيين.و الهدف من كل هذا هو محاولة الربط بين النازية و زعماء الحركة الوطنية حتى يبدو للجميع أن الوطنيين يعملون لصالح ألمانيا النازية.و الحقيقة أن هذا التصرف لم يكن جديدا بل ظهر حتى قبل أن تندلع الحرب العالمية الثانية.أنظر:

- A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 190 du mois de mai 1945.
⁵ - Kaddache.(Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, p 701.

⁶ - هذه الشهادة أدلى بها السيد:مصطفى شوقي.المزيد من المعلومات أنظر:

- Kiouane Abderrahmane, Moments du mouvement., op.cit, p 116.

⁷ - في هذا الباب أنظر كل من:

- Ainad Tabet Rédouane, Histoire d'Algérie., op.cit, pp 231-232.
- A.W.O, (BP) P/O, 201, CIE N° 190., mai 1945.

كما نظمت مظاهرة مماثلة في مدينة تلمسان تحت راية أحباب البيان و الحرية، حيث جاب قرابة 2000 متظاهر مختلف شوارع المدينة مرددين الأناشيد الوطنية و رافعين سبابة اليد اليمنى إلى السماء.¹

شهدت مدينة مستغانم، حسب المصادر الفرنسية المنشورة، خاصة منها نشرات مركز الدراسات و الاستعلام، مظاهرات مماثلة، رفع فيها المتظاهرون الجزائريون لافتات مكتوبة باللغتين العربية و الفرنسية، حملت شعارات مثل: "تسقط الفاشية و الامبريالية" و "العفو الشامل" و أخرى كانت ترمز لمنظمي المسيرة كتب عليها "أحباب البيان و الحرية". و توجه المتظاهرون إلى وسط المدينة أين قاموا بوضع إكليل من الزهور فوق قبر الجندي المجهول. و تفرق الجمع بدون نشوب أي حوادث.²

و قد اختلف الأمر بالنسبة لمدينة تيارت، أين أثارت أجواء التظاهرة حفيظة الأوروبيين، مما أدى إلى نشوب مناوشات بين الطرفين. لكن سرعان ما تدخلت الشرطة الاستعمارية لتفرقة جموع الجزائريين و وضع حد للمظاهرة. غير أن الذي لم يكن في منطق العقل هو إقدام السلطات الاستعمارية في نفس اليوم على توزيع الأسلحة و الذخيرة على الأوروبيين في مقر البلدية.³

يقول "محمد قنانش": "فيما يخص القطاع الوهراني فقد كانت الأوامر واضحة منذ البداية بحيث لا تدع مجالاً للشك و لا للتأويل، لقد كانت أوامر المسؤولين الوطنيين تصب في تنظيم مظاهرات كبيرة و سلمية و تفادي كل الاستفزازات مهما كان مصدرها، و هذا ما تم فعلاً."⁴ غير أنه أمام الوحشية التي واجهت بها السلطات الاستعمارية مظاهرات الثامن ماي بشرق البلاد و التي أودت بحياة الآلاف من الجزائريين، ارتأت الإدارة المركزية لحزب الشعب الجزائري، في جلسة سرية و مغلقة تحت رئاسة دباغين الأمين، و بحضور كل من، طالب محمد و مزغنة أحمد و عبدون محمد و شرشالي الحاج، ضرورة توسيع الانتفاضة.⁵ كما أرسلت قيادة الحزب إلى المنطقة الغربية كل من "فيلاي عبد الله" و "محفوظي" حاملين معهم قرار الانتفاضة.⁶

و دائماً حسب شهادات البعض من الذين عايشوا الحدث، و منهم "رمضان أوصالح"، فإن هذا القرار تبعه قراراً مضاداً يلزم الجميع توقيف كل العمليات العسكرية التي صدرت عن نفس القيادة.⁷

لكن ما لم يكن في الحسبان، هو عدم وصول الأمر المضاد إلى مناضلي مدينة سعيدة الذين اكتفوا فقط بالبيان الأول الذي يطالبهم بإحداث اضطرابات عارمة في المدينة، و القيام بعمليات اغتيال ضد المسؤولين الفرنسيين؟؟¹ و فعلاً تجسدت العملية الثورية في موعدها المحدد.

¹ - لقد ذكر السيد "محمد قنانش" في هذا الصدد بأن جماهير كبيرة شاركت في هذه المظاهرات، و كانت تردد الأناشيد الوطنية. و يعتبر "قنانش" أحد الذين شاركوا في هذه المظاهرات. للإطلاع على الموضوع أنظر كل من:

- Ainad Tabet Rédouane, Le 8 mai 1945 en Algérie, OPU, Alger, 1985, p 197.

- A.W.O, CIE N° 190.., op.cit.

² - A.W.O, CIE N° 190.., op.cit.

³ - Ainad Tabet (Rédouane), Le 8 mai 1945.., op.cit, p 223.

⁴ - Ibid., p 197.

⁵ - عياد (محمد)، « 8 ماي 1945 و حقوق الإنسان » جريدة الشعب، العدد 12224، الجزائر، 8 ماي 2000.

⁶ - Kaddache.(Mahfoud), Histoire du nationalisme.., T2, op.cit, p 711.

⁷ - Kiouane (Mohamed), Moments du mouvement.., op.cit, p 192.

اجتمعت خلية الحزب المحلية برئاسة "ميموني لحسن" و حددت الأهداف و وزعت المهام على الأفواج الأربعة التي جهزت للعملية، و انطلق الجميع في 18 ماي على الساعة الحادية عشرة ليلا، يقودهم فوج المدعو "إبراهيم أحمد"، الذي كانت مهمته مكتب شيخ البلدية، فتم إضرام النار فيه و في قاعة الاجتماعات، بعد جمع مجموعة من الوثائق و الآلات الرقنة، بينما اهتم فوج ثاني بقطع الأسلاك الكهربائية لتفادي أي اتصال من و إلى المدينة، الأمر الذي جعلها مدينة معزولة عن العالم الخارجي. أما المجموعة الثالثة فقد أوكلت إليها مهمة تخريب السكة الحديدية، ولكن دون نتيجة. و المجموعة الرابعة نجحت في حرق مستودع للخشب كليا.²

إن الاستنتاج الذي يمكن أن نخلص إليه، بغض النظر عن نتائج أحداث سعيدة، هو الخلل الذي أصاب المراكز القيادية لحزب الشعب في مرحلة جد حساسة من تاريخ الحركة الوطنية، أدى إلى عدم القدرة على تقدير الظروف و بالتالي الإخفاق في التنسيق. الأمر الذي يطرح أكثر من سؤال حول الأوامر التي أصدرتها قيادة حزب الشعب إلى القاعدة. هل هي تعميم الانتفاضة؟ أم إلغائها؟³ و مهما يكن من أمر، فإن هذه الأحداث قد تركت صدى إيجابيا في الأوساط الجزائرية، و في المقابل أحدثت هلعا كبيرا في أوساط الكولون و كان لها وقع سيء على الإدارة الاستعمارية، التي راحت تكثف من عمليات المراقبة و البحث عن المتسببين فيها.

و تمكنت مصالح الأمن الاستعمارية من العثور على بعض الوثائق لحزب الشعب الجزائري تحوي على قوائم المنخرطين الذين تم اعتقالهم مع مطلع شهر جوان 1945، و قدر عددهم بـ 75 مناضلا.⁴ و سمح التحقيق الذي انطلق في مدينة سعيدة منذ 6 جوان، من التوصل إلى معلومات ذات أهمية بالغة تتعلق بحزب الشعب الجزائري، مما دفع بالإدارة الاستعمارية إلى تعميم تحرياتها إلى كامل تراب العمالة الغربية، و التي استمرت إلى غاية نهاية جويلية 1945.⁵ و قد بلغ عدد المعتقلين من صفوف حزب الشعب الجزائري عبر كل مدن الغرب الجزائري حوالي 569 معتقلا قدموا كلهم إلى قاضي التحقيق بالمحكمة العسكرية بوهران.⁶

أظهرت صور القمع الممارس ضد الشعب الجزائري، من خلال أحداث ماي 1945، الوجه الحقيقي للاستعمار الفرنسي الرافض لأي نوع من أشكال التعبير السياسي التي كانت تهدف من وراءها الحركة الوطنية إلى استعادة أرض الأجداد و معها الحرية.⁷ و لأسباب مختلفة، اتفقت كل الأطراف الاستعمارية، من إدارة و كولون و

¹ - هذه الشائعات ترددت في العديد من الكتابات الفرنسية و الجزائرية و التي نقلتها عن تقرير قدمته أمانة الحاكم العام في 8 أكتوبر 1945. أنظر:

- Ainad Tabet Rédouane, Le 8 mai 1945, op.cit., pp 64-66.

² - في هذا الموضوع طالع كل من:

- Ainad Tabet Rédouane, Le 8 mai 1945..., op.cit, pp 66-67.

- Aron Robert, et a..., Les origines de la guerre d'Algérie..., op.cit, pp 157-158.

³ - ANOM, 8cab/97, Constantine le 18 mai 1945.

⁴ - Ainad Tabet (Rédouane), Le 8 mai 1945..., op.cit, pp 67-68.

⁵ - A.W.O, (BP), P/O, 201 CIE N° 237.. juillet 1945.

⁶ - Ibid.

⁷ - Kaddache (Mahfoud) et Sari (Djilali), L'Algérie dans l'Histoire- 5- OPU- ENAL, Alger, 1989, p 89.

حتى حكومة المقاومة، على مبدأ السيادة الفرنسية على أراضي إمبراطوريتها. لذلك فقد أيدت هذا الأسلوب القمعي البشع، و في نفس الوقت حملت الحركة الوطنية الجزائرية مسؤولية ما حدث في ماي¹.
لقد قامت المصالح الأمنية الفرنسية عقب انتفاضة الثامن ماي 1945، بحملة تفتيش واسعة على الأوساط الوطنية المنتمية لحزب الشعب الجزائري. و هكذا فقد عثرت في مدينة "جيجل" على مسدسين "كولت" و رشاشتين "ستون" و رشاشين "برونينغ" مع 2500 خرطوشة، بالإضافة إلى بندقية حرب بـ1500 خرطوشة و 3 قنابل يدوية. بينما في مدينة "بجاية"، فقد عثر على أسلحة متنوعة منها المسدسات الأوتوماتيكية و الرشاشات "ستون" و جهاز نظار. و بعد استجواب العناصر التي ألقى عليها القبض، اعترفت بقرب وصول كمية معتبرة من الأسلحة بقيمة 100000 فرنك².

و في المقابل حاولت السلطة الاستعمارية التخفيف من حدة تأثيرات هذه الأحداث، و راحت تبحث عن سبل لتهدئة الأوضاع في خطوة نحو خلق أجواء الثقة من جديد بينها و بين الشعب الجزائري و احتواء مطالب الحركة الوطنية. غير أن سياسة فرنسا لم تخرج عن المعهود، في إشارة إلى مشاريع بلوم-فيوليت و قرار 7 مارس 1944. فاستمرت في خططها الوهمية و انشغلت بوضع قوانين و مشاريع كفيلة بضمان بقائها في الجزائر، و عملت على وضع مشروع لكافة مستعمراتها أطلقت عليه اسم "الإتحاد الفرنسي"، قدمته للاستفتاء في الجزائر في أكتوبر 1946، لم يلق تجاوبا من الجزائريين الذين رفضوه من الأساس و كان تعبيرهم عن ذلك بنسبة 4,62%³.
من هذا المنطلق، بدأ الوطنيون يدركون النوايا الحقيقية للاستعمار الفرنسي الذي كان يريد الإبقاء على الجزائر أرض فرنسية و يربط مصيرها بمصير الشعب الفرنسي إلى الأبد. و كانت خلاصة ذلك أن المساواة التي تغنت بها فرنسا لم تكن في الأصل سوى خديعة جديدة تضاف إلى سجلها الشري، فتيقن الجميع أن العمل السياسي السلمي، وحده، لن يؤدي إلى الاستقلال، و اعتبر حزب الشعب الجزائري أنه من واجبه التخلي عن العمل السري و الخروج علنا إلى الممارسة السياسية، حتى يتسنى له التحضير للكفاح المسلح الذي يبقى الهدف النهائي للحزب⁴.

تميزت سنة 1945 بمحطات هامة في تاريخ الشعوب المغاربية. فبقدر أهميتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، كانت كذلك بالنسبة للمسار العام للحركة الوندوية المغاربية من القاهرة. حيث وصلها "الحبيب بورقيبة"

¹ - يتساءل أحد المؤرخين الفرنسيين عن التناقض الذي حصل في وجهة النظر الفرنسية الرسمية لهذه الأحداث، و هل أن مقتل مائة أوروبي يؤسس لكل المسلمين الذين قتلوا في هذه المجازر؟؟ حتى أنه يقارن نط القتلى بما حدث في باريس أثناء قيام الثورة الفرنسية، إذ كان معدل 400 إلى 500 قتيل يوميا، مما جعل الأمر مجزرة يومية حقيقية. للمزيد من المعلومات طالع كتاب:

- Planché Jean-Louis, Sétif 1945, histoire d'un massacre annonce, chihab éditions, Alger, 2006.

² - ANOM, GGA, 8cab/106, LB/EN, N° 1504/CDP, Alger le 31 juillet 1945, p 4.(rapport de 5 pages).

³ - Hauchecorne (François), « L'Union Française, espoir d'hier, déception d'aujourd'hui, réalité de demain », In Consciences Algériennes, Fév.-Mars 1951, pp 09-17.

⁴ - Kaddache (Mahfoud) et Sari (Djilali)..., L'Algérie dans l'histoire..., op.cit..., p 89.

من تونس و "الشاذلي المكي" من الجزائر، ثم لحق بهم مع مطلع سنة 1946 مجموعة من الشباب التونسي و وفد من شمال المغرب. فالتحم الشمل و بدأ التفكير في مشاريع تقرب الرؤى بين الزعماء الوطنيين في كل من تونس و الجزائر و المغرب من أجل توحيد المكاتب في الخارج و إظهار التضامن المغربي بالمظهر اللائق به خدمة للقضية التحررية. فكان ذلك بادرة لعقد مؤتمر المغرب العربي.¹

2- انعكاسات لقاء "أنفا" على المغاربة

فتحت عملية الإنزال أفقا جديدة في التاريخ السياسي للمغرب. هذا ما وقف عليه الوطنيين الذين لم يخطئوا في ذلك، و اعتبروا أن وجود قوات أجنبية، غير الفرنسية، من شأنه أن يمثل مرحلة جديدة في كفاحهم. كما أدى وجود الحلفاء إلى حدث بارز و هو عقد مؤتمر "أنفا" بالدار البيضاء في جانفي 1943، و الذي جمع الرئيس الأمريكي مع رئيس وزراء بريطانيا، الهدف منه إعطاء بعد جديد للحرب ضد الألمان و كذلك، تنظيم لقاء بين الجنرالين "ديغول" و "جيرو"، لوضع حد للنزاع القائم بينهما، خاصة و أن "جيرو" كان يحكم قبضته على السلطة العسكرية و السياسية في الجزائر و كان دائما في مواجهة قائد فرنسا الحرة.

يرى "جوليان"² أن الملك المغربي خص بلقاءين مع روزفلت، و كان الثاني الذي جمع بينهما في يوم 22 جانفي، و بحضور رئيس الوزراء البريطاني تشرشل و في غياب المقيم العام في المغرب الجنرال "نوقس". هذا الاجتماع ألقى بضلاله على التقلبات التي كانت تمر بها السياسة الفرنسية في تلك الفترة و التي سيطر عليها الصراع حول السلطة بين مختلف الأطراف المتنازعة حتى و إن كان المقيم العام الفرنسي في المغرب، الجنرال "نوقس" لا يمثل شيئا في نظر السلطات الأمريكية.³

كما تعهد الرئيس الأمريكي بمساعدة المغرب سياسيا و اقتصاديا، بعد نهاية الحرب حتى يسمح له بتحقيق استقلاله. هذا ما تحدث عنه "أبو بكر القادري"، أحد الوجوه البارزة في الحركة الوطنية المغربية، عندما أشار إلى اجتماع السلطان بالوطنيين المغاربة حول: "الأفكار التي يجب طرحها في هذا المؤتمر و كيفية استغلال هذه الفرصة التاريخية..⁴ و يقال بعد ذلك، أن السلطان المغربي يكون قد صرح للجنرال "باتون" Patton: "حقيقة، رئيسكم رجل عظيم، و صديق حميم لي و لشعبي، فشخصيته متميزة عن الآخرين..¹

¹ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 375.

² - Julien (Charles André), Le Maroc face aux impérialismes..., op.cit., p 189.

³ - اهتز عرش فرنسا منذ بداية الحرب عندما أقدم الألمان على احتلال باريس في جوان من سنة 1940. عندها، هربت حكومة بأكملها إلى بريطانيا لتواصل الكفاح من هناك، بينما استغل الباقية هذه الظروف لإبرام اتفاقية "الاستسلام" التي أدت إلى قيام حكومة فيشي. هذه الحكومة عملت طول فترة حكمها على ولائها للألمان، و محاربتها لكل السياسة الفرنسية السابقة. غير أن الأمور تغيرت بعد نزول قوات الحلفاء على شواطئ شمال إفريقيا، مما فتح الباب على مصراعيه لاحتدام التنافس على السلطة بين مختلف جنرالات فرنسا، و قد تكون حادثة اغتيال الجنرال "دارلان" في الجزائر في ديسمبر 1942، إحدى المخططات الهامة في هذا الصراع. أنظر:

- Charles de Gaulle, Mémoires de guerre, L'Unité 1942-1944, Plon éditions, Paris, 1956, pp 80- 84.

⁴ - ورد هذا الكلام في جريدة "الرأي" المغربية التابعة لحزب الاستقلال المغربي. أنظر:

غير أن ما كتبه "غلاب" في كتابه: "تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب.." يطرح أكثر من سؤال. إذ يقول: "تعددت الروايات عن هذه المقابلة حتى إن بعضها تزعم أن الرئيس "روزفيلت" أوصى الملك بالمحافظة على البلاد، و ألا يسمح للأجانب أن يمتصوا ثروتها المعدنية خاصة. و إن المغرب يجب أن يطور إمكانياته الاقتصادية لمنفعته الخاصة، و إن حكومة ذات سيادة يجب أن يكون لها إشراف كبير على موارد الثروة في بلادها.. و كان الملك مسرورا من هذه المقابلة..²

و حتى و إن كان "روزفيلت" ينظر إلى المستقبل و إلى ما بعد نهاية الحرب، و أن المغرب كان جزء من الإستراتيجية المستقبلية للولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الحقيقة التي لا بد أن يقال هنا، تكمن في الموقف الذي أبداه السلطان المغربي حتى في أحلك الظروف التي كانت تمر بها فرنسا. إذ بالرغم من عدم حضور الجنرال "نوقس" لقاء "أنفا"، إلى جانب الملك، فذلك لم يدفع بالسلطان إلى استغلال الموقف لصالح بلاده خاصة في ظل الانشغالات الكثيرة التي ميزت الحياة السياسية الفرنسية.³

إن هذا الوضع الجديد، أعطى للسلطان المغربي القوة و القدرة على التحدث مع الدول الأجنبية باسم شعبه، الأمر الذي وضع اتفاقية 1912 على المحك.⁴ لقد كتب الكثير عن هذا اللقاء، و الكل ذهب بتأويلاته و انتقاداته و دعمه للكلام الذي قيل أو الوعود التي أعطيت للمغاربة، غير أن "برنار" يوجز ذلك في الكلمات التالية: "... نستخلص من لقاء "أنفا"، الكلمات التاريخية، حقيقة كانت أم مزيفة، التي ترسم لنا طابع أو تلخص

- Interview de Kadiri Abou Bekr, In « **Opinion** », quotidien d'informa.. du Parti Istiqlal, N°, du 11 janvier 1991.

¹ - Patton (Georges), Les Carnets secrets..., op.cit., p 128.

² - ما كتبه "غلاب" لا يتعارض مع أي كتابة من الكتابات التي تحدثت في الموضوع. بل بالعكس، فإنها كلها تتقاطع في نفس الفكرة، خاصة إذا سلمنا بأن السلطان المغربي كان لوحده مع روزفيلت. و حتى فرحه من المقابلة قد جعله ينتقل إلى الممارسة السياسية الحقيقية مع وجود شخصيات مماثلة. أنظر كل من:

- غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية.. حتى استرجاع الصحراء، ج1، الدار البيضاء، 2000، ص 248.

- Le Tourneau Roger, Histoire du Maroc moderne..., op.cit., pp 216-217.

³ - Le Tourneau (Roger), Histoire du Maroc moderne..., op.cit., p216.

⁴ - تضمنت اتفاقية الوصاية التي أبرمت في 30 مارس من سنة 1912، بين الفرنسيين و "مولاي حفيظ" العاهل المغربي، على نقطة هامة تجعل من المقيم العام الفرنسي في المغرب، الوسيط الوحيد بين الملك و القوات الأجنبية. أنظر:

- Belkhodja Amar, Barbarie coloniale en Afrique, anep éditions, Alger, 2002, p 21.

لنا وضعية ما. إن الأمل الذي وضعته البلدان المستعمرة في الولايات المتحدة الأمريكية و رئيسها، بعد نهاية الحرب، يعتبر في حد ذاته حدثا تاريخيا.¹

مع مطلع سنة 1943، عادت الحيوية و النشاط للحركة الوطنية المغربية، لأنها كانت بداية انتصار الحلفاء على جيوش المحور، و اتضح جليا أن الهزيمة ستكون حليفة هذه الأخيرة. كما عكفت حكومة فرنسا الحرة في هذه المرحلة على تحضير مؤتمر "برازافيل". و قد كانت هذه السنة أيضا، فرصة لعودة الوطنيين الذين تم نفيهم أو عزلهم منذ سنة 1937، و فرصة لتشكيل "حزب الاستقلال" و نشره لبيان المشهور.²

3- "بيان الحرية و الاستقلال" أساس المطالب المغربية

عاشت الحركة الوطنية في المغرب نفس الأطوار التي عاشتها الحركة الوطنية في الجزائر و تونس تقريبا، باعتبار أنه من جوان 1940 و مجيء حكومة فيشي إلى السلطة إلى غاية نهاية سنة 1942، تجمد النشاط السياسي للوطنيين لنفس الأسباب التي تعطل فيها النشاط السياسي عند الجزائريين بسبب ظروف الحرب القاهرة التي فرضت على حكومة فيشي الفرنسية منع أي نشاط للمسلمين من شأنه زعزعت الأمن و الاستقرار المزعوم. لأن حزب الاستقلال الوطني كان حينها شبه محطم بسبب وجود أبرز زعماءه خارج اللعبة السياسية التي كان يديرها الجنرال "نوقس" لصالح حكومة فيشي.³

غير أنه بعد نزول قوات الحلفاء و لقاء "أنفا" بالدار البيضاء، بدأت تتضح معالم عودة النضال السياسي في الأوساط الوطنية المغاربية بداية بتأسيس حزب سياسي جديد سنة 1943 حمل اسم "الاستقلال". و قد أوكلت مهمة الإشراف على الحزب للسيد "أحمد بالفرج"، العائد من المنفى، بمعية مجموعة من أعضاء "الحزب الوطني" الذي أقدمت السلطات الفرنسية على حله سنة 1937.

هؤلاء الوطنيين شكلوا النواة الأولى للعمل الوطني، فأصدروا نصا قرروا من خلاله ميلاد الحزب، فجاء فيه على وجه الخصوص: "إن الشرط الأساسي لنهضة المغرب يكمن في استقلاله، لأن بلد لا يتمتع بكل مقومات و

¹ - Bernard (Stéphane), Le conflit Franco-Marocain 1943-1956, étude de cas des conflits internationaux, centre européen de la dotation Carnegie, éditions de l'institut de sociologie de l'Université de Bruxelles, Bruges, 1963, T2, p 48.

² - Le Tourneau (Roger), Histoire du Maroc moderne..., op.cit..., p217.

³ - إذا كانت حكومة "فيشي" قد منعت أي نشاط سياسي على الوطنيين في شمال إفريقيا، فهي لم تقم سوى بتجسيد استمرارية العقد الاستعماري المتواصل على شعوب هذه البلدان. و حتى المغاربة لم يقوموا سوى بتحركات محتشمة، تصب كلها في خانة الولاء لفرنسا، و التي دعمها السلطان بالبيان الذي دعم به فرنسا في حربها. لمزيد مت الشرح أنظر:

- Julien Charles André, Le Maroc face aux impérialismes..., op.cit..., pp188-189.

رموز السيادة، معرض للبقاء إلى الأبد بلدا مملوكا.... إن الحرية، وحدها، كفيلة بجعل الرجال قادرين على استعادة الحرية. هذا الطرح هو أكثر ضمانا من الطرح المضاد: أي الانتظار حتى يتمكنوا من الحصول عليها.¹

كما توجد لدينا شهادات كل من ساهم في الأحداث السياسية لجانفي و فبراير 1944، و هما على التوالي: "عبد الرحيم بوعبيد"² و "محمد ديوري"³. فالأول يروي كيفية التحضير لبيان الاستقلال، التي تعود حسبه إلى بداية سنة 1942، عندما بدأت أولى المشاورات بين السلطان و بعض الوطنيين الذين كانوا لا يزالون طلقاء. في الواقع، كانت هناك اتصالات دائمة بين السلطان و زعماء الحركة الوطنية طوال السنين الصعبة التي مر بها المغرب. و كانت هذه اللقاءات تعقد في القصر الملكي و في سرية تامة. و يضيف "بوعبيد"، أن الوطنيين بمطالبتهم القضاء على نظام الوصاية، كانوا يريدون تجنيب "جزارة" المغرب.⁴

عاشت قضية تأسيس حزب "الاستقلال" حوارات ساخنة بين الوطنيين، القدامى منهم و الشباب من الجيل الجديد، حول نقاط مختلفة بما فيها قضية تسمية الحزب. و قد عادت إلى الأذهان الاختلافات الأيديولوجية و الشخصية التي حدثت بين مختلف الناشطين في الحركة الوطنية و التي أدت إلى القطيعة المعروفة سنة 1937. و قد اقترح السيد "بالفرج" تسمية "حزب الاستقلال" التي قابلتها الفئة الشبانية التي كان يتزعمها "مهدي بن بركة"⁵ و "عبد الرحيم بوعبيد"⁶ باقتراح تأسيس "جبهة وطنية من أجل الاستقلال"، و التي ستمكن من خلالها كل التوجهات الوطنية من التعبير عن أفكارها، إيمانا منها بأن هذه النقاط سوف تطفوا على السطح عندما يحين الوقت لمناقشة قوانين هذا الحزب.

إن الحرمان، بمختلف أشكاله، الذي عان منه الشعب المغربي خلال سنوات الحرب قد أدى في النهاية إلى حدوث تغيرات جذرية في المدن و البوادي المجاورة، حيث لم يبقى النشاط السياسي حكرا على مدن مثل؛ فاس أو الدار البيضاء أو الرباط، و إنما انتقل إلى حواضر أخرى نذكر منها؛ مكناس و مراكش و سالا، التي دعمت الحركة الوطنية بمناضلين كبار، دون أن ننسى المراكز الحضرية الصغرى كأزرو و خميسات، و التي تعتبر مدن بربرية بامتياز، قد شاركت هي الأخرى في الحركات المطالبة للحركة الوطنية في المغرب.⁷

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., pp 75-76.

² - Delanoe (Guy), Lyautey-Juin..., op.cit., p 180.

³ - Interview de Diouri M'hamed, in « L'Opinion » du 9 janvier 1991.

⁴ - رفض المغاربة أن يكون مصرير بلادهم شبيها بمصير الجزائر، خاصة فيما يتعلق بسياسة الاستيطان الهامة و المتواصلة التي جعلتهم متخوفين من مستقبل غامض، خاصة في ظل ظروف الحرب، و خوفا من أن يتحول المغرب إلى "مستعمرة" أو عمالة في ما وراء البحار.

⁵ - مهدي بن بركة، من زعماء الحركة الوطنية المعروفين بنضالهم المتواصل ضد الإدارة الاستعمارية و ضد البلاط الملكي، كان أستاذا للرياضيات..

⁶ - بوعبيد عبد الرحيم ، محامي المهنة. تعلم النضال السياسي في السرية التامة خلال الحرب العالمية الثانية.

⁷ - في النهاية يعتبر "علال الفاسي" أن حزب الاستقلال قد جمع بين كل الأفكار و المبادئ التي ميزت تراث الحزب الوطني و الحركات التي سبقت. كما أن الشعب المغربي وجد نفسه في البرنامج الذي تقدم به من خلال البيان المشهور الذي قدمه للملك و السلطات الفرنسية و ممثلي الولايات المتحدة و إنجلترا، حيث طالبوا فيه بالاستقلال لا غير.. لمزيد من المعلومات طالع البرنامج الكامل لحزب الاستقلال و مطالبه في:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص ص 287-296.

توسعت البنية القاعدية للوطنية في المغرب بظهور أولى الجمعيات السياسية و الثقافية خلال سنوات 1920-1925 و 1944. و كان للأزمة الاقتصادية سنة 1929، الآثار البالغة على المجتمع، حيث انهارت أجزاء كبرى من الاقتصاد الأمر الذي دفع بعدد هائل من الفلاحين النزوح نحو المدن بحثا عن وسائل العيش التي كانت توفرها المدينة آنذاك.¹

هذا النضال قد تعدى ليشمل الموظفين و الشباب المثقف، المنحدر من الطبقات المتوسطة سواء كانت حضرية أو ريفية، و التي التحقت بالدوائر السياسية المشكلة من القدماء. حيث واصل السيد "أبو بكر القادري" في شهادته، وحسبه، جرى نقاش حاد حول ما إذا كان على الوطنيين التعامل مع الوضع الراهن "بالتلميح" أو المطالبة علنا "بالاستقلال"، حيث أوضح: "إن غالبية الآراء كانت تريد أن لا يكون هناك أي لبس في المطالب. و قد لقي الرأي الثاني إجماعا، بعدما دعمه العاهل المغربي محمد الخامس."²

حسب شهادة أخرى أدلى بها السيد "بوعبيد"، فقد اختار السلطان المغربي محمد الخامس تاريخ 11 جانفي 1944 بنفسه، لأنه تزامن مع تاريخ المقابلة التي خص بها مستشار الحكومة المغربية، الذي كان في الأصل موظف فرنسي سامي مكلف بالتواصل بين البلاط و الإقامة الفرنسية في المغرب. و كانت المرة الأولى التي يستقبل فيها وفد من الوطنيين في مقابلة علنية. كما نذكر أن الوفد الوطني قد استقبل قبل المبعوث الفرنسي للإقامة. أما السيد "الديوري"، أمين مساعد في حزب الاستقلال منذ سنة 1991، فيتذكر الأحداث التي رافقت عملية تقديم البيان، و كان عمره آنذاك 16 سنة، و يروي خاصة، التحضيرات التي سبقت عملية تحرير الوثيقة التاريخية، و يذكر على وجه الخصوص، عودة السيد "أحمد بالفرج" من أوروبا بعد تدخل السلطات الأمريكية و ضغطها على السلطات الفرنسية.³

قدم نص البيان إلى السلطان المغربي، و المقيم العام "قابريل بويو" Gabriel Puaux، الذي كان قد خلف الجنرال "نوقس" في ماي 1943، و إلى قناصل كل من بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية في المغرب، و إلى الجنرال "ديغول" و سفارة الإتحاد السوفييتي في الجزائر. و حسب "بوعبيد" دائما: "فإن نص البيان لم يقدم إلى السلطات الاسبانية حتى يؤكد الحزب على تمسكه بالوحدة الترابية للأراضي المغربية، و يبعد عنه الشكوك التي نعتته بالمناوئ مع دول المحور، و هي التهمة التي سوف تلصق بالوطنيين لاحقا."⁴

¹ - إن الظروف الصعبة هي التي زجت بالآلاف من المغاربة إلى النزوح نحو المدن بحثا عن لقمة العيش، و انجر عن ذلك تحول هذه الفئة الريفية ، شيئا فشيئا، إلى طبقة مناضلة دعمت الحركة الوطنية في المغرب، لدرجة أنها شاركت في إضرابات جوان 1936 التي سمحت لها بالمطالبة بظروف عمل أحسن من تلك التي كانت متوفرة لديهم.

² - Interview de Kadiri Abou Bekr, In Opinion, quotidien d'information du Parti El Istiqlal.

³ - إن وثيقة الاستقلال التي وضعت أساسا لتحقيق الهدف المنشود لدى المغاربة، و هو استقلال بلادهم، كانت بسيطة و واضحة في الهدف المرتقب، و حتى أنها لم تدخل في متاهات و تفاصيل الموضوع من جوانب عرضية. و إنما استهدفت منطق التغير الدولي في العلاقات و الدهنيات، و خاطبت الشعب المغربي الذي يعتبر هو السيد في اتخاذ القرار. أنظر إلى:

- غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ...، مرجع سابق...، ج 1، ص 263.

⁴ - Témoignage in Delanoë : Lyautey..., op.cit..., p 180.

قدم السيد "بالفرج" نص وثيقة البيان إلى السلطان محمد الخامس قائلا: "إنه لمن دواعي الفخر و الاعتزاز أن نقدم إلى جلالتك هذه الوثيقة الصادرة عن حزب الاستقلال، الذي يجمع في طياته كل القوى الوطنية للبلاد...إننا متيقنين من أن الله، هو الذي يأمرنا بالعودة إلى الكفاح من أجل تحقيق سيادتنا كاملة غير منقوصة، تحت لواء جلالتك. إنكم تمثلون بالنسبة للشعب المغربي القائد الأعلى، و تحملون على عاتقكم تطلعاته العميقة..و كان رد السلطان على ذلك أن اعتبره يوما خالدا سوف يبقى في تاريخ البلاد.لذلك دعا إلى لقاء وطني يجمع علماء الدين و رؤساء المقاطعات و زعماء الحركة الوطنية.(الفاسي ص 297).

أمضت 66 شخصية على نص البيان،¹ و كانت أغلبها من الوسط الحضري و من الطبقة المتوسطة إلى جانب سكان الأرياف.² و الجدول التالي يعطينا صورة واضحة عن التمثيل الخاص بكل مقاطعة في المغرب:

المدن و الحواضر الممثلة من خلال البيان	عدد الإمضاءات
مدينة فاس	27 إمضاء
مدينة الرباط	11 إمضاء
مدينة مكناس	06 إمضاءات
مدينة سالا	06 إمضاءات
مدينة مراكش	03 إمضاءات
مدينة الخميسات	03 إمضاءات
مدينة الصافي	03 إمضاءات

أما من حيث التوزيع حسب الحرف للشخصيات التي أمضت على البيان، فقد وجدنا صعوبة في ذلك، كون غالبية زعماء الحركة الوطنية قد امتهنوا عدة حرف. غير أننا سنعينا أن نأخذ بعين الاعتبار المهن التي كانوا عليها وقت إمضاءهم للبيان. و خلصنا إلى ما يلي: 13 موظف، 15 عضوا يشتغلون في قطاع العدالة، 15 منهم مدرسين، 6 أعضاء يمارسون التجارة، 7 أعضاء صحفيين، 3 أعضاء يمتهنون مهنة المحاماة، مهندس فلاحي، طبيب و رجل أعمال في قطاع النقل.

¹- في الواقع هناك 58 إمضاء حقيقي لأعضاء حزب الاستقلال الذين كانوا حاضرين في اللقاء. أما الإمضاءات المتبقية فكانت لكل من: علال الفاسي و ألوزاني اللذان كانا في السجن. فأضيف إمضاءهما لأنهما يعتبران من القيادات الفعالة في الحركة الوطنية المغربية. طالع نص البيان كاملا في:

- Le Tourneau Roger, Histoire du Maroc modern., op.cit., pp 218-221.

²- Liste publiée in « L'Opinion », des 9 et 11 janvier 1991, à l'occasion du 47ème anniversaire du Manifeste de l'Indépendance. Les deux leaders du mouvement : Allal El Fassi, déporté au Gabon depuis 1937, et Mohamed Hassan El Ouzzani, exilé dans le sud du pays, n'ont pas signé le Manifeste du 11 janvier 1944. Voir la liste en annexe N°16.

هنا تجدر الإشارة إلى أن نسبة كبيرة من زعماء الحركة الوطنية قد تمكنوا من الوصول إلى الدراسات العليا، بإتباعهم تكوينا على الطريقة التقليدية و العصرية معا. و قد تحصلت 46 شخصية منهم على شهادات عليا منهم: 16 من "جامعة القرويين" بفاس، 11 منهم تخرجوا من "معهد الدراسات المغربية العليا" I.H.E.M للرباط، و البعض منهم زاول دراسته العليا في الجامعات العربية و الأوروبية؛ منهم: 4 درسوا بالجزائر، 6 في القاهرة، 6 في باريس، و 2 في مدينة "بوردو" و هناك من درس في إنجلترا و في المملكة السعودية..

فيما يتعلق بالتكوين الجامعي، هناك 20 شخصية تحصلت على شهادة "الليسانس" في الدراسات الدينية من جامعة القرويين في فاس و جامعة الأزهر بالقاهرة. 10 منهم تابعوا دراسات قانونية و إدارية في "معهد الدراسات المغربية العليا"، 6 منهم في الآداب و الفلسفة، 4 في العلوم، 2 في الدراسات الاقتصادية و السياسية و أخيرا شخصية وطنية تخرجت من المدرسة العسكرية بمكناس.

بعدما ذكر زعماء الحركة الوطنية بأن المغرب كان دائما حرا و مستقلا طيلة تاريخه الإسلامي، و أن نظام "الوصاية" لم يكن سوى ظرفا استثنائيا، و نظرا لدور المغرب في الحرب العالمية الثانية إلى جانب فرنسا و قوات الحلفاء، فقد طلبوا من الملك محمد الخامس، بأن يطلب الاستقلال و يدخل في مفاوضات مباشرة مع الدول المعنية و هي فرنسا و اسبانيا، من أجل الاعتراف و ضمان هذا الاستقلال. و حسب الوطنيين المغاربة، فإن هذا الاستقلال لا يمس بأي حال من الأحوال مصالح الأجانب المقيمين في المغرب، حيث يطالبون بانضمام بلدهم إلى ميثاق الأطلسي و يتطلعون إلى عضوية في الهيئة الدولية المستقبلية. أما داخليا، فقد طالب أصحاب البيان من الملك إقرار نظام ديمقراطي، أي ملكية دستورية على غرار ما هو معمول به في بعض بلدان المشرق العربي.¹

في الحقيقة، لم ينخدع زعماء الحركة الوطنية للمواقف التي سوف تقابل هذا البيان، سواء كانت فرنسية أم صادرة عن الحلفاء،² لأن ظروف الحرب لم تكن تسمح لفرنسا بإحداث تغييرات في سياستها حول وجودها في المغرب. و قد فسر البعض³ هذه الحركة التي قام بها الوطنيين بأنها كانت موجهة لجس نبض الرأي العام الشعبي في الدول الأجنبية، و على وجه الخصوص الرأي العام الفرنسي و الأمريكي، و بالتالي تحضير المستقبل من هذه البوابة.

¹ - غلاب (عبد الكريم)، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب...، مرجع سابق...، ص 263.

² - لقد أظهر بعض القادة الأمريكيين تعاطفا تجاه القضية الوطنية للمغرب، خاصة و أن الرئيس الأمريكي نفسه كان قد وعد السلطان سيدي محمد بالمساعدة السياسية و الاقتصادية. أنظر:

- Interview de Kadiri Abou Bekr, *In Opinion*, quotidien d'information du Parti Istiqlal, N°, du 11 janvier 1991.

³ - Baita (A), *Essai sur l'Etat colonial au Maroc 1912-1956*, thèse de doctorat d'Etat en Science Politiques, Paris 10ème, 1986, p 337.(505 P)

كما أظهر محمد الخامس تأييده للحركة الوطنية منذ تأسيس "حزب الاستقلال" سنة 1944. و لكن هذا التأييد لم يصل إلى حد الاصطدام مع الإقامة العامة. و كانت خطة حزب الاستقلال هي عدم توريط الملك في المصادمات، و ترك الباب مفتوحا للتفاهم بينه و بين فرنسا، إذا أرادت أن تغير يوما ما من سياستها.¹

مع تقديم البيان إلى الفرنسيين و الحلفاء، انتشرت مظاهر الفرح و الاحتفال في كامل أرجاء المغرب، خاصة في مدن: الرباط و فاس و سالال، الأمر الذي لم يعجب الفرنسيين الذين تدخلوا بوحشية كبيرة لتفريق المتظاهرين العزل، مخلفين ورائهم عدد كبير من الضحايا و المعطوبين. و اتهم الزعماء الوطنيين بتعاملهم مع العدو و المساس بالنظام العام. و زجت السلطات الفرنسية بالسيد "بالفرج" و بعض الزعماء الوطنيين إلى السجون و مراكز الحبس بالجنوب. و قد اعترفت السلطات الفرنسية، فيما بعد، بعدم شرعية الاتهامات الموجهة إليهم، و أن توقيفهم خضع لاعتبارات سياسية لإجبار حزب الاستقلال التخلي عن مطالبه الاستقلالية.² من خلال شهادته على الأحداث، نقل "بوعبيد" الحوار الذي دار بين المراقب المدني الفرنسي لمدينة "سالال" Salé و المتظاهرين المتوجهين إلى الرباط:

المراقب المدني: " لا يمكنكم التوجه إلى الرباط، لأن المدينة محتلة عسكريا.. لقد تصرفتم كمتعصبين.."
 بوعبيد: " لا نكثرت لوصفكم لنا.. و ما دام أنه ليس أمامكم سوى هذه الكلمة لتبرير قمعكم لنا، فتيقنوا أننا متعصبون لقضية عادلة.."³

كما تمكنت المصالح العسكرية لمراقبة المعلومات من حجز "كتيب" مطبوع في مصر و الذي كان موجها للأستاذ "محمد بن محمد الحداد" في المعهد الحر بمدينة "نطوان" بالمغرب الإسباني، و الذي حمل عنوان: "المأساة المغربية" Le drame Marocain. و يبدو أنه طبع بمبادرة من "رابطة الدفاع على المغرب" التي يوجد مقرها بالقاهرة. و يمثل هذا الكتيب منشور حقيقي مناهض للاستعمار الفرنسي و مقسم إلى جزأين: الأول يحتوي على النص الكامل "لبيان الحرية" مؤرخ في 11 جانفي 1944، و موقع في الرباط في نفس اليوم الذي أرسل فيه إلى الإقامة العامة و القنصلية الأمريكية و القنصلية الإنجليزية و السفارة الروسية في الجزائر، و كان متبوعا بأربع صفحات عبارة عن آراء و تحليل للوثيقة.⁴

أما الجزء الثاني و المعنون "بمأساة المغرب"، فهو عبارة عن سرد شامل بإثني عشرة صفحة، عن أحداث جانفي و فبراير 1944، التي تمكنت الرابطة من استلامها عن شاهد عيان. هذا الأخير يروي بدقة تفاصيل الانتفاضات الشعبية لشهر جانفي 1944 في عدد من المدن المغربية على إثر إلقاء القبض على زعماء حزب

¹ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق...، ص 390.

² - لقد واجهت فرنسا، كعادتها، مطالب الوطنيين بأبشع الطرق القمعية و الوحشية معبرة عن تمسكها بفكرة: العنف و دائما العنف و لا شيء غير العنف.. إنها الدوامية التي غرقت فيها المغرب من 1944 لآلى غاية سنة 1954، و بداية الانفراج السياسي نحو الاستقلال. أنظر إلى:

- Belkhodja Amar, Barbarie coloniale en Afrique, Anep éditions, Alger, 2002, pp 39-40.

³ - Delanoe (Guy), Lyautey..., op.cit., p 211.

⁴ - ANOM, GGA, 8cab/106, Ministère de la guerre, DCMI, pour L'AFN..., du 15 juin 1945.

الاستقلال. و يشدد هذا الشاهد على وحشية القمع الفرنسي على أفراد الحزب و على طريقة توقيفهم و حبسهم و تجريدهم عدد كبير من الموظفين المغاربة في المخزن من وظائفهم. و قد جاء في الصفحة رقم 9 ما يلي: "لقد استغرب الشعب عدم رد السلطات الفرنسية على مطلب الاستقلال، مما دفع بأهالي القرى النزوح إلى المدن و توجهوا صوب القصر الملكي تحت شعار الحرية و الديمقراطية.. هنا نسي الفرنسيون وضعهم و وضع بلادهم المحتلة، فوجهوا أسلحتهم ضد الشعب المغربي.. الأمر الذي أدى إلى سقوط العشرات من الشهداء.. فعاش المغرب الشهيد شهرا كاملا من الدماء. عندما سكت صوت الرصاص و هدأت العاصفة، بدأ المغرب يعد موتاه بالمئات، و مئات أخرى تئن بسبب ما خلفته هذه الأعمال القمعية، و شبيهة حرة تسير مقيدة.."¹

تهدف هذه الدعاية إلى احتقار السياسة الفرنسية في مستعمراتها بشمال إفريقيا، حتى يتأثر المثقفون و الزعماء العرب بالأعمال الإنجليزية التي تصب كلها في خيانة تأسيس دولة عربية في نطاق حق الشعوب في تقرير مصيرها المنبثق عن ميثاق الأطلسي لسنة 1941.²

واصل الوطنيون نشاطهم في المطالبة باستقلال المغرب خارج الاتحاد الفرنسي. و قد تعهد السلطان على العمل في هذا الاتجاه و الحفاظ على سيادة المغرب، خوفا من تقاسم السيادة مع فرنسا. لذلك تهيأ للسفر إلى طنجة، بعدما فشلت كل المحاولات في هذا الصدد بسبب موقف المقيم العام الرافض لتحرك السلطان.

كان التأثير واضحا خلال هذا الخطاب، بسبب الأحداث التي شهدتها مدينة الدار البيضاء بين سكان المدينة و مجموعة من القناصة السنغاليين.³ كما تغاض العاهل المغربي عن ذكر الفقرة النهائية التي قدمها له المقيم العام "إيريك لابون" Erik Labonne، و التي كان عليه أن يشجع من خلالها المغاربة على الالتفات نحو العالم العصري و تقديم التحية للفرنسيين. حيث جاء فيها: " أنظروا إلى العالم المتحضر، خذوا إلهامكم من العلوم و الطريق الذي وضعه لكم رجال خططوا للحضارة العصرية، استعينوا بالتقنيين من البلدان الصديقة و بخاصة من الفرنسيين، المتشبعين بهذه الحرية التي أوصلت البلاد إلى الرقي و الازدهار.."⁴

¹ - ANOM, GGA, 8cab/106, Ministère de la guerre.

² - Ibid., propagande d'origine étrangère.

³ - بما أن الفرق السنغالية التي كانت متمركزة بعدد من المدن المغربية، في انتظار الأوامر لأي طارئ. و في شهر أفريل من سنة 1947، حاولت مجموعة منها، و كانت بالزى المدني، الدخول إلى أكبر حي شعبي بالدار البيضاء، فوجدت الشباب المغربي بالمرصاد لكل تهجمات "الساليغان" سرعان ما تحولت إلى معركة دامية. هذا ما دفع بالقناصة العبيد، من الرجوع إلى ثكناتهم و تهيئوا في الزى العسكري الرسمي للإغارة على المدينة، فكانت المجزرة عنيفة و الحاصيلة كبيرة أسفرت عن مقتل 64 مواطن مغربي و عطب 116 منهم النساء و الأطفال.. و كانت وصمة عار كبيرة في جبين فرنسا و عيبتها.. أنظر كل من:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في ..، مصدر سابق.

- Belkhodja Amar, Barbarie colonial..., op.cit.

- Julien Charles André, Le Maroc face aux..., op.cit.

- Le Tourneau Roger, Histoire du Maroc moderne..., op.cit.

⁴ - في الموضوع أنظر كل من:

- الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب..، مصدر سابق.

- العقاد صلاح، المغرب العربي في الحديث و المعاصر..، مرجع سابق.

و في المقابل، تفاخر بانتماء المغرب إلى المجتمع العربي و إلى الأمة الإسلامية، كما مدح كثيرا القوة العسكرية و الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية. غير أن هذا الخطاب لم يعجب فرنسا التي وضعت على ظهر تراخي "دي لا بون" Du Labonne الذي استبدل في ماي 1947 من طرف الجنرال "جوان" Juin، الذي كلفه وزير الخارجية الفرنسي "جورج بيدولت" Georges Bidault، بالضغط على السلطان المغربي حتى يفهم بأن فرنسا لن تتوان في استعمال القوة من أجل خلعه، إذا واصل رفضه في توقيع "الأظهر" و عرقلة الإصلاحات المؤسساتية.¹

و يعتبر خطاب "طنجة" في أبريل 1947، أول موقف إيجابي يتخذه السلطان من الحركة الوطنية. و هو لذلك يعد بداية الصراع الذي استمر بين الإقامة العامة و القصر و انتهى بعزل السلطان سنة 1953. و قد دفعت السياسة الفرنسية السلطان دفعا إلى اتخاذ هذا الموقف. فمنذ سنة 1946 و هو يسعى لزيارة طنجة. كما أن لقضية "الجلالوي" في تاريخ المغرب مكانة خاصة، باعتبار أنه من الذين ساهموا في عزل الملك و أكثر من ذلك أن طموحه للوصول إلى العرش كلفه الكثير.²

و عندما عاد محمد الخامس إلى مراكش في ظروف أفضل بكثير من تلك التي تركها فيها و شرع في تغيير أنظمة البلاد الداخلية، و في التفكير في إلغاء تصريح "لاسل سان كلو"، الذي ربما كان يعتبر ثورة في الأربعينات، و لكنه رفض من طرف الوطنيين في نشوة انتصارهم و لم يرضوا بديلا عن إسقاط نظام الحماية عن بلادهم. و هنا

- Julien Charles André, Le Maroc face aux impérialismes..., op.cit., le discours de Tanger.

¹ - بدأ جوان بطلب إصدار بيان يستنكر فيه السلطان أعمال حزب الاستقلال و يصف رجاله بمخالفة الدين. فأجاب السلطان: بأنه لا يمكن أن يعلن استنكاره لأي حزب، لأنه بصفته ملكا فهو فوق جميع الأحزاب. و أضاف: "إذا كان حزب الاستقلال قد ارتكب جرما فالحكمة تحاسبه على ما اقترف..". و لكن الجنرال "جوان" ألقى ذلك الاقتراح جانبا و وجه للسلطان هذا الإنذار: "أن رد عظمتكم غير مقبول، و أمامكم إما أن تدينوا حزب الاستقلال، أو تتنازلوا على العرش، و إلا فسأعزلكم بنفسي، سأغادر البلاد الآن إلى واشنطن، و لديكم الوقت الكافي للتفكير مليا فيما طلبت إليكم تنفيذه و سنرى عند عودتي ما يجب عمله..".

و عندما عاد جوان من واشنطن، كان الجلاوي قد أعد الأمور لتنفيذ خطة خلع السلطان، الذي رضخ في النهاية بعد أن يئس من جميع المحاولات للتخلص من الموقف. و منها استنجاهه برئيس الجمهورية الفرنسية الذي لم يشأ أن يتدخل في الأمر بحجة حياد رئيس الدولة. و هكذا اضطر السلطان أخيرا إلى توقيع الاستنكار المطلوب في 25 فبراير 1951، بعد أن حصل على ترضية بسيطة، و هي ألا يذكر صراحة اسم حزب الاستقلال في تصريحه، بل يترك ذلك لتصريح الوزير الأعظم. أنظر كل من:

- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي...، مصدر سابق...، ص ص 390-400.

- العقاد صلاح، المغرب العربي الحديث...، مرجع سابق...، ص ص 374-380.

- Julien Charles André, Le Maroc face aux impérialismes..., op.cit., pp317-356.

- Le Tourneau Roger, Histoire du Maroc moderne..., op.cit.m pp 231-262.

² - إن من الأخبار التي كتبت عن هذا الرجل من طرف الفرنسيين أنفسهم، لا تجعله أهلا للملة و لا للعرق و لا حتى للإنسانية فقط.. أما من حيث الأخلاق...

و بالعودة إلى تراجع "الجلالوي" عن طموحاته، فالواقع هو الذي فرض نفسه. و كان يدرك أن ذهاب "بن عرفة" هو بمثابة خسارته النهائية و أن كل شيء قد انتهى. لأن معارضته للملك محمد الخامس جاءت من منطبق وقوف الجنرال "جوان"، خاصة، و إدارات الدولة و الإدارة الفرنسية إلى جانبه في لحظة حاولت فرنسا استغلال كل شيء يمكنها من الملك و حزب الاستقلال... لأكثر تفاصيل أنظر إلى كل من:

- Julien Charles André, Le Maroc face aux impérialismes..., op.cit., pp462-463.

- Barrat Robert, Justice pour le Maroc, éditions du Seuil, Paris, 1953. In collection Esprit, pp 288-290.

يجدر التساؤل: هل كان الملك بعد عودته إلى العرش يساير جيش التحرير في أهدافه ؟ أم أنه كان يكتفي بالإتفاقية المذكورة كمرحلة انتقالية على الأقل ؟ و سواء أصبح هذا الاحتمال أم ذاك، فإن جيش التحرير أعلن عن استمراره في النضال مع الولاء للملك. و يذكرنا هذا بخطة حزب الاستقلال منذ سنة 1944 التي وضعت القصر دائما إلى جانبها خدمة للحركة الوطنية و مبادئها. و بذلك ظهرت البلاد أكثر التحاما و شكلت صفا واحدا أمام المستعمرين. و ظهرت النتيجة سريعة و حاسمة، بإعلان 2 مارس 1956، أين أعلنت الحكومة الفرنسية أن نظام الحماية في مراكش أصبح غير متناسب مع الظروف الجديدة. و هكذا قطعت مراكش المراحل بسرعة نحو الاستقلال السياسي على الأقل.

و مهما يكن من أمر، و هما حيكت الدسائس و مهما كانت قوة الجنرالات الفرنسيين أو ضعف رؤسائها، فقد لقي المغرب الأقصى دعما عربيا و مغاريا كبيرا عبر قنوات التضامن العربية و المغاربية التي كانت منتشرة في أرجاء مصر العربية، و حتى مفهوم الاستقلال قد يستغرق منا العشرات من الصفحات. لكن ما هو حقيقي أن هذا الاستقلال جاء نتيجة جهود طبقة سياسية نشطة مدعمة بموقف ملك، قلما نقول عنه أنه كان محبوبا من شعبه و من رجال السياسة في المغرب. لدى كان الولاء من الحركة الوطنية لله و الوطن و الملك..

4-التونسيون و المطلب الاستقلالي

لقد كان الاحتكاك بين شمال إفريقيا و الاستعمار الفرنسي أعمق بكثير مما كان عليه في المشرق. فقد ساهم هذا الاستعمار في ميلاد الحركات العمالية النقابية في البلاد المغاربية و قيام هذه النقابات بدور فعال في الحركة الوطنية في بلدانها. و لقد مر العمال التونسيون بتجربة في هذا المجال بالانخراط في الحزب الشيوعي الفرنسي و نقابته الخاصة المعروفة بـ C.G.T. و أدركوا بدورهم غلبة العامل العنصري على العامل المثالي في الحزب الشيوعي الفرنسي حينئذ.

أ-الحركة السياسية التونسية عشية الحرب

فكان تصريح "الحبيب بورقيبة" في نوفمبر 1937 على إثر فشل تجربة المفاوضات مع حكومة الجبهة الشعبية: " إن حزينا يسعى لتحرير التونسيين بمساعدة فرنسا ضد الأقلية من الإقطاعيين الفرنسيين و الرجعيين التونسيين المتمسكين بالخرافات القديمة. فكلاهما متعصب مثل الآخر، و لكي نحقق هذا يجب أن نوحى بالثقة لفرنسا و لأكبر عدد ممكن من الفرنسيين، و من جهة أخرى يمكن بفضل المقاومة عرقلة كل سياسة تهدف إلى الظلم و الاستغلال و الدكتاتورية.."¹

¹ - Bourguiba (Habib), La Tunisie et la France 25 ans de lutte pour une coopération libre, Julliard éditions, Paris, 1954, p 251.

حتى أنه ذهب إلى القول بأن وضع تونس الجغرافي يحتم عليها التعاون مع فرنسا للتغلب على مشاكلها الاقتصادية. و كان طبيعياً أن يتجه الحزب إلى الطبقات العاملة لكي تصبح الحركة النقابية التونسية جزءاً من تاريخ الحزب الدستوري الجديد. ذلك أنه كما لاحظنا عند دراسة الجزائر، تداخلت المشكلة الاجتماعية تداخلاً تاماً مع المشكلة السياسية لأن الاستعمار لا يمثل في شمال إفريقيا السيطرة بقدر ما يمثل الاستغلال الرأسمالي.

و قد ظهرت الروح العنصرية بجلاء في إضرابات "حمام الأنف"، ضواحي مدينة تونس في أوائل سنة 1925، عندما استنكرت طبقة المستوطنين العليا مشاركة العمال الأوروبيين للتونسيين في هذه الإضرابات. و أقنعهم بالانفصال عن التونسيين و إنهاء الإضراب. و هكذا أدرك العمال التونسيون ارتباط المشكلة الاجتماعية بالأوضاع السياسية. و وجدوا في الحزب الدستوري بديلاً عن الهيئات النقابية التي حرموا منها، و سيوثق هذا الارتباط بعد أن يكون "فرحات حشاد" الإتحاد العام للعمال التونسيين في سنة 1946.¹

تعد حلقة "بيروتون" السوداء من أحلك المراحل في تاريخ تونس، حيث عمد هذا المقيم العام إلى قمع جميع المظاهرات التي قامت احتجاجاً على اعتقال الزعماء الوطنيين. و لم يقتصر تعسفه على الناحية السياسية، فلقد اشتهر بيروتون بمحاربه للتعليم، و كان يرى في انتشار التعليم العالي بين التونسيين خطراً على الحماية. و لذلك حدد عدد الذين يجوز لهم الحصول على الشهادة الثانوية. و كان للصحافة حظها من تعسف هذا المقيم الرجعي، فلم يسمح إلا للذين ترضى عنهم الإقامة العامة بالتحريض في الصحافة العربية أو الفرنسية. فحاولت فرنسا أن تخفف من شدة الصراع القائم بين الفرنسيين و التونسيين و الذي قد يؤدي إلى الانفجار.

لقد أدرك "بيروتون" مغزى انتشار نفوذ الحزب الدستوري الجديد و تهديده لمصالح المستوطنين، لذلك اختص زعماءه بالقسط الأكبر من الاضطهاد عندما قبض على 20 من زعماء الحزب في 2 سبتمبر 1934 و تم نفيهم إلى "برج القصيرة" Bordj-le-Boeuf على حافة الصحراء و قد تحمل المعتقلون علاوة على هذا النفي، ألام الحبس المنفرد نحو سنة و نصف. إذ لم يطلق سراحهم إلا عند تولي الجبهة الشعبية الحكم سنة 1936 و رحيل "بيروتون" عن تونس في 21 مارس 1936 متوجهاً إلى المغرب.²

و لما كان عهد حكومة الجبهة الشعبية، أبدت نيتها لتغيير السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا عامة، فقد كان إقصاء بيروتون عن تونس خطوة أولية لإثبات حسن النية و قد بدأ خليفته "أرمان غيول" Armand Guillon بنقل الزعماء الدستوريين من القصيرة إلى قابس، و التقى بهم هناك أثناء جولته، و أفهمهم أن الحكومة الفرنسية مستعدة لإطلاق سراحهم.

أبدى الحبيب بورقيبة مخاوفه من أن يكون إطلاق سراحه ثمناً للتنازل عن بعض الأهداف القومية نفى "جيول" أن يكون هذا هو تفكير الحكومة الفرنسية، مما جعل الدستوريين يعلقون أملاً كبيراً على تلك الحكومة

¹ - أنظر مذكرات "الحبيب بورقيبة" عن النقابات في كتابه:

- Bourguiba Habib, La Tunisie et la France..., op.cit., p 76.

² - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 132.

اليسارية. و لذلك ما كاد يخلى سبيل بورقيبة و أصدقاءه حتى توجهوا إلى باريس لمقابلة "بيير فينو" الموكل بشؤون البحر المتوسط في وزارة "ليون بلوم" Blum Leon. و في باريس أظهر الدستوريون استعدادهم لقبول مشروع الإصلاح الذي وضعه "فينو" لتونس، مع إبداء بعض التحفظات رغم أن المشروع احتوى على نقطة خطيرة بالنسبة للسيادة التونسية، و هي مبدأ "السيادة المزدوجة". و إن كان بورقيبة قد صرح فيما بعد عند سقوط حكومة "بلوم"، بأنه لم يقبل بتلك الفكرة من أساسها. و تظهر خطورة فكرة السيادة المزدوجة من الفقرة الأولى للمشروع، فهي تنص على قيام مجلس تشريعي منتخب بواسطة الاقتراع العام على أساس وجود دائرتين انتخابيتين منفصلتين:

الأولى: تمثل المستوطنين الفرنسيين. و الثانية: تمثل المواطنين التونسيين. و لكل منهما عدد متساوي من النواب. و لهذا المجلس حق اقتراح الميزانية و تقريرها مع حق احتفاظ الحكومة الفرنسية بحق المصادقة عليها. فكأن المشروع الجديد قد زاد عدد الأعضاء التونسيين بالنسبة لمجلس سنة 1922. و وسع اختصاصات المجلس الجديد الذي أصبح شبه مجلس نيابي. و لكنه خطأ خطوة إلى الوراء، إذ جعل للمستوطنين حقا ثابتا في الاشتراك في إدارة البلاد. و هو ما يقصد من عبارة السيادة المزدوجة. و هذا الحق لم تكن تمنحه معاهدة الحماية أو حتى اتفاقية المرسى.¹ أما نقاط المشروع الأخرى التي كان من الممكن للحبيب بورقيبة الاعتماد عليها ليبرر قبوله للمشروع فأنحصرت في قضية إنشاء مجالس بلدية منتخبة ذات سلطات واسعة، و إلغاء نظام الحكومة العسكرية من الجنوب التونسي مع التسوية في الأجور بين العمال التونسيين و الأوروبيين و توسيع دائرة القروض التي يستفيد منها المزارع التونسي. و إذا كان بعض المستوطنين الفرنسيين قد نادوا بعد الحرب العالمية الثانية بتطبيق مبدأ السيادة المزدوجة في تونس، فإن مستوطني 1936 ما كانوا ليرضوا بإشراك التونسيين معهم في حكم وطنهم الأصلي، و كانت وسائلهم عادة تصب في خانة إحباط تنفيذ كل المشاريع الإصلاحية.²

أصبح من الواضح أن مشروع "فينو" لن يحظى بتأييد البرلمان الفرنسي في باريس إذ خشي الحزب الدستوري الجديد أن تهبط سمعته لدى الرأي العام التونسي بعد أن تساهل هذا التساهل الكبير دون نتيجة. و تصادف ذلك مع السماح لعبد العزيز الثعالبي بالعودة إلى تونس في يوليو 1937. و حاول الدستوريون القدامى إعادة تشكيل الحزب رغم قرار الحل الذي فرض عليهم سنة 1933. و لم تنقطع صلتهم خلال هذه الفترة بالثعالبي الذي ظل المرشد الروحي، دون أن يحتل منصبا رسميا في تشكيلات الحزب.

و أصبح فريق الشبان داخل الحزب مهدد بفقدان الزعامة. لذلك عمد إلى تغيير سياسة الحزب الجديد تغييرا شاملا في المؤتمر الذي عقد في نوفمبر 1937. فأعلنوا تأييد الإضرابات العمالية. بل سعوا لقيادتها. و شجعوا على انفصال النقابات التونسية عن النقابة الشيوعية الفرنسية. و تأكدت زعامة بورقيبة للحزب الدستوري الجديد.

¹ - Julien (Charles André), L'Afrique du Nord en marche..., op.cit., p 85.

² - حاول هؤلاء الحماية للنظام الاستعماري القديم أن يفرضوا منطقهم على الإدارة الاستعمارية عندما صرح السيد "فينيك" Veneque، رئيس الغرفة الفرنسية للفلاحة للمقيم العام في رسالة وجهها إليه في 23 جانفي 1937 جاء فيها: "إذا لم تتخذ إجراءات رديعة و فورية فسوف تسيل الدماء و ستكون مسؤولا عن ذلك.." أنظر لمزيد من الشروحات إلى:

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemp., op.cit., p 133.

و في هذه المرحلة من التنافس بين الدستوريين القدامى و الجدد، دار الجدل حول تحديد هوية تونس القومية. فكان بورقيبة يرى أن لتونس شخصية متميزة. فهي بحكم الموقع الجغرافي حلقة اتصال بين العالم العربي الإسلامي، و بين الحضارة الأوروبية. و هذا المزج بين الحضارتين يؤدي إلى نزعة تشبه أصحاب فكرة المتوسطية التي اشتهر بها الدكتور "طه حسين" في مصر خلال نفس تلك الحقبة حين أصدر كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر". أما بالنسبة لبورقيبة، فقد ترتب على هذه الدعوة نتائج عملية و هي الرغبة في حصر الكفاح التونسي في إطار إقليمي. و سيضطر إلى الخروج عن هذا النطاق عندما تشتد به الأزمات.¹

أما الدستوريون القدامى فلم تنقطع صلاتهم بالشرق ذلك أن الثعالي منذ اختلف مع الحبيب باي سنة 1923، و اضطر إلى مغادرة البلاد، استمر في دعوته إلى تحرير تونس بالتعاون مع مختلف الهيئات الوطنية العربية، و مثل تونس في مؤتمر القدس سنة 1931 بخصوص فلسطين، مذكرا بذلك بوجود تونس في العائلة العربية. و قد جرت محاولات عند عودته سنة 1937 للتوفيق بين أنصاره و بين الحزب الدستوري الجديد، و لكن دون جدوى. و ظل الانشقاق قائما بين الطرفين حتى عقد الميثاق الوطني سنة 1946.²

أقدم الحزب الدستوري الجديد على قيادة الإضرابات التي عمت تونس سنة 1938 مستفيدا من وسائله التنظيمية المتفوقة على الدستوريين القدامى و كان أشهر هذه الإضرابات و أكثرها تأثيرا في مجرى الأحداث، هو إضراب الطلبة في مدينة تونس في 9 أبريل 1938. حيث بدأ هذا الإضراب بالتفاف الطلبة حول دار المحافظة لتخليص أستاذ اعتقلته السلطات الفرنسية، و سرعان ما انتهى بمجزرة بشرية راح ضحيتها حسب تقدير التونسيين مائتان من القتلى و عدة مئات من الجرحى و إن كانت السلطات الفرنسية لم تعترف إلا بـ 22 قتيلا و نحو 100 جريح.³

و كانت هذه فرصة للتخلص من الدستوريين الجدد المعارضين للسياسة الفرنسية، فبلغ عدد المقبوض عليهم من شباب الحزب نحو ثلاثة آلاف على رأسهم الحبيب بورقيبة. و صدر مرسوم بحل الحزب و إعلان الأحكام العرفية، و لم يلبث أن ضيق الخناق على النشاط الوطني مدة طويلة بسبب وقوع الحرب العالمية الثانية. و عندما أعلنت هذه الحرب كان بورقيبة و رفقاؤه ما زالوا ينتظرون المحاكمة في إحدى سجون تونس.

فتقرر نقلهم، من باب الاحتياط، إلى سجن قرب مرسيليا. و رافق هذا المد الاقتصادي تغيير جذري في التركيبة الاجتماعية للمجتمع التونسي بحيث واجه تحديات كبيرة من الجانب الديمغرافي خاصة بعد الحرب العالمية الأولى.⁴ و ظل الأمر على حاله لما بعد الحرب العالمية الثانية. فتأثرت حركة النمو الديمغرافي بالظواهر الاقتصادية و الاجتماعية خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

¹ - Bourguiba (Habib), La Tunisie et la France..., op.cit..., p 76.

² - Ibid.

³ - Id., p 78.

⁴ - اتسمت الأوضاع الديمغرافية العامة في تونس من بداية الاحتلال إلى نهاية الحرب الكبرى بالتوازن حيث اختلفت المصادر حول العدد الحقيقي للسكان مع بداية الاحتلال سنة 1881، غير أن الأغلبية ترجح على أن يكون العدد 1.5 مليون نسمة. هذا العدد لم يكن كافيا لتلبية حاجيات

ب- صعوبة النضال أو المسيرة الشاقة نحو الاستقلال

خضعت تونس للاحتلال المزدوج الألماني الإيطالي بداية من 9 نوفمبر 1942 فكان ذلك بمثابة المنعرج الحقيقي الذي أدخل تونس في حقيقة أمور الحرب العالمية الثانية، حيث تحولت البلاد خلال ستة أشهر، من نوفمبر 1942 إلى ماي 1943، إلى حقول للمعارك، و تغيرت أوضاعها السياسية على وقع انقسام الطبقة السياسية الفرنسية هناك.¹ غير أنه لفهم تطورات الحركة الوطنية التونسية في هذه المرحلة الحساسة، لا بد من مراجعة التصريحات التي كان يدلي بها الزعماء التونسيين قبل الحرب.

اتسمت الحياة السياسية بعد نهاية الحرب بحركة كبيرة من الجانب التونسي الذي كان يأمل في ظروف أحسن و في تحقيق فرنسا للوعود التي قطعتها على نفسها، خاصة شخصية الجنرال "ديغول" الذي كانت الآمال معلقة عليه. غير أن انسحابه من السلطة مع نهاية جانفي 1946 فتح المسألة أمام كل الاحتمالات الأمر الذي أدى إلى حدوث أولى الاضطرابات في مدينة "القيروان" في جوان 1946، عندما تبادل أحد أعيان المدينة الكلام مع المقيم العام فتحول ذلك إلى أزمة حقيقية.²

جاء في التقرير الذي رفعه المقيم العام الفرنسي في تونس "أوجان بونس" Eugene Pons، أنه كلف أحد المخبرين في شخص السيد "روبير ريموند" Robert Raymond، رئيس تحرير في إذاعة الجزائر، ليقوم بتحريات حول الموضوع و يطلعه على الحالة العامة لتونس. فجاء رده على نحو أن ما حدث خلال الأسبوعين الماضيين من أحداث إنما هو نتيجة لمجموع الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الفرنسية منذ أن رفض البرلمان في فبراير 1945 بأن يدرس المشروع المقدم من طرف كتلة الوطنيين و المثقفين المسمى بـ "الاستقلال الداخلي". و الذي أشار بوضوح

الاقتصاد الاستعماري الذي كان بحاجة إلى يد عاملة أكثر مما كان موفرا، فاستقطب من طرابلس و من إيطاليا، و حتى من الجزائر، يد عاملة ساعدت على تدعيم الحركة الاستيطانية الفرنسية. كما أن الحكومة الفرنسية شجعت المستوطنين على الاستقرار في الأرياف أين توجد الأراضي الخصبة، فبدأ عدد السكان يرتفع ليبلغ سنة 1911 حوالي 1.740.000 نسمة ثم ليصل سنة 1921 إلى 2.000.939 نسمة. و أرجعت المصادر هذه الزيادة إلى عاملين هما؛ انخفاض معدل الوفيات و ارتفاع عدد المهاجرين من الأوروبيين و المستوطنين الأجانب. و هي تقريبا نفس الأسباب التي ألصقت بالجزائر في النمو الديمغرافي المذهل الذي شهدته البلاد. لمزيد من التوضيحات ينظر كل من:

- Chevalier Louis, Le problème démographique nord-africain, PUF, Paris, 1948, pp.

¹ - Rey-Goldzeiguer (Annie), « L'occupation germano-italienne de la Tunisie : un tournant dans la vie politique Tunisienne », in actes du colloque : Les chemins de la décolonisation de l'empire colonial français, tenu les 4-5 octobre 1984, et édité par le CNRS, Paris, 1986, pp 325-340.

² - عبر الشيخ التونسي، الذي هو أحد كبار أعيان مدينة القيروان، عن أمله في أن تعود فرنسا إلى سياسة الحماية المطبقة قبل الحرب و أن تتمتع عن تطبيق نظام الإدارة المباشر. فكان جواب المقيم العام أن الأمر سوف يؤخذ في حدود ما هو معقول و قانوني، مع مواصلة سياسة الإصلاحات في إطار الوحدة الفرنسية.. أنظر إلى:

- ANOM, GGA, 8Cab/57, ALG/N°630-46, rapport sur les évènements récents survenus en Tunisie, Alger, le 03 sept..1946.

إلى تعاون التونسيين مع فرنسا في هذا الإطار. و منذ ذلك الحين، تأزمت الأوضاع بدعم من منظمة الدول العربية التي دعمت التونسيين.¹

قدم مشروع "الاستقلال الذاتي" غداة مغادرة "الحبيب بورقيبة" للبلاد في اتجاه القاهرة و تضمن المشروع إدارة التونسيين لشؤون بلادهم بأنفسهم مع احتفاظ فرنسا بكل حقوقها المتمثلة في الدفاع عن تونس دبلوماسيا و عسكريا. و حتى و إن بدا هذا المشروع حساس في وقته، إلا أنه بقي معتدلا و لم يتعدى حدود "حق الشعوب في تقرير مصيرها" الذي أقره ميثاق الأطلسي. سنة 1941.

بعد ذلك، و بالاتفاق بين الجامعة العربية و وزارة الخارجية الفرنسية، بدأت محادثات رسمية بين الطرف التونسي، ممثلا في شخص زعيمه "بورقيبة"، و السيد "ليكوي" Lecuyer وزير فرنسا. و كان المطلب التونسي واضحا: استقلال تونس مع اعتراف التونسيين بحقوق فرنسا الإستراتيجية و الاقتصادية و الثقافية. كما أن هناك قضية "الباي منصف" التي لا زالت حاضرة في الشارع التونسي باعتبار أن "الباي الأمين" لا يلقي الإجماع عند التونسيين، عكس سابقه "المنصف أحمد باشا" الذي قام الجنرال "جيرو" بعزله لأسباب ذكرناها سابقا. و ذلك كان خطأ كبيرا اقترفته فرنسا في حق استمرارها في تونس، كما ستوضحه الأحداث لاحقا.²

و دائما حسب تقرير هذا المخبر، فإن نظام الحماية لم يعد يتماشى مع الحقوق الديمقراطية مثل، حق التجمع و حق إنشاء الجمعيات و الأحزاب و حرية الصحافة، إلى غير ذلك من النشاطات الاجتماعية الخاضعة لترخيص من الإدارة الاستعمارية.³

ثم تسارعت الأحداث، حيث شهدت تونس ميلاد نقابة الشغل بقيادة "فاضل بن عاشور" أحد المثقفين التونسيين الذي كان يعي جيدا الدور الفعال للحركة العمالية النقابية في الحقل السياسي التونسي. و قد ساعده في هذه المهمة أحد أقطاب العمل النقابي التونسي و هو "فرحات حشاد". و قد تمكنت عناصر الحزب الدستوري الجديد من التوغل داخل هذا التنظيم النقابي و جعله من الهيئات التابعة للحزب.⁴

امتد نشاط الحركة التونسية إلى خارج الحدود التونسية، حيث تمكنت عناصر تونسية ملتزمة داخل "اللجنة المؤقتة للدفاع عن مصالح التونسيين" من تنظيم تجمع قامت من خلاله بالتنديد بالسياسة الفرنسية المنتهجة في تونس، أمام حوالي 3500 شخص، أغلبهم من الجزائريين الذين لبوا نداء إخوانهم التونسيين. و كان حاضرا في القاعة كل من؛ أحمد فرانسيس و يوتران قادة و محمدا و الساطور، و "أرمان قيو"، مقيم عام سابق في تونس. كما حضر جمع كبير من الطلبة و أصحاب المهن الحرة لهذا التجمع.⁵

¹ - جاء هذا التقرير في ست (6) صفحات . أنظر:

- ANOM, GGA, 8Cab/57..., rapport sur les événements récents survenus en Tunisie, Alger, le 31 aout 1946, p 1.

² - ANOM, GGA, Ibid...,P2.

³ - Id., p 3.

⁴ - Id p 3.

⁵ -ANOM, GGA, Cab/57...,Office du Gouvernement General de l'Algérie, N°11174 sp/A, Paris le 10 juillet 1946,p 1.

كما كانت حاضرة في الصف الأول و بقوة الصحافة الفرنسية و الأجنبية معا، منهم مراسلي "نيويورك تايمز" و "نيويورك هيرالد تريبيون" New-York Times et New-York Herald Tribune ، و مراسل "لقاسيت دي لوزان" La Gazette de Lausanne. بالإضافة إلى حضور ممثلين عن الحزب الشيوعي الفرنسي و نقابات الشغل و السيد "علي بوزيد" رئيس لجنة المساعدة لشمال إفريقيا. و كانت اللحظة الأكثر تأثيرا عندما دخل "فرحات عباس" القاعة تحت تصفيقات حارة من الحضور.¹

عادت الحالة في تونس سنة 1952 إلى نفس الوضع الذي كانت عليه أيام "بيروتون" سنة 1934. و يبدو أن الظروف الخارجية ساعدت "دي هوت كلوك" على المضي في سياسة العنف، فقد قبل مجلس الأمن وجهة النظر الفرنسية بعدم اختصاصه و رفض المجلس في أبريل إدراج المسألة التونسية في جدول أعماله. و في فرنسا تعاقبت حكومات يمينية، من "أنطوان بينيه" سنة 1952، إلى "جوزيف لانييل" سنة 1953-1954، و يشتد المستوطنون في مطالبهم معترضين على تحويل بعض الوظائف إلى التونسيين. و يؤيدهم دي هوت كلوك مستدرا عطف الرأي العام عليهم حين يصرح بأن عائلات المستوطنين كثيرة العدد، و أن عدد الوظائف المحدود في تونس لا يحل مشكلة الشباب التونسي المتعطل.²

بدأت هذه المقاومة المنظمة في الجنوب حول مدينة "سوسة"، و منها انتشرت إلى الغرب حتى حدود الجزائر. و لكن لم يقدر لجيش التحرير التونسي أن يبلغ نفس النضج و اتساع النفوذ الذي بلغه جيش التحرير الجزائري فيما بعد. و ذلك لقصر المدة التي استغرقها الكفاح التونسي المسلح، من مارس إلى ديسمبر 1954. ثم أن هناك مسألة داخلية شائكة في القضية التونسية تمثلت في النزاع "اليوسفي" "البورقيبي" في منطقة أقصى الجنوب التونسي و التي لم تجد نهاية إلا بتدخل الهيئات العربية.³

إذن، بدأت حركة المقاومة تؤتي ثمارها منذ صيف سنة 1954 إذ من شواهد ذلك، قامت السلطات الفرنسية بنقل "بورقية" من معتقله المنعزل إلى الأراضي الفرنسية. فلما تقدم "منداس فرانس" إلى الجمعية الوطنية يطلب الثقة بوزارته، كان مما أشتمل عليه خطابه، الوعد بحل الأزمة التونسية و معها الأزمة المغربية على أساس ديمقراطي، متناسيا المسألة الجزائرية. و بدأ المستوطنون يحسون بأن الحكومة الفرنسية الجديدة لا تنوي الخضوع لهم مثل سابقتها، لأن "منداس فرانس" كان من بين الساسة الفرنسيين القلائل الذين يدركون تغيرات العصر، فأخذ

¹-Ibid.

² - Julien (Charles André), L'Afrique du Nord en..., op.cit., p 217.

³ - ضمن موجة استقلال المستعمرات، ظهرت فكرة مشروع وحدة المغرب العربي غداة الحرب العالمية الثانية. و انتشر النشاط المغربي في بلاد المشرق بالدرجة الأولى، حيث بدأت القاهرة في استقطاب زعماء الحركات الوطنية الاستقلالية في المغرب العربي.. للتوسع أكثر أنظر:

- ذويب (محمد)، المقاومة المسلحة و الخلاف اليوسفي - البورقيبي بمنطقة أقصى الجنوب التونسي 1952-1956 من خلال المصادر الشفوية، رسالة ماجستير، تونس، 2009-2010. (198 ص).

المستوطنون يضعون العراقيل في وجهه و قاموا بمظاهرات لإقالة "فوازار" المقيم العام.¹ و ربما كانت الحكومة الفرنسية مستعدة للتراجع عن وعودها للتونسيين لولا اندلاع ثورة الجزائر بحيث أصبح إنهاء القتال في تونس أمر ضروري. لذلك اضطرت الإقامة العامة إلى وضع شروط جديدة لإنهاء القتال في تونس، و أصدرت بذلك بلاغا مشتركا مع الحكومة التونسية في 6 نوفمبر 1954 و بمقتضى هذه الشروط لم تصبح سلامة المقاتلين التونسيين رهنا بوعده فرنسي فقط، بل بناء على اتفاق بين الحكومة التونسية و الإقامة العامة.² لأنه عندما سلم المقاتلون التونسيون السلاح في 9 ديسمبر لم يكن عددهم قد تجاوز 2514 رجلا و إن كان يجب إضافة عدد مماثل تقريبا كان يشغل لتموين جيش التحرير. كما أن خمسة عشر ألف تونسي كانوا قد سجلوا أسماءهم في فرق المقاومة دون أن ينخرطوا فيها نظرا لنقص السلاح.³

و تفسير ذلك أن بورقيبة دعا زميله القديم، صالح بن يوسف، و حاول استرضاءه بجميع الوسائل حتى لا يضعف مركز الحزب في هذه المرحلة الخطيرة التي تمر بها البلاد. و لكن صالحا أصر على موقفه و رفض حضور المؤتمر العام الذي دعا إليه رئيس الحزب في أكتوبر 1955. و مع أن المؤتمر أعلن موافقته على سياسة بورقيبة إلا أن هذا لم يمنع التفاف عدد كبير من التونسيين حول صالح بن يوسف. و كان معنى هذا أنه سيتزعزع حركة سياسية جديدة قبيل إجراء الانتخابات التي كان لا بد منها لاختيار جمعية تأسيسية تضع دستورا للبلاد في ظل النظام الجديد.⁴

¹ - و شعر منداس فرانس بضرورة اتخاذ قرار سريع يقطع على المستوطنين خط الرجعة. فما كاد ينهي مشكلة الهند الصينية بتوقيع اتفاقية "جنيف" في 20 يوليو 1954، حتى قام برحلة خاطفة إلى تونس في 31 من نفس الشهر. و هناك أعلن قبول حكومته لمبدأ الحكم الذاتي لتونس، على أن يتم تحديد العلاقات بينها و بين فرنسا بواسطة المفاوضات بين الطرفين. حيث رحب بورقيبة من مكان إقامته الجبرية بهذه الخطوة، و لكن هذا لم يمهله حالة اعتقاله، فبقيت مشكلة اختيار المفاوض التونسي. و كان من العيب أن يعيد الحزب الدستوري، و هو أكبر منظمة سياسية في البلاد، عن هذه المفاوضات. فاتفقت فرنسا وديا مع الدستوريين على تأليف وزارة جديدة برئاسة أحد المستقلين. و اختير لهذا المنصب "طاهر بن عمار"، و هو من كبار الملاك الزراعيين. على أن يشترك معه ثلاثة من الدستوريين ليتولوا مهمة المفاوضات. و وقع الاختيار على "المنجي سليم" و "محمد المصمودي" و "جلولي"، ليكونوا وزراء دولة في حكومة ابن عمار. و اشترطت فرنسا أن تكون بقية الوزارة من المحايدين في هذه المرحلة.

كان منداس يأمل من وراء هذه الإجراءات إنهاء حركة المقاومة المسلحة، و فعلا وجه المقيم العام الجديد الجنرال "بويه دي لا تور" Boyer De La Tour، نداء إلى جميع المقاتلين بتسليم أسلحتهم إلى السلطات الفرنسية، واعدوا إياهم بعدم تعرضهم لأية مؤاخذة إلا في حالة ثبوت مخالفة للقانون العام. و لم يكن جيش التحرير التونسي غرا بحيث يطمئن إلى هذا الوعد، بل لوحظ أن القتال عاد فاشتد في شهر سبتمبر، و أراد المستوطنون أن يتخذوا من ذلك حجة كي تتراجع حكومتهم عن سياستها إزاء تونس. أنظر إلى كل من:

-العقاد صلاح، المغرب العربي في...، مرجع سابق...، ص 284.

- El Mechat Samya, Tunisie les chemins vers l'indépendance..., op.cit..., p 223.

² - El Mechat (Samya), Tunisie les chemins vers l'indépendance..., op.cit..., pp 224-225.

³ - Garas (Félix), Bourguiba et la naissance d'une nation, Julliard éditions, Paris, 1956, p 229.

⁴ تأجج الصراع بين "الصالح بن يوسف" و "الحبيب بورقيبة" لدرجة أصبح يشكل خطرا على وحدة الحزب. لأنه من جهة، بورقيبة كان يتمنى

انسحاب بن يوسف، و من جهة أخرى رفض هذا الأخير الفكرة من أساسها معتبرا أن الشعب يؤازره. طالع كل من:

- El Mechat Samya..., op.cit..., pp 235-236. Et voir aussi: Journal Le Monde du 10 septembre 1955.

وكان من الممكن أن يسوء مركز "بورقية" في هذه الانتخابات لو بقيت الاتفاقيات مع فرنسا على حالها. و معنى انتصار صالح بن يوسف، هو زوال ما بقي من نفوذ فرنسا في تونس.¹ و بهذا المنطق استطاع بورقية أن يقنع الحكومة الفرنسية بضرورة التخلص من الشروط القاسية في الاتفاقية حتى لا يترك المجال لأنصار بن يوسف، و هكذا ظفر بورقية بإعلان 20 مارس 1956.

5- استمرار التضامن العربي المغربي لتحقيق الاستقلال

أما عن دور مكتب المغرب العربي الذي أنشأ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد كانت للحركة الوطنية المغربية القدرة الفاعلة للتوفيق بين النضال الداخلي و الخارجي و التصدي لسياسة المماطلة التي كانت تتبناها الإدارة الاستعمارية، مما جعلها تكتشف بأن فرنسا لن تلبّي لها أي مطلب مشروع. فسارعت إلى التكثيف من نشاطها السياسي بغية فضح فرنسا أمام الرأي العام الخارجي و الداخلي في محاولة لاسترجاع حقوق شعوبها المهضومة. فبدأ العمل الوحدوي المغربي يأخذ منحى تضامني داخل الأقطار المغربية و خارجها، خاصة في باريس و جنيف و في الأستانة و القاهرة.²

تميزت سنة 1945 بمحطات هامة في تاريخ الشعوب المغربية. فبقدر أهميتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، كانت كذلك بالنسبة للمسار العام للحركة الوحدوية المغربية من القاهرة. حيث وصلها "الحبيب بورقية" من تونس و "الشاذلي المكي" من الجزائر، ثم لحق بهم مع مطلع سنة 1946 مجموعة من الشباب التونسي و وفد من شمال المغرب. فالتحم الشمل و بدأ التفكير في مشاريع تقرب الرؤى بين الزعماء الوطنيين في كل من تونس و الجزائر و المغرب من أجل توحيد المكاتب في الخارج و إظهار التضامن المغربي بالمظهر اللائق به خدمة للقضية التحررية. فكان ذلك بادرة لعقد مؤتمر المغرب العربي.³

و يعتبر البعض من المؤرخين أن ظروف تكوين هذا المكتب بالقاهرة جاء كامتداد تاريخي و سياسي للمكتب الذي تأسس من قبل في برلين الألمانية و الذي كان له فرعا في باريس. و الفضل الأول يعود إلى المناضلين الوطنيين التونسيين منذ سنة 1942 بحكم تواجدهم في أوروبا. غير أن "جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا، التي تأسست في مصر في فبراير 1946، و ضمت مغاربة و تونسيين و جزائريين برئاسة "محمد خضر حسين"، قد تعهدت بتحقيق استقلال البلدان الثلاثة لشمال إفريقيا و بعدها تعمل على انضمام هذه الدول إلى الجامعة العربية.⁴

¹ - للتوسع أكثر طالع: ذوب (محمد)، المقاومة المسلحة و الخلاف اليوسفي - البورقيي بمنطقة أقصى الجنوب التونسي..، مرجع سابق.

² - المتركي (نوال)، الأحزاب الوطنية المغربية و مكتب المغرب بالقاهرة، جيش التحرير المغربي، فعاليات ملتقى مؤسسة أحمد بوضياف، 11 و 12 ماي 2001، الجزائر، ص 147.

³ - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في...، مصدر سابق..، ص 375.

⁴ - عروسية (تركي)، فصول في تاريخ الحركة الوطنية في تونس المعاصرة، مكتبة علاء الدين، صفاقص، ط1، 2005، ص 148.

كما حدد زعماء الحركة الوطنية المغاربية أهداف مكتب المغرب العربي منذ البداية في سياق فكرة "الاستقلال و الوحدة داخل الإطار العام للأمة العربية"، و عملوا على إصدار جريدة تكون لسان حال الشعوب المغاربية من القاهرة، و فكروا في إنشاء "محطة إذاعية" مغاربية موحدة و مستقلة تساهم في توعية الشعوب، فتحقق لهم ذلك بداية من شهر أوت 1943 عندما بدأت أولى البرامج "لمحطة إفريقيا" تبث نحو شمال إفريقيا انطلاقا من الأراضي الإيطالية.¹

انعقدت أشغال المؤتمر المغاربي ما بين 15 إلى 22 فبراير 1947 حيث تطرق خلالها المؤتمر لمختلف المسائل التي تهم الشعوب المغاربية و اتخذوا في شأنها قرارات هامة. و يرى علال الفاسي، أنه لإعطاء المؤتمر صبغته الشرعية، كان على المؤتمرين أن يكونوا ممثلين لحركة سياسية قائمة في شمال إفريقيا حتى يحقق المؤتمر صبغته الإجماعية وتضفي على قراراته الشرعية المرجوة التي تحضيا بتأييد كل التيارات و الأحزاب القائمة. فكانت تونس ممثلة بمكتب "حزب الدستور" الموجودة في القاهرة، أما المغرب فقد مثلها مكتب "رابطة الدفاع عن مراكش" إلى جانب "الوفد المراكشي" المتواجد لدى مكتب الجامعة، و مثل الجزائر أعضاء عن حزب الشعب الجزائري الذي كان يحضرا بدعم قوي من الأشقاء في المغرب و تونس.²

تمحورت قرارات المؤتمر حول نقاط هامة من بينها تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة، كخطوة أولى، ثم الكفاح من أجل استقلال تونس و الجزائر و المغرب، و ذلك بواسطة عملية توحيد الحركات الوطنية المغاربية في جبهة واحدة مراعاة لمصالحها المشتركة. و في الأخير المطالبة بجلاء الجيوش الفرنسية و الإسبانية من أراضيها. و كللت هذه الأشغال باتفاق ممثلي أحزاب الاستقلال و الشعب و الدستور بفتح دار لتوحيد مكاتبهم في القاهرة طبقا لتوصيات المؤتمر و أطلقوا عليها اسم "مكتب المغرب العربي".³

تواصل العمل المشترك المغاربي بظهور "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية" التي تشير الكتابات التاريخية على أنها تأسست على يد الشيخ "محمد لخضر حسين"، شيخ الأزهر، رفقة مجموعة من الجزائريين خلال الحرب العالمية الثانية. أما الشيخ "فضيل الورثاني"،⁴ الذي كان أمينها العام، فيحدد تأسيسها بأكثر دقة و يشير إلى تاريخ 18 فبراير 1944 و يضيف الأمير "مختار الجزائري"⁵ إلى مؤسسها "محمد لخضر حسين".⁶

¹ - Ageron (Charles Robert), « Contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la 2^{ème} guerre mondiale », in R.H.M, n° 7-8 du mois de janvier 1977, pp 28-29.

² - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية...، مصدر سابق...، ص 375.

³ - المصدر نفسه...، ص 379.

⁴ - هو الفضيل حسنين بن محمد السعيد بن فضيل، المعروف "الورثاني"، نسبة إلى منطقة "بني ورثان" الواقعة بأعالي جبال "البيبان". ولد بغربة أنو يوم 6 جانفي 1900. و يمتد نسبه إلى العلامة الرحالة الكبير "الحسين الورثاني" صاحب: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار". توفي في تركيا في 12 مارس 1959. و تم نقل رفاتة إلى الجزائر سنة 1987، ليدفن في مسقط رأسه في بني ورثان، ولاية سطيف.

⁵ - هو ابن الأمير عبد العزيز بن الأمير حسن الجزائري، شقيق الأمير عبد القادر الجزائري.

⁶ - الورثاني (فضيل)، الجزائر النائرة، بيروت، 1963، ص 286.

لم تخرج أهداف هذه الجبهة عن أهداف التنظيمات التي سبقتها، حيث ركزت هي الأخرى على تحقيق الحرية و الاستقلال لشعوب شمال إفريقيا و ربطها بمصير الأمة العربية، مستعملة في ذلك الوسائل السلمية كإصدار البيانات و إلقاء المحاضرات و الندوات في مقرات الجمعيات المصرية، و تحرير المقالات الصحفية التي كانت تنشر في معظمها في الجرائد المصرية، "كجريد الإخوان" و مجلة النذير و دعوة الحق و والهداية الإسلامية و مصر الفتاة.¹

لقد ثمن مؤتمر المغرب العربي المنعقد بالقاهرة بين 15 و 22 فبراير 1947 مجهودات الزعماء العرب داخل تنظيم الجامعة العربية و نشادهم بعدم الاعتراف بمعاهدتي الحماية الفرنسية على تونس و المغرب و احتلال الجزائر. كما طالبهم بأن يسمحوا لأقطار شمال إفريقيا بتعيين نواب لها للتعريف بالوضع في المنطقة أمام المنظمات الدولية.²

خامسا- المواقف الفرنسية من مطالب الوطنيين في شمال إفريقيا

بعد الانتخابات التشريعية لشهر جوان 1951، انتزعت جمهورية التناقضات من جمهورية الأوهام، السلطة و أدخلت بذلك فرنسا في عهد جديد من التناقضات بسبب الأحداث المتراكمة حينها؛ من ظهور الحرب الباردة، التي كانت تنذر بحرب كونية ثالثة، إلى ظهور الوعي القومي الذي ساعد الوطنيين في نضالهم من أجل انتزاع حريتهم.³

كما كان على فرنسا الجديدة أن تناضل على جبهات مختلفة، أولها الدفاع عن الجمهورية الرابعة من أطماع الشيوعيين و إضراباتهم المتكررة و المتواصلة و الديغوليين الطامعين في العودة إلى الحكم من جديد. لقد تعايشت الجمهورية الجديدة مع الحطام الذي ورثته من الحرب و مع سياسة متعطسة و فاشلة في مستعمراتها فيما وراء البحار.⁴ فكان عليها التعامل مع الدستوريين الجدد في تونس و زعيمهم "بورقيبة"،⁵ و الفصل في قضية "الجلالوي"، المنبؤ من طرف الشعب المغربي، مع السلطان محمد الخامس.⁶

و في الأخير تجاوز بشاعة جرائمها في الجزائر و إيجاد الحلول التي تضمند بها جراح الجزائريين. فكانت سياستها بشكل عام هي التي أدت إلى انهيار كل الإمبراطورية الاستعمارية التي بنتها فرنسا في قرون من الزمن.⁷

¹ - الورثاني (فضيل)، المصدر نفسه...، ص ص 380-395.

² - عروسية (تركي)، فصول في تاريخ الحركة الوطنية في تونس...، مرجع سابق...، ص 151

³ - Elgey (Georgette), La République des contradictions, 1951-1954, 2^{ème} partie, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1968, édition augmentée 1993, p 13.

⁴ - Ibid..., p 14.

⁵ - Id..., pp 398-399.

⁶ - Id..., pp 444-446.

⁷ - لقد أثرت الانتفاضة الشعبية لماي 1945 تأثيرا بالغ الأهمية في نفسية الوطنيين و الشعب الجزائري لدرجة جعلتهم يفكرون مليا في العمل الثوري المسلح، و مهدوا الطريق لحرب تحريرية حقيقية انطلقت من بقايا الأموات. و كانت الحرب العالمية الثانية شاهدة على تطور الفكر الثوري و شكلت نقطة ارتكاز نوعية في مباشرة العمل الثوري من بوابة أول نوفمبر 1954. لمزيد من المعلومات طالع كل من:

1- موقفها من محتوى البيان الجزائري

كان رد الفعل الفرنسي على البيان سلبيا، و هذا ما كان منتظرا و متوقعا. فموقف الحاكم العام "بيروتون" كان واضحا عندما استلم نسخة منه مصرحا أنه سيؤخذ بعين الاعتبار، و أن فرنسا ستستخدمه كقاعدة أساسية لوضع قانون أساسي للجزائر عندما تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها. ثم وعد بتشكيل لجنة إصلاحات اجتماعية و اقتصادية مهمتها السهر على وضع مشروع عاجل و فوري.¹

فتم تشكيل اللجنة التي كان قد وعد بها الحاكم العام لإنجاز مشروع الإصلاحات التي يمكن تحقيقها فوراً، و سميت بـ "لجنة دراسة المسائل الاقتصادية و الاجتماعية للمسلمين" لإنجاز برنامج إصلاحات في المرحلة الراهنة و دون انتظار نهاية الحرب، و ذلك بموجب قرار 13 أبريل 1943. و كانت هذه اللجنة تتشكل من 37 عضواً.² غير أنها كانت تفتقر للعناصر المصالية و الشيوعية، و لم تحض برضا أغلبية نواب القطاع الوهراني الذين رأوا فيها تهميشاً لعناصر عمالة وهران، و أن تركيبتها البشرية تفتقر للعناصر المثقفة و المتطورة.³

إن المتمعن في الأسلوب الذي اعتمده الحاكم العام، و من وراءه فرنسا الاستعمارية، يلاحظ أن السياسة الاستعمارية اتجه الجزائريين لم تتغير قط. بدليل الحضور الدائم لممثل الإدارة الاستعمارية في كل جلسات هذه اللجنة و هو السيد: "بيرك"، مما يدفعنا إلى التشكيك في مصداقية قرارات هذه اللجنة. خاصة إذا اعتبرنا أن عودة المجالس المحلية المنتخبة و المجلس العام و اللجان المالية إلى نشاطها بموجب مرسوم 14 مارس 1943،⁴ كان من ضمن الإستراتيجية الفرنسية للتخفيف من حماس النواب.

بالعودة إلى موقف الحاكم العام من البيان، نخلص إلى أن موقف الإدارة الاستعمارية كان موقفاً تكتيكياً و دبلوماسياً،⁵ بدليل أن "بيروتون" قد تظاهر، مبدئياً، بقبوله للبيان و في نفس الوقت حاول تفرغته من محتواه الحقيقي عندما قام بتنصيب لجنة لدراسة الإصلاحات التي تخص الجزائريين المسلمين. و كأنه أراد حصر المشكل الجزائري في الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية دون الجانب السياسي الذي نرى فيه أصل المشكلة الجزائرية. و لعل أحداث أكتوبر لسنة 1943 في دائرة معسكر بعمالة وهران، تعبير صادق على أن المطالب الجزائرية ليست مطالب أكل أو جوع أو صحة بقدر ما هي مطالب سيادة.⁶

كما تجدر الإشارة إلى أن هذه اللجنة كانت تضم في صفوفها البعض من العناصر الجزائرية المعروفة بولائها و خدمتها للمصالح الاستعمارية، و كانت تجتمع بحضور ممثل الإدارة الاستعمارية "بيرك".⁷ هذا يعني أن

- بلوفة الجليلي عبد القادر، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية...، مرجع سابق...، ص 33.

- Ageron Charles Robert, La décolonisation française, collection cursus, Albin Colin éditions, Paris, 1991, p 147.

¹ - A.W.O, CIE Oran, N° 377, op.cit.

² - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemporaine., T2, op.cit, p 561.

³ - A.W.O, CIE Oran, N° 377, op.cit.

⁴ - بلوفة (الجليلي)، رسالة ماجستير...، مرجع سابق ص 73.

⁵ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme., T2..Op.cit., p 646.

⁶ - بلوفة (الجليلي)، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص 81.

⁷ - Ferhat (Abbas), La nuit coloniale., op.cit, p 145.

كل المشاريع الإصلاحية التي ستطرح، ستم تحت الرعاية الاستعمارية داخل أطر السيادة الفرنسية. و الحقيقة أن "بيروتون" أراد استغلال ظروف الحرب لربح المزيد من الوقت، حتى يتم إنجاح عملية تجنيد الجزائريين،¹ من جهة، و من جهة أخرى سمح للمجالس المنتخبة باستئناف نشاطها مع مطلع شهر أفريل 1943، بالإضافة إلى الإجراء الذي أقدم عليه الجنرال "جيرو" عندما أفرج على مجموعة هامة من المعتقلين السياسيين الوطنيين.²

في الوقت الذي كانت فيه لجنة الإصلاحات منهمكة في دراستها للخطوط العريضة لمشاريعها الإصلاحية، تغيرت الأوضاع داخل قمة هرم السلطة في فرنسا و الجزائر معا، ف وقعت البلاد تحت سلطة "اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني" بقيادة الجنرال "ديغول" الذي أقدم على تعيين الجنرال "كاترو" كحاكم عام على الجزائر و محافظ الدولة للشؤون الإسلامية،³ في 3 جوان 1943. خلفا "لبيرتون" الذي ألقى عليه القبض.⁴

لقد غيرت هذه الأوضاع من معطيات كثيرة في المشكلة، لأن القيادة الجديدة لم تلتزم بأي تعهد أمام الجزائريين، و كان شغلها الشاغل هو إنهاء الحرب بدليل ما صرح به "ديغول" عندما قال: "إن أساس الوحدة الوطنية مبني على مبدأ السيادة الفرنسية المطلقة على كل أجزاء إمبراطوريتها، و عليه، لا يمكننا التفریط في أي جزء من هذا المبدأ..⁵ و حقيقة الأمر، أن الرد الرسمي الفرنسي على محتويات البيان و ملحقه، تضمنه قرار 07 مارس 1944. و هكذا يمكننا استنتاج أن مطالب النواب انتهت بالفشل، الأمر الذي كان متوقعا من طرف الوطنيين.

2- فرنسا أمام المطالب المغربية الإصلاحية

لم تترك السلطات الفرنسية هذه الوقفة الوطنية المغربية تمر مر الكرام بعد نشرها للبيان. و جاء الرد عنيفا من الجزائر، أين كان مقر اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، التي طلبت من القصر الملكي في الرباط بحذف كلمة "الاستقلال" من القلوب و الأفواه، و أن المجهود كله لا بد أن ينكب على الجهد الحربي، لأنه هو الأهم في الوقت الراهن. فبعثت السلطات الفرنسية بـ "ماسيغلي" Massigli، المحافظ الجديد للشؤون الخارجية الفرنسي، إلى الرباط في 28 جانفي 1944،⁶ ليقوم بتهدئة الأوضاع، و اعدا المسؤولين المغاربة بعزم السلطات الفرنسية الجديدة إحداث إصلاحات هامة مباشرة بعد نهاية الحرب، مؤكدا على نقطة هامة و هي عدم استعداد فرنسا لتغيير نمط علاقتها القائمة مع المغرب. و أنها ستبقى وصية على المملكة، و لن تسمح بأي حرق أحادي الاتجاه لاتفاقية 1912.⁷

إن الطريقة التي تعاملت بها السلطات الفرنسية مع أحداث جانفي و فبراير من سنة 1944، لم تعجب السلطان المغربي، الذي اشتكى الأمر إلى الجنرال "ديغول"، عندما زار باريس في ماي 1945. في الواقع، لقد

¹ - Beghou (Youcef), Le manifeste du peuple Algérien..., op.cit, p 42.

² - Ibid..., p 47.

³ - Julien (Charles André), L'Afrique du nord en marche..., op.cit., p..

⁴ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme.. t2, op.cit., p 648.

⁵ - L'Echo d'Alger, du 31 mai 1943.

⁶ - Le Tourneau (Roger), Histoire du Maroc moderne..., op.cit., p 221.

⁷ - Voir la conférence de Gabriel Puaux, Commissaire résident général au Maroc à la suite des événements de Jan-fév.- 1944 In Echaoui Mohamed, Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., p 446.

استقبل الملك كرجل دولة بكل ما تحمله الكلمة من معنى لأنه، حسب الفرنسيين، بقي وفيا لفرنسا حتى في أحلك الظروف.¹ و قد قلد وسام "صليب التحرير" أمام جمع غفير من الفرنسيين و العرب، مما جعله يفكر في التفاوض مباشرة مع زعيم فرنسا الحرة.

بالمناسبة، فإن "ديغول" تفتن لأهمية زعماء المحميتين- السلطان و الباي- في إدارة شؤون البلدين و علاقاتهما مع فرنسا. و تضمنت مذكراته هذا الموقف عندما صرح: "إن السيادة في الإمبراطورية و في إيالة تونس تختلط مع ملوكهما، و أريد أن أتفاوض معهما مباشرة..²"

من خلال مختلف النقاشات التي كانت له مع "ديغول"، أقر السلطان محمد الخامس بفضل نظام الوصاية على المغرب حيث جلب، حسب: "النظام و العدالة و قاعدة رفاهية جيدة و بداية تعليم الجماهير و تكوين النخب"، و أضاف قائلاً للجنرال "ديغول": "إنني ورثت هذا النظام منذ عهد عمي "مولاي حفيظ" و بعده والذي "مولاي يوسف"، و يمثل اليوم بالنسبة لي، مرحلة انتقالية بين مغرب الماضي و مغرب حر و عصري و أن الوقت قد حان للمرور إلى مرحلة جديدة..³"

الملاحظ على "ديغول" أنه كان متفقاً مع السلطان المغربي على الهدف المستقبلي الذي لا بد على المغرب أن يحققه، و هو الاستقلال. و قد اعترف بضرورة إدخال تعديلات في العلاقات الفرنسية المغربية نحو هذا الاتجاه. غير أنه مقتنع بعدم التسرع حتى لا نسبق الأحداث. لأن الحرب لا زالت قائمة، و أكثر من ذلك، أن "ديغول": "تدفع بالطابع المؤقت لسلطته..⁴" و أضاف، أن المغرب غير مهياً لتسيير شؤونه بالإمكانات الحالية، و بالتالي فإن وعود الرئيس الأمريكي ليست في الواقع سوى: "نداء الدولارات و مكانة ضمن أتباعه..⁵"

كما طلب ديغول من السلطان المغربي أن يحذر منها، لأنه في الأصل، كان يريد إقناع السلطان بضرورة العدول عن فكرة الاستقلال، و لو ظرفياً، و التفكير في نمط سياسي جديد يكون أقرب إلى النظام "الفيدرالي" أو حتى "الكونفدرالي" تحت لواء "الإتحاد الفرنسي".

كان من المفروض أن تحدث الحرب تغيرات جذرية في المواقف و العلاقات بين فرنسا و إمبراطوريتها، غير أن ذلك لم يحصل في الاتجاه الذي كانت تصبوا إليه الشعوب المستعمرة. بالرغم من أن معظمها قد وقف إلى جانب فرنسا في بداية الحرب في سبتمبر 1939، و تعهد بالكفاح إلى جانبها و مدها بالمساعدة البشرية و المادية اللازمة في مثل هذه الظروف.

فبعد الهزيمة و الاستسلام لم تحاول أية مستعمرة من استغلال الظرف الذي كانت تمر به القوة الاستعمارية الفرنسية من أجل إحداث الفوضى، و قد لخص ذلك "ميتيران" Mitterrand عندما قال: "لم تظهر أي حركة

¹ - De Gaulle (Charles), Mémoires de guerre, T3, Le salut 1944-1946, éditions Plon, Paris, 1959, p 262.(502 P).

² - Ibid., p 261.

³ - Echaoui (Mohamed), Evolution de ..., op.cit., p 89.

⁴ - Valette (Jacques), La France et l'Afrique Française du Nord 1914-1962, collection Sedès, regards sur l'histoire, Paris, 1993, p 101. (501 P)

⁵ - De Gaulle (Charles), Mémoires de guerre ..., t3., op.cit., p 263.

انفصالية.. إن مصائبنا في الحرب قد أوقفت مسيرة الزمن، كما لو أن الشعوب المرتبطة معنا لم تريد أن تستغل ضعفنا لتأخذ منا ما كانت تنتظره بموافقتنا..¹ وكانت تنتظر من فرنسا الكثير و لكن..للأسف ! في حين، و خلفا لكل توقعات الإمبراطورية، فإن الأحداث قد عززت من سلطة فرنسا في الوقت الذي بدأت فيه الحركات الوطنية تطالب بمطالب غير تلك التي كانت في مرحلة ما بين الحربين.

تعززت سلطة فرنسا على مختلف مستعمراتها، و خاصة منها المغرب و تونس، قبل نهاية الحرب. و كان وضع المغرب محل نقاش كلامي بين محافظ الشؤون الخارجية و لجنة الخلاص الوطني الفرنسية في الجزائر. لأن هذا المحافظ كان يصدر قراراته بشأن المغرب بطريقة فيها كثير من الغموض. كما تضمن البند الأخير من القرارات التي اتخذتها اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني في هذا الشأن : "هذا القرار ساري المفعول على كافة المناطق الخاضعة لسلطة اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني. و سوف تنشر في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية مع تطبيقها كقانون..²"

أما بالنسبة لمحافظ الشؤون الخارجية، فإن المسألة لم تكن مجرد مسألة إجراء، و إنما قضية قانونية مقدسة. لأن كل من تونس و المغرب قد حافظا على استقلاليتهم التشريعية، و أي إجراء آخر سيمثل خرقا صريحا للمواثيق التي تربط فرنسا بالدولتين، و سيجعل ذلك منهما محافظات و مستعمرات ما وراء البحار. هذا الإجراء الذي حاربه الوطنيون خلال الثلاثينيات.

3-المواقف الفرنسية والقرارات الإصلاحية لتجسيد الفكرة الإدماجية

في الأوقات العسيرة للأزمة التي شهدتها تونس مع مطلع سنة 1946، سارعت الإدارة الفرنسية بقيادة الجنرال "ماست" إلى تقديم مشروع إصلاحات شامل للحكومة الفرنسية للنظر فيه، بعدما تمت استشارة كل الأطراف الفاعلة في الحركة الوطنية التونسية. غير أن فرنسا كعادتها أطفأت آمال التونسيين، كما فعلت في فبراير 1945 و ديسمبر 1945 و ماي 1946، و لم تقدم إلا القليل من الإصلاحات التي تم التصويت عليها من طرف المجلس الأعلى التونسي.³

كما لم تقم فرنسا باحترام الوعود التي كانت قد قدمتها للتونسيين عندما تخلت عن المشاريع التنموية التي كانت تنوي القيام بها في تونس، منها تهيئة المدن و تطبيق النظام البلدي لمدينة تونس على مجموعة من المدن

¹ - Mitterrand (François), Aux frontières de l'Union Française ; de l'Indochine à la Tunisie, éditions Julliard, Paris, 1953,(220 P). (Cité aussi par : Borella François, L'évolution politique et juridique de l'Union Française depuis 1946, LGDJ, Paris, 1958, p 25) 499P.

² - Notes sur les « Statuts des Protectorats Marocain et Tunisien » adressée par la direction politique, division Afrique-Asie-Océanie des affaires étrangères au comité juridique du CFLN, Alger 1944, archives du Quai d'Orsay, dossier Guerre, Alger.(Cité par Levisse-Touzé., L'Afrique du Nord dans..., op.cit., p.)

³ - ANOM, GGA, 8Cab/57..., rapport sur les..., op.cit., p 4.

التونسية مثل؛ بنزرتة صفاقصة سوسة و القيروان. و ما رفض محتوى الخطاب الذي تقدم به الجنرال "ماست" إلى السكان المسلمين في العاشر من جويلية إلا دليل قاطع على أن اللجنة الوزارية لشمال إفريقيا غير مستعدة للبحث في مسألة الإصلاحات في الوقت الراهن.¹

برفضها لما جاء في محتوى خطاب الجنرال "ماست"، استطاعت فرنسا أن تقضي على أحلامها في تونس. من ذلك أن الحزب الاشتراكي الفرنسي أصدر بياناً، مباشرة بعد انتهاء أشغال مؤتمره في الجزائر في 13 جويلية 1946، يطلب من خلاله الحكومة الفرنسية أن تتخذ إجراءات عاجلة للشروع في الإصلاحات التونسية. وقد تدعم هذا طرح بالرسائل الأخرى التي بعثت بها مختلف المنظمات الديمقراطية للمحمية و الكونفدرالية العامة للشغل في تونس.²

و على الرغم من كل هذه النداءات و كل هذه الطلبات، و بالرغم من كل العرائض الواقعية المقدمة و المبررة، من مختلف التنظيمات الفرنسية و التونسية، إلا أن حكومة باريس بقيت صامته و رفضت الاهتمام بالمسألة التونسية. هذا ما أثر في السكان المسلمين و زاد من تعنت الوطنيين، لدرجة أن الهوة اتسعت بين المحمية و المتروبول و أصبحت الوضعية تنذر بمأساة قريبة قد تعصف بتونس بأكملها.³

إن نص القرار المؤرخ في 7 مارس 1944،⁴ مثل وثيقة أساسية للنظام الاستعماري، الذي وضع - على الورق - الجزائريين و الفرنسيين على قدم واحدة و سوى بينهم في الحقوق و الواجبات.⁵ ثم وضحت جملة من المواد و القوانين طبيعة هذه المساواة. و هو مستوحى من مبادئ لقاء "برازافيل" الذي انعقد في جانفي 1944 أين صرح الجنرال "ديغول": "إن سياسة فرنسا قائمة على الأخذ بشعوب مستعمراتها نحو تطور تدريجي سيمكنها لاحقا من تسيير شؤونها بنفسها...."⁶ غير أن مجيء "ديغول" إلى الجزائر يوم 30 ماي 1943 غير من معطيات كثيرة التي ساهمت في استقالة "بيروتون"، و وضعت اللجنة الأولى لما سيعرف باللجنة الفرنسية للتحرير الوطني C.F.L.N. برئاسة "ديغول" نفسه الذي سيكلف الجنرال "كاترو" بملف الجزائر.

هذا الأخير الذي كان "ابن البلد" كما يقال، بحيث أنه ولد في مدينة سعيدة، عمل في الجزائر معظم مراحل حياته و كان مختصا في الشؤون الإسلامية و قد عرف عنه ميوله "الليبرالي" لدرجة أنه حاول عدم إثارة شعور أوروبيي الجزائر، الذين كانوا ضد أي نوع من الإصلاحات الفورية التي من شأنها جعل المسلمين في مستواهم و بالتالي إحداث خلل في التوازن القائم بين الجزائريين و الفرنسيين. من هنا بدا واضحا أن أهمية الأوروبيين في حسابات "ديغول" و "كاترو" هي التي ستفوز في الأخير.

¹ - Ibid., p 4.

² - Id., p 4.

³ - Id., p 5.

⁴ - Voir le texte intégral de l'ordonnance au Journal Officiel de la République Française du 18 Mars 1944.

⁵ - مرة أخرى تحاول الإدارة الاستعمارية التحايل على الجزائريين بإصلاحات مغرية، إلا أنها في الأصل فكرة كاذبة ما دام أن الجزائريين لم يكونوا أبدا فرنسيين، لا بالجنسية و لا بالمعاملة و لا حتى من جانب التصرفات اليومية للكولون و الإدارة الاستعمارية. و الحقيقة أنهم كانوا بمثابة عبيد تحت وطأة و تصرف فرنسا الاستعمارية...

⁶ - Aron (Robert) et al., op.cit, p 83.

لقد كان "كاترو" واضحا من خلال الكلمة التي ألقاها أمام لجنة الإصلاحات المسماة "لجنة الدراسات الاقتصادية و الاجتماعية" عندما حاول تأخير الموضوع الجزائري إلى ما بعد الانتهاء من الحرب ضد النازية. غير أنه شدد على أن يكون ذلك ضمن إطار الوحدة الفرنسية. و خلال صائفة 1943 بدأت جملة من "الحلول" الظرفية ترى النور، نذكر من بينها تساوي الراتب الشهري بين العساكر الجزائريين و الفرنسيين، و فتح مناصب التوظيف العمومي أمام المسلمين الجزائريين، و تخصيص منصب النائب الأول للبلدية للأهالي، و أخيرا إعادة النظر في نظام الشركات الأهلية للاحتياط من أجل تسهيل القروض أمام الفلاحين الجزائريين.

من هنا يظهر للعيان أن الحكومة العامة كانت عاجزة عن إيجاد أي حلول ترضي بها الطرفين، فلم يكن أمامها سوى إخراج ملف مشروع "بلوم-فيوليت" لإعادة صياغته من جديد، و لكن دائما ضمن حدود "الإمبراطورية الفرنسية". فجاء الخطاب الذي ألقاه "ديغول" في قسنطينة يوم 12 ديسمبر 1943 حاملا معه البذور الأولى لقرار مارس 1944، بعد أن ثمن دور الجزائريين في الحرب. فكلّف لجنة لتحضير ملف الإصلاحات.¹

فباشرت هذه اللجنة عملها بداية من 21 ديسمبر 1943 إلى غاية 8 جويلية 1944،² فأنجزت مجموعة معتبرة من التقارير شكلت القاعدة الأساسية لمعرفة مختلف التوجهات للمشاكل الجزائري. فكانت العملية في الأصل عبارة عن مجموعة من الإجراءات من أجل تحسين الظروف المعيشية لغالبية الشعب الجزائري.

في نفس الوقت الذي كانت فيه لجنة الإصلاحات منكبه على إيجاد حل لداء الجزائر و الجزائريين، حاولت الإدارة الاستعمارية في الجزائر التصدي لمقترحات "ديغول" و قد قدم والي ولاية وهران مذكرة يطلب من خلالها توخي الحذر أمام العادات الانتخابية الجديدة في الجزائر.³

اغتنم "ديغول" الظروف التي كان يتم فيها إعداد مشروع اللجنة، ليصدر قرار السابع مارس 1944 الذي تضمن مجموعة من الإصلاحات أهمها؛ حصول الجزائريين على نفس الحقوق و الواجبات التي كان يتمتع بها الفرنسيون، و إمكانية ممارسة الوظائف الرسمية مدنية كانت أم عسكرية، و رفع التمثيل الجزائري في المجالس المنتخبة إلى الخمسين 5/2، كما أصبح عدد المنتخبين الجزائريين الذين بلغوا سن الواحد و العشرين، أكثر من 1.500.000، غير أن قانون المواطنة أو الجنسية كان مخصصا لقراءة ستة عشر طبقة من بينهم؛ الضباط القدامى، و الحائزين على شهادات، الموظفون، المتقاعدون، أعضاء الغرف الاقتصادية، باشاغا، أغا، و قياد..⁴

¹ - تأسست هذه اللجنة في 14 ديسمبر 1943، و كانت مهمتها إنجاز مشروع إصلاحات سياسية و اقتصادية و اجتماعية لفائدة الجزائريين. و ضمت أربعة موظفين كبار،

و ثمانية مواطنين فرنسيين غير مسلمين (ثلاثة منهم من فرنسا)، و ستة أعضاء مسلمين هم على التوالي: شيخ العرب سي بوعزيز بن قانة، و المندوبين الماليين؛ بن جلول، تامزالي، و فضيل الورثاني، و الشيخ العقبي، و قاضي عبد القادر، رئيس جمعية الفلاحين الجزائريين. فماذا يمكننا أن نستنتج من وراء هذه الأسماء الجزائرية؟ سوى أن فرنسا "ديغول" قد أخطأت مرة أخرى في المراهنة على الجواد الرابع.

² - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, pp 652-653.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2, op.cit., p 653.

⁴ - Ibid..., p 653.

و قد تبعت القرار مجموعة من النصوص تضمنت إلغاء قانون الأهالي و معه القوانين الاستثنائية، كما فتح الباب لـ 50 أو 60 ألف جزائري للحصول على المواطنة.¹ و كان مشروع بلوم فيوليت قد حددها قبل الحرب العالمية الثانية بـ 20 ألف فقط. أما النصوص التي كانت تنجز تدريجيا فقد أدرجت برنامجا يمتد على مدى عشرون سنة،² سيتمكن بقية الجزائريين من الحصول على المواطنة، بعدما يتم ترقية المسلمين الجزائريين أخلاقيا،³ اجتماعيا و اقتصاديا.⁴

من الواضح أن هذا القرار يمثل الجواب الرسمي للإدارة الاستعمارية تجاه مطالب البيان الجزائري، و من ذلك يمكننا أن نستنتج الفشل الذريع الذي أصاب مطالب النواب، و هو ما كان متوقعا من طرف الوطنيين بالنظر للسياسة الاستعمارية و مواقفها من كل مطالب الحركة الوطنية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى و إصرار فرنسا على انتهاج سياسة الإدماج و الاعتراض على فكرة الاستقلال حتى و لو كانت تحت الغطاء الفدرالي. هذا ما تجسده روح مشروع بلوم-فيوليت بشكل أوسع.⁵

4- حكومة "ديغول" ترفض الاعتراف بحقوق مسلمي شمال إفريقيا

لقد رسمت كارثة سنة 1940 نهاية الجمهورية الثالثة و قد تبعته سنوات الحرب العالمية الثانية و فترة حكومة "فيشي" و عهد الجمهورية الرابعة و انتصار أنصار ديغول فيما بعد.⁶ كما اصطلح على هذه الفترة بمفهوم "الإصلاحات". فتوالت الإصلاحات الكبرى كالأمواج الصاخبة المتدفقة على فترات، بداية بإصلاحات حكومة الجبهة الشعبية ثم المبادرات الإصلاحية التي باشرتها حكومة فيشي بعدها جاءت إصلاحات حكومة الخلاص الوطني و إعادة بناء الجمهورية الخامسة التي ميزها الكم الهائل للأوامر Ordonnances التي أطلق لها العنان الجنرال ديغول في مرحلة حاسمة من تاريخ فرنسا الاستعماري.⁷ واجهت حكومة الكارتل أولى الصعوبات في مستعمراتها الموجودة فيما وراء البحار بعدما قدمت هذه المستعمرات المحاربين و العمال و المواد الإستراتيجية لخدمة المجهود الحربي الفرنسي مما جعل التضحيات و الوفاء الذي صاحبها طيلة فترة الحرب الكبرى تشد إليها الرأي العام الفرنسي الذي كان يرى من واجب فرنسا أن تقوم بتنمية الثروات الطبيعية و رفع المستوى المعيشي للسكان.⁸

¹ - Julien (Charles André), L'Afrique du nord en marche..., op.cit, 258.

² - ماذا يمكننا أن نفهم من برنامج يمتد على مدى 20 سنة؟ و نحن في سنة 1944؟ لا شيء إلا استمرارية النظام الاستعماري في الجزائر، لأنه حينها ستكون في سنة 1966؟؟

³ - و هل كانت تنقص المسلمين الجزائريين الأخلاق؟

⁴ - Mahsas (Ahmed), Le mouvement révolutionnaire..., op.cit, pp 171-172.

⁵ - Nouchi (André), La naissance du nationalisme Algérien..., op.cit, p 138.

⁶ - Rémond (René), Notre siècle 1918-1995, tome 6, librairie Arthème Fayard, Paris, 1996, p9.

⁷ - Rémond (René), Notre siècle 1918-1995..., op.cit. , p 13.

⁸ - Ibid., p 94.

كما أنه في عهد هذا الكارتل بدأت أولى الهزات داخل المستعمرات. و لم يكن أحد من اليسار و لا اليمين مهيمًا مثل هذه الظروف. فاعتمدت فرنسا على القوة من أجل قمع هذه الحركات الوطنية. مما سبق ذكره يتضح أن فرنسا لم تكن تفكر إطلاقًا في تغيير سياستها مع مستعمراتها، غير أن مشكل تمثيل المستعمرات طرح مجددًا و بحدة خلال ندوة برازافيل، الأمر الذي دفع بسلطات فرنسا الحرة إلى اعتماد، في الشق المخصص للتنظيم السياسي للإمبراطورية، بضرورة وجود ممثلين عن المستعمرات في المجلس الفرنسي المستقبلي الذي سوف توكل إليه مهمة وضع الدستور الفرنسي الجديد.¹ و ذلك اعترافًا من فرنسا بالتضحيات التي قدمتها المستعمرات خلال السنوات المظلمة من تاريخها. كان يهدف هذا الدستور إلى فتح المجال أمام كل الحساسيات الأهلية من أجل التعبير عن انشغالاتها و اهتماماتها، بمعنى بسيط، إنشاء برلمان استعماري أو تأسيس مجلس فيدرالي.

استبعدت مسألة التحرر في البلدان التي كانت خاضعة للحماية الفرنسية في شمال إفريقيا، على الأقل لمدة لا تقل عن اثني عشر سنة بداية من سنوات 1945-1946. و قد كتب الأمين العام للحكومة الفرنسية ج. بيدو. شوفيل، G. Bidault Chauvel، سنة 1946، بهذا الصدد: "لا يمكننا السماح للحركات المستقلة التونسية و المغربية أن تتطلع إلى تحقيق مبتغاها المتمثل في إعادة النظر في نظام الحماية، لأن ذلك من شأنه أن يضعف من سلطتنا و نفوذنا على الصعيدين الدولي و الداخلي.. يمكننا أن نفكر في شراكة فرنسية عربية فيما يخص إعداد القوانين و كذا المشاركة في الحياة الإدارية لبلدان إفريقيا.. لا ننسى كذلك، أن الإدارة السياسية لبلد ما مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بطاقتها الإدارية، و هنا، كما هو الحال في الشأن السياسي، لا بد أن تبق الإدارة تحت إشراف و مسؤولية فرنسا."²

بعدما أزيحت مسألة التحرر من النقاش السياسي، عكفت الطبقة السياسية الفرنسية و بعض القانونيين على وضع أسس لنقاش كبير حول الوضعية القانونية للبلدان الخاضعة للحماية الفرنسية داخل هذه المجموعة الفرونكو-كولونيالية الجديدة التي تسبق قيام الإتحاد الفرنسي. لأن بلدان مثل المغرب و تونس و الكامرون و الهند الصينية، كانت تتمتع بقوانين مختلفة عن تلك التي كانت ممنوحة للمستعمرات و المحافظات الفرنسية، و ذلك بالرغم من أن التقليد الفرنسي للإدماج كان قد صادر مفهوم المراقبة لحساب تسيير إداري مباشر.

لقد أقر الدستور الجديد لهذه المناطق قانون "دول مشاركة" دون استشارة شعوبها.³ بحيث أن المادة 61 من من دستور الإتحاد الفرنسي تنص على أن انخراط دول شريكة في المستقبل سوف يكون ناتجًا عن الفعل (القرار)

¹ - هذا الدستور سوف يرى النور مع انتخاب الجمعية التأسيسية الثانية في 2 جوان من سنة 1946 التي سوف تصادق على الدستور الفرنسي في 24 جويلية 1946. و سيكون هذا تمهيدًا لوضع السلطات الفرنسية لما عرف بالقانون الأساسي للجزائر في 20 سبتمبر 1947 و مجالس فيدرالية في المستعمرات الأخرى لما وراء البحار.. أنظر :

² - Chauvel, note pour le ministre, 18 mars 1946. (Cité par Valette Jacques...op.cit, p 102.)

³ - هناك عدة دراسات تطرقت إلى موضوع الحماية و الإتحاد، خاصة فيما يتعلق بالمغرب و تونس. لمزيد من المعلومات أنظر كل من :

- Borella François, L'évolution politique et juridique de l'Union..., op.cit., p 329.

الذي تحدده علاقاتها مع فرنسا، دون أن يعطي توضيحات حول المسألة. غير أن البعض رجح بأن يكون هذا الفعل عبارة عن اتفاقية جديدة تربط هذه الدول بفرنسا. أما البعض الآخر، فقد اعتبر أن اتفاقيات الحماية الأصلية تشكل في حد ذاتها فعل شراكة. ما دام أن هناك فرق طفيف بين الإتحاد و الإمبراطورية من حيث المحتوى والشكل. هذا الحوار القانوني لم ينتهي إلا بصدر قرارات كل من "اللجنة القانونية للإتحاد الفرنسي" في 4 فبراير 1948 و "مجلس الدولة" في 12 ماي 1949، التي أقرت الشراكة الآلية مع فرنسا، لكل من تونس و المغرب، بحكم اتفاقيات الحماية التي أبرمت سنوات 1881 و 1912.

جاء رد فعل الوطنيين و السلطان، في المغرب، رافضا لفكرة الإتحاد المقترحة من طرف فرنسا. و بدا ذلك واضحا منذ انتخابات 2 جوان 1946 للجمعية التأسيسية، عندما عارضوا فكرة حق الانتخاب الذي منح للفرنسيين المقيمين في المغرب. حيث لم يكن الأوروبيون يتمتعون بحقوق سياسية في المغرب. لذا لم يكن لهم الحق في شغل مناصب في المجالس المنتخبة المحلية و لا المشاركة في الانتخابات الفرنسية من خلال إرسال منتخبين. هذا الوضع أوضحه السلطان "سيدي محمد" خلال زيارته لباريس في 1945 و 1950. لأن بالنسبة للمغاربة، يعتبر دخولهم في الإتحاد بمثابة رهن سيادتهم لفائدة هيئة تضم منتخبين من المستعمرات مما يعزز الدور السياسي لأوروبيي المغرب. و هكذا، عوض أن يؤدي الطابع المؤقت للحماية إلى الاستقلال الحتمي، فإنه سوف يجسد هيمنة فرانكو- إمبريالية على المغرب.

5- لقاء برازا فيل يجسد الجمود السياسي الفرنسي

افتتحت أشغال هذه الندوة في 30 جانفي 1944، في الوقت الذي كانت فيه سلطات الرباط تجمع المتظاهرين الأبرياء الذين عبروا عن فرحتهم بتقديم زعمائهم "للبيان من أجل الحرية" إلى السلطات الفرنسية لتبث فيه. حيث قام أعضاء ممثلين عن اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، باستدعاء الحكام العامون في كل المستعمرات الفرنسية، في الساحل و في إفريقيا الغربية و الاستوائية.. أما بلدان إفريقيا الشمالية الثلاث، فقد مثلها موظفون معينون من قبل الحاكم العام للجزائر، و المقيمين العامين لكل من تونس و المغرب.

إن نوعية التمثيل في هذه الندوة، حوالي 20 حاكم عام و حكام المستعمرات إلى جانب 30 خبير كلهم موظفون.¹ حيث أظهر منذ البداية الفرق بين شمال إفريقيا و باقي المستعمرات الفرنسية الأخرى. و الحقيقة أن اللقاء هذا كان موجه أكثر للمستعمرات الإفريقية الأخرى، إلا أن توصياته السياسية كانت جائزة على كل الأراضي الاستعمارية دون استثناء. و قد أوضحت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني أن هذه الندوة لا يمكنها بأي

- Lampué Pierre, Les territoires associés et les Etats associés suivant la constitution, Paris, 1947.

- Quoc Dinh N, La question de l'état associé d'après la constitution, in R.J.P.U.F, 1951, p 466.

- Flory (André), La notion du protectorat et son évolution en Afrique du Nord, in R.J.P.U.F, 1954, p 448. Et 1955, p 53.

¹ - De la Gorce (Paul-Marie), Charles de Gaulle, t1..., op.cit., p 774.

شكل من الأشكال أن تحل محل السلطة التشريعية الفرنسية، بمعنى آخر المنتخبين من طرف الشعب، عندما تسمح الظروف بتنظيم شؤونهم.¹

كما أن التنظيم السياسي للإمبراطورية الفرنسية قد شدد منذ بداية الأشغال على "سلطة فرنسا السياسية على جميع مستعمراتها" و قطع الطريق أمام أية محاولة انفصالية خارج الإمبراطورية الفرنسية. و حتى التفكير في إنشاء حكومة تدير شؤونها بنفسها، في المستعمرات، غير مقبول في نظر فرنسا الاستعمارية.²

إن التصريحات التي أدلى بها محافظ المستعمرات "بليفن. ر" Pleven.R، كانت واضحة. حيث شدد على الطابع الفرنسي للمستعمرات و رفض أية محاولة تحررية. فقال: "إننا نسمع من حين لآخر، بأن هذه الحرب سوف تنتهي باستقلال البلدان المستعمرة. فنقول لهم بأنه في فرنسا الاستعمارية الكبرى لا توجد شعوب للعتق.. هناك سكان، و علينا أن نقودهم مرحلة بمرحلة، إلى امتلاك الشخصية و هم لا يريدون سوى استقلال فرنسا..³ غير أنه في نفس الوقت ترك المجال مفتوحا أمام إمكانية التنقيب في المفهوم "الفيدرالي" للمستعمرات، و التي ستبث فيها حكومة منتخبة مستقبلا.⁴

نفهم من كل هذه التصريحات أن الآمال الشرعية التي علقها المغاربة على المقاومة الفرنسية قد تبخرت، ما دام أن فرنسا قد حددت في لقاء برازافيل الإطار العام لسياستها في المستعمرات. فالرسالة كانت واضحة و موجهة إلى سكان المستعمرات، و بدرجة أكثر إلى قوات المتحالفة التي بدأت تهدد المصالح الاستعمارية الفرنسية منذ سنة 1943. و قد جاء في "مذكرة الجزائر" الصادرة في الفاتح من شهر أفريل 1943، أن "لجنة الخلاص الوطني الفرنسية" CFLN قد وضعت من ضمن أهدافها: "المحافظة على الأراضي الفرنسية لما وراء البحار..⁵

أخذت التوصيات الاقتصادية و الاجتماعية حصة الأسد من أشغال الندوة، و جاءت متضمنة للنتائج الختامية لها. لأن زعماء فرنسا الحرة، و على رأسهم ديغول، شعروا بالفقر المزمن الذي تعانيه شعوب المستعمرات و بظروف التخلف التي تعيشها هذه المستعمرات و قلة الاهتمام التي توليها الإدارة الاستعمارية لمسائل التطور الاقتصادي و الاجتماعي لهذه البلدان.

ركزت الندوة في مشروعها للإصلاحات الاجتماعية على النخبة التقليدية المتكونة أساسا من أعيان الأهالي و المنتخبين في المجالس العامة و الفرعية. أي استغلال المؤسسات التقليدية الموجودة في تمرير هذه المشاريع التي لم تبقى تشد اهتمام الشعوب المستعمرة و لا طبقتها السياسية الممثلة في حركتها الوطنية. هنا نطرح السؤال التالي: لماذا عادت فرنسا إلى الوراء عوض أن تتقدم إلى الأمام ؟ لأن هذا الطرح مثل تراجع حقيقي في طريقة إدارة مشاكل المستعمرات و في طريقة التمثيل الحقيقي للسكان.

¹ - Viard (R), La fin de l'Empire colonial français, éditions Maisonneuve-Larose, Paris, 1963, p 12.(160P)

² - Michel (H) et Mirkine-Guetzévitch (B), Les idées politiques et sociales de la résistance, collection esprit de la résistance, PUF, Paris 1954, p 339.(410P)

³ - Bourguiba (Habib), La Tunisie et la France, éditions Julliard, Paris, 1954, p 202.

⁴ - De la Gorce (Paul-Marie), Charles de Gaulle, t1., op.cit., p 775.

⁵ - Busquât (René), De Gaulle-Giraud, éditions Flammarion, Paris, 1967, p 234.

أوضحت التجربة الاستعمارية القديمة بأن "النخب التقليدية" لم تكن سوى أدوات في يد الهيئات الاستعمارية، تديرها كيف ما تشاء، فكانوا ينعنون "ببني وي وي".¹ بينما الشباب المتكون تكوينا فرنسيا و المؤهل كان ينتظر أن تمنح له الفرصة في تقلد مناصب مسؤولية كان جدير بأن يحض بها.

هناك توصيات أخرى كانت تنص على فتح أبواب الإدارة أمام المزيد من الموظفين الأهالي، غير أن التأطير لا بد أن يبقى فرنسيا. لا تسير المصالح إلا من طرف الإطارات من المواطنين الفرنسيين. و في الأخير، فإن "ندوة برازافيل" بتوصياتها هذه، قد أقرت على نفسها فشل السياسة الفرنسية في جميع الميادين، السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و فشل سياسة التعليم، و الشغل و العدالة.

إن النصوص التي كانت محور النقاش في لقاء "برازافيل" لم تترك أي مجال للشك حول النوايا الحقيقية لفرنسا تجاه مستعمراتها. فهي حددت منذ البداية اللعبة في شكل "...حمل الأفارقة إلى المسؤولية التامة التي سوف تمكنهم من الحفاظ على عاداتهم و مؤسساتهم الخاصة. و جعل شخصية البلدان الفرنسية لما وراء البحار تظهر داخل نظام فدرالي، يبرز بوضوح الشراكة الموجودة بين المستعمر و المستعمرة".²

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de ..., op.cit, p 95. Et cité avant cela par Abou Kacem Saadallah. Voir :

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية.....، ص 64.

² - كان واضحا من وراء النصوص المقترحة في ندوة "برازافيل"، أن فرنسا تريد توجيه سياستها المستقبلية نحو بروز "أوطان إفريقية" و دول "فدرالية". ليس على شاكلة "الدومنيون" البريطاني، و إنما على الطريقة الفرنسية التي لا تريد أن تتخلى عن مستعمراتها مهما كلف ذلك. أنظر إلى:

- De la Gorce Paul-Marie, Charles de Gaulle, t1..., op.cit..., pp 774-775.

الفصل الرابع

الآثار الاقتصادية و الاجتماعية

على سكان شمال إفريقيا

تمهيد

بالرغم من الصعوبات الاقتصادية و الاجتماعية التي كان عليها المسلمون في شمال إفريقيا، و معاناتهم اليومية جراء نقص الغذاء و مشاكل التمويل و ارتفاع الأسعار و انتشار السوق السوداء، إلا أنهم عرفوا كيف يواجهون هذه الظروف و يجعلون منها روحا للصمود و المقاومة، يحذوهم في ذلك أمل التخلص من الوجود الاستعماري الفرنسي على أرضهم و إلى الأبد. و دعم هذا الأمل عند الوطنيين، الإعلان عن قرب موعد انعقاد مؤتمر "هليوبوليس" في مصر، و الذي سيشهد ميلاد الجامعة العربية، و كذا انعقاد مؤتمر "سان فرانسيسكو" الذي كان يفترض أن يضع حدا نهائيا للحرب و للحركة الاستعمارية في العالم و يجسد مبادئ ميثاق الأطلسي على أرض الواقع.

كما لا يختلف اثنان على أن الوجود الفرنسي قد حول تحويلا عميقا البنى الاقتصادية لبلدان شمال إفريقيا. و طبع ثقافته بقوة و غير حتى من مظهره. حيث سمح هذا التحديث بانطلاقة ديمغرافية لا سابق لها. فقد تضاعف عدد السكان مرتين خلال الثلاثين سنة الأخيرة، و ثلاث مرات منذ 1880. مما سمح بتمدين قوي، جامعا ما بين ربع السكان و ثلثهم في مدن مثل؛ الدار البيضاء و الجزائر و تونس، و التي تعد من بين أكبر المدن الإفريقية. في المقابل بقي النمو الكلي للإنتاج متواضعا إجمالا ما بين 2 و 3.5% في العام لا حسب البلدان و الفترات الزمنية. فهو نموذج الخيارات الاستعمارية، رغم سعة الجهود و رداءة النتائج.¹

بقي اقتصاد بلدان شمال إفريقيا مرتبط بالاقتصاد الفرنسي خاصة من ناحية التجارة الخارجية التي فرضها النظام الجمركي المطبق في العلاقات بين فرنسا و مستعمراتها، مما يعطينا صورة واضحة عن طبيعة التجارة داخل هذه البلدان. و لم يكن هذا النظام الجمركي متشابه في البلدان الثلاثة، غير أن التفوق الفرنسي يبدو واضحا فيه.²

إن الاستعمار الذي استولى على الجزائر ثم تونس و بعدها مراكش، و بين البلد و الآخر ما يقارب ثلاثين عاما، قد طور بالتأكيد الأساليب الزراعية في مناطق كانت تشهد في غالب الأحيان قفرا مزمنًا. لكن بما أن هذه الثورة الزراعية تركزت في أراضي الاستعمار وحدها تقريبا، فقد كانت التطورات في الزراعة بطيئة في العموم، حيث تراوحت بين 1 و 2.5% في العام حسب الفترات المختلفة.

شهد القطاع الزراعي منذ عام 1930 تراجعًا في وتيرة الإنتاج، خاصة في الجزائر و تونس، لأن ركود الزراعة التقليدية ترك تأثيرا عميقا في الإنتاج الزراعي الذي تراجع إلى مستوى ما تحت نسبة النمو الديمغرافي. مع أن نسبة الإنتاج الزراعي في المناطق الريفية بقيت ثابتة، كما هو الحال في الجزائر، أو زادت قليلا، كما حدث في كل من تونس و المغرب، حيث تطلعتنا الأرقام المتوسطة عن صعوبات كبيرة أدت في النهاية إلى حدوث اختلال في التوازن بين أراضي الاستعمار و الزراعة عند المسلمين.

¹ - Samir (Amin), Le Maghreb moderne., op.cit., p 22.

² - Gallissot (René), L'Economie de l'Afrique du Nord, QJSJ, PUF, Paris, 1964, pp 32-33.

كان تطور الإنتاج الصناعي و البناء أسرع، فهو يتراوح بين 3% سنويا في الجزائر و تونس و 6% في مراكش. لكنه هو الآخر لم يكن متناسقا. جعل الاستعمار من بلاد المغرب منتجا عالميا للفوسفات و الحديد و بعض المعادن غير الحديدية. إلا أنه منذ عام 1930 أصبحت مناجم الجزائر و تونس، و هي أكثر فقرا و أحيانا على طريق النفاذ، في حالة ركود. بينما حلت محلها مناجم مراكش حتى نهاية الفترة الاستعمارية و ما بعدها.

أما العمل الحرفي التقليدي فيشهد ركودا في كل مكان. و ينحط غالبا دون أن تحل محله حقا صناعة التحويل الكبرى. لا بل يحصل ذلك لصالح الاستيراد. ما يزال المغرب متأخرا جدا في الميدان الصناعي، فلم تنشأ إلا بعض الصناعات الغذائية و الميكانيكية، لا سيما بعد الحرب العالمية الثانية (هنا أيضا استدرك تأخره بالنسبة للجزائر خلال خمس سنوات، و بالتحديد بين عامي 1948 و 1953)، لكن ليس ثمة صناعة أساسية واحدة، بل أن هناك قطاعات كاملة من الصناعة الخفيفة (كالنسيج مثلا) ما تزال غير متوفرة. و بحلول عام 1955 كانت الصناعة الكبرى لم تصل إلى 8% من الناتج المحلي غير الصافي. أما تقدم الكهرباء و البناء في الحواضر، خاصة الأوروبي منه المرتبط بالأشغال الكبرى المتعلقة بالبنية التحتية، فقد كان سريعا.

أدى استخراج المعادن و البناء إلى وجود ديناميكية و سمح ببلوغ حصة العمل الحرفي في مجالات الصناعة و البناء بنسبة 25% عام 1955. في المقابل تراجعت حصة الزراعة تدريجيا من 40-45% إلى 30%. و تعطينا هذه المقارنة بالبلدان الصناعية المتقدمة صورة واضحة عن الفروق البنيوية العميقة التي حصلت في القطاع الثاني مع فترة خروج الاستعمار من تونس و المغرب، و اندلاع الثورة في الجزائر، حسب الجدول الموالي:¹

الجدول: بنية الإنتاج الصناعي في بلاد شمال إفريقيا من الاحتلال إلى سنة 1955

طبيعة النشاط	سنة 1955	البلدان الصناعية المتقدمة (1)
الإنتاج المنجمي	17%	من 5 إلى 10%
الحرف - الصناعة الصغيرة	19%	من 5 إلى 10%
الصناعة الكبرى	34%	من 65 إلى 70%
الكهرباء	6%	من 2 إلى 4%
البناء - الأشغال	24%	من 12 إلى 15%
المبلغ الإجمالي: إنتاج صناعي	100%	100%

(1) و.م.أ و أوروبا الغربية

إلا أن الصناعة الكبرى في بلدان شمال إفريقيا لا تؤدي سوى دورا ثانويا، بينما يحتل الإنتاج المنجمي و البناء دورا أهم مما في البلدان المصنعة تصنيعا عاليا.

¹ - Samir (Amin), Le Maghreb moderne..., op.cit..., p 25.

ظهرت الملامح الأولى للصعوبات الاقتصادية مع بداية الحصار البريطاني مع مطلع صيف 1940. حيث بدأت البرقيات تصل في كل الاتجاهات معلنة عن ضرورة إرسال المواد الغذائية إلى هذا المكان و انتزاعه من ذاك المكان، و الحقيقة أن المتروبول كانت تمثل أهمية بالنسبة للسلطات الاستعمارية التي راحت ترسل سلطاتها في المغرب بإرسال كميات من المواد الغذائية عبر ميناء "نمور" (الغزوات حاليا).¹

و لأن شمال إفريقيا لم تحضر للعيش على وقع ندرة بعض المواد الضرورية، اضطرت السلطات الفرنسية إلى اللجوء إلى عملية "تقنين" Rationnement هذه المواد حتى تتمكن من مساعدة المتروبول على تحقيق نوع من التوازن الغذائي. فكانت قضية التموين بمثابة سيف "داموقلس" فوق الرؤوس، خاصة مع اشتداد الأزمة الغذائية في مناطق عديدة، هذا ما اشتكى منه سكان مدينة "تبسة" عندما حطت قوات فرنسية متجهة إلى تونس رحاها في المدينة و قامت بحجز كل المواد الغذائية التي كانت موجودة في المدينة لدرجة أن المواد ذات الاستهلاك الواسع قد نفذت، و مع استمرار الوضع على حاله فلن يجد سكان المدينة شيئا لاستهلاكه. و كان الحال كذلك بالنسبة لغالبية المدن في الجزائر و تونس و المغرب.²

تواصلت معاناة الجزائريين مع هذه الأوضاع التي فرضتها الحرب، لدرجة أن حكام العمالات راسلوا الحاكم العام في مناسبات عديدة لينذروا بوضع كارثي إذا ما استمرت الأمور في هذا الاتجاه. ف جاء تقرير حاكم عمالة وهران "بوجار" Boujard، ليشدد على قرب نفاذ كل المخزون من المواد الضرورية. أما في عمالة الجزائر فقد اشتكى حتى صناع الأحذية في مدينة الجزائر من ندرة الجلود. بينما راسل محافظ شرطة مدينة قسنطينة الجهات الوصية بتقرير تضمن الشكاوي التي تقدم بها تجار المدينة بسبب ندرة المواد الغذائية و أنهم يهددون بغلق محلاتهم.³

كما أوجد الحصار الذي فرضته بريطانيا بداية من 1940، وضعية اقتصادية صعبة في شمال إفريقيا، حيث تأثرت العلاقات التجارية كثيرا بفعل هذا الحصار بين فرنسا و شمال إفريقيا، مما جعل عملية التموين بين الضفتين تتراجع إلى أدنى درجاتها خاصة في المستعمرات، مما أضعف الدور الذي كان يمكن أن تلعبه هذه المستعمرات.

كما استغلت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الظروف لإبرام اتفاقية تموين مع السلطات الفرنسية في فبراير 1941، تحسبا لتحضير بلدان شمال إفريقيا للحرب. و قد عرف الاتفاق بـ "اتفاق مورفي- ويغان".⁴

Accord Murphy-Weygand.

¹ - ANOM, 3cab/3, Télégramme officiel Alger de Rabat, du 10 aout 1940.

² - ANOM..., Rapport journalier du 19 septembre 1939, ville de Tébessa. (Photo 5651/C.M 1)

³ - ANOM..., Voir en annexe n° 17, les rapports et doléances des 3 départements. (Photo 5661 +)

⁴ - كان ينص هذا الاتفاق على تبادل السلع عن طريق الاستيراد. كما نصت الاتفاقية على تنصيب "قناصل" أمريكيين في كل شمال إفريقيا لمعاينة عملية توزيع السلع على المواطنين. غير أنه في حقيقة الأمر، كانت نوايا الأمريكيين ربط علاقات مع المواطنين الأوروبيين و الأهالي في مستعمرات

سارعت حكومة "فيشي"، فور تنصيب نفسها على عرش فرنسا، إلى عقد "الندوة الاقتصادية لشمال إفريقيا، المجتمععة أيام 14 و 15 و 16 نوفمبر 1940 بـ"فيشي"، و التي قدمت نتائجها كما يلي على شكل مقترح يتوجب تطبيقه ما دام يسهر على تنفيذه أمين الدولة المكلف بالتموين.¹ فجاءت تقديرات اللجنة فيما يخص حملة 1940-1941، بالنسبة للقمح اللين، على أساس توفر 920000 قنطار بالنسبة للجزائر و 653000 قنطار بالنسبة لتونس غالبيته (فلورنس أورور) Florence Aurore و المغرب 2000000 قنطار منها (380000 قنطار "فلورنس أورور" Florence Aurore.²

غير أن إدارة "فيشي" قررت تخصيص كل هذه الكميات لتموين المتروبول باستثناء اقتطاع كمية 300000 قنطار من قمح "فلورنس" مناصفة بين تونس و المغرب و منحه للجزائر، التي قد تدعم بحصة إضافية من قمح "أورور" خلال الندوة المقبلة المزمع عقدها أواخر شهر ديسمبر أو مطلع شهر جانفي.³ أما فيما يخص القمح الصلب، فالمتوفر عند تونس و الجزائر يعادل 1100000 قنطار، بينما يلاحظ عجز بـ 1310000 قنطار من القمح الصلب بالنسبة للمغرب الذي يعوز هذا العجز باستهلاك أكبر للقمح اللين و الشعير. و تخصص هذه الكميات للمتروبول على شكل قمح و دقيق.⁴

فيما يتعلق بالشعير، فإن الجزائر و تونس تعانيان من عجز يقدر بـ 2100000 قنطار بالنسبة للأولى و 460000 قنطار بالنسبة للثانية. بينما المغرب ينتظر 1250000 قنطار يضاف إليها مليون قنطار سوف يقطع من المخزون المتخفي لدى المسلمين. و حسب السيد "بيلي" Billet، لا يمكن تجنيد هذه الاحتياطات من الشعير إلا إذا توفرت الشروط التالية:

- في حال تحسن أفاق المحصول للسنة القادمة.
- إذا توفرت كميات كافية من الوقود في المغرب ليتمكن من تجميع و نقل الحبوب.
- إذا تم إيجاد حلول لمشكلة الأكياس التي قدرت احتياجات المغرب منها بحوالي 5000000 وحدة.
- كما تم الاتفاق على أن يتكفل المغرب بتزويد السوق بكل ما يملك من مخزون على أن يتم توزيع ما هو متوفر من الشعير على بلدان شمال إفريقيا و المتروبول وفق النحو التالي:
- الجزائر.. 800000 قنطار .. بما في ذلك 500000 قنطار المقررة سابقا.
- تونس.. 260000 قنطار.. بما في ذلك 150000 قنطار المقررة سابقا.

شمال إفريقيا من أجل جمع المعلومات تحسبا لظروف مناسبة تسمح بالعودة إلى الحرب ضد الألمان، حتى و إن كان تزويد الكولون و الأهالي بالقماش و الشاي و السكر و خاصة، الوقود من الأسباب التي أدت إلى إبرام هذا الاتفاق الاقتصادي. أنظر كل من:

- Reibell Charles, La vérité sur les origines du débarquement..., op.cit., pp 7-8.

- Echaoui Mohamed, Evolution de ..., op.cit, p 69.

¹- ANOM, GGA, 3cab/3, Etat Français, Vichy le 28 nov. 1940, conférence économique nord-africaine.

²- Ibid., p1.

³- Id., p 1.

⁴- Id., p1. Voir annexe n° 18.(Photo 5615/ C.M 1).

- المتروبول.. 300000 قنطار.. بما في ذلك 100000 قنطار المقررة سابقا.¹

أولا: الجزائريون أمام إفرازات الحرب الاقتصادية و الاجتماعية

و مما لا شك فيه، أن الاقتصاد الجزائري قد تأثر إلى درجة كبيرة بالظروف العامة للحرب. فقد أفرزت الحرب العالمية الثانية واقعا مرا يبرز مدى درجة هذا التأثير على حياة الجزائريين. من ذلك أن حالة هؤلاء الجزائريين قد زادت تعقيدا لدرجة بروز مظاهر الفقر و الجوع و انتشار الأمراض و الأوبئة في الوسط الجزائري الذي أصبح يعيش وضعية مزرية ناتجة عن السياسات المختلفة التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية للقضاء على روح المقاومة التي بدأت تنتشر عند الجزائريين.

و بقدر ما كانت مساهمة الجزائريين في الحرب كبيرة، بقدر ما كلفتهم خسائر بشرية و مادية أكبر. الأمر الذي صعب على فرنسا تجاهل هذه الخسائر أو حتى غض الطرف عنها، بدليل التصريح الذي أدلى به الأمين العام للشؤون الاقتصادية لدى الحاكم العام للجزائر عندما صرح قائلا: "تحمل الجزائر عبء مساهمتها الكبيرة في تحرير المتروبول، و على فرنسا أن تبذل جهدا أكبر تجاه الجزائر، حتى تتمكن من تحقيق مستوى معيشي أفضل و مناسب..."²

بدا تأثير الحرب العالمية الثانية واضحا في كل مناطق البلاد. حيث عانى الجزائريون وضعاً اقتصاديا و اجتماعيا صعبا تجلّى بوضوح في حياتهم اليومية و شمل مجالات مختلفة، كندرة المواد الغذائية، و المواد الأولية الضرورية للاستعمال اليومي المنزلي، خاصة منها الفحم و الخشب،³ و الخلل الذي أصاب عملية التموين العائلي بالمواد الغذائية،⁴ الذي كان يتم وفق نظام البطاقات الذي فرضته الإدارة الاستعمارية على السكان، حتى يتمكنوا من التزود بالمواد الغذائية الواسعة الاستهلاك و الألبسة إلى ما شابه ذلك. فارتفعت الضرائب و تقلصت فرص العمل و انتشرت ظاهرة السوق السوداء و معها الأمراض و الأوبئة الفتاكة، خاصة منها مرض "الحمى الصفراء" Typhus.⁵

فانعكست هذه الظروف على الجزائريين الذين باتوا على أبواب التمرد و العصيان من شدة حالة اليأس التي انتابتهم، و قد عبر عن ذلك الوضع أحد الجزائريين في رسالة، مجهولة المصدر، بعث بها إلى المستشارين المسؤولين في بلدية وهران في فبراير 1942 يقول فيها: "أيها السادة النواب و مستشارو البلدية، أدوا واجبكم و اعدلوا بين الناس دون تمييز عرقي.. أن تقتلونا دفعة واحدة، أهون لنا من أن نموت الواحد تلو الآخر على نار هامدة..."⁶

¹ - ANOM, GGA, 3cab/3, Etat Français, Vichy le 28/11/1940, conférence économique nord-africaine.

² - A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran du 24/07/1945.

³ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 431 du mois d'Août 1941.

⁴ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 42 du mois de janvier 1942.

⁵ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 585 du mois de novembre 1941.

⁶ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 112 du mois de février 1942.

في الواقع، إن الحكومة الاستعمارية كانت قلقة جدا. فالحالة الغذائية و الاقتصادية حرجة، و قد وجدت جذورها بعد انتهاء الحرب الكبرى، أي الحرب العالمية الأولى، أين كانت البلاد تتخبط في أزمت متتالية.¹ فهذه الحكومة لم يكن لديها برنامج شامل و جاد لسياسة اقتصادية، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الكارثية التي كانت عليها الزراعة في المنطقة الغربية في منتصف سنة 1941،² و اجتماعية تقنع بها الجزائريين المسلمين و تجعلهم يثقون في وعودها. لذلك، فلا أوضاع الحرب و لا تلك التي جاءت بعدها كانت كفيلة بتغيير حياة الجزائريين نحو الأفضل.³

كما مثلت ظاهرة الاستعمار "الأسلوب المطلق" لعملية التسلط على الشعوب المستضعفة، من جميع جوانب الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية. و فيما يتعلق بفترة دراسة موضوعنا، تعرضت مختلف الأقاليم إلى وضعية الجزائريين الصعبة. فقد صورت إحدى الصحف الاستعمارية في غرب البلاد، و هي جريدة "وهران الصباح"، الوضع الاقتصادي عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية على النحو التالي: "نعم إن البؤس ينتشر في كل جهة، و الأهالي هم أول الضحايا..إننا نشاهد هروب جماعي للأهالي من الدواوير نحو المدن.. إنها قوافل من المتسولين..."⁴

لم تكن الحالة الاقتصادية للجزائريين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بأحسن أحوال عما كانت عليه أثناءها. حيث بقي الجزائريون يعانون من تبعات الحرب، و التي زادت صعوبة، الظروف الطبيعية و الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929. الأمر الذي أدى إلى انخفاض المحصول الزراعي و تقلصت المساحات الزراعية و هجر عدد من الفلاحين أراضيهم بسبب ارتفاع تكاليف ممارسة النشاط الزراعي و ارتفاع أعبائه. و كان للجفاف الذي أصاب العديد من مناطق البلاد أثاره في وقوع كارثة المجاعة التي أودت بحياة العديد من الجزائريين خلال العشرية التي أتتبعته نهاية الحرب العالمية الأولى.⁵

بقي الاقتصاد الجزائري يعاني من تبعات الحرب إلى ما بعد سنة 1929 بفعل الظروف المناخية القاسية و تقلص المساحات المزروعة و تراجع المحصول الزراعي. بالإضافة إلى التضخم الذي عمق من شدة الأزمة الاقتصادية، حيث دفع بعدد من الفلاحين الجزائريين إلى التحلي عن أراضيهم و نشاطاتهم الفلاحية لأسباب مرتبطة بارتفاع الأعباء و بالوسائل الضعيفة و قلة البذور.⁶

تجلى الظرف الاقتصادي و الوضع الاجتماعي في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى في صور متضحة المعالم جسدتها الوضعية الديمغرافية و مسألة بيع الأراضي و انتشار المجاعة و الفوضى التي سيطرت على

¹ - Rey-Goldzeiguer(Annie), Aux origines de la guerre..., op.cit, p 31.

² - A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran, « Chronique Agricole », p 02, du 27 avril 1941.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2..., op.cit, p 736.

⁴ - A.W.O, dossier presse, Oran Matin, du 18 février 1934.

⁵ - A.W.O, Dossier presse, l'Echo d'Oran, « Famine dans les rues d'Oran », décembre 1920. Le journal parlait de 27 cadavres découvert dans les rues d'Oran.

⁶ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., T2..., op.cit..., p 293.

المنتجات، إلى جانب وضعية الجزائري المسلم التي بقيت مبهمة بفعل استمرار القوانين الاستثنائية التي سنتها فرنسا من قبل، على غرار القانون السلطاني و قانون الأهالي، إلى جانب قضية الخدمة العسكرية و دفع الضرائب و مسألة التوظيف التي أرقت كثيرا الجزائريين. أما مجال الحريات العامة للجزائريين فكانت شبه منعدمة في مجالات التجمع و الدين و الصحافة و التنقل و التعليم.¹

غير أن البعض من رجالات الاستعمار، حاول ربط المشكل الاقتصادي الذي تتخبط فيه الجزائر بعوامل معينة حيث جاء في تقرير المدير العام لبنك الجزائر "إسكالييه" Escalier، أمام اللجنة الإدارية للبنك حول الوضع الاقتصادي عشية الحرب ما يلي: "إن الأزمة لا تعود إلى قلة الإنتاج أو رداءة نوعيته، وإنما تمثل في كيفية إيجاد الطرق لتصريف هذه المنتجات، أي أن المسألة هي مسألة أسعار..."² و قد دخل الاقتصاد الوهراني مرحلة ركود بداية من سنة 1930 دامت إلى غاية مطلع الخمسينات.³

كما صاحب هاتين العشريتين تدني متوسط المستوى المعيشي للسكان، الذين شهد عددهم في نفس الفترة، ارتفاعا قدر بنسبة 50%. و قد شكل تراجع الإنتاج الزراعي السبب الأساسي لهذا الركود الاقتصادي المتواصل، بالإضافة إلى تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية، ثم الحرب العالمية الثانية. هذه كلها عوامل ساهمت في تشتيت طرق الصادرات الجزائرية من الإنتاج الزراعي.⁴

أدى تدهور الوضع الاقتصادي إلى انتشار مظاهر سلبية وسط المجتمع الجزائري وصلت إلى حد التظاهر. حيث خرج الآلاف من الجزائريين و الأوروبيين في مدن سيدي بلعباس و تيزي وزو للمطالبة بالعمل من أجل توفير الغذاء لعائلاتهم. مما دفع بالمجلس العام المصادقة على تقديم مساعدات مالية قدرت بـ 50000 فرنك لكل من الأوروبيين،⁵ أولا، ثم الجزائريين، ثانية.

1- المجهود الحربي يرهن القاعدة الاقتصادية

مما لا شك فيه، أن الاقتصاد الجزائري قد تأثر بالظروف العامة للحرب. فقد أفرزت الحرب العالمية الثانية واقعا مريزا يبرز مدى درجة هذا التأثير على حياة الجزائريين. من ذلك أن حالة الجزائريين قد زادت تعقيدا لدرجة بروز مظاهر الفقر و الجوع و انتشار الأمراض و الأوبئة في المحيط الجزائري الذي أصبح يعيش وضعية مزرية ناتجة عن السياسات المختلفة التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية للقضاء على روح المقاومة التي بدأت تنتشر عند الجزائريين.

¹ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme algérien, T1, 1919-1939, EDIF 2000... Op.cit., pp 19-33.

² - Fontanille (Henry), « Situation économique des départements Algériens » in Dépêche Oranaise, N° 8273, année 1936. Et voir aussi du même auteur l'article : « Le nouveau statut viticole et la viticulture algérienne », In Questions Nord-africaine, Juin 1935, pp 51-63.

³ - S.E.D.I.A, Etude du développement économique de l'ouest Algérien, Novembre 1959, pp 31-57. In C.D.E.S./ Bibliothèque.

⁴ - S.E.D.I.A, Ibid.

⁵ - Archives de la commune de Sidi Bel Abbès, Boite année 1935, Délibération du conseil municipal en session ordinaire en date du 29/01/1935, sous-préfecture de Sidi Bel Abbès, N° 1958, du 15/02/1935.

إذا كانت مساهمة الجزائريين في الحرب كبيرة، فذلك يعني أنها كلفتهم خسائر بشرية و مادية أكبر. الأمر الذي صعب على فرنسا تجاهل هذه الخسائر أو حتى غض الطرف عنها، بدليل التصريح الذي أدلى به الأمين العام للشؤون الاقتصادية لدى الحاكم العام للجزائر عندما صرح قائلاً: "تحمل الجزائر عبء مساهمتها الكبيرة في تحرير المتروبول، و على فرنسا أن تبذل جهداً أكبر تجاه الجزائريين، حتى تتمكن من تحقيق مستوى معيشي أفضل و مناسب..."¹

عاشت كل مناطق البلاد هذا التأثير الذي أفرزته الحرب العالمية الثانية. و لو في بعض الأحيان كان هناك تفاوت في الأزمات الغذائية بين العمالات الثلاث. حيث عان الجزائريون وضعاً اقتصادياً و اجتماعياً صعباً تحلى بوضوح في حياتهم اليومية و شمل مجالات مختلفة، كندرة المواد الغذائية، و المواد الأولية الضرورية للاستعمال اليومي المنزلي، خاصة منها الفحم و الخشب،² و الخلل الذي أصاب عملية التموين العائلي بالمواد الغذائية،³ الذي كان يتم وفق نظام البطاقات الذي فرضته الإدارة الاستعمارية على السكان، حتى يتمكنوا من التزود بالمواد الغذائية الواسعة الاستهلاك و الألبسة إلى ما شابه ذلك. فارتفعت الضرائب و تقلصت فرص العمل و انتشرت ظاهرة السوق السوداء و معها الأمراض و الأوبئة الفتاكة، خاصة منها مرض "الحمى الصفراء" Typhus.⁴

فانعكست هذه الظروف على الجزائريين الذين باتوا على أبواب التمرد و العصيان من شدة حالة اليأس التي انتابتهم، و قد عبر عن ذلك الوضع أحد الجزائريين في رسالة، مجهولة المصدر، بعث بها إلى المستشارين المسؤولين في بلدية وهران في فبراير 1942 و التي حولت إلى الحاكم العام في الجزائر⁵ يقول فيها: "أيها السادة النواب و مستشارو البلدية، أدوا واجبكم و اعدلوا بين الناس دون تمييز عرقي.. أن تقتلونا دفعة واحدة، أهون لنا من أن نموت الواحد تلو الآخر على نار هامدة..."⁶

في الواقع، إن الحكومة الاستعمارية كانت قلقة جداً. فالحالة الغذائية و الاقتصادية حرجة، و قد وجدت جذورها بعد انتهاء الحرب الكبرى، أي الحرب العالمية الأولى، أين كانت البلاد تتخبط في أزمات متتالية.⁷ فهذه الحكومة لم يكن لديها برنامج شامل و جاد لسياسة اقتصادية، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الاعتبار الوضعية الكارثية التي كانت عليها الزراعة في المنطقة الغربية في منتصف سنة 1941،⁸ و اجتماعية تقنع بها الجزائريين المسلمين و تجعلهم يثقون في وعودها. لذلك، فلا أوضاع الحرب و لا تلك التي جاءت بعدها كانت كفيلة بتغيير حياة الجزائريين نحو الأفضل.⁹

¹ - A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran du 24/07/1945.

² - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 431 du mois d'Août 1941.

³ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 42 du mois de janvier 1942.

⁴ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 585 du mois de novembre 1941.

⁵ - ANOM, GGA, Série H, 9H32, lettre transmise le 18 février 1942 par courrier confidentiel au GGA.

⁶ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE N° 112 du mois de février 1942.

⁷ - Rey-Goldzeiguer (Annie) Aux origines de la guerre..., op.cit., p 31.

⁸ - A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran, « Chronique Agricole », p 02, du 27 avril 1941.

⁹ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2..., op.cit, p 736.

أصبح القطاع الزراعي، الذي تسيطر عليه غالبية الكولون، يعاني من تبعات الحرب بشكل أكثر حدة بسبب نقص المواد الأساسية، كالوقود و مواد التشحيم و الزيوت و قطع الغيار و الأسمدة المساعدة على تدعيم زراعة الحبوب و الكروم، التي تمثل مع زراعة الزيتون 5/4 المساحات الزراعية المستغلة و تساهم في توفير العيش لخمسة مسلمين من أصل سبعة. بالإضافة إلى الأسلاك و الجلود، الضرورية لتحريك عجلة القطاع الزراعي ككل.¹

كما عان القطاع من أزمة حادة فيما يخص اليد العاملة الزراعية بفعل عملية التجنيد التي شهدتها الجزائر خلال سنوات 1942 و 1943، و التي تطلبت انخراط عدد كبير من الرجال في صفوف الجيوش المقاتلة في الحملة التي شنت على تونس. و زيادة على ذلك، لم يجد الفلاحون ما يلبسونه من ألبسة لأن الرواتب التي أصبحت تدفع في الأرياف لم تعد تتماشى مع حجم الزيادة التي عرفتها السعار، و كأن الأمر عاد بنا إلى ظروف الحرب العالمية الأولى.²

أ- مسألة الأرض تורך الجزائريين

احتل النشاط الزراعي مكانة خاصة في الاقتصاد الجزائري و في الحياة اليومية للجزائريين، لأنه القطاع الأكثر تشغيلًا بالنسبة لهم، و في المقابل، مثل أهم مصدر للثروة بالنسبة للكولون. إن الحديث عن مسألة الأرض في الجزائر موضوع شائك، قد يجرنا إلى البحث عن جذور هذه الأملاك و طبيعتها و الأشكال المختلفة التي اتخذتها عملية تحديد هذه الملكيات. و قد ضرب لنا العهد العثماني موعدا مع كيفية تعامل الدولة، آنذاك، مع الفلاحين الجزائريين الذين كانوا يستغلون هذه الأراضي قبل مجيء الاستعمار الفرنسي، الذي حطم البنية الاجتماعية الجزائرية، حيث أصابها في الصميم من الناحية المادية و الاقتصادية و التجارية و حتى الناحية المعنوية، فكان لها انعكاسات و آثار لا زالت قائمة إلى يومنا هذا.

احتلت مسألة الأرض حيزا كبيرا في حياة الجزائريين، ما دام أن قضية "الملكية العقارية" كانت تشغل بال السكان المسلمين و الكولون و الإدارة الاستعمارية معا. و في نفس الوقت هي أساس المنظومة الاستعمارية التي جاءت بها فرنسا إلى الجزائر.³ و قد توقفت العملية التنظيمية التي جاء بها "القانون السلطاني" خلال فترات الحرب، ثم عادت لتستأنف سنة 1919 بحوالي 142 عملية. و من خلال النتائج المتوصل إليها سنة 1919، فقد أوضحت جليا أن الكفة بدأت تميل لصالح المسلمين الجزائريين، من خلال عمليات بيع و شراء الأراضي بالعقود،⁴ حيث شرع الجزائريون يسترجعون بعض الأراضي على حساب الكولون الأمر الذي

¹ - Nouschi (André), L'Algérie amère 1914-1994, éditions de la maison de la science, Paris, 1995, p 133.

² - Ibid., p 133.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme algérien, T1., op.cit., p 20

⁴ - A.W.O, Situation générale de l'Algérie, année 1919, pp 547-548.

الذي جعل المجلس الأعلى الفرنسي يقترح تحديد عملية استرجاع المسلمين لأراضيهم و منعها كذلك على "السماسة" الأجانب.¹

تعددت أساليب النهب و السلب لأراضي الجزائريين من طرف الإدارة الاستعمارية، التي تحايلت بطرق قانونية و غير قانونية،² و حتى منها الطرق الاقتصادية الرأسمالية، لنزع الأراضي الزراعية و الرعوية و الغابية. و كان ذلك ضمن المخطط الاستعماري الكبير الذي كان يرمي إلى إنجاح سياسة الاستيطان. كما أن الأسلوب الاستعماري في تطبيق هذه السياسة هو الذي كان وراء المحاولات العديدة لإفقار الشعب الجزائري و إخضاعه و تنظيمه داخل "محتشدات جماعية" حتى تتمكن فرنسا من القضاء على النظام التقليدي للملكية الأرض لتحويل بذلك الجزائريين إلى عمال زراعيين عند الكولون الجدد! و كانت أول محاولة لتحطيم البنية الاجتماعية للشعب الجزائري.³ و هنا، ينبغي علينا التمييز بين مختلف أشكال نزع الأراضي بصفة جماعية و الأشكال الأخرى القائمة على مجرد المضاربة العقارية التي برع فيها "السماسة"، و بين الوسائل الاجتماعية و الاقتصادية الأخرى المطبقة على الجزائريين.

أما الفترة المعاصرة فقد شهدت بروز أنماط جديدة من السلب جمعت بين نزع الملكية و التنازل عن الأرض و طريقة ثالثة تميزت بالمعاملة العقارية، أو ما يعرف بالعقود العقارية، و التوزيع المجاني للأراضي و حتى كراء هذه الأراضي من طرف الإدارة الاستعمارية من أجل تثبيت الاستيطان و توسيعه. و قد سبقها صدور قانون "واري" Warnier،⁴ أو كما وصفه أحد الوكلاء من مدينة تلمسان بـ "قانون الكولون".⁵

لقد أشارت بعض المصادر إلى نزع ملكية دوار "عين الشرفة" ببلدية زهانة Saint Lucien قديما، خلال سنة 1943، عندما تم الاستيلاء على حوالي 4500 هكتار من أرضيه.⁶ مما يدل على أن نزع الملكية تواصل حتى في ظروف الحرب القاهرة. و تقدم السيد "هدام محمد" من دوار "يحي" قبيلة "الحاميد"، بطلب للحاكم العام يشتكي فيه أحد الكولون الذي يكون قد نزع منه 59 هكتار في أرضه بضواحي "سيدي علي بن يوب"، مما يدل على أن النزع لم يتم فقط بالطرق الإدارية و إنما اتخذ أشكال القوة في بعض الأحيان.⁷

تواصلت عملية الاستيلاء على الأراضي الجزائرية بشكل ملفت للانتباه، في مناطق عديدة من الوطن نذكر منها منطقة سيدي بلعباس حتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. و سمح ذلك بتأسيس المستثمرات

¹ - A.W.O, Situation générale de l'Algérie, année 1929, pp 151-152.

² - Sari (Djilali), La dépossession des fellahs 1830-1962, SNED, Alger, 1975, p 7.

³ - Ibid., pp 19-21.

⁴ - ورد اسمه في معظم الكتابات التاريخية على هذا النحو: "واري" أو "فاري" Warnier، و هو طبيب جراح المهنة، ولد سنة 1810، و عين مساعد جراح في مستشفى وهران سنة 1832 حيث استقر منذ ذلك الوقت بالجزائر. ثم ألحق بالقنصلية الفرنسية بمدينة معسكر، إبان عهد الأمير عبد القادر، و بعدها عين كمدير للشؤون المدنية في مقاطعة وهران سنة 1848. و شغل منصب مقرر لدى المجلس الأعلى للإدارة في الجزائر سنة 1849. و لما أحيل على التقاعد، بدأ يكرس حياته في تأليف الكتب التي تدافع عن المصالح الكولونالية، و هو صاحب "الدفاتر الجزائرية" Les cahiers Algériens التي اعتبرها الكولون ميثاقا لهم ضد الإمبراطورية. و التي تضمنها كتابه: L'Algérie devant l'empereur.

⁵ - Sari (Djilali), La dépossession..., op.cit., p 45.

⁶ - A.W.O, B 4476, Préfecture d'Oran, N° 2322, commune de Saint Lucien, Le 30 mai 1943.

⁷ - A.W.O, B 4476, 3ém Bureau, Dir..des Affaires. Musulmanes ..., Alger le 22 janvier 1942.

الفلاحة الكبرى،¹ التي أخذت تتوجه نحو المدينة، بعدما بدأ الأوروبيون يهجرون الريف بسبب الظروف الجديدة التي أفرزتها الحرب. حيث استفاد الملاك الكبار الأوروبيين من هذه الوضعية عندما أسسوا ملكياتهم على حساب الفلاحين الجزائريين. غير أنهم تضرروا من الركود الذي أصاب المعاملات التجارية مع فرنسا خلال الحرب، إلا أن الأمور، سرعان ما رجعت إلى نصابها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

كما أن أساليب الاستعمار للاستيلاء على أراضي الفلاحين الجزائريين جاءت متنوعة، منها ما يتعلق بالفلاحين مباشرة، إذ سلبت منهم هذه الأراضي بطريقة "المضاربة" مما سمح للمضاربين التصرف فيها فقاموا ببيعها إلى "الإدارة". فعملية انتزاع الأراضي الزراعية من الفلاحين تعد من صميم المأساة الاستعمارية، حيث أدت إلى فقدان ما يقارب من مليونين هكتار من أجود الأراضي الموجودة في أحسن المناطق الجزائرية. فلجأت السلطة الاستعمارية إلى وسائل استثنائية للاستيلاء عليها. و هنا ينبغي أن نميز بين أشكال نزع الأراضي بصفة جماعية و الأشكال القائمة على واقع المضاربة العقارية، و بين الوسائل الاجتماعية و الاقتصادية الأخرى المستعملة ضد الجزائريين.²

و حتى بعد الحرب العالمية الثانية تمكن الكولون من بيع ملكيات معزولة دون القيام بشراء ملكيات أخرى، فقد تمكنوا من جمع رأس مال حقيقي أعيد استثماره في شراء العتاد الفلاحي بعد سنة 1947. و قد حقق الكولون صفقات مربحة طول الفترة الممتدة من 1948 إلى 1954 تمثلت في بيعهم لـ 70500 هكتار بقيمة 4565 مليون فرنك، مقابل استردادهم لـ 45000 هكتار بقيمة 1898 مليون فرنك.³ و هنا أيضا نلاحظ الفوائد الباهظة التي حققها الكولون على حساب الجزائريين.

إلى جانب هذا، انتهجت الإدارة الاستعمارية أسلوب جديد لتمليك الكولون و هو ما عرف بالتنازل المجاني للأرض، خاصة منها أراضي الدومان، و يذكر "أجرون" أن قرابة 275000 هكتار منحت في ظروف غامضة ما بين 1921 إلى 1937.⁴ و رغم ذلك، إلا أن سياسة التنازل المجاني لم تمكن الكولون من الاستقرار في المراكز الاستيطانية التي أنشئت من أجل ذلك، الأمر الذي جعلهم يهاجرون نحو المراكز الحضرية الكبرى و يبيعون المستثمرات الفلاحية و الأراضي إما للشركات المالية الكبرى أو للفلاحين. و الجدول التالي يوضح لنا المساحات الزراعية التي انتقلت من الجزائريين إلى الكولون مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى إلى غاية 1947.

جدول يمثل مساحات الأراضي التي انتقلت إلى الأوروبيين فيما بين 1919-1947.

السنوات	المساحة بالهكتار
1919	19089
1920	35258

¹ - Ainaad Tabet (Redouane), Histoire d'Algérie..., op.cit, 81-86.

² - ولد النبيه (كريم)، الجزائريون و الإدارة الاستعمارية الفرنسية في عمالة وهران 1866-1947، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2007، ص 187.

³ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit., p 481.

⁴ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit., p 482.

1934	28932
1935	19009
1941	14906
1942	7282
1947	19600

المصدر: Bulletin des statistiques agricole 1947 pp 25-60.

هذه الحقائق تضع حدا لإدعاءات العديد من المؤرخين الفرنسيين الذين قالوا بأن التوزيع المجاني للأراضي قد توقف قبل الحرب العالمية الثانية، غير أن ذلك كذبتة الوثائق الأرشيفية لبلدية "مولاي سليسن" الاستعمارية في دائرة سيدي بلعباس، التي أثبتت بأن العملية قد استمرت إلى ما بعد سنة 1942.¹ و يشرح أحد الباحثين الجزائريين بالتفصيل تواصل عملية سلب أراضي الجزائريين إلى ما بعد سنة 1942 لتصل سنة 1961. و يقدرها بنسبة 5% موزعة على النحو الموضح في الجدول التالي:²

السنوات	1942	1943	1944	1945	1946	1947
المساحة هـ	7282	5017	4275	6812	9339	9600
السنوات	1952	1953	1954	1955	1956	1957
المساحة/هـ	5477	7507	6577	3808	978	338

أما بخصوص الفترة المتبقية، فقد تناقصت فيها عملية تحول الملكيات، بعد التعليمات التي أصدرتها جبهة التحرير الوطني في حق بيع و شراء العقار من و إلى الأوروبيين. وجد الاستعمار نفسه في حيرة من أمره فيما يتعلق بالأراضي التي سلبها من الجزائريين بطريقة أو بأخرى، فكان لزاما عليه أن يجد الحلول المناسبة لهذه المعضلة من أجل تسيير كل الأراضي التي لم تكن "ملكا" للكولون. و التي وضعت تحت تصرف البلديات التي وضعتها بدورها تحت تصرف السكان الجزائريين في الدواوير حتى لا يموتون جوعا، و حتى لا يشكلون ثقلا بالنسبة للإدارة الاستعمارية التي كانت عاجزة عن تموين السكان الجزائريين بالمواد الاستهلاكية الضرورية و اللباس. كل هذا لم يتم بطريقة عفوية أو دون نية مبيتة، لأن الاستعمار الفرنسي عودنا على أن "لا شيء دون مقابل" فكان اختراعه "لمجلس الجماعة" على مستوى كل دوار لمراقبة الجزائريين و تسيير هذه الأراضي.³

¹ - ولد النبيه (كريمة)، الجزائريون و الإدارة المحلية... أطروحة دكتوراه، مرجع سابق، ص 191.

² - Mesli (Mohamed Elyes), Les origines de la crise agricole en Algérie, Dahlab éditions, Alger, 1996, p 172.

³ - لمزيد من المعلومات في الموضوع أنظر: ولد النبيه كريمة، الاستيطان و النظام الإداري... رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص 154-158.

أكدت بعض التقارير الواردة من ديوان الحكومة العامة على ضرورة إيجاد حلول في شكل عمليات توزيع أراضي للكراء لصالح الفلاحين الجزائريين. و تؤكد هذه التقارير عن وجود إمكانية كراء 31830 هكتارا من أراضي "الدومان" على مستوى عمالات البلاد الثلاثة (منها في عمالة وهران بـ 15240 هكتار) و حوالي 13655 هكتار من أراضي "الغابات" منها 857 هكتار في عمالة وهران.¹ و جاءت هذه العملية ضمن ما أسمته حكومة الجبهة الشعبية بالبرنامج الإصلاحى الموجه للجزائريين. و ذكرت المصادر الفرنسية لما وراء البحار بعض الأرقام المتعلقة بكراء الأراضي للجزائريين داخل مختلف البلديات الموجودة في العمالات الثلاث التي تمت سنة 1937 و التي ذكرت منها فيما يتعلق بعمالة وهران:

- أراضي الدومان - 21680 هكتار

- غابات - 1884 هكتار

- أراضي البلدية - 93965 هكتار²

إلا أن هناك مصادر أخرى ذكرت، بالأرقام، المساحات من الأراضي الزراعية التي انتقلت إلى الجزائريين، في نفس الفترة التي تم فيها انتقال الأراضي إلى الأوروبيين، و التي يوضحها الجدول التالي:

جدول يمثل مساحات الأراضي التي انتقلت إلى الجزائريين فيما بين 1919-1947

السنوات	المساحة بالهكتار
1919	40152
1920	30151
1934	7583
1935	6718
1941	16562
1942	15907
1947	8757

المصدر: Bulletin des statistiques agricoles année 1947, pp 25-60

¹- ANOM, Aix en Provence, Série H, 1H24, rapport confidentiel du cabinet du GGA, Le paysannat situation politique, économique et social, p16.

²- ANOM, Aix en Provence, Fonds du ministère d'état chargé des affaires Algériennes, série 81F 2512K rapport confidentiel,.

لقد أظهرت إحدى التحقيقات التي أجريت سنة 1940، أن 10% من مجموع السكان المسلمين كانوا قادرين على تلبية حاجياتهم الغذائية. بينما حوالي 75 إلى 80% قد أدرجوا في خانة الفقراء أو البؤساء. و تبين من نفس التحقيق، أن حوالي 531600 من السكان المسلمين كانوا يملكون حوالي 7600 هكتار، بينما 25795 من الأوروبيين يمتلكون 2726 هكتار، منهم 60% مدرجين في خانة الملاك الصغار (أي أقل من 10 هكتار)، و 40% من الملاك المتوسطين (أي يملكون ما بين 10 إلى 50 هكتار)، بينما البقية و المقدرة بـ 0.2% تعتبر من الملاك الكبار. يضاف إلى ذلك أن غالبية هذه الملكيات متواجدة في مناطق سهلية عالية و مخصصة لزراعة الحبوب بالدرجة الأولى. ما يؤدي في ظروف الأزمة التي عرفتها البلاد جراء الحرب العالمية الثانية 1939-1945، إلى إدراج جزء كبير من الملاك الزراعيين في خانة البؤساء إلى جانب العمال الزراعيين و العمال اليوميين و الخماسين، حيث قدر عددهم بحوالي 1175000 عشية اندلاع الحرب.¹

أخطأت الإدارة الاستعمارية في تقديراتها حول دور و فاعلية هذه الهيئة بإعادة النظر فيها من خلال إصدارها لقانونين، الأول في 1 أوت 1918، و الثاني في فبراير 1919، محاولة إعادة الاعتبار لها. و تطبيق مثل هذه السياسة يتطلب الاعتماد على أطراف معينة، فاعتمدت الإدارة الاستعمارية على ولاء الأعيان في الريف الجزائري، و هم القياد الذين وصفهم "جاك بيرك" بالبيروقراطيين، في تلميحهم لمساعدتهم للحاكم الإداري داخل البلدية المختلطة. و ذكر "محفوظ قداش" أن عدد رؤساء الجماعة وصل سنة 1940 إلى 1268 فرد.² و لعل أهم ما يمكن الإشارة إليه في مسألة "الجماعة" هو أنه كانت صلاحياتها محدودة في اتخاذ أي قرار، و أنه نادرا ما كان أعضاؤها يجتمعون، و المراسلة التي بعث بها الحاكم الإداري لبلدية عين تموشنت إلى والي عمالة وهران بتاريخ 17 جانفي 1938 توضح ذلك: "أطلع سيادتكم على أنه في دوار "صوف التل" لم تعقد فيه الجماعة أي اجتماع، و إن جل سكانه من العمال الزراعيين..³ و قد حاولت السلطة الاستعمارية إدخال إصلاحات على نظام الجماعة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أي في سنة 1945. غير أن محاولات التجديد التي حاول النظام الاستعماري القيام بها، قد تجاوزتها الظروف و الأحداث.

ب- أزمة الإنتاج الزراعي و ارتفاع أسعار الحبوب

أثر الإنتاج الكارثي⁴ لسنوات 1919-1920 بشكل كبير على القدرات الاقتصادية للجزائريين حيث تراوح إنتاج الحبوب من 8 ملايين قنطار إلى 10 ملايين قنطار إلى 13 مليون قنطار من الحبوب.¹ زاده أرقا

¹- Nouschi (André), L'Algérie amère..., op.cit., PP 133-134.

²- Kaddache.(Mahfoud),..., Histoire du nationalisme..., T1, op.cit., p 407.

³- A.W.O, B 1616, Rapports trimestriels sur les Djemaa, de la C.M de Ain Temouchent, rapport N° 177 du 17/01/1938.

⁴- إذا كان قلة الإنتاج المحصل عليه من طرف الجزائريين أمرا مفروغا منه، نظرا لفقر التربة و محدودية الوسائل الزراعية، فإن المردود من الحبوب هو الذي كان يثير المخاوف ما دام أنه لا يسمح بتكوين المخزون من الغذاء. لأن معدل الإنتاج الذي كان يمثل 4 قنطار في الهكتار من القمح، و 5 قنطار من الشعير في الهكتار الواحد كان غير كاف لسد حاجيات الجزائريين المحرومين. هذا الواقع هو الذي دفع بالمسلمين الجزائريين إلى البحث عن

تراجع صادرات الحبوب (من قمح و شعير و شوفان) خلال هذه الفترة. أما زراعة الكروم، التي كانت قد حلت محل الأراضي المخصصة لزراعة الحبوب، فلم تنجوا هي الأخرى من التراجع، حيث وصلت الصادرات من الخمر العادية سنة 1920 إلى 2.729.000 هل بعدما كانت 4.352.000 هل سنة 1919.² و وصفها بعض المؤرخين الفرنسيين بصورة الشبح الذي يهدد مستقبل الزراعة في الجزائر، حيث نعتها "لوني" بقوله: "إن زراعة الكروم قضت على زراعة الحبوب التي قضت، بدورها، على قطعان الماشية و أصبحت تهدد حتى الغابات و أشجار النخيل الصغيرة. لقد تم تلويث الأنهار، أين تقوم عملية تفريغ الشوك و الرعاع و البقايا..³ و استطرد أحد الباحثين الجزائريين في وصف الأزمة التي تعرضت إليها الزراعة في الجزائر، على أنها سمحت للأوروبيين بتوحيد ملكية الأراضي و ساهمت في نزوحهم إلى المدن. الأمر الذي دفع بالجزائريين الذين هاجروا من الريف إلى إقامة البيوت القصديرية.⁴ فازداد الوضع سوءا و تدهورا لدرجة أن الجزائر وصفت حينها بمملكة البؤس.

لقد انعكس تردي الإنتاج الزراعي على المستوى المعيشي للسكان، حيث ارتفعت الأسعار بشكل مدهش، و عجزت الإدارة الاستعمارية على إيجاد الحلول المناسبة للوضع الذي اعتبره البعض على أنه ظاهرة "عالمية مفروضة و مشروعة"، و لا يمكن أن نحمل البائع مسؤولية ارتفاع أسعار المواد الضرورية المعروضة للبيع ما دام أنه بحاجة إلى الأموال التي هي في الأخير غير مضمونة بسبب عدم ضمان الربح. و في حال الإفلاس

طرق و سبل أخرى توفر لهم لقمة العيش و تكفيهم شبح الموت المهدق بهم؟ كما لجأ عدد كبير من الجزائريين بالمناطق الريفية إلى جمع البلوط و خلطه بكميات من الشعير حتى يتم الحصول على غذاء يخفف من العجز الملاحظ على حياة الجزائريين. كما لا ننسى هنا بأن نعتزف بمأساة العديد من الجزائريين الذين كان غذاءهم منحصر في الأعشاب و الحشائش خاصة في فصل الربيع إلى جانب لحوم الحيوانات الميتة مما جعل الكثير يصاب بالتسمم. كما أشارت بعض المصادر إلى أنه، أمام ضغط عدد من النواب و أمام الأوضاع الخطيرة المهدقة بالشعب الجزائري، تم التصويت خلال سنة 1920 على قرضين استثنائيين الأول بقيمة 20 مليون فرنك و الثاني بقيمة 72 مليون فرنك و ذلك لاستيراد 2.134.000 قنطار من القمح و 390.762 قنطار من الشعير لمساعدة السكان الجزائريين. طالع في هذا الصدد كل من:

- Kaddache Mahfoud et Sari (Djilali), L'Algérie dans l'histoire, OPU, Alger, 1989, p 209.
- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie..., T2..., op.cit., p 294.
- ANOM, lettre du sous Préfet de Sidi Bel Abbès au préfet d'Oran datée du 07 février 1920, contenu dans le registre des copies lettres 1925-1935, p 35 et plus.
- ANOM..., Lettre du maire de Mercier Lacombe au sous préfet de Sidi Bel Abbès en date du 12 juillet 1925 contenu dans le registre des copies lettres 1925-1935, p 17.

¹ - هذه الأرقام المقدمة تنوعت عند كل من: قداش و أجرون و ياكونو، الذين اختلفت مصادرههم. لمزيد من المعلومات ينظر إلى كل من

- Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme..., T1, op.cit., p 22.
- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie..., T2..., op.cit., p 293.
- Yacono Xavier, Histoire de l'Algérie de l'insurrection..., op.cit., p 285.
- ² - Yacono (Xavier), Histoire de l'Algérie de l'insurrection..., op.cit., p 285.

³ - Launay (Michel), Paysans Algériens, la terre les hommes la vigne, éditions le Seuil, Paris, 1963, p 54.

⁴ - عبيد (أحمد)، أزمة الخمر بالجزائر و انعكاساتها الاجتماعية و السياسية 1929-1936، مذكرة شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران، 1977، ص ص 47-75.

فإنه لن يحصل على أية قروض من المؤسسات المالية العاجزة هي الأخرى. فالمشكل أعمق من قدرات فرنسا المالية و الاقتصادية، فهو معقد و ثلاثي الأبعاد و يتضمن: التضخم- قلة المواد الأولية- و ارتفاع الأسعار.¹ لقد اعتبرت ظاهرة الاستعمار "الأسلوب المطلق" لعملية التسلط على الشعوب المستضعفة، من جميع جوانب الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية. و فيما يتعلق بفترة دراسة موضوعنا، تعرضت مختلف الأقاليم إلى وضعية الجزائريين الصعبة. فقد صورت إحدى الصحف الاستعمارية في غرب البلاد، و هي جريدة "وهران الصباح" Oran Matin، الوضع الاقتصادي عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية على النحو التالي: "نعم إن البؤس ينتشر في كل جهة، و الأهالي هم أول الضحايا.. إننا نشاهد هروب جماعي للأهالي من الدواوير نحو المدن.. إنها قوافل من المتسولين..."²

غير أن البعض من رجالات الاستعمار، حاول ربط المشكل الاقتصادي الذي تتخبط فيه الجزائر بعوامل معينة حيث جاء في تقرير المدير العام لبنك الجزائر "إسكالييه" Escalier، أمام اللجنة الإدارية للبنك حول الوضع الاقتصادي عشية الحرب ما يلي: "إن الأزمة لا تعود إلى قلة الإنتاج أو رداءة نوعيته، و إنما تتمثل في كيفية إيجاد الطرق لتصرف هذه المنتجات، أي أن المسألة هي مسألة أسعار..."³ و قد دخل الاقتصاد الوطني مرحلة ركود بداية من سنة 1930 دامت إلى غاية مطلع الخمسينات.⁴

¹ - كانت علامات الغضب واضحة على الجزائريين في هذه الفترة، حيث اندلعت الإضرابات في مختلف القطاعات الأمر الذي أقلق السلطات الاستعمارية و دفع "بفيوليت" إلى القول بأنه عندما وصل الجزائر سنة 1924 وجد الفوضى منتشرة في كل مكان. و الحقيقة أن النقابات العمالية كانت تشن حينها معركة شرسة للحصول على حقوق العمال و الحفاظ على ظروفهم المعيشية و تدعيم قدرتهم الشرائية برفع المنح العائلية و إقرار التعويضات من أجل مواجهة غلاء المعيشة. كما طالبوا بتفقد أحوال البطالين. و كان للصحافة اليسارية الفرنسية جزء فيما كان يحدث باعتبار أنها روجت لنداءات الجمعيات و النقابات و حذرت من أن يؤدي ارتفاع الأسعار و غلاء المعيشة إلى انتشار موجة الانتفاضات لدى الجزائريين. جاء رد فعل الإدارة الاستعمارية في شكل اتهامات وجهتها ضد للكونفدرالية العامة للعمال C.G.T على أنها منظمة في خدمة الشيوعية العالمية و الحركة "البلشفية" و تسعى إلى زعزعت الأوضاع و نشر الفوضى و التآمر ضد أمن الدولة، إلا أن ذلك لم يثني من عزيمة العمال الذين واصلوا إضراباتهم بمساعدة النقابات، التي بعث أحد فروعها للسكك الحديدية برسالة إلى الحاكم العام يطلعه فيها بمحاولة المعمرين و التجار الأوروبيين رفع أسعار الخبز الذي يعتبر المادة الأساسية في غذاء الجزائريين.

و هكذا عاشت الجزائر مشاكل اقتصادية خطيرة كانت لها تداعياتها الاجتماعية التي أقلق كثيرًا السلطات الاستعمارية مادام أنها في نظر العديد من المنتخبين و أرباب العمل قد اكتست "صبغة سياسية". و كان النقاش وقتها في الصحافة يدور حول طبيعة هذه الاضطرابات. هل هي مهنية أم سياسية ؟ و هنا يظهر مدى تأثير الأزمة على الأوضاع السياسية للأوروبيين و الجزائريين ما دام أن الاستعمار قد فشل في النهاية في تحديد طبيعة معاملته مع الجزائريين المسلمين. لمزيد من التوضيحات طالع كل من:

- La Lutte sociale (S.F.I.C), n° 60 et 61, du 08-09 octobre 1922.
- Kaddache Mahfoud, La vie politique à Alger., op.cit., pp 16- 33 35.
- Nouschi André, L'Algérie amère 1914-1994, éditions de la maison des sciences, Paris, 1995, p 49.
- A.W.O, Sous série 1F, boîte 1F275, rapport de police n°1022, du 20 mai 1921.
- A.W.O, Ibid., n° 2018 du 19 mars 1925.
- ² - A.W.O, dossier presse, Oran Matin, du 18 février 1934.
- ³ - Fontanille (Henry), « Situation économique des départements Algériens » in Dépêche Oranaise, N° 8273, année 1936. Et voir aussi du même auteur l'article : « Le nouveau statut viticole et la viticulture algérienne », in Questions Nord-africaine, Juin 1935, pp 51-63.
- ⁴ - S.E.D.I.A, Etude du développement économique de l'ouest Algérien, Novembre 1959, pp 31-57. In C.D.E.S./ Bibliothèque.

مع حلول الحرب العالمية الثانية، طرأت مستجدات جديدة على مستوى إدارة الحكومة الفرنسية، ساهمت في بروز بعض رجالات السياسة بها، نذكر منهم الجنرال "ويقان" و الأميرال "أبريال" اللذان حلا بالجزائر، الأمر الذي دفعها إلى اتخاذ جملة من الإجراءات، حاولت من خلالها الإدارة الاستعمارية تغطية ضعفها، في تسيير شؤون الجزائريين. و كان الهدف من ذلك التخفيف من شساعة الفوارق الاقتصادية التي سببتها سياسة التقدير التي انتهجتها فرنسا ضد الجزائريين. غير أن ذلك لم يكن من السهل تطبيقه ما دام أن كل علاقة بين المتروبول و بقية الإمبراطورية كانت خاضعة لرخصة تسلمها لجان الهدنة و المراقبة الألمانية- الإيطالية، و من جانب آخر إلى أحوال الإنجليز.¹ كما أدى تدهور العلاقات الفرنسية الإنجليزية، جراء أزمة "مرسى الكبير"، إلى غلق كل منافذ السواحل الفرنسية من طرف الأسطول البريطاني أمام السفن التجارية الفرنسية. غير أن هذا الحضر قد تلاشى شيئا فشيئا و أصبح ممكنا ضمان تمويل مناطق الإمبراطورية بين ميناء "مرسيليا" و باقي موانئ بلاد المغرب.² إلا أن الحصار الإنجليزي بقي متشددا تجاه العلاقات التجارية للإمبراطورية الفرنسية مع باقي البلدان الأخرى.³ لقد ساهم تدهور الأوضاع الاقتصادية، بشكل مباشر، في تطور الدعاية الأنجلو أمريكية، و التي من نتائجها توقف الإمدادات التجارية مع المتروبول. فظهرت عدة أزمات و مشاكل منها: انتشار السوق السوداء و غلاء المعيشة، و ارتفاع سعر اللحوم، و نقص في الأدوية. كما أن القمح أصبح غير متوفر بالرغم من موسم إنتاج جيد. و بقيت عملية توزيع الحبوب على الفلاحين متذبذبة. أما مادتي القهوة و السكر فكانتا خاضعتان لنظام الحصص و الخبز خاضع للتقنين في ضواحي الجزائر.⁴ كما كان للظروف الطبيعية و الإمكانات الاستعمارية البشرية و المادية دورا هاما في تنويع الإنتاج الزراعي النباتي و الحيواني.

إن عدم المساواة في عملية توزيع الحصص المتعلقة بالمواد الضرورية: كالقهوة و السكر و الصابون، بالمقارنة مع الأوروبيين، قد صدم المسلمين الجزائريين.⁵ فأصبحت الوضعية الاقتصادية مقلقة، و المنح غير متكافئة، و الحقوق السياسية مهضومة، الأمر الذي ساعد على الغليان الجزائري. فأراد الوطنيون استغلال

¹- Martin (Claude), Histoire de l'Algérie française..., op.cit., p 296.

²- Ibid., p 296.

³- بفعل هذا الحصار المزدوج، أصبحت الجزائر محرومة من الوقود، سواء كان فحم أم بترول، و من المواد الصيدلانية و من مادة المطاط و من المواد الغذائية، و خاصة الشاي و السكر، اللذان يعتبران من المواد الأساسية بالنسبة للمسلمين. بالإضافة إلى الآلات و المنتجات النسيجية. و في بلد تنعدم فيه القاعدة الصناعية، و أين يبقى كل شيء يعتمد على الاستيراد، فإن سنة 1940 كانت أشبه بالسنة الشح. و كان لزاما التعامل مع الأوضاع الجديدة. فمثلا نقص الوقود قد دفع إلى البحث عن البدائل و بذلك دخلت الجزائر عهد جديد معروف بالبحث عن المواد البديلة لجميع المجالات الإنتاجية، و خاصة منها في القطاع الفلاحي. لمزيد من الشروحات أنظر:

- Martin Claude, Histoire de l'Algérie française..., op.cit., p 296.

⁴- ANOM, GGA, 3cab/3, Communiqué à la presse, A/S restriction dans la consommation du café, n° 1280 CC, du 16 sept.1940.

⁵- ANOM, Aix-en-Provence, 12H13, commission d'études économiques et sociales musulmanes, avril-juin 1943.

ظروف الحرب للمطالبة بالاستقلال و توجهوا إلى ربط علاقات مع الأمريكيين.¹ بحيث أن ظروف الحياة الصعبة هي الأخرى ساهمت في وصول عدد من العمال الجزائريين المهجرين و العمال الفرنسيين و العمال المطرودين من المناطق المحتلة من طرف الألمان، و حتى أولئك اللاجئين المسرحين من صفوف الجيش. و كان معدل وصول هؤلاء إلى الجزائر يقارب 700 مقيم جديد شهريا خلال سنة 1941.

فيما يخص إنتاج الحبوب فقد أصبح ضعيفا خلال سنة 1940 حيث لم يكن بمقدور مخزون الشعير من تلبية احتياجات المسلمين الجزائريين، و هو الذي كان يعتبر مادة أساسية بالنسبة لهم، حيث يستعمل في صناعة الخبز و "الكسكسي". لذلك لجأت الجزائر إلى استيراد كميات هامة من المغرب قدرت بـ 800000 قنطار. غير أن ظروف نقلها أصبحت صعبة بسبب نقص وسائل النقل، حيث كانت تنقل عن طريق السكة الحديدية إلى غاية ميناء "نمور" (الغزوات حاليا) ثم عن طريق البحر إلى مختلف الموانئ الرئيسية في الجزائر.

أقدمت الإدارة الاستعمارية على وضع بطاقات خاصة بالحبوب في متناول المستهلكين، خاصة في المناطق الجبلية في بلاد القبائل و الشلف و ضواحي مستغانم. كما أن الفلاحة عرفت تراجعا بسبب تزايد عدد السكان، من جهة، و تقلص المساحات المزروعة من جهة أخرى. و ذلك حسب الجدول التالي:²

السنوات	عدد السكان	المساحة المزروعة هكتار	كمية الإنتاج قنطار
مجموع إنتاج الجزائر			
سنة 1871	2400000	2450000	12900000
سنة 1940	8000000	3200000	17500000
إنتاج المسلمين الجزائريين			
1900	4000000	1150000	7400000
1940	7000000	1100000	6000000

¹ - أمام الوضعية المزرية التي أفرزتها عملية الإنزال على بلدان شمال إفريقيا، كان لا بد على الوطنيين الجزائريين من ربط اتصالات أولية مع الدول المنتصرة و التي حلت مكان فرنسا في المنطقة. و عليه فالارتباط مع الحلفاء ضرورة أملتها ظروف الحرب العالمية الثانية و غياب تام للإدارة الاستعمارية الفرنسية. ينظر في هذا الباب إلى كل من:

- Ageron Charles Robert, « Les troubles du Nord constantinois en mai 1945, une tentative insurrectionnel », In revue Vingtième siècle, n° 4, octobre 1984, p 24. et voir aussi : Mekhaled Boucif., 8 mai 1945..., op.cit., qui cite Ahmed Tawfiq El Madani à la page 46 : Un militaire américain d'origine libanaise, Hadj Mohamed Siblani, joua un rôle déterminant dans les premiers contacts avec les nationalistes Algériens.

²- ANOM, Aix-en-Provence, Série H, 12H13 et 12H23, note rédigée par le général Weygand vers la fin septembre 1941.

فيما يخص المدن الكبرى، و إن كانت الظروف المعيشية هي الأخرى صعبة، إلا أنها لم تعرف نفس الظروف القاسية و المجاعة التي كانت تعرفها البادية و القرى. حيث كان بإمكان سكان المدن الحصول على الخضر و الحوامض و السمك بكميات مقبولة. إلا أن اللحوم أصبحت تعرف ندرة في الأسواق بسبب تصدير كمية كبيرة من الماشية نحو المتروبول، فكانت تلك الظروف مساعدة على انتشار السوق السوداء.

كما أن الجزائر تأثرت بالظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها المتروبول نظرا لارتباطها الكبير بالمواد المصنعة فيها. حيث لم تتمكن السلطات الاستعمارية في مرحلة ما بين الحربين تشجيع، و لو، عملية تصنيع صغيرة في الجزائر مما انعكس سلبا على الجزائر. فلا وجود لصناعة نسيجية و لا معاصر الزيوت و لا مصانع الصابون، و أصبحت المحلات تفرغ من موادها شيئا فشيئا و بذلك دخلت الجزائر مرحلة الجمود الاقتصادي.¹

أدى تدهور الوضع الاقتصادي إلى انتشار مظاهر سلبية وسط المجتمع الجزائري وصلت إلى حد التظاهر في الشوارع، حيث خرج الآلاف من الجزائريين و الأوروبيين في مدينة سيدي بلعباس للمطالبة بالعمل من أجل توفير الغذاء لعائلاتهم. مما دفع بالجلس العام المصادقة على تقديم مساعدات مالية قدرت بـ 50000 فرنك لكل من الأوروبيين،² أولا، ثم الجزائريين،³ ثانية.

كما صاحب هاتين العشريتين تدني متوسط المستوى المعيشي للسكان، الذين شهد عددهم في نفس الفترة، ارتفاعا قدر بنسبة 50%. و قد شكل تراجع الإنتاج الزراعي المعضلة الأساسية لهذا الركود الاقتصادي المتواصل، بالإضافة إلى تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية، ثم الحرب العالمية الثانية. هذه كلها عوامل ساهمت في تشتيت طرق الصادرات الجزائرية من الإنتاج الزراعي.⁴

و إذا كان البعض يتحدث عن انتعاش القطاع الفلاحي في الجزائر خلال هذه السنوات بشكل ملحوظ. حيث اعتبرت اليد العاملة كافية لتغطية معظم نشاطات القطاع، زيادة على الظروف المناخية الجيدة بفعل تساقط كميات معتبرة من الأمطار كانت كافية لزيادة حجم الإنتاج الزراعي، و ارتفاع عدد القطيع من الغنم و الأبقار، مما دفع بالجزائر إلى تزويد المتروبول، التي كانت تعاني أزمة مجاعة حادة، بكميات كبيرة من القمح و الحمضيات و الخضر و الخمر و الأغنام. في المقابل، كانت تستقبل الشعير من المغرب و زيت الفستق و القهوة و الكاكاو من إفريقيا الغربية.⁵ و استمر النشاط التجاري داخل العملات الجزائرية رغم البطء العائد لفقدان بعض الأسواق.¹

¹ - Levisse-Touzé (Christine), L'Afrique du Nord en..., op.cit., p 138.

² - Archives de la commune de Sidi Bel Abbès, Boite année 1935, Délibération du conseil municipal en session ordinaire en date du 29/01/1935, sous-préfecture de Sidi Bel Abbès, N° 1958, du 15/02/1935.

³ - A.C/ S.B.A, Ibid.

⁴ - S.E.D.I.A, op.cit....

⁵ - جاء في مذكرات الجنرال "ويقان" أنه قام باقتطاع كميات هامة من محصول سنوات 1940-1941 يوزع على النحو التالي: 778213 قنطار من القمح اللين، 1042372 قنطار من القمح الصلب و 1136519 قنطار من الخضر و 246279 قنطار من البطاطا و

ففي مقابل ذلك، نجد أن البعض الآخر يرى بأن الجزائر قد عانت من فصول شتاء قاسية خلال سنوات، 1939-1940 و 1941-1942 و من فصلي ربيع يميلان أكثر إلى الجفاف خلال سنوات 1942 و 1945، غير أن الوضعية تحسنت بعض الشيء بداية من سنة 1941 و إبرام فرنسا للاتفاق الشهير مع الولايات المتحدة الأمريكية و الذي عرف باتفاق "ويقان-مورفي" حيث تحصلت فرنسا بموجبه على مساعدات هامة من أمريكا خاصة المواد الأولية و المواد الغذائية التي ساهمت في رفع معانات سكان شمال إفريقيا بشكل عام. ما انعكس سلبا على الإنتاج الإجمالي من الحبوب بفعل المصادرات التي كانت تتم لفائدة المتروبول و التي كان معظمها في الحقيقة، يعرف طريقه نحو دول المحور. و الأرقام المقدمة من طرف هؤلاء تظهر بوضوح تدني مستوى الإنتاج الزراعي من الحبوب بداية من سنة 1940 بعدما كان مرتفعا، نوعا ما، خلال سنة 1939، إذ قدر بـ 22.7 مليون قنطار. بعدها عرف تدني كبير سنة 1940، حيث وصل إلى حوالي 9.3 مليون قنطار، ثم قفز إلى 20 مليون سنة 1941، بعدها تراجع إلى 11.2 مليون قنطار سنة 1942، ليرتفع إلى 15.5 مليون سنة 1943، لينزل إلى 10 مليون قنطار سنة 1944، ثم إلى أسوأ مستوياته سنة 1945 بحوالي 3.6 مليون قنطار فقط.²

هذا الطرح مدعم بأرقام أكثر دقة فيما يخص توزيع هذا الإنتاج على مختلف أنواع الحبوب، منها القمح الصلب و القمح اللين و الشعير. و الجدول التالي يبين لنا بوضوح الكميات المخصصة لكل نوع:³

719638 قنطار من الحمضيات و 5700000 هكتولتر من الخمر، و 215186 رأس من الغنم الحي، و 8195 قنطار من لحم الخروف المجد و 28839 من الحرير. بقي فقط التعرف على الكمية الحقيقية التي كان يتحصل عليها الألمان من كل هذا. و قد أوضح الأميرال "أوفان" Auphan أنه باستثناء مادة الفوسفات التي كان يذهب نصف كميتها لدول المحور، مقابل منتجات أخرى، فإن كل المواد القادمة من مستعمرات ما وراء البحار كانت موجهة للاستهلاك الفرنسي الداخلي في المتروبول فقط. أنظر إلى كل من:

- Hoover Institute, Témoignage de l'Amiral Auphan, t1, p 342. (Cite par Martin Claude, in Histoire de l'Algérie française..., op.cit., p 297.)

¹- إن هذا الانتعاش الذي تحدثت عنه بعض المراجع الفرنسية المشار إليها في الهامش، لم يدم في الأصل إلا فترة معينة كانت مؤشر إيجابي خلال سنة 1941 فقط. لأن كل المصادر الأرشيفية، و هي فرنسية، قد أشارت إلى الصعوبة الكبيرة التي واجهت الجزائر في عملية التزويد بالمواد الضرورية التي أصبحت نادرة و في بعض الأحيان مفقودة من الأسواق الجزائرية. و حتى حكومة فيشي لم تتمكن من توقيف نزيف الحبوب الجزائرية نحو المتروبول. كما اضطرت الإدارة الاستعمارية في الجزائر إلى اقتطاع كميات من القمح اللين من تونس نحو الجزائر. و كل التقارير الفرنسية تشير إلى عجز كبير في الكميات المتوفرة من الحبوب بداية من السنة الفلاحية 1940-1941، سواء تعلق الأمر بالقمح الصلب، الذي قدر العجز فيه بـ 100000 قنطار يضاف إليها 800000 قنطار سوف تقتطع من الجزائر و ترسل إلى المتروبول. أما القمح اللين، فإن العجز فيه قدر بـ 680000 قنطار باعتبار أن محصول سنة 1940 كان ضعيفا. يضاف إليها 420000 قنطار أرسلت من الجزائر إلى المتروبول. و تضيف التقارير أن احتياجات الجزائريين خلال موسم 1940-1941 قد تصل إلى 3900000 قنطار من القمح الصلب، و 6000000 قنطار من الشعير تضاف إليها 200000 قنطار لتعويض الأرز. أنظر في الموضوع كل من:

- ANOM..., 3cab/3..., secrétariat d'état au ravitaillement, n° V.3186-S.E.F, vichy le 21 octobre 1940. (P 5629)

- ANOM..., Ibid..., télégramme de Tunis 758 24 21 40 du GG/Alger. (P. 5628)

- ANOM..., Id..., Note sur le ravitaillement de l'Algérie Durant la campagne 1940-1941, de 13pgs. Voir in Annexe libre.

²- Nouschi (André), L'Algérie amère..., op.cit., p 134.

³- هذا الجدول وضع وفقا للأرقام التي قدمها "نوشي" في كتابه و التي أرفقها بالتحليل الذي نراه معبرا إلى حد كبير للوضعية المزرية التي كان عليها الجزائريون في فترة الحرب العالمية الثانية. أنظر إلى:

- Nouschi André, L'Algérie amère..., op.cit., p 134.

الكمية: مليون قنطار

السنوات	قمح صلب	قمح لين	الشعير	ملاحظة
1939	7.9		10.6	عرف إنتاج القمح اللين نفس التطور الذي لوحظ على
1940	04			إنتاج القمح الصلب، بينما عرف إنتاج الشعير موسم
1941	7.8			حصاد جيد خلال سنة 1943. و وصل الإنتاج إلى أضعف
1942	4.7			مستوياته خلال سنة 1945 في مناطق الشلف و السهول
1943	5.1		7.5	العليا القسنطينية مما سمح باستغلال الحقول الزراعية كمراعي
1944	3.9			للقطعان، بعدما لم يتمكن الفلاحون من زرعها.
1945	1.6			

إن هذه الأرقام المقدمة قد لا تبرز بوضوح الفوارق التي كانت موجودة بين منطقة و أخرى، و لا حتى بين مدينة و أخرى، و ذلك بسبب نقص المواصلات بينها. و المثال يأتي من بلديتين لا تفصل بينهما سوى مسافة 30 كيلومتر، و هما سكيكدة (فيليب فيل) و جيمابس (جيمابس): الأولى كانت تمتلك في سنة 1941 مواد غذائية مثل الجبن و المصبرات و الشكولاته و علب الكبريت، بينما الأخرى لا تملك شيئا.¹

و في نفس الفترة، لوحظ أن الإنتاج كان جيدا في مدينة "سدراته"، بينما البلدية المختلطة "الأقبو" كانت تنتظر البذور للشروع في عملية زرع حقول القمح لموسم 1941-1942. بينما تأخر وصول حصة مدينة "عين مليلة" من الحبوب، حرم المدينة من الخبز لمدة يومين.²

في الحقيقة كان الإنتاج الجزائري من مختلف الحبوب يتعرض للحجز و المصادرة من طرف الإدارة العسكرية الفرنسية و بكميات كبيرة وصلت ما بين 450000 إلى 500000 قنطار. و خصت هذه المعاملة حتى تونس. و إذا عرفنا أن الثمن الذي كانت تدفعه الإدارة العسكرية يتراوح ما بين 50 إلى 70 فرنك للقنطار، فإن الشعير القادم من المغرب كان يطرح في السوق بأثمان باهظة تتراوح ما بين 150 إلى 160 فرنك للقنطار. هذا ما أحدث خللا واضحا في السوق الجزائرية التي تأثرت تأثرا شديدا من هذه الأوضاع القاسية للحرب.³

ج- تهديد الثروة الحيوانية و الغابية

¹ - Nouschi (André), L'Algérie amère..., op.cit., p 135.

² - Ibid., p 135.

³ - هذه الوضعية التي كانت تمر بها الجزائر تذكرنا بنفس الأوضاع التي عايشتها خلال حرب 1914-1918. و قد اعتبرت الإدارة الاستعمارية أن المسألة مرتبطة بعملية توزيع عادل لكل الإمكانات بين كل الذين يعيشون تحت الراية الفرنسية.. أنظر إلى التقرير الأرشيفي:

- ANOM., op.cit.,..., Note sur le ravitaillement de l'Algérie Durant la campagne 1940-1941, de 13pgs. Pp 12-13. Voir in Annexe libre..

بخصوص الثروة الحيوانية فكانت هي الأخرى تمر بظروف صعبة بسبب تقليص المساحات الرعوية. بفعل تناقص المساحات الزراعية و ارتفاع عدد العمال الزراعيين، إلى 85% من الفئة النشطة، حيث بدأت البوادي تعرف ظروفًا معيشية صعبة إذ أصبحت الأجور لا تكفي و ظروف الحياة قاسية. و بدأ الفلاح يشتري البذور لتغذية حيواناته من المستودعات الرسمية. فاقتحم السماسرة الميدان و شرعوا في شراء المواد المطلوبة بكثرة بأثمان زهيدة و يبيعونها بأثمان باهظة.¹ فأصبحت بذلك الثروة الحيوانية مهددة بالانقراض.

كما ساعد التنوع البيئي و المناخي على تنوع الثروة الحيوانية التي كانت في معظمها ملكا للجزائريين بنسب متفاوتة من نوع الحيوانات لأخر و من عمالة لأخرى حسب الجدول التالي:²

نوع الحيوانات	النسبة المئوية	السنة	ملاحظات
الأغنام	79	1954	لكن رغم ذلك فقد تراجعت الثروة الحيوانية بفعل سلب الكولون
الماعز	94	1954	لأراضي المراعي و معها لنقاط الماء الضرورية. و قد تراجع عدد
الأبقار	82	1954	قطعان الغنم إلى 4500000 رأس خلال سنوات 1945-1954.
الجمال	4 آلاف رأس	1954	أنظر: Oppermann Thomas, Le Problème Algérien
الخيول	84 ألف رأس	1954	,Maspero F., edit., Paris, 1961, p 53.

قدّرت الثروة الحيوانية من الحمير و البغال بأكثر من 156000 رأس. أما الخنازير المقدر عددها بـ 47000 رأس فكان أغلبها بيد الأوروبيين.³ إلا أن هذا الواقع لا يحجب الصعوبات و النقائص التي تعيق تربية المواشي في الجزائر خاصة منها الجفاف و التصحر و كذا ضعف التآطير و انعدام التكوين و قلة البيطرة. هذا ما دفع بالحكومة العامة "لإيف شاتينيو" اشروع في إصلاحات استهدفت هذا القطاع.⁴ غير أن الجوانب

¹ - ANOM, Aix-en-Provence, Série H, 9H43, bulletins de renseignements du 26 octobre 1940 et du 8 aout 1942.

² - Service de l'agriculture du. Département d'Oran,(SADO) Bref aperçu de l'agriculture en Oranie, librairie Fouqué, Oran, 1958, p 12.

³ - GGA, Annuaire statistique de l'Algérie, 1954, p 103.

⁴ - هناك دراسة فرنسية خصت بها المنطقة الغربية من الجزائر تسمح بعملية تقييم للقطاع الرعوي مفادها أن حرفة الرعي في تدهور مستمر. و يرجع ذلك إلى عملية الاستيطان الأوروبي في المنطقة. و التي كانت تنبذ وجود القبائل الرحل في محيطها. و لأن الجزائريين كانوا يملكون مع مطلع القرن العشرين حوالي 9 من 10 من الثروة الحيوانية الجزائرية مما جعلها في مقدمة الدول الممونة لفرنسا باللحوم. كما أن تراجع تربية المواشي في معظم مناطق البلاد راجع إلى تواضع إمكانيات الفلاحين المادية التي جعلت الإنتاج يتوجه فقط لتحقيق الاكتفاء الذاتي. دون أن ننسى الظروف الطبيعية التي كانت آثارها بادية على تدهور حرفة الرعي. ينظر في الموضوع إلى كل من:

- Merle Paul, contribution a l'étude des grands mouvements..m op.cit., p18 et p 26.

- Launay Michel, Paysans Algériens, la terre., op.cit., p 145.

العرضية التي خلفتها حالة التدهور في تربية المواشي فقد لمسناها من تراجع إنتاج مادة الصوف طول فترة الحرب العالمية الثانية و ما بعدها.

فيما يخص الثروة الحيوانية من الأغنام التي كانت متوفرة في الجزائر مع بداية الحرب العالمية الثانية فقد تم تقديرها بحوالي 6,5 مليون رأس وفق الجدول التالي:¹

جدول يمثل توزيع عدد رؤوس الأغنام على مناطق البلاد مع نهاية سنة 1939.

مناطق تواجدها	عدد رؤوس الأغنام-مليون رأس
عمالة الجزائر	1.313.821
عمالة وهران	1.570.820
عمالة قسنطينة	1.942.631
مناطق الجنوب	1.578.120
المجموع	6.405.382

غير أنه خلال معظم فترات الحرب العالمية الثانية عرفت هذه الثروة الحيوانية تراجعا رهيبا بفعل الممارسات التعسفية للإدارة الاستعمارية التي انحاز حكامها الإداريون للكلولون بإقرارهم بأن "الأهالي"

أهملوا حرفة الرعي و انصرفوا إلى العمل الفلاحي. إلى جانب ذلك، ركز المسؤولون الفرنسيون في الجزائر على عدم السماح بعودة الجزائريين إلى تأسيس القطيع لتربية الحيوانات من جديد.²

هذه الممارسات جعلت الثروة الحيوانية تواجه خطر الانقراض بسبب الاستهلاك المفرط للحم إلى جانب العوامل الطبيعية المتذبذبة حيث اشتد الجفاف خاصة في سنوات 1943 إلى 1945 مخلفا وراءه الواقع المر في عدد القطيع يبينه الجدول التالي:³

جدول يبين تراجع الثروة الحيوانية خلال مرحلة الحرب

¹- Documents Algériens, n 34, du 10-10-1947, pp 18-26. Et voir aussi ; Nouschi André, L'Algérie amère..Op.cit., p 134.

²- AWO, Boite 1381, commune mixte de Ain Temouchent, rapport de l'administrateur au préfet d'Oran, N° 2093 daté du 27/04/1943.

³- وجدنا هذه المعلومات و الأرقام أيضا عند المؤرخ الفرنسي "أندري نوشي". أنظر:

- Nouschi André, l'Algérie amère..., op.cit., p 134.

نوع القطيع	سنة 1939	سنة 1946	نسبة التراجع
الأغنام	6406000 رأس	2808000 رأس	57 بالمائة
الماعز	3252000 رأس	2053000 رأس	37 بالمائة
البقر	886000 رأس	683000 رأس	23 بالمائة

المصدر: Documents Algériens N° 34 du 10/10/1947

إن الوضعية القاسية التي كان يمر بها القطاع، دفعت بعدد من مربّي الماشية من بلاد القبائل إلى الذهاب بأنفسهم إلى المناطق التي تتوفر فيها المنتج لاقتناء الحبوب التي ترسل إليهم فور توفرها. و عادة ما يتم ملاحظة ندرة المواد بمجرد ما يتداول أمر تحديد سعرها. و قد بدأت المواشي تختفي من أسواق؛ القل و أقبو و بلزمة (كورنيل) بمجرد سماع أن الحاكم العام قد قرر تقنين سعر اللحوم في القصبات.

و كان ذلك بمثابة تخوف الإدارة من هذا السلوك الذي اعتبرته عمل تخريبي، في حين أن الفلاحون يعتبرونه وسيلة من الوسائل التي تساعد على مواجهة ارتفاع الأسعار المتواصل.¹

أما مسألة الغابات التي أولتها الإدارة الاستعمارية أهمية بالغة لما لها من تأثيرات على الثروة الحيوانية و الزراعية، فقد تميزت هي الأخرى بالصراع الطويل بين الإدارة المحلية و الفلاحين الجزائريين الأكثر حرمانا، و اتخذت أشكالا عديدة لدرجة تحجج الإدارة الاستعمارية بالقوانين التي سنتها رغبة منها في حماية الموارد الغابية. و كانت البداية منذ سنة 1833 عندما صدر أول منشور يمنع قطع أو قلع الشجر.²

مثلت الغابة، التي كانت عبارة عن محمية، مأكل الحيوانات و الإنسان معا. و شكلت الملجأ الأخير للجزائريين المشردين الذين طردهم الاستعمار من الأراضي الصالحة للزراعة منذ صدور قانون جوان 1851.³ و تواصل النقاش حول مستقبل الثروة الغابية إلى أن وصل إلى أروقة البرلمان الفرنسي سنة 1903 عندما صرح أحد النواب الفرنسيين بشأن هذه المسألة قائلا: "عوض أن يقومون باستغلال فعلي للغابة، فإنهم يجردون الفائدة في استغلال الأهالي المسلمين..⁴

كما شهدت الغابة توسعا في ملكيتها لفائدة الإدارة الاستعمارية، التي طبقت النظام الغابي من أجل تقليص الأراضي الزراعية،⁵ الأمر الذي فتح الشهية أمام عدد كبير من الكولون و المضاربين للتدفق عليها بحثا

¹ - Nouschi (André), l'Algérie amère..., op.cit., p 135.

² - صدر المنشور الأول الذي ينظم تسيير الغابات في الجزائر في 2 أبريل 1833، حيث نصت المادة الأولى منه على ما يلي: يمنع قلع أو قطع شجرة غابية مهما كان نوعها إلا بعد الحصول على تصريح خاص من الإدارة المحلية. و لم يتم إلغاء هذا المنشور إلا في 18 مارس 1871. و الظاهر أن الهدف منه هو الحد من نشاط الفلاح الجزائري الغابي. أنظر:

- ولد النبيه كريمة، الجزائريون و الإدارة المحلية الاستعمارية في عمالة وهران 1866-1947، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس، 2006، ص 349.

³ - صدر هذا القانون في 16 جوان 1851 و تعتبر المادة الرابعة من هذا القانون، و خاصة الفقرة الرابعة منها، أخطر ما جاء في النصوص القانونية فيما يتعلق بالغابات الجزائرية، حيث نصت على أن الحظيرة الوطنية تتكون من الخشب و الغابات و عليه فإن الدولة الاستعمارية هي التي تملك الحق في تسيير هذه الثروة. أنظر:

- ولد النبيه كريمة، الجزائريون و الإدارة المحلية الاستعمارية في عمالة وهران 1866-1947، مرجع سابق، ص 349.

⁴ - Journal Officiel de la République Française, in débats parlementaires de l'année 1903.

⁵ - Sari (Djilali), La dépossession des fellahs..., op.cit, pp 64-65.

عن الرزق. و أقبلت الإدارة الاستعمارية على سن ترسانة من القوانين و المراسيم طوال الفترة التي وجد فيها الاستعمار الفرنسي في الجزائر، لأنها كانت تنظر إليها بطمع كبير لما تمثله من ثروة ستستفيد منها فرنسا حتما. و قد تحدث عنها الباحث "شارني جون بول" Charnay J.P، عندما تعرض لحوالي 45 نصا قانونيا،¹ أظهرت كلها التسلط و القمع الذي فرض على الجزائريين. أغلب هذه القوانين أعادت إلى الأذهان سياسة المحتشدات التي جسدها القانون السلطاني لعام 1863، و الذي قام بتحديد الأراضي الغابية نهائيا، حتى ينظم استغلال الغابات.² و جاءت كرد فعل استعماري على ما أسماه بالحرق المتعمد للغابات، فأكد على كيفية اتخاذ الإجراءات الردعية لمنع الحرائق في الغابات الجزائرية.³ ذكر "لاكروا" Lacroix⁴ جملة غريبة تجعل من الجزائريين و العرب أعداء للشجر من بين ما جاء فيها: "إن الجزائريين يبدون كراهية حقيقية للأشجار...⁵ غير أن الواقع يثبت العكس من تلك الأقوال المزيفة، لأن من يحطم الغابة ليس ذلك الذي يقتات منها قوت حياته و أولاده، و إنما ذلك الذي يجهدا من خلال سلبها خيراتها، فكان الكولون يقومون باستنزاف الخيرات الغابية طوال الفترة التي امتدت من 1939 إلى 1945 بسبب ظروف الحرب و نقص تموين البلاد بالوقود و البترول و الغاز،⁶ الأمر الذي أدى إلى استغلال مفرط في الفحم و الخشب كمصدر للطاقة، و هما موردان أساسيان في تلك الفترة الزمنية لما كان لهما من أهمية و دور في تموين المتروبول، من جهة، و تصديرهما لإسبانيا و كذا جبهات القتال المختلفة خلال الحربين العالميتين، من جهة أخرى. و قد لخص "أجرون" هذا الواقع عندما قال: "إن تحريب الغابة هو من فعل الأوروبيين وليس الجزائريين، و لهذا على الإدارة معاقبة المصنع الذي يقوم باستيراد المادة الأولية... و ليس الجزائري الذي يقوم باستغلالها من أجل العيش...⁷ أما في ظروف الحرب، فقد خضعت معظم الغابات، بما فيها تلك الموجودة في المناطق الصعبة، إلى عمليات هدم كبيرة، لأنه لم تراعى فيها أبسط شروط الاستغلال العقلاني. و الإحصائيات التي بين أيدينا توضح بشكل دقيق هذا الجرم المرتكب في حق الغابات الجزائرية:⁸

جدول: إنتاج الثروة الغابية في الفترة الممتدة من 1939 إلى 1946

نوع الثروة الغابية	كمية الإنتاج
خشب البناء	1.555.500 م ³

¹ - هذه الترسانة من القوانين جاءت لتعطي الصبغة القانونية لكل المناشير التي أوجدها الاستعمار منذ دخوله أرض الجزائر. لمزيد من المعلومات أنظر:

- Charnay Jean Paul, La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de première moitié du 20^e siècle, P.U.F, Paris, 1965.

² - Mesli (Mohamed Elyes), Les origines de la crise agri..., op.cit, pp 91-111.

³ - ولد النبيه... أطروحة دكتوراه... مرجع سابق، ص 349-354.

⁴ - Lacroix (P), L'Evolution du nomadisme en Algérie, 1906, p 40. Voir aussi :

- ذكره أيضا: ولد النبيه كريم، أطروحة دكتوراه... مرجع سابق... ص 354.

⁵ - هذه العبارات مشهورة في كتب المدرسة الاستعمارية، كما اشتهرت عبارات أخرى لا تعترف بالوجود الجزائري و حضارته قبل الاحتلال. أنظر:

- ولد النبيه كريم "الجزائريون و الإدارة... أطروحة دكتوراه، مرجع سابق، ص 354.

⁶ - Sari (Djilali), La dépossession des fellahs..., op.cit., p 125.

⁷ - Ageron (Charles Robert), Les Algériens musulmans et la France..., T2, op.cit, p 780.

⁸ - Sari (Djilali), La dépossession des fellahs..., op.cit, p 125.

القصدير	11.608 ستيير (وحدة متر مكعب)
خشب التدفئة (الوقود)	7.031.300 ستيير
الفحم	6.000.000 ستيير
قشرة الدباغ (من شجر البلوط)	134.400 قنطار
خشب الفلين	1.800.000 قنطار

المصدر: Boudy : L'économie forestière nord-africaine, Paris, 1948, T1, p 229.

إذا أردنا أن نقدر حجم الكارثة التي ضربت الثروة الغابية في الجزائر خلال مرحلة الحرب العالمية الثانية، علينا أن نقارن إنتاج هذه المرحلة بمراحل الفترات العادية، فسنجد أن الفرق سبع مرات أكبر. و عليه فإن الغابات كانت معرضة للإتلاف. لأن العملية تواصلت بشكل هنجي خلال مرحلة حرب التحرير الوطني.¹

د- الشركات الأهلية للاحتياط ترهن مستقبل الفلاحين الجزائريين

حاول الاستعمار تجريب أسلوب جديد في عملية التفكيك الاجتماعي و الاقتصادي للقبيلة و ذلك عندما أسس الدوار بغرض تحديد مساحة الجزائريين إلى وحدات مصغرة، و تحويل أهلها إلى عمال زراعيين و أجراء و خماسين² في مزارع الكولون. و من بين هذه الشركات، نذكر الشركة الأهلية للاحتياط Sociétés Indigènes de Prévoyance التي تأسست بموجب قانون 14 أبريل 1893³ من أجل تأطير و تنظيم المجتمع الجزائري الجزائري في الأرياف. و بطبيعة الحال فإن مجلسها الإداري يتم تعيينه من طرف حاكم العمالة، و حتما لن يكون إلا فرنسا من الكولون. و الأعضاء المعينون من طرف حاكم العمالة بدورهم، يقومون بتعيين رئيسا على رأس الشركة، يكون في الغالب هو الحاكم الإداري. و قد أصبح هذا الأخير رئيسا رسميا منذ صدور مرسوم نوفمبر 1938.⁴ مع إنشائه لهذه الشركات، أبعده الاستعمار الفرنسي الفلاحين الجزائريين من دائرة الاستفادة من القروض، التي كانت تمنح للأوروبيين في فرنسا و الجزائر. و يعتبر أحد الباحثين⁵ في الميدان، أن الهدف الذي كان يبحث عليه الاستعمار الفرنسي من وراء إنشائه لهذه الشركات هو تأطير الأرياف و مراقبة إمكانياتها و

¹ - لمزيد من المعلومات في الموضوع أنظر:

- Sari Djilali, La dépossession des fellahs..., op.cit, pp 126-129.

² - الخماس هو من يعمل عند غيره في فترة تتراوح بين 11 و 1 شهر حيث يقوم بتأجير الأرض بخمس الإنتاج. و يمكنه الحصول على تسبيق نقدي أو عيني من أجل إعالة أسرته، كما يمكنه الحصول على عشر الإنتاج في حالة فسخ العقد الشفهي الذي يربطه مع صاحب الأرض في حال إذا كان قد قام بأعمال الحرث و الزرع. و يمكن أن يتكرم عليه صاحب الأرض بقطعة صغيرة من ملكيته تسمى "بالعزلة" و يقوم باستغلالها لفائدته. إلا أن الخماس بقي يعاني من تدني الأوضاع الاجتماعية و المادية إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية و لم يتمكن من التحرر من الديون التي كانت على عاتقه. لمزيد من المعلومات أنظر:

- Chentouf Tayeb, L'Algérie en 1954, éditions O,P U, Alger, 2006, pp 36-37.

³ - Nouschi (André), La naissance du nationalisme Algérien..., op.cit, p 38.

⁴ - Henni (Ahmed), La colonisation agraire et le sous-développement en Algérie, SNED, Alger, 1981, p 111.

⁵ - Ibid..., p 223.

بالتالي منعها من استغلال مجالات التكوين و توزيع الدخل الاجتماعي و مواصلة مشروع إفقار الجزائريين حتى تبقى اليد العاملة الزراعية في متناول الكولون بأثمان زهيدة..

بحلول سنة 1943 أصبح والي العمالة يعين الأعضاء الجزائريين لمدة ثلاث سنوات، و كانوا جلهم من الأعيان الموالين لفرنسا. غير أن سلطة حاكم العمالة كانت واسعة في تسيير هذه الشركات حيث كان يحق له معاقبتها و تجميدها إذا رأى الضرورة في ذلك. و في هذا الصدد يضيف نفس الباحث، أن مفتش المالية و مدير الضرائب كانا مكلفان بمراقبة هذه الشركات.. و هكذا فإن السلطة السياسية و الضرائبية معا، كان لهما الحق في استغلال هذه الشركات كوسيلة لمراقبة سكان الأرياف.¹

كان مجلس إدارة الشركات يقوم بدراسة ملفات القروض التي كان يتقدم بها الفلاحون الجزائريون و يسلم القائمة النهائية إلى أمين المال للتنفيذ. و تموين الشركة كان يتم في غالب الأحيان، من اشتراكات الفلاحين و الأرباح المحققة من وراء عمليات بيع الحبوب. و عليه، فإن هذه الشركات تقوم بشراء الحبوب من الفلاحين و تبيعها للفلاحين، و تقرضها للفلاحين. الغريب، أن هذه الأموال مأخوذة من الأرباح المحققة. و يقول أحد الباحثين: "إن الإدارة الاستعمارية مدحت كثيرا دور هذه الشركات، و لكنها تجاهلت الجهة التي كانت تأتي منها الأموال..² لأن هذه الشركات كانت في الأصل تقوم باقتطاع الضرائب الإضافية المطبقة على الجزائريين حتى من الأموال و المؤن التي كانت تحصل عليها الشركة.³

وطدت الإدارة الاستعمارية علاقتها مع القياد في الدواوير عن طريق هذه الشركات التي كانت تتعامل بصفة مباشرة مع القايد، و بات هذا الأخير هو الذي يمنح الموافقة النهائية للفلاحين الجزائريين الذين يتقدمون بطلب القروض. و يذكر "لوني" في هذا الصدد: " أن الفلاح المتغطرس و المتكبر يمكنه الانتظار طويلا للحصول على قروض البذور، و الفلاح الذي لا يتصرف وفق أوامر و توجيهات القايد في الحملات الانتخابية سوف تسحب منه القروض في حينها و ترجع إلى الشركة الأهلية للاحتياط..و يكون ذلك عقابه..⁴

الحقيقة أن الشركات الأهلية للاحتياط⁵ كانت تمثل رمزا من رموز الاستعمار، لذا حاولت الإدارة الاستعمارية الاستثمار فيها و تحويلها إلى وسيلة اقتصادية في يد المستوطنين للسيطرة على الريف الجزائري،

¹- Ageron (Charles Robert), Les Algériens musulmans et .., T2..., op.cit, pp 861-871.

²- Henni (Ahmed)..., La colonisation agraire et le..., op.cit, p 112.

³- في هذا الباب كتب العديد من الباحثين و المؤرخين حول طريقة التعامل غير العادلة التي كانت تمتاز بها الإدارة الاستعمارية تجاه الجزائريين خاصة فيما كان يتعلق بالضرائب. في هذا الباب يذكر "أحمد هني" أنه ما بين 1920 و 1928 تم توزيع ما بين 15 و 20 كلغ من الحبوب فقط للفلاح من مجموع 570 ألف منحوطا ! بينما تسلم المستوطن الواحد في سنة 1930 حوالي ألف فرنك من مجموع 26 مليون فرنكا منحت للفلاحين الأوروبيين. أنظر:

- Ageron Charles Robert, Les Algériens musulmans et..., T2, op.cit, p 863.

- Henni Ahmed, La colonisation agraire et le..., op.cit, p 122.

⁴- Launay (Michel), Paysans Algériens, la terre, les Hommes..., op.cit, p .

⁵- هناك دراسات عديدة حصت هذه الشركات الأهلية للاحتياط، خاصة تلك التي تناولتها من نظرة أبحاث استعمارية محضة. أنظر كل من:

- Pasquier Bronde Louis, Le paysannat en Algérie, In Questions Nord-africaine, N° 14, du 25/05/1939 pp 61-117.

لأنها في الأخير ستمكنهم من جني أرباح كبيرة، و تدر على القياد عيشة الرخاء و البذخ. فهي وسيلة لإفقار الفلاحين الجزائريين، أو كما قال "أجرون"، فهي: "تحافظ على الفقر و التغذية..¹"

كانت هذه المؤسسة الفلاحية مصطنعة من طرف الاستعمار و عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية صدر قانون 17 نوفمبر 1940،² الذي منحها حق شراء و بيع كل أنواع الحبوب، أصبح إلزاميا على كل المنخرطين في الشركة بيع محصولهم للشركة التي تقوم بتخزينه، خاصة في ظروف الحرب. و علينا أن نتصور الأرباح الطائلة التي ستجنيها الشركات الأهلية من عملية البيع و الشراء.

أصبحت إمكانيات الشركات الأهلية للاحتياط محدودة بفعل أن القروض الممنوحة يجب تسديدها خلال السنة. و في حال موسم إنتاج صعب، فإن استردادها يصبح صعبا مما يضع هذه الشركات الأهلية في موقف حرج تجاه المؤسسات المانحة للقروض التي تغذي خزنتها بدفع تسبيقات على المدى المتوسط، كما حدث في البلدية المختلطة بتيارت.³ بات من الضروري على الهيئات المكلفة بتمويل فرع "القرض" للشركات الأهلية للاحتياط بأن تمنح لها فرصة الاقتراض على المدى المتوسط، أي ما بين 3 إلى 5 سنوات، مع ضمان التسديد بواسطة إنتاج فلاحى جيد في السنة. و إلا فسوف نعود إلى شبح أزمة سنة 1935 الذي تطلب تدعيم عدد كبير من الفلاحين. لأنه بدون هذه الإعانات فإن الفلاح سيجد نفسه مضطرا للاقتراض بالفوائد الربوية التي ستقوده حتما نحو فقر محقق و شامل سوف يعصف به.⁴

و في إطار الدعاية التي كانت تقوم بها الإدارة الاستعمارية خلال الحرب، وعدت بتعيين بعض الجزائريين في مجلس إدارة هذه الشركات بعد أن يعاد النظر في تنظيمها.⁵ و بعد انتهاء الحرب لم تقم الإدارة الاستعمارية سوى بتطبيق مبدأ اختيار رئيس الشركة من بين أعضائها منذ سنة 1946. حيث باستثناء تعيين بعض رؤساء الشركات من أوساط الأعيان الجزائريين، فإنه لم يحدث أي تغيير في تسيير هذه الشركات و إصلاحها.

- Adam (P), La S.I.P Artisanale de Tlemcen, mémoire E.N.A 1940, In Bibliothèque Wilaya Oran, code B 373 (13).

¹- Ageron (Charles Robert), Les musulmans Algériens et la France..., T1, op.cit, p 385.

²- Henni (Ahmed), La colonisation agraire et le..., op.cit, p 112.

³- Chentouf (Tayeb), L'Algérie en 1954, OPU, Alger, 2006, pp 45-46.

⁴- Ibid., p 47.

⁵- A.W.O, B 4476, surveillance des indigènes, rapports des C.M, et circulaire à messieurs les Administrateurs, N°6333, Oran le 25 Avril 1941.

و في سنة 1952 صدر مرسوم حول هذه الشركات من أهلية إلى الشركات الفلاحية للاحتياط.¹
Societe Agricole de Prévoyance أي أن التغيير الوحيد كان في تغيير الحروف فقط.² و كما قال أحد المندوبين المسلمين: "هذا الفتات من القروض قد وزع على فتات من الفلاحين...".³

هـ- تنظيم التموين للحد من الأزمة الغذائية

شهدت معظم فترات الحرب العالمية الثانية تدني في المستوى المعيشي للجزائريين الذين أصبحوا يعيشون أحلك أيامهم جراء أساليب استعمارية متعددة جمعت بين تنظيم التموين و فرض التقنين على السكان الأهالي، خاصة في الأرياف التي كانت تعيش فيها أكبر الأعداد، الأمر الذي أدى إلى ظهور و تفشي مجموعة من الظواهر السلبية أثرت كثيرا على معيشة الجزائريين.

كانت ظروف الحرب العالمية الثانية مغايرة عن الأولى من جوانب عديدة، لعل أولها الوضع الاقتصادي الذي كان لا يزال متأثرا من تدهور أحوال الثلاثينات بسبب تداعيات الأزمة الاقتصادية. ولم تقتصر الانعكاسات الأولى للحرب على الميدان السياسي فحسب، بل شملت أيضا المجالين الاقتصادي و الاجتماعي، حيث شرعت الإدارة الاستعمارية في العمل بما عرف "بطاقات التموين"⁴ Carte de ravitaillement منذ اندلاع الحرب. كما أن عمليات التجنيد و التعبئة و التسخير أحدثت خللا في النشاط الاقتصادي انعكس سلبا على المحيط الحساس للمواد الأساسية الضرورية التي أصبحت مفقودة مثل؛ الفحم و البن و السكر و الزيت، و على أسعارها التي كانت في ارتفاع مستمر.⁵

هذا الواقع كان مغايرا تماما للتصريحات المتفائلة التي وجهها الجنرال "ويغان" في مطلع سنة 1941،⁶ عندما قدم ميزانية الجزائر و صرح قائلاً: إذا سارت الأمور على ما يرام سيكون بحوزتنا القمح في غضون الستة

¹- ANOM, GGA, Quelques aspects des problèmes économiques et sociaux, imprimerie Baconnier frères, Alger, 1957, p 8.

²- شرعت الإدارة الاستعمارية في إنشاء قطاعات التحسين الريفي SAR بموجب قرار 18 أبريل 1946. و كانت عبارة عن تعاونيات وجدت في أراضي تابعة للبلديات و تحدف إلى تحسين الظروف المعيشية لسكان الريف مع مراعاة النمو الديمغرافي و العدالة الاجتماعية. أنظر كل من:

- Direction de l'agriculture du gouvernement général en Algérie,- Vers la rénovation de l'agriculture traditionnelle par les SAP et leurs SAR-, imprimerie Baconnier, Alger, 1954, p 30.

- Aron Robert, Les origines de la guerre..., op.cit., p 190.

³- Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit., p 497.

⁴- لقد أنجزت الإدارة الاستعمارية بطاقة خاصة بعملية التموين لمراقبة المواد الاستهلاكية الأولية التي يحتاج إليها السكان، سواء كانوا أوروبيين أم مسلمين، و هذا النموذج من البطاقات انتشر في كل بلدان شمال إفريقيا. أنظر الملحق رقم: 19.

⁵- A.W.O, B 2261, Analyse de la presse, El Ouifak, N° 28 du 07/01/1940.Extraits.

⁶- A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran, « Le général Weygand s'adresse à l'Afrique Française », 1^{er} Janvier 1941, p 01.

أشهر المقبلة..¹ و اتضح أن مشكل التموين سيزداد اتساعا مع اشتداد الحرب في جبهات القتال، هذا ما وصلت إليه جريدة "صدى وهران"، عندما تحدثت عن مشكلة التموين في الجزائر.² خاصة و أن فرنسا كانت تحض بكل مزايا التصدير الجزائري من فواكه طازجة و خضر جاهزة.³

و كان فرحات عباس قد انتقد بشدة في المذكرة التي أرسلها إلى وزير الداخلية في مارس 1942، الممارسات غير الأخلاقية التي يقوم بها بعض شيوخ البلديات و القياد في التمييز بين الأوروبيين و الجزائريين فيما يتعلق بقضية التموين.⁴ و حتى بلديات عمالة الجزائر قد عانت من صعوبات في التموين فيما يخص القمح و الدقيق و أن الإدارة الاستعمارية تنتظر قدوم المواد الغذائية و البضائع من الحلفاء.⁵

و قد أشارت مصالح بلدية "بئر مراد راييس" إلى خطورة الوضع داخل البلدية باعتبار أن الحصة اليومية لكل ساكن قد تناقصت من 400 غ إلى 300 غ، و إذا تواصل الحال على ما هو عليه، فخلال 5 أيام لن يكون هناك دقيق.⁶ كما أبقت الإدارة على عملية تقنين المواد المستوردة ريثما تصل الحمولة الجديدة و توجه إلى الجزائر و المغرب.⁷

و فيما يتعلق بمسألة التموين في عمالة وهران، فقد أشارت تقارير رسمية إلى أن ما قام به ق النقيب "فوستر"، ضابط أمريكي في الاستعلامات، كان بقرار من تعليمه العقيد "نيلسون" بعقد اتصالات مكثفة مع مجموعة من الشخصيات المسلمة بمدن جزائرية خاصة في عمالة وهران، من أجل ضبط احتياجات الجزائريين المتزايدة من المواد الاستهلاكية.⁸

و يشير تقرير بعث به نائب رئيس دائرة تيارت في 1941، و المتعلق بالوضعية العامة داخل مقاطعته و خاص بتموين السكان الأهالي بالحبوب، إلى انعدام المبيعات خلال الأسبوع الممتد من 28 جويلية 1941 إلى 2 أوت 1941 عكس الشراء الذي كان معتبرا. بحيث تم شراء، 951 قنطارا من القمح الصلب بمعدل 86 فرنك للقنطار، و 1626 قنطارا من القمح اللين بـ 56 فرنك للقنطار، و أخيرا 1283 قنطارا من الشعير بـ 64 فرنك للقنطار.⁹

¹- A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran, Eugelhard (M) « Si tout va bien, dans six mois nous aurons du blé.. », du 02 janvier 1941.

²- A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran, Delpeyrou (Alex), « Le problème du ravitaillement », du 14 mars 1941, p 01.

³- A.W.O, Dossier presse, L'Echo d'Oran, « Le ravitaillement de la France en fruits et primeurs d'Algérie », du 16 mars 1941, p 01.

⁴- Ferhat (Abbas), De la colonie Vers..., op.cit. Suivit du rapport au maréchal Pétain avril 1941.

⁵- A.N.O.M, G/G.A, 7cab/29, P. Alger, du 24 février 1943, difficultés en ravitaillement en blé et farine des communes du départ..., Alger.

⁶- Ibid.

⁷- ANOM, 7cab/29, Cdt en chef français civil et milita., Sec..a la pro..., Alger le 25/02/1943.

⁸- من بين هذه الشخصيات الوطنية نذكر كل من: "ابن حليمة محمد" مفوض مالي سابق، و "ابن خدة بلعربي" مستشار عام، و "ابن ديدونة محمد" من مدينة سيق، و "لالوت" من مدينة سيدي بلعباس، و "إدريس التازي" رئيس مجموعة شراء الأنسجة للأهالي. أنظر:

- A.W.O, B 4477, Rapport du CIE, Oran, N° 280 du 20 mars 1943.

⁹- A.W.O, B 4476, Arrondissement de Tiaret, C.M de Freneda, Rapport hebdomadaire, du 4 Août 1941.

و أصبح الشغل الشاغل للجزائري، الذي كان يعيش على آمال انتصار الحلفاء لتحقيق طموحاته، هو حياته اليومية فقط. و ذلك نظرا لتزايد معاناته من نقص الغذاء و ضعف التموين و ارتفاع الأسعار للمواد الاستهلاكية فكانت معدلاتها مع مطلع سنة 1943 لا تبشر بالخير نظرا لارتفاع أسعار السكر و الزيت و القهوة ما بين 2.75 إلى 3.00 فرنك للكلغ، و الشاي وصل إلى 8.50 للكلغ، أما البيض فقدرت الوحدة منه ما بين 0.4 إلى 0.6 فرنك.¹ و قد شهدت أسعار المواد الغذائية الأساسية، خاصة منها المواد الاستهلاكية- كالزيت و السكر و الدقيق..- ارتفاعا ملحوظا، تعدت نسبها في بعض الأحيان 100% كما يوضحه الجدول التالي:²

جدول تطور أسعار بعض المواد الاستهلاكية-1936-1945-الوحدة: فرنك / كلغ.

المواد	خبز	فريضة	زيت	سكر	حليب	فاصوليا	اللحوم	شعير 100 كلغ	قمح صلب 100 كلغ
أسعار 1936	1.80	----	2.50	3	2.50	2	----	45	90
أسعار 1937	2.25	----	5	4.50	2.90	4	----	110	150
أسعار 1939	3.10	3.65	6	----	----	----	15.30	----	----
أسعار 1942	3.70	3.80	17	----	----	----	23.60	----	----
أسعار 1944	8.15	9.70	30	----	----	----	71.50	----	----
أسعار 1945	8.55	9.30	36	----	----	----	98.15	----	----

و ربما كان هذا هو السبب، الذي جعل رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة "كوين" Gouin يصرح في مداخلاته أمام الجمعية الوطنية الفرنسية في 22 ماي 1946 بما يلي: "إن معركة التموين لم تنته، فهي لا زالت قائمة".³ هذا التصريح يؤكد على عدم تحسن الأحوال المعيشية للجزائريين و استمرار ندرة المواد الغذائية و بقاء السوق السوداء، وذلك بالرغم من مضي سنة كاملة على نهاية الحرب. هذا معناه، أن الظروف المعيشية اليومية للجزائري لم تتحسن على الإطلاق.

و استمرت آثار و مخلفات الحرب الاقتصادية و الاجتماعية على الواقع اليومي للجزائريين مدة طويلة، طبعتها المظاهر السلبية العديدة و المتمثلة في ارتفاع الأسعار، و ندرة المواد الواسعة الاستهلاك، و

¹ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE, N° 44 du mois de janvier 1943. Et voir aussi : CIE, N° 233, Février 1943.

² - هذا الجدول وضع انطلاقا من جمعا مجموعة من الأرقام و المعطيات من مصادر و مراجع على حد سواء. أنظر كل من:

- Diemert Jean Philippe, Le syndicalisme en Algérie, et plus particulièrement dans la région oranaise de 1919 à 1938, mémoire de maîtrise, université de Paris, S.d, p 116.

- Annuaire statistique de l'Algérie 1939-1947, pp 248 et 253.

³ - A.W.O, dossier presse, journal « Ain Sefra » de Mostaganem, du 23 mai 1946.

السوق السوداء و تزايد في حجم البطالة، و ارتفاع أعداد الفلاحين الجزائريين بدون أرض، و عودة الهجرة نحو المدن و إلى الخارج.¹

حاولت مصالح التموين العامة للجزائر تنظيم ما يمكن تنظيحه في عملية التموين العامة و ذلك بطرح المواد الأولية الضرورية في الأسواق و ذلك بموجب إجراءات اقتصادية هامة خلال الأسبوع الأول من شهر أكتوبر 1939. و كانت التعليمات التي أرسلها الحاكم العام لحكام العمال الثلاث، ترخص لهم بطرح كمية من المواد الغذائية الأساسية لا تتعدى 20% من المخزون المصرح به بقوليات و 10% من الزيوت الغذائية بكل أنواعها، و المواد الدسمة النباتية و السكر و القهوة و الشاي و الحليب المعلب و الصابون. و شددت مصالح التموين على ضرورة التوزيع العقلاني لهذه المواد في كل عمالات الجزائر و المناطق العسكرية بالجنوب.²

كما وضعت ذات المصالح، و بالتنسيق مع القائد العام للقوات العسكرية في شمال إفريقيا، مخطط تموين الجزائر باللحوم الطازجة و المجمدة حيث يعتمد على استيراد لحوم البقر و كمية من لحم الخنزير من المغرب و اللحوم المجمدة من "مدغشقر". بالإضافة إلى تصدير كميات كبيرة من الخمر نحو المتروبول.³ أما مناطق الجنوب، فقد حددت تعليمات أرسلت إلى القيادات العسكرية لمناطق "عين الصفراء" و "غرداية" و "توقرت"، لتقديم احتياجات السكان للمناطق التي هي تحت سلطتهم. على أن يتم تموين هذه المناطق من طرق التجار باعة الجملة و نصف الجملة للمناطق المدنية.⁴

و قد تميزت الحالة العامة في المنطقة الغربية بتفاقم الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية، و تزايد معاناة الجزائريين في القطاع و الناتجة عن نقص في التموين الغذائي و ارتفاع الأسعار، مما خلق حالة من التذمر و الاستياء لدى الجزائريين الذين عبروا عن ذلك بطريقتهم الخاصة، مزجت بين العصيان و التظاهر و العنف في بعض المواقف. و نذكر تظاهر حوالي 2000 امرأة من ربات البيوت أمام مقر بلدية تيارت في الفاتح مارس 1945، و مهاجمة حوالي 100 شخص لشاحنة تموين بالخبز في بلدية "بيليسيبي" Pélissier، (صيادة حاليا)، بدائرة مستغانم و ذلك في 4 مارس من نفس السنة.⁵ كما تظاهرت في السادس من مارس حوالي 2000 امرأة في مدينة وهران حاملة شعارات تندد بنقص مادة "الخبز" لدى الجزائريين.⁶

لما عمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى مضاعفة استغلالها لثروات الجزائر من أجل خدمة حربها ضد النازية، خاصة بعد نوفمبر 1942، توقفت كل المشاريع الاقتصادية.⁷ فأصبحت الجزائر منذ ذلك التاريخ

¹ - Larnaude (Marcel), L'Algérie, éditions Berger-Levrault, Paris, 1950, p103.

² - ANOM...3cab/3...Circulaire du GG, n°1348/ME, du 3 octobre 1939. Et voir aussi :

- Ibid... Exposé des mesures importantes d'ordre économique prises entre le 1er et le 8 octobre 1939.

³ - Id... Mise à la consommation des denrées de première nécessité..

⁴ - Id... Circularire n°10.740. In ANOM...3cab/3.

⁵ - A.W.O, Préfecture d'Oran, CIE, N° 122 du mois de mars 1945.

⁶ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., T2, op.cit, pp 696-697

⁷ - Yacono (Xavier), Histoire de l'Algérie de la fin de la régence..., op.cit, p 336.

تلعب دور "رجل الإطفاء" من أجل التخفيف من أعباء فرنسا، فانعكس ذلك سلبا على الجزائريين الذين تعدت منهم نسبة 80% معدل الفقر.¹ و هم بذلك غير قادرين على تلبية حاجياتهم المعيشية.

و مع ظروف الحرب القاسية ازدادت وضعية الجزائريين صعوبة، بفعل ندرة المواد الغذائية التي أصبحت خاضعة للتقنين،² و ارتفاع الأسعار بسبب المضاربة و انتشار السوق السوداء.³ و حتى الألبسة لم تنجوا من هذه الوضعية، حيث يكشف لنا "نوشي" عن وضعية مزرية "للعامل اليوميين" الذين كانوا يرتدون "الأسمال" و يعملون حتى شبه عراة.⁴

فظهرت "بطاقات الحصص" و التي كانت ذات قيمة و أهمية كبيرة عند معظم الجزائريين لدرجة أن بعض القبائل امتنعت عن الإدلاء بحالات الوفيات، من أجل أن لا تتعرض حصصها القليلة من الغذاء إلى عملية تقليص، و هي في الأصل قليلة جدا.⁵ فتراوح ثمن القمح في السوق السوداء ما بين 7000 إلى 16000 فرنك للطن، في الوقت الذي حددته الإدارة الاستعمارية بـ 540 فرنك للطن.

هذا الخل انعكس سلبا على عمليات التوزيع التي أسندت "للقياذ" و الإداريين، و قد ميزها الظلم و عدم التساوي في توزيع "الحصص" بين الأوروبيين و الجزائريين. فكانت "حصصة" الجزائري أقل بكثير من حصصة الأوروبي. ففي حين أن الفرنسي كان يستفيد من 300 غرام يوميا، نجد أن الجزائري لم يتحصل سوى على 100 أو 150 غرام.⁶

و حسب شهادة البعض ممن عايشوا هذه المرحلة في القطاع الوهراني فإن عملية التقنين التي مست المواد الغذائية خلال سنوات 1940، 1941 و 1942 في دائرة تلمسان، مثلا، تمت بعد تقسيم المدينة إلى مقاطعات A.B.C.D.E.F.G.H...، حيث كان يتم توزيع 2 كلغ من "القول" و 1 كلغ من سمك "السردين" على كل عائلة، و كان يتم ذلك بالتناوب مرة في كل خمسة عشر يوما. و قد أشار لي صاحب هذه الشهادة أنه و عائلته كانوا يقطنون المقاطعة G و التي كانت تسمى "بطريق التوت".⁷

¹- Nouschi (André), L'Algérie amère..., op.cit, p 133.

²- ينظر إلى بطاقة التقنين الممنوحة من طرف الإدارة الاستعمارية على سكان شمال إفريقيا في الملحق رقم...

³- اعتبرنا هذه المظاهر من الآفات الاجتماعية التي أثرت سلبا في المجتمع. لذلك خصصنا لها جانبا في الشق الاجتماعي للموضوع.

⁴- Nouschi (André), La naissance du nationalisme Algérien..., op.cit, p 106.

⁵- Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre..., op.cit, p 165.

⁶- Ibid., p 165.

⁷- هذا الشاهد هو : هتاف غرابلي، من مواليد 16 مارس 1933 بتلمسان، حاصل على شهادة البكالوريا شعبة علوم سنة 1953. شغل منصب مدرس في مدرسة

Pierre Et Marie Curie بتلمسان، و شارك في إضراب الثمانية أيام خلال مرحلة الثورة التحريرية. بعد الاستقلال شغل منصب مدير لمركز التكوين المهني

بسيدي بلعباس إلى غاية سنة 1974. ثم انتقل بعد ذلك إلى ولاية تلمسان ليشغل نفس المنصب من 1974 إلى غاية 1989، و لينتقل بعدها إلى دائرة الرمشي من

1989 إلى سنة 1994. و خرج على التقاعد بعد ذلك بعد حياة مليئة بالعطاء و الجهد في سبيل الوطن.

كما استفادت زوايا المنطقة الغربية من حصتها من المواد الغذائية حين أقدمت الإدارة الاستعمارية على تقنين المواد الاستهلاكية الضرورية المخصصة لها باعتبار أنها كانت تستقبل الفقراء و المساكين و عابري السبيل. و ذلك حسب الجدول التالي:¹

جدول يمثل حصص المواد الغذائية التي كانت توزع على الزوايا المنتشرة في الغرب الجزائري خلال فترة الحرب

الطرف المستفيد	مقر الإقامة	اسم الزاوية	سكر	صابون	قهوة	شاي	زيت
الشيخ ابن الأحول	أولاد الخير	القادرية	15 كلغ	----	5 كلغ	5 كلغ	10 لتر
شنتوف عدة	معسكر	درقاوة	15 كلغ	----	5 كلغ	5 كلغ	10 لتر
بن تكوك عبد القادر	بوقيرات	السنوسية	15 كلغ	----	5 كلغ	5 كلغ	10 لتر
الشيخ إبراهيم	تافريمارت سعيدة	الرحمانية	10 كلغ	----	5 كلغ	5 كلغ	10 لتر
الشريف ألوزاني	وهران	الطايبية	5 كلغ	----	2 كلغ	5 كلغ	10 لتر
غلام الله	تيارت	الشاذلية	15 كلغ	----	5 كلغ	5 كلغ	10 لتر

و احتوت القائمة على ملحق إضافي، عشرة أيام بعد صدور القائمة الأولى، خصت "سي هني محمد" من "مازونة"، الذي تحصل على: 10 كلغ من السكر، و 5 كلغ من القهوة، و 5 كلغ من الشاي، و 10 لترات من الزيت.²

زادت هذه الحالة من معاناة الجزائريين الاقتصادية و الاجتماعية، الأمر الذي جعلهم يعيشون في حالة انسداد متواصلة، زادت صعوبة مع تدهور الظروف الطبيعية التي أصبحت لا تطاق، حيث عانت الجزائر من الجفاف بسبب ندرة الأمطار خلال سنين 1944 و 1945. فانخفض إنتاج الحبوب إلى النصف و تعرضت البلاد إلى ظاهرة زحف الجراد.

و- مخطط التصنيع لدعم المجهود الحربي

حاولت فرنسا اغتنام ظروف ما بين الحربين للشروع في عملية تصنيع داخل الجزائر. و قد تجلت بوضوح في مرحلة الحرب العالمية الأولى عندما بدأت في تهيئة الأجواء لحركة صناعية تدعم بها الجيوش الفرنسية في حربها ضد الألمان دون أن يحقق ذلك نتائج معتبرة.³ فشهدت الصناعة الاستخراجية توقف نسبي في الإنتاج

¹ - A.W.O, B 2260, Préfecture d'Oran, Le 21 mai 1941.

² - A.W.O, B 2260, Additif à la liste précédente, Préfecture d'Oran, le 31 mai 1941.

³ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., t2..., op.cit..., p 500.

الإنتاج باستثناء معدن الرصاص. و مع نهاية الحرب العالمية الأولى تم إحصاء حوالي 23000 عامل موزعين على 716 وحدة صناعية.¹

بقي القطاع الصناعي يعاني من تخلف البنية التحتية التي تساعد على النهوض به لأسباب مختلفة، و ذلك إلى غاية سنة 1939 باستثناء ارتفاع عدد عمال القطاع إلى 40000 منهم حوالي الثلث 3/1 عمال جزائريين.²

يمكن اعتبار سياسة التصنيع التي أقدمت عليها الإدارة الاستعمارية أثناء فترات الحرب و ما بعدها تعود في الواقع إلى امتلاك الجزائر لمقومات التصنيع الطبيعية و البشرية، من جهة، و إلى سياسة ظرفية فرضتها ظروف الحرب الشاملة لكل الميادين. و قد وضعت فرنسا هذه المشاريع لتغطية العجز الملاحظ على عملية الإنتاج في بعض الصناعات الهامة، خاصة إذا أخذنا الحرب كمعيار أصبحت تشكل خطرا على مستقبل الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية.

مع بداية الحرب، شعرت السلطات الاستعمارية بضرورة تصنيع الجزائر. و من أجل ذلك وضعت الأطر التي تسمح بتسيير قطاع الصناعة بإنشاء "لجنة الصناعة الجزائرية" التي أوكلت لها مهمة إيجاد الحلول للصناعة الجزائرية في ظل الظروف الاقتصادية الجديدة التي أفرزتها الحرب.³

لم تقتصر سياسة فرنسا على الصناعات الصغيرة، إنما امتد طموحها إلى ما أبعد من ذلك، عندما بدأت حكومة "فيشي" و الحكومة الألمانية من التنقيب عن البترول و الفحم في الصحراء. و حاولت فرنسا تجريب زراعة القطن و مد خط سكك حديدية عبر الصحراء يمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى غاية سهول

¹ - Ibid..., p 500.

² - يلاحظ على هذه الأعداد من العمال أنها غير منسجمة و ملائمة مع حركة التصنيع التي كانت موجودة في الجزائر. خاصة إذا عرفنا أن الجزائر التي كانت تنتج حوالي 3 ملايين طن من معدن الحديد، لم تكن تملك صناعة حديدية. و كل "حمى التصنيع" هذه التي أصابت المسؤولين الفرنسيين فيما بين الحربين لم تكن لتعكس واقع التصنيع في الجزائر، حيث لم تصل البلاد سوى بضع آلات نسيج نقلت من مدينة "ليون" إلى مدينة تلمسان في أواخر سنة 1939. كما نقلت إحدى الجرائد الجزائرية مع مطلع سنة 1940، أن الصناعة النسيجية تزدهر في تلمسان. و أضافت أن "صناع النسيج" Tisserands قد أصبحوا من المملين الرئيسيين للإدارة الفرنسية، شأنهم في ذلك "صناع الأحذية". Fabriquants de Souliers ينظر إلى كل من:

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie..., op.cit., p 501.

- A.W.O, Boite 2261, dossier presse, El Ouifak, N 29 du 19/01/1940.

³ - هذا الاهتمام المتزايد بالتصنيع قد خططت له حكومة "فيشي" من أجل رفع وتيرة الإنتاج و توفير مناصب شغل لأكثر من 50000 جزائري. كما قدرت قيمة رؤوس الأموال المستثمرة في القطاع الصناعي من طرف فرنسا في الجزائر بحوالي 1014 مليون فرنك من مجموع 149.1 مليار من مجموع الاستثمارات الفرنسية في الجزائر. و قد اعتبرت هذه القيمة المالية المخصصة للاستثمارات الصناعية في الجزائر غير كافية و بعيدة كل البعد عن واقع عملية التصنيع، رغم المشاريع التي كانت تحضر في باريس لبناء مصانع التعدين، الإسمنت و الزجاج... ينظر كل من:

- AWO, dossier presse, L'écho d'Oran, N., du 18 aout 1940.

- Ageron Charles Robert..., Histoire de l'Algérie..., op.cit., p 501.

نهر النيجر. غير أن الجانب المالي وقف عائقا أمام مثل هذه المشاريع بسبب إقدام الحكومة الفرنسية على توجيه تعليمات لبنك الجزائر للرفع من العملة الورقية التي يصدرها من 3 إلى 10 مليار فرنك. الأمر الذي خدم مصالح الكولون الذين ظهر منهم "أغنياء حرب" خلال فترة حكم "فيشي".¹

غير أن المرحلة التي تميزت بنزول قوات الحلفاء في الجزائر، قد أظهرت للجزائريين، خاصة منهم الموجودين في الأرياف، قوة الجيوش الأمريكية في العتاد و الأسلحة. مما جعلهم يتطلعون إلى المساعدات الأمريكية لتحسين وضعيتهم فيما يتعلق بالمواد الغذائية و الألبسة. في مقابل ذلك، كثف الحلفاء من دعايتهم و استخدموا طرق و وسائل متنوعة لجلب الجزائريين إلى صفوفهم منها: التوزيع المجاني للمواد الغذائية و القيام بزيارة إلى الأماكن العسكرية في مختلف مناطق البلاد.²

مع اقتراب نهاية الحرب، و بالتحديد في مطلع سنة 1944، قررت السلطات الاستعمارية إقامة "صناعة خفيفة" في محاولة منها لتوفير "إنتاج أمني" مع استغلال أكبر عدد من اليد العاملة المتوفرة. غير أن "البرنامج الخماسي للتصنيع" الذي صدر في 9 جويلية 1946، Plan Quinquennal، لم يرق سوى بتقديم المساعدات المالية و الضريبية للمؤسسات الجديدة المعتمدة، بينما كانت تمثل احتياجا حقيقيا للبلاد.³

كما أن المجالس المالية في الجزائر، رفضت تغطية قسط من هذه الاستثمارات عن طريق الضرائب. فلم ينجح مخطط التصنيع، لأنه لم يتمكن من امتصاص الأعداد الهائلة من العمال التي اضطرت إلى الهجرة نحو فرنسا بشكل ملفت للانتباه، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية للمشاركة في عملية إعادة بناء المتروبول جراء الخسائر التي تكبدتها طيلة الحرب.⁴

اعتمد الاستعمار الفرنسي منذ احتلاله للجزائر على تفعيل حركية "استغلال الثروة" للبلاد. فحاول بذلك ربط اقتصاده بما هو موجود من ثروات في الجزائر، فشرع في سن جملة من القوانين و اتخاذ التدابير اللازمة التي تضمن لفرنسا مواجهة كل الصعوبات الاقتصادية مما عجل بالجزائر لأن تكون الأرضية المناسبة لهذه التحولات. الأمر الذي أدى إلى زعزعت الهيكل الاقتصادي للبلاد و حدوث اختلالا في توزيع الثروة المحلية التي استفادت منها الأقلية الأوروبية الممثلة في "الكولون" على حساب الأغلبية الساحقة الممثلة في "الشعب الجزائري" فإرضاء بذلك منطلق القوى الكبرى.

¹ - عاشت الجزائر خلال هذه الفترة عدة مفارقات في الميدان الصناعي منها؛ نقص القماش مع العلم أن الجزائر كانت بلدا منتجا للصوف. و نقص الورق، في حين أن البلاد تتوفر على المادة الأولية و هي الحلفاء. أما الإنتاج الكبير من الفوسفات، فلم يستطع توفير الكميات المناسبة من الأسمدة لدعم القطاع الفلاحي. هذا ما جعل الجزائر تدخل مرحلة حرجة زادت صعوبة انعدام شبه كلي لأي قاعدة صناعية. ينظر إلى: - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية...، ج3...، مرجع سابق... ص ص 174-175.

- Ageron Charles Robert..., Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 501.

² - A.W.O, CIE, bulletin N 582 du mois de novembre 1942. Et aussi : CIE, N 233 du mois de février 1943.

³ - Ageron (Charles Robert)..., Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 501.

⁴ - Ibid.

غير أنه لا يمكن تحديد المساحات التي استولى عليها الاستعمار طيلة أزيد من قرن من الزمن نظرا لتضارب الأرقام في هذا الموضوع.¹ لكن ما هو ثابت، هو أنها استمرت مع طول فترة الاحتلال. فكانت البداية بمصادرة أملاك البايك بحجة تكوين ميزانية لتوطين الكولون الوافدين إلى أرض الجزائر. ثم تواصل السلب بنزع أراضي القبائل التي قاومت الاحتلال عبر مختلف أرجاء الوطن، و نذكر منها على سبيل المثال "قبائل بني عامر" التي تقطن سهول سيدي بلعباس، و التي شاركت مع الأمير عبد القادر في مقاومته للاحتلال. و بمجرد نهاية هذه المقاومة سارعت الإدارة الفرنسية إلى التصرف في أراضي القبيلة بداية من 1848.² كما تواصلت عملية السلب في عهد الإمبراطورية الثانية عندما حاول الاستعمار إنشاء مراكز الاستيطان Centres de colonisation، فأنشأ 12 مركزا في عمالة الجزائر، و 9 مراكز في عمالة قسنطينة، و 21 مركزا في عمالة وهران، منها 10 مراكز تخص منطقة سيدي بلعباس.³ و قد بعث "شارل لويس نابليون بونايرت الثالث"⁴ Charles Louis Napoléon Bonaparte برسالة إلى

¹ - يحدد "بيريمهوف" Peyerimhoff، في التقرير الذي رفعه إلى الحاكم العام "جونار" سنة 1906، مساحة أراضي البايك بـ 176168 هكتار موزعة على العمالات الثلاث على النحو التالي: 128010 هكتار في عمالة قسنطينة، و 34156 هكتار في عمالة وهران، و 14000 هكتار في عمالة الجزائر. أنظر: - Voir rapport Peyerimhoff, in bibliothèque C.D.E.S, Oran, portant transcriptions suivantes : AG 1906-N° 51.

² - مجاود (محمد)، « مقاومة قبائل بني عامر في عصر الأمير عبد القادر »، مجلة المصادر، العدد 9، السداسي الأول الجزائر، 2004، ص 125.

³ - Lacoste, Nouschi et Prenant, L'Algérie, Passé et Présent, éditions sociales, Paris, 1960, p 359.

⁴ - ولد في باريس سنة 1808، و هو الابن الثالث للويس بونايرت و "هورتنس بوهارني Hortense Beauharnais. قضى شبابه بسويسرا و إيطاليا ثم عاد إلى فرنسا أين حاول في مناسبتين (1936 و 1940) الإطاحة بحكم "لويس فيليب". فحكم عليه بالسجن المؤبد غير أنه تمكن من الفرار نحو إنجلترا سنة 1846. صاحب النظرية الاجتماعية: "انقراض الفقر"، التي ألفها في السجن سنة 1844. عاد إلى باريس بعد ثورة 1848 حيث عين ممثلا في عدة قطاعات قبل أن يتقلد منصب رئيس الجمهورية في 10 ديسمبر 1848. و في 2 ديسمبر 1951 أقدم على حل البرلمان و حول الجمهورية إلى مملكة. و بذلك تحولت كل السلطات إلى الإمبراطور الجديد بعد صدور "دستور 14 جانفي 1852" الذي نصبه إمبراطور الفرنسيين. و قد شغل المنصب إلى غاية 1870 بعدما قضت عليه قوات "بروسيا" في معركة "سودان" و جعلت منه سجين فوق العادة عند الألمان. يعتبر واضع سياسة "المملكة العربية" في الجزائر و صاحب تشريع "القانون السلطاني" الشهير الذي سنه في 1865، لدرجة دفعت بالكولون إلى تلقيبه "بإمبراطور العرب". أطلق سراحه من ألمانيا في 19 مارس 1871 ليتوجه إلى إنجلترا أين التقى زوجته هناك و يقضي معها بضعة أشهر ليتوفي في نفس السنة. أنظر:

- Petit Larousse Encyclopédique..., op.cit..., pp 1545-1546.

المارشال "مكماهون ادمي باتريس"¹ Mac-Mahon Edme Patrice سنة 1865، يطلب منه العمل على تخصيص مساحة معتبرة للاستعمار و الكولون في مناطق الجهة الغربية.²

لقد استغلت الجمهورية الثالثة هذا القانون بشكل جعل منه أخطر إجراء تشريعي يتخذ في حق الجزائريين الذي تكمن خطورته في أنه سيغير وجه الريف الجزائري تغييرا جذريا، للرد على انتفاضة 1871، بفتح الباب على مصراعيه أمام عمليات البيع و المضاربة في حق أراضي الجزائريين و لفائدة الكولون و اليهود معا، للتحايل من أجل سلب الجزائريين ممتلكاتهم بطرق قانونية، أقل ما يمكن القول عنها، أنها صفقات مشبوهة.³

كان هذا القانون واضحا في الأهداف المنتظرة من تطبيقه منذ البداية، حيث جاء في مادته الأولى تأكيد على ضرورة إلغاء الملكية الجماعية للأراضي عند الجزائريين. و في تقرير خاص بعملية الاستيطان في عمالة وهران لسنة 1877، وردت بعض الحقائق المتعلقة بدائرة سيدي بلعباس، مفادها أنه سجلت 82 حالة بيع لأراضي الجزائريين إلى الكولون، و أنجزت عقود ملكيتها بطريقة سريعة و خصت في البداية حوالي 2197 هكتار.⁴ و هناك تقارير أخرى تدل على أن عملية تجريد الجزائريين من أراضيهم لم تتم كلها في شفافية تامة بل أنجزت تحت التغطية الرسمية لقانونية "واري"⁵، مما يبقّي الملف مفتوح لدراسات معمقة في موضوع العقار في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية.

كما يجمع غالبية المؤرخين على ضرورة الاعتماد على الإحصائيات Statistiques و الوثائق الضريبية Documents fiscaux، لأنها تمثل مصادر هامة لدراسة التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للجزائر و فهم الواقع الذي مر به الشعب الجزائري خلال هذه المرحلة العصيبة. و لا بد من العودة إلى المجلدات السنوية للإحصاء المالي و الضريبي الموزعة عبر الإحصائيات العامة للجزائر Statistiques Générale de l'Algérie، لأنها الطريقة

¹ - ولد في "سولي" بمنطقة "ساوون إي لوار" Sully (Saone-et-Loire) سنة 1808. اشتهر في حروب القرم (مالاكوف) و إيطاليا (ماجنتا) ليقلد مارشال و "دوق ماجنتا" Duc de Magenta. بعها عين في منصب حاكم عام بالجزائر من 1864 إلى 1870. كان من معطوبي معركة "سودان" في عهد نابليون الثالث. و كلف في 1871 بتشكيل جيش "فرساي" الذي قضى على انتفاضة بلدية "باريس" في ماي 1871. عين في منصب رئيس الجمهورية بعد سقوط الرئيس "تيار" Thiers في 24 ماي 1873. و قد تم تمديد حكمه إلى سبع سنين. غير أنه استقال من منصبه بعد خلافاته المتكررة مع رئيس حكومته "جول سيمون" Jules Simon حول طبيعة السلطة التنفيذية. توفي سنة 1893.

- Petit Larousse Encyclopédique..., op.cit., pp 1491.

² - نص الرسالة موجود و مترجم في دراسة قام بها: يحي بوغزير تحت عنوان: "سياسة نابليون الثالث اتجاه الجزائر من خلال أقواله و رسائله 1852-1870"، مجلة الثقافة، العدد 50، مارس-أفريل 1979، ص ص 13-33.

³ - Sari (Djilali), La dépossession..., op.cit, pp 46-48.

⁴ - هذه التقارير خصت "دوار العمارة" بمنطقة سيدي بلعباس. أنظر:

- Ageron (Charles Robert), Les Algériens musulmans et la France..., T1, op.cit, p 86.

⁵ - هذه التقارير كشفت لنا على أن عقود الملكية تم توزيعها على المستوطنين الجدد قبل أن تنتهي اللجنة العقارية للمكلفة بالتقسيم من أشغالها، و كان ذلك في منطقة سيدي بلعباس. مما يدل على أن عملية سلب الأراضي من الجزائريين لم تتم كلها تحت التغطية القانونية. أنظر:

- Rapport Peyerimhoff, Directeur de l'agriculture et du commerce et de la colonisation à Mr Jonnart, Gouverneur général de l'Algérie, Enquête sur les résultats de la colonisation officielle en Algérie de 1871 à 1895, Tome 1, Alger, 1906, p 191. In CDES.

الآمنة و المتوفرة للإطلاع عليها في دراسة التاريخ المعاصر للجزائر.¹ و هذا النوع من المصادر هو الذي يمكننا من تحديد ظروف الحياة و مستوى معيشة السكان الجزائريين المسلمين في ظل تزايد الضغوطات الضريبية المفروضة عليهم، سواء كان ذلك أثناء أو بعد الحرب.

2- واقع اجتماعي متناقض

أصبحت مسألة اليد العاملة مهمة جدا بالنسبة للإدارة الاستعمارية التي وفرت لها كل شروط المتابعة. و يلاحظ أن المستوطنين الأوروبيين كانوا يشجعون هجرة اليد العاملة الموسمية من المغرب الأقصى، نظرا لانخفاض تكاليفها، وفق القاعدة الاقتصادية العالمية المعتمدة في الميدان الزراعي. و قد كتب السيد "مارل بول" Merle Paul، و هو مساعد إداري رئيسي في عمالة وهران : " لقد سجلنا في عمالتنا، حركة واسعة النطاق لعمال زراعيين. حيث نجد في كل سنة، ما بين 2000 و 3000 عامل من دائرة معسكر و سيدي بلعباس ينتقلون نحو دائرة وهران و يمكثون بها قرابة الشهرين. و يلتحق بهم من 15 ألف إلى 30 ألف من العمال الزراعيين من المغرب الأقصى. و لذلك فإن هذه الحركة الكبيرة لها أهميتها في الأوضاع الاجتماعية المتأثرة بالحالة الاقتصادية الصعبة إذ أصبح هاجس الجزائريين هو البحث عن الخبز. و نفس الوضع عاشه سكان الأرياف في قسنطينة.²

كان على عدد كبير من السكان المسلمين تحمل أعباء الوضعية الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر، و التي عوضتها منافع السوق الموازية"، أي السوداء، بنسبة عالية. حيث عان المسلمون من ذوي الدخل الضعيف أكثر من غيرهم، و لم يكن لهم سوى الملابس القديمة الرثة. و حتى النسوة لم يجدن ما يقتنيه من ملابس و أثرتنا على أنفسهن الخروج من "القوري" أو الخيمة.³

أ- النمو الديمغرافي هاجس يورق الاستعمار

¹ - هذا النوع من المصادر له أهميته في بعض الدراسات التي تناولت الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. ينظر كل من:

- Ageron Charles Robert, politiques coloniales au Maghreb..., op.cit., p 231.

- Yacono Xavier, Histoire de l'Algérie de la régence à..., op.cit., p 285.

² - Nouschi (André), « Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919 », In revue RASJEP, n° 21, 1974, pp.

³ - نفس الوضعية كانت تعيشها تونس في هذه المرحلة. إذ بعث المقيم العام في تونس بتقارير إلى حكومته تظهر نفس مواصفات الأزمة التي تمر بها الجزائر. أنظر إلى:

- Nouschi André, La naissance du nationalisme algérien 1912-1954, éditions de minuit, Paris, 1962, p 106.

مثل النمو الديمغرافي إحدى العناصر الأساسية التي أخافت الإدارة الاستعمارية و الكولون معا، لما كان له من تأثير في تغليب السكان الجزائريين المسلمين على الكولون، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. و عملية الإحصاء السكاني التي أجريت سنة 1921، قد أثبتت ذلك.¹ و بالتالي سقوط حلم الاستيطان الذي راود فرنسا منذ أن وطأت أقدامها أرض الجزائر.²

و في سياق هذا الواقع، لم تكن هناك برامج سياسية و اقتصادية و اجتماعية شاملة مخصصة للجزائريين طوال فترة الحرب العالمية الثانية، باستثناء بعض الحلول القليلة التي كانت تقوم بها الإدارة الاستعمارية هنا و هناك. و بقيت الأوضاع على حالها حتى بعد نهاية الحرب. و حسب تقديرات سنة 1946، فإن عدد الجزائريين قد بلغ حينها 7.350.000 نسمة،³ معظمهم يقطنون المناطق الريفية.

إن دراسة عملية النمو الديمغرافي في الجزائر ليس بالأمر السهل. لأن العملية تتطلب الاعتماد على إحصائيات دقيقة. و هذا ما كان ينقص في موضوع دراسة الجزائر، إذ يعتبر "أجرون" بأن نفس الأخطاء المرتكبة في السابق قد تكررت في العمليات الإحصائية التي تمت إلى غاية مطلع الخمسينات.

كما قدم "جون سيررا" Jean Serra دراسة مفصلة في موضوع عملية الإحصاء عندما حدد البنية الديمغرافية الجزائرية في تسع لوائح.⁴ إلا أن هناك أسباب أخرى، كالصعوبات المادية و نقص التأطير البشري الضروريان لإنجاح عملية الإحصاء، إلى جانب الأخطاء المرتكبة من طرف السكان عند الإدلاء بتصريحاتهم، يضاف إليها استعمال الحيل عند تقديم الأجوبة و التصريحات في فترات الحروب و خاصة عند شروع مصالح الإدارة الاستعمارية في تقنين و توزيع المواد الغذائية.⁵

لقد شرعت الإدارة الاستعمارية تهتم بالدراسات الديمغرافية الحقيقية مع مطلع الخمسينات. غير أن ذلك لم يكشف عن بعض الحقائق المتعلقة بالفترات السابقة التي لم تبوح بكل أسرارها فيما يتعلق بدقة بعض الأرقام المقدمة، خاصة منها في إحصائيات سنوات 1931 و 1936، التي تبقى محل انتقاد من بعض المؤرخين الذين يرون في أرقامها تزييفا و تضليلا للحقائق.

و من ثم فهم يعتبرون أنه من الصعب وضع تقييم جدي لمختلف الحركات السكانية التي تمت ما بين 1921 إلى غاية 1954.⁶ حيث شهدت حركة النمو الديمغرافي نشاطا متزايدا مع بداية القرن العشرين، بعدما

¹ - Statistique Générale de l'Algérie, dénombrement et recensement de 1921, de 1916 à 1928, pp 15- 17.

² - كانت سياسة فرنسا في الجزائر منذ البداية سياسة توسعية باعتبار أنها كانت ترى في الجزائر ممتلكات تركية غير مستقلة، و هي بذلك أرض قابلة للاحتلال، ما دام أنهم خلفوا فقط، دولة استعمارية سبقتهم في هذه الأرض. أنظر:

- Aron Robert et les autres, Les origines de la guerre d'Algérie textes et..., op.cit..., p 31.

³ - Kaddache (Mahfoud), Histoire du nationalisme..., t2..., op.cit..., p 736.

⁴ - Serra (Jean), Le problème démographique algérien, dans : La lutte des algériens contre la faim, ouvrage collectif, éditions du secrétariat social d'Alger, mai 1945, pp 155-174.

⁵ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 469.

⁶ - ظهرت أول عملية إحصاء حقيقية للسكان في الجزائر، خلال الفترة الاستعمارية، سنة 1856، و آخر عملية سنة 1962، غير أنها لم تتم لأسباب متعلقة بالاستقلال. أنظر كل من:

انتعشت من جديد بعد النكبة التي لحقت بها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.¹ حيث ارتفع عدد الجزائريين إلى 4.5 مليون نسمة مع مطلع القرن العشرين ثم ارتفع إلى 6 ملايين سنة 1936 ليصل إلى 7.6 مليون نسمة سنة 1948.²

كما أرجعت بعض الدراسات،³ هذا التزايد المستمر إلى جملة من العوامل منها، ارتفاع عدد الولادات و انخفاض عدد الوفيات و الزواج المبكر..منها الدراسات التي قدمها كل من "نوشي" و "سيرو"، اللذان اعتبرها من العوامل الأساسية إلى جانب تحسن الظروف المعيشية، هذا ما دفع البعض إلى ربطها بأسباب اندلاع الثورة التحريرية.⁴

غير أن النمو الديمغرافي للجزائريين أخذ يزداد و يرتفع بصفة مستمرة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بالرغم من الأزمات الاقتصادية و السنوات الصعبة التي مرت بها الجزائر خلال الحرب العالمية الثانية، إلى جانب تداعيات عمليات التجنيد العسكري التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على الجزائريين لخدمة المجهود الحربي آنذاك. و الجدول التالي يعطينا فكرة واضحة عن السرعة التي كان عليها النمو الديمغرافي في المجتمع الجزائري.

بل أكثر من ذلك، إذا تتبعنا معدل الزيادات السنوية إلى غاية سنة 1954 نجد أن الانطباع أقوى.⁵

الفترة الزمنية	الناتج (الفائض) السنوي في زيادة السكان
----------------	--

- ولد النبيه كريم، الجزائريون و الإدارة المحلية... أطروحة دكتوراه... مرجع سابق... ص 369.
- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 469.

¹ - في هذا الباي ينظر إلى الدراسة التي قام بها كل من "قداش" و "صاري" في كتابهما:
- Kaddache Mahfoud et Sari Djilali, L'Algérie dans l'histoire..., op.cit, pp 201-208.

² - Nouschi (André), L'Algérie amère..., op.cit..., p 127.

³ - عكف عدد من الباحثين الفرنسيين على تقديم مثل هذه الدراسات و نخص بالذكر هنا كل من:
- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 479.

- Oppermann Thomas, Le problème algérien..., op.cit..., p 42.

- Nouschi André, L'Algérie amère..., op.cit..., pp 127-130.

- Breil Jacques, La population de l'Algérie, Rapport HCC de la population et de la famille, Paris, 1960.

⁴ - من بين الباحثين و المؤرخين الذين اعتبروا أن النمو الديمغرافي عند الجزائريين هو أحد الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة التحريرية. نذكر كل من:

- Aron Robert, La tragédie algérienne, Plon éditions, Paris, 1957, p 166.

- Blanchard Jean, Le problème algérien, P.U.F, Paris, 1955, p 54.

⁵ - أنجز هذا الجدول انطلاقا من المعطيات التي استقيناها من الفصل الأول للجزء الثالث و المتعلق بـ"التطور الديمغرافي للسكان المسلمين الجزائريين من 1919 إلى 1954 من كتاب "أجرون". أنظر:

- Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 471.

من 1921 إلى 1926	45000 نسمة
من 1926 إلى 1931	86000 نسمة
من 1931 إلى 1936	112000 نسمة
من 1936 إلى 1948	125000 نسمة
من 1948 إلى 1954	128000 نسمة

* في هذه العملية الحسابية لم تدرج الأعداد الكبيرة من المهاجرين الجزائريين الموجودين في فرنسا.

بقيت وتيرة النمو السكاني عند الجزائريين نفسها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث ارتفع عدد المواليد الإجمالي إلى 193000 مولود سنة 1948، مقابل 10500 مولود لدى الأوروبيين.¹ هذا الواقع جعل نسبة الزيادة السكانية بين المجتمعين متفاوتة جدا، و مالت كفة الزيادة السكانية في هذه المرحلة لصالح الجزائريين بالرغم من صعوبة الظروف المعيشية و قسوتها، حيث ارتفعت نسبة نموهم السنوية إلى ثلاث مرات عما كانت عليه أو أكثر مقارنة بالأوروبيين.

فيما يتعلق بمسألة المشكل الديمغرافي الذي طبع المجتمعين الأوروبي و العربي المسلم في الجزائر في الفترة الممتدة من سنة 1939 إلى غاية سنة 1948، فنرى أنه في اختلال متواصل بين المجموعتين المشكلة للسكان. فبينما أعطت إحصائيات سنة 1936 رقم 946000 أوروبي بما فيهم اليهود، نجد بالعكس من ذلك، أن إحصائيات سنة 1948 قد أحصت 922000 أوروبي، أي أن العدد تقلص بحوالي 24000 شخص. و قد أرجعت أسباب ذلك التراجع إلى حركة الهجرة الأوروبية خارج الجزائر. و قد ذكر بالأخص هجرة بعض الأسر اليهودية نحو الولايات المتحدة الأمريكية عقب الحرب العالمية الثانية.²

بينما العكس نجده عند السكان المسلمين الذين ارتفع عددهم من 6212000 نسمة سنة 1936 إلى 7600000 نسمة سنة 1948، أي بنسبة ارتفاع فاقت المليون إذ قدرت بـ 1439000 نسمة. مما يجزنا إلى الاستنتاجات التالية: أولا، أن عمليات الإحصاء التي كانت تتم في السابق لم تكن تشمل كل السكان المسلمين، خاصة. باعتبار أن عدد السكان المسلمين في المدن قد انتقل من 722000 نسمة سنة 1936 إلى 1129000 نسمة سنة 1948 مما أدى بهذه العملية إلى امتصاص ثلث السكان المسلمين الذين شكلوا الفائض.³

و إذا أردنا تشخيص العملية، أكثر، على العمالات الجزائرية الثلاث، فإننا نلاحظ أن عدد سكان المدن قد ارتفع نسبيا غداة الحرب العالمية الأولى. غير أن هذا الارتفاع، لا يساوي شيئا أمام ذلك الذي عرفته الفترة

¹ - Serra (Jean), Le problème démographique algérien..., op.cit..., p 157.

² - Nouschi (André), L'Algérie amère..., op.cit..., p 127.

³ - Nouschi (André), L'Algérie amère..., op.cit..., p 127..

الممتدة من سنة 1936 إلى سنة 1948، و بشكل خاص في عمالات الجزائر و وهران. حيث أن العدد الإجمالي للسكان قد انتقل من 348000 نسمة إلى 474000 نسمة. بينما شهدت عمالة الجزائر ارتفاع في عدد سكانها من 205000 نسمة إلى 275000 نسمة أي بنسبة زيادة قدرت بـ 92%، بينما ارتفع عدد سكان عمالة وهران من 49000 نسمة إلى 91000 نسمة أي بنسبة زيادة قدرت بـ 85%¹.

عكس ذلك، شهدت مدينة قسنطينة، فيما بين سنوات 1936 إلى 1948، تراجع في عدد السكان الأوروبيين، حيث مر العدد من 50000 أوروبي إلى 37000 أوروبي. في حين ارتفع عدد السكان المسلمين من 56000 نسمة إلى 77000. و بذلك وجدنا مقابل 100 ساكن أوروبي حوالي 112 ساكن مسلم سنة 1936. بينما ارتفع العدد إلى 208 ساكن مسلم مقابل 100 ساكن أوروبي سنة 1948.²

كما أن ما ميز النمو السكاني المرتفع للجزائريين، مقارنة مع السكان الأوروبيين، هو السرعة الكبيرة التي حققها الفائض السنوي للولادات على الوفيات، خلال خمسينية كاملة، الأمر الذي دفع بالإدارة الاستعمارية إلى بحث سبل توقيف و عرقلة هذه المسألة. و حسب ما أوردته المصادر الفرنسية المتمثلة في مصالح الحكومة العامة، فإن وتيرة ارتفاع عدد السكان المسلمين الجزائريين يحسب في إطار حركية السكان العامة.³

و يعطينا الجدول التالي صورة واضحة عن هذا النمو السريع لدى السكان المسلمين الذي شهدته الجزائر من سنة 1900 إلى غاية سنة 1950:⁴

السنوات	عدد الولادات	عدد الوفيات	الفائض	مجموع الفوارق
1901	111000	99000	12000	16500
1910	127000	92000	35000	44500
1920	121500	89000	32500	40500
1930	177500	85500	92000	100500

¹ - Ibid..., p 127.

² - Id., p 128.

³ - Serra (Jean), Le problème démographique algérien..., op.cit., p 156.

⁴ - Serra (Jean), Le problème démographique algérien..., op.cit., p 157.

141500	135000	118000	253000	1940
203500	193000	114000	307000	1950

أما الريف الجزائري فقد شهد، هو الآخر، وتيرة نمو سريعة مقارنة مع المدن بحيث ارتفع العدد بـ 1032000 نسمة فيما بين سنوات 1936 إلى 1948، أي بنسبة 20%. و لوحظ الارتفاع الأكبر في عمالات قسنطينة و الجزائر اللتان شكلتا لوحدهما فائض قدر سنة 1948 بحوالي 770000 نسمة عما كان عليه العدد سنة 1936. فأصبح بذلك الريف على مشارف الانفجار مما أدى إلى ظهور حركة نزوح و هجرة كبيرة من القرى نحو مدن الجزائر و وهران، خاصة، و باتجاه فرنسا. إن هذا السياق الكلاسيكي قد تضاعف مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في 1945، بحيث لم يعد يطلب من المرشح للهجرة إلى فرنسا رخصة الخروج من أرض الجزائر.¹

ب- دور التعليم في محاربة سياسة الإدماج

مارست فرنسا سياسة الاضطهاد الديني و الثقافي على الشعب الجزائري، إذ حاربت الدين الإسلامي و اللغة العربية و عملت على محو مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية، و لم تهتم بتعليم الجزائريين إلا بالقدر الذي كانت تراه مناسباً لخدمة مصالحها. و قد وقف الكولون كعادتهم موقفا معاديا لأي فكرة تصب في خانة تعليم الجزائريين مبررين ذلك بالعبارات التالية: "إذا كانت نوايا تعميم التعليم على الجزائريين، فماذا سيكون مصير مزارعنا ؟ من أين سنأتي باليد العاملة الزراعية"؟² فكان إجماع الأوروبيين على أنها حماقة إن حاولت الإدارة الاستعمارية تعليم الجزائريين.

غير أن الوجود الجزائري في التعليم الفرنسي كان قليل مقارنة بعدد الأوروبيين. و قد ذكر المؤرخ الفرنسي "أجرون"، أن عدد التلاميذ الجزائريين الذين تم تسجيلهم في المدارس الابتدائية في التعليم الرسمي الفرنسي قد بلغ 114000 تلميذ منهم حوالي 22000 من البنات، و ذلك خلال سنوات 1939-1940. منهم حوالي 71 بالمائة كانوا موزعين على 905 قسم خاص، و كل قسم يضم قرابة 90 تلميذا.³

¹ - بعدما ألغت السلطات الاستعمارية رخصة الخروج للراغبين في الهجرة إلى فرنسا شهدت العملية هجرة قوية خلال الفترة الممتدة من سنة 1945 إلى غاية سنة 1948، و ذلك بالمقارنة مع عدد المهاجرين سنة 1937. و بعملية بسيطة يمكننا ملاحظة هذه الفوارق من سنة لأخرى: فمثلا كان العدد أكثر بقليل من 45000 مهاجر تراجع إلى 38000 سنة 1946 ثم قفز إلى 65000 سنة 1945 ليصل إلى 80000 مهاجر سنة 1948. بينما الأعداد من المهاجرين التي عادت إلى البلاد لم تكن لتغطي الأعداد الهائلة التي سافرت خلال نفس الفترة. و كانت المناطق المتضررة من هذه الظاهرة هي مناطق بلاد القبائل الكبرى و الصغرى و بعض مناطق الجهة الغربية للبلاد مثل مناطق مازونة و ندرومة و مغنية. لمزيد من الشروحات أنظر إلى:

- Nouschi(André, L'Algérie amère..., op.cit..., p 128.

² - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 533.

³ - هنا نتساءل عن جدية السياسة التعليمية الفرنسية التي كانت مخصصة للجزائريين، و هل يعقل تدريس تسعون تلميذا بطريقة عقلانية ؟ أم كان هم الإدارة الاستعمارية ملء الأقسام فقط ؟ أم هو أسلوب جديد جريته فرنسا على الأطفال الجزائريين حتى تريح ضميرها على أنها بذلت كل ما

مع بداية عهد الجمهورية الثالثة، غيرت الحكومة الفرنسية من نظرتها تجاه مسألة تعليم الجزائريين مع وجود "جول فيري" على رأس وزارة التربية الفرنسية. حيث أصبحت سياستها الجديدة تهدف إلى غزو فكر الجزائريين بواسطة التعليم و المدرسة. رغم أن الكولون عارضوا الفكرة بشدة.¹

ظلت نسبة التلاميذ الجزائريين المتدربين ضعيفة مقارنة مع عدد الأطفال الذين بلغوا سن الدراسة عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث قدر عددهم ما بين 800 ألف إلى 900 ألف طفل جزائري كانوا في سن تسمح لهم بدخول المدرسة.²

إن أكبر جريمة حضارية ارتكبتها فرنسا الاستعمارية في حق الجزائريين كانت منعهم من حقهم في التعليم. و ما حدث في التعليم الثانوي أكبر دليل على بشاعة هذه الجريمة، حيث أورد "أجرون"³ أن السبب مرتبط بامتحان شهادة الابتدائي، التي كانت تمنح حق الانتقال إلى التعليم الثانوي.

غير أن الذي يجسد هذه الجريمة ليس هو الامتحان في حد ذاته، و إنما الطريقة التي كانت تتم بها عملية انتقاء الجزائريين من بين كل التلاميذ الذين كانوا يدرسون في المدرسة و المعنيين بالامتحانات الرسمية.⁴ كما بينت الدراسات التي أجريت في تلك المرحلة، أن التعليم الابتدائي كان منقسما إلى صنفين، الأول إجباري خاص بالأوروبيين و يتوفر على إمكانيات كبيرة. أما الثاني، فهو خاص بالجزائريين و هو غير إجباري و بإمكانيات ضعيفة.⁵

لم يرتفع عدد التلاميذ الجزائريين في التعليم الثانوي خلال فترة الحرب العالمية الثانية عما كان عليه خلال سنوات 1935-1936 (1187 تلميذ)، حيث بلغ عددهم 1358 تلميذا في سنوات 1939-1940. غير أن عددهم ارتفع

في وسعها لتعليم الجزائريين و أنهم، للأسف غير قادرين على ذلك؟؟ في الحقيقة إن هذه الظاهرة خطيرة على الجزائريين، حيث استقطبت انتباه بعض السياسيين الفرنسيين، خاصة منهم اليساريين من أمثال "موريس فيوليت" الذي نبه إلى خطورة الوضع الذي وصل إليه تعليم الجزائريين في بلادهم. و دعا إلى ضرورة رفع عدد المدارس المخصصة لهم حتى يتمكن عدد كبير منهم الالتحاق بمقاعد الدراسة. و هنا ينبغي أن نشير إلى أن الهدف من وراء هذا الموقف، ليس حبا في الأطفال الجزائريين و إنما كإحدى الخطوات ضمن المشروع الإدماجي الذي ظل ينادي به اليسار الفرنسي كي لا تضيق الجزائر من فرنسا. للمزيد من المعلومات ينظر إلى:

- Violette Maurice, L'Algérie vivra-t-elle', librairie Alcan Félix, Paris, 1931, p 258.

¹ - زوزو (عبد الحميد)، الهجرة الجزائرية و دورها في الحركة الوطنية، ...، ص 48.

² - Hardy (Georges), Le problème scolaire en Algérie, In bulletin du comite de l'Afrique française, N- 8 et 9 des mois d'aout-septembre 1937, p 419.

³ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp..., op.cit..., p 535.

⁴ - حسب الشهادة التي أدلى بها أحد المعنيين بتلك الفترة الزمنية، فإن المعلمين الفرنسيين كانوا يطرحون السؤال على التلاميذ الجزائريين على نحو: من منكم يريد أن يشارك في مسابقة امتحان شهادة السنة السادسة فكانت الطريق التي كان يلقي بها السؤال هي التي تثير الدهشة، لأنها كانت طريقة مخيفة لعدد كبير من التلاميذ الجزائريين الذين كانوا يمتنعون عن رفع الأيدي للإجابة خوفا من المجهول. لأنهم أصلا لم يكونوا على علم بمفهوم السؤال و ماذا يراد به. و في المقابل، كان التلاميذ الفرنسيين معفيين من السؤال. و هذا لوحده كاف ليحرم فرنسا على إهمالها لحق الجزائريين في التعلم.

⁵ - Lespes (René), Pour comprendre l'Algérie, GGA, Alger, 1937, pp 187-189.

بوضوح في الفترة التي تلت نهاية الحرب، عندما أصبح في سنة 1945 حوالي 1800 تلميذ. بعدها انتقل العدد إلى 2745 تلميذ سنة 1949 ليصل أخيرا إلى 4192 تلميذ سنة 1951.¹

و عليه، لم يقدم التعليم الثانوي في المعدل السنوي، سوى 100 تلميذ مرشح لشهادة البكالوريا قبل سنة 1945. لذلك لا نتعجب بوجود عدد قليل من الطلبة المسلمين الجزائريين في الجامعات. و كان يتوهم لنا أن عددهم في تزايد مستمر في جامعة الجزائر،² غير أن الحقيقة كانت عكس ذلك. لأنه مقارنة مع العدد الإجمالي للطلبة المسجلين، فإن نسبتهم ظلت ضعيفة حتى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. أما ما تضمنته الأرقام التي قدمها "أجرون" عن توزيع عدد الطلبة الجزائريين على كليات الآداب و العلوم و كلية الحقوق و كلية الطب و الصيدلة، من سنة 1920 إلى 1939، ثم ارتفع العدد من سنة 1943 إلى غاية سنة 1955، و التي أشار فيها إلى أن العدد في ارتفاع، فتبقى نسبة بالمقارنة مع الواقع الذي فرضته السياسة التعليمية الفرنسية على الجزائريين.³ حاول الجزائريون منذ "ليل الاستعمار الطويل" محاربة مختلف السياسات الفرنسية في الجزائر، من استيطان و إدماج و تجنيس و إشراك. و في مقابل ذلك، عملوا على جعل اللغة العربية لغة رسمية في التعليم الحكومي الفرنسي حتى تأخذ مكانتها في الأوساط المسلمة. و قد ساهمت في ذلك التيارات السياسية الوطنية التي جعلت من المسألة التعليمية و الثقافية إحدى مطالبها الأساسية في نضالها السياسي الذي باشرته مع نهاية الحرب العالمية الأولى إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية، لتزيل الغبار على أزيد من قرن من الحرمان و البؤس و التعسف.⁴

ساهمت كل من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و حزب الشعب الجزائري في وضع أسس التعليم الوطني الذي ساهم طيلة فترة الأربعينات و الخمسينات في المحافظة على الهوية الوطنية. و من المميزات التي اشتهر بها التعليم العربي الحر، أنه تعليم ذو طابع ديني قائم في الأصل على القرآن و اللغة العربية و على الانتماء لهذا الوطن. حيث كان يلم بكل ما من شأنه ربط الجزائريين بأرضهم و بلادهم. فاعتمد التاريخ و الجغرافيا و العلوم و الرياضيات كمواضيع تعليمية أساسية في مختلف مناهجه.⁵

لقد طورت الجمعية من أساليب تعليمها من حيث البرامج و الكتب المدرسية و النظم التعليمية و اعتمدت في برامجها التعليمية على القرآن الذي شكل المحور الرئيسي الذي تدور حوله كل نشاطات الجمعية. بالرغم من فقدانها لزعيمها الروحي مع بداية الحرب العالمية الثانية سنة 1940. و قد حاولت الإدارة

¹ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp., op.cit., p 536.

² - أنظر الجدول الذي يمثل عدد الطلبة الجزائريين مقابل عدد الطلبة الأوروبيين خلال نصف قرن من الزمن و الذي يتحدث عن ارتفاع بنسبة وصلت إلى 13.1 بالمائة. أنظر في الملحق رقم 20 .

³ - Ageron (Charles Robert), Histoire de l'Algérie contemp., op.cit., p 536.

⁴ - عمارة (تركي رابح)، التعليم القومي و الشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975، ص 249.

⁵ - المرجع نفسه...، ص 260.

الاستعمارية عرقلة نشاط الجمعية باعتقالها لرئيسها الجديد الشيخ البشير الإبراهيمي الذي اعتقلته السلطات الاستعمارية و قامت بنفيه إلى بلدية "أفلو" بالقرب من "جيري فيل" إلى غاية الإفراج عنه سنة 1943، ما سمح بعودة النشاط التدريجي للجمعية في مهمتها الإصلاحية.

كان للإبراهيمي عند عودته من منفاه، زيارة إلى مدينة الجزائر للقاء الحاكم العام ليخص له من أجل أن تستأنف الجمعية نشاطها التعليمي في مدارسها، و أن يقوم هو بتدريس الشباب الذي تقل أعمارهم عن سن السابعة عشر.¹ فقام بزيارة إلى بعض مدن عمالة وهران في فبراير من سنة 1943،² ثم إلى بعض مدن عمالة قسنطينة أين قام ببعث النشاط التعليمي بها و جمع التبرعات من أجل فتح المزيد من المدارس التعليمية.³ عندما كانت مدارس الجمعية تستأنف نشاطها التعليمي بصفة تدريجية، باشر الشيخ الإبراهيمي في توسيع دائرة هذه المدارس إلى العديد من مدن البلاد، رغم أن ذلك كان يتطلب أموالا كبيرة لتسييرها. و في طريقه للعودة إلى مدينة تلمسان، توقف الشيخ الإبراهيمي بمدينة وهران أين قدم قسيمة للتبرع كتب عليها اسم "جمعية الفلاح" باللغتين العربية و الفرنسية تحمل شعارات "في الاتحاد قوة" مقابل إعانة من المسلمين الجزائريين قدرت بنصف فرنك. و عممت العملية على مدن قسنطينة و سطيف و الجزائر و غيليزان و تلمسان.⁴

لم يتوقف نشاط الجمعية عند هذا الحد بل تعدى ليشمل مدن أخرى في سبيل فتح المزيد من المدارس الدينية للمحافظة على روح الشعب الجزائري. فكانت زيارة إلى مدينة سيدي بلعباس في 22 ماي 1943،⁵ و أخرى إلى مدينة عين تموشنت في مارس 1944⁶ و إلى مدينة "أورليونفيل" في نوفمبر 1944.⁷ و كل هذا من أجل تحقيق وحدة التعليم العربي الحر و التنسيق بين مختلف المدارس و التيارات الوطنية، الأمر لم يتحقق إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

¹ - A.W.O, Boite 4477, rapport du CIE Oran, N° 264, du 15 mars 1943. Et voir CIE Oran, bulletin n° 513 du mois de juin 1943.

² - في مدن عمالة وهران، قام الشيخ الإبراهيمي بزيارة "نادي السعادة" بسيدي بلعباس، و "جمعية الفلاح" بوهران، حيث اتصل برجال الإصلاح هناك و قدم هو نفسه دروسا دينية. أنظر:

- A.W.O, Boite 4477, Bulletin CIE, N° 233 du mois de février 1943.

³ - A.W.O, Boite 4477, Bulletin CIE, N° 456, du mois de mai 1943.

⁴ - A.W.O, Boite 4480, rapport de police N° 2075, du 13 mai 1943.

⁵ - أثناء زيارته لمدينة سيدي بلعباس، قام الشيخ الإبراهيمي بإلقاء محاضرة "بنادي النجاح" و أوضح فيها أن الهدف المنتظر من هذه الزيارة هو من أجل مشروع بناء المدرسة في المدينة. و طلب من الجميع أن يتم تنظيم حملة كبيرة للتبرع داخل المدينة، و عند الضرورة يتم توسيعها لتشمل كل مدن العمالة. أنظر إلى:

- A.W.O, Boite 4477, rapport de police, N° 2351, du 29 mai 1943.

⁶ - في مدينة عين تموشنت، قام الشيخ البشير الإبراهيمي بتدشين مدرسة "عين تموشنت" و قام بتعيين "الأخضر قباطي" أستاذا لها. أنظر:

- A.W.O, Boite 4477, rapport du CIE Oran, du 25 avril 1944.

⁷ - قام الشيخ الإبراهيمي بتدشين مدرسة "الخلدونية" بمدينة "أورليونفيل" (الشلف حاليا). أنظر:

- A.W.O, CIE Oran, Bulletin, N° 582 du mois de novembre 1944.

بخصوص حزب الشعب الجزائري، فقد كانت سياسته قائمة على محاربة الإدماج عن طريق إنشاء المدارس الحرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أي منذ المؤتمر الأول لحركة انتصار الحريات الديمقراطية المنعقد سنة 1947. أما المطالبة باللغة العربية و قضية فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية، فذلك كان منذ أيام نجم شمال إفريقيا و حزب الشعب الجزائري. بعدها تم تعيين لجنة وطنية عليا أوكلت لها مهمة الإشراف على المشروع و التنسيق بين مختلف مناطق البلاد.¹ من أجل التخطيط و اتخاذ المبادرة لمواجهة سياسة الفرنسية و التجهيل و الإدماج التي حاولت فرنسا فرضها على الشعب الجزائري.

ج- الجانب الثقافي في حياة الجزائريين

مر الشعب الجزائري بفترات عصيبة خلال العقود الثلاثة التي سبقت اندلاع الثورة التحريرية بفعل الضغوطات التي تعرض لها من طرف الاستعمار الفرنسي الذي كان يهدف القضاء على كل مقومات هويته من دين و لغة و تاريخ. و الواقع أن الوضع الثقافي لأي مجتمع يعكسه واقعه السياسي و بناءه الاقتصادي و تركيبته الاجتماعية.

كما أن الوضعية الثقافية الصعبة التي كان عليها المجتمع الجزائري، هي التي دفعت بالوطنيين إلى الاهتمام بالمدارس الحرة. لأن تأسيس مثل هذه المدارس يفتح المجال للتثقيف، و التكوين، و توعية الشباب و الدفاع عن ثوابت الأمة، من دين و لغة و تاريخ مشترك. فإ إنشاء مثل هذه المدارس هو وسيلة لبلوغ الهدف و تحقيق القفزة الثقافية و التربوية لأجل مستقبل الجزائر في ظل الحرية و الاستقلال.

و مما لا شك فيه أن الحياة الثقافية للجزائريين كانت سيئة للغاية بحكم أن الاستعمار حارب اللغة و الثقافة العربية معاً. و قد ركز الاستعمار حربه على اللغة بالدرجة الأولى نظراً لمكانتها في المجتمع. و هو يدرك أنه متى قضى على اللغة يقضي على ما تبقى من مقومات الثقافة الأخرى.²

و تماشياً مع هذا الأسلوب، تمكن الاستعمار الفرنسي من القضاء على معظم مراكز الثقافة العربية التي تتمثل في المدارس و المساجد و الزوايا، التي كانت موجودة في البلاد قبل الاحتلال. غير أن الجزائريين

¹ - كلفت هذه اللجنة الوطنية بالتنسيق بين كل مناطق البلاد من أجل تذليل المصاعب و إزالة العراقيل. و ترأسها "أحمد بودة" بمساعدة كل من : فرحات محمد و مزغنة محمد و بدوي بلقاسم و مهري عبد الحميد و بلميلي حسين، و الدحاوي محمد و العقون عبد الرحمان.

² - اعتمدت فرنسا على وسائل و أساليب عديدة في عملياتها التخريبية تجاه الجزائريين خاصة منها سياسة "الفرنسة" Francisation و لم تقتصر على ميدان التعليم فقط و إنما شملت كل مجالات الحياة الاجتماعية و الثقافية و الإدارية للبلاد. كما ركز الاستعمار الفرنسي في عملية "الفرنسة" على قطع جميع الروابط التي كانت للشعب الجزائري مع تاريخه و حضارته. و الهدف من كل هذا هو جعل الأجيال تنشأ في كنف الثقافة الفرنسية. للمزيد من المعلومات ينظر إلى كل من:

- الإبراهيمي محمد البشير، عيون البصائر، دار المعارف، بيروت، 1963، ص 63.

- تركي رابع عمارة، التعليم القومي و الشخصية الوطنية...، مرجع سابق...، ص 104-105.

تمكنوا من استدراك هذه النقائص و راحوا يدافعون عن وجودهم بشتى الطرق و الوسائل الثقافية التي كانت متاحة أمامهم ليفرضوا وجودهم و يحافظوا على الذات.

و كلل هذا الجهد في النهاية برجوع الروح الوطنية للمدارس بتأسيس 70 مدرسة موزعة عبر مختلف مدن البلاد و بتأطير 750 أستاذ موزعين توزيعا جغرافيا محكما.¹

يمكننا اعتبار نشاط الحركة الكشفية، من المراحل الإيجابية في تاريخ الحركة الوطنية بفعل ما قدمته هذه الحركة في سبيل نشر الروح الوطنية و الوعي القومي تجلى من خلال مختلف البرامج التعليمية و النشاطات السياسية في كنف النوادي و الجمعيات التابعة لمختلف التيارات الوطنية الإصلاحية و الاستقلالية.²

شهدت الحركة الكشفية الجزائرية النور، في أعقاب الاحتفالات الفرنسية بالذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1930. و سعت وراء عملية تثقيف واسعة تجاه الشباب الجزائري من أجل ترسيخ قيم و مبادئ الوطنية و التي تمحورت حول حب الله و الوطن و الإنسانية جمعاء.³

شهدت الحركة الكشفية الجزائرية نوع من التراجع مع بداية الحرب العالمية الثانية من حيث النشاط العلني، الذي كان مرهون بحركية الحرب، و كانت الإدارة الاستعمارية قد تنبأت بهذا التوقف،⁴ بسبب عملية التجنيد التي مست الشباب الجزائري في هذه المرحلة و الذي فاق بكثير الأعداد التي كانت تحوز عليها الكشافة الفرنسية.⁵ و في المقابل، لم تمنع الحرب ميلاد عدد كبير من الأفواج الكشفية الجزائرية عبر مختلف مناطق البلاد في المدن و القرى و حتى البلديات الصغرى، كما توضحه مختلف التقارير الاستعمارية.⁶

¹ - في هذا الباب ينظر إلى كل من:

- بلوفة الجليلي عبد القادر، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في عمالة وهران 1939-1954، دار الأملية للنشر و التوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2011، ص 238.

- Ouagouag Abdelkader, Les grands procès, organisation secrète, éditions Dahlab, Alger, 1992, p 32.
- Mesbah Chafik, Idéologie politique et mouvement national en Algérie, des projets partisans au projet de renaissance nationale, in thèse de doctorat en sciences politiques, Alger, 1981, p 197.

² - أبو الصفصاف (عبد الكريم)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 136.

³ - AWO, AP 138, Bulletin Scouts Musulmans Algériens, N° 21 de l'année 1948-1949.

⁴ - AWO, Préfecture d'Oran, CIE N°559, du 21 aout 1943.

⁵ - في الحقيقة اندهشت السلطات الاستعمارية كثيرا للطريقة التي كان يتم بها تجنيد المنخرطين في صفوف الكشافة الجزائرية و السرعة التي كان يتم بها ذلك. لأنها وجدت بأن فروع الكشافة الفرنسية التي تأسست منذ سنتين أو أكثر، لم تضم سوى 40 عضوا على أكثر تقدير، في حين نجد أن فوجا كشفيا جزائريا تأسس يوم السبت، سوف يضم مع نهاية الأسبوع ضعف العدد الفرنسي الذي تم جمعه خلال سنتين. و هذا بالرغم من أن السلطات الاستعمارية كانت دائما تقدم الدعم الكامل لأفواج الكشافة الفرنسية و تقوم بإقصاء الجزائريين. أنظر:

- AWO, Boite 4063, département d'Oran, PS N° 4839 du 16 octobre 1943.

⁶ - أوضحت العديد من التقارير الفرنسية بأن انتشار الأفواج الكشفية في الجزائر لم يتوقف بحجة الحرب أو عملية التجنيد، بل تضاعف إلى أعداد لم يسبق لها مثيل من قبل. أنظر بعض هذه المصادر الأرشيفية:

كما أدت النوادي و الجمعيات التي تم إنشائها بكثافة منذ مطلع الثلاثينات، تزامنا مع الاحتفالات الاستعمارية بمرور مائة عام على الاحتلال، دورا هاما في تعبئة الجزائريين و توعيتهم لخطورة الأوضاع التي كانت تمر بها البلاد. و كانت في الواقع غطاء واقى لنشاطات الوطنيين الجزائريين للالتقاء في مقراتها حيث لا تثير شكوك و انتباه السلطات الاستعمارية.¹ و كانت جمعية العلماء المسلمين و حزب الشعب، وراء انتشار أولى النوادي الثقافية عبر المدن الجزائرية جنبا إلى جنب مع فتح و تدشين المدارس و المساجد.²

أدت الفرق الرياضية، هي الأخرى، دورها في التعبير عن مواقفها و توعية الشباب. خاصة لما كان يتزامن تأسيسها في غالب الأوقات مع الأعياد الدينية و يتم في الأحياء الشعبية. ما جعلها تلقى إقبالا شعبيا كبيرا. و جاء البعض منها كرد فعل لمواجهة الفرق الأوروبية. و أصبحت هذه الفرق فضاء لإظهار الانتماء السياسي و حب الوطن، و كره كل ما هو ليس جزائري و غالبا ما كانت تتحول المنافسات الرياضية العادية إلى شجار بين المناصرين الجزائريين و الأوروبيين.³

و عموما، فقد أدت الفرق و الجمعيات الرياضية دورا بارزا في التوعية الوطنية، حيث حملت معها آمال و طموحات مختلف التيارات الوطنية، لأنها كانت في الأصل تعبيرا عن الفوز و الانتصار على العدو. و ما ميز هذه الفرق هو حملها لرموز وطنية، كالألوان من خلال البدلات الرياضية للفرق العربية المسلمة، الأمر الذي جعل الجزائريين إلى الالتفاف حولها و نصرتها في مختلف المناسبات الرياضية.

د- مواجهة الظروف الصحية القاهرة

وصفت الظروف الصحية للجزائريين في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية بالمتدهورة، خاصة لما أجبر الجزائريون على الخضوع لحملات تلقيح إجبارية فرضتها عليهم الإدارة الاستعمارية، نتيجة الأوبئة الخطيرة التي انتشرت في البلاد بعد الحرب الكبرى.

- ANOM, série H, S.S, 9H40, commissariat de police, commune de Jemmapes, sous-préfecture de Philippeville, CIE N° 305 du 1er octobre 1943.

- ANOM, série H, 9H40, Rapport de l'administrateur détaché a Milla, date du 22 mars 1944.

- AWO, Boite 4063, Rapport du chef de la brigade de surveillance du territoire, Tlemcen, N°1741 du 1^{er} novembre 1941.

- AWO, Boite 4063, Préfecture d'Oran, N°584, du 18 mai 1942.

¹- Carlier (Omar), Socialisation et sociabilité ; les lieux du politique en Algérie 1895-1954, URASC, Oran, 1992, p 174.

²- الإبراهيمي (محمد البشير)، عيون البصائر، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1963، ص 27.

³- هذه الوضعية أثرت على لعبة كرة القدم خاصة. حيث أرهقت هذه الصراعات كاهل الشرطة و الرابطة الجهوية للغرب الجزائري، اللذان وجدا نفسهما أمام مشقة تحرير المحاضر غير الرياضية. أنظر إلى:

- A.N.O.M, département d'Oran, série continue, rapport N°2955 sur les incidents ayant émaillés le match de football du 4 octobre 1942 entre le club musulman de Sidi Bel Abbes (USMBA) et l'équipe de Mostaganem, demande d'exclusion formulée le 30 octobre 1942 par les autorités administratives auprès de la ligue d'Oranie de football association (LOFA).

لقد دلت مختلف التقارير الصحية على خطورة الوضع في البلاد خاصة لما انتشرت الأمراض المعدية؛ كالجدري و مرض السل و الحمى الصفراء في مختلف مناطق البلاد مختلفة عدد من الضحايا، بالرغم من أن هذه التقارير كانت تفتقد للدقة لما تعلق الأمر بالسكان الجزائريين. و يمكننا مضاعفة هذه الأرقام، دون خوف، إلى مستويات عالية و ذلك في غياب إحصائيات دقيقة و متابعة صحية ميدانية حقيقية و متخصصة وسط السكان، خاصة في القرى و المداشر.¹

و هناك جدول صادر عن المصالح الطبية يعطينا صورة وافية عن الوفيات الناتجة عن الأمراض المعدية و المسجلة في مختلف العمالات الجزائرية مع منتصف سنة 1935:

العمالة	عند الجزائريين	عند الأوروبيين
وهران	1963	164
الجزائر	2741	158
قسنطينة	3672	218

المصدر: Bulletin Sanitaire, Année 1935, p 651.

أصبحت الوضعية الصحية خطيرة مع حلول الحرب العالمية الثانية و طيلة أطوارها. حيث قل الغذاء و انعدم في بعض الأحيان، و انتشرت الأمراض المعدية، التي فتكت بالآلاف من الجزائريين، و تصاعد عدد الوفيات عند المواليد الجدد الذين لم يبلغوا سنة من أعمارهم. و الجدول الموالي أكبر دليل على بشاعة الجريمة خلال فترة الحرب العالمية الثانية:²

السنة	عدد الوفيات
1939	16788
1940	17316
1941	20040
1942	20040
1943	22450
1944	23881

جدول يمثل عدد الوفيات عند الأطفال خلال فترة الحرب العالمية الثانية

¹ - Bulletin sanitaire- 476, du mois de septembre 1936, pp 676-713.

² - Chevalier (Louis), Le problème démographique Nord-Africain, éditions PUF, Paris, 1947, p 30.

كما سجلت حالات وفيات كثيرة في السهول العليا من جراء البرد، خاصة لدى الأطفال الصغار الذين كانوا يتركون في الطبيعة "عراة".¹ مع الإشارة إلى ندرة المواد المستعملة في التدفئة كالحطب و الفحم و الخشب التي لم يؤثر في وضعية الجزائريين إذ بقي تعداد الجزائريين مرتفعا نسبيا، حيث قفز من 111580 نسمة سنة 1939 إلى 235225 سنة 1945،² أي السنة التي انتهت فيها الحرب العالمية الثانية، مخلفة ضحايا في جبهات القتال و معطوبين و أسرى و مساجين. و ساهمت مجازر الثامن ماي 1945 في مأساة الشعب الجزائري. فظهرت المخلفات النفسية العميقة عند الشعب الجزائري جعلته يصرف النظر عن الوعود التي قطعها الإدارة الاستعمارية على نفسها. وكان من نتائج فقدان المواد الغذائية أن بدأ الناس يأكلون الأعشاب و شرب المياه من الآبار المتعفنة، الأمر الذي أدى إلى انتشار الأمراض و الأوبئة خاصة منها مرض "التيفيس" Typhus الذي قضى على المئات من الجزائريين. حيث أصبحت هذه الوضعية المزرية تشغل بال الجزائريين في عهد حكومة "فيشي" خلال الفترة الممتدة من سنة 1940 إلى غاية 1942.³

أصبح السكان المسلمين يعانون من ضغط النمو الديمغرافي و العزلة الاقتصادية الأمر الذي خلق لهم ظروف معيشية هشة و غير ثابتة. و قد تزايد هذا العناء خلال سنوات الحرب، أي في 1942 و 1943 و 1945. و قد تحدثت تقارير حكام البلديات المختلطة حينها، باحتشام، عن "المرض - الوباء رقم 2" و كان يقصد به حينها مرض "التيفيس".⁴

حدث و أن كان لهذه الأوبئة المنتشرة خلال سنوات 1941-1942 تشابها كبيرا مع تلك التي حدثت أثناء المجاعة التي اجتاحت البلاد خلال سنوات 1867 و 1868.⁵ حيث بقيت الأدوية مفقودة أو في غير متناول الجزائريين، و أصبحت الألبسة من نصيب المحظوظين فقط، لا سيما في فصول الشتاء القاسية. هذا الذي أدى إلى ارتفاع عدد الوفيات عند الجزائريين، دون الأوروبيين، طول فترة الحرب و إلى مراحل متقدمة لما بعدها. خاصة عند الأطفال الذين تعرضوا لأمراض معدية. و الجدول التالي يوضح ذلك:⁶

العمالة	الجزائريون	الأوروبيون
---------	------------	------------

¹- A.W.O, CIE Oran, bulletin N- 585, du mois de novembre 1941.

²- Nouschi (André), La naissance du nationalisme..., op.cit., p 99.

³- انتشر هذا المرض خلال الحرب العالمية الثانية، و بلغ ذروته سنة 1942، خاصة عند الجزائريين إذ سجلت حوالي 5701 حالة مرض في شهر مارس مقابل 405 حالة عند الأوروبيين. و استمر هذا المرض حتى سنة 1947. كما ظهرت أمراض أخرى في الأوساط الجزائرية مثل: الجدري و حمى التيفوئيد. للمزيد من الشروح أنظر إلى :

- Annuaire statistique de l'Algérie., 1939-1947, p 84.

⁴- كانت التسمية في بعض المناطق تطلق هكذا على مرض "التيفيس". و قد تناقلت تقارير بعض البلديات المختلطة، منها بلدية: سوق أهراس في 24 نوفمبر 1941 و بلدية "القل" La Calle في 15 نوفمبر 1941 عن عدم وجود قماش الأكفان لدفن الموتى. أنظر إلى :

- Nouschi André, L'Algérie amère..., op.cit., p 128.

⁵- Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre..., pp70-71.

⁶- Bulletin sanitaire, année 1948, p 711.

وهران	2851	132
الجزائر	3647	118
قسنطينة	4395	241

جدول يمثل ارتفاع عدد وفيات الأطفال الجزائريين مقارنة مع الأوروبيين

تواصلت مظاهر البؤس و الفقر في الأوساط الريفية حتى أتت على البنية العامة للمجتمع الجزائري.¹ مع العلم أن عدد السكان الجزائريين كان قد وصل إلى عشرة ملايين نسمة سنة 1947. إلا أن ذلك لم يمنحهم سوى 1851 طبيب و 660 مولدة و 611 صيدلي و 351 طبيب أسنان. و من بين كل هذا العدد المذكور من الأطباء، فإن العدد المتمركز في المدن الثلاثة الكبرى، الجزائر و وهران و قسنطينة، قد وصل إلى 1145. أما المدن السبعة الأكثر كثافة سكانية في الجزائر، فلم ينتشر بها سوى 50 طبيبا، و البقية أي حوالي 350 طبيب فكانوا موزعين داخل مجموعات تضم من 4 إلى 6 أطباء لكل 100000 نسمة.²

ثانيا: الواقع الاقتصادي والاجتماعي للشعب المغربي

كان المغرب مع بداية مرحلة الحماية الفرنسية، لا يزال خاضع لاقتصاد معاشي يعتمد على حرفة الرعي و تربية المواشي. و كان هذا النوع من الاقتصاد يتميز بثلاث سمات أساسية:³ الأولى؛ خضوعه للتقلبات المناخية و هجمات الجراد الزاحف من المناطق شبه الصحراوية للجنوب، الأمر الذي عرض السكان لسنين القحط و المجاعة كما كان الحال خلال سنوات 1879 و 1882.

فيما يتعلق بالثانية؛ فهي المرتبطة بمسألة الجفاف بسبب طول انتظار أمطار الخريف و أحيانا بكمياتها المتواضعة، من جهة، و بهبوب الرياح الصحراوية الجافة أو التي يطلق عليها "الشرقي" قبل نضج المحصول الزراعي ما يعرضها للإتلاف. أما الثالثة؛ فهي المتعلقة بنسبة تساقط الأمطار التي تمثل المعيار الحقيقي للفصل بين مواسم الحصاد و المتميزة من سيئة إلى متوسطة ثم جيدة.

كما تزامنت هذه الحماية مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، التي اعتبرت مرحلة ارتفاع الأسعار الفلاحية و في نفس الوقت مرحلة انتعاش عالمية. فامتازت النظرة الاستعمارية بخلق وهم "المغرب الجديد" الذي بإمكانه أن يحتضن الجميع، الفلاح المغربي و الكولون الفرنسي، شريطة أن يتأقلم الأول مع طموحات الثاني. أما النظرة الأهلية لهذا الوهم، فهي تتمخض عن الاعتقاد في أن توسيع مساحات النظام الفلاحي القديم،

¹ - Rey-Goldzeiguer (Annie), Aux origines de la guerre ..., op.cit., p71.

² - كان يوجد في مدينة الجزائر، وحدها، 78 طبيب لكل 100000 ساكن. و هناك بعض المناطق لم تتوفر سوى على طبيب واحد لكل 10000 أو حتى 30000 ساكن في بعض الأحيان. خاصة في المناطق الجنوبية. لمزيد من الشروحات ينظر إلى:

- ولد النبيه كريم، الجزائريون و الإدارة...، أطروحة دكتوراه...، مرجع سابق...، ص 221.

³ - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey a., op.cit., p 158.

كفيلة بالحفاظ على النمو الزراعي الذي شرع فيه منذ نهاية القرن التاسع عشر، دون اللجوء إلى أساليب متطورة قادرة على تطوير البنية الفلاحية و أساليب الاستصلاح الزراعي.¹

أوجد الحصار الذي فرضته بريطانيا بداية من 1940، وضعية اقتصادية صعبة في شمال إفريقيا، حيث تأثرت العلاقات التجارية كثيرا بفعل هذا الحصار بين فرنسا و شمال إفريقيا، مما جعل عملية التموين بين الضفتين تتراجع إلى أدنى درجات خاصة في المستعمرات. الأمر الذي أضعف الدور الذي كان ممكن أن تلعبه هذه المستعمرات. كما استغلت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الظروف لإبرام اتفاقية تموين مع السلطات الفرنسية في فبراير 1941، تحسبا لتحضير بلدان شمال إفريقيا للحرب. و قد عرف الاتفاق بـ "اتفاق مورفي-ويغان".² Accord Murphy-Weygand.

1- الظروف الصعبة للاقتصاد المغربي

لم يكن وضع المغرب الاقتصادي بعد فرض الحماية الفرنسية عليه بأحسن أحواله، بدليل كل الاتفاقيات التي كانت قد أبرمت قبل و بعد الحماية، بين فرنسا و الدول الأوروبية الكبرى التي كانت تطمح في الحصول على مزايا خاصة بالمغرب، خاصة منها الدول الكبرى و نذكر منها كل من بريطانيا و إسبانيا و ألمانيا. أما بريطانيا فكانت باعتراف الاتفاق الودي تستمتع بحرية التجارة و مبدأ المساواة لمدة 30 عاما على الأقل بعد وضع الحماية. و لكن حسب هذا الاتفاق نفسه يمكن تغيير هذا الوضع إذا تغير نظام الامتيازات في مصر. و بالتالي فقد ترتب على عقد معاهدة "مونتروي" Montreuil، التي ألغت الامتيازات بالنسبة لمصر سنة 1937، أن طالبت بإنهاء الحقوق البريطانية في مراكش.³

كما لم يكن سحب الامتيازات الإنجليزية هو الأمر الذي يهم فرنسا كثيرا، لأن بريطانيا كفت عمليا عن إظهار أي نشاط اقتصادي في مراكش منذ وضع الحماية عليها. و على العكس، أخذ النشاط الاقتصادي

¹ - Ibid., p 187.

² - كان ينص هذا الاتفاق على تبادل السلع عن طريق الاستيراد. كما نصت الاتفاقية على تنصيب "قناصل" أمريكيين في كل شمال إفريقيا لمعاينة عملية توزيع السلع على المواطنين. غير أنه في حقيقة الأمر، كانت نوايا الأمريكيين ربط علاقات مع المواطنين الأوروبيين و الأهالي في مستعمرات شمال إفريقيا من أجل جمع المعلومات تحسبا لظروف مناسبة تسمح بالعودة إلى الحرب ضد الألمان. أنظر:

- Echaoui Mohamed, Evolution de L'Economie..., op.cit, p 69.

³ - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 278.

للولايات المتحدة الأمريكية يتزايد خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. و كان رجال الأعمال الأمريكيون يرتكبون دائما على مبدأ المساواة الاقتصادية الذي أقره ميثاق الجزيرة لسنة 1906.¹

فألمانيا التي كانت تعتبر أخطر منافس اقتصادي لفرنسا، إذ بلغ مجموع قيمة مبادلاتها التجارية مع مراكش 37 مليون فرنك سنة 1913، اضطرت للتنازل عن امتيازاتها بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، و ذلك في صلح فرساي سنة 1919. و كانت فرنسا قد ألغت من جانبها اتفاقياتها مع ألمانيا بشأن مراكش منذ إعلان الحرب و أبعدت الرعايا الألمان من البلاد، و حكمت على بعضهم بالإعدام حتى تسقط هيبة ألمانيا أمام المراكشيين، فلا يستمعوا لمبعوثيها السياسيين الذين انتشروا سرا في البلاد.²

لقد اعتمد المغرب على حجم كبير من القروض صُنفت إلى ثلاثة مجموعات، الأولى خاصة بالإصدارات المالية المتعلقة بالدولة، أي أنها مقدمة من طرف مصالح الحماية و مؤشر عليها بقانون فرنسي. و نجد فيهما ضمانات مزدوجة للطرفين الفرنسي و المغربي معا. و هي مرتبطة مباشرة بالميزانية و مشاريع التنمية المغربية. أما المجموعة الثانية فهي تخص الإصدارات التي تقوم بها الشركات الخاصة و الوكلاء في المصالح العمومية لفائدة المخزن، و هي لا تتمتع بالضمانات المزدوجة. و أخيرا المجموعة الثالثة و التي تخص فقط القروض التي تطلبها الجماعات المحلية و البلديات الخاضعة للحماية الفرنسية في الجزء الجنوبي من المغرب حتى يتم تفرقتها عن الجزء الشمالي الخاضع لإسبانيا.³

شكلت أزمة 1929، الحدث الهام الذي أبطء عملية استغلال الأراضي الفلاحية في المغرب. إلى جانب عودة الكوارث الطبيعية خاصة خلال سنوات 1937-1938 و 1944-1945، و التي مثلت القطيعة في المجتمع الرعوي، الأمر الذي ساهم في عملية النزوح الريفي التي أبانت للخبراء بأن المغرب ليس هي "الجنة الفلاحية" التي كان يحلم بها الجميع، و لكن هي الأرض الإفريقية العادية الخاضعة لقانون "مالثوس". Malthus. فبدأت تظهر الملاحظات و الآراء السياسية المتضاربة من أجل التنبيه بالمأساة الاجتماعية و الاقتصادية التي تدهم طبقة الفلاحين المغربية و التي لم نشعر بحجمها الإيكولوجي و المتمثل في إجهاد الأراضي الصالحة للزراعة بعملية رعي واسعة النطاق، و التكثيف من أعداد القطعان بالموازاة مع قدرات المراعي المتوفرة، إلى جانب حملات قطع الأشجار المتواصلة.⁴

¹ - انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء من 15 يناير إلى 16 جوان من سنة 1906 بحضور ممثلي 15 دولة. و انبثق منه "اتفاق دولي" سمي بعقد الجزيرة، الذي يضمن استقلال و وحدة المغرب. غير أن الحكومة الفرنسية تعدت كل الأعراف الدولية و استعملت القوة لبيسط نفوذها على أراضي المغرب مخضعة شعبه لهيمنتها. و قد استعملت في هذه المهمة القدرة فيالق من جيوشها المكونة من التونسيين لضرب إخوانهم المسلمين المغاربة. ينظر إلى: - Collot Claude et Henry Jean Robert, Le mouvement national Algérien textes 1912-1954, 2^{ème} éditions, OPU, Alger, p 27.

² - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص ص 277-278.

³ - Allain (Jean Claude), « Les emprunts d'Etat Marocains avant 1939 », in les chemins de la décolonisation de l'empire Français 1936-1956, éditions du CRNS, Paris, 1986, pp 131-145.

⁴ - Rivet (Daniel), Le Maroc de Lyautey a., op.cit., p 187.

و قد أرادت مصادر الإدارة الفرنسية من داخل المحمية أن ترسم صورة مثالية للتطور الاقتصادي الذي كان، حسبها، يحدث في المغرب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، إلا أن حقيقة الوضعية الاقتصادية التي كان يعيشها المغرب لم تكن بالصورة التي أرادتها له الإدارة الفرنسية، بالرغم من أن الصناعة كانت قد شهدت تطورا ملحوظا بالمقارنة مع ما كان موجود في الجزائر و تونس. و الحقيقة أن الزراعة التقليدية بقيت تتخبط في مشاكلها البدائية، وقطاع الحرف بقي هو الآخر يعاني من قلق الاحتضار رغم محاولات الإدارة الفرنسية لإنقاذه.¹

غير أن الحرب العالمية الثانية ساهمت بشكل غير مباشر في تعطيل عملية الاندثار التي كانت تلح في أفق الوضع الاقتصادي المغربي بحيث ألغت المنافسة الخارجية للمنتوج المغربي، الأمر الذي ساعد الاقتصاد المغربي على التنفس قليلا. و لكن سرعان ما عادت الأمور إلى سابق عهدها بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية. و الواقع أن المغرب عان من وجود نوعين من الاقتصاد: الأول عصري قائم على مزايا الاستثمار الخارجي لرؤوس الأموال. و الثاني تقليدي غير قادر على الاندماج في الصيرورة الحديثة.²

كما أن حقيقة هذا الواقع لا ترجع بالضرورة لعجز القطاع التقليدي المغربي على التأقلم فقط. بل أن هناك نصيب للإدارة الفرنسية في ما حدث للاقتصاد المغربي ما دام أن كل الاهتمام الفرنسي كان منصب على تدعيم العنصر الفرنسي و الأوروبي بالدرجة الأولى، لجره بكل الوسائل إلى الإقامة في المغرب و دفعه إلى جلب الاستثمار المنتظر، حتى و لو كان على حساب الفلاحين المسلمين في المغرب.

لأن الحقيقة التي تفرض نفسها هنا، لا تقبل التأويل. باعتبار الكولون، بمعرفتهم للتقنيات الزراعية الحديثة، و بالإمكانيات العصرية المتاحة لهم، كان عليهم أن يؤدوا دورا طلائعيا لتمهيد الطريق أمام القطاع التقليدي ليؤدي دوره كما ينبغي. إلا أن القطاع التقليدي بقي مهمشا و لم يشرك أبدا في عملية التطور التي كان يشهدها القطاع الحديث مما جعله يعيش حالة اندثار متقدمة بسبب عملية نزاع الملكيات الفلاحية التي طالت غالبية المغاربة الذين كانوا غير قادرين على تقديم عقد ملكية للأراضي التي كانت بحوزتهم. و حتى عندما أنشأت قطاعات التحديث الفلاحي سنة 1945، بقي مشكل القطاع التقليدي عالقا إلى حين³

أ- واقع الزراعة المغربية بين القطاع التقليدي و حتمية العصرية

مثلت الأرض أساس الاقتصاد المغربي حيث استحوذ الأوروبيون على أجود الأراضي الزراعية في البلاد. و هو ما يظهر التوسع الكبير للحركة الاستعمارية الفرنسية التي سيطر عليها القطاع الخاص بعد أزمة سنة 1930، بمساعدة الدولة التي قامت بإلغاء ديون كل الكولون الملاك لهذه الأراضي المنتشرة في سهول وجدة

¹ - Le Tourneau (Roger), Evolution politique de l'Afrique..., op.cit..., p 282.

² - Ibid..., p 282.

³ - Gallissot (René), L'Economie de l'Afrique du Nord..., op.cit..., p 41.

و فاس و مكناس و أيضا في بلاد "الرحاب" و "الشاوية"، و التي قدرت مع نهاية سنة 1954 بـ 1085000 هكتار.¹

بينما شهد الجزء الخاضع للسيطرة الإسبانية وجود شركتين للاستثمار الاستعماري، الأولى في سهول "قاريت" و "صبرا" منذ سنة 1916، و الثانية في سهول "اللويس" منذ سنة 1927 بعد ما تمت مصادرة الأراضي عقب حرب عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي، مما ساهم في استقرار عدد كبير من الكولون. و قد قدرت المساحة الإجمالية للأراضي التي سيطروا عليها إلى غاية سنة 1950 بحوالي 40000 هكتار.²

من خلال عرض تاريخي لعملية الاستحواذ التي طالت القطاع الزراعي يمكننا التمييز بين مرحلتين هامتين: الأولى التي امتدت من نهاية القرن التاسع عشر إلى غاية سنة 1912، و التي ميزها إقبال بعض الخواص و المغامرين إلى جانب بعض الشركات التجارية. و معها بدأت مرحلة احتلال الريف المغربي. أما المرحلة الثانية، فانطلقت مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، و اشتدت بشكل واضح بين سنوات 1925 و 1931، و التي تزامنت مع مغادرة المارشال "ليوثي" للبلاد.³

كانت الانطلاقة الرسمية التي شهدتها عملية السيطرة على الأراضي الزراعية في المغرب مع بداية سنة 1920، بتكثيف الحملات الترويجية لإغراء الفرنسيين على الإقامة في المغرب، الذي كان ينقصه العنصر الفرنسي، حسب تقديرات حكام الحماية آنذاك.⁴ و قد أثمرت هذه الحملات مع مطلع سنة 1925 بنزوح كبير لعدد هائل من المهاجرين الأوروبيين وفدوا إلى المغرب من مختلف المناطق، حيث تم إحصاء حوالي 400000 منهم سنة 1951.⁵

لقد مهدت السلطات الاستعمارية الفرنسية لعملية السيطرة على الأراضي الزراعية في المغرب بشكل دقيق. إذ وضعت تحت تصرف المرشحين الجدد جزء هام من "قطع الأراضي" Lots يتم التنازل عليها فيما بعد إذا كان المرشح قد استوفى كل شروط دفتر الأعباء الذي وضعته "اللجنة الاستعمارية" التي كانت تشرف على العملية. من تلك الشروط، أن يكون المرشح حاملا للجنسية الفرنسية، غير أن العملية شملت أيضا عناصر غير فرنسية، و التي استفادت هي الأخرى من حصتها من الأراضي الزراعية في المغرب.⁶ غير أن الشروط المتعلقة

¹- Ibid., p 41.

²- Id., p 41.

³- Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 107.

⁴- Knibiehler (Yvonne) et Al (Emmery.G et Leguay.F), Des Français au Maroc. La présence et la mémoire 1912-1956. Denoël éditions, Paris, 1992, p 46.

⁵- إن هذه الأعداد التي تم إحصاءها سنة 1951 قد وفدت إلى المغرب على شكل دفعات أهمها كانت: 100000 مهاجر ما بين 1900 و 1930، منهم 40000 مهاجر ما بين 1920 و 1929، و 35000 مهاجر ما بين 1930 إلى 1939. (سنتطرق إلى هذه النقطة في الجزء المخصص للمسألة الديمغرافية لاحقا).

⁶- لقد أرضت السلطات الاستعمارية عدد معتبر من الطلبات المتعلقة بشراء الأراضي الزراعية في المغرب، غير أن الأمر الذي لم يكن مفهوما هو إقصاء العنصر المغربي من عملية شراء قطعة أرض (من أرض وطنه) بالرغم من عدم وجود نصوص قانونية تمنع ذلك. كما اشترطت السلطات الاستعمارية على كل مرشح دفع مسبق لقطعة الأرض بقيمة ثلث الثمن. أما بقية القيمة المالية فتدفع على أقساط خلال فترة تتراوح ما بين 10 إلى

بدفتر الأعباء لم تطبق ، لأن الظروف التي تمت فيها عملية منح الأراضي في البداية لم تحترم. و قد أخذت بعين الاعتبار معايير جديدة منها؛ مكوث المرشح في المغرب من قبل، أو ماضيه العسكري، أو يكون أب للأسرة كبيرة.¹

كما وضعت السلطات الاستعمارية مخطط رسمي للسطو على الأراضي الزراعية قائم على تقديم المساعدات المادية على مراحل. حيث تكون المرحلة الأولى بمثابة جرعة الأكسجين للمستعمر الذي يلقي مساعدات على شكل "قروض" أو "سلفة" على المدى المتوسط، يبدأ في التناقص إلى حين تصبح الأرض مربحة. أما المرحلة الثانية، فهي التي يتمكن فيها المستعمر من تحقيق قوت عائلته و لكنه غير قادر على تغطية تكاليف استثماره. و بما أن عملية "السلفة" قد أُلغيت، فإنه ينتظر القروض المخصصة لحملات الزرع فقط. و في المرحلة الثالثة و الأخيرة، تمكنه عائدات المستثمرة من تغطية النفقات التي خصصت لعملية الاستغلال الأولية، حينها يستفيد من سند ملكية يحمل إشارة إلى "رهن ملكية" يساوي قيمة ديونه.²

مع بداية سنوات 1927-1928، تم تقسيم 50% من القطع الفلاحية على معطوي الحرب و 25% إلى المرشحين الذين يقطنون المغرب منذ أكثر من 5 سنوات. و تبوأ العنصر الفرنسي للجزائر مكانة هامة في العملية الاستعمارية الرسمية، إذ أظهرت إحدى التحقيقات التي قامت بها المصالح الفلاحية سنة 1928، أن 60% من مجموع المعمرين الذي استقروا بالمغرب بشكل رسمي خلال هذه الفترة، جاءوا من الجزائر أو ينحدرون من معمرين جزائريين.³

تواصلت عملية الاستثمار الفلاحي داخل مستعمرة المغرب على مدى عشرية كاملة، من 1924 إلى غاية 1933، بوتيرة سريعة و مكثفة، خاصة بعد مغادرة المارشال "ليوثي" للمغرب سنة 1925. حيث فتح رحيله أبواب المغرب على مصريها أمام نزوح أوروبي هائل ساهم في تطوير الحركة الاستعمارية الكبرى التي طالت أراضي المغرب، بفعل الارتفاع النسبي في عملية توزيع الأراضي الزراعية على الكولون، حيث شهدت سنوات

15 سنة مع دفع نسبة فوائد ضئيلة جدا. قد يكون ذلك من باب تشجيع الهجرة الفرنسية و الأوروبية بشكل عام إلى المغرب. أما الشرط الآخر فكان يتمثل في وجود التجربة في المجال الفلاحي و الاستغلال الفوري للأرض و الإقامة في عين المكان. و إذا أمكن ممارسة زراعة الأشجار المثمرة و حرفة الرعي في حال أن طبيعة الأرض و إمكانيات السقي توفرت. لمزيد من الشروحات أنظر إلى:

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 108-109.

¹- Gadille (Jacques), « La colonisation officielle au Maroc », In les Cahiers d'Outre-mer, N° 32, des mois d'octobre et novembre 1955, pp 305-322. Cite aussi par: Echaoui Mohamed..., Evolution de..., p 109.

²- Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 109.

³- شهدت عملية الاستقرار بالمغرب حركة كبيرة آتية من الجزائر بشكل خاص. و ربما قرب المسافة و الحدود المتاخمة للبلدين هي من العوامل التي ساعدت على ذلك. و قد تناول عدد من الباحثين الذين اهتموا بكتابة أجزاء من تاريخ المغرب الأقصى الاستعماري بالموضوع و حددوا حتى النسب التي كانت لكل عنصر من العناصر الأوروبية في عملية الاستغلال الزراعي، إذ استحوذ فرنسيو الجزائر أو فرنسا، على 86%، بينما الأسبان سيطروا على 07%، في حين الإيطاليون استثمروا في 02%، بينما باقي الأجناس تقاسمت 05% المتبقية. لمزيد من الشروحات طالع كل من:

- Gadille Jacques, « La colonisation officielle au Maroc »..., op.cit., p308.

- Knibiehler Yvonne et (Al)..., Des Français au Maroc..., op.cit., pp 46-48.

- P.Miche), Les Français au Maroc entre 1925-1955 face a la montée du nationalisme marocain, magister en histoire, Nice 1991, pp 70-74. (220 p). Cite par Echaoui Mohamed..., Evolution de..., op.cit.

1926-1927 لوحدها توزيع بـ 28 قطعة فلاحية، مقابل 26 قطعة وزعت في الفترة الممتدة من 1916 إلى غاية 1925. و الجدول التالي يعطينا فكرة عن حجم الاستحواذ الذي صنف إلى ثلاثة مستثمرات فلاحية استعمارية: الصغيرة و المتوسطة و الكبيرة. غير أن نسبة المستثمرة المتوسطة تبقى كبيرة بالمقارنة مع الفئتين الصغيرة و الكبيرة.

المكتسبات السنوية الرسمية للمستثمرات الفلاحية عند المعمرين ما بين 1924 و 1933. (بالهكتار)

السنوات	المستثمرة الصغرى	المستثمرة المتوسطة	المستثمرة الكبرى	المجموع
1924	1613	17768	3372	22753
1925	251	22042	4970	27263
1926	1222	27777	4717	33716
1927	-----	24850	5550	30400
1928	77	16012	2032	18121
1929	332	8302	3059	11693
1930	762	16920	7098	24780
1931	356	3637	-----	3993
1932	678	13283	172	14133
1933	646	9266	-----	9912
متوسط المعدل	8525	217820	42478	268823

المرجع: Echaoui Mohamed, Evolution de L'Economie Marocaine., op.cit., p112

كما عرفت هذه الحركة الاستعمارية للأموال الزراعية في المغرب، نمط آخر للحصول على تلك الأراضي عن طريق إقدام الإدارة الاستعمارية على كراء الأراضي الجماعية للخواص. حيث صدر ظهير في 27 أبريل 1919، يسمح للجماعات الإقليمية المغربية بإبرام عقود كراء الأراضي لمدة تتراوح ما بين 3 إلى 10 سنوات. غير أنه مع مرور الوقت تحولت العملية إلى دائمة و أصبحت تدفع أثمان زهيدة في السنة مقابل كراء الأراضي، الأمر الذي مكن لمستأجري القطع الأرضية بتوفير أموال معتبرة من أجل شراء أراضي باعتبار أنهم لا يدفعون سوى ثمن الكراء السنوي.¹

لم يكن ثمن كراء هذه الأراضي سوى بخس بالمقارنة مع قيمة القطعة الزراعية المتاحة. و قد أفضت دراسة خصصت لمنطقة "الرحاب" إلى أن الإدارة الفرنسية قد تنازلت عن قطع أراضي بأثمان نخجل من ذكرها كونها قد لا تساوي شيئا. فمثلا، مساحة 517 هكتار بيعت بـ 2100 فرنك، و 311 هكتار بـ 1430 هكتار، و أخيرا 66 هكتار بـ 650 فرنك. و بعملية حسابية بسيطة، فإن ذلك يساوي في الهكتار الواحد و في السنة، ما قيمته: 4.06 و 4.16 و 9,84 فرنك فرنسي.²

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'Economie Marocaine., op.cit., p 117.

² - Le Coz (Jean), Le Rharb, fellahs et colons, étude de géographie régionale, C.U.R.S, Rabat, 1964, pp 418-419.

و بما أن هذه الأثمان لم تكن قابلة للمراجعة سنوياً، و لم تتغير معها أثمان الكراء منذ أن أبرمت العقود في بداية العشرينات، ارتأت الإدارة الاستعمارية للمحمية أن تراجع الأمور فأصدرت ظهيراً جديداً في 13 ديسمبر من سنة 1941 ينص مستقبلاً على مراجعة ثمن الكراء كل عشر سنوات.¹

زراعياً، امتلك الأوروبيون قبل بداية الحرب العالمية الأولى، حوالي 80000 هكتار من الأراضي الجيدة الصالحة للزراعة، خاصة في مناطق: الرحاب و الشاوية و الدكالة و العباد و في مناطق المغرب الشرقي. و استطاع الكولون أن يستغلوا 70000 هكتار إضافية خلال مرحلة الحرب العالمية الأولى. غير أنها لم تكن كافية لإرضاء كل الكولون الجدد. إضافة إلى أن معظم المغاربة كانوا يرفضون بيع أراضيهم مدعمين بذلك "بظهير سنة 1914 الذي حافظ على الأراضي الجماعية ضد السماسرة".²

غير أنه مع نهاية الحرب العالمية الأولى صدر ظهير جديد سنة 1919 يعطي الحق للدولة بممارسة المصادرة باسم المصلحة العمومية. و وضعت هذه الأراضي تحت سلطة "مدير شؤون الأهالي" و منحت في النهاية للكولون. و قد ارتفعت مساحات هذه الأراضي بانتظام إلى غاية سنة 1932. حيث ظهرت المستثمرات الفلاحية الأوروبية الكبرى بمعدل 170 هكتار لكل مستثمرة انتشرت معظمها في سهول "فاس و مكناس" 210000 هكتار، و الرحاب 200000 هكتار، و الشاوية 130000 هكتار. أما المنطقة الخاضعة لإسبانيا فكانت أقل استغلالاً بسبب قلة خصوبة أراضيها.³

أما اهتمام حكومة المحمية بشؤون القطاع الزراعي التقليدي، فقد بدأت سنة 1917 مع صدور ظهير 21 ماي الذي سمح بتأسيس الشركات الأهلية للاحتياط SIP في المغرب، على شاكلة الشركات الأهلية للاحتياط التي كانت موجودة في الجزائر.⁴ حيث كان هدفها مساعدة الفلاحين المغاربة و تنظيم الإنتاج الزراعي. و وضعت نصب أعينها تحقيق الأهداف التالية:

- تقديم قروض دعم للمساهمين أو مدعمهم بالبذور و الأسمدة و العتاد الفلاحي، لإنجاح الحملة الزراعية.
- تعميم و تفعيل التقنيات الزراعية الجديدة في مجال الزرع و الإنتاج.
- تجنيد الفلاحين المساهمين من أخطار بيع الأملاك العائلية و الأخطار الربوية.
- اكتتاب تأمين ضد كل الأخطار الفلاحية المتعلقة بالحرائق، و الفيضانات، و الجفاف و ضياع القطيع و غزو الجراد.⁵

¹ - هناك من اعتبر هذه الطريقة لاستغلال الأراضي و مصادرتها، بالطريقة المحيطة التي كانت تستر وراء صيغة العقود القانونية المزيفة. أنظر:

- Le Coz Jean, Le Rharb, fellahs et colons..., op.cit., p 419.

² - Lugan (Bernard), Histoire du Maroc..., op.cit., p 240. Et voir aussi :

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 107.

³ - Lugan (Bernard), Histoire du Maroc..Ibid.. p241.

⁴ - تم تأسيس الشركات الأهلية في الجزائر بموجب قانون 14 أبريل 1893. و كان دورها هو تنظيم و تأطير المجتمع الجزائري في الأرياف. و قد

ذكرنا ذلك في الجزء المخصص للجزائر في ص ص: 318-321.

⁵ - Encyclopédie coloniale et maritime, Algérie et Sahara, Maroc et Tunisie, sous la direction d'Eugene Guernier, éditions encyclopédiques, numéro spécial du Maroc, Paris, 1948, pp 190-194.

لم تكن هذه الأهداف لتشمل الفلاحين الصغار، لأن نظرتها للمستقبل كانت محدودة، و لا للوضعية العامة للزراعة التقليدية المغربية. باعتبار أن القروض الخاصة بالتجهيزات و التي تتطلب ضمانات كبيرة لا يقدر عليها الفلاح الصغير، كانت تمنح للأعيان الذين بإمكانهم المساهمة في تطوير القطاع الزراعي الحديث. لأن هؤلاء الأعيان كان بمقدورهم تقديم الضمانات الكافية التي تغطي الاحتياجات المالية لهذه الشركات. هذا ما عجل بظهور تحالفات مصلحة بين السلطات الإدارية الفرنسية و كبار الملاك المغاربة و الكولون.¹

في النهاية، لم تقدم هذه الشركات للفلاح المغربي الشيء الكثير و لم تحسن من أوضاعه، كما كان مبرمج لها. بل بالعكس من ذلك، فقد أدت بعض الممارسات إلى تدهور أوضاع الفلاحين، و ظهرت بعض التجاوزات و التعسفات من بعض أشباه الوسطاء الذين كانوا يختلسون جزء من القروض الموجهة للفلاحين و ذلك بتسجيلهم في السجلات المخصصة للقروض على أساس هم المدينون. و قد قدم الباحث الجزائري "عبد اللطيف بن أشنهو" شهادة وافية في الموضوع إذ يقول:

"كنت شاهدا شخصيا على وقائع مذهلة، حيث رأيت، خلال عملية توزيع البذور، أن بعض الفلاحين كانوا يصرخون بصوت عال أنهم لم يستلموا أبدا كمية البذور التي سجلت على حسابهم على القوائم التي تحمل توقيعاتهم أو بصماتهم.. و هنا يأتي دور القياد و الشيوخ لتكميم أفواه هؤلاء الفلاحين و تكذيبهم مع مباركة السلطات الإدارية الفرنسية التي لا تقدر على شيء ما دام أن كل شيء ضدهم: القياد و الشيوخ و عقود القرض و حتى الشهود المزيفون.. و راح ضحية هذه المؤامرات عدد كبير من الفلاحين الذين اضطروا إلى بيع أملاكهم من أجل تسديد ديون لم يحصلوا عليها أبدا..".²

وصل عدد الشركات الأهلية للاحتياط عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية في سنة 1938، إلى حوالي 52 شركة تضم ما يقارب 1200000 منخرط، أي ما يعادل 5/1 (خمس) المزارعين المغاربة. هذا ما دفع بالسلطات الفرنسية إلى الاعتراف بفشلها في تحقيق هذه الشركات لأهدافها. و كان عليها انتظار سنوات 1944-1945، و تأسيس "القطاعات العصرية للفلاحة" S.M.P و حيازة الفلاح على ألاك عائلية من أجل ملاحظة تغيير بعض الأمور تدريجيا.³

ب-الأزمة الفلاحية و انعكاساتها الداخلية عشية الحرب

عرف الإنتاج الزراعي المغربي نموا متزايدا منذ سنوات 1920، الأمر الذي أدى إلى تخصيص مساحات زراعية هامة وصلت إلى 5 ملايين من الهكتارات. و تركزت تسعة أعشار (10/9) من هذه المساحات فيما كان

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine., op.cit., p 127.

² - Benachenhou (Abdellatif), Formation du sous-développement en Algérie. Essai sur les limite du développement du capitalisme en Algérie 1830-1962, imprimerie commerciale, Alger, 1978,p 85.

³ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine., op.cit., p 128.

يطلق عليه "بالمغرب النافع أو المفيد" Le Maroc utile، خاصة في مناطق: الرحاب، و الدكالة، و التادلة و الساييس و الحوز و المضاب الشرقية، و بعبارة موجزة، كل المناطق الخاضعة للاستعمار.¹

تحتل زراعة الحبوب مكانة هامة في حياة المغاربة، إذ تعد الغذاء الأساسي لغالبية السكان، منها القمح الصلب و اللين و الشعير. و تسيطر هذه الحبوب لوحدها على 80% من المساحات الزراعية الإجمالية و تغطي حوالي 90% من الإنتاج الزراعي المغربي و الأوروبي معا. يأتي القمح الصلب في مقدمة الحبوب المنتشرة بكثرة في المغرب و التي تعد من الأساسيات الغذائية للسكان. و تقدر المساحة المخصصة لزراعة القمح الصلب متساوية مع تلك المخصصة لزراعة الشعير. و قد شهدت المرحلة الممتدة من 1920 إلى غاية سنة 1939 ثلاثة مراحل متعلقة بتطور زراعة القمح الصلب:

- شهدت سنوات 1920-1925 مرحلة نمو سريعة في المساحات المخصصة لهذا النوع من الزراعة، حيث ارتفعت المساحة من 770000 هـ في 1921، إلى 855000 هـ في 1923، إلى 945000 هـ سنة 1925.

- أما مرحلة 1926-1930، فهي المرحلة التي شهدت تذبذبات كبيرة من سنة لأخرى.

- بينما ميز المرحلة الممتدة من سنة 1931 إلى غاية سنة 1939، تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929 على المساحات المزروعة التي عرفت تراجعاً كبيراً منذ 1931 قدر بحوالي 200000 هكتار مقارنة مع سنة 1929. ثم تلاها تراجع آخر سنة 1935 قدر بـ 1087000 هكتار، تواصل إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الثانية. و كان علينا انتظار سنة 1942 لنعود إلى مستوى مشابه لسنة 1935 وصل إلى 1037000 هكتار.

فيما يخص الإنتاج الزراعي من القمح الصلب، فقد تطور بشكل ملحوظ خلال ثمان سنوات، أي من سنة 1920 إلى غاية سنة 1938 بمعدل ثلاث مرات. أي من 2.3 مليون قنطار إلى 7.5 مليون قنطار. و لوحظ تراجع فقط خلال سنوات 1929 إلى 1936 قدر بحوالي 400000 قنطار بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية التي ظهرت آثارها في المغرب بداية من سنة 1931. بينما إنتاج الشعير تراوح ما بين 6 إلى 15 مليون قنطار ما بين 1922 إلى 1936، مع ملاحظة تراجع في كميات الإنتاج خلال سنوات 1935 و 1937، و التي تراجع فيها الإنتاج إلى النصف بالمقارنة مع السنوات الماضية.²

إلى جانب القمح الصلب، تطورت زراعة القمح اللين في مرحلة ما بين الحربين، و سيطر عليها بالدرجة الأولى "الكولون"، الذين أولوا اهتماماً كبيراً لهذا النوع من الحبوب حيث ارتفعت المساحة المزروعة من 10000 هكتار سنة 1920 إلى 80000 هكتار سنة 1930 لتصل إلى 157000 هكتار سنة 1933. و يعود هذا الاهتمام إلى القيمة التجارية للقمح اللين و مردوده المرتفع. و الدليل على ذلك، أن المساحات المخصصة لزراعته لم تتأثر برواسب الأزمة الاقتصادية العالمية حيث لم تعرف إلا تراجعاً خفيفاً خلال سنوات 1935 و

¹ - Ibid., p 129.

² - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., p 132.

1936. و لعل كمية الإنتاج الملاحظة طول الفترة الممتدة من سنة 1925 إلى سنة 1936، تغني عن أي تعليق من خلال الجدول التالي:¹

جدول مفصل للمغاربة و الأوروبيين يمثل إنتاج القمح اللين في المغرب بين 1925-1936 (الوحدة قنطار)

السنوات	المغاربة	الأوروبيون	الإنتاج الإجمالي
1925	491456	303445	794901
1926	442231	221739	663970
1927	906787	447883	1354670
1928	594920	522992	1117912
1929	1309707	533785	1843490
1930	642301	441855	1084156
1931	1287489	871511	2150000
1932	858250	1572180	2430430
1933	1316800	1884800	3100000
1934	1756556	1443430	3200000
1935	759013	914710	1673723
1936	400000	500000	900000

كما احتلت المساحات الزراعية المخصصة لزراعة حبوب الربيع، أهمية كبرى عند الفلاح المغربي، إذ قدرت مساحة زراعة الذرى ما بين 300 ألف إلى 400 ألف هكتار، سنة 1938-1939، كان أغلبها ملكا للفلاحين المغاربة.² و كان الإنتاج العام للحبوب الرئيسية الأربعة: قمح صلب و لين و شعير و ذرى، يتأرجح من سنة لأخرى ما بين 10 مليون إلى 30 مليون قنطار سنويا، كان للفلاحين المغاربة منها نصيب التسعة أعشار (10/9).³

¹ - Ibid., p 133.

² - هذه الأرقام مقدمة في الدراسة التي قام بها: الشاوي محمد، من خلال رسالة دكتوراه حول تطور الاقتصاد المغربي خلال الحرب العالمية الثانية. لمزيد من الشروحات أنظر إلى:

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., pp 129-131.

³ - هذا التذبذب في كمية الإنتاج من سنة إلى أخرى، و الملاحظ على أهم الحبوب في المغرب، راجع إلى جملة من العوامل المؤثرة في عملية الإنتاج، منها: الظروف المناخية المتذبذبة، و نقص الإمكانات المالية في صورة رؤوس الأموال، و صغر و محدودية المستثمرات الفلاحية التقليدية إلى جانب طرق الإنتاج الزراعية المتبعة و التي لم تعد تتماشى مع العصر. كما أن كمية الإنتاج العام من الحبوب، بالرغم من أهميتها، إلا أنها، في الواقع، لا تمثل حقيقة الوضعية الزراعية و الغذائية للمغرب، خاصة إذا ما قورنت بأعداد السكان. لأن العملية هنا ستفرز لنا عن كمية ضئيلة جدا لا تكفي لتلبية حاجيات السكان الغذائية.

نقطة أخرى لفتت انتباهنا في الموضوع و هي تلك المتعلقة بالمشروع الذي أقدمت عليه الإدارة الفرنسية في الحماية، و هو الهادف إلى جعل من المغرب بلد مصدر للحبوب و من الفلاح المغربي ممون للسوق الفرنسية. لأن الأهم بالنسبة لها، هو تصدير الحبوب بأي ثمن لتمويل المشروع الاستعماري حتى توهم بشرعيته. لمزيد من الشروحات أنظر كل من:

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., pp 131-132.

- Rivet Daniel, Le Maroc de Lyautey..., op.cit., pp 202-208.

بينما كان تنظيم السوق الداخلية لتجارة الحبوب، وفق حلقة مغلقة تجمع بين الوسطاء و المؤسسات العامة و الخاصة. و هكذا، خضعت عملية التصدير إلى نظام شامل لشراء البذور. فكانت الانطلاقة تأتي من "البرقاز" Bergaz، الذي كان عبارة عن تاجر-محصل للبذور Commercant-Collecteur، يجوب الأسواق اليومية و يتوسط لدى الفلاحين و يأخذ مكانه في وسط الأماكن العمومية مصحوبا بميزانه، و ينتظر قدوم الفلاحين الصغار الذين يبيعونه محصولهم، الذي حتى و إن كان قليلا، إلا أنه يفني بالغرض. و قد يبقى "البرقاز" مدة طويلة في نفس المنطقة لشراء أكبر كمية ممكنة من الحبوب. و يبقى يستفسر عن كل فلاح بإمكانه بيع مخزونه من الحبوب.¹

ثم يأتي بعده التاجر الرسمي، أي الذي يملك رخصة من السلطات العمومية تسمح له بالمجارة في الحبوب، فيقوم بدوره بربط الاتصال بكل "برقاز" و يجمع منهم المحصول الذي تم جمعه و يوجهه بدوره إلى التاجر-المندوب Commercant-Prepose، الذي يرسل المحصول مباشرة إلى التعاونيات الفلاحية أو إلى كبار التجار "الفاسيين" المتخصصين في تجارة الحبوب.²

إلا أن مساوئ هذا التنظيم بدأت تظهر مع بروز عدد كبير من الوسطاء، ما أدى إلى ارتفاع مذهل في أسعار "الدقيق" التي أدت بدورها إلى ارتفاع سعر الخبز. الأمر الذي انعكس سلبا على المستهلك الذي دفع ثمن هذا الغلاء الفاحش للحبوب. في حين أن محصول الكولون كان يوجه مباشرة إلى التاجر-المندوب أو إلى مستودعات-مطامر التابعة لمؤسسات الإدارة الفرنسية في المحمية. Les Docks-Silos.³

ج- الإنتاج الزراعي المغربي في مواجهة صعوبات الحرب

مع حلول سنة 1938 بدأت تلوح في الأفق بوادر الأزمة الأوروبية، التي سوف تتحول إلى أزمة عالمية، ما اضطر المغرب إلى تجنيد كل طاقاته البشرية و المادية تأهبا للصراع العالمي الوشيك. و كان على المغرب تقديم المساعدة الضرورية، في مثل هذه الأوقات العصيبة. و جاء تصريح الجنرال "نوقس" في هذا الشأن معبرا عن مدى رغبة سلطات المحمية في تقديم كل الدعم للمتروبول، حيث صرح: "لا يمكننا الاكتفاء بتقديم محاربين لفرنسا فقط، بل علينا أن ندعمها بكل الإمكانيات الزراعية و الصناعية و المنجمية التي تزخر بها أرضنا".⁴

شهد القطاع الفلاحي، عموما، ارتفاعا في كميات الإنتاج وصلت إلى 41.3 مليون قنطار سنة 1941 بعدما كانت 21.1 مليون سنة 1938، أي بنسبة ارتفاع وصلت إلى 95%. غير أنه بعد سنة 1942، بدأت المؤشرات تسجل انخفاضا في المحصول الزراعي الذي نزل إلى حدود 28.6 سنة 1943 و 18.9 سنة 1944. أي تراجع يقدر بنسبة 30.8% و 54.2% مقارنة مع سنة 1941. كما أن الرفع من المساحات المخصصة لزراعة

¹ - Le Coz (Jean), Le Rharb, fellahs et colons..., op.cit., p 829.

² - Ibid., p 829.

³ - Le Coz (Jean), Le Rharb, fellahs et colons..., op.cit., p 829. .

⁴ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie marocaine..., op.cit., p 164.

القمح هي التي ساهمت في هذه الزيادة و ليس زيادة المنتج في حد ذاته. إذ ارتفعت المساحات المزروعة من 3.8 مليون هكتار في 1938 إلى 4.8 مليون سنة 1940، إلى 4.7 مليون سنة 1942. و الجدول التالي يعطينا كمية الإنتاج الزراعي في الهكتار الواحد خلال فترة الحرب:¹

السنوات	مردود الإنتاج في الهكتار الواحد
1938	5.49
1939	9.01
1940	6.45
1941	8.62
1942	6.99
1943	6.13
1944	4.63

من المفارقات التي عرفها الإنتاج الزراعي في المغرب، أن سنة 1941، التي شهدت إنتاجا كبيرا، لم تعطي سوى 8.62 قنطار في الهكتار الواحد. بينما سنة 1939 شهدت مردود وصل إلى 9.01 قنطار. مما يدعم الطرح الذي يرجع أسباب تطور الإنتاج إلى زيادة المساحات المخصصة لزراعة القمح و ليس لكثرة الإنتاج. و الملاحظة التي يجب ذكرها، أن مختلف هذه التغيرات لها علاقة مع المساحات المخصصة للقمح، التي لم تتغير كثيرا بين سنوات 1939 إلى سنة 1944، حيث رست على معدل سنوي قدر بـ 3.8 مليون هكتار، مع تحقيق 4 ملايين سنة 1941. أما بالنسبة للمردود الجماعي لأهم الحبوب، فتراوح من 9.54 قنطار في الهكتار الواحد، حقق في سنة 1939، إلى 5.21 قنطار سنة 1944.²

قدر معدل الإنتاج السنوي من القمح الصلب بـ 5.7 مليون قنطار ما بين 1939 و 1944 على متوسط مساحة قدرت بـ 960000 هكتار، أي بمردود وصل إلى 5.9 قنطار في الهكتار الواحد. علما أن سنوات 1939 و 1941 هي الميزة الخاصة حيث أعطت منتج جيد قدر بـ 7.2 مليون و 7.9 مليون قنطار، ما يساوي 8 قنطار في الهكتار. بينما كان إنتاج سنة 1944 كارثي بكل المقاييس بسبب حالة الجفاف التي سادت البلاد في تلك السنة. ما جعل المحصول لا يتعدى 3 قنطار في الهكتار الواحد. نفس الملاحظة تنطبق على القمح اللين الذي عرف إنتاجه نفس مستوى تطور القمح الصلب، بمعدلات إنتاج وصلت إلى 5.1 مليون قنطار (الكمية القصوى في سنة 1939)، بينما قدرت بـ 1.7 مليون قنطار فقط سنة 1944، مع مستويات إنتاج تتراوح من 13.7 قنطار إلى 8.3 قنطار في الهكتار.

¹ - هذا الجدول وضع حسب الأرقام التي استقيناها من رسالة دكتوراه لصاحبها "محمد الشاوي"، و التي رأينا فيها جهد الطالب في تعامله مع بعض الأرشيف المغربي خاصة منها "النشريات الرسمية للمحمية" Bulletin Officiel du Protectorat. أنظر:

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., pp 176-177.

² - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 177.

بينما شهد إنتاج الشعير مستويات مرتفعة في نفس السنوات التي عرفها القمح بنوعيه. أي في 1939 و 1941 بكميات إنتاج قدرت بـ 21.8 و 21.7 مليون قنطار. هذه السنوات تلتها السنين العجاف التي عرفت تدني مستويات الإنتاج الذي وصل إلى 9.6 مليون قنطار فقط سنة 1944. الوضع الذي أعطانا مردود في الهكتار الواحد قدر بـ 5.3 قنطار سنة 1944 مقابل 11 قنطار سنة 1939.¹ و فيما يلي جدول يمثل تطور المساحات المخصصة لزراعة الحبوب:

الوحدة: آلاف الهكتارات.

نوع الحبوب	1939	1940	1941	1942	1943	1944	معدل
قمح صلب	900	990	975	1037	1025	827	960
قمح لين	490	430	430	331	284	190	347
شعير	1980	2093	2093	2041	2099	1791	2025
ذرى	490	468	468	492	482	494	490
المجموع	3860	3981	4003	7904	3890	3302	7124

المراجع: Echaoui Mohamed, Evolution de L'Economie Marocaine..., op.cit..., p 178.

فرضت أزمة الثلاثينات على الحكومة الفرنسية إلى مراجعة الحصص المخصصة للاستثمار الاستعماري، حيث تدخلت سلطات الحماية لفائدة الكولون و أدخلت مختلف أنظمة مساعدة للتخفيف من وطأة الصدمة. فظهرت المساعدات على شكل دعم التصدير و منح للذين يغيرون من نوع زراعتهم، مما أدى إلى ظهور زراعات جديدة مثل؛ الحوامض و الخضضر. كما قامت بمسح ديون الفلاحين الكولون المقدرة بـ 500 مليون فرنك. و استحدثت "الديوان الشريفى لمحتري الحبوب" L'Office Chérifien Interprofessionnel des Céréales سنة 1937 من أجل تنظيم السوق التي بدأت تنهار فيها الأسعار إلى النصف فيما بين سنوات 1932 و 1935.²

ساهمت هذه السياسة في تطوير زراعات جديدة و تكثيف إنتاجها، خاصة منها البقوليات و الزيتونيات التي ساعدت على ظهور الزراعات التجارية. فكان "للكتان" Lin، مكانة هامة في هذه الزراعات لما له من مكونات دهنية تساعد على صنع الصابون و الزيوت الغذائية. و كانت حاجة المغرب إليه كبيرة في الأزمة التي كانت لفرنسا مع بريطانيا مباشرة بعد عقد الهدنة مع ألمانيا سنة 1940، ثم الهجوم على ميناء مرسى الكبير في جويلية من سنة 1940. و الحصار الذي فرضته بريطانيا على السلع المتوجهة نحو شمال إفريقيا. كما شهدت فترة الحرب إقدام السلطات الفرنسية على استيراد كميات كبيرة من الفول السوداني من دول إفريقيا الغربية. و بعدها، خلال سنوات 1940-1941، أرغمت الكولون على تخصيص 10% من أراضيهم للزراعات الزيتية. و هكذا ارتفعت المساحات المخصصة لزراعة الكتان و معها ارتفع الإنتاج كما يوضحه الجدول التالي:

¹ - Ibid., pp 177-178.

² - فيما يخص تطور أسعار الحبوب في الفترة الممتدة من سنة 1920 إلى غاية سنة 1948 أنظر إلى الملحق رقم 18.

السنوات	المساحة بالهكتار	الإنتاج بالقنطار	النسبة المئوية
1939	23000	56000	—
1940	50000	145000	%258
1942	52000	264000	%471

المصدر: Echaoui Mohamed, Evolution de L'Economie du Maroc..., pp 179-180.

عرفت زراعة البقوليات هي الأخرى اتساعا ملحوظا في المساحات الزراعية التي خصصت لها حيث ارتفعت من 190000 هكتار سنة 1939 إلى 240000 هكتار سنة 1940 لتصل إلى 282000 هكتار سنة 1942. بينما قدر الإنتاج في سنين الحصاد بحوالي 1185000 قنطار سنة 1939 ليقفز إلى 1548000 قنطار سنة 1941 ليشهد بعد ذلك تراجعا إلى أكثر من النصف سنة 1944، أي بإنتاج قدر ب 751000 قنطار.¹

أما بالنسبة لتربية الحيوانات، فقد عرف المغرب تزايدا مستمرا في ثروته الحيوانية منذ عشرينيات القرن الماضي. حيث قدرت سنة 1925 ب 14700000 موزعة على الأنواع التالية: 9278000 من الأغنام و 2930000 من الماعز و 1568000 من الأبقار. ثم عرفت الثروة الحيوانية تراجعا خلال عشرية كاملة، أي من سنة 1926 إلى غاية 1936. بعدها انتعش القطيع من جديد ليصل إلى 19 مليون رأس سنة 1938، منها؛ 10100000 من الأغنام و 5800000 من الماعز و 1900000 من الأبقار و النوع الجديد المتمثل في ظهور تربية الخنازير التي وصل عددها إلى 54000 رأس، و التي عرفت بعد ذلك تطورا كبيرا بسبب إقدام الأوروبيين عليها بكثرة خلال مرحلة الحرب العالمية الثانية، إذ وصل عددها سنة 1943 إلى 146000 رأس.²

إلا أن سنوات 1943 و 1944 كانت من أسوأ ما عرف المغرب في ميدان تربية الحيوانات،³ حيث تعرض القطيع إلى هزات عديدة ، منها تدهور الظروف الصحية بسبب الجفاف و ندرة الأدوية و نقص في عدد البيطرة، ما أدى إلى انتشار عدة أوبئة محلية مثل؛ الحمى الجرثومية (الفحمية) Fièvre charbonneuse، و مرض الحلق أي La Dourine سنة 1943، و الطاعون الخنزيري La peste porcine التي أدت إلى هلاك نصف

¹ - الملاحظ من خلال هذا الواقع للقطاع الزراعي المغربي خلال الحرب، أن السياسة المتبعة لم تأتي بشمارها و لم تحقق الأهداف التي وضعت من أجل إنجاح عملية تنويع المنتجات الزراعية لتلبية احتياجات السكان في ظروف الحرب. و باستثناء الحملة الأولى التي عرفتها المغرب في 1940-1941، فإن القطاع الزراعي بقي حبيس نزوات الكولون، الذين اشتركوا في مختلف برامج توسيع و تنويع الزراعات التجارية، لغرض الاستفادة من المساعدات الإضافية كالوقود، أو الإعانات المقدمة للفلاحين لشراء أو تصليح العتاد الفلاحي. و بالتالي لم يكن يهمهم لا الرفع من المساحات الزراعية و لا الزيادة في الإنتاج.

² - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit..., p 184.

³ - غير أن هناك أرقام أخرى قدمها الباحث "دانيال ريفي" إذ يعتبر أن المغرب حقق في مجال تربية الحيوانات خلال فترة الحرب، زيادة قدرت بالربع مما كانت عليه سنة 1939. و يعتبر أن الأبقار هي المعيار الحقيقي المعتمد من طرف الفلاحين، عموما، قياسا بالأرقام المقدمة في إحصائيات سنة 1939. لمزيد من التوضيح أنظر:

- Rivet Daniel, Le Maroc de Lyautey a..., op.cit..., p208.

الثروة الحيوانية في المغرب خلال سنوات 1944 و 1945، ما انجر عنه تضرر المربين المغاربة بدرجة كبيرة من هذه الوضعية، حتى و إن كان قطع الأغنام في تزايد حسب ما توضحه المصادر الفرنسية.¹ و بما أن المغاربة كانوا يمتلكون غالبية الثروة الحيوانية في حدود 80 إلى 90%، فذلك مكنهم من مواجهة ظروف الحرب الصعبة، حيث كانوا يبيعون حيواناتهم كلما دعت الضرورة إلى ذلك و فق وجود المواد الاستهلاكية في السوق. باعتبار أن المواد الواسعة الاستهلاك مثل، السكر و الشاي و الأقمشة القطنية كانت مقننة. و بداية من سنة 1943 رفض المربون المغاربة بيع ماشيتهم مما دفع بالسلطات الفرنسية إلى وضع قانون يسمح بتبادل السلع أو مقايضتها.² Le Troc

دفعت هذه الوضعية بالسلطات الفرنسية إلى تنظيم سوق اللحم، و كان سكان المدينة هم الأكثر تفاعلا مع هذه الإجراءات. فكلّف أصحاب القصابيات المعتمدين بتموين أسواق المدينة باللحم و لكن بأثمان متفق عليها مع الإدارة، قد تتراوح ما بين 30 إلى 45 فرنك للكيلوغرام الواحد. غير أن هذه الأسعار لم تحترم لانعدام الرقابة من الإدارة، حيث وصلت في بعض الأحيان إلى حدود 80 فرنك للكيلوغرام.³

د-صعوبة التموين و تأثير الأسعار

سعت الإدارة الفرنسية بعد اندلاع الحرب، إلى سن قوانين اقتصادية و اجتماعية من أجل إعادة تنظيم مجموع الإنتاج المغربي، في محاولة للمحافظة على الأسعار و منه محاربة أي ارتفاع غير شرعي قد يؤثر على القدرة الشرائية للسكان المغاربة. غير أنه لم يكن من السهل تطبيق هذه القوانين بفعل تخافت الطبقة المهيمنة على السوق المغربية للمزيد من الأرباح، حتى في ظل أزمة مثل الحرب، و بفعل أيضا، نقص الإنتاج الوطني الذي زاد من حدة الطلب على المواد ذات الاستهلاك الواسع، مثال الدقيق و الزيت و السكر و الشاي و الألبسة. الأمر الذي وضع المجتمع المغربي في وضعية لا يحسد عليها.

كما اختفت من رفوف المحلات المتخصصة و من واجهاتها عدة مواد أخرى كان معظمها من نصيب الأوروبيين، مثل الأحذية و الملابس المنسوجة و الملابس النسوية الداخلية، و أصبح معظمها فارغا.⁴

¹ - Bulletin économique et social du Maroc, n° 24, du mois d'avril 1945.

² - و يعرف بنظام المقايضة. و هو نظام تجاري قديم يعني باستبدال سلع مع سلع أخرى. و ساد هذا النظام في أزمات مختلفة، ليس بسبب نقص السيولة النقدية أو نقص في الذهب و الفضة، و إنما لضرورة ظرفية فرضتها الأوضاع السائدة حينها.

كما مكن هذا النظام المصالح الإدارية المكلفة بالتموين من تحصيل مليون قنطار من الشعير و 400 ألف قنطار من القمح و 300 ألف قنطار من الذرى، خارج طرق الشراء التقليدية، و كل ذلك مقابل 9700000 متر من القطن، أي ما يساوي 1500 طن من القماش.. هذه العملية شجعت الإدارة الفرنسية على مواصلة تقديم طلباتها للحلفاء مقابل 5300 طن من القماش و 69000 طن من السكر لحساب سنة 1944. أنظر إلى:

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 190.

³ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 185.

⁴ - Guyot (Jean-Clair), « La Vie au Maroc en 1942 », In revue L'Illustration, n°5168, du 28 mars 1942, p 211.

سهلت هذه الوضعية في انتشار حالات الغش و التهريب و ظهور سوق سوداء موازية تعمل على تحطيم الاقتصاد و السكان معا. فارتفعت الأسعار بشكل كبير متفوقة على الأسعار الرسمية بعشرات المرات. إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون معيارا حتى نقيس عليه الحقيقة الاقتصادية و الاجتماعية للمستوى المعيشي للسكان.¹

كانت القاعدة الأساسية لهذا التنظيم، هي صدور ظهيرين في سنة 1940. الأول في 24 فبراير، ينص على إعادة تفعيل القانون المتعلق بمراقبة و تنظيم الأسعار، و الثاني في 11 جويلية، حول الوقاية و قمع كل أشكال الغش و ارتفاع أسعار البضائع.² تم وضعت آليات جديدة هدفها تنظيم الأجهزة المسؤولة و المراقبة للأسعار بشكل دفع إلى إشراك عدد كبير من الشركاء في العملية حتى تتم المراقبة على نطاق واسع. فظهرت "اللجان الخاصة" و "اللجنة المركزية للمراقبة" و أخيرا "اللجان الجهوية". و كلفت كل هيئة بإدارة شؤونها بالتشاور مع هيئات مستحدثة للسهر على السير الحسن للعملية التي أصبحت ذات أهمية بالغة نظرا لظروف الحرب و الأوضاع المزرية للسكان المغاربة.³ و من أجل الحد من عمليات المضاربة على المواد ذات الاستهلاك الواسع، فقد فرضت الإدارة الفرنسية على المنتجين و التجار ضرورة التصريح بالمخزون الموجود لديهم لدى

¹ - كانت عملية مراقبة الأسعار من الأولويات التي سطرتها إدارة الحماية منذ الأشهر الأولى للحرب. لذلك عكفت على وضع هيئات منظمة و ميكانيزمات لتحديد الأسعار و تسقيفها و اللجوء إلى عقوبات إدارية و جنائية ضد أي جهة مسؤولة على ارتفاع الأسعار أو الغش أو التخزين اللاشعري للبضائع.

² - كانت لهذه القوانين أهمية في التقليل من الغش و أشكال تخزين البضائع من طرف المضاربين، غير أنها لم تكن كافية لعدة اعتبارات. أنظر كل من الظهيرين:

- B.O(P), n° 1427, du 04 mars 1940, pp 241-245.

- B.O(P), n° 1447, du 19 juillet 1940, pp 719-723.

³ - قامت اللجان الخاصة بتنظيم شؤونها، حيث أنشأت ثلاثة لجان مركزية مختصة بتحديد الأسعار، و كل واحدة منها تضم خمسة أعضاء، موظف من الإدارة المركزية، تعينه الأمانة العامة للحماية، و ممثل عن "المخزن" و ممثل عن المصالح المالية، و ممثلين عن الغرف التجارية و الصناعية و الفلاحية. و تنحصر مهام هذه اللجان خصيصا في تحديد أسعار البضائع المستوردة أو المصنعة محليا.

أما اللجنة المركزية للمراقبة، فقد انحصر دورها في تجهيز قوائم السلع و المواد الخاضعة للمراقبة في الأسعار. كما تقوم أيضا بتنسيق أعمال اللجان الجهوية التي عليها أن تطلعها في كل شهر على الأسعار المتداولة في الأسواق المحلية. و تتكون من ممثلين عن المديريات الإدارية التي تضم كل من المالية و الشؤون الاقتصادية و الشؤون السياسية و شؤون المخزن، و ممثلين عن الغرف التجارية و الفلاحية و ممثلين عن الطابور الثالث و المخزن المركزي.

بينما اللجان الجهوية، التي توجد مقراتها على مستوى كل منطقة أو إقليم، فهي تحت رئاسة المراقب المدني أو ضابط الشؤون الأهلية. و تتكون من الباشا و مسؤول المصالح البلدية، و من اثنين إلى أربعة ممثلين عن الغرف التجارية و الفلاحية، و ممثلين أو أربعة من المستهلكين يتم اختيارهم مناصفة بين الفرنسيين و المغاربة. كما تعين مصالح الجمارك ممثل عنها في الموانئ و الحدود البرية لحضور اجتماعات اللجان. و أخيرا يتم تعيين مراقب جهوي للأسعار من طرف الأجهزة المركزية لمراقبة اللجان الجهوية في نشاطها و له الحق في إبداء رأيه في أي قرار يتخذ.

كما استحدثت بموجب "ظهير 25 فبراير 1941" هيئة جديدة متمثلة في "صندوق تعويض الأسعار" يعمل على ضبط الأسعار و المساهمة في عملية تموين البلاد بالبضائع الضرورية المستوردة و تسهيل عمليات التصدير المنتجة للبلاد. لمزيد من التوضيحات طالع كل من:

- B.O(P), n° 1480, du 07 mars 1941. p 241.

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., pp 224-227.

السلطات المحلية أو الجهوية للمراقبة أو حتى للجان الجهوية المختصة في مراقبة الأسعار. و قد يخضع هؤلاء المنتجين و التجار إلى عملية تفتيش في أي لحظة تراها الإدارة مناسبة.¹

عان المغرب من ندرة في مادة السكر، مما جعل بالجنرال "نوقس" بتقديم يلح للسلطات الفرنسية في الجزائر بتزويد المغرب بهذه المادة. و كانت الكمية مقدرة بحوالي 1000 طن، تنطلق من محطات مدينة وهران نحو المدن المغربية.² ثم تطورت الأسعار مع بداية الحرب و عرف السكان غلاء في المعيشة لأسباب قد يراها البعض منطقية، غير أن غالبية السكان، المغاربة خاصة، هم المتضررين بالدرجة الأولى. و لكن بالعودة إلى الواقع، فقد كانت للمشاركة المغربية في دفع الأموال مقابل مختلف برامج التمويل و كذا مساهمة المغرب في إرسال كميات كبيرة من المواد الزراعية و المنجمية نحو المتروبول و الحلفاء، الآثار السلبية على السكان.³

من الأسباب الأخرى، ما هو مرتبط بتكاليف النقل، و بمشكل التمويل لبعض المناطق المتضررة، و بندرة المواد الزراعية بسبب عزوف المنتجين المغاربة على بيع منتوجهم خوفا من أن لا يجدوا المواد الضرورية للاستهلاك.

2- تحولات المجتمع المغربي

تخضع الدراسة الاجتماعية لعاملين هامين هما الإحصاء و التعداد السكاني. غير أنه في المغرب اصطدمت الدراسة الديمغرافية بمسألة نجاعة الإحصائيات، خاصة خلال فترة الحرب. لأنها جاءت ناقصة و غير متجانسة، و تنقصها الدقة العلمية في معظم الفترات. كما خضع المغرب خلال هذه المرحلة لأربع عمليات إحصاء يمكننا تقسيمها إلى مرحلتين. المرحلة الأولى جرت قبل الحرب و خصت سنوات 1926 و 1931.⁴

كما شهد المغرب عملية إحصاء قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية في سنة 1936. أما المرحلة الثانية، فهي التي كانت أكثر دقة و تمت في الفترة التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية، أي خلال سنوات 1951-1952. إلا أن تنظيم العملية الإحصائية، و الإمكانيات المسخرة لإنجاحها لم تحقق كل أهدافها بسبب عدد من النقائص

¹ - رغم كل هذه الإجراءات، إلا أن عدد كبير من التجار في مجال "الجملة" أو "نصف الجملة" سواء كانوا أوروبيين أو مغاربة، قد تمكنوا من تحقيق أرباح طائلة بسبب تمكنهم من إخفاء مخزون هام من المواد و البضائع ذات الاستهلاك الواسع، خاصة السكر و الشاي و القماش، ليتم بيعها بأثمان باهظة فيما بعد. هذا ما يعاقب عليه القانون بالحبس النافذ أو بدفع غرامات مالية معتبرة. أنظر إلى:

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., pp 228-229.

² - ANOM, 7cab/29, GGA, direction des T.P, n° 555 TP/, Alger le 20 février 1943.

³ - لمعرفة التطور الذي شهدته الأسعار المواد الزراعية يرجى مراجعة الملحق رقم 21.

⁴ - تمت عملية إحصاء السكان في المغرب في هذه المرحلة، في ظروف لم تكن المغرب مستعمرة كلياً. الأمر الذي أعاق العملية الإحصائية و لم يتم التحقق من تعداد السكان إلا في المدن. و بقيت المناطق الجبلية و مناطق الجنوب غير معنية بذلك. أما سنة 1936 فكانت الانطلاقة لأول عملية إحصاء بالمعنى الصحيح، لأنها شملت كل مناطق البلاد. بينما عمليات الإحصاء التي تمت في سنة 1951 فقد شملت الأوروبيين و الإسرائيليين معاً. أما الثانية التي تمت في سنة 1952 فكانت خاصة بالمغاربة. و يمكن اعتبارها من العمليات التي أثبتت فعاليتها، غير أنها لم تخلو من بعض الانتقادات. لأن البعض اعتبر إقدام المغاربة على هذه العملية مفاده بعض الإشاعات المروجة هنا و هناك، و التي مفادها أن إعادة بعث بطاقة المستهلك و تقنين مادة السكر أو حتى إعادة تفعيل الخدمات الاجتماعية.

التي عانت منها، خاصة في الجانب البشري المسخر للعملية، إذ بقي عدد كبير من المناطق خارج تغطية العملية. حيث لم تتمكن مصالح الإدارة الفرنسية من الوصول إلى سكان "الدواوير" المنتشرة في أعالي الأطلس المغربي، وكذلك عند البدو الرحل.

أ-تأثير الواقع الديمغرافي و الصحي على أوضاع المغرب

إن الوضعية العامة للسكان في المغرب مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعناصر "الإثنية" المشكلة لمجتمعه. و نعتي بها العنصر العربي و الفرنسي و اليهودي و الأوروبي بشكل عام. و حسب عمليات الإحصاء التي تمت في شهر أفريل 1951، و الخاصة بالجاليات الأوروبية و اليهودية، و في شهور مارس-أفريل 1952، و المتعلقة بالمغاربة المسلمين، فإن التعداد الإجمالي للسكان في المغرب وصل إلى 8003985 نسمة. بعدما كان 4998858 نسمة سنة 1926، ليصل سنة 1931 إلى حوالي 5362000 نسمة، ليقفز بعدها إلى 6243229 نسمة سنة 1936.¹ و قياسا بسنة 1952، فإن نسبة النمو السكاني قدرت بحوالي 49% مقارنة بسنة 1931، أي بمعدل نمو سنوي قدر بـ1.5%. هذه الزيادة في النمو السكاني في المغرب، فسرت على أساس عوامل صحية بسبب تراجع عدد من الأمراض، إلا أن ذلك لم يشمل سوى شريحة قليلة من المجتمع. بالنسبة للسكان المغاربة، فقد شهدت جل المناطق نموا سريعا حيث تركز السكان في المناطق الكبرى مثل الدار البيضاء و مكناس و الرباط و وجدة. بينما مدن مثل فاس و مراكش، فقد شهدت هجرة سكانية معتبرة نحو المدن الساحلية. و الجدول التالي يعطينا فكرة عن هذا التركز السكاني للمغاربة في مختلف مدن الحمية بين سنوات 1936 و 1952 و النسبة المئوية سنة 1952 مقارنة مع سنة 1936.²

المناطق	سنة 1936	سنة 1952	%الفارق سنة 1952
الدار البيضاء	1394146	2216347	58.9 +
الرباط	615069	1030342	67.5 +
مكناس	718736	731734	6.4 +
وجدة	221397	340271	53.6 +
أغادير	566417	696700	23 +
فاس	1004208	1001340	0.1-
مراكش	2289703	1987251	13.3-

¹ - Echaoui(Mohamed), Evolution de l'Economie marocaine., op.cit., p 322.

² - Annuaire Statistique du Maroc, volume II, année 1952, pp 14-25. In ANOM.

شكل المغاربة المسلمين نسبة 93.65% من مجموع السكان سنة 1926. ثم ارتفعت النسبة إلى 94.51% سنة 1931، لتستقر في حدود 94.19% سنة 1936. إلا أنها شهدت تراجعا ملحوظا بعد إحصاء سنة 1952 لتتراجع إلى حدود 92.97%. و هذا قياسا بتزايد عدد الأوروبيين في نفس الفترة إذ ارتفعت نسبتهم من 3.24% سنة 1936 إلى 4.53% سنوات 1951-1952.¹

أما السكان من غير المسلمين، فقد أظهرت الأرقام التي أفرزت عليها عملية الإحصاء في أبريل 1951، عن عدد قدر بـ 362418 نسمة، مقابل 202594 نسمة سنة 1936 و 172481 نسمة سنة 1931 و أخيرا 104712 نسمة سنة 1926. و بذلك ارتفعت نسبة عدد السكان من غير المغاربة خلال عمليات الإحصاء السابقة، بالمقارنة مع سنة 1951، بـ 179%، ثم إلى 210%، لتصل إلى 346%. و هي النسب المرتفعة التي لم يشهدها المغرب على الإطلاق. و الملاحظة، هي ارتفاع عدد السكان الأوروبيين إلى 258102 نسمة منذ سنة 1926، و هو معدل يصل إلى بحوالي 10000 نسمة سنويا. أما نسبة تطور السكان الأوروبيين من مجموع السكان، فكانت في تزايد مستمر، حتى و لو بأعداد قليلة إلا أنها موجودة.²

بينما الجاليات الأجنبية الموجودة في المغرب، فقد تركز معظمها في المدن الكبرى مثل؛ الدار البيضاء، حوالي 135000 نسمة، و الرباط، حوالي 40800 نسمة، و وجدة، حوالي 27000 نسمة، و مكناس، حوالي 21000 نسمة. بينما كان عددها ضئيل في المدن الداخلية. و يأتي في مقدمة هذه الجاليات "الأسبان" الذين يمثلون أهم مجموعة بعد الفرنسيين بعدد قدر بـ 26100 نسمة سنة 1952. أما بالنسبة للإيطاليين، فهم الوحيدون الذين عرفوا تراجعا في عدد السكان حيث انتقل من 15521 نسمة سنة 1936 إلى 13550 نسمة سنة 1952. و يرجع هذا التراجع إلى هجرة الإيطاليين من بلاد المغرب بعد دخول بلادهم الحرب إلى جانب ألمانيا في جوان 1940.³ أما عن بقية الجاليات الأخرى فقد تم إحصاء الأعداد التالية في فترات متفرقة من سنة 1926 إلى غاية سنة 1951، و ذلك وفق الجدول المرفق:

الجاليات	1926	1931	1936	1951	ملاحظة
الأسبان	15141	22684	23330	26100	كما وجدت جاليات أخرى من اليونان و
الإيطاليون	10300	12602	15521	13550	روسيا، و من و.م.أ. هذه الأخيرة أوجدت
البرتغاليون	861	2867	3752	5200	عدد كبير من المهندسين و التقنيين بعد
البريطانيون	907	1421	1783	1900	نزول قوات الحلفاء، حيث كان عددهم

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit..., p 331.

² - كانت هذه النسبة في تزايد مستمر حيث قدرت سنة 1926 بـ 2.09%، ثم انتقلت إلى 3.21% سنة 1931، و إلى 3.24% سنة 1936، لتصل إلى 4.53% سنة 1952. أنظر إلى:

- Annuaire Statistique du Maroc..., op.cit..., année 1952, pp 14-25.

³ - Ibid.

السويسريون	552	1188	1568	1750	حوالي 1060 أمريكي. و ارتفع العدد بعد
البلجيكيون	245	519	632	940	نهاية ح.ع.2، جاؤوا لتشييد القواعد الجوية
التشيكين	35	190	254	-	في مدن:مراكش و القنيطرة (حصن ليوثي)
الألمان	85	153	241	-	و الدار البيضاء.أنظر إلى:
جاليات أخرى	2024	2675	3429	9374	Annuaire Statistique du Maroc..., op.cit., pp 14-24.
المجموع					

الوحدة: ألف نسمة

أما الإشكالية الديمغرافية فتمثلت في كون أن الإحصائيات قدمت لنا توافد حوالي 100000 أجنبي إلى المغرب في فترة ما بين الحربين العالميتين، بفعل ما كان يوفره المغرب من فرص عمل و استثمار و تطور في المجال الاقتصادي و التوسع التنظيمي الذي عرفته الإدارة الاستعمارية.

ثم اشتد الخناق على المغرب خلال فترة الحرب بسبب الانعكاسات التي خلفتها في المتروبول، أولا، ثم في البلدان الأوروبية المجاورة، و أخيرا في مستعمرات فرنسا لما وراء البحار، خاصة الجزائر. حيث توافد عدد معتبر على المغرب قدر بحوالي 68000 نسمة ما بين سنوات 1940 و 1944، و بخاصة سنوات 1940 التي شهدت إمضاء الاستسلام الفرنسي أمام الألمان، مما أدى إلى هجرة عدد كبير من الفرنسيين نحو المغرب بعد احتلال الألمان للمناطق الحرة في المتروبول.

و أيضا سنة 1942 التي عرفت نزول قوات الحلفاء على شمال إفريقيا. كما عرفت نهاية الحرب هي الأخرى، تواصل الهجرة الأوروبية نحو المغرب حيث وصل حوالي 85000 شخص إلى المغرب فيما بين 1945 و 1951. مما يشكل عدد إضافي بساهم في التأثير على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب. خاصة إذا سلمنا بأن العملية في الاتجاه المعاكس لم تعرف نفس الحيوية باعتبار أن عدد ضئيل غادر المغرب، سنوات بعد نهاية الحرب، لاعتبارات سياسية و اقتصادية خاصة.¹

لقد أفرزت الحرب ظروف معيشية صعبة بفعل حالات الحرمان المتزايدة و تقنين المواد الغذائية الضرورية على السكان، فازدادت الحالة الصحية للسكان تدهورا، خاصة في الأرياف. لأن عدد كبير من الأطباء و المرضى مستهم عملية التجنيد التي طالت 40% من عدد الأطباء الإجمالي الموجود في المغرب و المقدر بـ150

¹ - لم يشهد المغرب هجرة جماعية خارج أراضيه، خاصة من الأوروبيين، إلا لضرورة إعادة بناء المتروبول في الجانب الاقتصادي، و الخوف الذي انتاب البعض جراء الحراك السياسي الذي باشرته الحركة الوطنية المغربية و حزب الاستقلال، الذي قدم البيان الشهير في سنة 1944. (راجع الفصل الثالث من رسالتنا).

طبيب. حيث انتشروا في مختلف جبهات القتال في أوروبا.¹ و ازدادت الوضعية سوءا بسبب التراجع الكبير للمحصول الزراعي بسبب سنين الجفاف التي اجتاحت البلاد.

حاولت السلطات داخل المحمية من معالجة الوضع الناتج عن تداعيات الجفاف، إذ نشرت مراكز إغاثة عبر مناطق الجنوب، خاصة في منطقة "ورزازات" أين نقل أحد الأطباء وجود حالات عديدة لحالات البؤس الفيزيولوجي و الودمات ذات القصور. و انتشرت المجاعة التي أدت إلى وفاة 300000 شخص إضافي بين السكان المسلمين مما أدى إلى ارتفاع نسبة الوفيات خلال فترة 1945-1946.²

ساهمت هذه الوضعية في ظهور أوبئة كانت قد اختفت مند مدة، و ظهور أخرى جديدة. و هكذا أحصت مصالح النظافة للبلديات، سنة 1945، حوالي 93268 حالة مرض موضوعة في خانة "أمراض ذات التصريح الإلزامي" Maladies a declaration obligatoire. و منها، مرض السل و التيفيس و الحمى الراجعة، Fièvre récurrente، و مرض الجدري و مرض الحصبة و مرض الإسهال.³

تأثر سكان الأرياف كثيرا من هذه الأمراض، حيث تم إحصاء 70000 حالة مرض في الأرياف مقابل 20000 حالة في المدن. و كانت أكثر الأمراض انتشارا هي؛ الإسهال، حوالي 52000 حالة، و الحمى الراجعة، 26300 حالة، و التيفيس 8168 حالة. و قد عرف هذا الأخير حالات متكررة خلال سنوات 1927-1928، و 1937-1938 و أخيرا خلال سنوات 1942-1943. و هي كلها سنوات جفاف حيث قل فيها المحصول الزراعي. و بقيت حالات التيفيس في تزايد مستمر منذ سنة 1936.⁴ و الجدول التالي يبين لنا حالات انتشار مرض التيفيس من سنة 1938 إلى سنة 1946:

السنوات	عدد الحالات
1938	7437
1939	1110
1941	1161
1942	28302
1943	11191
1944	3061
1945	8168
1946	3775

المصدر: Ayache Albert, Le Maroc bilan d'une colonisation..., 1Vol., 1956, p 298..

¹ Rivet (Daniel), « La recrudescence des épidémies au Maroc durant la seconde guerre mondiale, essai de mesure et d'interprétation », In revue Hesperis..., volume 30, fascicule I, Paris, 1992, pp 93-109.

² Noin (Daniel), La population rurale au Maroc, P.U.F, T2, Paris, 1970, p 108.

³ Annuaire Statistique du Maroc..., op.cit., p 68. Voir les détails sur les maladies a déclaration obligatoire dans annexe n° 22.

⁴ Encyclopédie coloniale et maritime du Maroc..., 1948..., op.cit., p 214.

كما انتشرت "الملاريا" Paludisme بشكل كبير في المغرب، و خاصة في منطقة "الرحاب" أين توجد بها مستنقعات كثيرة ساهمت في انتشار هذا المرض.¹ حيث قدرت نسبة الاستشارات الطبية، سنة 1934 بـ 38% من مجموع الأمراض المنتشرة حينها. كما قدرت نسبة مرضى "البرداء" Fièvre Palustre، سنة 1939 بحوالي 18%. و شهدت بداية الحرب، أي مع سنة 1940، انتشار واسع للمرض وصل إلى حد 150000 حالة طيلة فترات الحرب العالمية الثانية، باستثناء سنوات 1944-1945 بسبب الجفاف الذي عرفه المغرب مما أدى إلى جفاف المستنقعات و بالتالي تراجع نسبة مرض الملاريا في المغرب.²

ب- هجرة اليد العاملة من و إلى المغرب

قبل الشروع في الحديث عن هذه النقطة، لا بد من توضيح معالم الهجرة الداخلية المغربية التي مست سنويا ما يقارب 700000 شخص هاجروا من الريف بداية من الثلاثينات. و تعود هذه الهجرة أو النزوح إلى عدة أسباب؛ منها ما هو مرتبط بالتطور الاقتصادي الذي كانت تعرفه مناطق الشمال الغربي التي تنتشر بها المدن الكبرى مثل؛ الدار البيضاء و الرباط و حصن ليوثي (القنيطرة) و وجدة.

فاحتاجت مختلف الصناعات و النشاطات التجارية و الخدمات إلى يد عاملة، كان الريف وحده كفيلا بتوفيرها. كما تطلب استغلال مختلف الحقول المنجمية و الفحمية و الفوسفاتية استقدام اليد العاملة من الريف و من مناطق الجنوب. حيث لوحظ ما بين 1940 و 1945 هجرة عائلات بأكملها من قراها في المناطق شبة الصحراوية، دون أن تترك وراءها شيئا.

عرفت هذه الهجرة مرحلتين كبيرتين خلال مرحلة الحرب العالمية الثانية. الأولى سنة 1942، و هي التي تزامنت مع نزول قوات الحلفاء في المغرب في الثامن من نوفمبر، مما تطلب حاجتها ليد عاملة محلية كبيرة. أما الثانية، فكانت في سنة 1945، و تزامنت هي الأخرى مع سنين القحط التي انتشرت في المغرب و عان منها سكان الأرياف بكثرة بسبب الجفاف الذي أثر على المحصول الزراعي و أيضا بسبب زحف الجراد. و لخص صورتها أحد الباحثين الفرنسيين عندما كتب في الوضع: "إنه الجفاف الأكثر كارثي الذي عرفه المغرب منذ بداية القرن العشرين، كان يمكن أن يصنف ضمن أكبر الكوارث الطبيعية".³

فيما يتعلق بالهجرة الخارجية من المغرب، فنرى أن تلك التي كانت موجهة للغرب الجزائري لها أهميتها في توطيد العلاقات بين الشعبين. حيث لما وجد الكولون أنفسهم أمام مشكلة اليد العاملة في الجزائر، فرضت

¹ - Le Coz (Jean), Le Rharb, fellahs et colons.. t 1., op.cit., p 513.

² - Charbonneau (Pierre) et Kocher (G), « La médecine préventive au Maroc », in Bull.Econ.et Soc. Du Mar, volume 19, n° 67, année 1955, pp 301-333.

³ - Noin (Daniel), La population rurale au Maroc., op.cit., p 234.

مسألة الاستنجد باليد العاملة الأجنبية خاصة تلك التي لا تتطلب إنفاقات كبرى، فوق الاختيار على اليد العاملة المغربية التي كانت في معظمها يدا عاملة موسمية. و كانت الهجرة المغربية ذات طابع ريفي عمالي مؤكدة.¹ ارتبطت بالتطور الاستعماري الفلاحي للجزائر. و هي تشمل الساحل الوهراني، بالدرجة الأولى، ثم تأتي بعدها مناطق التل الأخرى و الهضاب العليا.

و تميزت حياتهم في الجزائر بحياة الجماعة في غالب الأحيان، كون أغلبهم من منطقة واحدة أو حتى من نفس القبيلة. و كان يقع أن يستقر عدد منهم بصفة نهائية في الجزائر، و هذا بعد أن يتمكنوا من عقد قران الزواج مع جزائريات. و قد أحصت المصالح المختصة لعمالة وهران فيما بين 1919 و 1929 حوالي 126 حالة زواج في المنطقة، و 505 حالة استقرار دائم. و أغلب هؤلاء المغاربة كانوا ينتمون إلى قبائل: "تافيلالت" و "أكنول" و "البرانيس" و "الطوال" و "بني سنانس".²

كان عمل المغاربة عند مجيئهم إلى الجزائر، يقتصر على موسم الحصاد عند الملاك الجزائريين الصغار، الذين كانوا يوظفونهم لليوم مقابل توفير الغذاء و أجرة تتراوح ما بين 15 إلى 17 فرنكا في الثلاثينات. أما أعمال الحصاد في المستثمرات الكبرى فكانت تتم بطريقة العمل المتواصل - La tache - و تقوم بها عدة مجموعات، عادة ما تكون من نفس القبيلة، مقابل أجور يتم دفعها بطريقتين: الأولى، أن يكون الأجر على الهكتار الواحد. و هنا يتراوح ما بين 125 فرنك لهكتار القمح و ما بين 135-140 فرنك لهكتار الشعير. و الثانية، تكون عبارة عن أسعار جزافية - Forfaitaire - لمجموع المستثمرة تتراوح ما بين 30 إلى 35 فرنكا ل 14 أو 16 ساعة من العمل.³ و كانت المجموعة الأكثر تنظيما هي التي تقوم بضمان موسم الدرس و أيضا بتوفير عمال "الدراصة" و "الرحى" La Batteuse et La Meule، و عند رجوعهم كان غالبيتهم يستغلون مواسم جني العنب، خاصة في المناطق التي كان يتركز فيها الكولون، في محاولة لكسب المزيد من المال.⁴ و قد بقيت اليد العاملة المغربية رهينة ظروف الحرب العالمية الثانية، حيث استغلها الكولون إلى درجة جعلت منهم أعداء للعمال الزراعيين الجزائريين، خاصة فيما تعلق بقضية الأجور التي كانت زهيدة جدا عند العمال المغاربة. هذا الوضع سينعكس سلبا على العلاقات بين الإخوة الأشقاء في محنة مواجهتهم لاستعمار مشترك.

بعد الحرب العالمية الثانية، تغيرت الأوضاع بحيث منعت الإدارة الاستعمارية هجرة اليد العاملة الزراعية من المغرب. الأمر الذي دفع بوالي عمالة وهران، السيد "كتولي" Cuttoli إلى إصدار أمر لجميع الحكام الإداريين جاء فيه: "إن هذا الأمر يمنع عن أصحاب الأملاك الزراعية توظيف يد عاملة أجنبية من المغرب ما

¹ - اعتبرت هذه الهجرة ظرفية، لأنها كانت تأتي فقط في مواسم الجني و الحصاد. و شملت حوالي 35000 مغربي كانوا ينحدرون من المغرب الإسباني. لمزيد من الشروحات طالع:

- Rivet Daniel, Le Maroc de Lyautey a., op.cit., p 246.

² - Merle (Paul), Contribution à l'étude des..., op.cit, 1939.

³ - Benallègue (Nora), Algérie. Mouvement ouvrier et question nationale 1919-1954, O.P.U, Alger, 2005, p 52.

⁴ - Ibid., p 53.

عدا الذين يشتغلون بصفة مؤقتة في موسم حصاد القمح...و ستقوم مصالح الدرك بمنع توظيف العمال الزراعيين الأجانب، باستثناء موسم الحصاد. و على الحاكم الإداري إرسال تقارير حول أي كان يخالف هذا الأمر داخل بلديته...¹

عرف الوضع داخل العمالة تطورا خطيرا بسبب مزاحمة اليد العاملة المغربية للجزائريين، الأمر الذي دفع بالإدارة الاستعمارية التخوف من ردود أفعالهم، في ظل استمرار تدهور الحالة الاقتصادية و الاجتماعية فبعث والي العمالة بتعليمية أخرى إلى كافة حكام الدوائر يطلعهم فيها عن الامتناع نهائيا عن توظيف اليد العاملة الزراعية الأجنبية حتى في موسم الحصاد. حيث جاء فيها: "يمنع توظيف حتى العمال المؤقتين نظرا للتجاوزات الكبيرة التي حدثت، و على هذا يشترط استعمال عقد عمل فردي لكل عامل زراعي مصحوب بملف يثبت محل إقامته العائلية..."²

إن منع توظيف اليد العاملة الزراعية المغربية كانت بسبب انتشار البطالة في الريف، الذي كان يمثل أحسن نموذج استعماري. هذا ما دفع بأعداد من الجزائريين إلى التمرکز فيه، فاجتمعت شرائح من الأميين و الفقراء و البطالين. و انعدمت الرعاية و التكفل، فتضاعفت الأزمة، حيث أصبحت الإدارة الاستعمارية عاجزة عن إيجاد الحلول المناسبة لهذه الوضعية.

و قد أثارت هذه الحركة الاجتماعية فضول الباحثين من الجزائريين و غير الجزائريين الذين لم يقتنعوا بهذا التفسير السطحي الذي قدمته الإدارة الاستعمارية في شأن الهجرة و القائل بأنها، أي الهجرة، تكون دائما من بلد فقير إلى بلد غني. لأن هجرة اليد العاملة الزراعية داخل منطقة وهران تعد ظاهرة مؤقتة ما دام أنها مرتبطة بموسم جني العنب و حصاد الحبوب في أشهر تبدأ مع نهاية شهر أفريل و بداية شهر ماي إلى غاية منتصف سبتمبر أو أكتوبر.

هناك هجرة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، غير أنه كان مخطط لها بدقة، إذ خصت الجالية اليهودية المنتشرة في المغرب، حيث تفيد المصادر الأرشيفية الفرنسية في المغرب عن هجرة يهودية هامة نحو أرض فلسطين بداية من سنة 1947، و على رأسها الأشخاص الذين كانوا يقومون بالدعاية للهجرة. و قد شملت القائمة عدة أفراد و عائلات من مختلف المدن المغربية مثل؛ الدار البيضاء و أغادير و الصافي و مكناس و العيون و الرباط و سالة.³

بينما في الاتجاه المعاكس، فقد استقبل المغرب بداية من منتصف سنة 1940، لاجئين فرنسيين أغلبهم من محافظات الألزاس و اللورين، الخاضعتين للاحتلال الألماني بعد الهزيمة و الاستسلام في نفس السنة. و قد

¹- Emploi irrégulier de la main d'œuvre étrangère Oran, Arrêté, N° 6881, du 29 juillet 1949.

²- A.W.O, Section local de l'office départementale de main d'œuvre de la C.M de Ain Temouchent, lettre du 4 mai 1950.

³- A.N.O.M, GGA, 8Cab/97, Résidence générale de la R.F au Maroc, CC/Je, secrétariat politique, N°2017, Rabat le 23 juin 1947.

اهتمت سلطات "فيشي" بوضعيتهم و شرعت في البحث عن السبل الكفيلة بترحيلهم نحو مناطق شمال إفريقيا، و راسلت سلطات الرباط في هذا الشأن و قدمت طلبات للحصول على قطع أراضي في المغرب. و قد شملت الطلبات أيضا، المتقاعدين العسكريين و الشباب المسرح من صفوف الجيش الذي لم يجد عملا.¹ كما أن النداء الذي أطلقه المارشال "بيتان" لتحفيز الفرنسيين على العمل الزراعي و الأفاق التي كان يوفرها القطاع، أدت إلى تسجيل إقبال كبير في هذا الاتجاه. غير أن سلطات الحماية في المغرب، و على لسان المقيم العام، الجنرال "نوقس"، بقيت متحفظة للعملية و اعتبرت أنه لا يوجد أي مشروع أو برنامج لبيع الأراضي الفلاحية في المغرب حاليا.²

غير أن إلحاح سلطات "فيشي" تواصل بشدة حيث راسل المندوب العام لحكومتها الجنرال "ويقان"، في 4 فبراير 1941، الجنرال "نوقس" طالبا منه إعادة النظر في مقترح حكومة "فيشي" و دراسة مسألة اللاجئين الفرنسيين من الجوانب السياسية و الاجتماعية. هذا الإلحاح جاء بشماره حيث رضخت سلطات الحماية الفرنسية في المغرب لأمر الواقع، فتم منح 20 عائلة من الألزاس و اللورين قطع أراضي في سهول "الرحاب". و في شهر أوت من سنة 1942، تم منح مئات الأراضي للكولون الجدد الذين أصبحوا بذلك مستأجرين عند الدولة.³

لم تتوقف العملية عند هذا الحد، بل تواصلت حتى بعد نهاية الحرب، خاصة في منطقة "الحوز". حيث تحاطلت عدة طلبات على سلطات الحماية التي أقدمت في محاولات عدة، على توزيع قطع أراضي على بعض العناصر من المتربول لتوفر لهم العمل، باعتبار أنها فرت من قسوة الظروف التي كانت عليها المتربول جراء الانهيار التام للبنية التحتية. كما كان على السلطات معالجة بعض القضايا المتعلقة ببعض الفلاحين بسبب تعاونهم مع الألمان أثناء الحرب الأمر الذي جعل حياتهم صعبة في المتربول.⁴

ثالثا: التونسيون و إعادة بناء القاعدة الاقتصادية

ارتكزت الوضعية الاقتصادية في تونس على الزراعة بدرجة كبيرة باعتبار أن البنية الجيولوجية و التضاريس بشكل عام، كانت مساعدة على تطور القطاع. كما أن الظروف المناخية هي الأخرى ساهمت في

¹ - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'économie Marocaine..., op.cit., p 181.

² - Archives des MAE, seconde guerre mondiale, Vichy-Maroc 1939-1945, dossier N° 55, colonisation, carton N°14, folios de 2 a 4. Voir :

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., p 181-182.

- Levisse Touze Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., pp.

³ - Archives des MAE, seconde guerre mondiale, Vichy-Maroc 1939-1945, dossier N° 55, colonisation, carton N°14, folios de 76 et 77. Voir :

- Echaoui Mohamed, Evolution de l'Economie marocaine..., op.cit., p 182.

- Levisse Touze Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., pp.

⁴ - Rapport des Renseignements généraux, année 1949. (Cite par Echaoui..., Evolution de l'Economie..., op.cit., p 184.

التركيز على الزراعة بالرغم من وجود حواجز جبلية على إحدى الوجهتين البحرية التي تطل عليهما تونس.¹ و من خلال استحضار أسس السياسة الاقتصادية الفرنسية في تونس، نلاحظ بأنها كانت زراعية بالدرجة الأولى مبنية أساسا على حركة استيطانية واسعة و منظمة، ثم ظهور نوع جديد من الفلاحة مبني على تطور قطاع متوازي قائم على المضاربة. ساهم في انتشاره الغموض الذي كان يلقي بظلاله على طبيعة الملكيات العقارية، خاصة الريفية منها، التي كانت خاضعة لجملة من القواعد و القوانين العشوائية.²

بالعودة إلى الأوضاع الاقتصادية التي سادت تونس عقب الاحتلال الفرنسي للبلاد، نجد أنها تشابهت إلى حد بعيد مع ما طبقته فرنسا في الجزائر بخصوص الأساليب المتبعة لسلب أراضي التونسيين التي كانت ملكا استثنائيا للبايلك، و مواصلة نزع الملكية الزراعية و وضع حدود للأراضي التقليدية.³ و لم يكن ذلك نابعا إلا من سياسة واضحة المعالم و هي إبعاد كل القوى الأوروبية الأخرى المنافسة على تونس حتى تتمكن فرنسا من الإنفراد بالجمال الاقتصادي التونسي.⁴

و لما نظر إلى الإستراتيجية الاستعمارية المتبعة من طرف فرنسا في المجال الاقتصادي فنجد أنها اتجهت بشكل كبير نحو رعاية مصالحها الرأسمالية بتشجيع حركة الاستيطان لذلك تركز النشاط الاقتصادي على الإنتاج الزراعي و استغلال الموارد الطبيعية و من ثم ربط تونس باقتصاد المتروبول حتى تتسع دائرة التعاملات الرأسمالية إلى قطاعات حساسة كالتجارة و الصناعة و المالية، مع إعادة النظر في عملية توزيع العقار تخدم أكثر مصالح الأقلية الأجنبية المتواجدة في تونس، الأمر الذي سيقضي حتما على الاقتصاد المحلي.⁵ كان على الإدارة الفرنسية تحديد طبيعة الأراضي "المالحة" Salines المنتشرة حول مدينة صفاقص⁶ حتى يتسنى لها إصدار قرارات عدم الغرس أو البيع لهذه الأراضي ما دام أنها خاضعة للنظام الجماعي. و أيضا

¹ - Poncet (Jean), La colonisation et l'agriculture européenne en Tunisie depuis 1881, éditions Mouton & Co, Paris, 1961, p 181.

² - Vibert (Jean), « Tableau de l'économie Tunisienne », In bulletin économique et social de la Tunisie, n° 6, 4^{ème} trimestre, année 1955, pp 54-67.

³ - قامت مديرية الفلاحة الفرنسية برفض التنازل عن أراضي زراعية مقابل 10 فرنكات باعتبار أن قيمتها الحقيقية فاقت 1000 فرنك فرنسي كما حددها مرسوم سنة 1892. كما أقدمت أيضا بموجب 2 جانفي 1895 إلى إنشاء لجنة مشتركة مهمتها تحديد حدود الأراضي التقليدية حتى تتمكن من معرفة المساحات الحقيقية المتبقية للتنازل عنها دون إلحاق الأضرار باليد العاملة و الغذاء و القطيع المحلي المتواجد خاصة في ضواحي مدينة "صفاقص". لمزيد من المعلومات ينظر:

- Poncet Jean, La colonisation et l'agriculture européennes..., op.cit..., p 182.

⁴ - Amin (Samir), L'Economie du Maghreb..., op.cit..., p 23.

⁵ - Ibid..., pp 23-43.

⁶ - اتخذت السلطات الفرنسية عدة إجراءات بشأن الأراضي "السيالية" الواقعة حول مدينة صفاقص حيث سلمت إلى عدد من كبار المستثمرين الفرنسيين بأثمان رمزية قدرت بـ 10 فرنكات للهكتار الواحد. و بهذه الطريقة تمكنت الدولة من أن تفوت في أكثر من 150000 هكتار من الأراضي السيالية، منها حوالي 28000 هكتار لشركة صفاقص-قفصة و حوالي 45000 للسكان المسلمين. في مقابل ذلك، تم توسيع القاعدة العقارية للمعمرين في بقية المناطق. حيث تمكن المزارعون الفرنسيون من الحصول على 140000 هكتار من أملاك الدولة فيما بين سنوات 1892 و 1914. و هكذا أصبح مجموع الأراضي الخاضع للسيطرة الفرنسية المباشرة يغطي 560000 هكتار يضاف إليهم 130000 هكتار كانت ملكا للأوروبيين غير الفرنسيين. لمزيد من التوضيحات ينظر كل من:

كون هذه الأراضي منحت للقبائل الرحل على أساس التمتع بها، مثل ما جاء في قرارات التمتع التي منحت لبعض القبائل الرحل التي كانت تحمل كتابات و أسماء لقبائل منها: أراضي العوينات، مجرى الشماترة، أراضي القبائل الخمسة، أراضي أولاد أحمد، أراضي الرحابات.. كل هذا من أجل حث السكان على الانتقال من حالة الترحال إلى حالة الإقامة.¹

و برزت شخصية "الحبيب بورقيبة" كزعيم للاتجاه الجديد الذي يريد بناء الوطن التونسي على أسس اجتماعية و سياسية حديثة. و نلاحظ أن جريدة "العمل"، التي كان يكتب فيها، كانت تعالج موضوعات اجتماعية و اقتصادية لم يهتم لها المحافظون القدامى. من ذلك مثلاً الدعوة إلى تشجيع الصناعة القومية و التنديد بفتح تونس للبضائع الأجنبية دون قيد. و كذلك التفرقة بين الموظفين التونسيين و الفرنسيين في الأجرة، و إرهاب الميزانية التونسية الضئيلة من أجل أحد عشر ألف من الموظفين الفرنسيين الذين يتمتعون بامتيازات عظيمة. و قد اهتمت الجريدة بصفة خاصة بموضوع تحرير المرأة من تقاليد الماضي. و المطالبة بفتح جميع ميادين العمل و التعليم أمامها.² كما أثار الشبان في صحيفتهم احتجاجات قوية على نظام الخماسة الذي يحرم الفلاح من ثمرة عمله، فلا يعطيه الحق إلا في خمس المحصول الذي ينتجه بينما يستولي مالك الأرض على الأربعة أخماس المتبقية.

1- الاقتصاد التونسي من النظام الجمركي إلى التجارة الخارجية

إن الميزة الرئيسية التي تنطبق على الاقتصاد التونسي، هو أنه اقتصاد متخلف، من حيث العلاقة التي تربطه مع فرنسا. لأنه كان على الوزير الفرنسي للمستعمرات أن يعتبر نفسه مدعماً لوزير التجارة في اجتماعات السلطات العمومية الفرنسية التي كان عليها أن تدعم التبادل التجاري بين البلدين، في ظل البحث عن وضع أسس لنظام جمركي بينهما.³

لأن النظام الجمركي الذي كان سائداً قبل فرض الحماية تمثل في تطبيق التعريف التقليدية المعروفة بـ 8% على كل المواد الأجنبية التي تدخل المنطقة التونسية.⁴ كما أن قلة الحقوق المفروضة على الواردات قد تؤدي إلى نتائج كارثية على اقتصاد الأيالة التونسية، الأمر الذي دفع بالحكومة إلى فرض ضرائب على الصادرات حتى تضمن بعض الموارد.⁵

- Poncet Jean, La colonisation et l'agriculture européennes..., op.cit., p 183-185.

- الشاطر خليفة، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 49-50.

¹ Desbois (Jean), pp 414-415. (Cité par Poncet Jean, in La colonisation et l'agriculture..., op.cit., p 182).

² - العقاد (صلاح)، مرجع سابق...، ص 330.

³ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine de Ferry a Bourguiba 1881-1956, L'Harmattan éditions, histoire et perspectives méditerranéennes, Paris, 1993, p 117.

⁴ - Gallissot (René), L'économie de l'Afrique du Nord, Q.S.J., op.cit., p 33.

⁵ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 118.

كما أن الاتفاقيات التجارية التي أبرمتها تونس مع إيطاليا سنة 1868 لمدة 28 سنة و مع إنجلترا سنة 1875 لمدة غير محدودة، قد فرضت منطق الدول القوية. و ما كان على فرنسا، بعد اتفاقية باردو لسنة 1881، إلا أن تتقبل ذلك الإرث الكبير، و أصبحت هي الدولة الضامنة للتطبيق الجيد لهذه الاتفاقيات التي تمت بين "باي" تونس و الدول الأجنبية.¹

كانت تبدو الوضعية معقدة نوعا، حيث لم يكن من الممكن تفضيل المواد الفرنسية على مواد الدول الأخرى في تونس. لأن أي مزايا تحصل عليها فرنسا في تونس تنعكس إيجابا على باقي الدول الأخرى. و في المقابل، لم تكن هناك دوافع تمنع منح المواد التونسية الأفضلية في فرنسا. و جاء قانون 19 جويلية 1890 ليقر الإعفاء الجمركي داخل المتروبول للمنتجات التونسية التالية: الحبوب و الزيوت و الدواجن، و بأثمان منخفضة، الخمور. و الكل في حدود الكمية السنوية المتفق عليها. علما أن هناك إجراءات قد اتخذت لضمان عدم دخول المواد الإيطالية إلى التراب الفرنسي، منها أن السفن الفرنسية المسؤولة على عمليات شحن البضائع من الموانئ التونسية إلى الموانئ الفرنسية مجبرة على عدم التوقف إلى غاية وصولها إلى التراب الفرنسي أين كان عليها أن تقدم شهادة أصلية مسلمة من طرف مصالح المراقبة المدنية و مؤشر عليها من طرف إدارة الجمارك. كانت المراسيم المنظمة لعملية التبادل التجاري بين البلدين تتغير في كل سنة، خاصة خلال العشرية الأولى لفرض نظام الحماية على تونس، عندما سمحت الإجراءات الجديدة بتطوير الصادرات التونسية نحو فرنسا و التي قفزت من 20% إلى قرابة 50% من المبيعات الإجمالية الخارجية. مما سمح باستبدال عملة "البياستر" Piastre بـ Franc بداية من سنة 1890 وإدخال "النظام المترى" Système Metrique و تحديث موانئ تونس و بنزرت.²

غير أن الحاجز الوحيد الذي أعاق تطور مشروع الوحدة الجمركية التونسي الفرنسي، هو قرب المسافة بين تونس و موانئ إيطاليا، الأمر الذي جعل أثمان مواد البناء تشهد انخفاضات كبيرة قد تغلق السوق التونسية نهائيا أمام المنتجات الفرنسية لأنها لن تستطيع تحصيل فارق 10 إلى 15% الذي يمثله السعر الحالي. فاستغلت الحكومة الفرنسية قرب انتهاء صلاحيات الاتفاقيات بين تونس و الدول الأجنبية الأخرى، خاصة منها الاتفاقيات الإيطالية التونسية لسنة 1868، لتحاول الدبلوماسية الفرنسية من افتكاك تونس من مخالب تلك الاتفاقيات المحففة لتتبعوا مكانة مرموقة في تبادلاتها مع تونس..³

¹ - Ibid..., p 118.

² - بالرغم من هذا النشاط التجاري المتواصل بين فرنسا و تونس، إلا أن ذلك لم يرضي الأوساط الاقتصادية الفرنسية التي كانت تريد المزيد من الامتيازات و عملت كل ما في وسعها لأجل الوصول إلى تحقيق "الوحدة الجمركية" Union Douaniere، على غرار ما كان موجود بين الجزائر و فرنسا منذ صدور قوانين 1851 و 1867 التي ساهمت في تحقيق ¼ التبادل التجاري بين البلدين. لذلك اهتم الكولون و المستوردين الفرنسيين بالقضية نظرا للأفاق التي كانت توفرها عملية مماثلة مع تونس. أنظر:

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit..., p 118.

³ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit..., p 118.

تأرجح النظام الجمركي التونسي بين القوانين و المراسيم الصادرة عن الباي، لتمكن فرنسا بذلك من الحصول على معاملة مميزة حيث أصبح جزء من بضاعتها معفى من الحقوق الجمركية، بينما الجزء الآخر خاضع لدفع حقوق زهيدة. غير أنه طرأت تغيرات بداية من سنة 1904 بفعل قانون ألغى "نظام الحصص" Contingement على دخول الحبوب التونسية لفرنسا، مما ساهم في تطوير زراعة النباتات الموسمية العصرية في شمال تونس. ثم توسعت قائمة المواد المعفاة من الضرائب لتشمل الفواكه و الزراي خلال سنوات 1914-1915.¹

حاولت العديد من الغرف التجارية في تونس، على غرار غرفة تونس و بنزرت و سوسة ، و في فرنسا كغرفة مرسيليا و ليون، بأن تسعى لتحقيق نفس الهدف . و بعد نقاشات عسيرة، اضطرت السلطات الفرنسية إلى قبول مبدأ الوحدة الجمركية المحدودة سنة 1928.² غير أن ممثلي الكروم في المتروبول رفضوا الفكرة من أساسها، لأنها تمس حسبهم بمسألة الإعفاء الجمركي للخمور. و اعتبروا أن مبدأ "المعاملة بالمثل" هو الذي يجب أن يسود المبادلات التجارية الفرنسية التونسية.³

لقد طورت تونس خلال الحرب العالمية من مستوى بعض المنتجات الزراعية في إطار ما عرف بضمان أمن التموين بخصوص السكان، مما جعل الحكومة تقوم بتأمين البضائع في إطار الوحدة الجمركية، غير أن عددها كان يقارب 8000 بضاعة في حين أن 250 منها فقط كانت خاضعة للإعفاء. و قد أدى ذلك إلى مضاعفة حصة فرنسا في التجارة الخارجية التونسية بشكل تدريجي تمت على النحو التالي:⁴

صادرات و واردات	خلال سنوات 1904-1913	خلال سنوات 1928-1938
صادرات تونسية نحو فرنسا	47%	56%
واردات تونسية من فرنسا	55%	65%

أما عن بنية التجارة الخارجية التونسية، فكانت تشير إلى أن العلاقات التجارية بين تونس و فرنسا قد وجدت حتى قبل فرض الحماية الفرنسية. حيث كان تجار مرسيليا يشترون المواد الأولية الفلاحية الضرورية

¹ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 119.

² - صدر قانون الوحدة الجمركية في 30 مارس 1928. أنظر:

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 119.

³ - إن الوحدة الجمركية الشاملة كانت تؤدي بتونس إلى تكبد خسارة كبيرة تتمثل أساسا في فقدانها لحررتها في التعامل مع الدول الأخرى، و بالتالي التأثير على اقتصادها. لأنه في هذه الحالة كانت البضائع الفرنسية كلها تخضع لنظام الإعفاء الجمركي، وبالتالي تصبح كل البضائع الأجنبية خاضعة للتعريف الجمركية الفرنسية. لمزيد من التوضيحات أنظر:

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 119.

⁴ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., pp 119.120.

لتطوير صناعتهم، بواسطة سماسرة إسرائيليين. و في الاتجاه الآخر، كانت البضائع الأوروبية المصنعة تباع بسهولة كبيرة في تونس.¹

لقد مكنت كثافة المبادلات التجارية بين البلدين من خلق طرق تجارية بحرية منتظمة ما بين موانئ مرسيليا و جنوه و باليرمو من جهة، و تونس من جهة أخرى. و أصبح ميناء "لاقولات" La Goulette، لوحده يضمن 90 % من الواردات و 44 % من الصادرات و بالتالي فهو الحبل السري للبلاد. أما موانئ، سوسة و المونستير و مهدية، فكانت متخصصة في تصدير الزيوت التي كانت تمثل أهم المبيعات نحو الخارج.²

هكذا أصبحت المبادلات الثنائية الفرنسية التونسية تسيطر على التجارة الخارجية التونسية في الفترة التي امتدت من ظهور أول قانون حول تجارة الحبوب في 1904 إلى غاية سنة 1954 حين ارتفعت حصة فرنسا. و باستثناء بعض السنوات المناسبة، بقيت التجارة الخارجية تعاني عجزا واضحا، نظرا لارتفاع الواردات التي لم تكن تمثل منها الصادرات سوى الثلثين 3/2. إذ لاحظنا خلال الفترة الأولى من 1882 إلى 1920 فائض في حوالي سبع سنوات أي بمعدل سنة جيدة كل ست سنوات. إلا أن الإحصائيات المقدمة خلال الفترة الممتدة من 1920 إلى غاية 1955 قد أظهرت سنتين متميزتين هما 1941 و 1942. و قد أرجعها البعض إلى حالة الحرب التي تقلصت فيها الواردات بسبب ندرة البضائع في البلدان الصناعية، من جهة، و تشجيع الصادرات باستعمال متواصل لبعض المواد التي كانت مهمة في وقت سابق.³

نتج العجز الكبير بسبب البنية التي كانت عليها التجارة الخارجية التونسية، حيث كانت تونس تستورد البضائع بأثمان باهظة ثم تبيعها بأثمان زهيدة. هذا الواقع يجزنا إلى القول بأن الاستعمار الفرنسي سيطر على التجارة الخارجية التونسية بحكم العلاقة التاريخية التي كانت تربطه بتونس ما جعلها تنضوي تحت مظلتها، فاستفادت بذلك من عدة مزايا حققت بها أهدافا هامة منها:

- تبوء التجارة الفرنسية مكانة مرموقة بتونس و تفوقها على الدول المنافسة لها.
- العمل على دعم مصالح المستوطنين الفرنسيين، خاصة، و الأوروبيين عامة، حيث استحوذ كبار المزارعين على أكبر حصص في إنتاج المواد الأولية الفلاحية ثم بيعها في السوق الفرنسية بأثمان مرتفعة.
- غزو المواد الفرنسية المصنعة للسوق التونسية و بأثمان مرتفعة عما هو معمول به في الأسواق الخارجية الأخرى.⁴

أما فيما يتعلق بقضية الألبسة، فأصبحت الوضعية مقلقة جدا بالنسبة لكل منطقة شمال إفريقيا، نظرا لوجود معظم المصانع النسيجية تحت السيطرة الألمانية. بالإضافة إلى تقليص الواردات من النسيج من المتروبول حيث أصبح ثمنها بعيد كل البعد عن إمكانات السكان المسلمين. أما في القرى و في ظروف التوزيع المجاني

¹ - Ibid., p 120.

² - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 120.

³ - Ibid..., p 121.

⁴ - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ص 57-58.

على الفقراء، كان شخص واحد من بين 25 يتحصل على الألبسة. و قد وصل الأميرال "إيستيفا" إلى هذه الحقيقة عندما صرح: "إن النساء و الأطفال في القرى يمرون بظروف كارثية نظرا لنقص الألبسة، فهم عراة في غالبيتهم. و يلزمنا آلاف الأطنان من القطن و ليس المائة أو المائتين التي تصلنا من أمريكا أو من فرنسا..¹" بينما بقيت للمناجم في مستوياتها حتى تمكن المصانع من الإبقاء على جزء من نشاطها. حيث أصبحت تنتج مادة "اللينيت"² Lignite التي عوضت جزء من الفحم المستورد من بلاد أغال. غير أن مناجم الفوسفات و الحديد وجدت نفسها مجبرة على تسريح كل أو نسبة من عمالها، و ذلك بسبب نقص الوقود باستثناء شركة "قفصه". إذن المجهود الحربي كان ضخما بالنسبة لكل بلدان منطقة شمال إفريقيا، و كان عليهم إيجاد شركاء تجاريين جدد حتى يعيدوا إحياء النشاطات التجارية ما بين المستعمرات و قد تم ذلك فيما بين سنوات 1941 و 1942.

2- الإنتاج الزراعي بين واقع الأرض و حتمية القروض

مارست فرنسا النهب العقاري على الأراضي و الأملاك التونسية منذ 1892. لتقوم بتدعيمه بترسانة من القوانين مهدت لترسيم السياسة الاستعمارية الفرنسية العقارية في تونس. حيث شهدت البلاد إقبالا كبيرا للمزارعين الفرنسيين، على غرار ما تم في الجزائر، للاستقرار في المناطق الداخلية. الأمر الذي ساهم في ظهور زراعة المضاربة بفعل التقاء الرأسمالية الأوروبية بالاقتصاد التونسي في محاولة لفصل تونس عن محيطها "الجيو-سياسي" الطبيعي و إدماجها في بوتقة الاقتصاد الغربي.³

بدأت عملية امتلاك المستثمرات الكبرى من طرف الأوروبيين قبل فرض الحماية الفرنسية على تونس، لما شرع بعض السماسرة في شراء بعض الحقوق على الأراضي التي كان يمتلكها كبار الإقطاعيين التونسيين. و لعل قضية مستثمرة "الأنفدى"⁴ Enfida التي أسالت الكثير من الخبر، هي من الأسباب التي أدت إلى فرض الحماية الفرنسية على تونس. يظهر لنا من كل هذا أن اقتصاد الاستعمار الرسمي كان، منذ الحرب، مبني على القروض. بحيث أصبحت الدولة أول دائن Créancier للمستعمرة الريفية و لكن تحت إشراف "الدومين"

¹ - En échange des vivres livrés à la Libye, la Tunisie obtint des tissus italiens mais la qualité étant décevante, il n'y eut pas d'autres achats. Voir : Levisse Touze Christine, L'Afrique du Nord dans la guerre..., op.cit., p 139.

² - هي مادة متكونة من الخشب المتفحم و تستعمل كوقود في الاستعمالات اليومية للمنازل و البيوت.

³ - الشاطر (خليفة) ... مرجع سابق... ص ص 49-50.

⁴ - تعتبر ملكية "الأنفدى" من الملكيات الكبيرة التي تعود إلى أملاك "البابك" منذ الفترة العثمانية. و قد تمت مصادرتها من طرف "الباي" على حساب قبيلة "أولاد سعيد" الثائرة. ثم قدمه للوزير "خيرالدين" الذي بدوره قام ببيعه "للشركة الفرنسية المرسيلية" Societe Marseillaise. أنظر كل من:

- Poncet Jean, La colonisation et l'agriculture européennes..., op.cit., pp 316-317.

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine ..., op.cit., p 68.

- Gallissot René, L'économie de l'Afrique du Nord..., op.cit., p 40.

Domaine أو تحت غطاء "صندوق القرض للتعاودية الفلاحية" و مختلف المستثمرات الفلاحية إلى جانب بعض البنوك الجزائرية و التونسية.

عرفت الأزمة الزراعية الكبرى التي مست تونس خلال سنوات 1932 إلى 1936، أعلى مستوياتها سنة 1934. و يمكن اعتبارها كإحدى النتائج للتحولات التي طرأت في فترة ما بين الحربين، فضلا عن توجه الاقتصادي الذي انتهجته الزراعة الأوروبية في تونس. كما اعتبرت نقطة بداية لسن جملة من التشريعات القانونية و الإدارية و المالية، التي سوف تنتهي بتغيير عميق لحركة القطاع الفلاحي في تونس.¹ هذه الأزمة التي عرفت الزراعة التونسية تشبه إلى حد بعيد تلك الأزمة التي لحقت بالجزائر خلال نفس الفترة و التي امتدت إلى غاية سنة 1937.²

إن التطور السريع الذي عرفت الزراعة بفضل وجود المكننة، قبل الحرب العالمية الثانية، راجع إلى تطور أساليب العمل الزراعي و اتساع المساحات المزروعة مما ساهم في إيجاد مردود كبير للإنتاج. و تم ذلك بفضل القروض الكثيرة التي قدمتها الدولة الفرنسية بداية من سنة 1935. و الأرقام المبينة في الجدول التالي تظهر جليا بأن "القروض هي التي ساهمت في تثبيت الاستعمار منذ بداية الحرب".³

عدد الملكيات	المساحة بالهكتار	المساحة الإجمالية	قيمة القروض المقدمة	ملاحظة
60 ملكية	من 1 إلى 50 هـ	1249 هكتار	9956800 فرنك	
200 ملكية	من 50 إلى 250 هـ	29315 هكتار	66052300 فرنك	
67 ملكية	من 250 إلى 500 هـ	22500 هكتار	25740600 فرنك	
42 ملكية	أكثر من 500 هـ	45594 هكتار	42146400 فرنك	
المجموع	-----	98658 هكتار	143896300 فرنك	

¹ - Poncet (Jean), La colonisation et l'agriculture européennes..., op.cit., p 317.

² - مثلت سنة 1937 المنعرج الرئيسي للأزمة الريفية في الجزائر حيث أدرك الاستعمار خطورة الوضع بعدما ظهرت عدة بؤر للتوتر في مختلف مناطق البلاد، عامة، و في عمالة وهران خاصة. حيث شهدت منطقة سيدي بلعباس إضراب العمال الزراعيين في بلدية "مرسي لاكومب" سفييف حاليا، مرتين متتاليتين في أشهر مارس و جويلية من سنة 1937. و نفس الواقع عانت منه مدينة عين تموشنت. في الحقيقة، إن طبيعة الأزمة الريفية تتمثل في الواقع المر للجزائريين الذين وضعوا تحت سلطة الحاكم الإداري و القياد في البلديات المختلطة. و بذلك حرموا من أدنى الحقوق التي كان يتمتع بها غالبية الكولون. و اصطدم الجزائريون بنظام استعماري جائر حطم تركيبتهم الاجتماعية و حياتهم الثقافية و حتى قاعدتهم الاقتصادية التي كانت قائمة على خدمة الأرض و ممارسة حرفة الرعي. و هكذا وصل الاستعمار إلى قمة إنجازاته فجعل من الأوروبيين أسيادا في بلاد غريبة عنهم، بينما سخر أهلها عبيدا عندهم، فأصبحوا بذلك فلاحون بدون أرض. لمزيد من المعلومات ينظر إلى:

- عبيد أحمد، "صورة من صور مقاومة أهل سيدي بلعباس للاستعمار الفرنسي"، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس، 12-13 نوفمبر 2001، جامعة الجليلي لبايس، ص ص 135-140.

- جاء في الصفحات الأولى لجريدة La Gazette de Ain-Temouchent التي نشرت يوم الخميس 4 مارس 1937، نداء للحاكم العام للجزائر "جورج لوبو" يطلب من الجزائريين تهدئة الأوضاع و وضع حد لمختلف الاضطرابات.

³ - وضع هذا الجدول انطلاقا من الأرقام التي قدمها "جون بونسي" في كتابه حول الاستعمار و الزراعة الأوروبية في تونس. أنظر: -Poncet Jean, La colonisation et l'agriculture..., op.cit., pp293-294.

بقي الإنتاج من الحبوب مقبولا عموما في كافة البلاد، غير أنه خلال سنة 1941، عرفت مناطق الوسط و الجنوب مراحل جفاف هامة بسبب الظروف المناخية القاهرة التي أدت إلى إتلاف كميات كبيرة من منتوج الحبوب و الزيتون. كما أصاب زراعة العنب مرض "الفيلوكسيرا" ¹ Phylloxera حيث تدهور الإنتاج إلى النصف عما كان عليه سنة 1940.

أما العلف فتراجعت كمياته مما صعب تغذية الأبقار الحلوبة. و كان على الفلاحين الرفع من كميات إنتاج الحليب نظرا لتقليص الواردات من هذه المادة الإستراتيجية. كما عان السكان من ندرة اللحوم، لأنه لم يكن مسموح ببيعها إلا خلال ثلاثة أيام في الأسبوع فقط. و نظرا لنقص إمكانيات النقل، اضطرت السلطات الاستعمارية إلى توقيف نقل مادة الفوسفات نحو المناطق التي كانت تعاني نقصا فادحا في إنتاج الحبوب.² بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، تطورت حركة استثمار المستعمرات. فتواصلت عملية التنازل عن الأراضي لفائدة زراعة الحبوب في الشمال الغربي من تونس، و غرس أشجار الزيتون في المناطق السهلية. أما أراضي الكروم فقد فاقت 50000 هكتار سنة 1933. و قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بترسيم حدود الأراضي الجماعية مع سنة 1935. تواصلت حركة الاستثمار الاستعماري بالرغم من الأضرار التي خلفتها حملة الحلفاء على تونس خلال سنوات 1942 إلى 1943. و عموما فقد تواصلت الحركة الاستعمارية الاستثمارية لتونس على المراحل التالية:³

- سنة 1913..... 550000 هكتار

- سنة 1939..... 750000 هكتار

- سنة 1950..... 800000 هكتار.

كان على التونسيين مواجهة شتى الأخطار الناتجة عن الوضعية التي أفرزتها الحرب على الصعيد العسكري و الغذائي على حد سواء. و الأزمة التي عرفتها تونس من المواد الغذائية بدأت مع بداية الحرب سنة 1939 و اشتدت مع مطلع سنة 1940 بفعل الصعوبات التي واجهت العلاقات التجارية الدولية بشكل عام، و الفرنسية مع مستعمراتها بشكل خاص.

و قد أصدرت الإدارة الاستعمارية في شمال إفريقيا مراسيم و تعليمات خاصة بالتعاون المشترك في المجال الاقتصادي، و التي سمحت بالتبادل التجاري بين الجزائر و المنطقة الفرنسية في المغرب من جهة، و بين الجزائر و تونس من جهة أخرى، و كان يهدف الإجراء إلى ضمان تنسيق كبير و منح تسهيلات لكل التيارات

¹ - "الفيلوكسيرا" مرض يصيب العنب و يؤدي إلى إتلاف كميات كبيرة من الإنتاج أو مت أشجاره.

² - Archives des MAE, seconde guerre mondiale, 1939-1945, Vichy-Tunisie, Vol.12, n° 6720, correspondance du général Esteva au général Weygand du 5 octobre 1941, concernant la Tunisie. 500 wagons à marchandises sur le réseau à voie normale ; 1500 wagons sur la voie étroite. (Cite par : Levisse Touze..., L'Afrique du nord dans la guerre..., op.cit., p 139).

³ - Gallissot (René), L'économie de l'Afrique du Nord..., op.cit., p 41.

التجارية المساهمة في الاقتصاد الحربي. و قد استثنت هذه القرارات، بعض الحيوانات و المواد التي تضمنتها، بحجة توفيرها لتلبية حاجيات الجيوش و السكان المدنيين.¹

هذه الوضعية المفروضة على فرنسا الاستعمارية، دفعت بإدارتها إلى الحد من استهلاك بعض المواد. مما أجبرها إلى إصدار قرار في 26 سبتمبر 1940، ينظم عملية التوزيع و يستحدث بطاقة الاستهلاك للمواد الغذائية و التي بموجبها تمت عملية "تقنين" مواد واسعة الاستهلاك مثل؛ السكر و الشاي و القهوة و الزيت و الصابون. كما أضيفت عدة مواد بديلة في بعض المنتجات الزراعية، خاصة الشعير في مادة القهوة.

ازدادت الوضعية سوءا بعد نوفمبر 1942، حيث تواصلت عملية نهب و استنزاف خيرات البلاد من طرف المستعمر، ما جعل الحصص للسكان تتراجع و ترتفع معها المواد المقننة. هذا ما دفع بالسلطات الفرنسية إلى ترسيم "بطاقة الخبز"، و حتى بعض المحلات التجارية الكبرى، على غرار "مونوبري" و "جنرال مقازين" Monoprix et Magasin general لم تعد تفتح سوى ثلاثة أيام في الأسبوع. و بهذه الأزمة الغذائية ارتفعت الأسعار باستمرار و توسعت معها السوق الموازية أو السوداء بظهور المضاربين و السماسرة و الانتهازيين. و الجدول التالي يعطينا بعض الأمثلة الواضحة عن ذلك:

المواد	التمن الرسمي	في السوق السوداء	الحصة الشهرية
الخبز	5.20 فرنك / كلغ	من 35 إلى 50 فرنك	250 غ
اللحوم	77-85 فرنك / كلغ	125-200 فرنك	—
السكر	9 فرنك / كلغ	40 إلى 50 فرنك	300 غ
القهوة	19.80 فرنك / كلغ	90-120 فرنك	200 غ
الزيت	28 إلى 33 فرنك	من 70 إلى 80 فرنك	1/2 لتر شهريا
السكر	85 فرنك	1200-1500 فرنك	20 غ

المراجع: Martin Jean Francois, Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 141

3-التونسيون و الحالة الاجتماعية القاسية

شهدت التركيبة السكانية و التنظيم الاجتماعي تغيرات كبرى داخل تونس بفعل الحركة الاستيطانية الواسعة التي مارستها فرنسا منذ احتلالها للأراضي التونسية، إلى جانب الوجود الإيطالي، أين حاولت تشجيع حركة إعمار واسعة بفضل الامتيازات التي منحتها للكلون لاستغلال الموارد الطبيعية، و بالتالي ربط الاقتصاد

¹ - تضمن عرض مقدم من مصالح التموين الفرنسية حول الإجراءات الهامة المتخذة ما بين العاشر و السادس عشر سبتمبر 1939 للحفاظ على السير العادي للحياة الاقتصادية، و عملية تموين الجزائر و تونس و المغرب و المتروبول. كما طلبت السلطات الاستعمارية من المغرب بتخصيص حصة معتبرة من مختلف الحيوانات لإرسالها إلى الجزائر. و فعلا استعد المغرب لتلبية هذه الطلبات بإرساله 3.500 رأس من الأبقار و 1.500 من رؤوس الخنازير إلى الجزائر كل شهر. أنظر إلى:

- ANOM, GGA, 3cab/3., Arrêtés des 11 et 13 septembre 1939.

التونسي باقتصاد المتروبول و منه توسيع دائرة المبادلات على جميع النشاطات التجارية و الصناعية و المالية.¹ حيث أصبحت ظروف تونس هي الأخرى صعبة بفعل الهجرة المتزايدة إليها من المتروبول، حيث وصلت إلى 1000 مهاجر شهريا خلال سنة 1941.² كما انتشرت البطالة بخاصة في الأوساط التونسية و الإيطالية. أصبحت تونس مع بداية الثلاثينات، تعيش عهدا جديدا من النمو السكاني زادت من متاعبه الأزمة الاقتصادية العالمية، التي زادت من متاعب التونسيين، بالدرجة الأولى. و لوحظت هذه الحيوية الديمغرافية في فترة ما بين الحربين العالميتين عندما قدمت إحصائيات رسمية تظهر بوضوح السلم التصاعدي لحركة النمو السكاني في تونس إذ بلغت نسبة هذا النمو حوالي 6.8% بين سنوات 1919 إلى 1923، و ارتفعت إلى 15.7% خلال سنة واحدة فقط، أي من سنة 1944 إلى سنة 1945.³

أ- معطيات أساسية عن النمو الديمغرافي

شهدت تونس حركة نمو سكاني كبيرة تحت سلطة الحماية، حيث قفز عدد السكان المسلمين من 1.400.000 نسمة سنة 1881 إلى 3.400.000 نسمة سنة 1956.⁴ غير أن عملية تنظيم الإحصاء السكاني في تونس انطلقت بداية من سنة 1921، و سارت بانتظام على مراحل كل خمس سنوات باستثناء عندما توقفت لظروف الحرب العالمية الثانية. و بالرغم من التطور الملحوظ على هذه العمليات، إلا أن النتائج التي أفضت إليها لم تكن في مستوى تطلعات مصالح الإدارة الاستعمارية الذين وجدوا فيها اختلالا بسبب قلة الإمكانيات المادية و البشرية المسخرة لها، بفعل تصرفات السكان المسلمين الذين لم يعيروا اهتماما للعملية، خاصة في المناطق النائية من البلاد التونسية.⁵

بحكم قلة المعلومات و المصادر التي بإمكانها أن تكشف لنا عن حقيقة الأرقام المقدمة خلال فترة الدراسة لموضوعنا، ارتأينا تقديم هذه الصورة عن الوضع الديمغرافي لتونس، انطلاقا من مقارنته مع ما حدث في الجزائر عندما قدمت دراسة بإحصائيات مست 30 مدينة جزائرية آنذاك، الأمر الذي جعل الملاحظات المدونة تؤخذ بجديده و تعمم على الوضعية في تونس.⁶

¹ - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 45.

² - من بين هؤلاء المهاجرين هناك شخصيات من العالم السياسي و الثقافي من أمثال: "إدغار فور" Edgar Faure، و "تيكسي فينيان كور" Texier-Vignancour، و "أندري جيد" André Gide. ينظر إلى :

- Bessis Juliette, La Méditerranée fasciste et l'Italie mussolinienne..., op.cit., p 291.

³ - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 45.

⁴ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 103.

⁵ - Lepidi (Jules), L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre, imprimerie officielle de la Tunisie, Tunis, 1955, p 17. In A.N.T.

⁵ - الشاطر خليفة...، مرجع سابق...، ص 96.

⁶ - Lepidi (Jules), L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., p 19.

و لعل كتاب "لويس شوفالي" المخصص "للمسألة الديمغرافية في شمال إفريقيا"¹ هو من الكتابات التي خصصت حيزا هاما للدراسات الديمغرافية في شمال إفريقيا، باعتبار أنه كان من الأوائل الذين اهتموا بالموضوع، حيث حاول إعطاء صورة عن المعطيات الأساسية للمشكلة من زاوية كثافة النمو الديمغرافي و انعكاساته على الأوضاع الاقتصادية، غير أن كل الأرقام المتعلقة بتونس، تعود إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، و هي بذلك مؤسسة على أساس المعلومات الجزئية أو تقديرات تقريبية.²

تظهر أهمية النمو الديمغرافي في الخصائص التالية: ارتفاع عدد الولادات و انخفاض في عدد الوفيات، و فائض هام و افتراضات هائلة. و بذلك فقد شكل هذا النمو الديمغرافي أهم حدث في التطور الذي حصل للمحمية في المدة الأخيرة. و لعل الأرقام المأخوذة من عمليات الإحصاء التي تمت خلال هذه السنوات تعطينا فكرة واضحة عن تطور السكان في تونس خلال كل هذه المراحل:

العدد بالنسمة

الجنسيات	6 مارس 1921	20 أبريل 1926	22 مارس 1933	12 مارس 1936	1 نوفمبر 1946	تقديرات سنة 1954
الأوروبيون	156115	173281	195293	213205	239549	270000
الفرنسيون	54476	71020	91427	108068	143977	193000
التونسيون	1826545	1864908	2086762	2265750	2832978	3280000
اليهود	48436	54243	56248	56248	71543	70000
خليط أجناس	62843	67276	72389	69873	86882	60000
المجموع	2.093.939	2159708	2410692	2608313	2230952	3680000

المصدر: Lepidi Jules, L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre.., p 26.

نظهر لنا هذه الأرقام الإحصائية أن النمو الديمغرافي في تزايد مستمر من عقد إلى آخر، و قد تم على النحو التالي:

-تزايد عدد السكان التونسيين من 1911 إلى 1921 بنسبة 8%.

- تزايد عدد السكان التونسيين من 1921 إلى 1931 بنسبة 14%.

- تزايد عدد السكان التونسيين من 1936 إلى 1946 بنسبة 25%.³

إن النقص الملاحظ على تسيير مصالح "الحالة المدنية" في تونس، كان له الآثار في عدم القدرة على تحديد حالات الولادات و الوفيات بدقة كبيرة. إلا أنه لوحظ على التونسيين التصرف ببعض المسؤولية في

¹ - A ce sujet, voir l'ouvrage de Louis Chevalier, Le problème démographique Nord-Africain..., op.cit.

² - Lepidi (Jules), L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., p 17.

³ - Ibid., p 26.

الإعلان عن الولادات، خاصة، و الوفيات في الظروف التي أحاطت بالحرب العالمية الثانية، لما كان لها من فائدة على السكان بفعل عملية تقنين المساعدات الغذائية التي كانت تقدم لهم، و التي استمرت إلى غاية سنة 1948. غير أنه بداية من هذا التاريخ و بعد ما زالت المصلحة المادية، لم تعد هناك الحاجة لتقديم تصريحات دقيقة عن الحالة الاجتماعية لعائلاتهم، و لأن التونسيون لم يكونوا مهئين بعد، لمثل هذه الممارسات، فقد اعتمدت الإدارة الاستعمارية على النتائج المقدمة خلال سنوات 1945 و 1947، التي تتضمن أيضا عملية الإحصاء السكاني التي تمت سنة 1946¹.

لقد بينت الفترة التي اعتمدها الإدارة الاستعمارية كمرجعية لتحديد نسب الولادات و الوفيات، بأن معدل الولادات قد وصل إلى 410 نسمة لكل 10000 ساكن بالنسبة لمجموع مناطق البلاد. بينما في بعض المناطق الأخرى، خاصة منها المناطق الريفية لوسط و جنوب البلاد، فإن المعدلات مرتفعة و قد تصل إلى 490 نسمة. و في المقابل، نجد أن المناطق الشمالية التي تحوي على العاصمة تونس و بعض الأقاليم الحضرية و المستثمرات الفلاحية الكبرى، فإن المعدل فيها يتقلص إلى حدود 300 نسمة. ليستقر في الأخير في حدود 390 بالنسبة للسكان المسلمين. بينما نجد هذه المعدلات في المجتمع الأوروبي قليلة و ضعيفة بسبب قلة عدد السكان الأوروبيين بالتونسيين².

و لعل الجدول التالي يعطينا فكرة عن حجم الخصوبة و نسبة الولادات عند النساء التونسيات و الأوروبيات اللواتي حدد سنهن ما بين 15 إلى 49 سنة:³

فترة الدراسة	عند التونسيين	عند الأوروبيين
من 1934 إلى 1938	103
من 1945 إلى 1947	170	91

تبين لنا هذه الأرقام بأن النساء التونسيات لهن نسبة ولادة عالية جدا، بينما للنساء الأوروبيات فهي مرتفعة بالمقارنة لما نلاحظه عند بعض الدول الأوروبية.

كما أن مسألة النمو الديمغرافي في المجتمع التونسي، لا تعود فقط للنسبة المرتفعة للولادات، بل أيضا لتراجع نسبة الوفيات، التي قلت بسبب عوامل صحية و اقتصادية ساهمت في مكافحة معظم الأمراض و القضاء عليها، على غرار أمراض؛ التيفويد و الحمى الصفراء، و مرض الجذري و الكوليرا و مرض الطاعون.

¹ - Lepidi (Jules), L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., p 19.

² - Ibid..., p 19.

³ - Id., p 20.

إلى جانب تراجع بعض الأمراض التي كانت متفشية في الأوساط الاجتماعية، كالسيفيليس، المنتشر بكثرة عند الرجال، ومرض السل، و أمراض العين. كما كان لتطور الوسائل الصحية دور بارز في تراجع نسبة الوفيات.¹ إذن، فتحسين الظروف الصحية و الطبية ساهمت بدورها في هذه النتائج التي سمحت بمحاربة الأمراض التي كانت منتشرة في الأوساط الشعبية، بالرغم من عدم وجود قطاع الصحة العمومية، بالإضافة إلى قلة الإمكانيات التي كانت متوفرة آنذاك.²

إن الاستنتاج الذي نستخلصه من هذا النمو الديمغرافي المتزايد، هو تراجع نسبة الوفيات بمعدل 160 نسمة لكل 10000 ساكن، أي ما يعادل نسبة الوفيات في فرنسا خلال سنة 1910. بينما نسبة الولادات تساوي تقريبا ما حدث في المتروبول خلال القرن الثامن عشر. ذلك هو أساس المشكلة. لأن بالرغم من أن تونس قد استفادت من الإمكانيات الصحية و الطبية و الاجتماعية التي ساهمت في مضاعفة عدد السكان، إلا أنها في المقابل، لم تقم بتطوير الإمكانيات الاقتصادية و بالتالي الحصول على نمو مماثل يمكنها من استثمار الجهد البشري لتطوير آلة الاقتصاد التونسي.³

بالرغم من قلة العدد الإجمالي للسكان، إلا أن تونس عانت اكتظاظا سكانيا كبيرا بسبب عدم تناسب الكثافة السكانية مع الموارد الاقتصادية، مما أثر في رفع عدد البطالين بعدما كانت تعاني في السابق من أزمة في اليد العاملة. هذا الواقع أثر في نمط الحياة الحضرية، بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت نسبة

¹ - غير أن هذه النسب تبقى نسبية و متفاوتة بين السكان التونسيين المسلمين و الأوروبيين و عند اليهود من التونسيين، خاصة في شريحة الأطفال المولودين في نفس السنة و الذين لم يبلغوا السنة من العمر. و الإحصائيات المقدمة في هذا الشأن تعطينا فكرة واضحة عن هذا التفاوت، بحيث أن نسبة الوفيات في عدد 1000 طفل قد بلغت:

- 238 وفاة عند المسلمين في الفترة الممتدة من سنة 1940 إلى 1944. و تراجعت إلى 209 فيما بين 1945 إلى 1947.

- 100 وفاة عند الأوروبيين في الفترة الممتدة من 1940 إلى 1944. و تراجعت إلى 88 فيما بين 1945 إلى 1947.

- 100 وفاة عن اليهود من التونسيين في الفترة الممتدة من 1940 إلى 1944. ثم قفزت إلى 105 فيما بين 1945 إلى 1947. أنظر إلى:

- Lepidi Jules, L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., p 21.

² - نتحدث بعض المراجع عن وجود عدد قليل من الأطباء في تونس، مع بداية فرض الحماية الفرنسية. إلى جانب بعض المؤسسات الخاصة (دينية على وجه الخصوص، مع كل ما تحمله الكلمة من معاني. لأنه معروف عن الكنيسة المسيحية الأساليب المتتوية للقيام بعمليات التبشير الديني في الأوساط المسلمة المستعمرة.) مثل مستشفى "سان لويس" Saint Louis الذي أسسه "الأب فور كاد" L'Abbe Fourcade في مدينة تونس. و بقي القطاع الصحي لمدة طويلة حكرا في يد المبادرات الخاصة. لمزيد من الشروحات طالع:

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 103.

³ - في هذا المقام، حاولت الإدارة الاستعمارية أن تلتصق بالمسلمين التونسيين كل الأسباب التي تعيق صيرورة النمو الاقتصادي، و ذلك راجع لقابلية هؤلاء المسلمين للتكاثر دون الاهتمام بعواقب ذلك. و تعتبر الإدارة الاستعمارية أن الرفع من المستوى المادي و الثقافي للمسلمين، كفيل بأن يؤدي إلى تقليص من عدد الولادات. لأن التصنيع و التمدن و تعميم التعليم سوف يدخلون تغييرات كبيرة في طريقة تعامل المسلمين التونسيين مع مسألة النمو الديمغرافي. و قد لوحظ نوع من التراجع في عدد الولادات خلال الفترة الممتدة من 1948 إلى غاية 1954 أين وصل إلى 173 نسمة. أنظر إلى:

- Lepidi Jules, L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., p 21.

الشباب تفوق بكثير نسبة الكهول الأمر الذي فرض على الإدارة الاستعمارية البحث عن وسائل استثمارات جديدة في المجالات الصحية و تقوية البنية التحتية لمواجهة تحديات التزايد السكاني الكبير.¹

كما كان لظاهرة النمو الديمغرافي انعكاساتها من الجانب الاقتصادي بدليل ارتفاع عدد السكان التونسيين من 1.9 مليون نسمة سنة 1921 إلى 2.6 مليون نسمة سنة 1936. فتجلت التأثيرات الاجتماعية الأولى في انتشار ظاهرة البطالة مع ارتفاع عدد النازحين من القرى نحو العاصمة. فتفشيت ظاهرة التسول و انتشرت المجاعة و بدأت الأحياء القصديرية في البروز بضواحي العاصمة بالقرب من منطقة "الملاسين" و "الجبل الأحمر" مما أدى إلى تشويه المنظر العام للمدينة، التي شهدت بداية من سنة 1936 حركات نزوح متواصلة أكثر من أي منطقة أخرى. و ارتفع العدد من 330000 نسمة سنة 1936، إلى 600000 نسمة سنة 1946 ثم إلى 750000 نسمة سنة 1956، أي ما يعادل 1/5 عدد السكان الإجمالي. و الأخطر من ذلك، أن هذا الواقع الجديد أدى إلى اختلال التوازن بين الموارد و عدد السكان الذي كان في تزايد مستمر.²

بدأت عملية النمو السريع و المتواصل للسكان المسلمين تثير مخاوف السلطات الاستعمارية باعتبار أن نصف التعداد كان يقل عن العشرين سنة. الأمر الذي خلق مشكلة الطلب المتزايد على الاستهلاك و الخدمات، مما يعني أنه كان على هذه الإدارة الاستعمارية أن تجد الحلول لمسألة الشغل التي لم تكن مدرجة في اهتماماتها و أولوياتها لأن ببساطة الاقتصاد التونسي لم يكن مهياً لمثل هذه الأعباء الإضافية.³

كما أصبح الضغط الديمغرافي حاضرا في الأرياف، لأن الكولون الذين استحوذوا على 20% من أجود الأراضي الزراعية، لم يقوموا بتشغيل سوى 40000 فلاح تونسي دائم بسبب إدخال أساليب المكننة على مستثمراتهم. أما في باقي الأراضي الفلاحية التي تعتمد على التقنيات البدائية، فإن عدد الفلاحين كان مرتفعاً. لهذا قلت الأفاق في الأرياف. الأمر الذي دفع بالعديد من سكان الأرياف إلى الهجرة نحو المدن يحدوه الأمل في العثور على عمل.⁴

ب-تنظيم المجتمع التونسي بين حركة السكان و توزيعهم و نشاطهم

كانت تونس و لا تزال بلد ذو اقتصاد زراعي بالدرجة الأولى. إلا أن هناك حركية في المدن تنبأ بتطور مستقبلي كبير في هذه الحواضر التي يقارب عدد سكانها نسبة 37% من مجموع السكان، بعدما كانت تمثل سنة 1921 سوى 21%. و قد تعود أسباب ذلك إلى جاذبية المدن و الاستقرار في مناصب الشغل و الأجور

¹ - الشاطر (خليفة)، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 46. و انظر أيضا:

- Lepidi Jules, L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., pp 21-22.

² - راجع في الموضوع كل من:

- الشاطر خليفة...، مرجع سابق...، ص 96.

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 104.

³ - Martin (Jean François), Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 104.

⁴ - Ibid., p 104.

المرتفعة مقارنة بالقرى و المناطق الداخلية أو النائية و إلى سعة سوق العمل. كما كان لتأثير الحرب العالمية الثانية و الجفاف و "البطالة التكنولوجية"¹، عواقب وخيمة على مسألة تنظيم المجتمع التونسي.²

أما الحركة في الوسط الحضري، فقد وجدت أرضيتها الاقتصادية في حركة التصنيع المتنامية التي مست المدن بفعل استثمارات القطاع الخاص المخصصة للصناعة و التي قدرت ب70% خلال الخمس سنوات التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية. يضاف إليها تحسين التبادلات الخارجية التي مست على وجه الخصوص الموانئ الأربعة: تونس و بنزرت و سوسة و صفاقص. و نخص بالذكر هنا مدينة تونس و محيطها، التي تحض بمكانة مميزة حيث قدر عدد سكانها سنة 1946 بحوالي 600000 نسمة ما يعني أن العدد قد تضاعف خلال 15 سنة. و إذا استمر هذا الاتجاه فسيؤدي إلى حظيرة مليون نسمة مع مطلع سنة 1956.³

لقد قامت المصالح التونسية للإحصاء بعملية فرز لعمليات الإحصاء التي تمت في سنوات 1936 و 1946، و أفضت إلى التمييز بين مناطق الشمال، من جهة، و مناطق الوسط و الجنوب، من جهة أخرى. و إذا اعتمدنا السكان المسلمين كعينة فنجد أن تطورهم كان على النحو التالي:

- في الشمال، تطور عددهم من 970000 نسمة سنة 1936 إلى 1.416.000 نسمة سنة 1946.

- في الجنوب، تطور عددهم من 1.296.000 نسمة سنة 1936 إلى 1.417.000 سنة 1946.⁴

ما يمكن استنتاجه من تمحيص للإحصائيات الديمغرافية، هو إعادة التوزيع الجغرافي للسكان المسلمين منذ عشرين سنة، بفعل أن نتائج الإحصائيات المقدمة تظهر لنا بأن مناطق الوسط و الجنوب قد فقدت عدد من سكانها بفعل حركة الهجرة الملاحظة. عكس مناطق الشمال التي رحبت في العملية بفعل أعداد السكان التي هاجرت إليها.

كما أن الهجرة الداخلية هي الأخرى، من الميزات الخاصة بالسكان المسلمين، بحيث حولت البنية الجغرافية للسكان. و إذا قارنا بين عدد السكان المسجل في الحالة المدنية خلال سنوات 1936 و 1946، و حاولنا تقريب الفروق المتحصل عليها بهذه الطريقة بين فائض الولادات على الوفيات طيلة العشر سنوات،

¹ - ورد هذا المصطلح بعدما اعتبر صاحب المقال بأن مكينة القطاع الفلاحي هي التي أدت إلى تسريح عدد معتبر من اليد العاملة الريفية، و في بعض المناطق إلى التغيرات التي أحدثت في طبيعة النصوص القانونية للتسيير الإقطاعي للأرض. و قد نتجت هذه التغيرات بفعل ظاهرة تكتل الأراضي الزراعية، كما حدث في سهول "مجردة" مثلا. أنظر إلى:

- Lepidi Jules, L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., p22.

² - اقترنت الحركة الاستعمارية الفرنسية في تونس بإحداث تغيرات اقتصادية نوعية، كان أبرزها توسع رقعة الزراعة الرأسمالية و تكثيف الإنتاج من أجل ضمان تمويل الأسواق. مما أدى إلى تغير في الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع التونسي و ظهرت الفوارق في بنية المجتمع و مكوناته. إلا أن الجوانب الاقتصادية لم تكن العامل الوحيد المحدد لتطور المجتمع، باعتبار أن السياق الاستعماري شكل دافعا إضافيا لإعادة تصنيف أو تجديد البنية الاجتماعية وفق معايير جديدة. لشروحات أكثر أنظر إلى:

- الشاطر خليفة و...، تونس عبر التاريخ...، مرجع سابق...، ص 46.

³ - Lepidi (Jules), L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre..., op.cit., p22. Et voir aussi:

- Martin Jean François, Histoire de la Tunisie contemporaine..., op.cit., p 104.

⁴ - Lepidi (Jules)...، L'Economie Tunisienne..., op.cit., p 23.

فإننا سنوضح فوارق الهجرة الإيجابية و السلبية لكل مقاطعة. و بذلك يمكننا التعرف على مصدر حصة 180000 نسمة إضافية داخل النسيج المحلي عوض اعتبارها من بين الهجرات الخارجية.¹

توضح لنا عملية التوزيع الجغرافي للسكان البنية الشابة للسكان التونسيين. و هذا التعريف المميز ينطبق على كل شرائح المجتمع التونسي الموجود في تطور هائل، و الذي نشاطه مرهون بنسبة الكبار و إعادة تكوين السكان النشطاء. و من أجل توضيح الانطباع العام المستخلص من هرم الأعمار فقد قلصنا السكان إلى ثلاثة مجموعات عمرية كبرى كما يبينها الجدول التالي:

النسبة لمجموع 1000 ساكن

فئات الأعمار	تونس	فرنسا	اليابان	ألمانيا	الإتحاد السوفيتي
من 0 إلى 19س	495	302	465	319	450
من 20 إلى 59س	436	551	460	557	484
60 سنة +	69	147	75	124	66
المجموع	1000	1000	1000	1000	1000

المصدر: Lepidi Jules, L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre ... p 24.

الظاهر أن النسبة الكبيرة من سكان تونس هم من فئة الشباب، حيث نجد أن هناك 50 ساكن من بين 100 ساكن أعمارهم أقل من 20 سنة.

لقد قسم العديد من الاقتصاديين، على غرار "كولين كلارك" Colin Clark، الفئة النشطة من السكان إلى ثلاثة طبقات:

- الفئة الأولى المستغلة في الميادين الزراعية و الصيد البحري.
- الفئة الثانية التي تشتغل في المناجم و البناء و توليد الطاقة.
- أما الفئة الثالثة، و التي تعتبر نتاج بين الفئة الأولى و الثانية، فهي التي تهتم بميادين التجارة و الحرف و الإدارة.²

و بالرغم من النقص الملاحظ على دقة المعطيات المقدمة فيما يخص هذه الشريحة، فإن الدراسات التي تمت في بلدان مختلفة من العالم، توحى بأن هناك ما يصطلح عليه "بقانون الإحصاءات العامة" الذي يشرح لنا عملية هذا التقسيم على نحو: نمو الفئة الثانية و الثالثة على حساب الفئة الأولى. أما في الأوقات العادية التي تتزامن مع أوقات السلم و التنمية، فإن السكان يتطورون على النحو المعتاد و الذي يبدأ من الفئة الأولى ثم

¹ - أنظر حركة السكان المسلمين التونسيين من 1936 إلى 1946 في الملحق رقم 23.

² - Lepidi (Jules)..., L'Economie Tunisienne..., op.cit..., p 25.

الثانية ثم الثالثة. و هذا التطور الذي تفرضه حكمة التطور التكنولوجي بفعل طريق النمو، فتقول: عندما ينتشر التطور علينا أن نجد أكثر فأكثر الفئة الثالثة و أقل من الفئة الأولى.¹

تنطبق هذه القاعدة على كل بلدان شمال إفريقيا. غير أن ذلك لا يعني أننا وصلنا إلى توزيع عادل بين الفئات الثلاثة، باعتبار البلدان الثلاثة تعتمد بالدرجة الأولى على قطاع الفلاحة. و لا يمكننا اعتبار المرور من نشاط الفئة الأولى إلى نشاط الفئة الثانية، من صنع التطور الاقتصادي، و إنما راجع لحركة الهجرة الريفية التي تولدت بفعل الكثافات الريفية القوية المرتبطة بالموارد الفلاحية المتوفرة.² و لعل الجدول التالي يعطينا فكرة واضحة عن الفئات المهنية النشيطة في تونس خلال الفترة الممتدة من 1931 إلى 1946.

توزيع الفئات النشيطة في تونس

الفئات المهنية	سنة 1931	سنة 1946
الفلاحون	478.000	452.000
التجار	52.000	55.000
الصناعيون	56.000	106.000
المقاولون و أعوان النقل	15.000	58.000 ³
الموظفون	13.600	23.000
ممثلي المهن الحرة	10.700	13.000
فئات سكانية غير مرتبة	39.000	5.000
المجموع	664.000	712.000
إجمالي السكان	2.411.000	3.231.000

المصدر: Lepidi Jules, L'Economie Tunisienne., op.cit., p 25.

قد نجد نسبة كبيرة من السكان تشتغل في القطاع الفلاحي بصفة مؤقتة، لأن العمل الدائم بعيد المنال في هذا القطاع كما هو الشأن بالنسبة للقطاعات الأخرى. إلا أن الملاحظ في تونس هو عدم وجود مناصب دائمة أو عدم استغلال أعداد كبيرة من السكان القادرين أن يتحولوا إلى الفئات النشيطة. و قد أظهرت عملية الإحصاء الأخيرة التي تمت في 1946، بأن 20% من الفئة النشطة لا توجد لها أي مهنة. كما أن عملية الإحصاء الفلاحي قد بينت أن هناك 280000 شخص يشغلون مناصب مؤقتة. الأمر الذي دفع بوزارة العمل إلى ضبط قوائم البطالين، بشكل نهائي أو جزئي، بعد عملية تحقيق أجريت مع القياد.⁴

رابعاً: الدعم الاقتصادي الأمريكي لشمال إفريقيا

¹ - Lepidi (Jules)..., L'Economie Tunisienne., op.cit. ..., p 25.

² - Ibid., p 25.

³ - بما في ذلك قطاع البناء و الأشغال العمومية.

⁴ - Lepidi (Jules)..., L'Economie Tunisienne., op.cit., p 25.

تمت في الثامن من شهر نوفمبر من سنة 1942، عملية إنزال لقوات بريطانية- أمريكية على سواحل شمال إفريقيا، التي كانت تعاني أزمة اقتصادية كبيرة. و كان سكانها يمرون بحالة نقص الأغذية و الملابس في ظروف الشتاء القاسية القادمة على بلادهم و ظروف اشتداد المعارك على أراضيهم. فكان قرار الرئيس الأمريكي أن يجعل من شمال إفريقيا منطقة حيوية لأمن و.م.أ، و بذلك أدرجت ضمن المناطق المستفيدة من قانون "سلفة-كراء".

استفادت شمال إفريقيا في البداية، من تمويل بريطاني في حدود أربعة أخماس (5/4) و كذلك من تحويل حمولة في البحر المتوسط كانت متجهة إلى جزيرة مالطة. و مع حلول سنة 1943، راجت الأفكار الأمريكية بشدة في الأوساط السكانية في شمال إفريقيا لدرجة أنه أصبح كل ما هو صالح للأكل أو ما يلبس مصدره، حتما، الولايات المتحدة الأمريكية.¹

و تزايد الدعم الأمريكي على المنطقة لدرجة أنه أصبح يشكل تهديدا على الوجود الفرنسي، و هي النقطة التي طرحت بحده و اعتبرت من العوامل التي أثرت في الخلاف القائم بين الولايات المتحدة و فرنسا. كما أن السلطات الأمريكية ما انفكت توجه انتقادات لاذعة للسلطان الفرنسية في الرباط متهمه إياها بمحاولة تجويع الشعب المغربي، بمصادرة كثيفة للمحصول الزراعي الذي كان يوجه قبل سنة 1942، نحو المتروبول و ألمانيا، ثم بعدها نحو الجزائر و تونس.² غير أن رد الفعل الفرنسي جاء سريعا و اتهم الأمريكيان بمحاولة إشعال فتيل الأوضاع بمنحهم "رواتب" عالية للعمال المغاربة، مما جعل السكان المسلمين ينقمون على المستوطنين.³

اهتم الرئيس الأمريكي بوضع لجنة مشتركة أمريكية-بريطانية قادرة على تجميع المعلومات الخاصة باحتياجات أهالي شمال إفريقيا من المواد الغذائية و الأقمشة و الألبسة و كل اللوازم الضرورية ليتم توزيعها على السكان لاحقا. و كان الغرض من ذلك هو تفادي الفوضى في المدن و المحافظة على استمرار النشاطات الاقتصادية الضرورية لإنجاح العمليات العسكرية، خاصة تقدم الجيوش الأمريكية نحو الجبهة الشرقية في اتجاه تونس.⁴

¹ - Stettinius (Ed.R), Le prêt- Bail, arme de victoire, éditions de la maison française de New York, 1944,p 280..(417p). Cite par Echaoui., p 282..

² - Lacroix-Riz (André), Les protectorats d'Afrique du Nord entre la France et Washington, du débarquement à l'indépendance. Maroc et Tunisie 1942-1956, histoire et perspectives méditerranéennes, L'Harmattan éditions, Paris, 1988, pp 12-17.

³ - Léon (Pierre), Histoire économique et sociale du Monde, guerres et crises 1914-1947, Tome V, Armand Colin éditions, Paris, 1977, p 555.

⁴ - Stettinius (Ed.R), Le prêt- Bail, arme de victoire..., op.cit., p 152. Cite par Echaoui., p 282..

كان لوجود الحلفاء في المغرب الآثار البليغة على السياسيين و الأوساط الاقتصادية للمحمية و كان ذلك بمثابة جرعة الأكسجين من أجل تغطية الاحتياجات الفورية للسكان.¹ و ظهرت بذلك مسألة العلاقات التي تربط بين المغرب و القيادة العسكرية للحلفاء، بمختلف منظماتها الاقتصادية. مما فتح الباب على مصراعيه حول النوايا الأمريكية الحقيقية تجاه شمال إفريقيا بشكل عام و المغرب بشكل خاص. لأنه بعد نزول قوات الحلفاء، تغيرت النظرة الأمريكية للمنطقة، الأمر الذي أثار مخاوف السلطات الاستعمارية الفرنسية التي كانت تخشى فقدانها لإمبراطوريتها.²

طرحت مسألة التموين بشدة منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية، بحكم أن شمال إفريقيا كانت تستنزف آخر طاقاتها من المخزون الغذائي. و بالرغم من أن إنتاجها الفلاحي قادر على تغطية احتياجات سكانها دون اللجوء إلى الاستيراد، فإنها كانت تستورد مواد ضرورية من الخارج مثل: السكر و الشاي و القهوة و الأقمشة القطنية، و كلها مواد ضرورية في الاستهلاك اليومي للسكان.³ و قد لجأت السلطات الاستعمارية حينها إلى عقد ندوة حوا التموين في شمال إفريقيا بجميع المواد التي يحتاجها السكان من زيوت و مواد دسمة و مواد غذائية ضرورية للاستهلاك اليومي خاصة في الفترة التي أعقبت نزول قوات الحلفاء.⁴

كما أن الإنتاج الفرنسي كان عاجزا على تلبية طلبات سكان شمال إفريقيا رغم مخطط التقسيم المعتمد من طرف السلطات الاستعمارية.⁵ و انتظر سكان شمال إفريقيا دخول اتفاقيات التموين المبرمة مع الولايات المتحدة الأمريكية حيز التنفيذ، مع جوان 1941، للاستفادة من مختلف المنتجات و الوقود السائل.

¹ - إلا أن الخطأ المرتكب من طرف سلطات الرباط، كان أن رفعت كل الإدارة المغربية في المحمية برامجها التموينية إلى السلطات العسكرية لقوات الحلفاء، و دون المرور على السلطة الرسمية للبلاد الممثلة في الحكومة المؤقتة للمجلس الفرنسي للتحرير الوطني في الجزائر. التي ارتأت أن تنظم لقاء في الجزائر، في 4 ماي 1943، برئاسة السيد "جياكوبي" Giacobbi، محافظ فرنسا للتموين، الذي شرح لممثلين البلدان الثلاث، أنه عليهم تفادي الاتصال الفردي مع قوات الحلفاء. لأنها مهمة "مديرية الشؤون الاقتصادية للـ CFLN، التي عليها أن تتفاوض مع الحلفاء حول كل الشؤون التي تخص المنطقة.

و قد بعث "جياكوبي"، بعدما أصبح وزيرا للمستعمرات في سنة 1945، برسالة سرية إلى حكام الدول الثلاث يحذرهم فيها من الخطر "الأنجلو-أمريكي" الذي يحرق بإفريقيا عامة، و بالإمبراطورية على وجه الخصوص. و جاء فيما كتب: "إن الإمبراطورية مريضة و هم بصفتهم أطباء، قد يكون الفضول أكبر لدفعهم إلى الاهتمام بالإمبراطورية". أنظر:

- Marseille Jacques, Empire colonial et capitalisme français..., op.cit., pp 348-350.

² - Echaoui (Mohamed), Evolution de l'Economie Marocaine..., op.cit., p 285.

³ - لم يكن في مقدور فرنسا أن تستغني عن مستعمراتها في شمال إفريقيا في عملية تموين المتروبول، لذلك لوحظ كل هذا العجز. على الاقتصاد الشمال الإفريقي بشكل عام. و تشير كل التقارير الأرشيفية و الوثائق التي كانت متبادلة بين "فيشي" و سلطاتها فيما وراء البحار إلى أن شمال إفريقيا هي التي أنقذت "المتروبول" من الانهيار. و حتى لمسنا في بعض التقارير عملية "الهبة" Dons، التي أرسلت من جميع أرجاء الجزائر، على وجه الخصوص، و بلاد شمال إفريقيا بوجه عام. لذلك، من الطبيعي أن يبدوا للحلفاء، عندما دخلوا بلاد شمال إفريقيا، تدمرهم أو انزعاجهم، للحالة التي كانت تسود البلاد المغاربية بشكل عام. طالع في الموضوع:

- ANOM, GGA, 4cab/17, Résidence générale de la république française au Maroc, 1939-1940-1941.

- ANOM, GGA, 5cab/2, Rapports des Préfets sur la situation générale des départements.

- ANOM, GGA, 5cab/6, Conférence nord-africaine sur le ravitaillement.

⁴ - ANOM, GGA, 5cab/6, Conférence nord-africaine sur le ravitaillement.

⁵ - Archives du SHAT, Fonds privé Weygand, n° 1K130, résumé de l'activité du service des relations commerciales inter coloniales à la délégation générale du gouvernement en Afrique française jusqu'en novembre 1941. Voir aussi : ANOM, GGA, 5cab/1, dossier relatif au General Weygand.

أصبح واقع التقنين للمواد الغذائية يفرض نفسه في شمال إفريقيا،¹ حيث أصبح المخزون الأمني من السكر لا يلبي سوى احتياج 6 أشهر، مما دفع بالإدارة الاستعمارية إلى تحديد سقف الحصص الشهرية إلى 750 غرام بالنسبة للأوروبيين؟ و كيلوغرام واحد بالنسبة للسكان المسلمين.؟ ففكرت السلطات الفرنسية في تطوير زراعة قصب السكر في محيط منطقة مكناس و ذلك بإنشاء مصنع و استيراد الحبوب من شمال فرنسا. غير أنه تم تخزين الشاي (لمدة سنة) و القهوة و الأرز (لمدة 6 أشهر). هذا الوضع دفع بالجنرال "نوقس" إلى إبداء مخاوفه للجنرال "دارلان" برسالة يشرح له فيها الأوضاع الصعبة للسكان الذين يعيشون على وقع هذه القيود الاقتصادية.²

كانت أولى اهتمامات الحلفاء في شمال إفريقيا هي تموين السكان بمادة الحليب الضرورية، خاصة للأطفال الرضع الأقل من 18 شهرا. و شكل "الحليب المبخر" الأمريكي Lait évaporé، دعم كاف للمصالح الفرنسية المختصة. و ساهم الصليب الأحمر الأمريكي في العملية، خاصة في الجزائر، عندما أقدم على توزيع حصص من الحليب يوميا على السكان الشباب في المدن الكبرى.³

¹ - جاء في برقية من القيادة العسكرية و المدنية الفرنسية في الجزائر، حول عملية مواصلة تقنين المواد الغذائية المستوردة، أن كميات هامة منتظرة في الأسابيع القادمة في كل من المغرب و الجزائر. و تحتوي على مواد السكر و الصابون. و هي مادتين تخضعان لعملية تقنين صارمة. غير أن ما تضمنته الرسالة، هو بصريح العبارة أن ما تقدمت به القيادة العسكرية من طلبات للتموين لدى الحلفاء، لا يخص بالدرجة الأولى سوى اهتمامات الجيش. و لن يلبي طلبات المدنيين بشكل كاف. لذلك تضمنت الرسالة مواصلة عملية التقنين حتى في ظروف الانفراج. طالع:

- ANOM., 7cab/29, Secrétariat a la production, N° 358/p2, du 25/02/1943. Voir Annexe n°24.

² - Archives des MAE, seconde guerre mondiale 1939-1940, Vichy-Maroc, vol.14, note de Noguès à Darlan, mars 1941. (Cité par : Levisse –Touzé Christine., L’Afrique dans la guerre., op.cit., p).

³ - حاول سفير فرنسا و الحاكم العام للجزائر من استقطاب اهتمام الرئيس الأمريكي "إيزنهاور" حول مسألة تموين الجزائر بالحليب، لأن هناك شريحة كبيرة من المجتمع لا يصلها الحليب كفاية. و أن الإمكانيات المحلية لا يمكنها أن توفر الحليب للأطفال الرضع و لا الصغار و لا الشيوخ و لا النساء الحوامل و لا للأمهات اللواتي يرضعن أولادهن. و قد قام الجنرال "جيرو"، هو الآخر، بشرح هذه الوضعية على أساس أنه قدم احتياجات الجزائر الشهرية من الحليب على النحو التالي:

- الأطفال الرضع: 320 طن شهريا.

- الأطفال من 18 شهر إلى 4 سنوات و المرضى و الشيوخ: 240 طن. مما يعطينا مجموع احتياجات الجزائر الشهري من الحليب يقدر بحوالي 560 طن. أنظر:

- ANOM, 7cab/41, note verbale, A/S du ravitaillement du lait.

في ميدان القماش، تفيد المصادر الفرنسية أن ضابط أمريكي يدعى "سومارينديك" Somaryndick قد قام بجولة في مدينة قسنطينة أين تم الاستفسار عن وضعية تجارة القماش، و عن القماش الأمريكي الذي وجه للجزائر في إطار قانون "كراء-سلفة" Prêt-Bail الأمريكي الشهير.¹ و أبدى ملاحظات قاسية تجاه الإدارة الفرنسية التي اعتبرها مسؤولة عن سوء تنظيم سوق القماش في العمالات الثلاث. و بالنسبة لعمالة قسنطينة فقد لخص ملاحظاته في نقاط هامة تجمع بين التعرف على السلعة في الميناء و ضبط الأسعار و حرية تجار الأقمشة حضور الاجتماعات و على علم بنوع البضاعة و عدم تركها في الميناء مدة طويلة، لأن ذلك قد يدفع بالمضاربين إلى رفع الأسعار وفق احتياجات السوق.. و يعتبر أن ما يقوم به العامل الأمريكي من تضحيات من أجل الشعوب المتضررة جراء هذه الحرب، لا يجب أن يذهب سدى. شأنه في ذلك، رجل البحرية الأمريكية الذي يقطع مسافات الأطلسي و حياته كلها محفوفة بالمخاطر. لذلك فهو يمتنع لما يرى أن كل هذا لا يفيد إلا جماعات المضاربين من التجار.²

لم تقتصر المواد الأمريكية على البضائع الضرورية و المواد ذات الاستهلاك الواسع لدى سكان شمال إفريقيا، و إنما أيضا على بعض الحبوب من نوع "فاصوليا" Haricots Exotiques، التي اعتبرها مخبر التحاليل بالجزائر غير قابلة للاستهلاك المفرط نظرا لاحتوائها على نسبة عالية من مادة "السكريد" أو "الغلوكوسيد"، قد تؤثر على الجسم إذا كان هناك إفراط في تناولها. و ضرب مثال بما حدث في حرب 1914-1918، في فرنسا، عندما أصيب عدد من الفرنسيين بشلل بعد تناولهم "فاصوليا جافا" Haricots de Java، بكميات كبيرة.³ نظرا للكم الهائل من الوثائق الأرشيفية التي تطرقت للدعم الاقتصادي للحلفاء تجاه شمال إفريقيا، فقد ارتأينا أن نختصر بعض الحالات في الأشهر الثلاثة لسنة 1943 و شهري جانفي و فبراير من سنة 1944. حيث تكدست البضائع، في بعض الأحيان، في الموانئ الجزائرية دون أن تلقى دعما من السلطات الفرنسية. و هنا

¹ - لقد اهتمت الولايات المتحدة الأمريكية منذ بداية الحرب بالصراع الدائر في أوروبا لدرجة أنها استدعت الكونغرس في جلسة خاصة لمناقشة مشروع مراجعة قوانين الحياد. فتم السماح في إطار إجراء "كاش و كاري" Cash and Carry للدول المعنية بالحرب بشراء كل المعدات من و.م.أ. و دفع ثمنها فورا و القيام بشحنها بنفسها و على متن سفنها. و بعد جلسات ساخنة في الكونغرس، استبدل هذا الإجراء بمشروع جديد يهتم بالدول التي كانت تحارب ألمانيا، لدرجة أن الرئيس الأمريكي "فرانكلين روزفلت" تمكن من التأثير على الرأي العام في بلاده حتى يقف إلى جانب بريطانيا خاصة. لذلك تمكن من افتتاح التصويت من "الكونغرس" الأمريكي على قانون يسمح لها ببيع و تحويل و تبديل أي أجهزة دفاع لكل دولة قد يكون أمنها مهدد و معه أمن أمريكا. و قد يكون هذا الدعم الأمريكي مادي، بكل أشكاله، أو أي امتيازات مباشرة أو غير مباشرة تخدم مصلحة و.م.أ. و بذلك نشأت فكرة "كراء-سلفة" أو كما يطلق عليها في و.م.أ. بـ "Lend Lease" التي قدمت للكونغرس في 10 جانفي 1941 و تم التصويت عليها يوم 11 مارس من نفس السنة. و سيرت على شكل مؤسسة كبيرة مهمتها تقديم كل المساعدات الأمريكية للدول المتضررة. أنظر في الموضوع إلى كل من:

- Julien Claude, L'Empire Américain..., op.cit..., pp 261-262.

- Allan Nevins and Co..., Pocket History of the United States..., op.cit..., pp 430-433.

- Stettinius Ed.R, Le prêt- Bail, arme de victoire..., op.cit..., pp 94-95. (417p). Cité par Echaoui.op.cit..., p 280.

² - ANOM, 7cab/41, A/S Tissus américain, Constantine, D.E.S, n° 4153 du 24 juin 1943.

³ - ANOM, GGA, 7cab/29, Cdt en chef Français civil et militaire, section technique de la santé..., du 1^{er} mars 1943.

نشير إلى أن السلطات الفرنسية وجدت نفسها مجبرة على التفريق بين المشتريات العسكرية الموجهة لتدعيم القدرات الحربية و المشتريات المدنية الموجهة للاستهلاك و ذلك بإلحاح من القيادات العسكرية الأمريكية التي كانت تريد أن تصل هذه المساعدات إلى سكان شمال إفريقيا.¹

لقد ساهمت هذه الحيوية في التبادلات التجارية الأمريكية إلى الرفع من حجم حمولة البحرية التجارية إلى ثلاثة أضعاف خلال سنة واحدة، حيث ارتفعت من 3 ملايين إلى 9 ملايين طن ما بين سنوات 1942 و 1943. و بفضل الحرب استرجعت أمريكا حيويتها.²

¹ - للإطلاع أكثر على البضائع الموجهة لكل منطقة من مناطق شمال إفريقيا الخاضعة للاستعمار الفرنسي أنظر الملحق رقم 25.

² - Julien (Claude) L'Empire Américain., op.cit., pp 265-266.

خاتمة

إن ديمقراطية العالم الحر التي روج لها من خلال المؤتمرات الكبرى في فترة الحرب لم تكن لتعني الجزائريين، أكثر من غيرهم من شعوب شمال إفريقيا و لا حتى المستعمرات الفرنسية لما وراء البحار. لأن الحلفاء

اعتبروا قضية الجزائر و الجزائريين أمرا داخليا في الشؤون الفرنسية، و كان هدفهم الرئيسي هو القضاء على العدو النازي و وضع حد لهذه الحرب. و لم تكن حاجتهم سوى إلى الترسانة البشرية المتكونة من الجزائريين، خاصة، و سكان شمال إفريقيا عامة.

هذا الموقف الذي أبداه الحلفاء جعلهم يبتعدون كل البعد عن مبادئ ميثاق الأطلسي التي روجوا لها في القارة الأوروبية دون المناطق الأخرى. فكانت أول هفوة تحسب عليهم. هذا الموقف السلبي من الحلفاء هو الذي شجع ديمقراطية فرنسا الحرة على التماذي في غطرستها و جبروتها اتجاه شعوب شمال إفريقيا، عامة و الشعب الجزائري بشكل خاص، ما دام أنه هو الذي دفع ثمن تحرر الأتقاء في تونس و المغرب و دفع ثمن "الحلم" الفرنسي في الإبقاء على الجزائر فرنسية.

كما مثلت الحرب العالمية الثانية إحدى الحلاقات الهامة في السياسة العالمية و حتمية تاريخية مفادها أن تكون لها نهاية، تفصح عن هوية الغالب و المغلوب. قد يجني الغالب منها مأساة الدمار و المغلوب فيها سوى الأئين.

إنها النهاية المتناقضة لجل الحروب الكونية التي خاضتها الشعوب و الحكومات، و مهما حاولنا التخفيف من حدتها إلا أن أثارها بالغة و واضحة امتدت عواقبها إلى الأجيال المستقبلية. أما المستعمرات، التي لعبت الدور "اللوجستي" المفروض عليها، فقد عانت من تداعيات الحرب العالمية الثانية لدرجة جعلت منها حلقة أساسية في اللعبة. فاستقرت بها التحالفات، و عقدت بها المواثيق، و ساهمت بكل إمكانياتها في تحديد نتيجتها. فعمدت إلى فرض وجودها حتى و إن كلفها ذلك الكثير.

من هنا يظهر تأثير هذه الحرب على منطقة شمال إفريقيا في ميادين شتى، بفعل مساهمتها البشرية و المادية. كما أن الارتباط الاقتصادي المتين بين فرنسا و شمال إفريقيا يعد عاملا أساسيا زاد من حدة هذا التأثير لدرجة أن النسبة الكبيرة مما كان ينتج في الأقطار الثلاثة كان يصدر إلى فرنسا عنوة أو للضرورة الحربية أحكام... و قد عبرت عن ذلك إحدى الجرائد الجزائرية في مطلع سنة 1946 عندما لخصت حالة الجزائر على أنه أصابها إعصار، و أن الإدارة الفرنسية عاجزة عن تسيير شؤون الأهالي.

و من خلال تتبعنا لأهم أحداث الحرب العالمية الثانية في الجزائر و المغرب و تونس، و المنطقة خالصنا إلى حقيقة مفادها أن هذه الفترة كانت جد مميزة، بدليل أن وقع الحرب على المسلمين في شمال إفريقيا و بالأخص التيارات السياسية الوطنية، و الأوساط السياسية الاستعمارية كان واضحا. و عليه يمكننا القول بأن هذه الحرب قد أثرت سلبا على سكان شمال إفريقيا في عدة جوانب، و إيجابا في جوانب أخرى. فمظالم الاستعمار و مجريات الحرب و انعكاساتها، هي التي جعلتهم يشعرون بحقيقة مشكلتهم مع المستعمر و ضرورة التأهب لمواجهة عاجلا أم أجيلا.

فإذا رجعنا إلى الفرضيات التي صاحبت إشكالية الموضوع، فنبدأها من محطة البحر الأبيض المتوسط التي شهدت تباين من حيث الاهتمامات في المرحلة الأولى، سرعان ما انقلبت إلى البحث عن تأمين المجال الحيوي، بحكم أن المنطقة باتت مهمة في الصراع الأوروبي بدخول فرنسا طرف فيها منذ إعلانها الحرب على ألمانيا في الثالث سبتمبر من سنة 1939. لكن ذلك لم يكن ليشكل سببا مباشرا لهذا التحول لولا الاهتمام الإيطالي، على وجه الخصوص، بهذا الجزء من العالم مرده إلى الذاكرة الحضارية الرومانية التي حاولت إيطاليا بعثها من جديد، مستغلة دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا التي كانت الحصان الرابح حينها.

تحولت منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى خيار إستراتيجي لسببين هامين نراهما كفيدين يجعل هذا الجزء لضفتين إحداها في أوروبا و الأخرى في إفريقيا ، ضمن المخطط "الحيو- إستراتيجي" للمراحل اللاحقة التي سوف تفصل في هوية المنتصرين في الحرب، أولهما اقتصادي و الثاني عسكري.

فتأمين طرق المواصلات بين أجزاء القارة الأوروبية و القارة الإفريقية، من جهة، بما فيها الجزر الموصولة بالطرق التجارية البحرية. و بين القارة الأوربية و القارة الآسيوية من جهة أخرى، كقيل بأن يضمن استمرارية تدفق البضائع و السلع ذات الاستهلاك الواسع في جميع الاتجاهات. خاصة بالنسبة لفرنسا التي عملت كل ما في وسعها للحفاظ على وحدة إمبراطوريتها في شمال إفريقيا، لأنها كانت تدرك، أمام الاختلال الواضح في موازين القوى، بأن المنطقة سوف تتحول مع تطور الأحداث إلى منطقة قد تتغير بسببها أمور كثيرة.

أما السيطرة على هذه الطرق فلن يتأتى إلا إذا كانت الأطراف المتنازعة قوية عسكريا و سيدة في موقفها. هذا ما لم نلمسه عند فرنسا التي فقدت بريقها بمجرد استسلامها أمام القوات الألمانية في جوان 1940. من هنا اتضحت أهمية البحر المتوسط بدخوله دائرة اهتمامات إيطاليا التي كان دائما يراودها حلم استعادة أمجاد الماضي.

قد يقول البعض لما نشدد على إيطاليا بالذات؟ فالجواب وجدناه في إحدى النشريات للجنة إفريقيا الفرنسية الخاصة بالجزائر لسنة 1939، و التي ذكرت مقال لباحثة أمريكية اسمها "إليزابيث مونرو" Elisabeth Monroe جاءت في مهمة بحث علمي لمدة 15 شهرا ، فخلصت إلى استنتاج مفاده أنها: "لم أجد الكثير من الكتب التي تتحدث عن السياسة المتوسطية، باستثناء واحدا و هو لكاتب إيطالي. عندها تيقنت أن الموضوع شاسع و ليس له حدود و يصعب التحكم فيه.. فالبحر المتوسط كان دائما وسيلة دون أن يكون نهاية.. إلا بالنسبة لإيطاليا.. و المقصود هنا ليس السيطرة الإيطالية في حد ذاتها و إنما السياسة الإيطالية بأكملها و المبنية على حلم "المار نوستروم" mare nostrum الذي كان يراود الساسة الإيطاليين منذ سنيين. و قد سمح احتلال "الحبشة" و دعمهم الجنرال "فرانكو" في إسبانيا، إلى دق ناقوس الخطر على كل القوى التي لها مصالح في المتوسط، و بدت لهم و كأنها أصبحت "مشكلة سياسية" كان لا بد من التأقلم معها. و كان على بريطانيا و فرنسا أن تحدد معالم سياستها في هذا الجزء من القارة الإفريقية.

حيث كانت تصريحات رؤساء هذه الدول تصب كلها في خانة واحدة: "علينا الدفاع عن مصالحنا في البحر المتوسط...". إذن فالمسألة قضية رهانات سياسية في المتوسط هي التي تضع قواعد اللعبة الاقتصادية و العسكرية حتى تبقى كل دولة محافظة على مصالحها. لكن بدخول ألمانيا ثم إسبانيا و روسيا، التي كانت تبحث عن منفذ من البحر الأسود نحو البحر الأبيض، و بعدها تركيا، حلبة الصراع على مناطق النفوذ، تغيرت المعطيات و ظهر جليا أن الطريق "جبل طارق - قناة السويس" هو الذي سيحدد بنسبة كبيرة القواعد الجديدة لموقف مختلف الدول من المفهوم "الجيو-سياسي".

على صعيد السياسة الفرنسية المطبقة من طرف حكومة "فيشي"، لم تكن هناك أوضاع خاصة بمنطقة عن أخرى إلا نادرا، خاصة خلال أطوار الحرب الأولى و ما صاحبها من تقلبات سياسية و عسكرية أدت إلى تغلب معسكر على آخر ما استدعى بفرنسا إلى إبرام "هدنتها" الشهيرة مع الألمان، و ما ترتب عنها من تغيير في السياسة البريطانية تجاه حكومة "فيشي" الجديدة. و بالمعنى الدقيق فالحركة الوطنية في شمال إفريقيا لم تكن موحدة لمواجهة ضعف الاستعمار الفرنسي مع بداية الحرب. لأن الوطنيين الحقيقيين كانوا في أغلب مراحل الحرب مغيبين بسبب رفضهم مساندة فرنسا في حربها ضد النازية. فهناك من زج بهم في السجون، و آخرون اقتيدوا إلى المنفى، الأمر الذي عجل بتعزيز التقارب بين مختلف التيارات الوطنية، محليا، كما حدث ذلك في الجزائر بين عناصر حزب الشعب و جمعية العلماء الجزائريين، و في المغرب بين الزعماء الوطنيين و السلطان و في تونس بداية بحركة "الشباب المسلمين" و الدستوريين بشقيهما.

بالنسبة للجزائر، فقد قامت الحركة الوطنية باستعمال طرق و أساليب جديدة للحصول على الحقوق المهضومة، فاستعملت الأسلوب السياسي و اعتمدت عليه كخيار إستراتيجي و علقت عليه آمالا كبيرة حتى تصل إلى مرحلة الانفتاح السياسي التي سوف تغير الكثير من أوضاعها. غير أن هناك جماعة من حزب الشعب و بمساعدة شخصيات من المشرق، همت إلى الاتصال بالألمان فتشكلت اللجنة الجزائرية الثورية لشمال إفريقيا CARN التي راحت تعمل في الاتجاه المعاكس بالرغم من تحذيرات مصالي الحاج من سجنه لهذا الموقف. ولم يبق ينشط على الساحة السياسية سوى تيار النواب، بزعامة فرحات عباس، الذي كانت مطالبه إصلاحية بعيدة كل البعد عن فكرة الاستقلال و الانفصال عن فرنسا في تلك الظروف على الأقل. و كانت الشهادة التي أدلى بها علال الفاسي في مذكراته بخصوص النهج المتبع من طرف فرحات عباس، و التي تطرقنا إليها في الفصل الثالث، خير دليل على اهتمام الرجل بالمسائل الوطنية و بمستقبل بلاده. فكانت مساعيه لا تتعدى محاولات إقناع النظام الجديد بتخفيف الأعباء على الجزائريين و ذلك بالقيام ببعض الإصلاحات التي لم تر النور أبدا.

أما في المغرب، فالأمر يختلف نوعا ما باعتبار أن المغرب كان يتمتع بنفوذ داخلي ممثل في شخص السلطان الذي أبدى ولاءه منذ البداية لفرنسا، فسار على خطاه زعماء الحركة الوطنية الذين أبدوا تضامنهم

مع فرنسا من خلال النشريات الدعائية التي كان يوزعها أعضاء حزب الاستقلال الذين كانوا لا يزالون طلقاء. لأن غالبية القيادة كانت موجودة في السجن على طريقة ما حدث للزعماء الجزائريين.

و إذا كان غالبية المغاربة يتمنون انتصار الألمان مما سيحررهم من الوصاية الفرنسية، إلا أن الوطنيين لم يكن لهم أدنى شك عن النوايا الحقيقية لهتلر. و كاد يحدث للمغاربة نفس الذي حصل للجزائريين عندما حاول "بالفرج" الإطلاع على النوايا الحقيقية للسلطات الألمانية، سائرا في نفس الطريق الذي سار عليه "عبد الخالق طوريز" في الجزء الإسباني من المغرب، و معهما "الناصري" الذي أبقي على ولاءه لفرنسا. و بقيت فرنسا، حتى بعد تولي فيشي السلطة حاضرة في المغرب بفضل السياسة التي طبقها نوقس و باشتراك السلطان إلى آخر أيام فيشي بعد الاستسلام عند دخول قوات الحلفاء بلاد المغرب في الثامن من نوفمبر من سنة 1942.

فيما يخص التونسيين، فقد بدأت حركتهم المطالبة منذ تشكيل جمعية "الشباب المسلمين" في مارس 1941 بقيادة "رشيد إدريس" و "البسيس" و التي تحولت إلى منظمة ثورية لمكافحة الاستعمار تسمى "باليد السوداء" La main noire. نظمت هذه المنظمة المظاهرات و التجمعات و دعت إلى المسيرة الشهيرة التي انطلقت من "حلفاوين" نحو مقر الإقامة العامة في تونس لتقدم هي الأخرى بيان تطالب فيه الإدارة الفرنسية بإطلاق سراح زعماء الحركة الوطنية المسجونين و المعتقلين في المنفى. و قد وصل الأمر إلى حد اهتمام مجموعة كبيرة من الصحف بالقضية و راحوا يشددون اللهجة مما دفع بالدستوريين إلى كتابة شعارات قاسية تطلب من الاستعمار الفرنسي، لا أقل و لا أكثر سوى مغادرة البلاد.

أما الاستعمار الفرنسي، فرغم حالة الانهيار التي أصابته في منتصف سنة 1940 عندما تحطمت أسطوره على يد الجيوش الألمانية، إلا أن سياسته تجاه بلدان شمال إفريقيا لم يطرأ عليها أي تغيير. فالجزائريون لا يزالون يعيشون تحت ثقل القوانين الاستثنائية، التي اشتدت حدتها بسبب ظروف الحرب الخاصة، و التي سمحت لفرنسا بتشديد قبضتها على مختلف مجالات الحياة الجزائرية. فشهدت بداية الحرب حركة قمعية واسعة النطاق مارستها الإدارة الاستعمارية ضد قادة و مناضلي حزب الشعب، أولا، ثم انتقلت لتشمل مختلف مناضلي و شخصيات القوى السياسية الوطنية الأخرى. و ازدادت تلك الحركة القمعية حدة مع تغيير النظام في فرنسا، و مع مجيء حكومة "فيشي" انقلبت الأوضاع لدرجة أن أصبح تحالف فرنسا مع القوى، التي كانت تنعتها بالفاشية، أمرا حتميا. و هذا الموقف جسده مواقف جريدتين من أكبر الجرائد الفرنسية في باريس، و هما: "الوقت" و "الفيغارو" Le Temps et Le Figaro، اللتان سخرتا أعمدة جرائدها لخدمة السلطة الجديدة في فرنسا و حلفائها في برلين و روما.

هذا الواقع سمح لحكومة "فيشي" باستعمال الأساليب التقليدية المعروفة للدفاع عن ممتلكات الإمبراطورية الفرنسية في كل مكان. لذا يرى البعض من أمثال "أحمد محساس"، أن اندلاع الحرب العالمية الثانية لم يحدث تأثيرا مباشرا في صالح الحركة الوطنية التي كانت متأثرة بفشل مشروع بلوم-فيوليت. و هذا في حد

ذاته يعتبر إحدى انعكاسات الحرب السلبية، لأنه لم يؤد إلى نتيجة ملموسة تخدم مصلحة الحركة الوطنية سياسيا.

و مهما يكن من أمر، فإن حكومة "فيشي" همشت العناصر النشيطة من النواب، التي كانت تدافع عن مصالح الجزائريين، و خيبت آمالهم، و منهم "فرحات عباس". و سيكون لهذا الإقصاء و التهميش و رفض المطالب، أثره البالغ في تغيير نظرتة حيال المسألة الجزائرية، و اتخاذ موقفها معارضا لفرنسا. مما يجعل التوجه الاستقلالي ينمو لديه بعد فشل كل المحاولات لحمل فرنسا على قبول مبدأ تغيير أوضاع الجزائريين.

هكذا نستنتج مما تقدم أن الحرب العالمية الثانية قد أثرت بعمق على سكان شمال إفريقيا. أي أن التأثير وصل إلى القرى و المداشر و الدواوير، لأن مظالم الاستعمار و مظاهر الحرب و انعكاساتها؛ هي التي دفعتهم إلى الشعور بمشاكلهم و تكوين نوع من التضامن الوطني و المغاربي المشترك سمح لهم بأن يتحولوا به نحو العمل المنظم داخل الحركة الوطنية الشاملة. من هنا جندت كل طاقات شعوب شمال إفريقيا السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و دفعتها إلى إدراك طبيعة الاستعمار الفرنسي و بالتالي الالتفاف حول زعماء هذه الحركة لتجسيد "الفكرة الوطنية" المتمثلة في تحقيق الاستقلال.

هذا التأثير تواصل ليشمل المجالات الاقتصادية و الاجتماعية التي عان منها سكان شمال إفريقيا حيث تقلصت المحاصيل الزراعية لأسباب شتى و قلت البضائع و المواد الغذائية في الأسواق و عند التجار مما ساعد على ظهور سوق موازية استثمرت كثيرا في بؤس و غبن أهالي شمال إفريقيا. فظهرت سياسة تقنين المواد الغذائية و بطاقات التموين و غطرت الإدارة العسكرية التي كانت تحمي مخزونها الحربي على حساب المواطنين المسلمين ، إذ لم تترك للإدارة الاستعمارية المدنية أي فرصة في تنظيم السوق الداخلية التي بدأت تتراجع شيئا فشيئا إلى حد الوصول إلى الأزمة الغذائية التي كادت تفتك بالإمبراطورية الاستعمارية لولا عملية الإنزال و تدخل الولايات المتحدة الأمريكية التي أنقذت فرنسا من الضياع بمساهماتها الاقتصادية الهامة.

إلا أن ما شد انتباهنا من هذا الكم الهائل من الوثائق الأرشيفية المتعلقة بالأمور الاقتصادية أن هناك تناقضات كبيرة و عديدة بين مختلف المصادر الأرشيفية الفرنسية التي تناولت الموضوع. إذ وجدنا اختلافات كثيرة في الأرقام المقدمة من مختلف المصادر و المصالح التي كانت لها علاقة بالشأن الاقتصادي. إذ لا يعقل أن تسوء الأوضاع الزراعية مع بداية الحرب، خاصة سنوات 1939 و 1940 و 1941، بسبب سوء الظروف المناخية، و تتحدث المصادر عن زيادة في الإنتاج. لذلك الأمر يتطلب مراجعة دقيقة لكل هذا الأرشيف المبني على الإحصائيات المقدمة و التي تبقى مرهونة بطبيعة المصدر و الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها.

تغيرت الأمور بعدما انقلبت موازين القوى في الصراع العالمي، بمجرد دخول الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحرب. فكان لعملية الإنزال للقوات المتحالفة في الثامن من نوفمبر 1942، و ما رافقها من حملات دعائية تجاه شعوب شمال إفريقيا من كل الأطراف المتنازعة، أثارها في شد انتباه الزعماء الوطنيين، و

خاصة السياسيين منهم، الذين كانوا يتابعون عن كثب، تطورات الأحداث و تسارعها ، فحاولوا استغلال الظرف للعودة بقوة إلى نشاطهم السياسي و إلى حركتهم المطالبة التي ظنوا أن الحلفاء و فرنسا الحرة ستلبي جزءا منها بمجرد أنهم وقفوا إلى جانبهم ضد الألمان.

فتوسعت دائرة مطالبهم، و نمت جرأتهم لدرجة الاتصال بالحلفاء مباشرة دون المرور بالفرنسيين. ف جاء البيان الجزائري للعاشر فبراير 1943 و بيان الاستقلال المغربي في الحادي عشر من جانفي 1944، و اعتلاء العرش من طرف "منصف باي" في 19 جوان 1942، لتغير من نظرة مسلمي شمال إفريقيا للمشكلة الاستعمارية التي يتخبطون فيها منذ عقود و لتضع الجميع أمام مسؤولياتهم التاريخية، التي تضمنتها بنود و نصوص ميثاق الأطلسي، لتحرير الشعوب و منحها حق تقرير مصيرها. فمطالب البيان تجسدت كأرضية لبرنامج وطني في كل من الجزائر و المغرب، حيث لقيت تأييد كل أطراف الحركة الوطنية و معها السلطان المغربي. أما في تونس فكانت مهمة "الباي منصف" تتجلى في التعامل مع الإرث الذي تركه له "أحمد باي" المنبوذ.

كما ساهمت الحرب العالمية الثانية في صنع "فرحات عباس" الجديد، و إخراجه إلى واجهة الزعامة كرمز من رموز الوطنية. فكانت جل مبادراته تتم بالتشاور مع الزعماء الوطنيين في حزب الشعب و جمعية العلماء، حتى يعطيها الصبغة الوطنية، كما كانت له زيارات ميدانية داخل و خارج البلاد، خاصة إلى المنطقة الغربية في مناسبات عديدة و حساسة: في مارس 1943 من أجل تحقيق الإجماع حول البيان الجزائري، و في مارس 1944 و بعدها في جويلية من نفس السنة للمساهمة في تشكيل خلايا أحباب البيان و الحرية، كرد فعل على الإصلاحات الوهمية التي تضمنها قرار 7 مارس 1944 و قرارات لقاء "برازافيل". كما توجه إلى تونس و فرنسا أين كانت له لقاءات مع "الحبيب بورقيبة" و زعماء الحركة الوطنية هناك و التقى بالزعيم المغربي علال الفاسي في باريس ما جعله يكسب علاقات ودية و أخوية معهم.

و أعقبت ذلك، زيارات ميدانية أخرى إلى الغرب الجزائري بعد نهاية الحرب في 1947، أشارت إليها بعض الصحف منها صحيفة "المساواة"، L'égalité و ذلك للتعرض لنتائج الانتخابات التي تمت في نوفمبر 1946، و أيضا لشرح الخطوط الكبرى للحزب السياسي الذي أنشأه و سماه "الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري"، و الذي أراد به عباس استمرارية للصيرورة التي كانت عليها حركة أحباب البيان و الحرية. و يمكننا اعتبار هذا التحول في فكر "فرحات عباس" من النتائج الإيجابية للحرب في جانبها السياسي على مستقبل الحركة الوطنية ككل.

أما عن دور حزب الشعب الجزائري، فقد أظهرت عناصره حنكة في النضال و تجربة في طريقة تعبئة الشعب، لأنها كانت تمتلك أسلوب الإقناع و الشعور بالقوة المعنوية أكثر من ذي قبل، فتجسدت مشاعرها هذه في أحداث 8 ماي 1945 التي لوحظ على تنظيمها بصمة حزب الشعب الذي تبنى المطلب الشعبي المتمثل في رغبة الجزائريين الحصول على استقلالهم.

هذه الأحداث، التي تضاربت حولها الأقوال و الأرقام، ميزتها حملة الاعتقالات التي عرفتها البلاد في المنطقة الشرقية بسطيف و قالمة و خراطة و عنابة و قسنطينة و المنطقة الغربية في كل من تيارت و عين تموشنت و سيدي بلعباس و سعيدة وهران و معسكر و المرسى الكبير، خلال صائفة 1945. و جاءت في سياق الأحداث التي عرفتها مدينة سعيدة في المنطقة الغربية خلال شهر ماي، و ما نتج عنها من ردود أفعال إيجابية داخل مدن الغرب الجزائري. و هذه العدوى التي انتقلت من الشرق إلى الغرب أظهرت تغلغل الأفكار الوطنية، و أيضا صلابة هياكل حزب الشعب في المنطقة الغربية.

و لم ينته الأمر إلا بعد نجاح التيار "الديغولي" العائد بقوة و الحامل لأسطورة "فرنسا الحرة"، التي عادت بالفرنسيين إلى نداء 18 جوان 1940، عندما سقطت فرنسا في أيدي الألمان. و كان حلم اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني هو القضاء على كل محاولات الانفصال، سواء كانت جزائرية أم مغربية أم تونسية، و تجلى ذلك بوضوح في سير أعمال و نتائج مؤتمر "برازافيل" التي قال عنها "ديغول" في 28 جانفي 1944، أن فرنسا لن تقوم سوى بإصلاحات مبنية على قرارات الدولة الفرنسية و عادات و احتياجات السكان في المستعمرات.

و حاولت فرنسا إدخال "الحلول العاجلة" لتحضير إصلاحات من شأنها أن ترضي الجزائريين دون أن تخدش مشاعر الكولون و مصالحهم... غير أن تلك المحاولات جاءت متأخرة، فلا قرارات مارس 1944، و لا الاضطهاد و القمع الممارس على الشعب في أعقاب أحداث الثامن ماي 1945، و لا انتخابات 1946، و لا حتى قانون 1947، كان بإمكانهم توقيف عجلة التاريخ في طريقها لرفض الاستعمار و تحقيق الاستقلال..

أما في المجال الاقتصادي، فقد أصبح غالبية الشعب غير قادر على تلبية حاجاته المعيشية. و لم يخسر الفلاح الجزائري أجود أراضيه فقط، و إنما اضطر إلى تركها و النزوح عنها نحو مناطق أقل بكثير من مستوى تلك التي كان يملكها. هذا الوضع راجع إلى انخفاض إنتاج الحبوب خلال مواسم عديدة و متتابة و تقلصت الثروة الحيوانية، من غنم و ماعز خاصة، بشكل مخيف. بالإضافة إلى صعوبة الظروف الطبيعية المتمثلة في قلة الأمطار و توسع نطاق دائرة الجفاف، لدرجة جعل من أرض الجزائر قبلة لزحف الجراد. أما الوضع الاقتصادي في المدن فقد عكس تدهور الظروف العامة للبلاد التي باتت على عتبة حملة تهجير واسعة النطاق، على الصعيدين الداخلي و الخارجي.

و الحقيقة أن هذا الجانب أثر على الجزائريين في حياتهم اليومية منذ بداية الحرب، بحيث أنه أدى إلى انعدام الغذاء الذي استحوذت عليه حكومة "فيشي" لتساهم به في مجهودها الحربي، و قد أصبحت لباريس و جبهات القتال المختلفة، الأولوية في كل الدعم المادي و البشري الأتي من أرض الجزائر. و أصبحت حياة الجزائريين اليومية صعبة، حيث عانوا من ندرة المواد الغذائية و ارتفاع أسعارها، و تراجع الأجور عند مختلف الفئات العاملة، و انتشار ظاهرة البطالة بشكل ملفت للانتباه، و انتشار السوق السوداء، خلال و بعد

الحرب، الأمر الذي حاولت الإدارة الاستعمارية تداركه من خلال مشاريع سطحية لم تكن في الأصل سوى مناورة استعمارية جديدة لتهدة الأوضاع خوفا من أي

إلا أن الجوع و الظروف الاقتصادية الصعبة، كانت هينة على الجزائريين الذين برهنوا في مناسبات عديدة على قدرتهم على تحمل ذلك، بدليل أن أحداث الثامن ماي 1945 عبرت عن رغبة في التحرر و التخلص من قيد الاستعمار، و لم تكن أبدا انتفاضة جوع كما أراد الفرنسيون أن يصورها لنا.

اجتماعيا، فإن تأثير الحرب العالمية الثانية على المجتمع الجزائري بدا واضحا و صعبا في نفس الوقت. فالأيام تشابهت على الجزائريين الذين عانوا من ندرة المواد الغذائية، و المواد الضرورية للاستعمال المنزلي، و من تماطل عمليات التموين، بسبب فرض بطاقات التقنين على الجزائريين حتى يتم تزويدهم بالمواد الغذائية و الألبسة الضرورية.

هذه الحالة فتحت أبواب المضاربة و الانتهازية أمام السماسرة، الذين روجوا لانتشار السوق السوداء التي أرهقت كثيرا الجزائريين. كما زاد استغلال ثروات الجزائر لخدمة مصالح الاستعمار الفرنسي و هذا لإعادة إعمار و بناء ما خربته هذه الحرب، فانعكس ذلك سلبا على الجزائريين الذين وصل 80% منهم عتبة الفقر، كما أشار إلى ذلك المؤرخ "نوشي"، و اعتبر أن الحرب العالمية الثانية قد زادت في وتيرة التطور لمختلف الأزمات التي عرفت الجزائر.

و تواصلت معاناة الجزائريين في المنطقة الغربية و اتخذت أشكالا متنوعة تجسدت في انتشار الأمراض و الجوع و ارتفاع عدد البطالين بسبب عجز مكاتب التشغيل توفير أي مناصب عمل لهم. فأصبحوا يشكلون قوة هائلة أضيفت إلى الأعداد الهائلة من البطالين.

أما القضايا التي كان لها وزنها في المجال الاجتماعي، خلال فترة الحرب، نذكر مسألة النمو الديمغرافي، بشكل عام، التي أقلقت كثيرا الإدارة الاستعمارية و الكولون بعدما تضاعف عدد الجزائريين فيما بين 1931 إلى 1948. و تحول هذا القلق إلى تخوف عندما بدأ عدد الجزائريين يتزايد بشكل مخيف في المدن لدرجة أنه أصبح يشكل خطرا على الوجود الفرنسي ذاته. فبدأ المستقبل و كأنه يبدو مظلما بالنسبة للفرنسيين.

هذه النقطة كانت من الإيجابيات الهامة للحرب العالمية الثانية في الجانب الاجتماعي، لأنها رجحت كفة العدد لصالح الجزائريين في معظم مدن المنطقة الغربية باستثناء مدينة وهران التي بقي العنصر الأوروبي يسيطر فيها. و أكثر من ذلك، فإن الأوروبيين في الأرياف أصبحوا يعيشون حالة من الذعر و الخوف، ساهمت بقسط كبير في هجرتهم نحو المدن.

و قد لعبت الطبقة الشغيلة الجزائرية و التونسية، أيضا، دورا بارزا في إعطاء البعد الوطني للحركة السياسية في البلدين، من خلال فرض وجودها و تأثيرها المتواصل على السلطات الاستعمارية للحصول على

المزيد من الاعترافات بشأن تنظيمها النقابي، و الذي أصبح يشكل في الحقيقة دائرة من دوائر التكوين السياسي، ساعدت على نشر الوعي و ثقافة التنظيم في أوساط الطبقة العاملة خصيصا بعد الإضرابات التي عرفتها البلاد التونسية و الجزائرية في أوت 1946 و ماي 1956.

فيما يتعلق بالمغرب، فقد أدت ظروف الحرب العالمية الثانية إلى تلاحم قوي و ملفت بين السلطان و شعبه، من جهة، و السلطان و باقي زعماء الحركة الوطنية المغربية. الأمر الذي قوى المغاربة في مواجهة الاستعمار الفرنسي، حتى و لو لمسنا في العديد من المحطات غياب اللمسة الشرعية التي بقيت تتحكم فيها فرنسا إلى أبعد حد.

من الذين يهتمون بالتطور السياسي و الإيديولوجي لسكان المغرب، نرشدهم إلى مختلف التقارير التي قامت بإعدادها مختلف المصالح الأمنية الفرنسية حول الحالة العامة للمسلمين، و شهاداتهم المختلفة، و أيضا شهادة الوطنيين الذين انضموا إلى صفوف ألمانيا. قد نضع هذا في نفس خانة دراسة الحصص الألمانية التي تبث عبر الإذاعات أو مختلف أشكال الكتابات الدعائية. إن دراسة متقضية تجاه مختلف الاتجاهات صعبة نوعا ما نظرا لوجود كم هائل من الأرشيف الفرنسي للحقبة المدروسة تحت طائل الممنوع. لذلك فالأعمال لا يمكن أن تكون سوى مؤقتة.

أما إنتاج الحبوب، فقد لبي احتياجات السكان المغاربة خلال الفترة الممتدة من 1940 إلى 1942، و ساهم حتى في دعم الطلبات الملحة من الجزائر و تونس. و في المقابل أصبحت الوضعية صعبة بالنسبة للوقود الذي يستعمل بكثرة في النقل عبر الطرقات. و أصبح المخزون لا يكفي سوى 3 أشهر من الاحتياجات إلى غاية سبتمبر 1940. فلجأ السكان إلى مواد مشابهة كالكحول مثلا. كما تم تنظيم التنقل بالنسبة للخواص و النقل البري و الاحتياجات الفلاحية و الصناعية و التجارية لسكان المغرب. (في الخاتمة)

فظهرت بوادر القطيعة بين الجزائريين و الفرنسيين، و أصبحت واضحة بالنظر للواقع المعاش خلال فترة الحرب العالمية الثانية، حيث كان الشعور السائد هو فقدان الأمل نتيجة اندثار الطموحات السياسية، و انهيار الأحلام بسبب الموقف الاستعماري السليبي الذي كان عاجزا عن إيجاد حلول للتغيير، مما جعله يراهن على الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية لقهر الجزائريين. و قد حمل تقرير "توبير" Tubert المشهور، معالم واضحة عن هذه القطيعة التي تجسدت في تنافر المجتمعين، و أكد في نفس الوقت على حالة الغليان التي كان فيها الشعب الجزائري.

هذا الموقف زاد من كراهية الجزائريين تجاه الأوروبيين في مختلف مدن و أرياف المنطقة الغربية، و كان ذلك واضحا في الشوارع و داخل الأحياء، و في المقاهي و حتى المدارس و الأندية لم تنجوا من تلك المشاعر. فارتفعت معنويات الجزائريين، و أصبحوا أكثر قوة و جرأة أمام الإدارة الاستعمارية و الكولون. فاشتدت المواجهة بينهم و بين المستعمر إلى حد بلوغ درجة التحدي. هذا الواقع دفعهم إلى توطيد التضامن المشترك و

إحداث التحول داخل الحركة الوطنية التي جندت كل طاقات الشعب السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و حتى الثقافية لمواجهة طبيعة الاستعمار الفرنسي.

و تتضح أهمية هذا التحالف الفرنسي أكثر، عندما نتعرف على ما حدث داخل الجزائر، لما هم حوالي 80% من الأوروبيين إلى الانقلاب إلى مساندين للنظام النازي و بذلك أصبحوا من الأنصار المتشددون لنظام فيشي. هذا لم يمنعهم مرة أخرى من الانقلاب على أعقابهم و التحول إلى حلفاء للقوات الأمريكية و الإنجليزية الجديدة، في ظل صراع طويل على السلطة.

خاتمة

إن ديمقراطية العالم الحر التي روج لها من خلال المؤتمرات الكبرى في فترة الحرب لم تكن لتعني الجزائريين، أكثر من غيرهم من شعوب شمال إفريقيا و لا حتى المستعمرات الفرنسية لما وراء البحار. لأن الحلفاء اعتبروا قضية الجزائر و الجزائريين أمرا داخليا في الشؤون الفرنسية، و كان هدفهم الرئيسي هو القضاء على العدو النازي و وضع حد لهذه الحرب. و لم تكن حاجتهم سوى إلى الترسانة البشرية المتكونة من الجزائريين، خاصة، و سكان شمال إفريقيا عامة.

هذا الموقف الذي أبداه الحلفاء جعلهم يبتعدون كل البعد عن مبادئ ميثاق الأطلسي التي روجوا لها في القارة الأوروبية دون المناطق الأخرى. فكانت أول هفوة تحسب عليهم. هذا الموقف السلبي من الحلفاء هو الذي شجع ديمقراطية فرنسا الحرة على التماذي في غطرستها و جبروتها اتجاه شعوب شمال إفريقيا، عامة و الشعب الجزائري بشكل خاص، ما دام أنه هو الذي دفع ثمن تحرر الأشتاء في تونس و المغرب و دفع ثمن "الحلم" الفرنسي في الإبقاء على الجزائر فرنسية.

كما مثلت الحرب العالمية الثانية إحدى الحلاقات الهامة في السياسة العالمية و حتمية تاريخية مفادها أن تكون لها نهاية، تفصح عن هوية الغالب و المغلوب. قد يجني الغالب منها مأساة الدمار و المغلوب فيها سوى الأنين.

إنها النهاية المتناقضة لجل الحروب الكونية التي خاضتها الشعوب و الحكومات، و مهما حاولنا التخفيف من حدتها إلا أن أثارها بالغة و واضحة امتدت عواقبها إلى الأجيال المستقبلية. أما المستعمرات، التي لعبت الدور "اللوجستي" المفروض عليها، فقد عانت من تداعيات الحرب العالمية الثانية لدرجة جعلت منها حلقة أساسية في اللعبة. فاستقرت بها التحالفات، و عقدت بها المواثيق، و ساهمت بكل إمكانياتها في تحديد نتيجتها. فعمدت إلى فرض وجودها حتى و إن كلفها ذلك الكثير.

من هنا يظهر تأثير هذه الحرب على منطقة شمال إفريقيا في ميادين شتى، بفعل مساهمتها البشرية و المادية. كما أن الارتباط الاقتصادي المتين بين فرنسا و شمال إفريقيا يعد عاملا أساسيا زاد من حدة هذا التأثير لدرجة أن النسبة الكبيرة مما كان ينتج في الأقطار الثلاثة كان يصدر إلى فرنسا عنوة أو للضرورة الحربية أحكام... و قد عبرت عن ذلك إحدى الجرائد الجزائرية في مطلع سنة 1946 عندما لخصت حالة الجزائر على أنه أصابها إعصار، و أن الإدارة الفرنسية عاجزة عن تسيير شؤون المسلمين.

و من خلال تتبعنا لأهم أحداث الحرب العالمية الثانية في الجزائر و المغرب و تونس، و المنطقة خالصنا إلى حقيقة مفادها أن هذه الفترة كانت جد مميزة، بدليل أن وقع الحرب على المسلمين في شمال إفريقيا و بالأخص التيارات السياسية الوطنية، و الأوساط السياسية الاستعمارية كان واضحا. و عليه يمكننا القول

بأن هذه الحرب قد أثرت سلبا على سكان شمال إفريقيا في عدة جوانب، و إيجابا في جوانب أخرى. فمظالم الاستعمار و مجريات الحرب و انعكاساتها، هي التي جعلتهم يشعرون بحقيقة مشكلتهم مع المستعمر و ضرورة التأهب لمواجهة عاجلا أم آجلا.

فإذا رجعنا إلى الفرضيات التي صاحبت إشكالية الموضوع، فنبداها من محطة البحر الأبيض المتوسط التي شهدت تباين من حيث الاهتمامات في المرحلة الأولى، سرعان ما انقلبت إلى البحث عن تأمين المجال الحيوي، بحكم أن المنطقة باتت مهمة في الصراع الأوروبي، بدخول فرنسا طرف فيها منذ إعلانها الحرب على ألمانيا في الثالث سبتمبر من سنة 1939. و العالمي بعد نزول قوات الحلفاء في نوفمبر 1942. لكن ذلك لم يكن ليشكل سببا مباشرا لهذا التحول لولا الاهتمام الإيطالي، على وجه الخصوص، بهذا الجزء من العالم مرده إلى الذاكرة الحضارية الرومانية التي حاولت إيطاليا بعثها من جديد، مستغلة دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا التي كانت الحصان الرابع حينها.

تحولت منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى خيار إستراتيجي لسببين هامين نراهما كفيلين يجعل هذا الجزء لضفتين إحداهما في أوروبا و الأخرى في إفريقيا ، ضمن المخطط "الحيو-إستراتيجي" للمراحل اللاحقة التي سوف تفصل في هوية المنتصرين في الحرب، أولهما اقتصادي و الثاني عسكري.

فتأمين طرق المواصلات بين أجزاء القارة الأوروبية و القارة الإفريقية، من جهة، بما فيها الجزر الموصولة بالطرق التجارية البحرية. و بين القارة الأوروبية و القارة الآسيوية من جهة أخرى، كقيل بأن يضمن استمرارية تدفق البضائع و السلع ذات الاستهلاك الواسع في جميع الاتجاهات. خاصة بالنسبة لفرنسا التي عملت كل ما في وسعها للحفاظ على وحدة إمبراطوريتها في شمال إفريقيا، لأنها كانت تدرك، أمام الاختلال الواضح في موازين القوى، بأن المنطقة سوف تتحول مع تطور الأحداث إلى منطقة قد تتغير بسببها أمور كثيرة.

أما السيطرة على هذه الطرق فلن يتأتى إلا إذا كانت الأطراف المتنازعة قوية عسكريا و سيدة في موقعها. هذا ما لم نلمسه عند فرنسا التي فقدت بريقها بمجرد استسلامها أمام القوات الألمانية في جوان 1940. من هنا اتضحت أهمية البحر المتوسط بدخوله دائرة اهتمامات إيطاليا التي كان دائما يراودها حلم استعادة أمجاد الماضي.

قد يقول البعض لما نشدد على إيطاليا بالذات؟ فالجواب وجدناه في إحدى النشريات للجنة إفريقيا الفرنسية الخاصة بالجزائر لسنة 1939، و التي ذكرت مقال لباحثة أمريكية اسمها "إليزابيث مونرو" Elisabeth Monroe جاءت في مهمة بحث علمي لمدة 15 شهرا ، فخلصت إلى استنتاج مفاده أنها: "لم أجد الكثير من الكتب التي تتحدث عن السياسة المتوسطية، باستثناء واحدا و هو لكاتب إيطالي. عندها تيقنت أن الموضوع شاسع و ليس له حدود و يصعب التحكم فيه.. فالبحر المتوسط كان دائما وسيلة دون أن يكون نهاية.. إلا بالنسبة لإيطاليا..و المقصود هنا ليس السيطرة الإيطالية في حد ذاتها و إنما السياسة الإيطالية بأكملها و

المبنية على حلم "المار نوستروم" mare nostrum الذي كان يراود الساسة الإيطاليين منذ سنيين. و قد سمح احتلال "الحبشة" و دعمهم الجنرال "فرانكو" في إسبانيا، إلى دق ناقوس الخطر على كل القوى التي لها مصالح في المتوسط، و بدت لهم و كأنها أصبحت "مشكلة سياسية" كان لا بد من التأقلم معها. و كان على بريطانيا و فرنسا أن تحدد معالم سياستها في هذا الجزء من القارة الإفريقية.

حيث كانت تصريحات رؤساء هذه الدول تصب كلها في خانة واحدة: "علينا الدفاع عن مصالحنا في البحر المتوسط...". إذن فالمسألة قضية رهانات سياسية في المتوسط هي التي تضع قواعد اللعبة الاقتصادية و العسكرية حتى تبقى كل دولة محافظة على مصالحها. لكن بدخول ألمانيا ثم إسبانيا و روسيا، التي كانت تبحث عن منفذ من البحر الأسود نحو البحر الأبيض، و بعدها تركيا، حلبة الصراع على مناطق النفوذ، تغيرت المعطيات و ظهر جليا أن الطريق "جبل طارق - قناة السويس" هو الذي سيحدد بنسبة كبيرة القواعد الجديدة لموقف مختلف الدول من المفهوم "الجيو-سياسي".

أما الاستعمار الفرنسي، فرغم حالة الانخيار التي أصابته في منتصف سنة 1940 عندما تحطمت أسطوره على يد الجيوش الألمانية، إلا أن سياسته تجاه بلدان شمال إفريقيا لم يطرأ عليها أي تغيير. فالجزائريون لا يزالون يعيشون تحت ثقل القوانين الاستثنائية، التي اشتدت حدتها بسبب ظروف الحرب الخاصة، و التي سمحت لفرنسا بتشديد قبضتها على مختلف مجالات الحياة الجزائرية. فشهدت بداية الحرب حركة قمعية واسعة النطاق مارستها الإدارة الاستعمارية ضد قادة و مناضلي حزب الشعب، أولا، ثم انتقلت لتشمل مختلف مناضلي و شخصيات القوى السياسية الوطنية الأخرى. و ازدادت تلك الحركة القمعية حدة مع تغيير النظام في فرنسا، و مع مجيء حكومة "فيشي" انقلبت الأوضاع لدرجة أن أصبح تحالف فرنسا مع القوى، التي كانت تنعتها بالفاشية، أمرا حتميا. و هذا الموقف جسده مواقف جريدتين من أكبر الجرائد الفرنسية في باريس، و هما: "الوقت" و "الفيغارو" Le Temps et Le Figaro ، اللتان سخرتا أعمدة جرائدها لخدمة السلطة الجديدة في فرنسا و حلفائها في برلين و روما.

تواصلت السياسة التي أقدمت عليها الإدارة الاستعمارية إلى حل نشاط كل الأحزاب السياسية في المغرب و تونس بحجة الحفاظ على الأمن و الاستقرار. و لم تبقي إلا على القنوات الرسمية التي كانت تتعامل معها من قبل. و اشتد الأمر مع تولي حكومة فيشي السلطة، لدرجة أنه بات على المغاربة التعامل مع مشروع "الثورة الوطنية" الذي جاء به المارشال "بيتان".

هذا الواقع سمح لحكومة "فيشي" باستعمال الأساليب التقليدية المعروفة للدفاع عن ممتلكات الإمبراطورية الفرنسية في كل مكان. حيث لم تكن هناك أوضاع خاصة بمنطقة عن أخرى إلا نادرا، خاصة خلال أطوار الحرب الأولى و ما صاحبها من تقلبات سياسية و عسكرية أدت إلى تغلب معسكر على آخر ما استدعى بفرنسا إلى إبرام "هدنتها" الشهيرة مع الألمان، و ما ترتب عنها من تغيير في السياسة البريطانية تجاه

حكومة "فيشي" الجديدة. و بالمعنى الدقيق فالحركة الوطنية في شمال إفريقيا لم تكن موحدة لمواجهة ضعف الاستعمار الفرنسي مع بداية الحرب. لأن الوطنيين الحقيقيين كانوا في أغلب مراحل الحرب مغيبين بسبب رفضهم مساندة فرنسا في حربها ضد النازية. فهناك من زج بهم في السجون، و آخرون اقتيدوا إلى المنفى، الأمر الذي عجل بتعزيز التقارب بين مختلف التيارات الوطنية، محليا، كما حدث ذلك في الجزائر بين عناصر حزب الشعب و جمعية العلماء الجزائريين، و في المغرب بين الزعماء الوطنيين و السلطان و في تونس بداية بحركة "الشباب المسلمين" و الدستوريين بشقيهما.

بالنسبة للجزائر، فقد قامت الحركة الوطنية باستعمال طرق و أساليب جديدة للحصول على الحقوق المهضومة، فاستعملت الأسلوب السياسي و اعتمدت عليه كخيار إستراتيجي و علقت عليه آمالا كبيرة حتى تصل إلى مرحلة الانفتاح السياسي التي سوف تغير الكثير من أوضاعها. غير أن هناك جماعة من حزب الشعب و بمساعدة شخصيات من المشرق، همّت إلى الاتصال بالألمان فتشكلت اللجنة الجزائرية الثورية لشمال إفريقيا CARNA التي راحت تعمل في الاتجاه المعاكس بالرغم من تحذيرات مصالي الحاج من سجنه لهذا الموقف. ولم يبق ينشط على الساحة السياسية سوى تيار النواب، بزعامة فرحات عباس، الذي كانت مطالبه إصلاحية بعيدة كل البعد عن فكرة الاستقلال و الانفصال عن فرنسا في تلك الظروف على الأقل. و كانت الشهادة التي أدلى بها علال الفاسي في مذكراته بخصوص النهج المتبع من طرف فرحات عباس، و التي تطرقنا إليها في الفصل الثالث، خير دليل على اهتمام الرجل بالمسائل الوطنية و بمستقبل بلاده. فكانت مساعيه لا تتعدى محاولات إقناع النظام الجديد بتخفيف الأعباء على الجزائريين و ذلك بالقيام ببعض الإصلاحات التي لم تر النور أبدا.

و مهما يكن من أمر، فإن حكومة "فيشي" همشت العناصر النشيطة من النواب، التي كانت تدافع عن مصالح الجزائريين، و خيبت آمالهم، و منهم "فرحات عباس". و سيكون لهذا الإقصاء و التهميش و رفض المطالب، أثره البالغ في تغيير نظرته حيال المسألة الجزائرية، و اتخاذ موقف معارضا لفرنسا. مما يجعل التوجه الاستقلالي ينمو لديه بعد فشل كل المحاولات لحمل فرنسا على قبول مبدأ تغيير أوضاع الجزائريين.

أما في المغرب، فالأمر اختلف نوعا ما باعتبار أن المغرب كان يتمتع بنفوذ داخلي ممثل في شخص السلطان الذي أبدى ولاءه منذ البداية لفرنسا، فسار على خطاه زعماء الحركة الوطنية الذين أبدوا تضامنهم مع فرنسا من خلال النشريات الدعائية التي كان يوزعها أعضاء حزب الاستقلال الذين كانوا لا يزالون طلقاء. لأن غالبية القيادة كانت موجودة في السجن على طريقة ما حدث للزعماء الجزائريين.

و إذا كان غالبية المغاربة يتمنون انتصار الألمان مما سيحررهم من الوصاية الفرنسية، إلا أن الوطنيين لم يكن لهم أدنى شك عن النوايا الحقيقية لهتلر. و كاد يحدث للمغاربة نفس الذي حصل للجزائريين عندما حاول "بالفرج" الإطلاع على النوايا الحقيقية للسلطات الألمانية، سائرا في نفس الطريق الذي سار عليه "عبد الخالق

طوريز" في الجزء الإسباني من المغرب، و معهما "الناصري" الذي أبقي على ولاءه لفرنسا. و بقيت فرنسا، حتى بعد تولي فيشي السلطة حاضرة في المغرب بفضل السياسة التي طبقها نوقس و باشتراك السلطان إلى آخر أيام فيشي بعد الاستسلام عند دخول قوات الحلفاء بلاد المغرب في الثامن من نوفمبر من سنة 1942.

فيما يخص التونسيين، فقد بدأت حركتهم المطالبة منذ تشكيل جمعية "الشباب المسلمين" في مارس 1941 بقيادة "رشيد إدريس" و "البسيس" و التي تحولت إلى منظمة ثورية لمكافحة الاستعمار تسمى "باليد السوداء" La main noire. نظمت هذه المنظمة المظاهرات و التجمعات و دعت إلى المسيرة الشهيرة التي انطلقت من "حلفاوين" نحو مقر الإقامة العامة في تونس لتقدم هي الأخرى بيان تطالب فيه الإدارة الفرنسية بإطلاق سراح زعماء الحركة الوطنية المسجونين و المعتقلين في المنفى. و قد وصل الأمر إلى حد اهتمام مجموعة كبيرة من الصحف بالقضية و راحوا يشددون اللهجة مما دفع بالدستوريين إلى كتابة شعارات قاسية تطلب من الاستعمار الفرنسي، لا أقل و لا أكثر سوى مغادرة البلاد.

تغيرت الأمور بعدما انقلبت موازين القوى في الصراع العالمي، بمجرد دخول الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحرب. فكان لعملية الإنزال للقوات المتحالفة في الثامن من نوفمبر 1942، و ما رافقها من حملات دعائية تجاه شعوب شمال إفريقيا من كل الأطراف المتنازعة، أثارها في شد انتباه الزعماء الوطنيين، و خاصة السياسيين منهم، الذين كانوا يتابعون عن كثب، تطورات الأحداث و تسارعها، فحاولوا استغلال الظرف للعودة بقوة إلى نشاطهم السياسي و إلى حركتهم المطالبة التي ظنوا أن الحلفاء و فرنسا الحرة ستلبي جزءا منها بمجرد أنهم وقفوا إلى جانبهم ضد الألمان.

و قد أشارت مصادر محلية عديدة على أن النوايا الأولى للأمريكيين كانت تصب في خانة منح سلطات أكبر للوطنيين في الجزائر بحيث تمكنهم من تشكيل حكومة خاصة بهم على أن يكون نفس الاقتراح للأوروبيين، على أن تسهر لجنة اتصال في تسوية المسائل العالقة بين الطرفين إلى حين تضع الحرب أوزارها و تجرى انتخابات عامة سوف تحدد مستقبل المجلس المشترك الذي ستوكل إليه مهمة تأليف حكومة موحدة. لكن سرعان ما انقلبت الأمور رأسا عن عقب عندما دخل الأميرال "دارلان" المعادلة، ما دفع بالأمريكيين إلى التريث ريثما تنتهي الحرب، لأنهم لم يكونوا مستعدين في هذه الظروف على التخلي عن حليف ساعدهم في استرجاع السيطرة على شمال إفريقيا.

أما بالنسبة للمغرب فكان هدف الأمريكيين هو العمل على الانفراد بها لما وجدوه من مناظر ساحرة و إمكانيات هائلة خاصة و أنه يشرف على واجهة أطلسية قد تفتح الكثير من الأفاق. هذا الاهتمام الأمريكي، دفع بأحد الفرنسيين التعبير عن المغرب حيث قال عنها أنها جوهرة الإمبراطورية، أما تونس فكل شيء كان متوقف على سياسة الباي "منصف".

لم ينته الأمر إلا بعد نجاح التيار "الديغولي" العائد بقوة و الحامل لأسطورة "فرنسا الحرة"، التي عادت بالفرنسيين إلى نداء 18 جوان 1940، عندما سقطت فرنسا في أيدي الألمان. وكان حلم اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني هو القضاء على كل محاولات الانفصال، سواء كانت جزائرية أم مغربية أم تونسية، و تجلى ذلك بوضوح في سير أعمال و نتائج مؤتمر "برازافيل" التي قال عنها "ديغول" في 28 جانفي 1944، أن فرنسا لن تقوم سوى بإصلاحات مبنية على قرارات الدولة الفرنسية و سوف تأخذ بعين الاعتبار عادات و احتياجات السكان في المستعمرات..

و حاولت فرنسا "ديغول" إدخال "الحلول العاجلة"، من خلال لمشروع الذي أسند "لبرك" لتحضير إصلاحات من شأنها أن ترضي الجزائريين دون أن تخدش مشاعر الكولون و مصالحهم... غير أن تلك المحاولات جاءت متأخرة، و لم تحمل معها أي جديد بالنسبة لسكان شمال إفريقيا و لا لحركتهم السياسية. فلا قرارات مارس 1944، و لا الاضطهاد و القمع الممارس على الشعب في أعقاب أحداث الثامن ماي 1945، و لا انتخابات 1946، و لا حتى قانون 1947، كان بإمكانهم توقيف عجلة التاريخ في طريقها لرفض الاستعمار و تحقيق الاستقلال..

فتوسعت دائرة مطالب الوطنيين، ونمت جرأتهم لدرجة الاتصال بالحلفاء مباشرة دون المرور بالفرنسيين. فجاء البيان الجزائري للعاشر فبراير 1943 و بيان الاستقلال المغربي في الحادي عشر من جانفي 1944، و اعتلاء العرش من طرف "منصف باي" في 19 جوان 1942، لتغير من نظرة مسلمي شمال إفريقيا للمشكلة الاستعمارية التي يتخبطون فيها منذ عقود و لتضع الجميع أمام مسؤولياتهم التاريخية، التي تضمنتها بنود و نصوص ميثاق الأطلسي، لتحرير الشعوب و منحها حق تقرير مصيرها. فمطالب البيان تجسدت كأرضية لبرنامج وطني في كل من الجزائر و المغرب، حيث لقيت تأييد كل أطراف الحركة الوطنية و معها السلطان المغربي. أما في تونس فكانت مهمة "الباي منصف" تتجلى في التعامل مع الإرث الذي تركه له "أحمد باي" المنبؤ.

كما ساهمت الحرب العالمية الثانية في صنع زعماء وطنيين في شتى أرجاء بلاد شمال إفريقيا، فظهر "فرحات عباس" الجديد، و خرج إلى واجهة الزعامة كرمز من رموز الوطنية الجزائرية. فكانت جل مبادراته تتم بالتشاور مع الزعماء الوطنيين في حزب الشعب و جمعية العلماء، حتى يعطيها الصبغة الوطنية، كما كانت له زيارات ميدانية داخل و خارج البلاد، خاصة إلى المنطقة الغربية في مناسبات عديدة و حساسة: في مارس 1943 من أجل تحقيق الإجماع حول البيان الجزائري، و في مارس 1944 و بعدها في جويلية من نفس السنة للمساهمة في تشكيل خلايا أحباب البيان و الحرية، كرد فعل على الإصلاحات الوهمية التي تضمنها قرار 7 مارس 1944 و قرارات لقاء "برازافيل". كما توجه إلى تونس و فرنسا أين كانت له لقاءات مع "الحبيب بورقيبة" و

زعماء الحركة الوطنية هناك و التقى بالزعيم المغربي علال الفاسي في باريس ما جعله يكسب علاقات ودية و أخوية معهم.

و ظهر "الحبيب بورقيبة" و "المنصف باي" كأقطاب للحركة المطالبة التونسية، و بعد خلع "المنصف"، بعد تحرير تونس في 7 ماي 1943، لم يبقى سوى زعماء الدستور الجديد الذين حاولوا، رغم كل محاولات الانشقاق التي طالت الحزب، نقل صوتهم إلى الحلفاء و الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على حقوق الشعب التونسي. لكن لم يتحقق لهم ذلك ما دام أن للحلفاء اهتمامات أخرى.

فيما يتعلق بالمغرب، فقد أدت ظروف الحرب العالمية الثانية إلى تلاحم قوي و ملفت بين السلطان و شعبه، من جهة، و السلطان و باقي زعماء الحركة الوطنية المغربية. الأمر الذي قوى المغاربة في مواجهة الاستعمار الفرنسي، حتى و لو لمسنا في العديد من المحطات غياب اللمسة الشرعية التي بقيت تتحكم فيها فرنسا إلى أبعد حد.

أما عن دور حزب الشعب الجزائري، فقد أظهرت عناصره حنكة في النضال و تجربة في طريقة تعبئة الشعب، لأنها كانت تمتلك أسلوب الإقناع و الشعور بالقوة المعنوية أكثر من ذي قبل، فتجسدت مشاعرها هذه في أحداث 8 ماي 1945 التي لوحظ على تنظيمها بصمة حزب الشعب الذي تبنى المطلب الشعبي المتمثل في رغبة الجزائريين الحصول على استقلالهم.

هذه الأحداث، التي تضاربت حولها الأقوال و الأرقام، ميزتها حملة الاعتقالات التي عرفتها البلاد في المنطقة الشرقية بسطيف و قالمة و خراطة و عنابة و قسنطينة و المنطقة الغربية في كل من تيارت و عين تموشنت و سيدي بلعباس و سعيدة وهران و معسكر و المرسى الكبير، خلال صائفة 1945. و جاءت في سياق الأحداث التي عرفتها مدينة سعيدة في المنطقة الغربية خلال شهر ماي، و ما نتج عنها من ردود أفعال إيجابية داخل مدن الغرب الجزائري. و هذه العدوى التي انتقلت من الشرق إلى الغرب أظهرت تغلغل الأفكار الوطنية، و أيضا صلابة هياكل حزب الشعب في مختلف مدن البلاد. و قد حمل تقرير "توبير" Tubert المشهور، معالم واضحة عن هذه القطيعة التي تجسدت في تنافر المجتمعين، و أكد في نفس الوقت على حالة الغليان التي كان فيها الشعب الجزائري.

و الحقيقة أن الجانب الاقتصادي أثر كثيرا في الحياة اليومية للسكان المسلمين منذ بداية الحرب، الأمر الذي أدى إلى انعدام الغذاء الذي استحوذت عليه حكومة "فيشي" لتساهم به في مجهودها الحربي، و قد أصبحت لباريس و جبهات القتال المختلفة، الأولوية في كل الدعم المادي و البشري الأتي من أرض المغاربة المسلمين و ارتفعت الأسعار، و تراجعت الأجور عند مختلف الفئات العاملة، و انتشرت ظاهرة البطالة بشكل ملفت للانتباه، و انتشرت السوق السوداء، خلال و بعد الحرب، الأمر الذي حاولت الإدارة الاستعمارية

تدركه من خلال مشاريع سطحية لم تكن في الأصل سوى مناورة استعمارية جديدة لتهدئة الأوضاع خوفا من أي طارئ.

إلا أن الجوع و الظروف الاقتصادية الصعبة، كانت هينة على السكان المسلمين الذين برهنوا في مناسبات عديدة على قدرتهم على تحمل ذلك، بدليل أن أحداث الثامن ماي 1945 عبرت عن رغبة في التحرر و التخلص من قيد الاستعمار، و لم تكن أبدا انتفاضة جوع كما أراد الفرنسيون أن يصورونها لنا. نفس الملاحظة تنطبق على أحداث فاس 1944 و أحداث الدار البيضاء في 1947، و مظاهرات الثامن ماي في تونس بمناسبة انتصار الحلفاء و إضراب العمال في 4 أوت 1947.

هذا التأثير تواصل بالرغم من معاناة سكان شمال إفريقيا حيث تقلصت المحاصيل الزراعية لأسباب شتى و قلت البضائع و المواد الغذائية في الأسواق و عند التجار مما ساعد على ظهور سوق موازية استثمرت كثيرا في بؤس و غبن أهالي شمال إفريقيا. فظهرت سياسة تقنين المواد الغذائية و بطاقات التموين و غطرت الإدارة العسكرية التي كانت تحمي مخزونها الحربي على حساب المواطنين المسلمين ، إذ لم تترك للإدارة الاستعمارية المدنية أي فرصة في تنظيم السوق الداخلية التي بدأت تتراجع شيئا فشيئا إلى حد الوصول إلى الأزمة الغذائية التي كادت تفتك بالإمبراطورية الاستعمارية لولا عملية الإنزال و تدخل الولايات المتحدة الأمريكية التي أنقذت فرنسا من الضياع بمساهمتها الاقتصادية الهامة.

إلا أن ما شد انتباهنا من هذا الكم الهائل من الوثائق الأرشيفية المتعلقة بالأمور الاقتصادية أن هناك تناقضات كبيرة و عديدة بين مختلف المصادر الأرشيفية الفرنسية التي تناولت الموضوع. إذ وجدنا اختلافات كثيرة في الأرقام المقدمة من مختلف المصادر و المصالح التي كانت لها علاقة بالشأن الاقتصادي. إذ لا يعقل أن تسوء الأوضاع الزراعية مع بداية الحرب، خاصة سنوات 1939 و 1940 و 1941، بسبب سوء الظروف المناخية، و تتحدث المصادر عن زيادة في الإنتاج. لذلك الأمر يتطلب مراجعة دقيقة لكل هذا الأرشيف المبني على الإحصائيات المقدمة و التي تبقى مرهونة بطبيعة المصدر و الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها.

اجتماعيا، فإن تأثير الحرب العالمية الثانية على المجتمعات المغاربية في شمال إفريقيا بدا واضحا و صعبا في نفس الوقت. فالأيام تشابهت على السكان المسلمين الذين عانوا من ندرة المواد الغذائية، و المواد الضرورية للاستعمال المنزلي، و من تماطل عمليات التموين، بسبب فرض بطاقات التقنين عليهم حتى يتم تزويدهم بالمواد الغذائية و الألبسة الضرورية. هذه الحالة فتحت أبواب المضاربة و الانتهازية أمام السماسرة، الذين روجوا لانتشار السوق السوداء التي أرهقت كثيرا السكان. كما زاد استغلال ثروات بلدانهم لخدمة المجهود الحربي و تدعيما للمتروبول، ما جعل مصالح الاستعمار الفرنسي تبقى محفوظة.

و تواصلت معاناة سكان شمال إفريقيا في العديد من المدن و القرى و اتخذت أشكالا متنوعة تجسدت في انتشار الأمراض و الجوع و ارتفاع عدد البطالين بسبب عجز مكاتب التشغيل توفير أي مناصب عمل لهم. فأصبحوا يشكلون قوة هادئة أضيفت إلى الأعداد الهائلة من البطالين.

و هناك من القضايا التي كان لها وزنها في المجال الاجتماعي، خلال فترة الحرب، نذكر مسألة النمو الديمغرافي، بشكل عام، التي أفلقت كثيرا الإدارة الاستعمارية و الكولون بعدما تضاعف عدد الجزائريين فيما بين 1931 إلى 1948. و تحول هذا القلق إلى تخوف عندما بدأ عدد الجزائريين يتزايد بشكل مخيف في المدن لدرجة أنه أصبح يشكل خطرا على الوجود الفرنسي ذاته. فبدأ المستقبل و كأنه يبدو مظلمًا بالنسبة للفرنسيين.

هذه النقطة كانت من الإيجابيات الهامة للحرب العالمية الثانية في الجانب الاجتماعي، لأنها رجحت كفة "العدد" لصالح السكان المسلمين في معظم مدن شمال إفريقيا، و هذا بالرغم من وجود في بعض الأحيان فائض في السكان لصالح الأوروبيين، كما كان الحال في مدينة وهران، مثلا، التي بقي العنصر الأوروبي يسيطر فيها. و أكثر من ذلك، فإن الأوروبيين في الأرياف أصبحوا يعيشون حالة من الذعر و الخوف، ساهمت بقسط كبير في هجرتهم نحو المدن الداخلية، كما هو الحال في المغرب، و في بعض الحالات اضطروا لمغادرة البلاد نحو المتروبول.

و قد لعبت الطبقة الشغيلة الجزائرية و التونسية، أيضا، دورا بارزا في إعطاء البعد الوطني للحركة السياسية في البلدين، من خلال فرض وجودها و تأثيرها المتواصل على السلطات الاستعمارية للحصول على المزيد من الاعترافات بشأن تنظيمها النقابي، و الذي أصبح يشكل في الحقيقة دائرة من دوائر التكوين السياسي، ساعدت على نشر الوعي و ثقافة التنظيم في أوساط الطبقة العاملة خصيصا بعد الإضرابات التي عرفتھا البلاد التونسية و الجزائرية في أوت 1946 و ماي 1956.

و في الأخير يمكننا القول بأن الحركة الوطنية في بلاد المغرب العربي قد استفادت من عملية نزول قوات الحلفاء على أراضيها و لو أنها دفعت الثمن غاليا في الجوانب المعيشية التي ظلت قاسية. لأن وجود قوات كبيرة بحجم تلك التي كانت موجودة فوق أراضي شمال إفريقيا، قد أعطت الوطنيين نوع من "الأمان" لعدم التعرض لمخاطر من الجانب الفرنسي، حتى ولو أن في بعض الأحيان كانت المواقف الأمريكية غامضة و بعيدة عن القيم و المبادئ التي تغنت بها جراء لقاء الأطلسي الشهير. و ما يمكن للأرشيف أن يكشفه من بشاعة الجرائم المرتكبة في حق المسلمين من طرف الجنود الأمريكيين لا يمكن للولايات المتحدة أن تعوضه و لو افتدت بأعز ما تملك. لأن الحياة البشرية مهما كانت لا تقدر بثمن. و قد يكون للموضوع أهمية في المستقبل إذا ما فتحت كل أرشيف هذه المرحلة أمام الباحثين..

كما يرى البعض من أمثال "أحمد محساس"، أن اندلاع الحرب العالمية الثانية لم يحدث تأثيرا مباشرا في صالح الحركة الوطنية الجزائرية، بالتحديد التي كانت متأثرة بفشل مشروع بلوم-فيوليت. و هذا في حد ذاته يعتبر إحدى انعكاسات الحرب السلبية، لأنه لم يؤد إلى نتيجة ملموسة تخدم مصلحة الحركة الوطنية سياسيا على الأقل في المراحل الأولى من الحرب.

هكذا نستنتج مما تقدم أن الحرب العالمية الثانية قد أثرت بعمق على سكان شمال إفريقيا. أي أن التأثير وصل إلى القرى و المداشر و الدواوير، لأن مظالم الاستعمار و مظاهر الحرب و انعكاساتها؛ هي التي دفعتهم إلى الشعور بمشاكلهم و تكوين نوع من التضامن الوطني و المغاربي المشترك سمح لهم بأن يتحولوا به نحو العمل المنظم داخل الحركة الوطنية الشاملة. من هنا جندت كل طاقات شعوب شمال إفريقيا السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و دفعتها إلى إدراك طبيعة الاستعمار الفرنسي و بالتالي الالتفاف حول زعماء هذه الحركات لتجسيد "الفكرة الوطنية" المتمثلة في تحقيق الاستقلال.

أما من الباحثين الذين يهتمون بالتطور السياسي و الإيديولوجي لسكان شمال إفريقيا، فنرشدهم إلى مختلف التقارير التي قامت بإعدادها مختلف المصالح الأمنية الفرنسية و غير الفرنسية، حول الحالة العامة للمسلمين، و شهاداتهم المختلفة، و أيضا شهادة الوطنيين الذين انضموا إلى صفوف ألمانيا. قد نضع هذا في نفس خانة دراسة الحصص الألمانية التي تبث عبر الإذاعات أو مختلف أشكال الكتابات الدعائية. إن دراسة متقضية تجاه مختلف الاتجاهات صعبة نوعا ما نظرا لوجود كم هائل من الأرشيف الفرنسي للحقبة المدروسة تحت طائل الممنوع. لذلك فالأعمال لا يمكن أن تكون سوى مؤقتة.

بيبايوغرافية البحث

القسم الأول :المصادر

أولا: المصادر الأرشيفية

أ. الوثائق الأرشيفية فى الجزائر

أ- أرشيف مصالح ولاية وهران

1- Séries I : Affaires Musulmanes 1837-1961 :

- Boite N° 197, relative à l'analyse de la presse indigène d'Algérie. 1939-1942.
- Boite N° 201, contenant les bulletins mensuels du centre d'information et d'étude département d'Oran 1939-1945.
- Boite N° 1413, manifestations du PPA à Oran, Mai 1945 et 1946.
- Boite N° 1439, contenant des documents divers sur la défense nationale 1931- Et la guerre de 1939 : mobilisation agricole- mesures de police- états de défense 1942-1943
- Boite N° 2260. I1 : Les Réformes. Centre d'information et d'étude, ainsi que les notes sur l'Oranie 1937.
- Boite N° 2261. I 21, Presses Nationaliste Musulmanes 1935-1961.
- Boite N° 2262, contenant les folios du carnet B relatif aux victimes civiles des 8- 9 et 10 et 11 novembre 1942.
- Boite N° 4063. I 14, ayant trait aux Scouts musulmans 1941-1944, et l'étoile sportive musulmane 1940, ainsi que la jeunesse musulmane 1936-1946.
- Boite N° 4473, I 5. Politique Indigènes 1918-1942- Partis politiques musulmans 1938-1943 et Presses indigènes (journaux interdits 1933-1942).
- Boite N° 4476. I 4 : Surveillance des Indigènes 1939-1945. Contenant des rapports sur les communes mixtes et sur le cheikh El Ibrahimi, ainsi que le retour des prisonniers de guerre.
- Boite N° 4477, I 10. sur la surveillance des indigènes 1936-1944, la dissolutions des délégations financières 1943, partis politiques et le manifeste du peuple Algérien, confréries religieuses 1942-1944.

- Boite 4479, I 15. Affaires des communes mixtes.
- Boite N° 4480, I 11. Affaires divers et états d'esprit des populations musulmanes 1937-1944, à Oran-Tiaret-Mascara- Tlemcen- Sidi Bel Abbes et Mostaganem.
- Boite N° 4481, I 20, Partis politiques musulmans 1938-1944 et PPA, ainsi que Djemia El Falah Oranaise 1939-1942.
- Boite N° 6987. I 2 : Nationalisme Algérien, comprenant : Les Oulémas réformistes.

2- Sous Séries 1 F : Sûreté Générale 1832-1957.

- 1F 273 : Mouvements Sociaux 1894-1949.
- 1F 291 : Mouvements Sociaux 1894-1949.

ب- أرشيف مصالح ولاية الجزائر

- A.W.A, Préfecture d'Alger, CIE N° 765, Alger, du 25 mai 1939.

2. الوثائق الأرشيفية في فرنسا

أ- الأرشيف الوطني لما وراء البحار (أيكس) ANOM

- ANOM, GGA, Aix en Provence, 2Cab/12, commissions propagande "anti-françaises".
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Arrêtés des 11 et 13 septembre 1939.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Circulaire du GG N°1348/ME, du 03 octobre 1939.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Exposé des mesures importantes d'ordre économique prises entre le 1^{er} et le 08 octobre 1939.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Circulaire N° 10740.
- ANOM, GGA, 3Cab/3 travailleurs indigènes volontaires pour la métropole décembre 1939- juillet 1940- Démobilisation- Ecoute des postes étrangers.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Télégramme officiel, Alger-Rabat, 10 aout 1940.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Secrétariat d'état au ravitaillement, N° V3186-SEF, Vichy le 21 octobre 1940.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Télégramme de Tunis 758242140 du GG/Alger.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Note sur le ravitaillement de l'Algérie durant la campagne 1940-1941 de 13 pages
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Etat français, Vichy le 28 novembre 1940, conférence économique nord-africaine.
- ANOM, GGA, 3Cab/3, Communiqué à la presse, A/s restriction dans la consommation du café, N°1280 CC, du 6 septembre 1940.
- ANOM, GGA, 3Cab/4, Document adressé au Général Noguès, juillet 1940.
- ANOM, GGA, 3Cab/4 Rapports de police et de renseignement : attaque anglaise de Mers-el Kébir.
- ANOM, GGA, 3Cab/29 Influence Italienne et propagande, rapport sur la politique italienne 1931-1937, au Maroc et en Algérie.
- ANOM, GGA, 4Cab/1, Ravitaillements en Blé et en soude- récoltes en Algérie..
- ANOM, GGA, 4Cab/2, Bulletin hebdomadaire et politique économique 1939-1940.
- ANOM, GGA, 4Cab/3, Etat d'esprit des indigènes 1939-1940.
- ANOM, GGA, 4Cab/17, Rapport dactylographié de 42 pages -« L'Algérie de demain »- de Ferhat Abbas du 10 avril 1941 présenté au maréchal Pétain.
- ANOM, GGA, 4Cab/17, Résidence générale de la République française au Maroc, 1939-1940-1941.

- ANOM, GGA, 5Cab/1 Dossier relatif au général Weygand.
- ANOM, GGA, 5Cab/2 Rapports des préfets, situation générale, bulletin mensuel.
- ANOM, GGA, 5Cab/6 Conférence nord-africaine sur le ravitaillement, 1942-1943.
- ANOM, GGA, 5Cab/66 Activités indigènes dans le département de Constantine.
- ANOM, GGA, 6Cab/3, Dossier relatif aux rapports Darlan-Giraud.
- ANOM, GGA, 6Cab/4 Dossier relatif à l'Amiral Darlan.
- ANOM, GGA, 7Cab/29, Ravitaillement 1941-1943.
- A.N.O.M, GG.A, 7cab/29, Préfecture d'Alger, du 24 février 1943, difficultés en ravitaillement en blé et farine des communes du département.
- ANOM, GGA, 7cab/29, Commandement en chef français civil et militaire, Alger le 25/02/1943.
- ANOM, GGA, 7cab/29, Secrétariat à la production N° 358/p2, du 25/02/1943.
- ANOM, GGA, 7cab/29, Direction des T.P, Alger le 20 février 1943.
- ANOM, GGA, 7cab/29, , Commandement en chef français civil et militaire, section de la santé du 1^{er} mars 1943.
- ANOM, GGA, 7cab/41, A/S Tissus américain, Constantine, D.E.S, du 24 juin 1943.
- ANOM, GGA, 7cab/41, note verbale, A/S du ravitaillement du lait.
- ANOM, GGA, 7Cab/41 Ravitaillement marchandises fournies par les alliés, statistiques 1943-1944.
- ANOM, GGA, 7Cab/48 Affaires musulmanes- Activités des forces alliées.
- ANOM, GGA, 8Cab/48, DGSN/ DRG, section AFN, Malaise Tunisien, du 17/10/1946. Sur la politique américaine.
- ANOM, GGA, 8Cab/57, ALG, rapport sur les événements récents survenus en Tunisie, Alger, le 03 septembre 1946.
- ANOM, GGA, 8Cab/57, rapport sur les événements récents survenus en Tunisie, Alger, le 31 aout 1946.
- ANOM, GGA, 8Cab/57, Office du Gouvernement Général de l'Algérie, Paris le 10 juillet 1946.
- ANOM, GGA, 8cab/97, Préfecture Oran, du 21/07/1945, A/S propagande anglaise.
- A.N.O.M, GGA, 8Cab/97, Résidence générale de la R.F au Maroc, CC/Je, secrétariat politique, Rabat, le 23 juin 1947.
- ANOM, GGA, 8cab/106, E.M, 5^{ème} bureau., Alger le 18 juin 1945, rapport de 3 pages.
- ANOM, 8cab/106, E.M, 5^{ème} bureau, Ingérence étrangère dans le sud Constantinois, Alger le 18 juin 1945.
- ANOM, GGA, 8Cab/106 Activités alliées en Algérie et Italienne et Espagnole – Dossier Sionisme.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Préfecture d'Alger, du 16/09/1945, A/S, d'une lettre du congrès juif mondial.
- ANOM, GGA, 8cab/106, document daté du 6 décembre 1945 de Constantine.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Constantine, activité de la NOSA (Nouvelle organisation sioniste d'Algérie).
- ANOM, GGA, 8cab/106, Police des Renseignements Généraux, district Alger, N°444.
- ANOM, GGA 8cab/106, 19^{ème} corps d'Armée, Constantine du 5 juillet 1945.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Préfecture de Constantine, CIE N°816, du 16 avril 1945.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Ministère de la guerre, DCMI, pour L'AFN., du 15 juin 1945.
- ANOM, GGA, 8cab/106, LB/EN, N°1504/CDP, Alger le 31 juillet 1945.
- ANOM, GGA, 8cab/106., département Alger, P.M, 1^{ère} brigade, activités Britanniques en A.F.N, du 27 juin 1945.
- ANOM, GGA, 8cab/106, département Alger, compte rendu signé du General Pierre Weiss.
- ANOM GGA, 8cab/106, Source Mme X., Très sûre...Du 9 aout 1945.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Note sur les activités Britannique en Algérie, rapport de Dix (10) pages.
- ANOM, GGA., 8cab/106, DST, N°342, Alger le 21 janvier 1946.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Conférence organisée par le Karen Kaymeth Leisrael sur le sujet « La Palestine et le Proche-Orient », Alger le 27/01/1946. (3pages).
- ANOM, GGA, 8cab/106, 5^{ème} bureau, ingérence étrangère en AFN.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Activités politiques d'inspiration régionaliste.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Réunion de la nouvelle organisation sioniste d'Algérie, sous la présidence de Dokhan Gilbert. (2pages).
- ANOM, GGA, 8cab/106, A/S activité anglaise, Claverie et Mise..., EX.7 n° 2.

- ANOM, GGA, 8cab/106, Alger le 11 avril 1946.
- ANOM, GGA, 8cab/106, Télégramme American, A AY/RW, by the ARMY AIR FORCE, detachment/82, APO 497 US ARMY, 9 June 1945, note traduite.
- ANOM, GGA, 8Cab/125 Dossier relatif à la Tunisie et au Maroc et à « L'empire ».
- ANOM, GGA, série 81F 2512 K Fonds du ministère d'état chargé des affaires Algériennes, rapport confidentiel.
- ANOM, GGA, Série H, 1H24, rapport confidentiel du cabinet du GGA, Le paysannat situation politique, économique et sociale.
- ANOM, GGA, Série H, 1H32, affaires indigènes et musulmans, rapport sur la situation des indigènes en 1939.
- ANOM, GGA, série H, 1H38, SGI- Algérie, extrait de la feuille d'informations quotidiennes Alger, datée du 14 mai 1940.
- ANOM, GGA, Série H, 1H38, sources du 2^{ème} bureau qui attestent du loyalisme de la population indigène.
- ANOM, GGA, série H, 1H38, affaires indigènes et musulmanes, sous-dossier propagande Allemande 1938-1944.
- ANOM, GGA, Série H, 9H32, rapport hebdomadaire du 7 octobre 1939, faisant état de l'arrestation par le Préfet d'Oran de 16 réfugiés espagnols pour propagande révolutionnaire.
- ANOM, GGA, série H, 9H32, Rapports hebdomadaires de la direction de la sureté générale, septembre 1939.
- ANOM, GGA, série H, 9H32, Lettre transmise le 18 février 1942 par courrier confidentiel au GGA.
- ANOM, GGA, série H, 9H40, commissariat de police, commune de Jemmapes, sous-préfecture de Philippeville, du 1^{er} octobre 1943.
- ANOM, GGA, série H, 9H40, Rapport de l'administrateur détaché à Mila, date du 22 mars 1944.
- ANOM, GGA, série H, 9H43, DSP, la politique italienne en zone française du Maroc, octobre 1938.
- ANOM, GGA, Série H, 9H43, rapport du sous-préfet de Tizi-Ouzou au Préfet d'Alger daté du 12 décembre 1942.
- ANOM, GGA, Série H, 9H43, bulletins de renseignements du 26 octobre 1940 et du 8 aout 1942.
- ANOM, GGA, série H, 9H44, Note secrète de Berque jointe à la demande de dissolution des AML, du 26 avril 1945.
- ANOM, GGA, série H, 11H51, affaires indigènes et musulmanes, bulletin d'information N°7.
- ANOM, GGA, série H, 11H51, affaires indigènes et musulmanes, bulletin d'information quotidien établi par les services du Gouvernement général.
- ANOM, GGA, Série H, 12H13, commission d'études économiques et sociales musulmanes, avril-juin 1943.
- ANOM, GGA, Série H, 12H13 et 12H23, note rédigée par le général Weygand vers la fin septembre 1941.
- ANOM, GGA, série H, 29H34, rapports franco-italiens en Afrique du nord 1935-1945, du 18 septembre 1939, établie par la direction de la sureté générale du GGA sur activité italienne.
- ANOM, GGA, Série H, 29H35, note du directeur des affaires musulmanes et des territoires du sud, adressée au directeur de service de presse et d'information d'Alger le 23 octobre 1943.
- ANOM, GGA, Série H, 32H6, Situation politique et économique du Maroc, septembre 1939.
- ANOM, GGA, fonds Oran, série 81F-782.
- ANOM, GGA, Série H, 32H6 rapports politiques et périodiques de presse, situation politique et économique du Maroc.
- ANOM, GGA, série K, 1K76, note du préfet du 14 janvier 1939. DAF---Orts groupe Alger, patronné par le consul général.
- ANOM, GGA, 1K 250, sous-direction des territoires du sud, annexe de Biskra et le poste d'Ouled Djellal.
- ANOM, GGA, série K, 1K 250, directions des affaires indigènes et des territoires du sud, Cabinet du GGA.
- ANOM, GGA, série K, 1K 250, directions des affaires indigènes et des territoires du sud, bulletin d'information du 24 oct.1939, concernant les communes de : Marnia, Djidjeli, Akbou, Tebessa.
- ANOM, GGA/Service d'information et de Documentation/Articles de presse française ou étrangère concernant l'Algérie.

- ANOM, GGA, T.O.M, Gendarmerie nationale, légion du Maroc, compagnie de Fès, section d'Oujda, N° 217/4.
- ANOM, GGA, T.O.M, Rapport sur la contrebande et l'action nationaliste au Maroc français et sur les événements de la zone espagnole.
- ANOM, GGA, T.O.M, En réponse au rapport suscité, le Préfet d'Oran a envoyé une réponse rassurant le gouverneur général d'Alger.
- ANOM, GGA, Annuaire statistique de l'Algérie, 1954.
- ANOM, GGA, Lettre du sous Préfet de Sidi Bel Abbès au préfet d'Oran datée du 07 février 1920, contenu dans le registre des copies-lettres 1925-1935.
- ANOM, GGA, Lettre du maire de Mercier Lacombe au sous préfet de Sidi Bel Abbès en date du 12 juillet 1925 contenu dans le registre des copies lettres 1925-1935.
- A.NOM, GGA, Fonds d'Oran, série continue, rapport sur les incidents ayant émaillé le match de football du 4 octobre 1942 entre le club musulman de Sidi Bel Abbès (USMBA) et l'équipe de Mostaganem,
- ANOM, GGA., LB/EN, N°1504/CDP, rapport de cinq (5) pages., ingérence étrangère en Algérie, Alger du 31 juillet 1945.
- ANOM, GGA, Cabinet politique et diplomatique, A/S des activités alliées en Algérie.
- ANOM, GGA, Rapport de deux (2) pages., Alger le 9 avril 1945 (A/S des activités politiques et diplomatiques.)
- ANOM., GGA, DST, bordereau d'envoi N°2059/2..du 23 avril 1946.
- ANOM, GGA, DST, service de la surveillance du territoire, N°37.A.40, Oran le 11 janvier, 1946.
- ANOM, GGA, Cabinet du G.G. d'Algérie, note pour Monsieur ALDUY.
- ANOM, GGA, Constantine, Etat-major du 2^{ème} bureau, N°555/AN, du 10 juillet 1945.
- ANOM, GGA, Alger le 18 juin 1945, Etat-major du 5^{ème} Bureau.
- ANOM, GGA, note de renseignement sous le sceaux confidentiel. Un rapport de 2 pages, courrier N° 5515 date du 20/07/1945.
- ANOM, GGA, Quelques aspects des problèmes économiques et sociaux, imprimerie Bacconier frères, Alger, 1957.

ب- الأرشيف التاريخي للدفاع (باريس) SHD

- SHD, série 2B100, Service Historique de l'Armée de l'Air, , dossier collaboration franco-britannique outre mer.
- SHD, série F60/819, secrétariat général de la présidence du conseil, questions communes à l'ensemble de l'AFN, questions politiques, bulletin d'information N°3, situation du 1^{er} au 8 septembre 1939.
- SHD, série 3H159, Maroc, Cabinet militaire de la résidence générale, , bulletin de renseignements politiques et économiques du 23 au 29 juin 1940..
- SHD, série 3H159, Maroc bulletin de renseignements politiques et économiques du 9 au 15 juin 1940.
- SHD série 1N 37, état-major du général Georges, daté du 1er novembre 1938.
- SHD, série 2N 22 , séance du CPDN du 8 décembre 1937.
- SHD, série 2N24, séance du CPDN, du mois de décembre 1937.
- SHD, série 2N 25, séance du CPDN du 24 février 1939. Les évaluations sont données à l'état-major par le consul de France à Tripoli.
- SHD, série 2N65, CSDN, section K, note du 23 janvier 1937, possibilités de ravitaillement en armements des troupes opérant en Afrique du Nord.
- SHD, série 2N 66, lettre du 18 décembre 1936.
- SHD, série 5N 583, Cabinet du ministre de la défense nationale.
- SHD, série 7N 2756, FAM, Fonds attaché militaire - Espagne-, lettre du 23 avril 1940 du MAE signée par le sous-directeur de la section Europe, Hoppenot au général Noguès se fondant sur la lettre du 19 avril de Pétain.
- SHD, série 7N 2756, FAM- Espagne, télégramme chiffré N° 102, envoyé de Madrid par l'attaché militaire au ministère de la guerre, le 15 juin à 13 h 14, reçu le 18 juin à 2 h 15, diffusé le 18 à 7 h.

- SHD, TOAFN, série 5N579, dossier 2, cabinet du ministre coopération militaire franco-britannique.
- SHD, TOAFN, série 27N 222, renseignement bureau politique, « Notice sur les mouvements politiques indigènes », classé « Secret ».
- SHD, TOAFN, série 23N 226, note N° 31 134 du général Noguès, datée du 23 avril 1940.
- SHD, TOAFN, série 27N194, dossier N°2, note du général Noguès N°18, cabinet au président du conseil, Ministre des affaires étrangères, note faisant suite à une communication du maréchal Pétain du 28 février 1940.
- SHD, TOAFN, série 27N 194, journal de marche du général Noguès, septembre 1939-juin 1940.
- SHD, TOAFN, série 27N 194, télégramme officiel N° 59, du général Noguès.
- SHD, TOAFN, série 27N194, télégrammes N° 47- 48 du général Noguès du 14 juin 1940 destiné au MAE.
- SHD, TOAFN, série 27N 197, Le déficit est de 692 wagons-citernes.
- SHD, TOAFN, série 27N 200 et série 27N 222, du 16 juin 1940, note pour le secrétariat de la défense nationale en Tunisie.
- SHD, TOAFN, série 27N217, lettre du ministère des affaires étrangères au général Jamet, secrétaire général du CSDN.
- SHD, TOAFN, série 27N218, dossier N°1, bulletin d'information du 2ème bureau, B.R N° 39 du 14 février 1940, émanant du service général de l'information en Algérie.
- SHD, TOAFN, série 27N 218, bulletin d'information du CQG, septembre-décembre 1939.
- SHD, TOAFN, série 27N 224, Théâtre d'opérations d'Afrique du Nord, note 17 755 /3 du 19 décembre 1939, du général Noguès au général Gamelin.
- SHD, TOAFN, série 27N 224, journal de marche du général Noguès déclarant qu'il y a eu 2 morts et 9 blessés à la date du 26 septembre 1939.
- SHD, TOAFN, 27N 226, note du 19 mai 1940 du général Noguès au général commandant en chef les forces terrestres.
- SHD, série 7N3434, Etat-major, section d'Afrique, Note d'ensemble du 31 mars 1939 de l'Etat Major d'Afrique sur la situation internationale.
- SHD, état-major de l'Afrique du Nord, carton N° 7, note sur l'importance de l'ensemble : Espagne, Maroc espagnol.
- SHD, série 1P33, ministère de la défense nationale,(General Weygand puis amiral Darlan), secrétariat de coordination ; rapport adressé au Conseil supérieur de la France d'outre-mer le 9 février 1939.
- SHD, série 2N67, section K du CSDN, la 12° direction est chargée de la fabrication des armements.
- SHD, série 7N4133, Etat-major section d'Afrique,.
- SHD, série 2N210, CSDN, 3° section, article 8.
- SHD, CMDN, article 29 de la Loi du 11 juillet 1938.
- SHD, série 2N57, CSDN, instruction du 9 octobre 1936 qui prévoit la possibilité de recourir aux usines situées dans les territoires d'outre-mer.
- SHD, TOAFN, série 27N217.
- SHD, TOAFN, série 27N197, dossier 1.
- SHD, MDN, 1P33,note d'information n° 106, du secrétariat d'Etat aux colonies, datée du 24 mars 1941.
- S.H.D, Délégation générale du gouvernement en Afrique française(DGGAF), du (général Weygand) ensuite Commandement des forces armées sous l'autorité du général Juin, Série 1P 133.
- SHD, série 1H2811, 2° bureau, état-major de la division de Constantine, bulletin de renseignements, daté du 15 mars 1943.
- SHD, 5P2, journal de marche du général Giraud, prise de contact avec la colonne Leclerc le 14 janvier ; le général Delay rencontre le général Leclerc le 2 février..
- SHD, Archives du SHAT, Fonds privé Weygand, résumé de l'activité du service des relations commerciales inter coloniales à la délégation générale du gouvernement en Afrique française jusqu'en novembre 1941.
- SHD, Archives des MAE, seconde guerre mondiale 1939-1940, Vichy-Maroc, vol.14, note de Noguès à Darlan, mars 1941.
- SHD, Fonds privé du général Weygand, N°1K130.
- SHD, 2P52, Discours de Marcel Peyrouton, prononcé à la radio d'Alger le 22 février 1943.

ت- مركز التوثيق التاريخي حول الجزائر CDHA

- FONDS SCHOEN

3. الوثائق الأرشيفية في تونس

- الأرشيف الوطني التونسي A.N.T

- Archives Nationales de Tunisie, Série SG2, boîte OO94, dossier n° 2, rapports et notes politique concernant l'activité politique des Algériens et Tunisiens, Folio n° 28.
- Archives Nationales de Tunisie, Série SG2, boîte OO94, dossier n° 2, commissariat de sureté, n° 171 D/2, rapport au sujet du voyage du cheikh Benbadis Abdelhamid en Tunisie, Tunis le 30 décembre 1936.
- Archives Nationales de Tunisie, Série SG2, boîte OO94, dossier n° 2, rapports et notes politique concernant l'activité politique des Algériens et Tunisiens, A/S de l'aide apportée au Néo-Destour par le Parti du Peuple Algérien.
- ANT, Tunis, le 10/09/1939, voir proclamation du Bey Ahmed Pacha, in annexe n°5.
- Archives Nationales Tunisienne, archives du Gouvernement Tunisien, archives du Parti Destourien, année 1941. Voir le Tract du 28 mars 1941.
- Archives Nationales Tunisienne, archives du Gouvernement Tunisien, rapports mensuels de sécurité 1940-1941. Message d'Habib Bourguiba, à partir du fort St Nicholas, transmis par Abderrahmane Chadly Dziri, étudiant en pharmacie.
- Archives Nationales Tunisienne, archives du Gouvernement Tunisien, état d'esprit des indigènes, 1940-1945, rapport de police sur les déclarations de Bourguiba concernant les agissements d'un certain Abderrahmane Yassine établi à Berlin.

ثانيا: المصادر المطبوعة باللغة العربية

1. الإبراهيمي (محمد البشير) ، عيون البصائر، دار المعارف، بيروت، لبنان ، 1963 ، (693 ص).
2. الفاسي (علال) ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، طبعة 5، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993. (560 ص). (و كانت فاتحة الطبعة الأولى بالقاهرة سنة 1948).
3. المدني (أحمد توفيق)، حياة كفاح، مذكرات، القسم الثاني في الجزائر، 1925-1954، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1977، (436 ص).
4. الورثاني (فضيل)، الجزائر الثائرة، (د.ط)، بيروت، 1963.

ثالثا: المصادر المطبوعة باللغة الأجنبية

1. ARON (Raymond). *La tragédie algérienne*. Editions Plon, Paris, 1957, (76 p).
2. ARON (Robert). *Histoire de Vichy 1940-1944, Les grandes études contemporaines*. Librairie Arthème Fayard, Paris, 1954, (766 p).
3. AYACHE (Albert). *Le Maroc. Bilan d'une colonisation*. Editions sociales, collection la culture et les hommes, Paris, 1956, (367 p).
4. BARRAT (Robert). *Justice pour le Maroc*. Editions du Seuil, collection Esprit, Paris, 1953, (284 p).
5. BARJOT (Pierre.). *Une réussite stratégique, le débarquement du 8 novembre 1942 en Afrique du Nord, L'Etrave de Grigord*. Editions, Paris, 1948, (224 p).
6. BATHAULT (Georges). *Comment la guerre a éclaté, (d'après le livre bleu britannique et le livre jaune français), 3^{ème} volume*. Union latine d'éditions, Paris, 1940, (321 p).
7. BEARD (Charles A.) et BEARD (Mary R.). *The rise of American civilization*, 2V. The Macmillan Co, New York, 1927, (824 +827 pp) .
8. BENAZET (Henry). *L'Afrique française en danger*. Librairie Arthème Fayard, 1^{6ème} édition, 1947, (318 p).
9. BENHABILES (Chérif). *L'Algérie Française vue par un indigène*. Imprimerie orientale Fontana Frères, Alger, 1914, (209 p).
10. BLANCHARD (Jean). *Le problème algérien*. P.U.F, Paris, 1955, (79 p).
11. BOUDY (Paul-Louis-Jules). *L'économie forestière nord-africaine, T1*. Larose, Paris, 1948, (686 p).
12. BOUTHILLIER (Yves). *Le drame de Vichy, Face à l'ennemi, face à l'allié*. Plon éditions, Paris, 1950, (320 p).
13. BREIL (Jacques). *La population de l'Algérie*. Rapport du Haut Comité Consultatif de la Population et de la Famille, Paris, 1960, (182 p).
14. CATROUX (Georges). *Dans la bataille de la Méditerranée, l'Egypte, Levant, Afrique du Nord 1940-1944*. Editions Julliard, Paris, 1949, (446 p).
15. CHEVALIER (Louis). *Le problème démographique Nord-Africain*. Editions P.U.F, Paris, 1947, (221 p).
16. CLARK (Mark). *Les alliés jouent et gagnent*. Editions Berger-Levrant, Nancy, 1952, (77 p).
17. DE LATOUR (Pierre Boyer). *Vérités sur l'Afrique du Nord*. Editions Plon, Paris, 1956, (204 p).
18. DEMONTES (Victor). *Le peuple Algérien, essai de démographie Algérienne, naturalisation des étrangers*. Imprimerie algérienne, Alger, 1906, (619 p).
19. DE PEYERIMHOFF (Henri). *Rapport portant transcriptions suivantes : AG 1906-N° 51*. In bibliothèque C.D.E.S, Oran.
20. DE PEYERIMHOFF (Henri). *Rapport à Mr Jonnart, Gouverneur général de l'Algérie, Enquête sur les résultats de la colonisation officielle en Algérie de 1871 à 1895, T1*. Alger, 1906, In CDES, Oran.
21. DUFF COOPER (Alfred). *La deuxième guerre mondiale (The second world war), 1^{ère} partie, 2^{ème} volume*. Union Latine d'éditions, Paris, 1940, (311p).
22. DUFF COOPER (Alfred). *Au-delà de l'oubli*. Gallimard éditions, Paris, 1960, (444 p).
23. DUNAIS (Geneviève) (Pseudonyme Chamine). *La conjuration d'Alger, T1*. Edifions Albin Michel, Paris, 1946, (448 p).
24. ESQUER (Gabriel). *8 novembre 1942, Premier jour de la libération*. Editions Charlot, Paris, 1946, (386 p).
25. ESQUER (Gabriel). *Histoire de l'Algérie*. Presse universitaire de France, Collection que sais-je ? Paris, 1950, (128 p).
26. FAVROD (Charles Henri). *La révolution algérienne*. Plon éditions, Paris, 1959, (233 p).
27. FERHAT (Abbas). *Autopsie d'une guerre : l'aurore*. Paris, Garnier, 1980, (346 p).
28. FERHAT (Abbas). *De la colonie vers la province, Le jeune Algérien (1930)*. Alger-Livres éditions, Alger, 2011, (134 p).
29. FERHAT (Abbas). *La Nuit Coloniale*. ANEP éditions, Alger, 2005, (219 p).
30. GALEAZZO (Ciano). *Journal politique 1939-1943, T1*. Editions de la balconnière, Neuchâtel, Suisse, 1949, (330 p).
31. GAMELIN (Maurice). *Servir, Le prologue du drame (1930-aout 1939) , T2*. Editions Plon, Paris, 1947, (479 p).
32. GARAS (Félix). *Bourguiba et la naissance d'une nation*. R. Julliard éditions, Paris, 1956, (286 p).

33. GIRAULT (Arthur). *Principes de colonisation et de législation coloniale*, 3^{ème} partie, *Afrique du Nord, Algérie*. Librairie Recueil Sirey, 4^{ème} édition, Paris, 1921, (251 p).
34. GUILLAUME (Augustin). *Les berbères marocains et la pacification de l'Atlas central 1912-1933*. R. Julliard, Paris, 1946, (521 p).
35. HARDY (Georges). *Portrait de Lyautey*. Editions Bloud et Gay, Paris, 1949, (418 p).
36. HEWITT (Henry Kent). *The landing in Morocco, November 1942*. United States Naval Institute Proceeding, USNIP, N°11, volume 78, November, 1952, (1243 p).
37. JUIN (Alphonse). *Mémoires : Alger, Tunis, Rome, T1*. Fayard éditions, coll. « Les grandes études contemporaines », Paris, 1959, (401 p).
38. JUIN (Alphonse). *Le Maghreb en feu*. Plon éditions, Paris, 1957, (192 p).
39. LACOSTE (Yves), NOUSHI (André), PRENANT (André). *L'Algérie, Passé et Présent*. Editions sociales, Paris, 1960, (462 p).
40. LAMPUE (Pierre). *Les territoires associés et les Etats associés suivant la constitution*. Paris, 1957.
41. LANGER (William). *Le jeu américain à Vichy*. Plon éditions, Paris, 1948, (149 p).
42. LARCHER (Emile). *Traité élémentaire de législation algérienne, tome 1*. Librairie A.Rousseau, Paris, 1923, (777 p).
43. LARNAUDE (Marcel). *Algérie*. Collection de l'union française. Editions Berger-Levrault, Paris, 1950, (230 p).
44. LEAHY (William Daniel). *J'étais là*. Editions Plon, Paris, 1951, (545p).
45. LEPIDI (Jules). *L'Economie Tunisienne depuis la fin de la guerre*. Imprimerie officielle de la Tunisie, Tunis, 1955, (122 p).
46. LESPES (René). *Pour comprendre l'Algérie*. Gouvernement Général de l'Algérie, Alger, 1937, (218 p).)
47. LUCHAIRE (François). *Manuel de droit d'outre-mer*. Librairie du recueil Sirey, Paris, 1949, (575p).
48. LYAUTEY (Louis Hubert Gonzalve). *Paroles d'action 1900-1926*. Editions Armand Colin, Paris, 1927, (479 p).
49. LYAUTEY (Pierre). *Textes et lettres du Maréchal Lyautey l'Africain 1919-1925, adressées au président du conseil en date du 24 octobres 1920, T4*. Editions Plon, Paris, 1957, (381 p)..
50. MERLE (Paul). *Contribution à l'étude des grands mouvements des populations Musulmanes en Oranie*. 1939, (102 p).
51. MICHEL (Henri) et MIRKINE-GUETZEVITCH (Boris). *Les idées politiques et sociales de la résistance*. PUF, collection. Esprit de la résistance, Paris 1954, (410 p).
52. MITTERRAND (François). *Aux frontières de l'Union Française ; de l'Indochine à la Tunisie*. Editions Julliard, Paris, 1953, (220 p).
53. MORISON (Samuel Eliot). *History of United States Naval Operations in World War II. Operations in North African Waters, October 1942-June 1943, volume 2*. Boston Little, Brown and Company, 1951, (297 p).
54. OPPERMAN (Thomas). *Le problème algérien, données historiques, juridiques, politiques*. Traduit de l'allemand par J. Jean Lecerf, éditions F. Maspero, 1961, (317 p).
55. PATTON (Georges Smith). *Les carnets secrets du général Patton 1885-1945*. Plon éditions, Paris, 1975, (538 p).
56. PELLEGRIN (Henry), *Le statut de l'Algérie*, édition maison du livre, Alger, 1948, (238 p).
57. PENDAR (Kenneth). *Le dilemme France-Etats-Unis*. Editions Self, Paris, 1948, (443 p).
58. PIETRI (François). *Mes années d'Espagne 1940-1948*. Plon éditions Paris, 1954, (295 p).
59. PONCET (Jean). *La colonisation et l'agriculture européennes en Tunisie depuis 1881*. Etude de géographie historique et économique, mouton &Co, Paris, 1961, (696 p).
60. PUAX (Gabriel). *Deux années au levant, souvenirs de Syrie et du Liban 1939-1940*. Hachette, Paris, 1952, (248 p).
61. RAGER (Jean Jacques). *Les Musulmans Algériens en France et dans les Pays Islamiques*. Société d'éditions "les belles lettres", Paris, 1950, (362 p).
62. REIBELL (Charles). *La vérité sur les origines du débarquement allié en Afrique du Nord (8 novembre 1942)*. Les Presses Alpha, Paris, 1946, (22 p).
63. REINHARD (Marcel). *Histoire de France de 1715 à 1946*. Ouvrage collectif, Larousse édition, Paris, 1954, (509 p).
64. REYNAUD (Paul). *Les mémoires, Au cœur de la mêlée 1930-1945*. Editions Flammarion, Paris, 1951, (1077 p).
65. ROOSEVELT (Elliott). *Mon père m'a dit*. Flammarion, Paris, 1947, (307 p).
66. ROOSEVELT (Franklin.D) et CHURCHILL (Winston). *Textes et discours sur la France, 1938-1944*. 1 vol, Sn, 1944, (95 p).

67. ROUX (François Charles). *Cinq mois tragiques aux affaires étrangères 21 mai- 1^{er} novembre 1940*. Editions Plon, Paris, 1949, (404 p).
68. SERRA (Jean). *Le problème démographique algérien, dans : La lutte des algériens contre la faim*. Ouvrage collectif, éditions du secrétariat social d'Alger, mai 1945.
69. SOUSTELLE (Jacques). *Envers et contre tout, de Londres à Alger 1940-1942, T1*. Editions Laffont, Paris, 1957, (420 p).
70. STETTINIUS JR (Edward Reilly). *Le prêt- Bail, arme de victoire, origine et développement de la loi de prêt-location*. Editions de la maison française de New York, 1944, (417 p).
71. VIARD (Paul-Emile). *Les Droits Politiques des Indigènes d'Algérie*. Librairie R.Sirey, Collection Q.N.A, Paris, 1937, (223 p).
72. VIOLETTE (Maurice). *L'Algérie Vivra-t-elle ?*. Librairie Félix Alcan, Paris, 1931, (503 p).
73. WEYGAND (Maxime). *Rappelé au service*. Editions Flammarion, 1950, (596p).
74. WOODWARD (David). *Les embusqués du large*. Flammarion éditions, Paris, 1957, (248 p).
75. YACONO (Xavier). *Les bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigène dans l'ouest du Tell Algérois*. Editions Larose, Paris, 1953, (448 p).

رابعاً: المذكرات

1. AIT-AHMED (Hocine). *Mémoires d'un combattant, l'esprit d'indépendance 1942-1952*. Editions Bouchène, Alger, 1990, (237 p).
2. BETHOUARD (Antoine). *Cinq années d'espérance, mémoires de guerre 1939-1945*. Plon éditions, Paris, 1968.
3. BOURGUIBA (Habib), *La Tunisie et la France, 25 ans de lutte pour une coopération libre*. Julliard éditions, 1954.
4. CHURCHILL (Winston Léonard Spencer). *Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T1, V1, L'orage approche, d'une guerre à l'autre 1919-1939*. Plon éditions, Paris, 1948, (436 p).
5. CHURCHILL (Winston Léonard Spencer). *Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, T1 V2, L'orage approche, La drôle de guerre 3 septembre 1939- 10 mai 1940*. Plon éditions, Paris, 1948, (392 p).
6. CHURCHILL (Winston Léonard Spencer). *Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, TIII , V1, L'heure tragique, La chute de la France 1940*. Plon éditions, Paris, 1949, (387 p).
7. CHURCHILL (Winston Léonard Spencer). *Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, TII, V2, L'heure tragique, L'Angleterre seule, mai-décembre 1940*. Plon éditions, Paris, 1949, (421 p).
8. CHURCHILL (Winston Léonard Spencer). *La grande alliance. La Russie envahie (1er janvier-22 juin 1941), TIII, V1*. Plon éditions, Paris, 1950, (509 p).
9. CHURCHILL (Winston Léonard Spencer). *Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, TIII, V2, La grande alliance, L'Amérique en guerre*. Plon éditions, Paris, 1950, (462 p).
10. CHURCHILL (Winston Léonard Spencer). *Mémoires sur la deuxième guerre mondiale, TIV, V2, Le tournant du destin, L'Afrique sauvée, 4 juillet 1942-5 juin 1943*. Plon éditions, Paris, 1951, (563 p).
11. DE GAULLE (Charles). *Mémoires de guerre, T1, L'Appel 1940-1942*. Plon éditions, Paris, 1954, (680 p).
12. DE GAULLE (Charles). *Mémoires de guerre T2, L'Unité, 1942-1944*. Plon éditions, Paris, 1956, (713 p).
13. DE GAULLE (Charles). *Mémoires de guerre T3, Le Salut, 1944-1946*. Plon éditions, Paris, 1959, (653 p).
14. DE GAULLE (Charles). *Mémoires d'espoir T1, Le renouveau 1958-1962*. Plon éditions, Paris, 1970, (314 p).
15. DE GAULLE (Charles). *Mémoires d'espoir, TII, l'effort 1962*. Plon éditions, Paris, 1971, (223 p).
16. EISENHOWER (Dwight David). *Croisade en Europe, mémoires sur la deuxième guerre mondiale*. Traduit de l'anglais par Paule de Beaumont avec les conseils techniques du Lt-Colonel Goussault. Laffont éditions, Paris, 1949, (593 p).
17. FERHAT (Abbas). *Guerre et révolution d'Algérie, la nuit coloniale. Tome 1*. Editions Julliard, Paris, 1962, (240 p).
18. IBRAHIMI (Ahmed Taleb). *Mémoires d'un Algérien Tome 1 : Rêves et épreuves 1932-1965*. Casbah éditions, Alger, 2006, (253 p).

19. JOXE (Louis). *Victoire sur la nuit, mémoires 1940-1946*. Editions Flammarion, Paris, 1981, (284 p).
20. MESSALI (Hadj). *Les mémoires de Messali Hadj, 1898-1938*. Texte établi par Renaud de Rochebrune, préface de Ben Bella, postface de C.A. Julien, C.R. Ageron, M.Harbi, J.-C. Lattès, Paris, 1982, (318 p).

خامسا: الوثائق المنشورة و المطبوعة

1. **Annales** d'Agricultures AP 391.
2. **Annales** de démographie historique/ Paris AP 306.
3. **Annales** Algériennes de Géographie / année
4. **Annuaire** de l'Afrique du Nord Etats. Territoires et Terroirs au Maghreb, 1983 et 1985.
5. **Annuaire** Statistiques général du Maroc année 1936.
6. **Annuaire** Statistique du Maroc, volume II, année 1952. In ANOM.
7. **Annuaire** Statistiques de la zone française du Maroc 1945-1946.
8. **Annuaire** Statistiques général de l'Algérie, 1939-1947.
9. **Annuaire** Statistique de l'Algérie(A.S.A)-G.G.A-Alger (Années : 1936 (681 P), 1937 (586 P), de 1939 à 1947 (289 P), de 1948 à 1949 (280 P).
10. **Annuaire** Statistiques général de l'Algérie, 1954.
11. **Bulletin** des statistiques agricoles année 1947
12. **Bulletin** Officiel du ministère de l'intérieur, Août 1939.
13. **Bulletin** Officiel, N° 1463, du 08 Novembre 1940.
14. **Bulletin** d'information et de documentation BP 437.
15. **Bulletin** d'information du gouvernement général du 12 septembre 1939.
16. **Bulletin** d'information du gouvernement général du 14 et 26 septembre 1939
17. **Bulletin** d'information du Gouvernement général/ année : 1939-
18. **Bulletin** d'information du gouvernement général, du 14 septembre 1939
19. **Bulletin** du comité de l'Afrique Française-, année 1937
20. **Bulletin** du comité de l'Afrique Française, N° 2, février 1939
21. **Bulletin** de l'Afrique française / année : 1940.
22. **Bulletin** économique et social du Maroc, n°24, du mois d'avril 1945
23. **Bulletin** économique et social du Maroc, n°67, 1955
24. **Bulletin** Officiel du Protectorat, n°1427, du 04 mars 1940.
25. **Bulletin** Officiel du Protectorat, n°1447, du 19 juillet 1940.
26. **Bulletin** Officiel du Protectorat, n°1480, du 07 mars 1941.
27. **Bulletin** sanitaire- 476, du mois de septembre 1936.
28. **Bulletin** sanitaire, année 1948.
29. **Bulletin** scouts musulmans algériens N°21, 1948-1949.
30. **Documentation** Française, NDE, N- 333.
31. **Documents** Algériens, n° 34, du 10-10-1947.
32. **Documents** Algériens 1945-1954. Série complète Législations et politiques.
33. **Direction** de l'agriculture du gouvernement général en Algérie, imp.Bacconier, Alger, 1954.
34. **Exposé** de la situation générale de l'Algérie. GGA-Alger 1948-1949-1950.
35. **Journal Officiel** de la République Française, in débats parlementaires de l'année 1903
36. **Journal Officiel** de la République Française (J.O.R.F).
37. **Journal Officiel** de la république Française, n° du 27 aout 1939
38. **Journal Officiel** de la République Française du 18 Mars 1944.
39. **Journal Officiel** Procès du Marechal Pétain
40. **Quelques Chiffres** sur l'Oranie. Service de la Statistique Générale de l'Algérie. Section Oranie . Editions V.HEINZT, Oran 1960.
41. **S.E.D.I.A.** Etude du développement économique de l'ouest Algérien. Novembre 1959, in C.D.E.S./ Bibliothèque.
42. **Statistique** Générale de l'Algérie, dénombrement et recensement de 1921, de 1916 à 1928.
43. **Service de l'agriculture** du Département d'Oran, (SADO), Bref aperçu de l'agriculture en Oranie, librairie Fouqué, Oran, 1958.

سادسا: الخزائن الخاصة

- Fonds privé de Paul Reynaud, in AN, 74AP22, T2, p 1312-1314, juin 1940.
- Fonds privé du Général Colson, n° 1K274, in SHAT.
- Fonds privé Daladier, n°..., in archives du FNSP.
- Fonds privé Giraud, 5P2, in SHAT.
- Fonds privé Weygand, n° 1K130, in SHAT.
- Fonds privé Juin, n° 238K4, T2746, in SHAT, (avait son QG à Trouville, à l'ouest d'Oran en aout 1943.)
- Fonds privé Mast (Général), n° 243K1, in SHAT.
- Fonds privé Pénette (capitaine), n° 1K285, in SHAT.
- Fonds privé De Lattre de Tassigny, pièce n° F243, lettre à Darlan, janvier 1942.
- Fonds privé Beaufre, 225K1/ K2/.in SHAT.
- Fonds seconde guerre mondiale, n° 72AJ215, in A.N, Maroc, archives du cabinet diplomatique à Rabat, T. arrivée et départ, affaires étrangères T., du 15 mars 1941. Message remis par le général Ascencio, haut commissaire au Maroc espagnol, au mendoub Si M'Hamed Tazi.
- Fonds délégation générale en Afrique française, 1P94, in SHAT.
- Fonds DDSA, 1P225, in SHAT./ 1P250/ 1P227
- Fonds DGAF, 1P89, in SHAT.
- Fonds secrétariat général à la présidence du conseil, F60-795 et DFCAA, TII, 30 septembre-23 novembre 1940, Paris, Costes, pp 213-215.

سابعا: الصحافة

1. الصحافة باللغة العربية

- جريدة البصائر، عدد 160، 7 أفريل 1939
- جريدة البصائر، 19 ماي 1939.
- جريدة الأمة، ماي-جوان 1931.
- جريدة الأمة، أفريل 1939
- جريدة الأمة، جويلية و أوت 1939.
- جريدة البرلمان الجزائري، 18 ماي 1939.
- مجلة الثقافة، العدد 50، مارس-أفريل 1979.
- جريدة الجمهورية، عدد 5271، بتاريخ 1 ماي 1982.

2. الصحافة باللغة الأجنبية

1. Ain Sefra de Mostaganem, du 23 mai 1946
2. El Islah, N°16 du 11 janvier 1940
3. El Islah, N°21 du 05 avril 1940
4. El Ouifak, N°27 du 31 décembre 1939
5. El Ouifak, N°28 du 07 janvier 1940
6. El Ouifak, N° 29 du 19 janvier 1940
7. El Ouifak, N° 33, du 19 avril 1940
8. El Ouma, du 25 octobre 1938.

9. La Justice, année: 1936
10. La Défense, du 10 septembre 1934.
11. La Défense, 19 avril 1935
12. La Défense, n°06, Septembre 1935
13. La Défense du 04 janvier 1939
14. La Gazette de Ain-Temouchent, 4 mars 1937.
15. La Lutte sociale (S.F.I.C), n° 60 et 61, du 08-09 octobre 1922.
16. La Lutte Sociale mars 1931.
17. La Nation Algérienne.
18. La Vigie Marocaine, du mois de Janvier 1943.
19. La Voix de l'indigène, N°497, 08 février 1940.
20. Le Monde du 16 juillet 1955.
21. Le Monde du 10 septembre 1955
22. Le Monde du 11 septembre 1955.
23. Le Parlement Algérien, 18 mai 1939
24. L'Echo d'Alger, 04 août 1920.
25. L'Echo d'Alger, 04 juillet 1940.
26. L'Echo d'Alger, du 31 mai 1943
27. L'Echo d'Oran de décembre 1920.
28. L'Echo d'Oran du 02 septembre 1939
29. L'Echo d'Oran du 05 septembre 1939
30. L'Echo d'Oran du 06 septembre 1939
31. L'Echo d'Oran du 25 septembre 1939
32. L'Echo d'Oran du 26 septembre 1939
33. L'Echo d'Oran du 03 janvier 1940
34. L'Echo d'Oran, des 08, 24 et 29 juin 1940
35. L'Echo d'Oran du 18 juin 1940
36. L'Echo d'Oran du 20 juin 1940
37. L'Echo d'Oran du 23 juin 1940
38. L'Echo d'Oran du 8 juillet 1940.
39. L'Echo d'Oran du 18 août 1940.
40. L'Echo d'Oran du 1^{er} janvier 1941
41. L'Echo d'Oran du 02 janvier 1941
42. L'Echo d'Oran du 14 mars 1941
43. L'Echo d'Oran du 16 mars 1941
44. L'Echo d'Oran du 27 avril 1941
45. L'Echo d'Oran » des 14 et 18 octobre 1941.
46. L'Echo d'Oran du 14 mai 1943
47. L'Echo d'Oran du 24 juillet 1945
48. L'Egalité du 24 décembre 1944
49. L'entente du mois de janvier 1940
50. L'entente du 04 septembre 1939
51. L'Etoile Algérienne, Bimensuel, organe de combat des Algériens en France.
52. L'Opinion, Quotidien d'information du Parti Istiqlal, des 09 et 11 janvier 1991
53. L'Opinion du 11 janvier 1991.
54. Oran Matin, du 18 février 1934.
55. Oran Matin, du 09 février 1938
56. Oran républicain du 07/07/1939
57. Oran Républicain du 02/9/1939
58. Oran Républicain du 19/9/1939
59. Oran Républicain 1939.
60. The New-York Times, June 28, 1940,
61. The New-York Times, December 8, 1941.
62. The New-York Times, December 9, 1941.
63. The New-York Times, November 9, 1942
64. The Times, May 8, 1945.
- 65.

الثاني: المراجع القسم (الكتب و المؤلفات)

أولاً: المراجع باللغة العربية

1. أبو عمران (الشيخ) و جيلي (محمد)، الكشافة الإسلامية الجزائرية 1935-1955، دار الأمة، ط1، الجزائر، 1999، (390 ص).
2. إدريس (الرشيد)، في طريق الجمهورية، مذكرات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، (556 ص).
3. الأشرف (مصطفى)، الجزائر: الأمة و المجتمع، ترجمة: بن عيسى حنفي، م.و.ك، الجزائر، 1983، (468 ص).
4. الحبيب (ثامر)، هذه تونس، دار الغرب الإسلامي، 2005، (198 ص).
5. الحداد (الطاهر)، العمال التونسيون و ظهور الحركة النقابية، مطبعة العرب، تونس، 1927. (192 ص). أعيد نشره من طرف الدار التونسية للنشر سنة 1979.
6. الخطيب (أحمد)، حزب الشعب الجزائري، ج1، م.و.ك، الجزائر، 1986. (368 ص).
7. الخطيب (أحمد)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، (306 ص).
8. الشاطر (خليفة)، و جماعة من الأساتذة، تونس عبر التاريخ، الحركة الوطنية و دولة الاستقلال، ج3، مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية و الاجتماعية، تونس، 2007، (207 ص).
9. الصمد (رياض)، العلاقات الدولية في القرن العشرين، تطور الأحداث لفترة مابين الحربين 1914-1945، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، بدون سنة. (447 ص).
10. العقاد (صلاح)، المغرب العربي في التاريخ الحديث و المعاصر، الجزائر، تونس و المغرب الأقصى، ط6، المكتبة الأنجلومصرية 1993، (608 ص).
11. الموفي (محمد الحبيب)، الوطن و الصمود، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991 (512 ص).
12. بلوفة (الجيلالي عبد القادر)، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في عمالة وهران 1939-1954، الأملية للنشر، قسنطينة، 2011.
13. بوصفصاف (عبد الكريم)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931-1945، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، (465 ص).
14. بوعزيز (يحيى)، الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية، من خلال ثلاثة وثائق جزائرية، د.م.ج، الجزائر، 1986، (178 ص).
15. جوليان (شارل أندري)، إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية و السيادة الفرنسية، د.ت.ن، و ش.و.ن.ت، ترجمة: المنجي سليم و نخبة من الأساتذة، مراجعة: فريد السوداني، تونس، 1976. (486 ص).
16. حربي (محمد)، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، موفم للنشر، ترجمة: نجيب عياد و صالح المثلوثي، الجزائر، 1994. (201 ص).
17. زوزو (عبد الحميد)، الهجرة و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939، م.و.ك، 1985، (270 ص).
18. راشد (أحمد إسماعيل)، تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث و المعاصر - ليبيا-تونس-الجزائر-المغرب-موريتانيا، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1428 هـ / 2004 م، (261 ص).
19. رجيفسكي (أوليغ)، دروس الحرب العالمية الثانية، دار نشر وكالة نوفوستي، موسكو، 1979.

20. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، 1900-1930، ش.و.ن.ت، ط3، الجزائر، 1983. (524 ص).
21. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، 1930-1945، م.و.ك، ط3، الجزائر، 1986. (302 ص).
22. سمير (أمين)، المغرب العربي الحديث، ترجمة : كميل ق. داغر، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع، ش.م.م، بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، بيروت، ط2، 1981، (306 ص).
23. عروسية (تركي)، فصول في تاريخ الحركة الوطنية في تونس المعاصرة، مكتبة علاء الدين ، صفاقص، ط1، 2005، (339 ص).
24. عمامرة (رابح تركي)، التعليم القومي و الشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975 (444 ص).
25. عمامرة (رابح تركي)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية 1931-1956، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2000، (438 ص).
26. عمر (عبد العزيز عمر)، دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، 1980 ، (866 ص).
27. غلاب (عبد الكريم)، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى استرجاع الصحراء، ج1، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 2000، (535 ص).
28. ناصر (محمد)، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، ط1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.
29. قنانش (محمد) و قداش (محموظ)، نجم الشمال الإفريقي 1926-1937، و وثائق و شهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، د.م.ج، 11 الجزائر، 1984، (130 ص جزء اللغة العربية) و (115 ص جزء اللغة الفرنسية).
30. مازن صلاح (حامد مطبقاتي)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1939، دار عالم الأفتكار، الجزائر، 1988، (296 ص).
31. محساس (أحمد)، الحركة الثورية في الجزائر، من ح ع 1 إلى الثورة المسلحة، دار القصة للنشر، الجزائر، ترجمة: الحاج مسعود مسعود و محمد عباس، 2003. (432 ص).
32. مالكي (محمد)، الحركات الوطنية و الاستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 1994، (504 ص).

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

76. ABITBOL (Michel). *Les Juifs D'Afrique du Nord sous Vichy*. Maisonneuve et Larose, Paris, 1983, (220 p.)
77. ADDI (Lahouari). *De l'Algérie Précoloniale à l'Algérie coloniale « Economie et Société »*. ENAL, Alger, 1985, (173 p).
78. ADES (Lucien). *L'aventure algérienne, témoignages rapportés, 1940-1944, Pétain, Giraud, de Gaulle*. Belfond éditions, Paris, 1979, (252 p).
79. AGERON (Charles Robert). *Les Algériens musulmans et la France 1871-1919*. 2 Vol. P.U.F, 1968, (1298 p).
80. AGERON (Charles Robert). *Histoire de l'Algérie contemporaine, tome 2, de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954*. P.U.F, Paris, 1979, (643 p).
81. AGERON (Charles Robert). *L'Algérie algérienne, de Napoléon III à De Gaulle*. Paris, Sindbad, 1980, (254 p).
82. AGERON (Charles Robert). *Genèse de l'Algérie algérienne*. EDIF 2000, Alger, 2010, (623 p).
83. AGERON (Charles Robert). *France coloniale ou parti colonial ?*, P.U.F éditions, 1978, (302 p).
84. AGERON (Charles Robert). *Politiques Coloniales Au Maghreb*. Collection Hier, P.U.F éditions, Paris, 1972, (291 p).
85. AINAD TABET (Redouane). *Le 8 Mai 1945 en Algérie*. OPU, Alger, 2^e éd, 1987, (318 p).

86. ALLAN (Nevins) and Co. *Pocket History of the United State. Ninth revised edition, Pocket Books, a division of Simon & Schuster, Inc, New York, 1992, (719 p).*
87. ALLEG (Henri). *Mémoire algérienne*. Casbah éditions, Alger, 2006, (407 p).
88. AMRANI (Mohamed-Raja), SEHIMI (Mustapha). *De Gaulle Et Le Maroc*. Publisud éditions, Paris, 1990, (196 p).
89. ARON (Robert) et al. *Les Origines de la guerre d'Algérie, Textes et documents contemporains*. Editions Fayard, Paris, 1962, (332 p).
90. ATKINSON (Rick). *The day of battle The War in Sicily and Italy, 1943-1944*. Holt, Henry & Co. , 2007, (791 p).
91. AZEMA (Jean-Pierre). *La collaboration 1940-1944, in coll Documents histoire*. PUF, Paris, 1975, (30 p).
92. AZEMA (Jean Pierre). *De Munich à la libération*. Editions du Seuil, Paris, 1979, (416 p).
93. BAGHLI (Abdelouahab). *Scouts musulmans Algériens, groupe El Mansourah de Tlemcen 1936-1962, l'itinéraire d'un chef de meute*, Khaled Merzoug. Imprimerie Daoud Brikci, Tlemcen, 2000. (333 p).
94. BEGHOUL (Youcef). *Le manifeste du peuple Algérien, les amis du manifeste et de la liberté contribution au mouvement national*. Editions Dahlab, Alger, 2007, (345 p).
95. BELKHODJA (Amar). *Barbarie coloniale en Afrique*. Anep éditions, Alger, 2002, (163 p).
96. BENACHENHOU (Abdellatif). *Connaissance du Maghreb, notions d'ethnographie d'histoire et de sociologie*. Editions populaire de l'armée, Alger, 1971, (388 p).
97. BENACHENHOU (Abdellatif). *Formation du sous-développement en Algérie. Essai sur les limites du développement du capitalisme en Algérie 1830-1962*. Imprimerie Commerciale Alger, 1978, (394 p).
98. BENALLEGUE (Nora Chaouia). *Algérie Mouvement ouvrier et question Nationale 1919-1954*. O.P.U, 2005, Alger, (498 P).
99. BENAMMAR BENMANSOUR (Leila). *FERHAT ABBAS l'injustice*. Livres éditions, Alger, 2010, (335 p).
100. BENAMMAR BENMANSOUR (Leila). *FERHAT ABBAS, l'homme de presse*. Livres éditions, Alger, 2013, (237 p).
101. BENAMRANE (Djilali). *L'Emigration Algérienne en France, passé, présent, devenir*. S.N.E.D, Alger, 1983, (410 p).
102. BENHAMIDA (Abdesselem). *Capitalisme et syndicalisme en Tunisie de 1924 à 1956*. Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, 2003.
103. BENKHEDDA (Benyoucef). *Les Origines du 1^{er} Novembre 1954*. 3^{ème} édition, éditions Houma, Alger 2009, (441p).
104. BENSLIMANE (M.). *Souvenirs politiques*. Productions Cérès, Tunis, 1989, (403 p).
105. BERNARD (Stéphane). *Le conflit Franco-Marocain 1943-1956, étude de cas des conflits internationaux*. Volume 2, Centre Européen de la dotation Carnegie, éditions de l'institut de sociologie de l'Université de Bruxelles, Bruges, 1963, (286 p).
106. BERQUE (Jacques). *Le Maghreb entre deux guerres*. 3^e éd. Revue et augmentée, Paris, édition du Seuil, 1979, (442 p).
107. BERQUE (Jacques). *Maghreb, Histoire et Société, De l'impérialisme à la décolonisation*. SNED, Alger, 1974, (232 p).
108. BERQUE (Jacques). *Mémoires des deux rives*. Editions du seuil, Paris, 1989, (288 p).
109. BESSIS (Juliette). *La méditerranée fasciste, l'Italie mussolinienne et la Tunisie*. Karthala, Paris, 1981, (409 p).
110. BETHOUARD (Antoine). *Cinq années d'Espérance, mémoires de guerre 1939-1945*. Editions Plon, Paris, 1968, (363 p).
111. BORELLA (François). *L'évolution politique et juridique de l'Union Française depuis 1946*. LGDJ, Paris, 1958, (499 p).
112. BOUGUESSA (Kamel). *Aux Sources du Nationalisme Algérien, Les pionniers du populisme révolutionnaire en marche*. Casbah, éd. Alger, 2000, (384 p).
113. BOURNIER (Isabelle) et POTTIER (Marc). *Atlas de la seconde guerre mondiale*. Editions Casterman, Paris, 2006, (95 p).
114. BOUSCAT (René). *De Gaulle-Giraud, dossier d'une mission*. Flammarion éditions, Paris, 1967, (234 p).
115. CAMPBELL (John). *La seconde guerre mondiale, l'embrasement du monde*. Sélection du Reader's Digest, Paris, 1990, (256 p).
116. CARLIER (Omar). *Socialisation et sociabilité ; les lieux du politique en Algérie 1895-1954*. URASC, Oran, 1992, (132 p).

- 117.CHARNAY (Jean Paul). *La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de première moitié du 20^e siècle*. P.U.F, Paris, 1965, (393 p).
- 118.CHENTOUF (Tayeb). *L'Algérie en 1954*. Editions O,P,U, Alger, 2006, (335 p).
- 119.CHOURAQUI (André). *Histoire des juifs en Afrique du Nord*. Edition Hachette, Paris, 1987, (620p).
- 120.CLAYTON (Anthony). *Histoire de l'armée française en Afrique 1830-1962*. Traduit de l'anglais par Paul Gaujac. Editions Albin Michel, Paris, 1995, (560 p).
- 121.COLLOT (Claude) et HENRY (Jean Robert). *Le mouvement national algérien, textes 1912-1954*. Harmattan éditions, Paris, 1978, (348 p).
- 122.COLLOT (Claude). *Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale 1830-1962*. CNRS, Paris, OPU Alger, 1987, (343 p).
- 123.COLONNA (Fanny). *Les instituteurs Algériens 1883-1939*. OPU, Alger, 1975, (239 p).
- 124.COUTAU-BEGARIE (Hervé). *Castex le stratège inconnu*. Editions Economica, Paris, 1985, (259 p).
- 125.COUTAU-BEGARIE (Hervé) et HUAN (Claude). *Darlan*. Editions Fayard, Paris, 1989, (882 p).
- 126.COUTAU-BEGARIE (Hervé) et HUAN (Claude). « Lettres et notes de Darlan ». Editions Economica, Paris, 1992, (794 p).
- 127.CULMANN (Henri). *L'Union Française*. Presses Universitaires, 1950 (Coll. « Que Sais- je? », Paris, 1950, (135 p).
- 128.DAHMS (Helmut Gunther). *La deuxième guerre mondiale, traduit de l'allemand*. par : René Jouan, éditions Payot, Paris, 1961, (414 p).
- 129.DANAN (Yves Maxime). *La vie politique à Alger de 1940 à 1944*. Paris, L.G.D.J., 1963, (346 p).
- 130.DEBORINE (G). *La deuxième guerre mondiale étude politique et militaire*. Editions en langues étrangères, Moscou, s.d vers (1960), (523 p).
- 131.DE CHARBONNIERES (Girard). *Le duel Giraud- De Gaulle*. Plon éditions, Paris, 1984, (251p).
- 132.DE GAULLE (Charles). *Lettres, notes et carnets juin 1940 à juillet 1941, T1*. Plon, Paris, 1981, 521
- 133.DE GAULLE (Charles). *Lettres, notes et carnets juin 1940 à juillet 1941, T2*. Plon, Paris, 1981, (503 p).
- 134.DE LA GORCE (Paul-Marie). *Charles, de Gaulle Tome 1, 1890-1945*. Editions nouveau monde, Paris, 2013, (896 p).
- 135.DE LA GORCE (Paul-Marie). *Charles, de Gaulle, Tome 2, 1945-1970*. Editions nouveau monde, Paris, 2013, (800 p).
- 136.DE LA GORCE (Paul-Marie). *L'Empire écartelé 1936-1946, l'aventure coloniale de la France*. Denoël collection Paris, 1988, (511 P).
- 137.DELANOË (Guy). *Lyautey, Juin, Mohamed V fin d'un protectorat, T1*. Harmattan éditions, Paris, 1988.
- 138.DE PEYRE (André). *Administration des communes mixtes 1881- 1884*. Editions Jourdan, Alger, sd. (415 p).
- 139.DEROUCHE (Mohamed). *Le Scoutisme école du patriotisme*. ENAL-OPU, Alger, 1985, (267 p).
- 140.DJEGHLOUL (Abdelkader). *Eléments d'histoire culturelle Algérienne*. Collection patrimoine, ENAL, Alger, 1984, (244 p).
- 141.DRISS (Rachid). *Reflét d'un combat*. Institut supérieur d'histoire du mouvement national, Tunis, 1996, (323 p).
- 142.DROZ (Jacques). *Les causes de la première guerre mondiale, essai historiographie*. Editions du Seuil, Paris, 1973, (192 p).
- 143.DURAND (Yves). *Histoire de la seconde guerre mondiale*. Complexe Editions, Paris, 1997, (988 P).
- 144.DURAND (Yves). *La vie quotidienne des prisonniers de guerre dans les stalags, les oflags et les kommandos 1939-1945*. Hachette éditions, Paris, 1996, (306 p).
- 145.DUROSELLE (Jean Baptiste). *Histoire des relations internationales de 1919 à 1945 et de 1945 à nos jours, T1*. Editions Armand Colin,, Paris, 2001, (419 p).
- 146.DUROSELLE (Jean Baptiste). *L'Abime 1939-1945*. Imprimerie nationale, collection. « Politique étrangère de la France », Paris, 1982, (611 p).
- 147.ELGEY (Georgette). *Histoire de la IV^e République : La République des Contradictions 1951-1954*. Editions Arthème Fayard, Paris, 1968, édition augmentée 1993, (761 p).
- 148.EL MECHAT (Samya). *Tunisie, les chemins vers l'indépendance (1945-1956)*. L'Harmattan éditions, « coll.Histoire et perspectives Méditerranéennes », Paris, 1992, (273 p).
- 149.ETIENNE (Bruno). *Algérie, cultures et révolution*. Editions du Seuil, Paris, 1977, (332 p).
- 150.FAIVRE (Marion). *Le chemin du palais d'été, Alger 1942*. Réginex France, Paris, 1982, (310 p).

151. FAIVRE (Marion). *Nous avons tué Darlan*. Editions de la table ronde, Paris, 1975, (196 p).
152. FALIGOT (Roger) et KAUFFER (Rémi). *Le croissant et la croix gammée. Les secrets de l'alliance entre l'islam et le nazisme, d'Hitler à nos jours*. Albin Michel, Paris, 1990, (308 p).
153. FARES (Abderrahmane). *La cruelle vérité : l'Algérie de 1945 à l'indépendance*. Paris, Plon, 1982, (250 p).
154. FERRO (Marc). *Pétain*. Editions Fayard, Paris 1987, (790 p).
155. FONTAINE (Pierre). *Dossier secret de l'Afrique du Nord*. Editions les sept couleurs, Paris, 1995, (219 p).
156. GALLISSOT (René). *Algérie colonisée, Algérie Algérienne 1870-1962*. Editions Barzakh, Alger, 2007, (271 p).
157. GALLISSOT (René). *L'économie de l'Afrique du Nord*. Editions PUF, « coll. que sais-je? », Paris, 1964, (126 p).
158. GALLISSOT (René). *Le patronat européen au Maroc 1931-1942*. Editions techniques nord africaine, Rabat, 1964, (283 P).
159. GALLO (Max). *Une histoire de la 2^{ème} guerre mondiale, 1940, de l'Abime à l'espérance*. XO éditions, Paris, 2010, (280 p).
160. GALLO (Max). *Une histoire de la 2eme guerre mondiale, 1942 : le jour se lève*. XO éditions, Paris, 2011, (368 p).
161. HADHRI (Mohamed). *L'URSS et le Maghreb, de la révolution d'octobre à l'indépendance de l'Algérie 1917-1962*. Editions l'Harmattan, Paris, 1985, (211 p).
162. HARBI (Mohamed). *Le F.L.N : mirage et réalité des origines à la prise du pouvoir 1945-1962*. NAQD-ENAL, Alger, 1993, (440 p).
163. HARBI (Mohamed). *Une vie debout, Mémoires Politiques, Tome 1, 1945-1962*. Casbah éditions, Alger, 2001, (420 p).
164. HENNI (Ahmed). *La colonisation agraire et le sous-développement en Algérie*. SNED, Alger, 1981, (264 p).
165. HOISINGTON (William.A). *The Casablanca Connection French Colonial Policy 1936-1943*. University of North Carolina Press, 1984, (320 p).
166. IHADDADEN (Zahir). *Histoire de la Presse indigène en Algérie, des origines jusqu'en 1930*. ENAL, Alger, 1983, (410 p).
167. JACKEL (Eberhardt). *La France dans l'Europe d'Hitler*. Editions Fayard, Paris, 1968, (156 p).
168. JANSEN (Francis et Collette). *L'Algérie hors la loi*. ENAG éditions, collection SAD, Alger, 1993.
169. JAUFFRET (Jean Charles). *La guerre d'Algérie par les documents, T1, L'Avertissement 1943-1946*. Paris, 1990, (28 p).
170. JULIEN (Charles André). *Histoire de l'Algérie Contemporaine, Tome 1, La conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871*. 2^é éd. Paris, P.U.F, 1979, (588 p).
171. JULIEN (Charles André). *Histoire de l'Afrique du Nord des origines à 1830*. Editions Payot & Rivages, Paris, 2^{ème} éd., 1951-1969-1994, (866 p).
172. JULIEN (Charles André). *L'Afrique du nord en marche. Nationalisme Musulmans et Souveraineté Française*. 3^{ème} édition, Julliard éditions, 1972, (440 p).
173. JULIEN (Charles André). *Le Maroc face aux impérialismes 1415- 1956*. Editions. JA, Paris 1978, (550 p).
174. JULIEN (Claude). *L'empire Américain*. Editions Bernard Grasset, Paris, 1968, (534 p).
175. JURQUET (Jacques). *La révolution algérienne et le parti communiste français, Tome 3 le génocide colonialiste du Constantinois 1939-1945*. Paris, Éditions du centenaire, 1979, (446 p).
176. KADDACHE (Mahfoud). *Histoire du Nationalisme Algérien, 1919-1951, Question Nationale et Politique Algérienne, Tome 1*. S.N.E.D, Alger, 1981, (525 p).
177. KADDACHE (Mahfoud). *Histoire du Nationalisme Algérien, 1919-1951, Question Nationale et Politique Algérienne, Tome 2*. S.N.E.D, Alger, 1981, (1113 p).
178. KADDACHE (Mahfoud). *La vie politique à Alger de 1919 à 1939*. ENAG éditions, Alger, 2009, (390 p).
179. KADDACHE (Mahfoud) et GUENANECH (Mohamed). *L'Etoile nord africaine 1926-1937. Documents et témoignages pour servir à l'étude du nationalisme algérien*, OPU, Alger, 1984, (245p).
180. KADDACHE (Mahfoud) et SARRI (Djilali). *L'Algérie dans l'Histoire, la résistance politique (1900-1954)*. OPU, Alger, 1989, (283 p).
181. KASPI (André). *Franklin Roosevelt*. Editions Fayard, Paris, 1988, (647 p).
182. KASPI (André). *La mission de Jean Monnet à Alger mars-octobre 1943*. Publications de la Sorbonne, Université de Paris, Panthéon-Sorbonne, éditions Richelieu, Paris, 197, (241 p).
183. KENBIB (Mohamed). *Juifs et Musulmans au Maroc, 1859-1948*. Faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat, 1994, (756 p).

- 184.KHARCHI (Djamel). *Colonisation et Politique d'Assimilation en Algérie 1830-1962*. Casbah éditions. Alger, 2004, (574 p).
- 185.KIOUANE (Abderahmane). *Moments du Mouvement National, Textes et Positions*. Dahlab éd. Alger, 1999, (349 p).
- 186.KIOUANE (Abderahmane). *Aux Sources immédiates du 1^{er} novembre 1954, trois textes fondamentaux du PPA-MTLD*. Dahlab éd., Alger, 1996, (164 p).
- 187.KNIBIEHLER (Yvonne) et Al. *Des Français au Maroc, la présence et la mémoire 1912-1956*. Denoël collections, Paris, 1992, (412 P).
- 188.KRAIEM (Mohamed). *Nationalisme et syndicalisme en Tunisie 1918-1929*. Imprimerie de l'UGTT, Tunis, 1976, (691 p).
- 189.LACHERAF (Mustapha). *L'Algérie Nation et Société*. 2^e éditions, SNED, Alger, 1978, (346 p).
- 190.LACOSTE (Yves et Camille). *L'Etat du Maghreb*. Editions la découverte, Paris, 1991, (572 p).
- 191.LACOSTURE (Jean), *Charles De Gaulle le rebelle*, éditions du seuil, Paris, 1984, (878 p) in-8.
- 192.LACOUTURE (Jean). *Cinq hommes et la France*. Editions du Seuil, 1961, (371 p).
- 193.LACROIX-RIZ (André). *Les protectorats d'Afrique du Nord entre la France et Washington, du débarquement à l'indépendance. Maroc et Tunisie 1942-1956*. L'Harmattan éditions, « coll. Histoire et perspectives méditerranéenne », Paris, 1988, (262 p).
- 194.LAFFONT (Pierre). *Histoire de la France en Algérie*. Paris, Plon, 1980, (544 p).
- 195.LAUNAY (Michel). *Paysans Algériens : La Terre, Les Hommes, La Vigne*. Ed, du Seuil, Paris, 1963, (431 p).
- 196.LAUNAY (Michel). *Armistice de 1940*. PUF, Paris, 1972, (95 p).
- 197.LE COZ (Jean). *Le Rharb, fellahs et colons. Etude de géographie régionale*. C.U.R.S, Rabat, 1964, (1007 p).
- 198.LE GOYET (Pierre). *La campagne d'Italie 1943-1945, une victoire quasi inutile*. N.E.L, Paris, 1985, (240 p).
- 199.LEON (Pierre). *Histoire économique et sociale du Monde, guerres et crises 1914-1947, volume V*. Editions Armand Colin, Paris, 1977, (624 p).
- 200.LE TOURNEAU (Roger). *Evolution politique de l'Afrique du Nord Musulmane 1920-1961*. Editions Armand Colin, Paris, 1962, (504 p).
- 201.LE TOURNEAU (Roger). *Histoire du Maroc Moderne*. Publications de l'Université de Provence, Aix-Marseille 1, Aix en Provence, 1992, (344 p).
- 202.LEVISSE-TOUZE (Christine). *L'Afrique du Nord dans la guerre 1939-1945*. Editions Albin Michel, S.A, Paris, 1998, (467 p).
- 203.LIAUZU (Jean Claude). *Salariat et mouvement ouvrier en Tunisie crises et mutations 1931-1939*. Editions CNRS, Paris, 1978, (193 p).
- 204.LUGAN (Bernard). *Histoire du Maroc des origines à nos jours*. Critérium Histoire, Paris, In CDES, cote M70, 1992. (390 p).
- 205.MAHSAS (Ahmed). *Le mouvement révolutionnaire en Algérie : essai sur la formation du mouvement national (de la 1^{re} guerre mondiale à 1954*. Editions Barkat, Alger, 1990 (363 p).
- 206.MARSEILLE (Jacques). *Empire colonial et capitalismes français, histoire d'un divorce*. Albin Michel, collection « l'aventure humaine » Paris, 1984, (464 p).
- 207.MARTEL (André) et al. *Histoire militaire de la France de 1940 à nos jours, T4*. PUF, Paris, 1994, (701 p).
- 208.MARTIN (Claude). *Histoire de l'Algérie Française*. Editions des 4 fils Aymon, Paris, 1963, (508p).
- 209.MARTIN (Jean François). *Histoire de la Tunisie contemporaine de Ferry à Bourguiba 1881-1956*. L'Harmattan éditions, « collection histoire et perspectives méditerranéennes », Paris, 1993, (199 p).
- 210.MASSON (Jean Philippe). *Histoire de la marine, T2*. Lavauselle, Paris, 1983.
- 211.MASSON (Jean Philippe). *Une guerre totale 1939-1945*. Tallandier éditions Hachette, Paris, 1993, (642 p).
- 212.MAST (Emmanuel Charles). *Histoire d'une rébellion, 8 novembre 1942*. Le cercle du nouveau livre d'histoire, Paris, 1969, (416 p).
- 213.MECHIN (J.Benoist). *De la défaite au désastre, T2, L'espoir trahi, avril-novembre 1942*. Albin Michel, Paris, 1984, (475 p).
- 214.MEKHALED (Boucif). *Chronique d'un massacre, 8 mai 1945 : Sétif, Guelma, Kherrata*. Editions Syros, Paris, 1995, (256 p).
- 215.MELTON (E. Georges). *Darlan, Amiral et homme d'état français 1881-1942*. Editions Pygmalion, Paris, 2002, (351p).
- 216.MERAD (Ali). *Le Réformisme Musulmans en Algérie de 1925 à 1940, essai d'histoire religieuse et sociale*. Ed. Mouton, Paris, 1967, (475 p).

- 217.MESLI (Mohamed Elyes). *Les origines de la crise agricole en Algérie, du cantonnement de 1846 à la nationalisation de 1962*. Dahlab éditions, Alger, 1996, (258 p).
- 218.MESSALI (Hadj). *1898-1998, Parcours et Témoignages*. Ouvrage collectif dans la collection Réflexions dirigée par : Mustapha Madi, Casbah éditions, Alger, 1998, (246 p).
- 219.MEYNIER (Gilbert). *L'Algérie révélée, la guerre de 1914-1918 et le premier quart du siècle*. Editions Droz, Genève, 1981, (793 p).
- 220.MEYNIER (Gilbert). *Histoire intérieure du FLN 1954-1962*. Casbah éditions, Alger, 2003, (812 p).
221. MICHEL (Henry). *Pétain, Laval, Darlan, trois politiques ?*. Flammarion, in collection « Questions d'Histoire » Paris, 1972, (184 p).
- 222.MICHEL (Henry). *François Darlan*. Hachette éditions, Paris, 1993, (451 p).
- 223.MICKELSON (Martin). *Operation Susan, The origins of the free French Movement, military affairs*. Published for the American Military Institute by the department of history, Kansas State University, USA, volume 52, n° 4, October 1988.
- 224.MIQUEL (Pierre). *La seconde guerre mondiale 1939-1966*. Librairie Arthème Fayard, Paris, 1986, (645 p).
- 225.MOREAU (Jacques). *Les derniers jours de Darlan*. Editions Pygmalion, Paris, 1985, (292 p).
- 226.MURPHY (Robert). *Un diplomate parmi les guerriers*. Laffont éditions, Paris, 1965, (494 p).
- 227.NEVINS (Allan) and Co. *Pocket History of the United State*. Published by Pocket books, ninth revised edition (1992), (719 p).
- 228.
- 229.NOIN (Daniel). *La population rurale au Maroc, T2*. P.U.F, Paris, 1970, (342 p).
- 230.NOUSHI (André). *La Naissance du Nationalisme Algérien 1914-1954*. Editions de Minuit, Paris, 1962, (162 p).
- 231.NOUSHI (André). *L'Algérie Amère -1914-1994*. Editions de la maison des sciences, Paris, 1995, (349 p).
- 232.OUAGOUAG (Abdelkader). *Les grands procès, organisation secrète*. Editions Dahlab, Alger, 1992, (217 p).
- 233.PAILLAT (Claude). *L'Echiquier d'Alger, tome I, Avantage à Vichy, juin 1940-novembre 1942*. Robert Laffont, Paris, 1966, (414 p).
- 234.PAILLAT (Claude). *Vingt ans qui déchirèrent la France, le guépier, T1*. Editions Robert Laffont, Paris, , 1969, (631 p).
- 235.PAILLAT (Claude). *La France dans la guerre américaine 8 novembre 1942, 6 juin 1944, T7*. Robert Laffont éditions, Paris, 1989, (685 p).
- 236.PAXTON (Robert.O). *La France de Vichy 1940-1944*. Editions Le Seuil, Paris, 1997, (475 p).
- 237.PELLEGRIN (René). *La Phalange : La LVF en Tunisie 1942-1943*. Editions R.Pellegrin, Paris, 1973, (217 p).
- 238.PLANCHE (Jean louis). *Sétif 1945, Histoire d'un massacre annoncé*. Chihab éditions, 2006, (422 p).
- 239.PUJO (Bernard). *JUIN Marechal de France*. Albin Michel éditions, Paris, 1988, (415p).
- 240.RECHAM (Belkacem). *Les musulmans Algériens dans l'armée Française 1919-1945*. Editions l'Harmattan, Paris, 1996.(340 p).
- 241.REMOND (René). *Le XX^e Siècle de 1914 à nos jours*. Editions du Seuil, Paris, 1974, (290 p).
- 242.REMOND (René). *Notre siècle 1918-1995, tome 6*. Fayard, Paris, 1996, (1109 p).
- 243.REY-GOLDZEIGUER (Annie). *Aux origines de la guerre d'Algérie 1940-1945, de Mers el Kébir aux massacres du Nord Constantinois*. Casbah éditions, Alger, 2002, (411 p).
- 244.REY-GOLDZEIGUER (Annie). *Le royaume arabe, la politique Algérienne de Napoléon III, 1861-1870*. SNED, Alger, 1971, (700 p).
- 245.RIMBAUD (Christiane). *L'Affaire du Massilia, été 1940*. Editions le seuil, Paris, 1984. (254 p).
- 246.RIPERT (Pierre). *DE GAULLE*. Maxi-livres, Paris, 2004, (191 p).
- 247.RIVET (Daniel). *Le Maroc de Lyautey à Mohammed V, le double visage*. Editions Denoël, Paris, 1999, (461 p).
- 248.RIVET (Daniel). *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc 1912-1925, tome 3*. Editions l'Harmattan, Paris, 1988, (357 p).
- 249.ROBICHON (Jacques). *Jour J en Afrique "ce jour là"*. Editions Laffont, Paris, 1964, (389 p).
- 250.ROUSSO (Henri). *La collaboration, les noms, les thèmes, les lieux*. M.A éditions, Paris, 1987, (204 p).
- 251.SADOUN (Allal). *L'Algérie à la croisée des chemins*. Imprimerie Spéciale d'Alger Républicain, Alger, 1947. Tableaux de l'économie algérienne, Baconnier, Alger, 1958 (191 p), 1961, (248 p).
- 252.SADOUN (Allal). *La sécurité sociale, un impératif algérien*. Oran Républicain, Alger, 1948, (45 P).
- 253.SALINAS (Alfred). *Les Américains en Algérie 1942-1945*. Casbah éditions, Alger, 2014, (434 p).

- 254.SAMIR (Amin). *L'Economie du Maghreb, la colonisation et la décolonisation, Tome 1*. Editions de minuit, Paris, 1966, (574 p).
- 255.SAMIR (Amin). *Le Maghreb Moderne, grands documents*. Editions de Minuit, Paris, 1970, (243 p).
- 256.SARI (Djilali). *La Dépossession des Fellahs, 1830-1962*. SNED, Alger, 1975, (145 p).
- 257.SARRASIN (Paul Emile). *La Crise Algérienne*. Editions du Cerf, Paris, 1949, (248 p).
- 258.SCHMITT (Maurice). *Le double jeu du maréchal, légende ou réalité*. Presses de la cité, Paris, 1996, (344 p).
- 259.SEGHAIER (Amira Aleya). *La droite française en Tunisie entre 1934 et 1946*. Université de Manouba, Publications d'ISHMN, Tunis, 2004, (350, p).
- 260.SEHIMI (Mustapha) et les autres. *De Gaulle et le Maroc*. Editions Publisud / sochepress, Paris, 1990, (196 p).
- 261.SIMON (Jacques). *Messali Hadj 1898-1974, la passion de l'Algérie libre*. Tirésias éditions, Paris, 1998, (245 p).
- 262.SIMON (Jacques). *Messali Hadj par les textes*. EDIF, Alger, 2000, (294p).
- 263.SIVAN (Emmanuel). *Communisme et nationalisme en Algérie*. Presses de la fondation nationale des sciences politique, Paris, 1976, (261 p).
- 264.SPILLMANN (Georges). *Du protectorat à l'indépendance du Maroc 1912-1955*. Plon éditions, Paris, 1967, (245 p).
- 265.SPIVAK (Marcel) et LEONI (Armand). *Les forces françaises dans la lutte contre l'axe en Afrique, la campagne de Tunisie 1942-1943*. Ministère de la défense, Etat-major de l'Armée de terre, Service historique, 1985, (471p).
- 266.STORA (Benjamin). *Messali Hadj, pionnier du nationalisme algérien*. l'Harmattan, Paris, 1986, (306 p).
- 267.STORA (Benjamin). *Histoire de L'Algérie Coloniale 1830-1954*. ENAL-RAHMA, Alger, 1996, (127 p).
- 268.STORA (Benjamin). *Les Mémoires de Messali Hadj*. Lattès éd. Paris, 1982, (319 p).
- 269.STORA (Benjamin). *Dictionnaire biographique de militants Algériens, 1926-1954*. L'Harmattan, Paris, 1985, (404 p).
- 270.STORA (Benjamin). *Algérie histoire contemporaine 1830-1988*. Casbah éditions, Alger, 2004, (367p).
- 271.STORA (Benjamin). *Ils venaient d'Algérie*. Fayard éditions, Paris, 1992, (492 p).
- 272.STORA (Benjamin) et Daoud (Zakya). *Ferhat Abbas, une autre Algérie*. Casbah éditions, Alger, 1995, (429 P).
- 273.TALEB-BENDIAB (Abderrahim). *Chronologie des faits et mouvements sociaux et politique en Algérie, 1830-1954*. SNED, Alger, 1983, (132 p).
- 274.TAZEROUT (Mohand). *Histoire politique de l'Afrique du Nord*. Editions Alem El Afkar, Alger, 2012, (190 p).
- 275.THOBIE (Jacques), MEYNIER (Gilbert), COQUERY-VIDROVITCH (Catherine), AGERON (Charles Robert). *Histoire de la France coloniale 1914-1990*. Armand Colin, Paris, 1990, (654 p).
- 276.TIAB (Mohamed). *La chronologie Algérienne 1830-1962, TI, Alger*, 1999, (365 p).
- 277.TLILI (Béchir). *Crises et mutations dans le monde islamo-méditerranéen contemporain 1907-1918*. Publications de l'Université de Tunis, 1978, (538 p).
- 278.TROTSKY (Léon). *Sur la deuxième guerre mondiale*. Editions Le Seuil, Paris, 1974, (220 p).
- 279.VALETTE (Jacques). *La France et l'Afrique, l'Afrique française du Nord 1914-1962*. SEDES éditions, Paris, 1993, (501 p).
- 280.VATIN (Jean Claude). *L'Algérie Politique Histoire et Société*. Presse de la Fondation Nationale de Science Politique, Paris, 1974, (395 p) et éditions El Maarifa, Alger, 2010, (394 p).
- 281.VIARD (René). *La fin de l'Empire colonial français*. Editions Maisonneuve-Larose, Paris, 1963, (160 p).
- 282.YACONO (Xavier). *Histoire de l'Algérie de la fin de la régence turque à l'insurrection de 1954*. Editions de l'atlanthrope, Paris, 1993, (396 p).
- 283.YOUSFI (M'Hamed). *L'Algérie en marche, TI*. ENAL,Alger, sd, (165 p).
- 284.ZARTMAN (William). *Morocco, problems of new power*. Atherton Press, 1964, (276 p).

القسم الثالث: الأطروحات و المقالات

أولاً: الأطروحات

1. الأطروحات باللغة العربية

أ- رسائل الدكتوراه

1. بديدة (لزهري)، الحركة الديغولية في الجزائر 1940-1945 من الظهور إلى المواجهة مع الحركة الوطنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، الجزائر العاصمة، 2009-2010.
2. بن حويديقة (علي)، الحياة السياسية بمنطقة سيدي بلعباس من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى اندلاع الثورة التحريرية 1919-1954، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2008-2009.
3. خير فارس (محمد)، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939، رسالة دكتوراه.
4. ولد النبيه (كريم)، الجزائريون و الإدارة المحلية الاستعمارية في عمالة وهران 1866-1947، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2006.

ب- رسائل الماجستير

1. الأجنف (مانع)، المجندون المغاربة أثناء الحرب العالمية الأولى، رسالة ماجستير في الحديث و المعاصر، كلية الآداب و الفنون و الإنسانيات، قسم التاريخ، جامعة منوبة، تونس، 2006-2007. (323 ص).
2. الرحوي (محمد الطاهر)، محتشدا قفصة و القطار 1943-1946، رسالة ماجستير في تاريخ العالم المتوسطي و حضارته، جامعة منوبة، تونس، 2011-2012. (250 ص).
3. بلوفة (الجيلالي)، نشاط حزب الشعب الجزائري -حركة انتصار الحريات الديمقراطية في عمالة وهران 1939-1951، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2001، (320 ص).
4. ذويب (محمد)، المقاومة المسلحة و الخلاف اليوسفي- البورقيي بمنطقة أقصى الجنوب التونسي 1952-1956 من خلال المصادر الشفوية، رسالة ماجستير، جامعة منوبة، تونس، 2009-2010. (198 ص).
5. ولد النبيه (كريم)، الاستيطان و النظام الإداري المحلي في الجزائر، نموذج بلدية عين تموشنت المختلطة، رسالة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة وهران 2001، (278 ص).

ت- مذكرات الدراسات العليا

1. عبيد (أحمد)، أزمة الخمور بالجزائر و انعكاساتها الاجتماعية و السياسية، مذكرة شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 1977.
2. الغرياني (الأسد)، سياسة الحلفاء و المحور الدعائية تجاه البلاد التونسية نوفمبر 1938 إلى حدود 1944، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ المعاصر، جامعة منوبة ، تونس، 2004-2005. (217 ص).

2. الأطروحات باللغة الأجنبية

أ- رسائل الدكتوراه

1. ABID (Ahmed). *Mouvement syndical et luttes sociales en Oranie 1942-1951. Thèse de 3ème cycle en Histoire*, 2 tomes, Oran 1985.
2. BAITA (A.). *Essai sur l'Etat colonial au Maroc 1912-1956. Thèse d'Etat en Science Politiques*, Paris 10ème, 1986.
3. CATALA (Michel). *Les politiques françaises vis-à-vis de l'Espagne, rapprochement nécessaire, réconciliation impossible, janvier 1939- août 1944. Thèse de Doctorat en histoire nouveau régime* en Trois tomes, Nantes, 1995.
4. D'ABZAC (Claude). *L'armée de l'air de Vichy 1940-1944. Thèse de Doctorat nouveau régime*, Paris Panthéon Sorbonne, 1996.
5. DJEBBAR (Abdelhamid). *La question nationale et coloniale et mouvement communiste, le cas de l'Algérie. Le parti communiste et le mouvement nationaliste 1935-1956. Thèse de Doctorat en science politique*, Grenoble, 1975.
6. DU REAUX (Elisabeth). *Edouard Daladier et le problème de la sécurité de la France de 1933 à 1940. Thèse d'Etat*, Université de Paris 1, 1987.
7. ECHAOUI (Mohamed). *L'évolution de l'économie marocaine pendant la seconde guerre mondiale. 1939-1945. Thèse de Doctorat nouveau régime*, Nice, octobre 1994.
8. EL KORSO (Mohamed). *Politiques et religions en Algérie, L'Israh : ses structures et ses hommes, le cas de l'association des Uléma musulmans Algériens en Oranie 1931-1945. Thèse de Doctorat d'histoire*, 2 tomes, Paris 1989.
9. KADDACHE (Mahfoud). *La vie politique à Alger de 1919 à 1939. Thèse de 3ème cycle*, Toulouse 1968, imprimée par SNED, Alger, 1970.
10. LEVISSE-TOUZE (Christine). *L'AFN et la défense nationale française 1919-1939. Thèse de 3ème cycle*, université Le Mans, 1980.
11. LEVISSE-TOUZE (Christine). *L'AFN recours ou secours septembre 1939-février 1943. Thèse d'état*, Panthéon- Sorbonne, Paris 1, janvier 1991.
12. MEKHALED (Boucif). *Evènements du 8 mai 1945, Sétif, Guelma et Kherrata. Thèse de 3ème cycle*, Paris, 1989, publié en 1995.
13. MESBAH (Chafik). *Idéologie politique et mouvement national en Algérie, du projet partisan au projet de renaissance nationale. Thèse de Doctorat en Sciences Politiques*, Université d'Alger, 1981.
14. PLANCHE (Jean louis). *Antifascisme et anticolonialisme à Alger à l'époque du Front populaire et du congrès musulman 1934-1939. Thèse de 3ème cycle*, 2 T, Histoire, sous la direction de René Gallissot, unité d'enseignement et de recherche connaissance du tiers monde, université Paris VII, 1980.
15. TEGUIA (Mohamed). *L'Algérie en guerre. Thèse d'état*, O.P.U, Alger, 1981.

ب- رسائل الماجستير

1. P. (Michel). *Les Français au Maroc entre 1925-1955 face à la montée du nationalisme marocain. Thèse Magister en histoire*, Nice 1991

ت- مذكرات الدراسات العليا

1. ADAM (P). *La S.I.P Artisanale de Tlemcen*. Mémoire E.N.A 1940, In Bibliothèque Wilaya Oran.
2. DIEMERT (Jean Philippe). *Le syndicalisme en Algérie et plus particulièrement dans la région Oranaise*. Mémoire de maîtrise, Université de Paris, Sd.
3. GUERARD (Jérôme). *Vichy et Alger face au débarquement d'Afrique du Nord 8-13 novembre 1942*. Mémoire de maîtrise sous la direction de Jacques Barièty, 1986-1987, Université de Paris-IV, Sorbonne, UER d'histoire.

ثانيا: المقالات المنشورة في الدوريات

1. المقالات باللغة العربية

1. السليماني (أحمد الحسين)، « نزع الملكية العقارية للجزائريين 1830-1871 » . مجلة المصادر، العدد 6، مارس 2002، الجزائر.
2. بوسلامة (محمد) « دباغين هو صاحب فكرة البيان » مجلة المحقق، السلسلة الثانية ، العدد 26، من 10 إلى 16 سبتمبر 2006
3. سعد الله (أبو القاسم) : « الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين » ، مجلة الثقافة، السنة السادسة، عدد 31، فبراير-مارس 1976، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.
4. سعيدوني (نصر الدين)، « أحداث 8 ماي 1945 ذكرى تضحيات جسيمة و عبرة كفاح مرير » ، مجلة الذاكرة، العدد الثاني، 1995، منشورات م.و.م، الجزائر.
5. عياد (محمد)، « 8 ماي 1945 و حقوق الإنسان »، جريدة الشعب ، العدد 12224، الجزائر، 8 ماي 2000.
6. مجاود (محمد)، « مقاومة قبائل بني عامر في عصر الأمير عبد القادر » ، مجلة المصادر، العدد 9، السداسي الأول الجزائر، 2004.

2- المقالات باللغة الأجنبية

1. ABOULKER (José). « La part de la résistance dans les événements d'Afrique du Nord », in cahiers français, N°47, n° spécial intitulé : ' ، éditions de la France libre, Carlton Gardens, août 1943.
2. ABOULKER (Jose) et LEVISSE-TOUZE (Christine). « 8 novembre 1942 : Les armées Américaines et Anglaises prennent Alger en quinze heures ». In revue Espoir, n°113, année 2002.
3. AGERON (Charles Robert). « L'Opinion publique française pendant les crises internationales de septembre 1938 à juillet 1939 », in cahiers de l'institut d'histoire de la presse et de l'opinion, Paris, N°3. Paris, 1975.
4. AGERON (Charles Robert). « Contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la seconde guerre mondiale ». In cahiers de l'institut d'histoire de la presse et de l'opinion, n° 4, 1977.
5. AGERON (Charles Robert). « Contribution à l'étude de la propagande allemande au Maghreb pendant la seconde guerre mondiale ». In revue d'histoire maghrébine, N°7 et 8 du mois de janvier 1977, Tunis.
6. AGERON (Charles Robert). « Les populations du Maghreb face La propagande allemande au Maghreb pendant la 2^e guerre mondiale ». In revue d'histoire de la deuxième guerre mondiale, .
7. AGERON (Charles Robert). « Les populations du Maghreb face à La propagande allemande au Maghreb pendant la 2^e guerre mondiale ». In revue d'histoire de la deuxième guerre mondiale, n° 114, avril 1979.
8. AGERON (Charles Robert). « Les colonies françaises devant l'opinion public 1919-1939 ». In Cahiers de l'Institut d'Histoire de la presse et de l'opinion, n°1, année 1972-1973.

9. AGERON (Charles Robert). « Les troubles du Nord constantinois en mai 1945, une tentative insurrectionnel ». In revue Vingtième siècle, n° 4, octobre 1984.
10. ALEXANDRE (François). « Le PCA de 1919 à 1939, données en vue d'éclaircir son action et son rôle ». In R.A.S.J.E.P., n° 04, Alger, 1974.
11. ALLAIN (Jean Claude). « Les emprunts d'Etat Marocains avant 1939 ». In les chemins de la décolonisation de l'empire Français 1936-1956. Editions du CRNS, Paris, 1986.
12. APPEL D'UN MILITANT DU PPA, « Ouvrier émigré aux intellectuels ». In journal El Ouma, mars 1939.
13. BERARD (René). « Historique des événements de 1940 a 1942 ». In revue Algérieniste, N°60, du mois de décembre 1992.
14. BESSIS (Juliette). « L'Opposition France-Etats-unis au Maghreb, de la deuxième guerre mondiale jusqu'à l'indépendance des protectorats 1941-1956 ». In les chemins de la décolonisation de l'empire colonial français, éditions du CNRS, Paris, 1986.
15. CASTEX (Raoul). « L'Afrique du Nord et la stratégie française ». In revue de défense nationale, Paris, mai 1952.
16. CHARBONNEAU (Pierre) et KOCHER (G.). « La médecine préventive au Maroc ». In Bulletin économique et social du Maroc, vol. XIX, n°67, 1955.
17. CLIFTON (Daniel). « Tunisian Nationalists Charge Suppression Of Their Movement by French Military ». In New York Times, September 3, 1946.
18. COLLINET (Michel). « Le Saint Simonisme et l'armée ». In revue Française de sociologie, n° 01, 2ème année, Janv.-Mars 1961.
19. COUTAU-BEGARIE (Hervé) et HUAN (Claude). « Mers El-Kébir 1940, la rupture franco-britannique ». Economica, Paris, 1995.
20. DU REAUX (Elisabeth). « Enjeux stratégiques », in revue Relations internationales, n° 35, 1983.
21. FLORY (André). « La notion du protectorat et son évolution en Afrique du Nord » In R.J.P.U.F., 1954.
22. FONTANILLE (Henry). « Le nouveau statut viticole et la viticulture algérienne ». In Questions Nord-africaine, Juin 1935.
23. FONTANILLE (Henry). « Situation économique des départements Algériens ». In Dépêche Oranaise, N° 8273, 1936.
24. GADILLE (Jacques). « La colonisation officielle au Maroc ». In les Cahiers d'Outre-mer, N°32, des mois d'octobre et novembre 1955.
25. GUYOT (Jean-Clair). « La Vie au Maroc en 1942 ». In revue L'Illustration, n°5168, du 28 mars 1942.
26. HADJ-SADDOK (M.). « La guerre de 1939-1940 selon un soldat poète algérien ». In Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, N°15/16.
27. HARDY (Georges). « Le problème scolaire en Algérie ». In bulletin du comité de l'Afrique française, N° 8 et 9 des mois d'aout-septembre 1937.
28. HAUCHECORNE (François). « L'Union Française, espoir d'hier, déception d'aujourd'hui, réalité de demain ». In Consciences Algériennes, Fév.-Mars 1951.
29. HERELLE (Sophie). « L'Afrique du nord et la guerre ». In revue Afrique Française, oct.-nov., 1939.
30. HOFFHERR (René). « La France méditerranéenne et africaine, 1938 », l'article : « L'économie de l'Afrique du Nord et de l'empire français », in Bulletin d'études économiques et sociales.
31. KADDACHE (Mahfoud). « L'opinion musulmane en Algérie et l'administration française 1939-1942 », in revue d'Histoire de la seconde guerre mondiale, n° 114, 1979.
32. KADDACHE (Mahfoud). « La question nationale algérienne et le parti communiste entre 1919-1939 ». In R.H.C.M., N° 02, Janvier 1967.
33. KADIRI (Abou Bekr). *Interview*. In Opinion, quotidien d'information du Parti Istiqlal, N°, du 11 janvier 1991.
34. KOERNER (Francis). « Le mouvement nationaliste algérien novembre 1942-mai 1945 ». In Revue d'Histoire de la Deuxième Guerre Mondiale, n° 93, 1974.
35. KOLLEWLJN (R.D). « Le mouvement nationaliste et la situation de L'Algérie de 1940 à aujourd'hui ». In Revue Oriente Moderno, numéro du mois de novembre 1954.
36. KRAIEM (Mustapha). In revue tunisienne des sciences sociales, Tunis, avril 1975.
37. KRAUTKRAMER (Elmar). « Vichy 1940, le chemin de la France au tournant de la guerre Alger 1942 », Economica, Paris, 1992.
38. LE SOUEF (Pierre). « La campagne de Tunisie ». In Dictionnaire de la seconde guerre mondiale, 1939-1945, T2,
39. LEVY (Cl). « L'organisation de la propagande Allemande en France ». Revue d'histoire de la 2ème guerre mondiale, N° 64, octobre, 1966.

40. MAST (Charles) et LIDDELL (Basil Hart). « Le point de vue français ». In Historia magazine, N-4, Paris, septembre 1968.
41. MERGLEN (Albert), « La France pouvait continuer la guerre en Afrique française du Nord en juin 1940 », in bulletin de l'institut d'histoire des relations internationales contemporaines, n° 16, du mois de juin, 1991-1992.(sources allemandes).
42. MEYNIER (Gilbert), « Les Algériens en France 1914-1918 ». In Revue d'Histoire Maghrébine, n° 5, janvier 1976, Tunis.
43. MONCHICOURT (Charles). « Le statut des Italiens de Tunisie II ». In Questions-Nord-Africaines, N°4, du 25/11/1935.
44. NOGUES (A.P. Charles Albert). « Discours devant les sections marocaine et française du conseil du Gouvernement le 27 décembre 1939 ». In Bulletin de l'Afrique Française., N° 1420 du 12 janvier 1940.
45. NOUSCHI (André). « Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919 », In revue RASJEP, n° 21, 1974.
46. PASQUIER-BRONDE (Louis). « Le paysannat en Algérie » In Questions Nord-africaine, N° 14, du 25/05/1939.
47. PESCHANSKY (Denis). « Les camps français d'internement ». in revue L'Histoire, n° 129, janvier 1990.
48. PESLE (O). « Pour une politique de contact entre la France et les indigènes.. ». In revue Q.N.A, N° 4 du 25 novembre 1935.
49. PRENANT (André). « La propriété foncière des citadins dans les régions de Tlemcen et Sidi Bel Abbès ». In revue Annales Algériennes de géographie, N° 03, 2^{ème} année, 1967.
50. QUOC DINH (Nguyễn). « La question de l'état associé d'après la constitution » In R.J.P.U.F, 1951.
51. REIBELL (Charles). « la vérité sur les origines du débarquement allié en Afrique du Nord ». In fascicule classé in IREMAM.
52. REY-GOLDZEIGUER (Annie). « L'occupation Germano-italienne de la Tunisie, un tournant dans la vie politique tunisienne ». In les chemins de la décolonisation de l'empire français 1936-1956, IHTP, octobre 1984.
53. RIVET (Daniel). « La recrudescence des épidémies au Maroc durant la seconde guerre mondiale, essai de mesure et d'interprétation ». In revue Hesperis, volume 30, fascicule I, Paris, 1992.
54. ROLLAND (Denis). « Vichy et ses réfugiés espagnols.. », in revue du Vingtième siècle, n° 11, juillet-sept 1986.
55. SCHMIT (Maurice), « Le général Juin et le débarquement en AFN », in revue d'Histoire de la deuxième guerre mondiale, n° 44.
56. VARILLON (Pierre). « Mers-El-Kébir II ». In Revue des deux mondes, numéro du 15 Mai 1949.
57. VIARD (Paul Emile). « Deux retouches au statut de l'indigène algérien ». In Questions Nord-africaines, N°13, Janvier 1939, et N° 15, Juin 1939.
58. VIBERT (Jean). « Tableau de l'économie Tunisienne ». In bulletin économique et social de la Tunisie, n° 6, 4^{ème} trimestre, année 1955.
59. VIDROVITCH (Coquery). « Vichy et l'industrialisation des colonies », in revue d'Histoire de la seconde guerre mondiale, n° 114, avril 1979.
60. ZENATI (Rabah). « Le problème algérien vu par un indigène ». In Revue de l'Afrique Française, Paris, 1938.

ثالثا: مقالات الملتقيات باللغة العربية

1. المتزكي (نوال)، الأحزاب الوطنية المغاربية و مكتب المغرب بالقاهرة، جيش التحرير المغاربي، فعاليات ملتقى مؤسسة أحمد بوضياف، 12 و 11 ماي 2001، الجزائر.
2. فراح (رشيد)، « تأسيس الملكية الفردية و آثارها في تحطيم البنية الاجتماعية التقليدية ». الملتقى الوطني الثاني حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، يومي 12 و 13 نوفمبر 2006.

3. عبيد (أحمد)، "صورة من صور مقاومة أهل سيدي بلعباس للاستعمار الفرنسي"، الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس، 12-13 نوفمبر 2001، جامعة الجليلي ليايس، سيدي بلعباس.
4. مجاود (محمد)، «منطقة سيدي بلعباس قرن من الاستيطان الاستعماري»، في الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس، 1830-1954، نوفمبر 2001، مكتبة الرشاد للطباعة و النشر، سيدي بلعباس.

رابعاً: مقالات الملتقيات باللغة الأجنبية

1. AGERON (Charles Robert). « Les chemins de la décolonisation de l'empire français 1936-1956 ». In colloque organisé par l'I.H.T.P, les 4 et 5 octobre 1984, éditions du CNRS, Paris, 1986, (564 P).
2. BESSIS (Juliette). « La question tunisienne dans l'évolution des relations franco-italiennes ». Colloque international organisé par l'institut des études politiques internationales de Milan en 1981.
3. DELMAS (Jean). « La perception de la puissance militaire française ». In actes du colloque international de Sèvres, du 14 au 18 avril 1982, publiés en 1984, aux publications de la Sorbonne.
4. GUILLEN (Pierre). « Les relations franco-italiennes.. ». In colloque international du 26 au 30 septembre 1989 à Paris.
5. -HILLGRUBER (M.A). « La politique et la stratégie de Hitler dans le bassin méditerranéen ». In colloque international sous le titre : 'La guerre en Méditerranée 1939-1945 », Editions du CNRS, 1971.
6. KEHRIG (Manfred). « Le point de vue Allemand ». Colloque international sous le titre : 'Les armées françaises pendant la seconde guerre mondiale 1939-1945.
7. KRAUTKRAMER (Elmar). « La France et l'Allemagne en guerre, septembre 1939-novembre 1942 », voir « Zur effizienz der kontrollinspektion Afrika (KIA) ». In colloque de Wiesbaden tenu les 17-18 et 19 mars 1988.
8. LEVISSE (Touzé Christine). « La poursuite de la guerre en Afrique du Nord ». In Colloque international sous le titre : 'Les armées françaises pendant la seconde guerre mondiale 1939-1945 », tenu à l'école navale supérieure des techniques avancées, Paris du 7 au 10 mai 1985, actes du colloque publiés en 1986.
9. MASSON (Jean Philippe). « La marine française et la stratégie alliée 1938-1939 ». In Colloque franco-allemand, Bonn, septembre 1978.
10. VINCENT (Jean Noël). « Les armées françaises pendant la seconde guerre mondiale 1939-1945 » In colloque international de l'Institut des Conflits Contemporains, Paris, du 7 au 10 mai 1985

خامساً: المجلات

1. Les Cahiers de l'institut de la presse et de l'opinion, N°03.
2. Les cahiers Français, Numéro spécial aout 1943.
3. Mémoires et Citoyenneté, N°34, éditions Ministère de la Défense, Paris, s.d.
4. Revue Afrique française, mai 1938.
5. Revue Algérienne des Sciences Juridiques, économiques et politiques, Alger, 1974.
6. Revue de Défense Nationale, 1952.
7. Revues d'Histoire de la 2ème guerre mondiale, 1965- 1966-1967-1970-1972- 1973-1976.
8. Revues d'Histoire de la 2ème guerre mondiale N°57, Janvier 1965, numéro spécial.
9. Revue d'Histoire moderne et contemporaine.
10. Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb.
11. Revue des deux Mondes, 1949.
12. Revue française de sociologie. Janv.-Mars 1961
13. Revue Histoire, n° 129, janvier 1990.

14. Revue Histoire Maghrébine, 1976-1977.
15. Revue Indigène 1927- 1930.
16. Revue Indigène N°258-259, juillet-Août 1930
17. Revue les actualités françaises, du 31 décembre 1942 et du 19 mars 1943, 1944
18. Revue Militaria, numéro 28, hors-série, du 5 mars 1998
19. Revue Questions Nord-africaine, 1935-1936-1938-1939.
20. Revue tunisienne des sciences sociales, Tunis, avril 1975.
21. Revue R.O.M.M, N° 15-16.

سادسا: الموسوعات

1. القاموس الفرنسي العربي، للدكتور: سهيل إدريس، دار الآداب، بيروت، 2005
2. **Dictionnaire** encyclopédique Petit Larousse illustré 1984, librairie Larousse, Paris, 1980
3. **Encyclopédie** coloniale et maritime, Algérie et Sahara, Maroc et Tunisie, sous la direction d'Eugène Guernier, éditions encyclopédiques, Paris, 1947.
4. **Encyclopédie** coloniale et maritime, Algérie et Sahara, Maroc et Tunisie, sous la direction d'Eugène Guernier, éditions encyclopédiques, numéro spécial du Maroc, Paris, 1948.

سابعاً: المواقع الإلكترونية

1. <http://www.historyofwar.org/articles/people—pound-dudley.html>
2. http://www.fr.wikipedia.org/wiki/liste_des_gouverneurs_d'Algérie
3. <http://www.academie-francaise.fr-lesimmortels>
4. <http://www.les clés du moyen orient.com/Chekib-Arslan.html>
5. <http://www.citoyens des deux rives.eu/index.php>.
6. <http://emirabdelkrim.unblog.fr/biographie/>
7. www.universalis.fr/encyclopedie/Mohamed-allal-el-fassi
8. www.encyclopedie bsditions.fr/biographie.php
9. www.monde-diplomatique.fr/mav/86/PIRONET/14101
10. www.mawsoah.net/gae/theme 4/rights-logo.gif

فهرس الأعلام

- أ -

أبريال: 360
أبو الكير جوزي: 199-
أبو شعيب الدكالي: 20
أجرون ش. روبر: 369-384-389-390.
أرسلان شكيب: 34-43-105-109-
أستي دي لافيحري: 196-199.
أسنسيون (الجنرال): 75
أشياري: 192-193.
أغسطين برنارد: 27
أغاييف أحمد: 43
ألنش جواكيم: 190
أندرسن: 191
أيرونساييد: 81
إيثيان أوجان: 27
إيزنخاور دوايت: 189-195-196-197-
200-209-211-217-233-236-
256-290
إيستيفا (جنرال): 225-228-230-241-
253-428
الأب تيري: 202-206.
الأفغاني جمال الدين: 40
الأمير خالد: 15-18-56
الإبراهيمي البشير: 131-139-258-301
ابن باديس: 18-56
الباروني: 43
النبسي العربي: 289-290.
الجالوي: 331
الخطابي عبد الكريم: 34-37-38-49-
51-52-56-401.
السنوسي محمد: 40
الشاذلي خير الدين: 51
الفعالي: 41-42-43-44-
الفاسي علل: 54-330
الفيلاي عبد الله: 16
العقي: 19-129-273
الورثاني فضيل: 20-330-258-304
المدي توفيق: 23-289-290

الماطري: 44-45-

المنحي سليم: 46-110-

- ب -

بالفراج: 109-313-314-315-318
باتون (جنرال): 191-210-238-261-262-311
بوانكاري ريدموند: 12
بن أشنهو عبد اللطيف: 405.
بن قانة (شيخ العرب): 267
بن كحول: 19-26
بن قحامي: 21
بن جللول: 21-26-92-127-271-290
بن يوسف صلاح (تونس): 86-328-329
بن يوسف محمد (الملك): 35-94-209-211-251-
315-317-320-331-
بلحاج: 21
بلوم ليون: 25-52-138-
بوخرت بن علي: 93-108-
بودوين بول: 123-124-125-
بوجار: 346.
بومنجل: 290
بورذ بول: 27.
بورفية الحبيب: 45-46-55-110-138-254-
255-256-310-321-322-323-324-326-
327-328-329-331-425.
بوكوشة: 20
بونسي فرانسوا: 65-103-141-
بونني دي لاشابال: 278
بيتان (المارشال): 71-72-73-83-114-121-125-
129-134-137-139-140-143-146-147-
188-191-192-194-203-206--215-216-
221-222-228-230-238-241-243-247-
248-276-277-290-291-422.
بيرك أغسطين: 290-294
بيرك جاك: 332-333-357-
بيروتون: 48-69-289-290-295-296-322-327-
332-333-337-
بيغيدر: 70

برانجي: 38-

بيشون ستيفان: 41-

- ت -

تشرشل ونسطن: 81-82-83-84-
115-121-122-142-185-
187-194-251-276-277-
278-280-311
تمزالي: 290
توستان: 202-206.

- ث -

ثامر الحبيب: 53-111-139-

- ج -

جاويش: 41-43
جورج (الجنرال): 66-77
جوردان: 70
جوليان: 302-311
جوان ألفونس (جنرال): 199-201-
215-238-239-241-250-
251
جوس: 192-193-197-199.
جيرو (جنرال): 188-189-194-
195-198-209-214-221-
225-226-227-235-238-
241-251-253-278-279-
290-292-294-295-311-
326-333

- ح -

حانية محمد: 4-43-
حانية علي: 42-43-44-

-ق-

قاسطون دومرغ: 23-24
قمبينا ليون: 27-
لاموريسيار: 79-213
ليون: 182-
لورمال: 94-

-ك-

كاستكس راؤول (أميرال): 62
كاميون جول: 23
كاترو (حاكم عام): 187-292-298
337-333-303-299
كاركاسون روجي: 202-207.
كريميو: 41
كلارك كولين: 261-439-283.
كلارك ويليام مارك: 197-200-202.
كيتولي: 421.

-ل-

لابون إيريك: 96
لافال بيار: 65-124-215-228
245-
لافيجري: 19
لاكروا: 369
لوبران ألبرت (رئيس): 88
لوبو جورج: 86-89-134-
لومقر ديروي: 192-193-196-
198.
لوني: 368-371.
ليوئي: 28-30-31-32-37-147-
403-401
لوسيان سان: 35

-م-

مارل بول: 383.
ماركس كارل: 295
ماست (جنرال): 194-255-336-
ماك ماهون: 382.
محمد علي: 47-48-270
مخود الثاني: 270
مختار الجزائري (الأمير): 304-330-
مصالي الحاج: 16-25-51-52-
129-130-205-221-258-
289-292-296-297-301-
مكوار أحمد: 56

-س-

ستالين: 185
سعد الله: 13-127-
سعدان (الرائد): 290-302
سوستيل جلك: 138-
سيرا جون: 384-385.
سايج عبد القادر: 290-297-298-299-301

-ش-

شاتال إيف: 289
شاتيو إيف: 304-305
شاربي جون بول: 368.
شوفالي لويس: 434.
شوطان كاميل: 11-
شيانو (الكونت): 65-110-123-141-142-190

-ص-

صفر البشير: 41
شنغهاي: 36-
الشلف: 141-
شتتوف: 155-

-ط-

طوريس عبد الخالق: 71

-ع-

عبد الحفيظ: 28-29-
عبيده محمد: 40
عسلة حسين: 290

-غ-

غاملين موريس: 68-70-121-122
غيوم الثاني: 67

-ف-

فافل أرشيبالد: 86
فرانكو (الجنرال): 65-67-71--72-73-74-75-
فرحات عباس: 26-92-127-201-220-245-248-
249-258-286-287-288-289-290-291-
292-293-294-295-296-297-298-299-
300-301-307-327-374
فون شتولبناغل: 139-144-
فيري جول: 389.
فيوليت موريس: 25

حشاد فرحات: 255-
حمو حاج: 24
حسين محمد الأخضر: 330

-خ-

خوجة حمدان: 10

-د-

دارلان فرانسوا (أميرال): 63-66-67-77-
79-80-82-116-189-199-200-
201-214-215-216-221-223-
235-241-277-278-279-
287-294-443.
ديباغين ليامين: 220-290-293-
ديبارمي: 24-
ديغول شارل (الجنرال): 83-84-85-114-
115-116-117-118-120-121-
123-126-137-140-143-145-
146-187-188-192-193-194-
195-196-199-202-209-211-
216-217-222-223-226-227-
235-247-251-253-254-276-
277-278-280-284-292-296-
298-301-302-311-315-333-
335-336-337-338-339-342-
دلاديه إدوار: 63-66-77-78-87-88-
100-119-121-123-
دلكاسي ثيوفيل: 27

-ر-

راجف بالقاسم: 107-109-
ريقتو: 28
ريقولت: 192-193.
رينود بول: 73-78-86-121-123-
124-137-142-276-277-
روزفلت فرانكلين (الرئيس): 86-142-185-
187-188-195-196-204-209-
234-239-246-249-251-252-
278-280-286-288-311-312-
رومل إروين: 185-189-190-232-
234-236-237-
رينتروب: 109-111-190
مكي الناصري: 71

مورتي روبر: 186-192-193-196-
 197-198-246-247-249-250-
 275-281-291-292-294-295-
 موسوليني: 60-64-65-66-76-82-
 112-123-138-
 141-142-
 مولاي حفيظ: 31-
 مولاي يوسف: 29-
 مونقومي: 185-189-226-230-
 ميشلان: 11-
 منداس فرانس بيار: 277-327-328-
 منصف أحمد (الباي): 139-253-254-

-ن-

نابليون الثالث: 9-10
 نابليون بونابرت: 30-381.
 نوقس (الجنرال): 60-63-67-69-71-
 72-73-74-75-76-78-81-84-
 85-95-96-135-137-138-141-
 145-148-209-210-211-214-
 241-250-252-261-277-311-
 312-313-315--409-414-423-
 443.

-ه-

هانوتو قابريال: 27
 هتلر أدولف: 60-61-67-73-74-85-
 102-105-106-107-108-109-
 110-112-120-125-185-188-
 222--231-241-242--307.
 هدام محمد: 354.

-و-

ولسن (الرئيس): 4-14-44-246-285
 ويغان ماكسيم: 91-118-121-122-
 124-194-242-250-360-373-
 423-275-277-279-

